

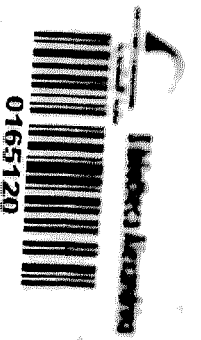
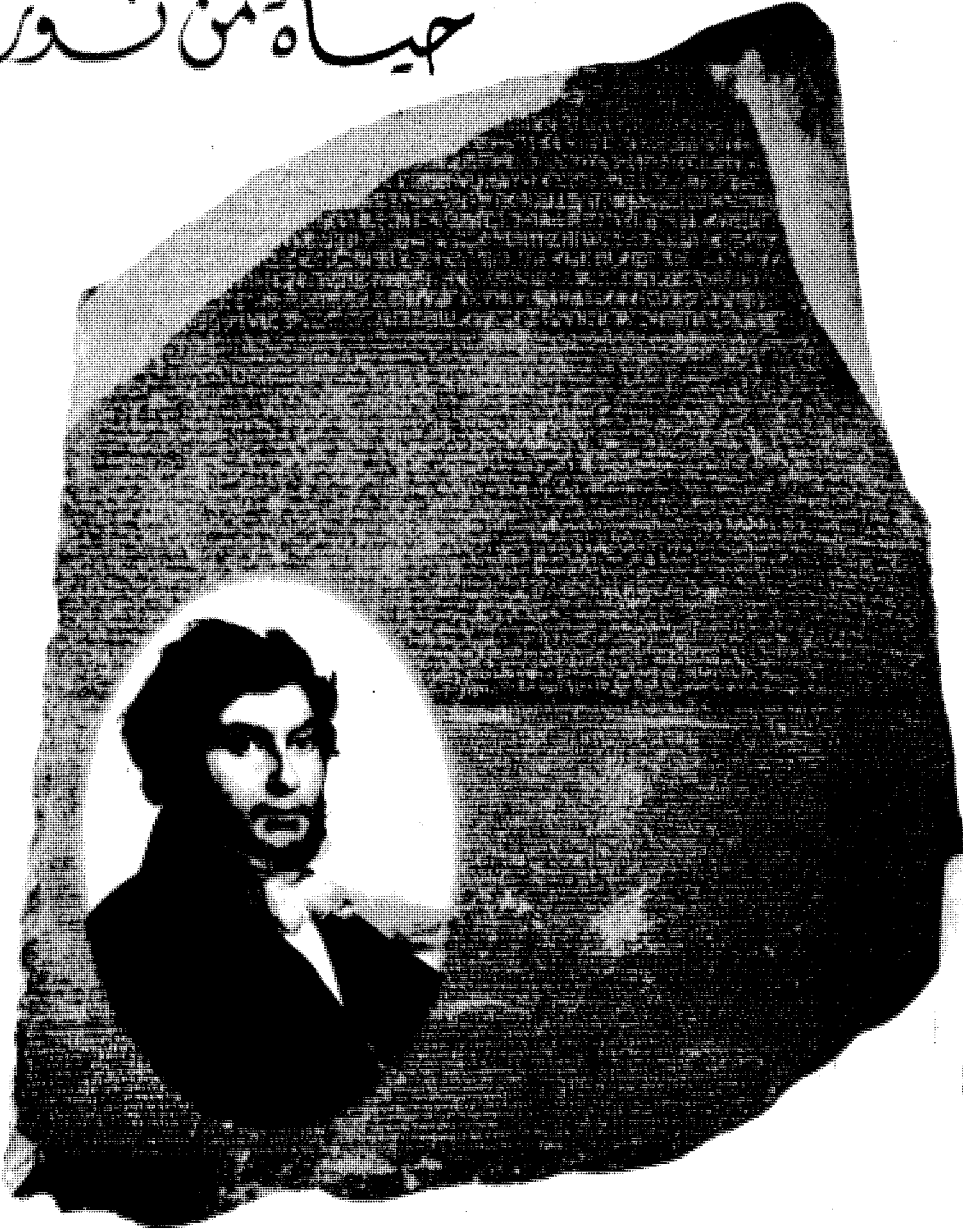
جان لاكوثير

شامبوليون

حياة من نور



المشروع القومي للترجمة



0165-120

Indaba Publishing

ترجمة وتقديم وتعليق: نبيل سعد

164

اهداعات ٢٠٠١

المهندس / محمد عبد السلام العمري

الإسكندرية

المشروع القومي للترجمة

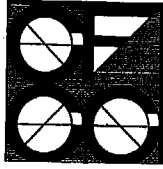
شامپوليون

حياة من نور

جان لاكوتير

ترجمة وتقديم وتعليق

نبيل سعد



المركز القومي للترجمة والنشر



JEAN LACOUTURE

CHAMPOLLION

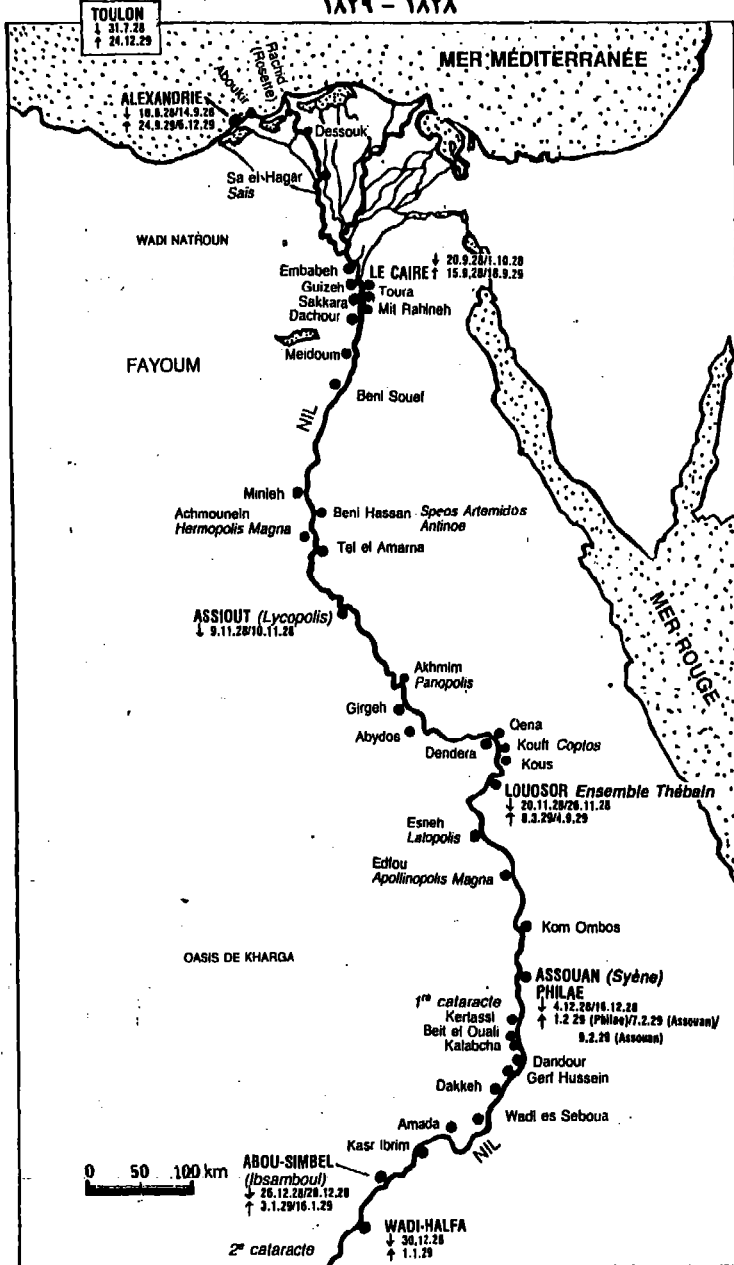
une vie de lumières

BERNARD GRASSET

PARIS

إهداء المترجم
إلى ابني ياسر

رحلة شامبوليون في مصر
١٨٢٩ - ١٨٢٨



تقديم

« ذاب في حب مصر »

إذا كانت صحف هذه الأيام تلهث وراء أخبار الأحداث السياسية ، فإن صحافة أوروبا كانت تهتم في القرن التاسع عشر بأبناء المواضع العلمية والأدبية في المقام الأول . وكانت أنباء حل لغز حرف هيروغليفى تحتل صدر الصفحات الأولى من صحف أوروبا كلها .

وكان اهتمامها عظيماً بنبا اكتشاف ضابط صغير فى سلاح المهندسين فى جيش بونابارت فى مصر (ملازم أول مهندس بيير بوشار) حجراً من البازلت الأسود من بين أطلال قلعة قديمة كان يقوم بترميمها فى مدينة رشيد . وكان الحجر قد نقشت عليه نصوص مكتوبة بثلاثة أنواع من الحروف : الإغريقية والديموطيقية (كتابة مصرية قديمة ، غير الهيروغليفية) والهيروغليفية ؛ ومنذ ذلك الحين (أغسطس ١٧٩٩) وحتى ٢٢ سبتمبر ١٨٢٢ عندما تمكن شامبوليون من موضوعه وكشف ألغاز الكتابة الهيروغليفية ظلت الأساطير المثقفة والعلمية فى جميع أنحاء العالم تتابع بشغف كبير أنباء حل اللغز الهيروغليفى ، فإذا ظن أحدهم أنه فهم معنى حرف أو حرفين اعتبر ذلك نصراً كبيراً . ولكن سرعان ما كان يتضح أن هذا النصر سابق لأوانه بل إنه زاد الأمور تعقيداً ؛ إلى أن توصل شامبوليون إلى إيجاد الحل الحقيقى .

فلم يكن اكتشاف شامبوليون الذى حدث عام ١٨٢٢ هو لحروف اللغة المصرية القديمة المقدسة فقط وإنما - وذلك هو الأهم - اكتشاف المنظومة المركبة التى تقوم عليها استخدامات الحروف الهيروغليفية .

الذى حدث بعد ذلك الاكتشاف هو أن جميع الصروح والمعابد المصرية القديمة والبرديات المنتشرة فى جميع أنحاء العالم راحت تتكلم . وكان بعض هذه الآثار قد نقله الرومان منذ أكثر من سبعة عشر قرناً عندما احتلوا مصر . ومثال ذلك المسلات التى تزين ميادين روما إلى يومنا هذا ، والبعض الآخر انتزع من جدران المعابد المصرية ومن المقابر الفرعونية ، وتم إخراجه من مصر ليكون متاحف فى بلدان العالم المختلفة . هذا بالطبع بخلاف الجامعات الخاصة بالأفراد ... كل هذه الآثار أخذت تتكلم فجأة وتبوح بما كانت تتكلم عليه لأكثر من ألف وسبعمائة عام .

ولكى نقدر أهمية ما اكتشفه شامبوليون يجب أن نعرف أن الكمبيوتر لم يتمكن من كشف ألغاز لغات قديمة أقل صعوبة من لغز الهيروغليفية .

إذا كان شامبوليون قد تمكن من الحل ، فذلك لأنه لم يتعامل معه بعقله فقط بل بقلبه أيضاً ، وهذا هو الجانب الأهم فى العملية كلها . وهذا هو ما أظهره جان لاكوثير فى هذا الكتاب .

وجان لاكوثير الذى نشر أكثر من خمسة وأربعين كتاباً حتى الآن أحب مصر هو أيضاً . عاش فيها كصحفى إبان قيام ثورة يوليو وعرف عبد الناصر عن قرب ، وألف عن مصر ثلاثة كتب بمفرده أو مع زوجته سيمون لاكوثير ، وهو دائم التردد عليها مرة على الأقل سنوياً . ويمكن القول إن لاكوثير لم يكن ليكتب مثل هذا الكتاب الرائع والدقيق والمشوق - تشويق الروايات البوليسية - لو لم يحب مصر مثلما أحبها شامبوليون .

شامبوليون عشق مصر .. بل يمكن أن نقول إنه «ذاب» فى حبها بالمعنى الكامل للكلمة . أى أنه فى تفانيه لها أعطاهم طاقته كلها وصحته وفكره ، ومات شاباً فى الثانية والأربعين من عمره . على الرغم من مظهره الجسدى القوي .

كتب لأخيه من مدينة الأقصر عندما زار مصر فى أواخر حياته ومكث بها نحو ثمانية عشر شهراً : «إن كيانى كله لمصر ، إنها كل شىء بالنسبة لى» .

حب جان - فرانسوا شامبوليون لمصر لم يكن مقصوراً على تاريخها وأثارها وإنما كان لشعبها أيضاً . ويقول جان لاكوثير : «نراه ، يهتم بسرعة كبيرة بهذا الشعب الوريث البعيد لتاريخ كله عظمة .. إلا أن حالته الحالية تؤثر فيه بعمق ... وكان لا يتحرج أثناء حياته اليومية فى صعيد مصر من تقديم نصائحه للفلاحين لكى يتقاربوا المضايقات التى كانوا يتعرضون لها من قبل السلطات المحلية أو لكى يتقاربوا تسديد بعض الضرائب المُجحفة على الرغم من أن ذلك لم يكن ليخفى عن عيون جواسيس الباشا .» (محمد على الكبير) كما أن شامبوليون قد عمل كل ما فى وسعه لدى الباشا لكى يحافظ على الآثار المصرية القديمة . إذ إن المعابد كانت تفكك فى تلك الفترة وتستخدم أحجارها فى تشييد المصانع وخاصة مصانع السكر . وعندما كتب شامبوليون مذكرة للباشا عن هذا الموضوع كان قد تم بالفعل تدمير ثلاثة عشر معبداً من أجمل المعابد وأكملها . قال له شامبوليون بدبلوماسية كبيرة «إنه من مصلحة مصر أن تعمل حكومة سموكم على الحفاظ الكامل على الصروح والمباني الأثرية الذى تسبب هدمها فى إثارة الأسى فى أوروبا كلها ، ويعلم الكافة بالطبع أن هذه العمليات التخريبية البربرية

تمت ضد رغباتكم السامية ونواياكم الطيبة المعروفة لدى الجميع وعلى يد حفنة من الأفراد لا يقدرّون الأضرار التي يسببونها للبلاد دون أن يكونوا على دراية بذلك ...» .

هذا الكتاب يلقي الضوء أيضاً على العلاقات التي كانت قائمة بين فرنسا ومصر في مرحلة من أهم مراحل تاريخها الحديث ؛ مرحلة بناء الدولة الحديثة على يد محمد علي ومحاولة تحويل مصر من ولاية تتبع الإمبراطورية «الخلافة» العثمانية إلى دولة مستقلة ذات سيادة . أصبحت هي ذاتها شبه إمبراطورية ممتدة الحدود والتأثير في العالم . وتتعرف من الكتاب على ما كان يدور في كواليس الحكم وعلى الدور الذي لعبه القناصل الأجانب للتأثير على والي مصر وقدرة محمد علي الفائقة على تحليل الأمور واتخاذ القرارات الصائبة في السياسة الدولية في ظل صراعات هائلة كانت تتصامم فيها مصالح القوتين العظميين في ذلك الوقت إنجلترا وفرنسا ، وفيما بينهما قوى أخرى مثل روسيا والنمسا ... يكفي أن نشير في هذا الصدد إلى أن محمد علي رفض تماماً حفر قناة السويس وقاوم كل الضغوط التي مارسها عليه الفرنسيون وعلى الأخص قنصلها الداهية دروفيتي الذي كان مقرباً جداً من الباشا ويعتبر من أهم مستشاريه وعلى الرغم من علماء فرنسا الذين تركوا بلادهم شباناً وجاءوا إلى مصر بعدما كفروا بالحياة في فرنسا وتطوعوا للعمل على نهضتها ، لأنها - فيما آمنوا به - كانت بالنسبة لهم أم حضارتهم . ومن هؤلاء السان سيمونيون وغيرهم ... وهم الذين ساعدوا الباشا في تشييد مصر الحديثة فاستغلهم في بناء المصانع وبناء السكك الحديدية (القناطر الخيرية و ... الخ) إلا أن الباشا ظل على رفضه ، لا يلين بالنسبة لحفر قناة السويس ؛ لأنه بنظره الثاقب تأكد أنها ستجلب على مصر المصائب والكوارث ؛ لأنها ستصبح عرضة للأطماع العالمية . فانتظر الطامعون وفاته إلى أن رضخ «سعيد» للضغوط وثبتت صحة تقديرات الباشا .

إذا كان الحديث عن تلك الفترة من الحياة السياسية المصرية مشوقة فإنها تصبح أكثر تشويقاً بقلم جان لاكوثير . فمن خلال الخلفية التي وضعها جان لاكوثير لأحداث حياة شامبوليون نشعر أنك في قلب عملية اتخاذ القرار سواء في مصر أو فرنسا وبلاد أخرى كثيرة .

كانت الفترة التي عاشها شامبوليون هامة بالنسبة لمصر وبالنسبة لأوروبا وفرنسا على وجه الخصوص ؛ إذ رأت صعود بوناپارت على أنقاض الثورة الفرنسية إلى أن أصبح الإمبراطور نابوليون وسقوطه وعودة الملكية ثم سقوطها .

وچان لاکوتیر مؤرخ دقیق بخلاف کونه ادیباً فذاً ، ویقول علی سبیل المثال عن نابولیون وما قام به فی مصر :

«إذا كانت الحملة (الفرنسية على مصر) تعتبر كارثة سياسية وعسكرية لوئتها أعمال مروعة لا يمكن وصفها وحصرها فإن بوناپارت - وقد كان عبقرياً فى أعمال البرویاجندا - نجح فى تحويلها إلى ملحمة ...» .

وفى مكان آخر یقول لاکوتیر : «لن نروى هنا أحداث المعارك التى دارت من الأول من يوليو ١٧٩٨ حتى الثانى من سبتمبر ١٨٠١ التى أدت - مروراً بانتصارات كبيرة - إلى كوارث عظيمة .. حتى الانسحاب فى السر للجنرال القائد العام ثم الرحيل المخزى لما تبقى من قوات الحملة - (أربعون فى المائة بین قتلى ومفقودین) على ظهر سفن الأسطول البريطانى كان الفشل ذريعاً والخسائر فادحة والمحصلة النهائية كئيبة» .

سعة ثقافة وعلم وحياد المؤلف تجعله يضع الأمور فى إطارها الواسع (الصراعات العالمية الدائرة فى تلك الحقبة التاريخية المهمة) ثم فى إطار أقل اتساعاً (فرنسا ، إنجلترا ، تركيا ، مصر ...) ثم فى مدن تجرى فيها أحداث الكتاب : الإسكندرية القاهرة - باريس - جرونویل - الأقصر - تورينو - فيينا - لندن الخ .

ثم تضيق العدسة وتقترب أكثر فأكثر من المركز لترى الأفراد فى منازلهم ، وتتعرف على أثاث بيوتهم والروائح الصادرة من مطابخها ، وتطل من نوافذها على شوارعها بمحلاتها التجارية وهكذا .. كل ذلك يضيف على القراءة متعة الفهم العميق لما يجرى من أحداث . مثال ذلك ما ينقله لاکوتیر من خطاب لشامبولىون لأخيه الأكبر عن باريس بعد أن رآها لأول مرة وهو فى السابعة عشرة من عمره . « المناطق المحيطة بباريس بدت لى قبيحة لدرجة مقززة .. خيبة أملی بسبب اكتشافى أن باريس ليست جميلة جعل معدتى تضطرب .. أوحال شوارع باريس (...) ورؤية هذا الكم الهائل من الناس المشغولين يمررون بسرعة داخل مركباتهم الجميلة ... كل ذلك جعلنى أشعر بحزن عميق ...» .

لم يكن شامبولىون يحب باريس ، وكان يسميها «عاصمة فرنسا القذرة» ، وظل على رأيه هذا إلى أن توفى ، أما رأيه عن القاهرة فهو مختلف تماماً .. سحرته فأحبها ، وبهرته فأنشاد بها ، وكتب إلى أخيه بعد أن زارها ومكث بها عدة شهور : «قالوا أشياء سيئة كثيرة عن القاهرة ، أما أنا فسعيد جداً فيها ، إن شوارعها التى يبلغ عرضها

من ثمانية إلى عشرة أقدام تبو لى محسوبة بعناية تامة لتفادى تأثير درجات الحرارة المرتفعة جداً . ورغم أنها مرصوفة فهي نظيفة لدرجة تثير الإعجاب (...) باريس وهي فى قمة أناقته أكثر قذارة منها . »

بفضل اكتشاف شامبوليون عادت مصر القديمة تتحدث عن نفسها فتم التواصل بين العصور القديمة والحديثة لتاريخها الذى ظل مبتوراً عنها لأكثر من سبعة عشر قرناً ، وتواكب هذا الاتصال بين المراحل التاريخية مع بداية بناء مصر الحديثة على يد محمد على الكبير .

سعة ثقافة وعلم جان لاكوثير وفهمه العميق للشأن المصرى أضافت الكثير لأهمية ما قام به شامبوليون .

نبيل سعد

١٩٩٩ - القاهرة

تمهيد

وميض هائل من نور صامت

« سيجى يوم يظهر فيه أن المصريين قد
مجدوا آلهتهم بلا طائل . هذه الأرض عظيمة
القدسية ، وطن-الأهرام والمعابد بأكملها مغطاة
بالمقابر والرفات .. آه !! يا مصر !! يا مصر لن
يبقى من معتقداتك سوى الأساطير ، وفيما بعد
حتى أبنائك لن يصدقونها .. ولن يبقى الدهر
سوى كلمات محفورة فى الحجر تحكى مآثرك
الدينية .. » .

هيرماس ترسيمجيس

عرف قرن «التنوير» ذروة مجده فى الثلاثين من سبتمبر ١٧٩١ فى تلك الليلة
تزامن حدثان ، الأول فى باريس حيث اختتمت الجمعية الوطنية التأسيسية أعمالها ،
وقد أصدرت الإعلان الذى تؤكد فيه «أن كل رجل فى فرنسا حر» ومنحت اليهود حق
المواطنة ، وقررت فيه بطلان «الجرائم الوهمية» ؛ أى العيب فى الذات الملكية والهرطقة ..
والحدث الآخر فى فيينا حيث كان بضعة مئات من أهالى إحدى ضواحيها المغرمين بما
تعود أن يقدمه مسرح «أوف دير فيندن» من عروض ممتعة - لحضور العرض الأول
لمسرحية غنائية بقيادة واضع موسيقاها فولجانج موزارت ، ويؤدى أهم الأنوار فيها
مؤلفها إيمانويل شيكانيدار .. وهى مسرحية «النأى السحرى» .

تحكى المسرحية كيف انتصر النور على الظلمات من خلال أسطورة مصرية قديمة
تصف كيف انتصر الحكيم «ساراسترو» على الملكة الشؤم ملكة مملكة الليل المظلم ...
وهكذا يتحقق حلم مؤلفى الإنسيكلوبيديا .. المتنورين أصحاب الـ Aufklärung ...
فمن خلال هذا العمل يعرض موزار وهو العضو بالحركة الماسونية العالمية والمنتفى لإحدى لجانها

المسماة «نحو الأمل المتوج حديثاً» يعرض على العالم باسم إيزيس وأوزيريس مثلاً أعلى فى الأخوة المستنيرة التى تعتبر مصر الفرعونية فى موقع المركز منها . إن أوبريت «النأى السحرى» هى نموذج للمسرح الغنائى الألمانى "Singspiel" ، كما أنها جزء من التراث الموسيقى الغنائى للماسونية (Oratorio) وتعتبر الوصية الروحية لموزار ، كما أنها تعتبر المدخل الرسمى أو المقدمة المضيئة لما تلاها من اكتشافات . ففيها يقود الحكيم ساراسترو ، أستاذ تفسير الإشارات ، تلاميذه عبر عراقيل الليل موصولاً إياهم إلى ضوء النهار . غير أن هذا الإلهام كان فى احتياج إلى توضيح ، كما كان هذا القبس فى انتظار أن يتحول إلى نور وضاء .. كما بقت هذه الدروس الإنسانية التى حملتها هذه الألحان السماوية على حالها ثماراً لخيال فنان جوال . الحضارة المصرية القديمة - إذن - كانت تبهر العالم كله ؛ غير أن السؤال المطروح كان «ماذا كانت هذه الحضارة تقول ، وما الذى كانت توصى به هذه الحكمة الرمزية ؟» تعددت فرضيات الشرح وتضاربت من الأب كيرتشار إلى جوزيف بوجيني ومن الأسقف واربورتون إلى بول - إيرنست جابلونسكى والقس بارتيليمى . وبقي الدرس المصرى عصياً على الفهم . يشده بعضهم فى اتجاه السحر ، ويدفعه البعض الثانى ناحية الرمزية ، فى حين يجنبه الآخرون نحو العقلانية .. وعصى الدرس على الجميع هائماً على سطح مياه النيل بين الضفتين مستمراً على حالته الافتراضية .

هذه الحضارة المهيبه مهابة الشمس هى أقرب من الأبدية من أى حضارة أخرى ... وكان صمتها يسحر الأبواب كما يسحرها امتدادها الزمنى وأبعادها الهائلة .. وأبو الهول الذى كان مدفوناً فى رمال الجيزة بقى رمزاً لهذه الأسرار المستعصية على الفهم ، أميناً عليها .

الصمت

تسعة أشهر قبل العرض الأول «للنأى السحرى» ولد فى «فيجاك» وهى مدينة صغيرة تتبع مقاطعة جاسكونيا الشمالية الرجل الذى كان سيعطى لخطاب ساراسترو معناه الكامل يجسد بنات أفكاره ، وهو : جان فرنسوا شامبوليون . فبعد ثلاثين عاماً من عرض النأى السحرى سيرجع إلى هذا الشاب القادم من مقاطعة كوارسى الفرنسية الفضل فى أن أصبحت تصورات موزار وشيكاندر الذهنية واقعاً يقينياً .

لم يكن ماحدث كتبيد النهار لظلمات الليل . فلم تجر الأمور على هذا النحو ، ولم يصرخ أحدهم قائلاً «وجدتها ، ووجدتها» فى الرابع عشر من سبتمبر ١٨٢٢ .. إن عظمة شامبوليون لا تكمن فى أنه نصب نفسه صانعاً للمعجزات ، ولكن فى أنه عرف كيف يجمع ومضات النور التى كانت تظهر وتختفى خلال الليل ، ويجمع شملها لتصبح كشفاً ،

وفى أنه كان يجمع فى شخصه المكتشف الرائد والوارث لأعمال أسلافه ، وأنه أسس مشروعه على الدراسة والبحث وعلى مقدار يساويهما من الحدس .

لم تكن مصر فى نهاية عصر التنوير - القرن الثامن عشر الميلادى - ملفوفة بظلمة حالكة . إن الظلال الثقيلة التى غلفتها بها قرارات الإمبراطور المسيحى تيودوز قبل ألف وخمسمائة عاما بتحريم الشعائر والثقافة المصرية حملت فى طياتها إشارات كثيرة . وإذا كان جان فرنسوا شامبوليون قد نجح فى تأسيس علم جديد هو علم المصريات ، فإن ذلك يرجع إلى أنه لم يستسلم لتقل مئات عديدة من سنين الصمت هذه ولأنه عرف كيف يحتفظ برياسة الجأش وهو يعنى النظر فى هذا الليل اللانهائى حتى اكتشف نجومه . وعلى الرغم من ذلك فإننا لن نعطى عبقريته حق قدرها إلا إذا أوضحنا أن الهوة التى عقد العزم على عبورها كانت بحقيقة وممتدة ، وأن ما حاوله الرواد الأوائل لم يكن سوى جسوراً ضعيفة ورخوة ومهزوزة أقاموها ؛ لأنهم كانوا يعملون فى الظلام .

ولكن فلنعد إلى التسلسل الزمنى للأحداث وتلتزم به فهو إذا كان يتسبب فى الإحساس بالوارث إلا أنه يضع أيضاً علامات قيمة على الطريق ، وبطريقة ما يشير إلى دروب تؤدى إليه وأضواء لتثيره ، .. فإذا كان السحر الذى خلقت به مصر الخيال العلمى والشعرى والدينى أيضاً للعالم الغربى كان بهذه الدرجة من القوة ، وإذا كانت حضارة النيل قد ألحت لهذه المدد طويلة على أعظم أرياب الفكر من فيثاغورس إلى لايبنتيز ومن أفلاطون إلى هيجل فذلك يرجع إلى خليط سرى مكون من نور وصمت ، من روعة مشعة وسكون لانهائى .

من الأمور المتفق عليها الآن هو إرجاع نشأة التاريخ والكتابة المصرية إلى قرنين قبل الألفية الثالثة التى تسبق الميلاد ، فى عصر الملك مينا خليفة الملك/ العقرب الأبطورى ؛ ومينا هو أول من تكلم رأسه بالتاج المزوج لمصر العليا ومصر السفلى* . أما نهاية هذا التاريخ ، وكذلك استخدام الكتابة المعبرة عنه ، فمن السهل تحديدها بعام ٣٨٤ بعد الميلاد عندما أصدر الإمبراطور تيودوزس مرسومه الأمر بإغلاق المعابد «الوثنية» .

خمسة وثلاثون قرناً ! ما هى الحضارة التى يمكن أن تدعى لنفسها مثل هذا الدوام والأهم من ذلك نفس هذه الاستمرارية ؟ مع الأخذ فى الاعتبار أنه منذ أن غزاها

* لن ندخل هنا بالطبع فى الجدل الدائر حول أسبقية مصر أو سومر .

قمبيز لم تعد مصر سوى أحد الأقاليم الفارسية قبل أن تصبح يونانية ثم رومانية ثم مسيحية ومنذ عام ٦٣٩ إسلامية .

وفى جميع الأحوال فقد ازدهرت على ضفاف النيل طوال خمسة وعشرين قرناً ثقافة دينية وسياسية تبدو كما لو أنها نوع من الحياة التي سبقت الحضارة الإنسانية . وعلى الرغم من أن التوقف المفاجئ لاستخدام الكتابة (الهيروغليفية) قد ألقى بها فى جب الأساطير والميثولوجيا فهى لم تفقد أبداً قوة سحرها .. أليست هى العصر القديم لعصرنا القديم ؟ !

يحكى أفلاطون فى كتابه Timée أن سولون لدى زيارته لمصر نزل ضيفا على كاهن عجوز وقص عليه تاريخ بلاده فقاطعه مضيفه قائلاً : «إنكم يا معشر اليونانيين لازتم أطفالاً فلا يوجد بعد شيوخ فى اليونان ... - فسأله سولون : ماذا تقصد ؟ - فرد عليه الكاهن العجوز : إنكم مازتم شباباً فى التفكير ؛ لأنه لا يوجد لديكم بعد أى تراث قديم بحق ولا أى نظرية أو عقيدة شابت مع الزمن ..» .

ولسهولة تصور هذه الأوضاع نقول إن الفترة الزمنية التى تفصل (المثال اليونانى الأشهر) بيريكليس فى القرن الخامس قبل الميلاد عن الملك زوسر صاحب الهرم المدرج فى سقارة الذى كان يتحدى فى ذلك الحين عواصف الصحراء منذ خمسة وعشرين قرناً توازى تقريباً الفترة التى تفصلنا نحن عن قمة الحضارة اليونانية . وأن المواطن الرومانى المعاصر للإمبراطور أغسطس الذى ولد عام ٦٣ قبل الميلاد كانت الحضارة الفرعونية بالنسبة له توازى فى بعدها بعد حرب طروادة عنا . وعندما كان هيروdot صاحب أقدم بحث تاريخى منظم عن مصر يمكن الرجوع إليه - يزور مصر حول عام ٤٥٠ قبل الميلاد - كانت قد مرت ألفيتان على تشييد خوفو لهرمه فوق هضبة الجيزة مقترنا باسمه حاميا لمقبرته ، وكان لابد أن تمر ألفيتان أخريان ليتمكن أحد الآباء اليسوعيين الألمان (كيرشار) من التوصل إلى أحد المفاتيح المؤدية لفق رموز الكتابة المقدسة .

المزلاج وضعه عدم التسامح وأحكمت غلقه مئات السنين ، وشارك فى ذلك أيضا طائفة الكتبة ؛ لأنهم - كما يشرح هيجل عن حق - كانوا يريدون أن يجعلوا من أنفسهم حماة الأسرار من أعين الشعب ؛ لأن هذه الكتابة لم تكن تستهدف الحياة الاجتماعية ولكنها كانت تصون هيبة الأسرار والطقوس .. وهو ما وصفه چاك ديريدا فى مقدمته :

«إنها عملية كهنوت وتسلط هدفها السيطرة ..» (1) .. لأن هذا «المخطط الكهنوتي» استهدف حماية «القوة الكونية» المنسوبة لهذه اللغة من وراء حفاظه على السر المهاب .
وإذا كان السر قد ظل طوال هذا الكم من القرون سراً فذلك لم يكن مرجعه عدم وجود باحثين عظماء يعوزهم الفضول العلمى .. بل إن هناك عددا لا يحصى من الرحالة - خاصة اليونانيين - الذى زاروا مصر المستعمرة .. التى كانت قد دخلت مرحلة الانحطاط ، ولكن ما زالت ثرية بثقافتها وألقتها . ذلك فى الفترة ما بين فتح الإسكندر لها وانتصار المسيحية فيها ... وكان الكتبة والكهنة يستقبلون هؤلاء الرحالة عن طيب خاطر بل ويملئونهم أحياناً بما يجدد به علمهم من معلومات فى علوم الهندسة والفلك .

يؤكد سيرج سونزون أنهم كانوا يمتنعون عن تلقيهم «العلم المقدس» أى مبادئ الكتابة الهيروغليفية إذ أن اختصاصهم بها كان يؤكد سلطانهم ويرفع من هيبتهم علاوة على أنها هى القدرة وحدها على تقديم «تفسير للعالم» .

ويشهد تعبير قاله كاهن مصرى قديم هذا الجانب الغير قابل للوصف ، والذى لا يضاويه شىء ، والذى تتم به الكتابة فى الحضارة المصرية القديمة ، إذ قال : «لا يوجد شىء عظيم أو جميل تم عمله ... لئون أن يكون قد تم تسجيله كتابة منذ زمن طويل ...» (2)

ومع ذلك يخطئ من يعتقد أن الحضارة قد هوت فى جب جهالة العالم الخارجى لها بعد أن اختفى قراء أوراق البردى والمسلات من الوجود فلم يكن الليل حالكا تماما بين تيودوز وشامبوليون ؛ فقد كانت تضيئه بعض الشعلات التى سمحت بحلوث محاولات وتجارب تقريبية أدت إلى بعض الاكتشافات ، ومن ثم استمرار التراث .

لكن ظلت مصر - الصامته العظيمة - حية على الدوام !! حية ولكن منقبة .. فى التوراة والثقافة اليونانية والسلطة الرومانية ومن خلال الأفلاطونية الجديدة لعصر النهضة وأخيراً من خلال بعض الطوائف الدينية التى قدست الإلهة إيزيس فى الغرب بعد تحويل الديانة المصرية القديمة .. ولذا يجب أخذ كل هذه العلامات التى على الطريق فى الاعتبار والتى قادت الباحثين وزودتهم بالمعلومات أحياناً وضللتهم أحياناً أخرى طوال الفترة من القرن الرابع حتى القرن التاسع عشر ، وهى التى وضعت جان - فرانسوا شامبوليون على الدرب الذى أدى به إلى اكتشافه العظيم فى سبتمبر ١٨٢٢ ، وقد نجح هو لئون الآخرين ؛ لأنه عرف كيف يطرح أسئلته على هذه الرموز المتناثرة بصورة أفضل من الذين سبقوه كما عرف كيف يجمع الدلائل ويضبط بسوا الفتات الذى جادت به ذاكرة التاريخ ، والتى كانت المادة الأولى التى استعانت بها صحافته .

ذكرت مصر كثيراً فى التوراة (التي يقرؤها شامبوليون فى نصها العبرى وهو فى الثالثة عشرة من عمره) وإن كان ذكرها غالباً ما كان يجرى على أنها العدو الذى يعذب ويفسد الشعب المختار . وقد سجل جورج بوزنار عدد ٦٨٠ (ستمائة وثمانين) ذكراً لمصر فى التوراة وفى المقابل لم يظهر اسم إسرائيل سوى مرة واحدة فى نص فرعونى وهو الموجود على لوحة مينيبتاح والذى يقول : «إن إسرائيل قد خربت ولم يعد لبذرتها وجود ..» .

جمع الفلسطينيون وبلادهم فلسطين وفرقوا فى الوقت ذاته بين مصر الفرعونية وشعب التوراة وظلت علاقات الطرفين مضطربة طوال العشرين قرناً المذكورين فى سفرى التكوين والخروج .. فهل يمكن إغفال الدور الذى لعبته مصر فى تاريخ يوسف وفكر موسى وفى تشريعات سليمان أو تضرعات حرماً ؟ وكيف يمكن دراسة مختلف مراحل العائلات الحاكمة فى مصر لكون ذكر الغارات التى شنها هؤلاء الآسيويون من الهكسوس إلى قبائل آل كنعان والتى تسببت فى العديد من المشاكل للملوك المصريين .. وجاء ضمن أسماء «القادة الأجانب» المشاغبين التى ذكرها الكتبة المصريون ذكر إبيرديانو والذى يعتقد البعض أنه إبراهيم . ظهر موسى فى فترة حكم الأسرة التاسعة عشرة حين كان العديد من الآسيويين يعيشون فى بلاط فرعون فى حين كان العديد من البنى يعملون بالسخرة فى الوادى . وقد وصلت وعمرة الأعمال التى سخروا لها إلى درجة لا تحتل أدت إلى الخروج من مصر . وهو ما يمكن تحديد زمن حدوثه بعدة عشرات من السنين سبقت تحرير النص الكوارثى المتحدث على لوحة مينا بتاح الذى سبق ذكره أعلاه .

بعد هذه القطيعة المأساوية عادت الوشائج تتواصل بين السلطات المصرية وقادة أورشليم فى عصر تانيس ومملكة يهودا ، وذلك حوالى العام الألف قبل الميلاد .. ولم يخف الملك سليمان ما استعاره من حضارة الدولة المصرية ، والذى يمكن للقارئ المدقق للتوراة أن يسجلها ، ولعله يسمع وهو يقرأ صوت الأنبياء وهم ينددون بالحكم المستبد المطلق للفراعنة .

كان كل شيء يتعارض فى النظامين ، فالجانب البشرى الموجود فى تعدد الآلهة المصرية الذى يستوحيه النظام القائم فى طيبة وعلى قمته الملك / الإله ، والذى يعتبر أعجوبة من التوازن الصامد . كان هذا يتعارض مع الأيديولوجية التوراتية التى تتأسس كلياً على معجزة نجات الشعب المختار من النكبات والكوارث وعلى ولائه المثير للشحن لإله إبراهيم الأوحد . كل شيء عند المصريين هو نظام وعقل واستمرار ، فى حين يعلن كل شيء عند الآخرين عن مأساويته وتفككه وإلهاميته .

غير أن التوراة ذات الرسالة الكونية الشاملة لم تكن لتغفل التعاليم الواردة من وادى النيل ، وهى تلك التى استخلصها شامبوليون عبر قراءته لها ، فهو مؤرخ الحضارات الكبرى وهو أيضا عبقري فى المقارنة بينها . كان أثر المصدر المصرى - أى ثقافة وادى النيل على الإغريق - على نفس القدر من الأهمية للتأثيرات الحاسمة التى كانت لعبقريتهم بالنسبة لأهل عصر النهضة الأوروبى بعد ألفى سنة ... مع فارق وحيد أن «السفر إلى مصر» كان فرضاً واجباً على رواد الفكر اليونانى أعظم بكثير من زيارة اليونان على معاصرى إيرازم ورونسار .

قام سارچ سونرون (3) بوضع قائمة - غير كاملة بطبيعة الحال - للعلماء والشعراء والفلاسفة اليونانيين الذين أصروا على عبور البحر المتوسط للنهل من المعارف والحقائق فى مصر ؛ لأنهم كانوا يعتبرونها «مهذا للعلم كله والحكمة كلها» . ويضيف سونرون أنه إذا حدث ، ولم يتمكن بعضهم لسبب أو لآخر من القيام بهذه الزيارة الواجبة على كل عالم ومفكر ؛ فإن كتاب سيرهم الذاتية كانوا يعملون على إضافة نص خيالى عن هذه الزيارة التقليدية ؛ لأن عدم إجرائها يجعل من أى مفكر أو مبتكر يونانى شخصية محلية أو غير ذات أهمية .

لم يتخلف أحد من الكبار : أورفيوس الذى اشترك فى الاحتفالات الديونزية - حسب ما أورد ديودور - وهوميروس الذى كرر ذكر «النهر ايجيببوس» ، والذى أسر أوليسس بالقرب منه ، وذلك فى ملحمة الأوديسا . ولم يتخلف سولون كما ذكرنا من قبل ولا طاليس ولا فيثاغورس .. الذى يقول عنه جاميليك إنه أمضى ما لا يقل عن اثنين وعشرين عاماً داخل المعابد المصرية تحصل فيها على العلم الذى «بسببه يعتبر فيثاغورس من العلماء» ، وناهيك عن أفلاطون الذى يُعتقد أنه أقام مع يوبوكس فى معية كهنة هليوبوليس لمدة ثلاثة عشر عاماً .

وسنرى أن جان - فرنسوا شامبوليون سينسب نفسه إلى أفلاطون ، وذلك فى خطاب وجهه إلى صديقه أنجيليكا پالى - التى هى أيضا من أصل يونانى - يؤكد فيه أن «أفلاطونيته» ترجع إلى أنه «تشبع بالتعاليم المصرية التى هى المنبع الخصب الذى نهل منه مواطنك أفلاطون ، كما نهل رجل آخر أعظم منه بما أحدثه من عمل خير ألا وهو فيثاغورس ، فشرع شعوب إيطاليا المحظوظين» (4) .

كتب هنرى چوليفى مقال نشرته مجلة سيلكس تحت عنوان مُعبر «أفلاطون عالم المصرىات» يؤكد أن صاحب كتاب «تيميه» أخذ عن النموذج المصرى نظريته الخاصة

عن الفن التي تعتبر بمثابة بيداجوجيا إصلاحية وتقويمية ، وكانت مصدر الإلهام لكتابه «الجمهورية» . وعلى العموم فإن أفلاطون والأفلاطونية ذكر بتاريخ الحضارة المصرية فى العديد من مراحلها .

أما سقراط ، وإن لم يقم بالزيارة الواجبة لمصر ، إلا أننا نلاحظ أن أفلاطون فى «فيدون» يمتدح السهولة التي يلقي بها سقراط دروساً مصرية ، وهو ما يعنى على الأرجح أن المعلم كان كثيراً ما يستعين «بلوجوس» حكماء مصر .

ومهما بلغت درجة تأثر الكتاب والفلاسفة والعلماء اليونانيين بدروس الحضارة الفرعونية فلم يرتبط اسم أحدهم بمصر بنفس تألق اسم هيرونوت ، فهو يخصص لها خمسة وثلاثين فصلاً عن حوارياته ، وهو لا يزال بعد أربعة وعشرين قرناً نموذجاً لا نظير له فى التحقيق البحثى على ضفاف نهر النيل . كان هيرونوت أكثر تحمساً لخصائص مصر الجغرافية ولعادات وتقاليدها أكثر من انهياره بعظمة فنونها ؛ فقد رأى فى هذا البلد الصامد الأصل المطلق لكل شىء . ولذلك فهى يجب أن تقرأ بل يجب أن تفك شفرتها ... وكان ذلك أعظم دافعاً تأثر به الشاب شامبوليون الذى كان يجيد مثل أخيه الأكبر الدراسات اليونانية كما كان قارئاً نهماً لأبى التاريخ .

أما بلوتارك فقد عاد من مصر وقد كتب مؤلفه «عن إيزيس وأوزيريس» الذى يشارك فى عملية انتشار الطقوس الإيزيسية فى أوروبا ، وهو يدين فى كتابه هذا بالكثير للكاهن مانيتون* فقد كانت مؤلفاته متاحة للتداول فى القرن الأول قبل الميلاد ، وقد استخلص سوزون من ذلك قوله : «مهما بلغ فلاسفة اليونان من شهرة فقد كانوا يرفعون من درجة الإعجاب الشعبى بهم إذا أمكن إرجاع مصدر علمهم إلى المرحلة المصرية» (5) .

لا توجد مثل هذه العلاقة الحميمة المبهرة فى العلاقات المصرية الرومانية . فقد طُبعت هذه العلاقات منذ البداية بكارثة حريق مكتبة الإسكندرية لدى استيلاء قيصر على المدينة فى عام ٤٧ ق. م . وهى المكتبة التى كانت تضم كنوز الثقافة المصرية المحررة باليونانية أو المترجمة عنها ، وعلى وجه الخصوص الثلاثين جزءاً المكونين لمؤلف مانيتون «إچييتياكا» ثم تأثرت هذه العلاقات بالنظام الاستعماري الذى فرضته روما على شعب وأرض النيل محولة إياها إلى إقطاعية مصدراً للجباية ، كما تأثرت أخيراً بالنهب المنظم للمواقع والآثار الفرعونية بواسطة الولاة الرومان .

* هو كاهن مصرية قديم من القرن الثالث قبل الميلاد ومن ضمن ما كتب تاريخ الأسر الحاكمة

المصرية .

ومع ذلك فقد قام جيرمانيكوس برحلة لمصر سجلها تأسيت بدقة فى كتبه وذكر فى كتابه أن كاليجولا كان ممن عبدوا آلهة النيل . وفيما بعد زارها أيضا الإمبراطور هادريان ، وكان معه خليله أنتينوس ، وقام بحفر اسمه على قدم أحد تماثلى ممنون العملاقين .. ثم عندما غرق محبوبه الأثير فى النهر أعطى إحدى المدن المصرية اسم «أنتينويه» .

وعلى العموم ، فإن روما كانت مزينة كلها من ساحة الإله مارس إلى ميدان الإله مينرثا بالآثار الفرعونية والتي عملت على تعريف زوارها الأوروبيين العديدين بالفن المصرى . وبعد ذلك فى عام ١٥٨٨ وضعت مسلة الكرنك فى ميدان لاتران وقبل شامبليون الذى زارها وانبهر بها فى ١١ مارس ١٨٢٥ زار الأب اليسوعى أتاناز كيرشار المدينة الأبدية (روما) قبله بقرنين ومن الكتابات الهيروغليفية المنقوشة على مسلاتها السبعة عشرة حاول حل شفرة اللغة الهيروغليفية .

وعلى الرغم من أن الرومان كانوا يولون لحضارة النيل أهمية أقل من التى كان يوليها أساتذتهم اليونانيون إلا أنهم كانوا عاملا مفيدا فى نشرها . ولم يكن سيسيرون وحده الذى ادعى اكتشاف الأصل الفرعونى لعالم الآلهة اليونانية . وجعل من الإله تحوت إله الحكمة والكتابة أصلا للإله اليونانى هيرماس .. غير أن الكاهن الأفلاطونى «كليمنت السكندرى» أعلن فى نهاية القرن الثانى أن تحوت مخترع الهيروغليفية كان مؤلف النصوص الأساسية للحكمة المصرية القديمة المعروفة بالهيرميتيكية ، (أو السرية) .. عبر هذه المؤلفات ازدهرت فى بلاط آل الميديتشى فى القرن الخامس عشر أفلاطونية حديثة كان منشؤها هو مارسيليه فيشان . وهل يوجد شىء أكثر أفلاطونية من التصور الرمضى الذى تكوّن لدى أهل ذلك العصر عن الحروف الهيروغليفية مما كتبه «هورا بولون» * وقدم فيه تصورا للعالم حيث تكون الأشياء رموزاً ، وهكذا فإن عصر نهضة العصور القديمة أثار نهضة مصرية موجودة فى خلفيتها بل تعتبر أحيانا أساسا لها .

وعبر الحركة الأفلاطونية استمر انتشار تيار من الحكمة المصرية حتى عصر الإصلاح المضاد . ظلت الكنيسة تنظر إليه بارتياح ، إلا أنها امتنعت عن مجابته لفترة زمنية طويلة إلى أن جاء اليوم الذى حكمت فيه على جيوردانو برونو بالحرق حياً .. وعندئذ انكمش الفكر الأفلاطونى الهيروميتيكي فى مجالات علم الفلك والكيمياء والطب والهندسة ؛ حيث «ظلت الحكمة المصرية القديمة تمارس تأثيرها القوي والنشيط» كما كتب إيريك إيفرسان (6) .

* مؤلفه «هيروجليفكا» اكتشف عام ١٤١٩ فى جزيرة اندروس ونشر بعد قرن من الزمان فى فينيسيا .

غير أن الحضارة الفرعونية أخذت طرقاً أخرى أقل سرية من السبل التي طرقتها الأنطاطونية الجديدة لتأصل وجودها في الغرب وهو عبادة أكثر ألقتها طهارة : الزوجة والأم وسيدة الأراضي والمياه - إيزيس . وإذا كان تاريخ الولع بالمصريات (الإيجيبتومينا) أو الجنون الأوروبى بها لم يتم تسجيله على الوجه الأكمل ، فإن تاريخ أحد المكونات الأساسية لهذه الحالة وهو «الإيزيسية» قد كتبه يورجس بالتروسايتيس : وهو «البحث عن إيزيس»⁽⁷⁾ فهو يرى أن هد المعابد ومنع إقامة العبادات وتحريم استخدام الكتابة المقدسة قد حول هذه الحضارة في نهاية القرن الرابع من مجال دراسة الآثار إلى مجال الروايات والأساطير ، مما دعم انتشارها جعل ألقتها يمنحونها فرصة الأخذ بالثأر بأن انتشرت فجأة عبر الإمبراطورية الرومانية كلها بل وفرضت نفسها بإلحاح على الأفئدة . بعد كاليجولا وبومينسيان «معتنقى الحضارة المصرية» فى العن شديد كاراكالا «إيزيوم» أول معبد إيزيسى فوق الكويرينالى فى روما دامجا هكذا عبادة الإلهة الكبرى مع الديانة الإمبراطورية . ومنذ ذلك الحين أصبح آلهة وادى النيل رعاة الفيالق الرومانية من بومبي إلى الدانوب ومن جوليا (فرنسا) إلى الجزر البريطانية وحتى أطراف العالم المتحضر .

وإذا كان قد تم اكتشاف آثار عبادات إيزيسية من بلجيكا حتى مدينة ليون (وكشف كنز شيلديريك الذى عثر عليه فى تورنيه عام ١٦٥٣ أن أسلاف كلوفيس كانوا يعبدون الآلهة المصرية) فإن أهم هذه الآثار تظهر واضحة فى باريس والمنطقة المحيطة بها . ومنذ القرن السادس عشر أشار جيل كوروزيه أن كنيسة سان جيرمان دى بريه * شيدت فوق موقع إيزيوم معبد لإيزيس - وأن ضاحية إيسى الباريسية اسمها تحوير لاسم الإلهة المصرية ، وأن ضاحية مولون كان اسمها إزيوس . وباريس ذاتها سميت هكذا بعد أن استوعبت جارتها تلك quasi par Isis .. أما سانت - أمان فهو يذهب إلى أبعد من ذلك ؛ إذ كتب فى عام ١٦٤٤ يقول إن أصل كلمة باريس هو فاريا (ابنة فارعون) إيزيس - فهل من مزيد ؟

وعلى العموم فإن كتاب كبار - كثيرون منهم من رجال الدين الكاثوليك - يؤكفون أن جزيرة لاسيتيه ** كانت مقراً لمعبد إيزيس الذى كان يقع بالقرب من الموقع الذى شيدت عليه كاتدرائية نوتردام ، كما أن هؤلاء المؤلفين يقرون بأن المسيحية تمد بعض جنورها فى الديانة المصرية القديمة . وتذهب كريستين دى بيزان إلى الإيحاء بأن

* فى وسط باريس الحالية (الترجم) .

** وهى فى قلب باريس على نهر السين (الترجم) .

إيزيس هي نموذج العذراء مريم .. كما يذهب آخرون إلى القول بأن حورس ابن إيزيس هو نموذج مسبق للمسيح .. كما يقال إن بوابات نوتردام وكنيسة سان چيرمان وكنيسة سانن چينييف (التي هدمت عام ١٨٠٦) كانت بها الأدلة على ذلك .

ويوجد ضمن المؤرخين المسيحيين (دون مولينييه ، دون مارتان دون باننيه) من يؤكد أن إيزيس كانت ضمن الآلهة التي يعبدها الدرويد (رجال الدين فى فرنسا القديمة - لاجول - قبل المسيحية) (المترجم) كما يؤكدون أن آلهة أخرى من مصر القديمة كانت ضمن من يقدمون لها الشعائر مثل أوزيريس وأبيس . لقد عارض بعض المفكرين مثل الكونت دى كايوس هذا النوع من النظريات ولكن يبقى أن إيزيس ظلت من عصر الدرويد إلى العصر الكلاسيكى تؤكد وجودها ضمن الآلهة التى تركتها المسيحية تهيم فى الوجدان الواعى أو اللاواعى للشعب الفرنسى . وهكذا فإن مصر الفرعونية اندمجت معها داخل الميراث الدينى والفكرى لفرنسا منذ ما قبل قرن التنوير والانتشار الهائل ما أطلق عليه اسم «الإيجيبتومينا» أو «الولع المرضى بمصر» .

لم تتوقف مصر - ومن خلال التوراة ثم الحضارة اليونانية - الرومانية ثم الأفلاطونية الحديثة بعد ذلك من خلال الإيزيسية - عن فرض وجودها على العالم حتى لو كان ذلك فى شكل خرافى أو أسطورى . ولكن الحضارة المصرية - وعلى الرغم من هذا الإلحاح الضاغط لم يبق فيها سوى مصدر هائل للافتراضات . وذلك ابتداءً من تاريخ تدمير أعمال مانيتون* التى كانت بمثابة الذاكرة الوحيدة المفهومة للقرون التى اختفت وابتداءً من ذلك اليوم الذى تحدى فيه كاتب مصرى شجاع المحظورات وحفر فى الرابع والعشرين من أغسطس ٣٩٤ م** آخر الحروف الهيروغليفية على أحد أعمدة معبد فيلة .

ماذا كان ممكن «لرجل عادى» من القرن السابع عشر أن يعرف عن مصر ؟ ما عدا ما كانت تقوله له التوراة - التى كان الكاثوليك يتشككون فيها حينذاك - ويقوله الفلاسفة اليونانيون والرومانيون - فإن معارفه كانت قليلة .

لم تساعد الحروب الصليبية كثيراً على معرفة «عالم الكفر» ... هناك ... بعض حجاج بيت المقدس الذين اكتشفوا خط سير العائلة المقدسة والقديس مرقس ، كما أن أغلب من قرأ مؤلفات لابروييار اعتقد أن الأهرامات كانت صوامع سيدنا يوسف وأن أبا الهول كان ينتظر عودة أوديب ..

* هذه الأعمال كتبت باللغة اليونانية .

** ندين بهذه النقة المدهشة لسرج سونرون .

ومع ذلك ففي النصف الثاني من ذلك القرن (السابع عشر) عاد الموضوع المصرى يظهر على السطح من جديد. فبعد أن لفت ليبنتز* العظيم عام ١٦٧٢ انتباه بلاط فرنسا الملكى النهم إلى أرض الفراعنة . (وذلك لسبب فريد : وهو أن الملك العظيم (لويس الرابع عشر) كان يمكنه أن يضرب هناك «الجمهوريين» الهولنديين بأن يدمرنشاطهم التجارى مع بلاد الهند الشرقية) أرسل الوزير كولبار أحد الآباء اللومينيكان ألمانى الجنسية اسمه فانزلاب فى مهمة إلى مصر ، وهو يعتبر أول مستكشف أوروبى لانتينويه .

وفى خط مواز لهذا الاستكشاف على أرض الواقع تعددت تحريات وافتراضات باحث عظيم فى شئون مصر وذلك فى مدينة روما حيث يوجد العديد من آثارها وهو الأب اليسوعى الألمانى أتاناز كيرشار الذى نشر عام ١٦٥٢ كتابه أويب المصرى OEdipus Aegyptiacus . وكانت إحدى افتراضاته الحدسية هى التى فتحت الطريق أمام شامبوليون ؛ فهو الذى ضمن أن اللغة القبطية – اللغة الدينية لأقباط مصر – هى النسخة الصوتية للكتابة الهيروغليفية .

ولما أشرف القرن السابع عشر على الانتهاء كان القنصل الفرنسى بونوادى ماييه يرسم الأهرامات ، ويكتب وينشر وصفا جيدا لها وإن لم يكن يكتفى بذلك فقد كان ينقب ويسرق روائع الآثار وأثرى بها مجموعات الملك⁽⁸⁾ الأثرية ومجموعة الكونت دى كايوس .. وهو فى ذلك كان الرائد الذى احتذى به زملاؤه الذين ورثوا مركزه فى عهد محمد على باشا . ثم بعد بضعة سنوات جاء إلى مصر الأب اليسوعى كلودسيكار ، وكان من دارسى اللغة العربية وملماً باللغة القبطية ، وإذا كان قد حضر فى بداية الأمر بصفته مبعوثاً من الوصى على العرش إلا أنه سرعان ما تحول من موظف فى الخدمة الرسمية إلى باحث ذى رؤية شاملة يجوب أنحاء وادى النيل زائراً معبد الكرنك داخلا وادى الملوك مغامراً حتى أبو سمبل ليرسم أول خريطة حديثة لمصر .. قبل أن يموت فى القاهرة وهو يعالج مرضى الجزام .

سجل جان لوكلان ظهور موجة من الوله بجمع الآثار فى القرن السابع عشر تولدت عنها ما سمي بـ «غرف الروائع» وهو يقول : «فى عام ١٦٤٨ ظهرت فى مرسيلىا ما أطلق عليه «أصنام من مصر لحفظ الموميوات بإحكام» وهو اسم تورية واضح للتوابيت الأثرية . وعرف عن ريشوليو ومازاران والوزير سيجييه أنهم كانوا

* سنرى (فى الفصل التاسع) أنه اهتم بمسألة الكتابة الهيروغليفية .

من كبار جامعى التحف . إن أقدم كاتالوج موجود عن المجموعة الملكية وهو المؤرخ فى مايو ١٦٨٤ يضم بعض الأثار المصرية . كما أن راعى الكنيسة الخاص بالملك لويس الرابع عشر - القس فوئيل - كان يمتلك تمثالا صغيرا لإلهة القط بست تحمل فى يدها إله الرق . أما نيقولا فوكيه فقد كان يمتلك تبوتين باعهما له بعض التجار جلبوهما إلى مرسيليا فى سبتمبر ١٦٣٢ وقد ارتجل لافونتين بعض الأبيات عندما رآهما فى منزل وزير المالية فى سان مانديه :

لم أستطع كتم الضحك

قائلا يا مولاي حورس

إنك أذهلتنا جميعا ..

إن أبناء بلدك

كما يبدون - يرتنون مريلة الأطفال

وأراها مصنوعة بطريقة غريبة .

وقد نشر ميشيل نوقاشتار مقالا فى مجلة الإيجيبتولوجيا (المجلد ٣٧ لعام ١٩٨٦) تضمن كشف جرد للأثار المصرية الموجودة فى مكتبة لويس الرابع عشر عام ١٦٨٤ ، ويتضح منه أنها كانت تحتوى على ما لا يقل عن ثلاثة وثلاثين قطعة ، منها : تمثال جميل من حجر البازلت يسمى «اليشب الأسود» وأحد الآلهة من حجر السفير الأبيض وعدداً من الجعارين ومن الصلاصل شخاشيخ وسبعة عشر مومياء مصرية منها اثنتان غير سليميتين» .

هكذا فى مطلع قرن التنوير ومع ظهور موجة جنون الالوع بمصر بدأ يتشكل نوع من العلوم يمكن تسميته «ما قبل الإيجيبتولوجيا» وهو كان مبنيا على تخمينات كيرتشر الحنسية وعلى أعمال چابلونسكى واقتراحات شاربوتون والرسومات التى رفعها مايبيه . وملاحظات سيكار .. واذلك فإن هؤلاء الذين توغلوا فى مصر بعد ذلك ويتصورونها بل ويعيىوا تشكيل صورتها قاموا بذلك على أسس أكثر صلابة .

أول فريق تقدم على الدرب جمع مجموعة مذهشة من الرحالة ثم سار على آثار خطاهم شعراء وموسيقيون وباحثون وعلماء لغات وفلك ومعهم أيضا دجالون وعاملون في مجال التجميل وفنانون تشكيليون وعلماء اجتماع ...

من مجموعة عشرات المتهورين كاشفى أسرار الألفاظ نختار ثلاثة :

البحارة الدنمركى فريديريك نوردين الذى أبحر وهو فى الثلاثين من عمره إلى مصر ثم أبحر فى مياه النيل صعودا حتى فيلة ومعابد النوبة قبل أن يعود ليموت فى باريس بعد خمس سنوات تاركا مجموعة رائعة من رسومات «أثار طيبة» .. وقد أثبت أنه كان يتمتع بموهبة فنية راقية وهو يقدم - كما فعل فيقان دونون من بعد - أفضل تصوير وتأثير للفن الفرعونى - ولا شك أن شامبوليون قد اطلع على هذا العمل الرائع وأشاد - كما فعل قبله شاتوبريان - بدقة النقل .

إذا كان نوردين بحاراً فإن ريتشارد بوكوك القادم من ميناء ساوثهامبتون الإنجليزى لم يكن كذلك بل كان رجل دين ولم يسافر من أجل التبشير لدينه بين المحمديين بقدر ما جاء يستكشف روائع الإبداع الفنى . ووصل حتى أسوان بعد أن زار الأديرة القبطية على البحر الأحمر . وإنما لنقدر بساطة العنوان الذى صدر به مذكراته عن رحلته : «وصف لبلاد الشرق وبعض المناطق الأخرى» : الرؤيا ثاقبة والأسلوب سلس . وقد نال هو أيضا إعجاب شاتوبريان كما قرأه شامبوليون .

أما كلود - لوى فورمون ، فقد كان أكثر الثلاثة قرباً من عالم المصريين الحقيقي . فهو كان يعمل مترجماً فى المكتبات الملكية . وقد زار مصر السفلى عام ١٧٤٦ ، ونشر بعد بضع سنوات كتاب «وصف هضبتى هيليوبوليس وممفيس» وهو يتميز بأنه حدد بدقة المكان السليم لعاصمة الفراعنة القديمة بالقرب من سقارة عند البدرشين . بل إنه أشار أيضا إلى وجود هرم رابع فى الجيزة .

فى الوقت ذاته الذى كان هؤلاء الرجال الشجعان ينتزعون فيه من وادى النيل أسرارهِ الدفينة قام آخرون بإضفاء شكل فنى وفلسفى للأسطورة المصرية العائدة للانتشار من جديد .

ولم يلهب كتاب مخيلة الغرب مثلما فعل كتاب الأب جان تيراسون الذى نشر عام ١٧٣١ فى باريس^(٩) تحت عنوان «سيتوس» وعنوانه الفرعى «تاريخ أو قصة حياة مأخوذة من الآثار المصرية وعن قصص مصر القديمة» أردف به ملحوظة لم تخدع أحداً :

«مترجم عن مخطوط يوناني اكتشف في مدينة الإسكندرية تحت حكم الإمبراطور مارك - أورال». ويؤكد الأب تيراسون في مقدمة كتابه أنه يدين في عمله لأستاذين هما مؤلفا كتاب «تيليماك» وكتاب «أسفار فورش» وهما مؤلفان خياليان . كما أنه يشير إلى رجوعه إلى أعمال هيروdot وديودور وبلوتارك وهي بالطبع المصادر البحثية التي اعتمد عليها .

سيتوس كان أحد أمراء مصر في القرن الحادى عشر قبل الميلاد ابن الملك أوزوروت والملكة نيفتى التي توفيت تاركة مكانها لزوجة الأب الرهيبية : ديلوكا . إلا أن الطفل يجد حليفاً فى شخص معلمه الحكيم أميديس .. وهنا نلاحظ الخطوط العريضة التي بنيت عليها شخصيات أوبرا الناي السحرى . خاصة وأن التجربة الأولى التي كان على سيتوس أن يجابهها هي ظهور «ثعبان مربع» وهو نفس المنظر الافتتاحى لأوبرا موزار .

لم تكن رواية الأب تيراسون مجرد تمجيد للحكمة المصرية القديمة ؛ لأن هذا القس هو الذى كان معروفاً أنه عضو فى الحركة الماسونية ملاقتته ببعض الملامح الفلسفية السائدة فى زمنه . فقرأ مثلاً أن سيتوس يقول لمعلمه أميديس الذى كان يمتدح له الأعمال العظيمة التي شيدها الفراعنة : «لا أعتقد أن يجب السماح بتعذيب الناس بحجة تمجيد الآلهة» .

إن أحد أهم الجوانب الملفتة فى «سيتوس» والتي جعلت منه مرجعاً من مراجع الماسونية فى ذلك العصر هو ما تضمنه من شعائر وتقوس وأهداف عملية إدخال العضو الجديد إلى الماسونية ، فنقرأ مثلاً هذه السطور : «بعد أن تتم إدخال الأمن إلى قلبه بواسطة النار والماء والهواء يتلقى العضو المقبول حديثاً النور ويصبح له الحق فى إعداد روحه للكشف أمامه عن أسرار الإلهة العظيمة إيزيس ..» (10) وكان وقع هذا الكشف على سيتوس مثيراً لدرجة جعلته يتخلى عن وراثته العرش لأخيه ليحتج وسط الكهنة . ليأتى إليه الملوك والعظماء لاستشارته حول مختلف الأمور ، فقد أصبح أكثر العارفين بالأسرار من بين المتطوعين عليها .

لم تكن قصة «سيتوس» أحد الكتب الأساسية للماسونية فقط كما لم تكن فقط مصدر إلهام موزار لتأليفه أوبرا «الناى السحرى» بل إنها أوجت له أيضاً بقصة أوبرا «ثاموس ، ملك مصر» والذي عرضت قبل ذلك بعشرين عاماً (وسوف نعود للحديث عنها فيما بعد) .

أعيد طبع رواية «سيتوس» في ١٧٦٧ و١٧٩٥ و١٨١٣ ، وكان أحد الكتب الأكثر رواجاً في ذلك الوقت* ولابد أن قرأها الأخوان شامبوليون خاصة وأن أباهما كان صاحب مكتبة ويمكن إعتبار هذه الرواية إحدى الحلقات في سلسلة العوامل التي أدت إلى وصول كشف الرموز إلى اكتشافه العظيم .

قد يدهشنا اليوم أن تيراسون قد جعل مصر مصدراً للإشعاع الماسونى علماً بأن عالمها كله كان يدور في فلك الدين ، وكانت خاضعة تماماً لسلطة الحاكم الإله ، وهكذا فعل بعده أيضاً موزار وجوته وهوباك وغيرهم من الماسونيين ؛ ولكن في القرن الثامن عشر وهو عصر «الاستبداد المستتير» فإن الأمر كان يبدو طبيعياً . ذلك لأن قرن التنوير كان يرى التسلط الفرعونى - والذى ندد به سيتوس كما سبق أن أشرنا - أن حضارة وادى النيل هي الترياق المنقذ من سلطة رجال الدين المقيدة للفكر فهي مشبعة بالحكمة والتوازن بالفكر الإنسانى والحيوية النشطة . قرن التنوير كان يجابه العالم الأسود والمنتشج للكباب اليسوعيين ورجال الكنيسة الآخرين ورجال محاكم التفتيش والوعاظ المهتدين بشوابر الأمور في اليوم الآخر وقادة «الإصلاح المضاد» بالنور الساطع لأمون - رع وبعظمة الشمس الهائلة وبالتوازن الكامل لتعدد الآلهة فهو يعتبره قمة التعبير العقلى .

هذا التيار الماسونى المصرى أخذ وجهها كاريكاتوريا في شخصية سيئة السمعة اسمها جوزيف بالسامو - وكنائته كاجليوسترو . فقد أعلن نفسه «القبطى الأعظم» - محولاً إلباء إلى فاء لإضافة مسحة من الغموض الشرقى للصورة التى اخترعها (قبطى بدلاً من قبطى) وأسس عام ١٧٨٤ فى سرورديار فى باريس «أم المحافل للتحويل إلى الماسونية المصرية العليا» ثم جال فى أوروبا وذاع صيته فى الصالونات والقصور ناشراً طقوساً ادعى أنها «مصرية» ؛ حيث امتزج السحر بالإثارة الجنسية التى تولت عرضها أو ممارستها زوجة بالسامو (11) .

ولم تعتبر هذه القصة مجرد مسلسل روائى لكاتب يساخر فقد أخذت روما ومكتب البابا هذه المغامرة - أو لعلها بدت كما لو أنها تأخذها على محمل الجد لدرجة أنها رفعت على هذا الدجال قضية عام ١٧٩٠ «لمارسه الماسونية» .. وكان من المحتمل أن ينتهى به الأمر بالموت حرقاً ... الواقع أن كاجليوسترو قد انتهى به الأمر فى السجن

* حولها أحد المؤلفين المغمورين : «تانيقو» إلى مسرحية شعرية عام ١٧٣٩

حيث توفى . ولعله أنقذ نفسه من المصير الأسود بأن «أقر» أن الماسونية هي التي وضعت المخطط العالمى الذى أثمر عن هذه الثمرة المسمومة التى هي الثورة الفرنسية .. وقد استغلّت الكنيسة الكاثوليكية هذه النظرية على أوسع نطاق ... غير أن ما يشد اهتمامنا فى هذا المقام ليست القصة فى حد ذاتها - التى تناولها بشكل جيد جداً جيرار دى نرفال فى روايته «الملاهون Les illuminés» ، ولكن ما يهمنا أن نلفت النظر إليه هنا هو أن يلجأ دجال كبير وذلك فى عصر قولاتير صاحب كتابى زائير ومحمد إلى مصر ليستقى منها النور الذى يجعل مشروعه يبرق للرجة خلبت ألباب الناس وذلك على أعتاب العروش المالكة !

إذا كان بالسامو هو كاريكاتير لافتنان قرن التنوير بالحضارة المصرية ، فإن موزار يقدم أسمى صورة لهذا الافتنان . إن الفلاسفة الماسونيين هم الذين قادوه نحو مصر : ففي عام ١٧٧٣ وكان فى السابعة عشر من عمره طلب منه تأليف المقدمة الموسيقية وموسيقى أغانى الكورس وكذلك القطع التى تتخلل فصول عرض مسرحية تاريخية . اسمها «تاموس ، ملك مصر» للمؤلف توبياقون جبيلار ، الذى كان يرأس جمعية ماسونية فى مدينة فيينا وقد بدأ جبيلار بالموسيقار جلوك صاحب أوبرا «أورفيوس» إلا أنه رفض العرض علماً بأن جلوك كان ماسونياً أيضاً .. أما موزار فقد تحمس للعرض حتى أنه أعاد كتابته وأضاف إلى تأليفه الموسيقى بعد سبع سنوات من العرض الأول أى فى عام ١٧٨٠

ازداد افتنان موزار بمصر القديمة بعد أن تعرف على أكثر المستنيرين شهرة إيجناز فون يورن صاحب كتاب عن الحضارة الفرعونية ، وهو الذى أوحى بتأليف «النأى السحري» كما كان الأصل الغامض لصورة شخصية ساراسترو . إلى هذه الفترة يرجع دخول موسيقار سالزبورج عضواً فى المجموعة الماسونية المسماة «نحو فعل الخير» ثم بعد ذلك فى المجموعة الأكثر أهمية وشهرة المسماة «الأمل المتوج حديثاً» .

ولكى نؤكد على أهمية الجنور المصرية لعمل موزار الموسيقى هذا ، فإننا نشير إلى أنها لما عرضت لأول مرة فى أوبرا باريس عام ١٨٠١ كان ذلك تحت عنوان «أسرار إيزيس» ، وبهذه المناسبة نشير أيضاً أن هذا المسرح ذاته هو الذى عرضت فيه قبل ذلك بنصف قرن - أوبرا - باليه «ميلاد أوزيريس» للموسيقار الفرنسى رامو .

لم يكن الجو العام مشبعاً فقط بالموسيقى والأغانى .. فقد كانت خطوط الزخارف والمعمار أيضاً تشارك فى تأكيد الوله المرضى الملح بمصر القديمة .. ففي الوقت الذى

كان فيه ملك بروسيا فريديريك - جليوم الثانى - (وهو بالمناسبة ماسونى أيضاً) - يملك حدائق فى مدينة بوتسدام مزينة بالأهرامات والمسلات وأبا الهول - ويتشبه به جوستاف الثالث ملك السويد فى مدينة هاجا ، كان يتم بناء منبج للعجل أبيس فى لرسدن «وكان بمثابة تجميع لكافة المواضيع المصرية الشائعة حينذاك» (12) .. فقد كان المشهد الجمالى الفرنسى يعيد تشكيل ذاته فى نفس هذا الاتجاه . وفى هذا الصدد .

كتب المؤرخ الفنى لوى هوتكور يقول : «منذ عصر لويس الرابع عشر انتشرت تماثيل أبو الهول كتكئات للكراسى وكحاملات لرخام الكونسولات .. والأشكال الإيزيسية المختلفة المنحوتة فى البرونز كانت تثبت فى رخام مداخن تدفئة المنازل . كما أن المسلات كانت تنتشر فى الحدائق بجانب الأكشاك والمباني الأخرى المستوحاة من الشرق الأقصى» . (13) كل ذلك زاد انتشاره لدرجة الجنون غداة الحملة على مصر ثم طوال فترة الإمبراطورية النابليونية : فلم يكن هذا الاتجاه بمثابة تشبه بتيار سائد لموضة العصر ، ولكنه كان يحدث من باب تقديم فروض الواجب للإمبراطور .

وقد أعطى كتاب وصف مصر والرسام فيثان دونون للفنانين المجلين وإلى المعماريين المستندات الجادة التى تسمح لهم بالإستهلام الدقيق منها .

ومع ذلك فقد ظهر استثناءان أمام هذا التيار الجارف : أولهما يتمثل فى مجموعة مؤلفى كتاب دائرة المعارف أو الإنسيكلوبيديون فقد وقفوا متحفظين إزاءه على الرغم من أن قرن الفلاسفة كله كان يبدو مسكوناً بأشباح الأهرامات وأسرار إيزيس والطقوس السرية المصرية القديمة .. والذى يتصفح اليوم الإنسيكلوبيديا الأولى هذه معتقداً أنه سيجد بها العديد من الرسومات الكاشفة عن الولوج المرضى بالمصريات الشائع فى ذلك العصر من خلال الماسونية سيصاحب بخيبة أمل . ففى باب الآثار القديمة الثرى بالموضوعات لن يجد سوى لوحة واحدة للمعمار المصرى بها صورتان ضعيفتان للأهرام وواجهات المعابد .. علماً بأن الشخصيتين اللتين أشرفتا على تأليف هذا المرجع الأساسى ، هما بيدرو ودالمبار لم يكن ليرفضا أى شىء للماسونية التى هى مرتبطة ارتباط وثيقاً بالولع بمصر القديمة .

ولا يجد المرء أى مبرر لعدم اهتمام القائمين على هذا المؤلف الأساسى بحضارة وادى النيل العظيمة .. فهل ضايقته «الموضة» المصرية بيدرو ودالمبار فأرادوا أن يقفوا فى وجهها ؟ هل استنبطوا وجود عملية غش وراء هذا التيار يريد العودة إلى نوع من الإيمان المزيف ؟ وهل وجد أن هذه الطقوس الدينية وتلك الأسرار والاحتفالات

التجزيية للدخول فى عضوية الجمعيات السرية عودة مقلقة إلى مقدمات التدين ؟ علينا أن نسجل فى جميع الأحوال هذا التحفظ . فهو موقف لا يبرره عدم وجود مستندات جادة أو آثار حقيقية : فقد كانت روما مليئة بهذه الآثار كما سبق وأشرنا .

أما الاعتراض الآخر الذى تصدى لموجة الولوج بمصر القديمة فقد تمثل فى شخص المؤرخ الفنى : وينكلمان فقد نشر كتابه تاريخ الفن عام ١٧٦٤ ، وعندما كان التيار فى أوجه .. ويعتبر هذا الكتاب بمثابة نشيد مدح يمجّد هيمنة الحضارة اليونانية لدرجة أن جميع الحضارات الأخرى بجانبها تبو كما لو أنها موصومة بإدانة فنية ولا يرجع ذلك إلى عدم معرفة جوهان وينكلمان بمصر : فقد درسها بطريقة أعمق من الذين سبقوه ولدرجة أنه يمكن القول إنه ساهم فى الكشف عن عالم الفراءة . إلا أنه كان يعتبر مصر لحظة زمنية أو ظهور انثروبولوجى مفاجئ فى التاريخ البشري - ولا يعتبرها فصل من فصول تاريخ الفن . فبالنسبة لوينكلمان تعتبر مصر الفرعونية شاهداً على قدرات الإنسان وعلى قدراته الاجتماعية الخلاقة واهتماماته الدينية لا على عبقريته الفنية . إنه يرى فيها مجتمعاً فى طور التكوين مما يشمل من آلهة وكهنة وملوك . مقدمة أو مسودة لنظم كانت ستظهر بعدها - وهو لذلك لم ير فيها الجمال الذى يعبر عن نفسه وهو الشيء الذى يعود اكتشافه إلى شامبوليون .

قبيل اندلاع الثورة الفرنسية أضيف مؤلفان مهمان إلى المجموعة الشاملة للمراجع المصرية التى كانت تمكن العلماء من مختلف التخصصات من المراجعة والبحث .. ويعتبر أحد هذين المؤلفين من الأعمال الرئيسية الهامة * .

كلود سافارى كان يسافر للمتعة الشخصية . وكان عمره ستة وعشرين عاماً عندما قام برحلته إلى مصر حيث مكث فى القاهرة وضواحيها القريبة ثلاث سنوات بين ١٧٧٦ حتى ١٧٧٩ لم يكن عليمًا بمصر القديمة علمًا بأنه قرأ أعمال «ماييه» و«سيكار» وهو يرجع إليهما تون ذكر اسميهما - بل كان اهتمامه منصباً على المجتمع

* من الصعب أن نحدد هنا بدقة مكانة سوتيني لدى مانونكور وهو معاصر لسافارى ودى فولنى . أما كتابه «رحلة إلى مصر السفلى والعلية» التى قام بها بين عامي ١٧٧٧ و١٧٨٠ لم ينشر سوى عام ١٧٩٩ - بالإضافة إلى أنه كان من تلاميذ علامة الأحياء «بوفون» ولم يلق على آثار مصر الفرعونية سوى «نظرة سريعة قلقة» فلم يشاهد طيبة سوى من بعد و «فى عجالة»

المصرى المعاصر له . غير أن كتابه «خطابات مرسله من مصر» يحتوى على الأقل على وصف لرحلة قام بها للجيزة . كتب فيها : «رأينا قمتى هرمين كبيرين إن منظر هذه الأثريين العتيقين اللذين قاوما تخريب الأمم وسقوط الامبراطوريات وأثار الزمن المدمرة يثيران الاحترام فى النفوس ... تحية إلى آخر عجائب العالم السبعة !! وتوقيراً لعظمة الشعب الذى شيدها !!» .

ثم يلى ذلك وصفاً لزيارته هرم خوفو وهو يزحف بين الثعابين والخفافيش داخل المجرى المؤدى للغرفة الجنائزية وتابوتها المفتوح والمنهوب . كان هذا الكاتب ذا نية حسنة ومتفاعل ويتضح ذلك فى هذه الرسالة التى تضمنتها مجموعة «خطابات مرسله من مصر» . يقول فيها : «إذا وضع هذا البلد الجميل بين يدي أمة صديقة سيعود ليصبح مركز تجارة العالم كله . والجسر الذى يربط بين أوروبا وآسيا . وستعود هذه البلاد السعيدة لتكون مرة أخرى وطناً للعلوم وأسعد مكانا يقام فيه فى العالم . صدقنى يا سيدى إذا قلت لك أن هذه المشاريع ليست تهيئات مستحيلة التحقيق» . لذلك يمكن اعتبار سافارى بالرجوع إلى هذا الحديث ، أحد رواد الحملة التى جردت بعد ذلك بخمسة عشر عاماً .

أما كونستانتان دى شاسبوف ، وكنيته «فوانى» فقد كان معدته مختلفاً . فهو مولود عام ١٧٥٧ فى منطقة مان ولوار وهو صديق للانسيكلوبيديين وكان شديد الإعجاب بفولتير لدرجة أنه اختار كنيته هذه تعبيراً دائماً عن تبجيله لأستاذه فالمقطع الأول مأخوذ من الجزء الأول لفولتير والمقطع الثانى مأخوذ من المقطع الثانى للبلدة التى يقيم فيها : فرنى .. كما أنه لم يبدأ رحلته إلى الشرق من عام ١٧٨٣ إلى ١٧٨٥ إلا بعد أن درس اللغة العربية لمدة سنتين كاملتين .. وكان ذلك نون جنوى فقد اتضح له أن ما درسه فى الكوليج دى فرانس علاقته بعيدة عن المستخدم فى الحياة اليومية لسكان وادى النيل .

إن كتابه «رحلة إلى مصر وسوريا» الذى نشر عام ١٧٨٧ يدخل فى باب علم الاجتماع ويعتبر تمهيداً لما كتبه «توكفيل» بعد ذلك . وقد نشر مرة أخرى عام ١٨٥٢ ضمن أعماله الكاملة وتظهر فى مقدمة الكتاب مقدمة - لم يذكر اسم محررها - يؤكد فيها أن «الرحلة ..» «عرفت نجاحاً سريعاً ومثاقفاً وأقل إثارة للجدل عن أى كتاب آخر» وينقل كاتب المقدمة عن الجنرال بارتيه قوله فى كتابه «سرد للحملة على مصر» : «إن كتاب فوانى كان بمثابة دليل الفرنسيين فى مصر . وهو المؤلف الوحيد الذى لم يخذلهم أبداً» .

يصف قولنى بدقة المكونات المختلفة لسكان مصر وهو يقول عن الأقباط : «هذا الجنس من الرجال السمر عبيدنا وموضع ازدياعنا هو نفس الجنس الذى ندين له بفنوننا وعلومنا وحتى باستخدامنا للتعبير بالكلمات» - وعن الممالك يقول : «إنهم عبيد لأقصى الأسياد استبداداً لا قانون لهم سوى العنف الذى يتسم به العسكر المتوترين والأجلاف (....) وإذا اجتمعوا كان ذلك تجمهراً وإذا ساروا فمحتشدين وإذا حاربوا فهم كقطاع الطرق (....) إن نفوسهم نفوس الأرقاء وهم فى منزلة الملوك ...» .

ويعد أن يرجع إلى أعمال مايبه وسيكار وبوتوك ونورد ونيهبور وسافارى يتسائل قولنى : «ما هو مصدر حمس الرحالة إلى مصر؟» أما هو فتخليه لا تجد فيه أى قدر من الحماس ؛ إذ يقول : «إن فنون مصر الآن هى فى مرحلة الطفولة والأفكار فيها تعيش عصر البربرية (...). هيئتها العامة هى الانهيار التام والفقر المدقع (...). هذا الشعب يستحق الشفقة لا الازدياء وهو سيترحرر من عبوديته إن توفرت له الوسائل (الآن) النار المكورة لا تنتظر سوى اليد التى تعرف كيف تحركها ...» .

ثم نقرأ هذه التأملات التى لا بد وأن تثير الإعجاب ، فهى ترفع من شأن المعبر عنها من كونه رحالة جسور إلى مستوى المؤرخ :

«لا ريب أن الاهتمام بهذا الشعب هو الذى يجب أن يثير الاهتمام بالآثار .. ولكن إذا امتلكت مصر أمة محبة للفنون الجميلة * فهى ستجد فيها إمكانات تسمح بمعرفة العصور القديمة وهى الإمكانيات المستعصية علينا فى أنحاء الأرض الأخرى (...). إن هذه الآثار القديمة الشامخة مدفونة فى الرمال لتصونها كما لو كانت فى خزن خاصة وذلك لمصلحة الأجيال القادمة .. وعلينا أن نؤجل رجاءنا وأملنا فى حل لغز اللغة الهيروغليفية إلى ذلك الحين ولعله يكون أقرب مما نتصور . علماً بأنى أعتقد أن الوسائل المتاحة حالياً تكفى للوصول إلى حل الشفرة هذه» .

ويمكن أن نتصور تأثير قراءة هذا الكلام على رجال مثل بونابارت وشامبليون من بعده - فهو كلام واضح جامع عن التفكك الذى يستدعى الفاتحين وعن الإمكانيات التى هى بمثابة الإلهام بالنسبة لجلاب الحضارة وعن العجائب التى تنتظر المستكشفين وعن الأسرار التى تلهب خيال الباحثين .. وإذا كنا لا نعرف على وجه الدقة تأثير كتاب

* نفس التعبير تقريباً استخدمه سافارى كما سبق ما أشرنا فى الصفحة السابقة . وهو بمثابة دعوة جديدة للإستعمار .

قولنى على الفيلسوف فإننا نعلم عن يقين أن الجنرال كان من قرائه المتحمسين ، وأن منه الرفيق الذى لا يفارقه فيما يتعلق بالشأن المصرى ثم أصبح فيما بعد من أصدقاء المؤلف .

عرف القرن الثامن عشر قمة المجد بقيام الثورة الفرنسية بظلالها وأنوارها ويتزامن معها وصول الولوج المرضى بالمصريات إلى هذه الدرجة السامية ذاتها وأفضل المعبرين عن الحكمة المتزايدة التى تميز بها هذا الزمن المضطرب هم ثلاثة رجال : نيقولا دى بونثيل وشارل نوبوى وألكسندر لوناوار .. فقد ساهمت الدعاية (ولو كانت كلمة بروباجندا قد اخترعت فى ذلك الوقت لكانت التعبير الأدق) التى قاموا بها فى إثراء الأيديولوجيا التى قامت فى البداية على أساس الموضوعات المستقاه من أهل روما القديمة كما كان يتصورها الرسام دافيد فى لوحاته - بموضوعات مصرية كما أنهم جعلوا من أحد أعظم الاحتفالات طقساً دينياً إيزيسياً هائلاً ، وكان ذلك بمناسبة افتتاح النافورة التى أقيمت على أنقاض الباستيل . نافورة «إعادة الشباب» .

● نيقولا دى بونثيل كان من الماسونيين وكان من المقرر إعدامه بالمقصلة لولا أن قيام حركة التاسع من شهر تيرمبور الثورى أنقذ رقبته . وقد نشر كتاب «روح الأديان» عام ١٧٩١ حاول فيه - كما فعل أستاذه كور دى جويلان - أن يجعل من عالم الآلهة المصريين القدماء المصدر الرئيسى لأفكار الثورة وإرهاصات ميلاد دين عالمى جديد تكون أهم آلهته إيزيس والمسيح وفى ركبهم يسير آلهة مصر الآخرون .

● شارل نوبوى كان أستاذاً فى الكوليج نو فرانس وعضواً فى الجمعية التأسيسية نشر بعد ذلك بثلاث سنوات كتاباً عنوانه «أصل الديانات أو الديانة العالمية» الذى زعم فيه أن هذا الأصل لا يمكن أن يكون سوى على ضفاف النيل . ويزعم فيه أن المسيحية ما هى سوى اقتباس للمعتقدات المصرية القديمة . ويذهب مريده بسيلفان ماريشال إلى أبعد من ذلك شارحاً ما قاله على طريقته بأن كتب يقول : «إن عابدى المسيح لا يعرفون أن تقديسهم لمريم مصدره موجود على ضفاف النيل»⁽¹⁴⁾

● الكسندر لوناوار كان من تلاميذ نوبوى .. عين عام ١٧٧٠ مسئولاً عن المبانى العامة . وبعد ذلك بتسعة عشر عاماً نشر كتابه : «شرح الكتابة الهيروغليفية» * .. وكان هذا الكتاب هدفاً لأسلوب شامبوليون الساخر فيما بعد .. ولكنه كان يؤكد فى

* انظر الفصل السابع .

وقت قيام الثورة وبإصرار ، مستنداً في ذلك إلى الهيبة التي تضفيه على شخصه وظيفته الرسمية ، أن المسيحية ليست سوى تحويراً لديانة طيبة وأن «الأشكال الرمزية للشخصيات التي تتزين بها واجهات كنائسنا القديمة هي نوع من الرموز الهيروغليفية المشابهة للرسومات المصرية القديمة» .

وتعليقاً على ذلك كتب بالتروسايتيس يقول «لقد انقلبت الأوضاع في الفكر الثوري . لم تعد مصر أسطورة للحكمة الموازية للعهد القديم في التوراة . فقد استخدمت الأسطورة المصرية حينذاك في عملية إسقاط المسيحية وذلك بإعادتها إلى مستوى الديانات البدائية . واعتبرت رواية أوزيريس وقصة المسيح رمزاً للموت والعودة إلى الحياة كما هو الحال بالنسبة للدورات التي تعرفها الطبيعة ...» . ويضيف بالتروسايتيس قائلاً : «ولكن من المعروف أن أي نضال مناهض لأي دين ينتهي به الحال بأن يصبح ديناً آخر» .⁽¹⁵⁾ وقد اعتنق الكسندر لونوار دين إيزيس وأصبح ابتداءً من عام ١٨١٢ أهم المبشرين به . المهم هو أن كل شيء كان يأتي من مصر ويعود إليها .. ولذلك فإن الشاب الذي بدأ يدخل مرحلة الوعي في بداية القرن الجديد لم يجد موضوعاً جديراً بالاهتمام أكبر من «مصر الصامتة» .

في خضم هذه اللجة من حمى الولوج بمصر وتخيل عالم آلهتها بزغت أكثر الأفكار جنوناً والتي يمكن أن تعبر أبداً عن فكر رجل من رجال النولة وخاصة إذا كان رجل النولة هذا هو شارل - موريس دي تاليران - بيريجور وزير خارجية حكومة «الديركتوار» الذي يعتبر أكثرهم وضوحاً وأكثرهم رجاحة وعمقاً في رؤاهم . فهو الذي حول حلم الحملة على مصر الذي دأب خيال بعضهم إلى مشروع سياسي وحربي علماً بأنه نفى ذلك فيما بعد .

الفكرة نفسها نبتت قبل ذلك بفترة طويلة - ففي كتابه «التاريخ العالمي» أكد «بوسوييه»⁽¹⁶⁾ أن إعادة الكشف عن روائع طيبة قد تكون من الأعمال السامية الجديرة «بالمالك العظيم» (لويس الرابع عشر) .. ثم في منتصف القرن التالي - الثامن عشر - جعل «شوازل» من نفسه بطل حركة المطالبة بضم وادي النيل إلى فرنسا : الواقع أن تاليران عندما أعلن تأييده لفكرة قيام حملة عسكرية على مصر على أساس ما أورده في شرح أسباب ذلك قنصل فرنسا في مصر ابن مرسيليا : شارل ماجالون - رجع في تأييده هذا إلى سلفه الأشهر شوازل - وكان ذلك في صورة بحث تقدم به إلى «معهد فرنسا» (لانسيتيتو) عام ١٧٩٧ ثم في مذكرة بعث بها إلى حكومة الديركتوار في يناير ١٧٩٨ أوضح تاليران في هذين البحثين أن الامبراطورية العثمانية على وشك الانهيار وعليه فيتعين على فرنسا أن تستولى على بعض من حطام هذا الانهيار وعلى مصر بالذات ، خاصة وأنه لم يعد لتركيا فيها «أي قدر من السلطة» .

وقد ناقض شاتوبريان هذا الكلام فيما تضمنه كتابه «مذكرات من وراء اللحد» :
«يتحمس الفرنسيون للرجة النشوى بالحملة العسكرية على مصر .. إنهم لا يرون أنهم بذلك
يطعنون النزاهة بنفس القدر الذى يطعنون به أيضاً الحق السياسى : ففى إطار السلام
الذى يخيم على العلاقات التى تربطنا بأقدم حلفاء فرنسا * نقوم نحن بمهاجمتها ومنتزع
منها مقاطعتها الخسبة فى وادى النيل .. وذلك لئلا نعلن لحرب كما لو كنا مثل
الجزائريين فى إحدى غزواتهم على مرسيلىا أو مقاطعة بروفانس⁽¹⁷⁾ ليستولوا عليها .»

فى تقرير تالى رفعه الوزير لحكومة الديركتوار فى الرابع عشر من فبراير ١٧٩٨
عاد مرة أخرى يستشهد بأراء سافارى وقوانى ليؤكد «إن مصر لا تنتظر سوى قيام
حكم عاقل ومنتور ليستثمر ثرواتها» وراح بعد ذلك فى تطوير فكرة جديدة مفادها أن
احتلال مصر سيسمح بإعادة فتح الطريق إلى الهند من السويس وهو بمثابة «ضرب
انجلترا فى مقتل» . كان الموضوع إذن فى تصور تاليران هو القيام بعملية ذات هدف
مزبوج استعمارى واستراتيجى . علاوة على كونها مناوره فى السياسة الداخلية :
فمثله مثل بقية أعضاء حكومة الديركتوار - وعلى رأسهم الوزير بارأس أراد تاليران
أن يبعد بونابارت عن فرنسا فاتح إيطاليا وكانت شهرته قد بلغت أوجها مما بدأ يهدد
السلطة القائمة التى هى أصلاً هشّة وضعيفة . ولكن بونابارت تردد فى قبول المهمة
حسبما قال أخوه جوزيف . وإذا كانت فكرة المغامرة قد داعبته للغاية كما تشهد على
ذلك برقية بعث بها إلى «الديركتوار» قبيل عودته من راشنات وما أسر به إلى سكرتيره
بوربان فى إيطاليا إلا أنه استشعر - كما يورد فوشيه (وزير الداخلية) - فخاً ينصبه له
بارأس وتاليران «ولكن ما هو الحل ؟ هل يعبر البحر إلى انجلترا فيكون ذلك مخاطرة
أكبر مما يمكن أن يحتمل نتائجها أم يبقى على حاله فيتاكل هو وما قام به أيضاً ؟
اختار إذن أن يسلك الدرب الذى سبقه عليه قيصر ... نحو الشرق فى أثر الإسكندر
الأكبر . اختلطت فى نفسه أكثر الأحلام رومانسية مع أكثر الأفكار واقعية وأكثر
الحسابات دقة . لابد وأنه رأى ما فى هذا المشروع من «هوس الجنون»⁽¹⁸⁾ إذ أنه
سيحرم فرنسا من أفضل جيش لديها ومن أفضل جنراتها الاستراتيجيين فى الوقت
الذى كانت الحرب تهددها من جديد .. بل إن المشروع كان يمكن أن يغرقهم تماماً
وإلى الأبد لما كان لانجلترا من تفوق بحرى هائل فى البحر الأبيض المتوسط .. وعليه
فما هو مقدار فرصة الأسطول الفرنسى فى الإفلات من مطاردة تلسون له ؟ الإجابة
هى : الفرصة معدومة ... ومع ذلك اختار بونابارت أن يعتمد على نجمه العالى .

* إشارة إلى المعاهدة التى أبرمت فى القرن السادس عشر بين فرنسا والأول والمعاهل التركى .

لما كان العدو الرئيسي في لندن وإمعاناً في تضليله حتى لحظة الإقلاع فإن الوجهة الرسمية للحملة البحرية كانت الجزر البريطانية وكان النداء الذي وجهه بونابارت لقواته لحظة فرد الأشرعة في ١٩ مايو ١٧٩٨ يبدأ هكذا : «أيها الجنود ، إنكم أحد أجنحة جيش غزو انجلترا .. ولذلك فعليكم أن تخوضوا حروب البحار ...» .

حاول نابليون في منفاه بجزيرة سبانت هلين أن يسرد أنبل رواية لأحداث هذه المغامرة المتهورة للماريشال برتران* واستمر هذا السرد لعدة أيام طوال ... كما أن نابليون يكرر على مسامع لاس كان ما يدعى أنه قاله أثناء الحملة : «لقد جئت لكي أحول اهتمام أوروبا وأثبت أنظارها على العالم القديم في مركزه»⁽¹⁹⁾ أى أنه اعتبرها نوعاً من «الدعاية لمصر» .. ولكن يخطئ من يكتفى بالاستهزاء من هذا القول - لأن الرفعة والسمو عنده كثيراً ما كانا يتواءمان مع البشاعة واللامعقول .

يجدر أن نسجل أيضاً أن عام ١٧٩٨ هو الذي ظهر فيه كتاب إيتيان لوتيه «رحلة أنتينور إلى بلاد اليونان وآسيا» الذي طواه النسيان وقد أقر المؤلف أنه نقله عن كتاب الأب بارتيليمي : «رحلة الشاب أنارشايزيس» . وعشية قيام الحملة كتب شاتويريان مشيراً إلى هذا الكتاب عند نشره فيقول : «.. حتى «رحلة أنتينور» بدت في أول الأمر على أنها واقع جاد : «سندخل إلى مصر الغامضة .. نفتش أرجاء الأهرامات ... نفك طلاسم الهرمات غيغية ..»⁽²⁰⁾ .

ويشكل عام فإن فكرة تكليف الحملة العسكرية بمهمة علمية موازية لها تكشف عن أكثر الجوانب إيجابية في عبقرية بونابارت . في كتابه «مغامرة بونابارت في مصر»⁽²¹⁾ كتب الكولونيل الإنجليزي «إلجود» يقول : «تعتبر هذه الحملة بمقارنتها بجميع حروب نابليون أعظمها من الناحية الإنسانية وأكثرها جدارة بالاهتمام» كما أنه يشير أيضاً إلى أن مثل هذه الأفكار قد دارت من قبل في ذهن كل من ريشوايو .. كولبار وهناك آخرون يفضلون الإشارة إلى سابقة الإسكندر الأكبر الذي اصطحب معه أيضاً المفكرين والفنانين» .

بعد عودته من إيطاليا بفترة قصيرة انتخب بونابارت عضواً في «المعهد» أو «الإنستيتو» قسم «الميكانيكا» . وما أن اتخذ قرار القيام بمغامرته في مارس ١٧٩٨ إلا وسارع باستدعاء زميليه مونج وبرتوايه - الأول رياضي أشهر والأخر كيميائي عظيم - لينضموا إليه في مشروعه . ويبدو أن مونج قد تناقل في بادئ الأمر مما حدا به بأن يكلف برتوايه بتجنيد أعظم الرجال من أجل القيام بحملة علمية كبرى تون تحديد

* برتران كان هو أيضاً من أعضاء الحملة على مصر .

وجهتها كما أنه كلف الجنرال كافاريللى نو فالجا ضابط سلاح المهندسين الذائع الصيت والجدير بالاحترام - ليقوم بالمهمة ذاتها .

بعد شهرين كان الجنرال القائد الأول «لجيش حملة انجلترا» فى طريقه إلى ميناء طولون وهو على يقين من أنه يمكنه أن يعتمد على خدمات كتيبة مكونة من أفضل العقول التى عرفها ذلك العصر . وقد أعلن نابليون حينذاك : «ثلث أعضاء «المعهد الانستيتو» مصاحبون لنا فى الحملة» . ولكن ما هو الهدف من ذلك ؟ لقد بقى السر محفوظاً * بدقة على الرغم من أن بوناپرت قد قام بمصادرة جميع الحروف العربية الموجودة فى جميع مطابع روما وأن سيلفستر نو ساسى المكلف بتدريس اللغة العربية فى الكولاج نو فرانس قد اشتكى من أن أفضل تلاميذه قد تم تجنيدهم فجأة فى حين أن زميله أستاذ العلوم الشرقية لانجلاس - الذى سيدخل فى صراع مع الأخوين شامبوليون - رفض الانضمام للحملة كما رفض الشاعر نوسيس والموسيقى ميهول .

سواء سافر لانجلاس أم لا فإن بريق هذه الكتيبة لم يضاهيه بريق أى مجموعة أخرى فى ذلك العصر : ١٦٧ عالماً ومهندساً وفناناً وعالم آثار (اثنان منهم عادوا أدراجهم بعد الوصول إلى مالطة) كانوا أعضاء نذكر منهم : مونچ وبيرتوايه وفورييه (الذى سيلعب دوراً هاماً فى موضوعنا هذا) وچوفروا سانتيلا - وعالم الاقتصاد چان - باتيست سى وعالم الجغرافيا إدم چومار والمهندس نيقولا كونتى وعالم المعادن ديودا دى تولوميو والطبيب جراح لارى (الذى قال عنه نابليون فى وصيته أنه «أكثر الرجال الذين عرفتهم فضيلة») والطبيب دى چينات والرسانان نوترتر وروبوتهيه والمستعرب فانثور دى بارادى - الذى أصبح مترجم بوناپارت، والذى لقى حتفه فى حصار عكا - وأهمهم من وجهة نظرنا «ثيفيان ديتون» رسام وعالم من علماء الجمال وروائى و«مراهيل» صحفى والذى أصبح مؤرخ الحملة والذى سنلقاه بعد قليل بصفته هذه .

* كتب عن ذلك فيلار نوتراج فى «يوميات ونكريات من الحملة على مصر» (١٨٩٩) : «قرار الحملة على مصر اتخذته الديركتوار فى ٥ مارس ١٧٩٨ (١٥ فانتوز عام ٦) . وانتشرت الشائعة فى أنحاء باريس تقول أن هناك حملة جديدة على وشك أن تقوم (...) ولا أعلم لماذا تصور البعض أنها ستكون بعيدة على الرغم من أن مقصدها ظل سراً لا يعرفه أحد . ومع أن البعض قال أنها ذاهبة إلى انجلترا إلا أن القليل من الناس صدقوا هذا القول على الرغم من الأمر الذى أصدرته الحكومة إلى بوناپارت بالتوجه إلى ميناء بريوت . وسرعان ما عُرِف أن مونچ وبيرتوايه وفورييه والعديد من العلماء سيصاحبون الجنرال القائد العام فى حملة التى بدت أنها ستكون عملية بقر ما هى عسكرية .

وماذا عن علماء المصريين ؟ لا يوجد أحد - لسبب بسيط هو أن علم المصريين لم يكن معروفاً بعد وأن هؤلاء الرجال بالذات هم الذين سمحوا لجان - فرنسوا شامبوليون بأن يؤسس هذا العلم بما نتج عن رحلاتهم من تسجيل للملاحظات وجمع للمستندات ورسم للصور وجمع للمواد والأشياء - وهناك سبب آخر وهو أن الأصل في الحملة كما تصورها مخطوطها بما فيهم بوناپارت هو أنها حملة استعمارية . وأصطحب العلماء كان هدفه الأول هو الإعداد للاستغلال العلمى والتنمية التقنية للبلاد . لقد كان الهدف الموضوع لمهندس المساحة والميكانيكا والتعدين ولعلماء الطبيعة والاقتصاد والكيمياء والجيولوجيا هو إقامة أول عمل استعماري علمى ولم يكن الهدف هو البحث عن سيزوستريس . ولكن حدث بعد فترة أى فى صيف ١٧٩٩ أى بعد فشل العملية السياسية العسكرية أن قرر بوناپارت عشية انسحابه المفاجئ أن يثار من القدر بطريقة مدهشة بأن أرسل حملتين علميتين إلى مصر العليا بهدف إرساء أسس ما عرف فيما بعد بعلم المصريين .

لن ندع أنفسنا نروى أحداث المعارك التى جرت من الأول من يوليو ١٧٩٨ حتى الثانى من سبتمبر ١٨٠١ والتى أدت - مروراً من انتصارات براءة إلى كوارث كبيرة ، من الأهرامات إلى أبو قير ومن عكا إلى طيبة ، قبل وبعد الانسحاب السرى للجنرال القائد العام (٢٢ أغسطس ١٧٩٩) - إلى الرحيل المخزى لما تبقى من قوات الحملة (أربعين فى المائة من القتلى والمفقودين) على ظهر الأسطول البريطانى . فمن وجهة النظر هذه كان الفشل ذريعاً والخسائر فادحة والمحصلة النهائية كئيبة .

إن ما يهمنا هنا - مع وعينا بأن نشاط البعض لا يمكن فصله من العمليات التى قام بها الآخرون - هو ما اتخذته اللجنة العلمية فى مجال المعرفة بمصر القديمة والحديثة - أكثر من اهتمامنا بالتحركات التى قام بها بوناپارت وكليبر . ودوسى وصوراً مع العلم بأن عملياتهم هذه كثيراً ما كانت هائلة - وسنرى فى هذا الصدد أن ثقافة شخصية مثل دوسيه أوبيليار أو مينو قد أفادت المكتشفين والفنانين .

فى ٢٢ أغسطس ١٧٩٨ أى بعد بضعة أسابيع من دخول القاهرة أسس بوناپارت «معهد مصر» * واحتفظ لنفسه فيه بمقعد فى قسم الرياضيات إلى جانب كافاريللى وأيضاً (فى المراحل الأولى) إلى جانب ياوره المقرب له جوزيف بسولكوفسكى الذى كان

* يطلق عليه اليوم «المجمع العلمى المصرى» ومقره بالقاهرة بشارع القصر العينى
إلا أننا سنحتفظ هنا بالترجمة الحرفية له «معهد مصر» Institut d'Egypte (المترجم) .

نيبلاً بولندياً انضوى تحت لواء الثورة الفرنسية وكان دارساً متميزاً للغة العربية وقتل خلال ثورة القاهرة الأولى (أكتوبر ١٧٩٨) .

كانت أعمال المعهد ذات أبعاد ثلاثة : الأولى وهى ذات صبغة استعمارية أولية استهدفت المنفعة الفورية : مثل خميرة الخبز وصيانة الترع وتحسين الري وإنشاء الورش وكان الذى يسهر على هذه الأنشطة هو «كونتى» وكان يتمتع بفكر خلاق لا مثيل له وكانت هذه الأعمال تعمل على تلبية احتياجات الجيش الميكانيكية والمادية وعلى تجهيز البلاد بالمعدات اللازمة وإلى تنمية المنتجات الزراعية ... بينما كانت توجد مطبعتان تنشر إحداهما صحيفة «لوكوربيه نو ليجيت» تحت إدارة قوربيه سكرتير عام المعهد و «لاديكاد إيجيبسيان» تحت إشراف تاليان .

النوع الثانى من الأعمال التى نيطت بالمعهد كانت تلك التى تستهدف تقييماً علمياً لحالة مصر المعاصرة . وأحد نتائج هذا النشاط هو الصرح العظيم كتاب «وصف مصر» . الذى هو بمثابة شاهد على عصر ألقته مجموعة من العلماء المثقفين ونشر منذ ١٨٠٩ فى عشرين جزءاً ويعتبر الانعكاس الأكثر دقة للواقع يسمح به تقدم العلوم فى ذلك الوقت . وسنعود إلى الحديث عنه بالطبع .

أما النوعية الثالثة لهذه الأعمال فقد انكبت على إعادة اكتشاف مصر القديمة . كان بونابارت واقعاً تحت سحر الإسلام (وكان قد أعلن أنه حامى الإسلام لدى دخوله القاهرة علماً بأنه أقر فى منفاه بجزيرة سانت هيلينا فيما بعد أن قوله هذا كان فيه شىء من «الشعوذة») ويبدو أنه لم يكن يعطى اهتماماً كبيراً بالحضارة الفرعونية . وفيما عدا الأهرامات التى أتاحت له فرصة النطق بعبارة صارت تاريخية – علماً بأن البعض يشكك فى أنه أطلقها أصلاً فإن صروح وأثار وادى النيل لم تؤثر فيه فيما يبدو كثيراً .. فإذا طالعنا كتاب «تذكار سانت هيلين» سنقرأ ما يلى :

«يقول لاسكان إنه كان (أى بونابارت) يعتبر أن كل ما رآه فى مصر وعلى وجه الخصوص هذه الأطلال التى تثير كل هذا الإطناب لا يقبل أى مقارنة بباريس (...)

وكان الفرق الوحيد فى رأيه يكمن فى أن مصر تحتفظ بآثار خالدة بفضل صفاء سماءها وطبيعة موادها الأولية فى حين أن درجات الحرارة الأوروبية لا تسمح بذلك أبداً فى بلادنا ... وكان يندم كثيراً على الرغم من ذلك لأنه لم يقم معبداً مصرياً فى باريس⁽²²⁾» .

عندما زار الجيزة رفض أن يزور الهرم الأكبر من الداخل لأنه اعتبر أن الزحف يعتبر عملاً لا يليق بمكانة القائد العام إلا أن رؤية الأهرامات جعلته يعلق عليها تعليقاً غير عادي ، إذ صُوق مونج عندما سمعه يقول إنه طبقاً لحساباته فإن الأحجار المستخدمة في بناء الأهرامات الثلاثة تسمح ببناء سور ارتفاعه ثلاثة أمتار حول فرنسا (وقد تأكد الرياضى مونج من صحة هذه الحسبة ..) . غير أن ج . س - هيرولد - أفضل المؤرخين البريطانيين للحملة - يشير إلى أن بوناپارت «وكان قادراً على تقييم جدوى ما هو عديم الجدوى» شجع هذا النوع من الأبحاث بعد أن شعر بأنها ستعود على بلاده بمكانة عظيمة .. وما أن صدر هذا التشجيع إلا وانطلق عديد من أعضاء اللجنة العلمية على الرغم من أن تكوينهم العلمى لم يكن يؤهلهم لأداء دور «الأثريين» فى رسم المعابد والبارواييف ونسخ الهيروغليفيات على قدر الإمكان وذلك لصالح الذين سيعملون على كشف الأسرار التى كانت لا تزال تحيط حينذاك بحضارة النيل ، فكان من بين هؤلاء من كان مساحاً مثل فيلار نو تيرج * وچولوا أو نوبوا - إيميه ، أو كان عالم جغرافيا مثل چومار أو عالم فيزياء مثل مالوس أو أحياء مثل نولوميو أو عالم لغويات مثل چان - جوزيف مارسيل أو رساماً مثل نوتارتر .

وكيف يمكن التعريف بالأعمال التى نهض بها معهد مصر بأفضل من نقل ما قاله أحد المشاركين فيها ومن شاهد فريد عليها ؟ فقد كتب جوفروا سانت هيلار إلى صديقه كوفييه يقول : «إننى أعيش فى المركز من بوتقة حية من الأنوار (...) إننا نهتم بكل نشاط بجميع المسائل التى تشغل الحكومة وبالعلوم التى تطوعنا بإرادتنا لخدمتها» (23) .

أما المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبترى الذى وصف الحملة فى موضع آخر بأنها «موجة من الكوارث الرهيبة» فننقل عنه هذه الملحوظة الجميلة عن مكتبة المعهد : «إذا تقدم أحد المسلمين (...) استقبله الفرنسيون (...) معبرين له عن سعادتهم بهذه الزيارة خصوصاً إذا ما اكتشفوا فيه الدراية والمعرفة والاهتمام بدراسة العلوم (...) كان ذلك بالفعل يخب الألباب . فقد زرت هذه المكتبة عدة مرات ...» (24) .

إذا كانت الحملة تعتبر كارثة سياسية وعسكرية لوثنتها أعمال مروعة لا يمكن حصرها(نجح بوناپارت وقد كان عبقرياً فى أعمال البروباجندا فى تحويلها إلى ملحمة جرت فى بلاد بعيدة وغريبة حتى يتمكن من فرض سيطرته فى (شهر «برومار» الثورى) ...

* الذى حور اسمه إلى نوبيلار إبان المرحلة الجمهورية .

إلا أنها كانت من وجهة نظر علم المصريات - الجينينى فى ذلك الوقت - فيضاً كريماً غزيراً .. بل يمكن أن نتحدث بصدد هذا - إذا اعتبرنا ذلك تلاعباً بالألفاظ أم لا بأنها كانت بمثابة عملية قيصرية .. إذ أنها أهدت دفعة واحدة إلى هذا العلم الوليد ثلاثة كنوز لا تقدر بثمن ألا وهى : حجر رشيد ، وكتاب «ريپورتاج» لفيثان بونون وكتاب وصف مصر .

فى التاسع عشر من يوليو ١٧٩٩ أعلن المواطن ميكال - أنج لانكويه - فى معهد مصر - عن اكتشافه فى رشيد عن مخطوطات «قد تكون ذات نفع كبير» (25) . ولم يمش شهران على ذلك الإعلان أى فى ١٥ سبتمبر إلا ونشرت صحيفة كوربيه دي جييت فى عددها السابع والثلاثين برقية مؤرخة فى ١٩ أغسطس أثارت الأمل فى قلوب جميع الذين يهتمون بحل لغز الهيروغليفيات - ومنهم على الأرجح الأخ الكبير من آل شامبوليون - الذى كان قد وصل لتوه لمدينة جرونوبل للإقامة فيها حيث اهتم سريعاً كما سنرى فيما بعد بكل ما يتعلق بالتاريخ القديم ويمصر على وجه التحديد (26) .

«رشيد فى الثانى من فروكتيدور العام السابع * .

«تم العثور وسط الأعمال التى قام بها المواطن نوتبول لتدعيم قلعة رشيد القديمة على الضفة الغربية للنيل (...) على حجر من الجرانيت الأسود الرائع . حبيباته رفيعة للغاية وصلب جداً لدى طرقة (..) ارتفاعه ٣٦ بوصة وعرضه ٢٨ بوصة ويتراوح سمكه من ٩ إلى ١٠ بوصات ** توجد على أحد وجهيه فقط المصقول صقلاً ناعماً ثلاثة مخطوطات مختلفة منحوتة فى ثلاث مجموعات من الخطوط المتوازية . المجموعة العليا - الأولى - مكتوبة بحروف هيروغليفية (...) المجموعة الثانية - الوسطى - مكتوبة بحروف يعتقد أنها سريانية *** . أما المجموعة الثالثة فهى مكتوبة باليونانية (...) تمت ترجمة جزء من النص اليونانى بأوامر من الجنرال مينو (...) يتيح هذا الحجر فرصة عظيمة لدراسة الحروف الهيروغليفية بل لعلها ستتيح فرصة إيجاد مفتاح لغزها .

* حسب التقويم الثورى الفرنسى .

** ١,٢٠ متر ، ٩٠ سم و٣٢ سم .

*** هى كما سنرى حروف ديومتيقية أى النسخة الشعبية والمتأخرة الهيروغليفية . ومنذ شهر سبتمبر ١٧٩٩ حدد اثنان من المتخصصين فى معهد القاهرة وهما ج - ج - مارسيل وريمى راج هذه الكتابة الوسطى بأنها «حروف متصلة» .

«تم تكليف المواطن بوشار * (...) الذى كان يتولى الأعمال الهندسية (...) بنقل هذا الحجر إلى القاهرة» .

يحدث كثيراً أن يمر الباحثون نون أن يدروا بجوار الكنوز نون أن يروها . ولا يمكن أن ينطبق ذلك على مكتشفى هذا الحجر الرائع ولا يمكن أن نقول أن رؤيتهم كانت تعونها الدقة : لأن هذا الحجر هو الذى أعطى «مفتاح» اللغز . إن الأهمية القصوى لهذا الحجر المكتشف وضحت تماماً وللوهلة الأولى أمام أعين هؤلاء الذين شاركوا فى العملية - وهو ما يلقي الضوء على نوعيتهم الرفيعة - من بوشار إلى توتبول ومن مينو إلى المحرر فى صحيفة الكورييه (المسئول عنها كما سبق ذكره هو جوزيف فورييه أمين عام معهد مصر والذى سنلتقى به فيما بعد ...) .

أهمية الاكتشاف وقد تاكدت بهذه الطريقة لم تكن لتخفى على أحد وعلى وجه الخصوص على الإنجليز . فبعد أن أجبروا مينو الذى تولى بعد بونابارات وكليبر على نصف استسلام فى أغسطس ١٨٠١ أصروا على ضم حجر رشيد إلى غنائمهم الحربية . وعلى الرغم من عناد مينو وإصرار أعضاء المعهد ** فقد أخذوه إلى «البريتش ميوزيوم» حيث لازال يجلس على عرشه فيه . وقد اضطر الباحثون الذين لم يتمكنوا من السفر إلى لندن إلى الاعتماد فى أعمالهم على نسخ غير دقيقة منه . ومن هؤلاء جان فرانسوا شامبوليون .

وفيما كان اللوح المقدس لعلم المصريين يتم الكشف عنه كان دومينيك فيشان يونان *** يستعد لترك مصر على متن الفرقاطة لامويرون إلى جانب الجنرال القائد العام ومعه أقرب القادة من معاونيه (مثل بيرتييه ومورا ولان ومارمون) وكذلك مونج وبيرتوايه . ولكن لا يمكن أن نقول أن هذا الأبيكوري (المحب للحياة) المقدم كان يغادر البلاد وأيديه ورأسه فارغة . فهو سيعطى إلى كل ما أنجزه وهو بجوار الجنرال بوسى

* الملازم أول بيير بوشار . ضابط مهندس ٢٧ عاما ، تمت ترقيته إلى رتبة النقيب بعد اكتشافه هذا بفترة قصيرة .

** «سمح الجنرال هاتشيسون للعلماء بالاحتفاظ بمجموعاتهم إلا أنه أصر على الاحتفاظ بحجر رشيد الذى تركه له مينو وهو يحتج : «إنك تريده يا سيدى الجنرال ؟ فيمكتك إذن الاحتفاظ به مادمت أنت الأقوى ...» (راجع جـ . س . هيرولد . بونابارات فى مصر ، الناشر : بلون ١٩٦٢ ، ص ٤٦٨) .

*** «فيشان» مثله مثل «دومينيك» هو جزء من اسمه المركب من اسمين أما لقبه دينون فكان يكتب فى كلمة واحدة حتى خلال النظام الذى سبق الثورة خلافاً لما يتردد كثيراً من أنه تركيبة من حرف «نو» وكلمة «نون» وهو الحرف الذى يدل على الانتماء إلى أسر النبلاء فى النظام الملكى السابق على الثورة : أبو فيشان كان رجلاً عادياً .

فى صعيد مصر بريقاً ستتردد أصدائه وتؤثر تأثيراً بالغاً على الرأى العام خلال السنوات الأولى من القرن يكاد يعادل تأثير حجر رشيد فى تأسيس علم المصريات أو على الأقل فى التقويم له .

كان بونابارت قد ضمه إلى الحملة على مضض تحت إلحاح جوزيفين حيث كان يلمع ويثير البهجة فى صالونها بأسلوبه المرح الذى كان يتسم به العهد السابق على الثورة . ولم يكن عضواً فى المعهد وقد تعدى عمره الخمسين - هذا القادم من مقاطعة بورجونى نو القلب الطيب الكبير والقلم المتألق كان بمثابة روح الحملة المتأججة وقناصها . ويبدو أنه كان ضمن القلة القليلة من «العلماء» الذين لا يدخلون فى زمرة الكوادر الخاضعة للنظام العسكرى . وكان ينظر إليه على أنه «ضيف» الجنرال القائد العام .

وإذ كانت تربطه علاقات صداقة بمينو فى منطقة الدلتا وبنوسيه فى صعيد مصر كان يبلى حراً تماماً فى تحركاته . كان يشاهد فى كل مكان من الإسكندرية إلى الأقصر يرسم المعابد والمعارك وصوراً من الحياة الشعبية . إلا أن أكثر ما سيثير إعجاباً مستحقاً به هو حصاد أعماله فى الصعيد . شارك عن قرب فى المعارك التى أبرز المترجم لحياته (إبراهيم غالى) وحشيتها⁽²⁷⁾ عن صدق وفى الحياة الصعبة اليومية للجنود . مما أثار احترامهم له . ثم بفضل ثقة كل من نوسيه ونائبه بيليار * لم يتوقف عن استخدام موهبته وثقوب رؤياه وهنوء أعصابه الذى ساعده كثيراً فى ظروف بالغة الصعوبة - من القيام بتنفيذ رسوماته التى صنعت شهرته العظيمة .

ويروى أناتول فرانس فى مقال خصه به فى صحيفة «لافى لىترار» (الحياة الأدبية) بعد أن عجز عن إيجاد الوقت اللازم للترجمة لحياة هذا الرسام الذى انضوى تحت لواء الثورة (والذى يشبه فى أعماله الرسام قراجونار) . وقد رسم لنفسه لوحة جميلة معروضة فى مسقط رأسه شالون حيث نراه شخصية متحدية وساخرة ، لون بشرته وردى وأنفه ينم عن الشجاعة وعينه تتكاملش تحت قبعة زارع كرمة مصنوعة من البوص .

يروى أناتول فرانس عنه هذا الحدث الذى يلخص جيداً براعة هذه الشخصية الأبيقورية المقدمة :

«... أخذ يرسم . وإذ هو قد أشرف على إنهاء عمله مرت رصاصة وهى تصفر فوق الورقة التى أمامه . فرفع رأسه ورأى أحد الأعراب يقوم بتعمير بندقيته .. مدّ يده

* استعان بيوميته عن المعارك فى كتاباته .

إلى سلاحه المملود على الأرض وأتحف الأعرابي بطلقة فى صدره ثم أقفل حافظة أوراقه ... فى المساء قال له الجنرال دوسيه «إن خط الأفق فى رسمك غير مستو - أجايه دينون قائلًا ، واه ! إن هذا خطأ الإعرابى إذ أنه أطلق رصاصته مبكراً !» .

فلنستمع إلى فيفان دنون ذاته وهو الذى وصف نفسه بأنه «جندي - أكروباتى» : «لما كان يتحتم علينا ملاحقة عدو دائم التحرك على فرسه فإن تحركات الفرقة كانت باستمرار متعددة وغير متوقعة .. فكنت لذلك مضطراً فى بعض الأحيان أن أمر مرور الكرام أمام الآثار الأكثر أهمية (...) رسوماتى نفذتها فى معظم الأحيان فوق ركبتى أو فى الوضع واقفاً أو حتى وأنا ممتطياً فرسى ... فلم أتمكن قط من الانتهاء من واحد منها وفقاً لإرادتى .. إذ لم أنجح عبر عام كامل من إيجاد لوحة منصوبة بشكل جيد يمكننى أن أضع مستطرتى فوقها» .

غير أن ما يعطى قيمة لهذا الريبورتاج المدهش عبر الحرب وعبر القرون فهو الحس الجمالى للرسم الذى تمكن قبل شامبوليون من اكتشاف جمال فن لم يكن يحظى حتى ذلك الحين سوى بدهشة المسافر لقدمه الأسطورى وأبعاده المتناهية الضخامة ، كما يعطيه قيمته أيضاً التفانى من أجل العلم الذى دفعه إلى نسخ كتابات هيروغليفية لا يفهم منها شيئاً لعدة ساعات متواصلة معرضاً حياته للخطر وفى جو حرارته خانقة .

ويقول دينون «إن نقش هذه الكتابات تم بوضوح الصراحة لدرجة أنى أعتقد أن المصريين كان لهم طريقة خاصة لصب معدن أنواتهم لنحت الجرانيت . إن كل هذا النحت أجرى بواسطة الحفر ليبرز المنحوت داخل فراغ عمقه بوضوح وقد احتفظ بدقته بصورة تثير الإعجاب» (إن هذه الملحوظة سبقت ملحوظة شبيهة بها تماماً قالها شامبوليون بعد ذلك بثلاثين عاماً) .

هل كان فيفان دنون ذا «نوق فنى سىء»⁽²⁸⁾ كما قيل عنه بعد ذلك ؟ إذا كان رأيه فى تمثالى (ماردى) ممنون أنهما «غير جميلين ولا سحر فيهما» - وله كامل الحرية فى عدم محاسبته على ذلك - فإن الإعجاب الذى أثارته فيه مشاهدة الأهرامات وأبو الهول يعتبر قمة فريدة فى جمال الإحساس : «إذا كانت هذه الرأس تنقصها ما اتفق على تسميته سلامة الأسلوب . أى الأشكال المشوقة القوام والمتعالية التى صور بها الإغريق آلهتهم فإن أحداً لم يف قط هذا الوجه حقه فى جمال بساطته ومرور الطبيعة الهادئ والممتد طويلاً فوقه وهو بالفعل يستحق كل الإعجاب» .

أما ما قاله عن معبد «تنترا» (يطلق عليه اليوم اسم دندره) فقد أصبح قولاً مأثوراً :
«لن أجد قط تعبيراً يعكس ما أحسسته عندما كنت على عتبة تنترا ... وددت لو أمكنتني
رسم كل شيء ولكنى لم أجرؤ على مسك القلم . أحسست بأنى لن أرتفع قط إلى درجة
سمو ما تعجب به عينائى وإنى سأحط من قدر ما أردت تقليده ... لم يحدث فى أى
مكان آخر أن وجدت نفسى محاطاً بمثل هذا القدر من الأشياء التى تثير إعجابى ...
أخذت ... والقلم فى يدي ... أمر من شيء إلى آخر يشاغلنى أحدهم عن الآخر مجنوب
لذلك دائماً ، ينتزعى منه شيء آخر دائماً ، كانت تنقصنى عيون وأيد ورأس أوسع
يمكنها أن تشاهد وترسم وترتب كل ما نال إعجابى . كنت أخجل من عدم كفاية
الرسومات التى نقلت بها كل هذه الأشياء المتسامية .. ولكنى كنت أريد الاحتفاظ
بذكراها (...) كنت أخشى أن يهرب منى دندره إلى الأبد» .

وفى دندره أيضاً عرف كيف يجد الوقت وكيف يمضى ساعات طويلة مضية -
بإعاز من المساحين الشباب جولوا وفيلار دوتيراج الذى يثير وعيهم بعيقرية الفن
المصرى الدهشة والإعجاب - من أجل نسخ «الزودياك» المشهور. أى خريطة السماء
التي سوف تثير فيما بعد - حول تأريخ البشرية - مناقشات حادة سيضع لها
شامبوليون حدًا بعد ذلك بربع قرن * .

مهما بلغت مشاعر فيثان دونون من الحدة فقد عرف كيف يضيف إليها الذكاء
العلمى . فهو سريعاً ما اقتنع بأن «الهيروغليفيات المنحوتة فى الحوائط لم تكن الكتب
الوحيدة لهذا الشعب العالم» وقد اكتشف فى مدينة جابو لفاقة من ورق البردى فى يد
مومياء نشرها عام ١٨٠٢ مع مجموعة من الرسومات المنقولة بطريقة الجرافور (الحفر)
ضمها إلى الطبعة الأصلية لكتابه «رحلة إلى شمال مصر وصعيدها» وهى تشكل مع
حجر رشيد أحد المستندات التى سينكب عليها الباحثون وعلى رأسهم وأفضلهم جميعاً
شامبوليون .

ما أن عاد فيثان دونون إلى القاهرة (يوليو ١٧٩٩) استقبله بونابارت على الفور .
وتحت سحر مارواه له مدعماً بالرسومات التى أراها إياه توصل الجنرال إلى خلاصة
غاية فى الأهمية : فى ٢٧ تيرويدور عام ٧ (وهو اليوم ذاته الذى اكتشف فيه حجر
رشيد ...) أصدر مرسوماً بإنشاء لجنتين يرأس كوستانز إحداهما ويرأس فوربييه
الأخرى أنيطت بهما مهمة زيارة ودراسة آثار مصر القديمة فى الصعيد دراسة علمية
ونسخها بكل دقة رسماً : وهكذا فى الوقت الذى كان يستعد فيه للاعتراف بهروب ذاته

* راجع الباب ١١

بفشله السياسى والعسكرى ويفقدانه لمصر الحديثة بدأ بونابارت غزو مصر عريقة التاريخ الذى يمتد لآلاف السنين ، ومثلما ترك هروب الجنرال القائد العام داخل الجيش أثراً كله مرارة فإن انسحاب نونون كان له تأثير سىء على زملائه فى المعهد المصرى . إذ كانوا ينتظرون منه تقريراً عن مهمته وشعروا بأن عودته المبكرة إلى باريس ستدفعه إلى الكشف عنها مما سيعود عليه بالمجد وذلك على حسابهم هم وأنه سيسوق لذلك حجة أنه لا يمكنه أن «يمنع مواطنيه من الانتفاع من الثمار التى جناها (هو) وكلفته (هو) كل هذا العناء ..» من ذا الذى يمكنه ألا يغفر لهذا المراسل الذكى والمقدام أنه ضمن لنفسه «خبراً خاصاً» (سكوب بلغة الصحافة) حتى لو كان حصل عليه بطريقة فيها شىء من الإجحاف بالنسبة للآخرين ؟

ابتداءً من ١٨٠٢ ظهر فى باريس كتاب «رحلة إلى شمال وصعيد مصر إبان حملة الجنرال بونابارت ، بقلم فيثان نونون وقام بطبع الكتاب « الأصلية مكونة من جزء من القطع الربعى للنص ومن جزء فى حجم (الأطلس) أو الأطلنطى للصور . وكان يباع لدى المؤلف بشارع ح . روسو ولدى المطبعة فى أروقة اللوفر .

بخلاف المقدمة - وهو الخطاب الذى حرره نونون لإلقائه أمام زملائه فى معهد مصر - فإن الجزء الأول يتكون من جزئين : قصة الرحلة وشرح للوحاته وواحد وأربعين لوحة التى يتضمنها المجلد الثانى وتضم كل لوحة منها تقريباً عدة مواضيع (وبعضها ينفرد بموضوع واحد فى صفحة كاملة مثل المنظر الليلى البديع لميدان الأزبكية فى فترة الفيضان) * .

إهداء هذه الطبعة الأولى من الكتاب كان بطبيعة الحال إلى بونابارت . وقد عرف الكتاب أربعين طبعة خلال ذلك القرن وهو نجاح فاق نجاح كتاب فولانى ولم يتفوق عليه فى ذلك الوقت سوى كتاب عبقرية المسيحية (لشاتو بريان) وقد نشر فى العام ذاته . وقد جاء فى الإهداء : «... ستتقبل أوروبا - وقد عرفت أنى كنت فى صحبتكم فى إحدى أكثر حملاتكم تعلقاً بالذكرى - كتابى هذا باهتمام كبير . لم أهمل أى شىء لكى أجعل منه جديراً بالبطل الذى أردت أن أهديه له (...). إن ضم بريق اسمك إلى عظمة آثار مصر يعتبر ربطاً لعظمة أمجاد قرننا هذا بالعصور التى تتخطى بعظمتها الأساطير ...» .

* حفر دستة من هذا اللوح تم بيد نونون نفسه . ويجب أن نسجل هنا البراعة التكنيكية المتمثلة فى حفر مئات من الرسومات خلال الفترة الزمنية القصيرة التى تقمّل عوبة نونون ونشر كتابه .

وإذ كان متلقى هذا الإهداء قد أصبح القنصل الأول فقد ظهر اسمه على رأس المائتين والأربعين مشتركاً في اقتناء الطبعة الأصلية يسبق اسمى كامباسيريس ولوبران القنصلين الآخرين كما يسبق أسماء تاليران وفوشيه وملكى أسبانيا وبروسيا والسفراء وأصحاب البنوك والفنانين والتجار وعدد كبير من الإنجليز وقدماء الحملة على مصر والآنسة هنرى عضو مسرح الفنون وتالما من المسرح الفرنسى وفوانى ولانجلاس وكاترومار * ... وأخيراً أكثرهم أهمية جميعاً على الرغم من المظاهر لو كرو أمين مكتبة مدينة جرونوبل ** ذلك لأننا متأكدون أن الشقيقتين شامبوليون قد تمكنا من الاطلاع على هذا الكتاب المثير ومن التأمل أمام هذه الصور المثيرة للإبداع وقد أتيت ذلك للأخ الكبير عندما انتقل للإقامة فى هذه المدينة عام ١٧٩٩ والثانى عام ١٨٠١ .

أما الكنز الثالث الذى عاد به مشاركو بوناپارت فى رحلته البحرية فقد ظهر بعد ذلك بفترة طويلة . فإذا كان كل ما احتاجه النشيط نونون لتحرير وحفر ونشر ريبورتاچه المصور لم يتعد السنتين مفضلاً أن يحتفظ بطابعه «البدائى» الذى تركه فى نفسه كرحالة مبهور فإن الفترة التى احتاجتها اللجنة العلمية التى عادت من الشرق عام ١٨٠١ كانت عشرين عاماً كاملة وأكثر لتنتشر من ١٨٠٩ حتى ١٨٢٢ عملها الضخم وهو عبارة عن تسع مجلدات من النصوص فى القطع الكامل (فوليو) وأحد عشر مجلداً من اللوح قدمت للجمهور تحت عنوان «وصف أو مجموع الملاحظات والأبحاث التى تم إجراؤها فى مصر إبان حملة الجيش *** الفرنسى» . نشر بأوامر من صاحب الجلالة الإمبراطور نابليون . هذا العمل الذى جاء ليكمل ويحدد عمل فيثان نونون التمهيدى يعتبر كما يقول جان فاركوتار «القاعدة التى أمكن تشييد علم المصريات فوقها» (29) .

ستحاول بطبيعة الحال قياس مقدار التأثير المباشر على الشقيقتين شامبوليون لهذا البعث الذى طرأ على الموضوع الذى ولعا به - وقد ازداد هذا التأثير حدة لدى الأخ الأكبر - چاك - جوزيف - إذ أنه سيسشارك فى تحرير مقدمة الكتاب التى أنيط بها الأمين العام السابق لمعهد مصر جوزيف فورييه من قبل اللجنة وكان قد أصبح فيما بعد محافظاً لمقاطعة الإيزار .

* شخصيات سلتقى بها فيما بعد .

** اسم آخر سيرد كثيراً فى هذا السرد ...

*** من الغريب أن يكون الانتباه مركزاً على الجيش وحده .

فى انتظار ذلك نسجل أن كتاب الوصف - بعد كتاب الرحلة لثيفان دونون - عمل على خلق جو عام ، إذا ما قورن بذلك الذى نجم عنه مرض الوبع بمصر (الإيجيتومينيا) فى القرن السابق ، يعتبر مصطنعاً وسطحياً فى عشرات الأعوام الأولى من القرن التاسع عشر . استولت مصر على الأنظار واحتلت صورها مخيلات الناس بواسطة الكتب والصور المحفورة والأشياء والأثاث والأعمدة . وإذا ارتبطت لفترة طويلة بالأسطورة الإمبراطورية (النابوليونية) فإن هذه الصور الملحة لم تتأثر بل قاومت كوارث أعوام ١٨١٤ و ١٨١٥ * .

إن الذى أوصل السحر المصرى الذى سيطر على الألباب أو على الثقافة إلى قمته كان مشاركة أعظم كتاب العصر فى ذلك . فى يوليو ١٨٠٦ توجه فرانسوا رونييه دو شاتوبريان إلى الشرق فى رحلة قادته إلى أثينا وأزمير وبيرجام والقدس ويافا والإسكندرية والقاهرة .

لم يرق صاحب كتاب «نانتشان» برحلته ليصفها مثلما فعل سافارى أو ثولنى وإنما قام بها من أجل الملحة المسيحية التى كان يفكر فيها . ولكى يضى أيضاً جواً من الترقب ومن المجد ومن الوجد إلى الموعد الذى حدده - فى أسبانيا - للقاء ناتالى دى نواى ... وتجدر الإشارة إلى أن نشر كتاب «الشهداء» الذى كرس سفره الحادى عشر كله لمصر ، سبق بعامين نشر الرحلة من باريس إلى القدس الذى لا يحظى فيه وادى النيل سوى بباب واحد كتب فى عجلة .

عولمت مصر فى كتاب «الشهداء» معاملة خاصة : «زرت طيبة ذات المائة باب وتنتيريس ** ذات الآثار الرائعة وبعضاً من الأربعين ألف مدينة التى يمر عليها النيل عبر مجراه» ياه !! أربعون ألفاً ... شىء جميل أن يرى أحدهم أن مصر «بقرة ولأدة» وأن أهراماتها «بواباتها الجنائزية» غير أنه ليس فى مثل هذا الكتاب كان يمكن للشباب شامبوليون أن يجد ما يشفى ويرضى ولعه علماً بأننا نعرف أنه قرأه دون أن يثير حماسه .

كما لم يرضيه كتاب «الرحلة» الذى نشر عام ١٨١١ إن الفيكونت دوشاتوبريان يعتقد أنه رأى «بالعين المجردة» أبا الهول من قمة قلعة المقطم (عشرون كيلومتراً تفصل بينهما) وهو لم يردع للذهاب إلى منطقة الأهرامات فقد منعه الفيضان من ذلك على حد قوله .

* هزائم نابليون المتوالية التى أدت إلى سقوطه (الترجم) .

** تسمية مختلفة (يونانية) لندرة .

وقد كلف القنصل بالذهاب إلى هناك «ليكتب اسمه على هذه المقابر الضخمة مثلما جرت العادة وذلك عند أول فرصة سانحة». وبذلك يكون قد وضع خاتمه السحري على مصر الفراعنة بهذه الطريقة غير المباشرة والتي منحت أيضاً الأبحاث التي تخصصها بركات عبقريته الشاردة .

جرى إثراء مجموعة المراجع التي سيعتمد عليها شامبوليون في معالجته للغز الأكبر في تلك السنوات ، بأعمال واكتشافات وملحوظات قام بها ثلاثة من الرحالة المقدامين ، إثراءً أفضل وأقوى من صفحات شاتوبريان المتعجلة . وهؤلاء هم عالم التاريخ الطبيعي المولود في مدينة نانث ، فريديريك كايو ، والنحات المرسيلى چان - چاك ريفو ، والإيطالى الساحر چان باتيستا بيلزوني . الأول عاد عام ١٨١٩ من حملة جسورة في وادى النيل حيث قام بالتنقيب عن الآثار حتى أبو سمبل وأطلع الأخوين شامبوليون على «لوحة الملوك» التي اكتشفها في معبد رمسيس الثانى فى أبيدوس والثانى كان منقياً لا يعرف الكلل يعمل لحساب القنصل دروڤيتى وفر لهما كمية ضخمة من نسخ للمخطوطات وذلك فى بداية العشرينات من القرن . أما الثالث فهو الذى كان ينقل القرون الزمنية والجبال من طيبة وممفيس حتى أنه نقل وعرض فى باريس مقبرة سيسى الأول مما أوصل حمى موضة الولوج المصرى إلى ذروتها عام ١٨٢٢ * .

الملف المصرى الذى انغمس فيه الباحثون عن حل لغز الهيروغليفيات فى بداية القرن التاسع عشر كان يتكون من نوعين من المشاركة : الأول أصحابه هم «المستشرقون» والآخر «الأثريون» .

الأوائل هم - من هيروبوليس إلى مابيه ومن فوردين إلى ثولنى ومن دونون إلى بلزوني - الذين ذهبوا إلى المواقع ذاتها لزيارة أو دراسة آثار حضارة ظلت قائمة وصمدت أمام الكوارث والتحرير وفقدان ذاكرة الكلام حتى لو كان ذلك من خلال دراستهم للسكان الأقباط الذين رأى منهم العديد من الزوار نبض التراث المهشم للقرون العظيمة الفائتة .

أما الآخرون فيبدون أقل مصداقية . فقد حاولوا من خلال مستندات مشكوك فى صحتها فى كثير من الأحيان وهى على العموم منقولة وغير مفهومة فى بعض الأحيان الأخرى - أن يعيدوا تكوين جماليات ولغة ومعانى الثقافة الفرعونية ، من هؤلاء على سبيل المثال الأب أنتاس كيرشار وچوزيف نو چينى والأب بارتيليمى وچابلونسكى

* بيعت هذه المقبرة فيما بعد إلى إنجلترا .

وواير بورتون والندبلوماسى الدانماركى زويجا وشارل نوبوى والكساندر لوتوار وعالم اللغويات الفرنسى سيلفاستر نوبسسى والنبييل السويدى اكربالد وعالم الطبيعة الانجليزى يانج .

يبدو أن جان - فرانسوا شامبوليون قد أعطى اهتماماً أكبر للأوائل . فهم الذين أتوا بوقائع وملاحظات يمكن التاكيد من صحتها ، عن الآخرين الذين اتسمت أعمالهم بوفرة ما تقدمه من افتراضات ونظم تفكير عشوائية . ولكن لا يعنى ميله للسخرية من هؤلاء «الأثريين» أنه أهمل مداخلاتهم ..

فى الوقت الذى أطلق بوناپارت أسطوله من المحاربين والعلماء فى اتجاه مصر كان جان - فرانسوا شامبوليون البالغ من العمر سبع سنوات وخمسة أشهر قد تعلم لتوه القراءة فى كتاب صلوات القديس الملوك لوالدته . وذلك يجعلنا بعيدين عن الأسطورة التى تضعه فى زمرة مجموعة عام ١٧٩٨ أما الأخ الأكبر چاك - جوزيف فقد كان قد بلغ حين ذاك التاسعة عشرة . وكان ولوعاً بمصر وكان يخطط - حسبما يقول - ليلحق إن عاجلاً أو آجلاً بالمشاركين فى الحملة المقدسة فى القاهرة . وكان على العموم مهتماً بالاطلاع على أعمالهم وتحركاتهم من خلال قراءته صحيفة لوركوربيه ديچيبيت على وجه الخصوص والتى كانت تتلقاها مكتبة مدينة جرونوبل بعد شهر أو اثنين من صدورهما كما كانت تتلقاها (حسبما أوردت مدام هارتلويان أفضل المحققين فى سيرة صاحب الكشف) مكتبة فيجاك . هل حاول بالفعل إثارة اهتمام ابن عمه النقيب أندريه شامبوليون الذى سافر من ميناء طولون فى مايو ١٧٩٨ بصحبة اللواء الثالث عشر الذى يقوده الجنرال داريكو ولم تصله أى أنباء عنه سوى لدى عودته فى ١٨٠١ ؟ سنعود إلى هذا الحديث لاحقاً .

فى جميع الأحوال توجد علاقة قوية ومباشرة يمكن الكشف عنها بين حملة بوناپارت وما أسفرت عنه (حجر رشيد ومارواه فيثان لوتون وكتاب «وصف مصر») والاكتشاف الذى أدخل اسم شامبوليون فى سجل المجد .

1 - الحياة فى فيچاك فى عهد الثورة

أين؟ متى؟ فيمن؟ - لا توجد عبقرية : - فلاحو مقاطعة بوفينية - حرفة البائع المتجول (حامل الخرج) - چاك صاحب المكتبة وچاكو الساحر - الزوجة المريضة - المقصلة فى الميدان - ابن المعجزة؟ - كتاب القديس الذى حُلت شفرتة - بون كامال

إذا أردنا فهم شخصية رجل ، هل يجب أن نعرف أين ولد؟ أم الأفضل أن نعرف متى ولد؟ أم من صلب من؟ إن كتاب السير الشخصية لم يفصلوا فى الأمر بعد .. إن بعضهم يعتقد أن مولد أحدهم فى أجاكسيو هو أهم العوامل* . والبعض الآخر يعتقد أن مولد المؤرخ له فى « أغسطس ١٩١٤ هو ذلك العامل المؤثر وذاك الآخر - فى النهاية - يقول : بل أن يكون أبوه جزاراً أو أمه عازفة آلة البيانو .

أما بالنسبة لجان - فرنسوا شامبوليون فقد ولد فى فيچاك ، إحدى المدن الصغيرة التابعة لمنطقة كارسي الشحيحة الموارد والتي كانت لهذا السبب قليلة الاتصال بالعالم الخارجى .. ولد فى ٢٣ ديسمبر عام ١٧٩٠ عن أب صاحب مكتبة - كان قبل ذلك بائعاً متجولاً وعن أم من أصل بورجوازي لكن أمية وظلت مريضة لفترة طويلة . يجب الانغفل أبداً فيما يتعلق بشامبوليون نشأته فى هذه المنطقة المعزولة ولا هذه الأصول المتباينة ولا هذا التاريخ الذى كانت الثورة (الفرنسية) تتأهب فيه للووج إلى مرحلة شديدة الإضطراب من تطورها .

فى بداية عام ١٧٨١ وصل إلى فيچاك شخص يدعى جان - فريديريك نو ريشبراى ويعمل مفتشاً ملكياً للضرائب والمالية .. للتأكد من أن أهل قطاع « جيان العليا » يدفعون الضرائب المفروضة عليهم بالفعل أو أنها ثقيلة على عاتقهم ، وكان هذا المفتش يسجل إجابات السكان على الأسئلة التى يطرحها عليهم فى « يوميات رحلة عمل»^(١) وهى تعطى فكرة عن الحالة المادية التى كانت عليها « دائرة » أو « بلدية » فيچاك . وتعد هذه النصوص مؤشراً لها تضمنته فيما بعد المطالب التى تقدمت بها منطقة كارسي فى عريضتها إلى « المؤتمر العام »* مثلما فعلت المناطق الفرنسية الأخرى . استهدف السؤال الأول التعرف على المنتجات المحلية :

* إشارة إلى نابليون بونابارت - (المترجم) .

** وكان عدد سكان فيچاك أكثر بقليل من ستة آلاف

الإجابة : « النبيذ والقمح والجاودار والقنب والتين والجوز والكستناء ؛ أما الباقي فهو غير جدير بالتسجيل . »

س : مم تستخرج المواد الغذائية وبأى وسيلة ؟

ج : نحصل على الزيوت من منطقة بالانجو بوك « والجبن من مقاطعة أوفرني، أما الباقي من بورنوعن طريق الأنهار أو بالعربات أو على ظهر الحمير »

س : ما هو تعداد السكان ؟

ج : « من المعتقد أن عدد السكان رجالا ونساء وأطفالا يقدر بنحو مائة ألف * »

س : هل من عبقرى بينهم ؟

ج : - لا يوجد. الناس في قطاع شاتينيال أفضاظ: شديبو الالتصاق بمصالحهم - عنيون ومشاكسون .. وبشكل عام فإن تطور الأفكار يحدث ببطء شديد كما يصعب للغاية تحريك قدراتهم الذهنية ليسايروا أى أسلوب جديد .. بشكل عام فالنشاط وخاصة فى الزيف والذكاء ضعيف فى الثقافة .»

عن حالة الثراء أو الفقر ؟

« الفلاحون والفعلة يعانون من الفقر ويعيشون ليومهم ، ويعرفون الضنك الشديد إذا زاد تعداد أفراد الأسرة ، ويزدادون مرض وبؤسا إذا عرض منهم واحد لفترة طويلة .. المستهلكون حالتهم العامة من ناحية الثروة عادية جداً سواء كانوا من النبلاء أو من رجال القانون أو تجارا أو بورجوازيين . وقد يصعب على المرء - حتى لو أراد - أن يذكر أى استثناءات .. »

كيف يمكن تحسين هذا الوضع ؟

« سكان فيچاك وبقية القرى الهام الواقعة فى نطاق دائرتها يميلون للعمل فى التجارة غير أن ضيق ذات اليد يمنعهم من عمل صفقات ذات أهمية كما أن حالة الطرق وعدم وجود انهار قابلة للملاحة فى تنفيذ ما هو متاح أمامهم .. »

* مؤتمر « ليزيتا جينيرو » les Etats Généraux يجمع ممثلين لمكونات الدولة فى العهد الملكى وهى ممثلو الكنيسة والنبلاء والقطاع الثالث أو عامة الشعب . من جميع المناطق . وكان يدعو الملك للإجتماع فى الحالات الحرجة . وكان آخر إجتماع له فى ١٧٨٩ . وهو الذى مهد للثورة - (الترجم).

من المؤكد بالطبع أن أحداً لا يضخم من دخله أمام موظف الضرائب سواء كان فرداً أو مصلحة حكومية عامة .. ولكن من الواضح أن هذه البلاد فقيرة وأهلها ليسوا على المستوى الذى يسمح لهم بالاعتماد على أنفسهم لسد حاجاتهم أمام نواب الطبيعة .

ومع ذلك فإننا نلاحظ شيئين : أولاً : إذا كان الريف فقيراً و « المستهلكون » يعانون ضيق ذات اليد فإن بورجوازية مدينة فيجاك كانت فى شئ من رغد العيش . فعشية قيام الثورة أمكن إحصاء أربعة عشر معلماً من صناعات القبعات (من مجموعة سان كريبان) وأربعة من البنائين وصانع قباقيب واحد مما يعنى وصول المنطقة إلى مرحلة من مراحل الحداثة .

والأمر الثانى هو أنه لا يبدو أن رجال الكنيسة كانوا يعانون من حالة الفقر السائدة⁽²⁾ . فقد سجل السيد ريشبراى الإجابة التالية على سؤال عن حالة الكنيسة المحلية وهى مؤشراً واضحاً على ذلك : « عشرون ألف جنيه غير خاضعة لأية ضريبة ويستفيد منها الكاهن رئيس كنيسة المقطاعة واثنان من مساعديه وشماس وثمانية قسس وأربعة رجال دين مكلفون أسبوعياً واثنان من الدعاة واثنان من الكتبة وثمانية عمال وموظفان وموظف علمانى واحد . »

وإذا استفسر عن النبلاء كان الجواب : « السيد باريس ، وهو يقطن باريس ، يمتلك إقطاعية مركزية مونيبران ، أما بارونية كاسترنو دى بروتونو فهى ملك اللوق دى شوفروز أما اللوق نوزاس فهو أيضاً بارون إقطاعية كابديناك .. »

معنى ذلك عدد لا بأس به من الأراضى الإقطاعية تتبع نبلاء من غير أبناء المقاطعة .

حركات العنف التى قام بها الفلاحون بعد ذلك بسبع سنوات ترجع أسبابها إلى تلك الأوضاع .

لم تكن مقاطعة كارسى مركزاً ثورياً نشطاً .. غير أن أهلها كما جاء فى نص السيد / ريشبراى - كانوا « مشاغبين ومعاندين » وذلك هو مصدر هيمنة رجال القانون فى فيجاك التى ماتزال إلى يومنا هذا تطبع الروح السائدة فى هذه المدينة الصغيرة ، وهى تفخر بأنها بلد آل شامبوليون وكذلك المشرع فرنسوا بوتاريك الذى كان فى ذلك الوقت نداءً لمونتسكيو .

كانت الثورة الفرنسية فى الأساس شأنًا من شئون رجال القانون وقد فرض رجال القانون فى فيچاك ريادتهم النشطة فى ذلك الوقت ، وعندما سمعت الأمور بعد ذلك قامت المقصلة بأداء وظيفتها فى الميدان العالى : ولابد أن الطفل الذى ولد على بعد خطوتين من ذلك المكان عام ١٧٩٠ قد سمع صريها وأدرك شيئًا عن الإنتفاضات التى هزت المدينة .. خاصة وأن چاك شامبوليون - والد چان فرنسوا قد أنيطت به بعض المسئوليات الخاصة بهذا الأمر بعد ذلك بثلاثين عاما مما حدا بالمحافظين من أهل جرونوبل أن يطلقوا عليه كنية « روبسيير » .. (سنحاول التعرف فيما بعد على أهمية هذه المسئوليات) . أما الآن فنكتفى بأن ميلاده فى ٢٣ ديسمبر ١٧٩٠ تزامن تقريبا مع وقوع ثلاثة أحداث هامة عجلت فجأة من العملية الثورية : فى الوقت الذى صوتت فيه الجمعية التأسيسية بالموافقة على بيان تعلن فيه تقديرها لچان - چاك روسو وقف چان - بول مارا يلقي خطابا ضد الملك كان بمثابة عريضة إتهام تنبئ بقيام الجمهورية التى طالب بها .. والحدث الثالث هو صدور قانون يوجب إرجاع أى إختراع لصاحبه .

كان چاك شامبوليون - والد المكتشف - أصلا من مقاطعة الدوفينييه .. وقد أرق بعض كتاب السير الشخصية من أفراد العائلة وغيرهم أنفسهم لتقدمه على أنه من أصل نبيل لفرع من عائلة شامبوليون من مقاطعة الجابانسييه والفرع الآخر من مقاطعة الفالبونية . فهل كان حقا من سلالة إقطاعية ؟ كتب أحد المؤرخين - فى كتابه بسلسلة الأحداث العالمية ، Chronologie universelle : « الكتابة الهيروغليفية ، فك شفرتها «السيد دى شامبوليون* » وسيجد بعض المؤرخين الآخرين أجدادا من الضابط كانوا قريبي الصلة بالنبيل « نوليدجيار » شخص يدعى بيرانجية نو جويا ، وأحدى مرافقات مدام بوتنسان ونبيل آخر يعمل إلى جوار نوق نورليان وكذلك أحد ياورا نوق دى شارتي فى جيماب » ، وكلها محاولات تثير التعاطف إلا أنها لا تتفق مع الفكرة التى كانت لدى چان - فرنسوا شامبوليون عن أصوله .. فهو يفخر بأنه « فلاح حر » وذلك فى خطاب له سيأتى ذكره فيما بعد .

توجد بالفعل أسيرة تدعى « مارتان نوشامبوليون » كما هو ثابت فى بعض المستندات الخاصة بمقاطعة « دوفينييه » ويتعلق أحد هذه المستندات بوعده بنوطة لم تدفعها أسيرة سيدة من عائلة نو جويا إلى أحد النبلاء يحمل نفس الاسم . ومن هذه السلالة نجد محاربين وقساوسة ومحامين .. ولكن الأبحاث التى قام بها الباحثون

* مقطع دى de الذى سبق اللقب فى الفرنسية ينسب الاسم إلى الإقطاعية التى تمثلها الأسرة وهى عادة ماتشير إلى نبل أصول صاحب الاسم (المترجم) .

الجرنونبوليون* لم تسفر عن اكتشاف علاقة معلنة بين هؤلاء النبلاء المحاربين وعلماء الآثار القادمين من فيچاك . ومن ناحية أخرى وفي إحدى المذكرات المحفوظة في أرشيف العائلة وممهورة بملحوظات بخط جاك - جوزيف (الأخ الأكبر) ورد ذكر بعض الأصول الإيطالية .. « شيبولو » ؟ « كامبوليوني » التقارب اللفظي واضح كما أن مقاطعة الدفينيه قريبة من مقاطعة البييمون الإيطالية . إن حب جان - فرنسوا لإيطاليا سيظهر بوضوح في مناسبات عدة ولكن هل يتحتم الرجوع إلى الأجداد لكي يشعر بالحب تجاه هذه البلد ؟

أحد الباحثين (من مدينة لاترونش) من منطقة ليزار ويدعى مسيو شاموران يحدد موطن عائلة شامبوليون في قرية من قرى بلاد الألب العليا ، كان إسمها كامبولونوس . في عام ١٣٧٠ تم تطور الإسم ليصبح شامبوليو (١٥٥٧) ثم شامبوليون عام (١٥١٦) تم تطور النطق لتصبح كتابته بالطريقة الحديثة الحالية Champollion .

أما أحدث الأبحاث فهي ترجع أصول عائلة « شامبوليون » إلى تجمع سكاني صغير يدعى لاروش . تابع لمدينة فالجوفرى** بالقرب من مقاطعة فالليون ، جنوب مقاطعة الوازين على بعد خمسة وثلاثين كيلومتر من مدينة جرونويل .. وكانوا فلاحين بسطاء أو بالأحرى فلاحين وتجار ويحملون بضاعتهم على اكتافهم إذ كانوا يهجرون واديهم المرتفع في فصل البرد القارس بعد أن تغطيه الثلوج ليمارسوا مهنة التجارة الجواله - وقد يصلون في ترحالهم إلى مناطق تبعد كثيراً عن موطنهم .. وهذا النشاط كان يدر لكل بيت دخلاً لئلا بأس به .

ومن ناحيه أخرى فهؤلاء الباعة المتجولون كانوا - يجمعون معلومات كثيرة خلال رحلاتهم الطويلة بما جعل أهل وديان الوازن أكثر علماء من كثير من سكان المدن المحيطة ، وقد عثر الكولونيل أوهارن خلال أبحاثه في السجلات الكنسية على عدة توقيعات لأفراد يحملون إسم شامبوليون من فالجوفرى « ومنهم العديد من النساء وكان يعتبر ذلك شيئاً يندر وجوده في الوسط القروي والكاثوليكي في ذلك العصر*** إلا أنه لاحظ في الوقت ذاته أن بارتيليمي شامبوليون جد مؤسس علم المصريين لم يكن في مقنوره التوقيع بإسمه .

* على وجه الخصوص الكولونيل جان أوهارم في « النشرة الشهرية لأكاديمية الوفينيه » يناير ١٩٧٣ ص ١٢ إلى ٢٢

** الأخ الأكبر جاك - جوزيف سيصبح فيما بعد عمدة هذه المدينة .

*** أما البروتستانت فإن وجوب قراءة الكتاب المقدس كان يرفع نسبة من يستطيعون القراءة والكتابة بينهم.

هذا البارتيلىمى تزوج من مارى جيريوى (أو جيرو) التى أنجبت له خمسة أنجال إستطاعوا أن ينقلوا الأسرة من مستوى الفلاحة إلى البرجوازية الصغيرة : أحدهم أصبح « قنصلا » لمقاطعة فالبونيه - وهو مركز ذو أهمية محلية - والثانى كان يعمل « موثقاً للعقود » والثالث تزوج من إبنة احد تجار مدينة جرونويل * والرابعة ولدت إبنا اسمته « أندريه » وستلتقى به فيما بعد ضابطاً فى الجيش فى مصر.**

آخر أبناء بارتيلىمى ولد عام ١٧٤٤ أسموه چاك .. ويبدو أن كونه أصغر الأبناء قد حرمه من الميراث مما نتج عنه حرمانه من التيار الصاعد الذى أخذ بقية أعضاء الأسرة إلى مستوى إجتماعى أعلى .. إذ سنجده فى المكانة التى كانت عليها العائلة فى الأصل : مزارعاً وبائعاً متجولاً . إلا أنه تخصص فى بيع الكتب .. وقد راح يجوب الطرق وخاصة عبر الهضبة العليا وهى التى كان يعبرها البائعون الجائون القادمون من منطقة جبال الألب .. وأخذته جولاته بعيداً وسريعاً إلى مقاطع كاريسى على بعد عدة أسابيع من موطنه فى الدوفينييه التى وصلها فى أحد أيام عام ١٧٧٠ .

والسؤال الملح فى هذه الحالة هو : لماذا رحل بعيداً وبهذه السرعة ؟ ومهما كان والد چاك چوزيف وچان فرنسوا غير ميال بطبعه للاستقرار فى المنزل فإن من حق الدارس أن يتساءل عن السبب وراء مايبود للوهلة الأولى نفياً ... من المؤكد أن تخوم فرنسا وساقوا وسويسرا وإيطاليا تعتبر منطقة واعدة بالصفقات المربحة بالنسبة لتاجر كتب جوال إذا قورنت بمنطقة كاريسى المغلقة على نفسها والفقيرة طبقاً لما سجله ريشبراى فى تقريره . فهل كان چاك شامبوليون ينقل كتباً ممنوعة التداول مما نتج عنه إبتعاده عن المنطقة الحدودية ؟

سنجد بداية لشرح ما حدث فى خطاب بعثت به مادام نولابرييار وهى حفيذة إحدى بنات أخ چان فرنسوا شامبوليون إلى چول مالريو رئيس جمعية « أصدقاء فيچاك العتيقة » : « .. فى تاريخ غير محدد ولأسباب يصعب أيضاً تحديدها ولكنها كانت بالقطع سياسية ، جرى طرد أحد أفراد هذه العائلة من آل شامبوليون من المحافظة وتم مصادرة ممتلكاته فيما بين عامى ١٧٦٥ و ١٧٧٠ وكان محباً للكتب

* وهو سيساعد بنوره فى صعود نجم چاك - چوزيف .

** سبق ذكر هذا الموضوع وسنعود إليه فى الفصل الثانى من الكتاب .

ودارساً للغات ومثقفا .. ولكي يتغلب على النوائب فقد عمل في المجال الذي يعرفه وهو بيع الكتب متجولا .. وقد أوصلته الطرق إلى منطقة « اللوت » (3) .

هل كان وجود قريب لچاك شامبوليون رجل الدين في كنيسة سان - سوفير هو الذى شده ناحية فيچاك ؟ الأب بويما يدعى ذلك دون أن يأتى بالبرهان .

جاء فى أحد مستندات سجلات اللوت أن عمودية فيچاك هى التى أخذت مبادرة تمويل هذا البائع المتجول لكى يفتح لنفسه محلا لتجارة الكتب حيث أن المدينة لم يكن بها هذا النشاط .

وعلى الرغم من ذلك فإن چاك شامبوليون لم يتخل عن حياة التجوال بشكل نهائى إذا سنراه يتاجر فى أسواق المدن وخاصة سوق بوكار .. إلا أنه نجح فى أن يكون له مقر دائم حتى لو لم يستقر هو نفسه تماماً وذلك لأن المال الذى أخذه من العمودية له لم يكن ذا شأن .

وكان زواجه من چان فرنسواز جاليو - وهو فى الثلاثين - عام ١٧٧٣ هو الذى سمح له بشراء دكان ومنزل مدركاً بذلك شيئاً من الثراء .

كان آل جاليو يقطنون ضاحية فيسال المتاخمة وهم برجوازيون متأصلون . ولكن والد چان - فرنسواز كان يعمل نساجاً مثل أبيه ومهنة النسيج كانت تعد من الحرف النبيلة - غير أن العائلة كانت تفتخر بوجود موثقين للعقود بين الأجداد ولعدة أجيال . كما أن والدة چان - فرنسواز كانت من عائلة تولييه وهى إبنة عمدة المدينة السابق . بزواجه من هذه الأنسة دخل چاك وسط مجموعة صغار وجهاء فيچاك .

لم نحصل على أى صورة لوالدى چان - فرنسوا . كانا على مشارف عامهما الثلاثين عندما إقترنا وهذه السن تعد متأخرة للغاية بالنسبة لسيدة فى ذلك العصر غيران الذى يدهش أكثر هو أن هذه السيدة ذات الأصول البرجوازية الحضرية كانت لاتقرأ ولاتكتب . وقد ورد فى عقد الزواج المؤرخ فى ٢٣ يناير ١٧٧٣ « بين چاك شامبوليون -التاجر - المولود فى لاروش - دى - قالبونيه - وفرنسواز جاليو الإبنة الطبيعية والشرعية لچاك جاليو - تاجر - وهى تقدم له دوطه مقدارها أربعمائة جنيه نقداً راجعها وتسلمها المدعو شامبوليون (...) » وقد وقع على العقد أحد عشر شخصاً ولكنه غير موقع من العروس « لأنها لاتعرف كيف تقوم بذلك » (4)

قبل ستة أشهر من العقد أى فى ٦ يوليو ١٧٧٢ كان چاك شامبوليون قد إشتري المنزل الذى سيقم فيه مع أسرته ودفع نصف ثمنه فى إنتظار إستلام لوطه زوجته . غير أنه لم يشتري مقر مكتبته* إلا فى عام ١٧٧٩ وذلك فى الميدان الأيسفل» (بلاس باس) وكان يستأجرها قبل أن يشتريها - وذلك جعل منه صاحب مكتبة موثق.(5)

كون چاك أصبح عضوا فى برجوازية فيچاك وفيما بعد رب أسرة لم يمنع من الاشتراك فى نشاط الأسواق الجواله .. وقد نجد فى هذا الترحال أسباب مولد چان - فرنسوا - أو على الأقل أحد أسباب عودة نجلى « تاجر المكتب » إلى منطقة اللوفينييه - وقد أدت عودتهما هذه لوراً حاسماً فى إتجاهاتهما الفكرية ، وفى تحالفاتهما ونجاحاتهما .

من القرن السادس عشر ومن بعده عصر التصحيح La Réforme وعلى الأخص فى القرن الثامن عشر أدى تاجر الشنطة أو التاجر المتجول أو سمييه تاجر الخرج لورا إجتماعيا وخاصة إذا كانت تجارته هى الكتب . فهو ليس فقط حاملا للسلع بل هو أيضا ناقلا للأخبار .. إذا أنه ينشر الإشاعات السارية فى المدن والطرق العامة إلى أكثر القرى بعداً وعزلة .. فهو يختلط بعامة الناس الذين لا أصل لهم المعدمين والشحاذين الهاربين من الطاعون ومن الحروب .. مثل هؤلاء زاد عددهم كثيراً فى نهاية القرن الخامس عشر بسبب هجرة الغجر « المصريين » و « البوشمان » و « الرومانيين » إلى غرب أوروبا .

كان هؤلاء الباعة المتجولون يحملون فى خروجهم بالاضافة للعاديات الدينية وصور القديسين - مطبوعات أخرى تمت بوساطة الحفر على الخشب (اكسيلوجرافيا) وكان الكتاب يؤرق السلطات الدينية والملكية سواء بسواء لما قد يحمله من آراء .. وكان يجب إذن التحكم فى إنتشاره . ومن ناحيتهم فقد قاوم أصحاب المكتبات نوو العناوين الثابتة إنتشار بيع الكتب عن طريق الباعة الجائلين بسبب صعوبة التحكم فى تحصيل نسبتهم فى حقوق الطبع التى اشتروها من مؤلفى الكتب .

من الناحية الرسمية كان لايحق للبائع الجائل أن ينقل أو يبيع سوى أشياء محددة مثل الكتيبات الدينية والنصائح العامة والتقاويم وكتب محو الأمية وروايات

* أصبح فيما بعد محلا لتجارة الأقمشة ، وهو الآن « بقالة جملة » .

عصر الفروسية . وأضيف إلى القائمة فيما بعد مجموعة كتب « المكتبة الزرقاء » وكانت تطبع في مدينة تروا Troyes (مركز صناعة الخردوات التي هي أهم بضائع الباعة الجائلين) .. أما من الناحية الواقعية فقد أصبح بائع الخرج عاملا مؤثرا للغاية في نشر الأفكار « الجديدة أو الهدامة » لعصر التنوير بوساطة الكتب .

ويقول لوسيان فاير وهـ . حـ مارتان في مؤلفهما « ظهور الكتاب »⁽⁶⁾ أن الباعة الجائلين كانوا ينقلون في خروجهم أشياء عديدة غير تلك المسموح بها .. وفي جميع فترات الأزمات لوحظ بانتظام تزايد عدد « رجال من المتشردين » الذين يبيعون المنشورات والروايات خلسة في أكثر الأماكن إزدحاما .. في القرن السادس عشر تم حرق العديد من الباعة الجائلين أحياء وذلك لأنهم ضبطوا وهو يبيعون كتباً هرطقية وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر في فرنسا زج بالعديد من هؤلاء في سجن الباستيل لأنهم كانوا يبيعون كتيبات سياسية مناهضة للحكم الملكي .

چاك شامبوليون لم يسجن في الباستيل ولم يحرق .. لكن ما حدث على الأرجح هو أنه طلب منه أن يذهب « في داهية » إلى أبعد مايمكن . ولهذا السبب فهو لم يذهب إلى إبنيه الذين أقاما بعد ذلك في مقاطعة اللوفينييه وأصبحا من المشاهير ومتبوعين مراكز تجعله يفخر بهما* في حين أنه كان كثير السفر في إتجاه الشرق - أوبالأحرى الجنوب الشرقي . ففي كل عام تقريبا كان هذا البرجوازي المحدث من جيبان العليا يشارك خلال شهر يوليو في حمى اللهو والمرح والمكاسب التي تتيحها سوق بوكار .

الأرباح كانت غير قانونية أحيانا .. فقد كتب مالزارب في كتابه « بحث في حرية الصحافة » يشير إلى هؤلاء « القوم الذين يهبطون من جبالهم ليتسوقوا الكتب من مدينة ليون ومن غيرها » . ثم يضيف « منذ سنتين أو ثلاثة نهب أحد أصحاب المكتبات الباريسيين إلى سوق بوكار ليصادر كتباً أعيد طبعها دون إذن » .

بعد ذلك بقرن كامل وعلى الرغم من أن السوق كانت قد بدأت تفقد أهميتها وبريقها أشار الفونس لوديه في روايته « نونا رومتان » إلى قوة تأثيرها على الجماهير الغفيرة بسبب « هذه الوشائج الأخوية الماسونية » التي كانت تربطهم بها :

« كانت سوق بوكار ومازالت أسبوعين أو شهرا من حياة الحرية واللهو والمفاجآت في معسكر اللبوهيميين ... كل ذلك تحت مسمى المعاملات التجارية ...

* لعله ظهر مرة واحدة هناك بمصحة إبنة البكر ولفترة قصيرة جدا .

هذه المجموعة متعددة الألوان من الإسبان وسكان ساردينا واليونانيين جلايبيهم الطويلة وشبابشبههم المطرزة والأرمن بعمائمهم المصنوعة من الفرو والأتراك بأرديتهم المزركشة ومراوحهم وسراويلهم القطنية الواسعة ذات اللون الرمادى ... إلخ .»

من المؤكد ، طبقاً للعديد من الشواهد ، أن چاك بائع الخرج كان واقعا تحت تأثير هذا السحر وكل شئ يدل على أنه كثيرا ما كان ينغمس فى حياة « المعسكر البوهيمى » هذا ... (حتى بعد إصطحابه لچاك - جوزيف إبنة الاكبر عندما راح يبحث عن عمل فى النوفينيه) .. لقد كان رجلا مرحا وميالا لشرب الخمر .. فهل نذهب إلى الاعتقاد بأنه أقام علاقات من نوع خاص مع بعضهن أو أن بعض الأشياء الغريبة التى مرت فى حياته ترجع إلى ذلك السبب ؟ أو أن بعض هؤلاء « البوشمانيين » أو « العجر » أو « المصريين » * قد دخلوا حياته حتى اندمجوا فيها ودخلوا فى خصوصياته إلى أن ظهر فى فيد اك ولد صغير أسمر البشرة سرعان ما أطلقت عليه كناية « الشرقى » ؟ .. هذا الولد الذى سيتحمس بسرعة لمصر ؟ ... تخيلات ... أم تهينات ؟؟ كل شئ جائز .

ومع ذلك فإن أهم مراحل الحياة العملية لچاك شامبوليون قضاهها فى فيچاك واعتباراً من عام ١٧٧٩ وبعد ستة أعوام من زواجه كانت زوجته قد أنجبت له أربعة أطفال بقى منهم ثلاثة على قيد الحياة وأخذ وضعه المادى ينتعش .. فهو لم يكتفى بأن أعد خبيراً فى المكتبات يقوم بتقييم مجموعات الكتب التى يمتلكها نبلاء منطقة قوس - وهو ما تشهد عليه السجلات المحلية - بل أكثر من مشاريعه التجارية الصغيرة فاشتأجر أراض زراعية ، كما إشتري وظيفة ذات دخل فى الكنيسة ، وإشتري كذلك مقر مكتبته المطل على الميدان الأسفل (Place Basse) وكان يستأجره حتى ذلك الوقت . وعلاوة على كل ذلك فقد إشتري فى العام ذاته (١٧٧٩) مقر إقامته فى حارة لابوبوسكورى وهو المنزل الذى ولد فيه چان - فرنسوا ** .

* يعتقد البعض أن كلمة « جيبسى » أو غجرى كما نقول فى العربية هى تحوير كلمة ابجيسىان أو مصرى بالفريية - (المترجم) .

** الذى أصبح منذ عام ١٩٨٦ متحف شامبوليون .. لم يتفق المؤرخون على هذا التاريخ (١٧٧٩) الذى ظهر فى الأوراق التى نشرها السيد / كالمون .. فقد نشرت الأنسة مونيك إسكات مقالا موثقاً تشير فيه أن صاحب المكتبة إشتري المنزل نحو عام ١٧٧٢ كما أنها توضح أنها لم تجد أى مستند يوضح أصل هذا المبنى (راجع مجلة ميدى - بيرينيه) رقم ١١٥ - أغسطس ١٩٨١) الأنسة إسكات هى التى عملت بنجاح على تحويل هذه الدار إلى متحف .

وبشكل عام - كما يقول أندريه نوال - المثقف المقيم بالمنطقة - كان صاحب المكتبة شامبوليون رجل أعمال ناجح (...) كانت مكتبة المدرسة المحلية ثرية جدا بالكتب وكانت تشتري مقتنياتها من مكتبة الميدان (...) كما كانت تفعل أيضا عائلات فوكو دالزون وبوجاش ، ورايونديج ... « كانوا يقتنون كتباً في الزراعة والطب والقواميس المختلفة وكتاب « العصافير » تأليف بريسون (١٧٦٠) .. و - الأغرّب من ذلك كله - صدق أو لاتصدق - كتاب « هيروغليفيات القراعنة » لمؤلفة فارتوبرون في طبعته الفرنسية* التي ظهرت عام ١٧٤٤(7)

توفى أول أبناء فرنسواز وچاك بعد مولده بساعات في أكتوبر ١٧٧٣ وأسموه جييوم . ثم ولدت لهما إبنة - تيريز - بعد ذلك بعام واحد ثم بيترونيل بعد عامين ثم (چاك - جوزيف « في ٨ أكتوبر ١٧٧٨ الذي سيصبح الرائد والمشرف على صغر الأبناء چان - فرنسوا .. ولعلنا نقول بلغة هذه الأيام أنه كان مدير أعمال أخيه الأصغر .. بعد چاك - جوزيف ولد چان -باتيست الذي توفى وهو في الثالثة- ثم ولدت ماري - چان عام ١٧٨٢ .. وبعد ذلك بثمانية أعوام كاملة احتفل آل شامبوليون بأخر العنقود : چان فرنسوا الذي سيدخل اسم شامبوليون في سجل الأمجاد .

كان هذا المولد غريباً من جميع الوجوه ليس فقط لأن المولود أصبح فيما بعد شخصية فذة ولكن بسبب الظروف الفريدة التي أحاطت بمولده وبسبب الروايات التي ترددت حوله .. وسنأخذ ذلك في الاعتبار مع طرح الأسئلة اللازمة .

في مؤلفها القيم* الذي خصصته لمؤسس علم المصريات نقلت هيرميني هارتلويان في ١٩٠٦(8) رواية من هذه الروايات وذلك دون أى تقييم نقدي لها وهي تنور حول أعمال السحر .. مصدر الرواية الوحيد الذي يعتد به مذكور في النسخة الأصلية باللغة الألمانية (ص ٢ ، هامش ٤) وهذه المذكرة الهامشية لم تظهر في الترجمة الفرنسية للكتاب التي ظهرت بعد ٧٥ عاماً من الأصل الألماني . والمرجع الذي ذكرته هو «مذكرة في الفراسة الدماغية خاصة بشامبوليون الصغير » تليت على جمعية فرينولوجيا - باريس في ١٢ نوفمبر ١٨٣٣ ونشرت في صحيفة هذه الجمعية (B N 8 Ln 27 57613) صاحب هذا البحث هو الدكتور جانان** - وهو أحد

* يستعود إلى هذا المؤلف في الفصل التاسع .

** تربطه بچان ، فرانسوا علاقات شبه أسرية .

تلامذة مخترع علم الفرينولوجيا (أو القرايسة الدماغية) المسمى «جال» - وكان قد كشف على جان - فرنسوا بعد ذلك بعشرين عاماً :

« لما كانت أتفه الظروف تعد ذات أهمية بالنسبة لتاريخ الشخصيات العظيمة فمن الواجب على أن أذكر علامه مميزة ..

« كانت والدة شامبوليون تعاني من ألام روماتيزمية حادة جداً تمنعها من إستخدام أطرافها وقد حاولت نون جدوى أن تخفف من ألامها بالوسائل الطبيه .. إلى أن أحضروا لها قرويا لايعرف القراءة ولكنه أصبح مشهورا بسبب نجاحه فى علاج حالات عديدة فى الناحية . »

« قام هذا الرجل بتدليكها بنبيذ ساخن بعد أن تم على أعشاب طبية فيه .. شربت منه وفى اليوم الثالث من هذا العلاج قامت من سريرها وقد برأت تماماً من الداء .. ولكن الأغرب من ذلك كانت النبوءة التى قالها هذا المعالج لمدام شامبوليون .. وكانت حينذاك فى الثامنة والأربعين وكانت قد توقفت عن الانجاب منذ عشر سنوات .. فقد قال لها أنها ستلد إبناً فى وقت قريب وأنه سيشرقها .. وقد ولد شامبوليون الصغير بعد ذلك بعام . »

كل ذلك لا يوحى بأى ثقة . وعندما تتكرر هذه القصة على لسان سيدة إسمها مدام لاكروا فإن المدلك غير المعروف ينجح فى الحصول على إسم : « چاكو الساحر » .. كما تتضح الوصفة السحرية « شربت مرة واحدة كميات كبيرة من منقوع مغلى لأعشاب طبية وهى ممددة على فرشاة من الأعشاب المغلية » .. كل ذلك مضاف إليه جملة تاريخية : « بشر چاكو الساحر مريضته بانها ستلد أبناً » سيصبح : عالماً مستتيراً للقرون القادمة*.

هل كان الهدف من هذه الأسطورة هو إضافة لمسة إبهار لتاريخ رجل هو أصلاً فى غنى عنها فأن ماحققه فى حياته قد فاق كل تصور ؟ أم أن الهدف كان التمويه على الرواية الحقيقية ؟ وهى أن تكون أمه الحقيقية من الأغرب أو بكلمات أخرى أنه واد

* أما إيميه شامبوليون - فيجاك ابن أخ جان فرنسوا فقد ذكر القصة فى كتابه « رجلان إسمهما شامبوليون » ولكنه لخصها فى الجملة التالية على لسان الساحر : « ... طفلاً سيسعدنا . »

خارج إطار الزواج . هذا الافتراض لا يدعمه فقط الحياة غير السوية التي عاشها والده وإنما أيضا عدم معقولية الرواية الرسمية المزوقة التي تقول أولى إدعائها أن أمه ولدتها وهي فى الثامنة والأربعين وهذه السن تعتبر متقدمة بالنسبة للقرن الثامن عشر علما بأن صحتها كانت معتلة للغاية وكانت قد توقفت عن الانجاب منذ مايقرب من عشر سنوات .. ثم أن هذا الابن المعجزة لم يذكرها أبداً فى جميع مراسلاته فى حين أنه أشار فى العديد من المرات وحتى مماته - أى بعد خمسة وعشرين عاما من وفاة مدام شامبوليون : شخص عزيز عليه للغاية فاتته فى فيچاك .

باختصار نقول أنه فى ٢٣ ديسمبر ١٧٩٠* ولد طفل فى حالة صحية جيدة بشرته سمراء وذلك فى المنزل الكائن بحارة لابود وسكورى . أما سجل كنيسة نوتردام نوبوى فمسجل به أنه تم تعميده بها فى ذات الليلة : « فى عام ألف وسبعمائة وتسعين وفى اليوم الثالث والعشرين من شهر ديسمبر تم تعميد جان فرنسوا شامبوليون المولود فى اليوم ذاته من الزواج الشرعى للسيد / چاك شامبوليون تاجر الكتب وفرنسواز - ابنه جاليو - التابعين لهذه الكنيسة . أبوه الروحى هو چان - فرنسوا** شامبوليون - طالب - أخوه .. وأمّه الروحىة (اشبينته) هى نوروتى جاليو - خالته وقع عليه أبو الطفل وأبوه الروحى والأم الروحىة لم توقع .

توقيع : شامبوليون - القس بوسكيه - شامبوليون .

الدار سادتها الحياة وضوضاء ثلاث بنات وولدين أكبرهم عمره اثنا عشر عاما .

المدينة سادتها حمى الثورة المتفاعلة . التى لن تلبث أن تحدث بها أيضا الهزات العنيفة التى عمت البلد كله .. فى حين أثار الاطماع بيع « الأملاك الوطنية » وكان أحد الطامعين هو چاك شامبوليون الذى لم يترك الفرصة تمر دون أن يقتنى حقل عنب كان يمتلكه رهبان وذلك فى ربيع عام ١٧٩١ . ثم إشتري بعد ذلك بعضاً من قطع الاثاث ..

* كتاب ميشو « السيرة الدولية » و « القاموس الإسيكلويدى لفرنسا » تأليف ف . لوبا يذكران عن خطأ أن ميلاده هى ١٧٩١ ، وقد نقل هذا الخطأ سيلفستر بوساس ذاته فى « مذكرة عن شامبوليون الصغير » ١٨٢٣

** القس بوسكيه أخطأ فنذكر إسم المولود بدلا من إسم أخيه .

وهكذا كانت الأمور مستمرة في سيرها الحسن كل شيء إذن كان على مايرام فيما عدا حدوث مشكلة إغلاق المدرسة التي كان چاك - جوزيف يدرس بها والتي كان يديرها الرهبان . فقد احتلتها الحرس الوطني . ولذلك تحتم البحث عن مدرس خاص ليتابع تعليم چاك جوزيف - أثرى المستقبل - والذي كانت شهيته للتحصيل ثابتة بوضوح . تولى هذه المهمة قسان على التوالي* إلى أن عين بسكرتيرا في الشئون الإدارية لبلدية المدينة وذلك عام ١٧٩٤ .

وهنا يثار سؤال - ضمن أسئلة عديدة أخرى - حول الآثار التي تركتها أحداث الثورة المختلفة على هذه الأسرة . إذا سلمنا بما تتناقله الرواية التقليدية كما فعلت هيرميني هارتلوبان (9) فإن چاك شامبوليون كان « على رأس الشرطة » في فيچاك في العام الثالث للثورة أي أثناء حكم « الارهاب » .. وذلك يحدد موقع آل شامبوليون من القلاقل : وهو في قلبها ذاته . إذ كان على رئيس البوليس في ذلك العهد أن يتخذ قرارات خطيرة للغاية وأن يشترك في عمليات وحشية .. إلا أن المؤلف تشيير إلى احتمال إيواء شامبوليون الأب . لاثنتين من الرهبان كانا معرضين لخطر داهم ومع ذلك فإن وضعه قد تعرض لخطر كبير في التاسع من تيرميدور وهذا يلقي بظلال من الشك على النشاط القمعي لچاك شامبوليون خاصة وأننا سنرى فيما بعد أن ابنه الأكبر قد عبر فيما كتب عن إرتياعه لما حدث في ذلك التاريخ**.

يشير أدريه نوال في أحد النصوص التي نشرها « أصدقاء شامبوليون » في فيچاك - إلى هذه الفترة بطريقة توحى بأن آل شامبوليون كانوا ضمن تيار الـ SANS/CULOTTE المتمردين إبان الثورة إن لم يكونوا اصلا قادة هذا التيار :

« في عام ١٧٩٤ لم يكن الطفل (چان - فرنسوا) قد تعدى الرابعة*** من عمره عندما كانت الجماهير الهادرة في الميدان العالي تصرخ : « تحيا الجمهورية » . ويومها سقطت ثلاثة رؤوس بفعل المقصلة وذلك في الساعة السادسة والنصف وقد تم إعدام المحكوم عليهم الثلاثة وسط الفرحة العارمة للجماهير (10).

* راجع الفصل الثاني .

** يشير أحد المستندات التي اكتشفت مؤخرا أن چاك شامبوليون كان عضوا في لجنة المدينة عام ١٧٩٣ (نقلا عن مدام سيمون فوايساك)

*** الواقع أن حكم الإرهاب سقط في يوليو ١٧٩٤ حين كان چان فرنسوا في الثالثة والنصف من العمر .

الشيء المؤكد الذى يذكره هذا الكاتب المحلى هو أن مكتبة شامبوليون كانت تحصل على الصحافة الثورية مثل « نشره المحكمة الثورية » و « صديق الشعب » صحيفة سياسية محايدة « (11) . وكان زبائن المكتبة يعلقون على ما يقرأونه فى المكتبة - علما بأن هذه الصحف كانت تصل بعد ثلاثة أو أربعة أسابيع من صدورها وهى المدة التى كانت تستغرقها « العربة الحمراء » للوصول إلى فيجاك قادمة من باريس .

باختصار يقول إنه حتى لو نحينا جانبا احتمال قيام جاك شامبوليون ببور قائد الشرطة المحلى فإن الواقع هو أن الثورة كانت حاضرة بكل ثقلها فى حياة هذه الأسرة أو على الأقل فى حياة الطفل الذى كان يلعب فى شارع صغير لا يبعد سوى ثلاثين خطوة من الميدان العالى . أى المكان الذى كانت المقصلة منصوبة فيه وذلك حتى الشهر الثورى تيرميدور وقد زرع مكانها بعد ذلك شجرة الحرية التى كانت إحتفالات الثورة تقام حولها فى صخب .

ماهى النفس التى لا تتأثر مدى الحياة بتلك الأحداث الجسام ؟ خاصة إذا كانت إحدى هذه النفوس هى نفس جان - فرنسوا وهى من أكثرها حساسية وأقلها تحكماً فى ذاتها بالنظر إلى غرابه علاقاتها الأسرية .

إننا نعرف كل شئ تقريباً عن العلاقات التى ربطت بين الطفل - ثم الشاب - بأخيه الأكبر الذى قال عن نفسه أنه كان بالنسبة له الأب والأستاذ والتلميذ (الأب ؟) وكان له فيما يبدو أب حقيقى إلا أننا لانعرف تقريباً أى شئ عن العلاقات التى كانت تربط جان - فرنسوا بأبويه سوى أنهما لم يقررا منحه فرص التعليم الحقيقية سوى فى وقت متأخر وأنهما تركاه يسافر فى سن صغيره وهو عشر سنوات وثلاثة شهور لمدينة بعيدة ليعيش مع أخيه بصورة نهائية .

إن نتعرف على مشاعر جان - فرنسوا نحو أبيه سوى بعد فترة طويلة من خلال مراسلاته وهى مشاعر قاسية فى أغلب الأحيان وخاصة منذ ١٨١٧ عندما تسببت الفوضى التى إتسمت بها حياة جاك شامبوليون فى إيصال نباته إلى حافة الافلاس الكامل . إلا أننا نلاحظ أنه حتى قبل أن يترك الدار للسفر إلى جوردنوبل فى ١٨٠٦ أن حياة الولد الصغير كانت تنور فى فلك أخيه الأكبر الذى يبدو وكأنه يأخذ وحده كافة القرارات حتى وهو على بعد مئات الأميال من فيجاك .. كل شئ يوحى بأن الأبوين قد

تنازلا تماماً لچاك - جوزيف - سواء فى فيچاك نفسها أو فى جرونوبل ثم فى باريس - عن مسئولية التعليم بل والاتفاق على الولد والمراهق جان فرنسوا .

هل كانت مواقف الأب السياسية أو المراكز التى تبوأها بين عام ١٧٨٩ و ١٧٩٤ هى التى جعلت منه غير لائق لأن يكون مربيا فى نظر الرأى العام ؟؟ وهل تسبب ذلك فى أنه كان شخصية مرفوضة ؟ لا يوجد أى دليل يثبت ذلك .. هل أصبح سكيراً ؟ على العموم فإن عدم وضوح وجوده يثير الدهشة أكثر مما يثيره غياب وجود الأم الأمية التى ظلت على حالها إلى أن توفيت عام ١٨٠٧* على الرغم من مهنة زوجها والنشاط الفكرى الهائل الذى قام به ولداها . وكذلك إنبتها تيريز ومارى ولكن بدرجة أقل وهما اللتان أدارا المكتبة بعد والدهما .

توجد قصة أخرى ربما تدخل أيضا فى حيز الأساطير ولكنها أكثر إبتكارا من رواية « چاكو السحر » وهى على العموم أكثر طرافة وبالقطع هى بمثابة النبوءة ويجدر ذكرها ، فهى تعطى فكرة معبرة عما عرفته هذه الطفولة من أحداث فريدة . القصة الوحيدة التى توضح كم هى مبهمه العلاقة مع أم تبدا غائبة فى حين يعوض هذا الغياب بعض الشئ يقظة اخواته البنات .

وإذا كان العديد من المؤلفين قد رووا هذه القصة الطريفة فإننا سننقلها هنا من كتاب هيرمينى هارتلوبان :

« ... بما أنهم أرادوا إبعاده عن الدراسة لعدة سنوات** فقد أخذ يبحث عن وسيلة يخترق بها أسرار الكتب . كانت الأم قد لقت عدة صلوات من كتاب القداس الخاص بها*** وقد حفظ هذه المقاطع عن ظهر قلب .. وسرعان ما تحصل على نسخة من الكتاب - وطلب من أحدهم أن يحدد له فيه النصوص التى حفظها (-) وراح يعطى معان خياليه للحروف المطبوعة للتمييز بينهما ، ثم نقلها كتابة (كيف ؟ هل كان يعرف الكتابة بعد؟) ثم راح يقارن بين الكلمات التى تعرف على بعضها . إلى أن نجح بهذه الوسيلة (..) إلى تحديد كل كلمة وكل مقطع فى كتاب الصلوات الذى حفظه.(١٢)

* الجدير بالتسجيل أنه عندما طلب منها التوقيع على وصيتها عام ١٨٠٧ أعلنت أنها لا يمكنها ذلك

«بسبب رعشة فى يديها» (راجع كالمون - دراسات من اللوت ، ١٩٨٢، ص ٢٥١)

** لماذا ؟ كان چاك - جوزيف ضعيف البنيان فى حين كان أخوه الأصغر عفا منذ ولادته .

*** لا بد وأنها قد حفظتها عن طريق السمع بما أنها كانت لاتعرف القراءة .

وهكذا فمن الأصوات إلى الرموز ومن هذه إلى تلك إختراع - الفن فى نشأته - بأن إمتلك مبادئ طريقتة التى ستتطور تماما بعد عشرين عاماً - فهو سيقفز من اللغة اليونانية إلى اللغة القبطية من القبطية إلى الديموتيقية ومنها إلى الهيراتيقيه والهيوغليفيه موقفاً بهذه الطريقة « بين أصوات الأحياء المسموعه والحروف الميتة » (13)

هكذا تباطأ صاحب مكتبة الساحة السفلى فى تعليم هذا الطفل البالغ من العمر خمس أو ست سنوات فى ذلك الحين تعليماً يتناسب مع ما يملكه بكل وضوح من إمكانيات ذهنية غير عادية . فيتولى چاك - جوزيف تعويض هذا العجز بقدر ما يمكن وقد شجعه فى ذلك تمسك الطفل به . وهو الذى يكبره باثنى عشر عاماً . خاصة وأنه كان قارئاً نهماً للكتب ويعرف أضعاف ما يعرفه معظم التلاميذ المحلين الآخرين فى التاريخ واللغات القديمة .

وإذ بالدروس الأخوية تتوقف فجأة . فبعد أن صدم الأخ الأكبر فيما يبنيو عندما لم ينجح فى السفر مع ابن عمه أندريه ضمن حملة بونابارت على مصر - وهى القصة التى ثارت حولها عدة إفتراضات كما سنوضحه فيما بعد - وبعد أن زاد إحساسه بالاختناق فى حارة لابود وسكيرى وقد بلغ التاسعة عشرة من العمر نجح فى الحصول على وظيفة صغيرة فى أحد متاجر مدينة جرونوبل وجدها له أولاد عمامه المقيمون فى مقاطعة بوفينية .. كان قد قابلهم مع أبيه فى سوق بوكير . وهكذا خرج چاك - جوزيف من بوكير عام ١٧٩٨ - وكان هذا بمثابة محنة لا مثيل لها بالنسبة للولد الصغير الذى لن يتمكن أحد من مواساته فى ذلك لفترة طويلة . لقد كان سفر الأخ بكل تأكيد بداية أهم أزمة عاشها الطفل فى فيچاك .

وعليه - فقد نخل مدرسة البنين الأوليه التى أعادت عمودية فيچاك إفتتاحها بتمويل منها فى مقر المدرسة التى أغلقت عام ١٧٩٠ (14) دخلها عشية بلوغه سن الثامنة فى نوفمبر ١٧٩٨ ولم يكن سعيداً ولا ناجحاً فيها . وسرعان ما أعتبر تلميذاً سيئاً . فهو يبغض كل ما يتعلق بالحساب وهو ضعيف فى الإملاء* ويتسبب ذلك فى تكرار معاقبته .. علاوة على شخصية سريعة الغضب ، غير المرتبة .. كل ذلك يرجع غالباً إلى كونه « آخر العنقود » داخل أسرته يفسده تدليل أخواته .. وسرعان ما يتهمش ولا يحلم سوى باليوم الذى يخرج فيه من تحت سلطة أساتذته .

* سيستمر على هذا الحال لفترة طويلة جداً .

تلك هي الفترة التي كتب فيه على ما يبدو خطاباً غير مؤرخ من بضعه سطور لم يتم فك شفرة سوى سطره الأولين :

“Montreser frere je vous prie demefere savoir de tes nouvellesge te prie”
أما الباقي فهو غير مقروء ..(15)

يبدو من سير الأمور أنهم كانوا بصدد تنشئة تلميذ بليد وغير متواعم مع مجتمعه متمرد : ولا نعرف كيف توصل إلى إحاطة أخيه علماً بما يحدث وكان هذا الآخر يقيم بصفة دائمة في مقاطعة دوفينييه وإقناعه بما يريد . لكن يبدو واضحاً أن تدخل چاك – جوزيف هو الذي أدى إلى إخراجهم من المدرسة ووضعهم تحت رعاية قس إسمه نون كالمالز وهو الذي تولى تعليم أخيه الأكبر قبل ذلك بعشرة أعوام .. ولأن القس احتفظ بذكري طيبة عن تلك التجربة فقد قبل أن يتولى شئون الأخ الأصغر المشاكس .

الرواية التي قامت مدام هارتلوبان بتريديها جعلت من « نوم كالت » كما نسميه المرئي الأول لچاك جوزيف ثم لچان فرنسوا شامبوليون ، راهبا من البنيديكتان مناهضا للدستور المدني الذي طبقته الثورة على رجال الكنيسة وأن چاك شامبوليون تطوع بشجاعة في استقباله وإيوائه في داره بشارع بوبوسكيري .

أما شارل – أوليفيه كاربونال فهو يشكك في صحة هذه الرواية في كتابه «شامبوليون الآخر » L'Autre Champollion، أما السيد ميشال فوريه – وهو باحث من فيچاك – فقد أرسل لنا خطاباً يؤكد فيه أن الشخصية التي نحن بصددنا غالباً ما تكون چان جوزيف كالمالز الذي انتخب عام ١٧٩١ القس المسئول عن كنيسة بوبوي التي تتبعها عائلة شامبوليون والتي عمد فيها چان فرنسوا .. وقد توصل إلى تلك النتيجة بعد أن رجع في بحثه إلى قائمة رجال الكنيسة الذين أقسموا والذين لم يقسموا (الولاء للثورة) كما رجع أيضا إلى مقارنة خط أستاذ چاك – جوزيف وچان فرنسوا ببعض النصوص الأخرى كتبها بخط ، ثم أن نون كلامان كان يسكن على بعد بضعه أمتار من سكن شامبوليون في شارع البكروبوسكيري كما أن العديد من العقود تحمل إمضاءه بجوار إمضاءات العديد من أفراد العائلة .

لا أحد كان يستحق أكثر منه لقب صديق العائلة الذي أطلقه عليه چاك – جوزيف .. بالإضافة إلى أن شامبوليون الأب (چاك – جوزيف) كان ثوريا معلنا (جاكوبي) لدرجة لا تسمح له بأن ياتمن أحد أعداء الثورة على تعليم أبنائه حتى لو كان هذا الشخص من أصدقائه .. وهذا الجانب من القصة هو الذي يهم المؤرخ في المقام الأول

.. لأن تربيته الأخوين شامبوليون لم تكن من النوع الذى يشكك فى الولاء للثورة الذى إرتبط بها أهل البيت جميعا . كان دم كالمزج بالتاكيد رجلا غزير العلم ، راجح العقل واسلوبه فى الكتابه لا يخلو من الأناقة . تحت رعايته تفتحت شخصية چاك چوزيف أولا ثم چان - فرنسوا أفضل بكثير مما حدث لهما فى المدرسة .

هل تأثر أسلوبه التعليمى بكتاب چان چاك روسو : أيميل ؟ من المؤكد أن القس وتلميذه إلتزما ببعض مبادئ الفيلسوف . فأمضيا أكثر فترات الدرس فى الريف ، وربط المعلم على قدر الإمكان بين أقواله وحقائق الحياة وطاحونة جريفول ، والحشرات والنباتات وكذلك الأثار القديمة مثل الطريق الرومانى المؤدى إلى موقع «الأوكسيلونوم» * القريب والقصر العتيق المجاور للإبالان ومبنى الضيافة الذى شيده سوللى ** (وزير مالية لويس الرابع عشر) فى المدينة الصغيرة .

كان إهتمام الولد الصغير مشهودا لمادتين تحمس لهما : النبات والنجوم التى سحرت لغتها لب التلميذ الصغير كما علمه إياها نوم كالمزج . إلا أن هذا الأخير لم يساير تعاليم الفيلسوف چان چاك روسو فى نقطة واحدة من مشروعه التعليمى وهو دراسة اللغات التى كان روسو لا يحبها ، ذلك لأن الولد كان قد أثبت نبوغه فى مجال اللغات القديمة مما دفع القس إلى تشجيعه خاصة أنه هو نفسه كان فيما يبدو يحسن التعليق على النصوص الدينية .

وهكذا تحصل چان فرنسوا خلال هذين العامين اللذين قضاهما بجوار نوم كالمزج (١٨٠٠ - ١٧٩٩) على مبادئ راسخة لللاتينية والأغريقية وبعض من العبرية بالاضافة إلى التاريخ الطبيعى والفلك .

وحتى نحسن تقييم تطور هذه الدروس ونتائجها نعطى الكلمة للإثنين : المعلم والتلميذ وقبلهما لصاحب هذا المشروع التعليمى ومنسقه . فى التاسع والعشرين من شهر ترميدور عام ٧ (الموافق ١٧ أغسطس ١٨٠٠) كتب چاك - چوزيف شامبوليون خطابا لنوم كالمزج من مدينة جرونوبل حيث يقيم منذ مايقرب من عامين :

* فى كابديناك الأعلى

** أصبح اليوم « دار النقود » وقدمت ترميمه على أكمل وجه

« سيدي علمت بكل سرور أنكم تفضلتم بالموافقة على إعطاء دروسكم وعنايتكم لأخي الصغير . لو كنت أحبه أقل مما أشعر به نحوه أو لو كنت لأحبه قط لكان لايعينني أن يكون أستاذه عالما ، طيب القلب ومتسامحا أو أن يكون مدعيا ، فظا وجافا ، غير أن الحب الذي أكنه لأخي يجعلني أمل في أن يكون معلمه من النوع الأول . وها أنا أرى آمياتي قد تحققت وأنى أهني أخي لأنه عثر في شخصكم على المعلم والصديق : ولاشك أننا سنراه - بعد أن يكون العمر قد شكل شخصيته - ينضم لي وللأسرة للتعبير عن إمتنانا لكم (...) أسمح لنفسى بأن أطلب منكم مذكرة صغيرة عن برنامج دراسته قدراته وتطوره .. » (16)

وجاءه رد المعلم :

« فيجاك ، في ٨ نيفوز عام ٩* (٢٩ ديسمبر ١٨٠٠)

« إنني بكل تأكيد أقبل مساعدة أخيكم وليسعدني أن أشعر بشئ من الفخر لأنني أشارك في تشكيل مثل هذه الموهبة الجميلة لو لم يكن متقلبا لهذه الدرجة ؟ إلا أنني أمل أن أراه يحرز تقدما بخطى عملاقة في مجال الأدب حيث أن في أمكانه سلوك هذا الدرب بشئ من النجاح عندما يكون العمر قد أنضج الدروس المتواضعة التي أعطيها له . انه لم يتعد التاسعة بعد ويمكنكم أن تتصور بسهولة ما يمكن لطفل في سنه أن يفعله عندما يكون إعتماده كاملا على حنان الأب والأم وعلى تسامح أستاذه (...) لقد كنت مرتبطا بكم بكل صدق ولما كان الود يحتاج لما يزكيه ولم يعد في إمكانى أن أضيف لكم شيئا تحتاجونه فإني أهني نفسي إذ أتمكن من صنع شئ له . وبالمناسبة فإني أرجو أن تدركوا أنني أحصل على مقابل لعنائي : فإني أعتقد في لعبتنا هذه سيكون رهاني عليه رابحا ، إنه متعلق بي جدا وذلك يزيد من رعايتي له .

« لقد بدأ يقدر أول مصاعب اللغة اللاتينية وهو ينجح من وقت لآخر في ترجمة نص إلى هذه اللغة ترجمة مقبولة .. أما تراجمه من اللاتينية فقد قام بنقل نص واحد إلى الفرنسيه دعني إلى أن أطلب منه المزيد حيث أنه نجح في التعبير الجيد عن المعنى اللاتيني .

* عدم تعود القس دم كارماز على التقويم الثوري جعله يؤرخ خطابه عام « ٨ »

أنه يتمتع بقدر كبير من التنوع وقدر كبير من حب الدراسة إلا أن هذا التنوع وهذا الميل ينويان في نوع من اللامبالاة والاهمال يصعب وصفهما . ففي بعض الأيام تراه يريد معرفة كل شئ وفي أيام أخرى تراه لا يفعل شيئاً .

« لقد مررنا بمثل هذه الفترة السعيدة من العمر ، لم نكن نرغب خلالها أن يوبخنا أحد واليوم بعد أن قدرنا قيمة المعرفة نشعر بالغضب تجاه اساتذتنا لأنهم لم يسلكوا جميع الوسائل المتاحة لكي يمزجوا ما هو نافع بما هو مشوق حتى تتمكن من المضي في درب العلوم المتينة .

« كان يمكن لنا أن نصل إلى مرادنا لو كانت الكتب الإبتدائية متوافرة ولكنكم تعرفون أننا محرومون في هذا البلد من كافة الوسائل .. ولذلك فإننا نعتقد أننا سنصبح أكثر فائدة للبشرية لو تعرفتم في أوقات فراغكم على وسائل حديثه لدى معلمى مدينة جرونوبل وأفدتمونا بعد ذلك بوجهة نظركم .. لعلنا نتمكن بنجاح من تنمية ذلك النوع من العبقرية التى نتلمسها لدى شباب هذا البلد ...

« القس : كالمز » (17)

بعد بضعة أيام يكتب چان فرنسوا لأخيه الأكبر خطاباً يستخدم فيه صيغة الجمع للمرة الوحيدة تعبيراً عن الإحترام ولعلها تكون قد أمليت عليه من يوم كالمز .

« فيچاك فى ٢ يناير ١٨٠١ (بعد أيام من بلوغه العاشرة) أخطى العزيز جدا . بعد طول إنتظار بلغت المنى بأن تسلمت خطابكم العزيز . وقد إزداد سرورى بأن علمت أنكم فى أتم صحة .. أما أنا فأحمد الله على أنى فى صحة جيدة جداً وكذلك الحال بالنسبة للوالد والوالدة والأخوات والعزيزات * وهن يرسلن لكم قبلاتهن الصادرة من أعماق قلوبهن . أشكركم على النصائح التى تفضلتم بها علينا وسأبذل كل جهدى كل يوم لأطبقتها . لقد طلبتم عينة مما نعرفه .. وإنى أرسلها طيه .

« أرجوكم أن تسامحوا عقلى الصغير لأنه متقلب بعض الشئ وأمل أن تقومه نصائحكم . أرجوكم أن تبلغوا كافة الأقارب الأعزاء بأسفى هذا وأن تقبلوهم بالنيابة عنى . السيد كالمات (كذا) كان ، فى منتهى السعادة بخطابكم العزيز وهو يؤكد لكم

* من الغريب أن صفة « العزيز » لم تقرن بسوى للأخوات .

اعتزازه بصداقتكم .. فى الختام ياأخى العزيز أقبلكم من أعماق قلبى (...) تاكلوا
إنى سابقى مدى الحياة أخاكم المطيع .

شامبوليون الأصغر .»

أرفق هذا الخطاب نص ترجمة إلى اللغة اللاتينية قام بتزويقها برسومات عديدة
والنص الفرنسى قدمه له يوم كالمز : وترجمته إلى العربية :

« إن الله يحبنى عندما أعطى خبزى للفقراء . أنطوان (٩) سيحببنى عندما أحفظ
دروسى جيداً الرجال الذين يمارسون الفنون يعملون لصالح العلوم (...) التلميذ
العاقل لا يغضب أحد قط . « (18)

ما يلفت النظر فى محاولات التعبير التى يقوم بها جان - فرنسوا فيما بين الثامنة
والعاشرة من عمره هو ضعفه فى الإملاء أكثر من عدم استواء الخط الذى راح يتحسن
من نص لآخر .

من المؤكد أننا نحتاج لكى نحكم على التلميذ حكماً سليماً مقارنة أعماله بما كان
يقدمه معاصروه لمدرسهم فى هذه المجتمعات شبه البلدية . غير أننا لانسى أن والد
جان - فرنسوا كان صاحب مكتبة وأن الطفل كان يمضى ساعات طويلة فى متجر أبيه
وعلاوة على ذلك فقد تعلم القراءة وحده وهى تجربة كانت مفيدة جداً فى تكوين
شخصيته .

يتحتم علينا أن نسجل باختصار أنه بالرغم من كل هذه الإمكانيات فإن هذا الولد
كان ضعيفاً للغاية فى هذا المجال وهو فى العاشرة من عمره مما تسبب له كما رأينا
فى توبيخ أخيه له . ومع ذلك فإن هذا الطفل كان يمتلك مواهب خاصة جداً يستزدهر
فيما بعد ..

بعد أسابيع قليلة يوجه چاك - جوزيف - وقد إزداد موقفه من أخيه أبوة - هذه
السطور المعبرة بما فيها من نصائح عن مدى سلطة الأخ الكبير وعمق أحاسيسه تجاه
شقيقه الأصغر .

« جرونوبل ، ٩ بلوفيز ، عام ٩ (٢٩ فبراير ١٨٠١)

أريدك أن تفى بالوعد الذى قطعته على نفسك فى خطابك الأخير بأن تتبع
النصائح التى قدمتها لك من موقع الصداقة التى أكنها لك وإذا كنت أشعر ببعض

الأسف فهو لأنى لا يمكننى إسداءها لك شخصيا ومشاركة والدى العزيز ووالدى العزيرة فى الإعتناء بك بالإضافة إلى عناية يوم كالمالز المتسامحة .

« بما أنك إعترفت لى بأن تفكيرك متقلب لذا يتحتم عليك أن تمنحه بعضا من الثقل . لا تنسى أبداً أن الوقت الذى يضيع لا يمكن إستعاضته . وأعتن بواجباتك . تذكر أن أكثر ما يعيب التلميذ هو الكسل والإهمال (...) إذا كنت تريد أن تحضر لتبقى بجانبى** فيجب أن تتعلم شيئا وبسرعة لأن الجهلة لا يصلحون لشيء . إذا أردت أن أحصل من والدنا العزيز*** على موافقته لكى تبقى معى فيتحتم عليك من جانبك أن تحصل على رضاه بقدر الإمكان عندئذ ستكون هنا معى فى مدينة كبيرة ولن تترك صداقتى لك أى شىء تبتغيه دون أن تلبيه . وعلاوة على ذلك فإنك ستتعرف على جميع اقربائك ومنهم أبناء عمومة فى مثل سنك يدرسان مثلك ويحققان تقدما فى كل يوم . فإذا لم تكن على نفس مستواهما عندما تحضر إلى هنا فلن يكون فى ذلك ما يشرفك (...) إن القراءة مفيدة للغاية وتساعد على تكوين الفكر والأحاسيس ، وأنت تتمتع بهذه المقدرة فاستفد منها . من الأفضل أن تجتهد فى تحسين خطك والأهم أيضا أن نتقدم فى الإملاء . إن القراءة ستساعدك كثيرا فى كل ذلك .

« أود أن تتواصل من اليوم مراسلاتنا وأن تقول لى كل ما يخصك ، امنحنى هذا السرور إلى أن أتمكن من إحضارك إلى هنا وهو ما قد يحدث أقرب مما تتصور . تقدمك وحده هو الذى سيحسم الأمر . قبلاتى ..» (19)

أرفق الأخ الأكبر بهذا الخطاب خطاباً مطولا ليوم كالمالز ننقل منه بعض الأسطر على أن نعود إليه فيما بعد عندما نحاول التعرف عن قرب على شخصية جاك جوزيف*** :

« جرونوبل فى ٩ بلوفيزو عام ٩ (٢٩ يناير ١٨٠١)

أكد لى خطابكم الموقر المؤرخ ٢٨ ديسمبر الفكرة التى كنت كونتها عن أخى الصغير . إن طبيعته التى قدرت أنها متهيجة ومشاكسة جعلتني أتخوف من أن يتسبب

* حصل الأبوان هنا علي صفة « الاعزاء » .. مع ملاحظة أن الأخ الأكبر هو الذى يكتب

** فى جرونوبل ، مما يوضح أن مشروع إنتقاله إليه كان يدرس منذ فترة .

*** انظر الفصل الثانى

فى قدر أكبر من الهموم للشخص الذى يوافق على أن يتولى تعليمه . إن رعايتكم له ستزيد أن أمكن ذلك من إمتنانى لكم . وأرجو أن يعوضكم الود الذى اكنه لشخصكم عن مجهودكم ولو بقدر قليل . أرجو أن تواصلوا رعايتكم له ... » (20)

لم يمض على ذلك التاريخ سوى شهر ونصف إلا وكانت «رعاية» يوم كالمألوف توقفت : فقد ركب جان - فرنسوا العربية المتجهة إلى مدينة « ليون » ثم المتجهة إلى مدينة جرونوبل وذلك فى نهاية مارس ١٨٠١ ليلىق بأخيه الأكبر فى الدوفينييه واضعا نفسه تحت وصايته . هل سافر هذا الولد الصغير البالغ من العمر عشر سنوات وثلاثة شهور وحده ؟ من غير المحتمل أن يكون أبوه قد رافقه فى رحلته ولم يتوافر مايدل على أن جاك - جوزيف قد إنتقل إلى ليون للقاء أخيه الصغير . لأن الذى إستقبله هناك هو أحد أصدقاء جاك جوزيف من رجال الدين إسمه مارتان .

فإذا صح أن الصغير « إميل » فيچاك قد قام بهذه الرحلة الطويلة وحده (وهى تساوى رحلة عبر الأطلنطى فى زمننا هذا) فلا بد أن نتخيل مدى ما شعر به من فخر وما أضفته عليه من ثقة بالنفس واعتزاز بها .

هل نجازف الآن ونرسم صورة شخصية لجان - فرنسوا وهو فى العاشرة من عمره بناء على المؤشرات المتوافرة لدينا وبناء على ما نعرفه عن أفعاله وتحركاته هو وأهله يوم أن ترك فيچاك للحاق بأخيه فى كبرى مدن الدوفينييه التى هى مواطن الأسرة ؟

جان - فرنسوا ولد متوهج المزاج ، حاد فى تحركاته وتلقائى فى إندفاعه وسريع فى ردود أفعاله : لون بشرته بنى غامق ويصفه البعض بأنه مائل إلى اللون الزيتونى . عيناه لوزيتا الشكل غامقتان للغاية ، قرنيتهما صفراء تطلق شرارا تحت خصلات من شعر داكن السواد ، يتفق البعض على وصفه بأنه سريع الإنفعال بل عنيف : « صعيدى » دمه ساخن ، رأينا كيف أن أخاه قد وصفه بأنه « متهيج ومشاكس » .

وما دمنا قد ذكرنا « إميل » (كتاب جان چاك روسو) فإننا نستعير منه كلمة فريدة لجأ إليها روسو ليصف بها هذه النوعية من الأولاد إذ يقول « ولد ديسكول » أو ذلك « الذى يهشم الأثاث الذى يستخدمه ويكسر شبابيك غرفته » (21) ؟ يجب ألا نبالغ فى هذا الاتجاه لقد نعتوه يوما بأنه Cabochard وهى الصفة الدقيقة لمثل هذا النوع من المزاج المندفع السيكلوتيمى المتذبذب نون وسطية بين القمة والقاع ولا يرى مواد لراسته سوى من خلال كرهه العميق والمناهض للرياضة الحسابيه وولعه الإيجابى

بدراسة اللغات والسماء والنباتات ، إندفاع يليه تخلى وحماس ثم إرهاق . هذا هو جان فرنسوا وسيبقى دائما هكذا .

لن نتوقف طويلا عند هذه الجملة أو تلك إلى قالها كالمز مثل « الخطوات العملاقة التي يمكنه أن يقوم بها في مجال الأدب » .. لأن في ذلك بعضا من الكلام لأصحاب مهنة التدريس .. غير أننا نرى في لهجة الأستاذ أنه يكن لهذا التلميذ الفريد إهتماماً فائقا على الرغم من أنه « متقلب » « كسول » و« مهمل » ومثبط للهمم في بعض الأحيان .

نضيف إلى موهبة حبه للغات التي سجلها يوم كالمز لدى جان فرنسوا ميلا حاسماً للرسم منذ تلك الفترة من حياته ويجب الانهمل هذه النقطة . لأنه عمل على تطوير هذه الموهبة بكل الحماس الذي يضعه فيما يحب ولأن « شامبوليون الصغير » سيجعل من هذه الموهبة سلاحاً غالي الثمن في دراسته للحروف التي هي في كثير من الأحوال تعبيرا أنيقاً عن الواقع (بالنسبة لتسمية « شامبوليون الصغير » فقد أطلق عليه هذا الاسم وهو في تلك السن بالمقارنة بأخيه الأكبر إلى أن إتفق الإثنان على إستخدام إسم مستعار من اللغة العربية وهو « صغير » « Seghir » .) ومن كثرة المرات التي أعاد بها نسخ الحروف الهيروغليفية باعتناء كبير ودقة متزايدة نجح العالم المكتشف من التعود على هذه الرموز السرية ثم التغلب عليها وترويضها .

لنعد في الختام إلى المجال الإسرى حتى نتمكن من تقييم هذا الولد ذى الإمكانيات المتباينة القيمة والمزاج المتقلب والمندفع . فهل يمكن الحديث عن غياب الأب ؟ في خطابه المؤرخ ٢٩ يناير ١٨٠١ أشار إلى قرار يبدو أن « والدنا العزيز » قد إتخذ (نون أى إشارة إلى والدتهما) مما يجعل من الواجب تصحيح ما سبق قوله عن تقلب صاحب المكتبة في نوره التربوي : كان في إمكانه على الأقل إستخدام حقه في الإعتراض .. وأقل ما يمكن قوله في هذا الصدد أنه إستخدم هذا الحق تجاه ابنه بنفس القدر الشحيح الذي إستخدمه لويس السادس عشر تجاه نواب الأمة . يجب أن ندخل في تقييمنا لعدم إنتظام هذا الولد « الديسكول » ضعف السلطة الأبوية الملاحظ عند جاك شامبوليون وربما أيضا العناية الزائدة عن الحد التي أولتها أخواته له لتعويضه عن غياب الأم (ربما يسبب مرض أو إعاقة ما ؟)

سيهرب جان فرنسوا وهو في العاشرة وثلاثة شهور من هذه التربية العرجاء التي كانت تتفاقم ليلتحق في جرونويل بالذى سيصبح بالنسبة لقلبه - بمثابة الأب ثم أيضا بعد ذلك بقليل بالنسبة لعقله أيضا .

٢ - أخ ، أم أستاذ ، أم أب ؟

ثيو وفنسننت ؟ من بلزك إلى ستندال - ابن القرن - إنتهازية - ترشيح للمشاركة فى حملة نابوليون ؟ محب للكتب لدرجة مرضية - من جاريبيل إلى ميلان - زيجة مناسبة - سحر الشرق .

لم يذهب الغلام جان - فرنسوا شامبوليون فى نهاية مارس ١٨٠١ لاكتشاف أو غزو مدينة ، إنما ذهب إلى لقاء رجل هو أخوه الأكبر . بالتاكيد كانت جرونويل فى نظره المدينة الكبيرة المهيبة فهى عاصمة الإقليم الذى تنتمى له عائلته . غير أن ما كان يهمله بالفعل هو جاك - جوزيف ووجوده وكذلك نصائحه وحمايته - كدنا نكتب أبوته .

لهذا السبب يجب التأكيد الآن مع بداية هذه الحياة المنطلقة - على النور الذى لا يقبل أى مقارنة والذى أداه الأخ الأكبر ، وهو النور الذى سيصعب تمييزه عن نور الأخ الاصغر على المستوى العلمى والذى يستحيل عدم إحلاله محل نور الأب على المستوى المعنوى فهل يستوجب هذا أن نقدم للقارئ سيرة ذاتية مزوجة تعيد تشكيل الفريق المكون من التوأمن شامبوليون ؟ لقد فضلنا أن نبرز ما يستحيل إختزاله فى العبقرية وما يميزها عن التطبيق وحسن الصنعة وسعة المعرفة والموهبة ؛ هذه التفرقة التى أحسن جان كوكتو التعبير عنها حين قال « الموهبة تفعل ما تريد أما العبقرية فهى تفعل ما يمكنها » .

بعد هذا الاستطراد فإنه لا يسعنا إلقاء مايكفى من ضوء على ما شارك به طول بال المثقف فى تكوين المكتشف وإن تم ذلك أحيانا بالحاح قاس . لقد أثرت أحيانا المقارنة بين علاقة الأخوين شامبوليون وتلك العلاقة التى قامت فى نهاية القرن بين ثيو وفنسننت فان جوخ . سنعاود الحديث عن هذه المقارنة ولكن نبادر ونقول أن ثيو الذى كان الأخ الاصغر - لم يشارك قط بيده فى وضع الألوان التى نبعت فيها « زهور عباد الشمس » التى رسمها فنسننت ، كما فعل جاك - جوزيف عندما اضطر على سبيل المثال جان فرنسوا أن يحيط المجتمع العلمى الممثل فى شخص مسيو داسييه باكتشافه الذى تم فى ١٤ سبتمبر ١٨٢٢ .

سنخطئ في تقييم ما قام به المكتشف إذا نحن أغفلنا وقوف هذا الأخ الأكبر الذي لا يكل إلى جانبه أو أمامه يناديه ويشجعه ويساعده بماله وبمشورته وبمعارفه (بكل ما تشير إليه الكلمة من معان) . لقد كان بالنسبة له الحارس ومرشد الدرب ، مزيل الصعاب وحامل الزاد منسق المستندات والمراجع ، هو المعبر الذي أوصله لهدفه نظير أخيه الذي حضر مولد عبقريته قبل أن يدافع عن فتوحاته وأن يحافظ على ذكراه بصفته « أبيه وأستاذه وتلميذه » في آن واحد .

من هنا تأتي الأهمية التي سنوليها لهذه الشخصية التي تبدو كما لو أنها قفزت مباشرة من رواية من روايات عصره . إن طموحه المحموم ودمائة طباعه الاجتماعية وصعوده الدعوب في المجتمع وفي مجال العلوم تعيد إلى الذاكرة ما حدث لأبطال روايتي « رجل عظيم قادم إلى باريس من الريف » أو « مياهج ومزلات الغواني » هو لوستو - أو فينو أوجيرو في حين تذكرنا النزوات العبقرية للأخ الأصغر ومطالبه وتقلباته المزاجية ولهيبه غير المحكوم وبراعته في أن يصنع لنفسه الأعداء - بأبطال روايات سستندال مثل جوليان أو لوسيان سنكتفي بهذا للقدر من المقارنة .. غير أننا سنعود قريباً إلى سستندال في معرض حديثنا عن هذا أو ذاك - عندما نستكشف جرونوبل في مطلع القرن التاسع عشر ...

إذا كان من الصعب - كما رأينا - استكشاف السنوات الأولى من حياة جان فرنسوا شامبوليون : - « الشقي » الصغير المقيم في حارة لابود وسكيرى - فمن السهل جدا أن نكون لانفسنا فكرة عن طفولة وفترة مراهقة أخيه الأكبر . فقد عكف - غداة بلوغه الحادية والعشرين - على كتابة الفصل الأول من سيرته الذاتية التي لم تكتمل * مع عمليات التجميل التي غالباً ما تصاحب مثل هذا العمل (حتى عندما يقوم به مؤلف مثل جان جاك روسو) فإننا نتعرف بكل وضوح على الحقيقة البيئية : حقيقة الثورة ثم الامبراطورية النابليونية وبشائر الرومانسية : زمن بدا كما لو أن إعلان حقوق الإنسان قد يسمح بفتح الطريق أمام الجميع نحو الثقافة .

تحت عنوان « السنوات العشرون الأولى من حياتي » كتب جاك - جوزيف شامبوليون في ٢٧ برومار عام ٨ (١٧ نوفمبر ١٧٩٩) في جرونوبل قبل أن ينضم إليه أخوه الصغير بأربعة شهور ، هذا المشروع « لاعتراقاته » :

* اكتشفها وذكرها للمرة الأولى (جزئياً) ش - أو كاربونال (المرجع المذكور سابقاً) في حين أن إيميه شامبوليون فيجاك - ابن المؤلف ذاته - لم يذكرها قط .

« ولدت بعد ظهر يوم ٦ أويه ٧ أكتوبر ١٧٧٨* . ولدتى أمى نون مساعدة أى طبيب بمفردها تقريبا ضالة جسمى وضعف تكوينى قللا كثيرا من البهجة التى جلبها مولدى لوالدى فقد كنت أول ذكر يولد لهما وكان مظهرى لاينبئ بأن سلالتهم ستكون كبيرة .

« رضعت لبن أمى . طفولتى كانت بالنسبة لوالدى بسلسلة من المخاوف والأزمات ... وأدين ببقائى لاستمرارية العناية الدوية التى حظيت بها (...) لقد إستمرت المخاوف ذاتها وتكررت نفس الأزمات ولكن قابلتها نفس العناية المثابرة التى لم تتوقف مدعمة بمودة لم تضعف ، غمرتنى ...

« عملية تعليمى بدأت وأنا مازلت صغيرا ، فما أن بدأت أتفوه ببعض الكلمات إلا وكنت قد وضعت فى رعاية سيدة عجوز ورعة - كاتينو - التى أصبحت مربيتى أكثر من كونها معلمتى . فقد مزجت بين رعايتها الأمومية لى وبين دورس القراءة الأولية ؛ وهى التى علمتنى كيف أميز بين الحروف . ويمكننى أن أقول أن والدى قد تركانى لفترات طويلة عندها فلم يكن ذلك للتعليم على يديها بقدر ماكان ليجعلانى أتمتع بالرقعة والعناية التى حبت الطبيعة بها هذا الجنس ... »

يستحيل هنا أن نمنع انفسنا من أن نتساءل عن طبيعة هذه الزوجين جاك وجان - فرنسواز شامبوليون . فهما قد رزقا بإبن ذكر بعد الذى توفى بعد مولده قبل خمس سنوات وبعد بنتين كانا قد بلغا الرابعة والثانية من عمرهما .

ليس من الصعب أن نصدق جاك جوزيف عندما يقول أن « ودأصادقاً جعلهما «لايتواينيان» عن الاعتناء بهذا « الوريث الذكر » ، لكن لماذا عهد به إلى سيدة غريبة فور أن تمكن من « النطق ببعض الكلمات » حتى لو كانت هذه السيدة « قديسة » ضمن القديسات . خاصة وأن الله حباه بأم وأختين أكبر منه وفى الإمكان أن يتمتع داخل أسرته بالرقعة والعناية التى حبت بها الطبيعة الجنس اللطيف ؟ قد يكون السبب فى أن العرف فى ذلك الوقت يقضى بوضع الطفل فى رعاية مربية » . ومع ذلك فالملاحظ هو تعدد الأمور الغريبة داخل هذه الأسرة التى ستزداد مع جان - فرنسوا ؛ يبدو مؤكداً أن الأم لم تكن فى حالة تسمح لها بتولى مسئولية إبن ذكر .

« بقيت فى كنف المربية كاتينو حتى سن السابعة** عندئذ طلبت أن أذهب إلى

* راجع ش - أو كاربونال بسجل كنيسة نتردام نوبوى فى فيجاك ويؤكد أن جاك - جوزيف قد تم تعميده فى ٦ أكتوبر ١٧٧٨ وكان قد ولد فى اليوم السابق (راجع المؤلف المذكور ص ١٢) .

** ست سنوات كاملة قضاها بعيداً عن بيت الأسرة فى شارع لابوبوسكىرى .

المدرسة، الحقنى والذى لدى القس المسئول وهو الذى علمنى القراءة وجعلنى أحفظ عن ظهر قلب بعض صفحات الكتاب الأولى وأراد أن يعلمنى الكتابة أيضا . وعندما بلغت التاسعة أراد لى أبى أن أتعلم اللغة اللاتينية غير أنه لم يكن لديه أى معرفة بهذه اللغة . ومع ذلك فقد حاول فى أحد الأيام أن يترجم عنها نصا ولما جعلنى أقرأ له فى كتاب المزامير ذلك المزمور الذى يبدأ باللغة اللاتينية بهذا المطلع : *Portis Horode impie* : ترجمها إلى الفرنسية « بوابو رودس ساروا مترجلين ».

« وعليه فقد قرر والذى بناء على نصيحة صديقه بوجيه* أن يطلب من السيد - نور سيسى أن يتولى رعايتى (..) بدأ تعليمى الحقيقى عند السيد وسيسى وكان ذلك بأن عمل على تخليصى من العادات السيئة والسهجة المتكلفة التى نقلتها عن معلمى السابق (...) كان مسيو بوسى فى الخمسين تقريبا (...) وكان رجلا متعلما بحق وفى إمكانه تعليم الآخرين (...) وكما هو معتاد فقد كان يحابى بعض تلاميذه وكنت ضمن هؤلاء . كان يخصنى برعاية متميزة خاصة عندما إكتشف أن لدى إستعدادات طبيعة للتحصيل (...) كان تقدمى فى الدراسة سريعا فلحقت بعد فترة وجيزة بصديقى لوج (...) ولم نفترق عن بعضنا لمدة طويلة (...) وإستمر مسيو لوسيسى فى رعايتنا (..) رابطا سمعته بتقدمنا حتى أصبح الموضوع بالنسبة له مسأله كرامة شخصية (...)

« عندما إندلعت الثورة كنا على هذا الحال (...) المشاكل التى لاحقت مسيو لوسيسى (...) حرمتنا من تعاليمه .

أغلق مدرسته (..) فلم يبق أمامنا سوى الإلتحاق بالمدرسة (...) فى الوقت ذاته تلقيت بعض الدروس من أستاذ الرقص الملحق بالكتيبة المرابطة فى فيجاك ... »

فى ١٧٩١ عندما بلغ جاك - جوزيف الثالثة عشرة قبل فى الفصل الخامس ، بعد عشرة أشهر من مولد جان - فرنسوا ، ولم تسجل ذاكته هذا الحدث فلم يذكره** . غير أن المدرسة اضطرت إلى غلق أبوابها بسبب « المضايقات الثورية » وكان حينذاك فى المرحلة الثانوية وقد حصل على قدر جيد من المعارف فى اللغتين اللاتينية واليونانية . وأراد أن يتعلم البلاغة . فلجأ أبوه إلى نوم كالملازم للمرة الأولى ، فوافق على تحمل

* نجل السيد / بوجية سيظل قريب الصلة بالأخوين شامبوايون وسيسدى لهم خدمات جليلة كما سنرى فيما بعد -

** كان يحرر مذكراته عام ١٧٩٩

المسئولية عن طيب خاطر مؤكدا على أنه لا يقوم بذلك سوى بصفتة صديقاً « ولكن سرعان ما يجب إيقاف هذه الدروس لأن ممثلى الثورة المتجولين جعلوا من « رجال الدين أشخاصاً محتقرين ومشكوك فيهم ، وكانت شخصيتهم فى ذاتها محرجة فى نظر رسل القانون هؤلاء » .

بعد أن حرم من المعلمين أخذ جاك جوزيف يلتهم الكتب قرأ هوميروس وفيرجيل وسيسيرون وبلوتارك .. إلا أن أباه قرر أن الوقت قد حان لكى يجعل من نفسه شخصا نافعا فوجد له وظيفة فى إدارة « الدائرة » فى ديوان « المراسلات العامة » وذلك فى شهر « فلوريال » عام ٢ - ولم يكن قد تعدى السادسة عشرة ومع ذلك فسرعان ما اناطوا به تسجيل القوانين وإعطاء تأشيرات الجوازات بل وأكثر من ذلك كلفوه بمهمة منح شهادات « المواطنه الحسنه » !!

كانت فترة « الإرهاب » حركة باريسه فى الأساس - إلا أنها تسببت فى إثارة المشاعر والعقول فى مقاطعة جيبان العليا ... ولذلك فإن من المرجح أن جاك شامبوليون كان يتمتع حينذاك بقدر من النفوذ ، حتى لو لم يثبت أنه كان قائداً للشرطة .

يقول جاك جوزيف عن وظيفته الجديدة: صادفت هذه المأمورية هواى لأنها إتفقت مع ميلى الطبيعى لحب الاستطلاع .. ففى تلك الفترة تواصل ورود سيل من المطبوعات نتيجة للقوانين الثورية فكان كل شئ يمر من بين يدي ومن كل شئ كنت أحصل على نسخة : البريد والتقارير والخطب والمحاضر والقوانين والقرارات ... من هنا شرعت فى تكوين مجموعة القوانين والتقارير .. وكان مفتاح سجلات المحفوظات (الارشيف) تحت تصرفى .. «

هذا ليعنى أن نأخذ هذا الشاب العليم ببواطن الأمور على أنه من مجموعة «اللامتسرولين» المتطرفين المتعصبين (Sans - Culottes) :

« ثم جاء يوم ٩ تيرميدور * (٢٧ يوليو ١٧٩٤) . ونتج عنه تجديد الإدارة بالكامل تلى ذلك شطب العاملين الذين لم يسيروا فى الخط السياسى لهذا اليوم وكانت أرائى السياسية لا تضعنى فى زمرتهم ** . اجتاحت موجه من اليأس عددا كبيرا من الموظفين (...) فلم يبق تقريبا سوى أعضاء السكرتارية والذين تكفلوا بكل شئ طوال

* ٩ تيرميدور فى ذلك اليوم .

** ذلك يعنى أنه « ترميدورى » أى غير ثورى .

مدة الشهرين التي تلت إحتضار مكاتب المنطقة الإدارية (...) فكان من نصيبى تحمل مسؤولية المراسلات وتحضير القرارات الإدارية (...) واعتمد رئيس السكرتارية على مجهودتى فى تصريف شئونى (...) فى مقابل ذلك (يضيف جاك - جوزيف ببساطة شديدة) حصلت على تقدير الجميع وعلى صداقة المعلم الكبير (؟) .

نحن - إذن - بصدد شباب حاذق عرف كيف يعبر بون خسائر فيما بين عامى ١٧٩٤ و ١٧٩٥ - عواصف « تيرميدور » وإقامة النظام الجديد محافظا على وضعه الأمن لأن طبيعته كما كان يعبر عنها معتدلة أصلا ، وكان من الممكن أن نجد فى هذه السطور تلخيصا لحياته المديدة (فقد توفى وهو فى التسعين من العمر) لولا أنه أثبت فيما بعد أن مرونته كانت تتسلح أحيانا بشجاعة صادقة :

عندما لاحظ جاك شامبوايون (الأب) أن « عواصف الثورة » هدأت وعادت التجارة إلى نشاطها ، أراد أن يدخل إبنه عالم الأعمال وكان قد بلغ التاسعة عشرة ، وكان له أولاد عمومة يقطنون مدينة ليون ومدينة جرونوبل .. فحاول أن يبعث لهم «سكرتير بلدية المقاطعة » ليقم لديهم ، على الرغم من أنه كان قد أخذ على عاتقه كما سبق ورأينا - تربية جان فرنسوا الذى كان يقترب من الثامنة .

اصطحب تاجر الكتب إبنه الأكبر إلى بوكير ، ومنها إلى ليون الا أنه وجد أن هذه المدينة الكبيرة الواقعة على نهر الرون قد خربتها أحداث العنف الثورية ولم يعد فيها شئ يصلح لجاك - جوزيف وكان عليه أن ينتظر العام التالى وفى سوق بوكير - وبالتحديد يوم ٢٩ يوليو ١٧٩٨ وافق أولاد العمومة المقيمون فى جرونوبل على طلب جاك شامبوايون بأن يصطحبوا معهم جاك جوزيف ليعمل تحت التمرين لدى « شاتيل ، شامبوايون وريف » .

بدا هنا أن خطته فى الحياة كمتقف قد توقفت فجأة .. ومع ذلك لانجد أثرا لآى تمرد فى تقييمه النهائى لما يحدث بل نجد قبولا مع بعض الأسى للقضاء والقدر (كما حدث « لرنيه » بطل رواية شاتويريان) ولا نجد تلك الطاقة التى راحت تحرك أبطال الروايات المعاصرة له - كما ستحركه هو نفسه بعد تلك الفترة بقليل إذا أنه سيتسلح بتلك الحالة الذهنية المقدمة : « هل أنا قد بلغت السن الذى يتحتم على المرء فيها أن ينظر إلى المستقبل نظرة واضحة ، ، ومع ذلك فليس لدى مشروع ولا طموح وأترك نفسى أهيم بون هدف (...) فى استسلام كامل وبون أى أمل فى سعادة ولا خوف

من بلية . أنتظر أن يقترح على أحد قرارا حاسماً أتخذه أو يعرض على مشروعاً أنفذه .
وإذا فرض على أن أبلور هدقى فى كلمات لقلت أنى أشعر بميل جارف للأعمال
العظيمة تلك التى تخرج عن المعتاد وإنى مستعد أن أشارك فى رحلة إلى بلاد بعيدة .

وإذا كنت قد ندمت على شئى فهو أنى لم أنضم للحملة على مصر . كما أقول أنى
إذا خيرت بين كافة المهن لأخترت فى الغالب الحياة العسكرية . وفى كلمة نهائية أقول
أن أقل شئى يكفى لاسعادى لو أمكننى أصلا أن أكون سعيدا !!

« جرونويل ، فى ٢٧ برومار عام ٨ (١٧ نوفمبر ١٧٩٩) (١)

الجملة التى تشد الإنتباه فيما سبق هى بالطبع التى تتعلق « بالاسف لعدم
مشاركته فى الحملة على مصر » . ونلاحظ أنه كتب « الجيش » ولم يتطرق إلى الحملة
العلمية .. وهذا شئ طبيعى بما أنه كان يميل إلى الإنخراط فى الحياة العسكرية ،
سبق لنا أن أشرنا إلى ذلك الطم المصرى .

فى جميع الأحوال فإن بونابارت لم يكشف عن الهدف الحقيقى من الحملة سوى
بعد أن رحلت ووصلت إلى مالطة واحتلتها ثم أن الذى أثار اهتمام جاك - شامبوليون
هى المغامرة العسكرية التى كانت قد بدأت قبل سنه ونصف السنة من تاريخ كتابة هذه
السيرة الذاتية التى نحن بصدها .. ولم تكن مصر فى حد ذاتها هى التى أثار
إهتمامه . والبرهان على ذلك ضمن عدة براهين أخرى ، هذا الخطاب الذى أرسله
النقيب أندريه شامبوليون إلى أخ له وهو على متن السفينة « لو جنيرو » فى ٢٢ فلوريار
عام ٢ « لازلنا لا نعرف إلى أين المسار . قال لنا الجنرال بونابارت أن لدى عودتنا من
هذه الحملة العظيمة الأهمية فإن كل جندى سيحصل على ما يسمح له بشراء ستة
أريان على الأقل (حوالى ثمانية فداين أو ثلاثة هكتارات) أعتقد أن هذه الرحلة
ستطول بعض الشئ ، خاصة إذا كنا سنذهب إلى حيث يقولون ... » (٢)

لايوجد مايبثت أن جاك - جوزيف قد كتب لابن عمه النقيب أو أننا على الأقل
لانعرف فحوى ولاتاريخ الخطاب إن وجد ولكن يمكن أن نقرأ ما يمكن إعتباره نوعا من
الرد ذلك الخطاب الذى أرسله بعد ذلك بفترة زمنية طويلة الجنرال داريكو إلى جاك -
جوزيف شامبوليون يبلغه فيه أخبار ابن عمه أندريه :

« ٢٩ بلوڤيوز عام ١٠ (١٨ فبراير ١٨٠٢)

من أوجيستان داريكو قائد اللواء ٣٢

إلى المواطن شامبوليون ... النقيب شامبوليون الذى تسألوننى عنه (...) قد رحل على إحدى القطع البحريه وهو فى حالة صحية جيدة* .»

كل ذلك يظهر بالتأكيد قدرأ من الإهتمام لدى جاك جوزيف لهذه العملية التى شارك فيها قريب من أقرباءه ... وهى جديرة بأحلام شاب يريد « المشاركة فى رحلة بعيدة » ويود إرتداء الزى العسكرى . لكن كل ذلك بعيد تماما عما يذكره أغلب كتاب السير عن « الأمل العميق » الذى كان يخلج فى نفس جاك - جوزيف فى أن يشارك فى الحملة على مصر وعن « رجع الصدى المدوى » الذى كان لهذا الأمل فى «نفس صغيرنا » حتى أن أحد هؤلاء الكتاب قد رأى من واجبه أن يؤكد أن « عندما رفضت حكومه الديركتوار هذا الطلب كانت خيبة الأمل لدى الأخ الأكبر مريرة ولكنها كانت على درجة هائلة من العنف على نفس الصبى جعلت الجميع يتجنبون مجرد ذكر اسم هذا البلد على مسمع منه » (3)

لم يحدث قط أن تقدم الأخ الأكبر بطلب إلى حكومة الديركتوار ، فهى كانت تحافظ على سرية هدف الحملة (لأن انكشاف هذا السر كان سيجعل نابليون يقع فى شرك نلسون) ولم يحدث أى رفض ولا رد فعل عنيف داخل نفس جان - فرنسوا الذى كان فى السابعة .

ولكن يمكن أن نتصور أن أندريه شامبوليون ، النقيب الذى كان ضمن القوات التى أبحرت إلى مصر الذى كان على علم باهتمام قريبه بهذا البلد - قد عمل على أن ترسل أعداد من صحيفة لو كوربييه نو ليجييت Le Courier de l'Egypte إلى مكتبة فيجك ومنها على وجه الخصوص عدد ٢ فبروكتيلور عام ٧ « الذى أعلن فيه عن اكتشاف حجر رشيد** .. كما يمكن أن نتصور أن جاك شامبوليون عمل على أن تصل جميع الأعداد إلى جاك - جوزيف الذى كان قد إستقر فى جرنوبل .

ش . أو كاربونال - مؤرخ سيرة جاك - جوزيف - وجد ضمن أوراق هذا الشاب مذكرات أخذها عن مصر فى إحدى هذه المذكرات التى نقلها عن كتاب أطلس تاريخى يذكر أن الرجال ال ٣٦٠.٠٠٠ الذين يعملون لمدة عشرين سنة فى بناء الأهرام استهلكوا بما يوازى ٣٦٦.٠٠٠ إكو*** من الثوم والفجل والبصل (4) ، وذلك يوضح

* هذا المركب كان يحمل العلم اليونانى

** راجع ص ٤٠,٣٩

*** من عملة الامبراطورية الأولى .

أن إهتمام الابن الأكبر بمصر كان أقرب للناحية التجارية منه للناحية الثقافية .. ولذا
لزم التنويه ...

كل ذلك كون حزمة من الإهتمامات وأساساً معرفياً ، ومولد حب ولكنه لايزال
بعيدا جداً عن الولوج الهائل الذى تملك وجدان أخيه نحو أرض الفراعنة التى كانت
لاتزال حتى عام ١٨٠٢ أسطورة من الأساطير .

فى مقال علمي⁽⁵⁾ خصصه جان باكيه للأخوين شامبوليون فى جرونوبل أكد أن
چاك - جوزيف عندما وصل إلى هذه المدينة خلال صيف ١٧٩٨ كان قد «أصبح شاباً
خبيراً باللغات القديمة وبعلم اللغويات وبالتاريخ» . لعلنا نعبر عن بعض التحفظات :
فهو كان يبحث عن طريقه عبر اللغة اللاتينية ، أما فيما يتعلق باليونانية فإن تردده فى
الموافقة على أن يقوم بتدريسها بعد ذلك بعشر سنوات يثبت أنه لم يكن واثقاً من
إمتلاكه لناصيتها . من الأفضل أن نقول إذن أن هذا القادم حديثاً إلى جرونوبل كان
محباً لدراسة اللغات والعلاقات التى تربطها ببعض ولتاريخها .

أولى سنوات إقامة جاك - جوزيف فى منطقة الإيزار كشفت شخصية ذات ثلاثة
أبعاد : الموظف المجد فى مؤسسة شاتيل شامبوليون وريف* ؛ وشخصية المحب للكتب
المولع بالبحث عنها والمجازف فى إقتنائها ؛ وشخصية الجامعى تحت التمرين الذى
تردد فى مسيرته فى الجامعة من المكتبة إلى كرسى الاستاذية ومن الرسالة إلى
الأكاديمية صاعداً درجة وراء أخرى من السلم التعليمى حتى أصبح من الشخصيات
المرموقة فى مجال التعليم والبحث العلمى .

ويصعب من جهة أخرى التمييز بين هذه المجالات الثلاثة من نشاطه ، لأن محب
الكتب كان يستخدم عمله كتاجر فى شراء وتبادل الكتب فى سفرياته ، كما أن مكتشف
الكتب القديمة كان يجد فى نشاطه هذا مدخلاً له إلى الأوساط العلمية . وباختصار
ففى خلال خمس أو ست سنوات أصبح الموظف الذى عينه أولاد عمومته تحت التمرين
فى مؤسستهم فى صيف ١٧٩٨ أصبح أحدى الشخصيات الفاعلة فى مجتمع
«الكوميديا الإنسانية» الجرينوبلوازيه ، تستقبله «أحسن العائلات» وأعرقها إلى أن
تصاهر مع إحداهما وأخذ يشق طريقه نحو التفوق الجامعى .

* نشاطها يشبه مانسميه الآن التصدير والإستيراد .

لم تتوفر سوى مؤشرات قليلة جدا عن نشاط الإبن الأكبر لصاحب مكتبة فيجاك في مؤسسة « السادة شاتل (الابن الأكبر) وشامبوليون وريف » .

وكانت من الشركات المتواضعة المتخصصة أصلا في تجارة المنسوجات إلا أنها كانت على اتصال مع مرسيليا وميناء لوهافر وجزيرة المارتينيك⁽⁶⁾ وقد توصلنا إلى بعض أثار لسفريات قام بها الموظف الصغير إلى باريس وروان* وليون والهافر وأفينيون . الشيء الواضح تماما هو أنه حصل على رضا مستخدميه وأنه نجح في عقد صفقات رابحة وأن دخله تحسن منذ عام ١٨٠٠ ، وعلاوة على كل ذلك فقد كان مقتصدا وقريبا من ماله .

إلا أن حياته كانت تدور في المقام الأول حول الكتب وهي التي قادته خطوة تلو الأخرى إلى الثقافة والعلم . فهل يعود ذلك إلى تراث عائلي ؟ المؤكد أن جاك - جوزيف كان مولعا بالكتب ، كرس لها حياته كلها إلا أنه لم يمر بتجارب « حامل الخرج » القاسية غير أن الواقع هو أنه تعامل في تجارتها كما فعل والده وأن حمى إبتكشافها وشراعاها التي ملكته منذ أن بلغ سن العشرين تزامنت مع أكتسابه براعة فذة في إبتغالها ماديا .

عندما كتب في تلك الحقبة من حياته : أنه يتحصل « بعناية كبيرة - وفي أحيان كثيرة بتكاليف عالية - على مؤلفات هؤلاء الكتاب الذين فتحوا أمامنا الطريق ... (...) هوميروس وسترابون وسوفو كليس (...) الذين « لانمل سماعهم يتكلمون » .. فإننا نشعر أنه في قوله هذا كان بالتأكيد صادقا . تعطشه إلى المعرفة واكبه شراهة كبيرة لكل ماهو مطبوع وللكتب النادرة: إبن صاحب مكتبة فيجاك كان مريضا بحب الكتاب .

هذا الولوج المتقد تولد عنده تلقائيا .. إلا أنه تضاعف عندما تعرف عام ١٨٠٣ على شخص إسمه ياسانت جارييل كان على نفس القدر من الوله ... غير أن هذا الاخير كان يتاجر أصلا في الكتب .. قدمه له أحدهم قائلا « أقدم لك إبن العم شامبوليون تاجر متعلم وشغوف بالأداب الجميلة .. »⁽⁷⁾ ومنذ ذلك الحين بدأت رحلة صيد مشتركة استخدم ناتجها أحيانا كعملة للتبادل .

في مرة إستلم من صديقه صندوقا يحتوي على كتب متباينة فكتب خطابا يقول له فيه « كمبدأ عام فإن كل ماهو غير مفهوم يعتبر ملامعا لى ومن ذلك العبرى والسيريانى

* حيث إصطحب معه أخاه جان فرنسوا في إحدى السفريات إليها .

والسانسكريتى والتاتارى والصينى والفارسى وعلى وجه الخصوص اللغات القديمة ..
إنها طريقة تفكير تمهد لأعمال كبيرة آتية ! ثم يستطرد « ابن العم » شامبوليون موجهها
خطابه لحاربييل :

« أمنى نفسى بسعادة جمة مع الصندوق العبرى - السيريانى - الكالديانى -
اليونانى - الإسبانى - الجزمانى - الانجليزى - الشعرى - اللاهوتى - الفلسفى -
النقدى - الويستان * الجاربيلى (...) هل توجد وسيلة لإضافة شامبوليونى ؟ (...)
ماهى التضحيات التى ستفرضونها ؟ وماهى الكلمات ؟ والأفعال ؟ » (8)

إنها لهجة صائتة النصوص الذى يعانى من ولع شره مضافا إليها نغمة هزلية
ومؤثرة تعكسها « كل ما هو غير مفهوم » : سرعان ما يصاب جان - فرنسوا بنفس
الحصى التى ستتضاعف فى حالته هو بفعل عبقريته المستبدة .

اضطر أكل الكتب متعددة الاشكال واللغات هذا إلى اللجوء إلى آلاف الوسائل
التي أتاحتها له براعته التجارية لتجميع ثروته هذه لأن مرتبه لم يكن بالطبع متناسبا
أبدا مع هذه النفقات غير أنه لم يكتف بوضع براعته فى خدمة ولعه النبيل هذا بل أخذ
يستخدم براعته فى جمع الكتب وثقافته التى استمدتها منها ليدفع بنفسه داخل
الأوساط المثقفة بمدينة جرونويل ببدء مرحلة صعود متسارعة طوال خمسة عشر عاما
بين الأوساط التعليمية والأدبية والبرجوازية المتنورة لعاصمة مقاطعة الونفنيه .

أضف إلى ذلك أن الكتاب لم يكن حبه الوحيد : إذ أن علم اللغات وعلم النميات
(دراسة وجمع القطع النقدية والميداليات والأوراق المالية .. إلخ) والتاريخ القديم بشكل
عام كانت تستهوى هذا العقل الباحث فى كل الاتجاهات : سنراه ينجذب نحو كل ما هو
أثار قديمة ، فضوليا لا يكل ومطارداً ملهم لم يكتف بأن يسلك الطريق الصاعد متسلقا
نحو مختلف الطبقات العليا للمجتمع الجرو نوبلوازى بل عمل أيضا على أن يقيم علاقة
أساسية لمستقبله ثم بعد ذلك لمستقبل أخيه مع أويان - لويس ميلان ، أمين متحف
الأثار بالمكتبة الوطنية ، ومؤسس مجلة : المخزن الأنسيكلوبيدى « أفضل دورية ثقافية
تنشر فى ذلك الوقت فى فرنسا » **

* نسبة إلى البائع السويسرى للصندوق الخرافى : ويستين

** علماً بأنهما لم تكن تطبع سوى ٤٥٠ نسخة فقط

ويتجرأ جاك - جوزيف هذا القروي المجهول ويوجه رسالة إلى الشخصية التي كانت تعد حينذاك قمة علوم الآثار في فرنسا ثم يقيم معها علاقات مراسلية تحولت إلى صداقة فعلت الكثير للمستقبل المهني متعدد الاتجاهات للأخوين . سنعود فيما بعد للحديث عن « مسيو ميلان » عند الحديث عن جان - فرنسوا شامبوليون ... الذي أصبح بعد أخيه تلميذه ثم صديقه وفي جميع الأحوال كان مدينا له بالكثير . ولكن لنسجل هنا قبل أي إستطراد أن هذه الشخصية المثقفة كانت للثنائي الفيجاكي بمثابة المعلم بالمعارف وبأسلوب الحياة المتسنة . كما أن اختيار جاك جوزيف منذ البداية لهذا الأراعى لهما يعتبر « ضربة معلم » بحق .

إلا أن نشاطه المتعدد في كافة الاتجاهات لم يصرفه عن هدفه الأصلي ألا وهو التدريس إذ أن ميل جاك - جوزيف إلى كل ما هو نادر وما هو موحى بالغرابة وما هو « غير مفهوم » جعل تفكيره إيجابياً وجعله يهتم إهتماماً بالغاً بأن يصبح من الشخصيات المرموقة فعمل على تجهيز ولعه بالتنقيب والبحث وإحتياجه لأبحاث ذاته بالأليات اللازمة لتجسيد ذلك . سنراه يصبح أمين مكتبة المدينة وهي وظيفة ملاصقة جداً مرحلياً إلى أن يصل إلى الوظيفة النبيلة التي يتحرق شوقاً لها وهي التدريس مع كل مايوفره له هذا العمل من سلطان . ومن المفيد في هذا الصدد أن نقرأ نصاً يكشف فيه بصدق واضح أفكاره الحاكمة والتي يستفيد منها ويتحمل أثارها في بعض الاحيان أخوه وتلميذه جان - فرنسوا هذا النص جاء في سياق خطاب أرساه إلى العزيز نوم كالمبزر كاتم أسراره المفضل ومن خلاله نكتشف أنه مربي في طور التكوين (9) .

« إن بلدتنا * تعتبر للأسف ضمن البلدان التي لا يعطى فيها التعليم قدره الحقيقي .. فيها تظل المواهب نبتاً لا يراعى كما أن الوسائل اللازمة لدعمها تبقى نون إستخدام إن هي وجدت أصلاً .. علماً بأن الطبيعة لم ترضن على سكانها بنصيبهم من الذكاء والأسباب الموجودة على النوام تمنع تفتحه . يترتب على ذلك عدم جدوى جهود الذين يطمعون مثلك في تزويد الفنون بالمعارف والعلوم بمحبيها والمجتمع بمواطنيين أكفاء . إلى كل ذلك يرجع السبب وراء هذا النوع من البلاء التي يرتع فيها مايسمى بالشعب الطيب ... وهذا هو في نهاية الأمر السبب في الأفضلية الممنوحة لطبقة متميزة ... وأعنى بذلك طبقة الأغنياء ...

* فيجاك

« إن حكومة الجمهورية الفرنسية ومشرعينا أرادوا محاكاة الأقدمين على أساس أنهم كانوا المتفوقين وهم في ذلك على حق ، إلا أن مدارسنا الابتدائية لا توازي بأي حال « جيمنازات » روما ولا مدارسنا العليا أكاديمية أثينا . لأنهم عندما خططوا لهذا المشروع لم يراعوا الأوضاع في فرنسا (..) فالتعليم هنا* مهمل .. لأن القلة فقط هي التي تعطيه مقداره ولأن المبدأ العام غير وارد كما أن الغرور والمصالح الشخصية تتبنى لنفسها مبادئ خاصة . وعليه فإن الغرور المتوطن في قلوب سكان المدن الكبيرة لا يرى أهمية لوجود مدرسة إبتدائية مركزية .

« يترتب على ذلك أن المدرسين الخصوصيين يوظفون في المنازل فلا يخضعون لأي تفتيش .. والنتيجة هي إنشاء نوع من التعليم تتراوح نسب الخطأ والعلل فيه أن التخبط متفشى (...) الأثر السيئ للمصالح الخاصة يتنامى بسبب صلته الوثيقة بالتجارة . إن عدد التجار كبير ويجد الطفل البالغ من العمر ست سنوات نفسه موجهاً من أبيه إلى هدف ما وهذا الهدف يصبح الأساس فيما يتلقاه من تعليم . .. وأترك لكم تقدير ما يترتب على ذلك عندما يواجه ميل ما لدى الصبي الصف بإرغامه على المضي في اتجاه محدد**.

« ملحوظة (...) المدارس الخاصة تكتفي فيما يخص اللغات القديمة باللغة اللاتينية لأن كثيرين يعتبرونها على علاقة باللغة الفرنسية ولا يوجد مدرس للغة اليونانية القديمة . ولا مدرس للغة الانجليزية .. يوجد بعض مدرسين للإيطالية . مدرس ألماني واحد ولا أحد للإسبانية وهكذا يبقى أكثر الحقول خصوبة لون فلاحه .»

نجد فيما سبق فكراً واضحاً وحرراً وإن لم يأتى بجديد ، متوجه بإصرار ناحية التربية أو على الأقل ناحية نقل المعارف ، كما نلاحظ إهتمامه باللغات سواء الحية منها أو القديمة ، وبالإبقاء على الثقافة الكلاسيكية القديمة ويقينه الراسخ في أسبقية النشاط الذهني على النشاط النفعي - كما نسجل أيضا إهتمامه بالمساواة وعداءه العلن لامتيازات « الأغنياء » ، نحن هنا بصدد مجموعة من المعتقدات والميول التي تجعل من جاك - جوزيف رائداً من رواد التعليم العظام في نهاية القرن من جول فرى إلى أرنست لافيس .

لو أردنا تخطى التسلسل التاريخي للأحداث سنجد أننا لن نتمكن من تحديد مكانة ابن تاجر كتب فيجاك داخل المجتمع الجرينويلوازي حيث سيصعد بأخيه أولى

* يقصد مدينة جرونويل

** هل يستشف من ذلك أن جاك جوزيف كان يشير إلى ما حدث له شخصياً عندما وجهه أبوه إلى

هذه التجارة ؟

بسلام المجدون أن نشير إلى بعض المراحل الأساسية التي عرفها صعوده هو داخل هذا المجتمع .

أولى هذه المراحل تعود إلى الحظ وتتمثل في تعيين جوزيف فورييه قائداً لشرطة جرونويل عام ١٨٠٢ وهذا الذي سيكون له دور حاكم في تاريخ أول شامبوليون : فقد كان فورييه عالم طبيعة مشهور وكان سكرتير عام معهد مصر L'Institut d'Egypte وكان نابوليون قد إصطحبه معه إلى ضفاف النيل ثم عينه محافظاً لمقاطعة إيزار وبعد ذلك طلب منه كتابه مقدمة كتاب « وصف مصر » .

وعندما أقام جاك - جوزيف علاقة صداقة وطيدة مع هذا العلامة ورجل السلطة - كما فعل مع ميلان - فإنه قد فتح بذلك أبواب مصر أمام أخيه *

بعد شهور قليلة (ديسمبر ١٨٠٣) دخل جاك - جوزيف شامبوليون عضواً في جمعية الفنون والعلوم « لمدينة جرونويل التي حلت محل « أكاديمية بوفينييه » الشهيرة (التي قررت الثورة إنشائها قبل ذلك بعشرة أعوام) .. أن يقبل هذا الموظف الصغير في مجال التجارة نو الأعوام الخمسة والعشرين والذي لم يحصل على أى درجة جامعية أو أدبية - والذي لم يكن قد أقام في المدينة إلا خمس سنوات فقط عضواً في هذا المجتمع العلمي إلى جوار الشخصيات المرموقة في المدينة - يعطينا فكرة عن دينامية هذا الشاب وعن السمعة الطيبة التي اكتسبها . مما يعد بمثابة وعد بنجاحات تالية ! .

إلا أن زواجه من زويه بيريا في الأول من يوليو ١٨٠٧ هو على الأرجح الذي أمن مستقبل أكبر البناء شامبوليون بصورة لافته . ولا يرجع ذلك إلى أن آل بيريا كانوا من الأثرياء الكبار ، فلم تتعد نوبة زوية اثنتى عشر جنيهاً ترنوازيا وهو مبلغ لم يكن ليدير رؤوس شباب العصر الطموحين . غير أن هذه العائلة كانت من العائلات المحترمة . ضمن البورجوازية المرموقة والمتأصلة باقتدار . كان بيير بيريا - حمو جاك - جوزيف رئيس مجلس إدارة نقابة محامى المدينة. كما كان بيريا - سان برى من رجال القانون المشهورين ، فعوضاً عن « الثروة » فضل صديقنا - كما قال في خطاب جارييل أن يتبع « ميوله » العاطفية (فقد تزوجا بعد ستة شهور فقط من لقاءهما الأول !!) استقر لون بريق كبير إستقراراً متعقلاً ، إلا أنه كان إجتماعياً وثنقاً على مستوى راق . **

* انظر الفصل التالى

** قد يستشف من قراءة خطاب أرسله له أخوه الأصغر لتهنئته على قراره أن جاك - جوزيف كان فى بادئ الأمر ينوى الزواج بأخرى زواج منفعة .

نقرأ فى الكتاب الذى أفرده له س - أو كاربونال نصاً من حوليات مقاطعة الإيزار. فى صفحة ١٠ يوليو ١٨٠٧ يشير إلى « حفل زواج » أنشئت خلاله بعض الأشعار من تأليف « شامبوليون الكبير وشامبوليون الأصغر » وتلى ذلك نص من شعر العريس نذكر منه هنا البيتين الآخرين فهما يوضحان فى إيجاز شخصية جاك - جوزيف فى ذلك الوقت . إذ أن البساطة هنا تبين أننا لسنا بصدد شخصية خبيثة :

« يا زويه تأكدى من رقة مشاعرى

ومن مىلى الشديد للعصور القديمة »(10)

لقد أردنا أن نرسم فقط الخطوط العريضة لشخصية أكبر الأخوين شامبوليون . أما مراحل حياته الأخرى فسيجئ سردها مع مختلف مراحل سيرة أخيه ! ولن يمكن بعد ذلك التفريق بينهما .

فقد كان من الواجب أن نبادر بتحديد شخصية هذا العضو الأساسى فى قصتنا الدرامية تحديداً واضحاً .. فهو إن لم يكن بطلها الأول فهو على الأقل مخرجها . ولذلك قمنا بوضع بعض العلامات على الطريق وأشحننا بعيداً عن بعض الأساطير التى روج لها من كانوا يسلطون عليه الاضواء (ومن هؤلاء بطبيعة الحال ابنه إيميه* وكان كتابه المصدر المطبوع الأول الذى لجأ إليه المؤرخون) ومن جهة أخرى من كانوا على النقيض من ذلك يدفعون به إلى الظل حتى يبرزوا عظمة أخيه الأصغر .

هكذا كان جاك - جوزيف شامبوليون مراسل ميلان وصديق فوربيه الوفى والعضو المنتخب لجماعة الفنون والعلوم ثم بعد ذلك زوج ابن بيير بيريا يخدم طموحه بطريقة منظمة ويثق نفسه على أيدي جميع من يتيح له ذلك . ثم أخذ يعد فى جرونوبل المأوى الذى سيقم فيه ويتربع الإبن « المتمرّد » الذى فتح له سكان جارة لابلوسكورى والقس كالمزبأب القفص ليفر طائراً من فيجاك .

قد نشارك كاتب سيرة الابن الأكبر لصاحب مكتبة فيجاك ش . أو كاربونال فى الإستهزاء بون قسوة من حسه الزائد عن الحد لكل ما له علاقة بمستقبله المهنى . إلا أن هذه التحركات والبراعة فيها وهذه الخطوات الإلتفافية تذكرنا بالشباب الطموح الذى رسمت شخصياته وشخصيات من هم أصغر منهم مختلف أجزاء « الكوميديا الانسانية » لبلزاك .

* شامبوليون وشامبوليون Les deux Champollion جرونوبل ، ١٨٦٧

خطابات چاك - جوزيف شامبوليون فيچاك إلى أخيه الأصغر تتناثر فيها أمثال تشبه تلك التي يضعها بلزك على لسان الأب هيريرا وهو يعطى دروسه إلى لوسيان فى رواية « الأوهام الضائعة » Les illusions Perdues فهو يكتب له فى أحد خطاباته « يجب أن تعرف بنفسك فى باريس لكن تنجح خارج باريس .. وأن تكتسب تعاطف بعض الشخصيات الهامة حتى يمكنك أن تتحصن برعايتهم عند اللزوم ... قمة المهارة لبلوغ النجاح فى المجتمع هى فى أن تقوم بعمل الشئ المناسب فى الوقت المناسب ... » (من خطابين مؤرخين فى ٤ يناير و ٨ فبراير ١٨٠٨) .

يجب أن نوضح أولاً أن هذا السلوك يعكس التقاليد التى كانت سائدة فى ذلك الوقت وهو يتناقض مع ذلك الذى تلاه وشاع بين الشعراء « الملعونين » من جيراردى نرفال إلى لوتر يامون الذين جعلوا من الفشل فى المجتمع المرادف - بل الشرط الواجب - لزهدهم القويحة الخلاقة ... ونوضح ثانياً أنه لولا هذه المناورات - التى هى بمثابة عمليات إرساء الأساس لتضاعفت الصعوبة التى واجهها الأخ الأصغر على طريق النصر .

كان من الواجب فتح الطريق أمام التخمينات الوضاعة التى لاحت له فى العشرينات من القرن ... وتوفير شروط الإنصات له وعقد التحالفات أمام الهجوم المضاد الذى يثيره تلقائياً كل عبقرى خلاق . كان يحتاج إلى مبشر بأعماله وإلى وصى عليه وإلى مدافع عنه مثلما كان بوالو بالنسبة لراسين ... ولذلك فإن قيام چاك - جوزيف بعمل أشياء لم يرض أو لم يعرف كيف يقوم بها أخوه الأصغر هى أفعال تحسب له : لا أن تثير السخرية منه .

توجد بعض نقاط تطلب الإيضاح ... لقد قيل أن الابن الأكبر لصاحب مكتبة فيچاك قد اختار لنفسه لقباً مركباً أضاف فيه إلى اسم عائلته اسم المدينة التى ولد فيها : فيچاك - وأنه فعل ذلك حتى يترك لأخيه الأصغر شرف التمتع وحده باسم العائلة لأنه كان يعرف مسبقاً أنه سيصل إلى المجد . وراح البعض يمتدح هذا المثل الرائع فى التضحية الأخوية .

مثلما يحدث دائماً عند التصدى لقصة هذين الأخوين فإنه لا يمكن أن ننحى جانباً مثل هذا التفسير النبيل للوقائع . غير أنه من الواجب أن تأخذ أيضاً فى الاعتبار بعض التقاليد التى انتشرت بعد الثورة وصعود بورجوازيه جديدة تتطلع بدورها إلى التميز ، ولما كانت لفظة « de » التى كانت تسبق أسماء العائلات النبيلة أيام ما قبل الثورة (لتنسب هذه الأسر إلى مكان إقطاعياتها) أصبحت ملعونة بعد الثورة فقد لجأت هذه

البورجوازية إلى وسيلة تميز أخرى مكتفية بها مرحلياً بإضافة أسماء مدن وقرى صغيرة إلى اسم الأسرة مباشرة (مثل روابيه - كولار ولودرو - رولان) واستمر الحال لفترة إلى أن عادت « de » تبرز من جديد مثلما حدث مع أونوريه « دو » بلزك وچيرار « دو » نرقال .

فى مدينة جرونوبل أصبحت هذه الطريقة فى التميز شائعة ، فقد بدأتها الأسرة التى ناسبها چاك - چوزيف فيما بعد : بيريا فقد أضاف إليها عميدها چاك إسم « سان پرى » فأصبحت عائلة : « بيريا - سان پرى » فزاد الإسم رونقاً !! . ويقول - سن - أو كاربونال : « هذا الادعاء فى إضفاء النبل على أسماء العائلات أصبح شائعاً فى تلك الحقبة الزمنية » إلا أنه يسجل أيضاً أن چان فرنسوا « رفض بإصرار » أن يلجأ إلى هذه الحيلة السائدة ولم يتبع أهله هذا المنهج (11) . إذا شاب هذا التسير شئ من السلبية فهو لاينم عن اختلاف فى المواقف بقدر مايعكس اختلافاً فى الشخصية وفى « مشاريع » كل من الشقيقين .

إن هذا التباين فى إطار التكامل الذى نحن بصدد تقدير درجة قوته بين الشخصيتين يجب إرجاعه أيضاً إلى الفارق فى السن الذى يفصلهما والذى يكاد يضع كل منهما فى جيل آخر إذ يصل إلى اثنى عشر عاماً . ويكاد يكون هو فارق السن بين أحد الفراعنة وأبنة البكر !! من هنا إكتسب چان - فرنسوا عادة إضافة صفة الأخ الأصغر « كاديه » (Cadet) إلى إسم عائلته عند التوقيع وقد تحولت هذه الصفة عام ١٨٠٥ إلى كلمة « صغير » باللغة العربية Séghir ، وذلك عندما إنغمس تماماً فى دراسة لغات الشرق .. وسرعان ماتعدى إستخدام هذا اللفظ فى التوقيع على الخطابات المتبادلة بين الأخين ليصبح الإسم الذى يناديه به أعضاء الأسرة والأصدقاء أيضاً .

بعد فترة من الزمن لجأ صاحب الاكتشاف إلى توقيع مختلف إذ كان يضيف حرفى ل. چ. أو لو چون « le jeune » أو « ز. ا. » (أى الأصغر أيضاً أو الأقل سناً) حتى يذكر بأن هناك شامبوليون آخر له مكانة فى مجال علم الآثار وأن المجد الذى أدركه يجب ألا يظل مايستحقه الآخر . إن هذا النوع من العلاقات بين الأشقاء يجب أن يضرب به المثل .

النزعة الاستشراقية التى جعلت چان - فرنسوا يختار لفظ « صغير » « séghir » حتى قبل أن يستعرب لدى زيارته لوادى النيل عامى ١٨٢٨ و ١٨٢٩ أخذت أشكالاً

مختلفة ومتعددة . فنرى « صغير » يقنع أخاه الأكبر بأن يسمى ابنه البكر « على » فى وقت لم يكن هذا الاسم شائعاً فى الغرب . وعندما رزق هو نفسه بابنته الوحيدة فقد أسماها « زورايد » (تحوير واضح لزهرى) .. وهكذا نرى أن الجو العام السائد لديه كان مايسمى فى ذلك الوقت « استتراك » (من كلمة تركيا (Turquerie)) وهو جو موزار وايس موليير - وهويثير جو الشرق الأسطورى الغامض والذى دخله الشقيقان حاملين سراجهما .

الصورة التى قد يخرج منها المرء من تجميع بعض ملامح چاك - جوزيف شامبوليون - فيچاك مثل التكالب الوظيفى وهواية جمع الكتب النادرة وحب عقد الصفقات وبعض الأحقاد والزهو كل ذلك قد يوحى بأننا بصدد شخصية غير محبوبة ومثقف متعالى واثيم ومرتشى غير أن الحقيقة هى أن لاشئ فيما عرف عن علاقته بمعظم معاصرين يسمح بتأييد مثل هذا التصور .

لم يكن چاك - جوزيف بارعاً فقط فى تصرفاته بل كان يتمتع أيضاً « بقبول ساحر » . الصور التى رسمت له إلى أن تقدم فى السن وعلى الخصوص فى سنوات الربع الأول من القرن تظهر أناقة وبشاشة وطيبة وذكاء متقد وهى جميعاً صفات ساعدته فى تحقيق نجاحاته الاجتماعية والفكرية . إن ماقام به فى حياته من زواج ناجح « قبل أن يبلغ الثلاثين بوريثة إحدى أكبر العائلات تأثيراً فى مدينة جرونوبل ، ومن إقامة العديد من الصداقات التى دامت على الرغم من حساسيته المفرطة وطموحه المتأجج وعلى الرغم كذلك من مزاج أخيه الأصغر المشاكس وكذلك اقتناعهما المشترك بأنهما فى جميع الأحوال وفى جميع الأوقات على حق دون الآخرين جميعاً . كل ذلك يشير إلى أن الرجل كان ينزع دائماً إلى أن ينال الإعجاب وكان يناله .

لو أن چاك - جوزيف شامبوليون قد وضع كل ماسمحت له مقدرته على الإغواء وطاقته على الإغراء وإصراره على التقدم والالتفاف والترقى والتملك لخدمة مجده الشخصى لكنا تحفظنا على شخصية هذا الانتهازى أو المتسلق . لكن الواقع أن هذا النشاط الاجتماعى كان فى أغلب الأحيان يوظف لخدمة الرجل النابغة الذى اكتشفه مبكراً فى شخص أخيه مما يدفعنا إلى الاعتقاد أن فى ذلك مايرفع عنه ذنوبه بل ويشرفه .

إنه ترابط وتوأمة تذكر بما رسمه بلزك فيما بعد من شخصيات فى رواياته عن أخوين مرتبطين مثل دايفيد سيشار ولوسيان دور رويامبويه فى « الأوهام المفقودة »

وأيضاً مثل الراوى وبطل « لويس لامبار » وكان أصدقاؤهما يطلقون عليهما كناية مشتركة هي : « الشاعر وفيثاغورس » .

إننا لاندعى هنا أننا نخلط بين جان - فرانسوا شامبوليون وشخصية لويس لامبار « وهو النابغة الكامل والذي صعقته نوبة « وجد مثل » حتى لو كان مكتشفنا لمفاتيح اليهروغليفية قد عرف ولو لفترة قصيرة نوبة شبيهة لحظة توصله لاكتشافه في ١٤ سبتمبر ١٨٢٢ . ومع ذلك فإننا نذكر فيما بعد بعض الآراء التي عبر عنها بطل رواية بلزك إلى صديقه الذي هو بمثابة « چاك - جوزيف » بالنسبة له :

« من ذا الذي سيشرح فلسفياً إنتقال الإحساس إلى الفكر والفكر إلى الكلمة والكلمة إلى تعبيرها الهيروغليفي والحروف اليهروغليفية إلى الأبجدية والأبجدية إلى الفصاحة المكتوبة ، جمالها ينبع من سلسلة الصور التي يرتبها المتحدث والتي هي بمثابة هيروغليفيات الفكر . ؟؟ ألم يحدد الرسم فى العصور القديمة الأفكار البشرية على هيئة أشكال حيوانية وحدد بذلك العلامات الأولى التي استخدمها الشرق للتعبير بالكتابة ؟! » (12) .

كتب هذا النص عام ١٨٣٢ وهى السنة التي توفى فيها مكتشف أسرار اليهروغليفية بعد اكتشافه بعشر سنوات . وهو يبدو وكأنه لحدث متبادل بين نجلى صاحب مكتبه فيچاك . وصل إلى سمع هذا المنتصر الآخر الذى كان يعمل - هو - على حل الألغاز الاجتماعية السائدة فى عصره ؟

إن من حقنا أن نعبر عن خيبة أملنا فى الكتاب الذى كتبه إيميه شامبوليون - فيچاك عن أبيه وعمه بعد فترة وجيزة من موت أبيه چاك - جوزيف « Les Deux Champollion » وهو الوفى الورع لذكرى أبيه . غير أنه يتعين أن نستخلص من هذه القائمة غير المرتبة لبعض المستندات والروايات عنوانها الفرعى على الأقل : « حياتهما وأعمالهما » إذ إنه على الرغم من سطحية الكتاب فالمفرد المتسم به البعد السيرى يلقى تأييدنا - فى مقابل صيغة الجمع الملتصقة بأعمالهما فقد كانت متباينة جداً بالنسبة للرجلين .

الحياتان كانتا معقودتين مثل العمود بعقد المعبد تحمل الأولى الأخرى لتتسامى بها وتدفع بهذا الحمل اللوح نحو القمم والنور .

بدون چاك - جوزيف لكان من المرجح أن يبقى الأخ الأصغر باحثاً مغموراً ثم « يموت من الغضب » ومن كبت عبقريته مثل ليون بلوا ... وبدون چان - فرنسوا فإن الأخ الأكبر كان مهتداً بأن تسير حياته العملية دون إرتكاب خطأ واحد في الأكاديميات الفرعية في مختلف المدن ويل وفي باريس أيضاً ، يلبي دعوات على العشاء هنا وهناك ويسرى عن الحضور بثقافته في صالونات سيدات المجتمع . إن تحالف الشقيقتين سمح لهما باجتياز العواصف وبلوغ القمم .

٣ - جرونوبل و « مكان إقامة قاتل »

هنرى برولار وسوء الهضم - « جروليبىر » - چاك - جوزيف المعلم - مدرسة الليسىه والطبله - عالم شرقيات فى الخامسة عشرة من عمره - « چوهانيس و « الوحوش » - الضجة الكبرى - « المصريون يسكنون قلبى ا » - جوزيف فورييه - مراهق يحاضر فى أكاديمية النوفينييه ...

عندما نزل جان - فرنسوا شامبوليون وهو فى العاشرة من عمره من عربة السفر القادمة من ليون على رصيف إيزار فى السابع (أو الثامن) والعشرين من مارس ١٨٠١ كان هنرى بال « ستندال » قد فر من المدينة منذ خمسة عشر شهرا وكان قد ولد بها قبل ثمانية عشر عاماً وندد بها بطريقة مسرحية فى كتابه « قصة حياة هنرى برولار » : « كل ما هو منحط أو متسطح فى البوراجوازية يذكرنى بجرونوبل وكل ما يذكرنى بجرونوبل يثير اشمئزائى ... كلا إن كلمة إشمئزاز تعتبر أنبل مما أشعر به : غثيانى هى الأصح . إن جرونوبل بالنسبة لى هى مثل ذكرى سوء هضم رهيب ... كل ما هو منحط ومتسطح [...] هذه هى جرونوبل بالنسبة لى (1) ... » .

لجنة سيخفف من حدتها كلام مختلف جدا عندما يتحدث ستندال عن الفترة التى تحرر فيها فى شبابه من الإستبداد المثلث الذى سيطر عليه عندما كان يقيم فى شارع « فيو - جيزويت » . إستبداد والده وعمته ستيفانى وأستاذه القس ريان .

هذه الجرونوبل التى عرفها جان - فرنسوا شامبوليون فى بداية القرن عند هبوطه فيها لانتظر إليها نحن بعين الصبى بايل (ستاندال) أسير « الأباء اليسوعيين » ولكن بعين المراهق المفلوب على أمره أمام أسلوب تعليم وحياة تلميذ يشبهان تلك الحياة التى عاشها صبى فيچاك الصغير .

نسجل هنا دهشتنا الكبيرة التى يشاركنا فيها كل من عرف نزعة التضامن التى يتسم بها مكان مقاطعة دوفينييه - والتى ستتكر أسبابها عبر قصتنا هذه : نسجل أن مؤلف كتاب « برولار » (ستندال) لم يقابل قط مكتشف لغز الهيروغليفية ، أو أنه لم يذكره أبداً ضمن أسماء المئات من مواطنيه الذين نكرهم بقلمه * . وبعد عشرين عاماً

* تحققنا من ذلك مع أستاذ الدراسات الستندالية فيكتور دبل ليتو .

من الاكتشاف الذي تشرف به أحد مواطنيه لم يذكر ستاندال ولو بكلمة واحدة إسم شامبوليون وهو الذي نال من شاتوبريان العديد من صور الثناء . وعلى الرغم من أنه جعل من كراهية جرنوبل دستوراً له فهو لم يخف إعترازه بسكان الدوفينييه لما أسماه « مزاجهم الخاص » الذي هو « نوع من الإحساس بالذات تتسم بالحيوية والإصرار ورجاحة التفكير ... مثابرة وعمق وذكاء وحس رفيع ... » .

لو أن طريق جان - فرنسوا شامبوليون قد ألتقى وطريق ستاندال فإن هذا الأخير كان سيختار بين تصنيف الشاب القادم من فيچاك بين مواليد « مثلث الموت - بوردو - بايون - فالانس : الذي يؤمن سكانه بالسحر ولايحسن أحد منهم القراءة وحديثهم ليس فرنسيًا (2) » أو أن يضعه في مصاف الذين يتسمون « بالعمق » و« الحس الرفيع » في مقاطعة دوفينييه ، إننا لنراهن على أن كاتبنا الذكي كان سيطرحه ضمن هذه المجموعة الأخيرة كما يجب ألا ننسى أن الروائي (أى ستاندال) كان يصغر چاك - جوزيف بخمس سنوات ويكبر جان - فرنسوا بسبع . إن ذكرياته عن المدينة التي تلامس فيها شبابهم ودراساتهم وحبهم الأول كانت دائماً متفاوتة فالنسبة لتجارب وأعمال الأخوين كان متقدماً عن الأول ومتأخراً عن الآخر .

في تلك الأيام المحمومة تقلبت المواقف وتباينت الشخصيات والقيم وعلاقات القوى من شهر لآخر . خلال الأشهر القليلة التي غاب فيها ستاندال عن جرنوبل واستقر فيها شامبوليون الصغير . كان بوناپارت قد عاد من مصر ووضع نهاية للثورة كما أقام حكم القناصل ومهد لحكم الوفاق (Concordat) وأكد هيمنته على القارة في مارنجو . إن كلا من هذه السنوات كانت تأتي بتغييرات أكثر مما تأتي به عقود عادية بأكملها .

فلنعد إلى مطالعة رواية « هنرى برولار » لننتعرف ونستنشق الأجواء التي كانت تسود مدينة جرونوبل عندما شق الأخوان شامبوليون طريقهما فيها نحو المجد فيما عدا بعض الفترات القصيرة التي تغيبا فيها عنها) . نفس الأشخاص عبروا حياة الثلاثة لسبب أو لآخر : من الطبيب هنرى جاننيون جد ستاندال والطيب والذي كان وراء تنمية التعليم في المدينة ورعاية متحفها إلى شارل رينودون عمدة جرونوبل من ١٨٠٠ إلى ١٨١٥ والذي كان زميلاً لشيروبان بايل ووالد أحد أقرب أصدقاء جان - فرنسوا ... ومن القس جاتال الذي قام بتدريس قواعد اللغة للروائي والمستشرق على التوالي أمام الأب دوكره الراهب المشلوح الذي عين أميناً لمكتبة المدينة والذي كان يعتبره ستاندال من « العباقرة » .

ومن خلفه دويوا - فونتانال الذى شغل فى نفس الوقت منصب عميد الجامعة الوليدة وأستاذ التاريخ بها وهو الذى فتح الطريق أمام الشقيقين ، إلى أستاذ الرسم چاى الذى كان لا يعرف سوى « تلميس تلاميذه » حسبما قال ستانдал . وفى كلمة نقول أنه فى كنف مجتمع جرنوبلوانى مترابط ومتناغم ترعرع كل من الروائى (على عجل) وبصعوبة بالنسبة لعالم الآثار أى ستانдал وشامبوليون .

فى معرض سردنا سنقرأ إحدى رسائل جان فرنسوا يطلب فيها من أخيه أن يوصى الطبيب جانينون لى يداوى عينيه العليلتين . كما سنراه تلميذا قادمًا من فيچاك « يثير » المشاكل لأساتذة سلفه بايل مثل المدرس لاکروا ... كما أننا سنلتقى برينوبون - الأب والإبن - فى قلب الصراعات السياسية التى عاشها الرجال الثلاثة . لقد جاوا من أوساط إجتماعية متباينة وكان مستواهم المادى شديد الاختلاف إلا أنهم كانوا متفقين دون أن يلتقوا - فى كرههم « للآباء اليسوعيين » وفى نفورهم من المتطرفين .

على العموم فإن جرونوبل التى هرب منها ستانдал عام ١٧٩٩ والتى وصلها الصبى القادم من مقاطعة كارسى سعيداً بأنه حط فى « أثينا مقاطعة الدوفينية » . كانت مدينة مزدهرة ومشهورة عبرت مرحلة الثورة باقتدار ودون مشاكل كبيرة علماً بأنها كانت إحدى بؤر هذه الثورة .

فى العشرين من مايو ١٧٨٨ عقد البرلمان الريفى إجتماعاً فيها على الرغم من قرار ملكى بمنع انعقاده .. وبعد ذلك بأسبوعين قام الشعب بإلقاء الحجارة على قوات الشرطة لإعادة ممثليه إلى اجتماعهم وكان هذا هو « يوم القرميد » « journée des tuiles » .. ثم بعد ذلك بأسبوع واحد طالب مائة من الشخصيات العامة المجتمعين فى دار العمديه باختيار ممثلى الدوفينيه عن طريق الانتخابات الحرة . وفى قصر فيزيل القريب من المدينة إنتزع أعيان مقاطعة الدوفينيه فى ٢١ يوليو ١٧٨٨ من لويس السادس عشر ومن وزيره بريان قراراً باستدعاء اجتماع البرلمان الفرنسى بطبقاته الثلاثة .

هذه المواقف الثورية النبيلة سمحت لجرونوبل بالآ تسقط خلال الأعوام الخمسة التالية فى الأعمال المتطرفة . ولم يزل ستانдал يؤكد أن « مرحلة الإرهاب » مرت هادئة على المدينة حتى أنها لم تطل أباه « اليسوعى » ... ويضيف أن الكياسة فيها تغلبت على أفعال باريس « المجنونة » .. وعلى الرغم من سلوكها العاقل فإن المدينة التى ولد فيها بايل (ستانдал) اتخذت لنفسها سلوكاً يميل إلى الأحمر (لون الكفاح) أكثر من الأسود (لون رجال الكنيسة) أى أنها أثرت الحرية على مديح طبقة النبلاء وبقيت على

هذا السلوك لفترة طويلة حتى أن لويس الثامن عشر الذى لم ينس قط « يوم القراميد » ولا المؤتمرات التى أدت إلى إعادة الملكية لم يكن يسميها سوى « جروايبير » (استبدل المقطع الثانى من الاسم وهونوبل أى نبيل - ليير أى «حر») (المترجم) .

هل كان سلوك هذه المدينة يرجع إلى « مزاج أهل مقاطعة دوفينييه الذى يتسم بالإصرار والتفكير » ؟ أم أن أهلها أرادوا أن يخفوا نزعتهم إلى الاستقلال عن باريس المجنونة وليون المناهضة للثورة ؟ . أم هو توازن البرجوازوية المزدهرة والمتشوقة للوصول إلى السلطة ولكنها قريبة فى الوقت ذاته أكثر مما ينبغى من طبقة النبلاء ورجال الدين حتى تتمكن من الاعتداء عليهما ؟ أم هو تواصل التبادل الذى حافظ عليه نسيج تعاونى وثقافى يلفظ الإرهاب والرجعية معا ؟

الواقع هو أن جرونوبل كانت خارجة لتوها من المرحلة الثورية عندما هرب منها ستاندال وبخلها شامبوايون . وكانت قامتها قد ارتفعت بسبب ما أقدمت عليه من أعمال جسورة وبسبب تعقلها فى الوقت ذاته وكانت فخورة بأنها تحدث الملك قبل أن تتحداه باريس ذاتها دون أن تلقى بأهل العهد السابق فى مياه الإيزار ولا أن تقيم المجازر لرجال الكنيسة فى الجبل .. فقد كانت المدينة الفرنسية التى يمكنها أن تقدم أكثر من كشف حساب مشرف بعد عشر سنوات من القلاقل : لم يكن هناك أى مدينة أكثر استعدادا منها لاستقبال الطفل المتفرد ذى الحذاء القنذر الهابط من عربة البريد ومعه چاك - جوزيف شامبوايون الذى كان قد سافر إلى ليون للقائه هناك .

ما الذى كان يدور فى رأس الابن الأكبر لصاحب المكتبة عندما قرر إحضار أخاه الأصغر ليعيش معه فى جرونوبل ؟ واضعا إياه تحت سلطته المباشرة ؟ منتزعا إياه من المحيط العائلى الآمن ؟ وليضعه بعد ذلك فى يد أكثر خبرة من أيد دوم كالمالز الممتازة ؟ الشئ المؤكد أنه رأى أن الوسط التعليمى كان أفضل فى جرونوبل منه فى فيچاك وأنه عندما إكتشف بعض مواهب أخيه المتميزة قرر أن يعطيه كل فرص النجاح .

سبق أن تحدثنا عن التجهيزات الثقافية ... كانت موجودة بالفعل ولكنها كانت مشلولة بفعل المضايقات الإدارية التى مارستها السلطات المختلفة التى توالى على إدارة المدينة . تماماً مثلما كان الحال فى فيچاك المدرسة المركزية أنشأت عام ١٧٩٥ وكان مقرها (منذ ١٧٩٦ حتى ١٨٠٢) فى دير الآباء اليسوعيين بشارع نوڤ *

* اسم المدرسة أصبح الآن « ليسيه ستاندال » بشارع راول بلانشار .

والدراسة الثانوية بها كانت حرة تماما تشبه التعليم الجامعي فجميع الدروس غير إجبارية والمدرسة لاتمنح أى شهادة عند التخرج . ستاندال إمتدح مع بعض التحفظ هذا الأسلوب الحر ولكنه رأى أنه يفتقر إلى هيكل يسنده : وإذا كان بعض الأساتذة قد تركوا لديه ذكرى حسنة - مثل جاتال و دويوا - فونتاناال - فإن البعض الآخر تعرض لسهام سخريته القاتلة .

هل كان هذا الأسلوب التعليمى مكلفاً جداً بالنسبة لچاك جوزيف أم أنه لم يحظر بثقته ؟ هل قدر أن ضعف أخيه فى مادة الحساب سيعوق مسيرته المدرسية ؟ هل رأى أن الصبى مازال محتاجاً لبعض الصقل قبل أن يختلط مباشرة مع أبناء المجتمع المتحضر ؟ الذى حدث هو أن چاك - جوزيف قرر أن يتولى هو بنفسه تعليم تلميذ يوم كالمالز .

هذا الأسلوب التعليمى نتج عنه بعض الحرج المادى للأخ الكبير . فقد إضطر إلى تخصيص إحدى الحجرتين التى كان يشغلهاما بالقرب من محلات أبناء عمومتهما فى الشارع الكبير (جراند رو) وهى التى كان قد جعلها مكتبته الخاصة التى يطالع فيها كتبه ... ترتب على ذلك أن الصبى الذى كان قد أمضى ساعات طوال من عمره داخل مكتبة الأسرة وجد نفسه داخل شرنقة من الكتب ! كانت فى معظمها كتباً قديمة مكتوبة باللغات الشرقية التى سبق أن استهوته ومالبست أن خلبت لبه إلى أن توفى . فلنحاول أن نتصور هذا الصبى البالغ من العمر عشر سنوات وهو نائم فى مهد من الرموز ... وكمن الأحلام أثارتها فى منامه وكمن من آمال إندفعت فى خياله من طياتها !؟

الوصاية الأخوية فرضت من جهة أخرى على چاك - جوزيف تضحيات كبيرة من وقته خاصة وأنه كان ناجحاً فى عمله بالمحل التجارى وأنه كان يواصل تعليمه وينشط داخل المجتمع الجرونوبلوازى ويشبع شغفه باقتناء الكتب . كل هذا لم يمنعه قط من أن يأخذ مهمته التعليمية على محمل الجد الصارم ، وتشهد على ذلك الرسائل المؤثرة التى تبادلها مع العزيز يوم كارمالز ... هذه المخاطبات تلقى من جهة أخرى الضوء على إخلاصه لأخيه كما تبرز فى الوقت ذاته مواهبه ونقاط ضعف چان - فرنسوا .

ومثال ذلك هذا الخطاب المؤرخ ٢٥ يناير ١٨٠٢ أى بعد عشرة شهور من وصول الصبى إلى فيچاك (أى أنه كان قد بلغ الحادية عشرة) الذى كتبه چاك - جوزيف للقس العجوز فى فيچاك :

« عندما كنت أخطط لمشروع إستدعاء أخى ليعيش بجانبى تصورتكم كحائل يعيق تنفيذه .. لأن الأفضال التى تكرمتم بها عليه والعطف الذى أسبغتمونه عليه جعلنى أكاد أحجم عن تنفيذه حتى لا أتسبب فى تعكير مشاعركم .. غير أننى عندما رأيت توصياتكم تلتقى ورغباتى لم أتقاعس عن اللجوء إلى أى وسيلة تسمح بالإسراع فى تحقيق مرادى . لم أخف عن نفسى أبداً صعوبة المهمة التى تحملتها بكونى أصبحت مسئولاً عن أخى أمام عائلتى وأمامكم . لكنى تجرأت واثقا من قدراتى .. الزمن وحده هو الذى سيثبت إن كنت وثقت فى ذاتى أكثر مما يجب .

« ما أن وصل إلى جرونوبل إلا وكنت قد أخترت له مدرساً خاصاً * تتلمذ عليه حتى فترة الأجازات - ومنذ ذلك الحين وأنا أبشره شخصياً بالكامل وهو لا يأخذ أى درس غير الدروس التى أعطيها له .

« لقد كنت على حق تماماً عندما قلت أنه أحياناً يفيض حماساً وإستعجالاً ، بادياً كما لو أنه يخشى أن يجد لشغفه بالتعليم حدوداً . وأنه فى أحيان أخرى يبدو مثبط الهمة ومرهقاً وساعتها كل شئ يصبح أمامه عائقاً يجب إقتحامه أو صعوبة عليه أن يطلها .

هذا التباين راجع لشخصيته أو ، لأكون أكثر وضوحاً ، لطيشه ، مما يجعله غير قادر على العناية بما يعمل .. إنه لا يفكر فى إستخدام إمكاناته كما أن السهولة الكبيرة عنده فى إدراك ما يشرح له تضرر بحاجته لحفظه [...] ولما كان العمل لا يكاد يشغل باله فإنى لا أترك له أوقات فراغ طويلة لأنى أود أن أجعل من الاعتناء بالعمل إحدى عاداته . فى أحيان كثيرة لا أجنى ثمرات ما ألقيه عليه من دروس .. ولكن تغيير الشخصية وتقويم العادات لا يتم فى يوم واحد [...] إنى أهتم بشئ آخر لا يقل أهمية ألا وهو تحسين أسلوبه فى الحديث [...] إذ اجتهد فى أن أمحو من أخى هذه الخطيئة المتأصلة [...] التى هى لهجة بلدتنا التى لا توجد فى أى بلد يعرف كيف يتحدث باللغة الفرنسية ** .

وعمله المعتاد يشمل ترجمة إلى الفرنسية فى الصباح ومنها فى المساء إلى اللاتينية . ثم مبادئ القواعد الفرنسية .. كتاب إنسيكلوبيديا الأطفال والكتاب

* لم نجد له أى أثر .

** راجع تعبير استدال عن الموضوع نفسه فى الصفحات السابقة .

الثانى من ملحمة الـ Enéide (لفيرجيل) هى الكتابان اللذان يأخذ منهما دروسه .. ثم أضيف على ذلك بعض قصص لافونتان الشعرية [...] أقوم بتصحيح واجباته مرتين فى اليوم وفى بعض الأحيان أعيدها إليه ليعلق عليها ويشرحها كلمة بكلمة [...] هذه هى ياسيدى الطريقة التى إستخدمها لكى يتحصل حتى على بعض التعليم [...].

« أما فيما يخصنى فإنى أقسم وقتى بين هذه الجهود وأعمالى التجارية وأجد أيضا بعضاً من الوقت أعمل على حسن استغلاله : إلا أن دراسة اللغة اليونانية تستهلكه .. وقد تخطيت المرحلة الأولية وانتقيت صفحات من العهد الجديد من الكتاب المقدس فى أولى محاولات الترجمة * مؤرخ فى (٥ بلوڤيور عام ١٠ من الثورة) .

بعد ستة شهور أرسل المدرس تلقائياً إلى أستاذه السابق تقديراً أولياً: « إن الموافقة التى تضمنها خطابكم العزيز ** على الطريقة التى أعطى بها أذى العلاج الوحيد الكفيل بتقويم عيوب طبيعته تساندى كثيراً فى مسيرتى .. اعترف بأنى عندما ألاحظ أن أحد المدرسين يستخدم أسلوباً مختلفاً عن النهج الذى أسلكه يملكنى الشك ويبدأ داخلى صراع بين مقاصدى وبين خوفى على أذى واهتمامى به [...] يبدو أن أذى يشعر فى بعض الأحيان بقيمة التعليم . فهو كثيراً ما يؤدي واجباته بدرجة من العناية لايمكن أن تتأتى سوى نتيجة حب أكيد للعلم . غير أن بعض الغيوم تغطى فى أوقات كثيرة صحوات النيات الحسنة هذه . أركز عنايتى على تتبع لحظات التراخي هذه فأقوم حال حدوثها بتحفيزه بجميع الوسائل الممكنة . فأقدم له غذاءً جديداً فى صورة موضوع يدانى يحرك شهيته للمعرفة : وأنجح أحياناً فى إغرائه بالسباحة فى فضاء الخيال الواسع حتى بر الأمان . إن أذى يعمل كثيراً وينجح كثيراً بصورة جيدة . »

تتعدد بعد ذلك تفاصيل خاصة بطريقته التعليمية وطلبات النصائح ثم يختتم چاك - جوزيف خطابه إلى كالمالز بأن يعبر له عن « امتنان » أخيه وجميع أفراد

* يوضح هذا أن چاك - جوزيف دارس اللغة اليونانية كان لايزال فى مراحل دراستها الأولى .
** لم يتم العثور عليه .

الأسرة . ونسجل هنا تقديره للإستمرارية فهو يود وبوضوح ألا يتسبب فى أى شرح بين أسلوب التعليم الذى ينتهجه مع أخيه وذلك الذى حصل به على علومه الابتدائية فى فيچاك ويود أن يكون بمثابة فترة مرحلية بين تعاليم القس المربى وتلك التى سيتلقاها فى المدرسة .

غير أنه رأى أن مرحلة جديدة يجب أن تضاف إلى الفترة الانتقالية . ففي عام ١٨٠٢ بعد عام تقريباً من التدريس الأخرى كان المدرس يتلقى خلاله دروساً هو الآخر فضلّ چاك - جوزيف أن يعهد بأخيه إلى مدرس محترف وفتح دوم كالمالز فى ذلك .

« أعرف واحداً من هؤلاء ، يضطلع بواجبات مهنته بصورة أفضل من نظرائه جميعاً . إن التقدم الذى يحرزه تلاميذه وعلاقات الصداقة التى تربطهم بأستاذهم مدعومةً بهيبته واحترامهم له ... كل ذلك يحملنى إلى الاعتقاد بأنه عرف كيف يجعلهم يحبونه ويخشونه فى الوقت ذاته .. أما أقوى الحوافز التى يزرعها فى تلاميذه فهو عامل المنافسة بينهم . إنه متسامح ولكنه عند الضرورة يكون بلا رحمة كما أن حديثه مصاغ ليكون فى مستوى التلاميذ وليس العكس ... »

قصد بحديثه هذا الأب دوسار الذى كان يحظى بسمعة كبيرة فى مدينة جرونوبل . وتلمذ عليه چان - فرنسوا من نوفمبر ١٨٠٢ حتى إجازة * ١٨٠٤ .. يصف چاك - جوزيف فى خطابه لأستاذه السابق - النظام التربوى الذى كان يتبعه هذا القس وهو نظام لاياتى بأى جديد يبرزه عن الآخرين (حيث أن الكتب التى يقوم عليها هى De Viris وكتب فيرچيل وأفلاطون) ماعدا تجديد واحد يتمثل فى تقسيم دور التلاميذ بنظام أسبقية مبنى على أساس عدد الواجبات التى يقدموها دون أخطاء .

كانت مصاريف هذه الدراسة مرتفعة ** حسبما قال الأخ الكبير ولذلك فإن « عدداً قليلاً من الناس كان فى مقدورهم أو من رغباتهم أن يقدموا على إنفاق مبلغ كهذا » . أما هو الموظف الصغير المفلس فإنه يقدم بالرغم من كل شئ على هذا الإنفاق من أجل مصلحة أخيه .

* كانت فترة الإجازة تمتد حينذاك من نهاية أغسطس إلى بداية نوفمبر .

** جاء فى الخطاب ذكر رقم ١٢ دون أن يحدد إن كان ذلك بالفرنكات .

فى خطاب أرخه ٦ أغسطس ١٨٠٣ فى نهاية العام الدراسى الأول كتب دوسار إلى چاك - جوزيف يقول له أنه « سعيد جداً بـ « شامبوليون الأصغر » وهو لذلك لم يسمح له فقط بدراسة اللغة العبرية ولكن بدراسة ثلاث لغات سامية أخرى هى العربية والسيريانية والكالدية (أو الآرامية وهى اللغة التى كان يتكلم بها المسيح) .. يدهشنا هذا « التسامح » وإن كان يلقى الضوء على ميول الصبى الذى كان يبلغ حينذاك الحادية عشرة والنصف وعلى العقلية المتفتحة لأستاذه فى آن معا ، فما أكثر من كانوا سيتذمرون إزاء طلب كهذا متعللين بأنه ضرب عن حب الظهور أو النزوات أو إضاعة للوقت ... إلخ .

كانت مدرسة دوسار تعمل على ما يبدو على قدر من التكامل مع المدرسة الحكومية المسماة فى ذلك الوقت « مركزية » وعلى العموم كان فى استطاعة تلاميذ دوسار متابعة دروس المدرسة العامة التى كان يعطيها أساتذة مشهورون مثل الرسام چاى وعلى وجه الخصوص عالم النبات فيلار الذى سرعان ما احتضن چان - فرنسوا واصطحبه معه فى الجبال يدرسان بشغف النباتات على الطبيعة . وإذا كان صاحبنا الشاب الصغير قد أكتفى بدوسار لدراسة اللاتينية واللغات الأخرى فقد إضطر إلى متابعة دروس الحساب وهو نقطة ضعفه فى المدرسة المركزية .

سبق أن أشرنا إلى أن الأب دوسار قد أكد على تعطش « شامبوليون الأصغر » لتعلم اللغات الشرقية . وبالنسبة لنا تمثل هذه النقطة بداية المشوار اللغوى الذى سيوصل چان - فرنسوا إلى اللغة القبطية وإلى مصر . إلى اللغة القبطية عن طريق التوراة - التى كان يقرأها فى لغتها الأصلية - وعن طريق المؤلفين اليونانيين مثل هيروودوت وسترابون وبلوتارك . ثم إلى الهيروغليفية عن طريق هورابوللون وكليمان السكندرى وعن طريق اللغة القبطية والمقارنة مع اللغات السامية ...

أن يتحمس صبى عمره اثنا عشر عاماً لدراسة لغات طال دفنها فى طيات الذاكرة الإنسانية وأن يجد فى هذه الدراسة المملة بالنسبة لآى صبى آخر لذة حقيقية وأن يتسلى فى فك شفرة هذه الكتابات وأن يتجول فى يسر داخل القواميس وكتب قواعد اللغات الأكثر صعوبة للفهم ... لايمكن أن نرى فى ذلك كله سوى ما أطلق عليه فيما بعد علامة من علامات « العبقرية » فى غياب أى تفسير ممكن آخر أو لفظة أكثر دقة .

غير أن المهوبة الخاصة التي حُبى بها جان - فرانسوا شامبوليون لم يكن لها دون أى شك أن تجد طريقها للإزدهار لو لم يجد أمام عينيه المثل الذي يحتذى : أخاه ، هذا المجنون بحب الكتب والذي تحول شيئاً فشيئاً إلى مستشرق هاوٍ ... فما أقرب الأشياء إلى طبيعتها ألا يحاكى الصبى الشخص الذي يحبه ويعجب به ؟ البداية كانت لعباً ومنافسة ومحاكاة .

قبل أن يتمكن من إثبات عبقريته كان على جان - فرانسوا أن يتعلم . ومن ناقلة القول أن الأخ أراد أن يؤمن لأخيه الزاد الدراسي الذى لم يلق منه هو - نصف المتعلم - سوى الفتات . ولهذا السبب ائتمن على تعليمه دوسار صاحب المدرسة التي كانت بمثابة المشتل الذى يغذى التعليم العام . وبعد أن تشكل فيها استعداد شامبوليون الصغير لخوض مسابقة القبول فى المؤسسة الجديدة المسماة « الليسيه » وذلك فى ربيع ١٨٠٤ .

كان القنصل الأول * قد قرر بالفعل أن يقيم نظاماً جديداً من إختراعه يسمح بتكوين رجال إدارة وضباط يدينون بالولاء للنظام الجديد وهو فى مرحلته الأولى - ليحل محل نظام المدارس المركزية الذى أنشأته الثورة والذي أثبت عدم صلاحيته خاصة وأن التسيب كان متفشياً فى نظامها وفى تعيين المدرسين بها .

كان ذلك زمن العسكرية . فبعد خمس سنوات وفى إحدى المكاتبات الدورية طالب الرئيس الأعلى للجامعة مسيو دى فونتان من رئيس جامعة جرونوبل بأن يطلب من التلاميذ أن يكتبوا فى مادة « الإنشاء » عن : « الأعمال البطولية التى قامت بها جيوشنا تحت إمرة صاحب الجلالة الإمبراطور ... وعن الحب الذى من حقه علينا أن نكنه له » .

بقى هذا الخليط من عبادة الأصنام والحياة العسكرية سائداً حتى عام ١٨٠٩ وهى السنة التى أرسى فيها « نظام الشرطة فى المدارس » تطبيقاً لخطاب دورى متشدد وزعه المسيو دى فونتان ذاته . أما الذين سيتولون المسئولية التعليمية الثانوية لجان - فرانسوا ابتداءً من الناظر الأب جاتال فلم يكونوا قط من حاملى السياط ولاهم كانوا « باش باش شويشيه » بل إننا سنلاحظ أن كثيراً من مظاهر الحياة فى هذه المدرسة كان أقرب للأبوية منها للعسكرية . وعلى الرغم من ذلك رفض جان - فرانسوا هذا النظام وسوف نرى الأسباب وراء ذلك .

* لم يشغل يونابارت هذا المنصب سوى فى ديسمبر ١٨٠٤

مهما كان ضعف إحساسه بالسعادة في إطار ذلك النظام فقد كان صاحبنا المراهق مهتماً بالإنخراط في صفوف اللبسيه الجديد الذي كان يعطى مائة وخمسين منحة دراسية للناجحين في مسابقة القبول به . كان الامتحان هما المفتشين العامين لوفائر - جينو وفيلار وكانا يطرحان الأسئلة بأنفسهما على التلاميذ المتقدمين المزودين بكتب فيرجيل وهوراس . شامبوليون الصغير نجح في إمتحان اللغة اللاتينية ثم أكد هذا النجاح بأخر فريد من نوعه بأن ترجم فقرات من التوراة عن اللغة العبرية . وكان ذلك مثار انتباه أعضاء لجنة الامتحان لدرجة أن الصحافة ذكرته في صفحاتها . خلاصة القول أن جان - فرنسوا شامبوليون قبل في اللبسيه الإمبريالي لمدينة جرونويل في مارس ١٨٠٤ المسمى حالياً « لبسيه ستاندال » وكان الرقم الذي طبع على ملبسه هو (٥٨) . نشرت الصحيفة الإدارية لمحافظة الإيزار أسماء المائة وخمسة ناجحين ومن بينهم « جان - فرنسوا شامبوليون في الثانية عشرة من فيچاك - تلميذ بمدرسة دوسار » (3) .

من كانوا أساتذته ؟ أكثرهم أهمية بداية بسبب كونه ناظر اللبسيه ثم بسبب كونه مدرس « القواعد » وشارك بذلك في إدخال صاحب اكتشافات الغد إلى عالم اللغويات وهو الأب كلود - ماري جاتال . كان شخصية مثيرة من وجوه عدة ... ذكره ستاندال بخير قلما جادت به قريحته على رجال الكنيسة حتى عندما حاول إخفاء ذلك بستار من السخرية : « كان قساً متأنقاً متطرفاً تجده دائماً في معية السيدات فهو قس حقيقي من قساوسة القرن الثامن عشر » وبعد أن رسم شخصيته في هذه العبارات ، أطرى صاحب « البرولار » (ستاندال) بأكثر كلمات الثناء شيوعاً ، المثقف والمعلم كلود - ماري جاتال :

هذا الجانب من شخصيته المتمثل في قول ستاندال « قس من القرن الثامن عشر » تبرزه قصيدة كتبها ناظر لبسيه جرونويل ليتحدث فيها عن مديرة منزله واسمها « فيكتور » - (وجد القصيدة إيميه شامبوليون - فيچاك) :

أعزها ، علها تصدقني

أه !! لو لاقت أمالي قبواها

لكنت العاشق الكتوم في المتعة

نصري يداريه حجاب مسمط (4)

كان الناظر أكثر صرامة مع تلاميذه من القس مع مديرة منزله . إذ يقول جان - فرنسوا : « وددت الخروج من المدرسة يوم خميس العهد إلا أن السيد / جاتال خشى أن ينتهز الذين سيخرجون للترويح عن أنفسهم فى ذلك اليوم الفرصة ويبدون الهواء الذى استنشقه داخل الليسيه ... فرض إعطاهم تصريح الخروج ... »⁽⁵⁾ .

صديق النساء وناظر متبصر - ومع ذلك متحرر كما سنرى كان جاتال فى قول نهائى من تلاميذ كوندبيك وأستاذاً فى اللغويات ومؤلفاً لقاموس ممتاز للجيب للغة الفرنسية . وجعلت منه دراساته العامة فى هذا المجال أحد رواد الشرقيات .. لابد إذن أنه كان من مصادر إلهام الأخوان شامبوليون .. وفى سياق حديثنا سنتساءل عن التأثير الذى قد يكون له على أعمال جان - فرنسوا .

وننتقل إلى معايير - فانسان شالفيه المكلف بتدريس مادة التاريخ ونتساءل إن كان من الملائم إعتباره أحد « أساتذة » شامبوليون فقد قال لنا عنه « هنرى برولار » (بطل رواية ستاندال) أن « هذا الشاب الفاسق البائس » قد إختلس مصاريف الدراسة (التى سددها له تلاميذه) هو وأخواته الثلاث اللاتى أمتهن العُهر واللاتى أصبته بعدوى مرض السيفيليس الذى قضى على حياته بعد فترة قصيرة »⁽⁶⁾ ؟ لم يختلف تقييم جان - فرنسوا عن تقييم برولار له .

الرسام لويس - جوزيف چاى كان أكثر كفاءة ، علماً بأن ستاندال لايعترف له بأى موهبة أخرى سوى موهبة « تحريض الأولاد »⁽⁷⁾ . وليس فقط الأولاد : فقد كان من الشخصيات الجاكوبينية (أى ثورى جمهورى يطالب بمركزية الحكم) ذات الحمية وكان تأثيره كبيراً على شخصية شامبوليون الصغير خاصة ، وأن هذا الأخير كان حريصاً على تنمية قدراته فى فن الرسم والتى كانت خير معين له عندما حان وقت نقل وتفسير الخطوط اليهودغلفية من الآثار المصرية . إلا أن المدرس المفضل لدى جان فرنسوا فى الليسيه كان بكل تأكيد عالم النباتات دومينيك فيلار ... والذى كان قد حضر فصول دراسته عندما كان تلميذاً بمدرسة دوسار . وقد كان أسف صديقنا المراهق عظيماً عندما إنتقل فيلار من مدينة جرونويل فى نهاية عام ١٨٠٥ عندما عين عميداً لكلية علوم بمدينة ستراسبورج .. ومع ذلك بقيت دروسه ورحلاته التعليمية عبر الطرق الجبلية حيث كانا يتدارسان النباتات سوياً محفورة فى ذاكرة الشاب الصغير .

كان جان - فرانسوا تعيساً في الليسيه . ليس بسبب الحرمان المفاجئ من الحنان والإطار العائلي والحماية التي يوفرها هذا الجو العائلي عادة لكثير من الأولاد ... فهو على ما يبدو لم يحتفظ بذكرى حانيه طيبة من حياته لأسرته . أما الألفة الحميمة مع أخيه الأكبر في مقرهما الضيق في شارع جران رو - كانت مفعمة بالمودة وثرية لنفسه . من هو الأخ الصغير الذي لم يحلم بأن يعيش هكذا شريكا لأخ أكبر يحظى ببعض الشهرة جلبتها له معارفه ؟ هذا الإنفصال عن أخيه هو الذي أثر فيه كثيراً .

أضف إلى ذلك أن الولد القادم من فيچاك سواء كان « مشاغبا » أم لا - والذي كان قد احتفظ على الأرجح باللهجة الريفية الخاصة ببلدته مما أثار سخرية أقرانه الجدد كما أثار بونابارت سخرية زملاءه في بريان . كان ذلك الولد كما سبق ورأينا متحمساً ومندفعاً وعنيداً . ولم يكن أى نوع من الانضباط ليلقى قبوله . كان الانضباط في الليسيه الإمبراطوري على النقيض من التسبب السابق في المدرسة المركزية دقيقاً حتى لو لم يكن عسكرياً بالمعنى الحرفي ، ويلقى الضوء على ذلك هذا النص الذي تضمنه كتيب تم توزيعه على أولياء الأمور في ١٨٠٦ : « مجموع ساعات العمل اليومية عشر ساعات - الرقابة على الطلبة مستمرة طوال الأربع والعشرين ساعة وما بينها من الدقائق جميعاً وهي تتم بالليل والنهار في الفسح كما في أوقات الدراسة بل وفي أثناء نوم التلاميذ أيضاً : الرقابة لا تتركهم لأنفسهم ولا للحظة واحدة » .

كان الإعلان عن بداية ونهاية الحصص بدق النفيير والطلبة . وكانت قوائم التطوع تمرر على الطلبة تحثهم على الإنخراط في الجيش ليصبحوا « باشويشيه » بترقيتهم بعد ذلك إلى رتبة ملازم ثاني (كما جرى الحال لهنرى بال « ستاندال » ولكن بطريقة أخرى) ... ونذكر هنا أن شامبوليون الصغير لم يوقع على هذه القوائم . غير أننا عثرنا على خطاب يطلب من أخيه رأيه في إمكانية قيده في المدرسة العسكرية بفونتانبلو « حيث لا يبقى الطالب سوى ثمانية عشر شهراً ثم يصبح ضابطاً أو ملازماً ثانياً » ... ثم يضيف تلميذنا على الفور مطالباً : « كتاباً !! من فضلك !! » المؤكد هو أن ميوله لمهنة سلاح كانت أقل بكثير من ميل أخيه وخاصة وأنه كان مناهضاً للانصياع العسكري .. وسيثبت جان فرنسوا بطريقته أن لا أحد يمكنه أن يحسن تسيير القوات الخاصة بحزم مثل رجل محب للسلام ، إذ كتب يقول :

« وظيفتي داخل الفصل برتبة عريف ؛ أى أنى أعلق شارة العقاب للذين يتسببون فى الضوضاء .. ولاتدوم فترة حكمى سوى خمسة عشر يوماً . إنتخبت العام الماضى وكنت الثانى فى الترتيب ، أما هذا العام فأنا الأول . وشغلت هذا المنصب أربع مرات العام الماضى وأرجو أن يستمر الحال هذا العام أيضاً .. » .

كان التعليم فى الليسيه الإمبراطورى بجرنونوبل فى عام ١٨٠٤ يقوم على مادتين أساسيتين : اللغة اللاتينية والعلوم الرياضية .. وتمتد المرحلة التعليمية لسبع سنوات من السنة السادسة إلى السنة الأولى تنازلياً ثم السنة الختامية . غير أنه كان فى الإمكان الفصل بين الدورتين أى أن الطالب كان يمكن أن يواصل الدراسة على مستويين مختلفين وهكذا دخل شامبوليون الصغير الفصل الرابع فى اللغة اللاتينية ولكنه بقى فى الفصل السادس بالنسبة للرياضة .. وهو سيعود إلى الفصل الثالث ثم الثانى فى اللاتينية وسيصعد إلى الخامس والرابع فى الرياضة ثم « سيتوقف » فى السنتين الأخيرتين عن مواصلة السير فى هذا المنهج للأسباب الوجيهة التى سنتعرض لها فيما بعد - إلا أنه سيحصل على الرغم من ذلك على « شهادة دراسية وحسن سير وسلوك » فى سبتمبر عام ١٨٠٨ * .

إذا أردنا أن نقيم أداء التلميذ شامبوليون ثم المراهق شامبوليون وإذا إعتدنا فقط على التقديرات التى أعطاهما له أساتذته فى الفترة من ١٨٠٤ إلى ١٨٠٧ فلاشك أننا سنصاب بخيبة أمل . فقد كان منغمساً بالكامل فى الشرق القديم الذى سيطر عليه (كما كان مولعاً بعلوم النبات) وكان مناهضاً للإنضباط الذى كان يثير سخطه ولذا لم يكن يعطى دروسه وواجباته المدرسية سوى أقل وقت ممكن أى بالقدر الذى يسمح له بأن يحتفظ بترتيب لا يخله أمام أخيه .. وكان تلميذاً متذبذب المستوى ومهملاً لدروسه فى كثير من الأحيان وتشهد على ذلك نتائج المدرسية نصف الشهرية المحفوظة فى الأرشيف العائلى .

* سنرى أن أستاذه لوى لانجلاس سيرفض إعطائه حتى شهادة إنتظام فى الدراسة عندما كان فى مدرسة اللغات الشرقية .

تقديرات أساتذته الليسيه الإمبراطورى لم تكن على هيئة أرقام ولكن بالحروف : أ = ممتازة ، وى = ضعيف جدا . وهذه عينات من الكشوف التى إضطر جان - فرنسوا أن يرسلها إلى أخيه :

كشف « بلوڤيوز » عام ١٣ (الموافق ٧ يناير ١٨٠٥)

« صحة عامة ، دين/عادات ، سلوك : أ

شخصية ، نظام ، آداب عامة : هـ

حب العمل ، عناية به ، تقدم : ن

الأيام التى قضاهما فى العيادة المدرسية : هـ لإلتهاب فى الطلق لاعقوبات ولا مكافآت » .

كشف الأول من جيرمينال عام ١٣ (الموافق ٢١ مارس ١٨٠٥)

« صحة عامة / عادات ، أمانة ، سلوك : أ

نظام ، عمل : هـ

تقدم : ن

لاعقوبات ولا مكافآت »

كما سنجد كشفا دراسيا مؤرخاً فى سبتمبر ١٨٠٥ حصل فيه جان - فرانسوا على أضعف درجة على الإطلاق فى « حب العمل وإتقانه » ثم نراه يحصل فى أول فبراير ١٨٠٦ على أ فى جميع المواد . ثم فى أبريل ١٨٠٧ نجده قد حصل على ٧ هـ وواحد ن - وفى يونيو من العام نفسه عشية توديعه النهائى لليسيه الإمبراطورى على هـ أ و ٣ هـ ... خط بيانى على هيئة أسنان المنشار !!

نذكر ضمن أسباب الدهشة التى تثيرها هذه التقديرات تلك التى نالها فى مادة « الدين » و « الصحة العامة » وهى ممتازة . وسنعود فى حديثنا إلى هذه الأخيرة إذ أن صحته ستتسبب له بعد حين فى عذاب كبير أما بالنسبة لمادة الدين فإن أقل ما يقال بصدها أن الأبن الأصغر لجاك شامبوليون لم يكن متدينا حتى أن التساؤل قائم حول ما إذا كان قد أدى « تناوله الأول » ولو بدا مسيحياً متحمساً فقد رجع ذلك إلى اهتمامه المتعمق بالتوراة التى كانت المرجع الأول له فى دراساته للعبرية ...

الحقيقة المؤكدة أن هذه الدراسات كانت تضايقه حتى اللغة اللاتينية التي كان أستاذ الصف بها هو مسيو جاميه وكان يقدره لإمتيازه ، سيرسب فيها في إمتحان قبول الصف الثاني .. إنه لايفكر سوى في الكتابة وفي دراسة النباتات وفي أن يفرق تماماً وبسعادة في دراسة قواعد اللغات الشرقية وكتاب التوراة باللغة العبرية وكتب علوم الآثار . فالتقديرات التي حصل عليها في الليسيه الإمبراطوري لاكتشف لنا أهم جوانب شخصيته : كل مايمهنا في تكوين شخصية هذا الشاب موجود في المرحلة التي تبدأ بانتهاء الدراسة في الليسيه . ومن حسن الحظ أن سمح له بمواصلة دراسة اللغويات معتبرين إياها نزوات تلميذ أهوج ... واحد منهم فقط وهو أستاذه دوسار ذهب إلى أبعد من ذلك بأن كان يشجعه على السير في هذا الطريق ...

حياة تلميذنا لم يكن يتعسها داخل ليسييه جرونويل نظامها العسكري فقط ، لأن العسكرية كانت هي الجو العام السائد في ذلك الوقت وكانت تعكس صورة مجتمع وطني مشبع بالمشاعر المتأججة بالنضال زادت من جنونتها إنتصارات نابليون في أوسترايترز وبيننا وفريدلاند ، بل كانت تعتمها أيضاً قلة الموارد وضعف موقفه ؛ إذ إن حياته كانت مرتبطة بحرص أخيه في ما يمن به عليه ويعد إلحاح مستمر من جهته .

ضاعف من تأثير حياة الضنك هذه على جان - فرنسوا أنه كان وسط أبناء برجوازية جرونويل المزودين بالمصروف الذي يملأ جيوبهم وهو مايملاً صفحات مراسلاته مع چاك - جوزيف . وهو يلاحظ كل يوم أن المنحة الدراسية التي حصل عليها عام ١٨٠٤ لا تغطي كل نفقات التعميمات المدرسية والملابس والهوايات ودروس اللغة الإيطالية والمصروفات الشهرية اليومية . كانت أغلب مطالباته تتعلق بالورق الذي كان يستهلك منه جان - فرانسوا الكثير . وكان أخوه الأكبر على ما يبدو مقتصدًا للغاية في هذا الموضوع الحيوي ... كان عليه أن يدفع من جيبيه ربع مصاريف الطالب الحاصل على المنحة .. وتكررت المطالبات الرسمية كما تشهد على ذلك المذكرة المرسلة إلى چاك - جوزيف في ٢٥ أبريل ١٨٠٦ : « تلميذ الحكومة الحاصل على ثلاثة أرباع منحة دراسية إينكم [كذا] جان - فرنسوا يجب أن يسدد ثلاثة أشهر مقدماً وهو ما يوازي ربع المنحة السنوية إعتباراً من أول أبريل ١٨٠٦ أي ٧٦ جنياً تورنوا (٧٦ فرنكا) عن ربع السنة البادئ في يناير الماضي والربع الذي بدأ في أبريل الحالي » المنحة الدراسية السنوية الكاملة تبلغ إذن ٦٠٨ فرنكا .

أكثر المشاكل كان يسببها له بند الملابس :

« [...] فيما يتعلق بملابسي فأنتك تلومني باستمرار على حالتها الرثة ولك الحق في ذلك [...] أصبح ردائي في حالة قاربت حالة ملابس مهرج السيرك أى أن قطع القماش متباينة الألوان المضافة إليه جعلت منه لباساً ملفتاً جداً [...] أرسلت سروالى للترزى لكى يضيف إليه زدارين فأعيد إلى فى حالة رهيبة [...] أنا محتاج لبعض القطع [...] سأقدم بشكوى لضابط المدرسة الذى سيفضل بكل تأكيد أن يرانى أتجول عارياً تماماً على أن يصرف لى أربع .. ميلمات ... »

طلبات الإعانة تشمل جميع المجالات :

« أرسل لى شيئا من المال فعندما تكون فى نزهة مدرسية من المفيد أن يشرب المرء شيئا من اللبن وعلى الأخص عندما يكون متعباً جداً ... »

صادف أمس عيد ميلاد مفتش المدرسة . ذهبنا إلى البيت الريفى * وأكلنا هناك وجبة بسيطة : كان على تسديد ١٣ (صول) ، أرجوك أن ترسلها لى حتى أقوم بالوفاء بها [...] كما أرجو أن ترسل لى ٤٠ صول أنا مدين بها للبواب . »

الصعوبة المادية التى يعيش فيها تعطى معنى فريدا لهذا الرد الذى أرسله لخطاب عرض فيه أبوه المساعدة :

« أنا لا أحتاج شيئا وأشكركم على عرضكم . أخى يغطى كافة مصاريفى . أرجو أن تعبروا له على إمتنانى .. وأرجو أن أثبت له أنه لايرعى ناكراً للجميل بأن أحسن إستغلال جميع الفرص التى أدين بها لحيه الأخوى . »

توضيح محدد ومؤثر يشرح طبيعة العلاقات القائمة بين هذا الصبى المفلس ووالده .. لأنه عندما تركه يدخل تحت وصاية أخيه الأكبر فقد أى حق عليه غير أن يكون « الذى يبلغ أخاه بما يكن له أخوه من إمتنان أو تعبير آخر فهو يقول له : « لقد فات الأوان » . وسنرى فيما بعد – جان فرنسوا يطلب أحيانا المساعدة من أبيه ، ولكن بعد أن يوضح له أنه يفعل ذلك مرعماً .

* نزل يتبع المدرسة يرسل إليه التلاميذ فى فترة الصيف عندما يكون الجو صحوا وكان عليهم الإضطلاع بمصاريفهم فيه ..

كانت المراسلات المتبادلة الغنية بالمعلومات بين جان - فرانسوا وچاك - جوزيف غزيرة جداً على الرغم من أن الأخ الكبير كان يزور أخاه الأصغر أو يستقبله مرة كل أسبوع في المتوسط . غير أن الباحث يجد فيه نقطة ضعف وهي أن الأخ الصغير نادراً ما كان يؤرخ خطاباته . ويتسبب ذلك في الصعوبة التي نجدها في تحديد مسار حياة الشاب الصغير من نوفمبر ١٨٠٤ عندما قُبل نهائياً في الليسيه وأغسطس ١٨٠٧ عندما تركه .

إلا أن من اللافت للنظر أن هذه المراسلات أصبحت شخصية بصورة مفاجأة خلال السنة الدراسية ١٨٠٦ - ١٨٠٧ ولانجد لهذه الظاهرة سوى شرح واحد : ففي ربيع ١٨٠٧ يبلى أن چاك - جوزيف تأثر من طلبات أخيه الملحة كما توقع أنه سينتقل إلى باريس بعد فترة قصيرة . فقام بإخراجه من نظام « الداخلية » المدرسي وجعله يقيم معه على الرغم من الصعوبات التي ستسببها له هذه الخطوة خاصة وأنه كان على وشك الإرتباط بزوجته .. ومع ذلك فإن مشكلة عدم تأريخ جان - فرانسوا لخطاباته تبقى دون تفسير .

إذا افترضنا عدم أهمية الدراسة المدرسية التي فرضت على هذا التلميذ غير العادي وقبلنا فرضية أن المهم بالنسبة له كان يحدث خارج حصص اللاتينية والحساب فيتحتم علينا أن نلقى الضوء على بعض الأحداث التي جرت له في هذه الفترة مع العلم بأنه من غير الممكن تأريخها جميعاً .. فهذه الأحداث وإن كانت بها جوانب رمزية وتعد خارج إطار محاولاته البحثية إلا أنها أثرت دون شك في شخصيته وتبرز جوانبها الفريدة والخاصة جداً . ومن هذه الأحداث نذكر « الشوشرة الكبرى » التي حدثت في الغالب خلال صيف ١٨٠٥ مما دفع مراقب الليسيه الإمبراطوري إلى الاستعانة بالعساكر ، نذكر أيضاً « أكاديمية جنيات الفن » التي أسسها جان - فرانسوا في الإطار المدرسي وهي مبادرة قام بها في العام التالي والقطيعة التي أجبر عليها فيما يخص صداقة قوية كانت تربطه بزميل له ؛ وكذلك الخطبة العامة التي ألقاها أمام محافظ مقاطعة الإيزار في نهاية العام الدراسي ١٨٠٥ - ١٨٠٦ على الأرجح .

لايشكل أى من هذه الأحداث أهمية مماثلة لمولد موهبته المصرية . والذي يمكن إرجاعه لعام ١٨٠٥ وهو فى السادسة عشرة من عمره والتي سنعود للحديث المطول عنها فيما بعد ، لكن هذا لايمنعنا من الأهتمام بتلك التجارب والمبادرات التي قد تبدو ثانوية ولكنها كانت علامات أثرت فى حياة شخص يبحث عن وجهته .

ماهى قصة « الشوشرة الكبرى » ؟ ننقل هنا النص الطريف جداً الذى سرد فيه جان - فرنسوا الأحداث لأخيه كما لو كانت تمرد مساجين :

« [...] بالأمس أفسد مفتش الليسيه كل شئ [...] راح يوزع لكلماته وضربات عصاه فى جميع الاتجاهات .

فى المساء فى البيت الريفى أخذ كل فرد عصا صغيرة معه وأختبأ الجميع فى الظلام [...] فى طريق العودة إلى الليسيه توقفوا عند القلعة وملئت الجيوب بالحجارة . ثم ذهب الجميع للعشاء وحدثت ضوضاء رهيبية . وإذا خشى المفتش أن تقوم ثورة عليه طلب أن يذهب الجميع للصلاة فى قاعة الدراسة ثم التوجه إلى قاعات النوم . ولما بلغت الساعة التاسعة والنصف ألقيت الحجارة على زجاج قاعات النوم بعد أن أطفئت الأنوار . فتكسر كله . عندما حضر المفتش ألقى خطبة لم ينتج عنها سوى زيادة الإثارة . وبعد أن انسحب عاد الجميع إلى تكسير الزجاج وأوانى الغرف التي ألقيت على أسوار النوافذ .

لم يعرف المفتش كيف يتصرف ؛ فذهب إلى المعسكر وأحضر العساكر وأدخلهم قاعة النوم وأوقفهم بينادقهم والسنكى مرفوع مع الأمر « بخوزقة » أول من يتحرك . فثبت الكل ولكن استمر الصراخ بأعلى من ذى قبل . لم تطرف لنا عين طول الليل (8) .

لا أعرف إلى أى مدى ستصل الأمور : إلا أنني لم أشارك فيما حدث ... « لم أشارك فيما حدث » أبعد شئ قابل للتصديق فى كل ماسبق هو هذه الجملة . إذ أن صيغة المبني للمجهول المستخدمة لابد وأنها جمعته هو أيضا .. إن بقية حياة جان فرنسوا ستوضح أنه لم يكن يستثغ موقف الحيات أو وقفة المشاهد . لم يكن من طبيعته أن يترك زملاءه يواجهون وحدهم السناكى والعساكر المتربصين بهم « لخوزقتهم » ... الذى حدث هو أن المفتش قرر أن يسدد التلاميذ ثمن الزجاج المكسور .. وقد تكسر منه الكثير كما رأينا ! الذين ان يسدوا لن يتمكنوا من

الخروج الخميس التالي أول أيام العطلة الصيفية من « معسكر الموت » كما أطلق عليه جان - فرنسوا . ويستطرد المراهق قائلاً وهو يمزج حديث العالم بكلمات الخطابة المؤثرة :

« بدأ رجال الإدارة يتطبعون بطباع الشرقيين وهم يعاملون أولياء أمور التلاميذ معاملة البيت العالى لليهود جعلوهم يصلحون على نفقتهم الأماكن التى تضررت من السراى [...] الدفع ، الدفع : أعتقد أنه من الأفضل كتابة هذه الكلمة بحروف من ذهب فوق الباب الرئيسى ... »

وينتهى الخطاب بصرخة الختام : « هل تريد أن تتركنى راكدا فى هذا المقر الجهنمى ؟ » ... الذى حدث هو أن جان - فرنسوا لم يطرد من الليسيه . ولعله كان يأمل فى ذلك - وأبقاه أخوه فى « مقره الجهنمى » . من المحتمل أن يؤرخ لبدائية توتر العلاقات بين الشباب القادم من فيچاك وإدارة مدرسته الإمبراطورية بتلك الليالى العاصفة التى شاهدها صيف ١٨٠٥ وسيبلغ هذا التوتر ذروته بحادث الصداقة التى قُوِّضت .

كان مشاغباً أحياناً وغير منتظم فى مستوى تعليمه إلا أن جان - فرنسوا لم يكن أبداً « الأبن الضال » أو الشاب الهائج المنطلق داخل المدرسة . بل هو قادر أن يظهر حماساً منقطع النظير مادام المطلوب منه خارج البرنامج الدراسى المفروض عليه .. وفى هذا الصدد بادر بتأسيس « أكاديمية الفنون » فى إطار المدرسة يقول عنها لأخيه مايلى :

« ... إليك ما نود عمله : سيقوم كل فرد منا كلما أتيج له الوقت بكتابة نص يليق بنا سواء كان شعراً أو نثراً ، ستعقد جلساتنا كل خميس فى فترة الفسحة داخل أحد الفصول . وسوف نحصل على موافقة المفتش . سأعرض عليك الخطاب الذى سألقيه عند افتتاح الأكاديمية . نود ألا نزيد عددنا عن ثمانية وسيصبح لنا أعضاء منتسبون كثيرون جميعهم متقدمون فى السن بل ربما أكبر منك سناً . أرجوك أن تكتب لنا وإن أمكنك هب لنا إحدى دراساتك [...] إحضر كل ذلك معك غداً عندما تأتى لزيارتنا وسأكون لك ممنوناً » .

وبناء على ذلك وصلت الدعوة التالية إلى حوالى عشرين شخصية من شخصيات مدينة جرونوبل وعليها أسم الليسيه :

« من أكاديمية آلهات الفنون إلى السيد .. »

نسمح لأنفسنا اليوم بأن نخاطبكم راجين أن تساعدوا أكاديمية آلهات الفنون الوليدة لما عرف عنكم من قدرات ومواهب ولذلك نرجو أن نحظى ببنصائحكم . إن جميع آمالنا معقودة عليكم لكي ننجح في مشروعنا : إننا نعمل على أن نتعلم ونحن نلهو * miscuimus utile dulce ولما كنا مازلنا صغاراً في السن لنتمكن من الحكم السليم على عملنا فإننا نلجأ إليكم لأن رؤاكم السديدة يمكنها أن تقودنا على طريق الفنون الجميلة المزدهرة . فلتكونوا أبولو بالنسبة لنا ودلونا على الطريق الصحيح المؤدى للبارناس . إننا نتوجه لكم أملين أن تقبلوا أن تكونوا أحد أعضاء المنتسبين .

وسندين لكم بكل العرفان

خدامكم المطيعون

الرئيس وأمين الصندوق

توقيع : شامبوليون « (9) »

أسلوب منمق لا بأس به ... يصعب جداً إيجاد تاريخ لهذه المبادرة الأكاديمية . وقد يكون من الممكن إرجاعها إلى السنة الأولى من قبول صديقنا الشاب في المدرسة ١٨٠٤ - ١٨٠٥ لأنها السنة التي كانت فيها إنطلاقاته حرة غير مقهورة بالتوتر والقمع والغضب التالية ، لولا أن الثقة بالنفس التي ينم عنها الخطاب وكذلك العلاقات المقامة مع الشخصيات التي وجه إليها تجعلنا نرجح إعادتها إلى سن الخامسة عشرة من عمر « الرئيس - أمين الصندوق » ونعتبرها إحدى العلامات الدالة على النضج المبكر . غير أن الأخطاء الإملائية المؤسفة لشامبوليون الصغير تعود بنا إلى نقطة الشك .

يبدو أن أحد الأعمال الذي تقدم بها جان فرنسوا وهو في الرابعة عشرة إلى زملائه أعضاء « أكاديمية آلهات الفنون » هذه هي القصة القصيرة التي فضل أن يكتبها شعراً والتي تبدو وكما لو أنها سيرة ذاتية معكوسة .. إنها تحكى قصة شخص عجوز اسمه كوناكسا (وهو عنوان القطعة) وزع ثروته كلها على ابنه وإذ به يجد

* نخلط المفيد بالطريف .

نفسه وحيداً بعد أن نبذه ولداه وأصبح معدماً .. فينصحه أحد أصدقائه باللجوء إلى الحيلة بأن يعلن أنه حصل على كنز كبير وأنه سيترك هذا الكنز لأكثرهما حناناً له ... فأسرع الإثنان بالإلتفاف حوله - وعند وفاة الرجل العجوز فى نهاية الأمر لم يجد ولداه بجوار الجثة سوى :

..... هراوة

ومعها عبارة مكتوبة نصها كالآتى :

هذا السلاح لتأديب الآباء الحمقى

لعلاجهم من غبائهم

الذى يجعلهم يتنازلون عن ممتلكاتهم لأبنائهم .

أقل مايمكن أن يقال عن هذه النهاية أنها لاتعبر قط عن عن العلاقة التى كانت قائمة بين چاك شامبوليون ووالديه ألهم إلا إذا عكسنا الأمور . وهو ماسيتم إثباته بعد مرور عشر سنوات .

حياة چان - فرنسوا إهتزت بما هو أعنف من « شوشرة » وبمعاشرة ألهاث الفنون ... وهو حادث سنطلق عليك من باب التبسيط « حادث فانچيهيز » والمتمثل فى قطع علاقة الصداقة المتقدمة التى ربطته بأحد زملاءه نزولاً على أوامر أساتذته على الرغم من كل الأغم واليأس الذى تسبب فيه ذلك .

عندما قبل چان فرنسوا فى الليسيه كان فى الرابعة عشرة مراهقاً مرهف الحس محروماً من الحنان العائلى أقل مايعانيه هو إبتعاده مؤخراً عن داره ... هذا المراهق ركز عاطفته كلها فى أخيه الأكبر الذى كان بمثابة أب حقيقى والمرشد الفكرى الوحيد . دخول المدرسة فى نوفمبر ١٨٠٤ لم يكن صعباً ... ثم أن قاعة النوم لم يكن قد انتهى تجهيزها بعد ولذلك فإن الإقامة بالمدرسة الداخلية تأخرت شهرين وهى المرحلة التى مرت بها فترات تمرد وأسى . كما أشرنا من قبل .

فى السنة الدراسية التالية كان قد بلغ الخامسة عشرة وهى السنة الخطرة ... هل تعرف على جوهانيس فانچيهيس منذ السنة الأولى ؟ يبدو أن الصداقة لم تأخذ طابع الاشتعال بين المراهقين سوى فى السنة الثانية من حياة الدراسة الداخلية لچان

فرنسوا ١٨٠٥ - ١٨٠٦ فى جميع الأحوال فهو لم يشرك فانجيهيس فى مبادرته الأولى
وهى تأسيس « أكاديمية إلهات الفنون » .

وبناء على ذلك يمكن إعادة الأزمة إلى الفترة ما بين ربيع ١٨٠٥ وصيف ١٨٠٦
والتي تعكسها عدة رسائل لجان - فرنسوا والتي تتغير لهجتها ، فلم تعد تعبر عن
غضب التلميذ البليد بل عن بكاء المراهق الرومانسى - دون أن يمنع ذلك الجدل
والتعبير عن السخط . ومثال ذلك خطاب يمكن إرجاعه إلى أواخر عام ١٨٠٤ بعد عدة
أسابيع من دخوله المدرسة جاء فيه :

« أما عن أخطائى فأعتقد أننى لم أخطئ عندما أقول الحقيقة وليد عن
آخر » * .

ولكن بعد ذلك تحل الكآبة مكان الغضب :

« أعترف لك أننى فى غير حالتى الطبيعية منذ بعض الوقت . عاد الحزن يملكنى .
وباختصار فإنى لست على سجيئى . إنى أنبل وأشعر بذلك ... وأعتقد أنه إذا لم أجد
هنا شخصاً يساعد على مرور الزمن ، صديقاً يرفه عنى ، فإنى لن أعيش طويلاً .
أقبلك من كل قلبى . أخوك المطيع » .

هذا « الشخص الذى يساعد على مرور الزمن » - المذكور فى جملة قد لا تكشف
عن شئ - هذا الشخص هو چوهانيس فانجيهيس . إننا لانعرف شيئاً عنه تقريباً
سوى أنه كان - كما كتب عنه جان - فرنسوا لأخيه - صاحب مزاج حزين وغير
إجتماعى وهو ماكنت تلومنى أنا أيضاً عليه « . وأنه كان مريضاً فى السنة التالية خلال
العام الدراسى فترك اللبسيه لكى تتم معالجته مع عائلته . وقد عقب على ذلك « بايرون »
المدرسة بقوله :

« ... هل يمكنك أن تخرجنى من المدرسة ؟ لقد ضغطت على نفسى إلى الآن حتى
لا أضايقك إلا أن الأمر أصبح غير محتمل بالنسبة لى . إنى أشعر أننى لست
مخلوقاً لأعيش فى زحام مثل الذى نحن به [...] ولعى الأول وهو اللغات الشرقية
لا أعمل فيه سوى مرة واحدة كل يوم . إنى لا أطيق زملائى . غير واحد فقط

* ثلاث كلمات غير مقرومة .

عزيز على لكنه مريض . ولا يمكننى رؤيته . كنا نساعد بعضنا لى نتحمل حياتنا البائسة هنا . أما أنا الحزين المنسى فلا أسعد برؤياك سوى مرة واحدة كل أسبوع * أشعر أنى لست فى صحة جيدة ولا أعرف ما الذى يطبق على وأعتقد أن به خراجاً [...] إذا بقيت هنا فترة طويلة أقسم لك أننى لن أعيش ... ** .

هذا خطاب مثير من عدة وجوه ... إحدى المشاكل التى يثيرها بداية هو التاريخ وعلى الرغم من أنه ذكر فيه يوماً وشهراً : التاسع من يونيو إلا أننا لانعرف من أى عام . مسيو بيير قايان فى كتابه الممتاز الذى جمع فيه مقطعات من مراسلات جان - فرنسوا شامبوليون تحت عنوان « خطابات لأخيه ١٨٠٤ - ١٨١٨ » يحدد هذا العام بأنه ١٨٠٧ ... غير أنه من الأرجح أن يكون ذلك فى ١٨٠٦ : أولاً لأن مرض فانچيهيس سبق بعدة أشهر إجباره على فض العلاقة وهو ماتسبب فى الأزمة التى ستعرض للحديث عنها فيما بعد وثانياً لأن إخراج جان - فرنسوا من اليسييه حدث فى بداية ١٨٠٧ كما سنرى .

فى جميع الأحوال فإن هذا الخطاب يدخل فى إطار تصاعد درامى للأحداث توالى خلاله فترات الحزن الأليم مع التمرد الثائر :

« ... إنهم يعذبونى *** منذ فترة طويلة ، إلا أنهم لن يصيبونى أبداً بمثل ما أصابونى به هذه المرة . إذ لم تكفيهم كل الإهانات (التى تحملتها فى صمت) كما لم تكفهم مطاردتهم الشرسة لى وتؤيلهم على هواهم لأكثر أفعالى براءة .. فهم يريدون علاوة على كل ذلك أن ينزعوا منى مايواسينى .

كان لى صديق أحببته من كل قلبى وسأحبه إلى الأبد . وكان يبادلنى الحب بنفس القدر وكان يعيننى على تحمل الآلام والقسوة التى كانت تمارس ضدى . كنا دائماً معاً ولم يرنا أحد مفترقين وكان مصدر سرورى كله وهو الذى كان يساندنى حتى الآن ... هاهم ينقلونى من القسم ، عمداً لى يضايقونى ولقد نصحوه بالابتعاد عن

* الواقع هو أنه كان كثيراً ما يقابل أخاه مرتين فى الأسبوع .
** بعد كلمة « أعيش » كتب « طويلاً » ثم شطبها .
*** يقصد المدرسين .

مصاحبتى لأنى - حسبما قالوا - أفسده * كما لو أن فى أستطاعتهم أن يفسدوه هم ... فلم يأبه صديقى بنصائحهم ويظل عزائى الدائم ، فما كان من هؤلاء الوحوش بعد أن أثارهم إستمرارنا معاً إلا أن نقلوه من القسم الذى أنا فيه وإن أراه سوى عابراً ! لقد فقدت عقلى ، إنى غاضب جداً . متى سينتهى عذابى !؟ مهما عملوا حتى لو أنهم قطعونا إرباً فإنهم لن يغيروا قلوبنا : لعل هذا الجانب من شخصيتهم يساعدك على معرفة شخصياتهم ! »

ثم راح چان - فرنسوا يوسع نطاق النقاش :

«... أحد مراقبى الدروس وهو متدين متطرف بكل مافى ذلك التعبير من قوة المعانى وعلوة على ذلك متافق هو المحرك لهذه العملية . فهو لم يكتفى بأن يفتابنى بل تجرأ على الحديث عنك بأسلوب غير ملائم (علمت ذلك من مصدر موثوق) . إنه لم يجرؤ على ذلك أمامى لأنى لن أتمكن من التحكم فى نفسى .. إنه يعرفنى جيداً .. » صعب جداً أن تجابه مضطهديك وأن تبقى وسطهم . إذا كان هناك إنسان واحد غاضب وتعيش فى المدرسة فهو أنا .. إنهم سيفقدونى صوابى ... »

هانحن - كما يقال - أمام حالة رومانسية حادة علما بأنه يجب استخدام كلمة رومانسية بتحفظ عند الحديث عن چان - فرنسوا شامبوليون : لأنه لو كان رومانتيكى بحق لكان إستخدم كلمة « قلب » بدلاً من « صواب » . حتى قبل أن يعرف بايرون أو « رونيه » (لقد قرأ روسو) فما هو وحيد وترك وحيداً وقد تملكه الغضب من عالم يعاديه ويغار منه .

« إنهم لن يغيروا من قلوبنا » ... ماذا يعنى اتهام « الإفساد » الذى وجه لچان - فرنسوا ؟ معروف كم هو شائع هذا النوع من القصص فى المدارس كما أن الغيرة أو التزمت يمكنهما أن يفجرا الفضائح حول صداقة معلنة أكثر من غيرها . لاشئ يجعلنا نعتقد أن شيئاً بين الشابين تعدى حدود التعاطف المتبادل الذى أثار بعض ذوى العقليات المريضة . وسيتعرف صاحبنا بعد ذلك بقليل على أصدقاء ستريطهم به صداقات قوية وخاصة أوجوستان تيفنيه أحد أبناء أسرة من الأسر العريقة فى مدينة جرونوبل والذى سيبقى وفيأ له إلى أن مات . لاشئ غير ذلك ولا أكثر من ذلك .

* وضع خط تحت الكلمة فى غضب .

سرعان ماسنراه أكثر هدوءاً ، قابلاً للندم - باحثاً عن حل وعائد لدراساته
العزيزة وستهبط حدة النبرات ويصبح الكلام أكثر وضوحاً :

«... أنا وحدى وسط كتبى باللغة العبرية وهذا لايفضببنى كثيراً . إلا أننى
أشعر أن ذلك سيزيد من كرهى للأخرين . كما أن مزاجى الاجتماعى سيزداد قوة
على قوة على الرغم من أنى أتصور ماقد يترتب على ذلك كما سبق وأفت نظرى إليه
كثيراً . [...] سامحنى يا أخى العزيز إذا كنت تصرفت بطريقة هوجاء وبدون تفكير ،
واقبل إعتذارى . لقد فكرت وأرجوك أن تحدد لى كيف أتصرف [...] وأقسم لك
أننى لن أحميد عما سترسمه لى من مسار . سوف أهتم وبنشاط بدراسة العبرية
واليونانية ... »

وه مع ذلك فهو لاينسى المطالبة بالحرية التى كان أخوه يعمل لها من أجله وكان على
علم بذلك :

« حاول أن تخرجنى من هنا ، أرجوك ... وإلا سأصبح أكثر الرجال يؤساً . متأسف ا
لا أريد أن أخفى عنك شيئاً . لقد فتحت لك قلبى . وقرأت مافيه . إنك تعرف المرض
الذى أعانيه - عالجه . وتأكد ولى الأبد من حب وإمتنان أخيك المطيع والذى يكن
لك كل الاحترام ... »

الامتحان؟؟ كان الشاب يعرف أسباب هذا الامتحان الذى هو مدين له به .
إلا أن خطاب چسك - جوزيف المؤرخ ٢٢ سبتمبر ١٨٠٦ أى بعد أكثر من ثلاثة
شهور بقليل من صراخه طلباً للنجدة الذى أطلقه فى ٩ يونيو جعله يأمل أن
الإجراءات التى يقوم بها أخوه الأكبر فى باريس لكى ينتقل إليها قد أوشكت على
النجاح ، وسنعود إلى الحديث عن ذلك بعد أن نكون أعتبرنا فى ذلك نهاية موضوع
« فانچيهيس » .

لم يكن چان - فرنسوا سعيداً فى الليسىه ولكنه كان يعمل . وكان أساتذته
يقدرون مواهبه لدرجة أنهم أناطوا به مسئولية التعبير عن جودة التعليم الذى تقدمه
المدرسة فى خطاب عام ألقاه بمناسبة زيارة قام بها المحافظ لهذه المؤسسة التعليمية
فى أغسطس ١٨٠٦ (وذلك بناء على طلب جوزيف فورييه) . لقد رفض الشاب غير
المحب للأخرين فى بادئ الأمر الحديث أمام الجمهور وخاصة أمام « فورييه » العظيم
وكتب خطاباً لأخيه جاء فيه :

« أنى بالفعل غاضب من الشرف الذى يريد السيد المحافظ تكريمه به ، فأنا أعتقد أنه من المستحيل على أن أتغلب على الخجل .. فإذا كنت فى الأصل أرتبك فى حضور أربعة أشخاص فما بالك بما سيحدث أمام ألف . أرجو أن تفعل كل شئ ممكن لكى لا يحدث ذاك [...] كما أرجو أن تتأكد أن السبب وراء ذلك ليس عدم معرفتى إنك أدرى بالأمور » .

نعم ! ليس السبب عدم المعرفة .. ومن السهل علينا أن نتصور رد فعل الأخ الأكبر ، هذا الظموح العاقل الذى لن يسمح لمثل هذه الفرص أن تمر دون أن يلفت نظر هذه الشخصية الهامة والتي سيتوقف عليها وإلى حين مستقبلهما المشترك . وبالفعل إضطر جان - فرنسو إلى الأنصياح لتعليمات أخيه .. حتى أن صحيفة « حوليات الإيزار » نشرت فى عدد ٢١ أغسطس ١٨٠٦ السطور الآتية :

« قام العديد من التلاميذ بدراسات ليست مقرررة عليهم فى الليسيه فى أوقات فراغهم . وهكذا رأينا الشاب جان - فرنسو شامبوليون وهو من التلاميذ الوطنيين يشرح خلال الامتحان العلنى . جزء من سفر التكوين وذلك من النص العبرى وذلك بعد أن أجاب على بعض الأسئلة التى طرحت عليه فى اللغات الشرقية عامة ... وقد عبر السيد المحافظ الذى وزع الشهادات على الناجحين عن رضاه التام عن التنافس القائم بين هؤلاء الشبان المتحمسين ... » (10) .

التوراه والقرآن واللغة اليونانية والسريانية والآثيوبية والكالدية (أو الأرامية) ... إن مجموعته اللغوية تزداد ثراءً بصورة ملفتة . ولكن ما الذى سيجعل من اللغة المقدسة المصرية المحور الذى ستدور حياته حوله وسيصنع منها نجمة الهادى ؟ ، من الذى سيزرع فيه هذا الهاتف المتسامى والمسيطر ؟ مازال جاك - جوزيف هو الدليل والمحفز والممول دون منازع . ولكن لعله كان يود أن يرى أخاه يتمسك بالتعددية التى تجعل منه « عالم الآثار القديمة » الأعظم ، رجل الشرق فى مجمله من الناحيتين الجمالية والروحية .

استمر دور الأخ الأكبر حاكماً فى هذا المجال . ولكن يجب أن نبحث عن مشجعين آخرين دفعوا شامبوليون الصغير على طريق مغامرته العظمى . فى أول صفوف هؤلاء يقف جوزيف فورييه شامخاً فهو عالم الطبيعة العبقري الذى جعل منه بوناپارت الراعى الأول لعلم المصريات على نفس مستوى فيثان دينون . ولذلك سنتوقف قليلاً أمام هذا الرجل العجيب الذى لولاه لما أصبح شامبوليون هو شامبوليون بل لعله ظل ببساطة عالم لغات مرموقاً أو مدرس تاريخ قديم .

ما هو الطريق الذى سلكه جان - باتيست فورييه لى يصبح وهو فى الرابعة والثلاثين محافظا لمقاطعة الإيزار فى أبريل ١٨٠٢ ؟ لقد ولد فى مدينة أوسار عام ١٧٦٨ لأب خياط . أصبح يتيماً عندما بلغ الثامنة واحتضنه الأباء البنيديكتيون الذين أعده فى البداية ليدخل السلك العسكرى ولكنهم بعد فترة أرادوا أن يدخلوه سلك الرهينة . وبعد أن إرتدى لباس طالب الرهينة إندلعت الثورة .. فتخلّى عن فكرة التنسك فى دير « سان - بنوا - سور لوار » وكرس وقته لدراسة الرياضيات والطبيعة مشتركا فى الوقت ذاته بصورة إيجابية فى الثورة . وقد أوشك على أن يمر برقبتة تحت المقصلة عندما إتهم بأنه من المعتدلين وذلك فى عام ١٧٩٤ .. وكان قاب قوسين من الخروج فى « التطهير » بسبب شهرته بأنه من اليعقوبيين (چاكوبان) فى ١٧٩٥ ... » .

كان أستاذ التحليل فى المدرسة الهندسية العليا (بوليتكنيك) وبهذه الصفة إصطحبه بنوبارت معه إلى مصر حيث أصبح من أقرب الناس إليه . والسكرتير العام لمعهد القاهرة « الأنستيتو » * ثم أصبح مؤسس مكتبة القاهرة وراعى البعثة العلمية لمصر العليا عام ١٧٩٩ ** ومندوب القائد العام فى « الديوان » العمومى .. وقد أبلّى فى كل ذلك بلاء حسناً مما حدا بالقتل الأول أن يعينه محافظا لمقاطعة الإيزار بعد عودته من مصر بوقت قصير . وقد منعه المنصب لفترة من الاستمرار فى أبحاثه العلمية عن انتشار الحرارة والتي كان إسمه قد اقترن بها قبل كل ذلك . وعلاوة على كل ما سبق لم يكتف الإمبراطور بأن حملة مسئولية إحدى أكثر المحافظات حساسية وأقلها سهولة فى المعاملة فى فرنسا كلها بل كلفه فوق كل ذلك بمهمة كتابة المقدمة التاريخية لكتاب « وصف مصر » العظيم . وقد قبل جوزيف فورييه التحدى المثلث الأضلاع ونجح فيه بعد سبع سنوات من وصوله إلى مقاطعة الإيزار وسلم الناشر نص المقدمة والتي ساعد فى تحريرها بجهد ضخم چاك - جوزيف شامبليون بمعاونة أخيه الأصغر ... وهو ماسنعود للحديث عنه فيما بعد . بعد ذلك بسنتين أنهى كتابه العظيم عن « النظرية الرياضية للحرارة » وهو الذى فتح أمامه أبواب أكاديمية العلوم . بعد مائة وخمسة وستين عاماً حيا كل من إلبا بريجوچين وإيزاباك ساندارز فى كتابهما

* الآن المجمع العلمى المصرى .
** راجع التمهيد ص ٣٧ .

« الحلف الجديد » La Nouvelle Alliance . عمق وحدانية هذا المؤلف والذي يمكن مقارنته بأعمال نيوتن * .

فى بداية القرن التاسع عشر كان جوزيف فورييه يعتبر الوريث الأمثل لقرن التنوير . وكانت شهرته كعالم وكشخصية عامة واسعة جدا . كان أيضا إحدى الشخصيات المرموقة فى الحركة الماسونية وكانت شهرته تجوب أوروبا كلها وكان شديد الاهتمام بكل شئ وعالمًا فذا فى العديد منها . وارتبط بأمجاد بوناپارت ولذلك فإن هذا « البورجينيونى » (من مقاطعة بورجونى) ذا الوجه السمع الواضح ، والملاحم النبيلة والهيئة المتفتحة والقلب الطيب والمقبل على الحياة والمتحدث اللبق كان يعتبر « شخصية » بكل ماتعنيه هذه الكلمة من معان . كان رأى الأخوين شامبوليون فيه عال جداً ويبدو ذلك واضحاً فى مراسلاتهما التى كانت تمتلئ بالعديد من كلمات اذخريية عن الكثير من معاصريهما ولكن فيما يتعلق بجوزيف فورييه فقد أطلقا عليه كناية جميلة هى « كرينزوستوم » .

لدى تكليف بوناپارت سكرتير عام « معهد مصر » سابقاً بتحرير المقدمة التاريخية « لوصف مصر » أراد أن يجد له مساعداً فى استطاعته أن يجمع له مراجع لم تكن متوافرة فى جرونوبل وأن يساعده علاوة على ذلك فى كتابة المقدمة .. لم يكن ممكناً ألا يفكر فى ذلك الشاب المثقف النشط الخدم العالم بيواطن الأمور وعلاوة على كل ذلك له شبكة علاقات جيدة .. وهكذا أصبح چاك - جوزيف شامبوليون فيچاك منذ عام ١٨٠٤ مشاركاً فى هذا المشروع الضخم . حيث لجأ إلى مقدرات أخيه الأصغر التخصصية الذى قدم له عوناً هائلاً متمثلاً فى مذكرات شملت عدداً من الموضوعات التاريخية والجمالية . ولكن ظل الأخ الأكبر وحده فى الصورة أمام المحافظ .

* عن « فورييه » وصلتنا من السيد / جورج شارياك هذه المذكرة : « ما إصطلح على تسميته الآن » مجاميع فورييه وأصوله « أصبح لها أهمية وشمولية تتعدى بكثير هدفها الأسمى . يوجد العديد من المجالات الأخرى فى علم الطبيعة وفى الهندسة تستخدم بشكل روتينى الأساليب الذى طورها فورييه . إن جميع مسائل تحليل الصور تلجأ إليها مثل تلك التى تثار لدى إستخدام الكشف بأشعة إكس أو الكشف عن الأبرام بالموجات فوق الصوتية .

« الأبحاث فى مجال هيكل الجزئيات الكبيرة بواسطة التقنيات البللورية التى هى الأساس فى دراسات بيولوجيا الجزئيات تلجأ بكثرة إلى « تحويلات فورييه » كما أن بعض التقدم الذى طرأ مؤخراً على هذا المجال يرجع إلى أن الحاسبات الإلكترونية أصبحت تقوم بحساب هذه التحويلات بسرعة أكبر بكثير من ذى قبل » .

نشط چاك - جوزيف لدرجة أن جوزيف فورييه اعتبره من أصدقائه ، وقد ساعد على ذلك ماكان يحظى به شامبوليون الكبير من حسن الطوية ، عشر سنوات كانت تفصل الرجلين سنا والعديد من الاهتمامات كانت تجمعهما فكارا . وفى عام ١٨٠٥ وقعت فى أيدى چاك - جوزيف - بفضل صديقه جامع الكتب جاريل - مراسلات عالم الرياضيات الألمانى العظيم ليونهارد أولار . فقدمها لفورييه وقد أتاح له ذلك أن يحرر مداخلة قدمها لأكاديمية جرونوبل فحازت إعجابا كبيرا . أنها سمحت له بتوسيع أفاق أبحاثه ... ولم يكن عالم الطبيعة من الجاحدين !

هكذا تواترت دعوات المحافظ للتاجر عالم الآثار لحضور حفلات الاستقبال التى ينظمها ، والسؤال الذى يطرح نفسه هو هل كان الأخ الأكبر يصطحب أخاه معه فى هذه الحفلات والإجابة كانت ستسمح بتحديد المهذ الحقيقى الذى ولد فيه هاتف الدراسات المصرية القديمة فى قلب مكتشف أسرار الهيروغليفية أى قاعات إستقبال جوزيف فورييه .

كل المؤشرات تؤيد فكرة اقتياد چاك - جوزيف لأخيه إلى متحف مدينة جرونوبل حيث عرض عليه وشرح له ماهية المومياء التى كانت من أهم التحف المعروضة وكأنه قد أهداها للمدينة القنصل الفرس ح . ب مور فهو من مقاطعة الدوفينييه أصلا ومثل فرنسا فى مصر لفترة فى عام ١٧٩٩ . ولكن التقليل من شأن كل ما ساعد على تعريفه بمصر بداية بكتاب فيثان دونون لايمكن أن نصدد المكان الذى « تبلورت » فيه الاتجاهات المصرية لدى چان فرنسوا شامبوليون خارج مقر جوزيف فورييه العظيم فهو شاهد لامثيل له وعالم أصيل .

إن الإغراء على اعتقاد ذلك جامع لدرجة أن هيرمبنى هارتلوبان قد وقعت فى برائته : فراح تصف بدقة مؤثرة حوارا بين المرشد الكبير والطفل النابغة تماما كما لو كان اللقاء بين أرسطو والأسكندر ... ولذا فإن الإغراء كان عظيما بأن تؤسس على هذه المحاورات انتقال شعلة المعرفة من الرجل الكبير إلى الشاب الصغير .

غير أن هناك شك أولى : إن مدام هارتلوبان تحدد موعد اللقاء الأول فى خريف ١٨٠٢ . (11) لكن هل يمكن أن نصدق أن هذه الشخصية الكبيرة التى لم يكن قد مضى على حضورها إلى جرونوبل سوى أقل من ستة أشهر وكانت المسئوليات الضخمة والمسئوليات ترهق كاهلها قد وجدت الوقت لاستقبال صبى عمره أحد عشر عاماً مهما كان هذا الولد موهوبا ؟ علاوة على أن أول دليل على تبادل كتابى شخصى

بين چاك - جوزيف والمحافظ هو الخطاب المؤرخ أكتوبر ١٨٠٣ .. ولذا لا يمكن تصديق أن شامبوليون فيچاك قد تمكن من محاصرة فورييه في تلك الفترة لكي يقدم له أخاه .

كما يوجد مؤشر سلبي آخر وهو عدم وجود أى أثر لهذه اللحظة التاريخية في مراسلات تلميذ الليسيه . هل يمكن أن نتصور ألا يشير الصبى إلى مقابلته لرجل الحملة المصرية المحاط بهالة من الأعمال الرائعة في مراسلاته ؟ وهو الذى كان يسرد فيها كل شئ عن ذاته وأعلامه وطموحاته وولعه بالشرق ؟

الواقع هو أن الأمور أبسط من ذلك وأقل إثارة وتشويقاً ، فإذا كان چان - فرنسوا شامبوليون قد حظى - بناء على تدخل من أخيه - بشرف إثبات ذاته أمام «فورييه» خلال الزيارة التى قام بها الليسيه عام ١٨٠٦ وبعرض الامتيازات مثل إعفائه من الخدمة العسكرية أو تسهيل عمله فى السلك الجامعى فإن أسطورة حوارهِ المطول مع الأمين العام السابق « لمعهد مصر » تفشل فى اجتياز تجربة مراجعة مراسلات الشقيقتين .

كما أن هناك شاهداً آخر يتمثل فى خطاب أرسله فيچاك إلى « صغير » مؤرخ فى ٤ يوايو ١٨٠٩ - أى بعد سبع سنوات من البداية المفترضة للعلاقات المتميزة بين عالم الطبيعة الكبير وتلميذ الليسيه الموهوب فى اللغات يحاول فيه الأخ الأكبر إقناع أخيه الموجود حينذاك فى باريس أن يذهب للقاء « فورييه » الذى كان يزورها لفترة :

«... يجب ألا تضايقك هذه الزيارة . إن السيد / فورييه رجل ممتاز فهو طيب وودود أيضاً . وهو مصرى مثلك وهو يحبك لعلمه بميوك المعرفية وأعمالك وفيما بيننا فهو يقدرك أكثر من العديد من أعضاء « اللجنة » * وإنى على يقين من أنك ستسعد بالتعرف عليه شخصياً ...» .

« التعرف عليه شخصياً » ... « .. هو مصرى مثلك .. » لا يوجد حرف واحد فيما سبق لا يشترك فى تدمير الأسطورة . والواضح هو أن فورييه كان صديق چاك - جوزيف صديقه هو وحده . وبما يكون الأخ الصغير قد رافق أخاه إلى مقر المحافظة لحضور حفل أو للزيارة ولكن چاك - جوزيف رأى عدم تقديمه للرجل الكبير فى تلك الفترة المبكرة .

* لجنة مصر ، التى يرأسها چومان .

هيرميني هارتلوبان عندما أسست مولد علم المصريات على مقابلة شخصية بين جان - فرنسوا شامبوليون وچوزيف فوربيه إستجابت لإغراء ميل متواصل لديها - يتكرر كثيرا بوضوح وبطريقة مثيرة للعواطف - أن تظهر شامبوليون فى صورة الطفل المعجزة مثل يسوع وسط العلماء - فى حين أن عبقرية المكتشف قد تكونت على مراحل وبطريقة أكثر عقلانية بواسطة المقارنة والمنافسة مع قدر مماثل من الإلهام .

ومع ذلك يجب أن نقر أن نظرية الطفل العبقرى تؤيدها بعض الأسانيد . يذكر من - أو - كاربونال عدة خطابات وصلت چاك - جوزيف من أصدقاء له مثل مارتان وچاريل يتحدثون فيه عن الصبى وهو فى الثالثة عشرة من عمره (١٨٠٤) على أنه «عالم آثار المستقبل الكبير» الذى سيحل محل «سكاليجية ...» * .

ألا تتم هذه المقابلة مع فوربيه قبل عام ١٨٠٩ لا يقلل من أهميتها التاريخية إلا أنها تبقى هامة للغاية بمقدار أهمية العوامل الأخرى المكونة « للإلهام » المصرى الذى هبط على مكتشف الغد وهى : غوصه فى دراسة اللغات الشرقية منذ مرحلة الدراسة لدى الأب دوسار وقراءة كتاب ثيفان دونان (الذى نشر عام ١٨٠٢) حيث وجد على وجه الخصوص البردية المشهورة - (لوحة رقم ١٣٨) والتي ستكون فيما بعد إحدى أدوات عمله .

إذا كانت الرعاية التى خص بها فوربيه جان - فرنسوا شامبوليون أقل تأثير عليه فى اختيار طريق علم المصريات عن الاعتقاد السائد فإن ذلك لا يمنع أن تأثيرها لا يقدر بثمن . لقد كان محافظ الإيزار يجذب حوله جميع من كان يُعتد به فى مجال التعليم وفى مجال العلوم المتعلقة بمصر . وهو ما أتاح لچاك - جوزيف فرصة التعرف على شخصيات ذات تأثير على الجامعة مثل جان - باتيست بيو وهو عالم الرياضيات الذى تكاد تبلغ شهرته شهرة مونتج وكذلك أنطوان فوركروا عالم الكيمياء مفتش عام التعليم الحكومى والذى سنراه يجد فى الدفاع عنهما فيما بعد .

غير أن أكثر الشخصيات تأثيرا ضمن هؤلاء الذين تعرفنا عليهم بفضل جوزيف فوربيه هو أحد قدماء الحملة على مصر « دوم رافائيل دى موناشيس » . كان هذا الراهب من أصل يونانى وقد عاش لفترة طويلة فى سوريا . ثم أصبح بعد ذلك - إلى جانب فانتور دى بارادى - أحد « المستشرقين الشرقيين » لبونابارت . وأعيد إلى

* چوايو سيزارى سكاليجية عالم لغات إيطالى من القرن السادس عشر والذى يعتبر كتابه « الشاعرية » المحاولة الأولى لعقلنة اللغويات .

فرنسا عام ١٨٠٢ بصفته هذه ليصبح أستاذ اللغة العربية في المدرسة الخاصة للغات الشرقية . كان إلمامه باللغة القبطية كافياً لتوضيح أهميته القصوى لهؤلاء الذين كانوا يحاولون إلقاء الضوء على اللغة المقدسة للمصريين القدماء .

من المرجح أن يكون دوم رافائيل هو السبب وراء إدراك جان - فرانسوا أن اللغة القبطية هي الجسر الذي لاغنى عنه للوصول إلى تفسير الرموز الفرعونية والتي هي بدورها النسخة المتأثرة باللغة اليونانية التي تحدث بها وكتب بها قدماء المصريين . (ويجيب دوم رافائيل في هذا المجال بعد أتانان كيرشار الذي تتلمذ بنوره على يد المثقف « بيرسك ») * . وعلى العموم فإن الشئ المؤكد هو أن الشراة الاستشراقية لصديقنا الشاب قد اتسعت للغاية مارة بثلاث مراحل حول محور مصرى أولاً ثم قبطى وأخيراً هيروغلىفى .

ومنذ ذلك الحين أضفى ميل جان - فرانسوا للهروب صبغة ملححة لدرجة مرضية . فلم يصبح الأمر فقط مسألة إشمئزاز من اليسييه بل أضيف إلى ذلك عطش حاد لاكتشاف هذا المجال الجديد وهو اللغة القبطية ولم تكن جرونوبل تتيح له أية إمكانية معرفتها ، وثائق ولا أشخاصاً يمكن مراجعتهم فيها فيما عدا دوم رافائيل الذى زارها مرتين ولغترات قصيرة جداً عامى ١٨٠٥ و ١٨٠٧ . لم يبق أمام جان - فرانسوا سوى باريس كحقل معرفى ينهل منه .

كما هو الحال دائماً تقريباً سنرجع إلى مراسلاته للبحث عن الإشارات التي توضح طريقة تطوره وكيفية تطوره وكيفية إرتفاع حدة رغبته فى المعرفة . وستجد فى هذه الرسائل إشارة ذكرها عام ١٨٠٥ إلى « قائمة بحكام مصر » ولعل أوضح تعبير عن توجهه المصرى يبدو جلياً فى خطاب موجه إلى أسرته - بيد جاك جوزيف : إذ كتب يقول : « أريد أن أقوم بدراسة متعمقة ومتواصلة عن هذه الأمة العريقة . إن الحماس الذى حركه فى نفسى وصف آثارهم العملاقة والإعجاب التى أثارته عظمتهم وعلومهم سينموان كلما زدت علماً بها . أعتز وأقر لكم أنه لا يوجد شعب من جميع الشعوب التى أفضلها يعادل فى قلبى حبى للمصريين ! » .

هذا الخطاب الذى خطه غلام فى الخامسة عشرة يثير الفضول ؛ لأنه مذكور فى جميع كتب من أرخوا لجان - فرانسوا شامبوليون : إيمى شامبوليون - فيچاك

* راجع الفصل التاسع .

وهيرمنبى هارتلوبان وليون دولابرييار ومادلين پوربوان . ولكنه غير مذكور فى أى من الأرشيفات . ومع ذلك فليس المقصود هنا هو التشكيك فى صحته . ولكن التساؤل هو حول الأسلوب الخطابى للرسالة ولعله يعود إلى إضافات من وضع أخيه الأكبر ؟ وربما يعود ذلك أيضا إلى شخصية من كان يخاطبهما أى والديه أو إلى مايتضمنه « تعهده » هذا من مهابة حتى أن المرء يخاله يعلن قبوله دخول الدير والرهبنة .

ولكن يوجد جانب من شخصيته يعبر عن تفرد أصغر الأخين شامبوليون ، نجده فى الخطاب الذى بعث به لأخيه وأرفق به الخطاب المتضمن تعهده الذى قطعه على نفسه لوالديه . فقد أضاف ملحوظة فى نهاية خطاب أخيه نصها الآتى : « إذا دفعك فضوك إلى رؤية « الأزينناد » فسأعطيها لك يوم الأحد .. إنها قصيدة بطولية مثل « الإلياذة والإنبيد والهزيمة .. إلخ » .

تحول فى المواقف يثير الدهشة !! ففى اللحظة نفسها التى يقسم فيها علناً على تكريس حياته للعلم مثمما يفعل الآخرون لدى دخولهم سلك الرهبنة ، يعلن جان - فرنسوا لأخيه عن عمل كتبه على طريقة سكارون (كاتب ساخر فرنسى من القرن السابع عشر) وهو عمل ملحمى ابطاله من الحمير على ما يبدو - وهو يعبر بشكل مثير للضحك عن معرفته بمصر حيث يؤدى هذا الحيوان منذ الأزل دورا أساسياً كما ذكر هيرودوت . وكذلك أعضاء الحملة الفرنسية على مصر فى ١٧٩٨ ولا يوجد شخص أثنى على الحمير بأفضل مما قاله جان فرنسوا ذاته عندما زار مصر عام ١٨٢٨ .

وعلى الرغم من هذه الملحوظة الإضافية فإننا سنعتبر هذا « التعهد » أو المانيفستو العائلى نقطة تحول فى حياة كاشف أسرار الفراعنة ، حدثت بعد بضعة شهور من لقائه بنوم رافائيل .

وحدث بعد ذلك فى صيف ١٨٠٦ عندما سمع عمدة جرونوبل جان فرنسوا وهو يتناقش مع ابنه فى مسائل خاصة بالنباتات وسأله وهو مازال فى الخامسة عشرة من عمره إذا كان يود أن يتخصص فى العلوم الطبيعية ، رد عليه قائلاً بجدية أدهشت العمدة : « كلا ياسيدى - أريد أن أنذر حياتى لدراسة مصر القديمة »^(١٢) لم يكن قد تطرق بعد إلى الحديث عن الهيروغليفية .. ولكن يجب أن نلاحظ أن كل ما يهمله يؤدى فى النهاية إليها : اللغات المقارنة والتاريخ والجغرافيا وعلى الخصوص دراسة هذين الكاتبين اليونانيين اللذين قاما بجهد كبير فى هذا الاتجاه وهما مورابولون وكليمان السكندرى .

وفى جميع الأحوال فالشئ الواضح هو أن البحث العظيم الذى كان بصدده مكرساً له حياته فى صيف ١٨٠٦ تقريباً لم يدفعه إليه أنبهاره ببلد غريب ولم تحركه فيه رؤية الروائع التى كشفها جوزيف فورييه . فقد عمل منذ البداية على أن يقوم بحثه على أسلوب علمى . كل شئ أصبح مادة للتشبيه والمراجعة والمقارنة اللغوية .

« اطلعت فى كتاب « آلية اللغات » على المساجلة بين السيدين فالكونيه وفرينيه عن معنى كلمة « دونوم » : الأول يفضل إعطاء معنى مكان معروف وهو مايتوافق بطريقة لابأس بها مع كلمة أوكسيلودونيوم أو كابديناك * . فى حين يقول الآخر تبنى مكانا مأهولا . ولكى أتأكد بحثت فى الأصول العبرية فوجدت أن « نوم » تعنى « مدينة » مثل « المدينة » فى الجزيرة العربية كما أن « دينا » تعنى مدينة بلغة مقاطعة بريطانى فى عهد الاضمحلال . أما فى اللغة اليونانية فقد وجدت « دينا » ومعناها « جب » . كما أن فالكونيه يدعى أن « دونوم » تعنى جبل . فى المفاتيح الصينية وجدت « تشان - إى ، وتا - إى وجميعها لا تتفق مع « دونوم » التى تعنى جبل » .

وقد يقول البعض أن فى ذلك جهدا كبيرا ضائعا من أجل إكتشاف أن تركيبه الكلمات اللاتينية لتقبل المقارنة مع الكلمات الصينية . لكن لا توجد إكتشافات غير مجدية كما لا توجد محاولات لا تؤتى بعض الثمار وحتى يدعم تمكنه من موضوعه ولكى يوسع مجال بحثه بدأ فى عام ١٨٠٧ مغامرة جسورة متمثلة فى عمل خريطة وكتابة « قاموس جغرافى للشرق » مع إعطاء إهتمام خاص لودى النيل . لكن سيتضح أن كلمة « جغرافى » لم تكن سوى طريقة فى التعبير ؛ إذ سنراه يهتم أيضا بذكر الأسر الملكية والطوبوغرافيا وأصول الكلمات وأشكالها وأسماء المواقع الجغرافية وأصلها (onomastique & toponymie) .

كتب إلى أخيه الأكبر يقول :

« أوشكت على الانتهاء من قاموس . هل تكرمت على « بأن تسأل مسيو دى لاسالات ** أن يعطيك المجلد الأول من « المكتبة الشرقية » . أريد قراءة هذا الكتاب لأنه مرجع يجب العودة إليه باستمرار حتى يمكن السير بخطى ثابتة فى متاهة الأسرار الشرقية . وعلى العموم فإن التعود على معرفة الأسماء الشرقية يبدأ هنا فقط كما

* قرية صغيرة تقع بالقرب من فيجاك فوق مرتفع . فهل كانت نفس مدينة أوكسيلودونيوم الذى قال قيصر أنه فتحها ؟ حاول الأخوان شامبوليون الرد على هذا التساؤل عام ١٨١٧ . (راجع الفصل السابع) .
** جنرال متقاعد فى سلاح المدفعية أصبح من المثقفين وعالم فى الموسيقى .

نشحن ذاكرتنا بمعلومات غاية فى الضرورة لشخص كرس حياته للقيام بدراسة خاصة عن الشرقيين » .

إن الذى يثير شغفه العلمى فى هذا العمل هو إعادة إكتشاف الأصول القديمة للأسماء المعربة الآن فى مصر . فهو يتساءل إن هورقع الحجاب الذى فرضه الفتح وأعاد الأسماء الأصلية إلى الحياة فهل سيجد الكلمات ذاتها التى كان يستخدمها أسياى وادى النيل ثم الأقباط من بعدهم لعلهم يكونون قد إحتفظوا بنفس المعطيات الصوتية دون الاحتفاظ بلغة كتابتها .

إننا نعرف جميع محاولات هذا المراهق صاحب الخمسة عشر عاما الذى كتب خلال أجازة صيف ١٨٠٦ وهو فى ضيافة أحد أولاد عمومته « بحثا مختصرا فى علم النميات (دراسة القطع النقدية والميداليات .. إلخ) العبرانية من عشرين صفحة تقريبا » وكذلك تعليقا على « سفر أشعياء » وبترجم سفر الخروج ويدرر الجغرافيين العرب إن الأوردى والبكوى ويلتهم الكتب والقواميس فى غرفته بليسيه جرونوبل .

لعلنا نسبق الأمور بتصوير مايدور فى رأسه ... ولكن ماذا عن أخيه الأكبر الذى لم يخطئ فى تقدير هل سيجب نشاط أخيه مجمل المجال الشرقى أم أنه سيركز مجهوده على مصر ؟ لقد أيقن أن هذا الأخ الذى تولى أمره قد بدأ بالفعل السير فى طريق سيقوده إلى أفاق بعيدة .

فى ١٨٠٦ كتب الأخ الأكبر إلى صديقه ورائده ميلان يسأله عن الطريق الذى يجب تمهيده أمام أخيه الصغير الذى لم تعد إمكانيات مدينة جرونوبل تدخر ما يصلح له من غذاء علمى .. فرد عليه مدير « المخزن الإنسيكلوبيدى » أن أمامه إمكانيتين إما دخول الكولاج دوفرانس ليتلمذ على سيلفاستر دوساسى أو جامعة جوتينجان .

سينتهز چاك - جوزيف أول فرصة لتمكين أخيه من الإقامة فى باريس . فالصدقة التى يكنها له فورييه وأصدقائه فى جرونوبل وتلك التى تربطه بميلان فى باريس وإنتخابه عضواً فى أكاديمية العلوم والفنون بجرنونوبل ، كل ذلك أعطى ثقلاً لمحاولاته خاصة وأن چان فرنسوا دعى وهو مازال فى الخامسة عشر والنصف من العمر فى ٢٧ مايو ١٨٠٧ ليعرض أمام هذه المؤسسة ذات السمعة الرفيعة « ملاحظاته على قصص العمالقة طبقا لأصول الأسماء العبرية » .

سافر چاك - جوزيف شامبوليون فيچاك إلى باريس في أغسطس وسبقى بها حتى سبتمبر ١٨٠٦ ولم تزل تدور في رأسه توصلات أخيه المكتوبة والتي كررها له شخصيا عند لقائهما عدة مرات بأن يخرج من هذه « الإقامة الجهنمية » في الليسيه الإمبراطورى .. وجاءت حادثة « فانجيهيس » لتحرك السلاح داخل الجرح فتعمقه . كان النجاح الذى أدركه فى شرحه للتوراه بالعبرية أمام المحافظ وأبرز المواهب التى تم إكتشافها لدى جان - فرنسوا .. حافظ الأخ الكبير ليبدأ حملته .

راح مزوداً بخطاب توصية من جوزيف فورييه للقاء أنطوان فوركرو المدير العام للتعليم العام فى شهر سبتمبر وطالبه بإدخال أخيه إحدى المؤسسات التعليمية العليا المتخصصة فى اللغات الشرقية وإن أمكن فى المكتبة الإمبراطورية .

لدينا عن نجاح هذه المهمة .. ولو جزئياً .. شهادتان الأولى من فوركرو إلى فورييه عبارة عن مذكرة مؤرخة ٣ أكتوبر ١٨٠٦ تعرب فيها الشخصية الهامة عن نيتها « إيجاد مكان لهذا الشاب المثير للانتباه يتناسب ومعلوماته » ... والأخرى خطاب من چاك - جوزيف لأخيه مؤرخ فى باريس ، ٢٢ سبتمبر ١٨٠٦ ، ويعد بمثابة وصف شيق للعلاقات التى تربط الشقيقين :

« ... يسعدنى أن أراك مستمرا فى ترجمة سفر « أشعيا » وكذلك « الخروج » ، إن أنت أتقنتهما فلا بد وأن تكون مقبولة وستكون مثل هدية تعطيها لى .. إنى أرجو أن تسعدك هديتى التى أحضرها لك بنفس المقدار إلا أننى غير متأكد من أنك قد تجد أحد الجوانب السيئة [...] ولعل أول هذه الجوانب سيكون مؤلماً لك لو كنت أقل تعقلاً ولو أنك لم تعرف كيف تتحمل المضايقة لفترة أمام موضوع بهذه الأهمية لمستقبلك كله ، ثم تتمتع بعد ذلك بسعادة ممتدة .. وذلك بأن تطيع بل بأن تستمع لنصائح موظف كبير سيفعل الكثير من أجلك : هذه الشخصية الكبيرة هو مسيو فوركرو . أما المضايقة فهى فترة قصيرة من البقاء فى مدرستك أما السعادة فستعطيها لكل المكتبة الإمبراطورية . سأقص لك بالتفصيل مايتعلق بك لكن يجب أن تشعر بلزوم أن تعرف كيف تكتب وكيف تتحدث قبل أن تنتهى من تعليمك - كما يتحتم أيضا الإلمام ببعض الرياضيات . لماذا تعرض نفسك للخطر بأن تذهب فى طريقك دون زاد ؟! كن مطمئناً فأنا أقف فى الخطوط الأولى من أجلك وأرجو أن أثبت لك مقدار إهتمامى بك . أملى أن تستجيب لذلك : فهذا هو الطريق الأسلم لاستحقاق كل الحب الذى أكنه لك . » (13)

منذ ذلك الحين لم يعد ممكنا لجان - فرنسوا أن يكتم سعادته . لم ينجح في أن يترك اليسييه ابتداء من ذلك الصيف .. « الجانب السيئ لهديه » چاك - جوزيف أو « هذه المضايقة » هي وجوب أن يستمر في الدراسة لعام ثالث تحت السلطة « السمحة » للأب جاتال و (القاسية) للسيد فاجيه . ولكنه سيجد هذه السنة الدراسية منذ الآن « أقصر » طولا .

منذ ذلك الحين كان قد تحرر من الإقامة الداخلية في المدرسة . وهذا يفسر عدم وجود خطابات يتحدث فيها عن اللغة القبطية التي عرفه بها دوم رافائيل - أصبح يعيش في مجال مختلف : قد تلحظ هنا وهناك شيئا من نفاذ الصبر في خطابه ولكن الاتجاه السائد هو الأمل :

« ... جعلتني ألح إمكانية إخراجي من اليسييه ... وجعلتني أعتقد أنك تسعى لإدخالى كلية تدرس فيها اليونانية والعبرية والعربية والكالديه والسيريانية [...] إن إنخراطي في المدرسة الخاصة باللغات الشرقية سيتيح لى أن أقبل في المكتبة الإمبراطورية * .
لن تكون تلك هي أقل ميزة لمكانى هذا . إذ سأتمكن من التفرغ التام لدراسة العربية والسيريانية والعبرية والكالديه والفارسية » .

هل ستتكرر قصة بييريت وجرة اللبن ؟ لم تكن المشاكل كلها قد حلت بعد وإن يحل شيئا بالكامل أبداً . وإذ ذلك وأصل چاك - جوزيف جهوده .. ففي مايو ١٨٠٧ كتب لفوركرها خطاباً يذكره فيه بلقاءهما في سبتمبر ١٨٠٦ وبالمذكورة التي أرسلها مدير التعليم العام إلى محافظ الإيران مؤكداً فيها على التقدم الذى أحرزه أخوه في دراساته ومشيراً إلى التقارير التي قدمها عن أعماله لأساتذته مثل نوساس ولانجلاس - ثم طالب له « بعمل ما في المكتبة الإمبراطورية سواء في قسم المخطوطات أو في مكتب الانتيكات ** حتى يتاح للشباب فرصة حضور محاضرات المدرسة الخاصة (باللغات الشرقية) والحكومة أن « تشكل مواطناً نافعا » . نافعا ١١؟ بكل تأكيد . والأكثر من ذلك والأهم أنه مبكر النضج . في الأول من سبتمبر ١٨٠٧ وهو لم يزل في

* الواقع هو أن العكس هو الصحيح لأن مدرسة اللغات الشرقية تتبع المكتبة وسرى فيما بعد أنه لا يوجد علاقة تلقائية بينهما .
** الذى يرأسه ميلان .

السادسة عشرة وتسعة شهور من العمر سيقدم جان - فرنسوا شامبوليون « بحثه الوصف الجغرافي لمصر قبل غزو قمبريز لها » إلى أكاديمية الفنون والآداب لمدينة جرونوبل .. وقرأ هذا المراهق الصغير أمام هذا الحشد من كل علماء جرونوبل ومقاطعة الدوفينية وشعرائهما مقدمة بحثه وتعليقه على خريطة لوادي النيل مبين عليها الأسماء التقريبية للتومات (المحافظات) التي رسمها كتبة فرعون .

قد تكون الفرصة التي أتاحت للشباب مدينة بالكثير لحماية فورييه له واتحركات شامبوليون - فيچاك ، إلا أن العرض لاقى نجاحاً مدهشاً حتى أن الطبيب هنري جانين جد ستانداال المحبوب يادر إزاء هذا النجاح بأن عرض على زملائه قبول تلميذ الليسيه - عضواً منتسباً للأكاديمية .

بعد ستة شهور على أثر التصويت الذي جرى على هذا الاقتراح كتب شارل رينولدون عمدة جرونوبل يعلن للفائز بقوله في الأكاديمية ومعلقاً على ذلك بقوله « بقبولكم عضواً على الرغم من جدائة سنكم اعتمدت الأكاديمية على : ما قمتم به وتعتمد أكثر على ما يمكن أن تؤدونه ، وهي تود أن تعتقد أنكم ستثبتون صحة الآمال التي عقدتها عليكم وإذا جاء يوم تكون أعمالكم قد صنعت لكم فيه اسماً ستذكرون عندئذ أنكم حصلتم منها على أول تشجيع » .

كان رد فعل جان فرنسوا - وكان قد هجر مقاطعة الدوفينية غاية من الرقة : إذ كتب چاك چوزيف يقول « إن قبولي في أكاديمية جرونوبل أسعدني كثيراً .. إن أكثر ما يثير زهوى في ذلك هو أنني أصبحت أكثر من ذي قبل شقيقك . »

عضو أكاديمية أم تلميذ ؟ اعتباراً من ٣١ أغسطس ١٨٠٧ لم يعد الأخ الأصغر تابعاً للنظام الذي جعله ينفر من المدرسة الكائنة بشارع نوف ، ومع ذلك فلإن الليسيه المكروه والذي عاش فيه بانسا لم يدعه نون أن يمنحه « شهادة دراسة وحسن سير وسلوك » مثيرة لغيرة أقرانه على الرغم من عدم حصوله على أى جائزة :

« نحن أستاذ الدراسة في ليسييه جرونوبل ومفتشه

نشهد بأن الشاب جان - فرنسوا شامبوليون - البالغ من العمر ١٦ عاماً المواد في فيچاك - اللوت - درس في الليسيه لمدة ثلاث سنوات : السنة الرابعة والثالثة

والثانية فى صف : اللغة اللاتينية والسنة السادسة والخامسة والرابعة فى صف الرياضيات
إن اجتهاده فى العمل وطاعته للأوامر* والتقدم الذى أحرزه استحقت المديح .

« حررت فى جرونوبل فى ٥ سبتمبر ١٨٠٧

« المدير : جاثال

« مفتش الدراسة : فاجيه »

قبل أن يسافر لباريس لا لاقتحامها بل من أجل الرموز التى تستحوذ على
مفاتيحها سيجد من يديه إلى أن الحياة تجرى أيضا خارج الكتب وأن التجارب تحدث
على هامش النصوص والسعادة تجى فيما هو وراء الاكتشافات الفكرية . فى أول أيام
عام ١٨٠٧ وهى السنة التى عرفت فيها الإمبراطورية النابوليونية قمة مجدها (وهى
الإمبراطورية التى كان ينظر إليها نظرة غير متحمسة بل بشئ من السخرية) لم ينظر
إلى عاصمتها من تلك الزاوية وإنما أعتبر باريس جنة الحياة الفكرية التى كانت فى
ذلك الوقت . وقد كتب لأخيه عن ذلك رسالة تستدعى نقلها . فهى فى مبالغاتها المراهقة
تكشف بعض ملامح شخصيته وهى فى مرحلة فرض ذاتها توضح ليس فقط إمتلاك
مصر الكامل لكيانه كله ولكن تبرز أيضا بداية حرية التعبير عن رأيه بالنسبة لأخيه
الذى تحكم فى حياته حتى ذلك الوقت والذى سيرى أخاه - وقد تخلص من لفافاته
الطفولية - يوجه له بعض التنبيهات .

النص هو عبارة عن قصيدة طويلة من عدة صفحات تصف رؤيا جان - فرنسوا .
لأحد الملائكة يقوده بين حضارات الماضى وفيها تحية كلها ولع موجهة لمن يحب :
« شاهدت مصر القديمة ومعابدها المهجورة هى كالمصاغ يزوين سهولها المحرقة ...

هنا تتحول القصيدة إلى ابتهاال :

« ياسيد الكون ، أنت يا إلهى ، أنت يا أبى [...]»

إصغ إلى وأسمع صوتى ا واستجب لى

نال أذى - وأنت العارف - منذ نعومة أظافرى

على حقوق مقدسة تستوجب عرفانى بجميله ،

علمنى أن أسير فى طريق الفضيلة

« مبالغة اللغة الرسمية هنا تتخطى كل الحدود المعقولة .

أن أنزع من قلبي خمائر الشر .
البريق الزائف للذهب والثراء الكاذب
لايستطيعان بث السعادة في مستقبله ،
هى ثروات مسمومة تجلب إليه التعاسة
وبدلاً من جلبها السعادة لقلبه ستدمرها فيه [...]]
اجعل في قلبه حباً يسعده يضىء عليه محاسنه [...]]
أوه ! اجعل من نجاحاتي تحقيقات لآماله
وأن أكون صالحاً وأن يلحظ ذلك !
اجعل منى قادراً أن أثبت له حبي
بأن أتمكن في النهاية من تخفيف عبء شيخوخته .

يبدو أن هذا الدعاء كان يشير إلى مشروع « زواج ثرى » كان چاك - چوزيف
ينوى عقده (« بريق الذهب الزائف ») الأخ الأكبر الذى تزوج بعد ذلك بقليل من
« زويه برياً » هل كان ينوى قبلها أن يعقد على أخرى أكثر ثراءً ؟ تنبيه الصغير له
اللافت للنظر لا من حيث الأسلوب ولكن من حيث الجسارة التى يكشف عنها تجاه
أخيه صاحب القدرة الكاملة عليه .

هل كانت هذه هى طريقته فى « قتل الأب ؟ » إن الترتيل باسم مصر وتحرر
الشخصية يتزامن أو يتقابلان فى جميع الأحوال فى هذا النص الساذج والبلغ فى
الوقت نفسه .

بعد ستة شهور امتنع چان - فرنسوا شامبوليون من توجيه أى نقد لأخيه : لأن
زواج چاك - چوزيف من زويه بيرياً فى الأول من يوليو ١٨٠٧ قد سره للغاية على
ما يبدو . تدل على ذلك قصيدة كتبها فى الأول من يناير من السنة التالية فى هيئة
قصيدة مدح عربية فارسية تعتبر فى الواقع أغنية زفاف . والحقيقة يجب أن يقال إن
صاحبنا كانت له هذه المرة أسباب شخصية تجعله لايعترض على مشروع چاك -
چوزيف : لقد وقع فى حب أخت زويه بيرياً .

كانت پولين تكبره بست سنوات ؟ لكن هل يمكن أن تحسب الأمور على هذا النحو
فى سن السادسة عشر ؟ إحتفظ بسره لأشهر طويلة سواء بالنسبة لأخيه أو لزوجته
أخيه . لم يجرؤ على كشف مكنون قلبه سوى بعد أسابيع عديدة من سفره إلى باريس
دون أن نعرف إن كان قد تكلم بصراحة فى ذلك مع پولين وهل نتج عن هذه المشاعر
شئ آخر غير حلم أفلاطونى : كتب لأخيه يقول :

«... قررت أخيراً أن أفتح لك ولزوييه قلبي . سامحني إن كنت أخفيت عنك ولهذه الفترة الطويلة شيئاً هاماً كهذا بالنسبة لسعادتي وهو أحد أسباب التعاسة التي رأيته عليها والتي أملك . ولم يكن وراء تأخري في الإفصاح عن ذلك عدم الثقة - فأنا أعرف أنني سأجد فيك دائماً أخاً متفهماً ومشاركاً لمشاعري ومهما بسعادتي ... »

تناول چاك جوزيف الأمر كرجل خابر الحياة دون أن يؤدي دور الأخ العنيف . ولم يأخذ على أخيه سوى أنه باح بسرته لقريبته سيزارين شابار . إذ أن حبيبها ادعى أنه أراد أن يتوسط له لدى بولين :

« لو أنك تفضلت بالحديث معي قبل ذلك عن هذا السر لكنت تخلصت مبكراً من عبئٍ ثقيل . ولكني أشعر أن مثل هذه الاعترافات يمكن أن تحذر أكثر من أن تفسر . إن مشاعرك نحو بولين هي مشاعر طبيعية للغاية . إلا أنه يتعين عليّ أن أقول لك إنك أخطأت عندما راسلت سيزارين في هذا الشأن ، لمثل هذه المواضيع على الدوام جانب سيء في نظر غير المشاركين فيها بشكل مباشر [...] لقد غضبت بولين جداً وبالتالي شاركت سيزارين في السخرية من خطابك ومن مشاعرك [...] يستوجب الأمر بعض الحرص إلى أن نتخلص منها دون ضجة . ستحصل على نصائحي إن أنت طلبتها ولايسعني إلا أن أكرر نصيحتي لك بأن تكون حريصاً » .

في المجموع ، يبدو أن الموضوع أخذ بحرص أكثر من أن يكون تسبب في غضب أحد وأن الأخ وزوجته نظراً إلى حبه هذا نظرة لاتخلو من القبول . أما فيما يتعلق ببولين فلايعرف أحد الآن ماذا كانت مشاعرها على وجه اليقين . هل إستمرت في «ضحكها» على الخطاب الذي وجه لسيزارين أم على مشاعر المراهق ؟ لا يوجد مستند واحد يعطى رداً صريحاً على هذا التساؤل . إلا أننا سنجد في مراسلات چان - فرنسوا المثالية عدداً من الإشارات الطيبة نحو بولين حتى شهر نوفمبر ١٨٠٨ كما سنرى أن باريس أتاحت لصديقنا الشاب فرصة واحدة على الأقل لكي ينسى ضحكة أول امرأة أحبها .

في غضون ذلك وقع في حياة الشقيقتين شامبوليون في يونيو ١٨٠٧ الحدث الذي يعكس صفو حياة الرجال جميعاً على وجه تقريب : ألا وهو وفاة الأم . أرشيف مدينة فيچاك مازال يحتفظ بشهادة وفاة : « السيدة فرنسوا جاليو ،

زوجة السيد / چاك شامبوليون تاجر كتب عمرها ثلاثة وستون عاماً توفيت فى ١٩ يونيو ١٨٠٧ فى الساعة السادسة مساءً تقريباً فى دارها الكائن بجوار الميدان العالى ... * » .

لا يوجد مستند واحد آخر - خطاباً كان أو تعليقاً - ليحدثنا عن هذه الوفاة - فيما عدا المواجهات التى دارت فيما بعد بين چاك صاحب المكتبة وأبنائه . ولا كلمة واحدة فيما نعرفه من المراسلات الحية والثرية المتبادلة بين الشقيقين . يُوجد دون أى شك سر للام فيما يخص چان - فرنسوا على الأقل . كل شئٍ حول هذا الموضوع ينم عن الفراغ . كان لابد لغياب كهذا أن يكون له تأثير على ولد حساس ومندفع ويصعب إرضاءه مثله . أن يكون چاك - جوزيف قد حل تماماً مكان الأب المهمل أو الهوائى فذلك شئٌ مؤكد . ولكن من هى السيدة التى حلت مكان الأم غير الحاضرة أصلاً والتى لم يترك موتها سوى آثارٍ قليلة للغاية ؟

يوجد درب أمام الباحث ما أن يسلكه ألا ويجده حارة مسدودة . فى ٣١ ديسمبر ١٨١٦ إضطر الأخ الأصغر أن يقيم فى فيچاك فكتب إلى صديقه فى جرونوبل أوجوستان تافنيه يلومه على صمته :

« لا يوجد دعاء لم أرفعه ضدك ولولا أمى الحبيبة والحنونة فى فيچاك ... لما عرفت إلى أى مدى كنت سادفغ غضبى منك . إلا أنها دافعت عنك فاضطرتت مثل أى ابن مطيع يحترم أهله أن أضع حداً لمشاريع الانتقام منك تعبيراً عن تقديرى للحماسة التى دافعت بها عنك ... » (14) .

« أمى الحنونة » و « الابن المطيع والمحب » ... تسع سنوات بعد وفاة فرنسواز چاليو ؟ ... وبعد ذلك بعدة سنوات قبيل وفاته مرَّ على فيچاك فى محاولة لاستعادة صحته التى تأثرت كثيراً بالسفر إلى مصر تحدث عالمنا المكتشف عن شخص عزيز عليه ينتظره فى مقاطعة كارسى . من كانت هذه الشخصية ؟ سيكون هذه المرة أكثر تحديداً فهو يتحدث عن « مدام أديل » . هل كانت موضوع حب قديم أم هى « الأم الحنون » ؟ يتعثر البحث عن هذه النقطة التى سنعود إليها فيما بعد .

* تزوج چاك جوزيف من زويه بيريا بعد ثلاثة عشر يوماً : ورؤى عدم تأجيل الزواج .

قبل أن يتعدا عن بعضهما يصطحبه چاك - چوزيف إلى سوق الكتاب فى بوكار التى تلعب كما رأينا دورا هاما فى تاريخ هذه العائلة . فهل كان السبب فى ذلك أن يقابل چاك شامبوليون بعد موت زوجته (وهو لم يترك فرصة تمر دون أن يذهب إلى هذه السوق) ؟ أم كان ذلك من أجل الانتهاء من موضوع الميراث قبل زواج چاك - چوزيف من زوييه ؟ كل ذلك جائز والشئ المؤكد هو أن الأخوين قد أمضيا بعض الوقت فى مقاطعة بروفانس فى نهاية شهر يوليو ١٨٠٧ .

رحلة أخرى قبل الصعود إلى باريس : نظمها چاك - چوزيف لأخيه فى شهر أغسطس فى فالبونيه موطن العائلة الأصلى . هذه المرحلة فى مقاطعة أزان التى لم يكن چان - فرنسوا قد زارها أبداً ، أعجبتة وإن كانت مصادر السعادة التى وجدها فيها لم تترك كلها عنده نكرى طيبة ... فقد كتب بعد ذلك بخمس شهور لأخيه : « أشعر بالألم يزداد على فى الجانب الذى ألتنى فى فالبونيه بعد أن شربت من ماء الشلال أو لأنى تجولت كثيرا ذلك الصباح بصحبة مدموازيل أولامب فاقبييه . أبلغها تحياتى وأشياء كثيرة أخرى لها وشقيقها ... » .

حان وقت « الصعود » إلى باريس حيث سيصطحبه چاك - چوزيف ويؤمن له مسكن . ركب الشقيقان العربة العمومية المتجهة لليون ثم تلك المسماة « عربة البوربونيه » الموصلة لباريس بعد أقل من خمسين ساعة .

كان چان فرنسوا مايزال شابا مراهقا عمره ستة عشر عاما وتسعة شهور . قوى البنيان سريع الحركة تعوزه بعض الرشاقة إلا أن مصاحبة الشخصيات القريبة من چاك - چوزيف ثم أفراد عائلة بيرييا كانت قد بدأت تهذب هيئته وتحركاته . إلا أن ما لفت نظر جميع من قابلوه حينذاك هو لون بشرته السمراء لدرجة أن يوم زواج أخيه قالت له العروس التى كانت تحبه كثيراً وهى تضحك : أنه كان من الواجب عليه بهذه المناسبة أن يبيض بشرته قبل بدء الاحتفال . (15)

كان الجميع ينادونه حينذاك بـ « صغير » Séghir . ليؤكدوا على صغر سنه من ناحية وعلى لوعه بالشرق من ناحية أخرى . وهو إن كان قد أكد شخصيته بالنسبة لچاك - چوزيف فإن خطابهاته استمرت مطبوعة بالحب والامتنان الشديدين حتى وهى تحمل أحيانا آثار خلافات حتمية .

كان الذى يصدىم الآخرين أكثر من هيئته الشرقية مزاجه المتأجج الذى زاد حدة مع السن . الطفل المشاغب فى العاشرة أصبح فى السادسة عشر مراقباً تتسبب نداءات قلبه فى إثارة الفضائح ويتسامح أساتذته إزاء تصرفاته الطائشة ويبدو أن زملاءه كانوا يخشونه فيما عدا فانجيهيس وتيفنيه . ولكنه هو نفسه الذى طلب منه تشرىف مدرسته عن طريق فصاحته وعلمه عندما زارها المحافظ .

لقد رأيناه يميل للشعر دون أن تكون لعبقريته تأثير فى هذا المجال - سيستمر فى قرض الشعر معترفاً بأنه أكثر موهبة فى التقليد عن الشعر الغنائى ... أما أحاسيسه الجياشة فتؤكددها طلاقته فى الحديث (« وهى كسمة من سمات أهل الجنوب ») ستحملة إلى الجدل والهجاء ... وسيصبح خطيباً صعب المراس .

فى السن الذى بلغه هنرى بال (ستاندال) قبله بثمان سنوات وكان يقفز فيه نحو باريس كان هو لايزال الصغير المتهيج الذى يهرب من محبسه فى الدوفينييه ليقتم أبواب العاصمة .

٤ - بابل أو متاعب باريس

« عاصمة فرنسا القنرة » - مرض حب مصر ... - بولين ... مدام ميكران صاحبة المسكن -
إفلاس مزمن - لو كولاج فلو فرانس ومدرسة اللغات الشرقية - سيلفاستر نوساسي ،
الأستاذ والتلاميذ - چوسار داخو لجنته - نوم راقائيل والقسيس - الأدباء مصاصو
الدماء « - هل يجند في الجيش ؟ « كشفت معنى بداية البردية ... » - إطلاق
النار على علماء الآثار - « لا أحلم إلا باللغة القبطية » - باحث « سيكلوتيبي » -
لويز أو الوضع .

« مشارف باريس بدت لي قبيحة لدرجة روعتني لاتوجد بها جبال ... أشمئزاني
منها يزيد مع توالي الأيام [...] خيبة أمل في باريس زادت بعد أن إكتشفت عدم
جمالها ... وحل باريس وإنعدام الجبال وكذلك رؤيتي هذا الكم من الناس المشغولين
يمرون بسرعة داخل عرياتهم بجانبى : أنا الذى لايعرفه أحد والذى ليس لديه شئ
يفعله تسبب لي كل ذلك فى حزن عميق ... » (1) .

مرة أخرى تلجأ إلى ستاندال فهو أفضل مرشد يتيح لنا سبر أغوار شامبوليون ،
فقد سبقه على الدرب ذاته قبل سبعة أعوام وهو ابن الدوفينييه بالمولد وسبق إبنها
بالتبني فى الاشمئزاز من « عاصمة فرنسا القنرة » بالقدر نفسه تقريبا .

لن يتمكن صاحبانا القادمان من مناطق جبلية من التأقلم قط مع المستنقع
الباريسى وكلمة مستنقع هنا تؤخذ بمعنيها المباشر وغير المباشر ، كانت شخصية كل
منهما حادة ومتمردة على تكامل وخبث أهالى مناطق الأراضى المنبسطة باستثناء أهل
لومبارديا بالنسبة للأول وأهل وادى النيل للآخر .

وطأت أقدام « صغير » أرض باريس فى ١٣ سبتمبر ١٨٠٧ يقوده فى دهاليزها
چاك - جوزيف ... فى عشية ذلك اليوم كان محمد على باشا الكبير قد نجح فى دحر
الجيش الإنجليزى بقيادة الأدميرال فريزر فى الأسكندرية وأرغمه على الانسحاب
مؤكدأ بذلك بعث مصر السياسى الحديث ... ومحمد على سيؤدى دوراً أساسيا فى
إكتشافات چان - فرنسوا شامبوليون لأرض الفراعنة .

قبل ذلك بعدة أسابيع كان فرنسوا - رونييه دو شاتوبريان قد عاد لتوه من رحلة إلى الشرق وتحدى نابوليون تحدياً لم يسبق له مثيل وذلك في مقال شهير نشرته صحيفة « الماركور دو فرانسى » Mercur de France يستذكر فيه « صمت المذلة » . رحلة شاتوبريان إلى الشرق كانت قد أتاحت له فرص قياس عبقريته الشخصية بمقاييس عبقرية الفراعنة المشيدين للأعمال العظيمة . كان الفيكونت دو شاتوبريان شجاعاً ، ولكنه لم يكن من المتهورين : ولذلك فإن تعبيره الشجاع هذا كان بمثابة مؤشر رائد على بداية إنهيار نظام كان قد بلغ ذروة مجده ... وبذلك فإن شامبوليون الصغير قد افتتح المرحلة الجامعية لبحثه العظيم فى خريف ١٨٠٧ فى الوقت الذى أكدت فيه مصر بتألق مبهز عن بعثها الجديد وهو ماتزامن مع ظهور أولى مؤشرات اهتزاز عصر يدين فيه طبيعته الاستبدادية ونزعتة العسكرية المحمومة .

ورغم كل شئ كانت العاصمة الإمبراطورية التى إستقر فيها الشباب مركز العالم كله فى مجالات الفنون والآداب والعلوم : لأسباب عديدة منها السئ والجيد فريادة فن الرسم رفع رايته دافيد وبرودون وجرو ومن بعدهم أنجر وسيستمر ذلك لفترة من الزمن .

وكان لويجى شيروينى * قد أُلّف فيها أوبرا « ميديه » وقيطان دونون يجدد علم المتاحف ويضع فونتان تقيننا للجامعة .

أما لابلاس ومونج وكوفييه وسيلفاستر دو ساسى وشابتال وفورييه وبيروتولين ولانلد وجوفرواسانتيلار فكانوا يؤكفون دعائم الزعامة العلمية « للمعهد » L' institut . ولدرسة الهندسة (المتعددة الفروع التقنية) Polytechnique . ولتحف التاريخ الطبيعى والكولاچ دو فرانس . وعلاوة على كل ذلك وعلى الرغم من أن الشرطة الإمبراطورية أرغمت بعضهم على الإقامة خارج أسوارها فإن رجالاً ونساءً مثل شاتوبريان وچيومان دو ستال وبنجامان كوستان وديستوت دبو تراسى ويونالد كانوا يؤكفون بكل فخر مركزية باريس للغة الفرنسية وهى اللغة المهيمنة على العصر .

غير أن هيمنة باريس الثقافية فى عام ١٨٠٧ لم تكن أسسها جميعاً جذيرة بالاحترام مثل السرقة المنظمة - بل يمكن تسميتها نهبا علميا منظما ** يقوم به المنتصر على كل من إيطاليا وألمانيا ابتداءً من عام ١٧٩٦ ، وقد أدى ذلك إلى أنه جرى

* ابن الموسيقى سيصبح بعد ذلك من أقرب أصدقاء شامبوليون .

** قام مونج بدور كبير فى تلك العملية بعد أن كلفه بونابارت بتنظيم عمليات السطو فى إيطاليا وألمانيا وتولى قيطان دونون العملية من بعده .

«تصريف» ثروات فنية ومستندات تمثل ثروة لاتقدر بثمن نحو العاصمة الفرنسية كانت عبارة عن لوحات فنية وتماثيل وكتب فن ومخطوطات ومراسلات لم تنتشر . هكذا أصبح اللوفر والمكتبة الإمبراطورية ولفترة من الزمن * مغارات على بابا راح يرتع فيها علماء البحوث ودارسو الفن مزودين بوسائل عمل لم يسبق لها مثيل ، مما فتح لهم أبواباً على عالم لا نهائى من المتعة الفكرية . بالنسبة لهذه الأوساط ، لاندنم ولاوخز ضمير كان يؤرق هناء أحد منهم . غير أن نهابى الكنوز وجدوا من يرأسهم جميعاً على أرض مصر : والدليل على ذلك أن حجر رشيد لم يصل أبداً إلى اللوفر ولكن إلى «المتحف البريطانى » البريطانىث ميوزيوم فى لندن ...

إذا كان عصر الفتوحات فى إيطاليا ثم فى مصر بمثابة العصر الذهبى لضابط من الفرسان يبحث عن المجد فقد كان أيضاً عصراً ذهبياً بالنسبة للباحثين والفنانين الذين جعلوا من باريس مركزاً لأعمالهم . فقد أصبحت بارثينون تشيد وفتح أبوابه لكل من باحث عن المعرفة حتى لو لم يزيهه حجر رشيد .

فإذا كان أصغر أبناء جاك شامبوليون يعتقد أنه بخروجه من فيجاك ودخوله جرونوبل قد فتح لنفسه أبواب أثينا القديمة ماذا يقول لنفسه وهو يصعد من جرونوبل إلى باريس حيث حلت روما محل أسبارطة دون أن تفتقد أرسطو ..

كان الجيش - المسمى فيما بعد بالعظيم - مستهلكاً للرجال بشراهة تفوق بكثير شراهة المقصلة . وكان هذا ما يلح كثيراً على فكر جان - فرنسوا الذى لم يكن يهتم بتأتا بالذهاب للموت على ضفاف نهر الدنواب والإيبير من أجل رفعة مجد الإمبراطور غير أن قبضة نابوليون قد جعلت من باريس غرفة آلات لا نظير لها يحسن إستخدامها . المهندسون وعلماء الطبيعة وكذلك علماء اللغات والجراحون والمعماريون وفنانون المنمنمات . وإذا كان البعض لا يستسيغ طراز « الأمبير » فى الزخرفة والديكور ؛ لأنه خادع للنفس وينم عن حداثة النعمة ، كان شخصاً تسيطر عليه ذكريات الحملة على مصر . مثل جان - فرنسوا شامبوليون لم يكن فى مقدوره ألا يلتفت إلى كل ماكان من هذا الطراز . علاوة على ذلك فإن البلاط والمدينة والأوساط العلمية كانت تمتلئ بقدماء محاربي حملة عام ١٧٩٨ من بيريه إلى جونو ومن موينج إلى چومار ومن ثيفان لونون إلى بورين : دون أن ننسى تاليران صاحب فكرتها ومحركها . كانت مصر إذن تحوم فى مخيلات باريس ذلك العصر وحتى لو كان ذلك عبر طراز كاريكاتورى لها فإنه

* الكثير من هذه التحف تم استعادته بعد ١٨١٥ .

جعلها مجسدة فيها ومسيطرة عليها . عام ١٨٠٧ يعنى ثمان سنوات بعد عودة بونابارت من مصر وستاً بعد عودة العلماء والفنانين أعضاء « اللجنة » وخمساً بعد نشر كتاب فيثان دونون .

فى منفاه العاطفى الذى طال فى قلب العاصمة تشبع شامبوليون الصغير بذلك الجو العام على الرغم من كل ماكان يقول . فإن مصر التى ادعى أنه لايبحت عنها سوى فى المكتبات والمعاهد كانت تهاجمه من جميع الزوايا . وهكذا أصبحت باريس بالنسبة له ويخبث ممفيس أخرى .

لم يكن « صغير » مسحوراً بأبحاثه لدرجة إهمال ماكان فى إستطاعة باريس أن تهبه لفكر متفتح ومتطلع لمعرفة كل شئ . إلا أن مايسترعى الانتباه هو أن مراسلاته لأخيه الذى لا يخفى عنه شيئاً توضح إلى أى مدى كان يمتنع عن المشاركة فى « الحفل الإمبراطورى » إلا بقدر . فإذا حدث وأشار فى إحدى رسائله إلى أحد أعمال الأوبرا التى قدمت على شرف الإمبراطور والتى لم يحضرها فهو يوضح من جهة أخرى أنه إذا لم يكن يواظب على الذهاب إلى المسرح فالسبب هو ضيق ذات اليد وأن عليه الذهاب إلى المتحف لأن الجدول الزمنى الذى وضعه لنفسه ويراقب تنفيذه جاك - جوزيف ما لم يترك له مجالاً لذلك .

ولكن دعونا ندقق فى كل ذلك عن قرب .

كيف كان صاحبنا القادم من جرونوبل مقاطعة / كارسى / سيعيش عملية إعادة زرعه فى تربيته الجديدة هذه إذا لم يكن جاك - جوزيف الذى لا يكل ولا يتعب - قد أمضى معه الأسبوع الثالث من سبتمبر ١٨٠٧ الذى تلا وصولهما إلى باريس بعد عروج قصير على مدينة روان ؟؟ كان جان - فرنسوا سييلغ السابعة عشرة بعد ثلاث شهور ومازال خجله يشل تحركاته ويزيد من وطأة شعوره بأن ملابسه تجعل منه نموذجاً للتلميذ الريفى الذى يبدو أن أوساخ الطريق مازالت عالقة به . ومن ناحية أخيه كانت قصة حبه لهولين وعدم إفصاحه عن عواطفه ناحيتها حاجزاً سيبقى قائماً بينهما لعدة أسابيع . يفترض أن تلك الأيام كانت فترة إنبهار إلا أنه عاشها فى حالة من الاغتراب الموحش . كان يتصور نفسه وهو فى جرونوبل إله النار والحضارة المتمرده على زيوس ليعوض كونه تلميذاً متمرداً على قيود المدرسة التى ييغضها .. أما هنا فهو مثل ستانداال لايرى سوى أناس يمرون فى عجلة ولا يرونه لأنه لا يمثل لهم شيئاً . الحزن يمتلكه من البداية مثلما كان الحال بالنسبة لمن سبقه .

لم يدع له الوقت فرصة إدراك ذلك فى البداية بالطبع وكان أخوه مايزال بجانبه يعمل بجد على تنظيم أمور أخيه مع حرص فى النواحي المالية وإن وصف بعضهم هذا الحرص بأنه تقتير .. لأن المنحة الدراسية الحكومية التى حصل عليها فى مارس ١٨٠٤ لجمل المرحلة الثانوية ثم إختصار عامين منها قد أعيد جدولتها لتسمح بتعميق المعارف فى باريس .

كان چاك - جوزيف يأمل أن يحصل بمساعدة جوزيف فورييه وصديقه فوركرو المدير العام للتعليم العام ، على « علاوة » إغتراب تضع فى الاعتبار غلاء المعيشة فى العاصمة . ولكن نون جدوى . كما أنه حاول معتمداً كذلك على الأصدقاء أنفسهم أن يجد لأخيه وظيفة « مساعد أمين مكتبة » ولكن مساعيه لم تتجح فى هذا الاتجاه أيضا . ولا بد أن فورييه وفوركرو قد لاحظا أن أمناء المكتبات كانوا يفضلون أن يختاروا الموظفين الجدد من بينهم * .

فى ٦ ديسمبر ١٨٠٧ أبلغ الأخ الأصغر أخاه أن المدير العام للتعليم العام أعرب عن « خيبة أمله فى أن التعيين فى وظائف المكتبة الإمبراطورية » ليس من إختصاصه . وكان من المحتم إذن الاعتماد على منحة جرونوبل مضافا إليها الربع وجود به چاك - جوزيف من ماله الخاص .. وهكذا زادت أعباء الوصى بصعود أخيه إلى باريس وهو ما يبرر تشدده بالنظر إلى المسئوليات الواقعة على عاتقه هو فى جرونوبل . كان الأخ الأكبر يستخدم حجج الأب جرانديه ولكن فى سلوكه كان مثل الأب جوريو ** .

اعتقد چاك - جوزيف أن فى إمكانه أن يجعل أخاه يقيم مع صديقه ميلان ، ولكنه وجد له غرفة إيجارها ثمانية عشر فرنكا فى الشهر عند سيدة أسمها ميكران الكاتنة ٨ شارع إيشال سانتونوريه (اسم الشارع الآن هو الإيشال وهو موازى لشارع البراميد « الأهرام ») . كانت العلاقة بين الساكن وصاحبة المسكن متوترة فى أوقات كثيرة . كما توضح ذلك مراسلاته ، ولكن يجب أن نلاحظ فى هذا الصدد أن چان -

* كتب چاك باكيه فى مقال عن « الأخوان شامبوليون فى الوسط الجامعى الجرونوبلوازى » ، مؤكداً أنه وجد فى أرشيف مقاطعة إيزار مستنداً يدل على أن چان فرنسوا قد عين موظفاً خارج الكادر فى قطاع المخططات الشرقية فى مكتبة باريس على كشف وزارة الداخلية إلا أننا لم نستدل على هذا المستند كما أن چان فرنسوا لم يشر إلى ذلك قط فى مراسلاته .

** بطلا روايتى بلزاك « أوجينى جرانديه » و « الأب جوريو » . (المترجم)

فرنسوا كان يقيم فى حى راق بالنسبة لقروى شاب مفلس فهو على بعد خطوتين من قصر التويلورى .

أما بالنسبة للمآكل وأنوع من الرقابة الشاملة على سلوك وتصرفات چان - فرنسوا فى باريس فقد عهد چاك - چوزيف بمسئولياتها للزوجين فوجا Faujat * (وهما غير عائلة فوجا دوسان فون Fond - Faujas de Saint التى تتشابه أسماءهم وتختلف أوضاعهم والتى سيتكرر ذكر إسميهما فى مراسلات الأخوين) . الزوج فوجا دى سان فوين Faujas de Saint Fond كان عالم جيولوجيا من مقاطعة دوفينيه تتلمذ على بوفون - وكان ملحقا من جهة بمتحف التاريخ الطبيعى ومن جهة أخرى بوزارة الداخلية بسبب علاقته بصديقه دوكريه - وزير الداخلية - وهو سيؤدى دوراً نشطاً للغاية ومفيداً فى حياة مواطنيه العملية .

أما آل فوجا Faujat فكانوا قوماً بسطاء وكانت حالتهم المالية هى التى أجبرتهم على أن يقدموا لشامبوايون الصغير وجباته . وقد أثنى چان - فرنسوا كثيراً على حسن طويتهم بل وعلى سخاءهم أيضا . غير أن الوجبات عندهم كانت تستهدف فى الواقع إقامة الأود فقط . علماً بأن صحة مدام فوجا كانت ضعيفة ولذا كثيراً ماكان يكتفى بما يطهوه الزوج . وقد اضطرت هذا الوضع چان - فرنسوا أن يلجأ إلى مطبخ آخر بعد بضعة شهور : فقد إقترح عليه أخوه أن « يكتفى » بما يقدمه « الأخوة الريفيين » وثمان وجبة العشاء أربعون « سو » وهى وجبة جيدة جداً وثمان الغذاء عشرة « سو ... » إذن تكلفة غذاءه خمسون « سو » فى اليوم ، أى خمسة وسبعون فرنكا فى الشهر .

« معطياتى التقريبية هى كالتى : أولا ثلاثة وتسعون فرنكا للغرفة ولطعامى . من تسعة إلى عشرة فرنكات لغسيل الملابس ونثرىات أخرى ليصل المجموع إلى مائة وثلاثة فرنكات . حمامان بسعر ستة وثلاثون سولا أى ثلاثة فرنكات وأثنا عشر سول أى مائة وخمسة عشر فرنكا . الباقى تخصص لشراء الشموع والزيت والخطابات وللنزهة فى حدود المعقول . وهو مايجعل المطلوب لايتعدى مائة وثلاثين فرنكا .. وإن كان الأفضل هو مائة وأربعون فرنكا ، ولكن عندما يحين موعد إقتناء الأحذية و«البوتز» وتفصيل الملابس فسيتعين اللجوء حصافتك لكى لا تخصصها من مرتبى » .

* يقع كثير من المؤرخين فى هذا الخلط . (المترجم) .

« حصافة » چاك - جوزيف ستفعل مايمكن أن يفعل بقدر ماتسمح به ظروفه كعريس جديد غير ثرى ستنتظر زوجته أول أبناهما فى نوفمبر ١٨٠٧ - وسنرى أن الأخ الأكبر لن يتردد مع ذلك فى التشدد مع أخيه مما سيؤدى إلى حدوث خلافات بينهما سرعان ماتنتهى بالتعبير عن الاعتراف بالجميل وبعود الأخ الأصغر بأن يكون أكثر حرصاً . تشهد على ذلك رسالة مؤرخه فى ٢٢ ديسمبر ١٨٠٧ عشية إحتفال چان - فرنسوا بعيد ميلاده السابع عشر والتي تلخص جيداً هذا النوع من العلاقة .

« لو أنى علمت بأنى ساتسبب فى أقل إحراج لك لكنت فضلت أن أذهب أدفن نفسى إلى الأبد فى بلدتنا وأساعد أبى * على قدر الإمكان متخلياً إلى الأبد عن الأمل التى يحلم بها قلبى . هل تعتقد أنى أنسى للحظة واحدة مايفعله حيك لى ؟ هل تعتقد أنى دائماً ما أحفر فى أ عماق قلبى ما تكرمت به على والعناية الأبوية التى شملتتى بها ... ؟ خاصة وأن هذه العناية لن تكون بعد قليل من حقى وأن كائناً جيداً أقرب إليك منى سيطالبك بها قريباً ... لم يحدث أنى أنفقت أى مبلغ بدون داع ... على الأقل فى نظرى أنا » .

ومع ذلك فإن شامبوليون - فيچاك لا يدع نفسه يتأثر بمثل هذه الكلمات وسرعان ماتصل قائمة أسعار محددة إلى الأخ فى باريس ! « بالنسبة لبند المصاريف فهى كالاتى : السكن ٤٥٠ فرنكا فى العام وقد صرفت بالفعل ٢٠١ فرنك فى شهر واحد . وهو ماسيكلفنى ألفين من الجنيهات فى العام الواحد ! وأنت تعلم جيداً أن عبئاً كهذا سيقضى على تماماً وبعد أن أكون قد بعث مكتبتى (وهى تضحية لن أقوم بها سوى لك وحدك) فلن أتمكن من الحياة على هذا المنوال لعام واحد . وأتصور أنه ليس فى نيتك أن تحرمنى من الشئ الوحيد الذى يسعدنى وهو كتبى ** . ولكنك ستدفعنى إلى ذلك لو إنك لم تلجأ إلى الاقتصاد لكى تدعم كل ما أنوى عمله من أجلك . تريد أن تذهب إلى المسرح ؟ سيكون ذلك من الأعمال الضارة لأن أقل وصف لذلك هو أنه إنفاق غير ضرورى عليك إذن الامتناع التام عن كل مالم يدخله العقل فى بند الضروريات » .

* كلمات نادراً ما خطها قلمه وهى لذلك ملفتة للنظر . كان أخوه قد أفاد لتوه بأن زويه ننتظر مولوداً .
** بخط كبير وتحتها خط فى النص الأسمى .

تباً !! لأن « صغير » دفع أربعة فرنكات فى الشهر ثار چاك - جوزيف مرة أخرى بعد بضعة أيام : « نظف ملابسك بنفسك ، ورتب مبلغاً شهرياً لمنظف أحذية ليتولى تنظيفها لك فهذا أقل تكلفة .. إن بدأ تكلف ثمانية وأربعين فرنكا فى العام لتنظيف الملابس بفرشاة وتلميع الأحذية يعتبر شططا لا لزوم له . لا أريد أن أسمع مثل هذا الكلام بعد ذلك ... » سينصاع « صغير » لهذا الأمر بالطبع .

قد تبدو توبيخات فيچاك نوعاً من البخل الزائد على الرغم من أنه يعد أخاه فى الخطاب ذاته بأن مصالهما لن تنفصل فى يوم من الأيام « حتى لو جاء عشرون « عليا » * الواحد تلو الآخر أو حتى لوجاعوا جميعا مرة واحدة » . ولكن على الرغم من صغر القيمة الظاهرية للمبالغ التى ذكرها الأخ الأصغر فمن الواجب أن نقدرها فى مع الأخذ فى الاعتبار مقاييس تلك الفترة . فقد لاحظنا أن الغرفة المؤجرة تقع فى حى سكنى راقٍ « وأن « الأخوة القرويين الذى يتعين عليه أن يكتفى به « هو من المطاعم الجيدة . إن مرتب ألف وأربعمائة فرنك فى العام كان يعادل مرتب موظف حكومى متوسط . الواقع إذن أن صديقنا الشاب كان يشعر بقلّة الموارد لأنه لم يكن يدير شئونه جيداً .

سوف نعود إلى الحديث عن تلك المشاكل التى ستترك أثرها على مزاج وصحة الشاب إن لم تؤثر على شخصيته وهو يعيش فى حالة قحط دائم . كان يشعر عندما كان فى الليسيه أنه قريب من ولى أمره .. ولكن هنا فى المدينة الكبيرة فإن القلق النسبى على الأشياء المادية يزيد من وطأة الوحدة .

فى ١٦ أكتوبر أى بعد أكثر من شهر من وصوله كتب إلى چاك - جوزيف هذه السطور الكاشفة :

« إنى وحيد ! وعلى الرغم من وجودى وسط أشخاص صحبتهم مريحة وأشياء تنسق وذوقى فإنى أشعر وأنا فى هذا الوضع بفرغ رهيب . لاشئ يشغل بالى وأفكارى سوى الدراسة والعمل ... »

« الدراسة والعمل » ؟ كان قد عرف لتوه أن المحاضرات فى الكولاج دو فرانس لن تبدأ سوى فى نوفمبر وفى « المدرسة الخاصة » فى ديسمبر فهو يعمل ويعيش إذن وحيداً فيما عدا تلقيه بعض الزيارات . ومن هنا جاءت حالة الحزن التى انتبته .

* كان اسم « على » هو الذى إتفق عليه الشقيقان لتسمية الطفل المنتظر .. انظر ماسياتى ذكره فيما بعد .

فبعد ذلك بثمانية أيام فقط عاودته حالة الحزن :

« أخى العزيز جداً ، لم يصلنى منك سوى خطاب واحد منذ أن تركتتى . فلم تكتب لى من مدينة ليون ولا حتى من جرونوبل [...] إنى فى حالة من الضيق والمزاج السيء لدرجة أنى أبكى مثل طفل صغير [...] إنك تعلم أن الخطابات تخفف كثيراً عن النفس عندما تكون بعيدين عن الأشخاص الذين نحبهم » .

وفى ٢٧ أكتوبر * وبعد أن عاود الحديث بإيجاز عن علاقته ببولين وبعد أن طمأن أخواه على أنه يقوم « بتبويض » بحثه المقدم إلى أكاديمية جرونوبل عن مصر عاد إلى نغمة وحدته الحزينة : « لم أكن قد أبتعدت عنك أبداً وها أنا أعيش وحيداً [...] إن الضيق والغثيان يثقلان على [...] وعلى الأخص عندما أكون وحيداً فى منزلى يلاً [...] تهاجمنى الأفكار السوداء » .

فى ١٦ نوفمبر تكاد تكون أمام « آلام الشاب فارتار » لو لم تكن « شارلوت » فى هذه الحالة فى طريقها إلى النسيان .. فقد أنهى خطابه إلى أخيه بأن رجاءه أن يبلغ بولين « أسفه لما تسببه لها من آلام عظيمة » بعد ذلك ببضعة أيام أفاده أخوه الكبير بشئ من التهكم أن خطابه الأخير إلى سيزارين - وهى كاتمة أسرار حبه لبولين - « قد صودر فى الجمارك التى أديرها أنا ** وتم حرقه » .. وكان الرد هو شكر الصغير للكبير على لجهته إلى هذه الوسيلة الحاسمة ... لقد تنازل إذن عن عواطفه . وسيتحول حبه لإخت زوييه - امرأة أخيه - إلى صداقة ، وهكذا ستنتفى جنوة حبه الجارف الأول وهو الذى عرفناه فى ظروف أخرى أكثر جسارة واندفاعاً ... ولكن فيما عدا ذلك فإن المزج السوداوى يبقى سائداً وملحاً :

« أخى العزيز جداً مرت ثمانية أيام دون أن تصلنى منك أية أخبار ولا أية خطابات من أى كان . إنى أتالم من فكرة أن تكون مريضاً أو يكون قد حدث لك مكروه [...] يزداد الضيق فى نفسى يتضاعف من يوم لآخر وأفقد عقلى فى بعض الأوقات خاصة منذ أن توقفت أنت وزوييه والجميع عن مراسلتى ... »

* تاريخ تقريبي .

** الإشارة الوحيدة للمتاحة لنا عن هذه الوظيفة الهامة أو لعل فيجارك أراد هنا أن يتفاخر أمام أخيه الأصغر .

ولكن هل كان جان - فرنسوا فى باريس لكى ينتظر خطابات من زوييه أو لكى يقيس أثر الاغتراب على النفس ؟ بل هو هنا ليعمق دراساته للغات الشرقية التى سنقوده بعد مقارنتها ببعضها أو تركيبها مع بعض أو مقابلتها إلى الكشف عن أسرار الكتابة المقدسة التى تعبر بها هذه الحضارة الفرعونية عن نفسها وهى التى تملك منه تماماً .

فى هذا الإطار كانت هناك أربع مؤسسات وبعض الرجال جعلوا من باريس الواحة التى يحلم بمائها كل عابر للصحراء . هؤلاء الرجال هم على وجه التحديد سليفاستر دو ساسى وبروسبار أودران ولوى لانجلاس ودوم رافائيل دو موناشيس وأوبان ميلان وسونيى وثولنى والأب دو تيرسان وجومار ولانكرون وبعض الآخرين ، منهم قس يدعى دو سان روش . أما المؤسسات فهى الكولاج دو فرانس والمدرسة الخاصة للغات الشرقية والمكتبة الإمبراطورية ولجنة « مصر » .

الكولاج دو فرانس الذى أسسه قبل ذلك بمائتين وسبعين عاماً الملك فرنسوا الأول تحت اسم « كولاج اللغات الثلاث » لكى يواجه بها سيطرة أهل الكنيسة المتعلمين والتعاليم النوجماتية الجامدة التى تقدمها جامعة السوربون وسطوة اللغة اللاتينية السائدة دائماً ، ظلت مركزاً للتعدد الثقافى والحرية الفكرية لدرجة أن نابوليون فكر يوماً فى أن يغلق أبوابها .

فى عام ١٨٠٧ كان هناك فى مجال « الشرقيات » عدد من الأساتذة ينشرون معارفهم التى لا تكاد تداينها معارف أخرى فى ذلك العصر : سليفاستر دو ساسى فى اللغة العربية (بالتبادل وكوسان) واللغة الفارسية . بروسبار أو بران بالنسبة للغة العبرية . لوس لانجلاس * بالنسبة للغات آسيا القريبة والوسطى . كان مقر الكولاج دى فرانس يقع بالقرب من السوربون فى ميدان كامبريه . أى أنه كان يبعد قليلاً عن مقر إقامة جان - فرنسوا بالقرب من اللوفر . إلا أنه كان يتردد عليه يوماً لكى يستمع إلى تعاليم هؤلاء الأساتذة الثلاثة الذين أحسنوا استقباله فى البداية حتى أو بروسبار أودران كان يكن له عطفًا خاصاً .

ولكن بالنسبة للنقطة التى وصل إليها « صغير » فى بحثه فإن مركز دراساته كان فى « المدرسة الخاصة » وهو الاسم الذى كان يطلق فى ذلك الوقت على مدرسة اللغات

* سيعاد النظر فى قدراته العلمية بعد ذلك .

الشرقية . تأسست هذه المدرسة فى عام ١٧٩٥ (١٠ جيرمينال عام ٣) بقرار أصدره لاكانال بايعاز من فانتور دو بارادى وهو الذى أصبح بعد ثلاث سنوات من هذا التاريخ أول مترجمى بوناپارت فى مصر قبل أن يلقى حتفه خلال حصار عكا - كما أوصى أيضا بإنشائها فؤانى الذى كان قد نشر - بعد عودته من زيارة لبلاد المشرق * - دراسة تحت عنوان « حول تبسيط اللغات الشرقية » وقد إحتلت المدرسة مقراً متاخماً للمكتبة الوطنية بشارع « نوڤ - دى - بتى - شان » .

ومثلها مثل الكولاج دوفرانس فإن المحاضرات التى تلقى بها مجانية وعامة . ولم تكن تعطى أية شهادات علمية فى نهاية العام ولكنها كانت تمنح شهادة بالمواظبة على الحضور . اللغات التى كانت تدرس بها هى العربية والتركية والفارسية . كان يتولى كرسى اللغة العربية الذى أنشأه دو ساسى فى عام ١٨٠٣ دوام رافائيل « موناشيس (الذى سبق أن أنتقينا به) . أما كرسى اللغة التركية فكان يشغله أميدية جوبار الذى كان يعمل مساعداً لفانتور دوپارادى فى مصر ثم أخذ مكانه فى تدريس هذه اللغة بعد وفاته . أما لانجلاس فقد كان يجمع تدريس اللغة الفارسية إلى جانب إدارة للمدرسة . بالمقارنة بما يدرس فى الكولاج دو فرانس كان التدريس فى المدرسة الشرقية يصبو إلى أن يكون أكثر موضوعية أى أقرب إلى الحياة العملية .

كانت المكتبة الإمبراطورية مصدراً دائماً للإبهار بالنسبة لمرتاديها مثل الأخوان شامبوليون . كل مخطوط تم تسجيله فى أى من جامعات القارة الأوروبية كان له نظير فى هذه المكتبة أو على الأقل فى هيئة صورة طبق الأصل له : فى فيينا وتوبنجان وبرلين وتورينو وبيننا بيزا كل شئ هناك تم جمعه ونسخه ثم أن مدير المكتبة لم يكن من المقرين المستحويين على كنوزهم .

فى فرع الآثار كان شامبوليون الصغير يراجع المسئول عنه أويان ميلان وهو بئر من المعرفة لاتنضب . وعلى الرغم من تحفظات جان - فرنسوا على القيمة العلمية البحتة لأستاذه فقد كان يستفاد إلى أقصى حد منه فى تعميق مداركه فى علم النُمية (علم دراسة النقود والميداليات ...) وهو العلم الذى أشركه باستمرار فى أبحاثه اللغوية ودراسة المباني الأثرية .

* راجع المقدمة .

كان ميلان كذلك سعيداً بتلميذه وكتب إلى شامبوليون فيچاك يقول : « كثيراً ما يحضر السيد أخوك للعمل عندي وهو يراجع بعناية مختلف الكتب المتعلقة بمصر . إنه يدرس ويعتني بعمله بشكل مفيد . كما أن السيدين لانجلاس وساس سعيدان به جداً » .

أما « لجنة مصر » فإنها تختلف عن هاتين المؤسستين في أنها كانت مؤقتة . فقد نبعت من المؤسسة العلمية التي أنشئت في القاهرة عام ١٧٩٩ وهي تباشر عملية إصدار كتاب « وصف مصر » وهو الهدف الذي حدده بوضوح شديد الجنرال القائد الذي أصبح الآن الإمبراطور المتوج . سوف يصدر أول جزء من هذا العمل الضخم في عام ١٨٠٩ قبل مقدمته التي كتبها الأمين العام لمعهد القاهرة جوزيف فوربييه الذي عين فيما بعد محافظاً على مدينة جرونوبل .

أول من عينه على رأس هذه المؤسسة هو نيقولا كونتية ثم حل مكانه ميشال - أنج لانكريه * وتلاه عالم الجغرافيا آدم چومار وكان أقرب معاونيه چولدا وفيلار دوتيراج مكتشفاً رسم الأبراج الذي يزين أحد سقوف معبد دندره . ولنا أن نتصور إهتمام صديقنا الشاب القادم من جرونوبل بأعمال هذا الفريق حتى لو أثار ذلك إنتقاداته ثم سخريته . ** هذه المؤسسات المختلفة لم تكن تجمع سوى بعض الأساتذة والقليل من الطلبة : ويترتب على ذلك علاقات إنسانية شخصية جداً وعاطفية خاصة بالنسبة لمراهق مرهف الحس مثل چان - فرنسوا . كان « الكولاج » و« المدرسة الخاصة » و« المكتبة » في نظره رجالاً أصبح هو أحد أصدقائهم قبل أن تكون مؤسسات أو أحد أعدائهم مثلما حدث بالنسبة للانجلاس وچومار *** وكاترومار أو أحد التلاميذ المعجبين ولكن دون طاعة عمياء مثلما كان الحال بالنسبة لسيلفاستر دو ساسي . ولما كانت هذه الشخصيات قد أدت أدواراً نشطة جداً في تكوين شخصية عالمنا المكتشف فسيتعين دراسة العديد منهم بعناية .

كان إسحق سيلفاستر بارون دو ساسي في قمة المجد على الرغم من استقلاله الكبير عن السلطة الإمبراطورية ؛ إذ كان يعتبر مع مونج ولاپلاس مثالا للعالم الخالص . وكان ملكاً متوجاً على اللغويات الشرقية .. كان معتل الصحة منحى القامة دميماً

* توفي بعد ذلك بقليل .

** سيأتي توضيح ذلك فيما بعد .

*** سيأتي ذكر ذلك فيما أبعد من ذلك بكثير .

للغاية يقذف مستمعيه بنظرات ملتهبة وهو يتكلم بصوت غامض وكان يعد أستاذاً لامثيل له يعرف كيف يخضع معارفه الهائلة لمقتضيات الاتصال بتلاميذه كما لم يكن هناك من يبيزه في إظهار صلوات القرابة والتفاعل بين لغات الشرق .

إلا أنه يعد نموذجاً للمثقف والعالم خريج المكاتب : فهو لم يجرؤ على الذهاب إلى أبعد من مدينة جنوا في شمال إيطاليا ولم يذهب إليها إلا مضطراً لمراجعة أرشيفها . وقد رد على أحد دارسي اللغة العربية الأجنب الذي سألته عن إسم الشيخ الذي تتلمذ عليه قائلاً : « ليس في مقدوري متابعة أي محادثة باللغة العربية !! » ... ومع ذلك فقد كان يعرف كل شيء عن هذه اللغة التي لم يكن في مقدوره إستخدامها في التعبير وكان أستاذاً لشامبوايون . (كتب هذا الأخير عنه قائلاً « إنه من العلماء وعلاوة على ذلك فهو متواضع ») ثم أصبح أحد أكبر منتقدي مكتشف أَلغاز اللغة الهيروغليفية قبل أن يعود مرة ثالثة ليكون أكبر مادحيه * وأعلامهم صوتاً .

لانجلاس أيضاً لم يكن يهوى السفر وكان مع ذلك أكثر المستشرقين شهرة وعندما طلب منه مرافقة نابليون في رحلته إلى مصر لم يوافق . كان من الشخصيات المنفرة ومحترقاً للأخريين أحياناً (كتب عنه جان- فرنسوا لأخيه يقول « عندما أكون معه أكون مثل الآخرين : لا أحد ») وحاول لانجلاس أن يبعد الشاب عن مصر وإن يقنعه بأن يتخصص في دراسة لغات آسيا ، ولما لم ينجح في محاولاته أضمر له شعوراً من الكره المتزايد لدرجة أنه رفض إعطاءه شهادة مواظبة حضور المحاضرات عام ١٨٠٨ . وسيشكو جان فرنسوا لأخيه من كثرة المنغصات التي تسبب له فيها من كان يسميه « الإنجليزي » وكتب يقول له في خطاب بتاريخ ١٨ يناير ١٨٠٩ مؤكداً أن « لانجلاس » يزحف ولم يصل إلى مركزه إلا بأن مرغ نفسه في الطين » .

وعلى النقيض من ذلك كان تقييم شامبوايون لبروسبار أودران ، فهو لم يجد فيه سوى ما يستوجب المديح . وكان أودران علاوة على تملكه للغة العبرية معلماً في اللغتين السيريانية والآرامية لدرجة أنه كان يبدو قد تشكل من سفر القضاة ! وسرعان ما إرتبط بجان - فرنسوا خاصة وأن اهتمام هذا الأخر بلغة التوراة كان يتعمق باستمرار بل وذهب به الحال إلى درجة أنه عبر له عن تقديره الفائق بأن سمح له بأن يلقي المحاضرات بدلاً منه أين ؟ في الكولاج دو فرانس - وهو في السابعة عشرة من عمره !! .

« أنا أقوى من يحضر محاضراته ومعظمهم من القساوسة ورجال الدين نوى الأدمغة المتصلبة وكلهم متقدمون في السن ، قربي من مسيو أودران يزداد كل يوم . فإنا أساعده في تأليف كتاب في قواعد اللغة السيريانية ثم في القواعد المقارنة

* راجع الباب ١٩ .

بين اللغتين العربية والعبرية فهما من أصل واحد والاختلاف فى اللهجات فقط ...» .

أكثر أساتذته إخلاصاً له فيما بعد وإعله كان أكثرهم نفعاً له هو دوم رافائيل دو موناشيس والذي تعرف عليه عن طريق أخيه فى جرونوبل . وكما حدث مع القس كالماس كانت صداقتهما بداية العلاقة بينهما بل أن الحب كما قال لأخيه هو الذى جعل دوم رافائيل يهتم به حتى أن هذا الأخير كان يناديه « إبنى » [بالعربية فى النص] وكثيرا ما كان يستقبله فى بيته الكائن ٣ شارع بأثيه بحى الماربه .

« إبنى أعمل كثيراً مع دوم رافائيل . (من خطاب إلى الأخ الكبير) وأصبحت « أتصرف » فى الحديث بالعربية . فأصرف الأفعال وأترجم حوارات ... » وكان يزداد تقديرا لا ستاذه فى اللغة العربية بقدر ما كان هذا الأخير « يسايره فى تخميناته حول الأسماء القديمة للمدن المصرية » . وفوق كل ذلك كان دوم رافائيل قد أبدى إلى تلميذه معروفا هائلا : فقد وجهه نحو التعرف على قسيس قبطى جاء من مصر علم ١٨٠٢ وهو جيهنا الشيفتيشى راعى كنيسة سان روش . والذي تمكن طالبنا من التخاطب معه باللغة القبطية والتدريب عليها معاً ، فهى اللغة التى بدت لهما المفتاح الذى سيؤدى إلى الأبحاث المتعلقة بالكتابة المصرية القديمة .

وهكذا تحول شامبوليون الصغير ، القادم من مقاطعة دوفينيه من جهة الكارسي إلى مستشرق وهو سعيد بذلك . وهو يعلن لأخيه بعد ذلك بستة أشهر أنه فقد كثيرا من وزنه حتى أن خديه قد تقعرا للدخل فزاد أكثر شبها بالعرب خاصة وأنه « أصلا يبدو كالشرقيين » وأنه من كثرة الحديث بالعربية أصبح صوته يخرج من أعماق حنجرتة .

فى خطاب مؤرخ فى بداية شهر ديسمبر روى لأخيه كيف أن شخصا يدعى عيد صاوى التقى به وهو مع دوم رافائيل فظن أنه عربى وحياه بكلمة « سلامات » وكان الأمر سيزداد إختلاطا عليه لولا أن صديقهما المشترك أوضح الأمر فى حينه . وفى إحدى الرسائل لأخيه أختتمها بتحويل إسمه إلى « أسد سعيد المنصور » (كذا) . وعندما أعلن له أخوه فى بداية شهر ديسمبر ١٨٠٧ أن « زوييه » ستجلب له « أثريا صغيراً » وطلب منه أن يقترح له إسماً « عربيا على الأقل » رد عليه جان فرنسوا : « على ، الحبيب » .. مما سيثير الأقاويل فى أروقة الكنائس * .

* المشكلة ستطرح نفسها بالطبع عندما - حان تعميد الطفل وتسميته . وقد أوضح جان - فرنسوا بحماس أن هناك قديساً إسمه « على » عاش فى القرن السادس - فصدقوه !!

كما أن صديقنا تعرف على أحد العلماء الكبار وهو الأب تيرسان وكان منزله فى أبروشيه « أبى أوبوا » بمثابة متحف أتروسكى - فينيقى - مصرى ، وزاد إرتباطه به عندما كشف القس تيرسان عن أكثر التحف أهمية لجان - فرنسوا المتمثلة فى نسخة لاجر رشيد قام القس نفسه بعملها عن الأصل فى البريتيش ميوزيوم (المتحف البريطانى) وقد توطدت العلاقة بينهما إلى حد أنه أعار صديقنا الشاب بعضاً من تحفه النادرة مثل كتاب العهد الجديد باللغة القبطية ومصحفاً باللغة العربية . ونرى إسمه مذكوراً فى العديد من المرات فى مراسلات الأخوين وكذلك إسم أحد المثقفين الدارسين للغة السلتيّة (القادم من الدوقينيّه أيضاً) وهو دو كامبرى وقد تسبب موت هذا الأخير فى نهاية ١٨٠٧ الذى كان قد أصبح من أصدقائه المقربين فى حزن عميق تملكه .

على الرغم من خجوله الطبيعى فإن أصغر أبناء تاجر كتب فيچاك - منه مثل جميع المغرورين المحبطين - تمكن من السيطرة على فوراته العنيفة مثلما يفعل أخوه الأكبر.

فهو يعلن له فى خطاباته « أن سلوكه لايشوبه أى غبار حتى الآن موضعاً : «إذا جاء بعض الأصدقاء لزيارتهم فهم يحتفون عن أى اقتراح يعرفون مسبقاً أنني سأرفضه » ولكنه يقبل اقتراحات أخرى إذا علم أنها تتفق ورغبات چاك - جوزيف . مثل دعوة إوبان ميلان الذى يدرس له مادة « الميتولوجيا القديمة » لحضور اجتماعات يوم « الأربعاء » الذى يعقدها إسبوعياً فى منزله . وعلى الرغم من شعوره بأن ملايسه غير لائقة فإن مراهقنا كان يحضر هذه الندوات وما كتبه لأخيه فى وصفها يكشف عن حسه المبكر لفن الهجاء :

« أذهب أيام الأربعاء عند مسيو ميلان لأشارك فى سهراته [...] الحضور كثير ويوجد بينهم من خمسة إلى ستة أمراء ألمان وأسبان وفرنسيين إلخ ... بعض من الدوقة ... إلخ والكثير من الرؤس « المتوجة » بالإثارة . نجلس ونقرأ ثم يبدأ حديث حول نقطة علمية أو عن التاريخ القديم أو عن الفنون الجميلة . يدافع كل واحد عن وجهة نظر ويستمر الجدل حتى الحادية عشر مساءً وربما بعد ذلك ... ترتيب الأحداث كالتالى : الدخول فى الساعة الثامنة ويعلن عن إسم من وصل . تقدم التحية ثم نذهب إلى صاحب البيت لتبادل بعض الكلمات معه . بعد ذلك ننضم إلى الحضور أو نقرأ ماظهر من كتب جديدة . فى الحادية عشرة والنصف يقدم الشاى أو الباتش ... إلخ .. وألاحظ أن معظم علمائنا يحسنون تناول الشراب

مثلما يحسنون الكلام . عندما تصل الساعة إلى النصف بعد منتصف الليل أو فى الواحدة يحل لنا الإنسحاب [...] إن ما يثير الضحك وهو ما يثبت فى الوقت ذاته أن العلم يسوى بيننا نحن معشر الرجال هو أنك ترى من خمس إلى ست إمرأ وبعض السفراء والدوقة إلخ ... لاتنم وجوههم عن مقامهم وهم جالسين فى ركن من الصالون حيث يتناب أصحاب السعادة على راحتهم . أمير فورتز بورج* الشاب يشارك فى الكلام وهو يفعل ذلك بتحفظ جم ويفكر صائب . وهو صاحب السمو الوحيد الذى يعد مقبولا . أما بالنسبة للأخرين المحملين بالأوسمة والأوشحة ... فهم ينتظرون الشاى ويحتسونه ثم يهرعون خارجين ... »

إذا كان « صغير » قد تجرأ وبخل هذا « العالم » الدائر فى ذلك العلم وأكثر المعارف تجرداً فهو يزداد جرأة ويذهب لزيارة أكثر حاملى مفاتيح مصر شهرة مثل ثولنى وسونينى وجومار وهم الذين وطأت أقدامهم أرضها لأسباب مختلفة .

كان قد تعرف على ثولنى فى جرونوبل قبل ذلك بعامين وكان قد أصبح كونتاً وعضو مجلس شيوخ الإمبراطورية دون أن يفقد استقلالية الرأى والسلوك .. وكان « صغير » يعجب بوقار الرجل واستقامته ودقة تفكيره .. ومع ذلك فقد كان يضايقه منه طريقته غير الشعاعية تماماً والعلمية البحتة فى تصويره لمصر إذ هو يكثر من نكر الملاحظات عنها المدعمة بالأرقام دون أن يأبه بأساطيرها وألتهها . وكذلك كان الحال بالنسبة لسونينى دو مانونكور عالم الطبيعة الذى كان يصف له مصر وصفا دقيقا ولكنه فى رأيه كان يفتقد الخيال والقدسية . ومع ذلك وعلى الرغم من قلة الحيوية التى كان يفتقدها فى الشخصيتين فكانا كرجال معرفة حقة يثيران إعجابه .. ولم يكن من الممكن أن يسقط من حساباته أيأ من المعطيات التى ستسمح له بتنظيم عملياته فى كشف الأسرار .

وينفس القدر من التسامح طبق المبادئ ذاتها على المعلومات والأفكار التى إستقاهها من جومار الذى أصبح أهم شخصية فيما يتعلق بكتاب « وصف مصر » . فى بداية الأمر استقبله هذا العالم الجليل فى الجغرافيا بنفس القدر من الترحيب الذى عبر له عنه كل من فوربيه وثولنى رسائينى . وعلى

* الشقيق الأصغر لإمبراطور النمسا .

الرغم من أن « صغير » قد اضطُر أن ينتظر أشهراً عديدة قبل أن يستقبله السكرتير العام فقد أقام معه علاقات عمل هادئة . إلا أنه ما أن تعرف على مقدار طموحات الشاب إلا وأصبح جومار غير راض عنه وعامله منذ ذلك الوقت بقسوة * إذ كان يرى فيه حدثاً غراً يدعى - دون أن يكون قد وطأ أرض مصر - أنه يعرف أكثر مما يعرفه قدامى محاربي ١٧٩٨ .

سيفضل جان - فرنسوا التعامل مع مساعدي الجغرافى من الشباب فيلار دوتيراج وچولوا وهما المكلفان مع لانكريه ** بكتابه معظم المقالات الخاصة بمصر القديمة فى كتاب « وصف مصر » وكانوا يعاملونه بود حتى لو اختلفت آراؤهم معه . مايدعو إلى الاستغراب من جهة أخرى هو عدم وجود أى مستند عن علاقة « صغير » بفيثان دونون . إن مانعرفه هو أن الشاب قد قرأ كتاب الرائد إذ أننا نجد إشارات مبعثرة هنا وهناك فى مراسلاته إلى « دونون المحترم وخفيف الظل » *** .

أما بون - جوزيف داسييه السكرتير الدائم لأكاديمية الآداب فهو الذي لن يألو جهداً حتى يتعرف الكافة على عبقرية المكتشف وقد عرفه عن طريق أخيه الأكبر منذ وصوله إلى باريس . العلاقات بينهما ستبقى غير محدودة لفترة طويلة لأن إهتمامات العالم العجوز لم تكن لها علاقة مباشرة بالموضوعات التى تخصص فيها الشاب . إلا أنه أعلن عن تعاطفه معه منذ البداية إلى أن أصبح هذا التعاطف عملاً إيجابياً بعد ذلك .

لم يكن شامبوليون الأصغر يكتفى بعلاقاته مع الأساتذة وأصحاب الفكر ، فقد كان وهو فى السابعة عشرة يزامل أيضاً أقرانه مع ملاحظة أنه لن يتعرف فى باريس على صديق يمكن مقارنته بمن صادقهم فى فيچاك أو جرونوبل . ويقر معظم كتاب سيرته أنه لم يقم علاقة صداقة سوى مع المجددين فى عملهم المنكبين على الأبحاث المشابهة لأبحاثه والأفضل من كانت أبحاثه تتلاقى وأعماله هو .

وقد يكون من التزيد أن نصف علاقاته الودية مع بوناڤونتور دو روكفور بأنه صداقة وإن كان يصفها هو نفسه أحياناً بأنها « غوتية » (مثل الكاتدرائيات) بمعنى أنها مرسومة وجادة للغاية . خاص وأن أبحاث دو كفور الموسيقية كانت تذهب فى اتجاه

* غير أن ذلك لم يمنعه من أن يطلب من الشاب باستمرار أن ينقل تحياته إلى أخيه الأكبر .

** معه ... وبعده ، لأنه توفى فى بداية عام ١٨٠٨

*** سنرى فيمل بعد الأهمية التى أعطاهما باحثنا إلى « البريدية رقم ١٢٨ » التى نشرها دونون .

يلتقى وأبحاثه هو فى الثقافة القبطية .. وهذا الوصف ينطبق أيضا على علاقته بالمكتبى
چوچون الذى أرسلته العناية الإلهية له ليعثه فى مجال الكتب وكان يجمع فى بيته
بشارع دويك أبناء الدوفينيه المغتربين (أو المنفيين ؟) فى باريس .. ويبدو أن چان -
فرنسو كان يواظب على حضور هذه اللقاءات ، أما علاقاته بچان - چاك دويوا
الرسام والمثال فقد كانت عروتها أوثق وهو الذى سيكون معينه فى نقل الكتابات
المصرية الموجودة فى متحف فيلترى وقد وصف الشاب القادم من جرونوبل علاقتهما
بكلمات كلها حرارة إذ كتب يقول : « كنا نثرثر حول الآثار ونتبادل الملحوظات وكنا
نجد دائما شيئا جادا نتكلم عنه أو نتعلمه من بعض .. » ووصف فى خطاب لأخيه
مؤرخ ١٨٠٩ لقاءه بدويوا أنه من أسعد الأحداث التى جرت له بالنسبة لحياته
العملية كباحث .

هل كانوا أصدقاء أم مجرد أقران عمل كل هؤلاء الشباب الذين كان يلقاهم فى
الكولاج أو فى المدرسة الخاصة ، ويتبادلواياهم الاكتشافات أو خطأ جديدا فى
أبحاثهم يقتفون أثره ؟ لقد كان يشير إليهم فى معظم الأحيان بكنية عن تخصصهم
وليس بما يميز شخصيتهم * . فكان يلقب ليونار دو شيزى « الهندى » إذ كان
متخصصا فى السانكرتية وأبال دور ريمورا « بالصينى » وهو الذى أصبح أول أستاذ
يدرس لغة « الماندران » فى الكولاج دو فرانس ، أما چان سان - مارتان فهو « الأرمنى » .
هذا الأخير يمثل حالة خاصة ، فقد كانت علاقته بسان مارتان علاقة صداقة قوية جدا
وكانت الرسائل المتبادلة بينهما غزيرة جدا إلى أن فرق بينهما الطموح وخاصة الطموح
السياسى . ومع ذلك ففى عام ١٨١١ لم يتردد چان - فرنسو فى اللجوء إلى سان -
مارتان (فهو لم يشك فى وفاءه على الرغم من أى شئ) طالبا منه خدمة « لايمكن أن
تنسى » فقد كانت تتعلق بعلاقة عاطفية ** .

وماذا عن دارس اللغة اليونانية چان لوترون ؟ فقد أصبح مع مرور الزمن من
أفصح المدافعين عن چان - فرنسو شامبوليون عندما ثارت أعنف المجادلات التى
أثارها إكتشاف عام ١٨٢٢ على الرغم من أنه كان فى البداية ضمن منتقديه . ومن
ناحيته أيضا كان يطلق عليه باستهزاء لقب « البستانى صاحب الجذور اليونانية » وذلك
بين أعوام ١٨٠٧ و ١٨٠٩ وكان من بين زملائه أقل من يلقاهم .

* وكانوا يلقبونه من ناحيتهم « بالمصرى » .

** سيأتى ذكرها فيما بعد ص .

باختصار كانت حياة مخصصة كلها للدراسة والبحث لتنفيذ طلبات چاك - جوزيف تلك التي قضاها چان - فرنسوا خلال السنة الأولى من فترة إقامته بباريس وذلك حتى خريف عام ١٨٠٨ ، يشهد على ذلك برنامج العمل الأمثل له والذي أفاد به أخاه في ٢٧ ديسمبر ١٨٠٧ . وقد يعتقد البعض أنه مثالي أكثر من اللازم ليكون صادقا فيه ولكن لا يوجد سبب واحد يجعل المرء يشك فيه خاصة وأن الرسائل اللاحقة توضح أن الأخ الأصغر لم يكن يمنع نفسه من الإفصاح عن الحقيقة لساكن جرونوبل حتى لو كانت غير سارة :

« يوم الاثنين الساعة الثامنة والربع أتوجه إلى الكولاج دو فرانس لأصله في التاسعة . أنت تعلم بالطبع أن الطريق طويل إلى هناك فهو يطل على ميدان كاميرى بجوار مبنى البيانتيون . في التاسعة أتابع محاضرة اللغة الفارسية للأستاذ دوساسى * حتى العاشرة ولما كانت محاضرة العبرية والسريانية والكالدية تلقى في منتصف النهار فإني أسرع إلى مسيو أودران الذي أقترح أن أبقى عنده أيام الاثنين والأربعاء والجمعة من العاشرة حتى الظهر . فهو يظل في الكولاج دو فرانس .. نمضى هاتين الساعتين في الحديث عن اللغات الشرقية وفي ترجمة نصوص من اللغات العبرية والسريانية والكالديه والعربية . وتخصص دائما نصف ساعة للعمل في كتابه عن « قواعد اللغتين الكالدية والسريانية » . ننزل من عنده عند الظهر ليلقى محاضرتة عن العبرية .. وهو يطلق على اسم « بطريك الفصل » لأنى الأقوى في هذه المادة [...] بعد أن أخرج من هذه المحاضرة فى الواحدة أقوم باختراق كل باريس وأذهب إلى المدرسة الخاصة لأتابع فى الثانية محاضرة مسيو لانجلاس الذى يخصنى برعاية خاصة .. إننا نشارك فى الحديث فى السهرات ** يوم الثلاثاء أذهب إلى محاضرة مسيو دوساسى فى الواحدة فى المدرسة الخاصة . يوم الأربعاء أذهب إلى الكولاج دو فرانس فى التاسعة وفى العاشرة أصعد عند مسيو أودران وفى الثانية عشرة أحضر محاضرتة وفى الواحدة أذهب إلى المدرسة الخاصة (ساعتان) من أجل حضور درس مسيو لانجلاس وفى الخامسة مساء

* كان سيلفاستر دوساسى يدرس هذه اللغة أيضا أما بالنسبة للعربية فقد كان يتناوب تدريسها مع مسيو كوسان .
** هذه المحوطة تدعو إلى الحرص عندما تتعامل مع الأحكام التى سيطلقها الطالب فيما بعد عن أستاذه .

أتابع محاضرة دوم رافائيل الذي يجعلنا نترجم قصص لافونتان الشعرية إلى العربية .

الخميس فى الواحدة محاضرة مسيو دوساسى . الجمعة أذهب مثلما أفعل يوم الاثنين إلى الكولاج دو فرانس وإلى مسيو أودران ومسيو دوساسى السبت عند مسيو لانجلاس فى الثانية ... « ويختتم كلامه بقوله : « لقد حميت من كثرة الجهود ولذلك سأذهب لأستحم لاتزود ببعض من الطاقة تمكننى من متابعة محاضراتى » .

ولما كنا على علم بأن چان - فرنسوا يضع لمساته الأخيرة على كتابه عن « جغرافية مصر » وينسخ بعض النصوص لأحدهم أو لأخر ويواصل أبحاثه فى الموسيقى الكالدية أو السريانية لصالح الجنرال دو لاسالات (وهو من المثقفين الجرنويلوازيين الذين كان يبائع فى الإلحاح عليه ولكن كان « زميله فى أكاديمية جرونوبل ») .. ويواصل دراسته فى علم التنمية ويكتب بعض المقالات لصحيفة « المخزن الأنسيكلويدى » التى يصدرها ميلان ويقوم بزيارات متعددة إلى كنيسة سان روش - لأسباب لا علاقة لها بالتقوى بل لكى يزيد من إمتلاكه للغة القبطية مع القس الشفتيشى ويجرى ذات اليمين وذات اليسار ليؤدى الطلبات التى يكلف بها أخوه .. لذلك يمكن أن نقول أن ابن صاحب مكتبة فيچاك كان شاباً مشغولاً .

كيف لايسخن وهو باستمرار يجرى وينسخ ويبحث ويكتب ويقرأ ثم يجرى طول الوقت ؟ كان چاك - چوزيف واعياً بذلك كله لدرجة أنه نصحه فى يناير ١٨٠٨ أن يعتنى بصحته : « تذكر النواء الذى وصفه لك مسيو جاننيون فى الخريف الماضى . يجب أن تشرب بعض المشروبات المنعشة [...] مثل « الأورچا » [...] إشرّب منه عدة مرات فى اليوم ولكن بعد الوجبات بفترات طويلة . لاتستحم لأن الاستحمام مضر لك فى الشتاء ... » .

رد چان - فرنسوا جاء كالتالى : « سأتناول الأنوية التى كتبها لى مسيو جاننيون - إنى أشعر بسخونة وتنتابنى آلام الرأس والمشروبات المنعشة تفيدنى كثيراً » مع ذلك فعند حلول شهر يونيو أرسل يحيطهم فى جرونوبل بأنه قد أهمل شرب « الأورچا » لأن الجو ليس حاراً ثم إن هذا المشروب « غالى السعر جدا » .

والسؤال الآن هو كيف كانت هيئة هذا المراهق المستقيم الذى ذهبت عن ذاكرته صورة پولين ومع ذلك لم تحل مكانها عاطفة جديدة تملأ عليه أحلامه وتحرك نهاره ؟ لما كنا لم نستدل على نص يصفه فيه طرف ثالث فإننا نكتفى بهذا الوصف الذاتى السريع الطريف المؤرخ ٤ فبراير ١٨٠٨ والذى يكشف عن نوع من التصالح مع الذات :

« أشكرك كما أشكر زويه على تمنياتكما لى بالهناء [...] أما بالنسبة لصحتى فإن الصداق لم يعد متكرر الصوٹ كما كان إلا أننى أشعر بالهم فى جانبى الأيمن يضايقتنى كثيرا فى التنفس . سأستمر فى المنعشات التى أفادت عينى كثيرا فأصبحتا متوازيتين الآن تماما * . وعلى الرغم من أن لون بشرتى مازال يميل إلى « العربية » إلا إنه أصبح أكثر بياضا . زاد طولى كثيرا وأصبحت بذلتى « الفراك » البنية التى كانت طويلة بعض الشئ تناسبنى تماما الآن .. »

إن بذلته الفراك المناسبة تماما لاتلخص الحالة التى كان عليها وضعه المالى ، سنراه بعد قليل غاضبا للغاية من باريس والباريسيين ، ولم تساعده الضائقة المالية التى يتخبط فيها على إزاحة السحب التى تجمعت أمام نظرتة لهذه المدينة حيث المظهر له أهميته القموى خاصة فى هذا الزمن التى تتوالى فيه الأمجاد البراقه ويتباهى فيه محدثو النعمة .

وإذا كانت رسائل جان - فرنسوا قد إمتلأت إعتباراً من صيف ١٨٠٨ بإشارات إلى أبحاثه وإكتشافاته العلمية وإلى ماينشره منافسوه أو من سبقوه فإن رسائله الأولى التى سبقت تلك الفترة كانت تكثر فيها الشكاوى وعلامات الأسى والطلبات والملحوظات المرة عن قلة موارده والحالة المريرة التى يتخبط فيها « فقيرا مثل الشعراء » .

ونذكر هنا بعض الأمثلة المنتقاه عشوائيا لهذه الشكاوى التى كان يطلقها الواحدة تلو الأخرى مثل المدفع الرشاش على أخيه چاك - جوزيف شامبوليون - فيچاك « أبى على » :

* سبق أن أشرنا إلى عدم التوازى الذى لوحظ فى نظرة الشاب .

« .. لا يوجد معى سول واحد . كل مايمكننى عمله هو تنظيف ملابسى وأدفع ثمن نقل الرسائل التى تصلنى * ... » « إن مدام ميكـران تعذبنى وهى تستلم إيجار الغرفة » مدام ميكـران لاتكف عن ملاحقتى يومياً من أجل إيجار الغرفة وليس فى إمكان مسيو فرچا أن يعطينى مالاً لأنه لايمتلك [...] مايكفى لماكلى أرجوك أن ترسل لى مالاً فور إستلام خطابى ... »

« حالتى ميئوس منها . لا أجد معى سولا واحدا . إرسل لى فوراً مرتب الشهر القادم حتى لا أكون مضطرا إلى تحمل آلاف المضايقات التى تثيرها لى مدام ميكـران بسبب إيجار الغرفة ... »

« استحلفك أن ترسل بعض النقود لدفع إيجار الشهور الأربعة المستحقة لمدام ميكـران »

ثم يضيف ساخرا « بدأت ألاحظ أنى أصبحت باريسيا بالفعل بسبب الطريقة (اللبقة ؟) التى تخلصت بها منها فى المرات المائة ألف التى جاءت تطالبنى فيها بأن أكرر لها الثمانية عشر فرنكا . أصبحت أخشى الحجز والقضايا والحبس إلخ إنى يائس وأيس معى سولا واحد .. »

كان چان - فرنسوا مستعداً للاكتفاء « بالتعيين » العادى الذى يتغذى عليه من « الأخوة الريفيين » ولكنه لم يكن ليقبل بأن يظهر فى مختلف الأوساط فى هيئة الفلاح القادم من مقاطعة كارسى ليباريس أو الجلف الواصل من الدوفينييه . وهو يسأل شقيقه بعد ذلك ببضعه أشهر :

« من تريدنى أن أصادق ؟ إذا أردت أن تسكن فى باريس وتعيش مع الباريسيين فعليك أن تتصرف مثلهم . وإنما لا أعنى بذلك وجوب الصرف على العروض الفنية وحفلات الرقص وما إلى ذلك : إنما أقصد أن يكون ملابسك ملاصقا وهو مالم يتوافر لدى . إنك لاتذهب فى المجتمع وأنت ترتدى جوارب سميكة من القطن ترتفع حتى الركبة وصيديريا أسود ونفس البدلة القديمة الريفية . ولهذا السبب فإنى لا أرى أحداً ولا أقدر

* كان يوجد فى ذلك الوقت نظامان لإيصال الرسائل : « البريد الكبير » وكان يعمل بنظام النقل بعد دفع المستحق « والآخر داخلى فى باريس فقط ويعمل بنظام « حمل الرسائل المدفوع » .

أن أرى أحدا . [...] وهما أنا أصبحت ضمن فئة اللا ... سرواليين * نون أن أكون من معتقّي مبادئهم ولا أهدافهم [...] الحقيقة هي أن هينتي قظه بما ارتديه من ملابس واسعة وأطول مما ينبغي وتفصيلها كرية . وإنّي أعترف لك أن هذا هو السبب الذي يجعلني لا أرى مخلوقا ... »

أمام هذه الحدة في العرض لم يكن أمام چاك - جوزيف سوى أن يستجيب إلا أنه لم يتلق سوى تقرّيع جديدٍ محررٍ بوقاحة تنبئ عن كثير من الأحداث :

« وصلني طرد الملابس . الإنجليزية (نوع من البدل) جميلة للغاية والسراويل أجمل . الصديري يباع بثلاثين سولا في الشوارع وكان في مقدورك أن توفر ثلاثة فرنكات وعشرة سول قيمة المشال . ولن أقول شيئا عن جواريك الحريرية السوداء فهي مقبولة إذا أردتها في المساء للذهاب عند مسيو ميلان حيث لا ينظر أحد إلى السيقان أو إذا أردتها نهارا للذهاب إلى ملجأ العميان إلا لو إحتجتها أنت لتقرّيع ماتبقى لك من ملابس . أعترف في النهاية أنك لن ترتديهما أنت وأقول لك أنني قمت بتفصيل سرّوالا جميلا من نوع محل مارتان وسوف يرسل لك الحساب للسداد . عندما أجد اللباس اللائق والحذاء المقبول سأقوم بتأدية جميع المهام التي كلفتني بها مهما كانت إذ سيكون في إمكانني أن أظهر في المجتمع .. بل إنني مستعد ساعتها أن أرى الإمبراطور ذاته إذا كان في ذلك مايرضيك . »

ما هو السبب وراء هذه الوقاحة المفاجأة خاصة أنها موجهة إلى الشخص الذي يكن له كل مودة ؟ ذلك لأن هذا الأخ الذي يدين له بالكثير يطلب منه في المقابل أن يكون ممثله أو سفيره لدى الشخصيات العامة الباريسية وأساتذة الجامعة والسلطات الأكاديمية : إن چاك - جوزيف رجل طموح دائم البحث ليس فقط عن كتاب أو مستند ولكن أيضا عن وظيفة أو لقب أو خدمة أو منحة لنفسه ولأخيه الأصغر هذا الأخير كان على إستعداد أن يؤدي دور المرسال لا دور الجلف ...

* اللا - سرواليون Les Sans - culotes كلمة أطلقت على الثوار من الطبقات الدنيا في المجتمع الفرنسي في فترة المؤتمر التأسيسي بعيد الثورة الفرنسية (المترجم) .

الحقيقة هي أن باريس لم يكن لها عليه التأثير الذي قد يؤدي بأخريين إلى التشييت سواء كانت عواقبه سعيدة أو تعيسة . إن أقل ما يمكن قوله أن الحب من أول نظرة لم يقع بين المدينة الكبيرة والمراهق . وقبل أن يصل به الحال إلى أن يصف باريس « بيبابل » فهذه هي بعض السهام التي أطلقها عليها :

«... شعرت بألم قوي في جانبي . إن جو باريس يقوضني وأبصق مثل المسعور وما أنا أفقد قوتي . إن هذا البلد كرهه إلى أقصى حد إذ أن قدميك تبقيان فيه مبتلتان باستمرار . أنهار من الطمي* (بون مبالغة) تجرى في شوارعه ولذلك فإنني أشعر بملل يقتلني . وللتريفه عن نفسي أذهب للتريض الله أعلم كيف . واتشعب طول الوقت (هذا هو الواقع وهذه هي إرادة الله) .

هناك ما هو أفضل :

« أشعر باحتقار يختلط به الكره نحو عاصمة فرنسا القذرة ماذا يمكن أن أفعل وسط هؤلاء الأبناء مصاصي الدماء ؟ وفي هذه الأفكار المثيرة للغثيان حيث يكفي الانحياز لحزب لكي تكون صاحب رأي وتصل إلى المناصب العليا ؟ وكما أعملت تفكيري زاد تعلقى بـجبالنا . إنك تجد فيها المساد بل الأعداء أيضا ، هذا صحيح ، إلا أن الرأي المستنير يلقي فيها حقه على الأقل . أما في باريس فلا يوجد رأي سوى رأي الأحزاب . وفيها تعد أحمرق إذا سقط الحزب أو « نيوتن » ذاته إذا إنتصر . لا توجد نقطة وسط لأن لا مكان للحياة حيث يحكم على الأشخاص من لون لباسهم : كفى حديثاً عن هذه القنورات ... إنني مقتنع بما لي من فهم . لأخلاقى أن العاصمة لاتناسبني . لو أني ولدت في الهند لكنت أصبحت بال تأكيد من الدراويش المتأملين . فانا أكره الحركة ولا أود أن أجد نفسي سوى في حلقة من المعارف ضيقة للغاية . »

وعندما يقترح عليه أخوه أن يطلب من لوى لانجلاس أن يوجهه نحو عمل رسالة بحثية أو أي مكتوب آخر يرد عليه المراهق بحدّة :

* القط في النص الأصلي .

« حتى إذا ألفت أجمل المؤلفات وأعظمها ثقافة فإنى لن أجد قارئاً واحداً لى فسى شوارع باريس بسبب عظمة إنتشار التنوق العلمى بها !! إن هذا مثبسط اللهم لأقصى حد [...] يالها من مهنة صعبة ... مهنة المؤلف ! » .

وهكذا كره جان - فرنسوا شامبوليون الجو الثقافى العام فى باريس كما كره المؤامرات التى تصيب مقاهيها وصالوناتها بحمى المؤمرات . كما كره أيضا الأكاديميات والجامعة الواقعة - مثل كل شىء آخر - تحت الديكتاتورية الإمبراطورية . ماذا يمكن أن يكون مصيره وسط هذا الخضم المتلاطم ؟ ولما كان چاك - چوزيف يحاول باستمرار أن يجد له عملا فى المكتبة الوطنية أو فى التدريس كتب له فى ٥ فبراير ١٨٠٨ رسالة يذكر له فيها ماقاله له سونى :

« هذا هو ما أعرفه عن الجامعة الإمبرطورية . لقد قرأوا المشروع ست عشرة مرة أمام الإمبراطور الذى كرر باستمرار أن هذا المشروع محتاج لأن يفضج [...] ولا يوجد مايدل على أنه يريد إنشاء كرسى لغة عبرية [...] فقد راودته كثيرا فكرة إلغاء الكولاج دو فرانس [...] إن مهنة العلوم تمر بمرحلة قاسية للغاية وهى لاتؤدى لشىء الآن . لاشىء يعمل الآن سوى الحرب ... »

هذه الملاحظات المريرة أدت إلى أن أستخلص منها شامبوليون أسوأ الاحتمالات المستقبلية حيث تظهر فيها آثار شخصيته المتذبذبة المزاج :

« ... لم يعد لى أمل كبير فى مستقبلى . أفضل مايمكن عمله هو أن تبحت لى فى البداية عن وظيفة مناسبة فى أى مكان تراه . ولايعتبر هذا من المستحيلات بالنظر إلى الوسطات التى تساندى . وفى هذه الحالة ومن هذا الملأ ستأتى الوظائف بعد ذلك . فى المكتبة الإمبراطورية لا يوجد سوى مركز واحد هو مركز الأمين [...] إذ لا أعتقد أنك تريد أن ترانى فى دور موزع الكتب . [...] فكر فيما أقول . الكولاج دو فرانس لا أمل من ورائها ... »

ظل هذا التشاؤم بل هذه الانهزامية مسيطرة عليه لعدة شهور . فكتب يوم ٣١ مارس :

« إن كراسى التاريخ والعربية والعبرية غير موجودة أصلاً . هناك أشياء أخرى تشغل الجميع !! [...] بعد شهرين فقط من وجودى هنا أدركت أن دراستى للغات الشرقية لن تفيدنى فى شئ [...] ثم .. هل أنا معتاد على التدريس * ؟ هل قمت بالدراسات المطلوبة لهذه المهنة المملة وغير المجدية ؟ » .

واستعد جان فرنسوا بعد ذلك بعدة أسابيع لقبول العمل فى وظيفة « فى المؤسسات العلمية مثل المتاحف أو مكاتب الآثار أو التاريخ الطبيعى أو المكتبة » غير أنه بقى على مرارته وإحباطه ، ويقر بأنه لايجد نفسه بالأوهام :

« لكى تحكم على المدرسة الخاصة أو المكتبة الإمبراطورية إلخ ... يجب أن تكون مثلى فى الموقع . يجب أن ترى الأشخاص والأشياء وأن تحيا معهم ووسطها وتدرسها ، وأعتقد أنى بعد عشرة شهور قاتلة قضيتها هنا يمكننى أن أصدر الحكم بكل وضوح . »

فى ٢١ مارس ١٨٠٨ وصل به اليأس إلى قمته :

« ... كل يوم يمر يزيدي إقتناعاً بأن أسوأ إختيار هو سلك العلوم . إن البنديقية تلقى احتراماً أكثر من قيثاره أبولون . وعازف نغير فى سلاح الخيالة يجنى فوائد أكثر من أى فنان أو عالم [...] وهكذا ترى أننا مضطرين ** إلى اختيار مهنة جديدة تأكد أنى سأبذل فيها جهداً أكثر مما أبذله فى دراسة اللغات الشرقية » .

هل فى ذلك مايمكن أن يكون وداعاً للعلم والبحث ؟ وداعاً لمصر ؟ چاك - جوزيف يعرف شقيقه وانطلاقاته وإحباطاته . فهو لم يتأثر ويجيبه بهدوء ببعض النصائح المرتبة: « لايمكن أن تدرس الشرق إلا بعد معرفة جميع لغاته التى يمكن إرجاعها إلى لغة واحدة [...] لذلك يجب ترتيب ما هو متماثل بينها . « بارع هو هذا الفيچاك !! فلأنه يعرف تماماً أن أخاه يعمل على هذا المنوال ويفكر بهذه الطريقة فقد قدم له هذه «النصيحة» أى أنه يود أن يقول له : استمر فانت على الدرب الصحيح .

* كان فى السابعة عشر من عمره .
** لاحظ صيغة الجمع التى تميز به علاقتهما .

١٨٠٨ كان العام الذى تبلور فيه مخطط فرض الحصار القارى المخيف على فرنسا وأخذ منحى خطرا بعد الثورة الشعبية الإسبانية . وهو أيضا العام الذى تجسدت فيه الشرعية الملكية الإمبراطورية بالأعداد للزواج النمساوى . وهو أخيرا العام الذى إقتنع فيه الإمبراطور فى نهاية الأمر بما أوصى به مستشاروه بتجميع مختلف فروع التدريس تحت سلطة موحدة .

أولى تلك العمليات أدت إلى أن التعبئة الشاملة للتجنيد للشباب إبتداءً من سن السابعة عشرة وظل التهديد بتجنيد جان - فرنسو مسلطاً عليه لعدة شهور : فهو قد بلغ السن فى ٢٣ ديسمبر ١٨٠٧ وبالتالي فهو ضمن من سيطلبون للتجنيد .. وتعتبر رسائله لأخيه عن هذا القلق الذى يعمل چاك - جوزيف على تبيده بأن قام بعدة إتصالات ملحة بفورييه المحافظ الكريم الذى قام بدوره بالاتصال بصديقه فوركرو مدير التعليم . كان هذا الإنذار الأول ونجح فى التخلص الأول من الورطة .

إلا أن شره النظام الإمبريالى لهضم الرجال لاينتهى : إذ عادت نغمة التعبئة تتردد من جديد بعدة بضعة شهور . وهنا إفتتح طريق يسمح بالتفادى عن التجنيد وهو دخول مدرسة « الأيكل نورمال » (وهى مدرسة عليا لإعداد مدرسين التعليم الثانوى) (المترجم) يعفى تلاميذها من دخول الخدمة العسكرية . ولكن چان - فرنسو يرفض تماما أن ينحنى أمام هذه القاعدة « الاعتقالية » حسب ماقاله فهى لن تسمح له لسنين طويلة قادمة بزيارة مصر والعمل على الطبيعة هناك ولم يأبه فى ذلك بكل ما فعله أخوه لحنه على الدخول فى هذا السلك .

فى نهاية صيف ١٨٠٨ تكرر الحال من جديد وتجددت مناشدته لچاك - جوزيف الذى رد عليه دون أى تأثر فى ١٨ سبتمبر « ... لاتقلق من التجنيد [...] ولاتقم بأى إجراء [...] واعتمد على فيما أقوم به للتفادى من هذه الأزمة [...] لقد تخطيت أنا هذه المشكلة ستتخطاها أنت أيضا ... » لقد كان فيچاك على يقين من أن أماله فى جوزيف فورييه قائمة على أساس صلب لأنه يمثل بالنسبة له عاملا لاغناء عنه فى تحرير مقدمة كتاب وصف مصر . وجه محافظ مقاطعة إيزار التماساً للإمبراطور « لصالح العلوم » وهو ماسمح للشباب أن يتفادى من الرحيل لفتح سيحومتا وسومو - سييرا .

ومع ذلك فقد إستلزم الأمر أن يمر صاحبنا بتجربة « القرعة » (التى تحدد من سيجنّد ومن سيعفى من قائمة المطلوبين) وذلك فى ١٩ مارس ١٨٠٩ فى فيچاك وقد مثله أبوه هناك . وجاء فى الشهادة الموقعة من عمدة بلدته⁽²⁾ أن « السيد /

شامبوليون چان - فرنسوا « قد سحب رقم ١٦٥ » الذى لم يستدع للخدمة العسكرية .
بهذه الطريقة أمكن الحفاظ على الشكليات .

فى ذلك الوقت ظهر على سطح الأحداث سبب لقلق جديد وهو التجنيد فى السلك
القنصلى فى بلاد الشرق . فى ١٣ مارس ١٨٠٨ كتب « صغير » لأخيه الأكبر :

« تم تسفير بعض البعثات مؤخراً إلى المغرب والبربر ومراكش وضموا إليها طلبة
المدرسة الخاصة * فأجبروهم على السفر [...] (إن هؤلاء الموظفين) يعاملون
معاملة غير لائقة البتة ويشعرون بأنهم باستمرار تحت تهديد سيف أحد الأتراك ...
أحكم أنت بنفسك إذا كان العاملون المستشرقون المقيمون فى تركيا الأوربية
معرضون للأخطار إلى هذه الدرجة فإنهم سيكونون بل أنهم بالفعل أقل حظاً وهم
وسط المغاربة وفى مدن القرصنة فى تونس والجزائر ومراكش [...] لا أشعر أنى
مستغن عن الحياة ** لدرجة تدفعنى إلى أن أغامر بها فلا أرى بلادى وأهلى مرة
أخرى وذلك من أجل بعض من دخان المجد .. حتى إذا كان هناك مجد فى أن تقيم
داخل أربعة جدران داخل قصر قديم بلقب قنصل ... ترتعد أوصالى عند سماع أقل
حركة . »

لوحة فنية على الطريقة التركية ... ؟ ما الذى يجعله يذهب إلى هذا المنفى ؟ ثم جاء
لوى لانجلاس بعد ذلك يجس نبض صاحبنا الخائف من « البربريات » فيسأله إذا
كان « يميل إلى السفر » ويرى نفسه « سعيداً فى المشاركة فى العمل فى إحدى
المفوضيات فى بلاد فارس أو فى الهند مثلاً ... » (علماً بأن لانجلاس هذا كان قد
رقض قبل ذلك بعشرة أعوام أن يصاحب نابليون إلى مصر عندما طلب منه ذلك) .

رد چان - فرنسوا بسرعة « أنه ليس بالقوة التى تسمح له بذلك » واستمر
الأستاذ على إصراره مع شئ من المديح ولو لمرة واحدة قائلاً « بعد شهرين أو ثلاثة ... »
إهتزت معنويات صاحبنا بدرجة أنه اقترح على أخيه ألا تطأ قدماه بعد ذلك المدرسة
الخاصة التى يهيمن عليها تماماً هذا الشيطان لانجلاس ، على أن يكتفى بمحاضرات
الكولاج دو فرانس ودروس دوم رافائيل ... خلاصة القول هو أنه من الممكن أن تحب
الشرق وتكره العاملين فى مجاله .

* للغات الشرقية .

** السطر موضوع فى النص الأصيل .

إلا أن باحثنا الكاره للغربة مستعد لقبول إستثناء واحد :

كتب يقول لأخيه :

« هناك أسباب وجيهة جعلت حماسى للسفر إلى الشرق يفتر بعض الشيء ، إلا أن هذا لا ينسحب على مصر فعلى الرغم من أن حالتها أكثر أسى من حقول القسطنطينية وطروده (كذا) وپرسبوليس إلا أن لها فى نظرى من إغراءات قوية لدرجة تجعلنى أتحدى الصعاب .. إنها مصر !! »

هل يجب أن نؤرخ لدخول جان - فرنسوا الصريح طريق البحث العلمى فى المصرىات ابتداءً من تاريخ قبوله هذه المخاطرة المحتملة التى يشملها إعلان المبادئ هذا أم أننا نؤرخ لذلك من تاريخ الخطاب الذى أرسله لوالديه فى يناير ١٨٠٦ ؟ على العموم فهو الآن فى السابعة عشرة من عمره واضح الفكر ويعرف ما يريد .

إذا كان مجال رؤيته قد تحدد أبعاده فإن نطاق عمله مازال مليئاً بالإنعام . إذ توالى حالات الطوارئ كما توالى خيبات الأمل الواحدة وراء الأخرى . أو هكذا إعتبر إعادة التشكيل الضخم فى كوادى نظام يدير وجهه عن أصوله الجمهورية طالباً الحصول على الاحترام الذى يضيفه عليه الحكم الملكى . ففى مجال التعليم العالى إختار العاهل الجديد بصفته « المعلم الأكبر » الماركيز « فونتان » مفضلاً إياه على أنطوان فوركروا وهو من اليعقوبيين التائبين إلا أن رائحه المتمردى (السان كولوت) تفوح منه * .

مثل هذا القرار بدأ أنه فى غير مصلحة الأخوين شامبوليون .. ولم يكن ذلك يرجع إلى أنهما أفصحا عن ميول جمهورية وإنما كان ذلك لأن فوركروا كان لا يخفى حمايته لهما مثلما فعل فوربييه . ما الذى يمكن إنتظاره من فونتان النبيل ؟ الواقع هو أن هذا النبيل لم يكن أقل عناية بصديقينا الجرونوبلوازيين من سلفه . وكان يوجد ضمن معاونيه المقربين واحد من مقاطعة نوفينيه . وسنرى عن قريب آثار هذه الطيبة عليهما .

كلا ! لا الفقر ولا الحزن ولا التجنيد ولا احتمال العمل القنصلى ولا مناورات لانجلاس ولا تحفظات چومار ولا خروج دو فوركروا على المعاش ولا التهديد اللاحق بطرد دوفونتان - ولا حتى غرامياته بعد ذلك بقليل ولا شئ من هذا كله كان فى

* كان عضواً فى الجمعية التأسيسية (الكونفانسيون) وحل فيها محل مارا بعد موت الملك .

استطاعته أن يبعد شامبوليون الصغير عن هدفه السامى . فهو بممارسته لعلم اللغويات المقارن ودراسته للمخطوطات ويتعامله مع الجزئيات وإعادة ترتيبها وبتشكيل نماذج المعابد الأثرية وبأحاديثه مع من زاروا وادى النيل أصبح أكثر جسارة وسار فى طريق الاكتشاف الذى سيكون كما كتب له چاك - چوزيف « أحد أهم إكتشافات العصر الحديث » .

أولى مراحل العملية الكبرى هى الانتصار المتمثل فى التمكن التام من مختلف لغات الشرق الكبرى وعلى وجه الخصوص تلك التى كانت أو لاتزال تستخدم فى وادى النيل . وتأسيساً على هذه القواعد اللغوية وعلى المقارنات وعلى القياس والتناقضات والاختلاف بينها سيتمكن من البدء فى دراسة العلامات التى تغطى البرديات وأسطح المسلات دراسة منظمة . ولكن مع الأخذ فى الاعتبار الأولوية التى يوليها لعلم اللغويات فهو لا يكل فى جمع مختلف المعطيات الخاصة بمصر وجغرافيتها وثقافتها وفنونها .. وتمكن بهذه الطريقة من إعادة تحرير وتعميق العمل الذى تقدم به فى أبريل ١٨٠٧ إلى أكاديمية جرونوبل ليصبح : « مصر فى عصر الفراعنة قبل فترة قمبيز » .

قبل عدة شهور - وانتظاراً لمرحلة الدراسة المنظمة ل حجر رشيد الذى وضع الأب دويتريسان نسخة منه تحت تصرفه - ظل يعمل بإصرار على البرديات المكتوبة بالخط المتصل المصرى . فى ١٥ أغسطس ١٨٠٨ كتب رسالة لأخيه تيبو كما لو أنها إفتتاحية أوبرا :

« لقد خطوت خطوة كبيرة نوعاً فى هذه الدراسة :

- ١ - بالقياس تمكنت من إثبات أن جميع هذه البرديات تتبع نظاماً تحريرياً واحداً بالنسبة للخط المكتوبة به .
 - ٢ - أن لدى ما يثبت أن جميع هذه الحروف بما فيها الموجودة على حجر رشيد متشابهة .
 - ٣ - إكتشفت معنى بداية البردية المنقولة فى كتاب دونون - وهى اللوحة ١٣٨ [...] والتى تعنى باللغة القبطية بالنص : « قول : أرقد فى سلام يامصرى وتوصل إلى غايته النهائية وتخلص من ظلمات القبر والموت » .
- وهكذا فإن الأمور كما ترى تلبو مبشرة وإذا إستمر الحال على ما هو عليه فإنى

(سأوجه) ركلة قوية إلى كاترومار ومدعى المعرفة بالمصريات الذين يملأون متاحفنا
ومعهدنا » .

لم يكن فيجاك يحب إنفجارات أخيه الجدلية إلا أنه كان فى غاية السعادة أمام
هذه الاكتشافات لدرجة أنه امتنع أن يخلط مدائحه باللوم « إذا تمكنت من إثبات
افتراضاتك [...] فسنجد فى انتظارك شهرة واسعة ويصحبها فوائد جمة [...] بمايكفى
لكى يجعلك تقرر الاستمرار فى أبحاث هى غاية الأهمية [...] إن مشروعك يتطلب
المثابرة [...] أن أشهر مثقفى أوروبا سيشعر بالزهو بمثل هذا الاكتشاف ولذا يتحتم
عليك الارتباط بهذا المشروع دون رجعة . دع كل شئ عدا ذلك [...] إنى أطالبك
(لوسمحت لى) بأن تفيدنى باستمرار بتطورات هذا البحث . ومن ناحيتى وبمساعدة
أبجدية أوكريلاد * سأتابع (بحثك) على البريدية ١٣٨ فى كتاب دونون وسأسارع
بإفادتك بما أصل إليه من نتائج » .

لم يتردد جاك - جوزيف العاقل فى أن يضيف أن الباحث يجب أن يأخذ فى
الحسبان « كل ماكتبه » أوكريلاد عن حجر رشيد وكذلك ماكتبه باهلين بالإضافة إلى
أعمال واربرتون ثم يضيف مايلى وهو ماوجد فيه جان - فرنسوا بعضاً من السم :
« كف عن الهزيان فى مواضيع أخرى - إلا إذا كنت تريد أن تتسلى ... »

لم يكن تشجيع أخيه له قد وصله حتى كتب له فى ٣٠ أغسطس يفيدته بأنه خطأ
خطوة جديدة إلى الأمام متعلقة بالبريدية ١٣٨ من كتاب فيثان دونون :

« للوهلة الأولى اعتقدت أنه من المستحيل أن أفك رموز هذا المخطوط لأنى كنت أعتقد
أن المجموعات التى تتكرر كثيراً بها توازى عددها من الحروف ، وسرعان ما أدركت
أن المصريين لابد وأنهم ساروا فى ذلك على نفس خطى الشرقيين الآخرين ، وعلى
ذلك نحيت المجاميع جانباً ورحت أجمع الخطوط الأكثر بساطة ، ومع ذلك فإن
بعضهم قد قاوم حتى الآن إصرار عيني الكاشفة والمدققة جداً .. على إننى سأغلب
عليها فى النهاية .. »

ثم يشير إلى أنه يستخدم أيضا أبجدية أوكريلاد (الذى سيتعامل مع أبحاثه بعد
ذلك بتحفظ) ويقارن بينها وبين رموز حجر رشيد ويعلن لچاك - جوزيف أنه تمكن

* عالم سويدي . راجع الفصل ٩ .

بهذه الطريقة من عزل ٢٥ حرفاً « وهو بالضبط العدد ذاته الذى حدده بلوتارك » .. ثم يشير إلى أن هيرودوت قال أن « المصريين يكتبون ويحسبون من اليمين إلى اليسار » . ويختتم جان فرنسوا قائلًا : « أرفع لك خطوتى الأولى » وضوح فكرى جميل ! هل نسى فى غمرة ذلك أن « بيركل » إتيان كاترومار وآخرين ؟ سنراه بعد ذلك فى خضم معارك ضارية . إلا أن وضوح رؤيته العلمية تبقى مؤثرة للغاية . فهو يقيم التقدم الذى يحرزه بأنه هام بالمقارنة بما توصل إليه أسلافه ومنافسوه إلا أنه لا يخدع نفسه بتاتا فيما يتعلق بفرصه المستقبلية لحل الطلسم .

فى بداية سبتمبر ١٨٠٨ لخص لفيچاك الموقف بهذه السطور التى جاءت ردا على تحذير الأخ الكبير له من ميله « للهزيان » :

« أولا : المسلات . لم أدع يوما أنى أقوم بدراسة المسلات بوجه خاص [...] إن السيد الفارس زويجا * الذى كتب مجلدًا ضخماً جداً (بحجم الفرخ الكامل) عن هذا الموضوع اعترف لشخص من معارفى أنه لم يخط خطوة واحدة إلى الأمام بهذه الدراسة على الرغم من أبحاثه الهائلة . ومن السهل أن تقتنع بذلك إذ يكفى أن تقرأ الكتاب .

ثانيا : البردية . نحن هنا أيضاً بصدد نقط غامضة مثيرة للارتباك لقد قرأت سطرًا ونصف وقمت بعمل أبجدية على أساس أثر معروف للكافة . واكتشفت معنى واضحًا يتوافق مع المناسبة ومكتوبًا بأسلوب مناسب .. ومع ذلك فإننى لم أتقدم قط إلى الأمام .. لا يمكننى أن أتقدم لأبعد من ذلك فالجامع تعرقل مسارى . لقد درستها وفكرت فيها أيامًا بأكملها ولم أفهم شيئًا . الحقيقة - دون فخر - هى أنى ذهبت فى هذا الموضوع أبعد مما ذهب إليه جميع الأثريين السابقين مادمت قادرًا على إثبات أن جميع البرديات (المكتوبة بالخط المتصل) تتبع أبجدية قريبة للغاية من بعضها وهو مالم يفتن إليه أحد حتى الآن ... »

لا أحد ؟ يفتن ؟ إن هذا الشاب المتهور يتسرع فى أحكامه ويمر فجأة من التواضع إلى خليط من الثقة الزائدة بالنفس والانهمازية . وهو فى السابعة عشر من

*عالم سويدي . راجع المقدمة والفصل ٩ .

عمره يقر بأنه « لم يفهم شيئاً بعد » ثم بيت في كل شئ ويبدى نحو أساتذته نوعاً من الاحتقار في صورة ومضات تنبؤية ولكنها بالطبع غير لائقة :

«... ومن جهة أخرى فأتنا عليم بأمور هذا القرن ويعلماء هذه الأيام ! وإذا حدث لشقائى أن تقدمت فى اكتشافى قبانى سأجد كل علماء الحاضر والمستقبل واقفين فوق جسدى يمطروه بالنقد والحذف ووداعاً للراحة * إبنى أعتقد على العموم إن الدراسة العليا للآثار القديمة التى أكرس لها وقتى غير قادرة على التوصل إلى نتائج يمكن تقديمها للجمهور الذى هو فى الوقت الحاضر جمهور غبى . ذلك لأن أقل هذه النتائج ستصدم الأفكار المسبقة فلا يمكن أن يتفق معها سوى عدد قليل جداً من الشخصيات المتنورة ... »

وكما لو أنه أراد أن يزيد من تحديه « لعلماء هذا الزمان » تحول مكتشفنا فجأة عن الطريق المفتوح أمامه وترك نفسه لسيطرة ما يمكن تسميته « حمى دراسة الآثار الإترورية (حضارة إيطالية قديمة) أو بالأحرى « إترورية . فنيقية » ولعل ذلك حدث بتأثير من الأب دوترسان الذى كان يفتخر ببعض من المعرفة فى هذا المجال وكتب لأخيه چاك - جوزيف فى بداية شهر سبتمبر :

« الإتروريون يشغلونى فى هذه الأونة : اللغة والأوسمة والأحجار المنحوتة والآثار والتوابيت كل شئ أصبح محفوراً فى رأسى . لماذا ؟ لأن الإتروريين قدموا من مصر . مثل هذه الخلاصة ستجعل كل مثقفك الفارقين فى كل ما هو يونانى ولاتينى يقفزوا إلى أعلى ! ومع ذلك فلدنى الدليل القوى جداً على ذلك ... »

« الدليل » كان عبارة عن « حفر بارز على بازلت أسود أرسل إلى الكاردينال بورچيا وعلى الجانب الآخر من الحجر وجدت بعض الكتابات الإترورية » .

نقد صبر چاك - جوزيف بعد أن رأى أخاه الذى كان قد أحسن التعامل مع مسألة الخط المتصل المصرى - ينحرف فجأة فى اتجاه هذا الدرب الإترورى . هل هو غير قادر على أن يقوم بمجهود متصل ومجهود ؟ وهذه الطريقة الناقدة للسلطات المعترف بها والرواد ! فأرسل له خطابين متتالين يعبر له فيهما عن سخطه وخيبة أمله .

* حديثه هنا بمثابة نبوءة حقيقية .

لماذا تضع نفسك فى موقف معارض « لحقائق معترف بها من عالم « العلماء ؟ »
ولماذا هذا الموقف الخاص بالأتوريين . وقد مضى « ألف عام عرف خلالها أن
الأتوريين نصفهم مصرى ؟ . وهو مايتضح حسب قول الأخ الأكبر بوضوح
وبالمستندات من كتاب « إتوريا ريجاليس » لدمستار .. أليس من الأفضل « أن نحسن
الرأى بكل ماتم عمله « بدلا من نترك أنفسنا « لتأثير بعض التفاهات والنكات «

أخطر من ذلك كان الهجوم الذى شنه فيجاك على نقطة حساسة مركزية : « لقد
استسلمت لليأس إزاء دراسة البرديات .. لقد قرأت سطرأ ونصف ثم توقفت عند تلك
النقطة ... لم أعد أعرفك أين ذهب نوبك المصرى ؟ لقد سبق أن قلت لك أنه ينقصك
الاستمرارية فى العمل [...] هل كتب على أن أقوم بواجباتك ؟ شاركتك العمل ثم
تتركنى هكذا ... »

عاد چاك - جوزيف بعد عشرة أيام إلى الهجوم بحددة متزايدة : « ادرس شيئا
واحداً بدلا من الهذيان فى كافة اتجاهات العالم ومن المرور على موضوع ما مرور
الكرام [...] وبدلاً من الاعتقاد أنك ترى أفضل من جميع الآخرين وأن تخلق لنفسك
نظماً خيالية لا أساس لها سوى بعض الآراء المتحذلقة حول جنور الكلمات وبعض
التشبيهات القياسية الذكية ... »

هل هو يهذى ؟ إن الذى يصفه چاك - جوزيف بالفرس الجامح الذى يطالب بزاد
مضاعف ثلاث مرات لم يرض بمثل هذه الضربات حتى لو كانت كانت من سوط « أخيه
العزیز جدا « ! فكانت هذه الرفسة :

« لو أن رأسى رأس صغير يخلق نظماً خيالية لا أساس لها سوى بعض
التفاهات فلماذا تريد أن تطبع جغرافيتى المصرية ؟ وهى المليئة بمثل هذه
المواضيع ؟ حتى لو قلت عنى أننى مجنون فلن يمنعنى ذلك من دراسة التاريخ
القديم بوساطة اللغات ومن حب أصول الكلمات ، والأكثر من ذلك - ويا للكفر
الأسود - لن يمنعنى من احترام لغة مقاطعة بروتانى السفلى احتراماً
عميقاً .

ويعاود فى خطاب ٢٩ سبتمبر :

« ... أتظن أنك بسترهبنى بعالمك من المتعلمين . ولكن هل تعلم ما هو هذا العالم المتعلم ؟ هذا العالم المتعلم مثل عالم السياسة يسير مغمض العينين وراء قائد يستحق أو لا يستحق أن يقود ، قائد يؤمنون بأرائه جميعاً لأنها صادرة منه [...] إلى أن يظهر قائد آخر أقوى منه أو أكثر حذقاً أو براعةً فينقلب عليه ومعه النظام القائم ليقيم آخر بدلا منه .. ألم يكن الاعتقاد السائد لزمان طويل أن الأرض مسطحة ؟ ... وكان معشر المتعلمين في ذلك الوقت يؤمنون بأنها مسطحة . »

- ابتداء من ذلك الحين سياتخذ رفض شامبوليون الصغير للأوضاع القائمة أبعاداً أكثر نشاطاً وسيتضخم ويفرقع في جميع الاتجاهات . ويصيب أخاه بالهلع وهو يراه يستهدف أساتذته وكبار الشخصيات في المجتمع وأعضاء الأكاديمية وكبار رجال الدين وجميع من حملوا ألواح الناموس وراحوا يؤكفون عبر القرون أن الأرض لا يمكن أن تكون مستديرة ما دام الفاتيكان أفتى بذلك . ثم يفتح النار متطاولاً :

« المصريون ، هذا الشعب البسيط من زراع البصل* كانت أفكارهم أكثر عظمة وأقرب لله من صاحب القداسة البابا تبعنا، ممثل يسوع مسيحنا على الأرض . أمين .. »

أهداف هذه السخرية المحطمة للأوضاع التقليدية القائمة كانت متوافرة . بعض هذه الأهداف كانت مكشوفة وتتعرض له بسذاجة دون أية دفاعات تقريباً مثل ألكساندر لونوار الذي نشر كتابه « الشرح الجديد للحروف الهيروغليفية » *La Nouvelle Explication des Hiéroglyphes* في عام ١٨٠٨** الآخرون لم يقفوا مكتوفي الأيدي مثل إتيان كاترومار الذي نشر في نفس الفترة كتابه « أبحاث نقدية وتاريخية في لغة وأداب مصر » وهو كتاب أبعاده مختلفة تماماً . أما مجموعة مؤلفي كتاب « وصف مصر » ولن يظهر المجلد الأول منه بسوى في العام الثاني (وكان جان فرنسوا يتابع أعمالهم عن قرب) فقد احتفظ لهم - هم أيضا - « بنصبيهم » من الهجوم .

* البصل هو الغذاء الرئيسي في دلتا النيل .

** راجع المقدمة

لم يكن چان - فرنسوا شامبوليون فى الواقع قديساً علمانياً كما عمل على تصويره مريدوه من كتاب سيرته بل هو مجادل عنيف لدرجة التسميم أحياناً مثل الحية فى لدغها وهو مناظر عنيد ومتعصب ؛ هو خلط من فارس جاسكونى مثل فرسان قديم الزمان المحاربين بالسيوف الذين خرجوا مثله من منطقة فيجياك ومتحرر عنيد من مقاطعة بوفينييه مثل ستانداى . قلة قليلة من الناس تلقى القبول فى عينه وأمام قلمه . وأقلهم قبولاً عنده هم أولئك الذين تجرءوا قبله فى السير على درب محاولة الاكتشاف العظيم للغز الهيروغلىفى .

إن الملاحظات التى سنقرأها تثير الاندهاش الشديد بل والمضاعف لا بسبب نضجها المبكر فقط بل لوقاحتها أيضاً . إذ يجب ألا ننسى أننا بصدد مراهق فى السابعة عشرة من عمره ثم فى الثامنة عشرة . وهو لا يزال طالباً وعلاوة على ذلك كله فهو يحاكم أساتذة مبدلين (من أخيه على الأقل) وعلماء مشهورين .. حدة نبرته لن تهدأ مع تقدمه فى السن . ولكن سن السابعة عشرة هو سن رامبو عندما تحدث عن شعراء عصره المشهورين ...

صحيح من جهة أخرى أنه استثنى تلقائياً « ميلان » هذا الرجل الخير الذى ساعده كثيراً هو وأخاه فى مقال نشره فى مجلة معلقاً على التفسير الذى قدمه ميلان للأبراج السماوية المرسوم فى معبد دندره . وصحيح أيضاً أنه كان يود لو هدم تماماً كتاب « الشرح الجديد للهيروغليفيات » للونوار وكان يعتبره مثيراً للسخرية . فقد كتب « صغير » لأخيه : « إنه فرخ أوزة ولكنه فى آخر الأمر ولد ممتاز » ثم يضيف قائلاً إنه سحب مقالاً له من المطبعة كان يتكلم فيه بصراحة لأنه « فرخ الأوزة » تعامل مع صديقى نوبوا بطريقة يحمده عليها « ثم لأن هذا النقد كان سيصنع له أعداء لأن علاقات لونوار هذا « مع الإمبراطورة كانت جيدة للغاية » - هكذا ! تخرج لنا على السطح أولى علامات الانتهازية والتنازلات عند هذا المحارب المغوار

لكن هذا المزيج من التسامح والحيطة نحو مستقبله لم يشفع لإتيان كاترومار (وكنيته « يوليكارب ») لديه فكان كما سبق وراينا يحلم بأن « يركله » . وكتب چان فرنسوا يقول لأخيه أنه « لا يخشاه البتة » فيما شرع فيه من « عملية اقتحام البرديات » لأنه رجل حقود وليس أنانى . فهل كان هذا الشاب الذى ادعى أنه « عليم بعالم العلماء » يعتقد بالفعل أن ذلك الباحث يختلف فى هذا عن أغلبية أقرانه من العلماء ؟ على الرغم من كونه « حقود وأنانى » فإن نشر « بوليكارب » لكتابه « أبحاث

نقدية وتاريخية فى اللغة المصرية « عام ١٨٠٩ اعتبر حدثاً هاماً وصُفِّق له بحرارة واعتبر كذلك من المرشد سبيلفاستر نوساسى .

وقد زاد هذا من غيظ چان - فرنسوا : هل سيسبقه هذا « الحقود » (أجمع الكل على نعتة بهذه الصفة) فى أبحاثه .. فى ربيع ١٨٠٩ عاد « صغير » إلى العمل فى « قواعد اللغة القبطية » الذى كان قد شرع فى تحريرها . وراح يملأ الصفحات كتابة حول النص الديموطيقى المنحوت على حجر رشيد والذى حصل على نسخة منه من الأب تيرسان . فقد أقنع نفسه وحاول إقناع أخيه بأن العمل الحقيقى لم يبدأ بعد وأن « بوليكارب » مثله مثل جميع من سبقوه لم يقتحم بعد قلعة أسرار البرديات . فهو إذن ينحى جانباً وبشراصة كبيرة جميع المحاولات السابقة .

الجزء الأول من كتاب وصف مصر الذى سينشر فوریه مقدمته فى العام التالى ظهر فى يونيو ١٨٠٩ . فهل أتى هذا الجزء المنشور بجديد حول الموضوع الهام ؟ يعترف صغير على مضض فى خطاب بتاريخ ١٣ يونيو أن المؤلف جاء فى صورة « مجموعة عظيمة » تضم « رسومات جميلة » وهى إذ تنتقل بدقة المخطوطات والبصمات يمكن اعتبارها « أساساً صلباً للأبحاث الأركيولوجية » . أما فيما يتعلق بمحاولات فك ألغاز الهيروغليفية التى قام بها أعضاء لجنة مصر التى يرأسها چومار فيعتبرها چان - فرنسوا « تفسيرات كماء المظلمات (الطرشى) ... » طاخ !!

ماذا يقول عن الرواد فى مجال فك الشفرة ؟ ما أن يبدأ الحديث حول الموضوع إلا ويفتح النار من جميع الاتجاهات فى حرب إبادة :

« كل ما قاله عن المسلات كيرشار وچابولنسكى وقارپورثون الخ . .. لايجدى إلا فى إثبات أن أحداً لم يفهم شيئاً ولن يفهموا شيئاً أبداً [...] »

وماذا عما قيل عن أن الدانماركى زويجا أصبح على الدرب ؟ الرد : « السيد الفارس زويجا قام بتجميع كمية هائلة من المواد الأولية ليبنى بها مبنى ضخم [...] إلا أنه لم يضع لبنة واحدة فوق أخرى ».

والسويدى ... آ كربالد ؟ الرد : « لقد اعترف بنفسه للأب تيرسان والذى أقر لى شخصياً بذلك أنه على الرغم من أبجديته واكتشافاته الجميلة لا يمكنه قراءة ثلاث كلمات على التوالى فى نص مصرى . »

مهما كانت درجة قسوته على من سبقوه وعلى منافسيه فإن چان - فرنسوا

شامبوليون كان يعترف فى ذلك العام ١٨٠٩ أنه لا يزال يبحث عن طريقه وأنه يواجه صعابا حتى فى تحديد أسس بحثه ذاتها. وذلك فيما يتعلق بما أسماه ببساطة « الخط المكتوب ». ولذلك فهو يعمل بجد ليتمكن تماما من اللغة القبطية . فهو على يقين أنه يقف هنا على أرض صلبة يمكن أن يشيد فوقها وهو مطمئن .

سبق وذكرنا محاوراته المستمرة منذ نهاية عام ١٨٠٧ فى كنيسة سان روش الكائنه بالقرب من مسكنه مع القس شيفتيش ، وكنيته « باسا » . وكانت هذه العلاقة بالنسبة له كنزا لايفنى . إلا أنه اكتشف أيضا فى المكتبة الإمبراطورية مخطوطا باللغة القبطية ظهرت فيه أسماء المدن المصرية مكتوبة بطريقة تؤكد افتراضاته ، وأيده فى ذلك دوم رافائيل .

أخذ باحثنا الشاب وفى يده نسخة العهد الجديد باللغة القبطية التى أعارها له الأب تيرسان ينقل بطريقة منظمة المخطوطات القبطية الموجودة فى المكتبة الوطنية ، هكذا اندفع فى طريقه .

خلال صيف ١٨٠٨ شرع فى دراسة قواعد « اللهجة الطيباوية - الصعيدية » المستخدمة فى جنوبى مصر حيث تعيش أغلبية الأقباط .

وسنجده فى مارس وابريل من عام ١٨٠٩ وقد تفرغ تماما لدراسة وممارسة اللغة القبطية :

« إنى متفرغ تماما للغة القبطية [...] أود أن تكون درايتى بهذه اللغة كالفرنسية تماما لأن عملى الضخم عن البرديات المصرية سيقوم على أساسها [...] لغتى القبطية تتحسن باستمرار وأجد فى ممارستها سعادة كبيرة حقا إذ يمكنك أن تتخيل أن سعادة الحديث بلغة أمينوفيس ورمسيس وتحتمس ، لايمكن أن تكون صغيرة . [...] أما عن اللغة القبطية فأتا لا أفعل شيئا آخر أنا لا أحلم إلا بالقبطى . ولا أفعل غير هذا . لا أحلم إلا بالقبطى ، المصرى [...] لقد ألفت (١) قواعد لغة طيبة - صعيدية (الوحيدة فى العالم) (٢) كتاب عن لهجة ممفيس (٣) مقارنة بين اللهجتين (٤) نقلت قواعد اللغة الصعيدية إلى اللغة العربية من النص القبطى (٥) نسخت النصوص (٦) ألفت الحرف أ من قاموس صعيدى (لا يوجد قاموس أصلا) (٧) انتهيت من سبعة حروف من قاموس اللهجة الممفيسية مبنيا على جنور الكلمات . [...] »

أصبحت قبطياً لدرجة أنى أسلىَ نفسى بترجمة كل ما يخطر على بالى إلى اللغة القبطية؟ وأتحدث مع نفسى بالقبطى (شرط ألا يسمعى أحد) وهذه هى الطريقة الوحيدة التى ستدخل لغتى المصرية الخالصة داخل رأسى . بعد ذلك سأقتحم البرديات وبفضل قيمتى البطولية أمل أن أتى عليها . لقد خطوت خطوة كبيرة . إنى أعتبر شخصياً اللغة القبطية أكثر اللغات كمالاً وأكثر اللغات المعروفة عقلانية ... »

الملاحظ أنه لا يتحدث عن الهيروغليفية وإنما عن البرديات . فهل يرجع ذلك إلى أنه كان يعتقد أن اللغة المقدسة فى مصر القديمة كانت تستخدم فى هذا الشكل أساساً ؟ لقد لاحظ هو مع ذلك أنها فى صورتها المستخدمة فى المعابد تستحق الدراسة أيضا .

فى ٢٨ يوليو ١٨٠٨ أى قبل عدة أشهر اكتشف مع صديقه نوبوا النحات الممتاز الذى درس فى إيطاليا « فى حديقة الكونت دو شوارزول الجزء الأعلى من مسلة من الجرانيت ونحتها وهى الوحيدة التى رأيتها محملة بهيروغليفيات دقيقة وجميلة بهذا الشكل » . صب الصديقان وجهاً من المسلة . يعلن جان فرنسوا لأخيه بعد ذلك بأسبوعين أنه سوف يبعث إليه ببعض القطع الجميلة التى صلبها له نوبوا : رأس مصرية وباروليف من طيبة وكذلك « تمثال مصري صغير جميل للغاية » قال أنه أخذه من الكساندر لونوار و « لوحة صغيرة هيروغليفية منقولة من مسلة شوارزول » .

وهكذا ظهر له بعد جديد يتميز به هذا العالم الذى اعتزم سبر أغواره قبل أى شئٍ آخر وهو بعده الجمالى . ولا يعنى ذلك أنه لم يكن قد لمس منذ البداية جمال الفن المصرى فقد فضله على جميع الفنون الأخرى ولكن لكونه هو نفسه رساما فقد تمكّن مع نوبوا من كشف الجوانب الخاصة بالرسم والشكل والتعبير فى الكتابات التعبيرية للكهنة المصريين .

فقد ظهر له بوضوح تام أن هذه الكتابة لم تكن تستهدف فقط وظيفتها الاتصالية إنها تحمل أشياء أخرى كثيرة متمثلة فى رسالة مقدسة تؤدى الجماليات فيها دورها بصفتها قرباناً مرفوعاً إلى الآلهة . تكمن هنا إحدى اشراقات شامبوليون الذهنية التى هى إحدى الطرق التى سيسلكها للوصول إلى اكتشافه ألا وهو الوعى بالجانب الجمالى وبمعانى الجمال التى تتمتع بها هذه الكتابة .

لنلاحظ هنا أن انغماسه الكامل داخل الثقافة المصرية اضطره إلى مراجعة فاصلة للأفكار التى كان يعتنقها بالنسبة للثقافة العبرية . فلسنين طويلة ومنذ أن بدأ

دراسة الكتاب المقدس فى مدرسة الأب دوسار جعل منه مركزا لجميع أبحاثه فى الأمور الشرقية فأصبح بالنسبة له الجزع المشترك لثقافات الشرق التى لا تتعدى كونها روافد لهذا النهر الكبير .

ها هو فجأة يزيح اليهود إلى نور هامشى شاجباً « اليهود الجهلة ، المؤمنين بالخرافات الذين يدعون أن الأب الطيب إبراهيم والكهنة اليهود قد علموا قواعد الحساب الأربعة والفنون جميعا للمصريين . » . وستجد قلمه قد كتب كلاماً قابساً نحو هذه « الجماعة البائسة » و « الملك الصغير سليمان » الذين يدعون أنه فى إستطاعتهم أن ينافسوا فى تاريخ البشرية حضارة أهل النيل ... مناهض لليهود مثل مناهضة ثولتير لهم وهو سيعمل على التقليل من حدتها فيما بعد وهى لا تنتسب بأى شكل مع مناهضة السامية الحديثة .

كان ربيع ١٨٠٩ بالنسبة لجان - فرنسوا شامبوليون ربيع الآمال المضطربة ، كانت أبحاثه بالفعل لاتعود عليه سوى بخليط من الإشارات المواتية وخيبة الأمل . لكنه ربما توصل إلى استعادة الروابط المتناغمه مع أخيه وكانت قد مرت بأزمة كما رأينا خلال الخريف ؛ كما أنه بدأ يعيش وذلك لأول مرة منذ وصوله إلى باريس مغامرة عاطفية سنعود إلى الحديث عنها . يبدو أن هذه التجربة قد حركت فيه جنوة - كاد ترده على الأوساط الباريسية الجامعية والسياسية - أن يطفئها .

فيما يتعلق بأعماله فى الأبحاث المصرية القديمة أصبح الأمر أشبه بالاستحمام على الطريقة الإسكتلندية ، فقد توالى عليه بخصوصها الساخن والبارد حسبما جاء فى رسائله لأخيه . ففى أحد أسابيع شهر أبريل كان الأمل هو السائد :

« البرديات أراها أمامى طول الوقت . إنه أكليل من الغار جميل إذا حصلت عليه :
أمل أن يكون من نصيبى ! »

الأسبوع التالى تملكه الغيظ :

« وجدت معنى واضحاً ، متماشياً مع الظروف وأسلوبه مناسب .. ومع ذلك لم أحقق
أى تقدم ! ليس فى إمكانى الذهاب أبعد من ذلك . . مجاميع باكملها تعطل مسيرتى .
قمت بدراستها وأمعنت فيها التفكير دون جدوى ... لم أفهم منها شيئاً ! »

فى الأسبوع الثالث : الأمل هو السائد :

« بتشجيعك لى على المضى فى أبحاثى على البرديات تحضنى على المثابرة فى التمسك بالنتائج التى توصلت إليها وهى إنى على علم بما أريد . بسأصل إلى هدفى النهائى . »

الأسبوع الرابع . فى بداية شهر يونيو ، ظهر التخوف على السطح :

« سأقوم بتجربة طريقتك لقراءة حجر رشيد . أخشى كثيراً أن تكون مجهوداتنا بلا طائل ، لأن قواميسنا القبطية تضم عدداً من الكلمات محدودة المعنى لدرجة تحد الأمل فى التوصل إلى ترجمة كاملة لكل الجمل اليونانية إلى كلمات محددة مصرية (قديمة) ومع ذلك فالمركب سائرة ! »

وفى ١٧ يونيو ، نجد هذه الخلاصة الحزينة المؤقتة :

« المحاولة التى قمت بها على النص المصرى لم تأتى بأية نتيجة .. أسماء الأعلام التى قرأتها مثلما قرأها أو كريبالد (علما بأننا غير متفقين فى طريقة الفصل بين الحروف البسيطة) لا تتطابق مع النص اليونانى - وعليه فإن الخط الذى طلب منى السير عليه لم يؤد لشيء ، فهو قائم على أساس التطابق الكامل بين النصين اليونانى والمصرى » .

والمركب تسير !!..... الإحباطات كانت كثيرة ، علماً بأن « صغير » لما يكن قد تخطى بعد دراسة الخط المتصل إلا أنه كان قد تخطى الأزمة التى عملت فى نهاية صيف ١٨٠٨ على تسميم علاقته بچاك جوزيف خاصة وأن يقظة هذا الأخير كانت أحياناً تأخذ أشكالاً تثير السخط . الطلبات والتنبيهات والإنذارات والمهمات والتهامات والمعاتبات والتساؤلات والتأنيبات والمحاضرات فى الاقتصاد فى الانفاق والاستدعاءات والاحتجاجات والتوبيخات التى كانت تنهال من مدينة جرونويل على المترجل فى شوارع باريس أخذت شيئاً فشيئاً شكل الإزعاج المنظم . چاك جوزيف كانت له صفات حميدة عظيمة ولن نكل من تكرار أن لولا وقوفه بجانبه لكانت عبقرية چان فرنسوا السيكلوتيمية (المتذبذبة بين حالات النشاط العظيم والإحباط العميق) (المترجم) قد غاصت فى أعماق القلق والحزن ، ومع ذلك فلقد كان حقاً هذا الجاك - جوزيف إنساناً مزعجاً إذا أردنا الكلام عنه بصراحة هذا الجاك - جوزيف . وها هو الدليل .

فقد قرر الأخ الأكبر أن يتقدم لشغل وظيفة مفتش بالأكاديمية التعليمية لمدينة

جرونوبل . فأمر « صغير » فى نهاية مارس ١٨٠٨ بأن يستخدم « جميع الوسائل التى تجعله ينجح فى مسعاه [...] أثبت إلى جانب الينابيع التى يستندفع منها سعادة كبيرة لى وللأسرة كلها [...] إمزج بين الوسائل والتمس الحصول على تسهيلات وحرك الأشخاص الذين يستطيعون مساعدتى على بلوغ هدفى » .

جميل ! ولكن بعد ذلك تبدأ المدفعية الثقيلة ! الطلقة الأولى فى شكل زوج من الأمثلة العامة المشبعة بالجو العام السائد فى ذلك العهد ، عهد تاليران وفوشيه : « المكيدة حويطة ، يجب أن نكون أكثر حيلة » و « فى إمكانك أن تفعل بشخص كل ما تريد إن عرفت من أى جانب تأخذه » (إلا أن شامبليون - فيجك لم يوضح ماهو هذا الجانب) لابد لنا أن نختتم هذه الدروس فى الحياة من الأخ الكبير إلى الأصغر بهذا المبدأ الذى تلى ما سبق ببضعة أسابيع : « إن المبدأ يعلو دائماً على المكيدة ولكنها إذا فرضت علينا فلنكد .. » .

فى ٢٨ أغسطس : « . أمامنا بعض المنافسين ، إذا لم نكن يقظين فإن « فاجو » هو الذى سينال (الوظيفة) [...] اكتب لى [...] اذهب واستعلم من المنبع الأسمى ونبه الجميع » ثم فى ٢٤ سبتمبر « .. سأجد نفسى مضطراً إلى أن أكتب إليك أخبار باريس من جرونوبل .. [...] لا يمكن أن أعتد عليك فى مهام كهذه [...] هذه هى نتيجة أن تعيش منعزلاً أو وسط أشخاص تنعكس عليهم التفاهات التى يسمعونها أو يتنصتون على أبواب الذين يعرفون [...] عادتك السيئة التى ترغمنى على استنباط كل شئ أصبحت غير محتملة [...] يجب أن تستوفى هذه الطلبات وأن تقول لى بشكل نهائى إذا كان فى إمكانى أن أطلب منك القيام بهذه المهام [...] لأن الماضى لا يسمح لى بالاعتماد على تعاونك ولا حتى على حماسك » .

وإذا ما بلغنا ٦ أكتوبر نكون قد وصلنا إلى مرحلة الابتزاز المالى : « فلان مسرور ... وغلان غير مسرور ... إنكما * إن تحصلا على نقودى وإذا لم أرسل أى نقود كل شهر فعليكما الانتظار ! عندما لا يفكر المرء إلا فى نفسه فهو يجعل الآخرين يفكرون فى أنفسهم . وهو ما سأفعله [...] خطابك تضمن العديد من النفقات غير الضرورية [...] بيرة وقهوة وركوب عربات والخروج إلى الريف [...] هل يمكن أن تقول لى مع من هذه القهوة وهذه البيرة ... » .

* جان فرنسوا وصاحب الدار مسيو فوجا .

مهما كان وفاؤه لأخيه وراعيه و « مدير أعماله » العلمى فإن جان - فرنسوا لم يتمكن من أن يكتم غيظه الذى تسبب فيه عند أخيه وأيضاً ميله إلى معاملته معاملة الساعى أو حتى المشتبه فيه :

فى ٢٩ سبتمبر :

« إنك تشكو كثيراً من إهمالى إلا إنى أريد أن أراك مكانى . أنت الذى تعانقه زويه [وتدله] بولين وتهندمه مدام بريزون أى أن المنزل بكل من فيه يحتضنه أود أن أراك فى [...] وسط أحوال باريس تهول من طرفها إلى الطرف المقابل . فى النهاية (هنا يتضخم الخط كما لو كان يعبر عن إنحناءة التحية) سأقوم بتنفيذ طلباتك مهما كانت .»

« مهما كانت » لها معان كثيرة . لأن المشاوير التى يقوم بها من أجل أخيه تستحق كل معنى لها . فهو يركض من المكتبة الإمبراطورية التى كانت كائنة - بالقرب من المقر الحالى للمكتبة الوطنية بشوارع ريشوليو إلى الكولاچ نو فرانس مارا بالشوارع المزدهمة جداً المحيطة باللوفر وتحترقه ثم كوبرى « البونوف » كل ذلك كان يشغل جزءاً كبيراً من أيام الطالب .

بعد ذلك وبعد أن يؤدى عمله كان عليه أن يجرى من حديقة النباتات إلى شارع « الباك » الحالى ومن حى « الماريه » حيث يقيم يوم رافائيل إلى مكتبة مازارين . كم فرسخ فى اليوم يقطعها وقد أصبح متسخاً ويتصبب عرقاً لدرجة التشبع وهو يلهث فيسخن « كما تعود أن يقول ؛ إنها مهنة صعبة للغاية أن يكون المرء قائماً بأعمال چاك - جوزيف شامبوليون شامبوليون - فيچاك ! ساع أم حمال ؟ من المؤكد أن الأخ الصغير لم يسرق حماية أخيه ولا مساعدته له ...

وها هى صرخة التمرد تتطلق فى ١٠ أكتوبر ١٨٠٨ من الشاب وكان قد غاص تماماً فى عملية فك شفرة حديث الألهة فأصبح غير قادر على تحمل معادلة ساعى التلغراف غير الواعى :

« عزيزى *

هل أنت حقاً الذى كتب الخطاب الذى استلمته ؟ [...] إذا لم أنفذ حرقيا أوامرك

* التلغراف المعتاد كما نعرف هو : « أخى العزيز جداً » .

مقابل النقود التي ترسلها لى فذلك لأنى أعتقد أن لدى أسباب تجهلها أنت لكى أتصرف بشكل مختلف . فيما عدا الاحترام الذى أكنه لكل ما هو صادر من بابكم العالى [..] كان من المفروض أن تعلم منذ زمن بعيد كم يكدمسيو فوجا لكى يتمكن من إعاشة عائلته وهو يعمل من الصباح إلى المساء كالعبيد [..] إنك تعلم تماما أنه طلب منك [..] تسديد الإيجار مقدماً كل شهر [..] كثيراً ماكنت تجعله ينتظر حتى ٢٥ من الشهر قبل أن تسدد له الشهر السابق [..] يبدو أنك تجد من واجبك أن تجعلنا ننتظر ومع ذلك فانت تختتم دائماً خطاباتك بالمواعظ . لعلك تعرف أنه من القسوة بمكان أن تجد أشخاصاً تعساء (من كثرة كرمك عليهم) بأن يذكروك تكراراً بوضعهم المؤلم [..] حاول أن ترسل الشهريات مقدماً لأنى أذكرك بأنى أفضل أن أتسول خبزي أو أن أقيم فى آخر كوخ فى شارع سان مارسو على أن أرى الألم (الذى أسببه) لأشخاص أدين لهم بمكرمات عديدة .

اسمح لى أن أقول لك أيضاً أنك تبحث عن مصلحتك أكثر مما يجب لأنك تشعر أن كل شئ ضاع إذا ما لاحظت أن أحداً أعطانى بعض النقود أو اصطحبنى أحدهم إلى الريف ليرفه عنى أو إذا أنا أكرمت أشخاصاً يستحقون ذلك [..] إنك بتصرفك هذا تبلى كما لو أنك تلومنى على كل ما قمت به من أجلي . لقد أدبت لى الكثير وسوف أتذكر ذلك ما حبيت وإنى لك لمتن كما يتحتم على أن أكون . ولكنى لا أريدك أن تتحرج بأى شكل من أجلي : إنك لست مدينا لى بشئ وأنا مدين لك بكل شئ ! .. » .

هذا الشاب نو الدم الحامى لدرجة أن يثور بهذا الشكل على من يجب هل كان من ناحية أخرى عرضة لفكرة واحدة ملحة تعذبه وتجعله حبيس أبحاثه ورموزه بالكامل ؟ هل هو رجل الحب الواحد والرغبة الواحدة والأمل الواحد ؟ كلا ! فى خريف ١٨٠٨ وفى نفس اللحظة التى تعقدت فيها داخل رأسه معطيات المسألة الكبرى - كما رأينا - نون أن تظهر له حلولها والتي مرت فيها علاقته بأخيه بأزمة حادة نراه يقع فى الغرام مثله مثل العديد من الأولاد فى سن السابعة عشرة أو الثامنة عشرة . يبدو أنه قابل ثانى امرأة أحبها فى حياته خلال فترة الإجازة ، وكان يمضيها فى باريس وهو مشغول جدا كما رأينا ولكن نون أن تقيده واجباته الجامعية .

إننا لانكاد نعرف أى شئ عن لويز ديشان. * سوى أنها زوجه أحد الموظفين وكان يكبرها بكثير وكان يعمل فى وزارة الحرب . وكان چان فرنسوا يتردد على هذه الوزارة بسبب علاقته بصديقه فوجاس الذى كان يعمل هناك . من المحتمل على كل حال أنه كان يقابل بعض زملائه أيضا ويدعى لزيارتهم فى بيوتهم . كل ما نعرفه مما نستشفه من مراسلاته مع چاك - چوزيف أن صديقنا الشاب قد وقع غرام بهذه السيدة التى ملكت قلبه لمدة عامين - أول المؤشرات ظهرت فى خريف ١٨٠٨ ** وفى ١٨١١ فى جرونويل قام چان - فرنسوا بمحاولة فى اتجاهها - وكان ولعه لها قد وصل إلى حد أن العاشق راودته فكرة التضحية بطموحاته الجامعية أو على الأقل بأبحاثه .

هل لأن چاك - چوزيف قد بدأ يشتم رائحة مغامرة « باريسيه » كانت ستجرف أخاه بعيداً فاختر أن يفقد وجود قائم لأعماله فى باريس وراح يغريه باحتمال تعيينه فى وظيفة أستاذ للتاريخ فى جامعة جرونويل ؟ احتمال ولكن لايمكن الجزم به ؟ فى نهاية شهر مارس ١٨٠٨ وفى إطار وصفه لما ستكون عليه الجامعة الإمبراطورية أن اقترح چاك - چوزيف على أخيه أن يعود إلى بيته ليكمل حياته الجامعية مضيافاً : « حيث يكون المرء بسعيداً ، هذا هو الوطن » !! لقد نبئت الفكرة وبدأت تختمر قبل ظهور لويز فى حياة الشاب الصغير . لكن كان على فيجاك أن يضع فى حساباته أى إحصاءة بالموافقة من چان - فرنسوا على فكرة تدريس التاريخ فى أى مكان لكي يحاول أن يجذب أخاه ناحيته لينتزع من « هذا الغرام الاثم » وذلك لدى تأزم الموقف . جاء رد چان - فرنسوا حاداً ويكاد لا يخفى السبب الذى يربطه بباريس :

يبدو لى أننا قمنا بإجراء سئى بمحاولة إيجاد وظيفة لى - فما هو الذى يمكننى أن أؤديه فى الجامعة ؟ ما هو كرسى التاريخ هذا ، على فرض أن هناك بالفعل كرسيا له ؟ هل يتعين على أن أبقى - كما تقرض ذلك اللوائح - عشر سنوات عبداً للحكومة لا أتحكم فى شخص ولا فيما تريد أن تقدم عليه يدي ؟ إن ذلك يعد ضرباً من الرهينة وأنا لست على استعداد لترويض حبي لحريتي ولا أن أضمن أيضاً بقاء قلبى صامتا . فما أصنق هذا المثل الشرقى : « قد تستطيع أن تسيطر على الرياح أن تنتزع السلاح من يد رستم بأسهل من أن تسيطر على قلب المحب ، كما أنك لايمكن أن تنتزع من الوجد العنق طالما أن الحب هو المبدأ . [...]] توجد هنا صفحة بأكملها ناقصة .

* باقى اسمها محو من الخطاب الوحيد المحفوظ والذي جاء ذكرها فيه .

** حتى ٢٠ أغسطس ١٨٠٨ كان لا يزال يلح فى طلب أخبار پولين . ثم يتوقف تماما عن ذلك فى

أكتوبر

فهل كان هذا صدفة ؟ .. وينتهي عرض جاك - فرنسوا بهذه الكلمات فجأة [...
حتى من الاستشراق أو الأفكار المثيرة جنسياً ».

مثيرة جنسياً.. لعله ذهب في تلميحاته أبعد مما يمكن أن تتحمله أعصاب ساكنى
منزل جرونوبل . فى ٢٢ أكتوبر ويعد أن اشتكى من أن أخبار زويه لم تصله أضاف فى
ارتباك واضح :

« بدأت أشعر الآن أن خطابى قد تسبب فى مضايقتها هى وبولين إلا أنى أقسم لك
أن ذلك حدث لعدم اختياري تعبيرات متزنة . لقد تحدثت بصراحة وإنى نادم بعض
الشيء للألم الذى سببه ذلك لكم » .

به د بضعة أيام أخذ يتوسل لأخيه أن يسمح له بأن تكون ملابسه أقل إثارة
للسخرية وأقل ريفية وذلك بأسلوب مؤثر يكشف عن وجود اهتمامات جديدة :
« لا تنسى موضوع الملابس . إنه الأهم الآن ! » .

غير أن هذا التحفظ لا يدوم طويلاً وتتفجر العواطف من جديد فى
٢٨ نوفمبر :

« سبق أن قلت لى آلاف المرات أنك لا تريد لى سوى السعادة [...] وهو ما يجعلنى
أفأتحك فى موضوع له أهمية بالغة وتتوقف عليه سعادتى الحالية والمستقبلية . لعلك
ستندهش مما أرمى إليه ولكنى أريد - قبل أن أعترف لك بما يحدث فى قلبى وبما
عزمت على القيام به - أن أحصل على وعد منك بأن يبقى ذلك [...] بيننا فقط وألا
تعلم به زويه أو أحد آخر فى العالم [...] أمل ألا تعترض على أعز آمال أخيك على
الإطلاق ».

وتتصاعد الذبرات مع مرور الشهور . إزاء حث جاك - جوزيف له بأن « يتشكك »
فى طبيعة عواطفه يجرى رد الأخ الصغير مداقماً عن حقوق « الشجر » ويختتم كلامه
بشيء من الحدة : « إذا كان قلبى قد ترك نفسه يقع فى الأسر فهو سيجد الطريقة التى
يشفى بها أو أن القدر هو الذى سيواسيه ».

عودة إلى بايرون ؟ « القدر » و « المكتوب » هما مرجعه سواء كان الحديث عن
غرامياته أو عن مغامراته العلمية :

« أجد نفسي مدفوعاً من عقلى نون ميولى ومن قلبى نون أى مقاومة ممكنة فى دروب
وعرة تنتشر عليها الحواجز الحادة التى تتوالى فى طريقى نون أن يكون لها آخر .
هذا هو قدرى وعلى أن أتقبله مهما كان الثمن » .

ومع ذلك فإن « قضية لويز » لم تحفظ بعد . من غير المعروف إذا كان جان
فرنسوا قد قطع علاقاته بالسيدة الشابة فى سبتمبر ١٨٠٩ أم لا . من المؤكد أنه أخذ
يحاول بعد ذلك بسنة ونصف - وكان قد أقام فى جرونويل - أن يبعث إليها برسالة .
لقد سبق وأشرنا إلى « خدمة » لاتنسى كان قد طلبها من زميله جان سان مارتان .
ففى ٥ مايو ١٨١١ وصلت لهذا الصديق الملقب « الأرمنى » هذه الرسالة * من جرونويل :

« موضوعنا اليوم لا علاقة له باللغة القبطية أو الفارسية بل أحدثك اليوم عن حب .
ستوضح لك الرسالة المرفقة بعض الشئ ما أرمى إليه [...] حاول أن تكتشف قرها
وأن تسلمها الخطاب فى يدها شخصياً ولا بد أنك تعرف السليبات التى قد تحدث لو
أنه وقع فى يد السيد ...

أترك لصداقتك لى عناء إيجاد الوسيلة الحذرة للنجاح فى هذه المهمة . [...] أرسل
أحد الأشخاص إلى مسيو نوييلو [...] يسأل عن عنوان مسيو ديسك ... ، المسئول
بوزارة الحرب [...] وساعتها ستعرف مقرها . إذا كانت الخادمة جوليان لا تزال
تعمل هناك تحدث معها . فهى فى صفنا وستعلم أين تجد العزيزة ... ولا تسلم
الرسالة إلا إذا تيقنت تماماً أنها ستتسلمها نون ما خطر [...] فى أسوأ الظروف
إذهب لمقابلة مدام فوجاس ، فندق دولار وشفوكو شارع السين [...] كل ذلك يجب أن
يبقى سراً بينى وبينك .. » .

لا نعلم شيئاً عن بقية القصة ، هل سامحت لويز جان - فرنسوا لسفره فى
أكتوبر ١٨٠٩ هل أحبته بالفعل ؟ ليس من المتاح مراجعة مراسلتها . الواقع أنها
ترملت بعد سنتين وتزوجت من آخر .⁽³⁾

* تفضل بتقديم هذا المستند لنا السيد / جانو كيتيل ، وهو جامعى من إمارة لوكسمبرج وهو
يخصص بحثه فى رسالة الدكتوراة لدراسة مخطوطات شامبوليون الصغير .

لم تكن إشارة چاك - جوزيف إلى التدريس فى كلية جرونوبل مناورة فقط من الوصى الذى يريد أن يبعد الموصى عليه بسرعة عن مغامرة حب لا أمل فيها إذ أن الشاب قد نجح وهو ما زال فى الثامنة عشرة من عمره فى أن يلفت إليه الأنظار والتعاطف لدرجة أن مسيو نو فوتتان الرئيس الأعلى للجامعة الإمبراطورية ألمح فى شهر يوليو ١٨٠٩ إلى إمكانية تعيينه مساعد مدرس للتاريخ القديم فى جامعة جرونوبل . كان عمره ثمانية عشر عاماً ونصف العام حينذاك فلزم التنويه . حدثت فى ذلك الوقت بعض الصراعات داخل إدارة التعليم العام ، وانتشرت شائعات عن احتمال أن يكون دى فوتتان من المغضوب عليهم فتعطل تعيين الشاب لشهرين أو ثلاثة . وقد تزامن تعيينه مع تعيين مزوج لچاك جوزيف فى وظيفتين فى وقت واحد : أميناً لمكتبة المدينة وهو ما كان يحلم به لعدة سنوات وأستاذاً للحضارة اليونانية فى الجامعة وكان قبل ذلك أميناً عاماً لأكاديمية جرونوبل ومديراً لحوليات مقاطعة الإيزار : كان أكبر الأخوين شامبوليون يجمع المراكز الهامة بين يديه .

وهكذا أصبحت الرياح مواتية لسفينة أبنى صاحب مكتبة فيچاك . فبينما كان الكبير يفرض نفسه على مقترق طرق العلوم والصحافة والقمم الجامعية كان چان - فرنسوا وكنيته « صغير » أو « أسد سعيد المنصور » أو « المصرى » مطلوباً ليقوم بتدريس طلبة اللوفينييه وهو فى السن الذى يحاول فيها البعض الحصول على درجة اليسانس .

حظ سئ للوزير .. وكرياج للأمام يا بسائق المركبة !! .

٥ - أستاذ فى سنن العشريين

جامعة وليدة - بنون عقد ... جرونويل مدينة نموذجية - تصور خاص للتاريخ -
جان - فرنسوا صحفى - مساعدو فوربييه - قضية الأبراج السماوية - شخصية
« بازاجية » فى المحافظة - تخدير ساس - الحرب على كاترومار ! - « أساس
المنظومة الهيروغليفية » .

« تبا ١ - زار الإمبراطور - من الأفضل غزو إنجلترا عن القيام بكل هذه
الجلبة .. » فى ١٤ فبراير ١٨٠٨ بينما كان مستشارو الأمير يلحون على سرعة تنفيذ
مشروع إقامة الجامعة الإمبراطورية صرخ فيهم نابوليون بهذه الجملة المتشدة وقد
نقلها جان - فرنسوا إلى چاك - جوزيف نقلا عن نص مكتوب حصل عليه من
سونينى .

لم ييأس فوركرو ولا سلفه فونتان .. ولما لم يتمكن الإمبراطور من النزول على
شواطئ بوقر فقد أكتفى بهذا الانتصار السلمى أى إنشاء جامعة موحدة على المستوى
الوطنى . تم إعتام المشروع الذى إضطر فوركرو أن يعدله ثمانية وعشرين مرة بناءً
على الرغبات السامية قبل أن يسلمه لنابوليون فى ٩ نوفمبر ١٨٠٩ بعد أسابيع قليلة
من عودة جان - فرنسوا شامبوايون إلى مدينة جرونويل .

اندرج الشاب فى صلب هذه المنظومة الوليدة معيداً بذلك علاقاته بالمدينة التى
بلور فيها موهبته واكتشف الطريق المؤدى إلى مصر بعد أن سلك عدة منحنيات فريدة
الشأن ولكن مدفوعا فى اجتيازه بولعه الذى ملك عليه وجدانه . لم يعد إلى جرونويل
عودة الأبن الضال ملفوظا من « عاصمة فرنسا القذرة » أو كما أطلق فيما بعد عليها
إسم « بابل » أو كان فى حالة يأس بسببها له تجاربه المرة بها . ولكنه عاد رجلاً أثبت
ذاته بما يكفى من إنجازات معترفاً بها أدت إلى حصوله على مركز فى التعليم العالى
وهو ما زال فى الثامنة عشرة ...

قبل ذلك بسنة أشهر كتب يقول لأخيه : « لا أتوقع الكثير نتيجة لما قد تسفر عنه
دراساتى . هل يمكن أن تجد لى طريقاً آخر يتفق قليلا وميولى الشخصية ؟ » كما

سنكتشف أنه شك تماماً في ذاته حتى أنه تصور يوماً أن يصبح موثقاً للعقود . أما الآن فيمكن أن نرى خط مستقبلي واضحاً أمامه . فقد أصبح - على الحلوة والمرة - من المثقفين * .

رضخ رئيس الجامعة فونتان ، لضغوط چاك - جوزيف وعين چان - فرنسوا مساعد أستاذ للتاريخ القديم . بل وذهب إلى أبعد من ذلك بأن جعل التعيين بائر رجعي اعتباراً من ٢٠ يوليو ١٨٠٩

ومع ذلك يجب ألا تعد العودة هذه إلى الدوفينييه نصراً مبيئاً . فإذا كان أصغر الشقيقين شامبوليون سعيداً بكل تأكيد ، برؤية أقربائه أخيه وزوجته وابنهما « على » وپولين وأسرتها آل بييريا وكذلك أوجوستان تيقونى ، فإن إحساساً بالفشل المزوج كان يعتصره .

فقد اضطر إلى ترك لويز وهو في قمة التعلق بها وإذا كنا لم نعثر على دليل يوضح الجو الذي تم فيه إنفصالهما عن بعض إلا أنه في إستطاعتنا أن نتصور مدى التمزق العاطفي الذي حدث له من جراء ذلك . إن مراسلاته الباريسية خلال ١٨٠٩ وكذلك بعض ما قام به من محاولات من جرونوبل خلال الأشهر التالية تشير إلى أن أستاذنا الذي نضج مبكراً كان من وجهة النظر العاطفية رجلاً كليماً .

ومما زاد من كلمه أن طموحه الفكري العظيم في أن يعثر على رد لأبى الهول وهو ما ملك عليه عقله لمدة ثلاث سنوات ، لم يسفر سوى عن بعض التقريبيات الهشة . وقد يتساءل البعض كيف يتجرأ مراهق على الاعتقاد بأن في إمكانه أن ينتصر خلال بضعة عشرات من الأشهر فيما تعثرت فيه لسنين طويلة عقول عالية القدر مثل زويجا وساسى وأكربولد ؟

من المؤكد لدينا وبصوة نهائية أن أصغر الشقيقين شامبوليون لم يدخل في إعتباره أى عامل من عوامل الأجيال أو الرهبة الناجمة عن صغر السن أو عقدة الإحساس بالنقص التي قد تترتب عن ذلك .

لم تكن إجهاداته بأى حال من الأحوال صادرة عن طفل ناضج قبل الميعاد وقح تزداد ثقته الكاذبة بنفسه بمقدار صغر سنه : فهو إذا عبر عن تبجيل شكلي نحو دو ساسى ** فهو يفعل ذلك بصفته زميلاً مدققاً ومناضلاً أى نداءً لند ومناقساً . يمكن في

* هل هي مفارقة في اختيار الكلمة ؟ سندع القارئ يقرر بنفسه .

** ليس التبجيل مرادفاً حرفياً للإحترام

هذا المجال اعتبار أن اكتشاف حجر رشيد فى يوليو ١٧٩٩ هو العام الأول فى التقويم العلمى لمحاولات فك طلاسم الكتابة المقدسة : ومن هنا جاء واقع أن جميع الباحثين كانوا من معاصريه مع هامش فارق زمنى لا يتعدى ثلاثة أو أربعة أعوام .

كانت الأشهر التى مضت قد سمحت له أن يعبر عن تصوراتهِ الحديسية وأن يقوم ببعض المقارنات التجريبية . وسبق أن ذكرنا بعض هتافات النصر الصادرة منه وكذلك بعض تعبيرات التهكم المتعالى على أوكربالد وزويجا وكاترومار . إلا أنها جميعاً كانت متداخلة كما رأينا من قبل مع إعراف بالعجز وأنات الألم : ومن هنا جاءت القيمة السامية لتشجيع الأخ الأكبر الذى كان موجوداً باستمرار ليزكى جذوة الشجاعة فيه عندما يحل به اليأس فيطفأها بسبب تكوينه النفسى المتذبذب بين النشوة والإحباط وبسبب التعقيد الرهيب الذى تتميز به المشكلة المطلوب حلها .

لابد وأن هذا العاشق المجروح وهذا الباحث المستاء قد وجد فى هذه النقلة الجامعية الكاسحة إلى أعلى مواساة تعويضية . سنراه يقبل بشجاعة التحدى الراجع لقلته خبرته . غير أن التدريس وقد برع فيه لم يكن هو ميله الحقيقى ولا هدفه . لقد ذكرنا بعض المراسلات التى أوضحت الأمور تماماً حول هذا الموضوع والتى ذهب فيها إلى ذكر صفة « الجبن » عند الحديث عن مهنة التدريس * لدرجة أنه قال إنه يبحث عن عمل أسهم وأكثر ربحية .

على الرغم من كل شئ فيها هو على إعتاب الاحتفال بعامه التاسع عشر مزود بمسئولية محترمة ورفيعة المستوى يستتبع له أن يعبر من خلال تاريخ الشرق القديم عن شئ من عبقريته فى اللغات . هكذا وجدت سهراته ولياليه التى أمضاها فى البحث والدراسة فى مدرسة بوسار وليسيه شارع نوفا وتلك التى قضاها فى شارع إيشال سانتونوريه وفى المكتبة الإمبراطورية متنفساً لتعبير فيها عن جواها بصورة علنية .

وعلاوة على ذلك لا يغيب عن الذهن أنه من حقه وقد تولى كرسيه التعليمى فى هذه السن الصغيرة أن يستثمر تجربة نالها وهو فى سن أصغر عندما لجأ إليه بروسيار أو دران وهو ما زال مراهقاً فى السابعة عشر من عمره ليحل محله فى بعض الأحيان فى الكولاج بو فرانس لتدريس اللغة العبرية أمام حضور من « القساوسة نوى الرأس الجامدة » ؟

* علماً بأنه سيمارسها بتفان بأشكال مختلفة .

لقد تغيرت جرونويل منذ أن وطأها لأول مرة أقدام الطفل ابن فيچاك الصغيرة
تحميها قباقيب الفلاحين وذلك عندما كان كليبر يحكم مصر وكان الملازم هنرى بايل
(ستاندال) يستكشف مفاثن مدينة ميلانون وقتياتها . كانت جرونويل حينذاك مدينة
متوسطة (يقطنها ٢٠,٠٠٠ فى عام ١٨٠٠ و ٢٣,٠٠٠ فرد فى عام ١٨١٥) ومازالت
قابعة فيما بين الأسوار التى شيدها آل كريكى فى القرن السابع عشر وهما زوج ابنة
النبيل نوليديجيار وحفيده إلا أن شهرتها كحارسة لجمال الألب وكبرى مدنها كانت
فائقة . فى الوقت الذى إستقرت فيها الجامعة الإمبراطورية كانت تحتوى على مجموعة
من المؤسسات الثقافية المتميزة فى ذلك الوقت والتى يراها ويشجعها محبون للفن
والثقافة من نوى الفكر المتعمق . كانت المدينة تحت إمرة رجل التنوير المحافظ جوزيف
فورييه يعاونه عمدة نو شعبية ونشاط كبيرين هو شارل رونولون .

فى نهاية عام ١٨٠٩ وإذ كان چان - فرنسوا شامبوليون يستعد لأن يبدأ حياته
الجامعية مدرساً بها كانت جرونويل تعد إحدى المدن النموذجية للإمبراطورية الفرنسية .
إلا أن الرأى العام وقد تأثر بالفصاحة الخطابية الليبرالية المتمثلة قبل ذلك بعشرين
عاماً فى بارناف ومونيه وثيريو ، لم ينضم طواعية تحت اللواء الإمبراطورى .

كانت ذكرى الملكية لا تزال حية تعبر عن نفسها بصور مختلفة : أحد ممثليها
كان شيرويان بال والد ستاندال . وكان هذا « الجيزويتى » (أو اليسوعى) هذا
« المتطرف » عضواً فى المجلس المحلى يعمل مساعداً للعمدة .

وكانت العقوبية الجاكوبينية نشطة فى المدينة وكان بعض « المثقفين » المحليين
المشهورين مثل عالم الرياضيات جرو وأمين المكتبة بوكرو وتاجر الكتب فالكون يتبعون
هذا التيار الفكرى . وتحت قيادة المحافظ المشهور كانت البورجوازية المحلية (سواء
كانت بورجوازية مهنية أو مالية) قد توافقت مع نظام يحفظ الأمن والنظام ويقوم بتنفيذ
أعمال ضخمة ويشجع الأعمال التجارية والصناعية .

لم تكن جرونويل من وجهة النظر الثقافية على مستوى أكس ولاستراسبورج
ولابيزا . إلا أن مدرسة الليسيه التى ضمت بين طلابها الأوائل شامبوليون الصغير كان
يديرها فوركروا وكانت تعتبر من أفضل مدارس فرنسا . أما الجامعة التى تم إفتتاحها
مؤخراً فقد ضمت لها عمودها الفقرى مدرسة القانون ذات السمعة الممتازة التى

أنشأت عام ١٨٠٥ وكانت قد ورثت تراثاً قديماً من الإمتياز ورفع لواعها نواب البرلمان
نوفيزيل عام ١٧٨٨ . وقد كان أول من عين رئيساً لها رجل قانون هو شارل بال .
أكاديمية الدوفينيه التي حلتها حكومة الكونفونسيون الثورية والتي بعثت من جديد تحت
مسمى الليسيه أصبحت « جمعية العلوم والفنون » عام ١٨٠٢ وإستمرت على نشاطها
تحت الإمبراطورية .

ثم أضيفت مكتبة * ومتحف أنشئ بمبادرة من الدكتور جانينون جد ستاندال وعلى
يد « چى » الذى علم شامبوليون .. كل ذلك جعل من جرونويل عام ١٨١٠ مدينة ثقافية
تواقة إلى التعبير عن نفسها ، ثرية بتقاليدها وحديثة بمالها من هياكل تسمح بأن تتفتح
فيها صفوة من المثقفين والتجار والإداريين . يحركهم جميعاً بعض الشخصيات
المرموقة وتلهمهم حرية فكر رائعة ويزكيهم موقع فريد ويساندتهم فوق كل شئ هذا
المزاج الدوفينيه المتميز الذى سبق وألحنا لبعض بعض أبعاده النشطة والعميقة .

الشخصيات العامة ؟ بخلاف جوزيف فورييه وشارل رينولون وهنرى جانينون
يجب ألا نقلص من الدور الذى تؤديه البرجوازية الكبيرة التى دعمتها الثورة فرفعت من
قدرها . على رأس هذه المجموعة يبرز السنيور نوفيزيل وكلود بيريه المكنى « بيريه
ميلورد » تأكيداً لعظمة وطموح مؤسس الأسرة الصناعية العظمى والتى سيقودها ابنه
كازيمير ليصبح هو تحت حكم ملكية يوليو رئيساً للحكومة ، والأخوة دول وكاميل تيسار
الثرى الليبرالى .

إلا أن جرونويل كانت أيضاً « مدينة برلمانية » . كتب ستاندال عن خاله المحامى
صديق النساء أن « الجميع فى جرونويل كان يعيش على المنازعات ويطلق النكات على
المنازعات حول .. الصغائر والممتلكات » . ومثلها كان الحال فى مدينة أخرى يسودها
رجال القانون وهى فيچاك . سنجد مناسبة الحديث عن أسرة بيريا هذا العالم المشبع
بالقانون والذى يتحرك فيه چاك - جوزيف ببراعة وسهولة .

تقول الأساطير أن ثراء جرونويل قام على صناعة القفاز وكان أحد رواد هذه
الصناعة هو كلود بلان الذى سيصبح فيما بعد حما جان - فرنسوا شامبوليون .

* أثرتها مجموعة كتب دير « الجرائد - شاتروز » .

والواقع هو أن صعود المدينة قام على تجارة الجملة أكثر مما تأثر بنشاط تصنيعي وكانت تمارسها مجموعة من التجار الريفيين الذين استوطنوها حديثاً.⁽¹⁾

علامة على ما تقدم فلا التجارة ولا حتى الصناعة كانت لهما اليد الطولى على كبرى مدن الدوفينييه . ولكن كانت السيطرة فى يد طبقة من النبلاء راحت تحرك المجتمع وهى تنتظر الساعة التى تستعيد فيها السلطة السياسية . عائلات أدريه ومارسيو وبارال وبينا ومونمور* أبقت المدينة داخل مناخ عام من النبيل الفولتيرى الذى كانت تفتخر به فى سالف الأزمان صالونات فويور سان جيرمان والذى سجلته رواية « العلاقات الخطرة ** » بالنسبة لمدينة جرونويل ورواية « وكر الأفاعى *** » بالنسبة لبورجو فيما بين هذه الاريستوقراطية الباحثة عن الإنتقام وعالم التجارة الباحث عن التقدير المعترف به تتحرك طبقة من المثقفين الميسورين القادمين من الطبقة الثالثة القديمة ، هم أبناء عصر التنوير ووارثو الثورة وهم يعلنون بفخر عن بنوتهم لهؤلاء الدوفينيين العظام مثل كوندبيياك وما بلى وفوكانسون وبارناف ومونييه ودوقيريو . ويمثل هؤلاء ويكمل أعمالهم رونولون (وهوچاكوبى ثورى) وچانيون (وهو ميال أكثر للملكية) محامون ومعلمون وأطباء وفنانون ورجال دين كانوا جميعا يتعايشون مع السلطة الإمبراطورية مع شئ من التذمر طالما أنها موضوعة فى يد جوزيف فورييه وأنها تحافظ على مكاسب الأيام العظيمة لعامى ١٧٨٨ و ١٧٨٩ وأنها تؤسس الجامعة وأنها تسمح بوجود نوع من النشاط الثقافى بدلا من حرية التعبير .

فى مركز طبقة الإنتيليجينسيا الحرونويلوازية تقف مؤسسة تعرفنا عليها من قبل هى جمعية العلوم والفنون - سابقا ثم لاحقا كان إسمها وسيصبح الأكاديمية الدوفينييه . كان ضمن أهم من مثلها : چان جاسوار دويوا فونتانال أستاذ الأدب الذى علم ستاندال وكان نجمه قد لمع فجأة قبل ذلك بخمسين عاماً بسبب الفضيحة التى أثارها مسرحيته « إيريسى أو الراهبة » وهى راهبة فيها شبه كبير من راهبة ديدرو

* يقول ستاندال أن مدام بو مونمور كانت النموذج لشخصية الماركيز دومورتوى فى رواية الأخر والاسود .

** مؤلفها شاردلوداي لاكلو (المترجم) .

*** مؤلفها فرنسوا مورياك (المترجم) .

وكانت سيرتها قد خرجت مخضبة من الأحداث * . كان كاتبها متوسطا ولكن نو شخصية ممتازة . تبرز أحيانا من مراسلاته بعض الإعترافات المؤثرة (« أنا شظية من شظايا الجرة المكسورة ») وبعض الأبيات المثيرة للشجن .

« إنى فعلا مجنون أهوج طائش

وإذ حل الشتاء وشاب رأسى

زدت جنونا وطيشا ... »

الداهية الداعر القس جاتال المدير السابق لليسيه والذى سنراه مشتركاً فى المناقشات التى ستثور حول إدعاءات وجهت للشقيقين كان يمكنه وضع توقيعه تحت هذه الأبيات ، سنعود إلى الكلام عن ذلك .

ممثل آخرلهذه الأكاديمية كان الجنرال چويار بولاسالات الذى ترك الجيش وسلاح المدفعية ليكرس مجهوده فى علوم الموسيقى نون أن يفقد شيئاً من قوة شكيمته ** فقد كان يمكنه من العالم كله من أجل مفتاح صول . ولعل أهمهم جميعاً بيريا - سان پرى . أخو زوجه چاك - چوزيف ، رجل قانون ومشرع ورجل إقتصاد وهو أفضل من يمثل تجسيدا حيا لكلية الحقوق التى هى مفخرة « مدينة المنازعات » . شخصية غريبة هذاالسان - پرى : الرواية التى ألفها فى خمسة أجزاء تحت عنوان الحب والفلسفة وأراد أن يجعل منها صورة حية للمجتمع الجرونويلوازى لم تتخط زمانها ... على الرغم من أراءه الليبراليه فإن هذا العالم والمستشار فى القانون رفض أن يتخلى عن غطاء الرأس التقليدى لرجال القضاء والذى كان يميزهم خلال العهد

* منعتها الرقابة بعد أخراجها على المسرح فى ليون عام ١٧٦٨ وتسببت فى أن عددا من تجار الكتب البؤساء (ليس من بينهم چاك شامبوليون) الذين كان فى حوزتهم نسخ منها قبض عليهم وحكم عليهم بالأشغال الشاقة وكان من نتيجة ذلك أنه سمع بعرضها على خشبة المسرح الوطنى الفرنسى فى بداية الثورة .

** جميع مؤلفى سيره والمؤلفين أطلقوا عليه « إسم الجنرال العجوز » كان بالفعل قد أحيل إلى التقاعد ولكن لم يكن قد تعدى سن السابعة والأربعين .

الملكى القديم . وعندما فرض لبس البنطالون نفسه فى فرنسا وهو المستورد من إنجلترا فى عام ١٨١٥ أصر على إرتداء السراويل الضيقة والجوارب الحريرية والأحذية ذات الشرائط والساعات ذات الدبوس إلى أن أصبح أحد ثلاثة باريسيين فقط فى هذا الزى عام ١٨٤٥ حسبما كان يقال ..

ونجد أيضا آل بيريا المرتبطين جدا بالأخوين شامبوليون برباط الزوجية والعاطفة والتوافق والمصلحة : زويه وبولين أختا بيريا - سان پرى إحداهما زوجة چاك - جوزيف والأخرى كانت حب چان - فرنسوا الأول وهوج أخوهما كان صديقا للأخوين .

وهكذا أعاد الشقيقان إرتباطهما بمقاطعة الدوفينية التى كانت موطن أجدادهما وفتحا لنفسيهما أبواب مجتمع ثرى ومتفتح الفكر فى ذات الوقت ، يرحب بالمواهب وفخورا بشهرته التى إكتسبها بأنه « أثينا الدوفينية » .

فى نهاية العام ١٨٠٩ كان چاك - جوزيف عندما إستقبل أخاه فى حالة تفتح كامل إجتماعيا وفكريا وأسريا بل وسياسيا أيضا وسط هذه المدينة الثرية . وكان قد أصبح بعد أقل من عشرة شهور من إقامته فيها أحد مواطنيها المعروفين أى شخصية عامة .

خمسوة تواريخ تحدد معالم مسار هذا الطموح الجسور من عام ١٧٩٨ حتى ١٨٠٩ الذى بدأ موظفا صغيرا فى أحد المتاجر الصغيرة حتى أصبح مديرا للجامعة والساعد الأيمن للمحافظ وزوج أخت عمدة المستقبل للمدينة : هوج بيريا . سبق أن رأينا جوزيف فوربيه يشيد فى عام ١٨٠٣ « بنوقة المتثور تجاه الأثار » وحمله مسئولية المحافظة على المخطوطات القديمة « الخاصة بالمدينة . بعد ذلك بشهرين إنتخب شامبوليون - فيچاك عضوا فى جمعية العلوم والفنون لمدينة جرونوبل وأصبح بعد ذلك بقليل أمينها العام . فى الأول من يوليو ١٨٠٧ تزوج من زويه ابنة وأخت أصحاب النقود آل بيريا . فى ١٨٠٨ أصبح الأخ الأكبر أمين مساعد مكتبة المدينة وأخيرا فى ١٨٠٩ تم تعيينه أستاذا للكآداب اليونانية بالجامعة ومؤديا فى نفس الوقت نورا رئيسيا بها كأمينها العام .

هل كان رجلا سعيدا ؟ إنه بالفعل كذلك فى زواجه . لقد أنجبت له زوجته إبنا نجح أخوه فى إقتناعه أن يسميه « على » ... وإبنة أسمها أميلى ولدت فى يوليو ١٨٠٩ . وكانت اللوطة التى جلبتها له زويه بزواجه منها عبارة عن أجمل دار فى قرية ثيف الواقعة على بعد سبعة عشر كيلو متر من جرونوبل على مشارف جبال بالدون وكانت

يوما من ممتلكات الفيلسوف كونديبياك وأخيه الأب ما يلي . وكان چاك جوزيف وزويه يقيمان فيها كثيرا وكانا يستقبلان فيها چان - فرنسوا أحيانا كثيرة أيضا . إلا أن فيچاك لم يبلغ الحالة المسورة التي كان يصبو إليها . لكن نفوذه على جمعية الفنون والعلوم وفى الوسط المحيط بالمحافظ وأيضا فى الجامعة (واصفا نفسه بأنه يد/ رئيس الجامعة المهيمنة) كل ذلك ضمن له سيطرة لا تضاهى على الحياة الثقافية لعاصمة النوفينيه .

لم يكن شامبوليون فيچاك محايدا ، لقد كان بتعبيرنا الحديث « مثقفا ملتزما » موقعه السياسى فى تصور الجمهور - حتى بدون وعى كامل بعد هو أنه يسارى أو على الأقل عضو فى التيار العلمانى الليبرالى . كان يؤكد لأخيه فى العديد من المراسلات بينهما خلال صيف ١٨٠٩ « أن مدينة جرونوبل منقسمة بين الأب دولاكوست وبينى بمن يشغل وظيفة المفتش [...] عند تصادم الآراء فالحقيقة هى أن كل من يرتدى الزى الدينى يرفضنى [...] وستنصرنى السماء على هؤلاء الرعاع [...] يقال إن الحزب الكاثولىكى الرسولوى الرومانى قد سقط .. » وإذ بالأمر قد انتهى « بسقوط » چاك - جوزيف وليس الأب فإن جرونوبل قدرت أنها هزيمة مؤقتة لحزب الليبراليين .

وإذا كانت هذه المكانة قد تلقت ضربات صعبة للغاية إعتباراً من يونيو ١٨١٥ إلا أن مكانة الأخ شامبوليون الكبير كانت قوية ومتينة فى عام ١٨٠٥ من هذه المكانة استفاد چان - فرنسوا . لقد ترك چاك - جوزيف عام ١٨٠٧ وهو لا يزال خجولا من طموحاته . وإذ هو يجده الآن بعد عامين شابا * من الأعيان واثقا من نفسه . ألم ينجح ضمن نجاحات أخرى فى المناورة التى أدت إلى أن يتولى هو وأخوه وحلفاؤهما كلية الآداب ؟

أستاذ اليونانية فى الجامعة : لقد كان اللقب متمشيا ويليق بعالم الأثار الهاوى . ولكن هل كان فى مقدوره أن يتعامل مع المسئوليات التى تواكب اللقب ؟ لم تكن هذه الأسئلة تؤرق بالهم فى تلك الحقبة من الزمن . بعد أن أسس نابوليون الجامعة الامبراطورية وإذا تحققت الإرادة السامية كيف لا تجد المؤسسة القائمة ما يلزمها من العاملين ؟ صالحون أم غير مؤهلين هذا لا يهم ما دامت الشرعية السامية قد خلعت عليهم ...

* فى الحادية والثلاثين من عمره .

كان هذا فى الزمن الذى شغل كرسي اليونانية فى الكولاج دوفرانس شخص يدعى جيل . وكان إذا أراد أن يلقى محاضرة فى اليونانية طلب أن يترجم له أحدهم توسيداييرس إلى اللاتينية . على حين كان چاك - جوزيف شامبوليون - فيچاك على الأقل فى جرونوبل على دراية بالعديد من المعلومات وكان على كياسة محببة .. من كثرة ما تصفح من كتب قديمة وما حرك من أحجار لابد وأنه على علم باليونانية أفضل بقليل من زميله فى الكولاج دوفرانس ...

بدأت الشكوك تتسلل إلى نفس چاك - جوزيف مهما بلغ طموحه من أفاق وعلى الرغم من ثقته فى إمكانية ابتلاع كل معرفة متاحة فى العالم أو قد يكون ما شعر به نوعاً من خيبة الأمل . لأن ما كان يطلبه هو وظيفة مفتش بالاكاديميه وليس وظيفة تعليمية . وهو المركز الذى عبا له وأنهك وعاتب وشغل به بال أخيه چان - فرنسوا وسمح له الشهور الأخيرة فى باريس من ربيع ١٨٠٨ حتى صيف ١٨٠٩ إلى درجة إثارة نوع من تمرد الأخ الصغير كما رأينا .

غير أن مؤلف « رسالة إلى مسيو فوربيه حول المخطوط اليونانى فى دندره » ومحرر مداخله إلى جمعية العلوم والفنون حول النص اليونانى المنقوش على حجر رشيد كان على أقل تقدير عالماً وجديراً بالاحترام فى المخطوطات الحجرية باللغة اليونانية . وهى المادة التى كان فى إمكانه توصيلها إلى ثلاثة أو أربعة من شباب جرونوبل وضعوا تحت مسؤوليته . وكان يتولى تدريسهم عندما لا تشغله الوظيفة الأكثر أهمية وبريقاً وهى الإشراف على حسن سير الجامعة أو مسؤولياته الأخرى * التى جعلت منه مثلما كان حال فيجارو فى أشبليه « ساعى المدينة » ..

وستتوقف هنا ضمن مواهبه المتعددة التى وظفها كثيراً ليفتح الطريق أمام عبقرية أخيه عند براعته فى المناورات وهى المهوبة التى كانت يسترفعه إلى مستويات سياسية عليا لو كان دخل بها هذا العالم بدلا من عالم الثقافة . ويشهد على قيمة هذه العبقرية الدور الذى أداه فى تنظيم الجهاز الجامعى لمدينة جرونوبل فيما بين عامى ١٨٠٨ و ١٨٠٩ .

اعتمدت اللعبة التى أداها فيچاك وهو= يحرك فوربيه ، على أن يدفع العجوز نوبوا - فونتنال إلى الأمام والذى كان علاوة على ذلك حما شارل رونودون عمدة المدينة -

* أمين عام الجامعة ، وأمين مكتبة وصحفى فى حوليات مقاطعة إيزار ومستشار المحافظ ومثقف متعدد المعارف والإداري وعضو لجنة الإنتخابات .

كل ذلك من أجل أن يجد فى ظل هذه الشخصية وظائف لأخيه وله أيضا . وهو عندما كان يدفعفورييه إلى أن يقترح على فونتان تعيين مؤلف لا فيستال (وقد كان مرض النقرس قد جعله فى حالة إعاقة كاملة) فى وظائف أمين مكتبة وأستاذ للتاريخ وعميدا للجامعة فإنه لم يكن يقدم خدماته لأصدقائه الأقوياء آل رينولون فقط بل كان يفتح لنفسه أبواباً واسعة سيمر منها هو وأخوه .

منصب العميد ؟ المتألق جاك - جوزيف - السكرتير - هو الذى كان سيتولى فى الواقع مسئولياته . وماذا عن تدريس التاريخ ؟ غياب الرجل العجوز سيعوضه الطفل المعجزة الواصل لتوه من باريس . والمكتبة ؟ كان العجوز المريض سعيداً للغاية لرؤية فيچاك يمارس فيها مهارته كمحب للكتب بكل حيوية . وهكذا نجح هذا العصامى الذى إضطر إلى التوقف عن التحصيل المدرسى وهو فى الخامسة عشر دون أن يتحصل على أى شهادة وقد بلغ الآن الثلاثين عام والنصف العام فى الحصول على كرسى أستاذية فى التعليم العالى كما حصل أيضا على آخر لأخيه * الذى لم يكن قد وصل بعد إلى عامه التاسع عشر ...

بل أفضل من ذلك توصل فيچاك إلى أن يتحصل على « اللقب المطلوب لشغل هذه الوظيفة لأنه يمارس بالفعل مهام الوظيفة » (2) . وما أن مرت بالفعل بضعة شهور إلا وكان قد صدر مرسوم إمبراطورى مؤكدا أن « وظائف أستاذ جامعة يقابلها درجة دكتور » ولذلك فهو يمنح « السيد شامبوليون - فيچاك دبلوم دكتوراه فى الآداب ** » ... قلب عجيب للآثر الذى أصبح سبباً !! وهو ما كان قطعاً سيسعد السوفسطائين اليونانيين القدماء الذين سيتولى تدريس فلسفتهم لشباب مقاطعة بوفينييه !!

وبصفته حامل دكتوراه فى الآداب حل شامبوليون - فيچاك مكان العميد المعتل وأعلن فى احتفال عام فى ٢٦ مايو ١٨١٠ ظهرا فى حضور رئيس الجامعة بال ومفتش الأكاديمية لاكويست (الذى تغلب عليه !!) بداية المحاضرات فى شهر نوفمبر من العام نفسه وفى اليوم المحدد الخامس من نوفمبر عام ١٨١٠ وقف مرة أخرى

* لم تكن مرتبات الوظيفة تتعدى ما يحصل عليه من كانوا فى عمره : ٧٥٠ فرنكا فى العام وهو نصف ما كان يتقاضاه فى باريس فى حين كان زملاؤه الأكبر سنأ يتقاضون ثلاثة آلاف . الواقع أن دويوا فونتانال قرر أن يوجد بنصف مرتبه لثأبه وهو ما جعل نخل چان - فرنسوا يقفز إلى ألفين ومائتين وخمسين فرنكا فى العام . ولكن عندما توفى الرجل العجوز وأصبح هو الأستاذ وجد نفسه بمرتب ٧٥٠ فرنكا فقط .

** سيحصل چان فرنسوا بعد ذلك بقليل على الميزة ذاتها .

الأستاذ الشاب للغة اليونانية إبن مدينة فيچاك ليلقى فى صالون الدور الأول من قصر النبلاء جداً مارسيو وأمام جميع شخصيات جرونوبل العامة خطبة دويوا - فونتاناال المتضمنة برنامج العمل . والذى لم يتمكن من إلقائها بنفسه فى هذه المناسبة العظيمة وهذا اليوم المشهود فقد بقى معاقاً متواريا داخل قصره القريب فى إيشيرول ولم يتمكن أحد من إقناعه بالخروج .

هكذا دخل چان - فرنسوا شامبوليون من باب واسع - فتحه له على مصراعيه أخوه الأكبر النشط - عالم الجامعة وسط جو عام كله بريق . ومع ذلك فقد عبر وهو يخطو أولى خطواته فيه ويتحد بسافر عن عدم إتفاقه مع هذا الأخ الذى كان يتوجه فى هذه اللحظة ذاتها - أو عبر بالأحرى عن عدم موافقته على التفكيرالرسمى - الذى عرضه بصفتة نائبا عن دويوا - فونتاناال وبإسمه .

فهل شارك شامبوليون - بنفسه فى كتابة خطبة العميد الإفتتاحية * ؟ أم أنه إكتفى بقراءة نص حرره الشاعر العجوز ؟ وهل ردد هذا الأخير ما جاء أصلاً فى التوجيهات الرسمية ؟ المهم هو أن الأقوال التى وردت على لسان الأخوين خلال بضع أيام فقط حول مهمة المؤرخ التعليميه وهدفه جاءت متناقضة تماما . فلنستمع إلى چاك - جوزيف :

« الهدف المزوج للتعليم هو تنشأة الرجال والمواطنين [...] يجب على الأفراد أن يشاركوا فى الجهود العام البعض بما له من مناقب والبعض الآخر بماله والكثرة بما لها من معرفة وموهبة والجميع بانصياعهم وتقانيهم وولائهم . ولكل تلك الأسباب تولت جميع الحكومات المتنورة التعليم العام (3) ... » .

وفيما يتعلق بتعليم التاريخ أوصت « خطبة العميد » باللجوء إلى النقد وهو يحمل أمامه مشعل الفلسفة ولا نعى هنا تلك التى يطلق عليها هذا الإسم بعد تحريرها وإنما الفلسفة الكريمة المعتدلة التى تعلم الناس التراحم والحب ... (4)

لم يكن من الممكن تأسيس الجامعة الجرونوبلوازية الوليدة على أسس أكثر محافظة أو أقل ثورية وأكثر عملية أو أقل معرفة بالأنسيكلوبيديا والتنوير ... إن ما جاء

* لاحظ ش . ا كاربونال أن النص الذى أتاحت له فرصة الإطلاع عليه ليس بخط فيچاك ولا هو بخط مدام رونولون إبنة دويوا - فونتاناال وسكرتيرته . وعلى الرغم من ذلك فهو يميل إلى الاعتقاد بأن چاك - جوزيف هو الذى ألفه .

على لسان فيچاك هذا « الليبرالى » و«رداء الكهانوتى » هو أمر صادر من الدولة الإمبراطورية إلى مدرسيها بتكوين ثم إنتقاء خدم مطيعين لاستخدامها الشخصى .

لابد وأن الأخ الأكبر حرص على حضور المحاضرة الأولى لأخيه . فهل قدر أن ما استمع إليه كان بمثابة تحد أو إهانة أم على العكس من ذلك تعبير عميق عن أفكاره هو والتي إضطر إلى التمويه عليها تحت ستار النص الرسمى الذى إضطر إلى إلقائه بصفته الرسمية ؟ لابد وأنه شعر ببعض القلق من أخيه الأصغر وهو يعبر فيما يتعلق بمادة التاريخ عن أفكار غير مطابقة للمبادئ التسلطية السائدة .

كان موضوع الدرس الأول لجان - فرنسوا شامبوليون هو « فى التاريخ عموما وأبسه ، التتابع الزمنى والجغرافيا المقارنه » . من البداية قام هذا الأستاذ ذو التسعة عشر ربيعا بشجب :

« الميل الطبيعى لفكر الإنسان لأن يحكم على الأحداث بنتائجها يجعله يمتدح عملا خاطئا توج بالنجاح (...) هذه الطريقة فى الحكم على الوقائع هى إحدى العواقب المنطقية لذلك التساهل الإجرامى الناتج من إهمال المبادئ والذى يجد العدل حيثما يرى إنتصاراً . هذا الاستسلام الخانع قائم منذ الأزل وفى كل مكان .. (5) »

هل هذا الكلام مأخوذ عن مدام دو ستال أو عن بنجامان كونستان ، وهما : من أصحاب الأيديولوجيات المحرمة من الحكم الإمبراطورى ؟ لايمكن أن تجابه بحزم أكبر « التساهل الإجرامى » فى عدم مناقشة غزو إسبانيا أو اعتقال الحبر الأعظم طالما أن انتصار الأمير قد توجهما .

هذه الكلمات ألقيت فى إطار الجامعة الامبراطورية هذه المؤسسة التعليمية التى أقيمت لخدمة الأوتوقراطية « المستنيرة » أى هذا المعمل المطلوب منه تفريخ موظفين متسلطين ! ها نحن أمام شاب يجازف بالأ يذهب بعيدا فى مستقبله التعليمى لولا إعتماده على العناية المضمونة لأخيه « خادم الجامعة » .

خصص جان - فرنسوا ما يقرب من ثمانية عشر شهرا للتحضير لمحاضراته المقسمة إلى مائة درس : العناوين التى أعطاهما لكل منها تتم عن حجم طموحاته : « عن التاريخ وأبسه » ، « عن العصور القديمة للعالم وأصل الإنسان » ، « تأملات ناقدة فى المؤرخين من جميع الأزمنة وكافة الأنحاء » « ما تبقى لنا من وسائل لكتابة التاريخ » .

لم يكن الأستاذ الشاب يكتفى بالدفاع العلني عن حرية الفكر ضد الإستبداد بل كان يؤكد على نقد الأسس وعلى اللجوء إلى الأسلوب التجريبي وعلى البحث في « الأسباب والنتائج الحقيقية » وكان ينصح كذلك بمراجعة ذكريات الشخصيات الفاعلة والشاهدة مثل : تيمورلنك وجوانثيل وتوران ...

كان لهذه المحاضرات صدى واسع . اثنان من المفتشين العامين جاء للإستماع إليه (هل كان ذلك بناءً على وشاية بجرأته في الحديث أم كإجراء روتيني بسيط للتعرف على إمكانيات هذا الطفل المعجزة ؟) المهم أنهما خرجا وهما « يعبران عن أنهما » يضعان فيه أمالا عريضة⁽⁶⁾ ، مثلما فعل زميله في المدرسة الخاصة للغات الشرقية أبال نو ريموزا ، أو الصيني ، الذي كان يمر بجرنونويل . لم يكن الأستاذ الشاب يتمتع فقط بالشجاعة وسمو الرؤى وتعدد المعارف وجزء هائل ناتج عن « مقارناته » (بين مختلف الحضارات والموضوعات) بل كان يعرف أيضا كيف يحي دروسه ويحرك أجواءها . وكان المجهود الذي يقوم به للتغلب على خجله الطبيعي يضع في أقواله من الحماس ما يجعلها تبدو مشتتة وهاجة فتلفت أنظار العدد القليل من تلاميذه المسجلين في محاضراته * . ذلك لأن كل ما كانت تضمه الجامعة الوليدة - وبقي الحال هكذا لمدة طويلة - لم يتعد اثنين وعشرين طالبا مسجلين وثلاثين « مستمعا » .

هذه النظرة الواسعة الدائرية على الكرة الأرضية عبر القرون كانت بمثابة تمرين جيد لباحث في أعرق تاريخ للبشرية يؤمن بأن الحضارة المصرية القديمة مادامت محورية وأصلية فإنها مرتبطة بجميع الحضارات الأخرى وبأن كل من هذه الأخريات تعود بالتالي إلى القالب الأصلي . إلا أن الباحث كان على يقين من أنه لا يمكن من جعل الخلاصة تعلق على العمل التحليلي كما أنه يعرف أن أفضل منابع العلوم التاريخية واللغوية هي النصوص والأرشيفات والمخطوطات والكتب .

من هنا جاء اهتمام الشقيقين الكبير بوظائفهما كأميني مكتبات . حتى عام ١٨١٢ لم يكن الأخ الأكبر رسميا سوى مساعد دوپوا - فونتانال والأخ الأصغر سوى مساعد المساعد . إلا أن هذه الألقاب المتواضعة لاتعطي فكره صادقه عن السلطة التي تمنحها لهما هذه الوظيفة المحورية . ويوجد تقرير وجد في أرشيف مقاطعة إيزار كتبه مراقب سئ النية هو العمدة « اليميني المتطرف » بينا (الذي سيخلف رونولون في ١٨١٥) هذا التقرير يكشف أهمية الوظيفتين :

* كان يليقها كل أربعا وخميس في العاشرة والنصف . أحيانا كان كل الحضور تلميذين .

« إن أمين المكتبة لما له من تأثير على العقول وعلى أفكار العديد من الشباب هو فى الواقع بمثابة أستاذ عام ويترتب على ذلك ضرورة عدم شغل أماكن كهذه بسوى لرجال تتوافر فيهم كافة الضمانات المطلوبة » (7)

لم يكن هناك جماهير غفيرة تتسابق لدخول المقر الفسيح المتاح لليسيه الذى درس فيه جان - فرنسوا من ١٨٠٤ حتى ١٨٠٧ بل أن مجموع المترددين عليه لم يتعد ستين فرداً منتظماً من الطلبة ورجال القانون والدين . الحقيقة أن إبنى تاجر كتب فيجاك لم يكونا مهتمين بتلقي المبادئ الليبرالية لهؤلاء الزوار بقدر ما كانا مهتمين بإثراء مقتنيات المكتبة بالنسبة للأخ الأكبر وبالإستغلال المنظم لمستودع المطبوعات والمخطوطات والقطع الأثرية بالنسبة للآخر .

كانت المكتبة ثرية بما تحويه . أقتنى مؤسسوها لدى نشأتها من مبادرة من الدكتور جانينون ٢٤,٠٠٠ مجلداً هبة من المطران جان دى كويليه . وأضيف إليها قسم للقطع الأثرية تتقدمها كما تعرف مومياء مصرية ومتحف للتاريخ الطبيعى ثم جرى توسيعها بمبنى تم شراؤه من البارون ديزانريه . وأصبح المدخل الرئيسى بعد ذلك من هذا المبنى .

چاك - جوزيف أضاف إلى ما سبق - وذلك بحسب له - ثلاثة آلاف عنوان آخر عهد إليه فهى ١٢٠٠ كانت بتبرع من الأب جانتال علاوة على ٣٠٠ مخطوط ومطبوع أصلى من بداية عصر الطباعة وردت من دير الجرانديشارتروز (كان جان - فرنسوا وصديقه ميلان قد راجعهم قبل ذلك) .

سنرى فيما بعد * لدى عودة الملكية أن إدارة الأخوين شامبوليون ستتعرض لإتهامات قاسية مما أدى إلى الإطاحة بهما . إلا أن الشئ المؤكد هو أن مكتبة جرونوبل كانت مركزاً مفضلاً لأعمال وأفكار وأبحاث مكتشف ألكاز الهيروغليفيه وكانت مهد محاولات الفكرية فيما بين ١٨٠٩ و ١٨٢١ .

أستاذ وأمين مكتبة ؟ جان - فرنسوا كان صحفياً أيضاً . فى بداية عام ١٨٠٨ نجح فى إزاحة شخص إسمه أوجوست باردال (وظيفته الأصلية كانت مفتش المنح) وكان المحرر الرئيسى لجريدة « حوليات منطقة الإيزار » والتي كانت تعكس فى الواقع رأى السلطات وتنتشر المعلومات الرسمية . وكان چاك - جوزيف يتعاون مع هذه

* الفصل ٧

المطبوعة ببعض المقالات تعكس نشاط جمعية العلوم والفنون منذ ثلاث أو أربع سنوات .
توجد في مراسلات الشقيقين إشارات إلى تلك العملية والتي تمت كصفقة مالية : إذ تم
تعويض باردال لقاء تنحيه عن هذا المكان بضع مئات من الفرنكات . ولا يعرف إذا
كانفوربيه ذاته هو الذى دفعها . إلا أن الشئ المؤكد هو أن المحافظ كان يود أن يسند
المكان لشخص مؤثوق فيه ومن نوعية ممتازة .

حاول فيجك أن ينفخ فى هذه النشرة التابعة للمحافظة شيئاً من الحياة فطلب من
نسيبه بيريا - سان برى أن يكتب له بعض المقالات كما كلف بالطبع جان -
فرنسا أن يمدّه بمقالات تقريرية عن الكتب والمقالات التى تنشر عن الشرق والعصور
القديمة * .

وعلى الرغم من أن إدارتها كانت تحت سيطرة شخص متساهل مثل جوزيف
فوربيه إلا أن قبضة الإمبراطورية الحديدية كانت تقمع نون هوادة أية محاولات من هذا
القبيل وكان للمواطنين الحق فى الحقيقة الرسمية فقط بعد تعميمها وضمن مطابقتها
للتزم والتدين القائمين .

يوضح ذلك حدثان مزبوجان ساهما فى تكدير العلاقات بين آل شامبوليون
وجوزيف فوربيه : فى شهر مارس ١٨٠٩ نشرت « الحوليات » مقالاً لا يحترم الصيام
جاء فيه أن هذا الفرض الدينى له على الأقل ميزة أن « يتيح للبهائم أن تتكاثر » وأن
« اللحم سيصبح أرخص سعراً وأجود إذا أحترم الكافة هذا الفرض وصاموا »
و « إذا أكل الفلاحون اللحم كل يوم فلن يكون هناك لحم يكفى الامبراطورية
المتنامية » .. كلام يشبه ما كان يقوله دييرو (أبو الانسيكلوبيديا) مما أثار إستنكار
القراء المتدينين وأخرج المحافظ جداً .

وإزدادت الأمور تازماً عندما نشرت « الجوليات » مقالا ساخرا ضد « التطرف
الدينى » و « التعصب » بمناسبة قيام « أحد الورثة بحرق إحدى أكثر المكتبات ثراءً فى
مقاطعة الإيزار » لأنه مقتنع « إنك إذا أردت أن تعيش حياة مسيحية يجب ألا يكون لك
فكر أو شعور أو منافسة أو تعليم [..] ولكى يرضى عنك الله يجب ألا تعرف من الكلام
بسوى الصلاة مع التسبيح [..] وأن تخنق فكرك فى المياه المقدسة وأن تنتظر فى

* نشر جان - فرنسا فيما بين ١٨٠٨ و ١٨١١ خمس مقالات فى الحوليات بعضها بتوقيع C.S. عن
الامرام والشعر الفارسى ومكتبة الإسكندرية وعن المبانى الأثرية من أصل عربى .

ثبات كامل وغبى وتأمل متخلف ، أثار العناية الإلهية ، .. إلا أن التعليق ذهب إلى أبعد مما ينبغي » ونتيجة لما سبق فإن هذا الشخص أخذ مثلاً من الشعوب التي كانت فى الماضى يحرقن كل عام شخصاً يهودياً لأنه جاء من جنس ملعون كما كانوا يقولون - وراح يحرق كل ليلة وهو يهضم عشاءه من خمسة وعشرين إلى ثلاثين كتاباً [..] كلما اكتشف كاتباً وثنياً أو فيلسوفاً [..] إن ما تم هو جريمة لا تغتفر وإهانة للعصر الذى نعيش فيه ... » .

الدهش هو أن العديد من عائلات الإقليم إعتقدت أنها مستهدفة !! مما إضطر چاك - جوزيف إلى أن ينشر مذكرة إعتذار وبقي صامتا بعد ذلك إلا أن فوربيه وإن كان فيلسوفاً - فهو قبل كل شئ محافظ الإقليم أى أنه علو للإضطرابات - فلم يسامحه .

ومنذ ذلك الحين خضعت الحوليات لنظام صارم وصفه إيميه ابن شامبوليون - فيچاك ببراءة خالصة (8) ، وهو ما يذكرنا « بحرية الصحافة » كما يراها فيجارو :

« الأخبار والقضايا التي كان يمكن لهذه الصحيفة أن تنشرها لم تكن كثيرة ، ولحسن الحظ كان الجزء الرسمى والقرارات الحكومية تشغل منها الجزء الأكبر أما الأخبار الخارجية فكانت مأخوذة فى العادة من صحيفة « لومونيتور أو نيفراسال » . ومع ذلك كان من الممكن أن ينور الحديث بون حرج عن المخطوطات القديمة الموجودة للإقليم وعن الكتابات اللاتينية مثل تلك التي تنقش على المباني المشيدة على شرف الإمبراطور . وكذلك عن كتب الأصول اللاتينية واليونانية وعن الروايات الحديثة وعن الأحداث التي تجرى فى الممالك المجاورة (...) كما أن الفلك كان من الموضوعات المسموح بالخوض فيها » .

كلها مبادئ مدهشة مع أن احترامها لن يمنع الشقيقتين شامبوليون من أن تطالهم يد الرقيب وأن يغضب عليهم فى نهاية الأمر . ففى غضون ذلك مرت غيوم على علاقاتهما مع جوزيف فوربيه المتساهل والقوى جداً فى نفس الوقت .

لقد رأينا كيف أن المحافظ قد رعى چاك - جوزيف شامبوليون وإصطفاه بعيد إقامته فى جرونوبل وكلفه منذ ١٨٠٣ بأن يتولى شئون الآثار المحلية وقام بتعريفه على أقرانه فى مصر مثل نوم رافائيل أو على زملاءه أعضاء « الانستيتو » مثل بيو وفوركروا .

اعتباراً من ١٨٠٧ أصبح أكبر الأخوين شامبوليون ما يمكن تسميته الآن بملحق ثقافى للمحافظة - تكلفه بمهام تتطلب الثقة . وقد وصلت الصداقة بينه وبين فورييه لدرجة أن هذا الأخير كان يدعوه كثيراً إلى قصر بوروجار ذى الموقع الجميل حيث كان المحافظ يضع - كما كان يقول - « نهرا بين العالم وبينى » *

أهم تلك المهام كانت المساهمة بتحرير المقدمة التاريخية « لوصف مصر » التى كلفه بها أقرانه فى « معهد (لانستيتو) القاهرة » بصفته أمينه العام وذلك فى عام ١٨٠٢ حتى قبل سفره إلى جرونوبل . وعندما إستقر به المقام فى محافظة الإيزار (علما بأنه كان يأمل ألا يبقى فيها سوى فترة قصيرة) تبعته إلى هناك جميع المستندات التى كان قد إستطاع جمعها - وأنشأ بذلك فى اللوفينيه ما يمكن تسميته « بملحق » للجنة مصر . هذه اللجنة كانت تشغل مكانا بجوار اللوفر وتحت إدارة لانكريه ومن بعده جومار وهدفها نشر الكتاب الضخم .

بإختصار كان الأخوان مرتبطين إرتباطا وثيقا بتحرير مقدمة جوزيف فورييه . مراسلاتهما مليئتان بإشارات إلى تقدم العمل - مستندات ، ملحوظات ، مراجع وتواريخ . ولكن ليس من المؤكد أن المحافظ قد أتى معه بنموذج لحجر رشيد . والواقع أن فيچاك قد طلب من ميلان توفير هذا المستند حتى يتسنى له ترجمة النص اليونانى وكتابه « دراسة نص حجر رشيد » وذلك فى عام ١٨٠٤

لم يتوقف قط تبادل الرسائل والمخاطبات بين « القيادة العامة » الباريسية والفرع الجرونوبلوازى للدراسات المصرية وسبق أن أشرنا إلى أن جان - فرنسوا خلال إقامته فى باريس - كان يقوم باستمرار بمهمة نقل المستندات والمعلومات التى كان يوفرها جومار عن طيب خاطر . وبعد أن عاد « صغير » إلى جرونوبل قام چاك - جوزيف بالتردد على باريس وكان يلقي ترحيبا من أعضاء اللجنة أكثر من أخيه - لأن هذا الأخير لم يكن يحتفظ لنفسه بأراءه وخاصة أنه لا يعير أهمية أكبرى للأشخاص بذاتهم ولكن لتفسيراتهم للحضارة المصرية القديمة .

حصلنا على إثباتات عديدة على الجهود التى بذلها الشقيقان فى خدمة المشروع الكبير المنوط به فورييه . مثال ذلك هذان الخطابان . الخطاب الأول موجه من چاك - جوزيف إلى الأخ الأصغر والثانى من جان - فرنسوا إلى الأكبر :

« جرونوبل فى ٨ أغسطس ١٨٠٨ ،

* يقصد نهر الدراك .

عندما تقابل مسيو جومار [..] أخبره أن مسيو فورييه متوعدك وأن المقال التمهيدى يتقدم العمل فيه كل يوم وأن مسيو فورييه يحتاج إلى ثلاثة أشهر للإنتهاء منه وأخيرا أنه يشعر باليأس الكامل وإنى أعتقد أن من الأفضل أن يكتب له مسيو جومار كثيرا فى مرحلة الولادة الصعبة هذه لأن ما يمر به مسيو فورييه هو بالفعل كذلك وإنى أخشى أن يمرض بالفعل لهذا السبب ... » (9).

رد « صغير » جاء كالتالى :

« باريس ، فى ٩ أكتوبر ١٨٠٩ »

أمضيت طوال يوم الخميس [..] وجهاً لوجه مع مسيو فورييه . تلا على « بحثه الفلكى » * . وهو يقدم له بدراسة عن الأوضاع فى مصر تحت حكم الفراغة ويقع فى ٨٣ صفحة ** رفعت له قبعتى عدة مرات (مثلما كان يفعل بيرون) للتعبير عن إعجابى بالأفكار التى تعلمها منا إلا أنه عرف كيف يستغلها بتفكيره العادى . إلا أنني جعلته يعيد تصحيح من عشرة إلى إثنتى عشرة فقرة تفوح منها رائحة المدرسة القديمة . فقام بتعديلها بانصياع مثالى . وإنى أقدر له ذلك تقديرا لانهاى . إذ يثبت ذلك أننا نتمتع ببعض الأفكار المضيئة . (10)

ثقة بالنفس رائعة ومثيرة للنشوة ! كيف يمكن للمراهق ذى المزاج المتقلب أن يستعيد ثقته بنفسه بطريقة أفضل من أن يتقمص دور المعلم والمصحح لفورييه المشهور ، زميل بونابارت ، مستكشف روائع ممفيس وطيبة باسم «الأفكار المضيئة » التى إكتسبها هو وأخوه ! قد تكون هذه السويغات التى أمضاها فى أكتوبر ١٨٠٩ مع كاتب مقدمة كتاب « وصف مصر » فى أثناء زيارة له لباريس التاريخ الفاصل للمرحلة الثانية للمشروع الكبير الذى بدأه عام ١٨٠٦ وهو فى الخامسة عشرة من عمره وكانت بعض الإحباطات وحالات الفشل قد أوقفته أحيانا .. أن يكون قد ساعد فورييه على الخروج من آلام « عملية الولادة الصعبة » ومن « مبادئ المدرسة القديمة » لا يمكن أن يكون إلا مصدرا للفخر ..

كان على فورييه أن يواجه رقبيا أكثر صعوبة وهو نابليون نفسه والذى كان يولى هذا النص اهتماماً فائقاً بسبب ارتباطه الوثيق بمجده الشخصى . كشف لنا فيچاك

* راجع فيما بعد قضية « رسم الأبراج السماوية » .

** يقصد المقدمة .

فى كتابه «فوربييه ونابليون : مصر والأيام المائة » * أن الإمبراطور طالب بعدد كبير من التعديلات وأغلبها يتعلق بكل ما كان يمكن أن يجرح الكنيسة الكاثوليكية التى وضعها تحت حمايته بسبب تعبير متحمس أكثر مما ينبغى « بالفلسفة الفرعونية » .

أخيرا فى ٤ فبراير ١٨١٠ بعد أن تمكن من تخطى حالات القرف والضعف أعلن فوربييه إلى وزير الداخلية مونتايليفيه أنه « سلم المطبعة الامبراطورية الصفحات الأخيرة من المقال الإفتتاحى لكتاب « وصف مصر » ** . ثم ينتهز الفرصة ليعبر عن « عدم رضائه عن بعض الشكاوى التى وجهت ضد شخص حكم على نفسه بارادته أن يقوم بعمل صعب ومستمر دام أشهر عديدة . » (أشر مونتايليفيه على الخطاب بما يلى « إعداد رد عاطفى ... ») .

هل تعنى الخدمات المستمرة التى قدمها فيچاك وصغير لجوزيف فوربييه فى تحرير النص المشهور أن « المقدمة التاريخية » من صنعها وليس بقلمه هو ؟ أكد بعضهم ذلك لكن الصفحات التى خصصها چاك - جوزيف لهذه المهمة فى كتابه «فوربييه ونابليون » تنفى هذا الادعاء: « رأيت الجملة الأولى لهذه المقدمة وهى تخط على الورق ورأيت أيضا سطور النهاية ... ما أن وضع خطة كتب (فوربييه) كل جزء على حدة[..] قامت هذه الخطة على تناسق حسابى [..] ستة أقسام تحتوى على ستة وثلاثين مقالا (..) لاتوجد فى النص الأدبى لفوربييه جملة واحدة غير مدروسة فى كل كلمة منها .. »

لايمكن أن يكون المرء أكثر وضوحا فى إرجاع أبوة النص إلى الموقع عليه أكثر من ذلك ، خاصة وأن شامبوايون - فيچاك كان يكتب هذه السطور فى زمن لم يكن فيه من مريدى المحافظ - عالم الطبيعة ، وكان قد أصبح مشهورا هو ذاته وكانت علاقتهما قد خرجت من العديد من العواصف ومهما كان عرفانه بجميل راعيه فإن چاك - جوزيف قد وازن جيدا أبعاد فضل فوربييه عليه فى الوقت الذى كتب فيه هذا النص بما يمنعه من أن يعبر له أمام التاريخ عن فضل لا يستحقه .

* راجع الفصل ٦

** كان الجزء الأول قد نشر بالفعل عام ١٨٠٩

جاءت في خطاب جان - فرنسوا المؤرخ ٩ أكتوبر ١٨٠٩ إشارة إلى « البحث الفلكي » . يتعين علينا أن نتوقف عندها . لم يكن موضوع الساعة حينذاك هو صدور « الوصف » فهو ليس من الأسباب التي تثير المنازعات بل كان الجدل المشار نو الأبعاد العديدة بسببه « البرج السماوي » أو « الزودياك » فهو الذي أثار حفيظة من أسماهم آل شامبوليون « الجيزويت » « المتعصبين للنصوص » أو « مطفي الشعلات » وهو ما أثار انتباه الإمبراطور « النقي » عندما قرأ له فوربيه مقدمته .

كان قد تم إكتشاف « ست أثار فلكية » في مصر ومنهم « رسم الأبراج السماوية » المشهور في دندره . وكان الذي اكتشفه هو بوسيه والذي درسه جولوا وثيلار نوتيراچ والذي نقله رسماً فيثان نونون . هذا الاكتشاف جعل العديد من المتخصصين وخاصة نوبوى صاحب كتاب « أصل الأديان » والعظيم قولنى يعتقدون أن الحضارة المصرية تعود إلى خمسة عشر ألف سنة قبل الميلاد . وجاء ذلك متناقضاً مع التسلسل التاريخى المعتمد من الكنيسة الكاثوليكية الذي كان يرجع تاريخ خلق العالم إلى أربعة آلاف سنة قبل ميلاد المسيح .

لم يؤيد جوزيف فوربيه هذه النظريات الأكثر تقدماً في هذا الاتجاه لا في مقدمته ولا في بحثه الفلكى . والتي كان يشكك فيها الفلكى المشهور لالاند ذاته وكان ملحداً مناضلاً وكان يود لو تمكن من وجهة النظر الفلسفية أن يسخرمن تعاليم روما كان فوربيه يعتقد أن الحضارة المصرية تعود إلى خمسة وعشرين قرناً قبل الميلاد ومن هنا جاء قول بونابارت : « أربعون قرناً » .

ومع ذلك فإن الرأى العام كان قد سجل عليفوربيه أنه باسم العلم قد ناقض بجسارة التاريخ الكنسى . فوربيه كان عضواً بارزاً فى الماسونية وقد أدى ذلك إلى إثارة المحافظين فى جرونوبل وغيرها . لقد كانوا على استعداد لقبول فكرة عضوية محافظ مقاطعتهم فى الجمعية التأسيسية الحقيرة « (الكونفونسيون) ككائب مناب ولكن أن يشكك فى تعاليم الكنيسة ! *

لنجدة فوربيه أسرع اثنان من زملائه فى جمعية العلوم والفنون ، هما الأب چاتال (وقد رأينا أنه إنسان متفتح الفكر) والچنرال بولاسالت (السيف) الجنرال بعد الماء المقدس (القس) . أوضح الأول أن الملاحظات التى أبداهها عالم الرياضيات المشهور بناء على « أثار طيبة وممفيس » جعلته يصل إلى « استنتاجات » تناقض « ظاهرياً وليس واقعياً ، الرأى العليم الذى أفتى به بوسويه « يعد الرجوع إلى هذا الأخير دعماً أساسياً ** .

* سنرى فى الفصل ١٠ أن إكتشافات - جان - فرنسوا شامبوليون ستؤيد بطريقة غير متوقعة نظريات الكنيسة .

** بوسرت Bossel رجل دين وكاتب وخطيب فرنسى من القرن ١٧ [المترجم] .

أما الجنرال دولاسالات فكان أكثر حصافة ، فقد قال : إذا كان هناك فرق أحد عشر ألف سنة بين تقدير « البرج » « غير القابلة للنقض » والمبادئ « المعتمدة عالميا » للكتب المقدسة مما أدى إلى « تناقض » فيتعين علينا أن نعمل على التوفيق بين النظريتين . كيف ؟ إذا أخذنا في الاعتبار أنه جاء في رسالة بطرس الرسول أن « فى نظر المولى يوماً واحداً يساوى ألف عام وأن ألف عام تساوى يوماً واحداً .. » ثم يخرج المؤرخ الموسيقى والضابط السابق بهذا الاستنتاج المدهش : « نرى إذن من هذا النص أن الستة الأيام التى سبقت خلق الله للإنسان كانت من أيام المولى ويجب حسابها على أنها ستة آلاف عام . وتأسيسا على ذلك فإن [..] رسوم الأبراج السماوية التى عرفنا بها المواطن فوربيه وهو يحاول أن يعطينا فكرة صحيحة عن الفترة التى خلق الله فيها العالم لابد وأنها أدخلت فى حساباتها الستة آلاف عاماً المذكورة والتى تزيد عن الحسابات العادية [...] أما عن الخمسة آلاف عام الباقية فليس فى إمكاننا أن نخطو خطوة أخرى أكثر من ذلك [...] نرجو من القارئ أن يلاحظ أننا نقبل بون أى إعتراض أن الأيام بها أربع وعشرون ساعة وهو ما يعتبر أصعب فى تفسيره من [الأيام التى هى ألف عام] مع العلم بأن أعمال الخالق لا يمكن كشف أسرارها .»

ليس من المعروف ما إذا كان جوزيف فوربيه قد تنوق أم لا حسن الدفاع عنه هذا من زميله أما المؤكد هو أن هيئته كمحافظ لم تهتز ، فقد ظل يدير أمور عاصمة الدوفينييه لمدة خمسة أعوام أخرى مع العلم بأنه كان ينتظر أن يكون المقابل « لعمله المتصل والصعب » فى كتابه المقدمة ليس المكافأة الضخمة التى أراد نابليون أن يمنحها له ورفضها هو ، ولكن أن يعين فى مجلس النولة وهو ما كان يرغب فيه بشدة .

مدهش هذا الفوربيه ! ... فلنتصور كيف كان يوم من أيامه . لقد كان مسئولاً عن إدارة منطقة من أكثر مناطق الإمبراطورية توترا لأسباب تاريخية واستراتيجية ، وهو فى نفس الوقت يشرف على تنفيذ أعمال ضخمة لتجفيف مستنقعات بورجوان ، يفصل باستمرار فى كل موضوع تشريعى فى مرحلة إنتقالية صعبة ، وهو معمم أبحاثه العلمية التى أدت إلى ظهور نظريته فى إنتشار الحرارة ، ثم بعد ذلك كله يضع اللمسات النهائية على مقدمته العظيمة ويرد على أحد أعداءه بخصوص تفسيره للأبراج المصرية ، ويملى عشرين برقية لعامل تلغراف لا يصل مداه إذا كان الجو صحواً إلى أبعد من مدينة ليون . ثم يسرع إلى قصر بوروجار ليراجع ما به من مستندات تاريخية وأخيراً عند حلول المساء يشرف على سهرة من السهرات التى كان ينظمها فى صالونات دار بوكيد يجيار المطللة على حدائق المدينة (حيث كان يتربص شخص بدين

عائده من ميلانو إسمه هنرى بابل) والتي تجعل من مقر إقامته إجتماعاً لإحدى الأكاديميات .. هذا إذا لم يفضل عن ذلك حضور إجتماع جمعية العلوم والفنون بصفته عضواً بها .

وكان يجد أيضاً الوقت ضمن أشياء أخرى لأن يكتب فى ١٧ فبراير ١٨١٢ خطاباً لفونتان يفيد به أن وفاة نوبوا - فونتانال جعلت كرسى التاريخ فى الجامعة شاغراً وأن لا أحد يمكنه أن يكون أكثر كفاءة من جان - فرنسوا شامبوليون ليشغله بعد أن « أثبت كفايته بمعارفه النادرة » و « باكتشافاته فى مجال علم الآثار ».

كان الشقيقان شامبوليون - إعتباراً من ١٨١٠ من المواطنين على حضور سهرات دار نوليديجيار مع الكونت دارجو والماركى نو بوشاج والكونت نولوميو (شقيق عالم المعادن) وأوجوستان بيريه ووتيسيار ودو بلانتا ودويريا - سان برى

« مذكرات » فوريه التى أشار إليها إيميه شامبوليون - فيجك فى كتابه « يوميات نوليديجيار » ترسم صورة لأجواء هذا البلاط الريفى لدار نوليديجيار الذى يؤدى فيه - دارس اللاهوت السابق (فوريه) ليس نور الملك الشمس (لويس الرابع عشر) ولكن نورميديسيس « ميدسيس أو مادام نوليديجان .. فهو يكره « حفلات الموسيقى التناقضية » وكان يقوم مثل نابليون فى فونتانبلو بتجارب فى علم الطبيعة ويطلق المناطيد ويقوم بتنظيم « تابلوهات حية » . كان يطرد الفنانين المتجولين وغيرهم من « المشعوذين » ولكنه يستسيغ العروض المسرحية مثل « العازب العجوز »* و « المكفهر الطيب » وكذلك حفلات البالية التى كانت تؤدىها عائلة شاليونى الشهيرة .

جاك - جوزيف وجان - فرنسوا شامبوليون كانا : الأول منظم الحفلات والأخر مقدمها ومحبيها . إذ أن جميع الشهادات متفقة فى أن أستاذ التاريخ الجامعى كان يقوم بمجهود كله خفة وبريق وكوميديا يفتتن لها جوزيف فوريه .. من غير المعروف إذا كان أصغر عضو فى جهاز التدريس الفرنسى كله قد عرض فى هذا الإطار مسرحية « سكولاستومانى » والتى كان يهاجم فيها نون رحمة نظاماً تعليمياً يحتقر أى فكر نقدى وقائماً على عبودية التراث السلطوى .. على الأرجح أن فوريه - مهما كان رأيه فى ذلك - لم يكن فى إمكانه أن يرعى مثل هذه الإنتقادات . ولكن من ناحية أخرى كان « صغير » يعرض فى هذه الحفلات تقليده للتراجيديات الكلاسيكية والتى عثر عليها ونشرها ليون نولابرييار . لم نقاوم الرغبة فى عرض مقتطفات منها إذ أنها توضح حيوية هذا المؤرخ ذى العشرين عاماً .

* تغافل عن وجود أى تشابه مع وضعه الشخصى .

مثال ذلك مسرحية « باجازية » * وقد عرضها بمناسبة ماردي جرا ** وفيها يفسح عالم الإستشراق المجال للكاتب الساخر ويحكى كيف حضر الوزير أكوامات ليحيط - روكسان - محظية السلطان المفضلة علماً بوفاة سيدهما المشترك :

كان إلى الأمام سائراً ، والحرس تابعاً
ولما كان الجو ساخن ، كان جلالته شارباً
لا النبيذ لأن ديننا كما أنت عارفة
منه طهر مطابخنا (وهو فى ذلك بصير
وعلينا خشى من شذاه الخطير)
ولكن شرابه كان بريئاً ولذيذاً
بالسكر والبهار والقرفة والبرتقال
والليمون والمسك خليط للنشاط فعال ،
فجأة صوت السلطان فى المكان علا
حوله إندفع من القوم من سما
كان كالثور بعزم خاترا ، حتى الخصّ نهل
مما سسمع ، فالصوت الرهيب جلجل .
روكسان
آه ! يا إلهى ! ماذا حدث للمسكين المبجل ؟
أكوامات
التواء خطير فى العنق !
روكسان

فقط ؟

* أو « بايزيد » مسرحية لرابسين كتبها عام ١٦٧٢ وتدور أحداثها فى سراى تركى فى العصر العثمانى . (المترجم) .
** الثلاثاء المرفع الذى يسبق شهر الصوم عند المسيحيين (المترجم) .

أكومات

كان في ذلك الكفاية بما أنه به توفى !...!

روكسان

أوقا ! ...

أكومات

لإنتقاه وهذه كانت الظروف

بسحب السلطان من داخل عربته

نون جنوى ! إذ أن رأسه من ساعته

وقبل نهاية اليوم كانت نحو كتفه إستدارت

ولاشئ أوقف من عظيم الألم الشدة

وهرولت الذقن ناحية الرقبة تتقدم

والعيون مبهورة بهذا المنعطف تتفرس

فأرت أمامها مالم تره أبدا

رقبته قصمت والموضوع حسم !

هذا ما علمته من آخر مرسال أقسم

روكسان

ياويلي ! ليس هناك إذن شك في شقائى

إنه بالفعل مات ، هذا أكيد

أكومات

من قال لك ؟

روكسان

قلبي

ومعه ألف نذير ؛ صراخ بومة

سكين أمامى فوق شوكة اعترضا
إمارات حبى فى ساعة نحس يوم جمعة سافر
وسط الوليمة أوقع خادم سارح
الملح على المفرش الليلة البارحة
فى الشارع كلب طوال الليل كان نابحا
فأقلق نومى وكنت لذلك نائمة
ووضع الخبز معكوسا ...

أكومات

لاشك إذن عندنا

التركى الأعظم لم يعد بيننا (11)

هل القرن الثامن عشر والتصرفات الغريبة التى سادت « حكم الديريكتور » والمغامرة
الناپوليونية والرومانسية الباذغة كل من رفض أن يشارك فى الهوجة الإمبراطورية نون
أن يرتبط فى الوقت ذاته بالثورية اليعقوبية (الجاكوبية) ولا يتقن الأوضاع الجديدة
الزاحفة لجأ إلى السخرية مثل بينجامان كونتسان وهنرى بال (ستاندال) .
چان - فرنسوا شامبوليون فضل أن يضحك من ذلك الزمن بدلا من أن يبكى مرغماً .

لعله احتفظ بدموعه للبكاء على أول امرأة أحبها پولين بيريا التى توفيت (بمرض
السل) فى يوليو ١٨١٣ وهى فى التاسعة والعشرين . منذ أن عرف لويز قبل ذلك
بخمس أوست سنوات كانت عواطفه نحوها لصديقة . البورتية الخاص بها والذى لا
تزال الأسرة محتفظة به فى « فيف » يقدم لنا وجهها « جميلا » وإن كانت خطوطه غير
منتظمة وتعبير ينم عن مرح طبيعى سلس . كل ما عرف عن الشابة المتوفاة وهو قليل :
عن ضحكها وتحفظها الطبيعى ، وعن مسحة الحزن التى إجتاحتها بعد إنسحاب
« صغير » هو فى صالح صورتها الجميلة .. نراهن على أن وفاتها أثرت فى چان -
فرنسوا وكلفته أكثر من الدموع العابرة .

هل أضافت ذكرياته عن لويز ديشان بعد أن هجرها فى أكتوبر ١٨٠٩ إلى تعتيم
حياة چان - فرنسوا ؟ لم تعرف علاقة نسائية فى تلك المرحلة من حياة هذا الشاب
اللامع والمحبيب . وإذا حدث وأقرض الشعر الركيك فى صالون فوربيه على حساب
إحدى السيدات المسماه لويز وقد وصفها بأنها سميحة ومتواضعة فإنه لم يكن يقصد

بالتأكيد لويز الباريسييه وهو بالقطع لم يكن ليذكرها فى وسط كهذا . ولعله أيضا قد طوى هذه الصفحة القديمة مما سمح له بالحديث عن سميتها . يقول ابن أخيه وهو دائماً متحفظ فى حديثه - فى كتابه « حوايات دفينيه » : « إن الخطاب الذى أرسله لصديقه سان مارتا لتسليمه عام ١٨١١ كان « وداعا » كله حنان ومواساة رقيقة (12) » إلا أن لهجة الخطاب المرفق تدفع إلى الشك فى أن قطع العلاقة تم بطريقة سلسة .

مع ذلك يوجد دليل أو مؤشر على أن لويز ديشان كانت تحتل مكاناً أليماً فى حياته وهذا الدليل جاء فى سياق خطاب أرسله صديقه جوجون تاجر الكتب النوفيني المقيم فى باريس إلى چاك - جوزيف فى ٧ يوليو ١٨١٣ يقول فيه إن « صغير » يجب أن يسافر إلى باريس لأن هذه الرحلة « ستكون قطعاً مفيدة له » . ثم يضيف : « إن السبب الذى أبقاه بعيداً قد زال . الشخصية التى تعرفها تزوجت منذ أكثر من سبعة أشهر * .. » كان الجرح إذن ما زال حياً حتى أن چان - فرنسوا كان يمتنع عن الذهاب إلى العاصمة حتى لا يخاطر بقاء لويز .. زواج السيدة قطع الطريق على خطر الوقوع مجدداً فى علاقة حب جارفة .

كان باختصار يعيش فى جرونوبل حياة أستاذ جامعة إقليمية ، محمواً بأعداد وتنظيم دروسه التاريخية الطموحة . كان يتردد كثيراً على منزل أخيه فى فييف حيث كانت أسرة چاك - جوزيف تستقبله بكل ترحاب وحنان . هناك فى غرفته الصغيرة بالدور الثانى حيث ما زالت أثار أبحاثه محفورة فى خشب السقف وفى غرفة المكتب الصغيرة حيث كانت تتراكم أوراقه وكتبه كما كان الحال فى شقته الصغيرة جداً الواقعة فوق دار كتب جرونوبل .. فى هذه الأماكن كان چان - فرنسوا شامبوليون يطرح أسئلته عن العلامات الهيروغليفية .

فى ٢٨ مارس ١٨١٠ وصل إلى چاك - جوزيف شامبوليون - فيچاك خطاب من سيلفاستر بوساسى فحواه كانت من النوع الذى يمكن أن يهدم جميع آمال أخيه بل وهدف حياته كلها إذ كتب هذا الرجل العظيم يقول :

« ولازلت محتفظاً بالأثر الطيب الذى تركه لى أخوك وإنى أهيب به ألا يترك الآداب الشرقية أبداً . غير أنى لا أعتقد أنه يجب أن يبقى متعلقاً بحل شفرة نص

* كانت لويز قد تزلت فى ١٨١١

حجر رشيد . إن النجاح فى مثل هذه الأبحاث كثيرا ما يتوقف على صدفة سعيدة لا على عمل شاق يجعل الإنسان يأخذ أحلامه أحيانا أنها واقع ... » (13)

تحذير قاس كان من الممكن أن يجهز على حياة الكثيرين . لعل الشقيقين شامبوليون فسرا هذا التشاؤم بما حدث من خيبات أمل متكررة للمستشرق الكبير . إذ أنه حاول كثيرا مع النص ولأشهر طويلة فى عام ١٨٠٢ بون أن يصل إلى أى نتيجة .. مثلما حدث مع غريمه السويدي دافيد أوكربالد تقريبا . لأن أوكربالد قد نجح - حيث فشل تماماً من سبق من الرواد - فى أن يقترح على الأقل أبجدية ما وأن يتعرف على تشابه يجمع بين مختلف الخطوط المصرية القديمة . أمام كل ذلك ماذا كانت فرص الرجل الشاب فى قيف ؟

إر « السيكولوتيميين » (الذين يعانون من تناوب النشوة والإحباط) يتميزون بأن التحدى يعيد لهم النشاط . ففى حين يدفع حثهم على العمل إلى الانكماش فإن كلمات مثل تلك التى وجهها له أستاذه كانت كفيلا بأن تلهب « صغير » ، هذا الذى إعترف لأخيه فى يوم من الأيام بأنه ينوى ترك المجال الفكرى وليتفرغ لأى عمل يدر عليه مالا أكثر - ها هو شعلة متقدة مقبلة على العمل .

بعد أقل من ثلاثة أسابيع من تحذير بوساسى له وصله خطاب من صديقه سان - مارتان يسأله عن أبحاثه فى حجر رشيد . اعترف فى رده أن إعداد محاضراته قد عطلته بعض الشئ؛ إلا أنه أضاف : « ... على الرغم من أن ماكتبه مسيو بوساسى فى هذا الصدد لأخى ليس من النوع الذى يشجعنى [...] إلا أنني أمل أن أعود للعمل بنشاط فى هذا الموضوع ... »

عدة عوامل توافرت حينذاك لصالح المشروع . يجب أولا ألا نهمل أهمية الجو العائلى والمحلى المحيط . فالعودة إلى چاك - جوزيف أعادت له الشجاعة . الأسباب التى أثرت سلبيا على علاقتهما مثل شطحات تلميذ الليسية ونفقاته كطالب شح يد الأخ الأكبر وطلباته الملحة - كل ذلك إختفى . أصبحتا متلازمين فى عمل واحد يجابهان الأعداء نفسهم ، طموحاتهما واحدة . يتبادلان المعلومات والأراء : موهبة دراسة الأصول لدى الأول تقوم بتغذية العبقرية الخلاقة لدى الآخر .

كانت المكتبة - معقلهم ، وكان ملحقاً بها قسم للأثار . كان هذا القسم بمثابة صالة التمرين الذى ينشط فيها الرياضى نفسه استعداداً لخوض مبارياته . منذ ١٨١٠ كان قد إنتهى من الكتالوج ذى الأحدى عشرة ورقة يصف فيه القطع العشرة

المعرضة . أهم قطعتين كانتا عبارة عن تابوتين (أحدهما يحتوى على المومياء الخاصة به) أهداهما للمكتبة مسيو لو مور عشية قيام الثورة وكان يعمل قنصلا عاما فى القاهرة . من المحتويات أيضا جزء من تمثال من الجرانيت الأسود بعض قطع أوشبتي بعض تماثيل من البرونز ووعائان كانوب (سنعود للحديث عنهما) . . كان هذا الكنز « الصغير » موضوعا تحت إشراف المستكشف فى عام ١٨١٠ . (14)

من المؤكد لنا أن جوزيف فورييه لم يكن لديه ما يمنحه لهذا المتحف الصغير بعد عشر سنوات أمضاها فى جرونوبل التي ربطها إسمه وأسماء أخرى بمصر ولكن لا بد وأن الأخوين شامبوليون قد عبرا عن أسفهما لأن جان - مارى نوبوا - أيمة وهو نوبوى آخر من الحملة على مصر فضل أن يحتفظ بمجموعته فى ميلان وهى إحدى ضواحي جرونوبل .

فى مجتمع جرونوبل لم يكن فورييه وفيچاك وحدهما يشجعان « صغير » إذ كان للأب جانتال دور ملهم أيضا . وهو الذى كان مديره فى اليسيه قبل بضعة أعوام وأستاذه فى مادة القواعد وقد إتقيا عند المحافظ وفى جميع الأماكن التى يجدى فيها تبادل للأفكار .

كان الأب جانتال عالم لغويات . فى شهر مايو ١٨٠١ قدم إلى جمعية العلوم والفنون بحثا يعبر فيه عن اعتقاده أن الحروف الأبجدية « بدأت تظهر على الأرجح فى مصر » وإن دراسة الحروف الهيروغليفية تظهرها « متشابكة مع رموز مختصرة ومع علامات نوعية » ولا بد وأن المصريين قد قادهم تفكيرهم إلى « إحلال علامات ترمز إلى أصوات فقط محل العلامات التى ترمز إلى أشياء » . لا بد وأن شامبوليون « صغير » قد تأثر إيجابيا بهذه الأراء العميقة . (15)

توفى كلود جانتال عام ١٨١٢ بعد نشر أول نص من تأليف جان - فرنسوا شامبوليون وهو « مصر تحت حكم الفراعنة » ... لم يعثر على أثر للرسائل التى تبادلها مع تلميذه القديم : ولكن لا يوجد مجال لأن نشكك فى أنه أدى دورا فيما قام به المستكشف .

حتى لو لم يعيده المحيطون به إلى موضوع اهتمامه الأول ، فإن الأبحاث التى قادها غيره كانت كافية لأن تحمس جان - فرنسوا فهو لم يكن يتحمل فكرة أن أحدا غيره يمكن أن يحصل على أغصان الغار ... فهى له وحده وهو الذى يستحقها . وهكذا المحب إذا بدأ الملل يتسلل إلى قلبه كانت الغيرة كفيلا بإشعال نار حبه من جديد .

فى ذلك العام ١٨١٠ كثر الحديث بل لم يكن هناك غيره - عن نشر كتاب إتيان كاترومار الذى إستغرق تأليفه سنوات عديدة « دراسات جغرافية وتاريخية عن مصر » فإذا كان جان - فرانسوا شامبوليون لا يتحمل ولا يقبل أن يغامر أحدهم فيطأ أراضيه فإن هذا الرفض يتضاعف إذا كان المتعدى هو هذا « البوليكارب » الخبيث والمتعنت فهو يحتقره إلى أبعد حد ، وزاد حنقه عندما إمتدح نوساسى كتاب غريمه على الفور وكان نوساسى صديق كاترومار وزميله فى المعهد ويربطهما علاقة عائلية .. ما العمل فى هذه الحالة ؟ لاشئ غير إستعادة المبادرة وإفهام الوسيط العلمى أنه « المصرى » وليس أحد غيره وهو الذى يفتح الطريق وينيره ! هيا يجب رفع اللواء ...

فى ٧ أغسطس ١٨١٠ - سيبيلغ العشرين بعد أربع شهور - قرأ شامبوليون الصغير ، حثا مطولا أمام أكاديمية الالفينيه (ثلاثون صفحة من القطع الكبير مكتوبة باليد) م ضوعه « كتابة المصريين » * حدد فيه الموقف الذى وصلت إليه أبحاثه كما لو أنه أراد أن يسجل موقفه بالنسبة لمنافسيه مع علمه التام بأن نتائجه ما زالت عائمة ومؤقتة .

تحديد مواقف أو بيان رسمى .. إنه مستند أخذ مدهش فيه يرفع جان - فرنسوا شامبوليون من جسارته المعتادة ، يوجه نقده لكليمان السكندرى وللأب أثانار كيرشار والمطران واريبورتون على نفس الدرجة من الحدة الفظة فى خليط من الأفكار الحدسية العميقة والأخطاء البينة وذلك بأسلوب حي ولهجة نضالية .. من المؤكد أن مراقبيه إستشعروا وتنبؤوا له بمستقبل واعد .

فى ذلك اليوم السابع من أغسطس ١٨١٠ سمعه أعضاء أكاديمية جرنوبل يؤكد أن الهيروغليفات حروف كتابية وليست كما أدمى البعض ** أعمال نمطية زخرافية . ولكن يجب إعتبارها الشكل الأخير الذى اتخذته مختلف الكتابات المصرية ، سبقتها الكتابة المتصلة أو ديموطيقية التى هى « الأساس الأسمى لهذه المنظومة » . مضيافا : « كيف يمكن أن تكون هذه الأخيرة - كما يدعى البعض فى تكرار - تبسيطا للهيروغليفية ؟ إن فى ذلك سير فى اتجاه معاكس للتفكير البشرى » .. !!

تأسيساً على هذا التأكيد (المشكوك فيه) الخاص بسير التفكير من السهل نحو المركب ، قدم « صغير » عدة إقتراضات جديرة بالاهتمام . أن الخط الديموطيقى

* على صفحة الغلاف كان العنوان الكامل هو « الكتابات القديمة للمصريين » ، مكتبة جرنوبل

مستند ، AF no 6

** منهم الأب رونور .

الأصلى والذى كان يستخدمه المصريون فى أعمالهم اليومية يتكون من خمسة وعشرين حرفا ، وإذا كان الخط المتصل (الديموطيقى) أبجدى فإن الهيروغليفيات تضم أكثر من ثمانمائة شكل ولا يمكن أن تكون كذلك بل هى أحادية المقطع . كما أن هذه الرموز أو الأشكال لا بد أنها تعبر عن أصوات . ولولا ذلك لما كان فى استطاعتهم أن « ينقلوا » إلى الأسلاف أسماء الملوك المصريين والأمم الأجنبية والقبائل .. « كما أن « الهيروغليفيات لم تكن رسما للأفكار » ولكن توجد كتابة رابعة – ذات طبيعة « رمزية » مكونة من رموز وأشكال وهى فى المعابد المصرية توضع فوق الهيروغليفيات « وقد أدى الخلط بين هذه الأخيرة مع الرموز إلى أن أصحاب المؤلفات الحديثة قد « تراكمت منظوماتهم فوق بعضها بون أن يخطوا خطوة هامة واحدة نحو فهم هذه الكتابة المقدسة » .

فهل قام هو بهذه الخطوة الهامة إلى الأمام ؟ إننا نراه يخطو إلى الأمام لكن بسرعان ما يرجع للخلف .. نراه يؤكد أن الهيروغليفيات لم تكن حكرأ على الكهنة وإن بعض العامة كانوا يستخدمونها أيضا وهذا مشكوك فى صحته . لكنه يخرج من هذا التأكيد غير المؤكد بفكرة مثمرة وهى أن ما دامت المنظومة أحادية المقطع فمن الممكن أن يتحلل على شكل أبجدية .

« جميع المقاطع الأحادية فى اللغة المصرية كان لها مدلول محدد » ثم يعرض بعد ذلك أن المزج بين العلامة المقطعية « المعبرة عن اليد (هو) أما العلامة المشيرة للوجه (إى) تقرأ « يعبد » . هذه التركيبية الدقيقة من مقاطع أحادية مصورة تشكل « على ما يبدو المنظومة الهيروغليفية المصرية » ثم يخلص إلى ما يلى :

« يترتب على ما سبق عن الكتابات المصرية الأربع أن واحدة كانت تستخدم فى الشئون اليومية العادية وفى التجارة ، والثانية الهيروجراماتيكية ، كانت تستخدم فى الكتابات الدينية (..) وتعرفها الطبقة المتعلمة من الشعب وكذلك الهيروغليفية التى كانت تستخدم فقط فى الكتابة على المعابد والصور الأخرى . الكتابة المقدسة الحقيقية والتى لم يكن يفهما سوى الكهنة كانت هى الرمزية وكانوا لا يكشفون مبادئها إلا للخاصة والطبقات الأولى فى الدولة . ولم يكن السبب وراء ذلك هو خداع الشعب أو لاستعباده [..] ولكن للحفاظ على سرية حقائق عليها ليست فى متناول الشعب [...] بفضل هذا النظام العاقل بأن أنشأت ديانة للشعب وأخرى للمتتورين [..] أن حكومة مصر لم تضطر يوماً إلى قمع المجددين وأن هذه الأرض الشهيرة لم تتلون أبداً بدماء التعصب » ..

فلسفة غربية نابغة من شاب أشيع عنه أنه (يعقوبى) (ثورى متطرف) ! ماذا إذن عن هذه « الأفكار المضيئه » المحجوزه للصفوة المستنيره .. وماذا عن شجب « المجددين » .. غير أن أهمية كلامه لا تكمن فى الشطط الأيديولوجى إنما فى التقدم الذى أحرزه كعالم لغويات فى مجال أبحاثه « أنتقدت بالطبع عودته إلى فكرة « الرمزية » والتي أسقطها معظم الباحثين ! هذه الهفوة وكذلك الخطأ المتعلق بالتسلسل التاريخى لمختلف الكتابات المصرية (من « البسيط » إلى المركب) لا يمكن أن يغطيا على إبداعية فكرته الخاصة بالمعنى الصوتى والتصورى للهيروغليفيات : فمن حدسه هذا خرجت الحقيقة .

نعم أخطأ ولكن حقق أيضا تقدما وتنشيطا لمشروعه وطرح تساؤلات طريفة . لم يترك أحد من الجمهور الذى لمستع « للمصرى » تقريراً عن الحدث . من المتوقع أنهم تأثروا بحماس الشاب ، وتحت تأثير فيجك وضعوا ثقتهم فى نجاح أصغر أعضاء الأكاديمية النوفينية بسنا الذى سيحتفل بعد أربعة أشهر بعيد ميلاده العشرين .

جان - أنطوان سان مارتان المكنى « بالأرمنى » كان أقرب زملاء دراسة جان - فرانسوا الباريسيين إليه . وسبق أن رأيناه يرحوه أن يؤدي له دور ساعى بريد الحب لتوصيل رسالته للوزير ديشان ويفصح له عن آماله بعد أن أصبح أستاذا فى حل شفرة مخطوط حجر رشيد . مشاغل سان - مارتان المهنية ومن بعدها مشاغله السياسية ستفرقهما قبل أن يتصادما بعنف . ولكن فى هذه الأونة التى نحن بصدها كان « الأرمنى » هو صديق المراسلة الذى يبوح له « صغير » بأسراره وهو ما أتاح إمكانية متابعة مراحل عمله بدقة وتطوره الفكرى .

الحوار بين هذين العالمين فى اللغويات يتوه كثيرا فى منعطفات لا تنتهى وفى منحنيات « قضية بوليكارب » التى سبق أن أشرنا إليها ويجب أن نعود إليها هنا ! إتيان كاترومار - تلميذ نوساسى - كان متعمقا فى اللغة القبطية كان قد نشر فى عام ١٨٠٨ * بحثا فى « لغة وأداب مصر » * ثم أعلن عن قرب ظهور « دراسة جغرافية وتاريخية عن مصر ** وكان ذلك مترامنا مع إعداد جان - فرانسوا شامبوليون لكتابة

* كان يكبر جان - فرانسوا بثمانى سنوات .

** نشر فى ١٨١١

« مصر فى عهد الفراغة » وهو البحث الذى كان قد عرض فكرته العامة أمام « جمعية العلوم والفنون بجرنوبل » عشية سفره إلى باريس فى خريف ١٨٠٧ . وكان واضحاً أن الكتابيين سيدخلان فى منافسة يستزاد حدتها بقدر ما كان المؤلفان * ينفران من بعضهما لتصل إلى درجة الصراع العلن .

حاول الشقيقان شامبوليون أن يسبقا كاترومار بأن ينشرا « مقدمة » كتاب « مصر فى عهد الفراغة » على حدة . إلا أن « بوليكارب » كسب الجولة فقد ظهر كتابه فى يناير ١٨١١ أما مقدمة أستاذنا الشاب فى جرنوبل فقد طبعت فى أكتوبر ١٨١٠ إلا أنها لم توزع على الجمهور سوى فى الأول من مارس ١٨١١ . وقد عرضه ذلك إلى خطر إتهامه بسرقة أفكار غريمه فى مجمل إكتشافاته عن أسماء المدن المصرية بإعادتها إلى تسميتها القبطية أى المسموعة لأنها هى الأسماء الفرعونية - وكان هذا بالضبط مايقوله كاترومار .

استقبل جان - فرنسوا فى البداية الأمور ببساطة وكتب فى ٢٠ فبراير ١٨١١ إلى سان مارتان يقول له أن نشر كتاب « بوليكارب » تسبب له فى « خوف أكثر مما تسبب من ضرر » لأن غريمه لم يقدم سوى أسماء ١٠٤ مدينة فى حين ينشر هو ١٧٤ إسماً ثم أنه شعر براحة نفسه بعد قراءة تعليق سان مارتان المادح لكتابه الذى أرسل له منه نسخة مطبوعة لم تصحح . علاوة على أن « المقدمة »* حازت تأييد جومار ولم يكن هذا بقليل نظراً لأهميته المزوجة بصفته أحد قدامى الحملة المصرية فى ١٧٩٨ ولكونه أيضاً عالم جغرافيا وكان تأييده يحول دون تعرضه لذلك وكتب يقول لچاك - جوزيف فى ١ يونيو ١٨١١ أنه « فوجئ مفاجأة سعيدة » لما وجدته فى هذا العمل « من أفكار تتطابق تماماً مع ما كتبتة » وهى ستساعد « فى تكملة وصف مصر » (16) .

أما أبال نوريموزا ، دارس اللغة الصينية فقد كتب فى ١٢ فبراير ١٨١٢ إلى شامبوليون فيچاك أن أخاه الأصغر قد وضع نفسه مرة واحدة « فى مصاف العلماء المشهورين » وأنه لن يجنى من هذا العالم سوى الأذى لأنه على حق .

« على حق » ؟ الأمور ستسوء فعلاً : سيلقاهستر نوسابسى الذى أرسله له صغير « المقدمة » وهو يشير إلى ماتدين به أبحاثه لتعاليم أستاذه فى الكولاج دو فرانس ، أشاد علناً بكتاب كاترومار : إذن الأستاذ العلامة لم يكن مقتنعاً « بخبرته المصرية » وعليه فإنه سيثبت له « أنه يعرف اللغة القبطية كما يعرفها بوليكارب الذى لم يدرسها

* نفور جان - فرنسوا لبوليكارب هو المعروف لنا . أما نفور كاترومار فنستج من كرهه البشرية

جمعا - فى الأولى مناقسيه .

إلا سطحياً . وكتب صغير في أحد خطاباته أن الصحف « لم تعامل منافسه بنفس إيجابية نوساسي » مختتماً خطابه بقوله « إن العدو الميت راحته طيبة » ياه !!

بعد ثلاثة شهور تفاقمت الأمور . سيلفاستر نوساسي بعد أن أرسل له خطاباً رقيقاً يشكره فيه على الكتاب ، نشر في « المخزن الإنسيلكوبيدي » تقريراً كله تحفظات عليه غضب جان - فرنسوا :

« مقاله س . نوس . فاجائتي ولكنها لم ترهيني . كنت أتوقع عملاً من هذا النوع ولكن لم أكن أنتظر منه أن يذكرني باستمرار بكتاب بوليكارب وبأن من الصعب أن يشتهر كتابي وسط بريق أمجاد صديقه » .

وكان ذلك إعلاناً للحرب : ضغط جان - فرانسوا على سان - مارتان ليعلن عن رأيه الإيجابي في « المقدمة » وحثه على أن « يشهر كل طاقاته ضد بوليكارب » فهو غالباً سيرث « إستبداد » نوساسي في الكولاج دو فرانس ... ثم أقنع أخاه بأن يشن الهجوم المضاد باسمه وقام أخوه بالتنفيذ . إذ إستلم نوساسي بعد عدة أسابيع خطاب عتاب مطولاً فند فيه « مذكرته الكريمة » بدقه قاسية جداً فهو يذكر أن أخاه لن « يستعيد » بأى جديد من كتاب مسيو « ك » لسبب بسيط هو أن كتاب أخيه قدم عام ١٨٠٧ إلى أكاديميه جرونوبل وأرسل في حينه إليه شخصياً - أى اساسي - كما أرسل إلى لانجلاس وجومار وفورييه . كما يؤكد جاك - جوزيف أن أخاه لكي يبرهن على « حرصه وحياده » و « عن رغبته في عدم الدخول في صراع * بأنه لن يكشف علناً « الأخطاء التي وقع فيها مسيو » ك . ويختتم جاك - جوزيف كلامه حاداً مهدداً وهو أمر غير عادي بالنسبة لشخصية لها هذا القدر ثم يقول « إن الظلم قد يجهز على حماس أخيه بعد أن جمع مادة ثرية لدرجة « تجعله أفضل بكثير من أى شخص آخر » في مجال فك شفرة الهيروغليفية (17) .

وبعد بضعة شهور ، سيحمل جان - فرانسوا نفسه السلاح في خطاب لسان - مارتان . إذ يعلن أن « لواء الحرب قدرفع » وأن « الوضيع كاترومار يرى صولجان الشرق يهتز بين يديه » وينهى كلامه قائلاً : « إن بروتوس مثلك وكاسيوس صغير مثلي لهما أكثر مما ينبغي [..] ضد قيصر بهذا الحجم التافه [..] دع كتابي « مصر » يظهر وسيكون نقطة خلاف معتازة نلقى بها وسط أعدائنا .. » .

إذا نحن توقفنا طويلاً عند هذه القضية التافهة عن منافسة حول من سبق من بين

* هنا السخرية تخطلت الحنود .

متقنين ، فذلك لأنها تكشف مرة أخرى عن مشاكسته العنيفة المتعصبة وعن حماسه فى الحديث ونزعتة إلى الانتقام وهو ما جعل الشقيقتين شامبوايون فرقة قوماننوز أسقطت بالمظلات وسط البرابرة - فما أن يظهر مناقض له إلا وسحيت سيوفها وإرادتت الدروع وخربوا علاقاته هكذا كان حال مشروع فك الشفرة موسوماً بصك الجدل المتعصب وسيستمر الحال كذلك فى مجال الدراسات المصرية القديمة حتى بعد رحيل العالمين . إذ إن عالم الإيجيبتولوجيا ينوء بما ينور حوله من صراعات الحساسيات الوطنية والمنافع الشخصية والتحزب الشللى ولو أن ذلك كله يحدث لمصلحة مجد الآلهة .

حرب « الجال » المصغرة هذه ضد « قيصر الصغير » لم تشتت فكر جان - فرنسوا شامبوايون فتجعله ينسى الموضوع الرئيسى وهو صراعه الشخصى مع الكتابة المقدسة . وإذ سألها سان - مارتان عن موقفه منها رد عليه فى ١٥ أكتوبر ١٨١٢ بما يلى :

« لم أحرر بعد مؤلفى عن قواعد اللغة المصرية إلا أن خطة العمل فيه إكتملت (..) . إنى قمت بتحليل اللغة القبطية أو المصرية لدرجة أنى على إستعداد لتدريس قواعدها لأى فرد فى يوم واحد (..) . سأبدأ بأن أثبت أن الكلمة المكونة من مقطعين هى فى الأصل مكونة من كلمتين أخريين . إن هذا التحليل الكامل للغة المصرية يعطينى نون أى شك * فتاح أصل المنظومة الهيروغليفية وسوف أثبت ذلك (..) ولكن هُـس ! »

هُـس ؟ بعد خمسة أشهر أصبح باحثنا أكثر ثرثرة وأفشى لمراسله إحدى أكثر اكتشافاته أهمية منذ أن شرع فى دخول مغامرته .

« يوجد فى الهيروغليفية نوعان من الرموز .

(١) ست رموز أبجدية [..] من حجر رشيد

(٢) عدد [..] محدد من محاكيات لأشياء فى الطبيعة .. »

لقد توصل بذلك إلى ثلاثة عناصر من الحل : أولاً إن المنظومة الهيروغليفية بمختلف أشكالها موحدة (أى أنه إستبعد فكرة أن الديموطيقة سبقت الخطوط الأخرى) ، ثم أنها تتضمن حروفاً أبجدية (توصل إلى ستة منها) بالإضافة إلى رموز تصويرية ،

* أقل ما يقال عن هذه الكلمات إنها زادت عن الحد : أو أنها سابقة لأوانها فهو لن يقيّمها إلا بعد

عشر سنوات كاملة .

وأخيراً أن لها قيمة (فونيتيقية) (منظومة سمعية) . هل يعد ذلك خطوة هائلة إلى الأمام؟
هى فى جميع الأحوال خطوة بالفعل .

إلا أن مطاردة الحقيقة لم تتم فى ميدان اللغويات فقط فهو يبحث أيضا فى مجالى الطقوس الدينية والمعتقدات . متحف المكتبة الصغير كان يحتوى على وعائين كانويين من الألبستر الجزء الأعلى لأحدها عبارة عن رأس قرد والآخر رأس ابن أوى وكان قد إصطلح على اعتبارهما رموزا للماء أصل الحياة عند المصريين القدماء . هل هذه هى الحقيقة ؟ للتأكد من ذلك قام جان - فرنسوا فى نوفمبر ١٨١٢ بإجراء تجربة هى الأولى من نوعها عليهما . إذ وضعهما فى ماء يغلى أذاب اللسان التحنيطى الذى يغلفهما وهو ما كشف عن شئ ملفوف فى قطعة قماش صدرت منه « رائحة حيوانية » .. هل هو كبد أم مخ أم مخيخ أم قلب إنسان ؟ لقد إكتشفها .. الإناء الكانوي يستخدم فى طقوس التحنيط .

أفضل من ذلك قوله لسان مارتان إن هذه الطقوس هى جزء من عملية محاسبة الأرواح وأن الرءوس التى تعلق الأواني الكانويية - لسيدة أو ابن أوى أو صقر أو قرد - ترمز لصفات إلهية مثل الرحمة والعدل وروح الحياة وروح الموت . « توصلت إلى المنظومة الشاملة له المادية والفكرية للحنيط » صرخة نصر جديدة وخطوة أخرى إلى الأمام .

فى خريف ١٨١٣ عبر له سان - مارتان عن دهشته ؛ لأن الباحث يشكك فى الجانب « القدسى » أى المخصص للكهنة نون سواهم للهيروغليفيات - وهو ما سبق أن أكده فى بحثه المقدم لأكاديمية جرونوبل فى ٧ أغسطس ١٨١٠ - إلا أنه هنا على إكتشافه « وأن الكتابة المذكورة تعبر عن أصوات الكلام المنطوق » رد عليه أستاذ جرونوبل :

« ما زلت أدرس نص حجر رشيد والنتائج لا تتابع بالسرعة التى أود [...] الهيروغليفية ؟ هذا هو السؤال العظيم . لدى أفكار كثيرة إلا أنى لا أجروء على تصديقها إلا بعد أن أتوصل إلى شئ من النجاح [...] أرجو أن تكون مسرورا من تحظى فى هذا المجال [...] لا يمكن أن يحذر المرء نفسه من نفسه بما يكفى [...] لقد توصلت إلى نتيجة فى غاية الأهمية . هو أقتناعى بأن شكلا هيروغليفيا واحدا - أى معزولا - لا يمثل أى معنى ولكنهما موزعة فى مجموعات بدأت أميز بينها فى سهولة [...] المنظومة الهيروغليفية مثلها مثل مثل اللغة المصرية . مقطعية بالكامل ... »

معرفة بالغة القبطية كانت مفيدة له جدا . إلا أنها هنا ولو لمرة واحدة تسببت فى

تضليله وسنرى كيف كان ذلك .

فى نهاية أكتوبر ١٨١٤ ظهر له أخيراً كتاب « مصر تحت حكم الفراغة » فى جزمين الذى هو فى الواقع كتاب عن جغرافيا مصر فى العصر القبطى . وقد عبر لسان مارتان فى خطاب له عن « سروره وإرتياحه » لأنه « أنجب طفلين بدينين قد يكون لهما بعض العيوب ولكنهما يعطيان على الأقل بعض الآمال » . و « سيجنى المرء بعض ثمار عمله » - حتى لو كانت هذه الثمار محاطة ببعض الأشواك . اعتباراً من ٤ مايو ١٨١٤ كان نابوليون منفياً فى جزيرة إلبا ولويس الثامن عشر فى مقر التويلورى - فى حين كانت جرونويل - ولأول مرة فى تاريخها الحديث - قد عانت من آلام الاحتلال الأجنبى للقوات المتحالفة النمساوية الساردية . أقل ما يمكن أن يقال هنا هو أن عودة آل بوربون إلى عرش فرنسا لم تكن من ناحية المبدأ لتروق للشقيقتين شامبوليون فبالنسبة للشقيق الأكبر فعلى الرغم من بعض الأخطاء التى ارتكبتها مؤخراً فإن حياته العملية بأكملها بدت مرتبطة برجال ومؤسسات الامبراطورية أما بالنسبة للآخر فلأنه جمهورى من قمة رأسه لأخصص قدمه .

ومع ذلك فإننا نلاحظ أن أزمة النظام الامبراطورى ثم إنهيارها لم تثر قلق لهذا أو ذاك فلا يوجد فى مراسلاتهما سوى آثار قليلة نسبياً عن هذه الأحداث الرهيبة : كل شئ يشير إلى أنهما عاشا الكارثة الوطنية أو الشخصية على أنها عقاب على الأخطاء التى ارتكبتها النظام الامبراطورى وعلى تجاوزاته .

من جهة أخرى نجد توقيعهما أسفل خطاب لجهاز الأكاديميه لمدينة جرونويل نشر فى ٢٧ أبريل ١٨١٤ يؤكد أن فيه تشييعهما لنظام آل بوربون الجديد ويعلنان عن أنهما « يعبران عن عظيم تمنياتهما لسليلى فرنسا الأول النبيل الذى سيحافظ على ازدهار العلوم والفنون كما أنهما يحيطان بكل الحب صاحب الجلالة حفيد الملك الطيب هنرى الذى سيعيد إلى الأمة السلام والسعادة » .

لم تكن الفترة من ١٧ إلى ٢٠ أكتوبر عندما قام « السيد » الكونت دارتوا شقيق الملك ورمز عودة « المتطرفين » بزيارة لجرونويل سوى بسلسلة من الاحتفالات ولا نجد أى أثر لإستنكار الأخوين ، أما فوريبه فقد وقع على التعليمات الآتية لمعاونيه : « ... ثلاث ساعات قبل مرور الأمير [..] يجب أن تكون الحشود ضخمة جداً

[..] لاشك أن رجال الدين سيتدافعون للإعراب عن تحياتهم [..] يجب أن تطلبوا منهم أن يساندوا أراغنا وأن يتجمعوا بملابس الاحتفالات على شكل مسيرات فى المكان والموعود المحددين [..] ستعدون اللافتات مكتوب عليها الشعارات مزينة بزهور الزينق * (..) الأعلام التى سيحملها السكان سيكون لها أفضل تأثير . سيحملها رؤساء المؤسسات أو الشباب . يجب أن تعلقوا الهتافات من كل جانب . ويجب أن نسمع هذه الهتافات « يحيا موميو » و « يحيا الملك » و « يحيا اللوق دانجولام » تحيا مادام « و « يحيا آل بوربون » .

هل كان هذا التأييد مفاجئاً ؟

بالنسبة لچاك - چوزيف كانت الأمور بسيطة بعض الشيء : كان مغضوباً عليه منذ بضعة أشهر أو على الأقل فى حالة عدم وفاق مع السلطات الإمبراطورية بعد وفاة دويوا فونتانال فى ١٨١٢ أصبح هو عميد كلية الآداب وكبير أمناء ومدير المكتبة إلا أنه قد فشل أيضاً فى أن يعين مفتش عام التعليم مثيراً فى هذا الصدد تكتلاً مناهضاً له . وقد كشف ذلك عن أن نجاح الشقيقتين أثار أحقاداً حادة وعلى الأخص غيرة سكرتير فوربيه وإسمه لوباسكييه . والأسوأ من ذلك أنه كان قد خسر فى ١٨١٢ مركزه المحبب والذى كان يتمسك به جداً وهو رئيس تحرير « حوليات الإيزار » .

لماذا ؟ لأنه سمح بنشر بعض الأخبار لئون أن يعرضها على الرقابة تؤكد الخسائر الفادحة فى الرجال التى تتسبب فيها الحملات الحربية الإمبراطورية وخاصة فى أسبانيا - كما لو أن هذا التأكيد لم يكن معروفاً للكافة . فصدر مرسوم من المحافظ (فى غيبة فوربيه بالمناسبة) يفيد بأنه حرم من وظيفته ؛ لأنه نشر « معلومات ضارة »⁽¹⁸⁾ ، وقد أكد المحافظ بعد ذلك بنفسه على القرار فى تقرير قاس رفعه للوزير .

لم يفقد فيچاك بذلك وظيفة هى من أهم عوامل سلطته فقط .. بل لعله كان قد خسر أيضاً راعياً له وصديقاً وعلى أية حال كانت علاقاته بالمحافظ قد تدهورت قبل إقصائه عن منصبه فى عام ١٨١٢ . هل نبحث عن أسباب هذا التحول فى نوع من التناقس الأدبى ؟ مهما كانت طيبة الرجل الذى كان أميناً عاماً لمعهد مصر فهو لم يكن ليقبل بسهولة أن تكون مقدمته العظيمة مدينة بهذه الدرجة لشابين مقربين جداً منه تعاونوا معه فى العمل فلعلهما يعلنان فى يوم من الأيام أبوتهما له بأكمله أو على الأقل

* شعار أسره البوربون (المترجم) .

نسب العوامل الجديدة فيه لهما. إذ ليس من السهل أن تسامح أحداً على ما قدمه لك من خدمات بشكل معلن ولا مع أكثر من اللازم .

فى أيدينا شهادة عن هذه الأزمة وما إنفعال چاك - جوزيف إزاءها متمثلاً فى خطاب حرره فى بداية ١٨٢٢ موجه لفورييه وهو ينضح بالضغينة ولهجته حادة جداً .

« أحد أساتذه الأكاديمية [...] يردد منذ ستة شهور أنكم أوصدمتم بابكم أمامى [...] وأن شعوركم نحوى قد تغير [...] اعترف إن الاشاعة [...] جعلتني أكثر خبرة فى علاقاتي معكم [...] لقد تمت الوشاية بأحد أفراد أسرتي* فى باريس عن أفعال لم تحدث وهى غير صحيحة بالمرّة بقدر ما هى خطيرة [...] فى زمن آخر كنتم عبرتم لى عن عظيم كرمكم بأن تفتاحونى بشئٍ عنها . [...] إلا أننى لم أحظى بمثل هذا التعبير عن ثقّتكم بى .. » .

ويختتم فيچاك بلهجة كلها مرارة وتهديدية : « وبناء على ذلك فإننى على يقين ، ياسيدى ، أنكم لن ترفضوا لى (أ) استعادة الصحيفة اعتباراً من ١٥ أغسطس ؛ (ب) أن تعيّنوا لى مجلدى ** كتاب شقيقى والذين كانا مرسلين لباريس [...] إنى فى انتظار شرف الحصول على ردكم بفارغ الصبر (19) » .

هل حاول فورييه أن يسئ لسمعة شريكه المجتهدين الجرونولوازين « هذا ما أوحاه لهما سان - مارتان . وأيده هيرمينى هارتلوپان(20) . العودة السريعة للعلاقات الطيبة بين المحافظ وفيچاك وعلى الأخص فى فترة المائة - يوم *** ، ثم الوصف الإطرائى الذى قدمه الأخير عن المحافظ بعد ذلك بعشرين عاماً يوحى بأن فورييه كان يعمل على ألا يعرف أحد فى باريس دور الشقيقين شامبوليون فى تأليفه لكتابه وإن عملية تشويه سمعتهم لم تذهب إلى أبعد من ذلك .

رأينا كيف أن ساسى ولانجلاس لا يحتاجان لأى تحذير من علو شأن الشقيقين فكراً وإجتماعياً . الموقف الذى سيتخذه سان مارتان فيما بعد يلقي بالشك حول صدق تحذيراته : فهل كان يستعد لأن يدير لهما ظهره قبل أن يتحول إلى العداء العنيف وإلى المضايقات المستمرة لهما ؟

* هل كان المقصود هو : جاك شامبوليون ؟

** المقدمة « التى نشرت فى ١٨١١

*** التى أمضاها نابليون فى فرنسا بعد هروبه من منفاه فى جزيرة إلبا مارش (١٨١٥) وهزيمته ثم

العودة إلى منفاه البعيد فى جزيرة سانتيلان فى ٢٢ يونيو ١٨٠٥ (المترجم) .

إذا كان للشقيق الأكبر أن يتعلل بمشاكله الأخيرة مع السلطات ليصور نفسه ضحية لنابليون معللاً بذلك مشايعته لأسرة البوريون فإن الأخ الأصغر لم يخف قط ميوله الجمهورية وكان معروفاً بعدائه المعلن لرجال الكهنوت وللمتطرفين فإن نوافعه كانت ومنذ سنين طويلة تحركها مناهضة متنامية نحو النظام الإمبراطورى .

اعتباراً من ١٨١٢ تمتلئ خطاباته بنقد حاد لمغامرات نابليون العسكرية سواء فى أسبانيا أو فى روسيا . وكان ينقل باستمرار لأخيه الإشاعات المتشائمة للغاية والسلبية جداً بالنسبة للالة الحربية الامبراطورية ومثال ذلك كتب جان - فرنسوا فى خطاب غير مؤرخ ويمكن إرجاعه بالنظر لما ذكر فيه إلى أوائل ١٨١٣ أن الامبراطور نابليون وهو فى طريقه لإيطاليا ويظهر « وقد أبيض شعره خلال الحملة العسكرية الأخيرة » .. بعد ذلك ببضعة أشهر تحدث عن لقاء بين الامبراطور وبعض الشخصيات من « مدينتنا الطيبة » أعلن نابليون خلاله أنه سوف يوقع قريباً على إتفاقية فيينا وتعليق جان . فرنسوا « إما أن الإمبراطور مجنون أو أن الاشاعه كاذبة . وهذا المقطع الأخير من إفتراضى يبدو لى الأكثر صدقاً » (21) .

ثم بعد ثلاثة شهور نقل صغير لأخيه إشاعة تؤكد « أن الروس وحلفائهم نجحوا فى عبور نهر الراين فى ثلاث نقاط مختلفة أما فى نابولى فان الملك مورا فى حالة يأس وفى اليمينتى الشعب مناهض لنا تماما . الويل للمهزومين ! » بعد بضعة أسابيع أخرى ، علم الأستاذ الشاب لمادة التاريخ بجامعة جرونويل أن « الحكومة تتوقع أن يتم غزو الإمبراطورية وأنها تفعل كل ما فى وسعها لتجعل الشعوب تتور » .. ولكنهم « اعتقدوا أنهم إذا هزموا الفكر العام سيكونوا أمنين [..] ففضوا عليه وسيصبحوا قريباً ضحايا جريمتهم » .

اختصار تاريخى جميل يعطينا شرحاً مسبقاً لسلوك جان - فرنسوا شامبوليون أثناء عهد « عودة الملكية الأولى » .

هذا الجمهورى لم ينضم أبداً للعهد الامبراطورى بشكل حقيقى . فقد خشى وهو لا يزال مراهقاً بل أنه خاف لدرجة الهلع من أن - يجند فى « الجيش الكبير » (جيش نابليون) . وهو كمواطن يكره التسلط وكمؤرخ يشجب روح المغامرة البونابارتيه : ماهو الحكم الذى يمكن أن يقاوم المد المعاكس إذا هو امتد من قادش (أسبانيا) إلى موسكو ؟ وكانسان يمقت بسلسلة نزيف الدم التى تؤدى منذ خمسة عشر عاماً بيلاده وأوروبا كلها إلى حالة من الانهالك الكامل وهو ينضم فى ١٨١٤ إلى العدد الهائل من الفرنسيين الذين لم يكن لهم سوى هتاف واحد « كفى » وهو لذلك يحى السلام فى ٣١ مايو وهو يشعر « بسعادة رهيبية » .

عدة أسباب دفعته إذن إلى عدم استقبال النظام الجديد بموقف عدائي خاصة وأنه يؤكد على دستوريته وعلى أنه سيحتفظ « بمكاسب الأمة » ، ولكن هذا لا يعنى عدم تعلقه بالجمهورية . وهذا هو السبب الذى سيؤدى به تصرفات غامضة جدا - فهو أما يصبح انتهازيا كخيه وفى أحيان أخرى يدفعه إلى أن يعلن ولاعه بنفعيه ساخره مثل تاليران .

وبالفعل ما أن وصل آل بوربون إلى قصر التويلورى إلا وكان فيجاك يهرول إلى باريس : وهدفه أن يجنب كليته الجامعية مصير المؤسسات الامبراطورية الأخرى وأن يحافظ على سمعته الشخصية ولعله أيضا يستعيد صفته الصحفية .

على مستوى وزير الداخلية مونتييسكيو فقد طالبه جاك - جوزيف بأن تتولى « حكومة وصاية » تصحيح « ظلم الحكومة السابقة » . كان فونتان لا يزال محتفظا بمنصبه (وفورييه أيضا) وإستعاد لقبه الرنان « ماركى » وقد طمأنه على مستقبل جامعة جرونوبل ورشحه لأن ينتخب عضوا منتسبا لأكاديمية الآداب وجعله ينال وسام الزنبة . مما أثار سخرية أخيه والذى لقبه رفيق أو لبس مضيفاً « تذكر أنهم هلكوا جميعا » ثم حذره أيضا من الأوهام التى يفرقه فيها أصدقائه الباريسيون . إنه يستشعر فى « رعب مخيف » إعلان عودة نوى الأريية « السوداء » (المتعصبين للكنيسة) مما سيدفع « العلمانيين المساكين إلى إعلان توبتهم » ومثال ذلك ما كتبه لأخيه فى ٣٠ يونيو ١٨١٤ فى بيتين من الشعر .

« لأنى أعرف إلا عيبيهم وتخيلاتهم المقدسة فىا صديقى أخشى الرداء الأسود
ولاشيئا آخر..

ويضيف موضحاً « تأكد أن الآمال الطيبة التى يعطونها لك ليست سوى الهوى
التام الذى يسبق عادة العاصفة ... »
ثم يضيف فى مرارة :

« إن الباريسيين هم باستمرار أسوأ أوغاد أوروبا . إنهم كالكلاب مستعدون دائما
لتحية أول جيفة تصادفهم [...] إنهم يسعون إلى إنقاذ أنفسهم ، هذا كل ما فى الأمر
[...]] ثم كتب فى ١٥ يونيو ١٨١٤ : لا مهما حاولت أن تطمأنتنى على حالة
الجامعة فأنا أنظر إليك على أنك مؤقت فقط . إن رجال الدين وقد أصبحوا فى كامل
سلطانهم لن يتركوا من بين أنيابهم فريسة ظلوا يفترسونها بأعينهم لمدة عشرين
عاما (..) أما أنا فمصيبرى واضح مثل ديوجين سأسعى لشراء برميل .. »

إنضواء چاك جوزيف تحت لواء النظام الجديد أثار بسخطه :

« .. لقد أسأت التصرف جداً . لا يوجد سبب واحد يدفع لأن تفعل ذلك .. إنى لم أعد أعرفك أنت الذى يتعالى بكل تعقل فوق الرذيلة والغرور والإدعاء [..] إننا لسنا على إتفاق فى ذلك وإنى أتوقع بكل أسى أن الحال سيظل هكذا بالنسبة لأمور أخرى كثيرة إننا لا نتشابه كثيرا فيما يتعلق بالأراء يا صديقى ، وبما أنى تربيت على يدك وبجانبك ولكنى أيضا مختلف عنك من الأساس ولعل ذلك راجع إلى الطبيعة .. وعلى الرغم من أن نوافعنا كانت تأتينا فى أحيان كثيرة فى اتجاهات عكسية فىأنى أرجو ألا ينتج عن ذلك أبداً نقاش أو غضب ... » (22) .

تشدد محمود ولكنه وقتى فبعد أيام قليلة بسنرى صديقنا جان – فرنسوا « تحول تماما ودخل مذهب « الواقعية » :

« تقرب بقدر ما تتمكن من مسيو دو شوازول* .. ولاتنسى أن أى كونت أودوق يحتاج « لزراع يمنى » وأنهم لايفعلون عادة شيئا بأيديهم لأن رجلا من الطبقة الثالثة يرتفع إلى حيث هم ويتسلل تحت عباءاتهم ويحركهم طبقا لهواه وذلك فيه ما يرضى الجمهور [..] يمكنك أن تكون هذا الرجل ملهم مسيو دو شوازول صانع كل شئ الذى يحتاجه الكبار دائما . الزمن موات [..] ستجد نفسك على خشبة مسرح تليق بك . إن دماغك يمكنها أن تقود سفينة وزير ، إنها موهبتك وأنت لن تتنفس بحرية وبسهولة بسوى فى هذه الارتفاعات . وعندما لا تهب الفرصة نفسها يجب إغتصابها [..] يجب أن تعلم أنك إذا أردت أن تركب عربة الوزير فيجب أن تبيت فى قصره (23) . » .

هل عرفنا « صغير » أم أننا كنا نعتقد ذلك فقط ؟ هذه السطور الغريبة تظهر لنا أن « كاسيوس الصغير » تحول إلى ماكيا فيل ، إلى موسكا إلى أب هيريرا ، إلى فوشيه ! أنت محير يا جان فرنسوا ، مختلف ومتعدد جدا ، وتعيش ليومك جدا ، تنفعل بسهولة وتلقائى جدا ولكنك تتحول بسهولة مفاجأة : إنك خليط من الفارس المغوار والفلاح الدوفينى القلق على إدخال محصوله إلى المخازن وعلى جز صوف خرافه ...

كانت عودة الملكية الأولى موسم الحيرة السياسية فى حياة شامبوليون الصغير إلى جانب فترة ظهور الانتهاز – التى لمحناها مرتين أو ثلاثا فى شخصيته « الشرقية »

* دوق دو شوازول – جوفار من مرتادى صالونات جرونويل ، رشحته الاشاعات ليكون أحد وزراء المستقبل .

ذات الدم الحامى والرأس المتحير كما كان هناك أيضا موسم تحول عاطفى سيكون له أثر عميق فى حياته كلها . كان يحاول نسيان لويى ديشان . وكانت بولين بيريا قد توفيت كما علمنا فى يوليو ١٨١٣ . ولم تمر بضعة شهور قبل أن يتقدم لخطبة روز بلان المسماه روزين وهى ابنة أحد أعيان المدينة وعلى صلة قرابه بعائلة بيريا : وهو يعمل فى صناعة القفازات وهو ما يعنى الكثير فى مدينة جرونويل .

إلا أن طلب العريس ظل دون رد لفترة طويلة فهو لا يلقى قبول صاحب مصنع القفازات . يعطى يد ابنته إلى مدرس عمره ثلاثة وعشرون عاماً لا يكسب سوى ٧٥٠ فرنكا فى الشهر !! وعلاوة على ذلك فإن سمعة الشاب ليست جيدة فى الأوقات الحالية .. إذ يقال أنه يصادق الأب جريجوار . هذا اليعقوبى (جاكوبى ثورى) عضو سابق فى الجمعية التأسيسية ومحامى تحرير اليهود والمستعمرات بل إن البعض يؤكد أن جان - فرنسوا ضالع فى محاوله هجوم بالقنابل فى أثناء الزيارة التى قام بها بوق دانجولام أخو الملك لجرونويل .

ولم يكن نشر كتابه « مصر فى عصر الفراعنة » حتى لو أهداه إلى الملك لويس الثامن عشر فى شهر أغسطس ١٨١٤ - ليغير من رأى صاحب المصانع : لا هذا النشر ولا هذا الاهداء قد ظهر على صفحات « حوليات جرونويل » التى أصبحت الآن فى يد أعداء آل شامبولىون .. أما الطامة الكبرى فهى أن چاك - جوزيف الواعى الفاهم الوصى الذى لا يخطئ لايساعده فى مشروع زواجه بأنسة يراها تستحق أن تشارك أخاه مستقبله العظيم .

المستقبل العظيم ؟ جان - فرنسوا يرى أن جييه خال ومرتبته الشهرى بسيط والمجتمع العلمى متخوف للغاية منه وأن نجاحاته فى مشروع فك الشفرة ليست بالوضوح الذى يدعيه فى حين أن دكتور يانچ المشهور جدا (سيكون له نور رئيسى فى بقية قصتنا) يعلن فى لندن أنه يتقدم نحو فهم الكتابة الديموطيقية * . وأن وضعه فى جرونويل أصبح مهددا بوصول أعدائه اليمينين المتطرفين و « الجيزويت » إلى السلطة وهو فى النهاية يتألم بسبب إزدراء كلود بلان له . فهل أصبح على شفا اليأس ؟

* انظر على وجه الخصوص فصل ١٠

كلا ! إذا كان كتابه « مصر » لم يلق بالفعل تأييد نوساسى إلا أن صديقنا عالم اللغويات لا يزال يحتفظ بأعضابه هادئة .

« قرأت متلهفا ملاحظات أستاذى الكبير على الجزء الأول من كتابى ، وإنه لمن نواعى سرورى ودهشتى أن أرى أن المفتش الأعظم لم يجد سوى أربع قشاش ليحرقنى بها حيا » . بل وسنرى جان - فرنسوا ولو لمرة واحدة رجب الصدر . فعندما قال عالم اللغويات الألمانى هامر عن كتابه فى « المخزن الانسيكلوبيلى » « إن مسيو شامبوليون قد سبق بكثير السادة نوساسى وكاترومار » أرسل « صغير » خطاباً لسان مارتان يقول له فيه إن ما فعله هامر هو « حجر الدب » ويخلص إلى : « لعل هذا يفسر القسوة التى كتب بها أستاذى العظيم خطابه الأخير . هذا هو حال الدنيا ! » .

إذن لم تكن بداية كتاب « مصر فى عهد القراعة » سيئه فى الوسط العلمى .

إلا أن أحداث الفصل الثانى من المسرحية لن تجرى بين علماء اللغة : ستصبح قصتنا معاصرة للغاية

٦ - الغول وزهور الزنبق

« نابوليون وصل إلى فريجوس ! » الامبراطور فى فندق لى تروا بوفان - عهد .. « له نصف إسمى » - سأنشر قواعدك للغة القبطية .. - جان - فرنسوا مؤيد بوناپارتى حديث - أول حوار مع يانج - واترلو - « انقذ نفسك أولاً » - الكازينو ... - القاموس والذئاب - نخب الجمهورية - بؤرة اللوشايات - « أريد أن أكون مسجل عقود ! » - الأخوان شامبوليون ، رجال خطرون - مطربون ! - هيا خروجا ، إلى فيچاك .

بنهاية شهر فبراير ١٨١٥ إنتشرت فى البلاد هممة ثقيلة مناهضة لنظام آل بوربون العائد للسلطة . والتدمر يصبح أكثر حدة وصخبه أعلى فى منطقة - تقاوم على اللوام أى أستبداد مثلما هو الحال فى اللوفينيه . استلم عدد من شخصيات جرنويل المرموقة عن طريق البريد رسالة جاء فيها أن الشعب الفرنسى « سوف يستعيد حريته فى الأول من مارس ١٨١٥ فى الخامسة صباحاً » .

لم يتلق الشقيقتان صورا من هذه الرسالة مما يوحي بأنهما لم يكونا أو بالأحرى لم يعودا معتبرين من البوناپارتين . إلا أنهما أحيطا علما بالرسالة ولذلك أمضيا الأيام الأخيرة من فبراير فى توتر كبير .. لكن ما هذا الذى يحدث ، مرّ الأول من مارس نون أن يحدث ما يؤكد ما جرى إعلانه للبعض وجاء الأحد ٥ مارس

يحكى چاك فيچاك فيقول : « فى الصباح الباكر جدا من ذلك اليوم أيقظنى شخص من أقرب المقربين لى من داخل دار چاك - فوريبه لينقل إلى نبال نزل نابوليون على شاطئ مقاطعة بروقانس وأفاد بأن الذى نقل له هذا الكلام وصله من الخادم الشخصى للمحافظ . وأن هذا الأخير قرأ بنفسه البرقيات التى وصلت إلى سيده حول الموضوع من المحافظات المجاورة وجدها فى جيوب سترته وهو يقوم

بتنظيفها . أسرعت إلى بيت أخی لأخبره بأن أحداث التاريخ ستتم أمام أعيننا وأننا سنلمس بأيدينا ما سيخط على صفحاته ويظل فيها إلى الأبد ... * « .

عشية ذلك اليوم سلم أحد سعاة البريد بالفعل المحافظ برقية من زميله محافظ منطقة « الفار » مؤرخة من فريجوس في ٢ مارس تفيد « بنزول بوناپارت إلى شاطئ خليج جوان وأنه متوجه إلى جرونوبل » قام فوريه على أثر ذلك بتوزيع اعلانات ألصقها في أنحاء المدينة يحث فيها المواطنين على إحترام « حكومة صاحب الجلالة » وعلى « الحفاظ على الممتلكات » والتعبير عن « إستيائهم العام » ثم أرسل تقرير إلى باريس مؤكداً أن السكان « في غاية الغضب » وأن « لا أحد يناصر بوناپارت » .

لم يكن هذا. هو رأى فيجاك ففى رأيه « أن النبأ استقبل بارتياح عام [..] واعتبر الغزو الامبراطورى ** عملية إنقاذ جديدة ... » على الأقل فى جرونوبل . لأنه كان قد جرى إعداد المدينة لكى تكون رأس جسر لإعادة البوناپارتية للسلطة : إذ قام أحد التجار الشبان وإسمه نومولان بزيارة قبل فترة قصيرة إلى جزيرة إلبا كما أن الطبيب الجراح لفرقة الحرس وهو من مواليد جرونوبل - دكتور إيجرى كان قد غادر الجزيرة فى نهاية فبراير ليقيم اعتباراً من ٥ مارس فى ضواحي مسقط رأسه *** .

فى الأول من مارس أصدر نابليون من فريجوس إعلانا يؤكد فيه أنه سيمضى فى طريق الثورة وأنه راعى حقوق الانسان والأمة . وصل مدينة دىنى يوم ٤ وجاب فى ٥ وإلى مدينة لأمور فى مقاطعة بوفينييه ليلة ٦ ، ليواجه يوم ٧ « لافريه » وفرقتة الخامسة وكانت أول تشكيل عسكرى أرسل لإيقافه ولكنه أعلن إنضمامه تحت لواء نابليون بعد بضع كلمات أضححت شهيرة . وحدث الشئ نفسه بالنسبة للواءين ١١ و ٧ بقيادة لايبوايار ، وكانا منتشرين للدفاع عن جرونوبل ... وهنا نترك الكلام لشامبوليون فيجاك :

* السطور التالية مستوحاه إلى حد بعيد مما جاء فى كتاب حد . حد . شامبوليون - فيجاك فى كتابه

«فوريه ونابليون والأيام المائة»

** لاحظ غرابة التعبير .

*** ترتب على ذلك أنه طورد دون هوادة بعد هزيمة واترلو

« رأيت من شرفة متحف المدينة مرور الكتيبة وعلى رأسها عقيدتها .. وبعد أن إصطفت كلها فى الشارع بدأ هتاف « يعيش الإمبراطور » يتصاعد .. جرى الجنود بالخطوة السريعة ، ارتفع العلم ذو الألوان الثلاثة * وأصبحت الكتيبة تحت لواء الامبراطور [..]

« ومع اقتراب هبوط الظلام ، أصبح وصول الامبراطور مؤكداً [..] وكان المحافظ والجنرال قد إستنفذا جميع الوسائل وكل سلطاتهما منذ الظهيرة . لم يكن العلم الأبيض مرفوعاً سوى فى قلوب بعض الأوفياء له وكانوا قد تفرقوا باراداتهم . كان يكفى أن يطلق رجل واحد كله تصميم طلقة رصاص واحدة على العلم ندى الألوان الثلاثة ، ولكن هذا الرجل لم يوجد ** .

« حوالى التاسعة ، تقدم الإمبراطور وهو على جواده وحده تقريباً ويشخصه نحو الباب الموصل ودق عليه بعلبة الدخان التى فى يده وهو يقول بصوت مرتفع : « إفتحوا .. هيا ! افتحوا .. إنهم لايفتحون ! .. » وعلى الفور إنهار الباب تحت الضربات التى توالت من الداخل والخارج ؛ وبعدها ذهب نابليون محمولا بأموج من الحماس الشعبى إلى فندق « لى تروا نوفان » الذى يديره دليل سابق فى الحرس القنصلى *** وكان محل إقامته معداً مسبقاً . ورأيته يمر عن قرب فى الميدان ، تغطى معطفه الرمادى زيه العسكرى . لم يتوقف هتاف « يحيا الامبراطور » سوى لفترات قصيرة وهتف أحد رجال القضاء الواقفين إلى جانبى « يحيا الإمبراطور مع الحرية ! - فأجابه الامبراطور على الفور نعم ! وهو يدير رأسه ناحيتنا ، نعم ! تحيا الحرية ! « كنا واقفين على يمينه .

« نزل الإمبراطور فى « فندق لى تروا نوفان » مع الجنرالات بارتران دروه وكامبرون ، واحتل الدور الأول المطل على شارع مونتورج وعلى حديقة المدينة وهو قصر بسيط للغاية وأثاثه قديم وأكثر بساطة .. « أما فوريبه فقد غادر جرونوبل ، قبيل دخول الإمبراطور بلحظات تتقافه تعهداته والنداءات التى لاحقته وعدم ميله للإستبداد وإعجابه فى نفس الوقت بالانسان الفذ الذى أعطاه الكثير .

* علم الثورة الفرنسية أزرق ، أبيض ، أحمر أيضا أما علم الملكية البوربونيه فهو أبيض وبه زهرة الزنبق [المترجم] .

** عن هذه الأحداث كتب الجنرال قائد الجيش الملكى فى جبال الألب إلى جانب بوق وانجولام : « العجيب هو أن نبيلاً واحداً من نبلاء الدوفيتيه لم ينضم إلينا » .

*** ثم الامبراطورى بعد أن أصبح بوناپارت القنصل نابليون الامبراطور [المترجم] .

« ويقول فيچاك : « خرج فوريبه من جرونوبل لخدمة الملك إلا أنه لم ينسَ مع ذلك ما يدين به للإمبراطور . ودفعهما إلهام سليم إلى أن يفترقا ، وأن يؤدي كل منهما التزاماته الفردية - وفي الوقت الذي كان يستعد للسفر على عجل كان فوريبه يعيد ترتيب دار المحافظة طبقا لنموذج الامبراطور إذ كان يعرفه جيدا - فقد كان يتصور أن المسافر البطل سيقدم فيها * . » .

إلا أن الحماس لم يفتر حول فندق « لى تروا نوفان » بل أخذ يتضاعف وكلما سمحت له الفرصة في الفترات التي تفصل بين توقيعه على المراسيم التي تثبت أنه يحكم الإمبراطورية كان يخرج لتحية الجماهير المحتشدة التي جاءت تقدم له « شظايا باب المدينة الذي اقتحمه بعلبة دخانه... » عودة إلى الأساطير !!

نعود إلى نص چاك - جوزيف شامبوليون فيچاك :

« في اليوم التالي ٨ مارس ذهبت مع بعض أفراد عائلتي إلى شرفة حديقة المدينة لنرى نابليون عندما يطل من إحدى النوافذ المطلة على الحديقة ولدى عودتي إلى المنزل .. في حوالي التاسعة - علمت أن ضابطا من المدفعية حضر مرتين موفداً من الامبراطور ليطلب منى الذهاب لمقابله شخصياً » .

هرول فيچاك إلى دار البلدية ليأخذ رأى شارل رونولون صديقه الذي إنضم منذ البداية للقادم الجديد . وهناك أعلمه العمدة أن نابليون طلب منه « أحداً يساعده في إدارة مكتبه وكتاباته » فاقترح اسمه - وأضاف « وعندما كتب نابليون إسمه قال : إنه فال حسن . يشترك أسمانا في مقطع كامل » ** فأسرع إلى حيث كان مطلوباً « تم إعلامه بوصولى ودخلت على الفور . وكانت غرفة الانتظار مكتظة بمن فيها .. »

هنا يسمو أسلوب « عميد كلية الآداب » ليصل إلى مستوى كاتب التاريخ . ولذا وجب نقل ماكتب بالنص :

* اتجه المحافظ إلى مدينة ليون حيث أرسل نابليون إليه مندوبين . لماذا ؟ وإذا بالهارب يعين في ١٠ مارس محافظا لمنطقة نهر الرون .. لم يكن فوريبه يريد هذه الترقية .. وهو أقل ما يمكن أن يقال عن ذلك : فهو لم يفكر سوى في الوصول إلى باريس ليعود إلى أبحاثه العلمية وهو ما سيفعله بعد قليل . وسرعان ما علم أن فيچاك قد توسط له لدى الامبراطور في ٩ مارس (انظر سياى ذكره لاحقاً) ولذلك كتب له في ١٨ مارس خطاب شكر وعرفان يعرب له فيه عن أمله في أن يرد له جميله يوماً في ظروف مختلفة . وبذلك انتهى الخلاف الذي حدث بينهما في ١٨١٣ وطواه النسيان .

** شامبوليون ونابوليون .

« [...] منضدة للكتابة بجوار المدفأة ؛ فى مواجهتها وضعت أريكه كان يجلس عليها الامبراطور ولكن فى اتجاه إمتداد الأريكة مواجهها الباب وظهره للشباك . ممدًا ساقه اليسرى على مقعده وقدمه اليمنى على الأرض . قام وتوجه نحوى وقال لى بصوته المتلون والأخاذ وتميزه بعض المقاطع ذات اللهجة الأجنبية : « أنا سعيد برؤيتك ! قيل لى عنك أنك من الشخصيات المحترمة فى هذه المدينة وذات المبادئ المعتدلة . وهذه نوعية الرجال الذين أود أن أحيط نفسى بهم فى المستقبل . يجب أن نشرح للشعب الأسباب التى أدت إلى عودتى . لولاي لعرفتكم ثورة جمهورية . إن آل بوربون لم يعرفوا فرنسا وإنى مقتنع تماماً اليوم أن قدرها لايمكن أن يتحقق سوى على يد حكومة ليبرالية .. » .

« وما كنت غيرمطلع على أصول إتيكيت القصور وغير متأثر بضعف جلال المكان الذى كنت أحدث فيه الإمبراطور الذى لم أكن عرفته قط ، قطعت حديثه ورأيت نفسى مندفعاً بهذه الكلمات القاسية « إذا كانت هذه هى الشروط يامولانا فإن فرنسا ستكون عند قدميك » لفظة « إيه ... » ممتدة خرجت من وجه المكفهر ومن فم غاضب لم تنفتح شفاه سوى من جانبه الأيمن على الفور حذرتني من كسرى لقواعد هذا الإتيكيت ، إلا أننى لم أترجع لأقتناعى على الفور بأن تكرارى لهذه الكلمات سيجعل منى رجلاً غير مهذب ولكنه ليس متغطرساً . فرددت جملى بقوة بعد أن غلفتها مع ذلك بهذه الحيلة الخطائية التى لم تكن جديدة على الإطلاق إذ قلت « لقدسمحت لنفسى أن أقول لجلالتمكم ... » دون أن أرفع منها الكلمة المتناهية فى قلة الأدب « شروط » . هزة رأس واكبت كلمة « نعم » قالها بحدة [..] وإستعاد العائد حديثه قائلاً : « أريد رجالاً جدداً وطنيين ومخلصين . إنظر إلى أين آل بى إنتقالى من محنة لأخرى من موسكو إلى فونتانبلو . كان فى إمكانى الاستمرار فى الحرب على نهر اللوار ولكنى لم أرغب فى حرب أهلية . إنى أنسحبت من أجل فرنسا والآن أنظر إلى ما فعلوه بها . حقوقى ليست سوى حقوق الشعب . يجب أن نقول ذلك للشعب ويجب أن تكررأ له أنى لا أريد إقطاعيات ولا عبيد وأننا سنحافظ على السلام . يجب أن ننسى أننا كنا أسياد أمم أخرى [..] سنعيد النظر فى الدساتير من أجل سعادة الشعب . كل ما فعله بعض الأفراد أو قالوه أو كتبوه منذ سقوط باريس سأتجاهله إلى الأبد* أود أن تكون فترة ولاية ابنى هادئة . لقد عمقت التفكير فى السنوات الماضية سنفعل كل شئ من أجل

* جاءت هذه الجملة بنصها فى إعلانه الصادر من جولف - جوان فى الأول من مارس

السلام . استعد صحيفة المقاطعة وانشر على الكافة وأعلمهم بما قلته لك .. هيا . وعد قريباً لأراك » .

ما أن رقى لمنصب ناشر أخبار الإمبراطورية إلا وكان فيجاك قد قفز إلى مكتبه ثم عاد إلى ضيف فندق لى تروا بوفان وقدم له مقالته المتضمنة سرداً للحديث وللأحداث التي جرت بسرعة ما تم « التصديق » عليها للنشر . يتضح من المقال أن نابليون جرونويل يؤمن أن « قدر فرنسا لا يمكن أن يتحقق سوى على يد حكومة ليبرالية وأن الفرنسيين ولدوا لكي يحافظوا على الحريات العامة وليؤكفوا على مبادئ التساوى فى الحقوق والواجبات » وأن نابليون بعد أن إستعلم « باهتمام شديد عن حالة الأرياف » قال « جيئت لى أبعد إلى الأبد ذكرياتهم عن النظام الاقطاعى والإقطاعيات والعبودية .. وإنى لا أجلب لهم سوى الخير » .

بعد ذلك بقليل جاء أعضاء الأجهزة المختلفة فى المقاطعة ليقدموا لصاحب الجلالة « فروض الطاعة والإجلال » وصف فيجاك نصه كالتالى :

« جاء وقوفى بين أساتذة الجامعة بصفتى عميداً لكلية الآداب مرتدياً معطى الحريرى ذا اللون البرتقالى : سخر الإمبراطور من هذا الزى بشكل علنى وسألنى عنى قرر لنا رداءً كهذا . لم أتردد فى القول بأننا الجامعة طبقاً لأوامره وهى متضمنة فى قرار إمبراطورى وذكرت له تاريخه المرسوم ... » .

بعد ما أصبح چاك - جوزيف بسرعة « أحد معتادى التردد على هذه الحجرة الفندقية التى جعل منها المسافر قاعة عرشه » وجد الفرصة لى يفتاحه فى الموضوع الذى يهمله للغاية : مصر .

« لفت هذا الاسم نظره بشكل واضح وأحيا الحديث . وتكلم عنها بسعادة بالغة . أجبته بون أن أقاطعه بأن هذا الموضوع يملأ تفكيرى - راح يتذكر روائع هذا البلد وأصبحت وتيرة حديثه أسرع من المعتاد . كانت هناك أحيانا بعض الأخطاء فى ذكرياته [..] سمحت لنفسى أن أعبر بإشارة بسيطة للغاية عن شكى فى بعض ما قال [...] إلا أن هذا لم يعجبه فقال لى بشئ من الحدة وهو يضغط بيده على ياقة ردائى :
« لماذا لا تقرأ هيروdot ! »

ثم وصل الحديث إلى كتاب « وصف مصر » . ويشعر الإمبراطور بالفخر العظيم ؛ لأنه راعى هذا الكتاب ويطلب نسخة من الأجزاء الأولى وأضطر فيجاك أن يعترف له

بأن « مكتبة جرونوبل » التي يديرها « لم ترداع لأن تقتنى نسخة من الكتاب * .
واستمر الحديث بينهما :

« إما أن وضعه بعد أن خطأ الخطوة الأولى فى حملته الخرافية ** لم يكن يشغله كثيرا وإما أنه كان واثقا منه . فقد إنتقل بنفسه إلى الحديث عن مؤلفات أخرى نشرت بأمر منه قبل سترابون والملاجلت وأوكليدس والقاموس الصينى : « كان العمل فى هذه الكتب قد بدأ قبل مائه عام ، وجعلته ينفذ بمرسوم فى ثلاث سنوآت » . ثم ذكر نابليون أسماء عدد من العلماء واحسن الحظ كنت مطالعا على ما يجرى فى باريس التى أعرفها فكان فى مقدرتى الرد على أسئلته المتعددة »

كيف لا يستغل چاك - جوزيف بعد أن رقى إلى مقام حافظ السر أو المقرب القوي وبعد أن وجده متفتحا فكريا - هذا الوضع لئلا يخدم قضية أخيه ؟ وبالفعل قدم أخاه إلى الإمبراطور :

« ... إستمع الامبراطور باهتمام للعرض الذى قدمه لأعماله التى أدرك على الفور أهميتها وكان القاموس القبطى هو أكثر ما جذب إهتمامه : « إحضر كل هذا معك إلى باريس - وستقوم بطبعه . إن ذلك سيكون أسهل بكثير من القاموس الصينى » .

نابليون يستمع لشامبوليون يحدثه عن مصر لم يلهم الحدث أى من الرسامين الكبار : البارون جرو ولا برونون ولا چيريكو « وذلك أسوء حظنا . ولكن يمكن أن نراهن على أن بعضا من التأثير الكبير الذى وقع فيه الأخ الأكبر قد إنتقل إلى چان - فرنسوا . فمهما بلغ تمسكه بالجمهورية فلا بد وأن « صغير » قد تأثر بالأراء الديموقراطية التى نادى بها بسجين جزيرة إلبا الهارب وبالنبوة التى طبعت خطبه وبالوصف المثالى الذى نقله له أخوه :

« بعد العرض *** عاد الامبراطور مترجلا تحيط به الجماهير المتدفقة . وأثناء سيره وسط الطريق صرخ بائع للفحم كان يقف على إحدى علامات الطريق موجهها كلامه للإمبراطور الذى كان يمر أمامه « هل أنت بالفعل إمبراطورنا ؟ - نعم يا صديقى - أنا الامبراطور - إذن هات كفك ! « فمد الإمبراطور يده وصافح يد بائع الفحم وسط تصفيق الجماهير الحاد » .

* بأمر خاص من وزير الداخلية الجديد كارنو أرسلت نسخة منه بعد قليل لجرونوبل

** حملة ١٨١٥ وإيست حملة ١٧٩٨

*** فى ٩ مارس .

فى التاسع من الشهر قبيل الظهر عاد المسافر إلى طريقه فى اتجاه ليون . وقبل أن يتحرك قال لفيچاك : « أعرف أنك لن تسافر معنا . ولكن إلحق بنا فى باريس وسيكون ذلك يوم عيد ميلاد إبنى » الدعوة كانت رقيقة لدرجة أن عميد كلية آداب جرونوبل اعتبرها أمراً فترك أسرته وسافر وراء سيده الجديد . وسيبقى إلى جانب العائد للحياة لمدة ثلاثة أشهر عضوا فى مجموعة المحيطين به من العقول المفكرة التى راحت تحت رعاية لوسيان بونابارت وبمباركة من بنجامان كونستان تخترع « الإمبراطورية الليبرالية » .

وهو بذلك قد أعطى امتداداً براقاً وباريسياً مطبوعاً بإسم شامبوليون للفقرة الدوفينية من مسلسل الأحداث الذى أصبح أسطورة فقد كتب أحد مؤرخى المدينة يقول : « إن دخول نابليون إلى جرونوبل تعدى بكثير من عاشوا الحدث الذى تحول على الفور إلى إسطورة ... قبل الوصول إلى باريس كان إنضمام جرونوبل حاسماً .. » (1)

لم يكن فى الإمكان ربط العشيرة الشامبوليونية بمغامرة المائة يوم بعلمية أكبر ولكن مهما كانت درجة براعته هل كان فيچاك مندفعاً دون روية فيما فعل ؟ من يقرأ وصفه الرائع للأحداث لا يمكن أن يوجه له أى اللوم . القادم إلى المدينة كان لا يقاوم وحديثه جذاب ... وسط حياة أديرت بكل هذه الحيلة تبنى عملية ربيع ١٨١٥ المتهورة كما لو أنها حفل صاحب تسوده التلقائية الصبيانية .

لم تكن مائة يوم چاك - جوزيف شامبوليون - فيچاك بالصورة الوردية لقصص الجنيات التى نقلها لنا ابنه . (2) من يقرأ هذا المؤرخ المقدس لذكرى أبيه يعتقد أن عميد كلية آداب جرونوبل أصبح بالنسبة للإمبراطور العائد إلى السلطة ومثل يوسف الأب أو على الأقل بوريين آخر * .

كلا . لم يحدث ! إلا أن هذا الرجل الطموح عاش طوال هذه الأشهر الثلاثة كما كان يحلم أى إلى جانب شخصية خرافية مشاركاً فى بعض اللحظات الهامة فى التاريخ الوطنى وأيضا فى هذه الحياة الأكاديمية التى ظلت لسنوات طويلة تداعب أكثر أماله بريقاً .

وقد وجد الوقت بعد أن سافر إلى باريس ليضع نفسه فى خدمة هذا الإمبراطور الذى سحره فى بضع ساعات قليلة أن يتقدم فى ١٩ مايو ببحث قرأه فى أكاديمية الآداب التى كانت إنتخبته عضوا منتسباً لها فى العام السابق . وكانت الدراسة عن

* سكرتير بونابارت السابق الذى نقل ولاته للبربون .

تقويمات الشعوب القديمة وهو يبرز فيها أوجه الشبه المكتشفة بين التقويمات اليونانية والرومانية وكذلك التماثل بين كتاب الفلك لبطليموس (الأما جنست) والتقويم الجولياني .

حسناً . ولكن المثقف فيه ينسحب أمام خادم الأمير فى ١٩ أبريل بعد وصوله بأيام قليلة . نراه وقد دعى إلى حضور « بداية نهار الإمبراطور » - وهو ما يحيط به أقاربه بفرحة صادقة . وقد طلب الإمبراطور رأيه عن حالة الرأى العام فى الدوفينييه وفى إختيار محافظ جديد لايزار . فهل أصبح مستشار الملك ؟ كلا ! سيصبح أقل من ذلك : سكرتير اللجنة الدوفينييه التى تم تشكيلها حول لوسيان بوناپارت * نائب الإيزار وعقل النظام الجديد المفكر وصديقه سبابى . أحد رؤوس الليبرالية الجرونبولوازية .

فى ٣١ مايو اتسع النور الذى يؤديه فيچاك ليشمل فرنسا كلها . فقد كان سكرتير الجلسة التى رأسها كامبا سيراس . والتى جمعت كل هيئات الأمة المنتخبة من أجل مراجعة عملية الاقتراع الخاصة بمراجعة الدستور وقد أوضح هذا الاقتراع أن أغلبية الفرنسيين قد وافقت على « القانون الإضافى » الذى عرض عليهم . كانت الأغلبية كبيرة ولكنها لم تكن إجماعاً كما أرادها الليبراليون الجدد . كما أن الكثيرين إمتنعوا عن التصويت . وقد تلا نابليون بنفسه هذه الأرقام فى إجتماع عام فى الشان دوميه عشية سفره لواترلو .

وقد كان لچاك - جوزيف لقاء أخير مع الإمبراطور الغارب ، وقد وصفه فيه وصفا حيا يجدر أن يكون بين صفحات « مذكرات من الحد » (لشاتوبريان) : « نظرتة الأخاذة كانت تدخل إلى أعماقك لتفوص فى أغوار نفسك لتعرضها عارية أمام عينيه .. كان المرء يشعر بأنه يعصره نون مقاومة منه . ولكن نون أن ينزعج منه لأنه كان يستمع بدوره . كما أن جدية كلامه الفائقة وإلحاحها لم تكن تجرد الحديث معه من طيبة طبيعية . كان حديثه عن الأشياء الصغيرة لكل الناس وعن الأمور الكبيرة بأسلوبه هو فقط .»

ومع ذلك تمكن شامبوليون - فيچاك من تبادل أطراف حديث سريع أخير مع من كان لا يزال السيد وذلك لدى استقباله لمجموعة ممثلى وفود محافظات الأرياف . وقد تقدم إليه بطليين الأول بإنشاء كلية للطب فى جرونوبل كان الحديث قد جرى حولها

* شقيق الإمبراطور (١٧٧٥ - ١٨٤٠) [المترجم] .

خلال إقامته فى المدينة فى شهر مارس وجاء الرد إيجابيا ثم أعاد فيچاك تذكير نابليون بوعده بأن تسلّم نسخة من وصف مصر إلى مكتبة المدينة التى لم يكن أمينها قد سرقها * .

ويؤكد الأخ الأكبر أنه حصل على وسام الليجيون دونور لونه أن يطلبه وذلك بعد شهر قليل من حصوله على وسام الزنبقة (الملكى) والذى انتقده أخوه عليه . مثل هذا الدأب على جمع الأوسمة لم يتسبب فقط فى سخرية أخيه من ميوعة مواقفه الإيديولوجية فى تلك الأزمنة المضطربة وإنما سخر منه أيضا آخرون . وقد دافع فيچاك عن نفسه فى مذكرة - ١٨٤٥ .

وإذ حان الوقت الذى أقيم فيه المنافع التى خرجت بها من فضولى (كذا) فإننى أجد أن ماجنيته هو :

- (١) وسام الليجيون دونور الذى حملته شهرين أو ثلاثة .
- (٢) شطب وظائفى كأستاذ وعميد لكلية آداب جرونوبل .
- (٣) إنهاء عملى كمدير مكتبة مدينة جرونوبل .
- (٤) ثمانية عشر شهرا من النفى إلى جنوب فرنسا (3).

أما جان - فرنسوا فقد إحتفظ من ناحيته بفكر أكثر هدوءا أو على الأقل بحبوة أكبر . فلم يحظ بسوى بقاء واحد مع « الشهاب الفذ » ولكنه كان لقاء طيبا على كل حال والأهم أنه كان مفيدا جدا . فقد إهتم نابليون بقاموس اللغة القبطية . وإذا كان البعض يقول إنها كانت تمثيلية من جانب الساحر العظيم فإن الرد هو أن ليس فى إمكان كل إنسان أن ينجح فى إيهاام الآخرين !! ثم إن التصريحات العلنية التى أدلى بها الإمبراطور وكذلك ما نقله چاك - جوزيف إلى أقاربه من أحاديث شخصية معه أثرت بالأمال التى أثارها على جان - فرنسوا الجمهورى . أما نابليون الآخر المستبد زوج إبنة القيصر فرانز صانع العروش فقد اختفى .. وأما الذى مر بجرونوبل فهو « الجاكويينى » الذى صال وجال فى عام ٣ (من تقويم الثورة) صديق أوجوستان رويسبير والجنرال النحيف الذى أخدم الثورة المضادة فى باريس بعد ذلك بعام (قلاقل فانديميير) .

وقد كتب صغير فى ٢٢ أبريل لأخيه - الذى أفاده بمقابلة نابليون له - هذه الكلمات التى كانت تعبر عن شئ من الأمل ولكنها تعبر عن بعض المخاوف ؟ « .. أنتظر بشغف نتيجة لقاءك بالرجل الطيب الشجاع لأقيولات ** : إنى أنتظر منه الكثير

* كان چومار قبل عامين قد إشتكى لفيچاك من رفض الإمبراطور توزيع هذه الأجزاء بسخاء .

** إحدى الكنايات المحببة له والمتعاطفة معه وهى كثيرة التى أطلقها العامة على نابليون .

[..] وإذا كنت مخطئاً . فإن الفلسفة موجودة لكى توأسينا » .

إذا كان « الفيلسوف » لا يخفى شكوكه فيما يخصه شخصياً فإنه أى چان - فرنسوا أكثر جسارة فيما يخص أخاه ففى ٢٨ أبريل ثم فى ٢٩ مايو يدفعه إلى أن يكون أكثر جرأة فى تناوله « لأعماله » : « إن تردك فى القرارات لن يكون فى صالح أغراضك [...] إما أن اتخرج من الميدان وعلى رأسك تاج وإما تترك صفوف المناضلين .. » . ثم ينقل له مؤيداً ما قاله المحافظ ديديه - الذى جاء بعد فورييه والذى يجد چاك - جوزيف شخصاً « غير حاسم » فى الوقت الذى انفتح أمامه « مستقبلاً باهراً » إنه محق جداً فى ذلك : « يبدو أنك لم تذهب إلى باريس إلا لكى تقرأ بحثاً أمام الانستيتو ... لن تجد أبداً فرصة مواتية أكثر من هذه [...] السمان يعرفونك . فاغتنم الفرصة . إذا عدت لكى تدفن نفسك فى المدينة الصغيرة فإن الإمبراطور الذى يراك أحياناً منذ أربعة شهور يقول لك « أعرفك جيداً . أنت « سياسائنا العام القادم بجفاء : « من أنت ؟ »

فعلاً ! صديقنا چان - فرنسوا كان أيضاً واقعياً « : كان الأستاذ شامبوليون وهو فى الرابعة والعشرين يتمتع بحضور طبيعى أكدته التدريس الذى أضفى عليه هبة فكرية مؤكدة . خلال فترة المائة يوم سيكون أحد قادة الحركة الليبرالية الجرونولوازية معبراً بتلقائية لا تخلو من خطر عن زواج كاثوليكي على الحلوة المرة بين فكر ٤ أغسطس* و١٨ برومار** وسيؤدى هذا النور بنجاح رفع من بريقه سفر أخيه الأكبر فقد حمله هذا الأخير حمل ومسئولية الصحيفة التى وضعها الهارب من البأ على كاهل عميد كلية الآداب .

هذا الجزء يقدم لنا نموذجاً مثالياً للفرق بين رؤية المعاصرين ورؤية المراقبين الذين يبعدهم الوقت عن الأحداث . بعد قرن ونصف من الحدث فإن إرتباط رجل مثل چان - فرنسوا شامبوليون - « صغير » بنابوليون يبدو غير مفهوم . فبقدر ما يبدو مقبولاً إنضواء الأخ الأكبر الإنتهازى الطيب والطموح المجد الرجل الاجتماعى ذى الحيوية الطبيعية وقد إنقاد تحت تأثير الإتصال المباشر وطيبة الرجل العظيم الذى شده إلى حاشيته بقدر ما يبدو إرتباط الأخ الأصغر محيراً .

* ليلة الرابع من أغسطس ١٧٨٩ التى ألغت فيها الجمعية التأسيسية الثورية جمع إمتيازات الإقطاع (المترجم)

** ١٨ برومار - اليوم الذى أجبر فيه بونابارت العائد من مصر أعضاء الديركتوار الحاكم على الاستقالة والذى حل محله عصر « القناصل » الثلاثة وعلى رأسهم بونابارت ذاته . قبل أن يصبح إمبراطوراً (المترجم) .

كيف لا يرى حينذاك - إلا لو كانت الموسيقى العسكرية قد سلت أذانه والحب البونابارتي قد أعمى عينيه .. أن أوروبا المتضامنة منذ ثلاثة أعوام ضد الغول ستطبق عليه من جميع الجوانب أكثر مما فعلت في ١٨١٤ ؟ هل لأن التحالف لم يعد برأسه لا الكسندر* ولا فرانسوا الثاني** اللذان تأثرا قليلا بسحر المنتصر في معارك أوسترلينز وقاجرام ؟ ولكن التحالف الآن أصبح في يد ولينجتن وبلوشار نوى الفك الحديدي ؟

جان - فرانسوا الذي حطل بنكاء خلال مراسلاته ، خطابا بعد خطاب ، حال التفكك التي وصلت إليها الإمبراطورية وكذلك بسقوط المنتصر والذي كان ينظر بعين المؤرخ إلى هذا الأفلو ، يقدم نفسه على الرغم من كل ذلك في الأحداث أولا بصفته صحفياً يدير « حوايات الإيزار » التي ظلت لثلاثة شهور صوت البونابارتية الجديدة في النوفينييه ؟ ثم كمناضل سياسى مرموق في المجتمع الفيديالى « الذى حاول أن يحيى هذا التيار الليبرالى والإمبراطورى المشترك . ثم وأخيرا كجامعى محاولا الإبقاء على كلية الآداب التي هجرها عميدها لأن هذه الإمبراطورية المتسلطة (والتي كانت الأقرب إلى فكره الأمبراطورية الليبرالية) كانت ملعونة من المتعصبين للكنيسة فإنه سيحارب من أجلها جرونوبل التي إختارها نابليون لتكون العلامة الأولى في طريق عودته كانت مهد وعاصمة « الإمبراطورية الجديدة » التي لم تدم طويلا . ولكن يجب ألا نعتقد أن هذه المدينة الليبرالية في معبدها قد إنضمت للنظام الجديد مرة واحدة .. عودة الملكية الأولى لم تحظ بالقبول . عودة ظهور المهزوم في ١٨١٤ كان لها بريق .. فمن ذا الذى يمكن أن يقاوم « سحر العجائب » غير أن أهل النوفينييه لم يكونوا يوماً من القوم الذين يؤمنون بالأشباح ... ليس كلهم ... أضف إلى ذلك أن الملكية كان لها فيها - كما سبق أن أشرنا - عملاء نشيطون .

في الواقع كانت الأيام المائة الجرونوبلوازية حربا صغيرة بين حزينين يتصارعان في ميدان مكشوف نون أقنعة : المكيون الذين يحاربون في العلن وبإصرار بالقدر نفسه الذى يناضل به أطراف النظام البونابارتي والجمهورى .

أما « البوربونيين » ، كما كان يسميهم شاتوبريان - فقد كان على رأسهم الماركيز نويينا - عمدة المدينة القادم - والماركيز بلانيللى دو لا فالوات - الذى سبقه لفترة قصيرة ثم تلاه . والأشقاء سيلقى والسادة لو بوشاچ ووبالسيز وبوشاليون (جميعها أسماء نجدها - عند ستاندال وقد يعلق عليها بأوصاف غير كريمة) أما « الليبراليون » فقد تجمعوا - أو تصارعوا - حول شارل رونولون والكونت لو بارال

* إسكندر الأول إمبراطور روسيا (١٨٠١ - ١٨٢٥) [المترجم] .

** امبراطور النمسا ثم رئيس الكونفدرالية الجرمانية في ١٨١٥ [المترجم] .

« ... أعلن أهل جرونوبل أنهم حماة أسرة بونابارت ، لقد منحوا أحد أعضاء الاسرة مكانا كئائب فى البرلمان يتقاضى ١٨ فرنكا فى اليوم . هذا التعيين مقبول بشكل عام لأن الأمير دى كانيو* شخصية قوية ويعرف كيف يقف فى وجه أخيه الذى هو عنيد بعض الشيء** مثل سلفية قيصر والإسكندر» .

إذا كان الملكيون يضمنون الصفوف فى هذا العداء المؤقت - لو أن الأورليانيين كانوا يناضلون وحدهم - فإن منافسيهم كانوا منقسمين على أنفسهم جداً . كان البونابارتيون يجدون أن الامبراطور أصبح تحت تأثير «الديموقراطيين» والمعتدلون كانوا غير مرتاحين لذلك ، يسمعون أنه إذا اضطرت فسيبطلش بأصحاب الألقاب «السابقين» والجاكوبييون (الثوريون) كانوا يفقدون صبرهم بسبب مماطلته فى اضى على طريق العودة للحكم الشعبى . وهم يلاحظون - وقد زادت المرارة فى أنفسهم - أن الهارب من جزيرة ألبا لم يتخل عن رداء المستبد الذى ظل يرتديه ولم يتركه وهو فى المنفى وفى طريقة عودته كالنسر من مدينة لأخرى ، وإذا كان هو «الثورة على حصان» كما كان يقول فذلك يرجع إلى المطية أو الظروف ولا يرجع إلى تطور داخله - إنه لا يحيط نفسه إلا بالاعيان وهم يخونونه مثل فوشيه ، تعليق شامبوايون - «صغير» :

«الجاكوبييون ثائرون ضد رجل ساعده لكى يتخلصوا من «صاحب الكرش»*** وبطانته وهم يصرخون ضد مايسمونه الفضيحة وعدم الصدق بالنسبة للدستور الذى يؤجل إعلانه إلى مالانهاية» .

«إلى مالانهاية» كلمة مبالغ فيها جدا ! فبعد ستة أسابيع من عودته إلى مقر التويلورى كان «القانون الإضافى لدرساتير الإمبراطورية» الذى جرى إعداده تحت رعاية بانجامان كونستان ولوسيان بونابارت ليفتح الطريق أمام نظام الليبرالى قد عرض على بضع مئات الآلات من الفرنسيين الناخبين للحصول على موافقتهم عليه - إلا أن هذا النص (الذى كان يعكس بصورة مقبولة فكر أنصار الجمعية التأسيسية (الثورية عام ١٧٩٠) لم يحظ باعجاب ليبرالى الدوفينييه .

* أو لوسيان بونابارت ، وكان جان فرنسوا يطلق عليه اسم «أمير الكلب الصغير» وهو ترجمة حرفية لكلمة كانيو بالإيطالية .

** «بعض الشيء» ؟ بمعنى كثيرا جداً .

*** لويس الثامن عشر .

«كان يجب وضع دستور جديد لأن في فرنسا يعد ذلك وسيلة لإلهاء الجماهير التي تخدعها مثل هذه الأمور الغامضة تحب أن تراها تظهر من جديد .. ولو من أجل أن تضحك عليها فقط [...] كارنو* الذي لا يضحك أبداً - هو الوحيد الذي عالج هذا الأمر بجدية ...» .

لم يكتف جان - فرنسوا بالسخرية ؛ إذ أعرب عن بعض تحفظاته على المشروع .
«إنه لا يعجبنا كما ينبغي ولكن مادنا مضطرين للانضمام للإمبراطور فإننا نوقع عن طيب خاطر مع بعض التحفظات مثل : نعم ، مع التعديل عندما يحين الوقت الملائم [...] الأصوات الهجومية كانت عديدة لدرجة أن محافظة جرونوبل اتخذت قراراً بمنعها . سينتج عن ذلك أن العديد من الناس الذين أرادوا التصويت بهم سيصوتون بلا أو سيمتنعون عن التصويت» .

وهو ما حدث بالفعل حتى في هذه المدينة المشهورة برجال القانون ويحب سكانها للتقاضى - أو ربما لهذا السبب - حيث زاد عدد الممتنعين على الذين صوتوا بنعم .

ومع ذلك يجب مساندة العدو الأول المعلن لأوروبا العروش والكنائس «غول كورسيكا» الذي تحالف ضده لورد كاستلريه وميتريخ . في صحيفته - كما في الجامعة - كان صغير ينادى بتعبئة الجهود ويكد من أجل إقامة «الفيدرالية» التي عملت في الدوفينية والمناطق الأخرى من أجل إعطاء هيكل تنظيمي لمختلف الإتجاهات الليبرالية . في جرونوبل ركز الجهود على منطقتي الإيزار والدروم .

وكانت الفيدرالية تنظيماً معتدلاً جداً لا علاقة له «بالنوادى» الثورية القديمة . كان يرأسها عمدة المدينة يعاونة كبار الموظفين وأساتذة الجامعة والأطباء ومسجلو العقود والمحامون أي الطبقة الثالثة .. وهو ما يعد وضعا جرونوبلوازياً خالصاً أى أن الوضع كان مطمئناً جداً ..

في الأول من يونيو ١٨١٥ ناشدت الفيدرالية الدوفينية وقد اجتمعت الجماهير في دار البلدية تحت رئاسة پيرياسان پرى بهذا النداء : «إن الوطن في خطر : إن البطل الذي أختاره الشعب الفرنسي لرئاسته (يعترض) على المشروعات الطموحة التي تداعب

* وزير الداخلية

افكار الملوك الذين تجرأوا على التخطيط لتجزئة بلادنا الجميلة فرنسا .. يجب علينا نحن أن نجهد هذه المشروعات .. وكتب جان فرانسوا لأخيه :

«إننا معشر الدوفينيين نتحرك ببطء ولكن إذا ما بدأنا العمل فإن الأمور تسير على مايرام فإذا كانت الفيدرالية قد قامت [...] فإن ذلك يرجع إلى ماقتت به وعلى الرغم من صراخ طافئى الأنوار* [...] إنهم مايزالون يرفعون رؤوسهم ؛ أخشى أن نجد أنفسنا مضطرين لجزءها فى نهاية الأمر» .

«طافئو الأنوار» هم «نور غطاء الرأس الأسود» ، هم «المتعصبون للكنيسة» هم «الجيوزيت» ولكن ماذا كان يعنى «بجزءها» ؟ هل كان يعنى اللجوء إلى موس الجيوزيتين كما تعود الأب دوشان أن يقول ؟ نميل إلى الاعتقاد بأن جان - فرانسوا كان يستعين بفن البلاغة وهو لم يكن إذن دمويًا ومتطرفاً فى مجال اللغويات فقط ..

وها هو صديقنا عالم اللغة وقد تحول إلى كاميل ديمولان** على صفحات الصحيفة التى يديرها «نداءات إلى الشعب» كلها حماس وتضخم من أهمية الاحتفال الذى جرى فى باريس فى ساحة «لوشان دومي» والتى أريد لها أن تكون نسخة أخرى من الاحتفالات الضخمة التى جرت فى ١٤ يوليو ١٧٩٠ - فلنستمع إليه إنه لجسور!

«الجمهور الضخم من المرتعدين إرتعب من عملاء متولى شئون «جان»*** الذين يصلون ويجولون بحرية رافعى الرأس ومنطلقى اللسان .. السلطات لاقيمة لها ولا تفعل شيئاً ولا تريد أن تفعل شيئاً [...] الجزوة مشتتة فى الصحيفة فقط . إنى أكذب ، أكذب ، أكذب...»

كتب اندريه جيد بعد ذلك بقرن «إن الإيمان يعوض الصدق...» وهذا يسمى الآن «بروباجندا» (الدعاية) غير أن جان - فرانسوا لا يكتفى بالكذب من أجل الوطن بل إنه

* يطلق جان فرانسوا هذه الكناية الشائعة على رجال الدين .

** صحفى وكاتب وثورى فرنسي قام بدور هام فى الثورة الفرنسية منادياً إلى اللجوء إلى السلاح عشية اندلاع الثورة (١٢ يوليو) اعدم بالمقصلة (١٧٦٠-١٧٩٤) (المترجم) .

*** جان Gand حالياً مدينة بلجيكية بالقرب من فرنسا الشمالية الشرقية وصغير يقصد بمتولى شئون جان - الملك لويس الثامن عشر - الذى لجأ إلى هذه المدينة بعد وصول نابوليون قادمًا من جزيرة اليا (المترجم) .

يلجأ إلى كافة الإمكانيات المتاحة ويضع طاقاته كلها فى أمور واقعية وقام بما لا يفعله المثقفون عادة بأن إهتم بتغذية الفقراء ! «قدمت مدرسة الليسيه هدية وطنية إلى نابوليون . أربعمائة فرنك خرجت من جيوبهم الصغيرة ، إنهم تصرفوا كآلهة صغار» .

إنه لا يكف عن العمل من عشر إلى اثنتى عشرة ساعة فى اليوم متوترا ، مشتغلا ، مرهقاً . هل تعدى بذلك المعقول ؟ فقد وصل هذا النداء من صديق مجهول : «عزيزى العميد ، «صغير» فى المنزل يعمل بكل قواه من أجل «الفيدرالية» . كنت أود ألا يأخذ ذلك وقته كله لأن أعماله أهم» .

ميواله البونابارتيه وصلت إلى قمتها فى اليوم ذاته الذى أنهار فيه نصف الاله . غير أن أهل جرونوبل لن يعلموا بالخبر سوى بعد أسبوع كامل ففى ١٨ يونيو ١٨١٥ ظهر ا. فال الذى تورط فيه بكل جسارة الذى قارن فيه بين الشرعية الوراثة لآل بوربون وشرعية الامبراطور «النابعة من الشعب» الذى أعطاهما من قبل إلى هوج كايبة قبل أن يسحبها من أحفاده . ويترتب على ذلك كما يقول صغير «أن نابوليون هو أميرنا الشرعى الوحيد».

سيتعلم المؤرخ شامبوليون على حسابه الخاص أن الشرعية لا تنتج بالضرورة من الانتخاب الشعبى ولكن كثيرا ما تخرج من نتائج الحروب . وفى حالتنا هذه كانت سلطة تعيين الملوك فى يد واينجتون يساعده بلوشار . لو ان جروشى* فعل مثل ديسيه فى مارنوجو لكان مقال الثامن عشر من يونيو شارك بقدر كبير فى رفع شامبوليون إلى المجد . الا أن الأمور لم تكن كذلك وهو ما سيتسبب له فى بعض المشاكل** .

مهما كانت درجة انغماس الأخ الأصغر فى التاريخ الحديث فيجب الا نتصور أنه قد تحول تماماً عما كان قد أصبح هدف حياته كلها : فك تلامس كتابة المصريين المقدسة . العجيب فى الأمر أن فى تلك الأونة التى اشتدت فيها العواصف بين الأمتين الإنجليزية والفرنسية عشية معركة واترلو والتى بدا فيها أن الحصار الخائق قد اكتمل تماماً على فرنسا ، بدأت أول علاقة مباشرة بين باحث جرونوبل وصاحب الاسم الذى

* جروشى - كان يقود لواء الفرسان الاحتياطى فى معركة واترلو ولم ينجح فى منع التقاء الجيوش الإنجليزية والروسية فى معركة واترلو التى أنهت حياة نابوليون السياسية والحربية فى ١٨١٥ فى حين نجح ديسيه فى موقف مشابه فى معركة مارنوجو ١٨٠٠ الذى انتصر فيها بونابارت العائد من مصر (الترجم)

** كان هذا المقال هو أكثر ما أخذ عليه بعد ذلك بشهور .

سيظل يقلقة لما يقرب من خمسة عشر عاماً ، وسيكون أشهر منافسيه ، وظل كثيرون ولدة طويلة يعتقدون أنه سبقه تماماً على طريق حل الشفرة : توماس يانج .

فى ١٠ نوفمبر أرسل أستاذ التاريخ الشاب بجامعة جرونوبل الجزئين المكونين لكتابة «مصر فى عصر الفراعنة» إلى رئيس الجمعية الملكية فى لندن ومرفقا بهما خطاب يعبر عن الاحترام الشديد ومؤكدا على أن عمله جانباً فى مجالى الجغرافيا وكتابة أسماء المدن . وانتهن الفرصة ليعلن عن قرب صدور جزء تال يتعرض لكتابة المصريين القدماء .

وأشار جان فرنسوا من جهة أخرى لزملائه البريطانيين أنه فى عمله على حجر رشيد لايعتمد سوى على نسختين (واحدة منهما صنعت فى لندن) وأنهما غير متطابقتين مما يضر بأبحاثه وإذا تم صب نسخ من قالب أثر رشيد الجميل لتوضع تحت تصرف جميع مكتبات أوروبا الكبرى فإن ذلك سيعتبر «هدية لمحبي الآداب [...] جديرة بالجدية والكرم الذين تتسم بهما الجمعية الملكية»⁽⁴⁾ .

لم يتلق رئيس الجمعية الملكية فى لندن خطاب جان - فرنسوا إنما سكرتيرها العام توماس يانج ورد عليه فى ١٥ مارس ١٨١٥ بعد أسبوع من مرور «غول كورسيكا» بمدينة جرونوبل . لانتظر بالطبع أن تتضمن مراسلات علامة إنجليزى أثرا لحدث تافه كهذا . ولايمكن أيضا أن نقول أن رده على غريمة الشاب كان مشجعا .

لا توجد إشارة إلى «النسخ» المطلوبة لمكتبات أوروبا من الحجر الذى اكتشفه الملازم بوشار . إذ يكتفى يانج فى هذا الصدد أن يؤكد أن «الذين يؤذون الاعتناء بدراسة هذا النص سيجدون أن النسختين صحيحتان بالقدر الذى يسمح بالتأكد من معانى معظم الكلمات» لا يوجد فى هذا الخطاب من يونج جملة واحدة تخلو من سهم مصوب إلى مراسله (هؤلاء الذين يودون الاعتناء بهذا النص سيجدون أن النسختين صحيحتان بالقدر الذى يسمح بالتأكد من معانى معظم الكلمات..»

أما بقية خطاب العالم الإنجليزى فهى متعمقة جداً فى الجدل الذى سيدور حول الاكتشاف مما يجعلنا نحيل قراءته إلى مكانها فى تطور الأحداث* .

فى ٢٠ يونيو عندما كان جاك - جوزيف شامبوليون - فيجاك فى حفل عشاء دعا

* راجع فصل ١٠ .

إليه لوسيان بونابارت - أمير كانينو - فى مسرح الباليه - رويال أن علم بنتيجة معركة واترلو وقرب وصول الملك المهزوم إلى قصر التويلورى . أما خطاب مندوب جرونوبل فى الشأن ب و . ي - إلى أخيه فقد احتاج أربعة أيام أخرى لى يصله .

فى ٢٠ يونيو لم يكن جان - فرنسوا قد عرف بعد بالكارثة عندما حذر خطاباً لجاك - جوزيف بعد أن حصل على وسام الليجيون دنور (جوقة الشرف) : «سيدى الفارس . أهنئكم على ما حصلتم عليه من معانى التكريم الإمبراطورى . أشارككم السعادة والابتهاج اللذين يغمرانكم بكل تأكيد » لابد أن قراءة هذه الجمل فى نهاية ٢٠ يونيو كان لها تأثير السخرية المرة ..

بعد الكارثة لم ينطو صديقنا أستاذ التاريخ ذو الأربعة والعشرين عاماً فى الحزن والمرارة بل إنه يواجه الأمر بصلاية ورباطة جأش يوجبان الاحترام خاصة لدى شخص يعانى من تبدل حالات النشوة والإحباط مثله . لنقرأ ماكتبه لجاك - جوزيف فى حينه :

«القاعدة الوحيدة التى يجب أن تتبعها هى أن تنقذ نفسك أولاً . أما فيما يتعلق بى ، فى الله يفعل ما يشاء . عندما عبرت عن رأى فكان ذلك لانى أمنت بصحته ولازمت أعتقد ذلك [...] إذا لامك أحد على جاكوبينييه صحيفتك . أجب بشجاعة أنى المسئول مادامت هذه هى الحقيقة . إذا احتاجوا لضحية فأنى لها . ليس لدى زوجة أو ابن : كل واجبى ينحصر فى شخصى وهذا ليس بالشئ الكثير ، أنى أشعر أن ذلك سيؤثر فىك كثيراً . ولكن لا يههم ، استخدمنى كقطعة من الإسفنج . المهم هو أن تخرج سليماً معافى من الأزمة» .

الأزمة ؟ بل أكثر من ذلك بكثير . قل عاصفة أصح !! اليوم ونحن نقرأ مستندات العصر نندشش لأن انهيار نابوليون - هذا الزلزال العنيف - تولدت عنه حالة من التردد . هز وقوع المارد الأرض كلها ولكن فى أى اتجاه ؟ ومصالحة من ؟

تشهد الرسائل التى بعث بها جان - فرنسوا لأخيه فى بداية شهر يوليو على هذا التردد . فهو يتحدث فيها عن تتويج «نابوليون الثانى» ألم يتنازل الإمبراطور عن العرش لصالح الإمبراطورة ؟ والذى حدث هو أنه بدلا من أن يجد نفسه فى دور المنبوذ راح الأستاذ شامبولىون يصف حالة الهلع التى احتاجت «طافئى الأنوار» .

وجرى الحديث أيضا عن تتويح دوق دورليان . فى البداية قلة هى التى كانت تنادى بعودة آل بوربون لأنه بدأ أن إنهارهم الفورى والتعيس قد أنهى مصيرهم تماماً فى مارس ١٨١٥ . إلا أن لندن كانت تفضل هذا الحل . وكما سنرى فيما يختص بنا بوايون فإن ويلنجتون وكاستيريا يقودون العمليات .

إلا أن بعض المواطنين الفرنسيين كانوا غير مستعدين لتسهيل المهمة لهم تشهد على ذلك هذه السطور المأخوذة من خطاب جان - فرنسوا إلى جاك جوزيف الذى كان قد أخبره بالكارثة . الخطاب مؤرخ الأحد ٢٥ يونيو :

«خطابك الصغير [...] أدهشنا إلا أنه لم يفت فى عضضنا . لقد حان وقت تحديد مصير فرنسا . إنها لن تضعف وإن تشكك فيما تختاره بين الخزي والشرف وبين الحرية والعبودية للأجنبي . لا تخشى علينا من أى شيء - الهدوء يسود . ينتننا . إذا تحرك أصحاب النية السيئة - سيعاقبون ..» .

لدى اقتراب الجيش النمساوى - الساردى بقيادة الكونت بوبنا فى فجر ٦ يوليو من أبواب جرونوبل فإن عاصمة الدوفينية ستظل فخور لفترة طويلة لأنها كانت آخر من قاوم فى فرنسا كلها . يسرد جان فرنسوا ما حدث لأخيه فى خطاب مؤثر مؤرخ ٦ يوليو الساعة ١١ .

«قصف المدافع توقف الآن فقط . تقدم النمساويون فى طابورين للهجوم على مدينتنا جرونوبل ، الأول من ناحية باب تريكلواتر والآخر من باب دويون [...] تتقدمهم الموسيقى . تقدم هؤلاء السادة بخطى قصيرة كما لو أنهم فى حفل زفاف . يبدو أن «طافئى الأنوار» كانوا قد شجعوهم على التقدم وأنهم لن يلقوا مقاومة فأساوا التقدير ببشاعة . إذ ما أن أصبحوا أمام الأسوار إلا وكانت المدافع الفرنسية وبنادق مجندينا [تنهال عليهم] فانسحبوا إلى الضواحي حيث استقبلتهم طلقات المدافع فطردوا منها . بدأت المعركة فى السادسة وانتهت فى العاشرة والنصف وكانت حامية للغاية . أرسل النمساويون مفاوضا من جانبهم [...] أعلن عن وقف إطلاق النار لمدة أربعة أيام [...] زوجتك زويه التى كانت قد وضعت منذ أمس أخذت الأمور بشجاعة المحاربين [...] لم أشرب فى حياتى مثل هذه الراتافيا* الجيدة ..»⁽⁵⁾ .

* مشروب كحولي يستورد من جزر الباسيفيكي (المترجم) .

لا يوجد ما يطبع هذا النص بالبطولة فهو بدأ بالحديث عن حفل زفاف وانتهى بشرب الكعوايات . لا يحاول جان - فرنسوا أن يخدع أحدا . أهم بطولاته انحصرت فى «طمأنة السيدات» . غيره كثيرون يجعلونهم يفقدن صوابهن فى مثل هذه الظروف .

باختصار استسلام جرونوبل تم فى ١٠ يوليو : قلعة الدوفينية أصبحت فى أيدي الغزاة ابتداء من المواطنين الذين أغضبوا المتطرفين وكذلك حلفائهم «طاقئو الأنوار» .

احتاجت بلورة الحل البوربونى عدة أسابيع ليكتمل . ولم يتم رفع علمهم الأبيض على مباني جرونوبل سوى فى ٢٠ يوليو بعد شهر كامل من واترلو . حانت ساعة الانتقام الكبير . وزاد من عنفها درجة خوف المتطرفين وأن المدينة كانت أكثر المدن بونابارتية أو ليبرالية .

لا يمكن أن نتحدث عن الجو العام الذى ساد هذه الأشهر من صيف ١٨١٥ بأحسن مما فعل أوجان دو فوجيه : «التشدد الذى ساد الملكية الثانية تناقض مع الاعتدال الذى ساد الأولى [...] كان من المتوقع أن تنطلق نار الانتقام الأولى فى ١٨١٤ عندما كان على ضحايا الثورة أن ينتقموا لفترات نفى طويلة أو لاعتداءات قاسية أو لأسر كاملة ثم التضحية بها على المقصلة [...] غير أن الضراء التى تحملوها بنبل لم تقلل من قدرتهم [...] لقد حدث بعض الشطط فى السلوك ولكن لم تحدث عمليات انتقام منظم [...] فى عام ١٨١٥ كان المطلوب هو الانتقام من وضع مثير للسخرية ومن هروب مزرى تصرف الجميع أثناءه دون تحكم [...] الألام الكبيرة سامحت . الكرامة المجروحة كانت فى منتهى القسوة»⁽⁶⁾ .

تنطبق هذه الملحوظات على جرونوبل أفضل من غيرها . وكما كتب عنها جيزو* فى «تذكرياته» كانت جرونوبل مهد المائة يوم ، ورأى البعض أنه من الضرورى ضرب البونابارتيه بقسوه فى المكان ذاته الذى انفجرت فيه أولا .

ضرب «الإرهاب الأبيض» عاصمة الدوفينية ضربا مباشرا وإن لم يأخذ الشكل الدموى الذى كان عليه فى كل من مرسليليا ونيم وأفينيون . إلا أن الانتقام أخذ فيها أشكالا قانونية وإدارية وثقافية على درجة كبيرة من الانحطاط البشع علي يد شخص اسمه راندون سان مارسال . عينه الكونت نو ريفسكى ، ياور إمبراطور النمسا وقائد

* كان حينذاك موظفا فى وزارة العدل .

قوات الاحتلال ، مفتشا عاماً للشرطة وقد فعل راندون ما يكفى لأن يجعله يهرب بعد ستة أشهر فارا من العقاب الذى طالبت به الجماهير الغاضبة وقد تم تهريبه لتقادى أزمه بين باريس وفيينا .

العمليات الانتقامية الحقيقية - غير تلك التى قام بها موظف متطرف وبلا ضمير - جاءت على يد جمعية سرية اسمها «كازينو» يرأسها الماركسى دوشاليون - متطرف مشهور منذ فترة طويلة وقائد «الحرس الوطنى راكب الخيل» وكانت هذه الجمعية هى التى تنظم وتنفذ العمليات الانتقامية . إذا كان الكازينو هو الوكر الذى حيكت فيه أسوء الضربات فإن شاليون وقتلته المجرورين وجدوا لهم منافسين بل وغرماء فى مقر الشرطة والمنطقة العسكرية ودار العمودية : وقد أطلق على هؤلاء جميعاً لقب «جاكوبيو الملكية» .

لم يسرع جاك - جوزيف شامبوليون - فيجأك فى العودة إلى مدينته حيث انضواؤه تحت العلم المتلث الألوان بعد إعلان ولائه الملحوظ لعلم آل بوربون ذى الزنابق كان سيجلب له مشاكل فيها أكثر مما سيجلبه له فى باريس . تمركزت إذن على جان - فرنسوا كما كان يريد بالفعل - كل الأحقاد . وكان عليه أن يحارب على أربع جبهات .

جبهة الصحافة أولاً : لم يتردد السادة الجدد فى أن يفرضوا خروج «صغير» من «حواليات الإيزار» الصحيفة التى الذى جعل منه بؤرة للبيرالية . كتب الصحفى المناضل لأخية خطاباً بدا فيه أنه يأخذ الأمور من جانبها الطيب :

«أشعر بارتياح يا صديقى العزيز لأنك لاحظت دون غضب اسما غير اسمك أسفل بعض المقالات . لم يكن مقبولاً أن تنفث الساخن والبارد فى نفس الوقت . إن ذلك لايليق بك ولابى واعترف لك أن الشجاعة لم تكن لتواتبنى لكى أحرر الصحيفة بصورة جيدة تتفق والجو العام السائد . لعل فجراً جميلاً يشرق مرة أخرى» .

سيكون أكثر عنفا ومؤثراً جداً فيما يختص بالجامعة وسيعبر عن ثورته الغاضبة بلغة المؤرخ .

«من الخطر دائماً أن تفتح باب حديقتك للعدو . سينتهى به الأمر دائماً بأن يغزو مطبخك . تكفى تجربة خمسة عشرة قرناً لتأكيد ذلك » .

ولكن أقسى التجارب وطأه عليه ستكون بصفته باحثاً أكثر من كونه صحفياً أو مربيًا . مشكلة الأخرى كانت حينذاك هي مصير قاموس اللغة القبطية الذي وعده بطبعة في أقرب فرصة نابليون الذي كانت تحيط بشخصه هالة من نور متجدد في جرونوبل يوم ٨ مارس .

الواقع هو أن مخطوطه قدم لأكاديمية الآداب في ١٨ مايو . الواقع أن جان - فرنسوا لم يغرق نفسه في بحار من الأمل لأن اللجنة المكلفة بإعطاء أمر الطبع كانت مشكلة من دوساسي ولانجلاس وكوسان . وكانت علاقاته بالأول والثاني قد ساعدت جداً كما رأينا - علاوة على ذلك فإن لانجلاس وكاترومار اللود قدما مشروعاً منافساً .. وعلى الرغم من الظروف السياسية المواتية إذ كان نابليون لا يزال في التوليوري - فإن الأفاق لم تكن مشرقة :

«ها هو قاموسى ألقى به إلى جماعة الذئاب المفترسة وبين براثن منتقديّ المعروفين . يجب أن يكون عملي ممتازا لكي لايقولوا عنه أنه مكروه . وعلى العموم فإنى مستسلم مقدماً . علمنى كتابى الأول حقيقتين كبيرتين . الأولى أنه يجب أن تسير بخطى ثابتة على الرغم من الصراخ النابع من الغيرة والكرامة المجروحة . والأخرى وهى الأكثر مواساة للنفس هى أنك تصل دائماً للهدف بالنية الطيبة والاعتناع التام أنه لا يوجد ما تعاتب نفسك عليه وسط عمليات الاضطهاد التى تنتظر مع كل خطوة تخطوها» .

أخذ «خبراء» الأكاديمية قرارهم فى ١٧ يوليو بعد شهر من هزيمة واتراو عندما كان المتطرفون - وكان ساسي واحدا منهم - قد تمكنوا من جميع مفاتيح السلطة . فيجاك الذى كان لا يزال فى باريس علم لتوه بالرفض وأفاد أخاه بالنبا . اعتبره جان - فرنسوا صفة على وجهه : إن العمل لا يرقى لأن «يطبع على حساب الحكومة» .

كان وعد نابليون فى هذه الظروف ضاراً لعملية نشر الكتاب .. كنا قد لاحظنا أن آمال جان - فرنسوا لم تخدعه فى هذا الصدد ، غير أنه لم يكن ضحية بداية ظلم سياسى فقط وإنما الحكم عليه كعالم كان من محرر التقرير (وهو ساسي) لأنه أكد فى تقديمه للعمل أن «الهيروغليفيات ليست سوى علامات محتملة للغة الكلام وليست علامات فكرية [...] وهذا التأكيد يبدو متهوراً جداً . بالنظر للبراهين المتوفرة من العصور القديمة كلها ...»

* كتاب «مصر فى عصر الفراعنة»

تحول هذا المأخذ على شامبوليون - كما تقول مدام هارتلوبان الذي كان يبنو في حينه مبررا - إلى تقرير من أعلى درجة للطالب المعاقب [...] الذي تجرأ وأكد أن للهيروغليفيات [...] مدلولات سمعية⁽⁷⁾ .

رد فعل شامبوليون «صغير» كان في منتهى العنف في خطاب أسرع بإرساله لأخيه في ٢١ يوليو ١٨١٥ . لهذا النص أهمية كبرى - إذ أنه يحتوي على كل شيء : الإساءات الشخصية وصراع الحداثه والمخاوف السياسية والأفاق المستقبلية . ولا يجد الشاب في كل اتجاه سوى أسباب للمرارة سواء كان ذلك في اتجاه إنتصار المتطرفين وأصحاب الزى الأسود أو من ناحية احتلال القوات الاجنبية للمدينة أو بالنسبة لرفض طبع كتابه واخيراً فيما يتعلق بالنقطة التي فاض بها كأسه وهي انتخاب كاترو مار في الانستيتيو . كل ذلك يبرر نشرنا لمقتطفات مطولة من هذا الخطاب الذي هو كشف حساب رجل في الخامسة والعشرين .

الموضوع الأول : رفض طبع قاموس اللغة القبطية على حساب الحكومة :

«التقرير الذي كتبه «الجزويتى» * جاء كما توقعته : سم زعاف تحت السكر . فلأنه غير قادر على مهاجمة الموضوع في صلبه فقد تحول إلى الشكل . إنه كالنودة استعصى عليها قضم الورقة أو قطعها راحت تغطيها بريالتها [...] خبت تقرير هذا الجزويتى واضح جدا أمامى . إنه سيد الموقف الآن ...»

الموضوع الثانى : ما العمل فى القاموس المرفوض من الجانب الرسمى ؟ عندما نقل له جاك - جوزيف العرض الذى تلقاه من مسيو / جرينى الذى يقترح على الشقيقين أن يقوموا «بالطبع» ويتولى هو «الباقى» أى التوزيع جاء رد أخيه الصغير عنيفاً :

«أرجو ألا تكون من الجنون بحيث تورطنى - بناء على قوله - فى مصاريف تتعدى بكثير إمكاناتى وإمكانات أسرته مجتمعاً فى الأوقات التى نحن فيها وسط ثورات عنيفة تمزق «وستستمر تمزق» وطننا المنكوب . يجب ألا تفكر سوى فى الحياة الجسدية [...] لقد انتهى عصر الأمجاد الأدبية»

* كثيراً ما سيستخدم شامبوليون هذه الكنية لأستاذه السابق متهما بذلك إياه بالأراء الرجعية ووسائله غير الصريحة والمتلوية

الموضوع الثالث : إنتخاب كاترومار فى أكاديمية الآداب وما يعنيه :

« .. لقد قبل الانستيتو فى عضويته أعدى أعدائى وأنت تعلم مثلى تماما كم أن نجاح بوليكارب هذا رهيب فى ضرره لأعمالى . أعتقد أنه من غير المفيد أن نستمر فى صراع سينتهى بنا إلى أن نسقط فيه صرعى أجلا أو عاجلاً . روح التحزب تسود فى فرنسا بالكثير مما كانت عليه فى أى وقت مضى . إن لون القبعة سيحدد درجة جودة الرأس الذى تغطيه . كل شىء إنتهى تماماً من هذه الناحية .

الموضوع الرابع مستقبل الشقيقتين فى جرونوبل :

«إنك اعتمدت على أوهام [...] عندما علمت بوصول الغريب إلى جرونوبل . لماذا اعتقدت أن الصحيفة كانت مازالت لك أهل تعتقد أن هذه النوعية من الرجال سوف تتسى الطريقة التى أعيدت بها إليك* [...] إن العصاة الجهنمية المسيطرة على جرونوبل أعادتها إلى المتأمرين الذين كانوا انتزعوها منك ..»

إلا أن هذا الجان - فرنسوا الذى يحذر أخاه عن حق من «الأوهام» سيعيش هو نفسه فى أخرى ، وأن كانت غير خطيرة :

«ماامت تعرف المحافظ الجديد** فلا يزال هناك أمل فى أن تستعيده . أقول الأمل ولا أقول من المؤكد لأن المحافظ سيحاط عند وصوله بشخصيات [...] ستلبسك أفضل رداء [...] لاتغفر لك أبدا مقابلاتك*** ولاوسامك**** هذا الوسام سيصبح جبلا حول رقبته [...] إذا حضر المحافظ أدخل فى زمرة اتباعه وإحضر معه واجعله يعيدك إلى منصبك [...] وإن كنت أشك فى النجاح [...] ولازالت أدعوك أن تغسل يديك على حسابى أنا ...»

مأعجبها من شخصية .. هذا الاستاذ الشاب ذو الرأس الساخنة ! واضح الرؤيا دائما (تقريبا) شهم إلى أقصى حد - وإن كان ميالاً إلى أن يكون عرضة للإحساس بالاضطهاد على طريقة روسو . وبعض من التعصب العلمى وكذلك لشيء من الحماس

* بواسطة نابوليون .

** مسيو دو مونليفو - الياور السابق للإمبراطورة جوزيفين والذى تحول إلى حزب المتطرفين وأصبح . على عكس ماكانا يأملن - من ألد أعدائهما .

*** مع نابوليون .

**** الليجيون دونور (جوقه الشرف) .

الجاكوبيني يمثل ستاندال . هل كان به شيء من السذاجة ؟ بالتأكيد ! حقود ؟ بالتأكيد ! بل ومع شيء من العنف ... ولكن ما كل هذا الحماس وطلاقة التعبير والألمعية ! وتحت زيد أهل الجنوب تجد عمق أهل الجبال المرتفعة ..

لم يهزم بعد على الرغم من كل شيء صديقنا «المصري» ! كان العدو يحتل مدينته و«السود» حاملوا اللواء الأبيض يطاردونه والعمده الجديد بلانيللي دو لاقالات يأمره بأن يفلق المكتبة التي هو أمينها في غياب أخيه وكيه الآداب مهدده بالوفاة - اليست اختراعا من اختراعات «الغول» الشيطاني ؟ الإشاعات كلها تعلن قرب سقوطه . و«طافئو الانوار» يطردونه من «حواليات الإيزار» بعد أن جعل منها الناطق بلسان البونابارتية الليبرالية الجديدة في المنطقة ، إلا أنه لايعترف بالهزيمة فلم يترك الميكروفون الذي هو الحوايات دون أن يلقي تحديا سافرا للمتطرفين في صورة «نخب إلى الجمهورية» الذي سيؤدي إلى نفيه :

شارب صادق والكأس في يده
يحتسى المدام نخب ابن ديونيزوس
والحبيب يختم نشيده
في صحفة حبيبته
مثله أنا أيضا لي غرامى
وما دام يجب بالسسر أن أبوح
فإنى اشرب ودائما سأشرب
نخب الجمهورية إلى الأبد⁽⁸⁾

لم تكن قريحته الشعرية على مستوى حماسه الوطنى والانكى من ذلك أن قسمه لم يكن كما ادعى أبديا لارجعة فيه .. غير أن الذى يجب أن يؤخذ فى الاعتبار هنا ليس معرفة ما إذا كان شامبوليون ينافس بيرانجية* أو إذا كان ولاؤه الجمهورى من معدن أكثر صلابة من قاتلى الملوك السابقين الذين أعلنوا ولاهم بعد ذلك للتاج الملكى ،

* مؤلف أغانى ومطرب فرنسى إشتهر بأغانيه الوطنية (١٧٨٠ - ١٨٥٧) .

الأهم من ذلك هو الجانب القدائي في شخصيته : ففي الوقت الذي تظهر فيه بوادر الإرهاب الأبيض نراه يرتدى غطاء الرأس الكاشف عن ميوله نحو الجمهورية .

وهو لا يكتفى بالتحديات العلنية . فقد بدأت المنشورات توزع في صالونات جرونوبل وسرعان ما توجهت الأنظار إليه على أنه محررها : فهي تهاجم «مطفي الأنوار» و «نوى القبعات السوداء» . مثل ذلك ما جاء في أحد هذه المنشورات وهو على هيئة محاكاة ساخرة لسفر الرؤيا يظهر فيها نابوليون في صورة الحيوان المخيف القادم من البحر .. فصاحة صديقنا الجاسكوني (والدوفيني أيضا) تنطلق بون رابط في هذا النص لدرجة أغضبت المحافظ الجديد الكونت نوموليفو - وهو الذي كان جاك - جوزيف يعتقد أنه يعرفه بالقدر الذي يسمح له بأن يحتويه - فقد نسي المحافظ أن أكثر المتطرفين تشدداً هم الملكيون السابقون الذين أصبحوا خدما لال بونابارت .

في ٢٨ يوليو ١٨١٥ وضع جان - فرنسوا شامبوايون تحت مراقبة مباشرة . ويجدر أن ننقل هنا النص الصادر عن مفتش الشرطة راندون سان مارسيل الذي سبق أن تكلمنا عنه :

«أخذين في الاعتبار روح التمرد التي تحرك بعض الأفراد ، يضاعف من جرمهم أنهم في ضلالهم هذا سيئو النية ، ومن خطورتهم أن إستنارتهم* ومكانتهم في المجتمع تجعل المثل الذي يعطونه بسلوكهم وبالتعبير عن آرائهم يضاعف من الأضرار التي يتسببون فيها - نظرا لكل ذلك قررنا ما يلي : يوضح تحت الرقابة الفورية السيد شامبوايون - فيجاك الأصغر ، الاستاذ بكلية جرونوبل [...] إلا إذا عدل من سلوكه [...] أن تحدد له أي محل إقامة آخر» .

حركه الكماشه تشدد حوله ، إذ إن حرية حركته هي التي استهدفت** . وصفه للمناخ العام السائد في جرونوبل يبدو غير مبالغ فيه إذ كتب عن ذلك لأخيه يقول :

«الكارينويون*** لهم اليد العليا في المدينة . من المؤكد أنهم مكلفون أو كلفوا أنفسهم بأعمال الشرطة العليا ، الاعتقالات تتم يوميا . البداية كانت في الطبقات الدنيا وستنتهي يمش يرتدون الملابس الفرنسية . الجميع يرتابون في أقرب الناس إليهم ، الوشاية هي سيدة الموقف» .

* يعاقب لاستنارته !! موقف متناسق!

** نفس المعاملة كانت من نصيب جاك - جوزيف في باريس

*** أعضاء تنظيم الكازينو - انظر ماجاء من قبل

من الطريف أن نقارن هنا بين هذا التقرير الحى للأحداث من شاهد عليها - إن لم يكن ضحية لها - وبين ماكتبه شامبوليون - فيجاك فى كتابه " فورييه ونابليون " .
الأسلوب هنا يصبح أكثر سلاسة والنغمة أكثر اعتناءً . بعد التأكد من تطابق الأحداث مع الواقع وبعد أن عاد لينضوى تحت لواء الملكية فإن الأخ الكبير يردد ماقاله أخوه :

" إنها لبركة أسنة من الوشايات يطلقها ويديرها قس متزوج وإثنان أو ثلاثة من الماراتين* أهل ٩٣ ، وهم محترفو الأجرام تناسبهم جميع العمليات الإرهابية سواء كانت بيضاء أو حمراء ويتولون بسبب تكوين شخصيتهم جميع الأعمال القذرة التى تخدم طبقة غير طبقتهم مثلما يفعل الخدم فى المسرحيات الكوميدية بأن يكذبوا لصالح سيدهم⁽⁹⁾ . "

" ماراتيون " محترفون أو متطرفون خلص ، المهم هو أن أعداء الشابوليونين الذين انتزعوا منهم صحيفتهم راحوا الآن يهاجمون قلعتيها الأخريين : الكلية والمكتبة .

فى ١٩ نوفمبر كتب جان فرنسوا لأخيه : " لاشك أن كلية الآداب ستلقى بإكملها [...] .
لم يحصل بعد أى شئ بصورة رسمية (ولكن) هذا لن يتأخر** وفى جميع الأحوال فإن بيلون وأنا وأنت وبيريا سان برى*** سنكون من المطرودين . لقد إنتهينا .. "

فلنرى ما سيستخلصه هذا الشاب " المنتهى " من هذه التجربة السيئة من نتائج غير متوقعة منه فى صورة " خطة لحياة جديدة مدينة وأسرية « يرسلها إلى أخيه طالبا منه أن يقرأها « يتمعن » :

« ... أو أن أدخل فى سلك « موثقى العقود » فى جرونوبل ستقول لى أنك تريد أن تتحول من أسقف إلى نجار وبماذا ستفيد العمة الأسقفية إذا لم تأت بالخبز . علما بأن الدقيق موجود فى المطنن لم يعد هذا وقت المستويات ، وبالمناسبة فإنى أعرف العديد من موثقى العقود أكثر احتراما وتجيلا من كتيبة أساتذة (...) أما فيما يتعلق بى فإنا مصمم على ترك مهنة التعليم العمومى .. »

ولا يخشى «صغير» أن يخوض فى الحديث عن النواحي الأكثر حساسية فى

* نسبة إلى جان - بول مارا J.P. Marat ، ضحية (عشيقته) شارلوت كورديه وهو يعتبر رمزاً للأرهاب (المترجم) .

** تحقق ذلك فى ١٨ يناير ١٨١٦

*** عدل جاك - جوزيف - وقد كان نائب رئيس الفيدرالية " (الليبرالية) خلال فترة المائة يوم

المشروع .. لاحظ نبذة الحديث :

« النقطة الرئيسية هي شراء المكتب ... كثير من موثقي العقود لم يحصلوا على مكاتبتهم سوى بالزواج ... بالنسبة لى فإن علاقاتى بالحب جيدة لدرجة أنه مستعد ليمد لى يد المعونة فى هذا الشأن . بابا بلان مقتنع تماما بأنى ساتزوج إبنته .. روزين وأنا متمسكان جدا بذلك . أن مسيو بلان يكرر بالاستمرار أن هذا العالم ليس فيه سوى حالتين : أن تكون صانع قفاز أو مسجل عقود ... »

هكذا وبعد أن وضع النقاط على الحروف ينهى جان فرنسوا كلامه :

« إن وضعى كموثق عقود يعطينى مايلى :

١ - ضمان موقف صلب ومريح .

٢ - ألا أجد نفسى بعد قليل من الآن (...) عالة على أسرتى .

٣ - أن أتم مشروع زواج أتمسك به من الناحية العاطفية من ناحية الشرف .

٤ - أن أجد نفسى بعد فترة قصيرة بمنأى عن الثورات .

٥ - وأخيرا هذا هو الوضع الذى (...) يسمح لى بالتخاطب مع جنيات الشعر والفن والأدب دون أن يسئ التعامل مع الأدب إلى التعامل مع النقود . أى سأحصل على الورد دون الأشواك .

يتتج عن كل ما سبق أنه بالنسبة لى خارج توثيق العقود

لإنجاه لى مشاركة ممتازة منه فى رسم صورة له !!

ومع ذلك فإن جاك - جوزيف يحصل بعد قليل على آراء مختلفة من أخيه :

« مازالت الإشاعات تتردد عن المكتبة . إذ يدعون أننا لانوجد بها أثناء النهار أماليا فإن إجتماعات خطيرة تعقد فيها وهو ما يتنافى مع التفكير السليم ، يقال أننا تركنا المكان لأحد الساعة فى هذه الأوقات الحرجة . لأن عندما يأتى إليه بعض الضباط النمساويين يقول لهم أنطوان إن أمين المكتبة خرج وأخذ معه المفاتيح الخ الخ .. »

أما فيما يدعونه عن إجتماعات فلست أدرى من أين جاوا بهذه الإشاعة غير المعقولة ، لكن الذى أعلمه هو أن الطريقة الخاصة بسان برى والطريقة الخاصة براندون يحتلها كل ليلة ومنذ ثمانية أيام شرطيان لكل مهما ، وأن عملاء للشرطة يحومون حول المكتبة . عندما أدخل المبنى كل ذلك يختفى لا أدرى أين . إلا أن الشيء المسلى

فى ذلك وهو أيضا مضحك أنى أسمعهم يهتمون بعد أن أكون أوضحت الأمور بعد وصولى مبكراً ويهدوء تام . لم يتكلموا أبداً معى ؛ لأنهم يودون أن يقبضوا على المتأمرين وهم فى حالة تلبس».

«عملاء الشرطة» .. حتى لو كان جان - فرنسوا يستخدم أسلوب المناضلين السياسيين فى الكتابة فهو لا يبالغ فى الواقع كثيرا . لأن الواقع يفترض أن مهد إعادة البونابرتية إلى السلطة . أى مدينة جرونويل استحققت معاملة متشددة . بوجه خاص . عملية القمع أدارها رباعى لايرحم : المحافظ الكونت دومونليغو وقد سبق أن رأيناه وهو يعمل ، القائد العسكرى الجنرال دوناديو* ، قائد قوات الشرطة ؛ الكونت دوياستار والعمدة الماركيز دوبيينا** جميعهم من مجموعة الكازينو ومن مؤيدى «نوى الرداء الأسود» ومن مناصرى الكونت دارتوا . كان وجود هذا الأخير يطمئن أصحاب أكثر الأراء تطرفا بعد ما قام به من أعمال عاصفة فى ربيع ١٨١٥ .

عاد جاك - جوزيف شامبوليون إلى جرونويل فى نهاية العام وقد اتخذ لنفسه سلوكا هادئا للغاية يتناسب والظروف ويتفق مع ما يقال عنه هذه الأيام أنه «سار بجانب الحائط» .

كتب يقول عن هذه الفترة بعد ثلاثين عاما فى كتابة «فورييه وناپوليون» : «أما أنا فقد قبلت بالكامل وببساطة النتائج المترتبة على ما قمت به وإقتصرت تماما على عملى كأستاذ وكأمين مكتبة وهى مهام كنت أشعر أنها سيموت اهتمامى بها أو أنى سأضطر إلى أن أختنق أنا فيها وكان مصدر هذا الشعور نايع من العديد من الإعراض» ليس هو الذى يشرب مثل أخيه المجنون «فى نخب الجمهورية» إنه ينتظر انسحاب حمى الانتقام من مدها .

إنه شخص باربع . ولكنه أيضا رجل عواطف وهو ما سياتسبب له فى أذى كبير جداً . إذ جاء إليه شخص إسمه «مسيو رافييه تاجر من كلارمون فيران» يريد أن يذهب إلى مقاطعة سافوا ليستشفى بمائها ، ولكن ليس لديه جواز سفر لذلك . واضح جداً أن هذا الشخص من المغضوب عليهم وهو يحاول الهرب إلى الخارج . ولم يطل

* وصفه الكونت موليه فى مذكراته بأنه «حقير» بمعنى الكلمة .

** يقول عنه ستاندال إذ كان زميله فى المدرسة المركزية (ليكول سنترال) : «متطرف يقوم بأى عمل

وهو يتناسى نظافة اليد .. متطرف خطير .. جيزويتى بمعنى الكلمة» .

المقام بالضيف قبل أن يتعرف فيجاءك على شخصيته الحقيقية : إنه الجنرال درويه دارلون أحد آخر جنرالات الجيش العظيم الذين اعتمد عليهم نابوليون فى واترلو .

هل تشاور الشقيقان ؟ واقع ما حدث هو أنه «مسيو رافيه» اختبأ طوال فصل الشتاء قبل أن يخرجوه من المدينة فى عربة عامة لنقل الأفراد ثم إصطحبوه حتى مدينة شامبيرى وكانت هذه المدينة حينذاك أجنبية وتتبع السافوا . ومن هناك اتجه إلى ميونيخ حيث كان يقيم الأمير أوجان دو بوهارينه⁽¹⁰⁾ .

على الرغم من أن هروب درويه دارلون لم يكتشف من الشرطة إلا بعد فترة طويلة* فإن «ملف شامبوليون» كان ثقيلًا كما تقول مادلين يوريوان : «لم يكن اللوم الواقع عليهما راجعا إلى تهافتهما على استقبال «سارق العروش» بقدر ما كان بسبب عدم إعلانهما عن توبتهما الصادقة»⁽¹¹⁾ وفى ٢٢ فبراير ١٨١٦ يندد الكونت دوباستار مفتش الشرطة الملكى « لدى ديكان وزير الشرطة بالأعمال التى يقوم بها «رجال خطرون مثل شامبوليون»* ويروى ويواسونيه الذين لعبوا دورا رئيسيا خلال المائة يوم وسرقة السلطة (كما أنهم) يزيدون من شعلة التمرد الضار فى صفوف الشعب (بواسطة) الأكاذيب الضارة التى يروجونها [...] كانوا على رأس «الفيدراليين» وكل من هو شريك يركز نظره عليهم .. » ومع ذلك يقر باستار أنهم «أفراد غاية فى الذكاء إذ أن سلوكهم الظاهرى لاينم عن أى شيء خطير يلامون عليه [...] لكنهم يلتقون [...] فى اجتماعات تضر بمصالح الحكومة»⁽¹²⁾ .

لكن بعد عشرة أيام فإن ديكان الذى كان يعتقد فى تعقل وحتى تلك اللحظة أن «الأقوال التى تبودلت» منها الكثير الذى «يكتفى بتسجيله» ومنها «القليل فقط الذى يستدعى ملاحقة أصحابه بسببه» انتهى إلى وجوب إبعاد «الأفراد المذكورين» عن مقاطعة الإيزار . ينتهز باستار الفرصة المتاحة وفى ١٩ مارس أرسل مدير الشرطة بالمذكرة الآتية :

«جرونوبل فى ١٩ مارس ١٨١٦ يعتقد السيد المحافظ أنه فى الوقت الذى عادت تنتشر فيه الإشاعات الكاذبة التى إن صدقها الشعب فإنها لا بد وأن تزكى تطلعات إجرامية - أنه من المفيد اتخاذ إجراءات نشطة ضد هؤلاء الرجال الذين لايقدمون

* كما سيأتى نذكره بعد ذلك بقليل .

** المستهدف هنا على ما يبدو هو جان - فرنسوا .

شيئا [...] منذ فترة طويلة والرأي العام يشير إلى الأخوين شامبوليون* علي أنهما من أعداء الحكومة ويزيد من خطورتها أنهما يجمعان بين المرائية الشديدة والمهارة العظيمة والفكر والمعرفة [...] .

كونت دوباستار

لم يتم تنفيذ أمر الإستبعاد سوى بعد عدة شكاوى واحتجاجات والتماسات .. وفي خطاب للمحافظ بعد سفر الشقيقين إلى «منفاهما» على الرغم من أنه كان قد ترك جاك - جوزيف يعتقد أن القرار سيلغى .. كتب إلى ديكان يبرر القرار بل يؤكد عليه ويطلب بتنفيذه .

«الأخوان شامبوليون ينويان التوجه إليكم بالتماس ضد إبعادهما . بالنسبة لي فأني أرى أن ذلك ضرورى في الوقت الحاضر وسيكون له أثر طيب للغاية على الأمن فى المدينة ..» يوجد لدينا الدليل على أن ذلك التدخل هو الذى حسم الأمر وهو عبارة عن خطاب من صديق قديم من فيجاك ، اسمه دوجيه وكان قد عين فى وزارة الخارجية وقام بعدة وساطات لصالحهما فى الأوساط السياسية والمثقفة فى العاصمة ونجح فى خلق اتجاه عام لصالحهما . ولكن ليس لدى الجميع ...» .

إذ كتب دوجيه إلى جاك - جوزيف يقول له «لولا الخطاب الشؤم لقائد الشرطة فإن قرار إبعادهما كان سيلغى إن ذلك يعتبر قمة فى عدم الولاء . لقد بدا لى البعض متعاطفا مع موقفكما . مسيو سيلفاستر دوساسى** الراهب السابق لن أنقل لكما هنا ما قاله . إنه شخص حقير - يجب أن يترك هكذا يفسد فى مكانه حتى يأخذ الرأى العام المستنير منه الموقف المناسب . وداعاً يا صديقى وخذا معكما زاداً كبيراً من الصبر وقبول الأمر الواقع . إنكما فى أشد الحاجة إلى ذلك لتحمل شرور الناس بكل شجاعة»⁽¹³⁾ .

فى خطابه «الشؤم» أشار مونليفو إلى أن الشقيقين شامبوليون بيديان «أسفا شديداً لأنهما سيذهبان إلى محافظة تكره حتى اسم بوناپارت» .. الواقع أن المدن التى ذكرت فى بادئ الأمر للمنفيين كانت : دينى وثالانس وأكس ؛ محافظتنا بروفانس والألب الجنوبية كانتا مشهورتين بميولهما الملكية ، وهذا هو السبب الذى جعل نابوليون يحرص لدى عودته أن يذهب فوراً إلى الدوفينييه .

* هما مجتمعان فجاة فى الاتهام .

** لم يحدد دوجيه كيف أن هذا «الراهب» اساء إلى زميله وتلميذه السابق ولكن من الواضح أنه رفض

التدخل لصالحهما .

«السادة شامبوليون» لما لم ينجحوا في الغاء قرار إبعادهما ، سعيا ونجحا في الحصول على وجهة أخرى وكانت فيجاك مسقط رأسهما حيث مازال يعيش والدهما وشقيقاتهما الثلاث وبعض الأصدقاء وحيث لايعكر المناخ السياسي أى تعصب . لم ينس جاك - جوزيف أنه عاش فيها دون أية مضايقات ولكن دون - عمل - فترات الإرهاب (الثورة) وتيرميدور ..

إلا أنه هو الذى شعر بوطأة عملية طردهما المشترك بأكثر مما شعر بها أخوه . وهو إذا كان قد نجح فى أن يصطحب معه إبنة «على» فهو ترك زوجته وطفليه الآخرين . وهو فراق أقسى عليه من قسوة فراق جان فرنسوا من روزين التى كان لازال يأمل فى أن يأخذها زوجة له - ومن أقرب أصدقائه إلى قلبه أو جوستان تيفونيه .

لابد وأن فوق ذلك كله بالنسبة لجاك - جوزيف شعوره بالظلم من أن يعامل مثلما يعامل أخوه - نتذكر أن جان - فرنسوا توسل إلى جاك - جوزيف لكي يلقى عليه هو كل المسئوليات السياسية الخاصة بالأيام المائة وخاصة «جاكوبينييه» الصحيفة . كان ذلك كرمًا منه وكان أيضا موقفا واقعيًا .

إذا تفحصنا سلوك الشقيقين خلال الأشهر الممتدة من ربيع ١٨١٤ إلى ١٨١٦ سنلاحظ لدى الأخ الأكبر تحولات عديدة فى مواقفه من خدمة ملك ثم الآخر (والعكس أيضا) وميلاً قويا إلى أن يقف دائما إلى جانب السلطة القائمة من علم مثلث الألوان إلى علم أبيض ، من وسام الزنبقة إلى وسام جوقه الشرف أى ما يسمى بلغة العامة : الإنتهازية . هذا الرجل المحبوب والذكى النشط جعل فى انتها زيته كثيرا من الرقة وقليل من سوء النية وهو موقف يندر جداً أن توقع عليه المحاكم أى عقاب وأقل منها الشرطة ، فهما - سواء هذه أو تلك - تعرف جيدا هذه الترددات الأيديولوجية وتعتبر بالنسبة لهم شيئا مألوفا .

أما سلوك جان - فرنسوا فهو مختلف جداً . فحتى بعد إنضمامه لرجل المائة يوم لايكف عن الإعلان عن «ليبرالية» أسامت إليه . وهو يعمل بناءً على ذلك فى توجيه «نداءات إلى الشعب» وينشر نخبه فى صحة الجمهورية* وفى كافة كتاباته السياسية . وفى نشاطته العلنية داخل نادى «الوحدة*» وداخل الفيدرالية . طوال تلك الفترة

* هذا النادى «المناهض للكازينو» كان جمعية سرية ليبرالية فى ١٨١٦ المحامى جوزيف رى يساعده الفنان الرسام سيمون تريبول وجان - فرنسوا شامبوليون ثم انضم إليهم بيراجية نولادوم وفليكس ريال . ستتكم فيما بعد عن السانداث التى أرسلتها باريس لهم .

المضطربة التي كان مصير البلد يتحدد فيها بين الألوان الثلاثة أزرق وأبيض وأحمر وتحت شعارات النحل (نابوليون) الزنبقة (آل بوربون) أو البنفسج (الجاكوبية) على مقامات جاكوبيه كبيرة أو كنسية صغيرة فإن جاك - جوزيف كان من الاعيان وجان - فرنسوا رجلا حزبياً . لماذا إذن يعامل هذا مثل ذلك ؟ كان لهما شركاء : بيريا سان يرى وبواسونيه وبولون وهي أسماء شاركت في «نادى الوحدة» أو في الفيدرالية ولم يمسوا بعد أن عبروا في الخفاء عن شيء من التوبة وهو ما كان الأخ يرفضه لولا أن «صغير» نصحه بغير ذلك .

هل لأنه أثار غيرة العديد من الناس هل لأن نجاحه كان أسرع مما ينبغي ، على العموم كان بروز جان - فرنسوا أوضح وألمع من ألا تطول الفضيحة التالية لهذا العمل البارز أخاه أيضا . هو الذي أراد أن يتحمل وحده كل شيء لكي ينقذ أخاه من إنتقام المتطرفين جر معه أخاه الطيب إلى حيث المغضوب عليهم .

وبناء على ذلك يجب أن نعتبر أن جاك - جوزيف هنا كان ضحية حماس جان - فرنسوا الوطني . إن ما يؤخذ عليه يبدو نافها للغاية ويمكن إرجاعه على الأكثر إلى التقلبات التي نسيج منها رداء الحياة في فرنسا في زمن رأينا فيه قاتلا للملوك يصبح وزير الملك وملكيا يصبح كاتم أسرار «الغول» في جزيرة سانت إيلان .

كان من الممكن بالطبع أن يؤخذ على جاك - جوزيف خرق خطير للقانون للدور الذي أداه في هروب درويه دارلون . ولكن هذا التحدى للسلطة لم يكن له أى دور في إبعاده ونفيه : فهو يقول فيما كتب إنه على الرغم من أن كل ذلك قد جرى على بعد أربع خطوات من مقر المحافظة فإن «مسيو دو مونليقو محافظ إيزار الجديد والجنرال دوناديو القائد العسكرى للمقاطعة لم يدركا أن الكونت دارلون قد مر لفترة قصيرة بجرنوبل (حسب ما جاء في تقريرهما) إلا بعد أن كان الجنرال قد أمضى فترة طويلة في موينخ»⁽¹⁴⁾ .

وكما يحدث في كثير من الأحيان فإن شامبوليون - فيجاك لم يعاقب على «الجريمة» التي اقترفها بالفعل ولكن التي ارتكبها مثله العديد ممن عاقبوه ألا وهي التكيف مع الظروف ..

ها هما الشقيقان مضطربان لترك جرونوبل فى ٢١ مارس ١٨١٦ ويصحبتهما الطفل «على» فى طريقهما للمنزل القديم فى حارة لابودوسكورى . وكان الأمر الصادر لهما يحتم عليهما ألا يقضيا أكثر من خمسة عشر يوماً ليقطعا المائة وخمسين فرسخاً التى تفصل بين جرونوبل ومسقط رأسهما وأن يقدموا أنفسهما إلى محافظ مقاطعة اللوت خلال الخمسة أيام التالية لوصولهما هناك .

قبل ذلك بيومين أرسل المحافظ مونليثو مذكرة سرية لزميله فى كاهور وسلم الشقيقين جوازيهما . وتستحق النصوص الثلاثة أن نذكرها لأنها تعتبر بمثابة صور جسدية وسياسية للرجلين - كما كان يراها بدقة عملاء الملكية :

«السيدان شامبوليون لفتا الأنظار بحماسهما فى اعتناق قضية بوناپارت وفى الجهود التى قاما بها لمساندته . الأخ الأكبر كان عميدا لكلية الآداب وأميناً لمكتبة المدينة . وكان قد طلب من بوناپارت لدى مروره فى هذه المدينة وحصل منه على رئاسة تحرير صحيفة «لوجورنال دوليزار» وهو بذلك أول من نشر مستندات الاستيلاء على السلطة - ومن هنا تبعه إلى باريس حيث عاد منها وقد نال وسام جوقة الشرف . إنه لماح ونكى وحسن الكلام مثقف جدا وشكله وسيم . جميع هذه الصفات تصبح ضارة للغاية عند إساعة استخدامها .

«الأخر مثقف جدا مثله وهو أيضا استاذ بالاكاديمية ويهتم كثيرا بالآداب الشرقية وكان خلال فترة السلطة سكرتير لجنة الفيدرالية - شكله ليس على نفس درجة ملاحظة الأول إلا أنه أكثر حيوية مما قد يجعله عند التحرك أكثر خطرا .

أما الجوازات أرقام ٢٠٤ و ٢٠٥ فهى تطلب من السلطات «أن تسمح بالمرور على الطريق المؤدى من جرونوبل إلى فيجاك مرورا بليون وأوربلاك [...] لسيو شامبوليون - فيجاك (چاك - جوزيف) أمين مكتبة* يرافقه ابنه البالغ من العمر ستة اعوام ونصف . موطنه فيجاك - ومقيم فى جرونوبل السن ٣٦عاماً الطول : ١,٦٧ مترا الشعر : كستنائى غامق ، الجبهة : متوسطه ، لون العينين : بنى ، الأنف : رفيع الفم : متوسط اللحية : بنى الذقن : مستدير الوجه : مستطيل لون البشرة : فاتح : علامات مميزة : لا يوجد

* الفيت جميع القاب الرجلين الجامعية .

و«لسيو شامبوليون الصغير (جان - فرنسوا) أمين مكتبة مساعد السن : ٢٥
عاما : الطول ١,٧٠ متر . الشعر : أسود ، الجبهة : عريضة ، لون العينين : أسود ،
الأنف : مفلطح* الوجه : مستدير تماماً ، لون البشرة : أسمر ، علامات مميزة : بعض
الأثار البسيطة للجدرى

عمل فى جرونوبل فى ١٨ مارس ١٨١٦

ثمن الجواز : فرنكان

أفضل خلاصة لهذه المرحلة نأخذها من جان - فرنسوا نفسه من خطاب أرسله
بعد عشره أعوام إلى المرأة التى أحبها فعلاً أنجيلكا بالى** :

«فى ١٨١٤ و ١٨١٥ تأثيرى على الشباب الدوفيين الذين يحبون الحرية والذين
كان معظمهم زملائى وتلامذتى جعلنى شخصاً بارزاً فى تلك الأيام المضطربة هزيمة
الحزب الليبرالى سلمتنى مكتوف الأيدى إلى الحزب المنتصر وهو فى قمة عنقه» .

* لم يذكر ذلك أى مصدر آخر .

** راجع الفصل ١٤

٧ - منفى وسط نويه

عبر الإرهاب الأبيض - «السيدان شامبوليون فى أجازة» مؤامرة ديديه - جان - فرنسوا والرقباء - «ماما الحبيبة التى فى فيجاك» - روزين وهيلويز - الدجاجة الجميلة والديوك - أو كسيلو دونوم - مدرسة «لانكستريه» - «سعة صدر السلطات» - والد «فى مستوى أدنى من الوحوش» - القواعد اللغوية المصرية - ستكون جرونوبل ...

ألقى باستار ومونليفو الشقيقين شامبوليون ومعهما الطفل «على» على طرق مازال يخيم عليها شبح الإرهاب الأبيض* وهى المؤدية إلى مقاطعة كارسى . كانت فرنسا حينذاك - وجنوبها على الأخص - تعيش مرحلة ما أطلق عليه اسم «مجلس النواب الثالثة**» والمحاكم الاستثنائية و«الجاكوبيين» البيض والانتقام العظيم «لطاقنى الأنوار» .

مدينة نيم عرفت من جديد لعدة شهور الحروب الأهلية الدينية بين كاثوليك وبروتستانت فقام بعض مثيرى الشغب من الكاثوليك باسم الملك بمطاردة البروتستانت مفترضين أنهم (يدينون بالولاء للمغتصب) . والمرحلة من تولوز إلى مونبيليه كان «الجنزاريون» نسبه إلى لون علم الكونت دارتوا الأخضر الذى كانوا يحملونه - يعتمرون إقامة «المملكة الأوكسيتانية» المؤيدة للمتطرفين - بدعوى أنهم بذلك يسرعون فى التخلص من المركزية الجاكوبية . أفينيون وأزاس كانتا واقعتين تحت رحمة مجموعة من الرعاى بقيادة «بلطجى» يدعى بوانتو يعيثون فيها عنفاً وفساداً : حتى أن المارشال درون أعدم دون أية محاكمة وألقيت رفاته فى نهر الرون كما أغتيل الجنرال رامال ثم قطع جسده إربا وهو على فراش الموت على يد قتله مخمورين .

يبدو أن هذا هو السبب الذى جعل المحافظ مونليفو يأمر بأن يسلك المنفيون طريق الجبل عبر الماسيف سنترال إلى ليون وأوربيياك الأقل عنفاً متحاشياً أسوأ الظروف أى أن يقعوا فى أيدي عصابات من ذلك النوع .

* لون العلم الملكى (المترجم)

** وهو الذى انتخب فى أغسطس ١٨١٥ . كان ٨٠٪ من نوابه من الحزب المتطرف «Vetras» ، والذى أطلق عليه هذا الاسم هو الملك لويس الثامن عشر المناهض له بسبب تعارضه مع مزاجه وتفكيره الكارة لائى شكل من أشكال التطرف فقام بخله فى سبتمبر ١٨١٦ .

أعطى جان - فرنسوا سرداً غريباً للغاية عن هذه الرحلة ضمن خطاب وجهه إلى أوجوستان تيفنيه - يجب عند قراءته إضافة السخرية المستترة فيه حتى يتضح التهكم الذى يغلفه المديح الموجه إلى السلطة تضليلاً منه للرقباء .

«عبرت في رحلتى محافظات الرون ولوار العليا والپوى دو - دوم والكوراز والكانتال واللوت . جميعها يقطنها سكان على درجة من العيش تمنعهم من رؤية لماذا يتحتم عليهم حب مليكنا الطيب [...] هؤلاء المتوترين كانوا يريدون أن يتمتعوا على الفور بالخير الوفير والوثام أيضا . وهذا غير ممكن الآن وعليهم أن ينتظروا أن يحتل خدام مولانا الطبيون ومحبو المبادئ السامية جميع المراكز وأن يحْمَلوا بجميع الامتيازات ..»

تكمل هذه السطور الساخرة سطوراً أخرى مشفرة لا بد وأنها «دوخت» السادة موظفى «المكتب الأسود» .. ولكن فيما عدا هذه العبثيات البسيطة فإن سلوك جاك - جوزيف وأخيه الأصغر كان سلوك المواطنين المنتظمين . استغرقت الرحلة الخطرة إلى موطن الرأس الفترة المقررة لها . فقد أمضيا أسبوعين ليقطعا المائة وخمسين فرسخا التى تفصل جرونوبل وفيجاك مع الأخذ فى الاعتبار الالتفافات التى أضطروا أن يسلكوها فوصلوا إلى هدفهم في ٢ إبريل ١٨١٦ .

ما وجداه هناك هل كان سجناً أم مأوى ؟ هل كانا فى رحلة ابتعاد تسمح بتقييم الأمور ؟ هل سيواجهان مسئولين من نوعية الرباعى المتعصب الذى عانينا منه فى الإيزار : مونليفو وباستار ودوناديو وبيينا ؟ هل سيجابهان فى اللوت عصاة سوداء أخرى «كازينو» آخر وهما نجلا تاجر الكتب الجاكوبى ؟

قط ! تشير المستندات الرسمية المتعلقة بهذه المرحلة الفريدة والتى يمكن مراجعتها كما تشير مراسلات «المتقيين» أن سلطات اللوت التى سلما لها بدأت بشيء من الريبة والتخوف - إذ لا بد وأن يكونا من المشاغبين الخطرين جداً ما داموا يعاملان على هذه الصورة - ولكن سرعان ما أبدت نحوهما تفهما ذكياً واستبدلت بالمضايقات والإزعاجات التى تعرضا لها على يد سلطات جرونوبل الجديدة مودة حقيقية جديدة باهل جاسكونيا* .

* الجاسكونيون مشهورون بأنهم يعيلون للمباهاة والمغامرة ولكنهم أيضا يتصرفون بذكاء وبراعة . وأصبحت الصفة جاسكونى تطلق على شخصية لها هذه الصفات .

أصبح مصير آل شامبوليون بين شخصيتين : الكونت دولوزي مارينزيا - محافظ اللوت والبارون دو كامبانتي - مساعده في فيجاك . لانعلم الكثير عنهما إلا أن ما نعرفه يشير إلى أنهما تصرفا كأناس محترمين يهتمهم السلام الاجتماعى ولا يبحثون عن عمليات إنتقامية . ويكفى قراءة تقاريرهما للتأكد من ذلك :

فى ٣٠ مارس ١٨١٦ عندما إستلم المحافظ لوزي مارينزيا رسالة من باستار يطلب منه فيها أن يضع هذين الشخصين تحت رقابة [...] قانونية» فإنه كتب إلى مساعده فى فيجاك يطلب منه إقادته عن جميع التفاصيل المتعلقة بهذين المنفيين ويسأله إذا كانت هناك خطورة فى أن يدخل القادمان فى علاقات «مع بعض الرؤوس السيئة فى المدينة» ولكنه يضيف فى الوقت ذاته مذكراً أنه إذا كان من الواجب الحفاظ على «الامن العام بوسائل تتسم بالعقل وبعد النظر» فإنه من الواجب أيضا «المساس بأقل قدر ممكن بحقوق المواطنين» و «الابتعاد عن أى إجراء متشدد لا لزوم له»

يقول مساعد المحافظ كامبانتي فى رده «أن هذين الشخصين هما نجلا تاجر كتب صغير أصله من جرونويل» وأن «الأخ الأكبر قد حصل على مركز مرموق لنفسه وأخر لأخيه بعد أن تزوج هناك زوجاً جيداً» ولما كان الأثنان غريبين تماما بالنسبة لسكان فيجاك بعد غيابهما الطويل عن أعينهم فإن إقامتهما فى هذه المدينة لا تمثل «أى خطر».

ويستطرد مسيو دو كامبانتي قائلاً «بدأ لى السيدان شامبوليون فى غاية التأثر من الاجراء الذى أتخذ حيالهما [...] قد ترون أن تلبى رغبتهما الملحة ألا يعطم العامة أى شىء عن سبب وجودهما فى فيجاك لقد أشاعا أنهما هنا فى إجازة [...] إنهما يتعهدان بالبقاء الدائم وسط عائلتهما وألا يقابلا سوى الأشخاص المعروفين بولائهم للقضية العادلة [...] يبدو طلبهما مقبولا بالنسبة لى [...] من جهتى سأعمل على عدم استخدام الوسائل التى قد تجرح شعورهما ..»

قام مساعد المحافظ بالطبع وبصفته ممثلا جيدا للسلطة العامة بمصادرة جوازيهما غير أن هذه المذكرة تعطى فكرة عما ستكون عليه علاقاته بجاك - جوزيف وجان - فرنسوا . إذ سنتطور من حالتها الطيبة هذه إلى نوع عن الصداقة وخاصة مع الأخ الأكبر ولعلنا نستشعر تدخله فى تحرير المذكرة السابقة وخاصة فيما يتعلق «بالقضية العادلة» و«عدم جرح شعورهما» . ليس واضحا إذا كان «صغير» قد عمل بقوه على نسيان أنه ضحية إنتقام المتطرفين . لكنه التزم برغبة أخيه ، صديق رجال السلطة ورجل الأوسمة والأصول وغير الميال للعب دور الشهيد ..

لذلك فإن السلطة التي خلطت عن خطأ في جمعها الرجل شبه الرسمي بالثائر ، عادت - وهي تمارس على يد رجال عاقلين مثل لوزيه - مارنيزيا وكامباني إلى التمييز بين الذي لا ينتظر سوى العودة إلى رضا «العصر» عنه والذي لا يجد غضاضة في وضعه كضحية بطش السلطة المكروهة .

الواقع أن مواقف الشقيقتين ستتباين بعد قليل فيما يتعلق بالإطار الذي يمضيان فيه مدة «نفيهما» لم يتوقف جاك - جوزيف عن الإحساس بأنه منبوذ ومهان في موطنه على حين لم يلبث أن اكتشف شيئاً من السحر في هذه المناطق النائية . لقد سبق وأن اكتشفنا أن جاك - جوزيف من فئران المدينة وأن جان - فرنسوا فأر حقول ..

بشائر الخير النسبي التي بدأت معها فترة الإقامة الإجبارية في فيجاك كادت أن تتحول إلى فال شؤم بالنسبة للشقيقتين بسبب حدث أثار اضطراباً كبيراً في جرونويل والدوفينية كله بعد وصولهما إلى الكارسي بفترة قصيرة : هذا الحدث هو ما عرف «بمؤامرة ديدبيه» .

في ٤ مايو ١٨١٦ قامت أربع مجموعات مشكلة كل واحدة منها من مائة فرد تقريباً بعضهم من الجنود المسرحين والبعض الآخر من الفلاحين السكارى قدموا من جريزيقودان والوازان من طريق فيزيل وايبانس - قاموا بالهجوم على جرونويل وحاولوا الاستيلاء على المدينة وكان على رأسهم وقام بتجنيدهم جان - بول ديدبيه المدير السابق لمدرسة حقوق جرونويل وكانت آراؤه السياسية تتردد بين الليبرالية والثورة المضادة والأهم من ذلك أنه كان رجل أعمال ديونه كثيرة للغاية ومستعد للقيام بأي عمل ينقذه من الإفلاس . كاد إهمال وعدم بصيرة الجنرال دوناديو أن يتسببا في أن تتغلب عليه هذه المغامرة الغبية .

لصالح من كان يعمل ديدبيه وعصاباته ؟ نابوليون الثاني ؟ إنتشرت الإشاعات تؤكد أن المتآمرين كانوا على يقين من أن ابن الإمبراطور (ملك روما)* أو الإمبراطورة كان في انتظارهم في المدينة ، أو لعل الأمير أوجان دو بوهاريه** كان معسكراً في

* كان في الخامسة فقط في ذلك الوقت فقد ولد في ١٨١١ [الترجم] .

** ابن زوجه الإمبراطور الأولى جوزيفين - عينه نابوليون نائباً لابنه نابوليون الثاني ملك روما [الترجم]

الجمال .. ترددت إشاعات أخرى تقول إن دوق نورليان الذى أصبح فيما بعد الملك لوى - فيليب - أو الأمير دورانج هما اللذان كان يعمل لحسابهما ديدييه .
بالنسبة لأخرين كانت عملية استفزازية من تدبير فوشيه (وزير الداخلية فى عصر نابوليون) .

كان من الطبيعى أن يؤكد البعض أن الأوساط الليبرالية والبونابرتية فى جرونوبل كانت ضليعة فى العملية إلا أن شارل رونودون إبن العمدة السابق الذى كان على رأس هذا التيار السياسى وصديق جان فرنسوا شامبوليون الحميم تمكن من أن يثبت أنه قد رفض المشاركة فى هذه المغامرة كما أنه منع أصدقاءه من التورط فيها . علاوة على أن سمعة ديدييه فى الأوساط الليبرالية الجرونوبلوزية كان مشكوكا فيها جدا وأنه جند الرجال من المدن المجاورة فيزيل ولامور وايبانس ومن الأرياف .

جاء القمع دمويا : أعدم ثمانية عشر متآمرا (من بينهم ولد فى الخامسة عشرة) رميا بالرصاص فى ساحة المدينة قبل أن يتم القبض على ديدييه الذى فر إلى سافوا وترحيله ومحاكمته محاكمة سريعة وقطع رقبتة على الجيوبوتين فى ميدان جرونات فى العاشر من يونيو وأدى هذا القمع إلى الدفع بالمدينة فى أحضان المعارضة المريرة لاسرة بوربون . إذا كانت جرونوبل تفتخر بأنها عبرت مرحلة الثورة دون إراقة دماء ابتداءً من الاجتماعات التى مهدت لها فى فيزيل (١٧٨٨) فى المائة يوم . فأعتبرت هذا القمع الدموى «إهانة» لها⁽¹⁾ .

على الرغم من نفيهما من جرونوبل منذ ستة أسابيع عندما إندلعت العملية فقد كان للشقيقتين أصدقاء كثيرين من أعداء النظام حتى يشك فى ضلوعهم بطريقة أو أخرى مع المتآمرين أضف إلى ذلك أن ديدييه كانت له علاقات عمل مع بيريا - سان برى أخى زوجه فيجاك . وكان هذا يكفى لكى تتوجه شكوك الرباعى الرهيب فى قمعه نحوهما .

غير أن مؤتلفو ذاته اضطر إلى أن يصرف النظر عن أى ملاحقة لهما وكتب إلى وزير الشرطة :

«على الرغم من أن ميول الشقيقتين شامبوليون تدفع بسهولة إلى الاعتقاد بأنهما لم يكونا بعيدين عن القلاقل الأخيرة فى جرونوبل إلا أنه لايتوفر لدى ولاخطاب واحد

ولأى محرر من السيد شامبوليون الكبير له علاقة بالموضوع ؛ يوجد خطاب واحد من الأخ الأصغر كتب بأسلوب غامض قد يدفع إلى بعض الشكوك إلا أنها شكوك واهية وهى أيضا صعبة التفسير بقدر ما يسهل نفيها .

خطاب من «صغير» ؟ لم يكن الكونت دومونليفو يجهل شيئا بالطبع عن مراسلات جان - فرنسوا مع أصدقائه فى جرونوبل فهو كان يدقق فيها تدقيقا بواسطة موظفية . ولما كان جان فرنسوا على علم تام بهذه الوسائل التفتيشية فقد إنتهزها فرصة لكي يقصص عن رايه للرقباء . مثال ذلك فى هذا الخطاب المؤرخ ٢٥ إبراهيم ١٨١٦ بعد ثلاثة أسابيع من وصوله إلى كارسى* ، المرسل إلى صديقه أوجوستان تيفونى :

«يجب عدم تفسير صمتى على حساب قلبى . لولا الشرطة الموقرة التي تعتقد أن من واجبها أن تراقب مراسلاتى لكتبت لك أكثر مما أفعل الآن . وعلى الرغم من أن خطاباتى لاتحتوى على شيء يمكن أن يثير حفيظة أكثر الفنانين حساسية [...] ولايعلم هؤلاء السادة أن لدى الأصدقاء آلاف الأشياء التي يودون تبادلها ويعتقدون أن أى مراسلة مستمرة تعنى «خطئة» أو «مؤامرة**» لا أعرف [...] إذا كانت عيونهم عيون صقر أو حتى دجاجة*** ويمكنها أن تقرأ مضمون هذه الرسالة عبر ورقها فإن من دواعى سرورى أن يجدوا هنا تعبيرى الصادق عن عمق إزدرائى ولى الشرف أن أكون - بالطبع جدا والمتواضع جدا [لم يكتب قلمه شيئا بعد أكون] .

بعد بضعة شهور أى فى نهاية ١٨١٦ فضل شامبوليون ، بدلاً من تحويل خطاباته إلى تحد دائم للرقباء ، أن يجعلها تمر فى سرية عن طريق محام اسمه ماتر لوبينى من مدينة فيلفرانش .. دو روروارج . على بعد أربعين كيلو متر من فيجاك الذى أصبح «صندوق بريد» للال الألفاز الذى أصبحت كتابته مشفرة ...

هل حدث قبيل سفر الشقيقين شامبوليون أو منذ سفرهما أن طلب منهما أن يعلننا «خضوعهما» لـ «إيتفاديان أمر النفى» ؟ كتب محافظ الإيزار فى إحدى رسائله لوزير الشرطة أن «إبعاد» الشقيقين «كان له تأثير عظيم على مؤيديهم» وأن «اثنين من كبار المتعاطفين معهما - جاء اليعلنا خضوعهما ومعهما المحامى بواسونيه - خشية أن يلقون المصير ذاته» .

* قبل عملية ديدبيه ببضعة أيام

** السطر موضوع فى النص الأسمى تحت الكلمتين

*** فى النص الفرنسى Becasse أو فرخة الأرض وأسمها الشعبى هو Solle أو غبية (المترجم) .

وقد علم «صغير» بذلك فضحك كثيراً على ذلك وكتب خطاباً آخر لتأنيته :

«إن الاعتدال الذي عبر عنه بواسونيه* منذ ٩٢ وفي الفيدرالية عام ١٨١٥ يستحق هذه الخدمة بدلاً من الروح الثورية والتعطش للدماء والعنف المتطرف التي هي أراء صديقك ، مناضل الثورة القديم الجاكوبيين في جرونوبل كما يعلم الجميع .

على الرغم من أن النظام الذي فرض على صديقينا المنفيين قد أصبح انسانيًا جداً بفضل مسيو دو كامباني فإن عميد كلية آداب جرونوبل السابق كان يتحمل وضعه «ليس سجيناً ولكن...» بشكل سيء للغاية جعله يقوم بعدة محاولات في كافة الاتجاهات ليخرج من هذا الوضع .

أعد ابنه إيميه في كتابه «الشقيقان شامبوليون» قائمة (ص١٦١) بالخطابات التي أرسلها جاك - جوزيف إلى الحكومة (٢٣ مارس و ٤ إبريل و ١٦ سبتمبر) وإلى محافظ الإيزار لكي يرفع عنه العزل . كما أنه يذكر المخاطبات التي أرسلها محافظ اللوت لنفس الغرض إلى وزير الداخلية (لينيه) والشرطة (يوكان) وكان قد تأثر مع الوقت بالأسباب التي يقدمها شامبوليون - فيجاك . وكان صديقه الوفي لوجهه يساند كل ذلك في مكاتب الوزراء .

تجمعت هذه الأسباب في خطاب وجد وسط أوراق الأسرة وهو موجه لأحد الأشخاص المذكورين :

« .. السيدان شامبوليون لايزالان من الشباب وهما يكبران وقتهما كله للدراسات الجادة [...] يكادان لا يختلطان بأحد** إذ كان يجعلان من إختصارهما عن العالم تعوّد ضروري [...] هل لانهما إنتزعا من عاداتهما هدفهما بصورة مؤقتة - لبضعه أيام*** بسبب أحداث لا يصدقها عقل ، أصبغا فجأة رئيسا حزب كان موجوداً قبل أن يولدا وعلى الرغم من بعدهما التام عن الفضائح الرهيبة فهل يمكن أن يحرضا على ترك النظام وعدم احترام الأشخاص والممتلكات؟»

* كان المحامي بواسونيه منذ أكثر من عشرين عاماً أحد زعماء التيار الجمهوري في محافظة الإيزار الأكثر نضالاً .

** شامبوليون فيجاك الألمي يتعامل هنا مع الحقيقة على هواه ..

*** مائه يوم على العموم ...

كله حرير هذا الجاك - جوزيف ، يلتف ويتمايل ...

باختصار فإن المدرسين الشقيقتين وإن كانا يعاملان باعتدال من سلطات محافظة اللوت ، معاملة تحوات مع الوقت إلى تعاطف ، فقد استمرا على هذا الحال مهمشين لعدة شهور وكان أن استخدما كل موهبة لديهما وكل سحرهما (بالإضافة إلى التعاطف الذى أحيطابه وخاصة فى الوسط العائلى) لكى تتبدد الرقابة عليهما وتتبخر المخاوف منهما وأن تعود الأمور إلى طبيعتها .

من المعتقد أيضا أنه لم يتجمدا فى موقف من اليأس طويل الأمد بل إنهما بدءا يؤمنان بقرب الرجوع السريع إلى رضاء السلطات عنهما بعد أقل من ستة شهور من إقامتهما فى مدينة مسقط رأسهما . فى ٢٠ سبتمبر ١٨١٦ كتب جان فرنسو إلى تيفوينه .

«يبدو أن حل الملك للجمعية الوطنية ينبىء بحدوث تغيير سعيد فى توجه الأحداث . سيحصل المتطرفون على كل شىء وصاحبك قد يكون على حق . فهو يعتمد اعتماداً كبيراً على الروح الدستورية الحقيقية إلى تحرك الوزارة* ، التى ستسرع برفع الظلم وتصحيح الأخطاء التى ارتكبت باسمها [...] يبدو أن الوزير الذى حل مكان فورييه سيأخذ توجهها آخر ، فهو إذ يرى أن قضية المتطرفين أصبحت خاسرة يتوقف عن إنتهاج عن سياسة التساهل الزائد التى كان يعاملهم بها [...]»

ويكمل صغير خطابه بما نقل إليه من أن مونليفو لايعارض عودة الشقيقتين إلي جرونويل إذا كانت عودتهما لن يكون لها تأثير كبير على الرأي العام فى وضعه الحالى .. أن «تمتعهم بكل هذا التأثير فى جرونويل كان نقمة عليهما وكذلك كل هذا العدد من الناس المتمسكين بهم» ومع ذلك فإذا «طلب رؤية فإنه سيكتب تقريراً يؤيد فيه بالتأكيد طلبهم...»

الأسرة ... !! عندما عادا فى أبريل إلى منزل حارة لابود وسكورى حيث أمضيا السنوات الأولى من حياتهما : الأول حتى السابعة عندما وضع فى رعاية «لاكاتينو» والآخر حتى سفرة إلى جرونويل وهو فى العاشرة ، لم يجد جاك - جوزيف وجان - فرنسو سوى والدهما وأختيهما . كانت الأم قد توفيت منذ عشر سنوات تقريبا. يترونتى تزوجت من أحد الحرفيين من المنطقة - أما يترين التى تدير المكتبة أو بالأحرى ما تبقى منها ومارى التى ترعى المنزل .

* وزارة ريسوليد - نوكاز

تيريز كانت فى الثانية والأربعين وتعنست وستبقى هكذا ومارى وكنيتها «ميون» وهى فى الرابعة والثلاثين : هى أيضا لن تتزوج ولعل كان ذلك بسبب أن ليس لها مهرا* أو «ضطة» . إنها المفضلة لدى جان - فرنسو الذى يصغرها بخمس سنوات وقد وجدت فى «على» ما يعوضها عنه . لاشك أن الجو العاطفى الذى كان سائداً قديماً عاد إلى الظهور فوراً بين «صغير» وأختيه إذ كانتا تدللانه جداً لأنه طفل المعجزة حلثا فى كثير من الأحيان مكان والدتهما فى العناية به لذا بعد أسبوع من وصوله كتب جان - فرنسو يقول لتيفونيه :

«وجدت أسرتى متشوقة لرؤيتى من جديد بالقدر الذى كنت أتمناه . سعادتى كانت ستكون مكتملة تماماً لولا أنى تركت أشياء كثيرة ورائى هناك [...] أنا دو بنى حتى النخاع بدت لى فيجاك كبلد جديد ..»

لكن هناك الوالد جاك شامبوايون تاجر الكتب المتجول الدوفينى فتوة سوق بوكار المرح . زوج السيدة العليلا جان - فرنسواز جاليو التى سمحت له ضغطها بشراء الدكان ، رجل الشرطة فى ١٧٩٣ ، الرجل الذى يودع أحد أولاده فى حضانة سيدة غريبة عن الأسرة ويدع الآخر يترك المنزل وهو فى العاشرة إلى مدينة بعيدة - هذا الرجل لم يعد - وقد بلغ الثانية والسبعين - سوى صورة كاريكاتورية لما كان عليه وهو كاريكاتور زاعق ومثير للمشاكل .

إنه يعاقر الخمر بكثرة . هل يعود ذلك إلى أنه يريد مواساة نفسه عما آلت إليه المكتبة ؟ أم أن العكس هو الصحيح وأن مكتبته بدأت تنهار بسبب سكره ؟ بعض المؤرخين المتعاطفين يقولون إنه «ترك نفسه يسير وراء أصدقاء السوء» ، حسنا . الواقع هو أن الرجل الذى قابله الشقيقان لدى عودتهما كان منهارا جسدياً وساحباً أسرته وراءه فى طريق الإفلاس التام .

هل فاجأهما هذا الوضع ؟ سبق أن أتاحت لنا فرصة الحديث عن العلاقة الغريبة بين المكتبى وإبنيه . أى أب آخر كان سيذهب لتحيتهما فى لحظات مجدهما عند إفتتاح جامعة جرونوبل أو عندما رقى الابن الأكبر إلى مركز عميد الكلية . فبالنسبة لرجل كانت حياته كلها مكرسة للكتب والتجارة فيها ، كم هو منعش ومفرح أن يرى إبنيه الأول وهو بعد فى الثلاثين والآخر فى الثامنة عشر وهما يرتديان زى الاستاذية الجامعى :

* فى معظم بلاد الغرب العروس هى التى تأتى بالمهر . (المترجم)

خصوصا أن بائع الكتب الجوال السابق لم يكن قد فقد ميله للسفرات إذ كان لا يزال يواظب على السفر كل عام في شهر يوليو إلى بوكار ليتزود بالكتب . فإذا هو لم يحضر للقاء ولديه عند وصولهما لقمة النجاح في موطن رأسه في الدوفينييه فلا بد أن سبب ذلك إما كان عائداً إلى قرار بوليس يمنعه من الحضور (ولكن الأوامر كانت في تلك الحقبة تتغير باستمرار حسب الظروف السياسية ثورة ، بونا بارت ، آل بوربون ...) أو إلى أن مستقبل إبنيه كان يهيمه بقدر اهتمامه بالقنينة المحبة وسيدات اللوت صاحبات السمعة السيئة .

الواقع هو أن العلاقات بين الأستاذين والعجوز سائت جداً ولم يكن جان - فرنسوا يناديه سوى بـ«الريس» - وهو تعبير لاينم أبداً عن حب ابن لأبيه .. وقد يكون هذا هو السبب الذي ترجع له حالة الاكتئاب العميق التي انتابت الأخ الأكبر لعدة شهور والأخ الأصغر لعدة أسابيع من اقامتهما في فيجاك .

علامة على ذلك فهناك أسباب أخرى كانت تجعل الشقيقتين يعتبان على والدهما ، غير الإفراط في شرب الخمر وما يسببه ذلك من آثار على الشخصية كانت هناك أسباب أخرى أهمها أنهم كانوا مفلسين تماماً وليس معنى ذلك أنهما كانا يضعان أمالهما (بالنسبة لجان - فرنسوا على الأقل) في الميراث ، ولكن مستقبل شقيقتيهما العوانس هو الذي أصبح فجأة في مهب الريح بسبب فسق الوالد العجوز - خلفية كئيبة لحياة ضاعفت الظروف السياسية المتقلبة من وطأتها الثقيلة أصلا .

فلنحاول تصور هذه الحياة التي تجمع ستة أفراد (منهم «على» الصغير) داخل المنزل بحارة لابود وسكوري الذي لاتعرف الشمس طريقه ولا حتى الدور فوق الأرضي منه حيث تقيم العائلة ، وبتصور أيضا الحالة المزرية التي وصل إليها المكان بسبب مالية الوالد وبتصور أيضا حالة المكتبة التي تبعد عن المنزل ببضعة عشرات من الأمتار في الساحة القريبة والتي هرب منها زبائننا بسبب الرجل السكير . كانت تریز بالطبع تحسن استقبالهم .. ولكن هل كان جاك يقوم باللائم نحو امداد المكتبة بالكتب ؟

كم كان الوضع الجديد يعتبر سقوطا رهيبا بعد ما عرفاه من حفاوة بهما في المجتمع الجرونوبلوازي : الليلة عنه فوريه ثم عند بيريبه أو اسره رونولون ، أو عند ال مارسيو أو تيسار . كم كان وضعهما الان مريرا ! عبر جاك - جوزيف عن ذلك كثيرا في خطاباته لزوجته والتي ينتهي أحدها بهذه الكلمات اليائسة «... لا تجدى هنا بعد

جهد جهيد أربعة أو خمسة أفراد يمكن تبادل حديث عاقل معهم [...] الدقائق هنا تمر كالأيام والأيام كالشهور والشهور كالقرون ..»

نفس النغمة تجدها في البداية لدى جان - فرنسوا . إكتشفنا خطاباً وجهه لتيفونى مؤرخاً في الأول من مايو يوضح ذلك تماماً : « .. أمضى وقتى هنا بحزن شديد .. أنتائب وأسب طوال النهار [...] لا أعرف متى سأتمكن من رؤية جبالنا الجميلة مرة أخرى ، لم أتصورها في حياتي جميلة بهذا الشكل ..»

ماذا ؟ لا أصدقاء ؟ هل بقوا جميعاً في جرونويل أو في باريس مثل دوجيه ؟ لنستمع إلى هذا الغنودر الخارج من إحدى روايات ستندال .

« ... شباب مدينتنا - مثلما هو الحال في كل البلاد الخصبة التي لا توجد بها صناعات محلية - لا يهتمون سوى بالخيل واللعب ويماسى* الجنس اللطيف [...] لا يوجد مجتمع - إن هواء الشياطين من أصحاب الآراء السياسية يفككون أوصال الصالونات تماما ..»

هذا من كان يكتبه طوال الشهر الأولى من إقامته في اللوت وفي نهاية الربيع . إلا أن النغمة ستتغير . ومع الأخذ في الاعتبار الجو العائلي الثقيل على نفسه سنجد شامبوايون الصغير يتفتح كالزهرة في مسقط رأسه - هذه المدينة الصغيرة - بعد أن مسه الجو النقي بحيويته وبعد أن أضفى وجود شخص كريم بجانبه إشراقة لنفسه ، نراه يفكر في روزين (ولعلها زادت سحرا مع البعد) ويستعيد دوره الحيوى كمنشط للحركة الفكرية ومحط أنظار الصالونات وهو الدور الذي كان يؤديه طوال السنوات الثلاث أو الأربع التي قضاها قبل الآن في محيط جوزيف فورييه .

وجود كريم ؟ سبق أن ذكرنا بعض مقتطفات من خطاب أرسله إلى صديقه العزيز أو جوستان تيفونيه يتكلم له فيه «صغير» عن «ماما الجميلة والحببية في فيجاك» .

لم يكن هذا تلميحاً عابراً منه إذ يضيف «صغير» «انه كابن مطيع «يحترمها» قد قبل ميررات هذه «الأم» خاصة وأن تدخلها كان يستوجب تقديراً أكبر لأن دفاعها كان «لصالح رجل يتسلى كما تعلم بالقيام بأعمال تضايقها وهي في ثبات عميق» . وفي نهاية الخطاب وبعد أن أوضح له كيفية إرسال خطاباته عن طريق مدينة فيلفرانش يقول

* تحفظ مرحلي جداً .

جان - فرنسوا لتوثيقية : « هذه فكرة أخرى من أفكار ماما . أنظر كم هي طيبة وكم نحن مدينون لها » .

بعد ذلك بـ عدة أشهر في ٦ مايو ١٨١٦ نقرأ ما يلي من خطاب مرسل لتوثيقه أيضا : « إن سفر أختي هزنى جداً : كما أن هذه الأم الطبيعية والعظيمة التي كلمتك عنها عدة مرات سافرت هي أيضا إلى الريف . أنا إذن وحيد .. »

من هي هذه « الوالدة الكريمة » التي يكن لها هذه البنية العاطفية ؟ بعد وفاة جان - فرانسوا بعشر سنوات والتي كان يضايقها وهي نائمة هل هي إحدى شقيقاته ؟ نشك جداً في ذلك هل هي إحدى المرضعات القاطنة في حارة لابودوسكوري / إن الدفا - عن صديق مذب يدفع إلى الاعتقاد بأنها امرأة متعلمة هل هي إحدى الجارات ؟ تتعدد الافتراضات ..

هناك افتراض آخر سنرى فيما بعد* عند الحديث عن الأزمة المالية التي ستواجهها الأسرة والتي سيتعامل معها بشجاعة صديقنا المكتشف . إنه حصل على مساعدة سخية جداً من « الأصدقاء الحقيقيين » آل جانسيون . ومن جانبه يذكر صاحب كتاب « الشقيقان شامبوليون » أن هذين الزوجين نوى النفوذ الكبير والثروة الضخمة (الزوج سيصبح عمدة فيجاك** فيما بعد) قد أحسنا إستقبال المنفيين . كانت مدام جانسيون (إسمها قبل الزواج كان ماري دو فلوران) في السادسة والأربعين فهل هي هذه الأم التي تكرر كلام جان فرنسوا عنها*** .

سنكتشف مع استمرار مطالعتنا لمراسلات المكتشف وجود سيدة إسمها أديل سيقول عنها لأخيه أن تعلقه بها يوازى تعلقه به . وهو ما يؤكد درجة من الإرتباط ليست هيئة كما يؤكد بحثه عن الأم وهو بمثابة إحدى العلامات المميزة والمؤثرة في حياة هذا الرجل ذي الأحاسيس المحبطة .

هذا الرجل الذي لم يذكر ولا مرة واحدة عبر مراسلاته المليئة بالحياة والعواطف أمه المذكورة في شهادة ميلاده التي لم يرها قط منذ أن تركها وهو في العاشرة ، نراه الآن بعد أن تخطى الخامسة والعشرين وفي خضم أعتى العواصف السياسية

* انظر ص 300

** من عام ١٨١٧ حتى ١٨٢٥

*** حصلنا على هذه الإشارة الكريمة من مدام سيمون فوساك .

واقعا تحت الحاح مستمر لموضوع الأم . الواقع أن حياة جان - فرنسوا هذا الإنسان العاطفى والإنفعالى والذى سبب له حرمانه من الأم ألاما مؤكده . هذه الحياة قد تغيرت بسبب هذه « الأم الموجودة فى فيجاك » .

بعد أن انتزعه هذا الظهور العاطفى فى حياته من الحزن ، وجد جان - فرنسوا الوقت اللازم للتفكير فى الأنسة التى كان قد طلب يدها . وكان الأب بلان غير ميال كما رأينا لأن يلبى له هذا الطلب كما أن نفى العريس لم يكن من الأمور التى كانت تجعله يغير رأيه : مدرس مفلس وثورى مندفع وفوق كل ذلك منبوذ ! كل ذلك ما كان ليقتنع عاقلا ..

مع ذلك الشاب لم يستسلم . كتب لصديقه جيمس بوزى « .. كلمتى عن روايتى . لا أعرف إذا كان الأب . قد سحب كلمته [...] إن هذا لا يؤثر فى كثيرى لأنه متقلب المزاج [...] كما أن للقمر أوجه متعددة كذلك الحال بالنسبة لحمايا القادم» حما المستقبل ؟ بعد ؟ هكذا هم الشباب طبعاً !! إذا كنت فى طريقك إلى اكتشاف اللغة القدسية لأقدم شعب فى التاريخ فإنك لا تأبه كثيراً بالتقلبات المزاجية لصاحب مصنع صغير .

وحتى يحين زمن الجد فلنفكر فى فى روزين وبتكلم عن روزين مع تيفونيه بالطبع فى ٢٥ أبريل ١٨١٦

«وصلنى الآن خطابك يا عزيزى الصغير ووصلنى فى اليوم ذاته واحد من (روزيتى) أن القدر الذى بليت به أصبح أكثر احتمالاً مادمت أحصل على مواساة الحب والصدقة»

الأمر إذن لم يعد نفخة عاطفية قصيرة فقط . وبعد عام كامل يعبر لصديقه ذاته فى إحدى رسائله أنه يهنئ نفسه لما يلقاه من «حب كهذا من جانب صديقة حقيقية حنونة» ...

بالنسبة للمنفى فإن الحب والصدقة لايتعارضان بل يتفاعلان كما يوضح ذلك هذا الطلب الملح الذى أرسله لا وجستان :

« .. إنى أوصيك بالاحاح أن ترى أحد الأفراد كلما أمكن ذلك : إنها تحب صحبتك وأن ما يسعدنى أن أجدها تتفق معى فى ذلك ؟ حاول أن ترفه عنها قدر الإمكان

وإمنعها من أن تترك نفسها للأفكار السوداء التي تراودها كثيرا وتؤهلها أملاً عظيماً .
اخترع لها روايات* لو رأيت أن فى ذلك ما يريحها ...»

مهما كانت رغبته فى أن يضمن الترفيه عن روزين فإن «صغير» لا يعبر عن هذا التفكير الليبرالى المشهور عنه فى مجالات كثيرة أخرى عندما يتعلق الأمر بقراءات الفتاة . فهو لا يقبل تلبية «نزوة» هاتين الفتاتين** المتمثلة فى طلبهما قراءة كتاب «لانوفال إيلويز***» عندما نقل تيفونيه رغبة الفتاتين فى أن يشتري لهما رواية روسو ، رد جان - فرنسوا ، نعم جان - فرنسوا شامبوليون!! «إن أقل ما يقال عن هذا الموضوع هو أنه غير ضرورى» ..

ويضيف صاحبنا المكتشف مؤكداً أنه إذا كانت من الممكن لإبنة العم أن تقرأ مثل هذه الرواية «لأنها باردة بطبيعتها» فإن روزين «لها عقل نشط يمتلىء بسهولة بأوهام لامعة ولها أحاسيس شاعرية قد تجد متعة زائدة عند قراءة هذه الصفحات المتوهجة من أدب روسو بما يؤذى شخصيتها [...]» قد أتمكن بعد ثلاثين عاماً من إعلامهم برأى [...] حتى ذلك الحين يمكنهما أن تتخيلا أنهما قرأتا الرواية وستكون النتيجة واحدة ...» .

هذه الكلمات الأخيرة عندما يكتبها رجل مثقف حر تصبح مثيرة للحيرة .. وكلمات أخرى عن «متعة زائدة» فهى تفوح منها رائحة التزمت الدينى التابع من «أصحاب الرداء الأسود» لدرجة تزكم الأنوف . بوسويه ذاته لم يكن يندد بغير ذلك لتأنيباته لأنهن قرأن «مسرحيات السيد راسين» . «صغير» فى دور القس أخذ الإعتراف ؟ لعلنا نواسى أنفسنا بأن نتخيل أن روزين عصت حبيبها البعيد - إلا إذا كان تيفونيه ذاته هو ...

«إحتفظ فيجاك بتراث التعليم المرح - كما يقول إيميه شامبوليون - فيجاك - وكانت صالونات عائلات ديلبون وجانسيون وبراديرول وتواييه**** .. إجتماعاتها حية وتبحث دائماً عن الترفيه الجيد» . سرعان ما اكتشف الاستاذان اثناء «إجازتهما» أنه على الرغم من المظاهر الخشنة بعض الشيء ، فإن المدينة الصغيرة كانت بها ثروات

* حول «قصة» أنه فى «إجازة» فى فيجاك - على سبيل المثال .

** روزين وإبنته عمها .

*** «جولى أو لانوفال بلويز» رواية لجان - جاك روسو عنوانها الفرعى يدل أكثر على مضمونه

«خطابات متبادلة بين عشيقين يقطنان مدينة صغيرة على سفح جبال الألب» (الترجم)

**** عائلة جدة الشقيقين شامبوليون .

محببة لهما : جمال المكان أولاً وسحر التنزه على صفاف نهر اللوت وفي الشوارع العتيقة للمدينة القديمة التي ترجع إلي القرون الوسطي المغطاة بحجر بازالتى صغير وبسحر قاعة السوق وساحة السوق الواسعة ويقصر النقود المسمى قصر سوللى . وبالميدانين العالى والمنخفض وميدان العقل (لاريزون) .. فهل كان الإنتقال من شارع لاجران رو بجرنونيل إلى شارع الكابوسان فى فيجك بمثابة الوقوع من عل بعد أن أصبح البارون دو كامبانى يتعامل معهما كصديق أكثر من نائب المحافظ وبعد أن أصبحت الرسائل تمر عبر فيلفرانش ... هل مازالا يشعران بأنهما محبوسين فى قفص ؟

جاك - جوزيف ، نعم - جان فرنسوا لا . مراسلات الأخ الأكبر لم تكن سوى مناشدة مطلولة من أجل العودة إلي الحرية . أما رسائل الأخ الأصغر فهي تألات فى نزوات السحر الغريب الذى يغلف الاغتراب وعن المزايا المقارنة بين مقاطعتى ارفينييه والكارسى وعن النساء هنا وهناك وإذا إتفقنا على أن البعد عن روزين لايمزق وجدانه بل إنه يسمح له بتجميل علاقته بها عن بعد وهى فى الواقع علاقة عقلانية أكثر منها علاقة قلوب ، وأن دخول هذه «الأم الفيجاكية» فى حياته فتح له أفاقاً لم يكن قد عرفها من قبل من العطف ، فإن كل ذلك يجعلنا نتجرأ فنقول أن هذا الجان - فرنسوا وهو فى سن الخامسة والعشرين كان سعيداً ، فى فيجك على الرغم من سلوك وثورات أبيه .

سعادة متواضعة ، منكمشه ، محدودة ؟ سعادة برجوازي ريفى سعيد بالذات الصغيرة التى يجلبها الهواء النقى والغذاء الشهى ؟ هذا هو الواقع ، لم يكن هذا هو شامبوليون المواقف السامية .. إذ لايمكن أن نجد هنا عصر خوفو ولا أسرته الثامنة عشر ، ولكننا نسجل أن هذا الرجل العبقري والذى سيموت مبكراً عاش هذه الإستراحة فى مسقط رأسه بشيء من الرضا بدرجة سمحت له بأن يتخلص من حمى الاستكشاف لفترة طويلة ليهدأ قليلاً ، وأنه أنتظر ستة عشر شهراً كاملاً من الإقامة وسط مسرات منطقة الكارسى المتواضعة قبل أن يطلب من صديقه تيفونيه أن يرسل له معدات وأدواته كباحث .. «هدنة» تثير الدهشة تشبه كما لو أن المارد أنتيه* الذى وطأ الأرض فى مسقط رأسه قد أسكت عبقريته المأساوية وأكتفى بممارسة الحياة ..

* مارد من الميثولوجيا اليونانية ابن بوسيدون وجاليا إلها البحر والأرض . وكان كلما اراد أن يشحن نفسه بالقوة وضع رجله على الأرض التى كان قد ولد بها ، خنقه هيراقليس بأن جعله معلقاً بين السماء والأرض [المترجم] .

حياة الجسد ، حياة محببة لديه – أفضل ما قاله عنها جاء فى خطابات كتبها جان – فرنسوا لصديقه جان فيسيه* فى فيجاك (بعد أن عاد إلى الدوقينية) من نهاية ١٨١٧ حتى خريف ١٨١٨ ، فى هذه الخطابات تظهر الثمانية عشر شهرا التى قضاهما فى منفاه فى صورة تلونها حياة إجتماعية باسمه للغاية . هل يعتبر ذلك من باب التجميل الذى يسببه الحنين إلى الوطن ؟ ولكن ليكون هناك إحساس بالحنين لوطن ما يجب أن يستثيره الجو مثلا أو الإقامة أو بعض الأشخاص ..

«جرونوبل فى ١٧ ديسمبر ١٨١٧

ما هو رأيك فى شخصى ، يا جان قلبى فى الساعة الواحدة التى هى الآن ؟ [...] ذكراك تشارك جميع الأفكار السعيدة اللذيذة والمحبية التى جلبتها معى من فيجاك [...] أجد أن جرونوبل من عدة نواحي تبعد مائة ألف فرسخ من فيجاك [...] تعرف طبعاً أن الميزان يميل بصورة طبيعية فى صالح موطن الرأس**

... إنك بجابنى أكثر مما تتخيل وأنا أقطع الطرق من شارع دى كاپوسان وميدان دولاريزون . بل لايمكن أن أكون فى ضوء القمر إلا وأراك تحرك يديك فى الميدان العالى (بلاس -هوت) أو تتفعل بشدة مع خيالك العاطفى والكوميدي جداً . صدق أو لا تصدق إنى أتحسر فى أوقات كثيرة على تلك الساعات التى كان يضيعها أهالى بورجوازية فيجاك فى النوم مثل بقية الناس التى كنا نستغلها معاً فى مرح بأن نلقى بالحجارة أو بأن نطقىء فانوساً أو أن نتبع خطى أحد الأفراد أو أن نغنى أغنية إيطالية عاطفية على الرغم من مفتش الشرطة فوسار أو بأن نخرف ...

.. كلمتى قليلا عن اللعوب اللذيذة الحساسة المبهجة التى تسببت فى كل هذه الضجة وحطمت كل هذه القلوب . هل لازلت تستمع إلى صوت ضحكاتها الطوة والعذبة ؟ لو أنى تقت يوماً أن يكون لى وزيل جميل وعرف ديك فقد كان ذلك هو اليوم ، على الرغم من كثرة منافسى فإن ذلك لايهم وأمام الشدائد كن شجاعاً . كنت سأصبح مثل غيرى .

وفى إبريل ١٨١٨

«ذهبت الفرخة الجميلة تفرق على ضفاف الجارون . لا بد وأن ديوك فيجاك فى نشاز

* ابن مسجل عقود قرية ليفيردون المجاورة وقد أصبح فيما بعد محافظ الرهونات .
** كثيرا ما سيقول عكس ذلك لأهالى جرونوبل .

وهم يغنون الآن فى غيابها . وإذا كانت الفرخة فى فيجاك منذ أن عاد الرئيس صاحب الزى الإنجليزى فلابد أنه ذهب من فوره يفرد ذيله أمامها .. هناك أشخاص يعتقدون أنهم سيعودون إلى الشباب إن هم غيروا بروكتهم . يالها من بشرية !! يجب أن يفهم فى النهاية أنه لايكفى أن يكون له عرف ولكن ما بعد ذلك هو المهم ليكون ديكا وخصوصا أن يكون ديكا جيدا . إنهم قليلون فى سننا وكم هو عددهم فى سنة ١٩ .

فى سبتمبر ١٨١٨

«...شبان فيجاك ليسوا دمثى الخلق على الرغم من إنهم لايفعلون شيئا تقريبا . إن معظمهم لايريد فى مجال الحب سوى الذبح والاكل دون أن يفتنوا إلى أهم الجوانب عنوبة وتشويقا فى هذا الأمر . أنى لا أطلبهم قط بأن يفرقوا فى عواطفهم فمن غير المتاح لجميع الناس أن تكون لهم عواطف وأقل من ذلك هم الذين يمكنهم إثارتها . ولكن ما أنصحهم به هو أن يبحثوا عن صحبة النساء وأن يحبوا قله منهن وأن يحترموهن جميعا وإن يعملوا على إسعاد أو قاتهن دون أن يطلبوا منهن تضحيات لايمكن ولا يجب أن يعطيها سوى القلب .. إن هم أراد أن يخرجوا من الحالة الهمجية التى يعيش فيها أو كان يعيش فيها معظمهم دون حتى أن يدري».

تتردد فى هذه السطور أصدقاء روائى وفلاسفة العصر . وهو شىء مضحك إن صديقنا جان فرنسوا كان ذا قلب دافىء وأسنان نهاشه وقلم حى - وخاصة عندما كان يقلد بسخرية كتابات الآخرين . لقد سبق أن لاحظنا ذلك وسنلاحظه فيما بعد . مايلفت النظر من ناحية أخرى فى هذه المراسلات بين اللوت والايزار هو الاشارة المستمرة إلى الأضرار التى يتسبب فيها الجانب المتميز لرجال الدين والرقابة المتدنية و«طاقنى الأنوار» كثيرا ما كان يرسمهم بقلمه الرشيق فى صورة كوز مخروطى الشكل مقلوب بحيث كان مكتشف الهيروغليفيات يستمتع باستخدام الكتابة بالصور ..

«المنبوذ» لم يتغير حتى بعد أن عادت له حقوقه ووظائفه . أفكاره ستطور وميوله الجمهورية ستتواءم مع الإمتيازات التى سيحصل عليها من الملوك . وعداواته لأهل الكنيسة ستقل حدة لدى تعامله من رجال دين مرموقين -حتى مع البابا نفسه إلا أنه سيبقى إلى النهاية عدوا «لطاقى الأنوار» والرقباء والوشاة الواشاة . كما أنه سيبقى واعيا بالأ يتبرأ أبداً من أصوله المتواضعة . وقد كتب يوما عن صديق تزوج من أنسة من النبلاء :

«العامّة مثلك ومثلى لم يعوبوا يحتملون التكلّف وادعاءات من يسمون أنفسهم نبلاء .
إنّنا إذا رضينا بأن نزعن لسخره فهى فقط تلك التى يفرضها الحب لأن هذا الأمير
سيظل دائماً يتحكّم فىنا كمستبد شرعى . وإن تكون أنت ولا أنا الذين سينقضون
سيادته المستحقّة . وعلى العموم فإنّ الحب مولانا وسيدنا له جانب جيد جداً : أنه
لايعير اهتماماً بالمخطوطات القديمة .

(الأستاذ وعالم الآثار هو الذى يتكلم ..)

«والحب مولانا وسيدنا» - ها هو جان - فرنسوا كله شباب وطلاقة لسان محتفى
به وسط أبناء وينات فيجاءك يبدو أسعد المنيبوزين . سنجدّه عند سيّدة إسما مدام
سارت وذلك فى فبراير ١٨١٧ يقيم محكمة للكياسة ويتهم فيها رواية أتالا* «بالسخر»
والشهداء «باللزوجة» ويعلن أن «إمبراطورية - سينار فى خطر» ويصدر بناءً على ذلك
قراراً بالتعبئة العامّة» فى حضور مجلس للتجنيد تكون الرغبة فى إثارة الإعجاب هى
التي توجهه ، وذلك بسبب غياب الفكر» ..

يبدو أن الكياسة تكشف أحياناً عن أكثر من الرغبة فى البريق داخل المجتمع .
سيّدة أسما أديل كانتالوب أثارت فيه أكثر من الرغبة فى كتابة الشعر . وهو خلال
إحدى جلسات محاكمات لعبة الصالونات قد حكم على «ماد موازيل أديل» بالأ «تزداد
جمالاً» (مع أن ذلك من المستحيات) ولكن عليها أن تحتفظ بالمزايا التى حبتها بها
الطبيعة فإنّ ذلك يدفع إلى الاعتقاد بأن هذا القول قد يكون نوعاً من الاعتراف . هناك
عدة مؤشرات على وجود من كانت تسمى «أديل» فى هذه الفترة من حياته .. ولكن قد
تكون أديلاً أخرى . توجد بين أيدينا قصيدة هجاء (!) ضد مدام أديل ح . وهى على
ما يبدو موجهة لسيّدة أخرى .

أما هذه القصيدة الغزلية القصيرة فهى على العكس ، نوع من الهزل ألفها جان -
فرنسوا على شرف إحدى بنات فيجاءك :

«إلى الأنسة هيبى برو

» بقيت بقرينا لبعض من الوقت

فاذا بكل شىء لرؤياك ينعم بالهناء

* رواية لسانتويريان (المترجم)

وهواجيزنا للشباب تعود قلوبهم تدق

كم يخسر الغافلون عن رؤية محياك ! »

حسنا ! كنا نعرف منذ فترة طويلة أن جان - فرنسوا شامبوليون لم يكن رونسار .
إلا أننا كنا نود لو أنه تمكن من محاكاة الشعراء الحقيقيين . كما أننا ذكرنا أيضا أنه
يكون أفضل من ذلك في الهجاء !

أثناء وجوده في فيجاك كتب شامبوليون الصغير بعض الكتيبات السياسية مثل
«الدستور حوار بين الملك المسيحي - جدا والتركي الأعظم» و«نزول بيرتران إلى
الحجيم» وتحت عنوان «أوريست في الحجيم» كتب هجاءً مسرحياً ينتقد فيه ضباط
ذلك العصر⁽²⁾ .

تقول هيرميتي هارتلويان التي نشرت بعض مقتطفات منها أنه كتب على عجل
بعض الدراسات : «الرجال كما هم» ينم عن تشاؤم بدائي «العناية الإلهية والقدر
والحظ» يعالج فيها الأخير بأفضل من سابقه وحرية الإختيار وهو مديح مختصر لقوة
الإرادة لم يكن رونسار ولاكانت بل كان عليه أن يصيح شامبوليون .

انتهت مرحلة اللهو . وقبل أن يعود إلى قاموسه وكتابه في قواعد اللغة القبطية
(فقد أتاح له رفض اللجنة لها في يوليو ١٨١٥ الوقت لكي يثريه ويصححه) وإلى
مشروعه الكبير في فك أسرار اللغز الهيروغليفي وجد جان - فرنسوا نفسه مدعوا إلى
مهمة ذات ثلاثة أوجه : مساعدة أخيه في تنفيذ الإقتراعات التي إستهدفت أمين مكتبة
جرونوبل (أى هو نفسه) والمشاركة في الإبحاث في الآثار المحلية التي يقوم بها جاك -
جوزيف وأن يدفع إلى الأمام في مقاطعة اللوت بالتعليم المشترك وهو فكرة جديدة من
اختراع أخيه الذكي والمتحرك جاك - جوزيف .

الإشاعات سرت في جرونوبل («إذا أردت أن تعدم كلبك...») لم تتعلق بخطر
الشقيقين على «الهدوء العام» ولكنها طالت شرف الأخ الأكبر إذ أن الإتهامات التي
بدأت توجه له بصورة غير مباشرة ثم أكدتها عدة رسائل تحمل معان غامض تحوالت
مع الوقت إلى إتهامات صريحة كتبها أوجوست دوكون خلفه في إدارة المكتبة بأنه باع
أو تبادل كتباً مسجلة في قوائم المكتبة - مخطوطات وغيرها - مع صديق جاريل** .

* مثل فرنسي بقيته هي «شِه عنه أن مصاب بالجرّب (المترجم) .

** راجع الفصل الثاني .

لم يتهمه أحد مباشرة بأنه قام بهذه العمليات لمصلحته الخاصة ولكنه تأثر بميوله الخاصة وتصرف دون الرجوع إلى مجلس إدارة المكتبة .

وجد شارل - أوليفيه كاربونال رسائل من جاربييل خاصة بأوراق المفكر السويسرى ونشتاين لاتدع مجالاً للشك فى وجود تبادلات (هل كانت مفاوضات أم عمليات بيع وشراء) وهويعتبر أنها «تدين» المكتبى⁽³⁾ . كلمة الإدانة هنا تعتبر قاسية . كان جاك - جوزيف إنساناً نشطاً يداخل بين مسؤولياته المختلفة . وبين أعماله ومبادراته . ولذلك فإنه من غير المستبعد أن يكون ولعه بالكتب قد أثر بالسلب فى قراراته لدرجة جعلته يخلط بين عملياته الشخصية وتلك المتعلقة بوظائفه . ولايذهب أحد إلى أبعد من ذلك . لم يصدر ضده أى قرار إدانة . فى وقت كان العميد السابق يعامل فيه بفضاظة - ولكنه عزل من مناصبه . وقد شعر باهانة كبيرة كانت لها بالطبع آثارها على أخيه الأصغر .

تظاهر جان - فرنسوا بأنه لايرى فى هذه العملية سوى مؤامرة من بعض الظموحين الحسودين وكتب إلى أوجوستان تيفونيه فى ١١ مايو ١٨١٦ يقول :

«ماذا تقولون فى جرونوبل عن الكواسر الجائعة التى تتصارع على وظيفة المكتبة ؟ إن هؤلاء السادة يفقدون عقولهم خاصة عند إصابتهم «بهمى البحث عن وظيفة»* [...] لكى تتمكن من الصعود يجب عليك الزحف على بطنك هذا هو المثل السائد هذه الأيام [...] نوكوان الكبير الذى يؤهله الرأى العام لكى يظفنا بعد حين [...] يعمل ويكد ليثبت مقدماً ولاحقاً [...] ما سبق أن كررته لك وهو أن أدنا البشر وأكثر الأوغاد إثارة للإشمزاز هم من يطلق عليهم اسم الادباء ...» .

هل لتحويل الأنظار بعيداً عنه أن قام جاك - جوزيف إبتداءً من يونيو ١٨١٦ بمساعدة أخيه بمشروعه الجديد ؟ لقد خصص شهوراً طويلاً من وقته للتقريب عن الآثار فى موقع أوكسيلودونوم . هو آخر معاقل الغال التى وقع فى يد قيصر الذى وصف بنفسه الحدث فى الكتاب الثامن من «التعليقات» . كان من الواضح أن الموقع يقع فى منطقة كارسى . ولكن أين ؟ فى كاهور ؟ فى فيراك فى لوزاش ؟ أم فى كابدوناك هذه القرية المطلة على فيجاك .

* التأكيد فى النص الأصيل

إذا كان «المنقبان» قد شرعا في عمليتهما فذلك لا يرجع فقط إلى محاولة نسيان مكتبتهما العزيزة ولكن جاء تنفيذا لطلب ملح من المحافظ الكونت دولوزيه - مارنيزيا المولع بالآثار القديمة ودراستها والذي أراد بهذه الطريقة أن يسجل أنه ليس من الذين لا يعرفون ويقدرّون زميلا مشهوراً مثل شامبليون فيجاك صديق ميلان ومراسل مجلس «المخزن الإنسيكلوبيدي» والعضو المنتسب لأكاديمية الآداب .

مستندا إلى النصوص اللاتينية التي في يده كشف العميد السابق بجامعة جرونوبل بالقرب من كابدوناك Capdenac بقايا أوان رومانية . وبما أمكنه من إستدلاله منها تعرف على مختلف البيانات الطوبوغرافية التي جاءت في وصف المنتصرين للمكان . ومنها برزخ يصل بين «القلعة» والهضبة المجاورة ونهر صغير ونقطة مياه وهو ما يشرح السبب الذي جعل المقاومة تطول . ويقول جاك - جوزيف في كتابه* الدليل أقيم . على حد قوله أن كابدينك بنيت بالفعل على موقع أوكسيودونوم . وبذلك نجح في تأكيد شعبيته وسط أهل فيجاك .

وجاء في تعقيب جان ليترون على هذا المؤلف أنه «لا يعرف سوى عدد قليل من العلماء تمكنوا - في مجال الجغرافيا القديمة - من معالجة (مسائلها) بمثل هذه الحصافة وحلها بمثل هذه الثقة» .

كيف اشترك الشقيقان في الحملة من أجل التعليم التعاوني المسمى «بالمدرسة اللانكاسترية» كانا - كلاهما - معلمين ذوي موهبة فذة** ، الأول كان مربيّاً لأخيه وهو في الثانية والعشرين والآخر أستاذا جامعيا في التاسعة عشرة. مربيّاً بالإضافة إلى أن المستوى العلمي المتقدم الذي وصل إليه كان بأن علما أنفسهم بأنفسهما وكان ذلك كافيا لكيلا يقدسا أسلوب الأستاذية التقليدي . كل ما هو متعلق بنقل المعرفة كان يدخل في نطاق إهتمامهما : وكما كان أخوه معلمه الأول - بين كالمالز وبوسار - أخذ جان - فرنسوا على عاتقه تعليم «على» ابن أخيه لساعات طوال منذ أن بلغ السن الذي يمكنه فيه أن يتعلم .

* الأبحاث الجديدة عن المدينة الغالية أوكسيلو دونوم التي حاصرها يوايوس قيصر (نشر في باريس عام ١٨٢٠ وحاز على جائز الاستنتيتو Institut)
** نسبة إلى منشئها في إنجلترا جوزيف لانكاستر .

فى باريس خلال المائة يوم إنشغل جاك - جوزيف بين مشاغل أخرى عديدة إلى المشاركة فى أعمال «لجنة إصلاح التعليم الابتدائى» التى شكلها كارنو وزير الداخلية حينذاك . أنيط هذا الجهاز بعد ذلك بأدم جومار . المسئول الأول عن كتاب وصف مصر . وكانت علاقته بفيجاك وثيقة جدا وكان قد إكتشف خلال إقامته فى لندن التعليم «اللانكستيرى» والمتمثل فى أن تجعل الأولاد الأكثر تقدماً يعلمون زملائهم بوسطة أدوات ملائمة .

كان بعض أعضاء الطبقة الأرستوقراطية المستنيرين أمثال البارون دووجيراندو والكونت دو لاستيرى ومسيو دو لابورد هم الذين اقترحوا فى الأول من مارس ١٨١٥ (يوم نزول نابوليون على شاطئ خليج - جوان) إنشاء جمعية للتعليم الأولى . وما أن عين كارنو وزيرالداخلية إلا وأخذ الفكره لحسابه . صدر فى ١٧ إبريل مرسوم بإنشاء «لجنة التعليم التعاونى» والتي تولاهما جومار فيما بعد مع وجيراندو ولاستيرى ولابورد و ج ح ب سائى . أول الدروس بدأ فى ١٣ يونيو ١٨١٥ بالمقر الكائن فى ٦ شارع جان - دو - يوفيه - ثم وقعت واترلو بعد ذلك بأيام الا أن ذلك لم يؤثر على المؤسسة الجديدة .

بعد ذلك بأربعة شهور تقريبا فى ٨ أكتوبر ١٨١٥ كتب جومار لجاك - جوزيف شامبوليون - فيجاك . الذى كان مشاركا فى الأعمال الأولى للجنة والذى انحسب بعد ذلك بهدوء إلى جرونوبل - يدعوه للمساهمة فى المشروع وإنما كان محل اقامته وكانت هذه هى الفترة التى كان الأمل يراود فيها الشقيقتين فى تقادى ضربيات «طافىء الأنوار» . بعد ذلك فى عام ١٨١٦ عندما أعطيت دفعة جديدة للتعليم التعاونى - على الرغم من معارضة المتطرفيين علي يد رواييه - كولاى وزير التعليم العام عهد إلى المحافظين بمهمة تشجيع المبادرات الخاصة بذلك فى محافظاتهم . وكان منهم لوزيه - مارنيزيا فى اللوت .

ولما لم تكفى حفريات أوكسيلودونوم فى شغل أيام جاك - جوزيف - وجان - فرنسوا بالكامل فقد انطلقا فى الوقت ذاته فى محاولة إسخال طريقة التعليم الحديث فى مقاطعة كارسى وبما أنهما كانا مهمشين فقد كان ذلك أفضل وضع لهما للدخول فى هذا المجال الهامشى .

الشيء الغريب هو أن الطريقة اللانكاسترية دخلت فرنسا فى الوقت الذى كان فيه منشؤها فى صراع مع سلطات بلاده مما إضطره أن ينفى نفسه إلى كندا عام ١٨١٨ حيث توفى بعد عشرين عاماً مقلساً ومنسياً . غير أن أفكاره استمرت فى طريقها بعد

أن كانت أخذت مشعل مبادرات مماثلة في نفس هذا الاتجاه قبل ذلك بثلاثين عاماً قام بها جوزيف هيريو في باريس .

يوجد مستند يشهد على الحماس الذي إستجاب به أهل فيجاك تشجيع باريس لهم في هذا الموضوع . في ٦ إبريل ١٨١٧ كتب مساعد المحافظ البارون دو كامباني إلى المحافظ لوزيه مارنيزيا يفيدته أن «جميع الجهود تبذل في فيجاك من أجل تنمية طريقة تعليم لانكاستر وذلك بفضل بعض السكان الذي تبرعوا من أجل مصلحة الطبقة الأقل يسرا» . إلا أن مشاركة خاصة من وزارة الداخلية (من ٨ إلى ٩٠٠٠ فرنك) ستساعد على تخطي بعض المقاومة الراجعة إلى بعض الاعتبارات الخاصة ..

لم يأتى ذكر الشقيقتين شامبوليون خاصة وأن جاك - جوزيف كان قد غادر فيجاك قبل بضعة أسابيع ، ولكن لا يمكن أن نشك في أن الانطلاقة التي اتخذها التعليم التعاوني في مدينة كارسي الصغيرة والتي كان بها عدد من الفصول يفوق عددها في عاصمة المحافظة كاهور يرجع إلى الدينامية المستتيرة لنجلي صاحب مكتبه الميدان الأسفل .

سفر جاك - جوزيف لباريس أوقف إندفاع المشروع إلى الأمام على الرغم من أن جان - فرنسوا وقد أصبح وحده في الميدان - جعل مدرسة التعليم التعاوني تستمر في عملها باخلاص أشاد به الجميع .

في ٣٠ أبريل ١٨١٧ كتب يقول لأخيه أنه نجح في أن ينتزع من الوزير « ٦٠٠ فرنك للمدرسة الانكاسترية» كما أنه حصل على وعد بأربعمائه فرنك لعام ١٨١٨ وتعيين متخصص في هذا النوع من التعليم .

وفي ٥ يونيو كتب لجاك - جوزيف :

«نحن في انتظار المدرب لطريقة لانكاستر وسنجهله يبدأ فوراً . وأنا أفكر في حضور محاضراته»

ثم في ٣ يوليو :

«لم يبدأ المدرب بعد دروسه الأولية ولا حتى ألف باء : ذلك غير جاهزه إلا أنه يأمل في أن يبدأ في ١٥ الحالى . لقد استلم الصنوبر الخاص بالأقلام والألواح والطباشير . المحافظ شاسه مهتم إهتماما بالغاً بانتشار الطريقة .

ومدرسة فيجاك يحتفى بها في جميع المحافظات المجاورة . وقد سارع محافظ التارن بمراسلة زميله في اللوت يقول له أنه يفكر في إرسال متدرب إلى فيجاك

(سيقيم في المدرسة العامة) ليتعلم الطريقة وينقلها إلى ضفاف التارن . بل يتردد أيضا أن الأميرون سوف تقرر (مع مرور القرون) ذلك أيضا . لاداعى بالطبع أن أقول أن كل رؤساء المؤسسة* في المدينة يعارضون بكل قوتهم لانكاستر ، مؤكدين - وعلى الأخص الراهب - أن الطريقة سيئة للغاية . وهم ليسوا وحدهم »

وأخيرا في ١١ أغسطس : «المدرسة للانكاسترية بها الآن ٤٠ تلميذا» ، وقد عثرنا على عدة اعترافات بالتقدير من الذين اكملوا المشوار وقد اعترفوا بريادة الشقيقين في إدخال هذه الطريقة التعليمية في كارسى وسنكتشف بعد قليل أن مشاركة المكتشف في هذا النوع من التعليم قد إكتملت في الدوفنية وترعرعت .

كان جان فرنسوا قد عمل لعدة شهور وبدقة تثيرا الإعجاب في تأليف كتاب للقواعد سهل ومزين باللوح في نفس الوقت** وكانت يقول الأحد أصدقائه في جرونويل في نوفمبر ١٨١٦ أنه جرب مع ابن أخيه «على» طريقة جديدة يمكن تطبيقها على أولاد آخرين . لاشك أن هذه الطريقة في نقل المعرفة دون الاعتماد علي هيكل الأستاذية والتي تسوى بين التلاميذ والتي تعتمد على الوسائل التوضيحية - هي التي استفاد منها على يديه عددا كبيرا» من أبناء جرونويل مثل أبناء أسر تيسار ومونيه وبيران ورومان وآخرين حسبما قال إيميه أحد من أبناء أخيه .

وصل الأخ الأكبر في نهاية الأمر إلى هدفه بعد تسعة شهور من المحاولات والإجراءات والتظلمات والدفوع . وهو إذا كان مغتاباً ومحسوداً في جرونويل ففي باريس كان يتمتع بشبكة من الأصدقاء وأشخاص مدينين له بخدمات وزملاء أثبتوا تضامنهم معه في محنته . أقدم أصدقائه الوفي دوجيه أدى الدور الأساسي للمطبيباتي إذ كان يلقي ترحيبا متعاطفا ومتفتحاً وإنما ذهب .

في كل مكان ؟ كلا ... لقد سبق أن ذكرنا تعليقاته المستاءه من موقف الباورن

* المؤسسة الدينية ... بالطبع .

** نسخة من الكتاب سلمت لدام أديل لازالت محفوظة حتى الآن .

دوساسى - المتطرف وسط المتطرفين الذى صده دون أى حياء حين جاء يطلب منه خدمه لصالح زميل كان من تلاميذه . تعليق «صغير» :

«أما «الرايين»* فلا تخفض من قيمة نفسك وتذهب لمقابلته إنه رجل يعرف أوضاعنا وإذا كان لديه شىء من المروءة لكان ضحى بكل الأفكار الصغيرة ليجعل هذه الأوضاع أقل قسوة . إلا أنه لم يحاول . إنه طرطوف لو كان يساوى لكرهته . إنى لا أنكر ماله من موهبة وعلم رفيع . إلا إنه بدون روح وهو بذلك ليس رجلاً وإنما هو كتاب متحرك» .

جاء سلوك الصديق السابق جان سان - مارتان بالمثل مخيباً للآمال إذ تحول إلى الحزب «الأسود» وتعامل معهما معاملة معتنقى الدين الجدد بطريقة جافه للغاية ، فى حين تعامل رجل مثل لوى لانجلاس وكاترومار دوكانسى (الذين كانا متشددين للغاية فى السابق مع جان - فرنسوا) باهتمام ورعاية .

خلافًا للمساعدات التى حصل عليها الشقيقان القادمان من فيجاك من حلفاء قدماء لهما مثل ميلان ودابيه وفوريه** بل وجومار أيضا*** ومن علماء تعاطفوا معهما مؤخراً مثل أراجو وكوفيهيه . فقد إستفادا من تطور عام للأراء التى اتجهت من الإرهاب الأبيض نحو الليبرالية الحذرة التى سيجسدها دوكاز .

هذا الأخير هو الذى وقع وهو مازال وزيراً للشرطة قبل أن يرأس الوزارة على القرار المؤرخ فى ٢ نوفمبر ١٨١٦ الذى يسمح «للسيد شامبوليون الكبير [...] أن يعود إلى جرونوبل للإقامة بها تحت مراقبة مفتش الشرطة العام [...] أما بالنسبة للسيد شامبوليون الصغير فإنى أترك لحافظ الإيزار حرية إعادته إذا لم يجد ضرراً من وراء ذلك .

لا بد وأن هذا «الضرر» كان موجوداً بما أن جان - فرنسوا استمر لفترة طويلة

* دأب جان فرانسوا على إطلاق كنية «الچيزويت» أو «الرايين» أى رجل الدين اليهودى على البارون سيلفاستر دوساى (المترجم) .

** فورييه تصالح مع الشقيقين شامبوليون بعد الرحلة التى تلت «المائة يوم» أى بعد عودة نابوليون إلى المنفى .

*** سيختلف مع الشقيقين بعد ذلك بعشرة أعوام .

لا يتمتع بسعة صدر السلطات وقد كتب لصديقه تيفونيه :

« يا له من رقى ساحر ذلك الذى عاملنى به الكونت دو مونثيفر [...] لو أنه تصرف بعكس ما فعل وأرجعنا معاً كانت حقوقه على من إمتنان وعرقان بالجميل أثقلت كاهلى : يوجد من الناس نوع لا تريد أن تدين له بشيء» .

فى ١٤ يناير ١٨١٧ أرسل إلى محافظ اللوت «قرار المجلس الملكى» الذى ينص على أن «السيد جان - فرنسوا شامبوليون قد أعفى من الرقابة التى كانت مفروضة عليه فى فيجاك» .. إلا أن «الرباعى الجهنمى» الجرونوبلوازى أستمر فى عناده إلى أن وصلت إلى لوزيه - مارنيزيا (محافظ اللوت) وكان لا يكف عن الدفاع عن الشقيقين شامبوليون من كاهور ولكنه كان يصدم باستمرار بعناد زميله فى الايزار ، مذكرة تذكر مرة أخرى «وان الرقابة التى كانت مفروضة على السيدين شامبوليون فى مدينة فيجاك قد رفعت بطريقة مطلقة وهما أحرار تماما يذهبو إلى حيث يريدون» المذكورة مؤرخة فى ١٢ مارس* ١٨١٧ .

هذه المرة وجد «كازينو» جرونوبل نفسه يتلقى الإستنكار والتوبيخ ، القرار الجديد يشمل الشقيقين ولا يفرض عليهما ضرورة الإقامة فى جرونوبل ليوضعا تحت رقابة باسستار وبينا وهو ما كان يريد جاك - جوزيف أن يتحاشاه بأى شكل بعد ما لقاها من تصرفات تثير الاشمئزاز من السلطات ومن زملاءه فى مقاطعة الدوفينييه . وقد كان مصمما على قطع علاقاته بالمدينة التى نجح فيها نجاحاً مبهرًا فى الفترة من الثورة (برومار) حتى واترلو (هزيمة بابوليون) .

عندما غادر جاك - جوزيف مدينة فيجاك فى بداية إبريل ١٨١٧ إتجه إلى باريس حيث حصل هناك على جواز سفر . ولم يمنحه إياه البارون دوكامبانى نون أن يرسل إلى دوشاسيمو الذى حل محل لوزيه - مارنيزيا محافظ اللوت مذكرة يقول فيها أن «شامبوليون الأصغر سيبقى بعض الوقت فى فيجاك حيث يقيم مع والده» ثم يضيف مساعد المحافظ «الشقيقان شامبوليون طوال فترة إقامتهما فى فيجاك كان سلوكهما لا غبار عليه [...] إنهما يتمتعان هنا بالتقدير والاحترام بفضل مواهبهما وعلمهما .

* القريب أن التاريخ الموضوع فى المذكرة هو ١٨١٥ إلا ان كافة المستندات الموجودة بالملف تشير إلى أن التاريخ الصحيح هو ١٨١٧ .

فضل جان فرنسوا أن يمد إقامته في فيجاك لأسباب مختلفة . كانت معاملة أسيا د جرونويل الجدد أسوأ من ألا تجعله يشارك أخاه إزدارنة لما أسماه « أثينا الدوفينية » وإن كان بدرجة أقل ولفترة أقصر حيث عرفا أولى ساعات مجدهما . إن باريس لاتمثل أى إغراء بالنسبة له : مازالت ذاكرته تحتفظ بصورة كلها مرارة « لعاصمة فرنسا القذرة » والمؤامرات التى تحاك على ساحتها . إنه يحب بالفعل المدينة المتواضعة التى ولد فيها والتى عاش فيها عاما هادئاً . ثم إنه لايريد أن يتخلف عن مسئولياته فى التعليم التعاونى . وكانت الشئون العائلية على درجة من السوء تستدعى أن يتولاها أحد . ولما كان جاك - جوزيف غير قادر على أن يبقى ساكنا لحظة واحدة ، ثم أنه يرفض أن يبقى لفترة أطول فقد قرر وضع وزر هذا الواجب كله على أكتاف « صغير » .

« الرئيس يقوم بضجة جهنمية ! » هذا ماكان يفضى جان - فرنسوا به لأقرباه بعد أن كان يضيق بتصرفات نوبات هياج والده . وكانوا جميعا . على علم بتجاوزات « العجوز غير المحترم » ؛ كانت فيجاك قد تعودت على صراخ هؤلاء السكارى الذين يجوبون شوارعها فى المساء بين شارع دى كابوسان وميدان لا ريزون ... الأب كارامازوف !

ياليت الأمر قد اقتصر على الضجة الليلية ! استدان الرجل ثمانية ألف فرنك . ولما لم تعد المكتبة تدر دخلا يذكر وكان زملاؤه فى السكر من المقرضين رجال أعمال لايرحمون أخذ يبيع ممتلكاته الواحدة تلو الأخرى : الكرمة * ثم الحديقة والأثاث وإذا استمرت الامور هكذا فإنها ستطول أيضا الدكان ومن بعده المنزل أيضا وإذا لم يفعل أحد شيئا فإن أختى جان فرانسوا تيريز ومارى سيكون مصيرهما إلى الملجأ .. لخص جان - فرانسوا الموقف لأخيه فى خطاب بتاريخ ١٣ مايو ١٨١٧ بعد أسابيع قليلة من سفره المتسرع :

« ... كُنْتُ متعجلا وصول أخبارك بقلق شديد على أمل أن تحدد لى فى خطابك الخط الذى يجب اتباعه حتى نتفادى رؤيه المحضرين وهم يغزون المنزل . وقد حدث بسبب الرجل الذى جعلته السماء للأسف أباً لنا وبسببك أنت أيضا بقدر قليل ..

* التى كان قد اشتراها أبان الثورة الفرنسية ضمن « الممتلكات الوطنية » .

... لقد قدر لي أنسا الذي لايفقه شيئا في الأعمال أن أتحمل كل خيبة الأمل وقرنها . لم أجد طريقة أخرى لمنع بيع الأثاث سوى أن أتعهد بدفع ٣٠٠ فرنك في البداية يوم الأحد القادم ثم كل شهر حتى استيفاء الدين . مخططي هو أن أسحب حوالة يستمانه فرنك على أوجوستان * كان قد عرضها على عند سفري . لم أعش في حياتي أياما أفزع من اليومين الماضيين . أحملك جزءاً منها لأنك سافرت دون أن تحل هذه المشكلة وكان أسرع هذه الحل هو الحجر ** على « الرئيس » . الذي سلك سلوكا شنيعا معي خلال ما حدث ... مدام جانسيون عادت تلح على وكنت أن أتق في خلاف معها ومع زوجها لأنى رفضت قبول المبلغ الذي عرضاه بطريقة كلها رقة عندما علما بنبا الكارثة .. يالهما من صديقين حقيقيين . كنت تخالهما يطلبان منى خدمة في حين أنهما لايمكن أن يقدموا لي خدمة أكثر نفعا لنا من تلك . »

في ١٧ مايو كتب جان فرنسوا إلى أوجوستان تيفونيه :

« ها أنا أجد نفسي يا عزيزي الصغير ، مضطراً الآن لقبول ما سبق أن رفضته (..) يوم سفري إلى المنفى . ها أنا أجد نفسي - جزئياً بسبب أخى الذي تركنى وسط مشاكل عائلية معقدة في حيرة ملحة . (...) أعطيت حوالة بمبلغ ٧٠١ فرنك تسحب من موسيو بريزون نوليون *** وأرسلت إليه حوالة بنفس المبلغ مسحوبة عليك (...) وبذلك ياصغيري تكون أنت الذي سيتحمل نفقات الحرب ... »

الديون الأكثر إلحاحا تم تسديدها . « أخيرا وجدت المال اللازم لتفادي الأحداث المؤلمة التي أعدها لنا الرئيس ... » وابتعد خطر توقيع الحجز علينا . لم يصدق الرجل العجوز نفسه : « فم الرئيس يقطر عسلا ولبناً ... » هذا ما سجله جان فرنسوا . ولكن لم تمتد سعادته طويلا إذ ما أن طالبه ابنه بأن يبذل جهداً من جانبه لسداد الدين الخاص بصديقه ديلكو أكبر الدائنين إلا وتظاهر أنه لايسمع شيئا . وقد وصلت درجة سخط « صغير » من « أنانية وبنائة » العجوز أن كتب في ٢٦ مايو ١٨١٧ « طالما أنه يأكل فهو لايهتم بشئ . إن ذلك يدفعني في مرات عديدة إلى غضب شديد لا أعرف ما سأفعله له . رجل من هذه النوعية يعتبر أدنأ من الوحوش ...) هذا هو أبوه .. وليست له أم ! .

* تيفونيه .

** إجراء قانوني بإعلان شخص غير مؤهل للقيام بزي عمل تجارى أو تبادلي ...

*** على صلة قرابة بعائلة بيريا .

فى النهاىة كانت الخسائر خطيرة لدرجة لانتسمح لجان فرنسوا أن يحلها بواسطة سلفة بسيطة . إنه لن يتمكن من الحفاظ على مصالح أخته فى المنزل والمكتبة دون أن يتنازل عن حقه فى الميراث * ويقول ببساطة : « لن يبق لهما مع ذلك شئ يذكر . »

وماذا عن مصر ؟ هل نسيها وهو على ضفاف اللوت بين قصائد الغزل والحجوزات ؟ كلا . وهو إذا كان قد بقى لشهور طويلة دون أن يعمل فى المشروع الأصى الكبير : فك الشفرة - وإذا كانت مستنداته قد بقت فى جرونويل فهو لم يتوقف عن العمل فى قاموس وقواعد اللغة القبطية . وكان قد حمل معه المخطوطين الكبيرين فى سنة الهجرة ** ، ١٨١٦ ، ومهما كان مجروحاً من رفض وانتقادات ساسى فى أغسطس ١٨١٥ فهو من الذكاء لدرجة تجعله يأخذ فى الاعتبار الاعتراضات والملاحظات التى سجلها عليه « الرين » فى جينه . كتب لأوجستان تيفونيه ما يلى :

« أستمر فى أعمالى الأدبية بحماس قوى . قواعد اللغة المصرية *** انتهيت منه تقريبا والقاموس الكبير أخذ أبعادا تليق فى حالتها الراهنة بالذى يؤلفه . كل يوم يزداد الكتاب تخانة ومؤلفه يسير فى الاتجاه العكسى .. »

« سيصل عدد صفحات هذا القاموس إلى الألف ويتعدها عن قريب وهو ينوى أن يعود « بمولوده » هنا إلى جرونويل على هيئة أربع أجزاء من حجم الكوارتو .

فيما يتعلق بمشروع لغز الهيروغليفية نفسه سنجدّه متحفظا ومشدودا فترة طويلة كما لو أن البعد عن جرونويل منفيماً منها كان بمثابة حكم بالابتعاد عن الدراسات المصرية القديمة . هل أصيب بنوع من العمى عنها أو التحريم عن دراستها وهو بعيد عن المدينة التى أقام فيها من ١٨٠٧ بأبحاثه ونشر فيها أولى نصوصه المتعلقة بوادى النيل ؟

بعد بضعة أسابيع من سفر أخيه وصل من لندن عدد من مجلة مانثلى ريفيو Monthly Review منشور بها عرض لكتاب « مصر فى عهد الفراعنة » وهو الكتاب الذى نشر قبل ثلاثة أعوام فى باريس . خلافاً لما فعله دوساسى كان الناقد الانجليزى مؤيداً له لدرجة دفعت «صغير» أن يقول على الفور لجاك جوزيف :

* جاك - جوزيف سيتخذ نفس القرار .

** هجرة Hegire فى النص الأصى (المترجم)

*** تعنى هنا قواعد القبطية التى تحدث مع نابوليون عنها وليس الكتاب الذى ظهر سبق وفاته والذى هو أحد أعماله الرئيسية

« ... قرأت مقالى على الفور . إنه يضيف لمجدى بالقدر الذى كنت أن أتمناه . قدم كاتب المقال ساسى كما لو أنه يساندنى وكما لو كنت تلميذه الذى يشرفه جداً . لابد وأن هذا سيعجبه . هذا أفضل ! الانجليشمان لياؤخذنى سوى على شئ واحد وهو أنى أهملت استخدام المستندات التى أوردتها لنا الكتب المقدسة التى هى مصادر التاريخ الحقيقية حسب قوله . ويضيف أن أراء عن هذه الكتب تبدو أنها رأى مسبقه لإنسان غير مؤمن أكثر منها عدم إنحياز منصف لفيلاسوف . طبقا لهذا التقرير فإنى ساموت بون توبة خالصة . إن الأراء التوراتيه لكاتب المقال تكفى لكى أشعز من كل الأشياء اليهودية الممكنة . إنه يؤكد بثقة تأثير الإعجاب أن سيزوسترلى ليس سوى JOSUE (...) كل ذلك أثبت لى ماكنت اعتقده منذ فترت طويلة وهو أن الألمان أيضا الإنجليز لم يخرجوا بعد فيما يتعلق بالمعرفة الحققة من مرحلة الحضارة ... »

سنرى أن هذه « الحضارة » ستكون خصبة ... الشئ الحقيقى هو ان الحوار بين الباحث الفرنسى ومناظريه البريطانيين إن هو قمام على الأسس التى حددها مراسل المانتلى ريشيو لم يكن من الممكن أن يستمر ولكنه توماس يانج لن يلبث أن يثبت له أنه توجد فى لندن أدوات عمل أخرى غير التوراة .

يبدو أن المديح الواصل من لندن آثار لدى «صغير» نوعا من فك العقدة . ثم إن الهدوء فى فيجياك بعد حل المشاكل العائلية المؤلمة كان يساعد على العمل الذى يتطلب دقة متناهية . لماذا إذن لا يحضر مراجعه مهما كانت صعوبة النقل ؟ فهى ليست على كل حال مسلة ولاحتى حجر من البزالت الأسود اكتشفه الملازم بوشار بالقرب من مصب النيل .

فى ١٨ يوليو ١٨١٧ كان قد اتخذ قرار البقاء شهرين أو ثلاثة آخرين فى كارسى فلجأ مرة أخرى إلى خدمات عزيزة أوجوستان :

« .. لايد وأتك سحبت أوراقى من مكتبى ، أقصد من مكتبى السابق * وهى موجودة الآن لديك (...) المطلوب أن تختار منها :

(١) صورة بالحفر لكتابات مصرية ويونانية ، كبيرة وطويلة وملصوقة على قماش . * أنها نص حجر رشيد . *

(٢) نفس النص الهيروغليفى ملصوق على كارتون *

(٣) رزمة أوراق معنونة إيجيية مصرية . *

* التأكيد فى النص الأصيل .

(٤) دفتر معنون كتابات مصرية بخطوط ديموطيقية أو شعبية .

(٥) (...) نسخة مكبرة لنص رشيد . كل سطر مرقم - يوجد بها ٣٢ سطرا
وتحت كل سطر توجد كلمات بالفرنسية واليونانية .

(٦) أخيرا مجلد كوارنو (...) اسمه «مخطوط رشيد» مؤلفه م . اميلهون (...)
يوجد كلام يوناني * ...

طالب من تيفونيه إن يجمع كل هذه المستندات في « طرد مشدود الوثائق » ويوجهه
لمسيو جارى مدير بريد فيجاك . الطريف أنه لم ينس أن يقترح على صديقه أن يضم
داخل الطرد «مسرحياته التراجيدية» فهو لا يهمل سهراته المكرسة « للتعليم المرح »
لدى مساعد المحافظ ومدام سارت أو عند مدام جانسيون .

وهكذا سمحت الأشهر الثلاثة الأخيرة من النفي فى كارس لجان - فرنسوا أن
يتحاور من جديد مع ألهة النيل . تزامن مع وصول المستندات المطلوبة من تيفونيه فى
الأول من أغسطس زيارة قام بها له طبيب من الكانتال الدكتور رولهاك وهو واضع
كتاب اسمه « منظومة ايتمولوجية عامة » يدعى فيه أنه اكتشف مفتاح يسمح بحل
شفرة الحروف الهيروغليفية لم يأخذه «صغير» على محمل الجد . إلا أننا نعرف أن
لاشئ ينشط عبقريته الخلاقة بقدر المحاولات المناقصة له : مع أنه ليس جدير بالثقة فإن
الطبيب القادم من أوريبياك سيلعب دوره فى إثارة نخوة الباحث . مع عودة الطموحات
العلمية داهمه إحساس بالانعزال فى فيجاك بارييس ؟ إنه لا يفكر فيها سوى فيما يخص
جاك - جوزيف الذى أخذ يظهر فيها من جديد . راودته فكرة لبعض الوقت : السفر
إلى روما المليئة بالعديد من الآثار والمخطوطات المصرية . مونسينيور دو بوسيه رجل
الدين المثقف والليبرالى صاحب كتاب فينولون الذى أعجب به ستاندال كان قد رقى إلى
رتبة كاردينال وكان يستعد للسفر إلى المقر البابوى فهل يمكن أن يقوم بدور سكرتير
المونسينيور الذى كان فى علاقة مراسلة مستمرة ووثيقة مع أخيه طوال ثلاث
سنوات ؟ .. عبر عن رغبته فى القيام بالرحلة « على حساب أمننا الطيبة الكنيسة .. »
إلا أن المشروع لم ينجح .

لابد إذن من جرونويل . لقد تغير الجو السياسى العام فيها بعد سنتين حتى قبل
أن يبعدها عنها . كان مونتيثفو وباستار قد بدءا ينعطفان فى اتجاه ليبرالى أخذ يتطور ،
وهو ما يكشف عن التعليمات التى كانت تصلهما وعن الشعور الشعبى العام . هل ترد

* هذا هو النص « المعتمد » للنص اليونانى لحجر رشيد .

جان - فرنسوا فى العودة لكى لا يوضع نفسه تحت رحمتها بسبب ما لاقاه منهما من مضايقات ؟

جاء تعيينه محافظ جديد اسمه شويان دارنوقيل المشهور بليبراليتة فى نهاية سبتمبر ١٨١٧ لتبدد جميع شكوكه حول هذه النقطة .

إلى جرونويل نعم ولكن لعمل ماذا ؟ لم يبق جاك - جوزيف ساكناً منذ وصوله إلى باريس . تردد الحديث حول إنشاء كلية للفلسفة فى جرونويل لإعادة كلية الآداب التى حلت فى ١٨١٦ فى شكل أخرى . كان من المفروض أن توضع الكلية الجديدة تحت رعايه الأب الدمث دوسورد الذى عين خلفاً ليال على رأس الجامعة وأن تتضمن قسماً للتاريخ كان سيؤول كرسيه بالطبع إلى جان - فرنسوا . لكن كان « طافئو الأنوار » متيقظين وتوقف المشروع . واكتفى المنفى المعفى عنه بما وجده فى الدوفينييه وهو وظيفة مدرس فى المدرسة الملكية ودور المسئول عن مدرسة تعليم تعاونى على النمط الذى أنشأ عليه مدرسة فيجاك والتى ستبقى فى النهاية أهم إنجاز له خلال هذه الفترة .

فى جو مفعم بالسعادة أخذ شامبوليون الصغير يعد حقييته وصندوق كتبه . وسافر فى ٨ أكتوبر إلى جرونويل ويصحبته «على» الصغير تلميذه وأبن أخيه الذى كان قد بلغ الثامنة وارتبط به جداً . ذهب ليلقى زوجة أخيه زويه المرحة به دائماً بحرارة وهذه الروزين التى سيطرت على أحلامه خلال فترة أدائه لدور « الولد الشقى » لمقاطعة كارسي التى دامت ثمانية عشر شهراً .

أقرب جان - فرنسوا من عامه الثامن والعشرين . طعام اللوت الشهير - من ملابس وفواجرا وشربة الجاربور إلخ ... - لم يفده إطلاقاً فقد نقص وزنه والهواء النقى ذاته لم يجد فى أن يبعد عنه حالات الاختناق التى تنتابه ولا أزمات السعال الطويلة ولا الارتفاع المفاجئ فى درجة حرارته ، وكثيراً ما كان يضطر إلى أن يبقى ممدداً إلا أن مزاجه أصبح أكثر مرونة . وإذا كان لا يزال على موقفه من عدم إعطاء الجنس البشرى إعتباراً كثيراً (وخاصة الأبناء) فقد اكتشف فى فيجاك أصدقاء حقيقيين مثل أسرة جانسون وأسرة جيرى وجان فيبييه . كما أنه لم يترك هذه « الأم المحبوبة والطيبة » بغير ألم .

لم ينمى شامبوليون الأصغر متاعه الايجييتواوچى فى مدينة فيجاك فقد عاش فيها فترة من الاجترار الهادئ . ولكن بعد المطبات الهوائية العنيفة التى خاضها فى ١٨١٥ وقبل المحن الكبيرة والانتصارات الخطيرة التى ستعرفها العشرينات ، مرحلة مثمرة لاتوجد عبقرية لاتؤجج توهجها لحظة سعادة .

٨ - روبيسبيير جرونوبل

استقبل كالمنتصر - شويان دارنوقيل ، الليبرالى - دوناديوو « المضلون » - هل هم ماسونيون ؟ - جاك جوزيف ومسيوداسية . - التعليم التعاونى فى مواجهة « طافئ الأنوار » - عودة إلى الهيروغليفية - جلسة تاريخية فى أكاديمية الدوفينية - روزين أو الزواج المربك - «الاتحاد» وأصحاب الرداء الأسود - « فضيحة جريجوار - يحيا الملك - يحيا الدستور » - البارون نوسان الرهيب . - استيلاء عالم آثار على الباستى ... - غير منذب ! - « كأس المراره الجرونوبلوازى انتهى بالنسبة لى .. »

ياله من شخص غريب الأطوار هذا السيباستيان فالكيه دو بلانتا ، نجل أحد أعيان جرونوبل . بهرته الثورة ، تطوع فى الجيش وهو فى العشرين وأصبح عقيداً وهو بعد فى الخامسة والعشرين وجرالاً فى الثلاثين ، على الرغم من أنه كان صديقاً للويس شقيق القنصل الأول إلا أنه فضل أن ينفى نفسه بعد إعلان قيام الإمبراطورية ومع ذلك نجح فى أن يجعل نابوليون يعينه مفتشاً لأكاديمية جرونوبل (وهو المركز الذى كان يصبو إلى شغله بشدة جاك - جوزيف شامبوليون*) ثم يناصر قضية أسرة البوربون منذ ١٨١٣ ويؤلف فى ١٨١٤ قصيدة على شرف الكونت دارتوا عنوانها قصيدة غنائية للزنايق ضد غول كورسيكا ويرأس محكمة جرونوبل الخاصة التى أرسلت يدييه إلى المقصلة .

معجب متحمس للفيلسوف «كانت» وتلميذ للمربى السويسرى العظيم پستالوتزى، أنهى حياته هو فى علاقة حميمة مع (الفليسوف) جان دوبيران ... شخصيته نجحت فى أن تثير حيرة أهل زمانها بتجاوزاتها على الرغم من كثرة ما حدث فيها من شطط . وصف فى : تاريخ حياة الدوفينية Biographie du Dauphiné بهذه السطور : « رجل وسيم جداً نو فكر متعدد الجوانب أمضى حياته فى الثرثرة وفى تسويد الورق بالكتابة السطحية فى كافة المواضيع » .

إن اعتناقاته لمبادئ غير مبادئه ثم العودة عنها والتغيرات المفاجئة لأفكاره فى مختلف الاتجاهات وكذلك خطبه وحملاته ، سلطت الأضواء بشدة على پلانتا العجيب . إن حياته تلخص فى الواقع الجو الروائى الذى اتسمت به بداية ذلك القرن فى الدوفينية

* وشغله فى البداية الأب لاکوست مرشح مناصرى الكنيسة .

- أى خليط من ستاندال ولاكلو . فى يناير ١٨١٧ كتب جان فرنسوا - وهو مازال « منفيا » فى فيجاك ولكنه كان متيقنا أنه سيرى جرونويل وسكانها بعد فترة قصيرة - خطاباً إلى تيقونه تجعل المرء يحب الواصف والموصوف :

« ... إنى لسعيد بأن أرى عزيزنا الطيب بلانتا فى صفوف الدستوريين ضد المتطرفين ، وكان الأجدر به ألا يتركهم حفاظا على شرفه ومن أجل راحتنا . إن قلب هذا الرجل يخدعه باستمرار [...] لذلك فإنى لا أفهم لماذا أنا ميال له [...] أحب أن أراه وهو يدعم البادئ الليبرالية فإن القضية تستحق هذه الفصاحة ..

ثم يضيف « صغير » هذه الملحوظة التى تكشف الكثير عن « قلبه » ذاته وهو الذى خدعه أحيانا *:

« هنا ينتصر أصدقاء الدستور وإذا وجد عيب فهو فقط أنهم يهاجمون المتطرفين بأكثر مما ينبغى .

كنت أود كثيرا أن أرى الذين كانوا ينادون بالاعتدال فى ١٨١٥ و ١٨١٦ يتصرفون بأكثر من ذلك فى ١٨١٧ . لكن هذا هو حال البشر يغالون دائما فى استخدام السلاح الذى كانوا يخشونه قبل أن يصبح فى حوزتهم . »

كان المتوجه سياسستيان فالكيه دوق دو بلانتا المنتمى لهذه النوعية (المتطرفة / الليبرالية) الذى وقف فى ٢٠ أكتوبر ١٨١٧ خلال اجتماع لأكاديمية الدوفينييه يطالب زملائه بأن يجيبوا فوراً على ثلاثة أسئلة هى :

(١) هل يمكن تنوير الشعب ؟

(٢) هل من المفيد تنوير الشعب ؟

(٣) هل من حقه الحصول على التعليم الأولى ؟

كان من جراء هذه الدعوة أن الردود جاءت حماسية وتنزع إلى تعبئة المثقفين الدوفينييين فى موجة «تقدمية» شاركت فيها أيضا الايستوقراطية الليبرالية المعاصرة - مثل الدوق نود وراى ، والدوق دولاروشفوكو والفيكونت دو موغورانس وكان هذا الأخير مهتما جداً بالتعليم الشعبى وهو بالمناسبة سيؤدى دوراً هاماً فيما بعد فى حياة جان - فرنسوا العملية .

* فى فيجاك .

كان «صغير» يعرف وهو فى العربية التى تحمله وبجواره الصغير « على » من ضفاف الرون إلى ضفاف الإيزار أنه سيلقى مدينة تم عزل العديد من متطرفيها موافقهم السياسية تماثل موقف بلانتا . ولكن هل كان يتصور أن الأكاديمية العلمية التى تواضعت لتستمع إليه وهو لا يزال مراهقا متنورا ، كانت تعد له هذا الاستقبال الاحتفائى الذى هو بمثابة قسماً يؤدى من أجل الثورة التعليمية ؟ هل كان يأمل بعد أن طرد منها على يد حكومة ريشوليو - فى استقبال حماسى فى نفس المدينة وتحت حكم الوزارة ذاتها .

فى ٢١ أكتوبر أى بعد سويغات من الخطبة الحماسية التى ألقاها سيباستيان بلانتا ، خطيب التعليم الجماعى ، استقبل أصغر الشقيقين شامبوليون وهو يهبط من العربية التى أقلته - استقبال الأبطال المنتصرين . إذ وجد نفسه كما كتب لأخيه « أحتضن ويحتفى بى من أشخاص لا أعرفهم البتة ... » الثورى الخطير فى ١٨١٦ رجب « النخب فى صحة الجمهورية » عدو « الكازينو » استقبل استقبال الابن الضال العائد الذى لم يكن التيه من اختياره ولكنه تحمل بجلد عذاب النفى .

تجمع حوله أعز أصدقائه : أوجوستان تيفونيه ، وشارك رونولون وهوج بلان وأسرة بيريا وأسرة بيربيه وأسرة نيسار والجنرال نولا سالات وسافوا نو رولان وسابى وفرانسيه دو نانت والطبيب بيلون ... ياه !! إن « الحزب » اللييرالى استعاد حيويته منذ الوقت الذى كان يضطر فيه إلى الاختباء من القبضة الحديدية لموليفو وباستار ودوناديو وبيننا . الأول والثانى نقلا إلى مناصب أخرى وكان الثالث على وشك الإبعاد أما الرابع فقد أوشكت فترة حكمه أن تنتهى .

غير أن الحزب « الأسود » لم يكن مستسلماً . إنه يحافظ فقط على ذخيرته هنا وفى باريس أيضا - وإذا كان نجم نوبيتا هو الذى يلمع الآن فإن بلانيللى دولا قالات فى انتظار أن يحل محله وإلى جواره يقف قوم مثل سيلفى ودو بوشاج وشامبوليون . الإرهاب الأبيض توقف ، نعم ولكن قواته تقف فى صفوف الاحتياطى (للملكية ..) بل إنها تقف متأهبة .

لا يهم ؟ إن جرونوبل الذى دخلها جون فرنسوا فى هذا الشهر العاشر من عام ١٨١٧ دخولا لافتا مدينة مفتوحة . لا يقف أحد على قمتها .. كل شخص فيها يمكنه إسماع صوته أو عرض أفكاره .. ولولا غياب شامبوليون - فيجاك النشاط الذى ذهب يشق لنفسه طريقاً فى باريس لاعتقدنا أننا عدنا إلى الأعوام ١٨١٠ - ١٨١٥ زمن فورييه الطيب والعزيز العجوز نوبوا - فونتال .

يرجع هذا الانفراج فى الأساس إلى رجل واحد هو فرانسوا - شويان دارنوفيل الذى اختاره كل من الملك وبوكاز ليحل مكان التمس المحافظ مونليفو . أصله من نورماندى وهو من سلك القضاء وتولى مناصب رفيعة فى باريس « معتدل فى تفكيره ، مجتهد جداً فى عمله » (1) .

لم يأت هذا التعيين من ضربة حظ ، ففى نهاية ١٨١٦ رأت السلطة - أو بالأحرى رئيس الوزراء بوكاز - أن عدم شعبيتها تزداد بسبب التشدد القمعى الذى يمارسه أشخاص مثل باستار ودوناديو ولذلك أرسلت إلى الإدارة العليا الخطاب الدورى التالى : « صاحب الجلالة لويس الثامن عشر يرى أن جهود الإدارة يجب أن تبدل نحو تقريب الأفكار وربطها بالحكومة » (2) .

فى نفس الوقت أرسل المارشال مارمون ، نوق دوراجوز فى منطقة تضم الإيزار والدورم والرون محمل بلقب نائب الملك وكان معروفاً بأنه خدم البوربون خدمة عظيمة عندما ترك الأمبراطور فى آخر مارس ١٨١٤ ، إلا أنه احتفظ بشئى من الشعبية لدى الشعب البسيط . وكانت المهمة التى كلف بها «هى إعادة السلام بهذه المناطق ومعه الهدوء والثقة » وقد أعلن مارمون فى إحدى جلسات الأكاديمية الدلفينية إعادة بعض الضباط المحالين إلى الاستيداع بنصف مرتب وكذلك العفو السياسى عن بعض الأفراد .

كانت مهمة شويان دارنوفيل إذن هى نزع أسلحة العصابتين أى الليبراليون العائنون لمواقفهم والمتطرفون الجامحون . لم ينجح فى مرحلة أولى سوى - كما يؤكد إيميه شامبوليون - فيجاك - « الوصول إلى نتيجة مؤسفة » وهو أنه « جعل الملكيين المتحمسين يفقدون صبرهم » (3) . أكثرهم حماسة كان دون شك الجنرال - كونت دودوناديو الذى يصف أصدقاء المحافظ الجديد بأنهم رعا .

وكانت المصائب قد انهالت عليه وجعلته فى ثورة دائمة : فعلاوة على فقدان أصدقائه أعضاء « الكازينو » لسطوتهم حدثت له كارثة شخصية : فائتاء المحاولة الانقلابية التى قام بها ديديه فى مايو ١٨١٦ لجأ أحد قادة الانقلاب إلى منزله فى الوقت الذى كان هو يطارد أفراد المؤامرة فما كان من زوجته الكونتيسة إلا أن أوت المتمرد وأنقذته ! : وتقول الإشاعات أن هذا المتمرد لم يكن سوى أوجان دو بوهارنيه ذاته الوغد : وانتشرت القصة فى جميع أركان المدينة . وترتب على ذلك أن حدث ما يلى ونروييه على لسان جان - فرانسوا كما نقله لجاك - جوزيف :

« قام الجنرال نوناديو بفضيحة جديدة خلال حفل ساهر مقام فى دار المحافظة : إذ أنه رأى زوجته الجنرالة تلعب الورق على مائدة السيد المحافظ عند وصوله . فانتابته ثورة غضب وأخذ زوجته من زراعها وأعادها إلى منزلها وهى أقرب إلى الموت من الحياة فما كان من مسير دارنوفيل إلا أن استمر بكل هدوء فى اللعب معبرا عن احتقاره لهذه الإهانة الهمجية .. إذا استمرت الأمور على هذا الحال فإننا سنشهد مبارزة بالسيوف عن قريب . »

صفحة من صفحات رواية « الأحمر والأسود » .. مثلما جاء أيضا فى هذه القصة التى يرويها الأب لو سورد الرئيس الليبرالى الجديد للأكاديمية فى خطاب للمحافظ :

« .. رأيت الجنرال يتوجه نحوى راكبا حصانه ويصحبه عدد من الضباط فأسهرت بوضع يدى على قبعتى لتحيته وإذ به بدلاً من رد التحية يقول لضباطه [...] بصوت عال :

« إذا فى الطريق صادفت وغداً صبح عالياً : إنه صديق شويان » (4)

هل تعدى نوناديو الحدود ؟ يتردد فى باريس أن نجمه أقل . من جان - فرانسوا إلى أخيه :

« يزداد الجنرال الجليل سعيرا من يوم لآخر . إن مقته للمحافظ وصل لدرجة أنه لم يتبق سوى خطوة واحدة قبل أن نرى المتطرفين يعملون تقتيلا فى الليبراليين . إذا حدث شر وسقط المحافظ فإننى أرى أن أى أمل فى السلام والهدوء سيكون مستحيلا . إننا نقف جميعا على الأشواك . »

وصل نيا إزاحة نوناديو عن منصبه فى نهاية الأمر إلى جرونوبل فهو لم يكتفى بدفعه سكان جرونوبل إلى فقدان حلمهم بل ضلع فى باريس فيما أسمى « بالمؤامرة على سطح الماء * » مع شاتوبريان :

« ... كنا فى انتظار التخلص منه خلال الليل . إلا أن المسعور رأى أنه من واجبه أن يجعلهم يدفعون ثمن تجرأهم عليه وأن يكون خروجه بضجه . فعلى الرغم من سوء الجو الشديد فقد أمر بجمع الحامية العسكرية بأكملها فى ساحة السلاح [...] كان المتطرفون قد قاموا طوال الليل بلمصق الإعلانات التى تحض على الثورة إلا أن

* التى استهدفت فى منتهى البساطة خطف الملك .

ذلك لم يكن له أى أثر. منذ أن غادر الرجل العظيم الجميع يضحك ويغنى دون خوف من إثارة شكوك الشرطة. لقد كنا عاقلين « فقد نصحنى المحافظ بذلك وكلفنى بأن أقول ذلك للآخرين . » .

« أن أقول ذلك للآخرين...! جان - فرنسوا مكلف بمهمة - أو حتى « بمهمات » من محافظ الإيزار ؟ قبل ثلاثة أشهر من عودته من « المنفى » هاهو المواطن السيئ ، الجاكوبى وقد رقى إلى مستوى الرجل الموثوق فيه من ممثل آل بوربون فى جرونوبل . لقد توطدت بينهما علاقة من نفس نوع العلاقة التى كانت تربط فوربيه بشامبوايون - فيجاك قبل ذلك بعشرة أعوام مع فرق بسيط هو أن صاحب السلطة الجديد لا يمكنه أن يؤثر على العالم الشاب بنفس مقدار التأثير الذى كان لعالم الطبيعة المشهور على أخيه .

إيقاف دوناديو عن العمل فى أكتوبر ١٨١٨ وكذلك دوبينا - وإحلال المعتدلين الجنرال لودرو ديزيسار ورواييه - دولوسن محلهم - دعم موقف شويان دارنوفيل - وبالتالي موقف « صغير » ولكنه لم يهدئ النفوس . جوقة « الكازينو » بقت على موقفها التحفظ . خاصة بعد أن حصلت على مناصرة « خطيب الحروب الصليبية » الأب دو روزان الذى كان على رأس « جمعية الإرساليات » وأم يكن بعيدا عن الاعتقاد بأن وجوده فى الدوفينييه « فى محاربه الكفار » سنراه قريباً وهو يتحول إلى العمل .

« طافئو الأنوار » بدعوا يتحركون . وقف فى مواجهتهم حزب الذين يعتبرون أنفسهم دعاة الاستنارة وأحد روادهم هو جان - فرانسوا .

هل كان على صلة بالحركة الماسونية الحرة ؟ إن موضوع علاقة الشقيقتين شامبوايون بالحركة غامض جداً . ولكن من ذا الذى لا يعلم أن هذه الحركة كانت - من الأب تيراسون حتى فوربيه - على علاقة بكل من يمكن تسميتهم بما قبل علم المصريين (عصر ما قبل الإيجيبتولوجيا) ؟ كل شئ كان يشير إلى ارتباط الرجال المهتمين بالأبحاث الاستشرافية بالماسونية - كل شئ من أسرار الوزيس إلى اسطورة إيزيس وأوزيريس والبحث عن « النور » الشرقى ، والطقوس المعقدة المتعلقة بالدخول فى تيار الاستنارة الأوروبية من خلال فون بورن وموزار .

علاوة على ذلك فإن معظم الأصدقاء الجرونوبلوازيين للشقيقتين من جوزيف فوربيه ، عضو بارز فى محفل « القلوب الأمنية » إلى شارك رونودون وابنه ، ومن هوج بيريا إلى أوجوستان تيفونيه ومن بيلون إلى فروسار إن معظم أصدقائهم ومؤيديهم وزملاء الشقيقتين شامبوايون كانوا أعضاء فى الحركة الماسونية الحرة .

كل شيء كان يؤدي بهما إلى الماسونية ليس فقط للأسباب الأيديولوجية والعلمية التي ذكرناها ولكن لأن هذا الانضمام كان يلتقى وميول جاك - جوزيف الطموح وجان - فرنسوا الليبرالى . أى أين يمكن أن تجعل لك أصدقاء أقوياء ؟ وأن تقيم أفضل التحالفات ضد « طائفتى الأنوار » و « المتعصبين للكنيسة » و « المتطرفين » .

إلا أن الإثباتات الدالة على انضمام أى منهما غير متوفرة ويقدر سهولة إثبات ارتباط هنرى بايل بالماسونية بقدر استحالة إيجاد مؤشر واحد فيما يتعلق بجاك - جوزيف أو جان - فرنسوا . ومع ذلك كم كان التفاخر بانتساب « رجل الأنوار » - بين كل الرجال - ضحيه القمع ومن خلال أسرار الطقوس الغامضة والمثيرة للخيال للانتساب للماسونية مرغوباً فيه من الشقيقتين .

فى مذكرة أرسلها السيد / أ . بيهان إلى جان يويوت - ونشكرهما هنا هما الاثنتين - والأول هو من الخبراء فى هذا المجال - يستبعد تماماً أن يكون الشقيقتان قد انضما إلى الحركة الماسونية فى جرونويل . لا يذكر مسيو بير بارال شامبوليون فى مقاله : « قرن من الماسونية الجرونويلوازية (١٧٥٠ - ١٨٥٠) » المنشور فى كراسات التاريخ Les Cahiers d'histoire والتي تنشرها جامعة كلارمون - فيران (5) كان لابد أن يلفت نظره اسم شامبوليون ... مع العلم بأنه « محفل أصدقاء التسامح » تأسس فى جرونويل فى ١٨٢٢ وهو ينتمى إلى مذهب ميسراييم . ولكنه لم يدم طويلاً وانحصر فى بعض الأعضاء المقبولين . إن تجنيد رجل كشامبوليون فى جرونويل أو باريس أو فى غيرهما كان لابد أن يذكر بل وأن يشاد به أيضاً .

فى ١٦ إبريل ١٨١٧ وصل جاك - جوزيف شامبوليون فيجاك إلى باريس وبدأ تسلقه الصبور لأسوار القلعة - العاصمة التي القوه من فوقها غداة هزيمة واترلو . لن نهمل أبداً محاولات الأخ الأكبر لأنها تدخل فى إطار الأفاق - بل أنها ترسم الأفاق ذاتها - التي ستجرى فيها مجهودات جان - فرنسوا - النهائية من أجل إيجاد حل الشفرة .

التحالفات والانفراجات والمؤامرات والهجومات المضادة وأعمال التقويض وفق الحصار ... لقد كانت هذه السنوات الخمسة من حياة شامبوليون - فيجاك (١٨١٧ - ١٨٢٢) الباريسية مثل سنوات الدعوة بالموعظات التي قضاهما يوحنا المعمدان على ضفاف نهر الأردن للإعلان عن قرب قدوم المسيح . مع فارق بسيط وهو أن العميد السابق لكلية آداب جرونويل لم يحظ بسعفات الاستشهاد ولكنه سيحصل على الفشل

ثلاث مرات وبالتالي الفشل النهائي فى الحصول على عضوية الأكاديمية فرانسيز وكان من أسباب الفشل الرئيسية فى المرتين الأخيرتين بسبب الغيرة التى أثارتها اكتشافات أخيه الأصغر .

إذا نحن اعتبرنا بداية الحملة الباريسية لجاك - جوزيف بمثابة هجوم أولى من أجل إعداد أوروبا العلمية لكى تحسن إستقبال عبقرية أخيه فأنها فى الواقع تتلخص فى انتصار ضخم وهو العلاقة الحميمة على المستويين المهني والعاطفى التى أقامها المثقف القادم من فيجاك مع بون - جوزيف واسيبه السكرتير الدائم للأنستيتو قسم التاريخ والأداب القديمة* لم تكن هذه العلاقة « حب من أول نظرة » بين داسييه والمنفى إلى كارسي : فعندما قدمهما ميلان لبعض كان الرجلان يعرفان بعضهما منذ أكثر من عشر سنوات كما أن شامبوايون الكبير عضو منتسب للأنستيتو . إلا أنها كانت عملية استمالة متبادلة بين الرجلين .

لقد اتيح لنا أن نتعرف على إمكانات الشقيق الأكبر فى استثارة إعجاب وتعاطف الآخرين . وكان صديقه الجديد - داسيه - المشهور والمبجل يتمتع بنفس هذه الميزة . كان قد نشر قبل أربعين عاماً ترجمة ممتازة لكتاب سيرويبيديا لجزينوفون (محاولة سيحاول تكرارها كل من كانت له رغبة دراسة اليونانية) وبعد ذلك لم يفعل شيئاً . هذا العجز الدمث الأخلاق الذى عبر الثورة والإمبراطورية دون أن يخطئ أو يخون ، كان يكتفى بالإعجاب بزملاءه الشباب ومساندتهم فى أبحاثهم وبالإشادة بهم بعد وفاتهم - من عقد إلى عقد - أصبح خالداً حقيقياً** مع مرور الزمن أصبح المنظم لجنارات أعلام العلوم الفرنسية .

« مسيو دوساسى ترجم [...] مسيو لانجلاس كتب مذكرات مسيو كاترومار بعض الجمل المفيدة ، مسيو داسييه يتلاعب بالكلمات ...» بعض مما كتبه جان - فرنسوا إلى أخيه فيما بعد . هذا المتلاعب بالكلمات سيفعل الكثير لصالح المكتشف مع الأخذ فى الاعتبار أن التعاطف الواثق الذى يكنه لفيجاك كان قد بين الأمور بوضوح للرجل العجوز.

بفضل ما يتمتع به من الحضور الاجتماعى الخلاق الذى هو مزيج مقنن من الوصولية وتقديم الخدمات والعاطفة والذى يجعل منه أحد مخترعى مانسميه اليوم العلاقات العامة - « وضع جاك - جوزيف يده » على بون - جوزيف . مع إضافة تجديد شخصى جداً لاسهاماته العلمية. «هذا السكرتير الخاص » كان يكتب أهم ما جاء فى خطب المديح الأكاديمية» التى كانت تثير أو تحافظ على سمعة السكرتير الدائم : أثبت سن . أو . كاريونال بمراجعة أسلوب الكتابة نصاً وراء الآخر ، أن مشاركة الرجل

* الذى سيصبح أكاديمية المخطوطات والأداب .
** كل من يقبل فى الأكاديمية يسمى « خالد » [المترجم] .

العجوز لم تكن تتعدى مع مضى الوقت سوى بعض « التعديلات الخطائية »
وتصححات للنسخ (6) ...

كما كان داسييه يعتمد على جاك - جوزيف فى تنفيذ مشروع « عصره » الكبير وهو
الجرد الكامل « للآثار » فى فرنسا وهو المشروع الذى حاول أن يقنع به بابويون قبل عشر سنوات .

لكن إذا كان اجتهاد الأخ الأكبر شامبوليون قد أعطى لاستاذه العجوز خصوصية
خلاقة جديدة فإن ذلك قد أثار فى نفس الوقت الريبة والأحكام المسبقة . تأثير سحر
شامبوليون لم يكن فاعلاً على الجميع : لقد أثار نجاحه السريع أكثر من اللازم وتلوناته
السياسية المختلفة (على الرغم من أن أحداً فى ذلك الوقت لم يكن لديه دروس يعطيها
للآخر فى هذا المجال) ووضع يده بالحيله على قبطان الباخرة الاكاديمية - أثا زوابع
كثيرة مثل تلك التى أثارهما الامتياز الذى منحه الملك لديوكاز .

عندما رشع عميد كلية آداب جرنوبل السابق نفسه لأكاديمية المخطوطات فى بداية
أبريل * ١٨١٨ ساند داسييه بالطبع كما أيده ليونار بوسونيرى الذى كان زميلا
لأخيه فى الكولاج بوفرانس ، غير أن جان - فرسوا لم يخفى من موقعه فى جرنوبل
مخاوفه : « ها أنت الآن بين أيدى السادة أصحاب الكراسى . أرجو من الله ألا
يعاملوك مثلما فعلوا مع الرفيق فوربييه ** أعتقد أنهم قادرون على ... » (٧ أبريل
١٨١٨) .

وضوح رؤيا نابع من الحب الحقيقى : جاك - جوزيف انهزم بواسطة الجهة المكونة
من الحسودين وطافئى الأنوار وأفضل مثل لهم هوراول روشات . هذا الدارس
المغمور للغة اليونانية هاجمه بول لدى كوربييه - المعروف بأنه من الكتاب السياسيين
أكثر منه لفوى والذى خسر فى انتخابات الأكاديمية هو أيضا ، هاجمه على طريقته :

« ... مسيو راول روشات هذا المدافع الأنيق عن الكنيسة *** كان فى إمكانه أن
يتعلم كئى فرد بأن يذهب إلى المدرسة إلا أنه رأى أن ذلك لن يفيدته بشئ ففضل أن
يمثل عن أن يتعلم . حصل على عشرة وظائف كعالم ولم يتمكن من ممارسة واحدة
منها علماً بأنه حصل عليها ولم يعمل على أن يستحقها (7) » .

* النص الفرنسى ١٨١٧ - ولكن واضح جدا أنه خطأ مطبعى [المترجم] .

** الذى قد فشل مؤخرا فى الحصول على موافقتهم .

*** معروف من الوسط العلمى بأنه ممثل الكنيسة بينهم .

باختصار ، رفض ترشيح جاك - جوزيف * وألمه ذلك جدا ، كما ألم ذلك بون - جوزيف أيضا . هذه الإهانة الموجهة لشخص من محاسبيه زادت من ترابطهما . وهو ما سيؤدي دورا رئيسيا ليس في اكتشافات جان - فرنسوا بقدر ما ستؤدي في الاعتراف بعبقريته . كما أن هذا الامتحان الأكاديمي ألقى الضوء الكاشف للعداوات والصداقات . فهو إذ غامر بالدخول في ميدان مكشوف فقد تمكن أن يجاك من رصد من أين تأتي الطلقات وفي أي موقع تقف الحلفاء . كانت إذن معركة كاشفة . فيما عدا داسييه إذن ، لم يكن أفريق شامبوليون أن ينتظر أن يأتيه العون من السادة أصحاب الكراسي

بينما كان الأخ الأكبر يتلقى الضربات السيئة بعد أن دخل الأتون الباريسي وهو يسعى لتوسيع رقعة سلطاته وعدد تحالفاته - كان الأخ الأصغر يدعم مواضعه في جرونويل . إحدى مظاهر التعبير عن الاحترام بل عن « السلطة » التي حازها المنبوذ القادم من فيجاك بعد عودته إلى جرونويل بسنة أشهر هو تكليفه بمهمة دبلوماسية في ربيع ١٨١٨ . كان المطلوب هو تجميع واختيار المستندات المتعلقة بالأراضي التي تردها فرنسا إلى ملك ساردينيا والبييمونت . وهكذا ويعد أن تحول إلى مستشار دبلوماسي كتب في ٧ أبريل ١٨١٨ إلى جاك - جوزيف :

« وصلني الآن قرار تعييني كوميسيرا للبحث عن مستندات الملكية والمستندات المتعلقة بماركيزيه سالوس وبيكارمانيول ** اللتين يطالب بهما ملك ساردينيا . والتي قد تكون موجودة في مجلس المحاسبات [..] لا يريدون إعطاء صاحب الجلالة الساردية سوى ما هو لازم ولاشئ أكثر من ذلك [...] سوف لجعل زميلي يدفع ثمناً غالياً لما يريده *** [...] إذا كنت تعرف أي مواطن ساردينى في باريس أسأله عما يريد عمله بكونتية سالوسى وماهى العلاقة بين جرونويل وهذا البلد **** .. »

وكتب إلى جان فيسييه في ١٥ أبريل

* كما سيرفض ترشيحه مرتين بعد ذلك في ١٨٢٠ و ١٨٢٤ .

** موضوع طريف بالنسبة لشخص جمهورى النزعة في خدمة أسرة بوربون .

*** الكونت كوستا ، من جنوا ، والذي سيصبح صديقا له وسيعرض عليه شغل كرسى التاريخ بجامعة شوريت وهو ما سيرفضه بعد تردد .

**** مقاطعة سافوا أعيدت إلى بلاط تورينو عام ١٨١٤

« أمضى نصف أيامى فى تحريك أوراق قديمة فى أرشيف البرلمان بحثا عن عقود قديمة لها علاقة بتاريخ الدوفينييه . باقى الوقت أمضيه فى مقابلة أصدقائى ولايبقى لى سوى نصف ساعة من الوقت لأقوم بقله قليلة من الغزل لصاحبة الحق فى ذلك . »

« نصف أيامه .. » النصف الباقى لايبقى فيه باطلا . ديبلوماسى بالصدفة عالم لغويات بالمهنة . ولكن جان - فرنسوا كان قبل كل شئ مربييا خلال هذه الشهور وذلك على ثلاث جبهات :

أولاً : بصفته معلم ابن جاك - جوزيف وهو يريد بذلك سداد الدين القديم الذى عليه .

ثانياً : بصفته مدرس مادة التاريخ فى المدرسة الملكية

ثالثاً : وأخيرا وعلى وجه الخصوص بصفته مديراً للتعليم التعاونى فى مقاطعة الدوفينييه وهو ما كان قد كرس له وقته فى مقاطع اللوت .

عندما وصف تلك الأيام لصديقه فى فيجاك جان فيسييه اعتبر أكثر هذه المشغوليات صعوبة ، « تعليم « ابن أخيه على . « فهو شئت الفكر كالمعتاد . أعلمه اللغة اللاتينية وهى عملية ليست هينة . إذا وجدت صعوبة بل صعوبة كبيرة جداً فى هضم المبادئ الأولية لى مادة فإنك ستجد صعوبة جملة فى جعل آخر يقضمها . ولكن من واجبى أن أمر بهذه التجربة . إن الطبيعة تنادى وإنى استجيب .. »

فى خطاب لأخيه فى نفس العام ٧ أبريل - كتب جان - فرنسوا مشيراً إلى ما يدرسه لعلى وكان حينذاك فى التاسعة : « لاتينى ، فرنسى ، قليل من الجغرافيا . قل لى إذا كانت هذه الخطة تروق لك .. » عودة لعلاقة الشقيقين خمسة عشر عاما إلى الوراء ..

بالنسبة للتعليم الكلاسيكى كان أمله أن يعود إليه من الباب الواسع فقد أعطاه كل من المحافظ ورئيس الجامعة الأب دو سورى « هشيم جامعى نبيل » ، الأمل فى أنه سيسترد كرسيه لمادة التاريخ . غير أن الكلية المسماة بكلية « الفلسفة » ، لم تعد إلى الوجود (لأن الكلمة لم تعجب آل بوربون) وكان على جان - فرنسوا أن يكتفى بتدريس مادة التاريخ فى المدرسة الملكية مقابل مرتب ضئيل ١,٨٠٠ فرنكا فى العام .

كانت مهمته الأساسية التعليمية فى الواقع هى إدارة المدرسة المسماة بمونفلورى باسم المكان الذى احتلتها مدرسة التعليم التعاونى قبل أن تنقل مع بداية العام الدراسى ١٨١٨ إلى دير قديم بالقرب من جرونويل وكان اسم المدرسة فى البداية المدرسة اللاتينية .

يمكن أن نتصور عدد الطلبات الملحة التي انهالت عليه فور عودته وكان ذلك غداة نداء دويلانتا من أجل التعليم الشعبي - والذي أصبح الهدف الأسمى لمعركتهم وهي المعركة التي سيكون هو قائدها العام . وذلك بمناسبة شويان دارنوفيل النشطة وبتأييد الأب نو سورد . علاوة على بعض كبار النبلاء الليبراليين ومنهم الكونت دو لاستيرى والكونت دو لاورد الذين عبروا عن تحمسهم للمشروع .. وكان التمويل متوفراً .. كيف إذن التخلص من المسؤولية ؟

خاصة وأن طائفتي الأنوار أخذوا يوزعون الحرمان من الكنيسة . ولما كان من الصعب عليهم أن يعلنوا عن مناهضتهم للتعليم الشعبي فإنهم كانوا يندون بطريقة « مستتردة من الخارج » وتم فرضها خلال « يوم الاغتصاب » على يد « كارنو قاتل الملوك .. وعن ذلك كتب صغير لأخيه « يطوف مبعوثوهم من محل لآخر . يقولون أن الماسونيين هم الذين اخترعوا هذه الطريقة ... وبذلك يكون من التقوى كفريق الإعلانات الدالة على قرب موعد افتتاح المدرسة التعاونية .

يألها من قضية يدافع عنها الأب دو روزان . فهو يعلن أن المناولة المقدسة الأولى سترفض للأولاد الذين سيذهبون إلى هذه المدرسة وتحول إلى حامى حمى العقاف كما جاء فى هذه السطور التي كتبها جان - فرنسوا لأخيه : « قبل أيام قليلة هدد مسيو دو روزان بأنه سيأمر بضرب والقتل بالسونكى المتخصصين الذى يقفون عند أبواب الكنيسة لشاهدة السيدات وهن خارجات . الكنيسة محاطة بالفعل بجنود مسلحين إنها مهزلة حقيقية . »

لم يكن صديقنا عالم اللغويات فى حاجة إلى أكثر من ذلك ليندفع إلى ساحة الصراع . بدأ تسجيل أسماء التلاميذ مع بداية العام ١٨١٨ . وجاء النجاح باهراً . وفى ١٥ إبريل كتب «صغير» لصديقه جان فيسييه يقول : « أدير مدرسة للتعليم التعاونى أقمتها فى مدينتنا على الرغم من صياح طائفتي الأنوار* الذى لم يمنع أن عدد الأولاد المسجلين بلغ اليوم ثلاثمائة وأن المدرس الذى عينته ممتاز »

المستولون المباشرون للمدرسة موزقورى كانوا ثلاثة من أصدقاء جان - فرنسوا : الشقيقان فروسار ودوران وقد جمعوا المدارس التي كانوا يديرونها . أما هو فكان يكتفى بالتدريس وكان يرسم جداول تعليمية ملونة الغرض منها جعل التعليم محبباً لدى

* أشار إليهم فى الخطاب بثلاثة أقماع وهو الرسم الدال على معدة إطفاء الشموع . وهو يكرر ذلك باستمرار .

الأطفال يجذبهم له سحر الصور الملونة . أشرك معه فى هذه العملية صديقه المثل تريول الذى أسس معه ومع جوزيف رى الجمعيه الليبرالية السرية المسماه «الاتحاد» . فى بعض الأحوال كان نوو الرداء الأسود يعرفون كيف يدعمون التعليم الشعبى : إذ أنه عندما افتتح مدرسة فى فيف بالقرب من منزل الأسرة دهش جان - فرنسوا بحصوله على تأييد قسيس الكنيسة وكذلك تأييد زميل له من قرية مجاورة . طافئو الأنوار ليسوا جميعها فى جانب واحد ... ومع ذلك فإن قرارات العزل الكنسى الصادرة من الحزب الأسود أخذت تتضاعف بالنسبة لهم . واعتبرت مدرسة مونفلورى وكرا حقيقيا للجاكوبيين مما جعل مسئولو المدرسة الملكية يهددون بأنهم سيعزلون جان فرنسوا من التدريس فيها . ما الذى كان يمكنه أن يحفذه أكثر من ذلك ويربطه بصورة أوثق بهذا « الدير» التعاونى الذى تنتشر فيه الأنوار بدلا من رائحة البخور ؟

إنه كان يريد أن يكون مريياً وهو يتمتع بالموهبة لذلك . ولكن هل كان مريياً حقاً حتى النخاع ؟

لقد سمعناه يتأفف بعض الشئ بخصوص «على» . أما بخصوص مونفلورى فنحن نقرأ : « لم تعد هناك سعادة فى التعامل مع الأولاد أكثر من التعامل مع الرجال » .

بعد قليل يعيد جان - فرنسوا شامبوايون اكتشاف غذاء قلبه وروحه ، سنجد مراسلاته امتلات وفاضت فجأة بإشارات وأشكال مرسومة كما لو أن النيل غمرها هى مصر فوقه كالشمس محلقة مسيطرة ساحرة بل مبهرة لدرجة تحجب الرؤية تماما !
مصر ...

هذه السنة ١٨١٨ التى تقع بين الانسحاب إلى فيجاك وعواصف ١٨٢٠ السياسية تعتبر إحدى أكثر الفصول إشراقا فى حياة المكتشف . فقد ظل لمدة ثلاث أو أربع سنوات أسير السياسة (أو التاريخ) التى استحوذت على فكره تماما . ثم تلاها التعليم .. هاهو يسترد أنفاسه الآن دون أن يستغنى عن أى منهما وراح يديم النظر فى اللغز ليحله .

كما يحدث فى كثير من الأحيان معه فإن التعبير يبدأ بالثورة وبالغضب : فى خطاب بتاريخ ٧ أبريل ١٨١٨ إلى جاك - جوزيف يعبر عن « غضبه » لأنه لم يتلقى « مسورة مشفوفة من النص الهيروغليفى لحجر رشيد » مضيفا بمرارة : « إن هذا يكبلنى تماما ، يداى وقدمائى ... » قدماها؟ ممكن ولكن الباقى لا : ويشهد على ذلك بيان الانتصار - الجزئى - الصادر ضمن خطابه لشامبوايون فيجاك الذى كان قد نقل له الاهتمام الذى قال فوريبه أنه يوليه لأعماله . هذا الخطاب مهم جدا وأساسى :

« أسعدنى جداً أن يكون مسيو فورييه مهتما بدراساتى الهيروغليفية . أعتقد أن ذلك يسترعى الاهتمام [...] سأتمكن فى نهاية الأمر من وضع الكلمة الفرنسية المقابلة لكل رسم هيروغليفى مستخدماً الصورة الزنكوغرافية التى وفرتها اللجنة* [...] أعرف الآن أين يبدأ وأين ينتهى النص الهيروغليفى بالنسبة للخط المكتوب أو اليونانى المقابل له . وسوف أثبت أن الثلثين على الأقل ناقصان ... »

يذهب مكتشف لغز الهيروغليفية المتحمس فجأة إلى أبعد من تقريره عما قام به حتى الآن إذ أنه يقدم رؤية شاملة للعمل الضخم وإعادة نظر أخرى فيما فعل إنها « دراسة فى الأسلوب» ** الخاص به :

« لا يوجد فى عملى شعوذة ولا أسرار . كل شئ يأتى نتيجة للمقارنات وليس طبقا لنظام مسبق . لقد اكتشفت أنوات التعريف والفرد وجمعه وبعض حروف العطف إلا أن كل ذلك لا يكفى لتحديد النظام الذى تقوم عليه هذه الكتابة ، أن نتائج عملى قلبت رأساً على عقب جميع أفكارى التى كنت كونتها عن الهيروغليفيات حتى الآن . أعتقد إنه يجب العودة إلى ما قاله كليمان السكندرى *** ، فيما عدا بعض التعديلات الطفيفة . إلا أنى لا يمكن أن أصل إلى النهاية نون صورة اللجنة المشغولة .

لم ننتهى بعد من هذا الخطاب الكاشف إذ يجب أن نذكر أيضاً هذا الاعتراف – الذى هو أيضاً بيان بأهدافه وموجه لأخيه واستأذنه حيث نكتشف بوضوح طبيعة الرجل التى هى مزيج غامض من الرومانسية (قبل ظهور التيار الرومانى ذاته) ومن جسارة الفرسان ومن الزهو مع وضوح الفكر وصفاء النفس التى يتسم بها أهل الجنوب ليس ذلك فقط بل يكشف أيضاً « سياسته » العلمية وما يسميه « منظومته الأخلاقية والدينية » ****

كان أخوه قد ذكر له احتمال نشر كتابه عن قواعد اللغة القبطية الذى أثار اهتمام نابوليون لدى مروره بجرونوبل فى بداية الأيام المائة (كان الأخ الأكبر يشعر أن بإمكانه تحريك الجبال لولا الأكاديميات ..) وجاء رد «صغير» كالآتى :

* لجنة مصر الموضوعه تحت مسئولية جومار وهى التى تتولى نشر وصف مصر منذ ١٨٠٩ ولم يكن جان – فرنسوا يكف عن انتقاد ما تنقله من هيروغليفيات مما سيؤدى فى النهاية إلى خصام جومار معه .

** عنوان الكتاب الذى ألفه رينيه ديفارت فى ١٦٣٧ والذي يعتبر منعطفا هاما فى تاريخ الفلسفة

[المترجم]

*** راجع الفصل ١٠

**** التى تستعبر من الرومانيات البوذية بعض أفكارها كما يتضح من بعض الإشارات المتناثرة فى

مراسلاته .

« أعتقد يا صديقي العزيز أن ليس هذا وقت التفكير في ذلك ولا هو الموضوع الملح . وعلى العموم فليس لدينا المال لذلك . ولا أرى داعيا للإستدانة* في هذه الأوقات العصيبة التي نعيشها . يجب أن نركز تفكيرنا في مستقبلنا الجسدي أما المجد فسيأتي عندما يريد [...] أما الشهرة فإني أسخر منها بكل عواظني . ليست هذه نكتة بل هو التسلسل الطبيعي لنظامي الأخلاقي والديني . أنه يرنو إلى الراحة النفسية ويؤدي إليها دائما . [...] على الرغم أنني لم أعرف حتى الآن لراحة الجسد ولا الفكر ولاحتى راحة القلب . يعتبر هذا الأخير الجانب الضعيف وللأسف بالنسبة لي فيبدو أنه هو الذي يقود وجودي كله ** هذا هو قدرى ...

إذا كانت لدى إمكانات نشر شيء فسيكون ذلك دون أدنى شك هو على المتعلق بالهيروغليفية . فذلك فيه بعض الإثارة ولعله يحرك فضول عالم الآداب الذي يبدو لي في ثبات عميق . أما ما أراه الآن من تحركات فإنها تبدو لي على الرغم من حيويتها شبيهة بتحركات من يسير أثناء نومه على الرغم من أن عينيه مقفولتان .. »

نجد كل شيء في هذه السطور . هل يجب أن ننظر إلى هذا الخطاب على أنه وصيته بعد أن بلغ ثلثي عمره كله - جان فرنسوا كان في الثامنة والعشرين عندما كتب الخطاب ولم يبق أمامه سوى أربعة عشر سنة ... ففيه نجد وضوح الرؤيا . والحزن والاسلوب المتحمس وهذا التواضع الشكلي الذي هو قمة التعبير عن الزهو وهو ما جعله يصف عمله « بالإثارة » علماً بأنه يلتهم كيانه كله ويتسامى به ؟

أرفق بهذا الخطاب ورقه ضمنها مائة من الأشكال الهيروغليفية ومعها تراجمها بالفرنسية تقريبية مثل الصحراء - المملكة - المعبد - التمثال - الآلهة ... مهما كان هذا المستند غير كامل - إذ يجب أن ننتظر أربع سنوات أخرى من المجهود المستمر ووصول بعض القطع الأساسية التي وصلته من مصر قبل أن تنتشر الأنور - فهو يعتبر - هذا المستند - مسودة إكتشافه النهائي . ثم أنه يضيف عموديا في الهامش ملحوظة أساسية بالنسبة للخطاب والورقة المرفقة : « لا داعي لأن أوصيك باستخدام الورقة المرفقة بحبيرة كبيرة فالملتصمين ليسوا نادريين . إن هذا السطر يكفي لإعطاء المفتاح لكل الباقي ، يمكنك مع ذلك أن تريها لفورييه⁽⁸⁾ . »

* هو المدقق هذه المرة .

** سيتزوج جان - فرنسوا بعد ذلك بستة أشهر .

لقد أصبح «صغير» داخل المعبد - فى قاعته الخارجية نعم ولكنه فى الداخل بالفعل ... وها هو الآن مغطى بالتراب المقدس وسط النخبة المختارة - لكن سيكون عليه قبل الصعود الأخير ودفع الباب المغلق النهائى أن يمر عبر تقلبات عديدة عرفها القرن . إلا أنه كان يعلم فى هذا الربيع من عام ١٨١٨ أن الإشارات الدالة على الطريق قد وضعت ليسلكه حتى النهاية وأن « الراحة » التى يصبو إليها لن يعرفها غداً وأن القدر قد مسه بمخالبه المصنوعة من حجر . هل يمكن أن يسبقه أحد ؟ الإشارة كانت واضحة .

فى الرابع والعشرين من يوليو ١٨١٨ عقدت جمعية العلوم والفنون فى جرونوبل اجتماعاً برئاسة سافوا نورلان . «شامبوليون الصغير» الذى كان انتخب عضواً مقيماً فى ١٨١٠ لم يكن قد حضر الجلسات منذ خمس سنوات إلا أنه أعلن فى ذلك اليوم أن لديه مداخلة هامة ومع ذلك فإن الحضور لم يكونوا بكثرة : ستة أكاديميين فقط ومنهم الجنرال العزيز دولاسالات .. « القله السعيدة » كما يقول ستاندال* لقد إستمعوا إلى بعض الإكتشافات . لم يصل لنا من صداها لنا سوى النذر القليل ولكنها نقلت مع شئ من التفصيل ضمن الخطاب المرسل لجاك جوزيف فى ١٨ أبريل .

لم يكشف لنا أرشيف الأكاديمية الجرونوبلوازية الكثير عن هذا الموضوع . إذ يذكر به أنه جرى الإستماع لتقرير نابغ من اللجنة الزراعيه فى بورديو حول زراعة البطاطس بالإضافة إلى أربع مداخلات : اثنتان من بيرياسان يرى - عن « مقطوعات من تاريخ القانون الرومانى » و « ثلاث خطابات لم يسبق نشرها لفواتير » ومداخلة من « مسيو كوستا ، كوميسير ملك ساردينيا » (نظير جان فرانسوا فى الحوار الدائر حول مركيزية نوسلاوس) ومداخلة من « مسيو شامبوليون الصغير » عنوانها « شرح لجزء من نص حجر رشيد . هل أثارت هذه المداخلة أى ضجه ؟ كتب محرر محضر الجلسة بتسطيح مثالى ما يلى :

« قرأ السيد شامبوليون الصغير أجزاء من شرح لاجر رشيد المشهور . بل إنه أوضح شرحه على صورة رسم عليها رسوما هيروغليفية من السطر الأول والأخير من النص » ويعد أكثر من قرن من هذا التاريخ كان تعليق الكومندان جوستار على هذه الجلسة التاريخية أكثر حيوية :

« شامبوليون هو بلاشك مؤسس الإيجيبتولوجيا (علم المصريين القديمة) . الحركة العلمية التى تلت إكتشافاته [...] بدأت فى فرنسا فى جرونوبل وأتجرأ فأقول فى الأكاديمية الدوفينية فى ٢٤ يوليو ١٨١٨ . من حق جمعيتنا إذا أن تفتخر ..»⁽⁹⁾

* "Happy Few" بالإنجليزية فى النص [المترجم]

مبالغات ؟ بالطبع هي كذلك لأن جان - فرنسوا عام ١٨١٨ كان لا يزال بعيداً عن هدفه . إن « هذا الميلاد » الذى ذكره الكوماندان جوستار لم يكن سوى الإرهاصات الأولى لعملية الولادة ولم يكن الميلاد قد تم فعلاً . فلو أنه توقف عنه هذا الخُذ المذكور فى خطاب شهر إبريل وفى عرضه الذى قدمه فى يوليو ١٨١٨ لكان بدى البروفيسور جان - فرنسوا شامبليون كأحد الرواد العبقريين مثله مثل كيرشار وزوريجا ويانج وأكربالد . فى مرحلته الجرونويلوازية كان شامبليون قد لحق بهذه المجموعة وكان عليه بعد ذلك أن يتقدم عليها .

يجب فى جميع الأحوال أن نسجل هنا أن هذا المعلم الشاب المقيم فى محافظة بعيدة عنه باريس الذى لم يؤلف سوى كتاب واحد هو « مصر فى عصر الفراعنة » وهو كتاب أوضح فيه أنه محاولة لرسم صورة فقط للحياة المصرية الفرعونية ، كان على الرغم من ذلك واحداً من مجموعة دارسى مصر القديمة الذين يشار إليهم على أنهم الأساتذة الكبار فى مادتهم . و « هـغـير » هو الذى توجه إليه قنصل إنجلترا فى الاسكندرية هنرى سولت بخطاب توصية بالرحالة الفرنسى كايو (والذى سنلقاه فيما بعد) لأنه « بفضل إكتشافاته الأخيره فى هذا البلد قد شرف نفسه ووطنه » . سوات سيكون له دور مفيد ومثير للإضطرابات أيضا فى بقية القصة إذ أنه أحد الرجال النيم كانوا يبدهم مفاتيحها .

كان جان فرنسوا إذن ينظر إليه على أنه أحد الذين تطلب منهم الضمانات والذين بواسطتهم تحصل على الشهرة ... هل عومل نيوتن هكذا قبل التفاحة أو جوتنبرج قبل مطبعته ؟

كان قلب صديقنا الشاب كما قال لنا هو « نقطة ضعفه » لقد كان مثل يلاننا المجنون يخطئ دائما من هذه الناحية . لقد أحب شان - مارتان الذى أصبح من أعدائه . كما أحب فوربييه ثم كاد أن يفقد صداقته . وأحب يولين التى هزأت به فى البداية ولويز التى تزوجت من آخر . وماذا عن أوجوستان ؟ « ماما الجميلة » فى فيجاك ؟ نعم هنا قلبه لم يخدعه . ولكن ماذا عن روزين ؟ يعتقد أنه يحبها - وهى التى كان يرمز لها بحرف ر فى خطاباته لتيفونيه .. هل كان فى إعداده للإقتران بها نوعا من حب التغلب على مقاومة شخص غيبى ؟ إن كلود بلان لا يريد مصاهرته ؟ إن فى ذلك سببا وجيها لكى يكون ألسافيقا ضد هذا البارترولو . إستمر تاجر القفازات فى مراوغته طوال خمس سنوات وهو باق على إصراره . وطوال هذه السنوات الخمس كانت روزين

تراسله وتؤكد له بالقدر الذى كان مسموحا لبنت مثلها أن تفعله عن تعلقها به . فكيف لايتأثر هو بذلك فى الوقت الذى صده فيه العديد من الناس ونفى وحورب وحسد وكره ؟
لم يكن لرفض عم بلان له من تأثير سوى أن يزيده عنادا . لكن رفض جاك - جوزيف كان من الممكن أن يثنيه عن مشروعه . لكن أخيه الأكبر ، أستاذه والوصى عليه لم يعرف فى أوقات كثيرة كيف يجد من أندفاعات قلب المراهق بطريقة متوازنة . ولكن هذه المرة كان بإمكان حججه أن تكون فاعلة . هل روزين هى الزوجة التى يرغب أحد العلماء فى الاقتران بها ؟ ما الذى تعرفه ؟ هل تتمتع بحسن التمييز المطلوب ؟

بقية القصد جعلنا نميل إلى تأكيد رأى الأخ الأكبر . إلا أننا نسجل ونحن نحاول أن نضع الأمور فى إطار ١٨١٨ أن ما نعرفه عن زويه بيريا وأبنة خالها روزية بلان لا يدعمان نظرية جاك - جوزيف . إن خطابات الأولى تعكس ضحالة التعليم (وهى تتادى زوجها باسم الاسرة شامبوايون كما تفعل النساء البورجوازيات فى مسرحيات (لايبش ..) غيرأن ذلك لايققل البتة من ذكاء أكيد فى فهمها للناس وأمور الحياة . هل هى أكثر ثقافة من روزين التى كانت تلح فى طلب قراءة رواية هيلويز الجديدة ؟ كلا بل إن المראה التى كان يكنها الأخ الأكبر لروزين قد يكون سببها أنها كانت أكثر علما من زويه .

ومع ذلك فكم هى واهية الحجج التى يسوقها «صغير» للرد على تلك التى تجعل فيجك يضغط عليه بها لكى يعدل عن هذا الزواج منها وأن يلحق به فى باريس :

« أنا معروف فى جرونوبل ، كما أن لى بها أصدقاء وسمعة طيبة : مكانتى فيها مستقرة وليس بها ما يدفعنى إلى الشكوى . وسأقوم هنا بأفضل من باريس بالأعمال التى خططت لها [...] كنت أفضل ألا أكون ولدت من الأصل مادام من الصعب على أن أرضى فى نفس الوقت كل الأشخاص الذين أحبهم كثيرا . إبقى لى على صداقتك كلها ! لعل أقل الأوقات استحقاقا لها هى التى أشعر فيها لأى درجة هى ضرورية بالنسبة لى وكم سيكون قاسيا على أن أراها بدأت تهون ... »

باختصار ... فبعد أن أطاح « جان - فرنسوا » بتحفظات حماه وفضل عدم الاستماع إلى تحذيرات « مرشده الروحى » تزوج بروز (وكنائتها روزين) بلان فى ٢ ديسمبر ١٨١٨ فى كاتدرائية جرونوبل - الذى لم يتمكن الأب نورزان من منع دخولها على هذا الشاب (خاصة وأن عديله هوج كان فوق ذلك كله عضوا فى الحركة الماسونية) .

قبل أسبوع من هذا التاريخ جرى أمام مسجل عقود جرونويل التوقيع على عقد زواج السيد / جان - فرنسوا شامبوليون « الضابط بالجامعة الملكية وأستاذ التاريخ بالمدرسة الملكية بنظام اللوطه على « الأنسه بلان » التي تقدم له بخلاف جهاز محترم للعروس ضوطة بنظام المقدم على الميراث « - مقدارها ثلاثون ألف فرنكا - وهو مبلغ كبير جداً بالنسبة لذلك الزمان * .

ولكن كيف لاندهش إزاء تغيب على الأقل بين الشهود- ليس فقط جاك - جوزيف ** وجميع أعضاء الأسرة في فيجاك ولكن أيضا جميع أصدقاء الأستاذ الشاب فيما عدا هوج بيريا وبريزون. موضوع آخر مثير للدهشة وهو بقاء الزوجين دون أطفال لمدة ستة أعوام تقريبا - وأن الأب سينتظر مدة شهرين قبل أن يحضر لرؤية طفله زورايبد وكان ذلك خلال توقفه في جرونويل وهو قادم من باريس في طريقه إلى تورينو .

- بنفس قدر عدم سعادته كإبن لم يكن جان - فرنسوا زوجا سعيداً هذا القلب المتأجج لدرجة شرهة والتي كانت كل خطباته أكثر دفئاً وإلحاحاً وإنفتاحاً من مراسليه لم يعرف مع زوجته (بقدر ما توفره لنا الشواهد) سوى تبادل عاقل ومعتدل في العلاقات وفي الأمور المنزلية . أن تكون روزين قد أحبته وأعجبت به فليس في ذلك شك ولكن أهم ما يميز خطبات روزين بالنسبة للباحث في سيرته هو وجودها أصلاً ضمن المراسلات الضخمة لشامبوليون الصغير .

جاء الوصف الأكثر بلاغة لقصة هذا الزواج التعيس ضمن خطاب له موجه لصديقه الإيطالية أنجيليكا بالبي *** :

« في بحثي عن السعادة يايزليمر **** أخطأت مثل كثيرين مثلي [...] لقد عشت حياتي كلها وأقمتها على أساس أن اعتقادي الراسخ أن الإنسانية التي سأرتبط بها لن يمكنها أبداً أن تملأ قلبي . غير أنني اضطرت إلى ذلك ربما بسبب مراعاتي الزائده جداً للأصول ... عندما كنت لا أزال صغيراً جداً في السن وجعلتني العلاقات العائليه أقابل أنابيس ***** مرات عديدة . كانت تتمتع وهي في السادسة عشرة بكل المزايا الخارجية وب عقلية مثقفة وانفتحت على العالم بالبساطة وعدم الثقة بالنفس الناتجة بالطبع عن تربية تلقته في مؤسسة تكاد تكون رهبانية . أثار إهتمامي الشديد بها عدم خبرتها وسذاجة تصرفاتها وكما أنني أصبحت محور إهتمام أنابيس فتعلقت بي بالقدر الذي أتيت لها ... »

* على الرغم من أن المبلغ لم يسدد بالكامل من قبل إلجا فإن ذلك يمثل دخلاً مقداره أربعة آلاف فرنك ... أي بحبوحة لا بأس بها .

*** راجع الفصل ١٤
**** كتابة عن روزين .

** في حين أن زويه كانت حاضرة ووقعت .
*** كتابة أعطاهما لانجيليكا بالبي .

اعتقدت أناييس وقد سحرتها أشكال وتحركات المجتمع أن السعادة تكمن في أن تبدو سعيدة وظلت أنها ستجدها في إرضاءها لذاتها ونجاحاتها في الصالونات وهو ما يتحول إلى غرور . هذا هو المأزق الذي تقع فيه معظم نساتنا الفرنسيات ولم تشذ أناييس عنه في ذلك . فرأت العالم من خلال نظرة مختلفة عنى وبحثت عن الهناء خارج المشاعر الصادقة وبداخل إطار من أشخاص لم يعرفوه قط . كانت متعلقة بى ولكن على طريقتها ، وعلى الرغم من فتور عواطفى الواضح فإن ذلك لم يمنعها من أن تظهر على الملن لم هى تفضلنى . لقد فعلت كل ما يمكن دون جدوى لكى أشعرها بعدم توافق شخصيتنا .

الظروف السياسية عامى ١٨١٤ و ١٨١٥ حدثت فى هذه الأونة وساهمت فيها مضطراً بقدر كبير نشط [...] خسرت كافة وظائفى . ثم اعتدى على حريتى بعد ذلك بقليل واضطرت إلى الحياة فى المنفى لمدة تسعة عشر شهرا وعلى بعد ١٢٠ فرسخا من مدينة اعتقدوا أن فى وجودى بها خطرا عليها .

كنت أمل أن الغياب سيغير أفكار ونوايا أناييس نحوى وأناها ستتخلى عن مشروع زواج لم يكن هناك ما يفرضه ولم يكن يبشر بسعادة أى من الطرفين . كنت مضطهداً فى ذلك الوقت : فوجدت فى تعاستى سبباً نبيل لإصرارها [...] على العلاقة وذلك على عكس رغبة أسرتها [...] كانت أناييس تعيسة بسببى . هل كان من حقى أن أتردد . خط الواجب كان محددأ أمامى . رباط لايقصم جمعنا [...] تغلقت أكثر بالدراسة [التى أعطت] معنى لوجودى ... »

هل كان ذلك من أجل تقيمت الصورة لكى يثير أعجاب منافسة لزوجته ؛ جائز ولكن الوصف مقنع .

تزوج ، نعم ... « أستقر » لا ... إذا كان الاستقرار هو الوصف الذى يطلق على مواطن ذى سلوك قويم يتبع نظاما سليماً يتفق مع وضعه كأستاذ - برجوازى . إذ يمكن أن تصبح من الأعيان وتبقى ثائراً ... وبالفعل إستمر المواطن شامبوليون يشد إهتمام ويثير قلق السادة أعضاء « الكازينو » والجمعية الدينية Congrégation والمخبرين الذين نشرتهم المحافظة فى جميع أنحاء مدينة جان بول ديدييه وجوزيف رأى وهترى بال* ... وبدلاً من أن يهدأ زاده اليسر المادى ميلا لمشاكة السلطة القائمة .

علاوة على ذلك بدأت صحته تتدهور. فقد زاد تكرار نوبات الدوار والدوخة الغثيان التى تنتابه منذ أكثر من عشر سنوات . أين هو هذا « النوم العميق الفلاحى » الذى كان له حتى الآن أفضل دفاع ضد المرض . كانوا يعالجونه بواسطة العلقات . ثمان ثم عشرون ثم ثلاثون . كان ذلك يرهقه جداً ولكن قدرته على التصارع مع المرض بقت متوهجة :

* الذى سيمضى عدة أسابيع فى جرونوبل بمناسبة وفاة أبيه خلال صيف ١٨١٩ .

« ها أنا معافى منذ يومين . الدم الذى كان يتراكم بخبث فى رأسى قمعته
أربعون علة بعنف . لقد تم ترويضه كما سيتم قطع الرعاع الفرنسيين الذين
وصل بهم التبعج أنهم يرفضون أن تقص رؤسهم على يد الأريستوقراطيين
الطيبين »

طلما أن الأمور فى يد المحافظ المختار شويان دارنوقيل فإن صاحب « نخب
إلى الجمهورية » فى ١٨١٥ يقف ساكنا تقريبا . ولكن بقى « الاتحاد » ملتقاً حوله
هو وجوزيف رأى والمثال تريول أحد مراكز الليبرالية الدوقينية يقطن كان أحد الأماكن
التي يأوى إليها المتمرد نو الأفكار السيئة . ومن المعتقد أنه هو الذى ألف « ترنيمه »
رتلها مدندنا بمناسبة مظاهره دينيه نظمتها إرسالية فرنسا التي يديرها الأب روندان
مع « المتطرفين » . وقد لاحظ الليبراليون أصدقاء شامبوايون وجود بعض « الثوبين »
المتطرفين من أيام الثورة فى الركب الدينى بعد إستمالتهم واستغلال سذاجتهم إلى
الصفوف المقابلة :

جاكوبيون فى ثلاثة وتسعين

تحولوا عن مبادئهم برشاقتهم

فهم اليوم فى حمية الجمر

حاملين صليب الإرسالية

وبالرغم من مظهرهم التقى وسط الجمهور اللئيم

داندى ، داننون

الطاقية الحمراء تحت السوداء

داندى - داننون [...]]

حضرت الفيكونتيسة التي

فطمتها عن العصا* لمدة شهر كامل

حنان الزوجية بمناسبة الإرسالية المقدسة

ووقف ضابط بجانبها

لإضافة المرح إلى المسرحية

* إشارة إلى ما كان يشاع عن أن الجنرال بوناديو كان يضرب زوجته .

دائدى - داندون

وازوجها تقول

دائدى - داندون (10) .

هاجم «صغير» عديداً من الناس : أهل السيف والكنيسة وكذلك الساسه الذين غيروا مواقفهم والرجال المخومعين و « طافنى الأنوار » وأهل المجتمع أليس فى ذلك أستنفار لأعداء ؟ فيتكاتفون للفتك به بأى ثمن ، ولقد أغضب ذلك كثيراً جاك - جوزيف الذى لايد وأنه أخذ يتسامل متى سيعود تلميذ الليسييه المشاغب فى عام ١٨٠٥ إلى رشده ؟ ولماذا يصر على أن يزامل خلاصة ما فى جرونوبل من عقليات سيئة ؟

ولكن « صغير » لم يعد صغيراً . لقد كان أصلاً وهو فى الخامسة عشرة غير قابل للإنقياد وهو اليوم يحتد فى رد فعله : « إنك تسامحنى على الأذى التى سببته لك وأنا أسامحك على ما لأسامح عنه أحداً : وهو الظلم [...] إنى أتحدى أن يذكر أحد بيتاً أكون قد دخلته منذ زواجى فيما عدا المحافظة ! »

حسن ! ولكن لم تعد المحافظة فى ذلك الوقت ضماناً بورجوازية حتى إن الجنرال دوناديو قد بلغ به الحد أنه كان يصف جميع الذين يرتادونها « بالأوغاد » وعلى الرغم من ذلك إستمر المحافظ شويان دارنوفيل متمسكاً بمواقفه فلم يحسن أن يظهر فى العان بصحبة من كان يطلق عليه لقب « رويسير جرونوبل » أى شامبوايون الصغير بل أكان لاينابه بأن يوصف هو ذاته بأنه جاكوبى عندما إصطحب معه الأستاذ الشاب فى لوج الأوبرا الخاص به .

للأسف وقعت ثلاثة أحداث متتالية فصمت الثنائى شويان - شامبوايون ، وأعدت إلى الأذهان ذاكرة مرحلة الإرهاب الأبيض الذى أجتاح الدوقينيه عام ١٨١٥ . فقد حل نوساز محل مونليغو وبامفيل - لاكروا محل دوناديو أو المركزى دويلا نيلى دولاقالات محل بننا ، إذا كان « الكازينو » قد بدأ يصدأفأن عجلة « الروايت » فيه كانت لازالت دائرة وتوزع أضرارها .

فى البداية هُذد انتخاب الجمعية الوطنية الجديدة التوازن الهش القائم منذ سنتين فى جرونوبل بين المتطرفين والليبراليين . سبق لنا أن أشرنا إلى أن لويس الثامن عشر كان قد حل فى عام ١٨١٦ «البرلمان المفقود» خاصة أنه قد كره تطرفه منذ البداية وكانت جولة الانتخابات الجديدة ستجرى فى سبتمبر ١٨١٩ ... فما هو ياترى الدور

السيئ الذى تعده « جروايبير » (جرونويل الليبرالية) هذه المره لأسرة بوربون ؟

لم يكن سيئاً فقط بل شنيعاً ! إذ إقترح جوزيف راي - صديق جان - فرنسوا وزعيم جمعية « الاتحاد » ترشيح الأب جريجوار المشهور وهو الأسقف السابق الدرستورى وأحد أشهر شخصيات الثورة (ولكنه لم يكن ضمن من قتلوا الملك) وكان أيضا من معارف الشقيقتين شامبوليون ... محرر اليهود ومحرر المستعمرين . مع هذا لم يحضر حتى إلى جرونويل للقيام بالدعاية الانتخابية ولكن كان لإسمه وحده ما يكفى من إشعاع لكن ينجح وبمساندة من المتطرفين الذين كانوا متلهفين على توجيه صفة لحاشية الملك المعتدله : أنظر إلى أين تؤدى الانتخابات الحرة !!

علقت صحيفة « لوجورنال دى دييا » ، على ذلك بقولها « فضيحة فرنسا ! عار الإيزار » .. وألغيت نتيجة الانتخابات : وكانت النتيجة أن الذى انتخب هو أحد زعماء الليبرالية الدوفينية كامى تيسار - الذى كتب عنه ستاندال أنه لم يسامح نفسه قط لأنه حقق الثراء من صناعة مشروب الراتافيا .. هذا النوع من الأحداث لا يخرج منه محافظ سليما ! إضطر شويان دارنوفيل المسكين إلى أن يحزم حقائبه . وإذ هو يستعد للرحيل جاء نبأ مصوغ الدوق دويبرى وكان هو الذى سيرث العرش ، مطعوناً بخنجر فى ١٣ فبراير ١٨٢٠ وهو خارج من دار الأوبرا على يد عامل إسمه لوغال . رؤى حينذاك أن يد الجوكوبيين وراء الجريمة ! ونجح المتطرفون بأن ينتزعوا من الملك قرار عزل صديقه العزيز ديكاز ووجد الجرونويلوازيون البارون الأشهر دوسان يهبط فى دار المحافظة .. وهلل لذلك السادة أعضاء « الكازينو » ولكن هل كانوا على حق ؟ على الرغم من كون «صغير» حزينا لإقصاء شويان فإنه تأثر فى بادئ الأمر إيجابيا بهيبة وحضور الرجل وديناميته ثم فضل أن يتحفظ فى إبداء رأيه .

ثم جاء الفصل الثالث للتراجيديا التى ستحول مدينه جرونويل السعيدة التى وصل إليها جان - فرنسوا فى أكتوبر ١٨١٨ إلى ميدان متاوراث « لطافى الأنوار » المقروحين . فى مايو ١٨٢٠ زار جرونويل - العاصمة الأولى للمائه يوم - ولى العهد الجديد الدوق دانجولام ابن الكاونت دارتوا . ومشهور عنه عدم تعاطفه مع المتطرفين . لم تال باريس جهداً إذن لتتمكن من إستمالة قلعة المعارضة : الدوفينية : فهل سينجح هذا الأمير الطيب فى إزاله نقمة ناخى الأب جريجوار ؟ الزيارة كانت نكبة ! فى الثامن من مايو - قرب العصر - استقبل دانجولام بهتاف مزدوج « يحيا الملك ! يحيا الدستور* » لم تكن هذه الأزواجيه لتزعج الضيف الجليل ولكنها أثارث سخط « نوى

* بمعنى الضمانات الليبرالية التى وعدت بها الأسرة البديونية لدى عودتها من المنفى .

الرداء الأخضر « من حاشيته وكلهم من مؤيدي أراء والده . وصف ماحدث : من جان - فرنسوا لجاك - جوزيف :

« هذان الهتافان اللذان كان يجب أن ينطلقا من نفس الحنجرة أصبحا متنافسين وظهرا كما لو أنه مقدر لهما أن يطبلا أمد الأحقاد والتحديات . إرتكبت حمقات من جميع الجهات ولم يظهر الاعتدال على أى جهة . ألقى بعض أفراد الشرطة بتوامر خاطئة دون شك بالقبض على أشخاص يهتفون : « يحيا الدستور !! » ثم أدت بعض أعمال العنف والغباء المفرط لياوران الأمير الذين أعلنوا وسط الجماهير أن هتاف « يحيا الدستور » هتاف إنتقلاي . أدى كل ذلك إلى إحماء رؤوس بعض الشباب المتحمس . وبذلك لم يكن من الممكن أن تمتد إقامة الأمير بيننا وقيل أنه غير راض تماما عن جرونويل وهامى مدينتنا المسكينه تواجه الشكوك والافتراءات . لا يوجد حديث سوى عن الاعتقالات والخراب القادم قريبا . فلنعتد على حكمة الملك ولننظر إلى المستقبل بثقة . لاشئ غير ذلك ومع ذلك فهو كثير* . »

« حكمة الملك » ؟ الحكمة هنا هى حكمة المحافظ المسئول عن التعبير عنها والقيام بتنفيذها . وفى هذا الصدد أدى سلوك دوساز بعد ذلك إلى تبيد الأمل التى وضعها فيه شامبوايون - الذى كتب إلى أخيه يقول عنه بأنه « باع نفسه للمتطرفين وأصبح أداة سلبية لدرجة الغباء بين أيديهم » .

« بغباء » ؟ هنا مكمّن خطأ تقدير أستاذ التاريخ . لأن دوساز ليس بغيبى على الإطلاق بل إنه أحد أفضل الرجال الذين تقدموا الصفوف على يد « أعيان فرنسا » وهى إن لم تقدم أمثال ميرابودانتون وهوش فهى أبرزت أشخاصا مثل ديكان ولوس .

وإذا كان البارون مشهورا جداً فهو ليس بأقل من ذلك عن ذلك تطرفاً فقد وجد هذا الرجل فى التوتر القائم فرصة للتخلص من بعض الليبراليين المعينين فى جرونويل على يد وزارة ديكان مثل العمدة رويه دولوش والجنرال لودرو ديزيسار الذى تجرأ على الاشتراك مع جان - فرنسوا شامبوايون فى تحرير كتيب صغير يحذر السلطات العامة من مغبة التطرف القمعى و « الاستحواز على السلطة » .

* كثير بالنسبة للرتيب - على مايبينو

نشر هذا النص الغريب فى باريس لدى كويرار فى ١٧ مايو ١٨٣٠ مع خمسة أو ستة آخرين تحت عنوان جماعى « احظر » إنه يشبه الريبورتاج الصحفى القصير ويقع فى أربع صفحات يصف تجاوزات « حزب طافنى الأنوار » - المدنيين الذين يهتفون « يحيا الملك ! وتبا لكل الباقي والعسكريين الذى يستلون سيوفهم وهم يصرخون : « إقطع رقبة هذا المتحرر » أو « أول من يهتف سأقطعه أرباً ! »

التعقيب الذى ينتهى إليه نص الكتيب وهو بدون توقيع ولكنه بليغ . يقول : « إن مكتسبات الثورة (إذ لا يمكن أن ننفى أنها جاءت بكثير منها يمكن أن ينفى ذلك إلا من لانظر له) تكلفنا الكثير حسبما يقال ويعتبر ذلك سبب آخر لكى نزداد تمسكا بها بكل قوة * »

« مكاسب الثورة » ... هكذا !! كتابة ذلك فى ١٨٢٠ كان كفيلا بأن يعود على المرء بالمشاكل :

أسابيع قليلة كانت كافية ليحصل دوسان على إقالة رواييه - دولوش وعلى إبعاد لودرو ديزيسار - ليحل محلها : فى العمدة أحد رجال الكونت دارتوا فى مقاطعة الدوفينييه الماركى بلانيللى دولاقلات وفى الحامية العسكرية الجنرال الصاحب لامفيل - لأكروا وإذا كان هذا الأخير أقل ضرواة وبدانة من دوناديو فهو لم يكن أقل منه تطرفاً فى عدائه لأى شكل من أشكال الليبرالية . لكن ما حدث هو أن نار الثورة كانت تتأجج تحت السطح فى مختلف أنحاء أوروبا الغربية فى ذلك الوقت وفى حين كان نابوليون يصارع الموت فى سانت هليين (توفى فى ٥ مايو ١٨٢١) إنتشرت موجة بونايرتية مستوحاة من اسطورة المائة يوم أكثر من حقائق « الزواج النمساوى » من بروكسل إلى تورينو ومن فرانكفورت إلى باريس .

تجمعت الأسباب : من ضباط بنصف مرتب يحركهم حنين جارف للإمبراطورية أو سبب أكثر بساطة وهو التخفيض القاسى فى عدد القوات المسلحة الذى قرره فى ١٨٢٠ وزير الحرب لاتور - موبوريه إلى جمعيات سرية من نوع « الاتحاد » الذى جر جوزيف راي جان فرنسوا شامبوليون إليه وإلى شباب داعبت أفكاره مقدمات الرومانتكية الوليدة وهمشئة السياسة المناهضة للتضخم المالى الذى إتبعها لوس

* يبدو أن ج . ف . شامبليون لم يحرر سوى ريبورتاج زيارة الأمير .

ودوقيللال وأصحاب الأملاك الوطنيه ، الذين بدأت تهددهم مطالب الاقطاعيين السابقين . جميع تلك الأسباب تجمعت لتكون تياراً عاتياً متعدد الأطراف إجتاح فرنسا وعبر أيضا جبال الألب . وهى الفترة التى أنتشر فيها التيار الكاربونارى* فى فرنسا - قادمًا من إيطاليا - وسرعان ما انضم إلى عضويته عشرات الآلاف .

كيف إذن تندش لأن الملكية العائدة إلى السلطة قد إختارت شخصية فى وزن البارون دوساز ليحكم قبضته على القلعة التى هى جرونوبل الواقعة على أبواب الليمونت الايطالى والتي تنشط بداخلها أفكار التيار الكاربونارى . دوساز كان فى موقف الكونت موسكا (بطل رواية) ستاندال لاشارتروز دويارم) الذى كلفه ارنست رانوش الرابع بقمع التيارات الثورية التى يقودها أمثال فابريس** وجميع الليبراليين المهوسين ؟ لقد كان فى إمكان ستاندال أن يجعل أحداث روايته تجرى فى مسقط رأسه : فى ١٨٢١ كانت جميع شخصيات الرواية موجودة بها حتى لو كان هناك فرق فى شخصين جان - فرنسو القوية وشخصية ديل دونجو الصغير وكيف لانجد لدى بارون جرونوبل (دوساز) السحر التاسع من شخصية الكونت دويارم) .

هاهو إذن دوساز فى موقعه وقد عكست « مذكراته » وسواس واحد كان يلح عليه وهى قضم ظهر الثورة المتأججة فيما وراء جبال الألب والتي كان من المحتم أن تعبرها أن أجلا أو عاجلا إذ كتب يقول :

« عندما طلب منى إدارة مقاطعة الإيزار - عهد إلى أيضا برقابة بوايسية واسعة جداً على المقاطعات المتأخمه للليمونت وعلى نفس هذا البلد وأيضا على الساقوا وعلى جنيف فقمتم بزرع مخبرين سريين على الحدود فى تورينو وفى شامبيرى وجنوا وأحيانا متقطعة فى ميلانو وجنيف . مراسلات هؤلاء العملاء أفادت بوجود مشاريع غامضة [...] وكل ما كان يدور حولى وتحت نظرى كان يؤكد شكوكهم ...»

بينما كان ينشر شباهه التى سيقع فيها الثوريون من المناطق المحيطة كان دوساز يشجع « طائفي الأنوار » على الإنتقام من الحزب الليبرالى الذى ينتمى إليه الشقيقان شامبوليون .

فى نهاية يوليو ١٨٢١ علم جان فرنسو أنه وأخاه قد طردا من المكتبة (وكانا قد أستعادها العام السابق) لأسباب سياسية كما هو واضح : فطلب على الفور مقابلة المحافظ . وبقى وصف مقابله هذه مع البارون المرعب الضوء على شخصية وعلى نوعية العلاقات التى كانت له مع السلطة .

* جمعية سياسية سريه نشأت فى إيطاليا لناصره الأفكار الليبرالية فى أوائل القرن التاسع عشر وانتشر فى فرنسا فى تلك الفترة (من ١٨٢٠ حتى ١٨٢٠)
** بطل رواية ستاندال [المترجم]

وجد شامبوليون أمامه رجلاً « محرراً [...] من خلال أدبه الجم » وهو يوضح له أنه يريد أن يبقى « محايداً » في هذا الموضوع المتعلق بالمكتبة . كيف ؟ هل يمكن أن يكون الرء محايداً بين العدل والظلم ؟ ويضيف الضيف أن مثل هذا الصمت « سيطلق العنان للإفتراء وتشويه السمعة » بل يكون رفضاً بينا للعدل يصيب أثنين من الأبرياء « أبرياء ؟؟ بدأ المحافظ يتململ مذكراً « بالأراء السيئة » التي عبر عنها الشقيقان شامبوليون في العديد من المناسبات . وعلى الفور يعبر جان - فرنسوا عن غضبه : « إذا كانت تحت يدكم أعمالا غير قانونية قمنا بها فأحيلونا إلى القضاء المختص ! » هنا وجد دوساز نفسه في مأزق فأفصح عما يعرفه : إن مراسلات الشقيقين هي التي تغضبه . هنا يقفز جان فرانسوا من فوق مقعده ويطالب بالأدلة وهنا يقع المحافظ في خطأ غبي - وذلك على الرغم من نكائه المعهود - فأخرج من درجه ملفاً يضم - حسب قوله - نصوصاً تعكس ميول فيجاك المؤسفة عندئذ ينظر جان - فرنسوا إلى محدثه باحتقار قائلاً :

« من هو الإنسان الحقير الذي سمح لنفسه أن يعتدى على حرمة مراسلات خاصة ؟ منذ متى تعامل المراسلات العائلية كأداة للاتهام ؟ هل تجرؤون على تقديم مثل هذه الأدلة ضدنا إلى القضاء ؟ »

أمام هذا النقد الشديد لم يجد البارون دوساز سوى لبيبر موقفه إلى أن يقول ببساطة أن الحكومات مضطرة لأن تتصرف بهذه الطريقة وأن الحقيقة هي أن هذا النوع من الإجراءات لم يبدأ بعد عودة الملكية إنما هو إجراء قديم لم يبلغ بعدها ... منذ ذلك اليوم فإن البارون النليل سيضمم للرجل الذي أهانه بهذا الأسلوب وإضطره إلى أن يكشف وسائله ، كرها عميقاً له مايببره . ومن بعد سيكون الصراع بين الرجلين دون هوادة * .

في نهاية فبراير ١٨٢٠ ألقى المحافظ القبض على عميل من ساردينيا « كان لا يجالس سوى أكثر الرجال خطورة في جرونويل » : وجمعه مشروع مؤامرة أعدت في تورينو ولها تفريعات في جرونويل وليون . اسرع دوساز بتحذير بلاط بيمونت - وساردينيا - إلا أن صاحب الجلالة ملك بيمونت وساردينيا أفاده بأنه « واثق من حب شعوبه له » . غير أن الخطاب الملكي وصل إلى محافظة جرونويل عندما كان « فيكتور أيمانويل » قد إضطر إلى التنازل عن العرش (من كثرة عواطف شعبه) ولجأ إلى فرنسا .. كيف لا يجد البارون المتشدد فيما حدث سبباً يزيد تشككاً ؟

* يقول ايمية فيجاك - شامبوليون في الشقيقان شامبوليون أن عمه في حمية النقاش نعت البارون بأنه « روهسبير » وكان هذا قمة السباب حينذاك . غير أنه لا يوجد ما يؤكد هذا الكلام .

عندما تحوات شكوكه إلى يقين قرر دوسان أن يفتح مراسلات مواطنيه فوجد فيها البراهين التي كانت تنقصه حتى الآن : وفيها أن الكتيبة العاشرة كانت ضالعة في المؤامرة . وعندما استدعى الضباط للتحقيق إتهم المحافظ العديد منهم بأنهم إشتراكوا في إجتماع تأمرى . أجابوا بأنهم إجتمعوا فعلا عند مسيو رونولون ليشربوا كأساً من الخمر . فقفز دوسان من مقعده حسب قوله هو شخصياً : « غير صحيح ! لم تشربوا خمرا بل أن كوب ماء واحداً لم يشرب » خلال الاجتماع .

شربوا أم لم يشربوا ، المهم هو أن محور هذه المناقشات كان شارل رونولون ابن عمدة المدينة في العصر الأمبراطوري وهو أحد شخصيات الحزب الليبرالي والصديق الحميم لجان - فرنسوا شامبوليون . كانت القصة منذ بدايتها تمس عن قرب البروفيسور الشاب ، كما أن الرسائل التي فتحتها المحافظ الرهيب كانت بها دلالات كاشفة لهذا الموضوع : فقد تردد في خطابات «صغير» اسم « شارل » الذي أصبح محور القلائل كما يوضحه بقية ما جاء في سرد البارون :

« في العشرين من مارس قبيل الساعة الثامنة أسرع نحوى أحد المخبرين قائلاً أن تجمهراً كبيراً يتبعه وهو يتجه إلى مبنى المحافظة . وبالفعل غزت عدة مئات من الأفراد الحديقة وتعرفت في وسطهم على بعض جنود الكتيبة العاشرة [...] حشد كبير منهم وصل إلى مكتبى [...] فتحت الباب ثم قفلته على الفور بعد أن دخل مندوبان منهم كان في يدي مسدساً وضعت على صدر السيد / رونولون وكنت أعرف أنه قائد المؤامرة [...] قلت له أنى سارديه قتيلاً إن هو تحرك [...] وأنه سيعرف نفس المصير لو مرت خمس دقائق دون أن تكون دارى قد أخليت تماماً من المتظاهرين » .

« [...] رجائى رونولون أن احتفظ بهدوئى مؤكداً أن أحداً لا يمكن له أى ضغينه وأن هدف هذه الحركة الوحيد هو إحلال العلم المثلث الألوان محل العلم الأبيض كما حدث في باريس بعد أن تنازل لويس الثامن عشر عن العرش للدوق دورليان . [...] أحبته أن كل ما جاء في تأكيد هذا غير صحيح وكررت عليه تهديدي بأن يجلى عن المقر وأن يصرف الجميع وإلا قبانى سأنفذ تهديدي [...] بدالى رونولون متردداً .

« [...] أطلقت سراحه .

« خرجت من المحافظة [...] لدى وصولى إلى ساحة السلاح أحاط بى مائه من الشباب يحملون العلم الثلاثى الألوان وهم يهتفون : « يسقط المحافظ » « يسقط الفنديانى * » « يسقط الشوان * » كنت أقف وحدى مرتدياً زى المحافظ حملت السيف فى يدي وهددت باستخدامه ضد من يقترب منى إلى أن وصلت إلى فسقيه فى وسط

* اسم أطلق على الثوريين الملكيين المناهضين للثورة الفرنسية فى غرب فرنسا وكان على رأسهم من يدعى «شوان» وانسحب الاسم على الثوار أيضاً [المترجم]

الساحة فاستندت ظهرى إليها وصدت المهاجمين بما يكفى من وقت لوصول جنود قادمين من موقع قريب لنجدتى [...]»

« الجنرال دو لاکروا * [...] قرر تفريق التجمهر ، ولكنه فعل ذلك بتراخ وصلت درجته إلى حد أنه لم يلق القبض على أحد ولم يصادر علم ثلاثى واحد من الأعلام التى التفوا حولها . لقد اعتقد أنه فعل أكثر مما ينبغى لأنه ضرب بمسطح سيفه المدعو رونولون الذى وجده واقفا وحده وقد رد عليه هذا الأخير بعدة ضربات من عصاه [...]» .

« أجبرتني مشاركة مدرسة القانون فى الإنتفاضة إلى أن أصدر قراراً باغلاقها مؤقتاً كما أمرت بإعادة الطلبة إلى بلادهم [...] [...] إن ميول سكان جرونويل المناهضة للملكية بدأت تتسلل إلى نفوس الشباب دون أدنى مقاومه لهذا التأثير الضار [...] ألقيت القبض خلال الإضطرابات على بعض القادة إلا أن رونولون والعديد من الضباط بنصف مرتب تمكنوا من الهروب ...»

لم ترد كلمة واحدة فى هذه المغامرة الغريبة عن جان - فرنسوا شامبوليون ** ولا عن « القادة » الآخرين الليبراليين : بلانتا الذى لا بد وأنه شعر أنه فى هذا الجو مثل السمك فى الماء ، تريول ، أوجوستان تيفونيه ، فليكس ريال والأخريين علما بأننا نعرف أن صديقنا عالم المصرى كان مشتركاً إشتراكاً فاعلاً فى هذه العملية .

يقول إيميه شامبوليون - فيجاك على الرغم من حذره التام لدى الحديث عن آراء عمه وسلوكه السياسى خوفاً من أن يظهره كإنسان مثير للشغب - « شارك شامبوليون الأصغر فى هذا التمرد بعد أن إستدرج فيه رغماً عنه بسبب صداقته لرونولون وتيفونيه وباتيست فروسار الخ ...» (11)

ومع ذلك فإن صاحب كتاب الشقيقان شامبوليون فضل أن ينقل هذه الملاحظة الشيقة عن جان فرنسوا : « كان شامبوليون الصغير يقول فى ذلك الوقت بعد أن قبل بشئ من الفلسفة الموقف الذى وضعت فيه الظروف » ربما يجبى يوم يظهر فيه الإستيلاء على قلعه جرونويل دون إراقه دماء على يد عالم أثار فى سجل أعماله الأدبية فى زمن غريب » (12)

* أو پامفيل لاکروا .

** نوسان سيلزم دائماً الصمت حياله .

ماذا يعنى « إستيلاء على قلعة » ؟ فى كتالوج معرض شامبوليون الذى نظمته مدينه جرونويل عام ١٩٨٦ تحت رعاية جميع المؤسسات العلمية فى المدينه مثل المكتبة والأرشيف والمتحف والليسية والذى كتبه المؤرخ جـ. و . نوريمان نقراً ما يلى : « فى ٢٠ مارس ١٨٢١ [...] إشتراك جان - فرانسوا شامبوليون مع تيفونيه ورونولون فى محاولة إنقلابية إختلط فيها الجمهوريون واليونابارتيون وأنصار دوق دورليان . هاجم شامبوليون واستولى على حصن راتو (13) » .

وتضيف هيرمينى هارتلويان فى كتابها عن سيرة شامبوليون هذه التفاصيل الإضافية : « سلك فى سكون تام عدد كبير من المؤيدين للحركة تحت قيادة شامبوليون وتيفونيه الطريق الملتوى المؤدى إلى الحصن ثم تم التغلب على الحرس وإقتحام بعض الأبواب وتجنيد بعض أفراد إحدى سرايا الكتيبة العاشرة للمهمة . حاول فقط بعض من حاملى الرماح كانوا يعملون فى الاسطبلات أن يقاوموا . ولكنهم حوصروا داخلها وأغلقت عليهم الأبواب والتوافذ فحيدوا تماما . بعد دقائق قصيره إمتدت يد شجاعه - وهى يد شامبوليون - وأنزلت العلم الأبيض ورفعت الألوان الثلاثة على قمه حصن رابو وهكذا رفرق علم الحرية وأصبح مرثياً من بعيد جداً وحياه آلاف الأشخاص بالهتاف» . (14)

ياه !... الحراس « حيدوا » وحاملو الرماح حبسوا ! علم الملكية أنزل والعلم ثلاثى الألوان رفع ! ما يكفى للذهاب بصاحبنا إلى مناطق بعيدة ... ألم يمض على قضية ديدبيه سوى خمس سنوات ودوسان يجمع فى يده أدلة على التآمر مع الخارج أكثر مما جمعه بالانتا رئيس المحكمة الاستثنائية . كما لم يكن الجو السياسى بعد عام من إغتيال دوق دوپيرى ويعد أن ترك مونليفو وبيننا مكانهما لدوسان ويلا نيللى أكثر تأييداً « للجاكويين » ولأصدقاء المغتصب مما كان عليه الحال فى ١٨١٦ .

لاشك أن شامبوليون الصغير قد جابه خطرا عظيما بعد أن ثبت إشتراكه فى محاولة إنقلابية . كان البارون - المحافظ والجنرال بامفيل متعطشين للإنتقام خاصة وأنهما اساءا التقدير مثل سلفيهما وصاروا أضحوكة أمام الناس فطالبوا بضرورة تنفيذ عقوبة مثالية على روندلون وأصدقاءه . فهل يعنى ذلك المثول أمام محكمه عسكريه ؟ الملك كان رحب الصدر وأرسل على عجل إلى جرونويل المارشال فيكتور دوق بوبلون لتهدئة النفوس وتأييد الشجعان وإجراء التحقيقات وإقامة العدالة .

المارشال الدوق شخصيه غريبة أخرى . فهو مثال للجندى الذى وصل إلى رتبته بالصدفة . أصله من مدينه فالانس عازف موسيقى متجول وتتطوع فى الجيش تحت اسم فيكتور . كعازف ترومبيت لفرقة المتطوعين فى العام الثانى من التقويم الثورى .. وكان اسمه الحقيقى هو كلود بيران . الكسندر دوما كتب عنه مرة فى أحد مؤلفاته أنه

شارك حياة « الأنسة موجيه » ؟ الواقع أن نابوليون جعله في ١٨٠٧ ماريشال فرنسا وفي ١٨٠٨ جعل من هذا الشجاع المقدم قصير القامة الجعاج ودوقاً لنابوليون (دون أن يكلفه بقيادة ذات بال) . بعد إنضوائه تحت لواء آل بوربون بمنتهى البساطة كلفوه ببعض المهام المتواضعة . ومنها هذه المهمة على سبيل المثال .

عند وصوله إلى جرونوبل نما إلى علم عازف الترومبيت أن أحد أعيان المدينة وهو جنرال على المعاش كان قد ألف عدداً من المارشات العسكرية لتعريفها فرقة لوائه الموسيقيه ولم يكن هذا الجنرال المتقاعد سوى صديقنا القديم جويار نو لاسالات الذى كثيراً ما رأيناه . يجند الشقيقين شامبوليون ليساعده في أبحاثه الموسيقية المستمرة ، ذهب المارشال فيكتور بنفسه عند رئيسه السابق لزيارته - مما كان له بالغ الأثر في نفوس سكان جرونوبل فحوروا اسمه من باللون إلى بوسولاي* .

أول من أفادته هذه الزيارة كان جان - فرنسوا شامبوليون الذى صدر قرار بالقبض عليه . ومن كان أقدر على الحديث عنه بأحسن الكلام ومن موقع العارف بالأمور إلى الزائر صاحب السلطة سوى الجنرال الطيب نولاسالات ؟ فهو مديون له بالعديد من الخدمات وهو زميله في الأكاديمية الدوفينية وأفكاره السياسية قريبة جداً منه ؟ باختصار جاء القرار بأن عالم اللغويات حامل العلم الثالث الألوان لن يمثل أمام القضاء الاستثنائي ولكن أمام محكمة أقل خطورة من المحكمة الخاصة التى تكلمنا عنها في السابق .

عاد جاك - جوزيف على عجل من باريس لمؤازرة أخيه أمام محامى الإدعاء الذين جندهم المحافظ ... مذكرة الدفاع عن جان فرنسوا - الواضح أنها بقلم أخيه الأكبر - من المحفوظات التى رجعنا إليها وكان ذلك بالنسبة لنا بمثابة فك شفرة هيروغليفيات فيجاء بدلاً من خط صغير « المكتوب » وعلى العموم فإن هذه المسودة تستحق فك شفرتها « قرأت ببالح الأسى - ولعل غيرى يقولون لبالح الحزن [...] الخطبة التى ألقاها ضدى [...] السيد المفتش تريجيزو في ٢٤ أبريل حول بعض الإعاءات المقدمة ضدى .. » وبعد هذه البداية المبنية على البراءة المجروحة ذهب الشقيقان بعيداً في الهجوم المضاد .

مهمة النيابة العامة هي إعطاء البيانات أى جمع الحقائق وعرضها في حياض [...] وفى غياب ... [النص هنا غير مقروء]

« ما حدث في جرونوبل في ٢٠ مارس ١٨٢١ كان موضوع تحريات مكثفة جداً وجميع أجهزة الشرطة قدمت [غير مقروء] : لم يرتفع صوت واحد ضدى [...] لا يوجد

* باللون بالفرنسية Belle Lune أى القمر الجميل وبوسولاي هي Beau Soleil أو الشمس الجميلة [المترجم]

شهادة واحدة يمكن تقديمها باعتبار أنها قائمة على أسس ذات بال [...] يعتقد السيد البارون دوساز أن في إمكانه أن يتهمنى بأنى ظهرت وسط جماعة من المتمردين [...] السيد المحافظ كان موجودا شخصيا في المكان مع القوة المسلحة [...] لقد ألقيت الدروس من الثامنة إلى العاشرة يوم الثلاثاء ٢٠ مارس . كما فعلت نفس الشئ الأربعاء ٢١ ، الخميس ٢٢ تناوات الغذاء في المدينة مع بعض الأساتذة وهم سيشهدون بذلك . أما الجمعة ٢٣ إذ كنت مريضا .. [غير مقرر] « ... إن سمعتى هي ملك لأسرتى ولأصدقائى و [لوالدى أو لوطنى ؟] وللتعليم الذى أتشرف بالانتساب إليه منذ اثنتى عشر عاماً ، ولعلى أقول أيضا للتاريخ الأديب الفرنسى من خلال الأعمال التى نشرتها والتى أعدها للنشر . يجب على إذن ألا أترك نفسى تتأثر سلبا بالظلم ... »

الجملة الأخيرة لنبلها تساوى أكثر من الباقي كله الذى يقوم على القول المشهور : لاتعترف أبداً ! « كما أننا نسجل هنا هذا الدفاع الغريب : أنا وسط المتمردين ؟ المحافظ نفسه كان موجودا وسطهم أيضا !

باختصار : كان دفاعهم هو أنه غير مذنب والتنديد بالحكمة وهو لا يخلو من الجسارة : فقد رأينا عندما نقلنا عن مصادر مؤيدة لقضية شامبوليون أنه إشتراك فى تمرد يصعب وصفه بأنه كان « مسلحاً » ولكنه تمرد أخذ بالفعل شكلا من أشكال الانتفاضة الشعبية مهدداً لمثل السلطة الأول فى المنطقة فى جسده ومستميلاً بعض أفراد القوات المسلحة ومعلنا بأعلى صوت وقوفة إلى جانب تغيير طبيعة النظام سواء كان ذلك لصالح مناصرى دوق نورليان أو بونايات .

غير مذنب ؟! كان موقفا تكتيكيا لا يعكس الحقيقة . إن ما تلى ذلك من الإفراج عنه هو شهادة لصالح هذه الحكومة الملكية ، فهى نفس الحكومة التى إقتصت من الشقيقين لانضمامهما لحركة المائة يوم ولكنها أعفت عن هذا المريبى الذى نزل إلى الشوارع إلى جانب جنود متمردين وتحدى دون تحفظ الوضع القائم . ويتضح أنه توجد حالات يكون من الأفضل أن تكون فيها معلماً مكلا بالشهرة يمكنه بذلك أن يخدم أمجاد النظام على أن تكون صانع مفاتيح أو عامل بناء ، هذا هو وضع جان - فرنسوا شامبوليون فى مارس ١٨٢١ .

كان ثمن ذلك بالتأكيد أنه اكتسب كنية « رويسير جرونويل » وهى تسمية كان سيسعد لو أمكن الإستغناء عنها فى وقت كانت الرياح تهب كالعاصفة - من محافظة جبرنويل إلى أكاديمية المخطوطات والأداب - فى إتجاه الثورة المضادة ، وبالفعل ما أن مرت ستة شهور إلا وتشكلت الحكومة برياسة فيلال التى أتت بالمطرفين إلى مركز

السلطة . وهكذا كان البارون دوساز - فى الدوفينييه - يستمرئ إنتصاره ويرى هيئته تزداد جلالاً بسبب وضوح الرؤيا التى أثبتتها عندما توقع حدوث قلاقل شهر مارس ١٨٢١ والصلابة التى واجه بها .

روبيسبيير ؟ لجا جان فرنسوا ذاته إلى هذه المرجعية فى خطاب حرره أثناء وجوده فى مقاطعة كارسى : كان يشكر فيه بعض سكان جرونوبل عبر صديقه تيفونى لخدمة أدوها له ثم يضيف : لعل فى ذلك إلقاء الشكوك حول إنسان يود لو لم يعرف عنه أنه أدى خدمة « لروبيسبيير مثلى » ...

مهما كانت أوجه الشبه قليلة جداً بين أصغر الشقيقتين شامبوليون وصاحب قوانين « شهر يريريال » إبان الثورة إلا أنه كان - كما نقول فى أيامنا الحالية - « يسارياً جداً » يجب ألا ننسى أن الجمعية السرية المسماة « الاتحاد » وكان هو أحد مؤسسيها كان هدفها الأول ليس أقل من « تشكيل أركان قيادة حركة ثورية للمستقبل (15) » . وهذه الجمعية هى التى أثارته « فضيحة » إنتخاب جريجوار الثورى وعضوا الجمعية التأسيسية للثورة الفرنسية - فى انتخابات مقاطعة الإيزار . وبهذه المناسبة فإن محرك « المؤامرة الأخيرة وصاحب فكرتها - جوزيف راي - حكم عليه غيابياً بالاعدام وإضطر إلى أن يلجأ سياسياً إلى أنجلترا .

فى ١٨١٥ دفع جان - فرنسوا ثمن « النخب فى صحة الجمهورية » بان نفى .. وفى ١٨٢١ لأنه « عبر من القول إلى الفعل » فإن حالته كانت أخطر بكثير . لأن النخب أصبح عملاً وأى عمل ! الإحلال العلنى للعلم المثلث الألوان محل الرمز الزنبقى الملكى بمناسبة ما أشيع عن وفاة الملك ... أى أنه قاتل رمزى للملك ... ومن هنا حصل على كنية « روبيسبيير » التى ظلت تطن فى أذنيه فترة طويلة ..

لم يتمكن البارون دوساز من جره أمام قضاة المحكمة العسكرية . إلا أنه سيجعل من حياته جحيماً بما له من وسائل تستحيل معها إقامة شامبوليون فى الدوفينييه فقد سحبت منه وظيفة التدريس فى المدرسة الملكية ، أما مدرسة مونفلورى فقد أغلقت أبوابها فى العام التالى . ومن جهة أخرى كان قد صدر قرار يعده بإنشاء كرسى للتاريخ فى الجامعة ، هذا القرار ألغى .

هنا أرسل «صغير» لأخيه صرخة النجدة ! وجاهك - جوزيف الذى كان يمضى بضعة أسابيع من خريف كل عام (ما عدا خلال فتره القضائية) فى منزله فى فيف إلا أنه كان يرفض الانغماس فى « حمى » جرونوبل - لى هذه المرة النداء وعاد إلى هناك

فى يونيو ١٨٢١ بعد أسابيع قليلة من وفاة بونابارت فى سانت هيلين . وكانت مناسبة لكى يعاتب أخاه الصغير : هل كان ذلك سيحدث لوأنه إصطحبه إلى باريس ليكون بجوار مسيو داسييه بدلا من أن يتزوج هذه الزيجة التى لا تليق به ويعود إلى جرونويل ؟

كان لدى جان - فرنسوا ما هو أفضل من الدفاع عن حياته الخاصة إذ فضل إطلاع مرشده العزيز على آخر أعماله فى مجال الخط الديموطيكي وفى رسم سبعمائة شكل هيروغليفى وهيراطيكي على ألواح معدة للطبع الليتوغرافى . لقد كان فى حالة إعياء كامل من الإنفعالات النفسية والعمل ... هل كان يعرض على أخيه نتائج أعماله ليبرر إقامته فى جرونويل أم كطالب تأشيرة سفر إلى باريس ؟ الإجابة هى لانعرف . إلا أن الشئ الواضح ولا بد أن جاك - جوزيف رده له هو أن الوقت قد حان لكى يستخلص النتائج المترتبة على التدهور الرهيب الذى طرأ على موقفه فى جرونويل المتزامن مع التقدم الهائل الذى حققه فى أبحاثه العلمية . كل شئ كان يتفق ويساعد على إتخاذ قرار الخروج « (أو الصعود) إلى باريس .

فى ٨ يوليو كتب إلى جاك - جوزيف من شيف :

« شريت أخر قطرة فى كأس المرارة الجرونويلوازى . لا يوجد ظلم واحد يمكنه أن يطولنى الآن وليس لدى شئ ما أخسره هنا [...] قدر المجلس (الأكاديمى) فى ٢٢ يونيو أنه توجد أسباب تستدعى المضى فى القضية وأن الوقائع المنسوبة إلى من إختصاص القضاء العادى [...] كانت هذه هى الضرية الأخيرة التى يمكنهم توجيهها إلى [...] العالم كله يصرخ لى : غادر ، سافر ، رفه عن نفسك [...] سأسافر* .

لم تكن الإجراءات القانونية ضده قد توقفت إذن وكان على صغير أن يواجه « المحاكم العاديه » . كيف والظروف هكذا تمكن من مغادرة جرونويل والإيزار كلها ومن الهروب من البارون المرعب ؟ كل شئ يدعو إلى الاعتقاد بأن هذا المحافظ المتشدد فضل أن يغمض عينيه - فهو فطين كذلك - ليتخلص من مشكلة حية وليحرم جرونويل من مثير محتمل للشغب وليهدى باريس مكتشفاً عبقرياً . مجموع هذه الملاحظات أو

* كتب لآخيه فى خطاب أخر : « أفضل أن يرسلونى إلى سيبيريا عن أن أمضى شهرين آخرين فى هذه المدينة التعسة ! » .

الإفتراضات هي بمثابة دفاع عن الإدارة خلال مرحلة عودة الملكية . تجعلنا نقرر أنها - فيما عدا قلة من المتطرفين - كانت تميل جداً إلى النسيان .. سافر في ١١ يوايو بصحبة صديقه دوفليار - إذا أنه كان أضعف من السفر وحده - تاركاً روزين لتتصرف في الشئون الجارية « ويعد إستراحة دامت ثلاثة أيام في ليون وصول جان فرنسوا إلى باريس في ٢٠ يوايو ١٨٢١ .

جان فرنسوا عمره الآن ثلاثون عاماً أمعن البحث في رموز مجهولة . كان معلماً - ألقى بنفسه في أكثر المعارك السياسية ضراوة وغامر بحريته بل بحياته من أجل أفكاره . أحب سيدتين وتزوج من الثالثة . سلح نفسه بالاداة العلمية والأسلوب وجمع المواد وعقد التحالفات وأثار العداوات من أجل هدفه الأساسي .

منهك قبل الأوان ، ينخر المرض داخله ولعله الدرن . تلاحقه الاختناقات والغشيان والدوار ، سيستمر في نضاله وهو عاكف بوجهه الأسمر بلون قراصنة البحر الأحمر على لوحه المليئة بالصور والرموز والعصافير وأوراق اللوتس والكتبة الجالسين القرقصاء . والصقور وأوراق النخيل ... كل ذلك حمله معه وهو محموم بالمرض في العربة التي ستوصله إلى باريس .

كان جان - فرنسوا . هو اليوم شامبوليون . يستعد ليكون المكتشف . كم هو بعيد الآن « روبيسبير ! » ...

٩ - أوديب : من قرن لآخر ...

« نقش مقدس على الحجر » - اللغز المعن - العصور الثلاثة « لإعاده - المعرفة »
كيرشار العظيم - الدور الذى قام به لاينتز - واربرتون ومالين - جينى وصينيون -
الأب بارسليمى النكى جدا - نيبوهر المقدام - تحية إلى زويجا - أثنان من الأبطال
وحجر - تلقائية نبيل سويدى - تحت أعين الأخوة هامبولت ...

« ختم موضوع على شفاة الصحراء » .. الصورة الأدبية لشاتوبريان وإن كانت
تبدو عرجاء إلا أنها توضح بأفضل الكلمات « الصمت الأبدى » الذى ختم به قرار
الإمبراطور تيودوز بتحريم إستخدام الكتابة المقدسة للحضارة النيلية . ومثلما فعل الأب
سيكار فى هيرموبوليس عام ١٦٥٠ حدث أيضا لفاسلاب ويوكوك ونوردن وسافارى
وقوانى وهم أعظم العلماء المرافقين ليونابارت عندما وقفوا يشاهدون بعيون مبهورة
حوائط المعابد والمسلات التى نقشت عليها صور لكثبة وهم يقدمون للملوك « لانعرف
ماذا ... » .

نظام الكتابة كان مشفراً - وإن لم يكن كذلك فى البداية ؛ إذ إن الكتابات المبسطة
- الهيراطيقة والديموطيقية - تثبت أن الكهنة / الكتبة لم يعملوا على أن تبقى كتاباتهم
سرا للعامة - ولكنها أصبحت مشفرة منذ الفترة التى أصبح فيها إحتمال وقوع المبادئ
التي تقوم عليها السيطرة المتأصلة فى الزمان على الكون إحتمالاً قائماً فتضيع هذه
السيطرة تحت هجمات الفرس والمندونيين والرومان .

فعلى سبيل المثال ،إذا حدث أن حرم أحد غزاة إيطاليا أو فرنسا إستخدام اللغة
الوطنية فى الكتابة فإن استمرارية هذه الكتابة ستكون مؤكدة من خلال ألف وسيلة .
أما فى مصر فى نهاية القرن الرابع الميلادى فإن صدور الأمر الإمبراطورى عام ٣٨٤
جعل فهم الكتابة الهيروغليفية غير ممكن بعد وفاة آخر كهنة أمون .

منذ بداية القرن الخامس لم تعد « الحفريات المقدسة على الحجر » - وهى
الترجمة الكاملة لكلمة « هيروغليف » - وهى التى أعطت أقدم إمبراطورية فى التاريخ
بناؤها الفكرى والروحى سوى لغز مطروح على علماء اللغويات فى جميع بلاد العالم بما
فى ذلك مصر ذاتها . اليونانيون والرومان المعاصرون لآخر أجيال الكهنة الكتبة راحوا
هم أيضا يتلعثمون ويتحسسون الطريق دون جدوى بعد أن أصبحوا غير قادرين على
نقل مبادئ هذه الكتابة ووسائل حلها بطريقة سليمة .

إذا نحن فى الواقع بحثنا عن بداية محاولات فك الشفرة فسنضطر إلى الرجوع فى القرن الأول إلى شيريمون وهيرمايون لكى نحصل على مراجع ذات بال . إذ بينما كانت الحروف الهيروغليفية تحفر على الجدران القائمة على ضفاف نهر النيل من سايبيس إلى قبلة كان العلماء اليونانيون أو البيزنطيون يعتبرون أنهم يتعاملون مع القضية وهم يعكفون على حل شفرة العلامات التى إخترعها الآله تحوت - والتى جعلت منه الثقافة اليونانية إلهها هيرمس .

ما يمكن تسميته جزافاً بالبحث الإيجيبتوجرافى ينقسم إلى ثلاثة مراحل تاريخية : مرحلة « أصحاب التخمينات الجرافية » ثم مرحلة جامعى الرموز وأخيراً مرحلة الباحثين فى حجر رشيد .

كل شئ بدأ فى القرون الأولى من التقويم الميلادى بتدخل « أشباه العارفين بالامور » تدخل مشوها ومتناقضا وهم ما أطلقنا عليهم اسم « الجرافيين » من - أباء الكنيسة « العلامة » والرهبان والرحالة والمؤرخين . فمن الإسكندرية إلى بيزانطة أخذوا يجمعون ولعدة قرون (وهم يعتقدون أنهم يفهمونها) المعلومات والنصوص والإفتراضات بل وأحيانا أجزاء بسيطة من نصوص مكتوبة بلغتين . سرعان ما سيصبحون هم أنفسهم موضع بحث بدلا من أن يكونوا باحثين . ومن خلال هذا المنظار المشوش بسبب الأقوال المنقولة والتقريبات والتراث بدأت بعد ذلك باثنى عشر أو خمس عشر قرنا أعمال علماء اللغويات .

مرحلة البحث الحقيقى بدأت حول عام ١٦٤٠ على يد أثنانز كيرشار ونحن نتساءل هل فتح هذا الأب اليسوعى القادم من مقاطعة هيس الألمانية سبلا أمام البحث أم أنه طمسها .

الشئ المؤكد هو أنه جزع شجرة المعرفة التى ضربت جنورها فى أرض تقريبيات عصر النهضة الذى يعتبر كيرشار وريثها المباشر . من هذا الجزع سيتفرع العديد من أهل عصر التنوير ، أهمهم فى هذا المجال جابلونسكى ، واربورتون ، بارتليمى ، جينى و زويجا كل فرد من هؤلاء شارك باكتشاف أو بطرح مشروع بحث مثمر أو حتى بخطأ ساعد على الفهم . المرحلة الثالثة نشأت مع إكتشاف حجر رشيد. إذ قبل الرجوع إلى هذا النص الأشهر المكتوب بلغتين مختلفتين * كان محكوم على أعظم المفكرين أن يلعبوا لعبة « حذر فذر » . ومع بداية القرن التاسع عشر أعطى إكتشاف هذا اللوح

* لغتان وثلاثة كتابات .

الذى هو بمثابة « الواح العهد » دفعة هائلة لعمليات فك الشفرة الحقيقية وبعد أن استعصى على عالين من كبار الباحثين على الأقل سمح هذا الحجر للدكتور توماس يانج أن يستولى على حصون المقدمة لهذه القلعة المنيعه ، التى هى بمثابة جزر الكاريبي بالنسبة لمكتشف أمريكا . وأخيرا جاء جان - فرنسوا شامبوليون ليجعل من هذه اللعبة الإلهية علماً .

إذا كانت الأحجار العتيقة ترفض أن تتكلم فإن الوسطاء كانوا منذ البداية يعرضون أنفسهم للباحث أو للزائر . بالنسبة للباحث عن الحل فى المرحلة الأوروبية القديمة كان الوسطاء نوى الشهادة الغامضة والعلم المشكوك فيه هم - من بين آخرين - شيريمون وهيرمايون وهورابولون وكليمان السكندرى . أول هؤلاء بقى مجهولا لفترة طويلة جداً ولم يكشف عن مساهمته سوى راهب بيزنطى اسمه تزيترزاس بقى فى طى النسيان حتى منتصف القرن التاسع عشر . وهو الوحيد من بين هؤلاء الشهود الذين لم يحسنوا الانصتات الذى أشار بشئ من وضوح الرؤيا * إلى أن الأصوات والصور تتداخل فى الكتابة الهيروغليفية .

المساهمة التى أتى بها الثانى - وهى مذكوره فى كتاب « التاريخ » لأميبان مارسولان - كان يمكن أن تكون ذات قيمة حيث أنه جاء بترجمة تقريبية بلغتين لنص يزين مسلة أقامها رمسيس الثانى فى هيليوپوليس وتم إهداؤها إلى القيصر أغسطس فى القرن الأول . إلا أن هذا المستند الذى يعتبر من أجداد حجر رشيد لم يجد من يستغله من الباحثين . أما هورابولون وكليمان السكندرى فقد قدما للعصور التالية** لهما وصفا للمنظومه الهيروغليفية أدخل الباحثين إلى مجاهل التيه . تقوم الطريقة البحثية للأول على ضرب أمثلة لاحصر لها يحاول أن يثبت بها الصفة الرمزية والمجسدة للأفكار التى تعبر عنها هذه الكتابة . وقد كان لخياله الخصب تأثيرا ترفيها حقيقيا لعلماء اللغات . فهو على سبيل المثال يؤكد أن كله « يفتح » تكتب بصورة الأرنب ؛ لأن هذا الحيوان تبقى عيونه دائما مفتوحة والرقم خمسة تمثله النجمة ؛ لأن النجمة لها دائما خمسة أضلاع .

إلا أن العلم المعاصر يميل إلى إعطاء هذا المتلاعب بالكلمات حقه بسبب بعض أرائه ذات القيمة .

أما كليمان السكندرى وهو أحد أساقفة الكنيسة وأحد أبائها أيضاً ، فقد كان أكثر طموحا إذ عمل على إقامة نظام متكامل يميز فى الهيروغليفيات بين عدة طرق

* راجع هنرى سوتاس - مقدمة الطبعة الجديدة « الخطاب إلى السيد داسيه ١٩٢٢ من ٣١ .
** الأول فى مؤلفاته « هيروغليفيا » والآخر فى « السترومات »

للتعبير : الأول مباشر عن طريق المحاكاة ، والثاني رمزي عن طريق المماثلة بين الأشياء والثالث رمزي أيضا ولكن عن طريق التورية والألغاز . هكذا ضمن الأسقف السكندري لنفسه أنه وضع بصمته أمام التاريخ على الطرح الذي ظل سائداً في التاريخ القديم ، وهو القائل بأن الرموز الهيروغليفية هي نوع من الكتابة يعبر الرمز الواحد فيها عن فكرة وأنها كتابة رمزية * .

هذا التصور « المتسامي بمصر » من خلال كتابتها ، وهو التصور الذي زاده الأفلاطونيون الجدد أبناء عصر النهضة الإيطالي «مثالية» حسبما يقول في كتبه إريك إيفرسان . هذا التصور ظل ملقياً بثقله على البحوث في الشأن المصري حتى نهاية القرن الثامن عشر لدرجة أن كل مجهود وكل عبقرية الباحثين من زويجا إلى يانج ومن أكربول إلى شامبوليون سيتركز تحديداً في البحث عن الصوت الكامن وراء الفكرة ** ...

عالم اللغويات الكبير هنري سوتاس (1) يرى في الخطأ التوجيهي الذي إرتكبه القدماء « حكماً مسبقاً طبيعياً للغاية » ؛ إذ كيف يمكن أن نتصور مقدماً أن هذه الرموز ذات الأشكال عظيمة الأيحاء يمكن أن تكون مجردة من قيمة الفكرة وأن يبلغ بها الحال أن ترمز لأصوات فقط مثلما هو الحال بالنسبة لحروفنا التي تشكلت بالصدفة ؟

في تلخيص نقول إن الباحثين المعاصرين دخلوا مهنة البحث مسلحين بهذه البوصلة التي تشير إلى الشمال في اتجاه .

ولا يمكن أن نقر بأن رائدهم أثنانز كيرشار قد نجح في أن ينأى بنفسه من هذه الأحكام المسبقة التي أصيب بعدواها عن طريق الأقدمين العظماء بل أنه زاد الطين بلة في بعض النقاط . وإذا ظلت شهرته كبيرة فلا يعود ذلك إلى أنه كان « آخر البوليماثيين » أي علماء عصر النهضة الذين درسوا وخاضوا في جميع العلوم والفنون تقريباً - فحسب ، وإنما لأنه شارك مشاركة مهمة في البحث الهيروغليفي أيضا . فهو الذي وضع مبدأ أن اللغة القبطية هي اللغة التي كان يتحدث بها قدماء المصريين بعد صياغتها في حروف تشبه الحروف اليونانية وهي تعتبر بذلك الصدى الصوتي للهيروغليفية

في محاضراته الأولى في الكولاج دو فرانس ، ندد جان - فرانسوا شامبوليون بعنف بالجيرويتي كيرشار ليس لأنه ساهم في تضليل من سبقوه فحسب ، ولكن لأنه وعلى الأرجح كان ينتمى إلى نظام كنسي يمقته « روبسبير جبرونويل » أيضا .

* الإشارة الوحيدة لقيمتها الصوتية ترجع كما رأينا إلى شيريمون .
** وسنجد ترديداً لهذا الخطأ الأساسي حتى في الصفحة الأولى من «خطاب إلى مسيو / داسيبه » في طبعته الأولى .

إذ يقول « الجزويتى كيرشار [...] ضلل معاصريه عندما نشر [...] ما يدعى أنها ترجمات للأساطير الهيروغليفية المنحوتة على مسلات روما وهى ترجمات كان لا يصدقها هو ذاته . فقد وصلت جرأته إلى أنه كان يدعم ترجماته بنصوص منقولة عن كتاب لم يكن لهم وجود أصلا * [...] لا العلم ولا الآثار ولا التاريخ كان فى إمكانه أن يجنى ثمرة واحدة من أعمال كيرشار [...] المليئة بالرمز شديد الغموض والأكثر إثارة للسخرية ! » (2)

وحتى عندما يجد نفسه مضطراً لأن يعترف لكيرشار بحقه فى أنه « ساهم فى نشر دراسة اللغة القبطية » فإن شامبوليون ينجح فى الإستهزاء به مرة أخرى فى هذه النقطة ، وذلك بأن يؤكد « أنه حتى فى هذا المجال لم يتمكن أبونا القس من التخلص من شعوبته المعتادة إذ سمح لنفسه بادخال العديد من الكلمات فى قاموس اللغة على أنها كلمات قبطية لسبب واحد هو أنه كان يحتاج لها لدعم شروحه الخيالية » . (3)

مشعود ؟ عالم موسوعى ؟ رائد ؟ إن أثناناز كيرشار كان من الشخصيات العامة فهو من أبطال عهد يمكن تسميته « ما بعد عصر النهضة » . ولد - كما تقول كاتبة سيرته جوسلين جودوين - « إما متأخرا أكثر من اللازم أو متقدماً بأكثر من اللازم » فهو لم يكن فى أهمية كيبيلار (الذى كلف كيرشار بأن يخلفه فى قيينا) ولا نيوتين .

تزين غلاف الأعمال الكاملة للأب أثناناز صورة له كتبت تحتها هذه العبارة الضخمة : « الرسام والشاعر يصرخان دون جدوى : هاهو ! إن وجهه وإسمه معروفان فى جميع أرجاء الكرة الأرضية » . ولد فى مدينة فولدا مقاطعة هاس فى ١٦٠٢ قام بتدريس كل شئ تقريباً (من الرياضيات إلى الموسيقى مروراً بالفلسفة والفلك) وفى كل مكان تقريباً فى ماينس وفورزبورج وهایلنجستادت هرب من جيوش جوستاف - أولوف ليجد نفسه وقد بلغ الثلاثين من العمر فى مدينة أفينيون حيث وجهه العالم المشهور نيقولا بيرياسك إلى دراسة اللغة القبطية من أجل البحث الهيروغليفى .

الجزء الهام من بحوثه فى اللغويات أجراه فى المدرسة المركزية للجزويت فى روما ، التى كانت تنتشر فيها المسلات شامخة على قعداتها أو مهلمة هى وفى جميع الأحوال تعرض نفسها لأبحاثه ... وهنا فى عاصمة البابوية نشر كتابه المشهور : « أوديب المصرى OEdipus Aegyptiacus . غير أن فك الرموز لم يكن سوى أحد الموضوعات العديدة التى إهتم بها هذا « المشعود » المتعدد المعرفة فى دراساته . فهو رجل عمل على أن ينزل داخل فوهة بركان الفيزوف لكى يشاهد عن قرب ثورة بركانية .. كما أنه درس أسباب مرض الطاعون . وكان يرأسل ليبينتز وقام بتدريس

* هذا ما كان فى مقنور جوزيف شامبوليون أن يعرفه عام ١٨٢١ وهو لم يكن متأخراً لكيرشار فى ١٦٤٧

المنظور إلى الرسام نيقولا بوسان ، وشارك مع ويايم جاسكونى فى إعداد المنظر الفلكى ورمم بيده كنيسة يسوع فى روما وأسس أول متحف فى التاريخ والذى أطلق عليه ببساطة شديدة اسم « كيرشار نوم ... »

هل هذا هو كل ما قام به ؟ بالطبع لا ... فهو مؤلف موسورجيا أو نيفرساليس « الموسوعة الموسيقية العالمية » وبذلك يكون هذا الأب اليسوعى كيرشار أول عالم فى الموسيقى (بعد بواس ؟) فى التاريخ والمنظر العبقري لعبور الأسلوب البيوليفونى إلى المرحلة الباروك . كما أنه صاحب مؤلف دراسى عن السمعيات ينتهى بهذه العبارة : « الصوت هو القرد [المقلد] للضوء » ولعل شامبوليون قد وجد فى هذه الكلمات مادة للتفكير . ولكن هل هى عبارة صحيحة ؟ خطأ بالتأكيد ... ومع ذلك أليست إحدى « اللاحقيقيات » التى تنبسط منها شموع الحقيقة ؟ ولا يمكن أن نختم حديثنا عن العالم المتعدد المعرفة أثنانز قبل أن نذكر أنه كان حسبما يؤكد البعض مخترع « الفانوس السحرى » وبالتأكيد مخترع أصل « مكبر الصوت » ، وقد أطلق عليه اسم « النفير الستنتروفونى » وكان يستخدمه فى كنيسة منتوريا ليستدعى رعايانا فى دائرة قطرها خمسة كيلومترات (4) .

وبناء على ذلك كيف يمكننا ألا نشارك جان فرنسوا احتقاره * لهذا الرائد المفعم بالحيوية والميال للتهويل والخارج عن الصف والغارق فى التهيؤات الذى يرى فى الهيرغليفا رقصة هائلة تقوم بها أشكال عجيبة ذات معان سرية أو عالم خاص لا يدخله ولا يستخدمه سوى قلة قليلة من الدارسين .

لقد كان بالتأكيد عالم لغويات غريب الشأن هذا الذى وقف أمام خرطوش يحتوى على اسم الفرعون العظيم تحوتمس الثالث الذى يقرأه علماء المصريات: « الأشكال المعمرة التى يتخذها الآلة رع » وقرأه هو : « القلعة السماوية لكوكب الأرض تحميه من جميع الأحوال المعونة الإلهية لأوزيريس الجن الأجاتى الرطب ... » كان أبونا هذا يتمتع بخيال حصب جداً إذ كتب هذا النص « إن الأثار الطيبة لأوزيريس الإلهى يجب أن تجلب عن طريق الطقوس المقدسة وسلسلة الجنيات حتى يمكن الحصول على خيرات النيل » على أنه ترجمة لمجموعة من الرسومات ترجمها العلماء الذين خلفوه فى كلمة « أيزيس » .

ومع ذلك يعتبر الأب اليسوعى أثنانز كيرشار أحد أفراد مجموعة الآباء المؤسسين [للإيجيبتولوجيا] لا لأنه أكد بتوجيه من بيكولا بارساك كما رأينا من قبل -

* عبر عنه منذ نهاية القرن السابع عشر قس يسوعى آخر وهو الأب مينا سترييه والانجليزى ولكن ومؤخراً الراهب ريووتون الذى ندد بهذه « الفرائب المتصوفة » فى حين أن كتاب معاصرين محترمين مثل إبريل يفرسان ومادلين دافيد لهم آراء مختلفة حول هذا الموقف السلبى .

على الدور المحورى للغة القبطية : (« الصوت ... القرد المحاكى للضوء) فحسب وإنما لأنه كان يبحث أيضا بكل جوارحه Weltanschauung مصرية ، تعبر عنه الهيروغليفيات (5) يجب أن نضع محاولته إيجاد طريقة للكتابة توحد فيها جميع لغات العالم (على مستوى الكتابة فقط) ضمن مشاريعه ذات الصبغة الكونية - وكانت الهيروغليفية ستلعب دوراً أساسياً لهذا النظام - أن يقوم أحد قساوسة القرن السابع عشر اليسوعيين المعاصر لبوسيويه - بكل هذا العناء وبكل هذه الاستتارة لإقناع العالم الكاثوليكي بأن يفهم الوثنيين عنده « الأصنام » (الأموات منهم بطبيعة الحال) بدلاً من إقصائهم ولعنهم ، هو تعبير عن عظمة فريدة من نوعها كما هو الحال أيضا بالنسبة لحميته فى البحث عن مبدأ ديانة كونية فى التيوجونيا (مبحث أصل الآلهة وتحرهم) المختبأة فى داخل الكتابة المشفرة لمصر القديمة .

كلها مشاريع نبيلة جديدة بأن تجذب إهتمام جان فرنسوا شامبوليون إلا أن عالم اللغويات فى داخله إعترض على أن هذا العالم المتعدد الثقافات والذي سلح نفسه بمعرفة اللغة القبطية لم يقم أى علاقة بين اللغة التى فيها مفتاح اللغز وبين الكتابة المطلوب حل طلاسمها .

ليست أقل أمجاد الأب أثنان أن كان مراسلاً للفيلسوف لايبنيثز ولفترة ما مصدراً لوى أفكاره إن اسم هذا الرجل العظيم ليس مرتبطاً بجنور السياسة الفرنسية فى مصر* فحسب بل كان أيضا مشاركا فى المغامرة الكبرى للدراسات الهيروغليفية - فقد أعلن لايبنيثز لفترة أنه من تلاميذ كيرشار مؤكداً أنه « سيعرف الخلود » لأنه إعتبر أبحاث الأب اليسوعى فى الكتابة الكونية أحد المثل العليا للتفكير الموسوعى الذى يفصح عنه كتابه De arte Combinatoria وإذا كان لايبنيثز عاد بعد عام ١٦٧٠ لايرى فى « إختراعات هذا القس » سوى ألعاباً فكرية صغيرة وطريقة أكثر من كونها مفيدة . إلا أن إهتمامه استمر مركزاً على تاريخ الكتابات وعلى الهيروغليفيات واضعاً إياها مقابل الحروف الصينية التى بدت له أقل « شعبية » أو « رمزية » ويغلب عليها الجانب « الفلسفى » أو « الثقافى » .

يصعب وضع لايبنيثز (الفيلسوف عالم الرياضيات) فى زمرة مكتشفى حل اللغز إلا أن فكرته العميقة التى قاومت الزمن عن مختلف أنواع الكتابة أوضحت فى العصر الكلاسيكى أن الهيروغليفيات بالنسبة لأحد أكبر المفكرين فى تاريخ العالم الغربى لايمكن إعتبارها سوى أنها مرادفة « للرموز » التى تعمل على « رسم الأشياء » .

* راجع التمهيد ص 24

إذا عدنا إلى موضوع الكتاب « الفلسفية » أو الكونية التي تستخدم الأفكار بدلا من الأصوات وهو الذى أدى إلى خلط الأمور بالنسبة لباحثى الهيروغليفيات التاليين سنجد أن أحد المشاركين الأساسيين فى ذلك هو المونسنير ويلنز أسقف تشستر الذى أخذ عنه لايبنتز بعض الأسانيد ، فهو فى كتابه « بحث فى الوصول إلى لغة فلسفية » ١٦٨٨ (Essay towards a philosophical language) يعتبر الهيروغليفيات منطلومة من الصور البدائية جديرة بأن يستخدمها شعب بدائى - هذا كان رأيه فى المصريين والمكسيكيين - وطورها بعد ذلك الشعوب إلى فكرة « المفهوم » واستخدام الأبحديات .⁽⁶⁾

ثم جاء قرن التنوير حيث تتجمع كافة معطيات الحل التى يمكن تجميعها قبل اكتشاف حجر رشيد .

نان بول - إرنست جابلونسكى وهو ابن باحث لاهوتى من مدينة دانتزج صديقا ومراسلا للايبنتز - وجه البحث الهيروغليفى ناحية اللغويات التطبيقية ودراسة الأديان يقوم كتابه Pantheon Aegyptiorum عالم الآلهة المصرى (١٧٤٠) على دراسة منظمة للغة القبطية والآلهة النيلية . والسؤال المطروح كان : هل تسمح قراءة اسمى إيزيس وأوزيريس بواسطة معجم قبطى بإيجاد مفتاح الحل ؟

أهمل جان - فرنسوا شامبوايون هذا الباحث الألمانى لفترة طويلة . بل أنه سخر فى خطاب لأخيه مكتوب عام ١٨٠٩ من محررى كتاب « وصف مصر » الذين « يعزفون على طريقة جابلونسكى » . بعد عشرين عاما فى محاضراته الأولى فى الكولاج نو فرانس إسترجع نفسه وأفكاره المسبقة عنه واعترف بما لمؤلف كتاب « البانتيون » من « ثقافة واسعة » إلا أنه أكد على أنه لم تكن لديه الوسائل التى تسمح « بترجمة أسماء الآلهة المصرية بواسطة اللغة القبطية » وذلك لأن « العناصر الصوتية المكونة لأسماء العلم الأصلية للآلهة المصرية فى النصوص الهيروغليفية لاصلة لها بالكتابة الإملائية التى أضفاها عليها جابلونسكى ولا يمكن أن تستجيب لترجماته »⁽⁷⁾ .

جابلونسكى وقع هو الآخر ضحية للإيديولوجرافية * وتحجيم الكتابة المقدسة المصرية فى إطار اعتبارها رموزاً و « رسومات للأشياء » . كم من عقود مرت قبل أن تلغى « القراءة » المثالية التى اعتمدها كلمان السكندرى ؟ شامبوايون بصفتة مؤرخ لتاريخ الكتابة حيا الجهود الذى بذله جابلونسكى بعد أن أكد بالطبع على فشله النهائى وكانت الدراسات الإيجيبتولوجية المعاصرة له قد تناسته . فى حين أن الذين تناسهما هو فى محاضراته كانا قد عرفا فى عصرهما وفيما بعد أيضا أمجاداً مستحقة وهما واربرتون وبارتيلمى .

* الرمز يشير إلى فكرة

يصعب فهم السبب الذي جعل صاحب «خطاب إلى مسيو داسيه» وهو بصدد تقديم كشف حساب أبحاث من سبقوه - يسقط هذين الباحثين علما بأن شهرتهما لا بد وأنها الحت عليه في شبابه ، إذ أن الكتاب الذي ألفه واريورتون بعنوان «بحث في هيروغليفيات المصريين» والذي حقق نجاحاً هائلاً فور نشره في فرنسا كان متوفراً في مكتبة جاك شامبوليون* في فيجاك . كما أن كتاب الأب بارتيليمي «رحلة الشاب انشاريس» الذي نشر في ١٧٨٧ لا بد وأنه سحر لب تلميذ مدرسة لبيسيه جرونويل مثله مثل جميع زملائه المراهقين على الرغم من أن موضوع الكتاب هو اليونان وليست مصر . باختصار تجاهل شامبوليون ذكر الاثنتين ضمن الرواد الذين أشاد بهم بعد أن وصل إلى الشهرة والمجد .. إلا أن ذلك لا يمنعنا من الإشارة إلى ما قدمناه وهو ما يقره جميع المتخصصين المعاصرين ..

انتهى مطاف هارورتون بأن أصبح أسقفاً ومن ألد أعداء فولتير ، إلا أن هذا لم يمنعه من أن يؤلف أكثر الكتب « فلسفة » فيما يتعلق بالجدل الدائر حينذاك حول الهيروغليفيات ، وجاء تقدير الأنسي:لوبيديين له على هذا الأساس . إذ لم يكن في الإمكان الإبتعاد عن رمزية كيرشار بأفضل من ذلك في وضوح الرؤيا ومحاولة إيجاد تفسير عقلي وتاريخي لمنظومة الكتابة المصرية ولا بأجراً من ذلك .

ومع ذلك يجب ألا نخطئ في تقدير الشخص ذاته . كان واريورتون ينادى في كتابه الأصلي " The divine Legation of Moses " من أجل تجديد الدراسات التوراتية وهو ما قاده إلى إبراز مشاركات مصر الهائلة في تاريخ البشرية . ثم جاء مترجمه إلى الفرنسية ليونار دو ماليان فتخطى دوره كمترجم وأعد بجسارة الكتاب بأن أعاد تبويبه حول مركز واحد وهو الذي يبرر عنوانه ومعناه (بحث في الهيروغليفيات المصرية) وجعل منه فصلاً محورياً من تاريخ و« مستقبل » الكتابة . (8) مؤلف واريورتون ومالبان حيث نشرته مجهولة التوقيع ومنشورة في ١٧٤٥ في باريس**على أنه من « الروائع » إذ يكفيه أنه أثبت أن « الكتابة الهيروغليفية مهدت للاختراع العظيم للأبجدية ».

وضع مؤلفا كتاب «بحث في الهيروغليفية» حديثهما في إطار جميل من التطور المستمر للتقدم الفكري : قدما التحية بشئ من التحفظ لهورابولون وكليمان السكندري منتقدين أي فكرة عن « قوة سرية » أو طقوس خفية « وساخرين بقوة من كيرشار المسكين ثم وصفا عملية العبور من الرسم لكتاب الأفكار ومن الرمز إلى الشئ المشروح ومن الشئ الممثل إلى الخط المتصل . بل إن الأسقف الانجليزي يذهب إلى الإشارة إلى العبور من كتابة الأفكار إلى كتابة الأصوات وهو بصدد الحديث عن الرموز

* راجع الفصل ١

** محفوظ ضمن أوراق جاك جوزيف شامبوليون - فيجاك .

الهيروغليفية . وهو يعتبر أن الأبجدية العبرية خرجت من الكتابة الجديدة وهي بدورها مرتبطة إرتباطاً لا ينفصم عن اللغة المنطوقة . على هذا الأساس تكون الكتابات « شيئاً كلياً ومتنوعاً » مر من « حالة الرسم إلى حالة الحرف » (9) وتفرض الحالة المصرية نفسها على الجميع بوضوح لا يقبل المقارنة .

الحيثيات التي ساقها وأريورتون ومالبان تعتبر قمة في العقلانية وهي بالمناسبة تتحدث عن « كتابة للأصوات [...] مرتبطة بالمنطوق * مجهود تسطيحي ؟ جائز ، ولكن كما يقول واضعو (10) Who is who in Egyptology بعد زمن طويل : « إنه الكتاب الوحيد قبل مرحلة شامبوليون الذي أشار إلى الأسلوب الصحيح » ... أسلوب العمل من أجل حل الشفرة بالطبع ومع ذلك فلم يحاول وأريورتون دخول المضمار ولعل ذلك هو السبب . لذي جعل جان - فرنسوا شامبوليون يفضل ذكره بعد قرن كامل تقريباً ضمن سجل عظماء الباحثين في سر الهيروغليفيات . في حين أن مادلين دافيد تتكلم عن « خطوة حاسمة » وتعلق بهذه الكلمات على ما قدمه الأسقف الانجليكاني :

« الطريق مهد ومع ذلك بقي كل شيء على حاله منتظرا الإستكشاف والاكتشاف [...] لمع بريق أمل حل الشفرة بعد أن درس الهيروغليفيات المصرية وقارن أشكالها المتتابة مع الأخذ في الاعتبار المشاكل اللغويستية التي استبعدها وأريورتون » (11) .

في خط مواز للبحث عن فك الشفرة سواء بواسطة المقارنات أو التداخلات اللغوية أو حتى بوصف عملية التطور التلقائية لوسائل التعبير ، تطورت محاولة فضفاضة لشرح المنظومة المصرية بالمقارنة أو بالمقابلة مع اللغة الصينية ... وهي اللغة التي اعتبرها لايبينتز كما رأينا من قبل أكثر « فلسفية » من لغة وادي النيل .

ترتبط بهذه المقارنات الجسورة أسماء نيقولا فيريه الذي اعتبره شامبوليون فيجاك « معلماً في النقد وسعة الثقافة » وإتيان فورمون الذي استغل بذكاء حواراته مع شخص يدعى أركاديوس هوانج . وهو شاب صيني أحضره معهم قساوسه فرنسيون إلى فرساي أصل شخصية أوزيك التي صورها ديديرو في رويته « المراسلات الفارسية » وأخيراً اسم الكونت دوجيتي .

ماذا عن مشاكل الأسبقية ؟ يؤكد فيريه على أسبقية حضارة وادي النيل على الرغم من أنه يقول أحياناً أن « المصريين يشبهون الصينيين » . غير أن هذا ليس

* سيستوحى دوبروس منها بعد عشرين عاماً كتابه « دراسة التكوين الالى للغات » (1716)

موضوع النقاش لأن الإشكالية تتلخص فى طبيعة وقيمة المنظومتين . تقوم الكتابة المصرية فى رأى فريريه على « علاقة مصورة » منحيا تماما وجود رموز صوتية وهى تعبير رمزى أو مصور فى حين أن الصينية تقوم - فى شكلها الجزافى - على أساس « علاقة مؤسسية » وهى تعتبر لذلك فى تصوره ذات قيمة أعلى .

أخذ الكونت دوجينى الأمر بصورة مختلفة . فهو يعلن فى البداية أن الصينيين مستعمرون مصريون (وخزعبلات أخرى) ثم راح بطريقة أكثر جدية بحاول المقارنه بين مجموعات من الرسوم الهيروغليفية وجزور الكتابة الصينية . وخلص إلى القول الجسور بأن المصريين هم الذين أعطوا منظومتهم الكتابية إلى الصينيين . لم تخلو تهيؤاته هذه من بعض الرؤا الثاقبة : فهو يشير إلى أن طرق الكتابة المصرية الثلاثة تكون وحدة واحدة . ويضيف دوجينى أيضا أن هذه الرموز* لاتوجد بها حروف متحركة . ولوأن علماء اللغويات قد أخذوه على محمل الجد لكانوا وفروا على أنفسهم بعض الأخطاء التالية لهم - وهو ما أفاد شامبوليون .

شاركت إذن الدراسات الصينية الوليدة أستاذيها الأول أبل دوريموزا زميل جان - فرنسوا شامبوليون السابق فى الكولاج دو فرانس فى تقديم الدراسات المصرية . إلا أن هنرى سوتاس يرى أن هذا التداخل « أضر بأكثر مما أفاد لأنه ذهب إلى أبعد مما ينبغى ، حتى من شامبوليون ذاته » .

متى سنتوقف عن تجميع شخصيات هى بمثابة أبطال روايات ضلت طريقها فى هذه الملحمة اللغوية !؟ لدينا واحد آخر : الأب جان - جاك بارتيليمى . المولود فى كاسيس . وعلى الرغم من أنه كان مرتديا اللباس الغامق على الدوام فهو لم يدخل أبداً فى السلك الكنسى أو الرهبانى . ومع ذلك فقد كان واعظاً حتى باللغة العربية . وكان يتحدث عشر لغات شرقية وكان أعظم دارس للنقود والميداليات فى عصره . نشر عام ١٧٥٤ غراميات شامبوتيه وپوليدور إلا أن المجد الذى مسه كان بسبب نشره كتابه الأشهر بعد ذلك بثلاثين عاماً بعنوان رحله الشاب أناشارزس إلى اليونان فى منتصف القرن الرابع تقريباً مثل العصر السوقى .

صاحب كتاب حظى بشعبية هائلة وقس علمانى جداً ولكنه أيضا وبالتأكيد عالم بالمعنى الحقيقى ، عمل قبل ذلك بسنوات طويلة ويجد فى فك شفرة الإبجديه البالميرنية

* فى بحث قدمه عام ١٧٦٦

والفينيقية . ثم بدأ يحقق فى اللغز المصرى وذلك بدراسة قطعة من القماش : خرج من هذا البحث بتقرير قدمه لمجموعه الآثار القديمة المصرية والإتروسكية واليونانية والرومانية للكونت دو كايوس بلور لأول مرة (فى ١٧٦٢) . إحدى الأفكار الأكثر تحديداً فى تاريخ الابحاث فى المصريات والأكثر أصالة منذ أن ربط كيرشار بين اللغة القبطية واللغة الفرعونية موحداً بينهما . إذ قال : « الهيروغليفيات المنقوشة على الآثار المصرية تتجمع فى أشكال ببيضاوية [...] لكى ترمز على الأرجح لأسماء الملوك أو الآلهة * » .

بيضاويات أم خراطيش - كما نسميها الآن - الاكتشاف كان حاسماً ، إذ تمكن من فصل مجموعة من العلامات . هذه المجموعات من المفروض أنها مرتبطة بأسماء ملكية أو دينية هى فى الأساس محدودة العدد ... أخذ البحث بذلك يتحدد ويتركز وسنرى فيما بعد أنه عن طريق أسماء الملوك الأجانب مثل بطليموس وكليوباتره ثم الملوك الوطنيين مثل رمسيس وتحوتمس وصل أخر الباحثين - شامبليون ويانج إلى الهدف .

لم يتوقف الواعظ العلامة فى بحوثه وإكتشافاته عند توضيح دور الأشكال « البيضاوية » بل إنه وضع هذا المبدأ الأساسى الذى تمخض عنه الكثير وذلك بأن أكد أن مفتاح الشفرة لن يأتى عبر دراسة المؤلفين اليونانيين واللاتين وإنما من « دراسة الآثار التى ستتكم بوضوح » . ما أراد بارتيليمى عمله وهو دارس آثار محترف هو إعادة دراسة النصوص إلى إطارها الأركيولوجى .

لم يخف صاحب « الرحلة » أنه مدينه لواربورتون ويؤكد على براعة وأصالة وصفه لتطور الكتابة من مرحلة لأخرى من الصورة إلى الحروف . وصل الطريق الصحيح عندما قابل بين « الهيروغليفيات كرموز تمثل الأفكار » و « الحروف التى ليست سوى رموز تمثل الأصوات » فهو يتقدم على الدرب القويم عندما يقول « عند إختراع الكتابة الحالية استخدمت الهيروغليفيات المعروفة كعناصر مكونة للأبجدية الحديثة » (12) . معنى ذلك أنه أشار إلى الوحدة الأصلية التى تجمع بين مختلف الكتابات المصرية . شعاع ضوء جديد .

ثم يقول الأب بارتيليمى فى وداعه : « أعددت حجراً من أجل البناء (13) ويمكننا أن نطبق عليه ماقاله هو عن زميله لاكروز « تمر لحظات يشعر فيها المرء بالفخر عندما يعتقد أنه وضع يده على حقائق فانتت على بقية البشر ... »

* هذه الفكرة جاءت أيضا على لسان جيئى ولكن بعد ست سنوات .

« يعتقد المرء أنه وضع يده ؟ » لاياسيدى القس أنك وضعت يدك بالفعل ... جان
لوكلان يلخص مشاركة هذا البروفانسالى صاحب الزى الأسود فى عملية البحث
الكبرى فى « أربع مداخلات هامة : تطابق القبطية والمصريه القديمة * والعلاقة المحتملة
بين هذه الأخيرة واللغات السامية ، العلاقة بين الأشكال الهيروغليفية وأشكال اللغة
المكتوبة المرسله وقيمة « البيضاويات » [الخراطيش] التى تحيط بالأسماء الملكية . »
ياله من فن ؟

فى ختام كتابها عن الأبحاث الخاصة بالهيروغليفيات والكتابات الأخرى التى
أشرنا اليه عدة مرات تؤكد مادلين دافيد على أنها تنوى « إثبات أن أعمال شامبوليون
نبعت - بأسلوبها فى البحث - من حركة حل الشفرة التى إفتتحها بارتيليمى ... »
الواقع أن هذا البحث يصفى لمعانا خاصا وهاجاً على الصورة والأعمال الكثيرة -
والمتعددة - التى قام بها هذا المواطن الكاسيسى وذاك دون التقليل من أهمية ما قام به
من سبقوه ومن جاؤا بعده .

الأثار هى التى سنتكلم !! بيد وأن هذا النداء الذى أطلقه جان - جاك بارتيليمى
وهو الذى بحث من ناحيته فى قطع من القماش وليس على أحجار محفوره - وصل
إلى أذان المتكشفي الألمانى الكبير وعالم اللغويات كارستين نيبور الذى ترجع شهرته
أصلاً إلى فك شفرة الكتابة المخروطيه** ولكن لم يكن كتابه عن رحلاته إلى الشرق هو
الكتاب الوحيد الذى قرأه بوناپارت قبل حملته على مصر . بل كان أحد مراحل البحث
فى الهيروغليفية .

* وعل كيرشار يطالب عن بعد بابوة هذه الفكرة .

** النصوص التى رفعاها كارستان نيبور عام ١٧٧٨ فى بيرسيبوليس كانت السبب فى فك شفرة
الكتابات المخروطية كتب بياتريس أندريه .. ليكمان (فى كتالوج معرض مواد الكتابة بمعرض الجران باليه -
٧ مايو - ٩ إبريل ١٩٨٢) حوالى عام ١٨٠٠ اتضح تماماً أن الكتابة المخروطيه تتوى على أسرار الحضارة
الميزوبوتامية القديمة . والكتابات بثلاث لغات التى نحتها فى الحجر الملوك الفرس الأشمينيين العظام فى
بيرسيبوليس وببيستون هى التى سمحت بحل الشفرة . كان النص الواحد مكتوباً بثلاث لغات جميعها بحروف
مخروطيه ولكنها مختلفه : الفارسى القديم والعلمى والاكادى (البابلى) وهى اللغات الثلاث المستخدمه فى
الامبراطورية الفارسيه تمكن حد . ف . جروتفاند دو نيوتجان والقس الايرلاندى هتكس من قراءة الأولى منذ
عام ١٨٠٢ لان عدد حروفها محدود ستة وثلاثين حرفاً واقربها من اللغة الفارسيه . فك شفرة الكتابات
المخروطية توالى بعد ذلك على مراحل خلال القرن التاسع عشر . الحفريات التى قام بها الفرنسى فى
ميزوبوتاميا السفلى عام ١٨٠٠ هى التى أكدت وجود كتابة مخروطية أخرى تابعة من رسومات بدائية ترمز
للأفكار وكانت تغطى لغة حضارة لواها النسيان هى حضارة سومر وهكذا فإن الكتابة السومرية تعتبر أقدم
الكتابات التى وصلت إلينا وتسبق بذلك (بقرنين أو ثلاثة) الكتابة الهيروغليفية .

عاش نيبوهر فى القاهرة فى ١٧٦٢ واهتم بدراسة الحفريات المقدسة وعلق عليها قائلاً إنها تشبه « الكتابة الأبجدية » ثم أوضح أن هناك فروقا بين « رموز كبيرة وأخرى صغيرة » وأشار إلى أن الكبيرة فقط هى التى تعتبر « رموز حقيقية » أما الصغرى فهى تؤدى دور « الحروف الأبجدية » ولها قيمة صوتية . كما لاحظ بوضوح أن عدد الهيروغليفيات أصغر بكثير مما تعبر عنه ولا يمكن أن تكون هناك علامة لكل كلمة أو كل فكرة . وكانت هذه الملاحظة عميقة جدا . إستعارها شامبوليون بعد ذلك بنصف قرن من الرحالة الألمانى بعد أن قرأ مؤلفه (حول عام ١٨٠٦) وهى بذلك تعتبر مراحل من مرحلة عملية حل الشفرة .

العالم الدانماركى يوجين زويجا لم يكن عارفا بأثار مصر مثلما كان كارستان نيبوهر ولكنه كان قارئاً لكتب بارتيليمى مثله . عنوان كتابه الرئيسى هو De usu et origine obeliscorum (١٧٩٧) وهو يوضح أن البحث مع زويجا خرج من مرحلة البحوث الفكرية إلى مرحلة دراسة الأشياء إذ أن هذا الباحث تناول بالدراسة أهم الأثار المصرية القديمة المثلة لحضارة وادى النيل .

ولم يكن ذلك من أجل حل شفرة الكتابة وإنما لنقلها على الورق بطريقة منظمة . وكان هذا عملاً أثارياً حقيقياً .

ولد زويجا فى منطقة الشويلزيج عام ١٧٥٥ وتلمذ على المؤرخ الألمانى كريستيان هاين . قامت أبحاثه فى بادئ الأمر على مجموعة الأثار الموجودة فى متحف بورجيا فى فيلترى - حيث تعلم أيضا دويوا صديق شامبوليون . ثم عندما أقام فى روما وكان متخصصاً جيداً فى اللغة القبطية خطر له أن يركز أبحاثه فى المسلات وكان ما خلاص إليه فى بادئ الأمر هورفضه الحاسم للنظريات الرمزية على طريقة كيرشار ولم يكن هذا بجديد . غير أنه توصل إلى ملاحظتين قويتين للغاية الأولى أن هذه الكتابة أبعد ما تكون مخصصة لقلّة من العلماء والكهنة العارفين بأسرار الديانة ولا للطقوس الدينية ولكنها كانت « مستخدمة من الطبقة المنتورة من الأمة المصرية » (14) ، وكانت تستخدم فى تحرير النصوص سواء الدنيوية منها أو المقدسة . والملاحظة الأخرى وهى أفضل من الأولى : أن هذه المنظومة الكتابية لا بد وأنها تحتوى على عناصر صوتية * .

بهذا يكون يورجن زويجا قد خطا الخطوة الرابعة الهامة فى البحث الهيروغليفى وهى التى تلى الإدراك بتطابق اللغتين القبطية والمصرية القديمة (كيرشار) ثم وحدانية

* وهى الحقيقة التى سبق وأن شعر بوجودها كل من رابورتون ثم نيبوهر .

جميع الكتابات الهيروغليفية وأخيرا تحديد أماكن الاسماء المكلمية فى الخراطيش (بارتيليمى) ويعتبر إذن حلقة هامة فى سلسلة الباحثين وأخر مرحلة من مراحل التطور التى سبقت إكتشاف حجر رشيد .

وعلى الرغم من أن مساهمة زويجا قد جددت بعمق معطيات البحث وأن كتابه ظهر عام ١٧٩٧ أى قبل سفر بوناپارت إلى مصر بعام كامل فإن تحية جان فرنسوا شامبليون له فى عام ١٨٣١ فى خطابه التلخيصى جاءت على النحو التالى :

« أراد (من سبقوه) معالجة المشكلة بالمواجهة أى بشرح النصوص مسبقا قبل التعريف على أكثر عناصرها بساطة [...] لقد اعتنى زويجا بعمل كشف كامل وبتقيق لجميع العلامات الهيروغليفية الموجودة على المسلات والمباني المصرية القديمة » .

وهكذا تمكن العالم الدانمركى قبل أن تضع المنية حداً « لأعماله المفيدة » من تمهيد الطريق أمام من جاؤا بعده ليس كعالم وثائقى فحسب وإنما كرائد فى المجال الحيوى الذى هو إدراك القيمة الصوتية للهيروغليفيات .

سبق أن عرضنا الظروف الفريدة التى صاحبت إكتشاف الحجر المسمى بحجر رشيد فى يوليو ١٧٩٩ والسرعة الفائقة التى أدرك بها مكتشفوه أهميته العلمية ثم إستيلاء الانجليز المنتصرين عليه بعد أن أرسل اللورد الجين العالم ويليام هاميلتون إلى الاسكندرية لجرد وإستعادة الكنوز التى جمعها الغزاة بعد هزيمتهم وعلى رأس هذه الكنوز بالطبع الحجر البازالتى الضخم المنقوش باللغتين . وكانت شهرته قد عمت جميع الأوساط .

قبل أن يحتل مكانه فى مدخل القسم المصرى من المتحف البريطانى بمدة طويلة أخذت منه عدة صور طبق الأصل وعرفت طريقها إلى باريس فى ١٧٩٩ فقد قام ح . - ح . مارسيل بعمل نسخة ليتوغرافية منه بينما طبق عليه نيقولا كونتى طريقة الطبع بالحفر - الناعم . وأخيراً صب عليه أ . راينو- لوليل قالبين (كانت تسمى حينذاك : كبريت) وفى العام التالى قدم الجنرال دوجا وهو من أوائل القادة الذين ابحروا من مصر بعد هروب بوناپارت طبعتين من نصوص الحجر الذى إكتشفه بليز بوشار (15) إلى «الأنستيتو» : النص - بالمناسبة - ناقص حيث أن الصيغة الهيروغليفية منه مبتورة (بها ٢٦ سطرا فقط من ٤٠ تقريبا) والديموطقى ينقصه ثلث النص واليونانى تنقصه ٦ سطور من مجموع الأربعة وخمسين سطرا الأصلية .

تشير مادلين دافيد إلى أن حجر رشيد لم يكن ليتسبب بذاته في حل شفرة اللغة الهيروغليفية وإنما يعتبر « اكتشاف حاسم في هذا الصدد بمعنى أنه أثبت منذ البدايه العلاقة بين الكتابة الديموطيقية والهيروغليفية من جهة والرباط اللصيق في العلاقة بين هذه النصين والترجمة اليونانية له من جهة أخرى » (16) .

سمحت الترجمة التي أجريت على الفور للنص اليوناني بملاحظة أن النظريات القائلة بأن الحروف المقدسة كانت مخصصة للتعبير الرمزي عن أسرار مكنونة لفلسفة سرية وأو علوم لاتنتشر ستنهار فور التاكيد من أن الجزء الأسفل من النص هو ترجمة للنصين الهيروغليفي والمرسل اللذين يعلوانه وهو ما كانت الظواهر كلها تشير إليه . سرعان ما اتضح أن النص لايتعدى كونه قرارا صادرا من الهيئة اللاهوتية لمدينة ممفيس نحو تقديم التحية الواجبة للفرعون البطلسي بطليموس ايفانوس (١٩٢ ق م) شئ من قبيل ما أصدره المحافظ جوزيف فورييه من أجل تنظيم استقبال حافل للكونت دار توا في جرونويل * .

في الوقت الذي كان فيه العامة يمرون مشدوهين أمام الكتلة البازاليتة السوداء التي انتزعت بفضل نيلسون من أيدي خلفاء بونايرت كان علماء القارة يعكفون على الدراسة والعمل ضمن جهة كانت اللجنة المصرية التي يشرف عليها كونتي ثم لانكويه الذي كان أول من علق الإكتشاف ثم جومار - قد بدأت تحرير الكتاب الصرح « وصف مصر » . ومن جهة أخرى أخذ بعض علماء اللغات يدرسون صورا طبق الأصل من نصوص رشيد التي وصلت من القاهرة لمحاولة فك شفرتها . فقد أعتبر الحصول عن نص واحد بلغتين وهو الأول منذ زمن هيرمايون ** ، سببا يسمح بالإننتصار السريع للباحثين .

غير أن الإله تحوت - أمير الرموز - لم يكن يرفرف على باريس وظلت فخاخة مدفونة في رمال متحركة . أما في جرونويل فكان ولد في الحادية عشره ينام وسط الكتب التي تفرش غرفة صغيرة وضعه فيها أخوه الأكبر كما كانت تغطيها مخطوطات وكراسات بلغات أجنبية تحتوى على علوم الشرق العتيق صاحب الاف السنين وفي جميع الأنحاء كانت كتيبة من الباحثين تتقدم لمحاولة الرد على أسئلة أبو الهول .

يتقدم الكتيبة بطلان : أولهما الحرفى الأصيل الرجل الذى ظل يجسد الدراسات اللغوية الشرقية طوال العشرين عاما الماضية والذي كان يعرف من اللغة العربية

* راجع فصل ٧

** الذى تمكن رويجا منذ البداية التعرف على أهمية .

(المكتوبة) والفارسية أكثر من أى فرد آخر فى أوروبا وهو سيلفاستر دوساسى .
والآخر هو المثل الأعلى للهاوى المثقف - بكل ما فى هذا الكلمة من معنى سامى -
النبيل السويدى ، الصديق المقرب من الملك جوستاف الرابع الذى ترك كل وظائفه
الرسمية ليقيم فى روما حتى يتفرغ لولعه المسيطر « للتعرف على جميع مكونات وجميع
عصور عالم البحر المتوسط وهو : جوهان دافين أوكريالد .

كان اسمه الحقيقى إسحق سيلفاستر وهو ابن موثق للعقود مقيم فى باريس يحمل
هذا الاسم ثم أطلق على نفسه اسم دوساسى قبل أن يحصل من نابوليون ، على الرغم
من أنه كان ييغضه وكان يناهضة ولكن بحرص - على لقب بارون ، وكان وهو فى
العاشرة من عمره يترجم ويكتب بسلاسة باللغتين اللاتينية واليونانية ثم تمكن تماماً من
اللغات العبرية والفارسية والعربية وعلى أغلب لغات الشرق . عمل فترة موظفاً فى دار
النقود ثم تخصص عندما اقترب من سن الثلاثين فى تاريخ العرب ثم فك شفرة
النصوص المحفورة فى سيبوايس التى رفعها نيبوهر .

عندما قامت الثورة الفرنسية كان ساسى وهو فى الثانية والثلاثين أحد أساطين
الاستشراق الأوروبى - ثم زادت شهرته بعد ما نشر كتابين عن النظام الدينى عند
الروز وفى قواعد اللغة العربية ، وكان أحد مؤسسى المدرسه المختصة للغات
الشرقية عام ١٧٩٥ قبل أن يدخل الانستيتو والكولاج دو فرانس حيث تولى فيه
كرسى الدراسات الفارسية ، وتلمذ عليه جان - فرنسوا شامبوليون إعتباراً
من ١٨٠٧ .

لو أن أنه تم استفتاء العلماء عام ١٨٠٢ فيمن يختارونه لأداء دور أوديب المكلف
بحل لغز رشيد لاجمع الكل على إختيار سيلفاستر دوساسى ! كان فى قمة صحته وهو
فى السادسة والأربعين ، ذائع السيط بفضل دراساته عن نصوص برسيبوليس وقد
تسلح بنظام خاص لامثيل له فى المقارنة بين النصوص المختلفة للغات يشغل باله
بالتواضع الزائد والثقة الزائدة بالنفس ولذلك فقد بدا كأنه هو أفضل المرشحين لتبديد
ظلام الأسرار الهيروغليفية .

فلنستمع إلى شامبوليون وهو فى آخر أيامه يفتتح سلسلة محاضراته فى الكولاج
دوفرانس حيث لحق بأستاذه المسن عندما كان فى الثلاثين من عمره :

« اعتباراً من ١٨٠٢ قام عالم مبدع بدين له بالكثيرون هنا فى فرنسا لما وصلت
إليه الآداب الشرقية من إزدهار وانتشار فى باقى أوروبا بفضل انتاجه المهم وهو

الاستاذ البارون سيلفاستر دو ساسى - بعد أن حصل على صورة طبق الأصل من حجر رشيد - بدراسة النص الديموطيقى بالمقارنه بالنص اليونانى ونشر ملخصا لاجائه فى خطاب موجه لمسيو شابتال وزير الداخلية فى ذلك الوقت . يتضمن هذا النص المكتوب الأسس الأولى لفك شفرة النص الأوسط* وذلك بأن حدد مجموعة حروف تمثل أسماء العلم : بطليموس ، أرسينويه - أسكندر ، أسكندرية ، المذكورة فى عدة أماكن من النص اليونانى (17) .

كانت العواصف التى هبت على علاقاتهما - والتى سنتعرض لها فيما بعد- قد هدأت بما يسمح له بان يعبر عن عرفان مستحق بالجميل للعالم الذى شارك بأفضل ما يمكن - بعد جاك جوزيف وبأسلوب آخر يعد فورييه - فى تكوينه الفكرى وتشكيل أسلوب عمله وسمح له أيضا بتوضيح النجاح المحدد الذى بلغه صاحب «الرساله الى مسيو شاريتال» .

إنه فى الحقيقة يجمل من دوره بأن أغفل ذكر الخطأ فى التوجيه الذى ارتكبه وتسبب فى فشله وهو اعتقاده بأن النص الديموطيقى هو نص ابجدى خالص وقد أدى به ذلك إلى ان يقوم بعمليات تقريبية أغلبها خاطيء بين هذا الإشارات والنص اليونانى . ولذلك فإن حديث شامبوليون فى هذا المجال عن دور الاسس الأولى لفك الشفرة « حتى لو أنسحب ذلك فقط على النص الأوسط يعتبر نوعاً من المديح الأكاديمى ينكر جميل بارتيليمى وزوجيا وآخرين إلا أن العالم العلمى يشبه البندول الذى يتأرجح باستمرار حسبما تفرضه الظروف - ظروف علاقات القوى والحفلات العامة .

ستتاح لنا الفرصة - كما اتحت لنا من قبل - أن نذكر مراحل عديدة من المبارزة التى ألقى فيها المعلم (« الجيزويت » أو « الرايين » كما كتب عنه «صغيو» لآخيه جاك جوزيف) بكثير من السم وقليل من العسل بل أنه وصل به الحال إلى حثه المشهور له** وهو مازال مراهقا فى جرونويل على الابتعاد عن البحث الهيروغلىفى .
لقد فضل جان فرانسوا قبل وفاته بعدة شهور أن ينتقى ويبرز ضمن كل ما أخذه عن استاذة دى ساسى الأفضال دون الصفعات .

جوهان داقيد أوكر بلاد لم يحظ سوى بتقدير شامبوليون . قليل من رجال هذا العالم الذى يعج بالرموز كما تعج لوحة من لوحات أوتشيللو بالسهام والسيوف - عبروا نحو الاخرين (ومنهم شامبوليون) عن نزاهة متواصلة بهذه الدرجة ورشاقة سلوكية بهذا الصفاء . لقد أضفى الأمين عام السابق لأركان حرب ملك السويد على مجال

* الديموطيقى .

** راجع فصل ه ص 221

الدراسات المصرية وهو لازال فى المهد أسلوباً وسلوكيات لو أنها حافظت عليها لكانت هى الرابعة. بل لعل تناسى تلك السلوكيات بعد ١٨٢٢ قد إختصر حياه باحثنا صاحب الأكتشاف* .

فلنترك الكلمة من جديد البروفيسور شامبوليون :

« سلك السيد أوكريلاذ المستشرق السويدى صاحب الثقافة الغزيرة التنوع والمعرفة المتعمقة جداً باللغة القطيه نفس الطريق الذى سلكه نوساسى بأن قارن بين النصين :

نشر** تحليلاً لأسماء العلم المذكورة فى النص المكتوب بالحروف الديموطيقية وأستخلص فى نفس الوقت من هذا التحليل أبجدية مصرية مختصره للديموطيقية أو الكتابة الشعبية . بدا هذا النجاح الأول كما لو أنه يؤكد الآمال التى تولدت عن حجر رشيد . لكن اذا كان أوكريلاذ محظوظاً فى تحليله لأسماء العلم اليونانية فهو لم يتوصل الى أى نتيجة عندما حاول أن يطبق مجموعة العلامات التى توصل اليه مدلولها فى النص المكتوب لهذه الاسماء اليونانية على بقية أجزاء النص الديموطيقى».

وجد شامبوليون - حسبما قال فى محاضرة عام ١٨٣١ - سببين وراء إخفاق السويدى : الأول عندما لم يقدر أن المصريين القدماء كانوا يسقطون عدداً كبيراً من الحروف المتحركة كما يفعل العرب والعبريون ؛ والآخر أنه لم يتخيل أن الكثير من العلاقات المستخدمة فى هذا النص كانت « من مجموعة العلاقات ذات القيمة الرمزية » غير أن كاشف أسرار الهيروغليفية لا يتوقف عند هذه السلبيات وإنما يتخطاها بأن يخلص إلى أنه بفضل أعمال أوكبرلاذ بعد مجهودات نوساسى ثبت أن « الكتابة الشعبية للمصريين القدماء عبرت عن أسماء العلم الأجنبية بواسطة علامات ذات قيمة أبجدية بالمعنى الحقيقى » . فكرة « أساسية » ، هذا ما يؤكد هنرى سوتاس فى المقدمة التى كتبها للطبعة الجديدة « للخطاب إلى مسيوداسييه » .

« الأبجدية المختصرة » الديموطيقية التى وضعها جوهان داقيد أوكريلاذ كانت تضم ستة عشر حرفاً استخرجهم من الأسماء الأول للملوك المذكورين وهم اسكندر ويطليموس*** وبيرينيس ثم تعرف العلامة السويدى على أسماء أخرى منها كليوباترا وديوجين وانطياكوس وأنتيجونا وذلك على برديات مختلفة . وفى يناير ١٨١٥ أعلن أنه

* وهو ما أشار إليه عالم المصريات الأنجليزى الكبير ويلكسون عام ١٨٣٢ .

** فى خطاب وجهه أيضاً لسيلفاستر نوساسى .

*** كشف أوكريلاذ أنه امكن من التعرف فى البداية على بطليموس . أما نوساسى فقد بدا باسكندر .

قام بترجمة السطور الخمسة الأولى الى اللغة القبطية حيث تعرف على الكلمات : شهر ، صغير ، رجل ، سنة ، انتصار ، شمس ، بل وايضا صوت (18) .

هل كانت الطريقة تعتمد على التخمين واكتشاف الترديدات أكثر من الإعتماد على الدراسة المنظمة حسب خطة موضوعة ؟ بكل تأكيد ! غير أن ذلك يعتبر فى النهاية إحدى الوسائل التجريبية فى البحث عن الحل . والواقع أن أوكريلاد لم يتخطى قط (إذا أمكن القول) حل شفرة الأسماء اليونانية الأصل . وبناء على ذلك فقد أيقن بعد خمسة عشر عاما من العمل أنه لن يتمكن من احراز أى تقدم واستسلم تاركاً الى زميله توماس يانج أفضل اكتشافاته التالية لعام ١٨٠٢ فقد كان يراه أقدر منه على الوصول بالأمور الى غايتها قبل أن ينسحب من السباق (ويموت وهو فى الخامسة والخمسين) . عبر النبيل السويدي للشباب جان فرنسوا شامبوليون عن تقديره وتضامنه الأخوي . ويمكن الرجوع فى ذلك الى المراسلات المتبادلة * بين الأستاذ الجرونوبولوازي الشاب وأشهر منافس (فى ذلك الوقت) لسيلفاستر دوساسى . وهى تتضمن خمس رسائل فقط اثنتان من أوكريلاد وثلاثة من شامبوليون . اللهجة فيها تتسم بالقوة والسرعة والأدب . وهى خالية من أدبيات الصالونات وتركز على تبادل المعلومات والجدل حول نقاط علمية . علاقة رجال أحرار يحترمون أنفسهم .

فى ٢٦ فبراير ١٨١٢ كتب دافيدا أوكريلاد من روما الى جان فرنسوا ليشكره على إهدائه كتاب « مقدمة لمصر إيان حكم الفراعنة » ** وهو يعبر عن « تأثره لهذه اللفتة الكريمة » و « اعتزازه بأن يتمكن من تبادل المراسلات الأدبية بينهما » علماً بأنه لا يهتم منذ فترة طويلة « الا قليلا بالأدب القبطى » .

فيما يخص « المقدمة » فهو يرى « أنها مليئة بالملاحظات الممتازة » وتجعل المرء « يطوق إلى مطالعة الكتاب الذى تقدم له » هل توجد شبهة تهكم فى السؤال الذى يطرحه عن « الاسهامات (التى يمكن أن تقدمها) الكتب القبطية لصاحب المقدمة ؟ يلى ذلك اعتراضات حادة خاصة بالعلاقة التى يقيمها شامبوليون بين منطقة الفيوم واللهجة « الباشمورية » ومع ذلك يؤكد أوكريلاد أنه ليس « متعنتا » بل مستعد لان يقنعه زميله الشاب بغير ذلك « . أما بالنسبة للأبجدية المصرية فعالم اللغويات السويدي يقول عنها بأسلوب يجمع بين إثارة الأفكار والتواضع المؤثر : « ... يبدو لى أنكم ستتفقون معى حول مدلولات الحروف الساكنة لأن الحروف المتحركة يمكن أن نضع بها كل ما زيد *** وبالنسبة فان خطابى إلى مسيو دوساسى يتضمن أخطاء عديدة

* جمعها وتفضل باطلاعنا عليها السيد جـ كيتيل وقد ذكر اسمه مرات عديدة هنا .

** راجع فصل ٥

*** كان نسقتها على سبيل المثال .

لأنى حررتها فى عجالة حتى قبل أن تصلنى نسخة صحيحة من النص . لقد تمكنت منذ ذلك الحين من تحديد دلائل عدد كبير من الكلمات ولما لم أتمكن من فهم عدد كبير من مجاميع الحروف فأنى غير متعجل من نشر تحليلى لهذا الأثر - وهو على العموم لا يثير إهتمام سوى عدد قليل جداً من الأشخاص ...» .

النهاية هنا تثير الإعجاب وتجعل المرء يأسف لأن جوهان دافيد أوكريلا لم يراع توقعات الأجيال التالية ولاحتى هذا « العدد القليل جداً من الأشخاص » بما فيهم مراسله ... وكان هذا الأخير حساساً للغاية ولم يظهر فى رده أى نهم سوقى للمعرفة ولكن كان جان فرنسوا سعيداً بأن يرى شخصية على هذا القدر من الشهرة متقدمة فى إبحاثها وهو عالم اللغويات الذى يصادق زويجا ويتخاطب على قدم المساواة مع دوساسى والذى يعيش فى روما بعد أن زار الشرق - تخاطبه بهذه اللهجة التى تتم عن التقدير والاحترام . من المؤكد أن ذلك أثار فيه الكثير من الاعتزاز بذاته .

غير أن رده الذى جاء بعد إنتظار ثلاثة شهور لم يكن على المستوى المنتظر فهو يتناول فيه خلافه مع كاتورمار * مؤكداً أن «من مبادئة أن يتفادى الصراعات الأدبية» وهو ما يؤكد جانباً فى شخصيته يبعد كثيراً المبادئ عن السلوك .

فى ٢٠ يناير ١٨١٥ ** يرسل الأستاذ الجرونوبلوانى الشاب جزئى كتابه « مصر فى عهد الفراعنه » ويرفق بهما خطاباً يتناول فيه مرة أخرى و « بتعنت » (وهى الكلمة التى استخدمها فى خطاب) مسائل أسماء المدن المصرية القديمة . نهاية الخطاب مفقودة وكذلك للأسف رد جوهان دافيد أوكريلا . هل تضايق السويدى من إصرار مراسله الشاب على الدفاع عن أراءه ؟

إن ما ينم عنه هذا التبادل فى نهاية الأمر هو الإحترام الذى أبداه جان - فرانسوا نحو الرجل الذى توصل بالتخمين على أسم بطليموس على حجر رشيد . كذلك الإهتمام الذى أبداه أوكريلا تجاه أعمال هذا الريفى المجهول ذى العشرين عاماً . هل يعتبر هذا تمريراً للشعلة من يد للأخرى ؟ كلا . لان النبيل السويدى الذى توفى عام ١٨١٩ كان يعتبر أن الدكتور توماس يانج هو الأقدر على حل اللغز *** .

لم تكن المعركة قد أنتهت لعدم وجود متعاركين . فانسحاب سيلفاستر دوساسى من الساحة بعد نشر « رسالة الى مسيو شابيتال » وانسحاب أوكريلا نحو ١٨١٥ لم يفت من عضد الجميع ، بل على العكس

* راجع فصل ٥

** هذا التاريخ يقترحه مسيو كيبال وهو ماتؤيده جميع الشواهد .

*** انظر الفصل التالى .

فى الوقت الذى تحرر فيه جان فرنسوا شامبوليون من العواصف السياسية التى دامت من ١٨١٥ حتى ١٨١٨ ومن آثار « نفيه » إلى فيجاك والتهديدات التى نجمت عن مغامرة « استيلائه على الباستيل » عام ١٨٢١ . ذهب ليقيم فى باريس ليقف فى مواجهة أبى الهول - فى ذلك الوقت كان هناك ما يقرب من عشرة من الباحثين من مختلف التخصصات يلح على أفكارهم لغز الهيروغليفية .

فى عام ١٨٠٤ نشر باحث مجهول دراسة فى : تحليل للنص الهيروغليفى لـ حجر رشيد ولم يعبه سوى شئ واحد : فهو يقدم ترجمة لأربعة عشر سطرا من النص المقدس (أى ما يربو على ثلث الفصل الأسمى) بواسطة الأربعة وخمسين سطرا للنص اليونانى المبتور ربه ... « إن هذا العمل لا يمكنه أن يصمد أمام أبسط امتحان له » هذا ما أكدته شامبوليون عام ١٨٢١ .

نشر الكونت بيلس حـ . بالين عام ١٨١٢ « فى دراسة الهيروغليفيات » يحاول فيه تجميع لغة رمزية مبنية على تاريخ الأديان . وهو يقول « إن الحدث الهيروغليفى يعبر عن نظام الأشياء » وليس له أى دلالة صوتية . وبذلك نكون قد عدنا فجأة إلى كليمان السكندرى وهو رابولون وكيرشار ... من وجهة النظر اللغوية كانت هذه المحاولة ضعيفة فى استدلالتها لكى تؤخذ بعين الاعتبار : ولم يفت جان - فرنسوا أن يسخر من غريمه وهو يرأس أخاه .

هل يستوجب البحث أن نذكر أعمال الأب جوهان سيفران حتى لانكون قد أهملنا أى عنصر من عناصر السلسلة : قدم فى ١٨١٣ ما أسماه « فرضية » أكثر من كونها حلاً ترجمة لثلاثين علامة من المخطوط الهيراطيقى ؟ أقل ما يمكن أن يقال عن هذه المشاركة هى أنها لا تلتفت قط نظر مؤرخى البحث العظيم . ولكننا سنراها تثير اهتمام توماس يانج .

اسم يتردد مراراً هو اسم الأخوين هومبولدت : الكساندر وفيلهايم ، على الرغم من أن هذين العالمين لم يشاركا مباشرة وبصفة شخصية فى المسألة المصرية . أول الشقيقتين قازن فى كتابه « مناظر من سلسلة الكوريليارا » وهو يتكلم فيه عن « معابد السكان الأصليين فى أمريكا » بين « اللوحات » التى رسمها الفنانون المكسيكيون وهيروغليفيات وادى النيل وهو بذلك شارك بالمقابلة فى إضعاف نظرية الأفكار المكتوبة . أما الأخير فقد وضع سلطته العلمية الكبيرة كعالم لغويات فى خدمة أفكار شامبوليون وقد شارك بعد عام ١٨٢٢ فى أن يحصل على حقه العادل والمستحق . ومن هنا تأتى الصداقة التى جمعت بين الرجال الثلاثة .

لم يبتعد عن الساحة جميع المستشرقين الفرنسيين الذين درسوا فى حينه فى المدرسة الخاصة وفى الكولاج دو فرانس على يد ساسى ولانجلاس وأودران * بل شاركوا جميعا بطريقة أو أخرى فى المشروع الكبير : كاترومار ، سان مارتان ، لوترون وريموزا .

كما ظل القدماء مثل الكسندر لونوار على إصراره لا يستسلم ثلاثون عاما بعد محاولته الأولى ** محاولين إلقاء الضوء الكاشف على اللغز ... ومثل علماء اللغويات الكبار مثل فوننى والهواة الجسورين مثل ريبو الذى إدعى فى ١٨١٦ أنه اكتشف الحقيقة - وجومار الذى اعتقد أنه على الرغم من كونه عالم جغرافيا فإن ماضيه كمساح لوادى النيل إلى جوار الجنرال بوناپرت وسلطته التى اكتسبها بصفته المسئول عن « وصف مصر » يعطيانه حقاً مشروعا غير منقوص فى الكشف عن كل ما يتعلق بمصر . ثم ماذا نقول عن فورييه ؟ لكن هل من المعقول أن نكون كتبنا المقدمة التاريخية للوصف دون أن نشعر بحقنا فى أن نلقى الضوء على المناطق المظلمة ... ؟

سبق أن أشرنا إلى الانتقادات التى وجهها جان - فرنسوا شامبوليون لوصف مصر وأنه ذهب إلى حد وصفها بأنها « ماء مغلى » فقد وجد على وجه الخصوص أن ما نقل من العلامات الهيروغليفية كان يتسم بتقريبية مشينة : إن بعض إنتقاداته كانت من العنف لدرجة تكاد تقترب من الظلم إذا تذكرنا فى الظروف المادية وأولها المناوشات العسكرية التى عمل فى كنفها لانركيه وجولدا وفيلار وبتوتارتر ورودوتيه ومارسال ...

فى محاضراته الأولى فى الكولاج دو فرانس وهو فى شتاء عمره سيعبر كاشف اللغز عن عدل أكبر إذ حيا الموهبة الفزة التى تمتع بها منافسوه . كما حيا مقاله عنه هؤلاء المنافسون الذين قاموا برفع النقوش فى صيف ١٨٠٠ بين دفعتين من إطلاق النار تحت حماية بوسيه اويليار وهم فى ردهم العسكرى فى درجة حرارة خمسين مئوية فى الظل الذى تتردد الأثار فى إلقائه عليهم وبدون أن تكون فى حوزتهم الأدوات الدقيقة العلمية المطلوبة .

ويؤكد شامبوليون فى ١٨٣١ - بعد أن ذكر الظروف التى أحاطت بفورييه ورفاقه وهم يقومون بأبحاثهم : « إن هذا العمل العظيم يؤكد - لدى دراسته فى إطار الإهتمام

* راجع فصل ٢

** راجع المقدمة .

الحق بتقديم المعارف التاريخية - على أن أكثر المعلومات قيمة كانت تختبئ داخل هذه المخطوطات الهيروغليفية التي تزينت بها دون استثناء جميع الآثار المصرية ... »

ثم تحدث جان - فرنسوا شامبوليون وهو لا يزال يقطر دماً من بعض الجروح عن « الرحالة الانجليز ولعلمهم كانوا في حماسهم الزائد مدفوعين بروح من المنافسة الوطنية أكثر من اهتمامهم المفروض بالعلم » حاولوا أن يقللوا من قيمة العمل العظيم . ثم أضاف ليبدو أفضل من منتقديه موضحاً أن « الأبحاث المفيدة التي قام بها الدكتور يانج ستضمن لانجلترا مشاركة نبيلة في تقدم الدراسات المصرية ... »

وهو يكون بذلك قد عاد إلى لب الموضوع .

١٠ - الرائد ذو الورد

كتلة من البازالت فى المتحف البريطانى - توماس يانج « الظاهرة » - كما لو كنا نتلاعب ... - ترجمة « فرضية » - ولنجتون عالم اللغويات - هوء شامبوليون - مقال فى الانسيكلوبيديا بريتانيكا - بطليموس ! - مباراة فرنسا - انجلترا ؟ - « ... إنه إذن من الرواد » - الحدس والأسلوب .

يستحيل أن تدخل المتحف البريطانى دون أن يشدك على الفور هذا المغناطيس المسمى حجر رشيد. منذ أن تدلف من بوابة الصالة الفسيحة للغاية التى خصصها مسئولو المتاحف الإنجليز للآثار المصرية تستقبلك كتلة البازالت * الأسود - ١ متر و ٢٠ سم فى ٩٠ سم و ٣٢ سم سمك تقريبا - وهى مائلة قليلاً داخل حزام حديدي وتحاصره باستمرار أفواج تبدو كما لو أنها قدمت بذات الحمى التى استوتت على الملازم بوشار ومعاونيه عندما استخرجوا هذه التحفة من أساسات قلعة رشيد القديمة فى إحدى ليالى يوليو ١٧٩٩ . مكان للذكرى ، حجر فلسفى منضدة الساحر .

فى بياض فى نصاعة الطباشير تبرز النصوص الثلاثة كالمعجزة وسط الكتلة السوداء . تبدو كما لو أنها صنعت بالأمس فقط .

الذى لا يشاهد كثيرا هو النص الصغير الأكثر حداثة المنقوش فى خلفية القاعدة : « تم الاستيلاء عليه فى مصر بواسطة الجيش البريطانى ، ١٨٠١ . Captured in Egypt by The British Army, / 18 01 . فهو بالفعل غنيمة حرب استولى عليها الفريق تورنر الذى نفذ تعليمات وليم هاميلتون وصادرها من فوق سفينة فرنسية ونقلها عام ١٨٠٢ من الاسكندرية إلى يوسموث قبل أن توضع فى المتحف المشهور . وكتب فى تقريره : « غنيمة مجيدة للسلاح البريطانى [...] لم تنتزع من أيدي شعب أعزل ** ولكن أخذت بشرف وطبقا لقوانين الحرب . »

* بعض علماء المصريات تساطوا مؤخرا عن طبيعة هذا الحجر .. إلا أننا سنتمسك بالتسمية الكلاسيكية ونعتبرها مؤكدة .

** ضمنا : كما فعل الفرنسيون .

قوانين الحرب ؟ قد نرجع إلى تلك المقالة أحياناً خلال سردنا لوقائع هذه « المباراة بين فرنسا وإنجلترا » التي ستشهد مواجهة لاهوادة فيها بين الوردية * والديك ** متتاسين أن فى القرن السابق لم يتردد واريورثون (الإنجليزى) ومالبان (الفرنسى) فى خلط معرفتهما ووحدا قلميها فى بحثيها عن كأس المجد فى وادى النيل .

لنختلط إذن بجموع زوار « البريتيش ميوزيوم » . هل نندهش أم نتضايق لدى سماعنا لكلام المرشد السياحى وهو بدلاً من أن يشير إلى أعمال الباحثين الأوائل لمعهد مصر [انستيتودى كار] يبرز أمجاد نلسون التى لولاها [والحمد لله ! : Thanks god] لما أمكن نقل الحجر من المركب الفرنسى إلى سفن صاحب الجلالة ؟ نندهش ؟ لا !! نبتسم ؟ نعم !

إلا أن الألواح والصور التى تزين الحوائط المحيطة - الأرقام والشروح والتعليقات التاريخية والصور الشخصية - تستحق منا اهتماماً أكبر ؛ إذ يتضح منها أنه إذا كان شعب لندن الطيب - لندن وغيرها أيضا - لم يعد يجهل شيئاً من معانى النصوص المشهورة فإن ذلك يرجع إلى عبقرية عالم بريطانى اسمه توماس يانج استكملتها الجهود التى تستحق التقدير - وإن كانت ظلت خاطئة لفترة طويلة - التى قام بها جامعى فرنسى مجد اسمه شامبوليون .

تزين الحائط المجاور صورتان لوجهين : إلى اليسار . فى مكان بارز . صورة الدكتور يانج كلها جلال ومعرضة بعظمة أكبر بفضل إخراج لورانس لها . ؟ ثم إلى اليمين - بشكل فرعى وبريشة ليون كوانيه المسطحة لكل شىء صورة جان - فرنسوا شامبوليون الذى يبدو فى حزن تعبيرات وجهه كما لو كان موصوماً بالعلاقة المشينة التى تميز سارق أعمال غيره . علماً بأن كل من كان خارج دائرة المتحف البريطانى يعلم أنه هو الأب الشرعى لاكتشاف سر الهيروغليفية .

ولكى تكون الأمور أكثر وضوحاً فإن مكتبة المتحف تباع للزوار كتيباً أنيقاً عنوانه حجر رشيد The Roseta Stone تزيينه صورة توماس يانج المذكورة على صفحة كاملة ونفس صورة شامبوليون منشورة بتخرج على نصف صفحة . يصف الكتيب

* رمز لإنجلترا (المترجم) .

** رمز لفرنسا (المترجم) .

اكتشافات العالم البريطانى التى استغلها أستاذ جرونويل بدأب بأسلوب يصعب معه فهم لماذا وكيف توج هذا الأخير بلقب مؤسس علم المصريات فى نهاية الكتيب . إلا إذا كان مدلول كلمة « مؤسس » هنا هو العامل الفنى الذى يحفر الأرض بالمجراف تحت إشراف المهندس العبرى .

ولكن إذا عدت إلى باريس وليطمئن قلبك فتحت قاموس لاروس الصغير Le Petit Larousse illustre ستجد ما يلى تحت اسم يانج ، توماس : « عالم فيزياء إنجليزى . اكتشف التداخلات المضيئة » ولا شىء غير ذلك . يكفى أن تعبر المانش ليكون يانج هناك هو المكتشف الحقيقى لأسرار الهيروغليفية - هو هنا « عالم فيزياء إنجليزى » .

سنرى كيف أن العلم البريطانى المعاصر سيتفادى مثل هذه المعارك وأن كتاب Who's Who in Egyptology لوران داوسون وإيريك أبهيل (1) - ضمن آخرين يكتب عن يانج أن اكتشافاته « لا يمكن مقارنتها باكتشافات شامبوليون » الذى يتم تقديمه بكل وضوح على أنه أبو علم المصريات .

ليس مؤكداً أن مدرسة المصريات الفرنسية - فيما عدا استثناء واحد - هو سوناس فى « مقدمة ١٨٢٢ لخطاب إلى مسيو داسييه » - تحيى بنفس الدرجة من العدل توماس يانج الرائد . ولذلك فسنعمل قدر جهدنا على ألا نخفل أياً من الأضواء التى سلطها هذا العبرى على اللغز المصرى . فهو يعتبر « كيرشار » حقيقى للعصر الحديث الذى كان بالنسبة لعلم الضوء ما كان جوزيف فورييه بالنسبة للحرارة .

ولد توماس يانج فى يونيو ١٧٧٣ فى ميلفرتون ، سومرست من عائلة من الكويكرز تعلم القراءة وهو فى الثانية من العمر . ولما بلغ السابعة تعلم اللاتينية واليونانية والرياضيات . وما أن وصل إلى الثانية عشرة إلا وكان يتكلم العبرية والفارسية وبرع فى استخدام معدات البصريات . وفى الرابعة عشرة كان قد تمكن من اللغات العربية والفرنسية والإيطالية والاسبانية وتلتها السيربانية والكالدية .

وليظن المرء أنه يسمع صدئ لتاريخ حياة جان - فرنسوا شامبوليون مع فارق واحد هو أن شاب مقاطعة سومرست كان أكثر إنفتاحاً على العلوم الوضعية أكثر من شاب مقاطعة كارسى ...

قاداته دراساته الطبية وهو فى العشرين من عمره إلى مستشفى سينت بارتولوميو فى لندن حيث بدأ ظهوره ببرز فى تمكنه من مادة الأوفتالمولوجى (الرمد) - حتى أنه إلهى فى تلك الفترة المتقدمة محاضرة مجددة أمام الجمعية الملكية Royal Society عن خصائص العدسة البلورية . ثم واصل دراساته وأبحاثه فى إندبره وابتعد عن أخلاقيات وأسلوب حياة الكويكرز وأثبت أنه رجل مجتمع مثالى ويعزف على آلة الفلوت ويؤدى الأدوار الترفيهية فى المجتمع - حتى أن بعضهم يقول أنه أصبح راقصاً محنكا على الحبال ... وبذلك يكون الأول من نوعه فى مجموعتنا الغربية من حلالى شفرة الهيروغليفية !

وما هو يصل إلى جوتنجن حيث مسه شيطان علم اللغويات ؛ إذ اكتشف أعمال الأب جوهان سيفران * الذى كان يعكف على دراسة الكتابة الهيراطيقية مدعياً أنه اكتشف أجدية تضم ٣٠ علامة ، ورد عليه توماس يانج مؤكداً فى نقاش عام أن تلبية متطلبات الصوت والتعبير الإنسانى تقتضى وجود ما لا يقل عن ٤٧ حرفاً .

ثم نجده مرة أخرى بعد وقت قصير فى كيمبريدج حيث كناه أساتذته وزملائه « بالظاهرة » . وهناك تعرف على وإيام جيل (الذى سيؤدى دوراً فى الصراع الأيجيبتيولوجى الكبير فى العشرينات من القرن إلى جوار شامبوليون) وبدأ السلسلة الطويلة والعظيمة من تجاربه على الضوء . وسرعان ما أصبح سكرتير الجمعية الملكية للعلوم ثم عضواً فى كلية الأطباء البشرىين الشهيرة College of Physicians ممارساً فى الوقت ذاته مهنة الطب والأبحاث عن العلاقة بين الصوت والضوء . مهتماً بإدخال الغاز إلى لندن وتقنيات بناء السفن ومديراً لمجلة Nautical Almanac المناخ البحرى ومستشاراً للأدميرالية البريطانىة فى المجال الفلكى ...

عندما توقف عن ممارسة الطب فى عام ١٨١٤ كان ذلك لكى يعمل فى مجال ... التأمينات ! الشركة التى طالبت تعاونه معها كانت تبحث عن حاسب جيد لكى تفتح خط نشاط جديد لها . وهو ما يجعلنا نعتقد أن هذا الرجل المتعدد المواهب اختار هذا الطريق لكى يتمكن من الاستمرار فى تحويل أبحاثه عن آليات عمل العين وبناء القرنية والتكيف والاستجماتيزم مما جعله مؤسس علم الفيزيولوجيا البصرية .

نون أن يهمل دراساته الخاصة بالعين والضوء والألوان ، وفى نفس تلك الفترة اندفع مشاركا فى المغامرة المصرية الكبرى . إذ بدأ كل شىء بالنسبة له فى أحد أيام

* راجع الفصل السابق ص 363 .

شهر يونيو عام ١٨١٤ عندما أحضر له أحد أصدقائه سير راوز بروتون الذى كان يعرف اهتمامه باللغات القديمة بردية ديموطيقية ليشغل بها أوقات فراغه التى يقضيها فى الريف . اليس فى ذلك مادة لترفيه هذا العقل الشامل الذى يؤثر كل شيء فضوله ؟

الشك لا يدخل قط قلب الدكتور يانج وحيث يفشل عالم لغويات كبير مثل ساسى أو علماء اللغة القبطية المشهورون مثل أوكريلاذ أو كترومار .. ينطلق هو . وهاهو يقبل على فك ألغاز ليس بردية بروتون فحسب وإنما أيضا النص الأوسط لحجر رشيد .. وهو لا يسميه « ديموطيق » ولكن « أنكوربالى » .

وهو عندما يدخل المغامرة - بفكرة أن يلهو فقط كما يقول - كانت شهرته كعالم معروف ومحترم مؤكدة - وكان ثريا بالقدر الذى يسمح له بالتوقف عن ممارسة الطب . وله أصدقاء عديدين وعلاقات فى لندن وعبر أوروبا . ثم إن حجر رشيد فى متناول يده إذ كان يكفيه أن يدفع باب المتحف البريطانى للوصول إليه . وسرعان ما يتصل بالرجل الذى قيل له عنه أنه يفوقه فى اللغة القبطية أكثر من أى فرد فى العالم ألا وهو أوكريلاذ والذى قيل عنه أيضا أنه يؤس وابتعد عن المشروع العظيم .

وعلى الفور يضع العالم السويدى تحت تصرف القادم الجديد جميع الاكتشافات التى توصل إليها وعلى وجه الخصوص أبجديته الديموطيقية المشهورة المشتملة على ستة عشر حرفا والتى كانت تعتبر فى زمانها قمة الاكتشافات فى مجال علم المصريات . لم يمض وقت طويل قبل أن يكتشف أن منظومة أو كريلاد غير فاعلة البتة . غير أن ما قدمه له أوكريلاذ * فى بداياته جعله يتساوى خلال بضعة شهور مع أكثر الباحثين علماً .

دخول توماس يانج الطلبة كان كاسحاً : ففى خلال ثلاثة شهور تمكن من اللحاق بجميع من سبقوه بل وتخطيهم أيضا . ففى الثالث من أكتوبر عام ١٨١٤ أرسل إلى سيلفاستر دوساسى وبعد ذلك بقليل إلى مجلة *Archeologia* « ترجمة تقريبية للنص الدنكوربالى ** » (الديموطيقى) توصل إليها بفضل منظومة عبقرية للتقريب والتبويب السطرى والمقارنات المادية للعلامات المختلفة ، بل تجرأ أيضا وأخذ يطبق نفس المنظومة على النص الهيروغليفى - حتى أنه أعلن عن قرب حل لغز النص الهيروغليفى « الذى مازال سليماً » .

* سينفى دائماً أى أهمية له .

** أعيد نشره فى العام التالى بالتوقيع السرى الغريب أ ب ج د فى مجلة *Museum Criticum* التى تصدر فى كمبريدج .

كيف تمكن هذا الطبيب العبقري - ولكن دون أى تأهيل فى اللغويات - علما بأنه يتكلم عشرة لغات شرقية قديمة ولكنه غير ضليع فى اللغة القبطية التى تعتبر طريق الدخول الأساسى إلى فك الشفرة - كيف أمكنه أن يحقق التقدم بهذه السرعة فى ساحة يجوبها كم ضخّم من المتخصصين أفضل منه تسليحا لخوض تلك المغامرة على ما يبدو؟ لنقرأ هذه الملاحظات التى أفضى بها عالم اللغويات النمساوى دويلهوفار : « لم يكن فى مقدوره إلا أن يقارن مقارنة مادية بحثه بين النصوص ... إن ما قاده فى استنباطه هو حدسه الحسابى . إلى أن حصل بفضل مقارناته وتكيفاته الرياضية على نتائج مثيرة فعلا للدهشة إذا أخذنا فى الاعتبار عدم كفاية الوسائل المستخدمة . »

بالطبع لم تكن ترجمته بعد وباعترافه هو سوى « إفتراضية » * إلا أن تمكنه من التعرف السليم على بعض المجموعات منذ أن كتب رسالته إلى ساسى ومقاله فى الأركيولوجيا أى بعد ثلاثة وأربعة أشهر فقط لشيء مدهل . وهو ما يؤكد عليه هنرى سوتاس : « منذ نوفمبر ١٨١٤ توصل يانج بقفزة واحدة إلى النقطة التى لن يتخطاها أبدا . » (2)

هل سهل ما توصل إليه كل من ساسى وعلى الأخص أوكربلاد من التعرف على بعض الكلمات من عمليات التبديل والتوفيق التى سمحت ليانج من القيام بهذه القفزة الضخمة إلى الأمام؟ لن يعترف العالم الانجليزى بذلك أبداً ولا بالقدر القليل . وهو يقول فى التعليق الذى قدم به « لرسالته إلى ساسى » فى أكتوبر ١٨١٤ موضحاً : « أعتقد أنه بإمكانى أن أعتبر ترجمتى مستقلة تماماً عن الأبحاث الذكية لأركربلاد » وعندما يكتب السويدى فى إحدى رسائله : « إذا صدق مسيو دوساسى القول فإنكم استخدمتم أبجديتى بكاملها تقريبا وكذلك قراءتى ... » فيرد توماس يانج على الفور : « لا يمكننى أن أدعكم تقولون أن استخدامى لمعظم قرائتكم المتضمنة فى خطابكم الأول يرجع إلى موافقتى على ما توصلتم إليه من نتائج ، ولكنها ترجع إلى أبحاث مستقلة قمت أنا بها . الواقع هو أن الثلاثة أسماء التى يسهل جدا التعرف عليها اكتشفها مسيو دوساسى أما الستة عشرة والثمانى عشرة كلمة الأخرى المذكورة فى خطابكم كانت أيضا الأكثر وضوحا للعين : ومن الطبيعى أنها اتضحت أمامى كما أنها اتضحت أمامكم حتى لو لم أسمع قط عن خطابكم . »

* اعتراف مرحلى فقط كما سترى ...

ولكن إذا كان حدس الطبيب الانجليزي أفضل من روحه الرياضية - حسبما يقول سوتاس - فإنه من الظلم البين أن نفعل ما فعله سيربيتر لوياج - لونغوف * ونصف محاولات التهديد الأولى ليانج بأنها « غير جديرة بالاهتمام Worthlessness حتى لو أن هذه المحاولات لم تتحول إلى هدف داخل الشباك ...

كيف يمكننا تلخيص هذه المجموعة الأولى من النتائج؟ في ثلاثة أو أربع نقاط . أولاها تتعلق ببداية القراءة ... فبفضل تخريج ذكي جدا لبعض السطور في النصين المصريين تمكن الطبيب الانجليزي من التعرف علي بعض المجاميع . النقطة الثانية تتعلق بالدلول الصوتي المحتمل للحروف الهيروغليفية : وهو ما يضع تحته طبيب الضوء الأسطر بنكاء (حتى لو أنه تراجع عن ذلك بعد أربعة أعوام) النقطة الثالثة تتعلق بتنقيح ما سبق أن تصوره العديد من الباحثين ** وهو أن الكتابة المرسله (الديوطيقية) هي من مشتقات الهيروغليفية . أما « الاكتشاف » الرابع الذي قام به في خريف ١٨١٤ حسبما يقول الباحث نفسه - وهو أن « البيضويات » أو « الخراطيش » تشير إلى أسماء الآلهة والملوك . فقد سبق ورأينا كيف أن بارتيمي وجيني وزويجا قد وضعوا أسس هذا المبدأ ولكن دون أن يستخلصوا النتائج المترتبة على ذلك مثلما فعل توماس يانج ببراعته الفكرية وخصوبته العقلية .

تأثر سيلفاستر دوساسي بالبحث الذي وصله من لندن للدرجة التي جعلت منه منذ ذلك الحين المدافع عن الباحث الانجليزي وأن يعتبره لمدة سبع أو ثماني سنوات المكتشف الأكثر احتمالا للغز ، مفضلاً إياه على طلبته القدامى في مدرسة اللغات الشرقية ومنهم شامبوليون . هل كان رد فعله الأول رد فعل عالم؟ إن عالم اللغويات بداخله كان يدفعه إلى اعتبار يانج هاويا خطيرا . ولكن هذه الشخصية المرموقة في التجمع العلمي رأى في سكرتير الجمعية الملكية في لندن زميلاً مساوياً له في القدر .

ثم يجب ألا يغيب عننا أن ساسي كان شخصية تحركها معتقدات سياسية قوية . وفي الجدل الكبير المشتعل في ذلك الوقت بين « الغول » و « زهرة الزنبق » كان يعتبر الانجليز بطبيعة الحال أفضل حماة لآل بوربون ... وأستاذ جرونويل الصغير من زبانية بونابارت .

سيواصل توماس يانج أبحاثه في اللغويات لمدة ثلاثة سنوات متصلة بين كتابة

* انظر فيما بعد في ذات الفصل .

** منهم شامبوليون .

مقال عن عصب العين وإلقاء محاضرة عن التداخلات المضيقية ومشاركة فى نقاش عن الملاحه كما واصل تبادل الرسائل مع ساسى وأوكريلا والشقيقتين هومبولدت ومواطنيه نيبى جال ويانكس : إنه يتحسس طريقه هو أيضا كعالم حق ويصحح أخطاؤه ثم يعود من جديد وهكذا .. أعلن فى خطاب لساسى مؤرخ فى ٣ أغسطس ١٨١٥ أن الحروف الديموطيقية ليست كلها حروفا أبجدية إذ أن بعضا منها لها مدلول رمزى ... وهو إذا كان يتحسس طريقه فإن ذلك كان فى منطقة قريية من النور .

كانت تلك هى المرحلة التى يرجع إليها كما رأينا من قبل أولى تبادل الرسائل بينه وبين جان - فرنسوا شامبوليون * بمناسبة إهداء شامبوليون كتابه **مصر فى عهد الفراعنة للجمعية الملكية** (سكرتيرها فى ذلك الوقت كان توماس يانج) . وكان هذا التبادل معبرا جداً ، إذ أن الانجليزى كان يتكلم من عليائه كرجل واثق من عمله وفتانجه القريية ويريد أن يعترف الآخرين بنجاحاته وتفوقه .

كتب توماس يانج لمنافسه الفرنسى يقول له أنه أرسل لساسى منذ ستة شهور « ترجمة ظرفية مع شرح للأسطر الأخيرة المكتوبة بالهيريوغليفية » . وهو لم يكن يشك فى أن المعلم الفرنسى الكبير قد أحاط تلميذه علماً بكشف له هذا القدر من الأهمية .. ثم فى جملة تالية يسحب كلمة « ظرفية » : ويقول ببساطة « ترجمة الكتابة المصرية لحجر رشيد » ثم يضيف الدكتور يانج مزائداً : « بعد التعرف على معانى العديد من الحروف الهيريوغليفية . وجدت بعضها واضحة جداً فى نصنا ** المصرى : فهى بالتالى ليست سوى حروف أبجدية ... » لا يمكن إذن أن نؤكد بأكثر من ذلك الجلال المتعالى على الأسبقية والتفوق . إذ لا يصح أن نقول لهذا الشاب الذى يؤكد أن لديه ادعاءات تنافسية أنه وصل متأخراً وأننا اكتشفنا مفتاح اللغز بالفعل هكذا وقبل أن يقضى ولينجتون على كل أمال « الأمبراطورية الجديدة » بثلاثة شهور . كان يانج يحاول بذلك أن يقضى تماماً على أى أمال أو حتى تخيلات قد تراود شاب جرونوبل .

ومع ذلك فلم يبد على جان - فرنسوا أى تأثر سلبي فى رده فى ٩ مايو ولا حتى أى اندهاش . بل يرد بكل برود أن ساسى لم يطلعه على « النتائج التى توصل إليها (مراسله) بعد الجهود العلمية المتعلقة بحجر رشيد » (أى أنها طريقة مهذبة للقول : إذا كان فيها شىء جديد فإن استأذاً مثل ساسى لم يكن ليحجبها عنى ..)

* راجع الفصل ٧ .

** لاحظ صيغة الجمع هنا (بالنسبة لحجر رشيد بالطبع) .

ويختتم خطابه بأن يستعير من يانج تنازلاً وقوراً فيقول : « لا أتمكن من إبداء رأى إلا بعد أن أطلع على بحثكم الهام » . لم يخش أن يقلب الأوضاع ووضع نفسه فى مكان الحكم ...

سيحصل جاك - جوزيف على هذا التعليق الواثق : « يريد الدكتور يانج أن يؤدي دور أبى الهول إلا أن روح عائلة يوسى ليست بداخله . إنه يعتقد أنه يفهمنى وهو لا يفهمنى » . أول تقارع بالسلاح سيبقى لفترة طويلة معلقاً . بعد ذلك .

الشيء الغريب اللافت هو أن الحرب الدائرة سمحت عام ١٨١٥ بتبادل هذه الرسائل التى تحتوى على لب الجدل العظيم فى حين أن السلام الذى حل بين لندن وباريس بعد تنازل نابوليون عن العرش لثانى مرة قد رفع من كافة الحواجز المادية أمام تبادل المراسلات لم يساعد على التواصل المكتوب بينهما . وسيبقى الحال هكذا لمدة سبع سنوات ، الصمت الكامل إلى أن تسمع صرخة الباحث الفرنسى : « وجدتها يوريكا . »

هل نقر - خلافا لما يؤكد يانج - أن جان - فرنسوا لم يحصل من ساسى على الخطاب الذى وجهه الطبيب البريطانى للمستشرق الفرنسى الكبير فى ٣ أكتوبر ١٨١٤ والذى يحتوى على أهم تأويلاته ؟ أو أنه لم يعط لنفسه الوقت لقراءة هذا المستند الذى كان يمكن أن يغير مجرى حياته بأن يقضى على طموحاته ؟ هذا ما تؤكده مدام هارتلويان ، ولا يوجد دليل واحد يؤكد العكس .

الواقع هو أن لا شيء فى مراسلات « صغير » التالية يجعل المرء يعتقد أنه أحس بنار القذيفة وهى تمر بجانبه - وهى القذائف التى ستقضى بعد أسابيع قليلة على الحرس الامبراطورى هو - الذى واجه بكل التحدى المتصلب كاترومار وجومار نجده هنا يتصرف ببرود يحسده عليه مناظره . إلا أننا نعرف بفضل خطاب سبق ذكره حول مقال للدكتور يانج * يخص المقدمة - أنه لم يكن ينظر باعتبار لعلم (اللغة أو التاريخ) البريطانى إذ كان يرى أنه يصلح فقط فى التعليق على التوراة

* وجدت فى أوراق شامبوليون المعنونة « شامبوليون فى اللبسيه » المقال الذى نشره يانج فى المجلة الشهرية Monthly review حول الكتاب الأول لشامبوليون وكذلك على نسخه كتبها بخط يده (وكان ذلك فى تيوبوب غريب داخل الملف) جاء المقال إيجابيا فيما عدا تحفظ شامبوليون الخاص بالمصادر اليهودية . أغرب ما جاء فى المقال هو جملة يعبر فيها العالم الإنجليزى عن أسفه لأن الفرنسيين سيطروا على مصر لأن « المناخ التدميرى الذى يسود هذا البلد كان يمكن أن يقضى على شباب زائد عن الحاجة وأصبح مصدر اضطراب لجيرانه الأوروبيين » !!

واستخراج ابتهالات للمولى العلى القدير . وهو الخطأ الذى سيضطر إلى الإقرار به بعد قليل ...

وعلى العموم فإن ما قرأه جان - فرانسوا هو مقال نشر عام ١٨١٧ فى مجلة Museum Criticum التى تصدر فى كيمبريدج بقلم توماس يانج ومع ذلك فإن ذلك لم يثنيه عن شكه .

« ما أعرفه عن اكتشافات الدكتور يانج (خطاب ٢٧ أغسطس ١٨١٧ إلى أخيه) التى جاءت فى الخطاب * الذى كتبه عن حجر رشيد يطمئننى من ناحيته . لقد كتب لى أوكريلاذ أيضا أنه انسحب واستسلم أما الربين ** فهو لا يستحق الذكر [...] أمامى الوقت الكافى لكل أعمالى عن حجر رشيد . ومع ذلك فإذا أتاحت لى مجلة Museum Criticum التى أنتظرها يوميا - فرص الكلام عن أعمالى فلن أدعها تقوتنى [...] فى انتظار ذلك فإنى مستمر فى « القواميس » .

توماس يانج الإنسان . يكفى أن ننظر إلى البورتريه الذى رسمه له لورانس وهما فى قمة مجدهما هما الاثنى لنتقنع بقوة اشعاع شخصيته وهيبته بل وأيضا - لأن الشواهد العديدة تؤكد ذلك - سعادته . لقد عبر توماس يانج الحياة على سحابة من الضوء ، من نجاح إلى انتصار . يبدو كما لو أنه لا يجد فى أى من اكتشافاته سوى مفتاح للاكتشاف التالى . متعدد المواهب ومعبود الكثيرين ، عظيم الهيئة كالأمير - تعود على أن يتقدم الصفوف بصفة دائمة لدرجة أنه لم يتقبل إلا أن يكون هو المنتصر منذ البداية وعلى طول الخط وإلى الأبد فى مجال اقتحمه باهمال - كما لو كان يلهو - بعد هذا الكم الضخم من علماء اللغة .

لاشئ كان يؤهل يانج ليكون الشخص الذى يحل شفرة الهيروغليفيات سوى عبقريته فى النجاح .. وربما أيضا أنه رجل نور بجميع أشكاله ومنها التنوير . كان محبا للفخامة . ودودا شغوفيا بمعرفة كل شئ وأى شئ مهيبا للرقص والموسيقى ، مرحا فى المجتمع . لقد ولد لينتصر فى كل شئ . كيف يمكن لرجل مثل هذا أن يتكيف مع وضع لا يعترف له فيه بأنه المنتصر الأوجد ؟

قال عنه صديقه وكاتب سيرته أنه « لم يكن يتحمل أى مبالغة .. [...] وكان أكثر الرجال كرمًا وانفتاحًا على الآخرين متحرراً تماماً من أى أشكال الحسد أو الغيرة » .

* لم يعثر عليه .
** س . دوساسى .

مهما بلغ إعجابنا بهذا النوع من الإنجليز العظماء من عصر بيت ونوكس ونلسون فإن بقية القصة ستثبت أنه غير مستعد في لحظات سعادته المتكررة أن يعترف بأفضال الآخرين أو أن يقبل أن يرى أحداً يتقدمه أو يسبقه سواء كان أوكريلاذ أو تيخسن * أو مواطنه بانكس وأيضا شامبوليون جميعهم سيجدونه ينازعهم بشراسة مدققة في أي أسبقية لهم على اكتشافاته هو . جئت ورايت وانتصرت .

في مواجهة هذا الميروكوسيو القادم من مقاطعة سومرست المتألق الصاعق والرشيقي مثل سهم زينون الإلهي يبدو جان فرنسوا ثقيل الحركة مثل فلاحى الكارسي أو راعي غنم من جبالها . إنه يكد في عمله منذ ستة أعوام يكوم نقوده العلمية قطعة قطعة حجرا وراء حجر ويملا زلعه بالرموز ... صبر طويل . عبقرية الآخر تتكون من الحدس والتقدم المفاجيء والاختراقات الصاعقة ... ولكن القائد العظيم ليس هو الذى يدخل موسكو في الصيف وإنما الذى يحكمها في الشتاء .

هل ترجع قمة اكتشافات الباحث اللندنى إلى ١٨١٨ ؟ يعتقد هنرى سوتاس كما سبق أن أشرنا أن اختراقه الكبير فى عام ١٨١٤ لم يدعمه بعد ذلك أى اكتشاف ندى معنى . غير أن المقال الطويل مصر الذى نشره فى الانسيكلوبيديا بريتانىكا طبعة ١٨١٨ يبقى فى نظر الأجيال التالية أهم مشاركة له فى كشف اللغز ** . ولذلك فإن اهتمامنا ستركز عليه .

إننا أمام نص طويل يملأ عشرين صفحة من الإنسيكلوبيديا تليه أربع صفحات من الرسومات والصور . بعد عرض عن الميثولوجيا والتاريخ . والمؤسسات وتواريخ مصر القديمة هناك خمس صفحات مخصصة « لتحليل مخطوطات رشيد الثلاثة » . يبدأ بذكر الظروف التى اكتشفت فيها كتلة البازلت المعروضة فى المتحف البريطانى ثم يشير إلى أن سيلفاستر دوساسى كان أول من درسها بجدية .

ثم يقوم يانج كرجل العلوم الدقيقة بإحصاء عدد المجموعات المعزولة فى النصوص الثلاثة ثم يحاول المقارنة بينها عددا بعدد من نص لآخر . أخذاً فى الاعتبار أن الخراطيش تشير إلى أسماء الملوك والآلهة . فهو يشير إلى أن كلمة ملك مذكورة ثلاثين مرة فى النص اليونانى وأن مجموعة من الرموز مذكورة ٣٧ مرة فى الديموطيقى . وأن بطليموس ذكر ١١ مرة باليونانية وأن مجموعة محاطة بخرطوشة تظهر أربع مرات فى

* أحد الذين عملوا على حل شفرة « المخروطيات » والذى عمل أيضا فى مجال الهيروغليفيات .
** العديد من مؤرخى اكتشاف سر الهيروغليفيات يؤرخون هذا المقال فى ١٨١٩ إلا أننا نتمسك بالتاريخ الذى تذكره الإنسيكلوبيديا ذاتها بعد مائة وخمسين عاما . الواقع أنه حرر فى ١٨١٨ ونشر فى ١٨١٩

النص المقدس ... كشف اسم بطليموس الذى يوجه له إهتمامه فى البداية هل كان سهلاً باستخدام هذا الأسلوب ؟ بعد ذلك بخمس سنوات كتب شامبوليون فى كتابه « المختصر » Precis :

« أى شخص يقوم بدراسة مطولة للنص الديموطيقى فى حجر رشيد لا يمكن أن يشك بعد أول مراجعة للنص الهيروغليفى أن الخرطوش يحتوى على اسم بطليموس ... » [ولكنه يضيف] : « إن الاكتشاف الحقيقى هو أن تقرأ حقيقة من النص الهيروغليفى أى أن تحدد المدلول الخاص بكل حرف من مكوناته وبطريقة يمكن أن تطبق فيها هذه المداليل كلما ظهرت فيها هذه الحروف » (3) .

هذا هو ما أشار به دوساسى ليانج منذ يناير ١٨١٦ : إذ قال له : « أعتقد بالفعل أنه بالإمكان أن تحدد فى حالات عديدة كما فعلتم المكان الذى تحتله هذه الكلمة أو تلك من النص اليونانى فى النص المصرى الابددى [ديموطيقى] كما يمكن أن نفعله بالنسبة لنص هيروغليفى خالص ولكن أن تحدد بعد ذلك مدلول الحروف التى تتكون منها الكلمة وتقديمه فى كافة الحالات الأخرى : فهذا هو المحك .»

السبب فى أن يانج لم يصل سوى لقراءة غير مكتملة يرجع أصلاً إلى أنه لم يدخل فى حساباته بعض الاكتشافات التى توصل إليها غريمه الفرنسى الشاب ألا وهى - على سبيل المثال - أن الحروف المتحركة تسقط كثيراً فى الكتابة المصرية المقدسة . ولكن بصورة أقل لما يحدث فى العبرية أو العربية .

عرض توماس يانج فى مقاله هو عبارة عن تسجيل لسلسلة من رص للمعلومات وصفها البعض بأنها حسابية والآخر بأنها ميكانيكية . إلا أن حلال الشفرات المحترف هنرى سوتاس * يذكر بأن هذه هى الطريقة الطبيعية فى العمل فى هذا المجال . وأن هذه الطريقة التى يستخدمها لاعب الـ Puzzle ومركب لعب الميكانو كانت تسمح له بالذهاب بعيداً ... المعتقد اليوم أن من الـ ٢٢٠ كلمة التى يدعى أنه اكتشفها نصفها كان بصورة تقريبية .

تكشف قراءة مقال الانسيكلوبيديا المطول أن يانج جرب التقريب والمقارنة يحرك قطعة شطرنج هنا وأخرى هناك ، يجرى تداخلات وتكوينات ، يتحسس ويجس ويخمن ويؤول دون أن يقيم نظاماً ولا حتى بروتوكولا للاكتشاف .. إنه قام بتبويب الحروف التى تعرف عليها فى أربع فئات : الآلهة - الملوك - الأفراد - الحيوانات . يسرف فى عرض

* مشفر سابق فى إدارة الشفرة بوزارة الخارجية .

الاقتراحات ومحاولات الشرح ، أما كلمات **إله وإلهة** فهي مميزة بوجه خاص ، وكذلك بطليموس وبيرينيس . الأول بهامش خطأ بسيط والآخر بصورة يشوبها شيء من المجازفة .

إن « قراءته » لاسم بطليموس الذى تعرف عليه فى خرطوش سبق أن حدده ساسى وأوكريلاذ تتم عن ابتكارية فذة . هناك ثمانى علامات مرتبة داخل الخرطوش : مربع قرأه حرف ب ، هلال وكان بالنسبة له ت ، شكل عقدة - استبعده على أنه لا يعنى شيئاً ، أسد ممدد ، مشبك للشعر قرأه « أوله » شعر قرأه « يا » ، عودان من القصب منتصبان حرف « ي » وشكل عمودى حدده بأنه « وى » المجموع يصبح « بيتولياميوس » ... يرافو : علما بأن الترجمة السليمة التى قام بها شامبوليون هى بتوليس .

يلاحظ سوتاس أنه « أدخل فى تركيب اسم بطليموس عناصر متنافرة أبجدية (ب . ت . أ) مقطعية (ما - و س) ثلاثية (أوله) ورمز لادلالة له (الحبل المعقود) وبالتالي فبعد أن بدأ بداية سعيدة توقف فى منتصف الطريق [...] هذه الطريقة التى تحتوى على أسلوب نقدى لم تسمح له بالذهاب إلى نقطة أبعد [...] فكره يتمتع بدرجة عالية جدا من إمكانية الحدس [...] ينطلق من فكرة مسبقة يتضح أنها سليمة ولكنه لم يعتنى بالتدقيق ... » (4) .

يبدو أن عالم المصريات النمساوى دويلهوفار قد قيم هذه العملية المبهرة وغير الدقيقة فى أن واحد تقييما عادلا إذ يقول : إذا كان يانج قد بدأ بالفعل فك شفرة الهيروغليفيات مع بعض التحفظ على بعض التخمينات السليمة فإنه لم يخط بالخطوة الضرورية ليعبر العتبة التى فتح بابها . « عندما يلتقى باسم إله الأموات أنوبيس فهو لا يتعرف عليه و (بالاستيعاب) يطلق عليه « سيريريوس ، حامى الجحيم اليونانى .. » . أخطر من ذلك : « من المثير للدهشة أن اسما لإله آخر - وهو بتاح لم يستوقفه على الرغم من أنه تكرر عدة مرات فى حجر رشيد وأظهره النص اليونانى وعلى الرغم أيضا من أن يانج قد اكتشف القيمة الصوتية للحرفين الأولين ب ، ت داخل خرطوش بطليموس . »

الشرح الظرفى الذى يقدمه دويلهوفار لهذا النوع من الكبح أو توقف العبقرية التخمينية عند الطبيب العظيم هو :

« إن هذه الدراسات * كانت بالنسبة له وطبقاً لقوله هو « سعادة تجلبها بعض ساعات من أوقات الفراغ » ولكنها سعادة راحت تبتعد شيئاً فشيئاً كلما زادت معرفته بالصريين القدماء . كان يأمل فى أن يكتشف كنوزاً من العلوم الطبيعية المصرية التى ألهمت فيثاغورس حسبما يقول . ولكن كلما تقدم فى فهمه للنصوص كلما اتضح له أنها لا تتحدث سوى عن الآلهة والفراعنة والأموات وخاصة الأموات وهى أبدأ لا تتكلم عن الفلك أو التاريخ .» (5)

هل وضع إذن توماس يانج (أو وجد) نهاية لأبحاثه لأنه لم يتمكن من اكتشاف مواد تكفى لأن تجعلها أبحاثاً علمية ؟ الفكرة جديدة .. إلا أنها قد لا تستهدف إلا جانباً واحداً من المسألة . لأنه لو كان ذلك صحيحاً فلماذا عمل يانج بكل هذا الاصرار على جعل المجتمع العلمى الأوروبى يقر ما هو منافى للحقيقة الجلية ولأبسط مبادئ العدل أنه ليس أول من اكتشف الحل وليس هذا فحسب بل أن إكتشافاته كانت شاملة وخاصة به وحده أيضاً ؟

سنعود للحديث ** عن الصراعات الرهيبة والقضايا التى رفعها العالم الكبير وأصدقائه لإثبات أبوته للاكتشاف . حتى ذلك الحين يتحتم علينا أن نشير - مع شبه اجماع من الباحثين المعاصرين - إلى أن السبب فى أن توماس يانج لم يتمكن من أن يثبت أمام التاريخ إدعائه بأنه هو المكتشف ، لا يعود إلى خيبة أمله لعدم وجود معطيات علمية كافية فى عالم المصريين وإنما لأن الأسلحة اللغوية والأدوات التى لا غنى عنها لكل باحث فيها لم تكن فى حوزته .

فى موضوع يتعلق باللغويات كانت العقبة الكؤود التى اعترضت طريق الدكتور يانج هذا الطبيب العبقري والمفكر العالمى هى أنه لم يكن عالماً لغوياً *** عندما وصفه مسيوسوتاس بأن « فكره حدسى لأقصى درجة » فهو لم يهجوّه ، بل إن ما يدعى للدهشة فيما يتعلق بالجدل العظيم الذى دار بين الطبيب الانجليزى والمؤرخ - عالم اللغويات الفرنسى أن هذا الأخير هو الذى استخدم الفكر العلمى الدقيق فى حين لجأ الأول إلى تفكير العلوم الانسانية .

ظهر فى عام ١٨٢٧ مقال فى المجلة الجادة المشهورة أدنبره ريفيو Edinburgh Review بقلم شخص يدعى جيمس براون يقول فيه إن ما افتقده

* فى اللغويات المصرية القديمة .

** فى فصل ١٢ .

*** ويضيف لنا جان فليب لوار : أنه لم يكن يعرف اللغة القبطية .

شامبوليون بالمقارنة بيانج هو « أن يتنفس الضباب الكثيف الذى يغلف لندن بدلاً من جو باريس الأكثر خفة ؟ وكان عليه أن يحارب عدم التصديق أو الشك وكذلك الاعتراضات الباردة والمدققة التى يبديها مثقفونا بدلاً من إثارة إعجاب الأوساط اللامعة التى تبدى أكثر من نصف إقتناعها بمجرد سماعها بأى اكتشاف له بريق ... » (6)

باستثناء الاعتبارات المناخية (التى يصعب التشكيك فيها بالفعل) يبدو أن السيد براون قلب وضع الجمل : فى أى المدينتين ساد عدم التصديق والشك والاعتراضات والتدقيقات ؟ السيد يانج الشخصية اللامعة ونصف الاله المعجز وإن كان يضطر إلى أن يتحسس طريقه وسط « ضباب لندن الكثيف » فإن النور الذى يشع منه كان كافياً لكى يجذب إليه إنتباه الفراشات . إذ أنه فى حالتنا هذه ولو مرة واحدة أثرت الاعتراضات والتشكيك المنظم وعدم التصديق على ضفاف السين لدى الفرنسيين الهوائيين محبى التفاخر والشوقيين ...

قبل أن نعود إلى جان - فرنسوا شامبوليون وهو منكب فى إصرار على حجر رشيد أو بالأحرى على النسخة التى فى يده يجدر بنا أن نذكر هنا جانبين من جوانب النقاش .

يجب ألا يدخل فى روعنا أن ما دار بين العالم اللندنى الشهير والاستاذ الفرنسى الشاب الذى يصغره بسبعة عشر عاماً كان بمثابة مباراة فى الكرة بين انجلترا وفرنسا ، بين الديك والوردة - يناصر كل فريق مشجعون متحمسون على جانبي بحر المانش . ظل توماس يانج يتمتع فى باريس بمؤيدين متحمسين له ولقضيته ليس بسبب أمجاده وسحره الشخصى (ونجاحاته الأولية الكاسحة) كما رأينا فحسب ، وإنما أيضاً بسبب الغيرة التى أثارها الشقيقان شامبوليون وكان ذلك أكثر من بعض إدعائات الدكتور يانج وبكل قسوة عالم مصريات إنجليزى .

فى فرنسا كان سيلفاستر بوساسى هو أول من جسد فى شخصه هذا الولع الهيروغلىفى الإنجليزى مستخدماً أكثر الخيانات انحطاطاً ضد باحث جرونويل إذ كتب ليانج فى ٢٠ يوليو ١٨١٥ * :

* بعد عدة أسابيع من أول تبادل للخطابات بين يانج وشامبوليون (راجع فصل ٦)

« إذا كان لى أن أنصحكم بشيء فهو ألا تحيطوا السيد شامبوليون بكثير من اكتشافاتكم . إذ يمكن له أن يدعى فيما بعد أنه كان الأسبق . إنه يعمل جاهداً في عدة مواضع من كتابه * على الإيهام بأنه اكتشف كلمات كثيرة من نص رشيد . إنى أخشى أن يكون ذلك نوعاً من الدجل بل إنى أضيف أن لدى أسباباً كثيرة تجعلنى أعتقد ذلك [...] لو أن السادة أوكربلاد وكاترومار وشامبوليون قد حققوا بالفعل تقدماً حقيقياً فى قراءة النص المصرى لأسرعوا بإحاطة الجمهور علماً بها وأن غير ذلك يكون مثيراً للدهشة ويعتبر تواضعاً نادراً بالفعل أشك فى أن أياً منهم قادر عليه . » (7)

كانت هذه تسديدة من السموم غير متقنة . أولاً لأن فيما يتعلق بالسويدى نون الفرنسيين الآخرين - فإن التواضع كان كما سبق وأشرنا - علامة مميزة لشخصيته . وثانياً لأن العالم الحق - وكان ساسى فى موقف يجعله يتيقن من ذلك جيداً - لا يكشف سوى عن معطيات أكيدة ومؤكدة إذ يوجد هامش بين « التقدم الحقيقى » والاكتشاف المثبت علمياً كان باحث جرونويل يرفض تخطيه فى ذلك الوقت .

سيعترف البارون فيما بعد بخطئه وسيتوقف عن محاربته عندما يتقدم شامبوليون بإثباتاته . كما أنه سيحييه بعد وفاته بما يعتبر تعويضاً له . غير أن « الحزب البريطانى » سيختار لرياسته إدم جومار . وهو الذى استمر لسنتين طويلة يزود « مصرى » جرونويل بالمستندات التى فى حوزته بصفته مسئولاً عن كتاب وصف مصر ثم قطع صلته به ولم يتوقف عن الإعلان عن إيمانه بأسبقية توماس يانج فى الكشف وعن تحفيظه المستمر له لكى ينتصر . أى شيء أفضل من أن ينجح هذا الشاب الذى لم « يذهب أبداً » إلى مصر **

مسألة أخرى متعلقة بالجدل بين توماس يانج وجان - فرنسوا شامبوليون هى المتعلقة باستخدام الأخير لاكتشافات الأول وعلى الأخص المقال المطول المعنون مصر فى الانسيكلوبيديا بريتانكا المنشور قبل أربع سنوات من إطلاق شامبوليون لصرخته « وجدتها » .

سبق أن رأينا أن السؤال الذى يطرح نفسه فيما يتعلق « بالترجمة الظرفية للنص الانكورىالى » (الديموطيقى) التى أرسلها يانج لساسى عام ١٨١٤ . لم يهتم

* مصر فى عهد الفراغة .
** ولايانج بالمناسبة .

المتخصصون طويلاً بمعرفة إن كان شامبوليون اطلع عليها أم لا .. فلم يعر المكتشف اهتماماً كبيراً بذلك على ما يبدو فهو يتكلم عنها بإهمال لا اصطناع فيه .

أما فيما يختص بمقال عام ١٨١٨ الذي اعتبره علماء انجلترا لفترة طويلة الأساس الحقيقي لعلم المصريات الحديث عوضاً عن « رسالة إلى مسيوداسييه » فالنقاش لا يزال مفتوحاً . فمدام هارتلويان التي لا يمكن أن نشك في أنها أرادت أن تسيء إلى شامبوليون تعتقد أنه من المؤكد أن المكتشف قد اطلع عليه بعد فترة قصيرة من نشره وإضافة إلى مجموعة مستنداته « دون أن يعيره أهمية تذكر » (8) .

يوجد آخرون يتشككون في إمكانية حصول الباحث الفرنسي على نسخة من مقال الانسيكلوبيديا ، وبالتالي أن « يسرق » العالم البريطاني . منهم على سبيل المثال لوباج - رونوف الذي نفذ صبره من إدماءات جون لايتنى كاتب سيرة يانج الذي يصر على إثبات أن الفرنسي إكتفى « باستعارة » إكتشافاته من الطبيب اللندنى - فهو يؤكد أن ذلك يعتبر « اتهاماً دنيئاً » .. ذلك لأن المقال المذكور لم يكن إلا فى يد عدد قليل من الأشخاص ؛ ففي عام ١٨٢١ أى بعد ثلاثة أعوام من نشره اشتكى سير وليام جال من أنه لم ينجح فى الحصول عليه فى لندن ... وكذلك فى عام ١٨٢٤ كتب عالم اليونانيات الكبير جان لوترون إلى يانج يطلب منه نسخة لأن النص غير موجود فى باريس (9) .

نعتقد أنه بإمكاننا أن نشير هنا - لوضع حد لهذا الجدل - إلى التوضيح الذى ضمنه ج . ف . شامبوليون عرضه أمام أكاديمية النصوص فى ٢٢ أغسطس ١٨٢٢ حين قال : « لقد تعرفت على آخر أعمال السيد الدكتور يانج بعد وصولى إلى باريس بقليل فى سبتمبر ١٨٢١ . (10) » .. أى قبل « رسالة إلى مسيوداسييه بعام كامل ...

جدال غير مجد ... لأنه من الواضح أن مهما كانت الومضات الفكرية ليانج جديدة وجسورة وعبقرية والتي توصل إليها بالمقارنة ثم التعريف بطريقة تدريجية فسمحت له بأن يتقدم نحو النور إلا أن شامبوليون كان يسلك طرقاً أخرى ... خلف الفارس المقدم الذى انطلق من المواقع المتقدمة راکضاً حيثما « توحى له به قريحته » ، سار شامبوليون فى تودة بطريقة منظمة وعلمية من إثبات إلى إثبات مؤسساً بواسطة أسلوبه منظومة تفسيرية .

قبل أن نعرض لقضية الشعوذة التي سترفع بعد قليل ضد شامبوليون * نرى مناسباً أن نذكر هنا تقديرين متناقضين لأعمال توماس يانج : الأول يمتدحه وهو لعالم المصريات الفرنسي هنرى سوتاس الذى يفتخر بأنه « دفع بالحياد إلى آخر الحدود » فى صدق على ما يبدو . والآخر لزميل له بريطانى سير بيتر لويج - رونوف - عمل على تغيير رأى العام البريطانى المتحيز ضد شامبوليون بسبب مادحى يانج المتحيزين وقد وضع فى مجهوده هذا قدراً من العنف لا يخلو من الظلم نحو مواطنه اللامع .

مثله مثل الفارس الذى يقفز بفروسه بمنتهى القوة فيقع إلى الجانب الآخر . قفز لويج - رونوف إلى أبعد من هدفه حتى أنه إفتقر إلى العدل نحو توماس يانج - ولأنه أراد أن يعيد الحق إلى جان - فرنسوا شامبوليون - وسنرى كيف أن المنحدر الذى كان عليه أن يصعده كان قاسياً !! - فقد وصل إلى حد أنه رفض أن يعدل بالنسبة للطبيب عالم الأنوار الذى تحول إلى عالم لغة ** .

كتب عالم اللغة الفرنسية هنرى سوتاس بعده بربع قرن ما يلى :

« ... الافتراضات التى توصل إليها يانج بالتعرف على المكان الذى توجد فيه بعض كلمات النص اليونانى فى النص الهيروغليفى ثبتت صحتها جزئياً . ولما كان النص مليئاً ببعض العلامات المعبرة عن أفكار واضحة جداً ومتكررة فإن التحليل بواسطة المقارنة أصبح ممكناً بالتحكم فى المتكررات . وعلى الرغم من العديد من الفراغات فإن يانج تمكن من ملئها ببراعة .

من بين الـ ٢٢٠ علامة أو مجموعة هيروغليفية التى تقدم بشرح لها عام ١٨١٩ توجد مائة تقريباً معظمها مأخوذة من نص رشيد وتم التعرف عليها بنجاح حقيقى [...] والمدهش أن يانج قد نجح بسرعة ودقة فى تحديد مكان الرجوع إلى أول السطر فى النص الديموطيقى وفى النص اليونانى [...] إن النتائج التى توصل إليها يانج تثير بعض الإعجاب [...] لقد اتهم بأنه كان يعمل بطريقة « حسائية » علماً بأن بداية أى عملية لحل الشفرة يجب أن تتم بهذه الصورة . إذ أن سلسلة من عمليات القياس والإحصاء تظهر أو لا تظهر فكرة حدسية . تتم مواجهتها بعد ذلك بالوقائع التى يؤكد أو تنفى . لقد تمكن يانج دون أى خطأ تقريباً من عبور المرطتين الأولى والثانية إلا أنه لم يتمكن من تخطى الثالثة . فهو إذن من الرواد بحق » (11) .

* انظر فصل ١٢

** راجع فصل ١٢

لماذا لا نعطي الآن الكلمة لشامبوليون ونحن على وشك أن نلتقى به من جديد وهو
فى عمله - إذ أنه لم يكن أقل الناس عدلا تجاه يانج ؟

« أعترف بأنه كان أول من نشر بعض المبادئ الصحيحة عن الكتابات المصرية
القديمة . وأنه الأول أيضا الذى حدد بعض الفروق الصحيحة التى تخص الطبيعة
العامّة لهذه الكتابات وذلك بأنه حدد مداليل العديد من مجموعات الحروف بواسطة
مقارنة مادية بين النصوص . كما إنى أقر أيضا أنه نشر قبلى أفكاره عن إمكانية
وجود بعض علامات صوتية تكون قد استخدمت لكتابة أسماء العلم الأجنبية فى
مصر بالهيريوليفية . وأعترف أخيراً أن مسيو يانج كان الأول أيضا - ولكن دون
نجاح كامل - الذى حاول أن يعطى مدلولاً صوتياً للهيريوليفيات المكونة للاسمين
بطليموس وبيرينيس . »

تحية جميلة من المكتشف للرائد الذى أصر بغرابة على وصف شامبوليون بأنه
نائبه ووريثه الفرق بينهما كان الذى يفصل بين الهاوى العبقري والمحترف (الذى لا يقل
عنه عبقرية ...) والفرق أيضا يعود إلى ما يميز الإكتشافات الصغيرة عن الإكتشافات
الكبيرة والإلهام عن العقل ، والذكاء الفطرى من العلم ، والظرف والمصادفة عن الدليل ،
والحدس عن النظام المنهجي .

١١ - « تمكنت من الموضوع ! »

هارب ؟ - « لم تعد روما داخل روما » - إما الآن أو أبدا ! - الشروط الثلاثة لفك الشفرة - قائمة بثلاثمائة رمز - إشراقة احتفالية - « إبرة كليوباترة » - مستندات هويو - أوريكا ! وجدتها ! - أمام الأكاديمية - صمت غريب - من الباتيون إلى المختصر - مسيو نوبلاكاس والملك ...

« أن تجعل صمت التاريخ يتكلم ... »

ميشليه .

فى الواحد والعشرين من يوليو ١٨٢١ نزل من المركبة العمومية القادمة من ليون بشارع الكوك - هيرون فى باريس رجل أسمر البشرة قصير ممتلئ شعره أسود منحنى الظهر قليلا محمل بحقائب ثقيلة . عمره ثلاثون عاما ولكن يبدو أكبر سناً . يبدو قلقا أن يكون هناك من يتعقبه . هل هو منفى ، أم تائر من الكاربونارين هارب ؟

الشهور الأخيرة التى قضاها جان - فرنسوا شامبوليون فى جرونوبل أرهقته . هرب بالكاد من قضية أمام المحكمة العليا قبل أن يمثل أمام زملائه ليحكموا عليه ويعزلوه . وتحت تهديد ملاحقات جنائية جديدة سافر . لم يكن هروبا إنما هو شئ يشبه ذلك . كنية « روبيسبير » فى ذلك الوقت لم تكن مديحا ولا هى مطمئنة .

عندما طرد من الدوفينييه قبل ذلك بخمس سنوات واضطر للإقامة فى فيجاك كانت تلك الهجرة الأولى أقل إثارة للقلق والمرارة . كان حينذاك بصحبة جاك - جوزيف و « على » . لاحق بأسرته ومنزله والمدينة مسقط رأسه والريف الذى عاش فيه طفولته والمناظر المحببة إلى قلبه . أما الآن فهو شبه هارب ، ملعون ، مرهق ومضطر إلى العيش فى باريس التى يكرهها فى هذه « العاصمة القذرة لفرنسا » المليئة بادباء يزدریهم ورجال سلطة يحتقرهم .

كان نابليون قد توفى فى جزيرة سانت هيلين قبل ثلاثة شهور . وكان الخبر لايزال طازجا - فهو لم يصل إلا فى نهاية شهر يونيو إلى جرونوبل - وقد أثر فى رجل مثله - شجب المستبد بجسارة ومقت فيه الغازى ولكنه وحد قدر فرنسا لعدة شهور فى

شخص هذا البطل العائد من المنفى . ثم كيف لا يشترك مع وطنه الروحي - مصر صاحب مغامرة عام ١٧٩٨ الكبرى ومؤسس « معهد القاهرة Institut du Caire » مع الأب لافيوليت * إنهار فصل من فصول حياته . مثله مثل العديد من شباب ذلك الزمن .. مثل ستاندال وموسيه هو فى حداد .

الحزن العميق المنحوت فى الوجه الغريب لهذا المسافر له أسباب أخرى أيضا . ليست عودته إلى باريس مظهرا من مظاهر الفشل ؟ لقد اعتقد أنه سيدبر حياته فى جرونوبل بأن يدرس فيها ويؤسس فيها الجمعيات ويتزوج فيها ويقيم فيها أعمق الصداقات ويحصل من أهلها على أصوات التأييد والإعجاب والإهتمام من أكاديميتها التى استقبلته وهو يعد فى السادسة عشرة ... إن جرونوبل كانت المدينة المختارة .. وها هو قد لفظ منها .

ألم يفشل فى حياته منذ الآن ؟ لقد خسر عمله وهو الآن فقير ولم يسدد له حماه دوطه روزين وقد مضى على زواجه ثلاث سنوات كما أن زوجته لم تنجب بعد . إنه يصل إلى باريس بعد أن فصل من التعليم العالى وانتهت آماله فى التعليم التعاونى وليس فى ذهنه سوى مشروع واحد غير معقول وهو كشف الأسرار القديمة منذ الاف السنين لحضارة لم ير من أثارها سوى بعض الأحجار وبعض قطع قليلة جدا وصغيرة من القماش العتيق الممزق .

خمس أقدام وثلاث بوصات هذا هو الطول الذى قدره أحد الأطباء لطول قامته عندما التقيا فى ذلك الوقت . أى أقل بقليل من مائة وسبعين سنتيمترا التى قدرها رجل شرطة جرونوبل المنبوذ عام ١٨١٦ . هل يرجع ذلك للارهاق ولأن بداية إصابته بداء الدرن قد قوست ظهره ؟ يقول الطبيب جانان أن له « رأسا ضخما بعض الشيء بالنسبة لجسمه . شعره أسود كثيف ورفيع جداً . عيناه لونهما بنى غامق ووجهه - يميل للاصفرار يلاحظ أيضا فى بياض العين وهو ما يجعله عربى المظهر ... » **

فى كتابه « ذكريات فترة عودة الملكية » صورت الماركيزة دوماييه بهذه السطور القليلة شامبوليون وقد دخل مغامراً « المجتمع الراقى » بعد بضعة أشهر من وصوله إلى باريس أبان نجاحاته الأولى :

* كناية لتابلين [المترجم]

** وصف أرسله عام ١٨٢٢ أى بعد أشهر قليلة من وفاة شامبوليون الدكتور هيوبار - فرانسوا جانان - عالم الفراسة الدماغية وتلميذ جال - وعلى علاقة شبه عائلية بجان فرانسوا - إلى جمعية الفراسة .

« رأيت منذ بضعة أيام عند مدام دو موسكالم ، السيد شامبوليون وهو أول من اكتشف معانى الهيروغليفيات والذي تمكن من ترجمة بعضها ولا يزال هذا الاكتشاف الجميل فى مرحلة الطفولة إلا أنه بإمكان مسيو شامبوليون أن يوسع أفق اكتشافه لأنه ليس متقدما فى السن وهو مُجد فى عمله ولا يكل . إنه دمث ومتواضع لا يعبر عن نفسه بسهولة ولا يعرف كيف يدعم بريق أعماله .. الهجوم عليه شديد كما يهاجم كل الذين يستكشفون كرواد أحد منابع الشهرة اللامعة والمفيدة ... » (1) .

أما وصفه المعنوى فيما وراء هذه اللمسات التأثيرية فهو بنفسه الذى رسمه قبل ذلك التاريخ بثلاثة أعوام فى خطاب مؤرخ ١٢ نوفمبر ١٨١٨ أرسله من جرونوبل إلى أخيه الذى كان يستحثه لى يلحق به فى باريس :

« لم أفكر قط فى أن أقيم بصفة دائمة فى هذا المسرح الكبير [الذى هو باريس] . إنى أفضل أن أكون الأول فى قريتى على أن أكون الثانى فى روما [...] إن العاصمة لاتناسبنى [..] سأحقق هنا وربما أفضل من باريس الأعمال التى خطت لها . أما أنت فقد ولدت لتدير الأعمال وتحريك وتوظيف الأشياء الكبرى [...] وتعرف العالم بمقدار معرفة شخصين معا [..] أما أنا فإن كنت ولدت فى الهند لكنت أصبحت من الدراويش المتأملين : إنى أكره الحركة ولا أحب أن أكون سوى داخل دائرة محدودة [...] ترى أنت الايجابيات فى الحياة أما أنا كفيلسوف شرقى مؤصل فلا أرى فيها سوى المظاهر . [...] أضع فى إطار واقعى ماتعتبره أنت تطرفاً . أن أقيم فى باريس يعتبر بالنسبة لى مجهوداً يفوق طاقتى [...] مثل أغسطس * أقول ! « روما ليست داخل روما ، إنها موجودة بالكامل حيث أكون أنا ... »

خليط لذيد من الفخر والإنطواء على الذات . خليط معهود فى الواقع إذ أن هذا يفسر ذلك . إذا كانت باريس فى جرونوبل فإن ذلك يرجع فى ذات الوقت إلى التفاهة العدوانية « للقطيع » الأدبى الباريسى وإلى أهمية شخصية المتوحد .

إننا لا نردد بما فيه الكفاية كيف أن هذا الشخص شديد الحساسية الذى هو جان - فرنسوا كان هشاً للغاية ووحيداً . إنه الرجل بلا أم والرجل الذى يزدري أباه والرجل الذى لم يقترن بزوجه إلا لاهتمامه بالشرف والذى ظلت حالات حبه جميعاً دون وصال . كما أنه يلاحظ أن كل شئ تقريبا يفصله عن أقرب صديق له وهو أخوه ما عدا

* لقد وضع كورناتى هذه الجملة الشهيرة لا على لسان أغسطس وإنما على لسان سرندريوس (الفصل الثالث ، منظرا) .

المغامرة العلمية العظمى فهي التي تجمعهما معاً . لعل هذا يكفي لوصف الحالة الفكرية التي كان فيها هذا المتأمل المطارد هناك والمراقب هنا لدى وصوله إلى باريس مفتحاً معركته فيها ...

ما هو المؤوى الذي سيتوجه إليه في هذه الليلة من شهر يوليو ١٨٢٦ هذا الرجل القمحي اللون الذي ألقى به وسط الأدغال الباريسية ؟ لقد وجد له جاك - جوزيف مكاناً ملائماً للإقامة فوق مسكنه هو ٢٨ ش مازارين على بعد عشرات الأمتار من الأنتستيتو * . السين وحده يفصله عن مقر لجنة مصر . كما أن الكولاج دوفرانس قريب والمكتبة الملكية أبعد بقليل . ولكن كنزه هو فهو بداخله وهو يحمله معه . وإذا كان هناك ما ينقصه فإن جاك - جوزيف يملكه في الأنتستيتو المجاور - أو يرسله له ببساطة . يمكنه أن يضع مكتبه وكتبه والصناديق المحتوية على مستنداته ولوحه ورسوماته تحت سقف الدور الثالث الذي كان فيما سبق أتيليه الرسام هوراس فارنيه . هذا هو أفضل جانب للأمور .

الأفضل حقاً ؟ كلا ! لأن لعل ماكان يدفع مسافرنا القلق إلى تفاؤل أكبر هو أن أخاه الأكبر كان قد توصل بالفعل إلى احتلال مكانة مرموقة في باريس في قلب عالمها العلمي . نعم ! لم يكن جاك - جوزيف رئيس جامعة ولا عضو أكاديمية ولا أمين متحف ولا أستاذاً في السوربون ولكنه كما رأينا من قبل الذراع الأيمن - إن لم يكن الأنا الآخر لصاحب المقام الرفيع والمشهور جداً مسيو داسييه ، السكرتير الدائم لأكاديمية المخطوطات والآداب ، الحكم في مجال الثقافة والمتحكم في شهرة المشهورين وسرعان ما سيصبح جاك - جوزيف محافظ المخطوطات الأصلية للمكتبة الملكية وهو المركز الذي ظل يعمل لسنين طويلة من أجل الوصول إليه والذي زاد من قوة قبضته على عالم الأبحاث .

نعم كان شامبوليون - فيجاك يواجه غضب وزير الداخلية القوي جداً مسيو دوكوربيار وعلي وجه الخصوص وزير الأديان مونسينيور دوفرانسينوس أسقف هيرموبوليس رائد حزب « طافئ الأنوار » بطل التزمتم وقاهر الحدائث . ولكن كان له خلفاء في كل مكان أقوىاء ونشطاء حتى تخوم السلطة .

صحيح أن الأخ الأصغر لم يكن في وظيفة لها مستقبل لأنه وقع تحت سيطرة شيطان بحث علمي سامي . إلا أن مثل هذه الإيجابيات كانت تنشط أماله في حالة لو

* مازال المنزل قائماً ويحمل لوحة تشيد بشامبوليون واكتشافه .

تبقى له شئٌ منها ... كل شئٍ هنا أصبح تحت أمره . المستندات ، الاتصالات ، المناقشات ، تبادل الآراء كل شئٍ ماعدا أصل حجر رشيد ... كما أن داسييه يستقبله متى أراد بمشاعر أبوية وقد تصالح مع فورييه وعاد إلى لقاء زملائه القدامى فى الكولاج دو فرانس مثل ريموزا وشيزى ولترون وبعض الوقت مع سان - مارتان مع احتفاله بعلاقات مهنية طيبة مع جومار وحتى لو أصر على اعتبار نفسه منبوذا فقد أصبح فى الواقع فى قلب الساحة عند مدخل المعبد .

ومع ذلك تكشف أولى رسائله عن قلق مؤلم . إذا كانت باريس الامبراطورية أصلا لم تكن تعجبه فما بالك بها وقد أصبحت بوربونيه؟! وعندما لحقت به روزين فقد عمل ذلك على أن يدرك كيف أن هذه الجرونويلوازية الصغيرة غير متأقلمة مع مستقبله الذى يفتح أمامه على الرغم من كل شئٍ . كانت خجولة غير متوائمة متوترة باستمرار أكثر ريفية منه وأثبتت صدق توقعات جاك - جوزيف وبدلا من أن تدعم إنطلاقة فى المغامرة التى بدأها فهى تعرقله .

القضية الكبرى التى كانت تشغل باريس عندما وطئت قدماه شوارعها فى يوليو ١٨٢١ لم تكن هى فك شفرة اللغة الهيروغليفية التى ظل مجال اهتمام بعض المتخصصين - مثل يانج وأصدقائه فى لندن ومصر وفى باريس المحيطين بساسى وجومار * . وإنما القضية الكبرى كانت مرة أخرى هى عمر الزودياك - أو رسم الأبراج السماوية والرسم المصرى القديم .

لم ننس الصراعات التى فجرها فى بداية القرن وخاصة فى جرونويل والجدل حول قدم سقف قاعة مظلمة صغيرة فى معبد دندرة والذى أثنى رسمها فيلار وجولوا فى كتاب وصف مصر كما رسمها أيضا فى خط مواز لهما فيفان دونون .. المشكلة المطروحة لم تكن أقل من تحديد تاريخ خلق العالم . كانت التوراة وعلى أساسها الكنائس المسيحية - تحدد تاريخ هذا الحدث العظيم بأربعة آلاف عام قبل المسيح . غير أن بعض العلماء الذين درسوا هذه القطعة الفلكية أرجعوا تاريخها إلى خمسة عشر ألف عام قبل الميلاد . وكانت الفضيحة ! لقد تهدد الايمان أو على الأقل سلطة روما والجامع المقدسة !! ولما كان شامبوليون من أنصار التاريخ القصير المبني على دراسة متأنية للمعطيات الأثرية واللغوية فقد جاء موقفه - أراد أم لا - مناصراً للحزب الرومانى ..

* أما أوكريلاد الذى كان قد أعلن أنه عرض عن الاستمرار فى أبحاثه فقد توفى قبل ثلاث سنوات .

هذا الجدل الذى فتر لبعض الوقت عاد ليشتعل من جديد بسبب قرب وصول هذا الرسم نفسه إلى باريس بعد أن نقله إلى فرنسا شخص يدعى سولانيه الذى عمل لفترة محافظاً فى عهد الأمبراطورية . أثار هذا الحجر الملعون كما وصفه أحد خطباء كاتدرائية نوتردام - المنتظر وصوله عام ١٨٢٢ - أثار مرة أخرى المناقشات الحامية وجر إليها الباحث القادم من جرونوبل .

ولم يكن ذلك يرجع إلى أن شامبوليون كان يعلق أهمية أثرية عظيمة على هذه القطعة التى كان يعرف أنها تعود إلى عصور متأخرة وأنها محملة بالرموز أكثر من المعلومات العلمية . ولكن كيف يدع مثل كل هذه التخريفات والخزعبلات تقال وتنتشر ؟ غريزة الفارس المحارب التى بداخله حفزته وجعلته يكتب بحثاً من أربع وثمانين صفحة ثم « خطاباً إلى مسيويو » ليوقف تخريفات أنصار « التاريخ الطويل » مثل جومار . الذى عاد - بالمناسبة - فخفض التاريخ وجعله اثني عشر ألف عاماً بدلاً من خمسة عشر ألفا .. ثم بعد ذلك بقليل سيتمكن بعد أن فك شفرة الهيروغليفيات من اثبات صحة افتراضاته * .

ما يهمنا فى هذه القضية ليس قيمة هذه النظرية أو تلك بقدر ما يهمنا التوتير الذى تسببت فيه بين جان - فرنسوا شامبوليون ومجموعة « المخضرمين » بدءاً بجومار . كان المسئول الأول عن وصف مصر قد بدأ يضيق ذرعاً منذ بعض الوقت بالانتقادات الحادة غير المنصفة أحياناً التى وجهها - هنا وهناك - الشباب شامبوليون إلى الصور الأركيولوجية المنشورة فى الكتاب الكبير فاعتبر نفسه مهاناً - كما شعر سان مارتان المدافع عن وجهة النظر ذاتها - وأن أطروحة شامبوليون الموثقة التى انتصرت فى الجدل قد جعلته مادة للسخرية . وكان أن ألقى العداء الذى خرج إلى العلن منذ ذلك الحين بثقله الكبير فى سلسلة المناقشات التى ستلى ذلك فى إطار ما يمكن تسميته « قضية شامبوليون » .

كانت معركة هامشية من أجل نجاح غالى التكاليف ، أما المعركة المهمة فى الحقيقة والتى سيكون الرهان فيها هو حياة جان - فرنسوا شامبوليون ذاتها والتى ستدور رحاها خلال الأشهر التالية فهى معركة حل شفرة اللغة الهيروغليفية . أصبح من الضروري جداً بالنسبة له أن يصل إلى هدفه وبسرعة . إذ أن الحل السريع للغز هو الذى سيسمح له - مستلهماً فى ذلك الاستراتيجية النابوليونية - بكسر طوق

* إذ تمكن شامبوليون من قراءة كلمة أوتوكراتور على الزودياك بعد ذلك ببضعة شهور فلم يصعب عليه أن يثبت أنه يرجع إلى العصر الرومانى .

الحصار الذي يهدده وإرباك « الحسابات » التي تواجهه .

أدرك - وهو قابع فى مقر إقامته أسفل سقف منزل شارع مازارين حيث كان بإمكانه سماع الأصوات الصادرة من الأكاديمية المجاورة . أدرك أنه قد ذهب بعيداً فى التحدى وأنه قذف بقفازه إلى مستويات عليا ، أبعد وأعلى من أن يكفى الآن بالأعمال العادية مثلما يفعل أى مدرس تاريخ أو لغويات محترم * يتحتم عليه هذه المرة فى شحذ كامل لكافة طاقاته أن يحل المعضلة .

يجب علينا ألا نهمل هذا الجانب من الأمور فبينما كان يانج يرفه عن نفسه مدعياً عدم المبالاة بالتعامل مع الرموز الهيروغليفية فيما بين تجربتين من تجاربه فى علم البصريات ، وبينما كان أمثال ساسى وجومار وكاترومار يراجعون البرديات بعد إحدى المحاضرات أو بعد زيارة للسيد الوزير أو بعد حفل عشاء كان هو - جان فرنسوا منكباً على ملفاته وعلى قوائم أسرات وعواميد رموزه مثل الجندي المحاصر الذى سيموت جوعاً إن هو لم يجد طريقاً للهروب من الحصار . هذا الشامبوليون فيما بين عامى ٢١ و ٢٥ نراه رافعا سيفه وظهره إلى الحائط . فى حالة ميثوس منها ؟ بل فى مواجهة التحدى على كل حال ... لم يكن الموقف شبيهاً بذلك الآخر الذى صرخ فى وجه العاصمة : « باريس !! الصراع يخصنا أنا وأنت الآن !! » وإنما كانت الأمور أكثر مأساوية فهو التوتر الرهيب بين أوديب والكائن المخيف الذى يلوح له بتهديدات قاتلة .

هل كان اللغز لا يزال حقيقة على ختمه الكامل لم يمض بعد نشر المقال المطول الذى نشره يانج فى الانسيكلوبيديا بريتانیکا ؟ فلنستمع إلى ما يقوله جان - سان مارتان ، تلميذ دوساسى ذو المقام الرفيع أمام أكاديمية المخطوطات والآداب فى ٨ فبراير ١٨٢٢ :

« ... إذا نظرنا إلى ماتبقى لنا من المصريين [...] فإننا نتأسى عندما نتذكر أن هذا الشعب الذى اتخذ كل هذه الاحتياطات لكى ينقل إلى الأجيال التالية نكرى ديانتهم وقوانينهم وعلومهم وتاريخهم لم يترك لنا سوى أثار بكماء مغطاة بكتابات مازالت غير مفهومة ويبدو أنها ستكون لفترات طويلة سببا فى أن يعرف العلماء معنى اليأس .. إلا إذا وهبنا الحظ .. الذى نريده أكثر مما نأمله - فجأة كتلة ضوء هائلة تسمح لنا بالسير بخطى ثابتة على دروب ظلت مجهولة حتى الآن » .

يأس العلماء ... لقد كان سان - مارتان يببالغ فيما يختص بيانج وبصورة مختلفة

* وهو مركز لم يعرض عليه أحد على كل حال .

بشامبوليون ... إلا أن الكلام يشهد على درجة الشك الذى ظل يخيم على المحيطين
بساسى - قاضى المعارف - وذلك بعد أكثر من ثلاث سنوات من تاريخ نشر
اكتشافات الطبيب الانجليزى .

بعد ذلك التاريخ بأربعين عاماً كتب إيمانويل دو روجيه خليفة شامبوليون الثانى
على كرسى المصرىات فى الكولاج دو فرانس بشئ من الجسارة : « يمكن أن نؤكد بكل
شجاعة أن جميع أختام الكتابة الغامضة كانت مازالت سليمة لم تفتح عندما مد جان
فرانسوا شامبوليون يده ليكسرها . » إذا نحن تصورنا حركة يد الشاب وهى تمتد فى
عام ١٨١٠ ، نعم !! إنما إذا حدث ذلك فى ١٨٢١ حيث نقف الآن فليس ذلك صحيحاً
تماماً . سبق أن أوضحنا الجانب الشرقى والتأويلى والمتقطع لاكتشافات يانج .. إلا
أنها كانت موجودة فعلاً ... أما ماكان شامبوليون والعلم ذاته يبحثان عنه فقد كان
منظومة متكاملة لحل الشفرة .

حدد هنرى سوتاس فى مقدمته لرسالة إلى مسيو داسيه (2) عام ١٩٢٢ الشروط
الرئيسية لأى محاولة لفك الشفرة . يجب حسبما يقول هذا المحترف المخضرم : أ) أن
تكون ملماً بشكل أو بآخر بمضمون النص ، ب) أن تتكون لديك فكرة عن منظومة
الكتابة المستخدمة ، ج) أن يكون فى حوزتك عنصر واحد مضمون يسمح
بالإنطلاق .

بالنسبة للنقطة الأولى والثالثة كان لدى حلال الشفرة معطيات أساسية جيدة :
مضمون نص رشيد كان معروفاً أولاً فى ترجمته اليونانية . وثانياً عن طريق الحل
الجزئى لشفرة النص الديموطيقى التى قام بها ساسى وأوكريلاذ وعلى وجه الخصوص
يانج . أما بالنسبة لنقطة الانطلاق فهى كما نعرف - تحديد اسم بطليموس (الذى
يمكن إرجاعه إلى يانج) داخل أربعة من الخراطيش المحفورة على حجر رشيد .

كان بالطبع الجزء الثانى من المشكلة هو الذى يوقف بل وأحياناً يقود بعض
الباحثين إلى اليأس وهو المتعلق بطبيعة النظام الذى تقوم عليه الكتابة التى يستخدمها
كهنة آمون . هل هى رسومات تعبر عن أفكار أو أشياء (إيديوجرام) أو إشارات
رمزية ؟ هل هى كتابة أبجدية أو مقطعية مزبوجة ؟ هل نكشف بها رموزاً * لا تمثل
شيئاً أو ليست لها معان بالمعنى المعروف أى لها فقط مدلول تفقيطى بل زخرفى ؟

* مثلاً فعل يانج .

رأينا وسنرى أيضا أن شامبوليون سيسير فيما يتعلق بجميع هذه النقاط الأساسية أو بمعظمها - على غير هدى يناقض نفسه ثم يغامر ويعود إلى ما ساقه ، لا يخشى قط كباحث أصيل أن يلغى كل شئ ليبدأ من جديد . قناص وراء الحقيقة ، متواضع وسط كبريائه العظيم ، طبع ووثاب ، متعصب ونادم ، مهروطق ، ينتكس ويعترف ...

إذا كان جان - فرنسوا شامبوليون هو الذى سار من خطأ إلى حقيقة ومن طريق خطأ إلى آخر يؤدي إلى النور إلى أن نجح فيما فشل فيه آخرون أو اقتربوا من الحقيقة دون أن يدركوها فذلك لأن أحداً قبله لم يكن يمتلك الثلاث خصائص التى لا غنى عنها لحل اللغز : كان لغويا ومؤرخاً وفناناً . إذا وضعنا فى الاعتبار طبيعة الكتابة المقدسة وعلاقتها باللغة القبطية وتشابهاها ببعض اللغات الشرقية الأخرى ، وإذا وضعنا أيضا فى الاعتبار دورها فى العصور القديمة جداً وقبل كل شئ الثلاثين أسرة والثلاث أمبراطوريات التى يتكون منها تاريخ مصر الفرعونية ؟ وإذا وضعنا أخيراً فى الاعتبار جمال هذه الحروف والعناية التى حفرها بها الكهنة والكتبة فلا بد أننا سنجد أن ما يحرك الباحث هو إعجاب وتدقيق جمالى لانهايان فى تعامله مع الهيروغليفيات التى هى نحوت من أجل الآلهة والملوك والأهم من ذلك أنه كان قادراً - لأنه رسام ممتاز - على نقلها رسماً .

رأينا شامبليون يناضل بكل قوته منذ طفولته الأولى يخزن اللغات ويقارن بينها ويقارن بين كتابة وأخرى من العبرية إلى العربية ، من الفارسية إلى السريانية ومن الكالدانية إلى الأثيوبية وعلى وجه الخصوص القبطية بل بلغ به الأمر أن استخدم أبحاثه فى مجال اللغة الصينية فى بحثه هذا .

كما أننا رأينا مدرس التاريخ الشاب فى جرونوبل يكس ويقارن (بمساعدة أخيه صاحب كتاب **حوليات اللاچيد** * بين التواريخ والأزمنة وبين أسماء الأسرات والميثولوجيات المقارنة : إن المرء لا يتعامل لسنوات طويلة مع مراجع الاسكندر وكليوباترا وقمببيز وقيصر دون أن يعطى ذلك لتظيره وأذنه وحواسه المشدودة حدةً وعبقرية خاصة .

كما أننا رأينا فى النهاية العناية والاعجاب الذى كان يفحص بها ويدقق ويطلب

* ملوك - معروفون أكثر بتسمية البطالة . وهم سلالة لاجوس زميل الاسكندر . (المترجم)

من صديقه دوبروا رسم قطع هذه المجموعة الأثرية وتلك وكيف كان يجرد الكنوز التي ضمها متحف مكتبة جرونوبل الصغير . فى حالة غياب مثل هذا الحس الجمالى هل كان يمكنه أن يكتشف النور ؟

يجب أن نضيف إلى كل هذه الايجابيات بعض مصادر القوة الأخرى التى حدثت بالمصادفة وعضوته عن بعض السلبيات التى أخرت حتى ذلك الحين باحث فيجاك وجرونوبل وهى ندرة المستندات وعدم دقة الصور أو الرسومات المنقولة عن الأصول ؟ ففى ذات اللحظة التى بدأ فيها شامبوليون ما يمكن أن نسميه إنطلاقة الحاسمة كانت تخرج من مصر روائع باعداد تفوق تلك التى خرجت منها فى عصر الرومان أو إبان حملة بوناپارت .

مجموعة من « جامعى التحف » اذكىاء وچسورون : قنصل فرنسا دروفيتى وقنصل انجلترا سولت ومواطنه بانكس وبعض الرحالة الأقل أنانية مثل عالم التاريخ الطبيعى الفرنسى من مدينة نانت : كايو أو المهندس المعمارى جان - نيقولا هويو (الذى سيكون دوره حاسما فى قصتنا) كل هؤلاء راحو ينزعون قطعة قطعة أجزاء من المشهد الثقافى المصرى الرائع : لوح وتمائيل وتوابيت - ثم بعد قليل مسلات كلها ذهبت عن طريق البحر تشرى مجاميع المتاحف الأوروبية الكبيرة من تورينو إلى لندن ومن فلورانس إلى باريس .

كانت قرصنة مخجلة . ولكنها أيضا عملية تجميع مستندات مفيدة . إذ بدون هذه السرقات المنظمة التى أثرت الرجال المعينين من حكوماتهم الأروبية لحماية رعاياها لا لينهبوا البلد وتراثه لكان جان - فرنسوا انتظر فترة أطول بكثير ليحل اللغز . ألم يكن حجر رشيد ذاته الذى هو المفتاح - ثمرة سرقة مزدوجة - إذ وجد القناص الفرنسى من يصيده .

ابتداء من عام ١٨١٦ أفادت دون شك الموجة الثانية من « مجموعات التحف » التى أدارها دروفيتى وسولت وبنفذا بلزوني « جبار مدينة بادوفا الإيطالية » الذى كان فى إمكانه تحريك قارات بأكملها والتى لم تقاومه سوى الأهرامات - هذه الموجة الثانية أفادت دون شك أهداف الباحث : إذ لولا المسلة الصغيرة التى انتزعتها بانكس من قبلة ولولا بردية كازاتى التى اشتراها بلاط فرنسا ولولا الرسومات التى رفعها هيو ، لتأخرت مصر دون أى شك فى « التطق » .

قد نتأسى إذا تمكنا من التمييز بين الإكتشاف العلمى للشرق وبين غزوه المادى والعدوان العسكرى عليه وتقطيعه إربا وسرقة تراثه . هذا غير ممكن .. وعلى الرغم من الجهود التى تمكن شامبوليون من بذلها فيما بعد وهو أرض مصر من أجل ابقاء التحف فى مكانها * الذى شيدت عليه قبل ذلك بأربعين قرنا ومهما كان أوجوست مارييت هذا المحافظ الحقيقى مفيداً بعد ذلك إلا أننا يجب أن نقر أن مصر لم تبح بأسرارها بالتعذيب ...

هل نؤرخ لبداية المرحلة النهائية لحل شفرة الهيروغليفيات بالنسبة لجان - فرنسوا شامبوليون بتاريخ إقامته فى باريس فى ٣١ يوليو ١٨٢١ ؟ أم بشهر مايو السابق عندما طبع فى جرونوبل كتيباً من سبع صفحات وست لوح يتضمن المبادئ الأساسية لدراسته عن الكتابة الهيروغليفية - التى هى تبسيط نبيل للكتابة المقدسة : أم نؤرخ لها بالمحاضرة التى ألقاها عن نفس الموضوع فى شهر أغسطس ١٨٢١ أمام أكاديمية المخطوطات والآداب تلبية لدعوة من أخيه ومن مسيو داسييه .

كل ذلك لا يهم . إنما المهم هو أنه فى صيف هذا العام ١٨٢١ - أى قبل سنة من صرخة « وجدتها » ١ - قدم « أول تجميع للنتائج النهائية الأكثر خصوبة » (3) . فقد أثبت بعد دراسة متأنية ودقيقة لكتاب الأموات والعصور المنقولة فى وصف مصر وهو يقارن علامة بعلامة بصورة بصورة إن الكتابة الهيروغليفية « ليست سوى تبسيط للمنظومة الهيروغليفية » وأنها لا تختلف عنها سوى بشكل العلامات « ويجب النظر إليها على أنها اختزال للهيروغليفية » . عن الكشف المقارن الذى أعده فى هذا الصدد والمتضمن ٣٠٠ علامة كتب هنرى سوتاس بعد ذلك بمائة عام يقول : « إنه لشئ مدهش اليوم ألا نجد فى هذا الكشف سوى هذا العدد القليل جداً من الأخطاء » (4)

هكذا يكون المبدأ الأساسى لوحدة - أو على الأقل لصلة القرابة القوية بين - طرق الكتابة المصرية الثلاثة - قد تحدد فى أغسطس ١٨٢١ ولكن إذا كان هذا الاكتشاف قد غدا أحد الأسس التى سيقم فوقه شامبوليون عمله فإن تطبيقه على نص رشيد بدأ غير فعال لفترة طويلة إذ يقول المتخصصون أن نقاط الالتقاء بين شكلين لذات النص بنفس اللغة قليلة للغاية . ويرجع ذلك مثلاً إلى تبديل مكان أحد المنطوقات أو تعديل فى الشكل الإملائى . وفى هذا الصدد يلاحظ هنرى سوتاس على سبيل المثال

* علماً بأنه أحضر بعضاً منها إلى باريس .

أن اسم الإله العظيم بتاح يكتب ابجدياً فى الهيروغليفية ولكن بغير ذلك فى الديموطيقية ... وهكذا اتضح أن نقاط التشابه التى اكتشفها يانج بان طابق بين النصين تناقضت باستمرار مما تسبب فى حيرة الباحثين الذى كانوا يتحسون طريقهم بتلك الطريقة .

التوصل إلى المبدأ الهام حول وحدة الكتابة المصرية لم يجنب جان - فرنسوا شامبوليون من مغبة الوقوع فى الأخطاء وفى فقدان الطريق الصحيح المتعلق بالجانب الجوهري لهذا الأسلوب فى التعبير . إذ ظلت نظريته مشوشة لمدة عام آخر ولم تمكنه من الوصول إلى ماسيصبح مشاركته الفذة ألا وهو التحليل الداخلى - الطيفى - للكلمات أو لمجموعات الرموز .

منذ أن قام بخطوته الحاسمة فى ربيع ١٨١٨ والتى ضمنها فى خطابه المؤرخ ١٩ إبريل إلى جاك - جوزيف (« لا يوجد فى عملى شعوذة ولا سرية ») مرفقا بها قائمة هامة لتأويل الرموز * - وهو لم يتوقف عن التراجع والتردد فيذهب من تطرف لآخر فيما يتعلق بطبيعة المنظومة الهيروغليفية ذاتها وهل هى ايديولوجية أم صوتية ؟

إذا كان قد تجرأ فى محاضراته أمام أكاديمية جرونوبل فى أغسطس ١٨١٠ أن يعلن بكل الثقة وأكثر مما فعل نيبور أو زويجا قبل يانج أن الكتابة المقدسة صوتية (لفظية) فى طبيعتها فقد تراجع منذ ذلك الحين وتاه لفترة طويلة متجها ناحية التأويل الايديوجرافى أو حتى الرمضى . وهو يعترف فى خطاب ١٩ أبريل ١٨١٨ لأخيه إنه عاد إلى أفكار كليمان السكندرى أى - فى الأساس - إلى الايديوجرافية وها هو بعد شهر واحد يضع بعض « الرتوش » على وجهة النظر هذه : « سأقول لك باختصار أن ترتيب العلامات الهيروغليفية يتبع ترتيب كلمات جملة من اللغة المنظومة . » إلا أنه يؤكد « إن الهيروغليفيات لا تعبر عن أصوات بذاتها » . وإذ به يتوغل فى منطقة ضبابية فيضيف تأكيدين سينقضهما فيما بعد على أنهما غير صحيحين وهو أن الكتابة الديموطيقية سبقت الهيروغليفية وأنها أبجدية بحتة .

بعد ذلك بثلاث سنوات قبيل مغادرته جرونوبل ألقى محاضرة أمام أكاديمية الدوفينيه موصومة بالفكر الايديوجرافى فهو يؤكد فيها أن العلامات الهيروغليفية هى « رموز لأشياء » وليست أصواتا . ونراه فى نفس المرحلة يتوه فى دروب غريبة فينزلق ناحية الرمزية ونحو طرق تأويلية شديدة الغرابة إذ بلغ به الشطط إلى حد كتابة أن

* راجع فصل ٨ ص 320

كلمة بطليموس أنت بوليموس (« حرب » باليونانية) لأن الخرطوش المتضمن اسم الملك به شكل جميل لأسد وبالتالي فلا بد أنه يعبر عن القدرة القتالية ...

لكن سرعان ما سيعود إلى التدقيق العلمى .. وهى المرحلة التى أخذ يتمرن فيها باستمرار على نقل طرق الكتابة الثلاثة من واحدة إلى أخرى ، إلى أن تمكن - طبقاً لما تقوله كاتبة سيرته مدام هارتلوبان ومن بعدها علماء المصريين لوياج - رونوف ونافيل ودولهوفر - من « عمل ما لم ينجح أحد فيه قبله وهو ترجمة نص ديموطيقى رمزا رمزا إلى الهيراطيقية ثم ينقله بعد ذلك إلى الهيروغليفية ⁽⁵⁾ لكن هذه الحرفية الخارقة لم تجد قبولا لدى هنرى سوتاس إذ يجد أن هذا يعتبر من قبيل « الأسطورة الطريفة وليست حقيقة »

يبقى أن نخلص إلى أن فى بداية صيف عام ١٨٢١ كان « صغير » يكسب الأسلحة والذخائر إلا أنه فى المحاضرة التى ألقاها فى أغسطس لا يزال مشبعاً بالتفسيرات الإيديوجرافية ومع ذلك فإن جعبته كانت قد أصبحت حينذاك واسعة وغنية ومتنوعة ومراجعته غدت تزداد ثراءً بسرعة جعلته يشعر بقرب بلوغه الهدف . وأصبح كل ما يكتبه الآن يتم عن ثقة بالنفس منتشية .

وفى نهاية عام ١٨٢١ التى عصفت بها زوابع عديدة ابتداءً من أيام جرونوبل العنيفة حتى سفره قلقاً للإقامة فى باريس (الذى كان بمثابة « الهروب إلى مصر » بالنسبة له) ستهبط على الباحث أحد اللهجمات التى ستضعه على الطريق الصحيح . إذ أنه سيقر - بعد أن أكد على وحدة المنظومة الكتابية المصرية - الاستحالة المادية أن تكون الهيروغليفيات مجرد إيديوجرامات بسيطة .

ففى يوم عيد ميلاده الثلاثين فى ٢٣ ديسمبر ١٨٢١ جاءته فكرة - كيف أنها لم تخطر على بال من سبقوه * وعليه هو شخصياً ؟ - أن يجرّد عدد الرموز الهيروغليفية فى حجر رشيد وكذلك الرموز الديموطيقية وعدد الكلمات اليونانية جرداً دقيقاً . فأصابه الذهول عندما وجد فى مقابل ٤٨٦ كلمة يونانية ١٤١٩ هيروغليفية ⁽⁶⁾ كيف يمكن أن يكونوا إذن إيديوجرافات يعبر كل منهم عن فكره أو اسم أو شئى ؟ ... ثم ذهب فى حساباته إلى أبعد من ذلك محطلاً الجاميع الهيروغليفية فوجدها تنكمش فى ١٨٠ رمزا وبالتالي يوجد فارق دائم بين العلامات والكلمات والمعانى .

* ومع ذلك رأينا كيف أن نيبور قد سجل مثل هذه الملحوظة قبل نصف قرن .

الخلاصة التي فرضت نفسها هي أن هذه الكتابة لا يمكن أن تكون رمزية أو إيديوجرافية فقط ولا أبجدية بمعنى الكلمة ولكنها يجب أن تكون صوتية أو على الأقل تتضمن عديداً من الرموز من ذلك النوع . وهكذا قام جان - فرنسوا شامبليون باستخدامه الطريقة الحسابية البحتة ، وهي في متناول أى دارس لكتب الأقدمين ، بخطوة حاسمة أخرى بعد الأولى المتمثلة في إثبات صلة القرابة التي تجمع الكتابات الثلاثة وهذه الخطوة الجديدة هي التعرف على الجانب الصوتي الجزئي للهيروغليفيات * فإذا أضفنا إلى يقينه بأن المنظومة الهيروغليفية - واحدة ونصف صوتية وأبجدية بشكل جزئي - تختزل استخدام الحروف المتحركة فيمكننا أن نعتبره قد جمع جزءاً كبيراً من معدات المشروع الكبير .

يجب بطبيعة الحال تطبيق المبادئ التي تستهدف الوصول إلى إقامة المنظومة - على النصوص المطلوب حلها إنطلاقاً من نقطة البداية التي أتاحتها لتعرفه على اسم بطليموس الذي يدعى يانج أبوته عن حق . سبق أن نكرنا جملة شامبليون التي أكد بها أن أى شخص قام بدراسة جدية للنص الديموطيقي لا يمكن أن يشك في أن الخرطوش يحتوى على اسم بطليموس ، إلا أن المشكلة الحقيقية تكمن في العثور على نسيج هذا الاسم وتحليله وهو الاسم الذي تعرف عليه الطبيب الانجليزي ولكنه لم يفك شفرتة بصورة سليمة .

سبق أن رأينا أن الدكتور يانج جمع في تفسيره لكتابه اسم الفرعون اللاجيدى (البطلمى) الحروف المتحركة والساكنة . والرموز الأبجدية والمقطعية والثنائية المقاطع وبعض الرموز الأخرى « التي لا تعنى شيئاً » : وكل ذلك مجتمعا يقرأ بتوليمايوس

في انتظار إمكانية توضيح النقطة الغامضة المتعلقة بالحروف « التي لا تعنى شيئاً » قام العالم الفرنسى بتصحيح ترجمة زميله الانجليزي على مراحل فلم يحتفظ سوى بالحروف ب ت ل م س . وهو بذلك يعترف بموهبة سلفه في التخمين ويبين حدود فنه . وكان على شامبليون أن يوسع من نطاق تطبيق طريقته حتى تأخذ شكلها العقلى ولكى تتسع .

في يناير ١٨٢٢ وصلت إلى جان ليترون عالم اللغة اليونانية الكبير وزميل شامبليون السابق وأفضل من حلل النص اليونانى لحجر رشيد صورة ليتوجرافية

* التي سبق أن إفترضها نيبور وأكدها زويجا ثم هو نفسه عام ١٨١٠ ومع بعض التحفظات يانج عام ١٨١٨ .

لسلة صغيرة مقامة فى جزيرة فيلة ومخصصة لكليوباترا . كان هذا الأثر (الذى سُمى « إبرة كليوباترة » بسبب صغر حجمه) قد أثار منافسات قوية بين قراصنة الآثار المصرية القديمة إلى أن نقلت فى عام ١٨٢١ إلى كنتجستون هول فى مقر إقامة وليام بانكس صديق الدكتور يانج والذى كان يتشكك كثيرا فى منافسه الفرنسى .

كانت لهذه الصورة الليتوجرافية أهمية عظمى . فهى وإن كانت مكتوبة جزئيا فقط بلغتين لأن النصوص المنقوشة على قاعدتها لا تترجم الكتابات المصرية مثلما كان الحال فى حجر رشيد (الكتابات الأولى * تنقل مناقشة موجهة من كهنة إيزيس إلى بطليموس الثامن إيفرجيت المكنى « السجين » وإلى زوجته وأخته كليوباترا (7) أما الكتابة الأخرى فهى بروتوكلات ملكية) (8) اسم كليوباترا موجود بها بوضوح وقد علم عليه وليام بانكس بالقلم وهو الذى قام بنسخ المستند الذى تسلمه ليترون ومنه إلى يد شامبوليون . تقول مدام هارتلوبان :

« شعر حلال الشفرة برعشة كهربية إيجابية لدى مشاهدته للمستند إذ وجد فى الخرطوش الملكى الثانى اسم كليوباترا مكتوبا تماما كما كتبه هو عندما كان ينقل النص الديموطيقى إلى هيئته الأصلية » (9)

يجب قبل أن نتحول إلى لب الأمور أن نشير هنا إلى أحد الإنتقادات الأكثر ترديدا فى حق جان - فرنسوا من غرمائه الانجليز :

إدعى كل من بانكس ويانج - وكلاهما ضد الآخر - أسبقيته فى التعرف على اسم كليوباترا ويوضح الأول أنه علم بذلك على النسخة المرسله إلى باريس . حدث هذا بالتأكيد !! ولكن ماذا فعل كلا الباحثان الانجليزيان بهذا العنصر العظيم من معطيات البحث ؟ لقد بقى الأصل فى حوزتهما لشهور دون أى فعل أكثر من تحديد مكان الخرطوش حامل اسم الملكة .

أما جان - فرنسوا فهو لم يكتشف ماسة فحسب . لأن ما نعرفه من النتائج التى توصل إليها يسمح لنا بالاعتقاد بأنه لم يكن فى حاجة البتة لمنافسيه الانجليز لكى يتعرف ثم يفك الشفرة ويحلل اسم الملكة وهو الذى سبق أن عاينه فى النسخة الديموطيقية فى البريدية المسماه بريدية كازاتى .

* نقلها من الأصل وهو فى مكانه الأصلى الرحالة النائى كايو عام ١٨١٦ .

بمقارنة الخرطوشين لبطليموس وكليوباترا التقى مرة جديدة فى الاثنين بهذا الاسد الممدد والذي كان مدلوله فى الحالتين هو حرف ل . سبق أن أشرنا إلى الفكرة التى تلح عليه منذ طفولته والتى نتجت عن رؤيته لشكل الأسد المحفور فى واجهة مدفأة منزل الأسرة - وكذلك العلاقة التى أقامها بين اسم الحيوان وأسمه هو . فكتب لأخيه يقول بسعادة : « هذان الأسدان سيساعدان الأسد لكى ينتصر ! »

هل سنكون جديرين بالتصديق إذا أوضحنا هنا أننا بسطنا هنا هذه العمليات ؟ لا أحد يوضح تعقيد المسار الفكرى لشامبوليون بأفضل مما فعل هنرى سوتاس :

« [...] تعرض وضوح رؤيته منذ البداية للامتحان لأن حرف التاء (ط) يختلف فى بطليموس وكليوباترا . لن نعبر بما فيه الكفاية عن إعجابنا بالوسائل الفنية والوثيقة التى استخدمها الباحث لحل الحالات المختلفة [...] أليس ما يميز حلال الشفرة الجيد هو أن يتصرف فيما يخص بطريقة العمل مثلما يفعل بروتيه * ؟ إذا قارنا بين شرح المعطيات المزوجة ك ، س والتبادل بين ر ، ل (نلاحظ) أن الشرح الأول تابع من المقارنة بين ذات الخراطيش بأشكالها المختلفة ، أما الثانية فهى نابعة من المواجهة بين المخطوطات الجنائزية بالخط المرسل وكان لا يزال غير مفهوم والثالثة من معرفة اللهجات القبطية ... » (10)

بالمرة نقول أن حلال الشفرة / بروتيه حقق اكتشافا جديداً ومهماً . فحكاية حرف ت المختلف فى بطليموس عنه فى كليوباترا كشف له أن الكتابة المصرين كان فى إمكانهم الاختيار بين هيروغليفيات مختلفة لتدوين نفس الصوت .. وهو ما يعقد المسألة ... دون أن يتسلل إليه اليأس أشار إلى هذه الأشكال التوأم والمتناقضة باسم ال « هوموفون » .. وهكذا انفتح الطريق من جديد .

وعندئذ أصيب بحالة من النهم سيطرت عليه . أخذ يكتشف . من خرطوش لآخر جميع أسماء الملوك الذى خمن جان - باتيست بارتيليمى ببراعة أنها توضع فى هذه الأطر البيضضوية المجيدة . وها هى أسماء اسكندر وقيصر تيبيريوس وجيرمانيكوس دومينيسيان وتراجان تندفع من وسط المخطوطات كما كانت تفعل فى زمن مضى من كتب الأب دوسار - ثم يكتشف كلمة أوتوكراتور - وهو لقب امبراطورى يرتبط باسم قيصر وهو الذى سيسمح له بضمهن على التوالى إبداعات يانج الذى قرأه أوسينويه ومؤيدى التاريخ المطول لرسم الأبراج الذى جعلهم يقرون بوجود اللقب الامبراطورى

* بروتيه أحد آلهة الميثولوجيا اليونانية منحه أبوه يوسيدون إله البحار ملكة النبوة وقرائة المستقبل وكذلك الظهور فى أى شكل يريد (المترجم) .

الرومانى على معبد دندره فوجدوا أنفسهم فى موقف صعب حتى يؤرخوا له باثنى عشر قرناً قبل الميلاد * .

كان هذا الاختراق داخل التاريخ الجريكو رومانى وهو يروى بالهيريوغليفية مثيراً لدرجة أنه شده نحو خلاصة خاطئة . وهى أن الكهنة المصريين لم يكونوا يستخدمون الهيريوغليفيات الصوتية سوى عند كتابة أسماء الملوك الأجانب . وسنرى أن هذا الخطأ سيصبح نقطة انطلاق فى كتابه « رسالة إلى مسيوداسييه » وسيسيطر على فكره لبضعة شهور وأنه لن يتخلص منه سوى على مضض شديد .

بوجه عام كونت له مقارناته بين مضامين خرطوش كليوباترا وبطليموس رأسمال أساسى مكون من اثنى عشر رمزا : ب ت ل م س ك ن ر ا اى أى أو ** تم تحديد مكانهم والتعرف عليهم ووضع مداليلهم الحقيقية ومعانيهم . بقي بعض الحروف الغريبة التى أعطاها يانج وهو يقرأ فى إرتباك اسم بطليموس - « القيمة لاشئ » ...

وجد الإجابة على هذه المشكلة المحيرة فى يوليو ١٨٢٢ بمناسبة الجدل الدائر حول الزودياك مع جومار وبيو . إذ لاحظ وهو يرقب المجرات التى تزين الأثر الفلكى الصغير المتأخذ من معبد دندره كما يقول دويلهونار « أن خلف بعض أسماء النجوم المكتوبة بالهيريوغليفية برسم نجمة صغيرة . نجمة صغيرة خلف اسم النجمة ؟ وفجأة سطع النور . فيقر بوجود ما أسماه بالحروف determinatif وهى رموز صامتة تضاف إلى نهاية الكلمة لكى تميز بدقة أكبر مجاميع تكتب بنفس الإملاء ولكنها مختلفة صوتياً . إن هذه الرموز تعتبر عاملاً أصيلاً فى المنظومة الكتابية المصرية فى مجملها . »

إذ نجد على سبيل المثال فى العديد من الخراطيش وخاصة خرطوش كليوباترا رسماً لبيضة مائلة : وهو رمز للمؤنث . وكذلك بالنسبة للنباتات إذ يشار إليها بساق نبات مثله يعلوها تويج زهرة والحركة يشار لها بالرجل الذى يأخذ شكل ساقى رجل يمشى .

هذا الـ « determinatif » يمكن نعطيه لشامبوليون ذاته ! فهو يسير بخطى عملاقة نحو الهدف . كل أسبوع يكتشف جديداً .. إلا أن مايدھشنا فى هذه المرحلة هو صمته .. ذلك لأن هذا السباق الرهيب لا يكشف عنه للججمهور سوى نقطة نقطة وفى

* راجع ص 390.

** واضح طبعاً أنه ليس نظاماً بدون حروف متحركة .

أكثر الأشكال حرصاً . لقد تعرض لكثير جدا من الضربات حتى الآن ومزاجه الجاسكونى تسبب له فى مشاكل كثيرة مما يدفعه إلى عدم كشف بطارياته قبل أن يكون على ثقة كاملة بنفسه .

المقال الذى نشره فى يوليو ١٨٢٢ فى المجلة الإنسيكلوبيدية بخصوص مسلة فيله والتي تسببت فى اغصاب وليام بانكس - لفت كلماته بالكثير من الحيطة وهو لا يعرض فيه سوى سلسلة من الافتراضات . وعندما نعرف ماذا كان حينذاك فى يده ونقارنه بما أخرج به إلى العلن فإننا نقول لأنفسنا أنه لفترة ما تغلب « المزاح الدوفينى » الذى تكلم عنه ستاندال قد كتم داخله النزعة الفرسانية المتهورة .

ولكن ها قد حان موعد مقابلة عظيمة سيضطر فيها أن يرفع القناع ويكشف عن لب القضية . فى ٢٢ أغسطس ١٨٢٢ دعى من أكاديمية المخطوطات والأدب إلى تقديم أعماله عن الكتابة الديموطيقية - وهى الكتابة الوسطى فى حجر رشيد والذى يسميها يانج « أنسكوريال » . هذه المحاضرة لم تنشر علماً بأنها أدت كما سنرى دوراً هاماً فى حياة شامبليون الصغير المهنية . لعله أعتقد أنها تتضمن تقريبات أو أخطاء كثيرة بحيث لم يسمح بنشرها . وعلى العموم فقد كتب لأخيه :

« الهيراطيقى * فقط هو الذى فى وضع الكمال ، وإن يكون أبداً أفضل مما هو عليه اليوم بعد عشر سنوات . إلا أننى أفكر فى إعادة بناء كل الديموطيقى بشكل أكثر تطوراً وعمقاً أنتظر رأيك »

وهو بالفعل سيراجع عدداً هاماً من النتائج التى عرضها فى محاضرة ٢٢ أغسطس ١٨٢٢

« الكتابة الديموطيقية مثل الكتابة الهيروغليفية وأيضاً مثل الكتابة الهيراطيقية كانت أيديوجرافية بطبيعتها . إن الرموز البسيطة التى تكونها مأخوذة دون أى تعديل من المنظومة الهيراطيقية . هذه الرموز البسيطة لدى مرورها إلى الكتابة الديموطيقية كانت فى كثير من الأحيان تتداخل طبقاً لقواعد خاصة بهذا النوع من الكتابة وهو ما يميزها فى الأساس عن الأوليين » .

هل كان أقل ما فى محاضرة جان - فرنسوا شامبليون جودة هو التأكيد على الجانب الإيديوجرافى لهذه الكتابات - وموضوعها كان عن الكتابة الديموطيقية ** مما جعل الحضور يستقبلونه بحفاوة كبيرة على الرغم من أن هذا

* بمعنى دراسته هو عنه .

** كان هذا ملخصاً فقط : أما الكتيب المكتوب فهو يتضمن ما يقرب من مائتى صفحة .

الحضور كان فى الأصل متحفزاً ضده حتى أن بعض النظرات كادت تخترق جسده . وما أن عبر فى نهاية المحاضرة عن وعده بأن يعود بعد فترة وجيزة إلى مستمعيه الذين دعاهم مسيو داسييه ليعرض عليهم حصاداً أجد وأغزر حتى دهش للغاية بأن رأى الجمهور غير الودى تجاهه من حيث المبدأ يعبر له عن تأييده الحار .

ساسى ذاته ، ساسى بوجه الخصوص وقف ثم تقدم نحوه وأخذ يديه بين يديه وانهال عليه بالمديح السخى . وعلى الفور اقترح نشر نص المحاضرة على حساب الدولة هل وضع هذا حداً للحرب ؟

كانت فى جميع الأحوال بداية هدنة ستتضح لتصبح سلاماً فى البداية ثم حلفاً فى النهاية . كان هذا الحدث مؤثراً للغاية فى حياة الباحث المهنية لأن عداوه سيلفاستر دوساسى لم تجرح أحساسه المرهف فحسب منذ عشرة أعوام ولكنها كانت تؤثر سلباً عليه على المستوى العلمى وتحد من حركته وتثير ضده الحزب « الانجليزى » . تبدد الغيوم هذا فى صيف ١٨٢٢ سيسهم فى التفتح القريب لجان - فرانسوا شامبليون .

رأينا كيف أن هذا المديح لم يغشى وضوح رؤية الباحث ... إذا كان « الجيزويت » يصفق له بكل هذه الحرارة ألا يرجع ذلك إلى أن المحاضر فى حديثه عن الكتابة الديموطيقية بدا وكأنه يغير فكره عن التفسير الفونيتيكي الصوتى للمنظومة المصرية ويعود إلى فكرة الإيديوجرافية التى يتمسك بها ساسى ؟

سنقرأ فيما بعد فى « ملخص » شامبليون :

« بقيت باصرار على هذا النهج الخاطىء إلى أن أجبرنى وضوح الحقائق إلى الإقرار بالمدلول الصوتى لمجموعات كثيرة من الهيروغليفيات الموجودة فى المخطوطات التى تغطى الآثار المصرية فى كافة العصور » .

فى بداية سبتمبر ١٨٢٢ كان شامبليون الصغير قابلاً فى المخزن / المكتب بالدور الثالث فى شارع مازارين وهو فى حالة نشوة ومحموم مثل أحد ملاحى كرسنوفوس كولومباس وهو يقترب من شواطئ الهند ، وراح يجمع العشر أو الأثنى عشرة معطيات أساسية التى جعلته يجمع اشعة الضوء ويركزها بإصرار وعناد لى يحقق الاختراق النهائى الحاسم .

أن تكون اللغة القبطية هى لغة تخاطب الآلهة أنفسهم وكذلك الملوك والكهنة الذين بدأت كتاباتهم تتكشف له - فهذا ما نعرفه منذ زمن كيرشار . ولكنه - أى جان

فرنسوا - قد تعلم الكلام « باللغة المصرية » كما يتكلم لغته الأم . وأصبحت عادية بالنسبة له لدرجة أنه كان يتكلم بها وحده ولذاته لإسعاد نفسه . كان هذا من الإيجابيات الرئيسية كما سنرى .

وهو إذا كان يتكلم القبطية مثل أحد الكهنة المسيحيين فى وادى النيل فهو يتدرب منذ سنين طويلة على نقل نص من طريقة كتابة إلى أخرى فى الثلاث كتابات الفرعونية. إن حرفيته فى هذا المجال حتى لو لم تصل إلى الدرجة التى يطلو لدام هارتلوبان أن تمتدحها فهى فى جميع الأحوال لا مثيل لها . سهولة حركة اليد تساوى حركة الكلام .

إنه اكتشف أو هضم الخمس أو الست مبادئ أساسية التى ستسمح له بالسيطرة وترتيب وتنظيم إكتشافاته المقبلة . أولاً أن الطرق الثلاث للكتابة ومنها اثنتان مستخدمتان فى حجر رشيد تكون منظومة وحيدة ومتماسكة علما بأن الكتابة الهيراطيقية والديموطيقية لا تختلفان بتاتاً سوى فى الشكل الهيروغلىفى الأسمى .

ثم أن الهيروغليفيات لها قيم صوتية وايدويجرافية وأن الأصالة العظيمة لهذه المنظومة تكمن بالذات فى هذه الثنائية المشتركة وتظهر فى كل لحظة فى العملية التعبيرية وتتطلب من الذى يفك شفرتها مجهوداً مستمراً من التركيز والتجميع بين الصور والأصوات إذ أنها متداخلة على الدوام .

وأخيراً أن أسماء العلم من أصل أجنبى (يونانى ورومانى بوجه خاص) تكتب بشكل هيروغليفى بحروف أبجدية أو أبجدية ومقطعية فى آن واحد أو رمزية - وذلك يجعل هذه المنظومة طبيعية للغاية ولكنها معقدة أيضاً للغاية .

وقد اكتشف أيضاً أن الكثير من العلامات يمكنها أن تأخذ نفس الدلالات من نص لآخر فى حين أن علامات أخرى ليست لها سوى وظيفة صامتة تهدف إلى الإشارة إلى التفريق أو تحديد الطبيعة أو الوظيفة أو جنس الشخص أو الشئ الموضوع فى الاعتبار وهو يعرف فى نهاية الأمر أن الحروف المتحركة لا تؤدى فى هذه الكتابة سوى دوراً بسيطاً يقترب من العدم مثلما هو الحال فى العربية أو العبرية .

تأسيساً على هذه المعطيات العامة التى هى ثمار حوالى خمسة عشر عاماً من الدراسة * بدأ عملية فك الشفرة المنظمة معتمداً على الإثنى عشر رمزا التى كشفت

* ١٨٠٧ - ١٨٢٢

عنها خراطيش العاهلين البطلسيين . ما أن كشف وطبق المبدأ المحرك للمنظومة بمعنى التداخل الوثيق والدينامي للمصور والمسموع يمكن حينئذ القول إن لم يكن شامبوليون قد إكتشف عمليا لغز الهيروغليفيات (11) لأنه سيعبر من إكتشاف إلى إكتشاف تالي فعلى الأقل أنه مهد الطريق نحو الحل الشامل .

هنا يكمن الفرق الجوهرى بين الباحث القادم من جرونوبل وطبيب لندن اللامع . هذا الأخير يتحرك مثل الصاعقة من علياء صحابته المضيئة يلقي هنا وهناك بسهمه ويقذف ببرقه فوق هذه البقعة أو تلك ذاهبا من حدث إلى صدفة ، من كشف صغير إلى فكرة تقريبية معطيا للحدس براءات الأوسمة . أما الآخر فهو يجمع الأسلحة من على الأرض ويجمع ترسانته ويسير من معرفة إلى إكتشاف - ينسحب من نقطة ما ويجمع حينذاك قواه بعد توقف يعيد فيه النظر ولا يكتفى أبداً باللف حول العائق بل يهاجمه ويحدهد ويسويه بالأرض . يذهب من المعرفة إلى العلم بواسطة المنهج .. وذلك لا ينفى الإلهام أو ضربات الحظ .

يوم ١٤ سبتمبر ١٨٢٢ صحا جان - فرنسوا شامبوليون من نومه مبكرا . كل يوم يمر أصبح له قيمة من الآن فصاعدا . فيأتى له بحصاد جديد من المستندات والمقارنات . إذ منذ الاستقبال الحار من الأكاديمية للمحاضرة المحاضرة التى ألقاها عن الديموقراطية أصبح مثل المغناطيس . كل شئ يتركز فى اتجاهه ويذهب نحوه ويدخله وصولا للنجاح . بعد أن كان منبوذا محاصرا وقد وصل تقريبا للحظة اليأس قبل أربعة عشر شهرا ها هو الآن وقد هب الريح فى شراعه أو كما يقول العربى الذى بداخله فقد حلت عليه « البركة » .

أصوات الصباح الأولى المتصاعدة من شارع مازارين الهادئ لم تكن لتشتت أفكار الباحث القابع فى مخزنه بالدور الثالث . جاك - جوزيف خرج إلى الإنستيتو المجاور حيث يهيمن على المكتبة . الصباح سيكون خيرا لباحثنا : فقد استلم لتوه صورا طبق الأصل من رسومات محفورة نقلها جان - نيقولا هوييو (12) أثناء إقامته فى مصر والنوبة (١٨١٨ - ١٨١٩ ؟) وهو أستاذ للعمارة فى مدرسة الفنون الجميلة وعضو فى الانستيتو * ومشهور باناقة رسومه وبدقة ملحوظاته . وكانت الرسالة التى

* كان المسئول عن بناء قوس النصر بميدان ليتوال فى باريس ، وكان شامبوليون بنوى أن ينشر معه كتابا مشتركا عن مصر .. إلا أن الفكرة لم ترى النور .

وصلت شامبوليون عبارة عن خراطيش منقولة من « باروليفاف » من معبد أبو سمبل وهو ما يعتبر خبراً مباركاً بالنسبة للباحث الجائع .

أخذ يدقق فى أول مستند من رسومات هيو . برز وسطه خرطوش يرمز بالطبع إلى اسم ملك . أخذ جان - فرنسوا يفرك عينيه . إذ أن المجموعة التى أمامه تتكون أولاً من أسطوانة تشبه الشمس لونها طوبى أحمر ثم شئ مثل حرف له ثلاثة أرجل تعلوه سنبله لها ثلاثة فروع * وأخيراً علامة مزدوجة على شكل مشنقة مستديرة (مثل تلك التى تكمل خرطوشه بطليموس وقيمتها هى حرف س) هذه المجموعة لاتمثل ولا ترمز لأى ملك بطلسى أو رومانى : إذ أن جان - فرنسوا قد اكتشفهم جميعاً . يجب البحث فى اتجاه آخر . فكرة سابقة ؟ محتمل .

لم يصعب عليه إعطاء مدلول س أو س مشدوده للعلامة المزدوجة التى على اليمين (تقرأ الهيروغليفيات كما يعرف سواء من اليمين إلى اليسار أو من اليسار إلى اليمين) ولكن ما هذه الأسطوانة الشمسية التى على اليسار ولونها طوبى أحمر ؟ هل هو شمس : بالقطبية الشمس إسمها رع .. فى هذه الحالة إذا كان الرمز المزدوج الختامى ينطق س أو سيس وإذا كان الأول هو رع فيكفى أن يكون الحرف الوسيط المثلث الأرجل له قيمة الم حتى يكون هو ... ؟ جان - فرنسوا - راح يكتفم أنفاسه .. - أمام خرطوش أكثر الفراعنة شهرة ومجداً : رمسيس ولعله أعظمهم على الإطلاق رمسيس الثانى ... كيف لا يفقدنا هدوءه ! هنا أمام عينيه يحتوى هذا الخرطوش على اسم ملك وادى النيل العظيم ؟ بل أكثر من ذلك ثبت له أن نظريته التى كان يعتقد أنها لا تنطبق سوى على أسماء الملوك الأجانب فى العصور المتأخرة يمكن تطبيقها على أقدم العصور ، أزمنة الأسرات العظيمة لمصر العتيقة ؟ هو الذى كان يحاول أن يخترق الزمن من طريق جانبي ثانوى وجد نفسه مدفوعاً فجأة إلى الساحة الرئيسية أمام بوابة الزمن الضخمة يعبر فى قفزة واحدة القرون الغامضة وليجد نفسه وسط الضوء الكامل . هل هذا معقول ؟ رمسيس ! ...

كيف يتأكد من أن ما يراه ليس حدس تخمينى أو خلط بين رغباته وواقعه العلمى ؟ فمسك بورقة ثانية من مستندات هويو . ها هو خرطوش آخر يضم مجموعة رموز أخرى غير معروفة حتى الآن . مختلف هو الآخر عن الأسماء المتأخرة التى تعود عليها . وراح يتأمل فى عجلة محمومة . إلى اليسار طائر ابييس . ثم نفس الإشارة

* هذا الفرع يصفه علماء المصريات بأنه ثلاثة نيزول لتعلم منك معقودة .

ذات السيقان المثثة والواقفة . والذي سبق أن سجلها فى الخرطوش الذى أرجعه لرمسيس وأعطاه دلالة حرف م - وفى النهاية هذا الشكل الشبيه بالمشنقة أو عامود إنارة الذى يقرأ س فى الخرطيش الخاصة بالملوك اليونانيين والرومانيين وإفتراسيا فى خرطوش رمسيس الأخير .

أليس الإيبيسى هو الإله تحوت العالم ، صافى الذهن مخترع الهيروغليفية ذاته !! . وإذا كانت قراءة هذا الرمز هى تحوت بالفعل والرمز الثانى قيمته م والأخير س أو إس فيكون الاسم هو تحتمس - لعله الثالث المجيد والفتاح . هائل ! نجحت أول مضاهاه والمعجزة تؤكد معجزة أخرى .. ماكان فيه مخاطرة فى القراءة المنفصلة لرمسيس أو تحتمس نقص إلى أقل درجة ممكنة إذا ما أجرينا مقارنة بين مجموعتى الافتراضات فالأولى تساعد الأخرى وتعضد بعضهما ها هو بعد خطوتين متتاليتين سريعتين قد دلف إلى قريى إثنين من أمجد الفراعنة .

يجب ألا ننسى هذا الخطاب الذى حرره فى ٢١ أبريل ١٨٠٩ إلى جاك -

جوزيف :

« لغتى القبطية مستمرة على نهجها السلس وأجد بالفعل سعادة عظيمة فى ذلك فأنت تدرى ولا شك أن السعادة لايمكن أن تكون صغيرة عندما أتكلم لغة أعز أعزائى امينوفيس الثالث وسيتوزيس ورمسيس وتحتمس ... * »

وها هو الآن لا يكتفى يستمرى نطق أسمائهم كما لو كانت قطعاً من الحلوى فحسب بل إنه يتعرف عليهم بعد ثلاثة عشر عاماً ويقراًهم أيضا !! لا يمكن أن يكون على الأرض إنسان أكثر سعادة من جان - فرنسوا فى صباح ذلك اليوم
١٤ سبتمبر ١٨٢٢

كريستوفر كولومبس كان يأمل فى الوصول إلى شواطئ الهند وإذ به يكتشف جزر الهند الغربية وإن يتمكن من تحديد مكانها بدقة أو حتى تسميتها .. وشامبوليون كان يجتهد لحل شفرة اللغة الهابطة نوعياً لآخر عصر الأسرات فى وادى النيل باعتبارها جسراً نحو معرفة الفترات التاريخية العظمى فانعطف ليجد نفسه فجأة عند قمة الحضارة المصرية . مهما كان تصويبه عاليا ومهما كانت جسارته طموحة فهو لم يحلم قط بالوصول إلى كشف مبهر ومباشر وكامل على هذا المستوى . إنه بالفعل أمام نظام ليس مزدوج بل ثلاثى إذ أن الهيروغليفيات تعنى فى ذات الوقت وبالتاب أصواتا

* انظر ص 182

وأفكاراً وهذه الأخيرة تتمثل فى معنى حقيقى أو مجازى . رع وتحوت ، شمس وطائر إيبيس تشاهد فى حين أن م و س هما حروف أبجدية ، تسمعان . وغلاوة على ذلك فإن المجموعة المكونة من م س فلها معنى وهو : « ولدته » . المنظومة أصبحت الآن كاملة تماماً .

يعيش جان فرانسوا منذ أربع أو خمس ساعات حالة شديدة من الانفصال والقلق تصعب السيطرة عليها . فقد أجبر نفسه باصرار على التجربة والمقارنة إلى المراجعة فى المستندات التى حصل عليها من هويو للتحكم والسيطرة على الانفجار النورانى العنيف .. لم يعد يتمالك نفسه . كيف لا يحيط علما الشخص الذى شاركه آلامه وصاحبه أو أرشد خطاه بالخبر العظيم ؟

قبيل منتصف النهار اندفع حلال الشفرة (أخيراً يستحق بالفعل اللقب !) وفى يده مجموعة أوراق على السلم إلى شارع مازارين وبخطي سريعة وصل إلى مكتبة الأنستيتو / المعهد . ودفع الباب إلى مكتب جاك - جوزيف وهو يصرخ : « تمكنت من الحل » ثم - حسبما تقول الأسطورة التى يسردها ابن أخيه ريميه ومن كثرة ما تتردد أصبحت تتمتع بقوة القانون التاريخى - إنهار فى حالة من « الإغماء الصرعى » *

أن تكون هذه الأغمائة قد استمرت لعدة ساعات أو لعدة أيام (؟) - أسطورة أخرى - المهم هو أن تبيض مسودة الملاحظات العظيمة التى قام به جان - فرانسوا شامبوليون فى ذلك الصباح قام به بقدر كبير أخوه الأكبر . تابع جاك - جوزيف أبحاث أخيه خطوة خطوة وسطر سطر . وإذا كانت هذه المرحلة الأخيرة تكتسى أهمية أكبر بل قد تكون من نوعية مختلفة إلا أنها كانت مألوفة له . وطبقاً لما يذكره ابنه ريميه فإن المسودة الأولى لما سيطلق عليه اسم خطاب إلى مسيو داسييه والمحرر فيما بين ١٤ و ٢٢ والمؤرخة ٢٥ وتليت أمام الأكاديمية يوم ٢٧ كانت بقلم جاك - جوزيف .

ولكن حذارى ! فبسبب الحيلة المتناهية بل وأكثر من ذلك بسبب الدقة العلمية

* توجد عدة تفسيرات لهذا المرض الغريب . منها أنها « كوما المرض السكرى » وعندما استشار المؤلف الدكتور لوبيتكي استبعد هذا الفرض . لأنها إذا كانت على الشكل الموصوف وفى تلك الظروف فلا يمكن أن يخرج جان - فرانسوا منها حياً . وفى رأى هذا المتخصص المرموق قد تكون الحالة من حالات الناركوليبيا الخدار (حالة مرضية تتميز بنوبات نوم عميق قصيرة ومفاجئة تتوأكب مع فقدان العضلات لقوتها) إلا أن هذه النوبات لا تدوم أكثر من عشرين إلى ثلاثين دقيقة ... وإذ ذلك فهو يرى أن مصدر هذه الحالة يرجع على الأرجح إلى سبب نفسى عصبى أكثر منه متعلق بالأوعية الدموية . إلا أن أى تشخيص لا يمكن أن يكون سهلاً بالنظر إلى عدم الدقة الأسطورية الذى يتسم به هذا الحدث .

لحلل الشفرة فإن المحاضرة المشهورة التي استمع إليها كل من سكرتيرها الدائم وأقرانه لا تعكس بشكل مباشر ما حدث من معجزة صبيحة ١٤ سبتمبر ويكفى أن نقرأ نص موضوع الخطاب إلى مسيو داسييه عن الأبجدية الهيروغليفية الصوتية التي استخدمها المصريون لتحرير ألقاب وأسماء وكنيات الملوك اليونانيين والرومان على أثارهم فنلاحظ أن العلاقة ضعيفة للغاية بين « يوريكا » (وجدتها) ! في ١٤ سبتمبر وما سيتم إبلاغه للمجتمع العلمي بعد ذلك بثلاثة عشر يوم . ويجب الانتظار نهاية نص الخطاب قبل أن نقرأ أن الكتابة الصوتية لم يخترعها الكهنة المصريون لكتابة أسماء الملوك اليونانيين والرومان ولكنها أختُرت « في فترة متأخرة للغاية » . لا إشارة واحدة إلى رمسيس أو تحتمس ...

يثير الدهشة هذا الجانب من عبقرية هذا الجنوبي المتحمس والمبالغ والمتهو . والذي يستطيع مع ذلك أن يحتفظ لنفسه بالجانب الأساسي من اكتشافه الذي هزه . زأ كما هز مجال المعلومات الذي تجول فيه لفترة طويلة . فهل يمكن أن نتصور بورتين مثلاً أول من يعود بعد اكتشافه منابع النيل ويكتفى بأن يعلن أنه وصل إلى الشلال السادس .

لم يتمكن أحد من إيجاد شرح مقنع لتحفظ حلال اللغز .. ذكر بعضهم الدقة العلمية كسبب .. إنه بالفعل سبب وجيه إذ أن بضعة ساعات من المقارنات بل وبضعة أيام فيما بين ١٤ و ٢٢ سبتمبر قد تبدو غير كافية لهذا الزوج من علماء اللغة . وكان سيل المستندات (والأثار ...) قد بلغ درجة جعلت جان - فرنسوا محقا في أن يعطى نفسه فترة زمنية للتفكير . ولكن يجب أن يكون المرء واثقا للغاية من نفسه (في هذه الحالة نكون بصدد غرور أكثر من كوننا أمام حالة . حذر ؟) لكي يحتفظ بهذا الكشف تحت إبطه .

نرى في هذا الإخفاء المغرور والمتعقل نوعاً من التحية لهذا الشرق المحجب وإلى هذا السر الذي ظل محفوظاً لكل هذه الفترة الطويلة ولهذا الكتمان * (كذا) والذي أجاد ماسينيون في الحديث عنه . كما هو تحية لسر هؤلاء الأموات الذين دفنوا رفات الملوك - الألهة تحت أضخم تراكم من الأحجار تمكن الرجال من تشييده وختم مقابر الفراعنة إلى الأبد ... إن السر الذي احتفظ به من مسه الإلهام فأصبح المكتشف هو رمز عظيم من المشاركة مع العالم الذي أفضى سره .

باختصار نقول إن الشقيقين شامبوليون : واحد يملأ والآخر يدون - ولعله أيضا

* بالعربية في النص الأصلي [المترجم] ويشرحه المؤلف على الهامش : بأنه حق الإخفاء الذي يلجأ إليه المؤمنون وخاصة الشيعة في علاقاتهم بالسنة من أجل سلامة مجتمعاتهم .

يشارك بأسلوبه الشخصي فى أناقة النص المكتوبة به الرسالة أخذاً يعدان على عجل المحاضرة - ولو أنها كانت محدودة الحجم سواء للأسباب التى ذكرناها للتو ولأن الأكاديمية لا يمكنها أن تمنح للباحث الشاب سوى ساعة واحدة فهى مع ذلك ستكون بمثابة بيان رسمى بميلاد علم جديد : إذ حل علم الاليجيتولوجيا محل ما كان يسمى بالاجيتوبوجرافيا .

احتاج إعداد النص وطبع بضعة عشرات من النسخ لتوزيعها على الحضور المتوقع وإرسال دعوات لبعض شخصيات أجنبية (مثل يانج وهوميولدت) عدة أيام . وكان يجب أيضا اختيار الأشخاص الذين توجه لهم الرسالة . كانت الرسالة ستوجه فى البداية إلى « سيو البارون سيلفاستر دوساسى رئيس الأكاديمية » . إلا أن جان - فرنسوا هو الذى قرر أنها ستوجه لا إلى المعلم الذى أيد آرائه فى مرحلة متأخرة للغاية .. وإنما إلى « الرئيس العزيز » داسييه الذى لم يضمن عليه بالرعاية قط .

وجاء يوم ٢٧ سبتمبر ١٨٢٢ دون فى السجل المكتوب باليد للأكاديمية الملكية للمخطوطات والأدب أن بعد مشاركات عديدة من السادة : دويموزا وجومار وسيلفاستر دوساسى دعى مسيو شامبوليون الصغير إلى قراءة بحث على الهيروغليفيات الصوتية (13) ...

الجو كان ممطرا والصالة مزدحمة . قرأ مكتشف السر الذى كان سيحتفل بعيد ميلاده الثانى والثلاثين بعد ثلاثة شهور . الصفحات الثمان التى اختصر فيها كتابه مؤقتا والتى نشرت بنصها فى طبعة أكتوير من صحيفة العلماء Journal de Savants نتصوره وجلاً مأخوذاً فهو الذى وصفته الماركيز دوساييه بأنه غير قادر على « التعبير عن نفسه بسهولة » ولا على « دعم بريق أعماله » . ولكن وباعتراف جميع الشهود كانت المحاضرة مثيرة للغاية .

احتفى داسييه وساسى وريموزا وهوميولدت بالشاب ولكن ماذا عن يانج ؟ كان الطبيب الانجليزى جالسا إلى جوار المحاضر وأخذ موقفاً طيباً بل أنه لم يبخل عليه فى بادئ الأمر بتهانيه * هل هى ثورة ؟ عصر جديد ! إنه لم ير الأشياء على هذه الصورة بل على أنها تكملة لأعماله هو قام بها شاب موهوب . كتب إلى وليم هاميلتون - الذى انتزع حجر رشيد من الفرنسيين - : « حتى لو أنه استعار مفتاحاً إنجليزياً فإن

* سنرى فى الفصل التالى ماذا كانت آراءه الخفية .

المزلاج كان صدهاً لدرجة مخيفة لا يستطيع أى ذراع عادى مهما كانت قوته من إدارته فيه [...] إن حياتى تبدو كما لو أنها طالت بالحصول علي مساعد أصغر سناً .. « بعد ذلك ستتغير اللهجة والأغنية ذاتها أيضا . أما فى الوقت الحالى « فالسعادة المحلقة (اليوفوريا) « هى السائدة .

بعد بضعة أيام أمكن لجان - فرنسوا أن يكتب خطاباً لأخ زوجته أندريه بلان .

« هذا الاكتشاف الذى أعلنت به الانستيتو فى ٢٧ سبتمبر أثار الدهشة وفرض على الجميع حتى أولئك الذين وقفوا بعيداً عنه لأسباب حزبية أن يصفقوا ويؤيدوا . [...] وبعد ذلك بيومين أعلنت الصحف عن الموضوع والشئ الذى أدهشنى وليس بالقليل أن (العلم الأبيض) Drapeau Blanc * كان من أول من تحدثوا عن
(14) « الحاضرة ... »

كتب لاموتير أونيفرسال Le Moniteur Universel عرضاً فى أول أكتوبر . جاء فيه ! « يتضح من الدراسة الأخيرة للأكاديمية أن بعض الهيروغليفيات تكتسى مدلولاً صوتياً . واكتشف مسيو شامبوليون الصغير أبجديتها نقلاً عن الآثار نفسها . الرموز التى جمعها توازى الحروف الساكنة والمتحركة للأبجدية اليونانية . عند تطبيقها على الكتابات الهيروغليفية التى تزين الآثار المصرية تمكن من التعرف بسهولة فى معظمها على أسماء الإسكندر الأعظم وبطليموس وكليوباترا وبيرييس . »

ملاحظة من السيد لوكلان (15) : « عرض الموضوع فى المقال واضح لدرجة أنه يمكن التعرف على العلامة المميزة لآل شامبوليون عليه بشكل بين . « إلا أننا سنسمح لأنفسنا أن نعترض على هذا المعلق العلامة أن صاحب المقال أعطى على الرغم من ذلك إلى « آل يانج » سيات ليضربوا أنفسهم بها بما أن جميع الاسماء المذكورة على أنها اكتشفت من الباحث الفرنسى يدعى غرمازه الانجليز بأنها اكتشافاتهم هم . إننا نعرف اليوم القيمة الحقيقية للحجج المتبادلة . ولكن فى أكتوبر ١٨٢٢ اكتست هذه التفاصيل شكلاً مستقراً بعض الشئ .

نشرت رسالة إلى مسيوداسييه فى نصها الكامل منذ نهاية شهر أكتوبر على يد فيرمان ديدو « صاحب مطبعة الملك والإنستيتو » وصاحب مكتبة بشارع جاكوب - على هيئة كتيب يحتوى على ٤٤ صفحة وأربع لوحات مزينة بصور عديدة .

إن قراءة هذا النص المشهور جيداً والذى يكاد يكون مهملاً فى آن واحد تشير

* من الصحف (اليمنية) المتطرفة

الدهشة أحيانا. فمذ السطر التاسع للصفحة الأولى نقرأ أن الكتابات المرسله المصرية هي كتابات « إيديوجرافية » * مثل الهيروغليفيات ذاتها أى أنها « تصف أفكارا ولا تصف أصوات اللغة » التصحيح لن يذكر سوى فى الطبعة الثانية إذ صحح المؤلف نفسه بأن قال « نصف الأفكار تاره وأصوات اللغة تارة أخرى » وفى صفحة ٣ يأتى ذكر « هيروغليفيات تتمتع بإمكانية التعبير عن أصوات الكلمات مستثنية بذلك الطبيعة العامة لرموز هذه الكتابة » . إن الذى يجعل هذه المرجعية إلى « الطبيعة العامة .. لهذه الكتابة » مثيرة للدهشة هو أن « رسالة إلى مسيوداسييه » تظل فى تاريخ العلوم المرجع الرسمى للطبيعة المزوجة - الصوتية والإيديوجرافية - الكتابة اقدسمة لقدماء المصريين ...

« لا يمكن اعتبار الكتابة الصوتية للمصريين منظومة ثابتة لا تتغير مثلما هو الحال بالنسبة لأبجديتنا . لقد تعود المصريون على التعبير المباشر لأفكارهم ، والتعبير بالأصوات لم يكن سوى وسيلة ثانوية فى كتاباتهم الإيديوجرافية - ثم عندما ظهرت لهم فرص متكررة لاستخدام التعبير بالأصوات فقد عملوا على زيادة نطاقات استخدامها إلا أنهم لم يستغنوا قط عنها على الرغم من ذلك فى كتاباتهم الإيديوجرافية المعتمدة من الديانة ومن الاستخدام المستمر لها لعدد كبير من القرون . »

ويعد أن قدم التحية لاسلافه ساسى وأوكربلاذ ويانج قام جان - فرنسوا شامبوايون بوصف عمليات فك الشفرة التى لجأ إليها بالنسبة لبطليموس وكليوباترا والاسكندر وبيرينس والأباطرة الرومانيين . وخلال السرد أخذ يذكر المبادئ التى أقام عليها منهجه والتى ستعطيه قيمته العلمية :

« ... من أجل التعبير عن الأصوات والمنطوقات ولكى يشكوا بذلك كتابة صوتية أخذ المصريون هيروغليفيات تمثل أشياء مادية وتعبير عن أفكار تبدأ أسماءها أو الكلمات الدالة عليها فى لغة الكلام بالحرف المتحرك أو الساكن الذى يراد تصويره »

* التأكيد موجود فى النص الأسمى .

ثم أخذ يعدد الكلمات القبطية ل**ابوى** (أسد) ويمثلها أسد ممدد له قيمة حرف ل ، هـ . (إناء من الألبستر) حرف ن قوت اليد : حرف ت ؟ ر و ، الفم ، حرف إلخ .

ولكن إلى أى حد يمكنه أن يمسك عن البوح بالسر الذي يكاد يخنقه وهو تطبيق الهيروغليفيات الصوتية ليس على الاسماء الأجنبية المتأخرة فحسب وإنما على أسماء ملوك الأسر التي حكمت خلال مراحل الذروة التي بلغتها الامبراطورية الجديدة ؟ وهو الكشف الذي سقط عليه كالصاعقة فى ١٤ سبتمبر مثلما حدث لذلك الرسول وهو فى الطريق إلى دمشق وهل سيحتفظ به لنفسه حتى النهاية ؟ كلا . ولكن سيفنذف به فى شكل افتراضى وظرفى إلى معشر العلماء ليشغلهم به :

« إنى على يقين من أن نفس العلامات الهيروغليفية - الصوتية المستخدمة للتعبير عن أصوات أسماء العلم اليونانية والرومانية تستخدم كذلك فى النصوص الإيديوجرافية المنحوتة قبل وصول اليونانيين إلى مصر بفترة طويلة جداً وكانت لها فى ذلك الوقت وفى بعض الحالات ، ذات القيمة التعبيرية للصوت واللفظ التى فى الخراطيش المحفورة فى عصر اليونان والرومان . [...] إن تطور هذا الواقع الثمين والحاكم يخص ما قمت به من عمل حول الكتابة الهيروغليفية الخالصة . ولا يمكننى أن أوضح فى هذه الرسالة دون أن أدخل فى تفاصيل مطولة للغاية .

ولذلك فإنى أعتقد ياسيدى أن الكتابة الصوتية كانت موجودة فى مصر منذ زمن قديم جداً وأنها كانت أولاً جانباً ضرورياً للكتابة الإيديوجرافية ...»

يقول « إنى على يقين ... » ثم يمتنع عن تقديم البراهين . فهو لازال يحتفظ بها لنفسه . ولكن لا أحد من المستمعين المعنيين الذين تراحموا فى تلك الليلة داخل قاعة محاضرات الأنستيتوفاته أن يعدد الافتراضات وأن يؤكد الاحساس الذى تولد لديه من أن هذا الشاب لن يتوقف عن هذا الحد . بأن « عمله فى مجال الكتابة الهيروغليفية البحتة » لا زال يخفى العديد من المفاجآت ...

أكثر الأمور لا معقولة هو أن نعتبر هذه الأيام من سبتمبر ١٨٢٢ نهاية بل إن المرء قد يرى أنها فى الواقع نقطة إنطلاق . فمن ١٤ سبتمبر إلى ٢٧ منه لا يقدم جان - فرنسوا شامبوليون كشف حسابه . بل راح يجمع أسلحته وهو فى وقفته أمام الأنستيتو بدا كمالو أنه فى استعراض مثل الذى تقوم به الجيوش قبل انطلاقها إلى ساحة معركة صعبة . فلنقرأ ما يقوله هـ سوتاس : « لقد وجد نفسه بذلك وقد وضع

تحت يده ترسانة لامثيل لها من الوسائل ... سلسلة من الأحداث هي التي أخرت اكتشاف عام ١٨٢٢ منها : عدم كفاية المصادر والحالة السيئة للمواد الأساسية وعدم دقة الكتب المنشورة وتأخر وصول المنسوجات فى حين أن غيره من الباحثين كانت الأصول فى حوزتهم .

لم يتوقف شامبوايون بعد ذلك عن المضى قدماً وكما يقول كاتب تمهيد رسالة إلى مسيوداسييه أن هذا الكتيب لم يكن سوى « مقدمة عمله الضخم » أى ملخص المنظومة الهيروغليفية * والذى سيتقدم به المكتشف إلى المطبعة بعد خمسة عشر شهرا . والرسالة ستدخل جزءاً من الطبعة الثانية للملخص التى نشرت عام ١٨٢٨

ت مع الطبعة الأولى المعطيات العلمية التى أرسلها المكتشف طوال عام ١٨٢٣ إلى أكاديمية المخطوطات والأداب . وسنرى بعد ذلك ** كيف أن المفاجأة التى فجرها جان - فرانسوا فى ٢٧ سبتمبر ١٨٢٢ لم تجعل جميع معارضيه يعدلون مواقفهم منه بل على العكس من ذلك تماماً ما حدث لبعضهم . فيفضل داسييه وأيضاً ساسى الآن . عاد الأنستيتو يفتح له أبوابه إلا أن كل خطوة سيخطوها سواء فى مجال الأبحاث أو فى مجال النشر سيواجه فيها بالعديد من العقبات .

يعتبر الملخص توسعاً وتعميقاً ضخماً لمسيرة شامبوايون . ففضلاً عن السرد التاريخى الذى يقدمه لأبحاثه - ولما أتى به أسلافه ومنهم يانج فهو يؤكد هنا بشكل أكثر وضوحاً على دور « الرموز الهيروغليفية الصوتية » كما أنه يعبر فيه عن أكثر التعريفات عمقاً وإيجازاً لأسلوب التعبير الهيروغليفي ! « إنها منظومة معقدة وهى كتابة تصويرية ورمزية وصوتية فى آن واحد وهى ذات النص وذات الجملة بل أكاد أقول فى ذات الكلمة » . يحتاج الأمر العديد من الأعمال المطولة والدقيقة جداً للوصول مثلاً فعل باسكال وإينشتاين إلى هذا النوع من الصياغة المختصرة الدقيقة .

ومع ذلك فإن جان - فرانسوا شامبوايون لم يكن يعتقد أنه وصل إلى نهاية أبحاثه . بل على النقيض من ذلك فإن ما يتضح من دراسة هذه المرحلة من حياته وهى

* « رسالة إلى مسيوداسييه » ستصبح جزءاً من الملخص أدخل عليها بعض التعديلات .

** أنظر فصل ١٢

التي تبدأ من نشر الرسالة إلى نشر الملخص وتوزيع « البانتيون » قبل سفره إلى إيطاليا هو عمق وكثرة العمل الذي يؤديه ونشاطه المحموم كباحث أيضا ثم كجامع ومستقل لاكتشافاته . إنه كالأعمى الذي استرد بصره وراح يجرى كالمجنون من منظر إلى متحف ومن وجوه النساء إلى مناظر غروب الشمس . إنى أرى ، إنى أقرأ ، إنى تحررت من الخطأ !!

إذا كان كتاب ملخص المنظومة الهيروغليفية لقدماء المصريين قد ظر في الأسواق في يناير ١٨٢٤ على حساب الدولة فإن ذلك يرجع جزئياً إلى تدخل شه عمية غير متوقع ظهورها في هذا الدور كملاك حارس لحلال الشفرة والتي لن يتوقف تدخلها تدخلأ غاية في النفع لشامبوليون طوال العشر سنوات المتبقية له في الحياة .

من ذا الذي كان سيختار - إذا طلب منه أن يحدد من بين عظماء رجال عهد البربون الجديد . الشخصية المرموقة وذات الفكر المحرر من الأفكار المسبقة لطبقته لدرجة إنتشال « رويسبيار جرونوبل » من برائن أمثال موتليفو وهوساز ، ويفتح له جميع أبواب البلاط الملكي والمجتمع - كان سيتجرأ ويختار : الدوق دوبلاكاس ؟ إذ لم يكن هناك أكثر تطرفاً في تفكيره المحافظ من هذا الأثير لدى لويس الثامن عشر ولا أفضل تمثيلاً لمن كان جان - فرنسوا يسميهم « طائفى الأنوار » .

هو بيبار - لويس - كازيمير دو بلاكاس دولبى ، نبيل من الأرياف سليل أسرة عريقة مشهورة جداً وقليلة الثروة في آن واحد وقد تعرف وصادق وهو فى المنفى فى فيرونا الكونت دوبرفونس الذى أصبح فيما بعد لويس الثامن عشر . كان قد قضى فترات من عمره فى سان بيترسبورج وهارتوال وحارب فى فاندى وأصبح فى عام ١٨١٤ وزير البلاط الملكى أى أقرب معاونى الملك . وقد منعتة الشهرة التى اكتسبها بأنه من أكثر الناس تطرفاً - وذلك بناء على طلب الحلفاء - من أن يتولى رئاسة الوزارة . وفيما عدا جيرمان دوستال التى امتدحت عقليته فإن الجميع كانوا يعتبرونه

متعاليا ويدون ثقل ، كما أن شاتوبريان الذى شارك هذا الرأى قد رماه ببعض من
سهامه !

« إن سيد دوبلاكاس يتمتع بالشجاعة والشرف [...] إنه من سلالة عريقة . وهو
ابن أسرة فقيرة ولكنها عريقة معروفة فى مجالس الشعر والسلاح . التزمت الذى يميز
حركاته وثقته الكاملة فى ذاته وتمسكه بدقة الاتيكيث يحفظ لأسياده نبالة عادة ماتتبدد
فى الشدائد [...] خبير على دراية فى بعض مجالات الآثار القديمة ومن هواة الفنون
ولكن دون خيال وفاسق : [...] هدوء أعصابه هو من سمات رجل الدولة لو لم يكن هذا
الهدوء سوى وثوقه فى عبقريته [...] إن المرء يشعر أن النبيل العظيم الذى بداخله قد
أجهض ... (16) »

الواقع أن الدوق دوبلاكاس كان محباً لدراسة الآثار . وقبل أن تتيح له مكانته
كسفير فى نابولى فرصة تجميع آثار يونانية ورومانية وأتروسكية فى مجموعة ممتازة
كان يعطى اهتماماً بالغاً للأبحاث الخاصة بالشرق - وإقامة متحفه الخاص ... لم
يتمكن من حضور الجلسة الأكاديمية المنعقدة فى ٢٧ سبتمبر ١٨٢٢ إلا أن صديقه
الدوق دودوفيل (شخصية ليبرالية سنلقاها فيما بعد) أعطاه عنها تقريراً حماسياً وهو
ما دفع الدوق النبيل إلى العمل على لقاء هذا الجاكوبى الشاب الذى كان مصيره
مطبوعاً بخاتم العبقرية الذى جعل عوالم بكاملها تفتق من سباتها .. مما يجعلنا
نعقد أن « طاقى الأنوار » هذا احتفظ فى داخله بقبس ...

فى يناير ١٨٢٣ فى اللوفر وبمناسبة عرض الآثار التى أحضرها من مصر
القنصل دوقان تعرف كازيمير دوبلاكاس علي كاشف أسرار الهيروغليفية .. لا بد وأن
هذا الأخير قد بغت عندما إضطر أن يعترف أنه وجد فى هذا الذى يمثل قمة الاستبداد
فى التيار المحافظ أحد المعجبين به ثم راعيا له ثم بعد وقت قصير صديقا له . بعد عدة
أسابيع من هذا اللقاء سلم بلاكاس لجان - فرانسوا هدية من الملك عبارة عن صندوق
من ذهب عليه الحروف الأولى من اسم الملك ونحتت عليه هذه العبارة ! « من الملك لويس
الثامن عشر إلى مسيو شامبوليون الصغير بمناسبة اكتشافه أبجدية الهيروغليفيات » .

كان الدوق يريد أن يوضح للعالم الشاب باسم الملك أن أعماله أصبحت منذ ذلك الحين موضوعة تحت حماية النظام الملكي « لكي يحميه من أى تشكيك لاحق سيصدر من منافسين تأخروا فى الوصول إلى ما وصل إليه » (17) .

تحول مذهل فى المواقف : أصبح « روبسبير جرونويل » المعجب « بالأب لاقبوليت » (نابوليون) . ضحية مونتليفو ودوناديو ودوسان ، منتقد « الحرب الصليبية الاسبانية » ... أصبح تحت الحماية المباشرة « لصاحب الكرش » وذلك بفضل الرجل الموثوق فيه من حزب « السود » ، من الفاتيكان ! ولكن سنرى أن صديقنا عالم اللغويات القادم من الدوفينييه سيسير مشوارا طويلا فى هذا المجال ...

مقابلة مع الملك ؟ تعهد بلاكاس لجان - فرنسوا - الذى لم يتردد أبداً - فى أن يدبر له ذلك فى أول مناسبة وهو ما وفره نشر الملخص فى نهاية شهر مارس ١٨٢٤ . استقبل الملك المريض بالنقرس الكتاب وصاحبه الذى سعد لذلك جدا - استقبالا طيبا . إلا أن الملك لم يشر قط كم كان بلاكاس يتعشم إلى رحلة لإيطاليا على حساب الدولة . وهى الرحلة التى ظل الباحث يحلم بها لفترة طويلة ولكنه سيضطر الانتظار لشهرين آخرين قبل أن يقوم بها .

كان جان - فرنسوا قد بدأ قبل ذلك مشروعاً أكثر جسارة من الرحلة وكان ينتظر أن يعود عليه ولو لمرة واحدة ببعض العوائد المادية . إذ أن على المرء أن يعيش وعلى الرغم من الشهرة التى اكتسبها خلال بضعة أسابيع إلا إنه لم يكن لديه أى دخل ثابت . ولذلك فقد غامر بالدخول فى حقل قد لا تكون له فيه دراية سابقة كعالم لغة وهو مجال « عالم الالهة المصرى » Le Panthéon Egyptien

فى خطاب كتبه لحميه « العم » كلود بلان - الذى كانت صحته فى تدهور سريع وهو ما كان ليدفع به إلى الوفاء بدوقه روزين لها وأزوجها التى وعدهما بها فى عام ١٨١٨ - أعطى كاشف لغز الهيروغليفيات فى ٢٤ يوليو ١٨٢٣ الأسباب المالية وراء مشروعه الجديد :

« لا بد وأنكم تلقيتم [...] المنشور والإعلان من كتاب جديد ساقوم بنشره من مالى الخاص تحت عنوان البانتيون المصرى . وسيكون فى طبعة فاخرة وسيبلغ ثمن المجلد العادى ٣٠٠ فرنكا وأنى أقوم بهذا المشروع دون أن أخشى الخسارة لأن فى الزمن الذى نحن فيه الكتب الغالية الثمن هى وحدها التى تشتري وتباع دون عناء .

ثم أنى لا أعرض نفسي لأى مجازفة مادام الكتاب سيظهر فى السوق على فترات شهرا بعد شهر وإذا حدث أن عرضت نفسي لأى خسارة فساكون صاحب قرار إيقاف النشر . [..] لدى بالفعل عدد من المشترين مقدماً لكى أغطى مصاريف أول نشرة ولعلكم قد علمتم بالفعل من صحيفة لومونيتور أن الملك ذاته قد اشترى مقدماً ثلاثة نسخ [..] وأنى على يقين من أنى لدى الوصول إلى النشرة الثالثة أو الرابعة ساكون قد حصلت على ربح كبير ...)

ويعد أن « قدم بضاعته » إلى حميه بأسلوب مختلف عن الذى حرر به « رسالة إلى مسيوداسييه » واصل جان فرانسوا خطابه بأن أعلن إلى مسيو بلان أن الملك قد أمر كذلك بطبع « كتاب آخر » (هو « الملخص » بالطبع) دون مقابل وأنه « طبع أكثر من نصفه » وأنه سيضمن له « مكاسب كبيرة نوعاً ما » ... ثم يحاول جان فرانسوا تبرير حالته المادية المتردية لوالد زوجته وحالة الشظف التى تعانى منها أسرته « بالحرب المستنزفة للطاقت والمؤسفة من جميع الوجوه سواء بالنسبة للملوك أو بالنسبة للشعوب » والتى بدأتها الحكومة فى أسبانيا بناءً على توصيات وزير للخارجية اسمه شاتوبريان الذى يريد أن يعجل باعادة حكم البوريون المستبد فيما وراء جبل البرانس .

ويخلص هذا التقرير عن الحالة العامة للأسرة بنظرة متفائلة . لقد كان روح البنت العبقري وهو فى مواجهة « حماه العزيز » مثل زوج الابنة فى مسرحية للمؤلف المسرحى الكوميدى لايبش :

« لقد كدحت ويمكننى أن أفخر بانى كونت لنفسي شهرة كبيرة بالقدر الذى يجعلنى لا أخشى من الفشل إذا حدث وعرض على مركزاً يعود ببعض النفع على [..] إن المستقبل مفتوح أمامى وإن يمر وقت طويل قبل أن أجنى ثمار أعمالى كلها [..] وعلى أن أتسلح بالشجاعة والإعتدال فى كل شئ .. »

يا لهذا الشاب و « اعتداله فى كل شئ » ! ... ولولا فورة الغضب ضد الحرب التى يقوم بها مسيو دوشاتوبريان (وهى عملية لم تكن لتغضب رجلاً محافظاً مثل (مسيو بلان ..) فإننا أمام زوج ابنة يستحق التقدير ، ومع شئ من الحظ سيتمكن من أن يدر لنفسه دخلاً مناسباً .

كفانا تهكماً ! فى يونيو ١٨٢٣ أعلن الناشر تاديرو بالفعل عن نشره على دفعات لكتاب عن « البانتيون المصرى » : مجموعة من الشخصيات الأسطورية فى مصر القديمة . مأخوذة عن الآثار ، النصوص كتبها شامبوليون الصغير والرسومات لـ جـ دويوا هل كانت هذه عملية ترفيحية تهدف إلى الكسب فى الأساس ؟ إحتوى هذا العرض لعلم اللاهوت المصرى القديم سواء على المستوى الفنى أو العلمى : صعوبات جمة رصدها جان يويوت فى مقال نشر فى نشرة الجمعية الفرنسية للآثار القديمة فى أكتوبر ١٩٨٢ :

« من وجهة النظر النقدية كان المطلوب هو تزيين بعض الأشكال غير الملونة » موثق فيها من الناحية العقائدية « بالرسومات » :

فهل كانت تسمح معارف حلال الشفرة الهيروغليفية وموهبة صديقه دويوا * بحل هذه المشكلة ؟ من وجهة النظر العلمية كانت المصادر الموجودة تحت يد شامبوليون نادرة فحاول أن يكملها باستخدام رسومات بصورة طبق الأصل ملونة أحضرها من مصر بلزوتى ولورد بالمور ، وبعض القطع التى استعارها من مجموعات الأب نوتيرسان ، صديقة القديم فى لآبى - أو - بوا - أو من محافظ متحف ليون - ليون أرتو - الذى كان معجباً به اعجاباً بلا حدود .

تسبب نشر ملازم البانتيون من يوليو ١٨٢٣ إلى سبتمبر ١٨٣١ له فى هم مستمر وضغط وفى إرهاق دائم وكان مغامرة علمية جعلته يعرض نفسه لإنتقادات حادة من المتخصصين البريطانيين الذين وجدوا فى عمله هذا عيباً فى الدرع الذى يمكنهم النيل منه من خلاله وليجعلوه يدفع ثمن إنتصاراته ولكنه كان فى الوقت ذاته مصدراً لاكتشافات رائعة .

وصف جان يويوت شامبوليون « وهو يقوم بوضع صورة معقدة - بطريقة غير دقيقة - أخذها من الأكوام المتراكمة من غير نظام للحوارات الهيرميتكية - التى تعتبر أن هناك نصف إله غير مخلوق يظهر فى صورة إله يخلق نفسه له وصفات الجنسين » ثم يصل إلى هذه الخلاصة التى قالها أخوه على لسانه أخوه بعد بضعة سنوات من وفاته فى مقال ظهر فى مجموعة الكون L'Univers : (18)

* الذى إلتقينا به من قبل فى ١٨٠٨ وهو يشارك جان فرانسوا فى صب قوالب الرسومات المحفورة - والذى ظل أحد أقرب أصدقاءه .

« ديانة الفراعنة كانت موحدة للاله توحيداً خالصاً ، يعبر عن ذاته خارجياً بواسطة تعددية رمزية ، بمعنى أن الاله واحد صفاته جميعاً وملكاته كان يشخصها ممثلون نشطون أو ألهة مطيعة » (هذه النظرية سيأخذها عنه ويعمقها بشكل خاص أول التلاميذ الفرنسيين لجلال الشفيرة وهو إيمانويل دو روجية) .

حتى قبل أن يحظى جان - فرانسوا شامبوليون بلقاء الملك صادف لحظة إنتصار مثل تلك التي يسعد بها أعظم المكتشفين ويروا فيها أنهم وصلوا لقمة المجد أو أنهم بلغوا الهدف أو اختتموا حياة عملية ناجحة :

ففى ٢٦ أبريل ١٨٢٣ عقدت الجمعية الآسيوية أولى اجتماعاتها السنوية برياسة لويس - فليب دوق نورمان . يحيط به نائباً الرئيس الشهيران الكساندر فون هومبولدت وفرانسوا رينية دوشاتويريان وأعظم مثقفي ذلك العصر : داسييه ، ساسي وديجوزا .

كانت كلمة الرئيس التي ألقاها لتحية صاحب الكشف بمثابة اعلان عن دخوله طبقة النبلاء ... ولما كانت هذه التحية قد أتته من عائلة أورليان الفرع الأصغر للبوربون فإنه ضمن بذلك الحصول على رعاية لن تكون حكرأ على الفرع الحاكم فقط :

« إن الاكتشاف الوضاء للأجدية الهيروغليفية تشرف ليس العالم الذي توصل إليه فحسب وإنما الأمة بأسرها * ولها أن تفخر لأن أحد الفرنسيين قد تمكن من أختراق هذه الأسرار التي لم يكشف عنها الأقدمون أبداً سوى لقلّة من الميريديين المضمونين وكشف شفيرة هذه الرموز التي كانت جميع الشعوب الحديثة قد يأسّت من إكتشاف معناها » (19) .

وجبهته مزينة بكل هذا الغار ذهب جان - فرانسوا شامبوليون للقاء الجمهور الودود حين ظهر له شخص ضخم الجثة على وجهه إبتسامة الصديق : المارشال سوتية وزير الحربية الذي كلفه نابوليون فى عام ١٨١٥ بحماية جبال الألب فى مواجهة القوى المسلحة النمساوية الساردينية - والذي ذهب الشاب شامبوليون للقاءه بصفته هذه فى شامبيرى لحفذه على الصمود : وهى النصيحة التي لم يتبعها سوشية سوى بتكاسل . قال المارشال لعالم اللغويات « الزمن تغير جداً . إلا أنى أمل أن تكون قد تصالحت مع الأوضاع الجديدة .. »

* استخدام كلمة الأمة لرنين ثورى وهى علامة من علامات أسرة أورليان وستستخدم من جديد بعد ثمانى سنوات .

وإذ إرتبك الشاب بأن يسمع ذلك من إحدى صنائع نابوليون فقد فضل أن يظل صامتاً ، صمت كسر حدته على الفور مسيو دو شاتوبريان - قصير القامة تتدلى على جبهته بعض من خصل شعره وهو لا يزال فى حماسه بسبب حرب أسبانيا التى قدمها إلى الملكية لكى تكون على قدم المساواة مع الإمبراطورية والتى إعتبرها شامبوايون على نفس القدر من الجنون عن التى سبقتها :

« إن الذى يرى الشمس طالعة أمامه لا يمكن أن يبكى على الليل الذى يتلاشى » :
هذا مقاله الفيكونت دو شاتوبريان .

- ومع ذلك يا اكسلانس * بصفتى مصرى قديم فإن نصفى يبقى دائما ورائى .

- إنك تتكلم بالهيوغلفية . .

- أود أن أقول أن طالما قلبى ينبض فى صدرى وموجود جانب الشمس التى أحببها بإمتنان ، فإنى سأظل أتأمل نجوم الليل تتلألاً وهى التى أضائت لى الطريق ، كل منها بنور خاص بها « (20) .

إن رجلنا الريفى لوائق من نفسه فى تحد وهو يواجه العظماء : لقد إنتهى زمان الاتحاد والفيدرالية ولكن لم ينتهى زمن الوفاء - حتى لو أن الوفاء الذى أصبح يربطه بمصر التى كشفت له عن سرها قد ألقى بظله على إرتباطاته القديمة .

فى الأول من مارس ١٨٢٤ أعلنت له روزين من جرونوبل أنه رزق بإبنة . سيطلق عليها أسماً لا يمكن أن يكون سوى شرقياً : زواربيد ** . إلا أنه لن يتعجل كثيراً الذهاب لتقبيل الأم والتعرف على الطفلة . وسينتظر فرصة السفر إلى إيطاليا فى نهاية شهر أبريل ليدير الوقت اللازم ويتوقف فى جرونوبل لهذا الفاصل العائلى وهو فى طريق السفر .

كان استقبال المدينة التى خرج منها هاريا عام ١٨٢١ هو استقبال الفاتحين ...
« الزيارات كانت « تقتله » من الصباح حتى المساء » . إبنته ؟

* كان شاتوبريان قد ترك لتوه مركزه كسفير فى لندن ...

** تحريف اسم « زهراء » (المترجم) .

« صاحبتنا » الصغيرة بدينة وكلها دهون وهي تؤدي دورها على أكمل وجه تاكل وتصرخ وتاكل . وتنام وتصرخ من جديد وينفس المقدار . يدعون أنها تشبهنى . لقد تعرفت فيها بالفعل على لون بشرتى وأهدابى أما بالنسبة للباقى فلتكن مشيئة الله .»
خمسة أسابيع قضاها فى إحتفالات عائلية كانت كافية لاسعاده . فى ٤ يونيو غادر إلى إيطاليا وهو مقتنع أن « الطريق إلى ممفيس يمر من تورينو » .
لقد أعد أسلحته إعداداً جيداً . الجوهر هو الكشف ، أما إنارة مصر فلا زالت تحت الإعداد . الجانب اللغوى داخل جان فرانسوا شامبوليون لم يقم بالفتح سوى لخدمة الفنان والمؤرخ .

١٢ - القضية

أصدقاء وأعداء - التحالفات الأربعة - جومار وكاترومار - المسكين
دكتور يانج دفاع سيربيتر - عناد سير الفريد - تحكيم Whos'who ضراوة الترتار
- حكمة جان كايار - المتعنتون

لا يمكن أن تكتشف أمريكا دون سابق إنذار ولا أن يوجد جاليليو دون قضاة ولا أن توظف خمسة عشر قرناً من سباتها دون أن تجعل النائمين يتأهون . أن الضربات الإفتتاحية الثلاثة المتمثلة في الرسالة إلى مسيو داسييه و « البيانتيون » و « الملخص » مع الإضطرابات التي أثارها داخل عالم العلماء ورجال الدين أيضا وكذلك الإحباطات التي تسببت فيها عند الرواد والمنافسيين وزملاء المكتشف كان لابد أن يتسبب كل ذلك في ضجة كبرى .

أى مكتشف لابد وأن يسير فترة على دربه دون حماية إذ يكفي أن تحرز تقدماً خارقاً لكي تصبح هدفاً للجميع . وما بالك إذا كان هذا المكتشف ذا شخصية حادة الطباع وعنيفة في الإنتقاد وعمره الصغير يزيد من غضب الشيوخ الذين فشلوا فيما نجح هو فيه .

وهكذا فإن فارسنا الجاسكونى صنع لنفسه خلال ثمانية عشر شهراً - من سبتمبر ١٨٢٢ حتى مارس ١٨٢٤ - من الأعداء أكثر مما تمكن دارتانيان من دحرهم وظهره إلى الحائط والسيف في يده مشهراً .

نعم كان عدد المناصرين له واقضيته يتضاعف حول المجموعة الأساسية المكونة من جاك - جوزيف وداسييه والدوق دو بلاكاس وفيروساك مدير صحيفة النشرة العالمية Le Bulletin Universel والتي التف حولها أيضا فوربيه وأراجو وكوفييه وبيو ولابلاس ثم ولاسباب أخرى شاتوبريان علاوة على انضمامات أخرى لها أهميتها ولكنها لم تتم كما سنرى دون تردد وبعض التحفظات بل وبعض الندم وهى للثلاث شخصيات التي لايجادلها أحد في مرجعيتها في مجال اللغات وهم سيلفاستر دو ساسى وجان ليترون وغيلها لم فون هامبولدت . ويجب أن نضيف أن « روبسبير جرونويل » كان يدعمه عدد من كبار النبلاء بخلاف الدوق دو بلاكاس مثل الدوق دودوفيل .

أما المتشككون ومهاجمو « الدجال » فلم يكونوا أقل نشاطاً وذلك إنطلاقاً من قطبين : باريس ولندن إذ يجب أن فنوه بعدم صحة ما يدعيه العديد من المؤرخين أن نضال « المصري » من أجل تقنين إكتشافه إتخذ طابعاً وطنياً . إذ أن أعداءه كانوا على نفس درجة النشاط سواء فى فرنسا أو إنجلترا وجرى التشكيك فيه بنفس المقدار (أو أكثر) سواء فى باريس أو لندن أو تورينو أو برلين .

إن الجدل حول الإكتشاف لم يكن فى جوهره حول علم بلد بذاته صحيح أن « حزباً انجليزياً » أخذ يتحرك وكان توماس يانج هو محركه وشهيدته . إلا ان العديد من علماء الآثار البريطانيين ومنهم وليام جال وهنرى سولت ثم جون ويلكنسون انفصلوا عنه لينضموا إلى حزب « المصري » . صحيح أيضاً أن العديد من اللغويين الألمان مثل كلايروت وهان كانوا من أنشط المناهضين لجان - فرانسوا . غير أن الكسندر وقيها لم هامبولدت سرعان ما ترأسا جوقة المدافعين عنه إلى جوار آخرين من الباحثين الإيطاليين والنمساويين والهولنديين .

فى باريس استمرت الإنقسامات لفترة طويلة بين مختلف المدارس وإذا حاولنا أن نرتب دعاء الحرب المقدسة ضد صاحب « الملخص » بناءً على درجة ضراوتهم فى مهاجمته فبإمكاننا أن نذكر جومار وكلايروت وكاترومار وبانكس أو بانكس وسان - مارتان أو جوليانون وراؤول - روشات أو سان كوينتينو ولانسى : ومن باب تبسيط الأمور نقول أن حلال اللغز كان يحارب أربع تحالفات : الحزب « الانجليزى » و « حزب القساوسة » ثم المجموعتين التى أطلق على الأولى « التلاميذ القدياء » والأخرى « قدياء المحاربين » .

فلنبداً من جديد سرد الوقائع بهذه المجموعة الأخيرة التى كان يرأسها آدم جومار .

بالنسبة للمسئول الأول عن كتاب « وصف مصر » - الذى لا يمكن أن ننكر المشاركة الهائلة التى قدمها فى مجال التعريف بوادى النيل - فإن أى فرد يدعى أنه يعرف عن مصر أكثر من الذين وطأوا أرضها بأقدامهم فيما بين ١٧٩٨ ، ١٨٠٢ فهو بالنسبة له ملعون على الرغم من أن كثيراً من زملائه الذين من حقهم أن يدعوا مرجعيتهم بالنسبة « للمشاهدة العينية » مثل فيفان دونان * وفورييه . سامحوا « المصري » لجسارته بل وشجعوه فى أبحاثه . أما جومار فلم يغفر . فمنذ اللحظة

* توفى عام ١٨٢٥

التي أدرك فيها أن الشاب القادم من جرونوبل عقد العزم على المضي قدماً في أبحاثه ليتخطى المخزون (الهائل) من المعلومات التي وفرها «وصف مصر» قرر أن يهدم سمعة هذا السفيق .

هذا التمسك المرير بذكري الماضي الذي طغى على بعض «قدماء مصر» حمل لواءه ودعمه أيضاً العديد من العلماء ، سنجمعهم تحت تسمية «قدماء الكولاج نو فرانس» ريموزا سان مارتان ، ليترون ، شيزي وكاترمار الذين زاملوا جان - فرانسوا عامي ١٨٠٨ ، ١٨٠٩ وكانت أعمالهم تثير الإعجاب بالفعل ، غير أن أمجاد «المصري» وضجيجها تسبب في خسوفها . لماذا هو؟ لماذا تركزت الشهرة حول أعماله هو؟ ومن وجهة نظر دارسي الحضارة اليونانية لماذا يغطي إحقاق حقوق مصر في عظمة حضارتها على تفوق الحضارة اليونانية المعترف به حتى الآن؟

تمكن عالم في حجم ليترون في نهاية الأمر - بعد تردد ومناورات (أثرت جداً على نفسية جان - فرانسوا الذي أطلق عليه غاضباً كنية «ذو الشعر الأصفر») - أن يتحكم في هذا الحقد المزدوج . ولكن يبقى البعض الآخر - الأقل منه أهمية - على غيه على وجه الخصوص جان سان - مارتان ، «الأرمني» والذي كان من أقرب أصدقاء «المصري» في باريس .. بعد أن حاول أن يجعل ساسي وفورين يناهضان شامبوليون ، خصص «الأرمني» آخر سنى حياته لازعاج جان فرانسوا لدرجة أنه شرع في تأليف كتاب عن تاريخ مصر وهو ما لا يدخل في مجال تخصصه وذلك فقط لكي يضايقه . أما إتيان كاترومار فنحن نعرف أنه لم ينته أبداً من تصفية حساباته مع شامبوليون منذ ظهور أعمالهما في نفس الوقت عام ١٨١٤ * ولم يذهب أحد قط أبعد من «بوليكارب» في نفى اكتشاف ١٨٢٢ نفيًا قاطعاً .

أما الفريق الثالث من المهاجمين فهم - مثلما هو الحال دائماً كلما كان الأمر متعلقاً بشامبوليون - «طاقئو الأنوار» . يقف في الخطوط الأمامية لهذا الجيش الصليبي شخصيتان : مونسينيور نو فريسينوس ورائول - روشات . وكانت هذه الشخصية الدينية المرموقة - إذ كان وزيراً للأديان - تخشى بصورة مرضية ملحاً عليها أن تمس آخر التطورات التي طرأت على علم المصريات من قريب أو بعيد «التواريخ» الواردة في التوراة لدرجة أنه لم يأخذ في إعتباره المواقف المؤيدة لنظريات الكنيسة التي إتخذها صاحب رسالة إلى «مسيو داسييه» وعلى وجه الخصوص عام ١٨٢١ . الواقع هو أن فريسينوس كان «متطرفاً» أكثر من كونه «صاحب رداء أسود» وكان الذي يربعه هو «رويسبير جرونوبل» وناشر «التعليم التعاوني» الذي أضر

* راجع فصل ٥

باحثكار « التعليم الدينى » أكثر من خوفه من الباحث ذاته كباحث وهو لم يتوقف عن النظر إلى « الدوفينى الشيطانى » نظرة شك تتفق ونظرة وزير الداخلية - كوربيار - له .
محرك هذه المجموعة هو رجل التجمع الدينى فى الوسط العلمى : راعول روشات
دارس الحضارة اليونانية المنتخب فى الأكاديمية والذى هزأ به بول لوى كوربية كما
سبق أن أشرنا * وكان جان فرانسوا لا يكل من السخرية منه وكان يصفه بأنه
« سلطان البوسفور » . وإذا كان تمكنه من مادة المصريات أقل بكثير من سيطرته
على مادته هو - حيث كانت عظمة ليترون تمحوه تماما - فإن ذلك لم ينتج عنه سوى
مضاعفة كراهية راؤول - روشات تجاه شامبوليون (وإن كان قد تمكن من السيطرة
عليها قبل عام من وفاة هذا الأخير) .

هل ينسب إلى هذا الحزب كتيب ظهر دون توقيع فى باريس عام ١٨٢٤ غداة
ظهور « الملخص » ينفى أى قيمة علمية لأعمال شامبوليون الصغير ؟ الرجوع إلى
بعض الطموحات الأكاديمية قد توجه البحث ولكنها لا تكفى لتحديد المسئوليات . إن
النص يعبر عن نفسه :

« يوجد حلال للشفرات يعمل فى وزارة العلاقات الخارجية كان على علم بالحروف
التي حددها يانج ويعرف أيضا أن أسماء الملوك التي ذكرها المؤلفون الكلاسيكيون
توجد داخل « الخراطيش » وهو بذلك يكون قد توصل إلى نفس النتيجة دون أن يصرخ
بكل قواه ليطالب بمكان فى أكاديمية المخطوطات (1) »

غير أن طلقاء المدافع الرشاشة الأكثر كثافة والأكثر دقة هي التي أطلقت من
عام ١٨٢٢ حتى ١٨٣٢ من لندن وعلى وجه الدقة من الشلة المحيطة بتوماس باينج .
ما كان يحرك هؤلاء المناضلين من كتاب المنشورات بالتأكيد هو التمرد ضد
الظلم والإحباط اللذين منى بهما الرائد اللامع (يانج) إلى أن أصبحوا من المشهورين
على يد جون ليتسن . إلا أننا سنلاحظ أن الجدل بين مؤيدى وأعداء شامبوليون استمر
مفتوحا فيما وراء المانش وبين البريطانيين المقيمين على ضفاف نهر النيل .

تركنا يانج وهو فى حالة من عدم التوازن بسبب ما سمعه لدى قراءة « رسالة إلى
مسيوداسييه » . وكان مجاملا لشامبوليون بعد أن تأثر بالحفاوة الحارة التي قابلته
بها الإنتيلجينسيا الباريسية . غيز أن رد فعله الدقيق كشف عنه مقال غير موقع

* راجع فصل ٧

صدر فى لندن عام ١٨٢٣ فى المجلد الفصلية Quarterly Review ثم أعيد نشرة بتوقيعه هذه المرة فى نفس العام فى كتاب عنوانه :

«دراسة حول بعض الإكتشافات الخاصة بالأدب الهيروغليفية والآثار المصرية ومعها الأبجدية الأصلية من وضع المؤلف والتي طورها مسيو شامبوليون*»

يوضح توماس يانج أنه لم يذهب إلى باريس لحضور الجلسة الشهيرة لأكاديمية المخطوطات وإنما كضيف على بعض الأصدقاء فى رحلة سياحية وأنه استغل ذلك ليشرف بوجوده تظاهرتين علميتين تقعان فى دائرة تخصصاته : إحداهما فى أكاديمية العلوم التى دعيت للإجتماع للإستماع إلى محاضرة يلقيها أحد أشهر أعضائها فى مادة طبيعة الضوء وهو العالم فزيناى والأخرى فى أكاديمية المخطوطات لحضور جلسة تقرأ فيها رسالة إلى مسيو داسييه .

من هذه التجربة المزدوجة يخرج بملحوظة لاذعه فى حق جان - فرانسوا شامبوليون : فبينما يعترف عالم الطبيعة الفرنسى « فرينال » بأسبعية الأبحاث التى قام بها العالم البريطانى فإن عالم لغويات جرونوبل أمتنع (عن الاعتراف بأسبعية يانج فى اكتشافاته الهيروغليفية) - حسبما يقول يانج ** . وهو لم يشر هنا إلى حقيقة واضحة وهى أن تفوقه فى مجال التداخلات الضوئية كان أكبر بمراحل عن ذلك الذى يمكن أن يدعيه فى المجال اللغوى . ثم يضيف الدكتور يانج :

« .. لا يمكن أن أتهم مسيو شامبوليون بأى نية مخلة بالشرف ولا أريد أن أتنازل عن صداقته .. » ثم يشير إلى تبادل الرسائل بينهما عام ١٨١٤ ثم يضيف « .. هل قام باكتشافاته قبل أن يقرأ أعمالى ؟ لست فى وضع يسمح لى بأن أؤكد ذلك [..] إلا أننى لا أقبل إدعاء مسيو شامبوليون أن منظومته يمكن تطبيقها على العصور القديمة جدا .. »

« لم نتحرك من مكاننا بقدر أنملة نحو معرفة حرف واحد من هذه الحروف المقدسة [..] لأن كتابة الأسماء الأجنبية بالهيروغليفية هى من تأليف اليونانيين » .
ويعد أن أعتقد أنه بذلك قد ألقى تماماً أى أهمية لإكتشاف غريمه الذى يسمح بفهم النصوص المصرية مهما كانت الفترة الزمنية التى ترجع لها ، عاد الدكتور

An account of some recent discoveries in hieroglyphical literature and Egypt antiquities * including the author's original alphabet as extended by Mr. Champollion .

** فى الصفحة الثانية من الرسالة توجد تلميح إلى ت يانج وربما لم يقرأ شامبوليون هذا الجزء فى الجلسة .

يانج ليدعى أسبقية اكتشافه للأبجدية الهيروغليفية : ألم يتمكن بالفعل من أن يكون أول الذين تعرضوا على « تسعة حروف مصرية » على حين لم يضيف الفرنسي سوى « ثلاثة أو أربعة حروف أخرى » ؟

وهنا تصدر الخلاصة : « إنى أؤكد أولويتي فى كل هذه الأبحاث . ولا يمكن أن أمنع نفسى من الإعتقاد بأن (مسيو شامبوليون) سيصل فى النهاية إلى أن يقر بأن الأفضل لشرفه وسمعته أن يعترف بمطالب الآخرين العادلة .. » (2) .

رد فعل جان - فرانسوا على المقال غير الموقع فى المجلة الفصلية Quarterly Review كان حادا . تجاهل أن المقال لا يمكن أن يكون سوى بقلم يانج وطالب بأن توضع الأمور فى نصابها . الرد الأول الذى جاءه من يانج تقادى الجدل :

« إن كاتب المقال عن كتابكم قد أساء تحليل ما إنتقده كما فعل بالنسبة لما قمت بدراسته قبل بضعة سنوات . وعلى العموم فإنى أرجع إلى كتابى فيما يتعلق بأبجديتى أما فيما يختص بكتابكم فلا شأن لى به . وقد أعتنيت بأن أميز بين ما يخصنى وذلك بأن ذكرت الأماكن التى نشرت فيها . وإنى لا انكر أنكم ربما توصلتم إلى نفس النتائج دون أن تكونوا على علم بنتائجى ، غير أن نشر الكتاب بعد بضعة شهور كشف كل شئ . »

إن الهجوم يأتى من العالم البريطانى من لندن . إذ أن المقال الذى نشرته الكوارترلى رفيو والذى تحدث عنه مع جان - فرانسوا كما لو كان بقلم طرف ثالث ظهر فى الكتاب بتوقيعه مع بعض التعديلات الطفيفة فى التفاصيل ! وكان لهذا الاعتراف ما يثير الدهشة إذ كان توماس يانج قد أعلن لتوه تخليه عن الاستمرار فى المشروع : إذ أعلن فى خطاب له مؤرخ فى ١٣ سبتمبر ١٨٢٣ عن قراره عدم اكتشاف حلول للهيروغليفية بعد الآن « إن شامبوليون يقوم بجهد يكفى لكى لا يفوته شئ هام بعد الآن ولذلك فإنى اعتبر دراساتى المصرية منتهية » (3) .

لابد وأن نشر كتاب شامبوليون « الملخص » بعد ذلك ستة شهور قد دفعه إلى التمسك بقرار الانسحاب من إكتشافات يوضح شامبوليون فى كتابه بدقة متناهية ما جاء به كل منهما بما لا يدع أى مجال لمطالبة علنية أيا كانت بعد ذلك . وعلى الرغم من ذلك ظل توماس يانج على اعتقاده بأنه ضحية ظلم بين ورهيب . واستمر يدفع أو يغذى انتقاداته بواسطة حملة رسائل مستخدماً تعليلاً غريباً للوصول إلى هدفه . فكتب على سبيل المثال إلى سان كوينشيز محافظ متحف تورينو يقول له :

« بامكان مسيو شامبوليون أن يؤرخ لمنظومته بحصوله على اسم كليوباترا * وذلك من مسيو بانكس إلا أن هذا الرحاله العظيم قد حصل على المعلومات التي أوصلته إلى التعرف على هذا الاسم وبنائنا على اعترافه هو شخصياً من خطاب أرسلته للسيد / بانكس في مصر » .

وأخيراً في خطاب إلى الكونت بولون مؤرخ في ٢٠ ديسمبر ١٨٢٦ ينفث الرائد الانجليزي كل مرارته قائلاً :

"Champollion received the name of Cleopatra as ascertained in Egypt by Mr. Banks from my letters, it is hence that himself dates the origin of his System : Ergo OPERA illius mea sunt . And I willingly add, of this new Achilles

FORTEMQUE IN FORTIA MISI ! " ** :

إذا كان الباحث الرائد قد عدل عن الاستمرار في أبحاثه الشخصية فإن « حزيه » لم يتنازل عن الاستمرار في نضالة ضد شامبوليون طوال القرن كله بل وبعد ذلك أيضاً . سير وليام بانكس في مصر وانطوني نيبى وروبرت بورتون في لندن كانا على رأس مناصري عالم الطبيعة الانجليزي ضد عالم اللغات الفرنسي ومع ذلك فقد ارتفع صوت انجليزي قادم من مصر ليؤكد صحة إكتشاف صاحب « رسالة إلى مسيو داسييه » :

هنرى سولت كان في الأصل رساماً مغرباً بالشرق والإستشراق ويتمتع بموهبة حقيقية . سافر إلى إفريقيا عام ١٨٠٢ وبعد أن أقام لفترة طويلة في الحبشة عين قنصلاً لانجلترا في مصر عام ١٨١٦ بعد أن تعرف على بلزوني الشهير المسمى « بالمارد » محرك المعابد . جمع مجموعة آثار هائلة الحجم ، تناقش مجموعة دروفيتي الذي سنلقاه فيما بعد .

إلا أن هذا الفنان الرسام - الديبلوماسي - جامع التحف كان قد حاول هو الآخر حل شفرة الهيروغليفيات . وبينما كان يعتقد أنه قد اقترب من هدفه جرى نشر إكتشافات يانج وبانكس وشامبوليون . بعد ذلك بعامين ظهر له في لندن « بحث حول دكتور يانج ومنظومة مسيو شامبوليون في الهيروغليفيات (4) » وعلى الرغم من * سبق أن رأينا أن ذلك غير صحيح .

** « شامبوليون حصل على اسم كليوباترا كما تاكد مستر بانكس في مصر من رسائله له . وهو يؤرخ لمنظومته اعتباراً من هذا التاريخ وبذلك يكون عمله هو عملي أنا واني أضيف فيما يتعلق بهذا الأشيل (أكيوس) الجديد : وقد بعثت الجسور إلى الجسارة » (من ليجية حول حجر رشيد . ص ١٠٢)

العنوان والتذكير بكل احترام بالدور الريادي الذي أداه مواطنه الأشهر هو تحية مدوية
لحلّال الشفرة الجرونويلوازي .

« في البداية كنت متحيزاً ضد المنظومة الصوتية التي بدت لي مبهمة مبنية على
افتراضات (ص ٣) بعد أن قمت بدراسة جادة توصلت إلى تقييم أدق لقيمتها . إذ
تمكنت من إثبات جميع النقاط التي تقدم بها مسيو شامبوليون بناءً على رسوماتي
الشخصية [..] وفي إمكانى أن أضيف بريقاً لهذا الاكتشاف [..] كلما إجتهدت في
العمل كلما لاحظت صلابة هذه الأبجدية الصوتية وصحة الاستنتاجات التي توصل
إليها مسيو شامبوليون ص (١٧) [..] من المؤكد إذن أن الهيروغليفيات الصوتية
كانت مستخدمة منذ المراحل الأولى للملكية المصرية [..] ولا أتردد في أن أقول بأن
أى فرد مزود بمعرفة متعمقة للغة القبطية يمكنه قبل فترة لا تطول من قراءة كل هذه
المخطوطات » . (ص ٧٥) .

ينتهي كتاب هنري سوات بملحوظة كتبها في اسكندرية في ٧ أغسطس ١٨٢٤ .

« كدت أعدل عن نشر هذا الكتيب بعد أن اطلعت على آخر كتب شامبوليون
الإبن (كذا) .. ووصلتني في الثالث من أغسطس نسخ من « ملخص » مسيو
شامبوليون عن طريق مسيو أناستازي ، وعلى الرغم من أن الكتاب نشر في عام
١٨٢٤ فريماً يكون قد وضع قائمة الأسماء قبل ذلك . وبذلك فإن مما يتلج صدره مثل
صدرى أن أفكاره قد أكتتها مصادفة غريبة ، إذ يلتقى شخصان تفصل بينهما مسافة
شديدة البعد على الكرة الأرضية وبدون أى إتصال بينهما في التوصل عن طريق
الاستنتاجات ذاتها إلى ذات الخلاصات حول موضوع على هذه الدرجة من التعقيد
[...] وهو على ما يبدو يؤكد صلابة الأسس التي أقمنا عليها عملنا . إن أبجديّة
الصوتية تاكدت الآن بصورة قاطعة ، وهو ما طمأننى على سلامة التفكير في المضى
قدما في نشر هذا البحث » .

لم يكن هنري سوات الانجليزي الوحيد الذي تمكن من التعرف منذ البداية على
الأهمية العظيمة لما أتى به شامبوليون . في نابولي حيث كان يعيش معظم الوقت
التقى به سير وليم جال المتخصص في الحضارة الرومانية وخاصة حضارة بومبي
عام ١٨٢٥ . وإذا كان هذا العالم الانجليزي من أصدقاء توماس يانج فقد كان متحفظاً
بعض الشيء تجاهه . ولكن سرعان ما راجع نفسه وإرتبط بعلاقات صداقة مع جان
فرانسوا ولم يتوقف عن التدخل لصالحه لدى مواطنيه .

خطاباته ليانج تتحدث عن نفسها ففي أحدها كتب يقول له أنه يحاول إقناع « هذا

الشباب الممتاز » (Fine child) الذى هو جان - فرانسوا أن يعترف بسلفه « كحماء » (Father - in - Law) وفى خطاب آخر يدافع عن مؤلف « الملخص » قائلا :

« أود أن يعرف الجميع أن شامبليون لم يخف أبداً إكتشافاته الجديدة بل إنه أطلعنى شخصيا على كميات هائلة من أشياء لم تنتشر قط لدرجة إنى لو أردت لكان فى إمكانى أن أدعى أنى تفوقت على المخترع ، فى حوزتى حجر رشيد كله إبتداءً من السطر الخامس . قسمها هو كلمة كلمة ومن تحتها مقابلا بالقبطية . ولقد نصحته بما يكفى لدرجة أنى أمل أنه سينشر ما يعرفه الآن وهو لايقارن فى شئ بما سبق له نشره » (5) .

لم تنجح وساطة سير وليام فى شئ ولكنه لا يمكننا أن نعزو ذلك إلى جان - فرانسوا الذى كتب فى ١٢ سبتمبر ١٨٢٧ إلى عالم الآثار سليم النية فى نابولى :

« تعلمون أنى على أتم أستعداد لكى أعطى يانج كامل حقه بالعدل ولست أنا الذى يحرك قط مثل هذه المواضيع القديمة [..] إنى لا أفكر فيها أبداً وإنى على استعداد إلى عودة مراسلة مسيو يانج الذى بادر بإيقاف علاقات المراسلة معى كما إنى على استعداد لإعادة علاقات الصداقة القديمة التى تربطنا . ولقد خطوت الخطوة الأولى بأن كتبت له بالامس لأعرض عليه خدماتى فى باريس وإمداده بنسخ كلية مرسومة للآثار التى قد تهمة . وبالتالي فهو الوحيد الآن الذى يمكنه أن يجعلنا نلتقى من جديد كما كنا فى السابق وإنكم ستشهدون لصالحى لو أن الأمور لم تسر على النهج الذى أمله بكل صدق ومن كل قلبى » .

الخطاب للدكتور / يانج الذى يشير إليه جان فرانسوا مؤرخ فى ١١ سبتمبر وقد ضم إلى « أعمال » يانج ولكن البحث فيها عن رد للدكتور يانج لا يجدى ...

سيقول البعض أن سعة الصدر من شيم المنتصر وليس المهزوم وأن عالم الطبيعة اللذنى كان يشعر حين ذاك بأن حقه مهضوم أو أنه أهين أو أنه وقع فى طى النسيان . قبل ستة أشهر من رحلته إلى مصر رأى المكتشف الفرنسى معظم المثقفين الأوربيين يحيون تفوق أعماله . فبعد ساسى وليترون الذين وصفاه بالمشعوذ فى مرحلة سابقة وحتى عام ١٨٢٢ ثم استسلما وانضويا تحت لواءه ، إنضم إليه أيضا كل من الكسندر وقليلهاالم فون هامبولدت اللذين ظللا لفترة طويلة أوفياء ليانج . وتشهد على ذلك هذه الرسالة التى كتبها الثانى - وهو عالم اللغويات وكان فى قمة مجده ، تنقلها عن مادام هارتلوبان :

« توصلت بعد دراسة مطولة لأعمال شامبوليون إلى إقتناع كامل أن هذا الإكتشاف الممتاز يرجع له هو وحده . لا أحد يمكنه أن ينازعه حق الريادة في أنه أكد وأثبت أن الجزء الأكبر من الكتابة الهيروغليفية أبجدي . وإذا كان بعضهم قد توصل إلى كشف بعض الرموز الصوتية فإن من الواضح جداً أنهم لم يكونوا ليتوصلوا إلى حل شفرة عدد هام من أسماء العلم . فقد نهجوا في الأصل طرقاً غير سليمة بل أنهم فيما يبدو أهملوا دراسة الهيروغليفيات بالتأني المطلوب مكتفين أكثر مما ينبغي بدراسة مخطوطات حجر رشيد » (6) .

رد فعل الدكتور يانج وكذلك جومار كان سلبياً ولكن مفهوماً . إلا أن المرء لا يسعه سوى أن يأسف لأن الإثنين قد عبرا عن ذلك بدون أى تحفظ وبدون رجعة .

لم يكفى تدخل هنرى سولت قنصل صاحب الجلالة ولاصداقة وليام جال للباحث الفرنسى فى تأكيد موقف « شامبوليون الابن » الايجابى ولا فى التوصل إلى توزيع عادل لما يستحقه كل من الغريمين من إشادة . أخذ الجدل يتفاقم ويزداد حدة دون أى اعتبار لوفاة كلا الطرفين فى وقت يكاد يتزامن لدرجة أن وصل الحال حتى بعد عشرين عاماً إلى مايشبه محاكمة أحد السحرة فى القرون الوسطى .

ليس من العدل أن نتهم عالم الضوء بأنه المسئول عن الاتهامات التى وجهها إلى جان - فرانسوا شامبوليون بالقرصنة والسرقه جون لايتسن عندما نشر وقدم عام ١٨٥٢ الجزء الثالث من مقتطفات من أعمال توماس يانج *Miscellaneous Works of Thomas Young* أنه شئ عادى أن يدفع الرجال العظام ثمن تطرف مؤيديهم ومريديهم ثم أن لم يكن شامبوليون أيضاً فى منأى من حجر الدب .

ولكن بعد أن أسرف بانكس وبورتون ويانج أيضاً وجون لاتسن وآخرين فى تماديهم أضطر أستاذ مدرسة المصريات الانجليزى ذاته إلى الوقوف فى نهاية القرن لكى يدافع عن صاحب الاكتشاف ضد الحملة التى شنت ضده فى بريطانيا العظمى . سيريتز لوباج - رونوف ولد فى جزيرة جارنوزى ولا يمكنه أن ينفى عن نفسه بعض من الجذور الفرنسية والتى يعكسها اسم أسرته . غير أنه ليس من العدل أن نرجع دفاعه إلى أى رد فعل لديه من هذا النوع .

فى الثانى من يونيو ١٨٩٦ قام رئيس الجمعية التوراتية لعلوم الآثار فى لندن *Biblical Society for Archaeology of London* سير بيتر بوضع حد للحملات المتكررة التى يثيرها إعتراف المجتمع العلمى الدولى بشامبوليون مؤسسا لعلم المصريات .. بعد أن عبر عن دهشته لأن عدداً من مواطنينه

ما زال يصر على عدائه للعالم الفرنسى « مثلما يفعل الرقيب بوزفوز الذى تلح عليه فكرة فساد مستر بيكويك » . يعبر لويج - رونوف عن أسفه لأن لايتش وأمثاله وصل بهم الحال إلى معاملة شامبوليون على أنه سارق يستحق الرثاء « وإلى التأكيد أن أعماله ليست سوى نهباً لأعمال يانج . وذلك كنتيجة « للدجل السفيق الذى ندد به كل من ساسى وليترون » ثم يضيف :

« صلة منهج شامبوليون بابحاث دكتور يانج واهية لدرجة أن حتى كلمة استعارة لا معنى لها هنا . أن مؤلفاته أخذت شكل الإثبات بالرياضيات [..] أما عمل الدكتور توماس يانج فتعريفه ليس بحل شفرة وإنما على أنه سلسلة من الاستكشافات الحدسية إن أسباب نجاحه أو فشله واضحة للغاية فقد كان يعمل بطريقة ميكانيكية مثل التلميذ الذى يترجم من اللاتينية : Arma virumque بـ الأسلحة والإنسان إذ يقرأ Arma : الأسلحة وكلمة Virum رجل وحرف que يقرأه حرف او « بسبب غياب المنهج وليس ليانج أية فكرة عن المنظومة الصوتية (فونيتكية) وهو على العموم لم يدعى ذلك [..] فيما يتعلق بالهيريوغليفيات على الأقل [..] وبما أن بطليموس كان إسم الملك الوحيد المذكور علي حجر رشيد فلم تكن هناك أى صعوبة فى التعرف عليه كما ذكر ذلك شامبوليون [..] كل شىء (عند يانج) كان إفتراضاً وحدساً وحزراً فيما يختص بالكتابة الهيريوغليفية . لقد تعود الحديث عن اكتشافات شامبوليون على أنها إمتداد لإكتشافاته هو [..] إن هذا إتهام مشين .

« إن اكتشافات عام ١٨٢٢ تلتها اكتشافات أعظم . الأبجدية الصوتية كانت مفتاح (حل الشفرة) ليس فقط بالنسبة للأسماء اليونانية والرومانية وإنما لأسماء كل العصور [..] لم يكن فى إمكان شامبوليون أن يتعلم شيئاً من يانج أو من أى فرد آخر . من خلاله هو وحده ومن خلال منهجه تمكن عالم المصريات أن ينطلق ليحتل المكانة التى يحتلها الآن » .

رأينا كيف أن هنرى سوتاس كتب فى مقدمه لطبعة الاحتفال السنوى « لوسالة إلى مسيوداسييه » أن سير بيتر لويج - رونوف تطرف فى التعبير عن استيائه فكان قاسياً أكثر مما ينبغى على يانج لدرجة أنه نفى أن يكون له أى فضل فى الاكتشافات التى وصفها شامبوليون نفسه أنها « هامة » وذلك فى « ملخصه » الصادر عام ١٨٢٤ وفى محاضراته الافتتاحية فى الكولاج دو فرانس عام ١٨٣١ ... صحيح أن يانج لم يتوقف فقط عند التعرف على اسمى بطليموس وبييرنيس وأن المجموعات التى أمكن التعرف عليها كانت عديدة وتعد بالعشرات ولكن النقطة الحاسمة فيما قاله لويج - رونوف هى التى تتعلق بالجانب « الحدسى » و « الفرضى » والميكانيكى لجميع خطوات مواطنه .

أن التوضيح الذي جاء على لسان سير بيتر لويج - رونوف أمام جمعية علم الآثار فى بلمزبورى ومهما بلغ من علنية ومهما بلغ صاحبه من أهمية وشهرة فهو لم يكن كافياً لوضع حد للجدل الدائر . إذا بعد سبعة عشر عاما حرر أحد نظرائه كتيباً بعنوان « حجر رشيد » * (1913) The Rashead Stone عادت فيه العلاقة بين شامبوليون ويانج إلى الإطار الذى وضعها فيه يانج لنمر كالكرام على الأخطاء أو التقريبات التى تمتلئ بها القصة التى يسردها العالم مستر بادج عن اكتشاف حجر رشيد ونقله إلى لندن - فهو يتكلم على صفحات بأكملها عن « نابوليون » وذلك قبل عدة سنوات من تتويج بوناپارت ويؤكد أن نسخاً من النصوص المنقوشة على الحجر وزعت على « جميع جامعات أوروبا » - وسبق أن رأينا أن شامبوليون كان يشتكى من عدم حصوله على نسخه واحدة منها - ثم أن يقبل الرموز الموجودة داخل خرطوش بطليموس كما هو محفور فى حجر رشيد بدلا من الذى يزين مسلة كليوباترا التى اكتشفها بانكس فى فيله (لأن ذلك يخدم براهينه لأن يانج إرتكب أهم أخطاءه لدى ترجمته العديد من رموز خرطوش رشيد) .

ولكن فلنترك المكان لسير الفرد واليس بادج نفسه :

« .. فى عام ١٨٢٢ قائمة الحروف الأبجدية المصرية التى وضعها يانج صححها وأكملها ** ح . ف - شامبوليون الذى تمكن فيما بين هذا التاريخ وسنة وفاته من حل شفرة أشكال هيروغليفية لأسماء وألقاب العديد من البابطة الرومانيين *** ووضع قائمة للهيروغليفيات ووضع منظومة للقواعد ولحل الشفرة التى هى الأساس الذى أقام عليه علماء المصريين أبحاثهم وأعمالهم بعد ذلك .

أف .. قالها فى النهاية !! ولكن يبقى فى ضمير القارئ وكذلك زائر البريطش ميوزيوم حيث يقدمون يانج عام ١٩٨٧ وحتى الآن على أنه هو أول المكتشفين ولا يزال هو الرجل العبقري الذى إخترق الحواجز واكتشف المبدأ الجوهرى للجانب الصوتى للكتابة المقدسة وبدأ بالفعل حل الشفرة إلى أن جاد أحد التلاميذ المجدين وتمكن من « استكمال » أعماله بفضل تقنيته فى المقارنة الجيدة .. بعد ما يقرب من قرن من محاضرة ٢٧ سبتمبر ١٨٢٢ لا يعتبر هذا تعبيراً عن تفتح فكرى : ولكن تغير الحال بعد ذلك وأعدت المدرسة الانجليزية تقييمها لعلم المصريين بصورة جوهرية ومتعلقة .

* الكتاب الذى يباع الآن فى البريطش ميوزيوم بقلم كارول أندروز (١٩٨١)

** هو نفس التفسير « اليانجى » للتلميذ أو « المعاون »

*** سبق أن رأينا لى درجة يجافى هذا العرض الواقع .

أفضل دليل على ذلك نجده في المقالات المخصصة ليانج ثم شامبوليون في الطبعة الثانية ١٩٩٩ من Who is Who in Egyptology الصادرة عام ١٩٧٢ بقلم وارن دواسون وإيريك أبهيل . يصف عالما المصريات البريطانية مواطنهم بأنه « رائد » كانت « اكتشافاته على الرغم من جزئيتها أبعد ماتكون عن التفاهة وإن كانت لا تقارن باكتشافات شامبوليون في حين أن صاحب « رسالة إلى مسيوداسييه » قدم بوضوح تام على أنه : « الأب المؤسس لعلم المصريات » .

المدهش في الرفض المستمر للمدرسة الانجليزية لقبول الواقع هو أنها لم تعر اهتماماً كبيراً لرأى أشهر علمائها جون جاردينر ويلكنسون الذي أقام في مصر منذ ١٨٢٠ وكان بانكس ويانج قد حذراه من شامبوليون حتى أنه رفض مقابلته وكان يتكلم عنه دائماً بسخرية . ثم إذبه عنداه وفاة أبي علم المصريات تقدم له تحية لا مثيل لها * .

مهما بلغت درجة الضراوة التي إتسمت بها الهجمات التي إنطلقت عبر بحر المانش فإنها لم تكن المصدر الذي خرج منه أعنف هجوم وأكثره تركيزاً ضد شامبوليون .
العنف كله خرج من باريس وكان « التارتار » هو أشد المدعين العموميين شراسة .

ولد هنريس يوليوس كليريوت في برلين عام ١٧٨٣ قبل جان - فرانسوا بسبع سنوات كان يقال أنه من أصل قوقازي ومن هنا جاءت كلمة « التارتار » وكان عضواً في أكاديمية سان بيترسبرج وتمكن من العديد من اللغات الآسيوية مثل السنسكريتة والصينية واليابانية وأقام في باريس منذ عام ١٨١٥ فارضاً وجوده كأستاذ في الدراسات الشرقية وكانت له علاقات طيبة مع شامبوليون . ومع ذلك فهو لم ينتظر وفاة المكتشف للتعبير عن تحفظاته . ولكنه نشر في ١٥ سبتمبر ١٨٣٢ بعد ستة شهور من وفاة « المصري » - وأسوء حظ كليروت قبل بضعة شهور من نشر كتاب « القواعد » ، كتابه دراسة نقدية في أعمال المغفور له شامبوليون في الهيروغليفيات (8) وتسبق العنوان حكمة من بلين باللاتينية Nitor Verius Quam splendor (ابحث عن الحقيقة قبل الفخامة) .

مع قراءة الجملة الأولى تضح الأمور في أعين القارئ لأن الناقد عندما يستهل كتابة بالقول أنه لا يهدف « أبداً إلى التقليل من شأن ما يستحقه أحد » فمن المؤكد أنه يدخل الحلبة والخنجر في يده .

* أنظر فصل ١٩ ص 635 , 636

كتب كلابروث « منذ عشر سنوات والحديث المتحمس يدور حول اكتشاف الأبجدية الصوتية التي قام به المغفور له مسيو شامبوليون إلا أن عدداً قليلاً من الناس هم الذين يعرفون بدقة ماهية هذا الاكتشاف أو ما أتى به بالضبط . إن الدكتور يانج هو دون أى جدال ممكن صاحب الريادة فى هذا الكشف وكان ذلك عام ١٨١٨ عندما تعرف على الدلالات الأبجدية لمعظم الرموز الهيروغليفية التي يتكون منها إسماء بطليموس وپرينيس [..] وإذا كان من الواجب أن ننظر إلى تحديد قيمة الحروف السبعة على أنها الأساس الذى أقام عليه مسيو شامبوليون أبجدية الصوتية فإن فطنة العالم الانجليزى لم تتخطى هذه الصدفة السعيدة وترك إلى منافسة الفرنسى جنى ثمار المجد الذى يستحقه إكتشاف مبنى على الفكر وقابل للإثبات . »

إن مثل هذا التفكير غير المنطقى يثير الدهشة : إذ كيف يكتب عام ١٨٣٢ أن يانج هو « دون أى جدال صاحب الريادة فى الكشف » ويؤكد أن تحديد مدلول بعض الحروف هو « الأساس الذى قامت عليه الأبجدية الصوتية » ثم يتقهقر فجأة ويسلم سلاحه للشاب القادم من جرونوبل بأن يعترف بأن ما حدث بالنسبة ليانج هو بمثابة « صدفة سعيدة » (ويا له من إعتراف بالفضل هزيل إذا جاء على لسان عالم مثله ..)

وأن « المجد المستحق لاكتشاف مبنى على الفكر وقابل للإثبات » (وهو الوحيد الذى يمكن للعلم أن يقبل به) يعود لشامبوليون . تناقضات كثيرة فى حديث لجامعى من برلين !

ثم يواصل كلابروث بحثه بأن يؤكد على طول فترة الدراسات والمجهودات التي قام بها الباحث الفرنسى . كما لو كان يريد الإيحاء بأن العمل طوال خمسة عشر عاماً فى الموضوع قبل إدراك النجاح يتم عن عدم الذكاء ... وبعد ذلك يقوم بتبديل تاريخ النص الذى ينتقده ويجعله صادر فى عام ١٨٢١ أى قبل عام من تاريخه الصحيح . ويقول أن شامبوليون قد أكد عام ١٨٢١ أن الهيروغليفيات « رموز لأشياء وليست « الأصوات » وإن هذا الخطأ الكبير الذى وقع فيه المصرى والذى قام بتصحيحه بنفسه بعد ذلك وهو الخطأ الذى أثبتت منظومته اللاحقة كلها عكسه ... إن إبراز هذه النقطة بعد إثني عشر عاماً تعنى أن مكتشفاً من المكتشفين لم يكتشف شيئاً لأنه كان يتحسس طريقه قبل إكتشافه بساعة واحدة .

ثم يتحول كلابروث إلى تحليل « الپانتيون » و « الملخص » ليزيد من خطورة إتهاماته : « يجب أن نشعر بالأسف نحو شامبوليون لانه ترك مسيرته المنهجية التي

نهجها فى عمله الأول [...] إذا أن الصدق الذى يتسم به هذا النص إعتراف به كل المحايدين . كم كنا أحرى بمسيو شامبوليون ألا يترك أبداً هذا المنهج فى أبحاثه التالية .. « وهكذا فإن الإتهام الذى يوجهه كلايروت لشامبوليون المتوفى هو عدم الأمانة الفكرية . أن يختلف فى رأى حول إلابديوجرافية والفونيتيكية وحول الأدوار الخاصة التى أداها كل من يانج وشامبوليون كان من صميم حقوقه الشخصية . ولكنه أن ينتظر وفاه المكتشف ولا ينتظر نشر « كتاب القواعد » الذى نشر بعد الوفاة وهو الكتاب الذى توقعت أوروبا العلمية كلها أنه سيكون الوصية العلمية التى تركها صاحب « رسالة إلى مسيو داسييه » لكى يطلق هذه الدفعة من الإفتراءات والانتهاكات كل ذلك يعطى فكرة عن ماهية شخصية كلايروت . الذى زاد من بشاعته وهو يكتب مايلى : (9)

« إذا كان من الواجب اعتبار الهيروغليفيات رموزاً لأصوات فإن حل الشفرة يصبح سهلاً [..] إن الأمل الذى نجم عن هذا الافتراض قد أثر كثيراً على الاتجاه الذى سلكه مسيو شامبوليون فى أعماله الأخيرة . والإمكانية التى لاحت له بأن يقرأ أخيراً (!) الهيروغليفيات لو إتضح أنها بالفعل رموز صوتية قد شاركت دون شك بقدر ليس بالقليل على إقتناعه بأنها بالفعل كذلك ! »

طريقة تفكير مذهله ! : فلأن أن القيمة الصوتية للمنظومة الهيروغليفية كانت أكثر « سهولة » لأن هذا ما يناسبه - أن اكتشف شامبوليون هذه القيمة . لماذا إذن لا يؤكد بالدليل والحجة أن جاليليو أكتشف أن الأرض مستديرة لأن إثبات ذلك كان جلياً أو أن كولومبوس اكتشف أمريكا لكى يريح بحارته المرهقين .

لم يكتفى كلايروت بذلك بل ذهب إلى القول « لاشئ يسمح أو يبرر [..] ذلك الافتراض (أى القيمة الصوتية للهيروغليفيات) وإذا سايرنا المكتشف « فإنه لا يوجد شئ لا يمكن أن نجده فى مخطوط [..] تدشين معبد ، مدح أميرة ، [..] قصة فتوحات سيزوستريس » وإن باحثاً جيداً إذا أعطى مؤشراً عادياً على أن ما يبحث عنه فى خراطيش الآثار المصرية هو أسماء ملوك مصر المختلفين الذين جاء ذكرهم فى كتب الأقدمين وهى مكتوبة بحروف أبجدية بعد قليل من الحروف المتحركة . لتوصل إلى نفس النتائج التى توصل إليها مسيو شامبوليون . »

يعنى ذلك أنه بعد أن أتهم الفرنسى فى نزاهته الفكرية راح كلايروت ينعته بالغباء لأنه إحتاج لوقت طويل لحل شفرة كتابات « لم يكن من الصعب اكتشاف معناها » وأنه بعد أن أثبت عدم بصيرته فإن مشعوذ جرونوبل « قد إخترع بنفسه بعض الكلمات

وأنشأ بنفسه اللغة « التي كان مطلوباً منه فك شفرتها . لدرجة أنه لكي « نثبت سطحية الافتراضات الموجودة في أعمال شامبوليون » « فلعلنا نحتاج لعدد من الصفحات يوازى ما ملأه هذا العالم في أبحاثه »

في النهاية وبعد أن كلَّ من الطرق على صدفة فارغة التي هي أعمال هذا الرجل الذي لم يفعل شيئاً سوى أنه اكتشف ما كان في متناول أى فرد وأنه فعل ذلك بالاجوء إلى الفن و « الافتراضات التي لا أساس لها » إكتفى كلايبروث بأن يخلص إلى أن حل شفرة الهيروغليفيات بمعنى الكلمة ليست في متناول « الفكر الناقد الإنسانى » إنما « الحدس الإلهى فقط هو الذى بإمكانه إحداث هذه المعجزة » وهو بذلك قد منح جان - فرانسوا شامبوليون أكاليل غار لم يحلم يوماً بالحصول عليها . الحدس الإلهى ...

إن أكثر ما يصدم المرء من كلايبروث هو التوقيت الذى أصدر فيه منشوره . فلو أنه كتب ما كتب عام ١٨٢٣ أو حتى ١٨٢٥ غداة نشر « الرسالة » أو « الملخص » لكان ذلك مقبولاً منه . إنما هو فعل ذلك في فترة زمنية كان جان - فرانسوا شامبوليون قد أحضر فيها سواء من إيطاليا أو من مصر على وجه الخصوص كما سنرى جميع الإثباتات التى تؤكد صلاحية منظومته فى القراءة ، وهو ما سيؤكدده بعد ذلك جميع (تقريباً) علماء المصريات . ولهذا السبب رأينا إبراز هذه المحاولة اليائسة للنقى . لا لكونها حدثاً علمياً وإنما كعملية غوص فى تاريخ الانفعالات الإنسانية .

لم يغلق ملف القضية المثارة ضد شامبوليون قط ، سواء فيما يتعلق بأسبقية الكشف أو حتى بالجانب الجوهري الفاعل فى منهجه . فيما يختص بالنقطة الأولى سنذكر الملحوظة المستنيرة والثاقبة جداً التى جاءت على لسان عالم المصريات البلجيكي جان كايار !

« من النادر التوصل إلى إكتشاف كبير نون أن يكون هناك من يدعى وله فى ذلك بعض من الحق - فى الإدعاء بأنه تمكن من الوصول إليه من قبل . فيقال مثلاً أن إكتشاف مسيو ومدام كورى للراديوم أصلها البعيد ملحوظة لمسيو باكرال عن أملاح اليوران . علماً بأنه لا توجد علاقة مثل القائمة بين محاولات يانج وإكتشاف شامبوليون [..] وإن تكرر بما فيه الكفاية أن يانج لم ينجح قبل شامبوليون فى قراءة ليس سطرين من مخطوطة هيروغليفية ولكن ولا أى جزء من جملة واحدة . أنه لم يفعل سوى التخمين بنسبة نجاح أكبر مما نجده فى محاولات سابقة » (10)

أما فيما يتعلق بالنقطة الأخرى - هل توصل شامبوليون - سواء قبل أو بعد آخرين في تقديم منهج سليم لفك شفرة الهيروغليفية؟ فسيظهر كل خمسة عشر أو عشرين عاما شخص ينقى ذلك . وهكذا نشرت صحيفة لوفيجارو منذ فترة مقالا بقلم متخصص في « أسرار المصريات » يشك في أى قيمة علمية لصاحب « رسالة إلى مسيو داسيه » . وإذا نذكر هذه الخزعبلات فذلك لأننا نذكر بأن كتابة أية سيرة لا تجد لها نهاية أبداً كما أن أى رأى يمكنه أن يجد منبراً ليعبر فيه عن نفسه .

فهل نختار إعطاء الكلمة النهائية لجان - فرانسوا شامبوليون : لا يوجد شئ اسمه « كلمة نهائية » فى المادة العلمية . إلا أن « المصرى » كتب هذه الكلمات البسيطة التى يمكن أن نختم بها كلامنا فى هذا الموضوع :

« أنى لن أطالب بشئ . سأترك إلى الذين يعرفون الموضوع التفريق بالعدل بين ما قمت به وبين ما فعله الآخرون وأن يقولوا ماذا كان عليه وضع الدراسات المصرية عندما التقتها والنقطة التى أوصلتها إليها (11) »

١٣ - الطريق إلى ممفيس يمر من تورينو

قصة حب - ثلاث قوادين - دور جومار - استقبال البييمونتيين الحار - « إنه لشئ مذهل » - الخطابات المرسله للنوق دو بلاكاس - الفن المؤسس .. « سباضى » - مجموعة سولت - أكاديمى نعم « من وراء جبال الألب » لا - بايستوم ومصر - قبعة الكاردينال ؟ - مسلة من الورق المقوى .

يوجد بين جان فرانسوا وإيطاليا ما يجب تسميته قصة حب . ليس لأن المرأة التى أحبها أكثر من أى امرأة أخرى كانت تقرض الشعر بحماس من نارى أحد موانى مقاطعة توسكانى فحسب وإنما لأنه صاحب كتاب «البانتيون» أقا ، مثلما فعل هنرى بايل (ستاندال) الذى يكبره سنا وهو أيضا من مواطنية - علاقات مفعمة بالعواطف الجياشة مع أهل البلاد الواقعة وراء جبال الألب سواء كانوا سادة صغار أو سيدات عظام ، وزراء أو حوذية ، ثوار أو ملكيين ، مرشدين أو متسكعين مجرمين أو بحارة ، متصوفين أو ملحدين ، رجال علم أو قانون ، مخادعات أو سيدات مخادع ، رجال بنوك أو شحاذين ، شعراء أو عتالين علماء فى اليونانية أو فى النباتات ..

كانت علاقة عل درجة من العاطفية والإلهام جعلته يتنوق هناك ما كان يكرهه هنا ابتداء من رجال الكنيسة . حتى ليخال المرء أنه ما أن عبر قمة جبل مونت - سينييس إلا وكان « سواد » ، رجال الكنيسة قد خفت حدته فى عينيه وقد أصبح أكثر مرحاً . سنراه يصادق الأباء والمونسنيورى بل والكرادلة أيضاً - حتى البابا نفسه أقام معه تحالفاً طريفاً .

لا تهم هنا مسألة أصول أجداده وهل كان أصل اسم أجداده هو سكياميليونى أو كامبوليونى أو كان أبوه التاجر المتجول يتسكع طويلاً عند منطقة الحدود الفاصلة بين الدوفينييه والساقوا والبيمونت : كل ذلك لقيمة له بالنظر إلى العلاقات التى نسجتها الحياة والبحث والعلم والفن والصدقة والحب بين المكتشف وما كان يطلق عليه فى ذلك الوقت البلاد الإيطالية .

مثل ستاندال الذى جعل أجمل رواياته تحدث فى دير لايقع فى جرونوبل ولكن فى پارما وأن يضىفى على شخصية وزى شرطة أحد الطغاة كل هذا السحر ، فقط لأنه إيطالى (وفى حالة حب) ، فإن شامبوليون يجد فى رجال الدين ألف صفة جميلة وكذلك لدى الدبلوماسيين ورجال البنوك طالما هم بييمونتيون أو توسكانيون أو من رعايا

ملك الصقليتين . سنرى طبعاً السخرية تظهر على السطح من وقت لآخر فيما كتب عن مواعيد وسائل النقل أو لامبالاة رجال المكاتب أو بعض مجرمي كلابريا . إلا أن اللهجة التي كتب بها خطاباته من وراء جبال الألب كانت مفعمة بالحنان ولدى عودته النهائية إلى فرنسا فى نهاية ١٨٢٦ سيكتب من بولونيا يقول إنه سيكون « ناكراً الجميل لو أنه لم يكن إيطالياً القلب » .

عندما يصفه عالم المصريات البيمونتي سيلفو كورتو بأنه « ابن أشهر من أبناء فرنسا » ولكن أيضاً من أبناء إيطاليا « فإن ذلك لا يعتبر عملية سرقة ميراث . لم يقض المكتشف سوى ثمانية عشر شهراً خرج وراء جبال الألب . غير أن الغنيمة الفكرية والعاطفية التي خرج بها من هناك لها ثقل ضخم فى حياته وفى أعماله ، وسنسمعه يردد كثيراً حتى ١٨٢٤ أن الطريق إلى ممفيس وطيبة يمر من تورينو . المرحلة الأولى من غزوته - أى اكتشاف الشفرة - قامت على حجر رشيد المرحلة الثانية - أى كشف الحجاب - جرت فى إطار متحف أكاديمية تورينو - إنتظاراً للمرحلة الثالثة - أى الغوص - فهى التى ستجرى على ضفاف النيل .

إذا كان قد أقدم على هذه الرحلة فى البداية قبل أن تطأ أقدامه أرض مصر المقدسة - من تورينو إلى روما من أجل اكتشاف البراهين الملموسة على تفوق الفن الفرعونى وإذا كان قد توصل لذلك بما يتخطى أماله جميعاً - فهو لم يبحث عن أخفاء إعجابه بمجموعة الآثار الرومانية وكذلك وليس بدرجة أقل آثار يومپيى وبايستوم . بالنظر إلى هذه الروائع زاد إنتقاده لپاريس بأكثر مما فعل من قبل ، هذه المدينة التى تسودها حياة الصالونات والعبث وتعم فيها الغيرة التى لم تعرف كيف تجمع الكنوز التى يتحتم عليه أن يذهب إلى تورينو لإكتشافها ... إنه يحب « حياة » نابولى و « عظمة » روما و « حرية » فلورنسا . إنه يحب إيطاليا .

ولكن أكثر الغراميات طهارة تنتظر « الوسيط » وقد قام رجال بهذه المهمة التى طالما يتم التتديد بها وهم لودشيكو كوستا وبيرناردينو دروفيتى ولويس - كازيميرد وبلاكابس الاسم الأخير سبق أن عرفناه جيداً . أما الأخران فبصورة أقل .

لعلنا لم ننسى المهمة التى أنيطت بأصغر الأخوين شامبوليون لدى عودته من « منفاه » فى فيجاك عام ١٨١٨ وهى دراسة أرشيف مقاطعة الدوفينييه والأوراق التى قد تؤكد صحة مطالبات بعض العائلات الإيطالية . وإنه قام بأبحاثه وهو على إتصال

بممثل لملك بيمونت وساردينيا . رأس عائلة ساڤويا . هذا النظير هو الفارس لودويكو كوستا . والعمل المشترك تولدت عنه علاقة صداقة حقيقية بينهما .

لدى عودته إلى تورينو ، إقترح كوستا على حكومته تعيين أستاذ جرونوبل في مركز دبلوماسي في بلاد الشرق أو في وظيفة تعليمية في البيمونت . وكان ذلك قبل عدة سنوات من بلوغ جان فرانسوا الشهرة . على الرغم أن الاقتراح قد رفض فإن مسئولى تورينو كانوا يركزون نظرهم على هذا المثقف الدوقيتى الذى تربطه بأحد نبلاهم الشبان الأكثر موهبة علاقة صداقة وهو علاوة على ذلك محب لإيطاليا بشكل واضح . وأصبح كوستا بذلك همزة الوصل الحية بين شامبوليون وتورينو .

قبل ذلك بربع قرن ومن نفس هذا البيمونت خرج برناردينو دروفيتى محامى بارنايبيا الذى أعجب بالثورة الفرنسية ثم وقع فى سحر الجنرال بوناپارت هذا النيزك الذى هبط من فوق جبال الألب عام ١٧٩٦ لكى يخضع أوروبا الأمراء وكبار رجال الدين . وقد خرج جيش بيمونتى لينضم إلى جيشه بعد موقعى أركول وريڤولى وكان المحامى القادفام من بارنايبيا أحد مستنفرى هذا الجيش إلى جوار الجنرال كولى وأظهر شجاعة وبساله في مانتوا . وعندما قرر المنتصر فى أركول الإتجاه إلى الشرق إختار دروفيتى الذى أصبح برتبة نقيب أن يتبعه إلى هناك .

هل أصبح ياورا لمورا ؟ أن اسمه لا يظهر فى تقارير الحملة إلا أننا نقرأ إسمه فى أحد النصوص يقول أنه شارك فى معركة مارنجو . وبما أن المعركة دارت فى ١٤ يونيو ١٨٠٠ فى الغزوة التى كان الجيش موضوعاً تحت قيادة كليبار ولا يزال على أرض مصر فلا بد وأن دروفيتى كان مرتبطاً بأحد المقربين لبوناپارت (مثل ملك نابولى القادم) حتى يتمكن من الأبحار عام ١٧٩٩ على المويرون (المركب الذى هرب عليه بوناپارت) . إلا إذا كان ذكر اسمه فى تقارير معركة مارينجو كان بدافع من حب المؤرخين البيمونتيين له .

ما حدث هو أن بفضل القنصل الأول (بوناپارت) أصبح دروفيتى عام ١٨٠٣ * فى مصر قنصلاً لفرنسا فى إسكندرية فى الوقت الذى كان فيه ماتيو دوليسبس ينهى مهمته هناك . وكان دروفيتى قد بدأ مهمته مساعداً له . لا يمكن أن نعرف ما الذى كان

* بعض المصادر الأخرى تقول ١٨٠٢

سيفعله دروفيتى لو أنه بقى على أرض وطنه خلال الريسورجيمنتو * . إن مواهبه التى إستخدمها فى مصر تكشف فى جميع الأحوال عن شخصية غير عادية ولو أن ضميره لم يكن دائماً على نفس مستوى جسارته وخياله ولكن سيظل اسمه مرتبطاً إلى الأبد ببناء الدولة المصرية على يد محمد على والذى كان له أحد المعاوين الأجانب الأكثر استمرارية وكفاءة . ومرتبطة أيضاً بمولد علم المصريين الذى خدمه - بخير أو بشر ناهباً للكثار فى جشع وبعبقرية (لا مثيل لها) .

مهما كان تقييماً لهذا المغامر الذى جعل - مثلما فعل زميله البريطانى هنرى سوات - من السرقة المنظمة الفرع الأكبر لعلم المصريين فإنه الرجل الذى خصص له فرانسوا - دوشا تويريان هذه السطور من كتابه « رحلة ... » من باريس إلى القدس :

« طلبت إيصالى إلى مسيو دروفيتى ** قنصل فرنسا فى اسكندرية . تكلمت حتى الآن عن قناصلنا فى الشام يفر بما يفرضه على واجب الاعتراف بالجميل لما قدموه لى . هنا سأذهب إلى أبعد من ذلك وأقول أننى أقمت مع مسيو دروفيتى علاقة أصبحت صداقة بمعنى الكلمة مسيو دروفيتى وهو رجل عسكري متميز ولد فى إيطاليا الجميلة إستقبلنى بالبساطة التى تميز الرجل العسكري وبالحرارة التى تنشأ داخل الأشخاص الذين يعيشون فى محيط مشمس سعيد . لا أدري أن كان هذا النص سيقع بين يديه فى الصحراء التى يقيم فيها الآن . وإن كنت أود ذلك حتى يعرف أن الزمن لا يضعف أبداً أحاسيسى نحوه وأنى لم أنس قط التأثير الذى عبر لى عنه وهو يودعنى على الشاطئ : تأثر نبيل للغاية عندما مسح بيد معاقة فى خدمة بلده دمعة عبرت عن هذا التأثير . لا أملك رصييداً ولا حماة ولا ثروة . ولكن إذا حدث وكان لدى كل ذلك فلم أكن لاستخدمها وبكل سعادة سوى لصالح مسيو دروفيتى » (1) ..

بهذه « اليد التى تشوهت وهى تخدم بلدها » قاد حملات أقل فى عسكريتها عن زمن أبى قير . لأن الحملات التى قادها ومعه ضابط فرنسى يدعى بوتان والمستكشف النانتى كايو بطول نهر النيل وحتى الشلال الأول ثم فى واحتى الدخلة وسيوه تحولت بسرعة إلى أهداف أثريه وهى لم تكن نزيهة .

فى حين لجأ زميله الانجليزى سولت إلى معاونة جان باتستا بلزوني « عملاق بادوفا » لينتزع من وادى الملوك ثرواته ، لجأ دروفيتى إلى خدمات المثال إبن مدينة مارسيليا جان جاك ريفو الباحث عن الآثار الذكى الذى قام بتقطيع معبد الكرتك

* * النهضة « بإيطالية وتطلق على الحركة الفكرية والسياسية التى أدت إلى توحيد إيطاليا فى القرن التاسع عشر (المترجم)

** المقر السابق لكليبار - وكان دروفيتى يربى فيها الحمام والسمان .

بمنهج منظم من ١٨١١ حتى ١٨٢٧ . الملاحظ في هذا الصدد أن قنصلي القوتين الأكثر تأثيراً في مصر كان مثالا يحتذيه ممثلو أو مبعوثو النمسا وبروسيا والسويد أسيربي ومينوتولى وإنستازى . كانت هذه هي العادات المتبعة في ذلك الوقت : إذا نحن نذكر ذلك فهذا لايعنى أننا نؤيده .

نقول باختصار أن في عام ١٨١٦ أصبح برناردينو دروفيتي على قمة مجموعة عظيمة من التماثيل والألواح والباروليف والأدوات الجنازية والبرديات ومعظمها مأخوذة من مقابر طيبة وتعود إلى الإمبراطورية الحديثة . ولما كان صنيعه يونابارت فقد أصبح مغضوباً عليه من بلاط فرنسا الذي تغلل بأصوله الأجنبية وعين مكانه بيافوان .

أصبح دروفيتي بدون دخل ثابت إلى أن أعيد إلى مركزه في عام ١٨٢١ - فحاول بيع مجموعة الآثار التي جمعها بأن توجه في بادئ الأمر إلى مواطنيه في الليمونت الإيطالي ولكنهم رأوا أنهم لا يمكن المبلغ المطلوب . ونفس الشيء حدث بالنسبة للسلطات الفرنسية ولو أن السبب الرفض لم يكن ثمن الصفقة ولكن شخصية البائع السياسية وربما أيضا للمخاطر مثل الذي تسبب فيها الزودياك التي قد تتسبب فيها أى آثار تعود إلى العهود القديمة في مواجهة تعاليم الكنيسة .

عاد دروفيتي إلى أهل بلد في الليمونت بعرضه بعد أن سنحت فرص لذلك عندما سافر الكونت كارلوفيدوا إلى مصر والنوبة عام ١٨٢٠ وهو من الرحاله المشهورين وتمكن من رؤية روائع مجموعة القنصل السابق في الاسكندرية . وعند عودته إلى تورينو ضغط على أصدقائه ذوي النفوذ بروسييرو بالبو وشيزارى دى سالوتزو لكي يقنعا ملك بيموتى للحصول على المجموعة الأثرية .

في نفس الوقت كانت المفاوضات قد بدأت من جديد بين نون بيرناردينو دروفيتي (الذي أعيد إلى منصبه وألقاه كقنصل لفرنسا) وباريس . وإعتباراً من شهر سبتمبر ١٨٢٢ فأصبح شامبوليون الذي تحوط به هالة أكتشافه أحد أشد المؤيدين لشراء مجموعة دروفيتي . وكان هذا الأخير يلح على سرعة استقبال المكتشف في مصر وعلى مشاركته له في « أبحاثه » .

في ١٥ يناير ١٨٢٤ علم صاحب « رسالة إلى مسيوداسييه » أن بلاط تورينو اشترى في نهاية المطاف مجموعة دروفيتي وعلى الرغم من أن ذلك كان من المفروض أن يكون في إتجاه ميوله الإيطالية إلا أنه تلقى الخبر كما لو كان هزيمة شخصية له . إذ أن الرفض الذي قبولت به طلبات صديقه بلاكاس الملحة كان بمثابة إيقاف لإنطلاق سلطته الوليدة .. جومار هو الذي أقنع كوريبار بأن يتحدى إرادة صديق الملك الأثير .

إذ كان يعلم وهو المسئول عن « وصف مصر » أن وصول المجموعة إلى باريس سيكون بمثابة تنويع لاكتشاف سبتمبر ١٨٢٢ : وهذا بالتحديد ما كان يخشاه جومار لو كان حلم حياته هو أن يدير بنفسه متحف باريس المصرى اليس هذا هو التطور الطبيعى لحياته العملية أو حقة المكتسب ؟ « كشف » « مقابل » « وصف » : سيستمر هذا الجدل فى تسميم جو سنوات المراهقة لحياة علم المصريات .

مهما بدأ تصرف جومار مدمراً فى نظر المؤرخ فى القرن العشرين وهو يميل إلى رؤية كل شئ من خلال نظرة شامبوليون له إلا أن من الصعب إدانته دون تروى . فقد كان جومار صاحب مشروع إقامة متحف وإقتناء مجموعة أثرية .

من عام ١٨١٩ أرسل إلى وزير الداخلية خطاباً يتحدث فيه عن مشروع إقامة « قاعة للأثار المصرية فى متحف اللوفر » تضم إلى آثار « تسترد من لندن » وإلى نسخة من « حجر رشيد المشهور » و « مجموعة درويفيتى » .. وهى أجمل ما عرف عنه الآثار المصرية .

عالم الجغرافية الذى شارك فى الحملة على مصر كان قد تلقى خطاباً من برناردينو درويفيتى يمتدح فيه الروائع التى جلبها من مصر العليا بمساعدة ريفو ويعبر فيه عن أمله « أن تكون فرنسا التى يحبها بكل جوارحه منذ عشرين عاما كوطنه » هى التى تحصل على مجموعته لوضعها فى متحف باريس .

لأن جان - فرانسوا شامبوليون كان على وشك أن يسلبه سلطانه فى المجال المصرى عندما أصبح اسمه ومجده كمكتشف مرتبطين باقتناء مجموعة درويفيتى أصبح أدم جومار مناهضا للعملية وتوصل إلى إقناع رئيس الوزراء كوريبار والملك بعدم الإلتفات لها .

من رفض باريس إلى رفض آخر . وصل درويفيتى إلى مرحلة اليأس واكتفى بتسليم روائعه إلى بلاط تورينو الملكى اليسوا هم مواطنوه ؟ وكانت عاصمة الليمونت - ساردينا مدينة جميلة ويتكاثر فيها الرجال الموهوبون - وإذا نجح فى إقناع شامبوليون بالمجئ إلى مصر فإنه لن يعدم الوسيلة التى تسمح بإيجاد روائع أخرى له .

قرر جان فرانسوا أن يقبل الخسارة بصدر رحب ومادامت المجموعة لن تأتى إليه فسيذهب هو إليها . كان هدفه فى جميع الأحوال هدفاً علمياً . مهما كان موقفة المالى متردياً فإن الشئ الجوهري بالنسبة له لم يكن الحصول على وظيفة مدير متحف ولا حتى إثراء ممتلكات باريس الثقافية وإنما كان تعميق إكتشافه والتأكيد على تمكنه

الكامل من كتابة ستؤدى قرائتها إلى رفع الحجاب عن أم الحضرات جميعاً . فإذا كانت مجموعة دروفيتى فى تورينو . فالى هناك إذن السفر . وكان قد بلغه أن صديقه لودوفيكو كوستا أصبح وكيلاً للوزارة فما أن بلغه نبأ قرب إقامة مجموعة دروفيتى فى العاصمة البيموننتية حتى أمسك بالقلم وكتب له الزميل عام ١٨١٨ رساله جاء فيها :

« .. كنت أنتظر فى باريس مجمعة دروفيتى للأثار المصرية التى هى متحف متكامل كانوا يمنوننا باحضاره إلى فرنسا . علمت اليوم أن صاحب الجلاله ملك سردينا إقتناها وإن يكون العلم قد فقدها إذن مادمت أصبحت من ممتلكات عاهل عمل أجداده الكثير لصالح الآداب وولد خدم علماءه العلم خدمات جلية [..] تنشر فى باريس ولندن وفيينا وفى بروسيا وروسيا أنباء كل ما يصل من آثار مصرية . وسيصبح الكتالوج المفضل لمجموعة دروفيتى حيث يوصف ويشرح كل شى شرحاً وافياً حتى لا يحتاج العلماء مشاهدته بذاته - سيصبح كتاباً ودليلاً هماً للغاية بالنسبة لهم . المخطوطات فى البرديات هى أيضاً ذات أهمية كبرى [..] فهل تعتقدون أن حكومتكم ستقرر عمل هذا الفهرس وهذا التيبوب بصورة تخدم الآداب ؟ ، فى هذه الحالة ساكون على استعداد للذهاب إلى تورينو للإقامة فيها لبضعة شهور (..) ولما كنت أمضيت حياتى كلها أدرس الآثار المصرية ولما كانت لى فى هذا الصدد أعمال رأت أوربا العلمية أنها ذات أهمية فإنى على يقين من أننى أفضل الاشخاص استعداد لتيبوب وتنظيم المجموعة الهامة التى إقتناها مليكم فى فوس (2) »

لا يمكن أن يكون المرء أكثر وضوحاً وبيئاً : ولكن لايكفى أن تكون شامبوليون وأن تتقدم بنفسك لى توجه لك الدعوة . فكان على الفارس كوستا وعلى الكونت بالبو - وعلى الرغم من قوة تأثيرهم فى تورينو - ومهما كانت رغبتهم شديدة الاستقبال الباحث الفرنسى فيها فقد كان عليهما للوصول إلى غرضهم تخطى الكثير من العوائق وعلى رأسها إرتياب الملك المحافظ كارلو - فليتشى إرتياباً مفهوماً جداً من « الجاكونى الجرونولوازى » .

هل كان ملك بيمونت - ساردينيا رجعيماً بالدرجة القاتمة التى وصف بها * ؟ على الرغم من أنه هو الذى اشترى هذه المجموعة المحملة بالأخطار العظمى التى جعلت المتدينين فى باريس يرتعدون خوفاً منها ، وكان يحضر بانتظام جلسات الأكاديمية

* كان يطلق عليه أحياناً لقب ملك سردينيا وأحياناً أخرى ملك بيمونت سردينيا وكان متزوجاً أخت ملك فرنسا القادم لوى - فيليب .

البيمونتية . (قال بعضهم أنه كان يهدف بذلك حسن السيطرة على مداواتها ..) فى حين يؤكد البعض الآخر أنه لم يتخذ « الخط المتطرف » سوى لإرضاء ملوك الحلف المقدس حيث أن أمنه كان مرتبطاً بهم . أما الواقع فهو إذا كان قد سمح لباليو وكوستا بدعوة جان - فرانسوا شامبوايون إلى تورينو لعمل فهرس المجموعة الشهيرة فقد حرص أيضاً على إبعاد هذا الزائر القريد من نوعه عنه وعلى الرغم من توصيات بلاكاس (أى لويس الثامن عشر) فهو لم يترك البلاط يشارك قط فى الإستقبال الحار الذى استقبلت تورينو به المكتشف .

ولا يمكن فى الحقيقة فهم أى شئ عن إقامة شامبوايون فى إيطاليا إذا لم نضعها فى إطارها السياسى والثقافى . كان جان - فرانسوا لا يزال يترك وراءه كلما سار فى باريس إحساساً بعدم الإرتياح له . إذ مازال حزب المتدينين وقبيلة المتطرفين يكرهونه ولكنه أصبح الآن محمياً بأمجاده - التى لم تشفع لالجاليليو ولا لكولمبس لدى القضاة ولم تحميهما من العار - ولكنها تمكنت من إحتواء حقد الجبناء . ثم هو الآن من أصدقاء صفى الملك .

كان تدخله فى قضية الأبراج السماوية قد أضعف بعض الشئ من كره « طافئ الأنوار » له إلا أنه زاد من حدة توتر حزت جومار ضده . وهكذا فقد فى أعين كثير من الناس قنصوته الحمراء (أى ثوريتيه) دون أن يحظى على الرغم من ذلك بتأثير معشر العلماء كله .

أكاديمية المخطوطات كانت تبعده عنها مؤكدة بذلك أن العبقريّة يجب أن تتحلى أيضاً بالصبر .

فيما وراء جبال الألب كانت الأمور فيما يتعلق به أبسط : كان رمزاً للتنوير . إستقبله الليبراليون كمخلص استعوض عن أسلحة بوناپارت بالمعرفة لمواجهة الأظلام . استقبل المكتشف استقبال المحرر من القيود ومن هنا جاءت الريبة التى سيطرت على بلاط تورينو وهى توازى فى أهميتها حسن استقبال الأرسقراطية المتنورة له وعلى رأسها باليو وسالوتزو وأمثالهما .

الشئ المدهش هو أن جان - فرانسوا شامبوايون لم يكن يمثل فى نظر قطاع كبير من رجال أكهوت الذى هو أكثر رجعية من مثيله الفرنسى ، المناضل المناهض لرجال الكنيسة كما كان بالفعل - وإنما كان ينظر إليه على أنه المدافع عن التسلسل التاريخى التورانى .

- وسنرى آثار ذلك الطريقة فيما بعد - المهم هو أن حفاوة الليبراليين به لم تضره من وجهة نظر أصحاب الرداء الأسود . هكذا فإن العالم فيما وراء الألب كان

يفعل مثله عندما تتعلق الأمور بإيطاليا أى أن الرموز التى تظهر حوله كانت تتوجه باستمرار لصالحه فهو ليبرالى فى نظر الليبراليين ومدافع عن العقيدة فى نظر رجال الدين .

إلا أن العوائق ظهرت أولا فى باريس . وخاصة تلك المتعلقة بتمويل الرحلة . وكان الدوق دو بلاكاس قد جعلها شاغله الخاص إلا أنه أراد أن يكون الملك هو منظمها المعلن وأن يكون سفر شامبوليون محملا على ميزانية المدينته . ولكن صديق الملك واجه معارضة شديدة جعلته يفيد الملك أنه فى حالة رفض الحكومة فإنه سيتولى شخصياً مصاريف الرحلة من حسابه الخاص . لما لها من أهمية علمية . هنا تفتحت سره الدنانير الملكية قليلا .. !) أن الدوق النبيل رأى أن قيمة التمويل ضعيفة ثم أنها جاءت متأخرة .

فكتب فى ٣ مايو ١٨٢٤ إلى شامبوليون « هذا العائق البسيط لن يؤخر تنفيذ مشاريعنا [..] البارون دور وتشيلد سيضع تحت تصرفكم المبلغ الذى ترونه ضروريا لكم . ويمكنكم المغادرة متى أردتم وسينتظر رجال الأدب فى شوق معرفة نتائج أبحاثكم الجديدة »

علمنا من رسالة أخرى بخط بلاكاس أن المبلغ الذى وضع تحت تصرف الرحالة لدى السادة دوروتشيلد هو ثلاثة آلاف فرنكا . وأن راعى الفنون لم يرض أن يترك الباحث يغادر البلاد دون أن يسلمة خطابات اعتماد لتورينو مع جوازات سفره . كان الدوق يريد أن يؤكد بدقة متناهية رعايته التى سيتضح أنها لا تقدر بثمن .

فى ٢٥ مايو ١٨٢٤ وصل جان - فرانسوا إلى جرونوبل حيث تعرف كما سبق أن أشرنا على إبنته . فى ٤ يونيو وصل شامبيرى وها هو يوم ٧ يونيو فى تورينو وهو لا يزال متعبا من رحلته ولكنه سعيد . كتب لجاك - جوزيف !

« تورينو فى ٨ يونيو ١٨٢٤ وصلت صباح أمس يا صديقى العزيز فى حالة صحية جيدة جدا إلى هذه العاصمة التى هى دون شك أكثر عواصم أوروبا تنظيما فى مبانيها * الطريق من سان ميشيل إلى سوز [..] رائع ولكنه يمر بجوار هوات مرعبة [..] يجب أن يكون للمرء رؤيا أليبة ومعتادا على النظر من أعلى إلى أسفل حتى لا يشعر بقلق حاد عند النزول من الجبل .. »

* كلام يؤكد ماهو مؤكد إذ أن تورينو لم تكن فقط « مبنية بنظام » فقط ولكنها كانت رائعة ولا تزال .

استقبل وزير الداخلية « صغير » فى اليوم التالى مباشرة وهو الكونت روجيه دوشولين الذى سلمه التصاريح اللازمة للقيام بابحاثه فى الدروفيتيانا - وهو الاسم الذى أطلق هنا على المجموعة الأثرية والتي وصلت بالقطع الضخمة منها مؤخرا من جنوا محملة على عربات مدافع . ووضعت فى قصر جميل وضع رسوماته فى القرن السابع عشر جوارينو جواينى لكى يكون مدرسة للجيزويت ثم تحول بعد ذلك إلى أكاديمية العلوم . صالات رحبة وممرات واسعة وأسقف عالية وحدائق عظيمة : إنها إطار جميل للجمال .

إذا كنا لا نملك وصفاً بقلم جان فرانسوا عن حادثة : « وجدتها ! » فى ١٤ سبتمبر ١٨٢٢ وكل ما لدينا هو بعض موارده جاك - جوزيف ونقلناه هنا - فإننا نملك وصفاً لإكتشافه السعيد للفن المصرى فى تورينو فى ٩ يونيو ١٨٢٤ . كانت لحظة محملة بالأحاسيس والمعانى أيضا وبنفس القدر ويجب علينا أن نذكر هنا بإسهاب ما وأقاله عنها لأخيه :

« ... منذ يوم ٩ دخلت المتحف المصرى واعتباراً من هذا اليوم وأنا أمضى فيه معظم وقتى .. وآنك متشوق جداً دون شك لمعرفة الأخبار . سأقول لك جملة يتتردد هنا : إنه Questo e cosa stupenda * لم اكن أتوقع ثراءً مثل ذلك . وجدت الساحة مزينة بتماثيل ضخمة من الجرانيت الوردى والبازالت الأخضر . مجموعته إرتفاعها ثمانية أقدام تمثل أمون - رع وإلى جواره الملك حورس إبن امينوفيس الثانى من الأسرة الثامنة عشرة منحوتة نحتاً رائعاً . لم أرى شيئاً بهذا الجمال أبداً . فى الداخل يوجد تماثيل ضخمة جداً أيضا : تمثال رائع ضخم لمفرا - تحتمس فى حاله رائعة كما لو أنها خرجت لتوها من أتليه النحات ؟ تمثال من قطعة واحدة إرتفاعه ستة أقدام يمثل رمسيس الكبير جالساً على عرشه بين أمون - رع ونيث ، عمل رائع ؟ تمثال ضخم لموريس من البازالت الأخضر تنفيذه مدهش ، وتمثال واقف لامينوفيس الثانى وتمثال لبتاح من نفس عصر الأمير . ثم مجموعة من الحجر الجيرى للملك امنحوتب وزوجته الملكة اتارى . تمثال للملك رمسيس العظيم أكبر من الحجم الطبيعى . مصنعة مثل الكاميو من البازالت الأخضر ** .. رائع [..] ولا يعبر ذلك سوى عن جزء من المجموعة : لايزال علينا أن نفتح مائتين وثلاثمائة صندوقاً أو لفة . ثم فرد سبعة وأربعين مخطوطاً فقط والمجموعة تضم مائة وواحد وسبعين [...] إن هذه المجموعة تتخطى أى مديح ممكن . الصديق دويوا *** سيفتح عينيه للغاية وسيسعد سعادة لا نهائية إن هو رأى الرؤوس الجميلة والعظيمة لهذه التماثيل المصنعة بالاسلوب القديم : سأحاول أن أحضر معى نسخاً من الجيس لها ... »

* أنه شئٌ مذهل

** يرى الزائر هذا التمثال اليوم كالبازالت الأسود .

*** صديق شامبوايون ومعاونه فى كتاب « البانتيون »

عن هذه الصدمة التي فاجأته في ٩ يونيو ١٨٢٤ سيتكلم جان - فرانسوا بأسلوب أكثر إترانا وخاصة في أول خطاب له إلى الدوق دويلاكاس * إلا أن هذه الصدمة الأولى لها طعم لا يبارى في صدقها وجمالها إنها النظرة الأولى للمحب أو للمعلم . إذ لا ننسى أنه لم يكن يعرف شيئاً تقريباً عن الفن المصرى - سوى بعض القطع المتناثرة والبعيدة عن إطارها مجمعة بطريقة أو بأخرى في مكتبة جرونوبل أو في المكتب الملكي للأثار أو في مجموعة دوفان أو تالونا وعند الدوق شوازوال - جوفية .

في الثامن من يونيو ١٨٢٤ استقبل أيضا كضيف شرف من وفد يمثل الأكاديمية الملكية البيموننتيه حيث يجتمع من سيصبحون أفضل زملاءه في البحوث : الأب كوستانزو جازيرا وهو مستشرف والأب أميديو بيرون دارس لغوى يونانى و الأب إيمانتزيو باروكى . مكتبى - وعالم الفلك الكبير جيوفانى بلانا . ولكن أيضا الفارس دى سان كوينتينو الذى كان قد عين لتوه محافظاً للمتحف والذى سيتصارع معه في مجالات دخلت الأساطير . كان الفارس من دارسى القرون الوسطى المشهورين ولم يكن يتحمل دون مرارة وإنفعال تدخلات هذا الأجنبى الخبير في مجال محدد لا يمكنه أن ينافس فيه ولكنه يجمعهما فرضاً ولذلك فإنه سيبدل كل جهده لكي يدمر قدراته العلمية - وسيحارية مع بعض الحق ويشئ من النجاح في مجال علم المتاحف التطبيقى لم ينضم سان كوينتينو على الفور إلى معسكر المناهضين لمنهج المكتشف . ولكننا سنراه يعترض بسرعة على المسائل المادية .

في خطاب شكر أرسله إلى وزير الداخلية الذى يدين له « بحرية الدخول إلى هذا المنجم الثرى » يوصى شامبوليون بسرعة ترميم التماثيل التى تهشمت بعض أطرافها والتى « إعتنى مسيو دروفيتى بتجميع أجزائها المختلفة » من يمكن أن يعترض على ذلك ؟ غير أنه يقترح أيضاً معالجة البرديات طبقاً للتقنية المعتمدة من مكتب الآثار في باريس حيث لا تلصق على حرير مثلما يحدث هنا وإنما تثبت على ورق كارتون وهو ما يسمح بحفظها مبهوبة وتغلف في كتاب من حجم الفوليو . في هذه النقطة قويل بالنقد ولأسباب صحيحة .

لما اعترض سان كوينتنو على هذه الطريقة الممنوع إستخدامها حالياً ليحل محلها القماش الخفيف من الحرير نجح في أن يسجل نقطة ضد عالم المصريات . ثم سجل ضده نقط أخرى عندما إعترض على استخدام تقنية النسخ بالبصمة الرطبة التى

(* راجع فيما بعد الصفحات من 453 إلى 456

محلها القماش الخفيف من الحرير نجح فى أن يسجل نقطة ضد عالم المصريات . ثم سجل ضده نقط أخرى عندما إعترض على استخدام تقنية النسخ بالبصمة الرطبة التى طالب بها شامبوليون لما لذلك من خطورة على ألوان الآثار . ولكن لينته كان من الحنكة بأن يأخذ باقتراحات الضيف للكونت روجيه فيما يتعلق بالترتيب العام للمتحف .

« لا يمكن بأى شكل من الأشكال أن يكون رأى سعادتكم بالنسبة للمتحف أن يصبح المتحف الملكى المصرى مثل متاحف كثيرة أخرى مزدحماً تتراكم فيه القطع دون ما ترتيب وتوضع فيه دون علاقة بين الواحدة والأخرى . أن الآثار المصرية تتكيف أفضل من غيرها بين الآثار الرومانية واليونانية مع تبويب منهجى وعلمى فى ذات الوقت تحمل كل قطعة على اللوام لوحة مكتوباً عليها بوضوح لا ريب فيه الهدف منها ومن استخدامها . ولا شئ أسهل ولا أصلح من إتباع هذه الإرشادات ومن ترتيب هذه القطع حيث آثار دينية أو تاريخية أو جنائزية .

[..] يمثل هذا الترتيب سنقدم إلى أوروبا العلمية لأول مرة سلسلة منهجية من الآثار تعطى بذلك وعلى التوالى فكرة صحيحة ودقيقة عن الديانة والطبوس والعادات وتاريخ هذه الأمة ذاته والتي تدين لها الشعوب التى تزدهر هذه الأيام بأولى عناصر علومها وفنونها وكذلك بأولى مبادئ وضعها الاجتماعى * » .

إلا أن شامبوليون لم يكن ليكتفى بوضع مبادئ صيانة الآثار و سواء كلفته حكومة تورينو أو لم تكلفه بمهمة وضع قائمة رسمية للدروفيتنيا فهو قد بدأ هو إعداد وتقييم ووصف القطع بطريقة منظمة . وكان ما فعله بمثابة « ريبورتاج واقعى » : إذ أن الخطابات التى يرسلها مرتين فى الأسبوع لأخيه كان الهدف من ورائها أن تنشر وقد ظهرت بالفعل ومعظمها منشورة فى Bulletin Féruccac

إلا أن طموحه كان يرمى لأبعد من ذلك : اعتماداً على انطباعاته الأولية ومستخدماً إياها كمواد أولية أعد لنشر سلسلة من أربع أو خمس رسائل إلى الدوق نوبلاكاس فى هيئة كتاب كتعبير عن الاعتراف بالجميل إزاء الشخص الذى يدين له « بالتمتع بكل هذه الثروات المصرية » وكاعلان جمالى من أجل تأكيد ريادة الفن الفرعونى .

منذ بداية شهر يوليو وكان قد استقر هادئاً عند صديقه كوستا وإن كانت حرارة الجو تضايقه بعض الشئ وطنين الأذن المؤلم سيطر عليه ، شرع فى كتابة أول رسالة إلى بلاكاس المخصصة للتماثيل الملكية وتهدف إلى « إعادة بناء الأسرة الثانية عشرة ، أعظمها جميعاً » على حد تأكيده :

« .. أهداف من وراء وصف هذه التماثيل أن أستفيد من كل ما تتيحه من وسائل

* هذا هو المنهج الذى طبقة هو على اللوفر بعد ثلاث سنوات

إعادة تكوين هذه الأسرة بالكامل وسأثبت توافق الآثار مع قائمة أيديوس وكذلك التناسق مع مانيتون* والقائمة الملكية [..] أن مجموعة تورينو هي في الواقع أجمل تعليق على قائمة أيديوس إذ تشمل على آثار أربعة عشر ملكاً متتالياً من الأسرة الثامنة عشرة . أن هذه الآثار المعاصرة ستكفي لوضع حد لأكثر الشكوك صلابه وستجعل التاريخ الوضعي يتراجع بنقس المقدار .. »

عالم لغويات « رسالة إلى مسيوداسييه » تحول إذن إلى مؤرخ بأن عاد إلى منابع أول العلوم التي قام بتدريسها في جرونويل وهو ما زال في سن المراهقة ؟ نعم ولا .. نعم لأن إهتماماته التاريخية أمام التماثيل الملكية والمخطوطات واضحة : ستراه في المتحف أمام البرديات المهلهلة مثل لاري أمام مجازر الإمبراطورية . إلا أن المؤرخ سيكون في الوقت ذاته وباستمرار دارساً للجمال وإلها بل ومناضلاً : مثال ذلك :

« اجتهدت في خطابي الأول إلى الدوق في تقرير وجهة النظر الحقيقية التي يجب أن ينظر بها إلى الفن المصري أولاً ثم في المستقبل إلى الآثار بذاتها وذلك بناءً على الواقع الملموس .

إن هذه الرسالة التي قد لا تعجب الوكلمانيين** الأكثر تشددا لها هدف ثانوي هو إعادة مناقشة موضوع الفن المصري الذي حكم عليه بتسرع شديد وبدون حياة المستندات المؤيدة له والتي أراها أمام عيني بمثل هذا العند الضخم .. »

منذ الرابع من أغسطس بدأ يرسل أول عشرين صفحة من الرسالة الأولى إلى أخيه بعد أن كلفه بنشرها عند دار ديديو طالبا منه أن يدعمها بترتيب زمني للأسرة الثامنة عشرة . وبدا المشروع موافقاً خاصة بعد أن عرض عليه ناشر إيطالي نشرها في تورينو في حين شرع كوستانزا جاتزيرا - القس المستشرق (وهو في الواقع مستشرق أكثر منه قسا*** الذي كان يقدره أعظم تقدير في نشر بحث توضيحي « لمنظومة مسيو شامبوليون مطبقة على المخطوطات الهيروغليفية في متحف تورينو » .

ظهرت أولى « الرسائل إلى الدوق ديلاكاس دوليس حول المتحف الملكي المصري في « تورينو » في نهاية أغسطس لدى فيرمان ديديو ٢٤ شارع جاكوب تسبقها مقدمة قصيرة كتبها شامبوليون - فيجاك ويتبعها الترتيب التاريخي بقلمه

*أول مؤرخ أو مرتب للأسرات المصرية .

** المعجبين بعالم الجمال الألماني الكبير وينكلمان (المترجم) .

*** علما بأنه بدأ حياته العملية في أحد أديرة الكابوسيين .

أيضا . وبناءً على توصية من المؤلف أرسلت نسخة إلى الملك لويس الثامن عشر (الذى سيموت بعد شهر واحد) وأخرى إلى « الصديق يانج * » وكان النجاح الذى ادرسته الرسالة عظيماً .

كان فى تصور المؤلف أن تكون هذه الرسالة بمثابة مقدمة لمخاطبات مطولة إذ كان سيعى هذا الإعلان المبدئى عن قيمة ومعنى الفن الفرعونى العديد من التقارير من نفس النوع عن مختلف مظاهر الحضارة المصرية . غير أن الإلتزامات التى كان على المؤلف الوفاء بها وكذلك إضطراره لضمان تسليم الإصدارات الدورية « للبانتيون » فى مواعيدها لم يسمح له سوى بنشر رسالتين فقط (أغسطس وديسمبر ١٨٢٦) ومع ذلك فإن هاتين الرسالتين تعتبران « دفاعاً وتوضيحاً » لفن قدماء المصريين موجهاً بشجاعة ضد الهيمنة اليونانية وموصولاً بذلك بمنظومة الكتاب التى ربط جان - فرانسوا شامبوليون اسمه بها إلى الأبد .

تبدأ أول رسالة إلى الدوق دوبلاكاس بتحيةة مزبوجة للملك الذى شرفه المؤلف « بحمايته المتتورة » وإلى المرسله إليه فهو العليم بفنون اليونان وروما ويمكن من إدراك عظمة « الشعب العظيم الذى سبقهما .. بأن استقبل فى مكتبه بعضاً من المنتجات النادرة لمصر الجادة والغزيرة العلم »

ثم بعد أن أدى التحية الواجبة للعظماء ورفع علم الريادة المصرية أعلن جان - فرانسوا شامبوليون متفاخراً أن « فرنسا كانت أول من دخل هذا الأرشيف الموقر » ثم صفى بعض الحسابات بأن ذكر « أن لسوء الحظ اختطفت من عاصمتنا مجموعة أثرية كان من المفروض أن تكون لها بمثابة زينة أبدية .. » لولا أن « سخاء صاحب الجلالة ملك سردينا احتفظ بها فى تورينو » ليجعل منها « وديعة مشتركة لأوروبا كلها » بفضل « حسن إستقباله » للزوار ،

بعد ذلك تبدأ مرافعة عظيمة - هى فى الوقت ذاته عريض إتهام ضد جوهان وينكلمان المُسَبِّح للفن الاغريقى والمنظر لتفوقه المطلق بقدر ما تغذى عبقرية المكتشف المتناقضات وتعظم من شأنها المجادلات .. زاد من حدة هذا الجدل أن قبل ذلك بعام أى فى ٢٤ أبريل ١٨٢٣ ألقى راعول روشات خطاباً أمام الاكاديمية تحت عنوان « بعض الاعتبارات عن فنون مصر القديمة » جمع فيه كل ما قاله مؤيدو الحضارة اليونانية المتحمسين الرافضين لأى حضارة غيرها من التلاميذ التافهين لعالم

* نحن الآن قبل العواصف التى هبت عامى ١٨٢٦ - ١٨٢٧ (راجع فصل ١٠ ، ١٢) .

الجماليات الألمانية « كل ما يأتينا من مصر [..] لا يعكس من وجهة نظر الفن سوى
ترديد أمام أعيننا نفس الإله وذات الملك ونفس الرجل الذى ليس هو على الرغم من ذلك
لا إله ولا ملك ولا رجل » (بمعنى « الفن دون فن » كما قال أراجو)
وهكذا وجدت بلاغة شامبوليون هدفا مزدوجا لتعبر عن نفسها ضدّهما : العظيم
وينكلمان والهايف روشات :

« إن تاريخ الفن فى مصر لا ينفصم عن تاريخ ملوكها . إن ذات الآثار تشهد فى
نفس الوقت لصالح الأول وللآخرين [...] لم أدرك أن تاريخ الفن المصرى لم يكتب
بعد إلا عندما وجدت نفسى فى المتحف الملكى بتورينو وسط هذا الكم الكبير من
الأنقاض المختلفة لحضارة عتيقة . فى هذا المكان كل شئ يدل على أننا تسرعنا
كثيرا فى الحكم على طرقها وعلى تحديد وسائلها وهو الأهم - على توضيح مداها
.. [..] إن النظرية التى أسسها ونكلمان والتى تدرس فى أيامنا هذه بناءً على ما
للمعلم من سلطة لم تؤسس سوى على مشاهدة مجموعة صغيرة للغاية من الآثار
تجمعت بالصدفة دون إختيار أو تحيز فى متاحف إيطاليا . ثم قيمت فضائلها
بتسرع دون معرفة موضوعها ولا الفترات الزمنية التى تعود إليها ولا الهدف الأصلى
منها .

[..] تثبت مجموعة التماثيل فى مجموعة دروقيتى على وجه الخصوص وعلى عكس
ما يظنه الرأى العام أن الفنانين المصريين لم يجبروا قط على المحاكاة الجبرية
لعدد صغير من الأنماط البدائية بأن يعطوا لهذه الشخصيات التى تمثلها أعمالهم
سواء كانوا آلهة أو بشرا عاديين هذا المظهر التقليدى الذى لا يتغير أبداً والذى نتج
عن الفحص غير المتعمق له إذ أنه إفترض وجود مثل هذا الاجبار .

[..] لو أننا تحررنا من أى حكم مسبق منحاز تماماً للفن الإغريقى ووضعنا مبادئ
ونكلمان فى محك غير منحاز لرؤوس هذه التماثيل [..] لهشنا من التنوع اللا
نهائى للوجوه [..] سواء بالنسبة للقطع الإجمالى أو بالنسبة لأشكال التفاصيل
[..] معظم هذه الرؤوس تجمع فيما بينهما نوعاً من التماثل فيما يتعلق بالوضع
العام للخطوط يضىف عليها نوعاً من الشبه الأسرى وهو ما نجده فى أعمال أى
شعب آخر تقارن بينها [..] فى مصر كما فى أى مكان آخر يحاول الفنانون
محاكاة الأشكال التى تقع باستمرار تحت أعينهم وذلك فإن تماثيلهم تعكس الخطوط
المميّزة للجنس المصرى [..] ويترتب على ذلك أن إتخذت أحكام منافية للعقل
والعدل كلما جرى الحكم على الفن المصرى إذ أن مراجع التقدير أو المقارنة كانت
للفن الأفرىقى أى لشعب غريب تماماً عن مصر .

[..] نسى الجميع أن المصريين عملوا على محاكاة الطبيعة التي تعرضها عليهم بلادهم في حين أن الإغريق عملوا ونجحوا في تجميلها وتغييرها طبقاً لمثل أعلى نجحت عبقريتهم في اختراعه [..] للعديد من الرؤوس البشرية في مجموعة دروڤيني أسلوب فخيم ملئ بالتعبير والصدق إنك لاتلاحظ على أى منها هذا الخط الكونتورى الخطأ أو هذا الوجه الشبيه بالصيني الذي اعتقد وينكلمان أنه الجانب المميز للتماثيل الحقيقية⁽³⁾ يبقى أن نشرح كيف حدث [..] أن هذه الرؤوس الجميلة المصنوعة بدقة ورقة وضعت بشكل عام فوق أجساد نفذت تنفيذاً ركيكاً وبإهمال كبير [..] يبدو لى أن ذلك ليس سوى نتيجة طبيعية للمبدأ الجوهري الذي عليه الفن المصري إذ يبدو أن هذا الفن - كما سبق أن أشرت فى مجال آخر⁽⁴⁾ - لم يهدف فى الأساس إلى نسخ أشكال الطبيعة نسخاً يوم . بل أنه عمل فقط على تكوين الأفكار أكثر من تصوير الأشياء »

وهنا يصل جان - فرانسوا إلى النقط الجوهرية التي هي رؤيا عبقرية :

إن النحت والتصوير لم يكونا أبداً فى مصر سوى أفرع حقيقية من فروع الكتابة والمحاكاة كان عليها ألا تتخطى نقطة ما فقط . التمثال لم يكن فى الواقع سوى رمزاً عادياً . أى حرفاً كتابياً . وبناءً على ذلك فعندما ينجح الفنان فى التعبير بعناية وصدق عن الجزء الأساسى والمحدد للرمز أى رأس التمثال - وذلك بأن يعبر بصدق عن خطوط الشخصية البشرية الذى يريد أن يذكر فكرتها أو بأن يحاكي بقوة وصدق رأس حيوان يشير إلى هذا الإله أو ذاك - فكان يعتبر أنه بلغ هدفه .. »

ثم يمضى المكتشف فى عرض الأفكار التي أثارها مشاهدته الأولية لمجموعة دروڤيني والتي أدت بدورها إلى « نظرية فى الفن المصرى قائمة أخيراً على وقائع المشاهدة الواضحة » وبالتالي إلى حكم أكثر عدلاً « للجهود المثابرة لشعب كان أول من دخل عالم الفن بأن بنى الأسس الأولى التي شيدت فوقها الحضارة الإنسانية فى الوقت الذى كانت أرض اليونان وربما مازالت تغطيها غابات بكر ولم تعبرها من وقت لآخر سوى سرازيم من المتوحشين .. »

ويخلص فى النهاية إلى القول :

« .. لن تجمع الآثار المصرية منذ الآن على إنها أشياء غريبة فقط [..] إن بقايا وجود شعب عظيم ستتبوأ أخيراً المكانة اللائقة بها لتكون أول حلقة فى سلسلة الآثار التاريخية . » الخطاب الآخر لم ينشر سوى بعد عامين ويعبر فيه شامبوليون بقطرية جميلة تجاه أحد خلفاء الفرنج الذين يمثلون نظرياً النبالة الفرنسية .

« إنه أصبح أسهل لنا اليوم بناءً على قوة المستندات الرسمية والأوراق المعاصرة لهم أن تثبت وجود الفراعنة مورييس وأمينوفيس أو رمسيس ميامون من أثبات وجود أغلب ملوكنا الفرنجة من الجنس الأول » .

إن « جاكوبى » جرونوبل لم يتخلى بالكامل عن مواقفه مهما كانت أرائه الجمالية مستحدثة ومؤلفته بين الكتابة والإبداع الفنى والديانة فى مصر القديمة مبدعة ، إلا أن المؤرخ شامبوليون لم ينسى أبداً أن العلوم الفرعونية التى قام بتدريسها تمتد جنورها فى المستندات المكتوبة . صيف ١٨٢٤ هو فترة عرسه مع التماثيل العظيمة للملوك الآلهة وكان بمثابة نشوة عالية مطولة أسفرت عنها كما لاحظنا رؤية خلاقة لديه . الخريف سيكرسه للبحث وتجميع البرديات الكثيرة أو ماتبقى منها فى الدروقتينا وإلى ترجمتها .

منذ بداية شهر سبتمبر وذاك - جوزيف شامبوليون - فيجك يتلقى أسبوعياً بيانا هو فى ذات الوقت نشيد نصر وصرخة إستغاثة :

« مستمر أنا فى دراسة المخطوطات المصرية التى يتضمنها المتحف .

عثرت حتى الآن على ثلاثة أو أربعة احتفالات جنازية بعضها بالهيريوغليفية والبعض الآخر بالهيرايطيقية : كثير منها مكتوب بأسلوب رائع . غير أن من المؤسف أن ١٧٥ من هذه المخطوطات ليست سوى نسخ من نفس النص ومع ذلك فإنى أؤاسى نفسى بأن أتذكر أن كل هذه الطباعات من نص واحد ستوفر لى لدى المقارنة بينها على كمية كبيرة من التفريعات وسأتوصل فى النهاية إلى تكوين قائمة ثرية بالمتجانسات اللفظية .. لقد توصلت بالفعل إلى استخراج أربع أو خمسة مدلولات صوتية جديدة وبهذه الطريقة سأتوصل شيئاً فشيئاً إلى استكمال مجموعة الحروف الصوتية .

[..] مذكراتى التى أدونها من أجل القواعد الهيريوغليفية تزداد سمكا وأخذت أبعاداً محترمة . لست أسفا سوى على شئ واحد هو اكتشافى أن نصف البرديات على الأقل فى حالة تحلل لا تسمح لى بلمسها . يبدو أن الفترة التى أمضتها داخل الصناديق لمدة ثلاث أو أربع سنوات فى ليفورن قد أثر عليها تأثيراً سلبياً للغاية . ثلثها على الأقل تحول إلى طمباق أسبأتى .

(..) إليك أيضاً موضوعاً جديداً مثيراً للفرحة والألم . واصلت وأنتهيت من فرد المخطوطات المصرية الموجودة فى المتحف مع التركيز على اللغات الأكثر صلاحية والأفضل صيانة : فلم أجد سوى أجزاءً شبيهة كاملة لشعائر جنازية تارة لرجل وتارة أخرى لامرأة . لدرجة أن هذه الأساطير الدينية أصبحت تفيض من عينى . قررت منذ ثلاثة أيام أن أتفحص بعناية ما أطلقت عليه اسم « كوم السماد »

أى حوالي عشرين لغافة من البرديات التى سطحت ثم ثبتت مرتين أو ثلاثة مرات ولفت فى قطع من القماش وأغلبها فى حالة يرثى لها وهو ما جعلنى أقرر أن أضعها جانبا على أنها من المخطوطات صعبة التداول (..) ما أمكنتى إنقاذه من الغرق يجعلنى أسف إلى الأبد من ضياع مستندات لعلها تكون فى غاية الأهمية بشكل لا يقبل التعويض على الرغم من أن التجار كان بإمكانهم بشيء من العناية والذكاء من المحافظة عليها سليمة تماماً لبضعة قرون قادمة »

إلا أن النص البالغ الأهمية فى هذا الإطار هو الخطاب الذى أرسله لأخيه فى ٦ نوفمبر ١٨٢٤ . ولو طلب منا إختيار خمسة أو ستة نصوص بقلم جان فرانسوا فقط للبقاء عليها لكان هذا النص منها . التعبير فيها ينم عن نوع من الرومانسية التاريخية التى تذكرنا بشاتوبريان وميشليه ولكن مع شيء مما هو موجود لدى مؤلف الساحرة LA SORCIERE أى أنه قائم على نظام علمى يفرض على الآخرين إحترامه :

« بعدما إنتهيت من فرد البرديات التاريخية التى سبق أن حدثتك عنها أن علمت بالصدفة بوجود بعض بقايا من مخطوطات مصرية فى المخازن ولكنهم أفادونى أن الإطلاع عليها لن يفيد . ولكنى صممت على رؤيتها وتم الإتفاق على وضعها فوق منضدة حيث أتمكن من مراجعتها فى اليوم التالى .

(...) عند دخولى إلى هذه الحجرة التى أطلقت عليها منذ تلك اللحظة « كولومباريوم التاريخ » تملكنى إحساس ببرودة الموت إذ رأيت منضدة طولها عشرة أقدام تعلوها طبقة من فتات البريدى إرتفاعها نحو نصف قدم على الأقل * Quls Talia Fando Temperet a Lacrymis ولكى أسيطر ولو قليلا على أحزاني تصورت أنى لا أرى سوى بقايا اربعمائه أو خمسمائه مخطوطاً جنائزياً ، وتشجعت فالتقيت نظرة على أطول الأجزاء وأقلها تشويها . وإذ بالجرح يزداد إتساعاً وينفجر دماً من قسوة التعرف على [...] النص الذى فى يدي وهو يرجع إلى السنة الرابعة والعشرين من حكم الفرعون أمينوفيس - ممنون . ومنذ تلك اللحظة إتخذت قرارى بأن أراجع قطعة قطعة - كبيرة كانت أو صغيرة - من هذا الهشيم الذى يغطى منضدة البؤس هذه . بدأت المهمة كما يفعل فلاحونا عندما يقومون بتنقيية ثمرات اللوز فى أمسيات الخريف ولكن فى

* « كيف يمكن ، عند سرد مثل هذه الأشياء ، أن يحبس المرء دموعه »

ملحة « الإنبيد » .. كتاب ٢ فصل ١ ، ٦ - ٨)

حركات أكثر بطئاً وفي أجواء أقل مرحاً . أهم أنواتى التى لجأت إليها فى عملى كانت هى سن القلم النسخ (الكالك) وكانت تأخذ كل قطعة من المنضدة لتضعها فى يدي ثم بعد مراجعتها بكل دقة من الأمام والخلف كانت تقع فى صندوق الموت .. [..] يستحيل وصف المشاعر التى تملكنتى وأنا أراجع بقايا رفات التاريخ هذه ! إن أكثر الخيال برودة سيرعد امثل هذا المشهد . كيف تمنع عنك وإو قليل من الإنفعال وأنت تحرك بيدك رفات قرون من التاريخ ؟ واندفعت فى تأملات فلسفية .. لا يوجد فصل واحد عن أرسطو أو أفلاطون فى بلاغة هذا الكوم من البردى . إن منضدتى تقول أكثر مما قالت منضدة سيباس : لقد رأيت وهى تتساب من بين يدي أسماء سنين فقد التاريخ نكراها وكذلك أسماء آلهة إختفت مذابحها منذ خمسة عشر قرناً .

كما أنى حملت فى كفى - وأنا أكاد أتنفس خشية أن أهدرها بزفيرى كالدقيق - تلك القطعة الصغيرة من ورق البردى التى كانت المرجع الأخير لنكرى أحد الملوك لعله كان وهو حى يشعر بضالة قصر الكرنك بالنسبة له !

[..] رأيت فى هذه البقايا الهشة والمفتتة لعالم ذهب إلى أبد ، ما أشاهده . فى عالم اليوم : ان ما يفصل بين التسامى بشئ ومنه خطوة واحدة ... وأن الزمن يسطح كل شئ ويذهب دون تفرقة بكل ما هو عظيم وما هو صغير بكل ما هو هام وما هو تافه وبكل ما هو حزين وما هو مرح ! إلى جوار نص يصف أحد أعمال فترة حكم رمسيس العظيم أجد آخر خاص بطقس دينى يشيد بأعمال رمسيس - ميامون أو بأعمال عاهل آخر - وقعت فى يدي قطعة من كاريكاتير مصرى يرسم قطة تحرس البط وفى يدها عصا ، وآخر يظهر فيه شخص يعزف على ناي مزنوج وإلى جانب اسم ولقب المحارب موريس رسم لفأر مسلح فى معركة يطلق خلالها سهامه على محارب من قواته أو لقط ممتطياً عربة حربية .. هنا أيضاً أرى قطعة من طقس جنازى استغل ظهرها لتحرير عقد بيع وهناك بقايا رسم ملون فاجر لدرجة شنيعة هنز إيمانى بتعقل وسمو الذوق المصرى *

* تجدر هنا الإشارة إلى شئ غريب للغاية وهو أن عالمين إيطاليين مرموقين جداً هما سيلفيو كورتو ومدام إندا برشيانى - كثيراً ما نرجع إليهما أضافاً إلى هذه الجملة ما يلى : « .. إلا إذا اعتبرنا أن هذه الرسومات قد صودرت فى وقتها من السلطات القضائية » . وعندما راجعنا النص الأسمى للخطاب لاحظنا خلو النص منه . فهل يوجد نص تورينى لهذا الخطاب ؟

سيعود جان - فرانسوا فى هذا الخطاب البديع - ٦ نوفمبر ١٨٢٤ - إلى الغوص مرة أخرى فى أعماق الدهر - ومعه سيستعيد أسلوبه الجدلى عند النهاية .

« .. إلا أن أهم بريدية وهى التى سأندم عليها إلى الأبد لأنها تبددت تماماً وكانت كنزاً حقيقياً بالنسبة للتاريخ فهى التى كانت تتضمن كشفاً بتواريخ الملوك . وكانت بمثابة « قانون ملكى حقيقى » مكتوبة بالخط الهيراطيقى وكانت تضم أربعة أضعاف ما تضمنته قائمة أبييدوس من أسرار فرعونية وهى كاملة . وجمعت من هذا المخطوط الثمين وسط الركام حوالى عشرين قطعة من بوصة أو بوصتين تحتوى على أسماء مطموسة جزئياً لسبع وسبعين فرعوناً . والمدمش فى كل ذلك هو أن لا أحد من السبع وسبعين اسماً يشبه هؤلاء المذكورين فى قائمة أبييدوس وإنى مقتنع تماماً أنها تعود إلى الأسرار السابقة لها . كما يبدو لى أيضاً من المؤكد أن هذا القانون التاريخى مواكب لكافة المخطوطات الأخرى التى جمعتها هنا أى أنها ليست تالية على الأسرة التاسعة عشرة * .

[..] وإليك أيضاً أهم هذه الاكتشافات ذات الأهمية العظمى والتى تثير الأسى والسعادة فى ذات الوقت - والتى تجعلنا نرى (وهذا هو جانبها المعزى) : فى إمكاننا أن نتوصل إلى كل مانرجوه من نتائج من أبحاث تجرى بأسلوب منظم فى حالة لو أن حكومتنا قررت أن تصرف بعضاً من المال للحصول على آثار مصرية . غير أننى أشك فى هذا وذلك لأنه من المشرف ومن الأفضل أن نفعله »

إنه درس فى علم الجمال وفى التاريخ وفى علوم اللغة .

سيمضى جان - فرانسوا على هذه الدروب الثلاثة فى طريقه المؤدى إلى حل شفرة الهيروغليفيات بأن إستبان بوجهات النظر التى تتيحها له . وسط هذا الكم الكبير من ركام المستندات المتهاكمة أخذت قرون الزمن تخرج من أكفانها ... وفى الخامس عشر من نوفمبر يعطن هذا الفلاح لأخيه الأكبر أنه « إنتهى من فرز ثمرات اللوز » .

وفى الثالث والعشرين من نوفمبر يصدر بلاغاً بالانتصار ويرسله لجاك - جوزيف .

- « وصلتنى لفاقة لم أكن أنتظرها من مصر ولا أعرف مرسلها فخذفت بى إلى أبحاث لم أنتهى منها بعد وإن كنت أنتظر الحصول منها على نتائج جيدة . أى على معرفة تامة وكاملة لمنظومة الترقيم وتسجيل الزمن فى

* تظهر فى نص الرسالة نشرتها مدام بوريوان (ص ١٨٨) هذه الجملة : « إن ما يمكن إستخلاصه من هذه الحقيقة الهامة هو أن ٢٠٠ ملكاً مصرياً سبقوا هذا التاريخ »

الكتابات المصرية الثلاثة ويمكننى أن أعلن لك أن تلك النقاط هى بالكامل بين يدي . ولم يبق سوى جمعها .. وهى موجودة مرة أخرى وسط كوم من ركام البريدات والذي يجمع المواد جميعا . لا يوجد الآن نص واحد سواء هيروغليفى أو هيراطيقى أو ديموطيقى يمكنه أن يتسبب لى فى حرج : وإنى أكتشفهم بكل سعادة : العام الشهر واليوم .

ها هو التلميذ شامبوليون يحرز التقدم .. ولكن مهما كان هذا التلميذ القديم للأب دوسار نجيبا فهو لا ينسى أن يحدث ضجة . فلنسمعه وهو يتكلم عن رجال السلطة :

« .. خطاب وصلنى من فلورنسا أفادنى بوصول جمر ك ليفوريه طرد ضخم يضم برديات مصرية يمتلكها مسيو سوات * ويبدو أن هذه المخطوطات معروضة للبيع . وسيرسلون لى عن قريب مذكرة إجمالية بما تتضمنه . غير أننى لن أحصل عليها سوى لكى تثير أعصابى لأنسى على يقين من أنهم لن يفعلوا شيئا بخصوص باريس ** من أجل الحصول على أهم هذه البريدات . وددت لو أن أصحاب السلطة كبار وصغارا جاوا ليمضوا يوما أو يومين فى متحف تورينو ليسمعوا النعوت التمجيدية لهم التى يطلقها زوار المجموعة من الفرنسيين . لم أجد واحدا لم يعرب عن أسفة لضياح هذه الآثار على فرنسا بسبب العقول الميكروسكوبية لعظماؤنا السياسيين أنه حفل موسيقى مستمر من الدماء عليهم وإنى بدورى أقوم بواجبى المقدس فى توجيهه إلى العنوان الصحيح *** .. »

أذا كان شعورة يزداد بأنه « إيطالى بالقلب » فكان ذلك يرجع أن ما يصل إليه من أبناء باريس لم يكن بالنسبة له سوى خيبة أمل . كل يوم كان يمر عليه وهو فى الدروفيتينا كان يزيد من حنقه على الذين رفضوا أن ترى هذه الكنوز متحف اللوفر وسيعد له المحيط العلمى فى باريس الذى يكرهه - ماعدا داسييه - إصابة جديدة .

بعد وفاة شخص إسمه برناردى شفر مركز فى أكاديمية المحفوظات والآداب : شامبوليون - فيجاك - الذى فشل قبل ذلك مرة - كان يتحرق شوقا لأن يقبل فى الأكاديمية . ولكن تحالف قام يناهضه . ولكى يسد الطريق أمامه إقترح بعضهم عضوية جان - فرانسوا للمنصب الا أن هذا الأخير شعر بالإهانة وكتب إلى أخيه الأكبر : لا أريد كرسيتهم إلا إذا كان فى إمكانى أن أجلس إلى جوارك « ثم نراه يمتطى جواده مرة أخرى ويهاجم :

* قنصل إنجلترا فى إسكندرية . وهو أيضا عالم مصريات مقتدر وهو تلميذ لشامبوليون ومنافس له .

** سنرى أن جان فرانسوا كان ولو لمرة واحدة متشائما أكثر مما يجب وأن الحكومة الفرنسية ستقدم فى النهاية على شراء هذه البريدية ضمن مجموعة سوات باكملها .

*** وزير الداخلية : كورينار

« وإنى على العموم مقتنع أنهم لا يريدونك ولا يريدونى كذلك وأنهم يفضلون حشو الأكاديمية بعدة دستات من « قارعى الرؤوس العنيدة » على حد قول شيخنا * على أن يفتحوا الباب أمام أشخاص لديهم شجاعة تكوين أرائهم الخاصة . فإذا كان فى هذا يريحهم ، فليكن [..] وإذا فشلت فإننا سنسعد بمعرفة من هم أعدائنا . ويكون علينا بعد ذلك أن نتصرف تجاه كل فرد بما يستحقه . لم يعد هناك أى حرج فى مواجهة أى شخص وسوف نلعن جميع المتأمرين وكل المؤامرات .

العقدة كلها تتلخص فى ذلك [...] لم تكن فى حاجة أن تسألنى لمعرفة ما أفكر فيه وما أريده . ركز إذن على الهدف وبكل وضوح ولا تقدم أى نوع من التنازلات - لا يوجد حل وسط. In medio stat virus non virtus .**

بعد مرور أسبوعين كل شئ أتضح وفشل شامبوايون - فيجاء فى الحصول على العضوية وفى ١٣ ديسمبر ١٨٢٤ انقث جان - فرانسوا عن غضبه :

« علمت من الجورنال دى دييا الذى وصل يوم الجمعة يا صديقى العزيز نتيجة الصراع وآليات اللعبة . ليترون *** يمكنه أن يعتمد على عرفانى بجميله وسينال جزائه فى الوقت والمكان المناسبين لم تذكر لى إن كان خطابى قد سلم للأرمنى **** فى جميع الأحوال فإن اسمه قد محى من القائمة .

[..] ترى إذن كيف أنسى أوافق قلبا وقالباً على ما خلع إليه معلمنا المبجل *

* داسيه

** فى الوسط يوجد الإثم لا الفضيلة . ١

*** أهم شخصية اشتركت فى عملية الاقتراع وذلك فإن جان - فرانسوا يعزى إليه فشل أخيه .

**** أى سان مارتان الذى كتب له « صغيرى » يطلب منه مساعدة أخيه إلا أن هذا الأخير عدل عن تسليمها بسبب وضوح موقفه المناهض له .

وأنى فى غاية التأثر للمضايقات الجديدة التى لابد وأن هذه القضية برمتها سببها له . أفضل شئ فعلته هو أنك قررت الغدول فى المستقبل عن أن أتسبب له مضايقات كهذه وأن تحرجه - إن أمكن القول - مع أوغاد يدينون له بكل ما فى حوزتهم ، لقد أعلنت الاكاديمية طلاقها البائن منىا وسنعرف كيف نواسى أنفسنا بما نقش على ضريح بيرون *

[..] أما جومار الذى تسبب مكره الحقير فى إفساد العملية كلها فهو رجل ميت . إنه لم يرنى بعد اذا استخدمنا طريقته فى التعبير - سوى فى هيئة أوزيريس الرحيم ذى رأس الأييس أو الحمل إنى اعد له ظهوراً معتنى به على هيئة تمساح وسبع البحر وسنرى حينذاك كيف سيكون حاله فى هذه الظروف الالهية . ومهما حاول ساعتها أن يحتجب وأن يحيط نفسه بالحجاب المقدس للأسرار فسامزق الغطاء لأجعل المؤمنين يشاهدون كيف أن الكاهن الأعظم ليس سوى أحد الغرياء على أرض مصر من رعاة غنم وهيكسوس ** الذى وضع على رأسه بسلطته هو وحده - البشنت *** ويدعى التحكم فى المناطق العليا والسفلى .

ليس هذا هو صديقنا چان فرانسوا الذى تلقاه من جديد فى صورته التى نعرفها أو الدوفينى « المعفرت » الجاسكونى المتشوق لاستلال سيفه ، والمراهق إلى الأبد الذى يعشق أن يكون غاضباً وهو دائم الحماس لتراث قديم من التزمت العلمى . سينال هو نفسه نصيبه من آثاره ولكنه الآن يتعبد بحسده وروحه لمصره العريزة . فى ٣ ديسمبر ١٨٢٤ كتب وهو لا يزال يرتعش من الغضب لم حدث لأخيه - إلى صديقة دويوا . رسام كتابه « البانتيون المصرى » : -

« ... حصلت أخيراً على الموافقة على تجميع قطع التمثال سينزستريس الذى حدثك عنه فى رسالتى الأولى . لا ينقص منه شئ وعندما أتأمل جمال وكمال هذا الوجه الضخم الرائع فإنى أندم على أنى لم أحدثك بما يكفى فى رسالتى عن روعة الفن المصرى . إن هذا التمثال كان سيسحركم وكنتم ستقولون معى دون شك :

* « هنا يرقد بيرون الذى لم يكن شيئاً ولا حتى عضو الاكاديمية »

** الهيكسوس أو الرعاة غزاة مصر الملعونون .

*** غطاء الرأس الملكى .

كل يوم أراها من ستة شهور كاملة مرت .

وأخالنى دائما أراها لأول مرة *

أنا باختصار أعشق هذا التمثال وسأصل إلى باريس وفى حوزتى نسخة مصبوبة من الجص للنصف الأعلى منه وسترون ساعتها إذا كان ولعى به له ما يبرره . إن الرأس إلهى الجمال ، الساقين والقدمين رائعة والجسد مرن - إنى أسمىه أبولون البلغدير المصرى .»

كانت هذه الجملة سبباً فى السخرية منه . إذ أنه اختار رائعة من روائع الفن الاغريقى كمثل أعلى ! أفليس فى ذلك أعتراف بصحة وجهة نظر وينكلمان ؟ يجب ألا ننسى أنه يتحدث إلى مجتمع جبل على تمجيد كل ما هو يونانى فأصبحت كل مراجعه يونانية . فأن يقال عن نابوليون على سبيل المثال أنه القيصر الفرنسى لا يعنى أنه أقل شأنًا من سلفه . إن المرجع هنا يعتبر من أساليب التعبير وليس إعتراف بالولاية ، وليس من الكلام المرسل وليست لترتيب الأوليات وواضح من سياق حديث شامبوليون أنه أراد أن يوضح أننا بصدد سلم قيم مختلف .

« فى تورينو كما فى باريس الأوغاد كثيرون . هنا كما هو الحال عندنا الغباء يتحكم والشر ينتشر » إحتاج مكتشفنا ثمانية أشهر كاملة ليكتشف أن البيمونت ليس الجنة ، إلا أنه يضيف متحدثاً عن « الأوغاد » « هنا على الأقل فإنهم يقتصون منهم . »

« الوغد » هنا حسبما يقول « صغير » ليس جومار ولا كاترومار وإنما هو الفارس جوليو كورديرو دى سان كويتينو مدير المتحف الملكى المصرى . لم تكن الصفات الحميدة تنقص هذا الرجل إذ كان مؤرخاً جيداً وكان يتمتع بصفات محافظ المتحف الجيد ونجح لحسن الحظ فى إعلاء أرائه أحياناً على آراء شامبوليون .. ولكن كيف لا يتضايق هذا الموظف الكبير من التفوق الفكرى الذى يبيده الأجنبى فى المجال المصرى ومن الامتيازات التى يتمتع بها ؟ ولذلك كان الجو مشحوناً بالتوتر . وتكررت الأحداث التى لم ترجع كلها إلى غيرة سان كويتينو . وإذا كان « محافظ المتحف » قد أخطأ فإن ذلك يرجع إلى أنه لجأ إلى «سرقة أعمال غيره » ** ثم عندما أكتشف أمره وغطاه الخزى قرر أن ينضم إلى شلة « طافى الأنوار» فى مواجهة المكتشف « عدو الدين » . لم

* مسرحية بيرينس لراسين الفصل الثانى المشهد الثانى (إلا أن تيتوس يقول « خمس سنوات كاملة ») .

** نشرفى كتاب باسمه بعض الاكتشافات التى قام بها جيف شامبوليون متعلقة بالنظام الترقيمى المصرى (أنظر فيما بعد . ص . ص .

تكن جميع حلقات هذه الحرب الصغيرة مشرفة بالنسبة لجان فرانسوا . وإذا كنا نذكر ذلك هنا ، فليس لأننا نريد أن نعيد ذكرياتها - التي غطت عليها المكاسب التي حصل عليها شامبوليون من البيميونتين - وإنما لكيلا نكون قد حجبنا جانب من سمات شخصية المكتشف فقد كان مزاجه ينزع إلى الصراعات أكثر مما كانت تحتمله الظروف .

مثال ذلك هذا الخطاب الذي وجهه في ١٨ ديسمبر ١٨٢٤ إلى الكونت روجية دو شاليه فبعد أن ضمن حمايته له وراح يكيل الاتهامات ضد « المسيو دوسان كانتان » مثل التلميذ الذي سرقوا منه لعبته متمادياً في استغلال هذه الحماية . فبعد أن أمتدح نفسه لأنه أنقذ العديد من البرديات التي كانت فقات لا شكل لها ولولاه « كانت ضاعت إلى الأبد » عبر عن دهشته مع شيء من النفاق ، إذاء « تباعد » المدير . ثم يضيف دون أن يتردد في اللجوء إلى نوع من الابتزاز :

« إذا منعت من ممارسة التسهيلات التي رأيتم ياصاحب السعادة منحي إياها فإني ساكون مضطراً إلى إيقاف نشر رسائلي إلى مسيو بلاكاس التي كانت ستجعل الناس يقدرون عظمة المتحف الملكي ، فهي تلقى الضوء على مختلف أنواع الثروات التي يضمها . سأترك ساعتها هذا الأمر بين يدي السيد المدير أو أى شخص آخر سيرى أنه في إمكانه أن يفعل ما أفعله أو أفضل مما أفعله أنا . ولكن سيكون من الصعب على أن أرى حكومة صاحب الجلالة السردى وقد اقتنت هذا الكم من الآثار الثمينة بكل هذا السخاء دون أن تحصل لنفسها على المجد الذي تستحقه ودون أن يجنى العلم مايتوقعه من معارف تكشف عنها هذه المجموعة من الآثار المرتبة والمعروضة بشكل مناسب . ستغفرون يامونسينيور هذه الصراحة الزائدة عن الحد التي دفعتني إلى أن أتكلم لأنه كلام صادر من شخص كرس حياته كلها للدراسات المصرية وقد يستشعر أكثر من أى فرد أخر الأهمية العظمى التي تتمثل في الأشياء التي يضمها متحف صاحب الجلالة ... »

لاشئ مما قاله يشويه الخطأ ولكن ليس كل ما قاله أيضا سليماً تماماً ويجب عليه ألا يندم من « التباعد » المتزايد للمدير عنه لأن الرجل الذي عومل بهذه الطريقة لا يمكنه أن يبقى صافى النفس .

وينطبق ذلك أيضا على البلاط الملكي إذ سيعبر شامبوليون عن دهشته لابعاده

عنه وهو الذى تجح فى تخطى تحفظات آل بوربون ، وسيعامله ملوك روما ونابولى وفلورنسا كصديق لهم . لأنه إذا كان يريد أن يحظى برضاء الملك لم يكن من اللائق أن يرسل له ولا حتى بطريقة غير مباشرة « التماسا من الفرعون أو سيماندياس » مكتوب بلهجة السعيد بسفاقته .

لأن سان كويتينز قرر إبعاد تمثال ضخم للفرعون سيى الثانى (أطلق عليه الرحالة اليونانيون اسم أوزيماندياس) ووضعه فى فناء المتحف كتب شامبوليون هذا المنشور الذى يسخر فيه من مدير المتحف الذى عينه الملك (ومن الملك نفسه ...) ووزع فى شوارع تورينو . إذا كان تصرفه هذا قد حدث فى ظل حكم ملك روية ستا ندال إرنست رانوتشى الرابع وليس كارلو - فيليشى الأول لكان أقتيد مطرودا إلى الحدود ... ما قاله أوزيماندياس هو :

« جاعوا بى يا مولاي وسط اهانات يكيلونها لكرامتى ليصلوا بها إلى الحضيض فبدلا من إصطحابى إلى قصر فخم تركونى فى عشة فراخ معرضاً فى وحدتى التامة إلى كافة الصعوبات خاصة الآن ، إذ تصل درجة حرارة هذا البلد إلى مستويات مؤلمة ، لم أعاين مثلها أبداً . وهذا بالذات هو ما يجعلنى استغيث بعدلتكم ورحمتكم يا صاحب الجلالة فبدلاً من تعريضى لاهانات الطقس إمنحونى هنداماً أصفر مطرزاً بالأخضر مثلما أعطيتم لبعض زملائى بل وأيضاً لبعض القطط وحيوانات أخرى لم تكن تتوقع قط الحصول على مثل هذه النعم * . لقد غطونى بكل فظاظة بتلال من القش ، وإنى أفتنم فرصة اللحظة المتبقية لى - إذ أن هذا الغطاء المضحك وصل حتى ذقنى - لافتح فمى وأتقدم بشكواى بأعلى صوت من هذه الأهانه .

ماذا !! فرعون الذى غزا باكتريان على رأس سبعمئة ألف محارب والذى شيد أعظم مبانى طيبة لن يكون الآن سوى ملك من قش أو إذا كان لا بد أن يقال فالكلمة هى : ملك محشو بالقش ؟ لا يا مولاي إن جلالتك لن تسمح بذلك أبداً . بعد أن عرفتم الآن المحنة التى أمر بها وإنى ألتمس من جلالتك العدل . أنا ملك ويجب أن أعامل كملك وهذه الجملة تلخص ما أنتظره . كما أنى أطلب كتعويض ضرورى أن من أخترع هذا الزى المخجل الذى أتحفت به يجب أن يحشى بالقش لكى يرسل على الفور إلى متحف التاريخ الطبيعى - هذا هو العدل . »

متاعب ثانوية بالمقارنة بهذا الكم من الصداقات التى عقدها مع أعضاء المجتمع

* كان أهل تورينو يسخرون من بعض « الملابس » الذى رأى سان كويتينو ! اتحاف بعض التماثيل بها .

البيمونتى من التعاطفين معه سواء فى الأوساط العلمية مثل جيوفانى بلانا عالم الفلك والأب حازيرا وآلان بيرون والكونت فيدوا وآخرين - والأوساط الأرسطوقراطية الليبرالية وعلى رأسها الأمير نوسافوا - كارينيان والكونت والكونتيسة سكوبيس والكونت بروسبيرو بالبو وأبنة شيزارى وعائلة سالوتزو* بدءاً بالكونتيسة دبودانا « سافو البيمونت » . تذكر هنا ما قاله فى هذه الصدد لأخيه « يقف فى صفى السلطة التنفيذية ورعاية الوزير والأكاديمية والرأى العام ... »

فى خطاب آخر كتبه شامبوليون بعد ذلك بعام إلى صديقه دوفليار الذى كان ينوى اللحاق به فى إيطاليا - وكان يقطن ليفورن حينذاك رسم بورترهات سريعة وطريفة لبعض أصدقائه التورينيين « ... إتصل بالأب جاتزيرا الذى هو أب بالاسم فقط وهو من أصدقائى { ... } وإذا أردت أن تأخذ لك مرشداً يكون من المهرجين فاتصل من طرفى بمسيو لوى كوستا وزير الدولة : إنه من الشخصيات المحبة للحياة . وستكون سعيداً معه ... »

لم يرى شامبوليون فى هؤلاء المناصرين له أنهم « مشجعين » مجهولين يستخدمهم لأغراضه الشخصية أو العلمية فحسب بل إنه كان يكن لهم تقديراً عظيماً . وهو ينقل عن الآخرين أنهم قالوا عن جاتزيرا أنه « ياوره » فى حين أنه يردد له العديد من تعبيرات التقدير كما أنه يصف بالبو بأنه « رجل سامى الأخلاق » . هل كان فى مقدوره أن يحكم على المهوبة الشاعرية لديوداتادى سالوتزو** إنه يتكلم عنها بأعجاب خال تماماً من الرياء الاجتماعى ... ولكن بشيء من التفرد إذ أنه أكثر الناس تأثراً بتقدير الأرسطوقراطيين له وهو المؤيد للجمهورية . مستوى العلاقة بين طبقة النبلاء البيمونتيين والضيف لعبت فيه السياسة دوراً حيوياً . كانت هذه الأرسطوقراطية كمثيلتها فى باريس حيث نشط آل دوفيل ولاروشفوكو من أجل تنمية التعليم العام وحرية الرأى ، ترفض سياسة الملك المحافظة وتتحرك بدافع المشاعر الملتهبة التى سبقت فترة النهضة الإيطالية « Risorgimento » قد رأت فى شامبوليون بونابارتاً مسالماً حاملاً لمشاعل منيرة ولكنها ليست حارقة . كانوا ينظرون إليه فى تورينو ، أنه المحرر - وإذا وجد أحد يشك فى ذلك فما عليه إلا أن ينظر إلى الجهة التى تأتى منها الحركات المناهضة له ...

* تنطق سالوس فى الناحية الأخرى من بلاد الالب . وهى الأسرة التى اهتم شامبوليون وكوستا بأمرها فى جرونويل عام ١٨١٨ .

** أرملة الكونت نوريفال كتبت على وجه الخصوص « قصيدة فلسفية » عنوانها ليباتزيا تجرى أحداثها فى الاسكندرية داخل معبد لإيزيس .

ليس معنى ذلك أن « صغير » خصص وقته كله لخوض معارك حول فنون ترتيب المتاحف و لصراعات القوى وأصول الاتيكيت أو إنه لعب دور البائع المتجول الذي يروج لمبادئ الثورة فى الأوساط البونابارتية المتطرفة أو بين الكاربناريين الجدد . ظل وسيظل چان - فرانسوا شامبوليون عالم مصريات خالصاً « مكرساً طاقته كلها لمهمته على المستويات الثلاثة : اللغوية والتاريخية والجمالية » .

كتب سيلفيو كورتو يقول إنه اندفع فى هذه المهمة بنشاط هائل ويصرف النظر عما يمكن تسميته « ببيانه عن سيادة » الفن المصرى وهو ما يميز أول رسائله إلى الدوق دوبلا كاس وعن غوصه فى أعماق آلاف السنين من التاريخ التى أخرجها « كوم » البرديات فقد دعم منجزاته التى تضمنها كتابه « المختصر » الصادر فى فبراير ١٨٢٤ وذلك فى مجالين : من وجهة النظر اللغوية أوضحت الرسالة التى كتبها فى ١٢ فبراير ١٨٢٥ إلى فيلهالم فون هومبولدت الذى كان يعتبر حينذاك صاحب الكلمة العليا فى مجال علم اللغة فى أوروبا ، أنه قد عمق ، العلم الذى أسسه عن الصوتيات المترادفة ، وهى إحدى المعطيات الجوهرية فى الكتابة الهيروغليفية ، ومن وجهة النظر التاريخية فإن إكتشافاته المتعلقة بمنظومة الأرقام المصرية قد صححت كثيراً من المعلومات الواردة فى « وصف مصر » - وهو ما لن يغفروه له أبداً !

كشفت رسالته إلى هومبولدت كم كان أكتشاف ١٨٢٢ يحتاج إلى تعميق ومراجعة فهو إذ يكتب إلى أحد العلماء - الذين تأخذ مراسلتهم على الفور بعداً وصدى الحدث العام ، لا يخفى شامبوليون أياً من شكوكه ولا أياً من الأخطاء التى إرتبها ولا أى حيرة انتابته . نادراً ما عبر فكره العلمى ، أى التشكك الدائم فى نفسه ، بهذا الأسلوب الصادق وبهذه الدرجة المؤثرة . إن العيقرية لا تفعل ما تريد وإنما ما تقدر عليه . إنه يتلعثم ويتراجع ثم يندفع من جديد ثم يخلص فى النهاية كما يفعل دائماً بالأسلوب الذى يميز شامبوليون وهو خليط من تواضع الباحث وحدة نبرة المجادل .

« ... وددت لو فاض سرورى بأن أتمكن من تبديد كافة شكوكم وأن أقرر بثقة حسم كافة الصعوبات . غير أن علمى بالهيروغليفية لم يصل إلى هذا المستوى بعد لعله تقدم فقط بما يسمح بلمحة على المسافة الشاسعة التى سيتعين عليه أن يعبرها دون ما عائق فى دهاليز الكتابة المقدسة . أرى الطريق الذى يجب السير فيه وأعرف الوسائل التى يجب الأخذ بها للتقدم بخطى واثقة على هذا الدرب الجديد جداً والثرى جداً . إلا أننى لا أعرف إن كان عناء رجل واحد وحياته كلها تكفى لأداء مثل

هذه المهمة الضخمة * . مهما حدث سأستمر فى أبحاثى وإنى أجرى وراء الأثار
الأصلية وهى المرشد الوحيد الذى يمكننا أن نتبعه دون أن نخاطر بشئ، يعطنا ،
كما حدث لى بالفعل طوال عشر سنوات بسبب النسخ غير الدقيقة المنشورة فى
الكتاب الضخم اللجنة المصرية ... »

يعتبر أهم نصر حققه شامبوليون فى المجال التاريخى فى تورينو على الأرجح هو
فهمه للمنظومة الرقمية التى كشفت عنها برديات الدروفيتيانا فقد أعلن فى يناير ١٨٢٥
منتصراً إلى جاك - جوزيف أنه ألقى الضوء على :

« (١) أسماء الشهور بالديموطيقية والهيراطيقية - (٢) الأرقام الهيراطيقية
المخصصة لعد الأشياء والسنين على وجه الخصوص (٣) الأرقام المقابلة فى
الديموطيقية (٤) الأرقام الهيراطيقية لتحديد رقم لأيام الشهور . (٥) الأرقام
الديموطيقية المقابلة . هذه هى نتيجة عملى منذ شهر . حيث كنت مضطراً أن أقوم
بعملية ترقيم حقيقية لكى أضمن المدلول الصادق لكل هذه الحروف ولكى أتبع خطوة
بخطوة وأراجع حسابات أحد الكتبة واسمه تحوتموزيس . عثرت على الجزء الأكبر
من دفاتر وارداته منذ اليوم الحادى عشر من شهر باوبى حتى الثالث عشر من شهر
بهارموتى من العام ١٢ من عصر رمسيس الخامس من الأسرة التاسعة عشر » .

ثم أوضح أن كافة النتائج التى توصل إليها عرضها على الفلكى العظيم جيوفانى
بلانا فى تورينو فأكد صحتها وهو ما جعله يعبر عن سعادته الجمّة :

« ... نجحت فى حل مشكلة عويصة بأن تمكنت دون أى مجال للشك من

تحديد المدلول الدقيق لهذه المجموعة من الرموز التى كان يجب التعرف عليها أولاً
ثم أخراجها على أنها أرقام . لم يكن فى استطاعة الأشكال الهيروغليفية أن
ترشدنى لشئ ، لأن إعتباراً من الرقم ٥ لا يوجد تماثل بين النظامين ، فكان يجب
أن أحذر أن هؤلاء المصريين أصحاب الفكر المتعنت قد عن لهم على سبيل المثال
أن يكتبوا اليوم الرابع عشر من الشهر بالأرقام ١٠ ، ٢ و ٢ ، والخامس عشر ١٠ ،
٢ ، ٢ ، إنى أشكر الله بأن أرسم على صدرى علامة الصليب لما ألهم به قريحتى
عندما أدرس إتفاقيات التعاقد . فأجد أولى كلماتها تتضمن عدداً هائلاً من الأرقام

* عالم المصريات الايطالى سيرجيو نونائونى كتب *Civilta egiziana* (ص ٧) « أن مجهوده كان أكثر
من بشرى » .

المتراكمة - رقم العام وعدد الشهر واليوم في الشهر - كل ذلك مترابكاً . علماً بأنه يتبع منظومتين مختلفتين للترقيم ، وكان يتعين على أن أفرق بينهما .. »

ملحوظة أخيرة في الخطاب إلى جاك - جوريف : « لاتجعل أى ضياع من أى نوع أسود أو أشقر أو أصفر أو أخضر يطلع على ذلك .. »

ومع ذلك فإنه أطلع هو ذاته توماس يانج على ذلك ، فهو لم يكن يعتبره - أو ربما لم يكن يعتبره بعد - من الضبايع .. »

توجت « حملة البيمونت » هذه التي اتسمت - حسب قول جان فرانسوا ذاته - بما اتسمت به فيما مضى الحملات الفرنسية من ضراوة - بانتخاب الزائر عضوا مراسلا لأكاديمية تورينو للعلوم . وصاحب هذا الانتخاب تعليق لم يصدر من قبل قط - يوضح الاساس التي قام عليه قرار الناخبين « ... عشية سفر مسيو شامبوليون من هذه العاصمة - تعبير الجمعية عن تقديرها العميق للأعمال العلمية للمتلقى . وعلى الفور يكتب « المتلقى » لأخيه ليقول له أن أكاديمية تورينو ضمتها معاً . وإذا كان بعض المنتخبين (يقصد ليترون وريمورا) قد صوت لهم هذا أو ذاك ، فبالنسبة لنا كان الجميع يريدنا وتم إختيارنا بالاجماع »

وعليه كتب جان فرانسوا رسالة شكر إلى السكرتير الدائم تسلمت إليها بعض المشاغبات اللاذنة : « .. يزداد تقديري لهذا اللقب الرفيع بمقدار معرفتي بأنى مدين به لكرم معظم أعضاء هذه الهيئة العلمية وهو الكرم الذى استمر » معظم الأعضاء يفمرنى به .

هل قلنا تتويج ؟ كلا إذ أن البيمونتيين سيدفعون ولعهم الشامبليونى إلى أبعد من ذلك ، فعشية سفره إلى روما (الذى عجل به وصول النوق دو بلاكاس إليها » مثل طلقة الرصاص « بعد أن عين سفيرا فى نابولى والذى حضه إلى لقاءه هناك فى أقرب وقت بعد إقامة قصيرة فى المدينة الأميرية) عرض عليه ما قد يغير من حياته كلها . فلتعرف على هذا العرض منه شخصيا :

« ٢٨ فبراير ١٨٢٥ »

... وأنا أهم بالسفر قدم إلى عرض على درجة عالية من الخطورة جعلنى لا أبت فيه

بشيء قبل أن أراجعه معك مسبقاً ومع « المعلم » راجياً أن يكون في استطاعته إعطاء رأيه في هذه الظروف . تتوى حكومة صاحب الجلالة ملك ساردينيا إرسال قائم بالأعمال الدبلوماسية إلى مصر . وقيل لى أن الوزير يعرض على القيام بهذه الرحلة لحساب صاحب الجلالة .

وبما أنه من العدل فى - حالة قبولى - أن أفكر فى مستقبلى فإنهم يضمنون لى لى عودتى إلى تورينو بعض المكاسب وذلك بأن يضمنونى بأفضل الشروط المادية الممكنة إلى الهيئة التعليمية . ولكن الموضوع الأساسى هو أن أصبح إيطالى الجنسية - إنهم فى عجلة من أمرهم ويريدون حتى تعليق سفرى إلى روما . إلا أننى مصر على السفر وساكون بذلك أكثر تحرراً فى ردودى التى أترك تحريرها لكياستك . فكر فى الأمر إذن واستشر وحدد لى الخط الذى أتبعه ... »

يستحق رد شامبوليون - فيجاءك أن يذكر هنا هو أيضاً إذ يستعرض فيه الاخ والأب الروحى ومدير الأعمال كافة الوسائل الشوقينية مازجا إياها بنصائح لمن يريد الارتقاء فى مهنته :

« .. العمل مع الأجنبى تفوح منه رائحة المغامرة . وهو ما لا يصلح سوى لمن كان غير كفاء فى بلاده . الذهاب إلى مصر بحثاً عن الأحجار هو عمل يصلح له من كان مثل كايو * وغيره من الذين يتمتعون بأقدام صلبة .. ومعدة قوية . أما عمك أنت فهو الاستكشاف الصامت داخل مكتبك لنتائج استكشافات هؤلاء الرواد ** أما المنافع المستقبلية فهى تافهة ومن الأفضل أن نقضى عمرنا وسط أصدقاء نا على أن نقضيه وسط أجانب يشعرون دائماً ولو بقدر قليل من الغيرة { ... } من الأفضل أن تكون الأول فى بلدك عن أن تكون الأول عند الآخرين .

*عالم الطبيعة الثانى (من مدينة نانت) المقدم .

** ستقضى تماماً ثمانية عشرة شهرا من حياة شامبوليون على هذا التصور الغريب لمهنة عالم المصريات ا

« يوجد على العموم شئ عظيم فى كل ذلك وهو أن تنقل للنوق * ما يجرى وتظهر له أنك ميال لذلك . إن ذلك سيحفزه على أن يرغم أفاكى باريس ، ويمكنه الإسراع بعمل شئ فى باريس ذاتها . دعهم إذن يرسلون لك العرض مكتوباً وستمكن ساعتها فقط من تحرير الرد بالصورة الفنية المطلوبة . إن عروض تورينو هى التى ستحدد مصير المعركة وأكثر ما يرضى الأفاقين هو أن تقبلها وسيجدون أن ذلك هو نصر لهم ونجاح لكل المساعى التى يقومون بها فلنمتنع عن إرضائهم » .

ياه !! لبراعة الرجل الذى يعرف كيف يصنع العسل مما لا يبدو سوى أنه خل ... وعلى الأفاقين أن يحسنوا التصرف ... ولكن إذا كان بونابارت قد رد بنفس الطريقة على العرض الذى قدمه له تاليران (الأفاق الآخر) لظل حجر رشيد مدفوناً فى الرمال ... باختصار !! لم يتحول جان - فرانسوا إلى الجنسية الإيطالية سوى بالقلب فقط « وسيمضى حياته » وسط من أسماهم فيجاك « أصدقاء » وهو ما يعتبر نظرة متفائلة بعض الشئ للأمور ...

تشاو تورينو !! قلة من المدن ستستقبله بمثل هذه الحفاوة . سعد فيها بصداقات مثل تلك التى عقدها مع كوستا وجاتزيرا وبيرون وبلانا وبالبيوسكوبيس وسالوتزو وفيها عمق من طريقته فى حل الشفرة - وخلال إقامته فيها أيضاً أكتشف نظام الأرقام المصرى . كما أخرج عدداً من القرون والاسرات من غياهب النسيان وهو فى تورينو وفيها أخيراً وعلى وجه الخصوص أكتشف القمم التى بلغها بجمال فن النحت المصرى مما جعله يقع فى حب أحد التماثيل . وهكذا ستبقى تورينو وهى إحدى محطات الطريق إلى ممفيس إحدى أهم عواصم العالم فى حياته .

وتشهد على ذلك وبكل وضوح وبريق لوحة ضخمة مثبتة خلف تمثال رمسيس الذى كان يفضل على جميع التماثيل الأخرى وهو الموضوع فى أجمل القاعات المخصصة لفن النحت . تحمل اللوحة هذا النص اللاتينى .

HONORI ET MEMORIAE / IOANNIS FRANCISCI CHAMPOLION QUI
ARCANAE AEGYPTIORUM SCRIPTURAE / RECONDITAM DOCTRINAM
PRIMUS APERUIT / MONUMENTA AEGYPTIA REGIS VICTORICI EMMA-
NUELIS LIBERALITATE CONQUISITA / INHIS AEDIBUS DOCTAE INVISIT

* در بلاكاس

SCRIPTIS ILUSTRARIT / MODERATORES REI LITTERARIAE STATIM AC
DE MORTE CELEBERRIMI VIRI NUNTIATUM EST / MENSE MARTIO
ANNO MDCCCXXXII *

البيمونت لا يمثل إيطاليا كلها . فيعد ثمانية شهور من تاريخ وصوله عاوده تشوقه للتعرف على روما وفلورنسا و نابولي . كل شيء كان يحثه على الرحيل . دعوات اللوق دوبلاكاس الذى وصل إلى مقر عمله فى نابولي وأحلامه القديمة حول مدينة روما وربما أيضا شيء من خيبة الأمل من أنه لم يتمكن من الحصول على حرية التصرف الكامل فى متحف تورينو التى كان ينشدها : كتب لأخيه فى ٨ يناير ١٨٢٣ :

« ... نحن إذ نترك للحكومة السارديّة تفعل ما تشاء بمجموعة دروفيتير فتضعها فى مخزن بدلا من أن تجعل منها متحفاً وسنبذل قصارى جهدنا لكى نستغنى عن الحكومات الحالية والسابقة والقادمة . كل ذلك يضعف معنوياتى وكثيرا ما أشعر بالندم لأننى لم أتعلم أى حرفة بدلا من خدمة العذارى التسع ** القلق بدأ يتغلب على وحالات الحزن أصبحت تكرر زيارتها لى . »

قلق وحزن وهو يتذكر فى أماكن أخرى حالات من الكسل والبلادة التى تتملكه أحيانا كما كانت تداهمه بكثرة حالات الصداغ ونوبات السعال التى كانت تهز بدنه فى الشتاء اليموننتى فلعلها كانت تعلن عن إصابته بداء الصدر الذى سينهشه بعد ذلك . وعلى الرغم من ذلك فقد أحتفظ بشجاعة المبادرة فى العمل وركوب عربة السفريات متجها إلى ميلانو ثم بولونيا وروما .

وصل مدينة الباباوات فى الساعة السادسة من الحادى والعشرين من مارس ١٨٢٥ . ومكث فى العربة يهتز داخلها طوال ثلاثة أيام لم ينم فى سرير لفترة ثلاثة ليالى متصلة . إنه منهك تماما وقدماه متورمتان فهل سيحرم نفسه من البقاء ساعة واحدة فى روما ؟ فما أن وصل إلى فندقه فى شارع / فيا كوندوتى إلا وأنطلق ناحية الروائع الموعودة .. ويحيط بالطبع جاك - جوزيف بكل شيء :

* « فى ذكرى وعلى شرف ح. ف شامبويون الذى كان أول من إكتشف الفن المقدس للكتابة السرية للمصريين . درس كما يفعل العلماء المخطوطات التى خلفها المصريون وجمعت داخل هذا القصر بكرم من الملك فيكتور - ايمانويل وشرف بكتاباتة اعلام الأدب - إلى أن وصل نبأ وفاة هذا الرجل ذائع السيط فى شهر مارس ١٨٢٢ »

** جنيات الفنون والمعرفة والأداب بالطبع (المترجم) .

« ... توجهت على الفور إلى (كنيسة) القديس بطرس وحيث أن شهيتي كانت في ذروة النهم فكان على أن أبدأ بالقطع الكبيرة . يستحيل تماماً وصف انطباعي عند وصولي إلى ساحة هذه الكنيسة ... إننا لتعساء في فرنسا . إن آثارنا تثير الشفقة بالمقارنه بعظمة مباني روما ، من ساحة القديس بطرس أسرعرت إلى ساحة نافونا حيث قمت بتحية المسلة الثالثة (يامقيل) إذ كنت قد رأيت قبلها وأنا أدلف إليها من بوابة الشعب المسلة الفلامينية ومسلة بساميدتيشوس في مونتي - شيتوريو { ... } وقفت مبهوراً أمام الكوليزيوم وعبرت ساحته وسط الحجاج قليلى العدد ووسط جمع من الرهبان ...

عندما عدت أدرأجى تسلقت أنا السليل الحقيقي لشعوب الجبال سلم الكابيتول . لم يصدر عن الأوز أى صراخ ووجدت نفسى على القمة أمام تمثال مارك أورال على جواده - وشدنى تمثال لروما فى ساحة المتحف الكابيتولى فوجدته محاطاً بعملاقين مصريين يمثلان بطليموس الفيلاذيلفى وزوجته أرسينويه ولدى نزولى سلكم الكابيتول الضخم قمت بتحية الأسيدين المصريين العظميين .

... ثم سرت على قدمى حتى سان - جان دو لاتران يشدنى إلى هذه الساحة أكبر وأقدم مسلات روما وهى مسلة موريس . الهيروغليفيات التى عليها منفذة بطريقة لا يمكن تصديقها ثم توجهت إلى الكوليزيوم مرة أخرى وشاهدته بنفس درجة الانبهار كما توقفت مرة أخرى عند محطة كاميو فاتشينو حيث شاهدت أقواس النصر الثلاثة والمعابد ثم تسلقت الطريق إلى الكابيتول من جديد وعدت إلى الفندق { ... } هذا هو أول أيامى فى روما لن أنساه مدى الحياة ... »

ياله من رحالة طيب ووسيم ! قال يوماً إن الحياه الحققة هى الحماس إننا نحب هذا الرجل الاسمر ذا الشعر الأسود بلون الابانوس وهو يلهث ويعرق ويجرى فى شوارع هذه المدينة المشهورة مثلما يفعل الراهب الحاج غير عابىء بتورم قدميه ولا بالسعال ولا الكيلو مترات التى يتعيين عليه أن يقطعها ، يدقق فى المسلات ويتحدى أسود الكابيتول . هنا يكمن سره أى فى هذا النشاط الذى لا ينضب فيدفعه إلى الأمام بل وسوف يصروعه بعد بضعة سنوات وهو ينشد الحصول على بضعة سنوات أخرى من العمر ليلقى بمزيد من الضوء ...

لم يفعل هذه المرة سوى المرور بمدينة الباباوات لأن هدفه هو نابولى . حيث ينتظره بلاكاس المتشوق لأن يضع كل قوته وما يتمتع به من مقدرة شخصية عند

قدميه . جاء وصفه لنا بولي أنها « أول مدينة حية يقابلها منذ عبوره جبال الألب حيث تمر الأيام دون أن نبددها سوا بالنسبة للعلم أو للإنسان » ثم يقوم بزيارة معبد سيرابيس في بوتزوني وفي يومى - قدس أقداس إيزيس . ثم بعد أسبوع من وصوله يصحبه بلاكاس عند الملك والملكة - عن إهتمامهما الشديد بأعماله إنه سعيد وسيكشف في يابستوم « أجمل وأروع ما فى إيطاليا » ولكنه سيذهب إلى أبعد من ذلك وهو يقول لأخيه :

« ... الخط قديم ، خالص النقاء أى أنه جميل بحق . شعرت أن ما هو أمام عيني هو معمار جميل واستحال على أكثر من ثلاث ساعات أن أحميد بنظري عن هذه المعابد مع أنها صارمة فى بساطتها وخالية تماماً من أية تزويقات [...] على مسافة ما وخصوصاً عندما أراهم قد برزوا بلونهم الأصفر الذهبى من الخلفية الأزورية للسماء والبحر ، خلتنى أرتو إلى معابد مصرية : وعلى وجه الخصوص معبد نبتون أضخمهم جميعاً إذ تشع الأصول المصرية من العمارة الاغريقية التى تتبعها جميع أجزاء المبنى يابستوم ليس سوى تيجان الأعمدة المصرية فى حالة منحطة بعض الأشياء وتلك التى تتشكل منها الزوايا فى فى قدس الأقداس . هم بالتأكيد مصريون »

هل أكتشف هنا فى يابستوم ما يثبت صحة نظريته التى يجابه بها نظرية وينكلمان ويؤكد فيها أن الفن المصرى هو بالفعل أبو الفن الاغريقى ، الواقع أنه لم ينتظر هذه الرحلة إلى كامبينا ليدلل على هذا الرأى كما سبق أن قرأنا : بل إن ذلك هو الدليل الجوهري الذى بنيت عليه « الرسائل إلى الدوق دويلاكاس » إذ كتب إلى جاتزيرا منذ البداية يقول : « أنغمست من جديد فى النقاء الذى تذوق به العمارة الاغريقية التى هى الأبتة الجميلة والفاتنة للعمارة المصرية .. »

قال عن رأس ثور إغريقى : « إنه دليل ضمن ألف دليل على أن الطقوس الدينية الاغريقية ليست سوى فرع هابط من المصريات . لابد أن ليترون سيعبر عن إمتعاضه أزاء ذلك لأنه فى رأى غير متقبل لفكرة أن الاغريق الاعزاء كانوا من المقلدين لغيرهم . »

الاستفزاز هنا واضح ... ولكن ماذا ستكون العبقرية دون إستفزاز ؟ والحماس أيضاً ؟ ماذا سيكون عبقري جاسكونى متحمس إذا لم يتخطى أصول التخاطب والافكار الموروثة وإذا لم يفجر الجو الثقافى القائم فى زمانه ؟ أبداً لم يكتفى مؤسس علم المصريات بإدارة شئونه وإستغلال ممتلكاته الخاصة فقط . بل سيذهب ناشراً

الحرب الثقافية فيما وراء حدود تخصصه كما فعلت الثورة خارج حدود الوطن . إنه يزرع العواصف لأن المكتشف ثوري في جوهره .

هاهو في روما من جديد . هل يعتبر نهر التيبر من روافد النيل ؟ إن مصر موجودة في كل مكان هنا - وهو يقص ذلك على أخيه بحماسة المنتصر « يجرى من مسلة إلى أخرى » من مسلة البانتيون إلى مسلة مينارف وفي سان - جان دولاتران .. « أم المسلات جميعا وأقدمها التي ترجع إلى الملك موريس - تحتتمس مع الإضافات الجانبية لحفيده تحتتمس الرابع [في حين] تعود مسلة البانتيون إلى عهد رمسيس الأعظم .. » الذي « يعيد للتاريخ » أمه الملكة توييا - هذه الرحلة إلى المسلات (وعددها مائة عشرة في روما) جعلته يغطي بتكلماته « كيرشار المسكين » لأن ما نسخته منها قبل ذلك بقرنين من الزمان « شوه النصوص المقدسة » : شامبوليون لم يرحم قط من سبقوه . الشيء الغريب هو أن هذا المجادل الكبير كان ساذجا في أحيان كثيرة . ففي محاولته وصف السيرك الروماني الذي يصعب وصفه حيث يتقابل رجال الدين والدبلوماسية والحرس حامل الحراب والأساقفة رجال الإدارة الفاتيكانية والنبلاء ، المتأمرون وسيدات القصور ورجال علم حقيقيون ومدعون - وسط هذا كله نراه يتباهى بالحفاوة التي لاقاه بها ثلاثة من رجال الكهنوت نوى المناصب العليا وهم مونسينيور أنجلو مائ محافظ مكتبة الفاتيكان من العلماء ومكتشف البلايست أو الرقائق الممنوحة ومونسينور تيستا سكرتير البابا « وحامل سره والأب كانيسيري مدير اللبروباجاندا إلا أنه أهمل قبل هؤلاء الأب لانسي - المستعرب - دارس الخط الكوفي والذي أصبح فيما بعد أكثر أعدائه ضراوة في هذا الجانب من جبال الألب . ومثال آخر على ذلك هو أنه يمدح وليام جورج الذي أصبح من أصدقائه . نراه يضم إلى اسمه إسم أنطوني نيبى - وهو عالم مصريات بريطاني آخر وهو « يانجى » أكثر من يانج نفسه . مونسينور مائ هو الذي سيفتح عينيه على « الخلفية » الحقيقية لإبتسامات نيبى (5) والطف الذي عقده مع لانسي وكلايبروث وسان كوينتينو « للإجهاز على تايفون » *

الواقع أن مدير متحف تورينو قد تمادى إلى أبعد ما يمكن في عملية الانتقام الذي دبرها ضد من إنقذ متحفه . في خطاب أرسله الأب كوستانزو جاتزيرا إلى شامبوليون - فيجاك (6) وصف السرقة التي إرتكبها سان - كوينتينو لأعمال شامبوليون :

* قاتل أونيزيس .

« قرأ سيودو سان كوينتيو أمام الاكاديمية (البيمونتية) بحثاً عن الأرقام جاء فيه ضمن أمور أخرى أنه يهنيء نفسه لأنه تمكن { ... } من أكتشاف ما لم يكتشفه أحد فى العالم حتى الآن - وهو منظومة الأرقام المصرية وهكذا نكون غير مدينين بكل شىء لسكان الجانب الآخر من جبال الالب * بفضل أكتشافه العظيم .

« من كان وسط هؤلاء الاكاديميين على علم بأكتشافات أحيكم وبغباة زميلهم الذى لا يعرف قرائه كلمة واحدة من الكتابة الهيرواطيقية أو الديموطيقية إبتسموا لقله حياته . (...) ومجرد النظر إلى قائمة أرقامه كان يكفى لإثبات ذلك لأى شخص له دراية ولو قليلة للغاية بالدارسات المصرية . إذ تجد الأرقام الديموطيقية مختلطة بالهيرواطيقية وفيما عدا الأولى التى يمكن للجميع التعرف عليها فإن الأخرى كانت خطأ وكذلك . فى الإثباتات التى أراد إتيانها وفى طريقة تطبيقها . ولكنه لم يكن غيباً فقط بل كان سيئاً أيضاً ولأقصى درجة ، إقرأ بحثه وإرتعد بل إضحك على نيته المبيتة إذ أراد أن يلمح أن الدراسات المصرية تهدم الأسس التى يقوم عليها الدين وتنسف سلطة التوراه إلخ ... يصعب تصديق تراكم هذا الكم من الغباة والأخطاء والتناقضات واللامعنى فى مثل هذا العدد القليل من الصفحات إلا أن هدف الاساءة للغير كانت واضحة وكان عرضه سيعتبر مثيراً للسخرية فقط لو لم يكن مذبذباً لأقصى درجة ** » .

« اعتداء على الاسس التى يقوم عليها الدين » يبدو أن رئيس الكنيسة الكاثوليكية لم يكن ينظر إلى مشروع شامبوليون بهذه الطريقة . ففى ١٥ يونيو ١٨٢٥ استقبل الحبر الأعظم المكتشف حيث أصطحبه إليه مونسينيور تيستا . كان البابا ليون الثانى عشر إنساناً فريداً وصفه شاتوبريان *** على النحو التالى : « طويل القامة - صافى الفكر وحزين ، يرتدى جلباب أبيض بسيط (دون) أى فحفة يجلس أمام مكتب متواضع { .. } إنه لا يكاد يأكل ، ويعيش مع قطنه **** على شىء من البولانتا { .. } وابعه كان يضع - مثلما كان يفعل البابا بنوا الخامس عشر - صندوق كفته تحت سريره ... » (7)

الأكثر غرابة من ذلك كان العرض الذى إقترحه ليون الثانى عشر وهو يستقبل

* يعنى الفرنسيين .

** بعد هذا الإيضاح لم يمضى وقت طويل قبل أن يستنكر فيجاك بكل قوة « مسيود وسان كانتان » فى مقال عنيف جد فى نشره فيروساك «

*** سفير فرنسا فى روما عامى ١٨٢٨ و ١٨٢٩

**** سيتناها شاتوبريان ذاته فيما بعد .

المكتشف « عدو الدين » هذا . إذ بعد حديث مطول وحى للغاية عبر فيه عن أعظم إهتمامة بأعمال صاحب كتاب « البيانتيون » أعلن له البابا أنه قدم « خدمة جميلة وعظيمة وطيبة للديانة باكتشافاته » ومنحه ببساطة شديدة قبعة الكاردينال * وقد أدهش ذلك صديقنا عالم المصريات الجاكوبى لدرجة أنه لم يجد سوى إعتراض واحد يقدمه للبابا : وهو وجود إمرأتين فى حياته ** «

بعد أن منعه النساء من أن يصبح كاردينالا فان جان - فرانسوا ظل لدينا لرئيس الكنيسة الكاثوليكية بترقية أخرى فى مجال علمانى للغاية - وثوريا بطريقة ما - وهو وسام جوقة الشرف . إذ بعد أن تم صده فى موضوع القبعة أعلم ليون الثانى عشر الـ سلطات فى باريس أنه سيسعد لو أنه رأى ضيفه وقد قلد الوسام وهو ما حدث على الفور ... بل أفضل من ذلك أن شامبوليون كاد أن يحصل فى ختام إقامته فى روما على قبعة السفير . كان يحتفى به فى كل مكان ويأخذ الجميع رأيه . وإذا كان العالم بارون فون بونزان - ممثل بروسيا - يقف منه موقفاً متحفظاً - فإن جميع سفراء النمسا وروسيا والبرتغال وناپولى كانوا يريدون أن يدعوه على موائدهم أو إلى إلقاء محاضرة .. تحول الأمر إلى ما يشبه الوفاء السريع الانتشار والعنف . أما البارون دو فونشال الدبلوماسى اللوزيتانى والذى وصفه شاتوبريان بأنه « نمأم » ، عصبى ، أخضر اللون مثل قرد من البرازيل وأصفر فى لون برتقالة من لشبونه « فقد كان أكثر الجميع حماسة ولكنه ليس للدرجة التى تجلب عليه التعنيف الذى وجهه المكتشف لزميله الدبلوماسى ممثل سان ريبترسبورج البرنس جاجارين .

إذ عندما علم هذا الدبلوماسى الروسى حالة الشظف التى يعانى منها جان فرانسوا رأى - ما نراه نحن اليوم شيئاً عادياً - أن يعرض عليه ألف فرنك أتعاب مقابل كل محاضرة من المحاضرات الست عن علم المصريات التى كان سيلقيها لدى البارون دو فونشال . كان رد فعل المكتشف مثل رد فعل شاب غر عرضت عليه كونتيسة مقابلاً ماديا لمداعباته :

« لا بد وأنى أما غير مفهوم تماماً أو أن الحكم على غير سليم البتة حتى أن البعض راودته فكرة - أن يعرض على - كما حدث بالفعل - مرتباً كما لو كنت أقدم نوعاً من

* التى يمكن أن تمنح للعلمانيين من ناحية المبدأ .
** روزيون ونوراييد بالطبع .

العروض . إنى لا أعرف إن كانت تلك الإتفاقات تسخل ضمن العادات والتقاليد الإيطالية ، إلا أن مثقفى قرتسا وهم فى حمية ميلهم لنشر القليل من المعرفة التى لديهم لم يفكروا قط فى بيعها .

يتضح من ذلك أن العادات قد تبدلت تماماً إذ أن « المثقفين الفرنسيين » قد توقفوا منذ فترة طويلة عن الاحساس بالاهانة إزاء إعتبار أن ما يقدمونه « من معرفة قليلة لديهم » « نوعاً من العروض » التى يأخذون عنها أجراً حتى لو كان « القليل من المعرفة » التى لديهم أقل مما كان لدى شامبوليون .

ولم يترك المكتشف مدينة الباباوات دون أن يسمح لنفسه القيام بإحدى المبادرات التى تضى على شخصيته المندفعة لمسة من التفرد الإجتماعى الصالونى والذى سبق أن لاحظناه عندما كان يحاول جذب أنظار سيدات المجتمع فى فيجك وفى د سالونات جوزيف فوربيه فى جرونويل .. لماذا نضحك على تلك التصرفات ؟ ألم يكن توماس يانج ذاته من الراقصين على الحبال ..

فى ١٩ يونيو ١٨٢٥ أحتفل بتتويج شارل العاشر ، وعلى الرغم من أن المصاريف الباهظة التى تكلفها هذا الاحتفال قد أثارت حفيظته كما سنرى .. وأن تتويج أحد آل بوربون حامى حوى المتطرفين لم يكن مبدئياً من الأشياء التى تلقى إعجابه إلا أن عالم المصريات المتشرد رأى أن يعرض على الدوق دومونمورانسى - لافال سفير فرنسا فى روما إقامة فى حدائق فيلا مدتشى « مسلة إرتفاعها ما بين خمسة وأربعين وخمسين قدماً محملة بأربعة نصوص طويلة باليهيروغليفيه ملونة وتتعلق بتتويج الملك . الهيروغليفيات - (جان فرانسوا هو الذى يتكلم) ستكون بارزة ولكن فى شفافيه وسيكون لذلك أثر عظيم حسبما يقول المعمارىون وصانعو الزينات . لا يوجد حديث آخر فى الصالونات سوى عن هذه المسلة وإنى أتشوق لرؤية أكبر أبنائى هذا وهو مضاء » . ما حدث بعد ذلك هو أن عناصر الطبيعة كانت أقل ملكية من عالمنا اللغوى فأطاحت بالعمل الفنى الفذ قبل مغادرة الفنان اروما بساعات قليلة وقد تأثر طلبة المدرسة الفرنسية فى روما بحماسة المعدى فأعادوا بناء المسلة الورقية وأعادوا دهانها وجعلوها محطاً لانظار المدينة يوم ١٩ يونيو : هكذا أصبح صاحب « نخب فى صحة الجمهورية » فى ١٨١٥ فى نظر أهل روما المداح - الغائب ولكن المنتصر - لتتويج الأمير الذى تحداه قبل ذلك بعشر سنوات فى جرونويل بما ترتب على ذلك من مخاطر وأثار . كانت إقامة جان فرانسوا شامبوليون فى روما بالنسبة له فصل الغموض المحير جداً .

لا بسبب هذا التغيير المفاجيء بالنسبة للشرعية الأكثر تعرضا للنقض في المجال العلمي أو المجال الأيديولوجي وإنما بسبب علاقته بالمؤسسة الكاثوليكية دراساته الأولى المتعلقة بالترتيب الزمني القديم عادت عليه بعرفان المدافعين عن العقيدة .

« ها أنا قد أصبحت قديساً في نظر المتدينين من أبناء الكنيسة الكاثوليكية [جاء ذلك في خطاب أرسله إلى أوجوستان تيفونية - صديقه الماسوني] - مللت من رائحة القدسية التي يستشعرها المتدينون في شخصي كما لو كنت لا أعمل لهدف آخر منذ خمسة عشر عاماً أمضيتها في محاولة الكشف عن أجديتي - سوى لتمجيد الله (...) غير أنني سأقوم بعمل حركة غير كريمة في اتجاههم في أحد الأيام بأن أطور التدايعات والنتائج المباشرة لاكتشافى .
سيضحك جيداً من سيضحك أخراً .. »

أنه يضحك ولكن في غير سعادة . لأنه يدين برحلة إيطاليا هذه كما نعرف لكازيمير لويس نو بلاكاس وفي هو متدين وإن كان معجباً بالحضارات « الوثنية » . كان شامبوليون قد قضى قبل ذلك بخمس سنوات على الاساطير التي تسبب فيها رسم أبراج معبد دندرة ، بعد اثبت أن الخمسة عشر أو عشرين ألف عام الذى اعتقد « بيو » وبعض الآخرين أنهم استنتجوها منه ، لم تكن لها أى علاقة بهذا الأثر الراجع للعصر الرومانى . ومع ذلك فقد أكتشف من خلال تعمقه فى دراسة العام الفرعونى ، عصوراً للبشرية تتعدى بكثير التواريخ الواردة فى التاريخ التوراتى . لقد جعل منه رسم الابراج أحد المدافعين عن العقيدة الكاثوليكية . إلا أن الاكتشافات التي توصل إليها خلال رحلته الإيطالية وعلى وجه الخصوص منذ قرأته لبردية تورينو الملكية ستجعله يأخذ صورة أحد الأفاقين مثل جيوردانو برونو . لم يكن يهمل فى الواقع إثارة الفاتيكان ضده ولكن كان من الصعب عليه للغاية أن يسىء إلى بلاكاس الطيب * ...
بشئ من التعاسة غادر روما متجهاً إلى فلورنسا حيث كانت مجموعة نيتزولى فى إنتظاره والتي اشتراها الدوق الاعظم ورأى أن يعهد إليه بمهمة ترتيبها . أول ما شد انتباهه فى عاصمة توسكانيا كان « جوها العام الاقطاعى » ولكن يسرع فيضيف « إن الحرية تسكن هذه الأبراج » ويوضح لجاتزيرا فى مراسلاته له أنه « عندما وطأت قدماه أرض توسكانيا شعرت ربثاه أنه يتنفس هواء حراً » بل كان فيما كتب لجاك - جوريف أكثر وضوحاً : « فلورنسا هى المدينة الوحيدة فى إيطاليا التي تتمتع بحرية حقيقية وصادقة . إنها فى الواقع البلد الوحيد الذى تحكمه حكومة ... وهذا فى حد ذاته شئ هام ... »

خببت مجموعة آثار نيتزولى أماله بعض الشئ على الرغم من أنها احتوت على بعض الألواح الجنائزية . ولكنه تعرف هناك على بعض الشخصيات المفيدة . منها الدكتور ريتشى صديق هيو ، والذي أحضر معه من مصر - بعد أن مكث بها فترة

* ستزيد رحلته إلى مصر من مثل هذا القلق (أنظر فصل ١٧) .

طويلة – مجموعة طبية من الخراطيش * ، كما تعرف أيضا علي بعض علماء الآثار مثل انجيرامى المتخصص في تاريخ الاتروسك وميجليارينى والأب زانونى . كما أنه استقبل بأفضل ما يمكن من الدوق الأعظم ليوبولد وهو الذى سيكون له دور هام فى مشاريعه المستقبلية .

لماذا قرر إذن التوجه إلى ليفورن ؟ يقول أن ذلك يرجع إلى :

« .. أنه كان مشدودا إليها برائحة مجموعة مصرية وصلت منذ فترة وكانت تغلفها هالة من الغموض نجحت فى إنزالته . أصحابها الحاليون – وهم من أصحاب البنوك السادة سانتونى – لم يكونوا يريدون أن يكشفوا عنها لأحد .. إلا أن النطق باسمى كان كافياً لى يفتح كل شىء أمامى . إذ اعتقدوا أن مصرىا مثلى له اليد الطولى على الجميع ، وبناءً عليه فإن كل ما كان فى ليفورن أخرج من صناديقه ، وشاهدت مجموعة آثار مصرية رائعة ومنتقاه بعناية . بعض المومياءات وأعمال برونزية رائعة محلاة بأسلاك من الذهب والفضة الكثير منها إرتفاعه قدما من ومشغولة بطريقة تثير الإعجاب . توجد بها كذلك تماثيل صغيرة من الذهب الخالص تنفيذها جاء بأروع ما يمكن تصوره ، وكمية ضخمة من أدوات العمل وطبلة ضخمة كاملة وآلة هارب وأخيرا أجمل البرديات الجنائزية التى شاهدتها فى حياتى . كما تضم المجموعة أيضا حوالى عشرين بردية أغريقية متباينة الأطوال وبعض الأشياء الغريبة . جميع هذه الكنوز لن تثير دهشتك إذا ما علمت أن هذه المجموعة ليست سوى مجموعة مسيو سولت قنصل إنجلترا فى مصر إلا أن هذا يعتبر من الاسرار ومن المفروض ألا أعرفه أنا شخصيا . هذه المجموعة وهى أجمل من مجموعة دروفيتى (فيما عدا التماثيل الضخمة التى تنقص هنا) معروضة للبيع ويمكن أن تحظى بها الحكومة مقابل ٢٥٠,٠٠٠ فرنك وهذه تعتبر صفقة من ذهب سيكون من المضحك ومن المخجل أيضا أن تضيع . »

ها هو قد إنطلق فى إحدى هذه المعارك التى يعشق إثارتها كمحارب لا يكل . ألم يكن من الأفضل له أن يركز فكره فى أعماله العملية ، مدعما أياها ببعض الإشارات والاقتراحات يقدمها للسلطة ؟ أبداً !! إذ يتحتم عليه أن يشارك فى الصدام وإن ما « يستنتشه » لم يكن فقط « رائحة مجموعة آثار » وإنما رائحة المعركة .

* وهو الذى سيكون بعد عامين أحد رفاقه رحلته إلى مصر .

وَيَّ ؟! لقد حرم جومار باريس من مجموعة ؟ إذن سنلتقى بين أقدامه بأخرى بحماس تزيد من تأججه الإشاعه السارية الآن بأن إدارة أول متحف مصرى للأثار فى باريس سيناط بها إليه هو أى جان فرانسوا ! ألسيت هذه هى الفرصة لأن « نستقر نهائيا » وبطريقة ملائمة ونقطع فى ذات الوقت الطريق على جومار الذى لا يحتمل ؟ لم يكن إذن زائر ليفورن عالم مصريات فى حالة نشوة طاغية إنما هو أيضا من البدو الرحل الذى يبحث عن مكان ينتمى إليه كما أنه أحد أعضاء العالم الباريسى المغلق على أصحابه . مجموعة سوات بهرته تماما إلا أن الولوج الإيجيولوجى ترك المجال أولا أمام حمى الإحساس الوطنى : كتب إلى فيجاك :

« أكرر أن الثمن بخس ويهم الشرف الفرنسى الا يترك ثمرة مجهودات مضية لأحد « من الجودام » * تتسرب من أيدينا وهو لا يريد بدافع من الاحساس الوطنى أن يذكر إسمه لأنه متشوق أيضا إلى وضع يده على أموال الفروجز ** .

إذن وبكل وضوح فإن فكرة رياسته لمتحف مصرى فى اللوفر تروق له أكثر فأكثر خاصة وأن عملية ليفورن أصبحت مرتبط بتعيينه : لأن حيازة مجموعة ضخمة تضم قطعاً كثيرة مطلوب التعرف عليها وترتيبها تبرر وحدها تفضيله على جومار هذا الخاسر الأبدى .. وهو يذكر أخاه بأن « تشجيعا مدويا يسرى فى أوربا كلها لتأييده » وأن أسمه يملأ الصحف الإيطالية وقد جاء فيها ذكر وصول أكبر القطع الخاصة بمجموعة سوات إلى ميناء ليفورن. ومن الممكن إذا ما عقدت الصفقة أن تتوجه على الفور إلى فرنسا . إن صديقنا الفيجاكى يصر ويضغط بل ويلهث ، يالها من حمى :

لدى عودته إلى تورينو بعد ذلك بثلاثة أسابيع ظل قلقاً لعدم وصول الرد . لذلك تراه « وقد فقد سيطرته على نفسه » يكيل التهم للنظام الملكى .

« إنها صفقه ضاعت إلى الأبد وكلمة أقتصاد لها وقع طيب عندما تصدر من أفواه قوم يلقون بالملايين عندما يتعلق الامر بإحدى العمليات الغبية أو بإرضاء غرور ما .

* منذ أطلقت هذه التسمية على الانجليز فى عصر جان دارك وهى لاحقه بالانجليز لدى الفرنسيين (راجع زواج فيجارو) .
** الصفادع الفرنسية .

[واضحة وهي لإحتفالات التتويج المكلفة] [....] هذه هي الأمور التي تدفع أكثر الرجال أصراراً وهو يعمل بحسن نية و بصدق طوية أن يرمى بانواته ويترك الساحة [....] رسائل الإخوة سانتونى تلاحقنى وليس لى من رد عليها . أسرع بإرسال رفض نهائى وساقوم بدورى بإحاطة المختصين علماً به حتى لا أفكر فى ذلك بعد الآن إذ أنى سامرض من شدة الشعور بالمضايقة ومن خجلى من حكومتى التى تجد أن مجموعة آثار رائعة مكلفة للغاية علما بأن ثمنها هو ٢٥٠,٠٠٠ فرنك فى الوقت الذى تتفق فيه الحكومة الأنجليزية ٢٣٥,٠٠٠ فرنك لى تنقل أثرا مصريا واحدا هو مسلة الاسكندرية . وسيظل هؤلاء الناس يتحدثون عن حب العلوم والمجد والريادة الوطنية ا ثم إنتى لا أعمل كثيرا على وظيفة المتحف لأن ذلك يعتبر منطقيا باكثر مما ينبغى »

يمر شهر آخر ويظل الوزير صامتا وعليه ينفجر المكتشف فى ٢٧ أكتوبر :

« هاهى صفقة ضائعة أو على الأقل هى فى مهب الريح لقد أديت دورا ضعيفا للغاية فى نظر آل سانتونى لأنهم عندما ضغطوا على لى أشرح موقفى كتبت لهم فى ردى أنى ساصل إلى ليفورن فى نهاية هذا الشهر . أرى انى ساضطر ان أكتب لهم ألا يعتمدوا على حدوث أى شئ وقد حررتهم من أى التزام مؤقت ، بل إنى ان أشعر بأى غضب لوحدث خلال فترة الماطلات الباريسية أن عقد اللوق الأعظم أو أى بلاط آخر الصفقة تحت أعيننا . إننا نستحق ذلك وأتضرع إلى الله أن يحدث ذلك . »

حان الوقت لى نختتم هذه المرحلة الإيطالية مهما كانت مثمرة للغاية ومثيره جداً . عبر جان فرانسو جبال الألب فى السادس من نوفمبر فى رحلة صعبة عبر الثلوج . وصل إلى جرونوبل فى التاسع منه حيث « فاجأ زوجته بحضوره . »
« كئى زوج صالح عائد من الخارج » أشاعت إبنتة زورييد فى نفسه البهجة . وكتب لجاتزيرا :

« لو لم يكن لى شرف أن أكون والدها لقلت لك أنها أجمل أطفال الدوفينييه واحسن حظ الجنس النسائى انها لا تكاد تشبهنى . فقط عيناها السوداين احتفظا بكل البريق الذى كانت بعض السيدات تتكرمن على فى شبابى بان تكتشفنه فى عينى اليمنى * وكان ذلك يشعونى بشئ من الفخر »

هل إنتتهت إيطاليا؟ فينيتو إيطاليا ؟ كلا ! . وكلا ! . قفى أوائل شهر يناير

* سبق أن ذكرنا علة الحول التى كان يشكو منها والتي لا يظهرها راسم صورتة .

١٨٢٥ سافر فيجاك على عجل إلى باريس لكي يفشل مؤامرة كان سيخرج منها جومار منتصراً ومديراً للمتحف المصري . من باريس أحاط فيجاك أخاه بأن الدوق دو بودو فيل . . وزير البلاط الملكي كان وعلى وشك أن ينتزع من الملك قرار مزدوجاً بشراء مجموعة ليفورن وبتعيين جان فرانسوا في اللوفر، فيعلن هذا الأخير أنه على استعداد لأن يسافر على الفور إذا ما تسلم ورقة رسمية تحدد له مهمته وسيقفز نحو الأب على الرغم من بلوغ الشتاء ذروته مما يجعل « مونت سينيس رائعا » ولكن بما أنه يتشكك في « مقدراته » في الأعمال التجارية فهو يطالب بالتعليمات الأكثر تفصيلاً وشمولاً لجميع الاحتمالات الممكنة ثم يقول محمداً وبذكاء :

« مادامت ميزانية ١٨٢٦ في طور الإعداد فإن الوقت الآن مناسب لاتخاذ قرار بإنشاء الوظيفة المطلوبة في المتحف * كم سيكون . رائعا بالنسبة لي عندما أصل إلى ليفورن وأنا أمام المجموعة أن اعتبر نفسي عقيداً على رأس كتيبته » .

إلا أنه لا يمنع نفسه من الإضافة :

« إن فشل مذكرات جومار شيء طريف [.....] إنني مقتنع بأنه بصراخه يخفي أنه عدل بنفسه عن نشر أوراقه لتاكده من تفاهتها إلا أنه أراد أن يضيف على نفسه بريق الضحية .. لكي يبهر هذا الالغاء من ناحيته » .

طيب القلب جدا صديقنا المشاغب هذا ...

هنا يستلم كوستانزو جانتزيرا مايشبة بلاغ النصر على الطريقة البونابارتية :

« الملك - بناءً على تقريرى الذى قدمه له وزير البلاط - قرر الموافقة النهائية على حيازة مجموعة ليفورن - وبالتالي تكون الصفقة قد تمت ولا يوجد إذن شك فى انكم سترونى مرة أخرى فى تورينو حيث أنوى دخولها دخول المنتصر » .

إنه لا يقدر على الصبر أيتها الآلهة العظيمة على العودة إلى ليفورن للقاء كتيبته التى يرى أنه سيصبح على رأسها . جملة قالها تلخص الحالة التى كان عليها عشية حملته الثانية على إيطاليا والتى ستؤثر فى مجال العاطفة فى حياة تأثيراً عميقاً للغاية : « إنى أشبه السمكة الحية وهى وسط الملقى وأنا فى هذه الحالة من الترقب » .

* كمدير أو محافظ

١٤- أنجيليكا - عرافة توسكانا

يوم يحدد مسار حياة ... «خشية ان يكون أثير ...» - أسميك زليير - « بل أكثر من إعجاب « سليمان وكاتارينا وكورين ؟ - بريام واليونانية - إنى مغازل حدق - « فى إنه لمن القسوة أن ... » - سهم الأوريوس - جبهة « افاقين باريس » - نصر مزوج - إيبوليتو روسيليني واللوق الكبير ومصر .

يوم ٢ إبريل ١٨٢٦ كان بالنسبة لشامبوليون وطبقا لتعبيره هو « يوم من تلك الأيام التي تحدد مسار حياة باكملها » . أنه يوم لقاءه مع المرأة التي يبدو وأنها أكثر من أحب فى حياته - بدون أن تبادلها هى ذلك .

حب أجذب لم يكتمل ، ولذلك ظل يخفق أبداً . حب من العقل ، حزين ؛ فصيح بسبب تمنعها ، ، نواج فى جوهره ؛ هو نسيج من العتاب من ناحية ، يؤججه الانتصار وتطرق معدنه تحدياتها . هى مزيج من لعوب ، نظراتها من نار ، « وعاملة * » ناعمة الأيدي ، أى أنها بالنسبة له نقمة من النعم .

حب الصدفة الخطأ الذى ترك لنا مراسلات جميلة (١) لانعرف منها بالطبع سوى جانب واحد وهى خطابات الحبيب المحبط ... بورتريه ذاتى مرسوم بخط وراء الأخر - للمكتشف وهو يبحث عن الحب وهو على أبواب مرحلة الكهولة المبكرة التي ستقوده بعد قليل إلى الموت .

فى ذلك اليوم انعقدت إذن الأكاديمية الليفورنية التي ضمت إليها بالانتخاب قبل شهر واحد جان فرانسوا كعضو منتسب وهو يحضر جلساتها لأول مرة . خطبة الاستقبال قرأها سكرتير الجلسة . وإذ هم المتلقى بالرد على خطبة الترحيب به إندفعت واقفة أمام مجلسه امرأة شابة نظراتها شرار وحركاتها أمره وصوتها محمل بالعواطف وأنشدت هذه الأبيات المؤثرة .

« مزقت ستار الأسرار

التي حجبت على ضفة النيل

* كذا فى النص الفرنسى (المترجم)

أنوار المعرفة الحية
وكان في ظلماته مثيل
للذى يخفى أصل منبعه ...
... من الاحاد ومن ثراها
ومن هذه المعابد التى على الأرض تناثرت
والتي إلى الآن ظلت على صمتها
هاهو صوت يعلو ويرتفع
ليفشى كافة الأسرار
لم تكن لغة مصر وحدها
التى احتوتها الظلمات
إذ هاهو الاتروسك الغريب يناديك ..

أصبح جان فرانسوا الآن فى الخامسة والثلاثين نعرفه جياش الشعور ولكنة أيضا
والغراية وحيد ، ولا يعود ذلك إلى أن الأصدقاء نادرون .. فبالإضافة لصداقة أخيه جاك
- جوزيف الموجهة والغيورة - والوفاء الذى يكنه له تيفونيه وأرتو وأخو زوجته أندريه
بلان وبخلاف رعاية داسييه وبلاكاس فان التعطش للحنان الذى ينهشه لم يتوقف
طوال سننى بحثه الطويلة .. ومنذ أن إنتهت علاقته بلويز قبل ذلك بخمسة عشر عاماً
وقع فى حب بعض النساء - أو واحدة على الأقل فى فيجاك - فى هذا المجال يعتبر
زواجه فشلاً : سنرى قريباً جداً ماكتبه عنه . إنه فى حالة إحتياج ملح لجرعة من العواطف

إنه إنسان متحمس ومتأجج العواطف، دمه ساخن منفعل ، هذا « الاعرابى »
القادم من كارسى ، هذا الأسمر ، هذا المورى المغربى . مع العلم بأن تكوينه
الشخصى مناسب لحالات الحب الجارف فان هذا الرجل الذى يلتهمه حب الجمال
ترهقه الرغبة وتؤثر فى معنوياته المؤامرات . وهذا الذى غامر بل ذهب بحياته العملية
إلى الأعماق ليبقى وفيأ لمعتقداته السياسية وهو الذى عبر الحياة العامة مثلما عبر
اليهود البحر الأحمر سائراً بين تهديدين ، فهو ثورى بالشخصية وجاكوبى بالقلب بقى
طول حياته ذلك الشاب الذى صرخ فى وجه الأعيان وهو يرتدى رداء جامعة جرونوبل
الوليدة الأصفر ، أن دور المؤرخ ليس الترتيل بمآثر المنتصر علماً بأنة لم يكن قد مضى
عام واحد على إنتصار نابليون فى قاجرام .

ها هو يستمع في دهشة بالغة للمناشدة الشعرية له من تلك السيدة ذات العيون البراقة وصوتها صوت عرافة معبد دلفى بأن يكرس إهتمامه الآن - بعد أن أفضى أسرار النيل وهزم الالغاز المصرية ، على القضية الاتروسكية - أي أنها تطالبه في ذات الوقت بتنمية الأبحاث حول الأسرار الدانية له هنا في إيطاليا وبالذفاع عن قضية الوحدة الإيطالية : ها هي اتروسكا تناديك . ولأنها من أصل يوناني . عن تحرير بلدها ... كانت جلسة أكاديمية شديدة الغرابة كقيلة بهز مشاعر أكثر من شخص واحد محصن ضد الأنفعالات القوية ، بجميع أشكالها بأفضل مما هو الحال بالنسبة لشامبوليون .

كتب بعد ذلك بخمسة أيام لجاك جوزيف (الذى قطب جينه وهو يقرأ هذه الجمل) :

« دخلت أكاديمية ليفورن فى الثانى من ابريل - وهو يوم الجلسات العلنية - وانتهت الجلسة بخطبة تمجيد على شرفى ألقها سيدة شابة يونانية السينيورا انجيليكا بالى - ابنة أحد كبار تجار ليفورن اشتهرت بخطبها الإرتجالية - إذ ألت بشاعرية من نار قصيدة على شرفى ولجدى وإنى أترك تخمن إذا كانت الكاهنة الشابة الرائعة الجمال قد إستحقت درجة المائة من مائة في أعين بطلها . إنها عضو فى الأكاديمية : ان ذلك ليعد سابقة لعلها تحث مسيو داسييه على فتح أبواب الفصل الثالث * أمام ثلاث أو أربع عضوات من هذا الجنس (الناعم) لا بد وأنهن سيعطون بعض الرويق لهذه الهيئة الجادة فى تزمت وهو أقل ما يمكن أن يقال . »

إن السخرية من « الجنس » توضح درجة إنفعاله . ولكن القول واضح فيما يتعلق « بالكاهنة » التى هى « رائعة الجمال » على الرغم من أن التعبير يبدو باهتا بالنسبة للموصوفة إذ كانت من الملهمات الاتى يتفوهن بتنبؤات الآلهة .. نسجل هنا حقيقة حتى لا نعود اليها مرة أخرى - وهى أن هذه « المرتجلة المشهورة » كانت تعتنى جداً باندفاعاتها الارتجالية ، إذ أن نص قصيدتها « المرتجلة » اكتشف ** محرراً بخط يدها فى أرشيف أسرتها ولكن من الممكن أيضا أن يكون أحدهم قد حفظه وسجله على الورق بعد ذلك بثلاثة أسابيع . لم يذكر « الجنس » فى الخطاب الذى أرسله لصديقه الأب جاتزيرا ، هناك عين ترنو ، والنظرة أخذت طريقها إلى أعماقه . لقد رآها مرة أخرى ، اضطرب من قوة تأثيرها فحاول أن يقاوم :

* الفصل الثالث هو قسم « المخطوطات والآداب » فى الانستيتو Institut

** اكتشفته مدام إبريشيانى

« كان حفل الاحتفاء بى شاملاً و خلال جلسة عامة للأكاديمية الليفورينه ...
تفضلت على سيدة شابة جميلة جداً تقرض الشعر وهى من أكبر العائلات اليونانية
فى ليفورن بارتجال قصيدة على شرفى واستدعتنى من خبرتى بمصر ومعرفتى بها
لألقى الضوء على الآثار الاتروسكية . لعلك تتصور مدى تأثرى بتلك التحية وهى
تصلنى من مثل هذه الشفاة الجميلة . إنها أرق مكافأة حصلت عليها مقابل إعترائى
بالتراث المصرى لمدة خمسة عشر عاماً .

السنيرا انجيليكا بالى مثقفه جداً وريقة للغاية ولا بد أنك سمعت عنها إلا إذا كنتم
من البرابره * أما أنا فإنى اشكر الاله أمون - رع لانه عرفنى عليها وانه جعلنى
أحظى برضاها إلا انى لا أنسى أن المومياءات لها حقوقها على الرغم من صمتها ،
ولذلك فانى أبقي معها اطول الفترات الممكنة ولا أرى الكاهنة الجميلة سوى نادراً
خوفاً من أن «أثير» تتدخل فيتحول تعبيرى عن عرفانى بالجميل إلى شئ آخر...»

« أثير » هى حاتحور التى هى الهة الحب متجسدة فى صورة بقرة إنه إذن
داخل الفخ . وفى حالة من الحماس جعلته يهدد جاتزيرا - البيمونتى بأن يعتبره
بربريا إن هو لم يعرف انجيليكا التوسكانيه .. إنهم هكذا معشر العشاق لا يطيقون أن
يكون الذى يعجبون به « مجهولاً . يستطيع ما أمكنه أن يباعد من لقائاته « بالكاهنة
الجميلة » وأن يضع المومياءات بينها وبينه . إلا أن انجيليكا - هبة أمون - رع السخى
- قد دخلت حياته عن طريق نوع من المديح يخصص عادة للأموات .

انجيليكا بالى عمرها ثمانية وعشرون عاماً . عائلتها ذات الأصول اليونانية
أقامت منذ قرن كامل فى ليفورن وهو الميناء التوسكاني القريب جداً من مدينة بيزا
والذى نما كثيراً منذ نهاية القرن السابق بمبادرة من بونابارت . الميناء القديم الذى
عززه آل ميديتشى فى القرن السادس عشر والذى يضيف القصر البحرى ، المطل عليه
المبنى بالطوب الأحمر ، شيئاً من الجمال على هذه الضاحية البحرية لبيزا ولوقا ، كان
حينذاك فى كامل إزدهاره : عائلة بالى عائلته ثرية ومقيمة فى قصر إحدى أقدم عائلات
المدينة وهى عائلة بارتولومى ** والذى يعتبر صالونها أحد مراكزها الثقافية ومن قال
ثقافة فى إيطاليا فى ذلك الوقت قال سياسة . كانت انجيليكا فى تلك الحقبة الزمنية
تعتبر مايشبه لمتحدث الرسمى للحركة للوطنية الإيطالية مثل ديوداتا دى سالوتزو فى
تورينو . ولما كانت عضواً فى أكاديمية ليفورن فكثيراً ما كانت تقف فوق مقعدها وتلقى
بالنداءات والمدائح والأدانات والقصائد الحماسية سواء عن الاتروريا أو توسكانيا ،
عن إيطاليا أو اليونان ، عن الحرية أو الوحدة وسوف

* البيمونتى من وجهة النظر التوسكانية

** انجيليكا ستزوج فيما بعد جان - باول بارتولومى

ترتبط بعد ذلك ذلك بماتزوني : كانت كاهنة فتره ما قبل البعث الإيطالي وكانت قصائدها « المرتجلة » توقد حماس « إيطاليا الفتاة » وقد جعلت بطلها هو هذا البايرون الذي ألهمتها وفاته قصيدة كلها حرارة مثلما هو الحال بالنسبة لترجماتها لشيكسبير ومن بعده فيكتور هو جو .

هل عرفت هذه الأديبة المجد بفضل أنوثتها الطاغية ؟ لاشى يؤكد ذلك فمن حق أى انسان أن يفضل شاعر آخر على لامارتين أو ماتزوني . إلا أن هذين الأديبين الكبيرين منحنا رعايتهما (ولو لفتره قصيرة) لانجيليكا باللى - الثانى وصفها بانها منتقاه من السماء ، وسافو العصر الحديث . أما الأول فقد رد على قصيدة لها ارتجلتها أمامه عندما كان سكرتيراً دبلوماسياً فى سفارة فرنسا فى فلورنسا عن « الأم سافو » بهذه الأبيات : « عندما استمع .. الأبيات تصفين فيها

زفرات سافو الحنونة والامها

ياأنستى الشابة وصاحبة المعرفة

ابكى وأقول لماذا لم تحظ الأخرى بقة الجميلة

بتقافتك أنت وشاعرك »

قد يقول أحدهم لاحاجه لأن يكون المرء شاعراً كلامارتين ليعبر عن نفسه بمثل هذه الأشعار السطحية . ولكن صاحب « التأملات » كان يتمتع فى ذلك الوقت بشهرة هائلة وعندما ذكرت انجيليكا لشامبوليون اعجاب لامارتين بأعمالها فقد صفق لها لانها نجحت فى الحصول على تقدير لامارتين علما بأنه كان يمقت شخصيته .

لم يقع رجلنا العظيم فى حب بنت تافهة بل كانت بطلة فصيحة وطموحة ، ملكة متوجة على بلاط كامل ، تناشد أوروبا أن تحمى اليونان من مذابح الأتراك وأن تسمح لإيطاليا بأن تصنع نفسها كما كان تاليران يقول وتكتب مسرحيات تراچيدية تدمى القلوب قبل قلب شامبوليون أيضا .

ويقال أنها فسخت خطوبتها فى إحدى المرات بسبب رقصة طلبها خطيبها من غريمة لها .

ياليت جان فرانسوا وقع فى حب بائعة زهور بنفسج فى ميدان سان كارلو . لان انجيليكا سترية - كما يقال - النجوم ظهراً . لا يعرف أحد كم مرة التقيا ولا لى فترات ولا حتى - ماهى طبيعة هذه اللقاءات . يعتقد أنه لم يحدث بينهما سوى

تبادل للكلمات لان مراسلاتهما خالية من أى إشارة لأى شئ آخر - ولكن من المعروف أن العائلات تأخذ على عاتقها « الاعتناء » بتنقية المراسلات من أى شئ غير « متلائم » من ناحية عائلة شامبوليون كان الشرف هو المصان . المسئول الأول عن اكتشاف هذه المراسلات أحادية الجانب هو استوروية پليجربنى - الذى أكد أن المكتشف لم يتعد قط حدود الواجب والشرف .

تبقى من هذه الصفحة من الحياة العاطفية لصاحب «البانيتون» شهادة جميلة عليها ، متمثلة فى الثلاثين خطابا * الذى أرسلها جان فرانسوا من ١٩ سبتمبر ١٨٢٦ إلى ٢٧ ديسمبر ١٨٢٩ تاريخ عودته من مصر - إلى انجيليكا . نشرتهم وقدمت لهم بعناية وذكاء عالمة المصريات الإيطالية إدا بريشيانى من جامعة بيزا** وهى ليست بيانات إنتصار العاشق بل هى تكاد تكون وصفا لحب معلق وهى تعتبر على أكثر تقدير احدى أفضل المرايا العاكسة لروح وقلب ومزاج مؤسس علم المصريات . هى نصوص مؤثرة دائما بل مفاجئة فى أوقات كثيرة وجميلة للغاية أحيانا ، تتردد فيها أصداء رومانسية قبل ظهور التيار الرومانتيكى لما جاء فى هيلويوز الجديدة « لجان - جاك روسو » وهى معاصرة لرواية أدولف «لجانجامان كونستان» وإذا كان شامبوليون ككاتب مراسلات تعوزه الرشاقه فى كثير من الأحيان إلا انه يتمتع بطلاقة التعبير وباللمسات المعبرة ويعرف كيف يسمو أحيانا إلى مستوى الأسلوب المتميز .

الخطابات موجهة إلى « زليبر » وأطلق على نفسه إسم « زيد » . لقد عهدنا فيه كثيرا اللجوء إلى الأسماء الشرقية فهو يوقع باسم « صغير » ويعمل على أن يكون الإسم الذى يطلقه أخوه على مولوده الأول هو «على» . كما أنه يسمى على مولودته الوحيدة «زورايبيد» . المدهش هو أن انجيليكا أيضا إنسأقت معه فى اللعبة علما بانها تؤكد كثيرا على جانبها اليونانى وهى كانت بالتالى مناهضة لكل ما يمكن أن يذكرها بتركيا . ولكنها وافقت على مسأيرته واستمرت المراسلات بينهما سرية وكان كلا الطرفين يرسل خطاباته إلى عنوان طرف ثالث : بالنسبة لجان فرانسوا كانت الخطابات ترسل لعناية صديقين له الأول هو چ - چ - دوبروا (سبق لنا معرفته) والأخر هو أنه لوت (سنتعرف عليه فيما بعد) وبالنسبة للطرف الأخر أى انجيليكا فقد كانت الخطابات ترسل لعناية لورينزو كاليجارى ولورينزو فيولى .

* نشر منها تسعة وعشرون

** « رسائل إلى زليبر » الأسيانيك ، باريس ١٩٧٨

أول خطابات « زيد » مؤرخ ١٧ سبتمبر ١٨٢٦ وهو يعطى فكرة واضحة عن اللهجة السائدة فى المراسلات وفيها يكشف تماما عن ذاته الدامية منذ البداية .

« اصراى على العودة إلى ليفورن * نبع فقط من الأمل الجميل الذى راودنى بأن أتوق متعة رؤيتك وسماع صوتك بضعة أيام ولكن فضلت أن أعدل عن ذلك بعد أن وضح أن لقائى المفروض على زيلمير ووجودى سيسبب لها الأما ومضايقات ، يتحتم على إذن أن أفر عليها التعرض لذلك [.....] أسرعت إذن بالرحيل [....] ردود الفعل القليلة وقصر فترات لقائاتنا التى لا يمكن أن تطول لظروف مفروضة علينا لم تسمح « لزيد » بأن يكشف لك على مكونات قلبه .. »

لنتوقف لحظة عند الجملة الأولى : هل إختيار جان فرانسوا التوقف فى ليفورن يرجع « فقط » لانه يريد رؤية « الكاهنه » ؟ من نابولى حيث كان يقيم إلى وطنه عن طريق البحر كان التوقف فى روما ممنوعا بسبب تفهشى وباء الطاعون ولذلك فان التوقف فى ليفورن كان هو الحل الأمثل ولكن يجب أن نقر أن إختيار هذا الطريق يدين كثيرا إلى التشوق لرؤيه انجيليكا مره أخرى .

إن ما يثير الدهشة فى النص التالى هو أنه رقص أن يتكلم عن الظروف الغريبة جداً التى واكبت رحلته وهى الكفيلة باثارة خيال محبوبتة الشاعرة . شاتويريان مثلا - لم يكن ليغفل عن سرد ما حدث له وسط العاصفة التى صادفتة وهو مبحرا وسط اللاسيوم إلى بولين أو ناتالى وهى العاصفة التى دفعت مركبا بأسرع من السهم وسط امواج زاجرة مثل الحيوانات المفترسة . كان مشهدا جميلا بقدر ماكان مرعبا « ولكن بدلا من انجيليكا التى كانت ستتأثر لها فان جان فرانسوا خص أخاه برواية ما حدث له فى هذه الساعات المثيرة للقلق . كما أنه خصه هو أيضا بوصف أحداث جرت أثناء أحد توقيقاته فى رحلته وهى كانت ستسعد بالتأكيد كاهنة الاتروسك .

« تحوات الرياح الشديدة - لصالحنا ومعها ظهر بعض الضوء أثار لنا الدنيا فوجدنا أنفسنا بين جزيرة إلبا وبيومبينو [...] فأعلن الريان أننا مضطرون إلى العروج على أى ميناء صغير [.....] واحسن حظى كانت مدينه پولونيا عند مدى

* عاد إليها قبل يومين وأمضى بها أربعة أيام فقط - يبدو أن زيارته لم تلقى ترحيبا .

البصر وطالبت وحصلت على قرار بتفضيل هذه المدينة الاثروسكية الهامة وإضطرنا للمكوث بميناء يوبولونيا المهجورة لمدة يومين حتى مرت العاصفة . ولكن كان من أسباب سعادتي أن أسير فوق شاطئ مغطى ببقايا مبان أتروسكية ومقابر قديمة تؤخذ منها يوفياوأوانى وأشياء أخرى تعود إلى القرون الإيطالية القديمة .

تسلقت الجبل الذي تقع على قمته المدينة الاثروسكية القديمة ... وأخيراً بعد أن عاد البحر إلى حالة تسمح بالخوض فيه ، إحتجنا لثمانية عشر ساعة من الأبحار حتى وصلنا إلى ليثورن . وعلمنا لدى وصولنا أن مركبين من روما أغار عليهما الجزائريون عند مونت أرجانتال وأخذوا منهما الفدية وذلك عشية مرورنا على المكان المذكور وأن العاصفة هي التي أبقت عليهم فى عرض البحر ولولا ذلك لكنت تعاملت مسبقاً مع أفريقيا .

هل رأى أحد محباً يتحرق شوقاً لفتح قلبه لسيدة لدرجة أن ينسى التأثير عليها بهذه الروايات عن القراصنة والبحارة والتي كان بإمكان الكسندر دوما أن يكتب عنها أكثر من كتاب ؟ ولكن ربما أنه قص عليها ذلك خلال الزيارة التي لم يلق فيها الترحيب ؟ .

لعل مشاعري فاجأتك ... فهي لا تتوافق لامع وضعى الشخصى ولا مع وضعك *
وكل شئ يامرنا باحترام هذه الأوضاع ولكن هل تنتظر خفقات القلب حتى تأتيها الأوامر من العقل ؟ انها تجربنا جراً . ولكنها إذا كانت نقية فهي تجد من داخلها على الفور القوة التي تحتفظ بها داخل الحدود التي يخطها الشرف والواجب بل والظروف الإجتماعية أيضاً، هذا هو الشعور الذي أوحيت به إلى

نرى إذن أن الموضوع كان شيئاً آخر غير الصداقة مثل هذه الاحتجاجات وهذه الاحتياطات لم يكن لها أن تتخذ بين « أصدقاء » ولم يكن هناك سبب للكاهنة أن « تندهش » أو أن ترى أن شرفها معرض للخطر لو أن « الصداقة » هي التي تربطها برجل غطيم .

بقية هذه الرسالة تعرضنا لها من قبل عند الحديث عن روزين شامبوليون فعندما صرح بحبه لانجيليكا رأى جان فرانسوا من واجبه أن يكشف لها عن فشل زواجه . ثم بعد أن تكلم عن ذلك رأى أن يخطو خطوة جريئة أخرى :

* كانت مخطوبة لشخص يبدأ اسمه بحرف م وبسخت الخطوبة بعد وقت قصير .

« فى اليوم الذى رأيتك فيه لأول مره شدنى إليك إحساس غريب لم أعده من قبل ... ثم عندما تفضلتى بالكلام عن أعمالى غمرنى أقوى شعور عرفته فى حياتى . أنت يانزير التى جعلتيني فخورا بما تدين لى به العلوم ، ومنك أيضا حصلت على أكثر المكافات إطرانا لى على اللىالى التى سهرتها ... ساكنم فى نفسى كل ما شعر به قلبى منذ ذلك اليوم لأنى إذا بحث به ربما أسأت إليك . أنى لا أسير وراء أوهام ، كل شئ يقف ضدى و أقل شئ يفصل بيننا [.....] وإنذ أودع زليير فانى أرجوها أن تتذكر من وقت لآخر أن رجلا فى الوجود بعيدا عنها يكن لها أكثر من الإعجاب » .

تكشف لنا رسالة عالم المصرىات الثانية تاريخ وظروف اللقاء الوحيد المعلن والعلنى جدا مع الشاعرة منذ الجلسة الأكاديمية فى الثانى من إبريل ... ففى ١٦ يونيو التالى دعاه صديقه الشاب روسيلينى إلى مدينة بيزا بمناسبة عيد القديس رانبييرى راعى المدينة وهناك التقى بها خلال حفلات اللومينارا وهى إحتفالية تقام كل ثلاث سنوات وتجذب جماهير غفيرة للغاية على ضفاف نهر الأرنو وعلى رأسها اللوق الأعظم لتوسكانا بل والبابا نفسه فى ذلك العام ، وكانت مناسبة للبابا ليون الثانى عشر لكى يعبر له علانية عن رعايته له . ولكن هل شعر جان فرانسوا حتى بوجوده ... إن انجيليكا كانت هناك ...

ذكرها كانت قوية لدرجة أنه تكلم عنها ثلاث مرات فى رسائله ففى ٢٦ سبتمبر

. ١٨٢٦

« فى يوم عيد بيزا الذى ترك فى نفسى ذكريات بلغت درجة من السعادة تجعلها منذ ذلك الوقت بالنسبة لى ذكرى مقدسة . فمئذ تك الخطه عرفت أن قلبى ترك نفسه ينصاع دون وعى منه لتيار جرفه دون أن يكون فى ذلك ما يؤذى مشاعرك ، بما أن لا شئ فى هذا الميل جاء نتيجة لحسابات مسبقة أو لاستخفاف مذنب فهو بذلك يكون جديرا بك لسبب واحد فقط لانه يشعر فى حبه لك بكل ما تستحقينه من حب واحترام فى ذات الوقت »

يبلى أنه بعد خمسة عشر يوميا وهو فى البندقية قد فضل الحب على الاحترام .:

« أن قلبى يتمرد . كدت وأنا فى بيزا أن أصرح [....] لم أعد أعيش فى هذه الحياة منذ أن تركتك » .

أخيراً فى يونيو ١٨٢٧ أى عشية الاحتفال بذكرى هذا اللقاء العظيم :

« تحرمين على الكلام عن ذلك - ليكن . ولكنى حرٌ فى التفكير فيه (....) هذه الذكرى السنوية ستبقى دائما عزيزة على نفسى »

فى إمكاننا أن نجد إثباتاً جديداً على أن ذكرى انجيليكا تلح باصرار عليه وذلك فى فقرة وردت فى خطاب كتبه من البندقية أيضاً إلى صديقة ابوليتو روسيليني بخصوص أحد المتخصصين فى الحضارة الاتروسكية . البروفسور أوربولي :

« قل له أن يزوج مصر إلي أتورريا أن الاثنين يتوافقان مع بعضهما كنت أشك دائما فى أن كليهما تأمرا معاً واعتقد أننا سنتمكن قريباً من أكتشاف مراسلتها السرية كلها . خطاب حب بالهيريوغليقية يجيب على آخر بالاتروسكية سيكون شيئاً مؤثراً للغاية » .

إذا ذكرنا درجة الحماس التى طالبت بها انجيليكا منه أن يكشف اسرار الإتروسك فيمكن أن نقيس على ذلك كم كانت فكرة الزواج المصرى الاتروسكى هذه مثيرة بالنسبة له .

ثلاثون رسالة خلال ثلاثين شهراً . لا يمكن أن نذكر كل شئ على الرغم من أن كل شئ تقريباً يساعدى فى ذلك على فك شفرة حلال الشفرة . وله صبيانى ، حساسية مفرطة ، شخصية مناضلة ، حكيم حكمة فيلسوف الجمال ، فخور بما قام بتأسيسه ، غزير الكلام مثل أهل الجنوب ، خجول كأهل الريف ، يؤمن بالله بدون تعلق بالطقوس الدينية ، غيور غيرة المحبين إنه بورتريه لرجل مثقف فى فترة اليزنورجيمنتو (البعث الإيطالى القرن التاسع عشر) .

كلاسيكى الذوق ، رومانتيكى المزاج ، زوج خاب أمله ، أب حنون ، ومعلم جيد ثورى لأنه معجب بالماضى ، ديموقراطى دون وهم متمسك بذكرىات الجمهورية وبما أكثر من ذلك أهمية أى بذكرىات التسامح . هو أذن خليط غريب من المراهقة المتأخرة والنضج الحزين ، فى الصباح هو فى سن فابريس (بطل رواية الأبيض والأسود لستاندال) وفى المساء الكونت موسكا

خلفية هذه المراسلات تكونها أربعة موضوعات رئيسية : الموضوع الأول والمسيطر هو البوح بالحب وهو ملتهب لدرجة لا يمكن أن تجعل أى زوج « مهما كانت سذاجته أن يصدق من يسميه « صداقة » . الموضوع الثانى هو رد الاتهامات الموجهة ضده والأحتجاجات علي شخصية جنية الإتروسك وعدم التوافق فى المشاعر بين رجل عاشق وإمرأة بدون عواطف ولكنها تستمرى الاطراء لأن أحد اهم الشخصيات التى تتنازعها أوروبا كلها قد وقع فى غرامها . والخلفية الثالثة تتلخص فى كلمة واحدة : التربية أى تلك التى يقوم بها العاشق الذى حرم من أى وسيلة أخرى نحو السيدة التى كانت الأولى فى الأعلان عن نفسها بالاعجاب به . وأخيرا فان آخر مواضيع هذه الخلفية فهو الاعترافات الخاصة جداً مثل ذلك الخاص بزوجة الخالى من مشاعر الحب .

اعترافات ؟ بعد اعترافاتة الملففة فى بيزا وتلك التى أفلتت منه خلال زيارته القصيرة لليفورن فى سبتمبر ١٨٢٦ هاك إعتراف ثالث يعود إلى شهر أكتوبر أقربه عند عودته الثانية إلى فرنسا ومن شامبيرى بالتحديد:

« ...بما أنه لم يكن من حظى أن أكون كل شئ بالنسبة لك فانى أود أن أكون على الأقل أول صديق لقلبك . هل أنا أطلب بذلك الكثير منك ، أنت التى هى كل شئ بالنسبة لى (.....) تعلمت كيف اسيطر على التعبير عن مشاعرى . قلبى هو المسيطر ولايمكن لى أن أكبله بسلاسل »

فى الأول من مارس ١٨٢٧ كتب من باريس وذلك بعد عرض علمى مطول سنعود إليه فيما بعد :

« تاكدى يا صديقتى أننى ملكك باكثر مما يمكن أن أقوله لماذا لا انتاح لى فرصة أن أثبت ذلك كما يود قلبى أن أفعل . أنى لا أريد شيئاً آخر من العالم الذى خدعنى باقسى ما يمكن حتى الآن ، سوى أن إقتناعك بانى إلى الأبد صديقك الوفى بكل المعانى التى يمكن لقلبك وقلبى أن يمنحها لهذه الكلمة فتهداً بالتدريج الأحزان التى تنهشك وتتسين ما فقدتته وتعيد تصالحك مع الحياة التى عصفت بها أيامك الأولى بتلك الاعاصير الرهيبية . أود أن أكون الرباط الذى يشدك إلى الوجود . أما بالنسبة لى فلا أريد شيئاً إلا إذا وجدت داخلك هذه العاطفة الحية التى جعلها القدر أولى احتياجات روى . الوداع » .

ثم بعد بضعة أيام ومن باريس أيضا نراه وقد سما إلى مستويات تشبه الإجلال

«...أحبك بصدق عظيم لا يسمح لى أن أشعر بالغيرة من تعلق كل من يعرفك بك ومن كل من يقدرونك . إنى أقدر تماما الشقاء الذى يسببه لك وضعك لدرجة أنى أود بحق أن تجدى حولك أشخاصا يمكنهم أن يملئوا قلبك كله .. حتى لو ادى ذلك إلى أنك لاتفكرين فى شخص سوى على أنى رؤية عابرة تمر للحظة على مخيلتك فى أوقات الألم »

وفى الثاني من أبريل يرسل الى سيدة ليفورن بمايشبه أغنية حب :

« مر اليوم عام كامل على لقائنا الأول فى نفس هذه اللحظة التى أعيشها . هل كان بإمكانى أن اتنبأ وأنا أحضر إحدى جلسات الاكاديمية أى إحدى هذه الاجتماعات التى عرف عنها بحق وسط العامة أنها من أكثر الاجتماعات مدعاة للضجر العلى ، أنى سالتقى فيها انسانة ستحتل كل هذا المكان داخل قلبى فى المستقبل ؟ نعم سبق أن كلمونى عنك ولكن بشكل عابر جداً على الرغم من أنه يستحيل على الآن أن أصدق أن يكون اسمك قد ذكر أمامى دون أن يثير ذلك اهتمامى ومشاعرى ، الا أن عريضة القلب التى يطلق عليها الأقدمون اسم الشيطان الطيب انتفضت من ثباتها الطويل فشددتنى إليك منذ تلك اللحظة . تعلق نظرى بك إلى الأبد كنت أقرأ فى محياك كل ماكنت أود وجودة . فى الوقت ذاته كان الشيطان يكون رأيه عن حساسيتك وشخصيتك وعن الامكانيات النشطة لنفسك المحبة . هل من حظى أنا أن تخميناته كانت فى محلها ؟ إنه لا شك شيطانك أنت (لن أقرر إن كان طيباً أم شريراً) الذى دفعك إلى الحديث عن هيروغليفياتى ..

عشية ذلك اليوم لم أكن أتعلق بأى شئ فى هذا العالم الكئيب . كانت أحلامى فى السعادة مدقونة فى أعماق قلبى ترزح تحت أثقال التجارب المخدوعة التى عرفها شبابى كله [....] وكانت فى سبيلها إلى [...] الزوال التام [....] لم أكن أرى شيئاً حولى (....) لم أكن أعيش بل أنى لا أسمى حياه العادة التى أكتسبتها فى التركيز بكل ما أوتيت من امكانيات على دراسة واحدة فضلتها لانها كانت تستهوينى تماما وتجعلنى أنسى وجودى ذاته . عرفتك فتغير كل شئ » .

هاهو مندفع عاشقنا عالم اللغويات! إلا أن السعادة لن تطول إذ أن من أحب لم يستجب له.. لم يكن فى الامكان أن نطلع على خطابات انجليكا. إلا ان ماينقله عنها جان

فرانسوا لكى يحسن الرد عليها - وعلى الرغم من إقتضابه - فهو يكشف عن خبثها الغريب . فلكى « تبرئ » نفسها من « لا -حبها » له - أو لكى تبتعد عن حب كله مخاطر - فان الشاعرة تفننت فى أن تطلق على الرجل العظيم سهاما وتلميحاً تختلط فيها الشكوك والغيرة وتحقير اللعوب للمحب ثقيل الحركة . غيرة الإنسانة الطموحة من الذى سبقها على سلالم المجد وهى قليل من سيليمان * وشئ من كاتارينا من نمرة (شيكسبير) وقليل من جيرمان نوستال ** .

عدة اشارات نكرها جان فرانسوا توحى بأن انجيليكا كانت محاطة باسرة كثيرة المشاحنات تحركها الغيرة وتريد أن تراها زوجة لأحد أفراد أسرة بارولومى أو أى شخصية أخرى من الأسر الكبيرة حتى تؤمن بتتويج عشيرة باللى داخل المجتمع التوسكانى . الجميع يراقبها ويجبرها ويمدحها ويحذرها أو يتحداها : أسرة من أسر المسرحيات الكوميديية بالفعل . فجأة يظهر فى هذه المسرحية الجديرة بمسرحيات جوتزى - عالم مستهلك يتكلم الإيطالية دون طلاقة وبدا كرشه يتكون ويكبر ؛ فصاحته زائدة بعض الشئ؛ ربما لتغطى على خجله مع شئ من التحذلق ... وعلاوة على ذلك فهو متزوج . لاشئ يمكن إنتظاره منه سوى بعض مظاهر المجد لسهرات أيام الجمعة والكثير من الحرج لصاحبة السعادة ، ومع ذلك وعلى الرغم من مضايقات القبيلة فان الراجاتزا (الأنسه) دفعت الأمور قليلا إلى الأمام لا شئ أكثر من نقرات بالمنقار أو جروح بالاظافر أو لدغات حيات أو طفرة من طفرات اللافا إغريقية . أمام هذا الجبروت لا داعى للاندهاش إذا كان شامبوليون الصغير اعتبر نفسه فى بعض الأوقات الملك بريام ذاته . إنه يتفادى الضربات ثم يأن ثم يرد ويحتج ويهاجم هجوماً عكسيا . يستكين أحيانا ثم يندفع من جديد بكل طاقته وإن لم يتمكن من ترويض النمرة فهو يلقنها المبادئ تارة ويؤنبها تاره أخرى وهو فى كل ذلك مؤثر جداً وغير حذق أيضا كما بيتهون وهو يذافع عن نفسه وهو بين أيدي جوليتا . ولكن يجب أن نذكر بعض اللمسات من هذا الصراع الثنائى الذى لا نستمتع منه سوى لصوت السوليست : « باريس » فى ١٠ نوفمبر ١٨٢٦ .

* بطلا مسرحية مولير « عنو البشر » شابة لعوب ونمامة ونكية [المترجم]

** أدبية فرنسية (١٧٦٦-١٨١٧) [المترجم]

« مكتوب منذ الأزل في كتاب المصير أنى لن أحصل أبداً على رسالة منك لا تبدأ بعبارة ولا تحتوي على عرض لسلسلة من الشكوك ولا تنتهى بهجاء إذا كان الأمر هكذا فما على سوى الإمتثال ، ولن احتمل (حتى لا أضع شخصيتك السيئة أمام المحكمة) سوى بأن أمسك القلم واكتب لك . لكى تخاطبيني تلجئني الى فكرك الصالونى ولا تفعلنى سوى تكلمة اثرثرة إجتماعية يكون الآخر هو ضحيتها ومن سوء الحظ أن يكون هذا الآخر باستمرار هو أنا . وذلك فى الوقت الذى تتكرمين فيه بمنحى شئ من وقتك . إن ذلك عمل خاطئ . يجب على أن أغضب وأن أستعين بكل بلاغتي لكنى أجعلك تخشين على نفسك من ذاتك وذلك بأن ارسم لوحة مرعبة للتحدى الشكاك الذى ينهش صدرك ويمنعك حتى عن إكتشاف أصدقائك حيث هم بالفعل .

بدلاً من الشكوى ساطلب منك الغفران ضاماً يدي متضرعاً راکعاً وطالبا الرأفة [.....] ومادام كبرياء مغالتي قد ارتضى أن يتذلل على هذه الصورة ومادامت أشعر أن وضعى هكذا يناسبني فانى انتهنز الفرصة لاعتراف الاعتراف الشامل التى تطالبيني به وتصيرين عليه . نعم يا قس اعترافى : نعم إنى مغازل حدق (.....) من كثرة ما قمت به من تزلف وملاطفة ذكية لكل روسائى ، منذ أن بدأت حياتى سواء السياسية أو الأدبية ، نجحت فى أن أدعهم ينتزعون منى خمس مرات مختلف الوظائف التى أنيطت بى . السنة السوء كانت تقول جينذاك أنى كنت أتكلم بصوت أعلى من المسموح به ، ويعينى أسو العيوب وهو أنى لا أخفى أبداً ما أفكر فيه عن الأشخاص أو الأشياء»

أن يصل بها الحال أن تصفة بأنه مغازل حدق يدل على أن الكاهنة لم تعوزها وسائل التصنع : إلا ان هذا لم يكن سوى البداية . فبعد ذلك بشهر ..

« انتظرت وصول أخبارك على أحر من جمر إلى أن وصلت رسالتك المؤرخة ٢٢ نوفمبر لأعاقب بمنتهى القسوة لأنى شكوت من صمتم .

لن أقول لك كل الالم الذى سببته لى لأنك لن تصدقيني . إنك تشككين فى كل ما أفكر فيه ، كل ما أكتب يساء تأويله . جنية مؤذية تقف بيننا تتحكم فينا وتقدمنى لخيلتك فى صورة غير حقيقية . وتستخدم كلامنا كاله لتعذيب

الأخر (...) ومن ناحية أخرى لايمكننى أن أضع عليك اللوم لانه لاتعرفيننى فلم
ترينى سوى للحظات . وعبر العديد من العوائق والتحفظات ! ألوذ فقط بحق لايمكن
أن تنقضيه وهو إلا أحاكم دون أن يسمع دفاعى . بعدما سأمتثل للحكم الذى
ستُصدرينه . إذا كنت تحكمن بهذه السرعة على من يحبوك فانى أشفق على من
لايهمك أمرهم .»

بعد سبع أو ثمان شهور نجده قد روض تماما ولايتجرأ على الرد سوى بهجمات
مضاضة غير مأمورنة العواقب

باريس فى ١٨ أغسطس ١٨٢٧

أخذت عن الطبيعة شخصية مكروهه جداً [....] لااعرف بأى لهجة أتحدث بها
إليك ، بل أنى اعتقد أنى لن أرضيك سوى بان أكتب لك بعض الكلمات الوقحه»
ثم يلى ذلك فورة من الخزن :

« التسامح يعتبر من أشكال التعاطف مع المسنين ولذلك فان أضحك وإن أغضب
من الوريقات الثلاثة أو الأربعة التى تتكون منها رسالتك . تحلى بقضائى وضاعى
عدهما . يتضمن خطابك إفتراضا لن أخذه معك بالمعنى « البارد » الذى تحملىنى
أياه . إذا كنت بالفعل تعتقدين ما تقولين الم تخشى قط أن تتسبى فى الاسائة
إلى ... ؟»

وسنذكر أيضا هذه الفقرة من إحدى الرسائل الأخيره التى تنم عن شئ من سوء
الطباع : « تبدأ رسالتك الأخيرة مرة أخرى بأحد السهام المسمومة التى
أصبحت من الأمور التى تعودت عليها بسبب معاشرتك لأوساط مناهضة لك وهى
تخرج من قلمك بصورة طبيعية للغاية . تقولين أنك ربما تشعرين ببعض الأسف
لوعلمت أن صممتك أحرزنى ؛ كيف ستصفين هذه الجملة لو حدثت وتجرأت أنا بكل
أسف وكتبتها لك ؟»

كفانا من هذه الشكاوى وكما يقول جورج واندان ، من الأفضل دائما لا نتعامل
مع إمراه شريرة .. ولكن إذا كانت الإساءة قد حدثت وانها تتمتع بشخصية حادة
الطباع فإن أفضل ما يمكن عمله فى مثل هذه الظروف هو أن تزين الأمر بأفضل ما
أوتيت خاصة إذا كنت قد نشرت « رسالة إلى مسيو داسييه » أو تكون ألفت صوتاتا
إلى كروتزر . وها هو جان فرانسوا لايأنف من تأدية دور المربى تجاه أنجيليكا . لنذكر

هنا أولا هذا التعريف المحدد لشخصية السياسية كما كتبه للكاهنة سريعه الأنفعال :

« إنى أتمرد ويعتبر هذا من مخلفات حياتى السياسية ولكن إطمئنى فمهما بلغت بى الميول التى لازمتنى طويلا نحو التمرد فلن أتامر أبدا وبالذات ضدك أنت . إنى أشاركك الرأى تماما فيما يتعلق بمن يزرع الشوك قبل ثمان سنوات من الآن كانت الأحلام لاتزال تراودنى فى إحداث تغيير إجتماعى نحو الأفضل ودون ماحود وكنت أعتقد أن من الواجب حمل السلاح فى الأماكن التى يمكن لثقافة بطيئة ومنظمة تنظيمها جيداً أن تحول وحدها النباتات السامة إلى نباتات صالحة (....) وهذا هو السبب الذى دفعنى إلى أن أكرس ذاتى بالكامل لدراساتى وهذا يعتبر موضوعاً واسعاً وكبيراً لدرجة أنه يمكن استيعاب قوى فكرية باكثر مما حبتنى بها الطبيعة .. وهذا يعتبر على العموم أسلوب آخر من أساليب القيام بالثورات بقدر ما يمكن أن أكون قد احتفظت به من مثل هذه الميول القاسية » .

على الرغم من أنه أفق من أحلامه الثورية فان صديقنا عالم المصرىات بقى جمهوريا فى أعماقه . فها هو ينهرها - وهى الشاعرة - بعد ما قرأها مسرحية تراجيدية من ستة فصول (لماذا الخروج من العرف المكتسب) حيث إكتشف مذهباً أنها حولت الجمهوريين إلى « بانديتى » أى « مجرمين » بالضللال ! « إن تشويه الناس على هذه الصورة شئ فظيع ، تأثر تأتب وكنته بقى جمهوريا فى أعماقه وفيلسوفى إتصح إنه « فيلسوف جيد » . الجانب التالى من شخصيته جدير بروسو أو ديدرو فهو إذ يصف لصديقه حادة الطباع الزيارة التى قامت بها لباريس « فرقه صغيره من البدائيين الأمريكيين من قبيلة الأوزاج » أحضرهم أحد البحارة لمتحف اللوفر « شبه عرايا » وسط المارة المذهولين ، يردف قائلاً :

« إحدى النساء الأوزاج إسمها ميهانجا . خطوط وجهها كانت جميلة على الرغم من بسمة بدائية إختلطت بطريقة فريدة بالوجه الجاد والهادئ فى نفس الوقت ... لم يحصل منها كل العالم المحيط بها على نظرة واحدة . بقت ميهانجا محاصرة داخل ذاتها ثم وقفت فجأة بعد أن تجولت بنظرة سريعة حول القاعة ومرت عبر الجمهرة التى تحيطها وإتجهت فى تودة نحو أحد الأعمدة فى آخر القاعة وجالست تتظلل بها ووجهها إلى الحائط . هناك وبعد أن عقدت ذراعيها فوق ركبتيها ، طاطأت رأسها وأغلقت عينيها وشرعت تغنى بصوت غير مرتفع أغنية بطيئة الوتيرة وحزينة حزنا يمزق القلوب ، كنت قد تبعتها إلاأنى مكثت بعيدا عنها بعض الشئ . لم تفعل السيدات الجميلات مثلى فأحاطتن بالمرأة الحزينة من جديد التى ظلت على تركيزها

الشديد فى ذكرياتها وظلت تغنى لمدة نصف الساعة دون أن تأبه بالفضولين الأغبياء الذين لا يراعون الامها بل وجدوا تسلية عابرة حيث يجب أن يجدوا فقط الرحمة والتأسسى والتراحم . كانت تلك البائسة تفكر دون شك فى بلادها وفى أحبائها الذين تركتهم فى حين كانت باريسياتنا الجميلات تتساحكن أسالك بالله من من هؤلاء ميهانجا أم السيدات التى يجب أن يطلق عليهن صفة البدائية ..» .

« إنه متشائم صديقنا المصرى » . نحو أى أفق مظلم للعالم قاداته تجاربه ودراساته وفك الطلاسم التى جعلته يغوص وسط كل هذه القرون من الزمان ؟ نتوقف مرة أخرى عند هذا التعبير الموجه للكهانة :

« أتشوق لرؤيتك وقد أنهيت دراساتك التاريخية . إنها قرانات مؤذية بالنسبة لك ، مهما كانت المرحلة الزمنية - قديمة كانت أو حديثة - التى تنتظرين من خلالها إلى النوع البشرى فستكتشفين دائماً أنه لا يساوى شيئاً وإن استثنى من ذلك سوى المصريين عن حب * والإغريق عن مجاملة . أغريقيوك كانوا يتقاتلون للتسلية (...) أما مصريونى فلعلمهم إكتفوا فقط بالمظاهر الخارجية للحكمة والأنسانية [...] فذلك يكفى لأنه يعود إلى نفس النتيجة وفى رأى أن الهة التاريخ يجب أن تصور وفى يدها شعلة وفى الأخرى خنجر تلوح به فوق نهر من الدماء ...! »

ثم يختم خطابه بهذا الاعتراف للعرافة التى سبق أن كشفت عدة مرات عن إحادها النشاط :

« يجب أن أحدثك عن أسرتى وكنت فى جميع الأحوال عازماً على ذلك حتى لو لم تطلبين ذلك . فى اللحظة التى أكتب لك فيها من مكتبى فان إبنتى الصغيرة تقاطعنى فى كل لحظة باسئلتها التى توجهها لى من قرب النافذة حيث هى جالسة تحاول ترتيب رقعة شطرنج تلعب بها . دون أن تتصور أن يمثل هذه الأسلحة نجحت أنت فى هزيمة أبيها من جدارة المرة الوحيدة التى تجرأ فيها أن يعلن عليك حرباً صريحه. إبنتى (الوحيدة وستبقى كذلك على ما أعتقد) عمرها الآن ثلاث سنوات. لها مثلك إسم عربى : زورايبدا . إنها دمثة الطباع وطيبة وسابذل كل جهدى لكى تبقى كذلك

* الحب - إذن - هو للمصريين فقط وليس انجيليكا التى يتعين عليها أن تكفى بالمجاملة فقط .

دائما . أحضرت لها خادمة من جنيف حتى أظل المسئول الوحيد عن تنشيتها الدينية.
ستظل مسيحية ولكن دون خزعبلات »

هل قال لها كل شئ .. لم يبق لديه سوى إلقاء كلمات الوداع التي ستصل إلى
إنجيليكا وقد أصبحت تتباعد أو تتعالى عشية سفره وعودته من مصر . من هي
المرأة التي كان بإمكانها الألتاثر بنداآت أوديب وهو فى طريقه لمواجهة أبى الهول ...
وبنداآت هذا البحار العائد محملا بالتاريخ والمخاطر والمعجزات ؟
فى ١٠ يوليو قبل سفره بثلاثة أسابيع كتب لها من باريس

« ساكتب لك مرة أخرى من طولون وساكون شاكرا لو وصلتني منك كلمة صغيرة
على عنوان مسيو لوت * وهل ستتركينى أرحل دون ذلك»

ومع ذلك فهو يرسل لها هذه السطور فى الأول من أغسطس :

« طولون » من فوق « الإيجلى » وهو يفتح شراعه .

انتظرت كلمة منك دون جدوى ربما تكونى قد كتبت ولم تصلنى رسالتك
لضييق الوقت . أود أن يكون ذلك هو ما حدث . ومن القسوة على نفسى بمكان أن
أعتقد أنى أضعت كل أمل فى علاقتك بى فى اللحظة التي لا أجد فيها وأنا أغادر
أرض الوطن سوى ملاذا واحد وهو إعتقادى بأنى سابقى حيا باستمرار فى قلوب
كل من أحببتهم وأتركهم الآن ورأى وبدت لو قلت لك وداعاً ، ومن المؤلم جدا بالنسبة
لى أن أغادر أوروبا تاركا بيننا غيوما تعكر صفو الثقة التي يأمل قلبى أن يجدها فى
قلبك . ساكتب لك من مصر وإذا أردت أن تردى على خطاباتى . فليكن ذلك على
العنوان التالى . إلى مسيو دروثييتى قنصل فرنسا العام فى مصر (يسلم إلى
مسيو لوت

سيسعدنى الحصول على ذكرى من يدك . الوداع »

الكلمة الختامية ستكون لخطاب كتبه للكاهنة الصامته بعد أن وضع قدمه مرة
أخرى على الأرض الأوروبية « من فوق اللازارات من طولون ٢٧ ديسمبر ١٨٢٩

* أحد رسامى رحلته الى مصر (راجع الفصل ١٦ ، ١٧)

المركب الذى عاد بى من مصر بعد ١٩ يوماً وصل إلى رصيف طواوين مساء الخامس من الشهر . بقيت على أملى حتى اليوم أن يأتوا لى من اليايسة بخطابات منك إلا أنى أجد لزاما على أن أتخلى عن أملى فى أن أكون أكثر سعادة فى أوروبا عما كنت عليه فى أفريقيا حيث لم يصلنى منك خلال ١٩ شهرا سوى تعبير واحد عن الذكرى . كيف أفسر هذا الصمت ، لايمكن معرفه الاسباب سوى منك أنت فقط .

ولم يبق لى سوى أن أكرر هنا الكلمات الحزينة التى أنهيت بها جميع خطاباتى لك من مصر : إنى أنتظر . »

ظل هذا الإنتظار قائما إلى أن إنتهى بوفاة البطل . كان ايوبليتو روسيلينى رفيق رحلته فى مصر والذى أصبح بذلك أقرب أصدقاتة وحافظ أسراراه بالطبع لانه كان أيضا من بيزا وبالتالي من جيران الكاهنة - كان يعرف ذلك جيدا وهو لذلك لم يدع فرصة واحدة تمر دون أن يثير موضوع الغراميات التوسكانية . فى ٢٢ فبراير ١٨٣٠ كتب من بيزا إلى شامبوليون « فى ليفورن إلتقيت بالحاكم الطيب* وبجميع أصدقائه فى منزله . الجميع يهنئونك « ويريدون رؤياك . الأوكس* * مازال علي حاله نحوك : أسرت لى فى أذنى أنها تبعث لك بمشاعر عديدة كما تؤكد لك إهتمامها بكل نجاحاتك ...»

وفى خطاب آخر من بيزا مؤرخ فى ٢٨ إبريل ١٨٣٠ أشار روسيلينى أيضا إلى زليير . وإذا كان يحدث شامبوليون على أن يمضى من ست إلى ثمان شهور فى توسكانا أضاف قائلا :

« سترى من جديد اللومينارا فى كل بهائها » ويضع خطأ تحت هذا الكلمات وهو متأكد أنها ستثير لدى صديقه نكريات عزيزة جدا عليه .

وأخيرا فى ٢٤ أكتوبر ١٨٣١ وبعد أن أقام فى باريس لفترة سمحت له بالاعداد مع شامبوليون لنشر أعمال رحلتها كتب روسيلينى إلى صديقه وكان يقيم جينذاك فى فيجك خطابا قصيرا ختمه بهذه الكلمات : « الأوكسيس وبلبلها المسكين موجودان الآن فى فو . *** يقال أنها جعلت منه حشرة ...»

أوكس أوكسيس أو أوكسور هى جميعا مأخوذة عن كلمه أوكسر اللاتينية أو زوجة . تلاعب بالألفاظ بين علماء المصريين . وقد عرفا فى مدينة طيبة حيث عاشا فى معبدا الأقصر أكثر مشاعر السعادة عمقا أما فيما يختص بحالة الحشرة التى وضعت

* باولو جازونى - فنتورى : محافظ ليفورن من ١٨٢٨ حتى ١٨٣٥

** كل شئ يشير إلى أن المقصود بهذا الاسم هنا هو انجيليكا

*** عدة حروف غير واضحة فى الميكروفيلم وأعل الاسم هو : كورفو

الأوكس فيها « بلُّبهاً » فان تلاعب الالفاظ هنا غير واضح لنا .. إلا إنه يشهد على قسوة شخصية انجيليكا . فلم يكن المكتشف إذن فريستها الوحيدة .

عندما كان يسميها أورپوس فكان فى ذلك إشارة إلى الثعبان ذى العيون البراقه الذى كان يخرج وهو يصفر فوق جبين فرعون . من يقترب منه .. وقد أقترَب منه صديقنا وتحدى ولُدغ ، وعرف قدر نفسه ...

إذا بريشيانى تحدثت عن « عدم مبالاة » الأنسة باللى ألا أننا يمكن أن نتخيلها غاية فى الحرارة ومتسلطة وقاسية وأحاسيسها العنيفة كلها منطوية إلى الداخل . هل كانت تغير لان موهبتها الخلاقة لم تكتمل أو كانت متقطعة ؟ أم أن غضبها عنيفا لأنها فى تسلطها كانت تواجه جلال العبقريّة ؟

من المؤكد أن الجرح ظل يدمى طويلا فى صدر العلامّة . ولكن من الممكن أن تكون مغامرة توسكانا أثمرت داخله ما تلخصه هذه السطور المرسله فى ٢٠ نوفمبر ١٨٢٦ إلى ايبوايتوروسيليني (2) :

« بالسعادة التوسكانيين ! كم من مرة كررتها خلال فترة أشهر العسل التى أمضيتها معهم وما أنا أكرها مرة أخرى اليوم بقدر كبير من السعادة لأنها صرخة تحية تعبر فى الوقت ذاته عن الأسف وعن شعور بالعرفان . نعم يا صديقى العزيز إنى تعودت أن أرجع كثيرا بالذاكرة إلى أيام السعادة التى عشتها فى ليثورن وفلورنسا »

عندما يتحدث جان فرانسوا عن « شهور العسل » التى أتيح له أن يحيهاها فى توسكانا - قبل أن يعود إلى روما ونابولى والبندقية - فهو لا يفكر فقط فى انجيليكا التى إمتزج عسلها بمرها . فاذا كانت غرامياته الليثورينية قد غاصت فى بحر من المرارة فان صاحب الرسالة إلى مسيو داسييه قد عمق تفكيره فى ذات الوقت كما قام بتحقيق أحد المشروعات اللذين شغلا باله وهما مشروع إقامة متحف مصرى فى باريس يعهد به إليه ومشروع سفره المرتقب لوادى النيل .

عرفنا من قبل أنه سافر إلى ليثورن باحثاً عن مجموعة سوات كالعقيد الذى يبحث عن كتيبته كما فعل قبل ثلاثين أو أربعين عاما نواى أو توزاى - أكسيس . وهما فى العشرين من عمرها . وعلى أرصفة ميناء ليثورن المليئة بالنشاط وبالتحديد فى مخازن الميديسيو الواقعة إلى جوار الرصيف الذى تقف عليه من فترة لأخري مركب البريد المتجهة الى جزيرة كورسيكا ، أمضى الاسابيع الأولى من إقامته التوسكانية مبهورا

ومشغولا بفتح الصناديق ثم باعادة تسميرها يزيل الأتربة من فوق الأقمعة والأوشيبتي،
يفك شفرتها ويصنفها ويحفظها .

وكتب فى ٢٧ مارس إلى الأب جاتزيرا صديقه فى تورينو :

« بعد أن ألقى بى فجة وسط كم هائل من الأثار أتيج لى فقط أن ألقى عليها نظرة
سريعة العام الماضى .. فمن الصعب على جداً ألا أبقى معها من الصباح حتى
المساء لأتعرف عليها وأسجلها فى الجرد ولأنسخ تلك التى تهمنى قبل أن أعيدها
داخل الصناديق لكى أعهد بها مرة أخرى إلى المادة الخائنة * (...) من الثامنة
صباحاً إلى السادسة مساءً أبقى داخل المخزن الذى يضم المجموعة الغالية .
ويسعدنى أن أفيدكم أن الأمور بدأت تتضح .

وضعت فى الصناديق بالفعل ما هو مصنوع من البرونز وعددها ما يقرب من
ثلاثمائة : اما تماثيل أو تماثيل صغيرة أو أشكال أو حيوانات أو أنية من كافة
الأنواع [...] إنها أجمل المصنوعات البرونزية المصرية المكتشفة (...) تمكنت من
مشاهدة التابوت المشهور بكل روية : إنه بالفعل لرمسيس ميامور وهو قطعة واحدة
من الجرانيت الوردى طوله عشرة أقدام على الأقل وأرتفاعه خمسة ونصف . إنه كتلة
ضخمة مغطاة من الداخل والخارج بصور اسطورية من أعرب ما يكون وكمية هائلة
من الهيروغليفيات الشارحة لها .

يعتبر هذا التابوت أكبر التوابيت الموجودة فى أوروبا »

فيما يتعلق بكشف الجرد الذى انهمك فيه بهذا الحب الجم اشار عليه جاك جوزيف أن
يكتفى بذكر الأشياء فى ماديتها حتى لايسرق منه منافسوه الكرام - كما حدث من
قبل - عمله فى التعليق على مكونات المجموعة . وكان رد المكتشف فوراً :

« سالتزم بما أشرت به إلى فهو بيدى لى مبنيا على أسس سليمة ومبدئية إنهم
أفأكون ويجب الانضع فى أيديهم السكين لكى يقطعوا به أرجلنا إذا ماترائى لهم
ذلك »

كان « الأفاكون » نشيطين فعلا فى باريس . فقد نشرت صحيفة تسمى
لوسبيكتاتور مقالا فى الأول من ابريل شديد الخسة ، قيل أن كاتبه هو راعول روشات

* يقصد البحر إذ كان فى إنتظار مركب طواوين التى كانت ستقل المجموعة إلى ميناء الهافر .

« يعتب الأجانب عتابا خطيرا على اثنين من أهم علما ثنا وهما الشقيقان شامبوليون إذ يقولون أن الأخ الأكبر نسب إلى نفسه شرف حل شفرة الهيروغليفية وهو شرف يستحقه الدكتور يانج الإنجليزي أما الأصغر فيقال أنه سرق من ميسو چوليو دى سان كوينينو محافظ المتحف المصرى لملك ساردينيا شرف اكتشاف أن المصريين كان لهم نظاما للأعداد يشبه كثيرا نظامنا . يجب على السيدين شامبوليون أن يدافعا عن أنفسهما » .

المؤامرة الكبرى - « الإفعوان ذو المائة رأس الذى يصفر فى زحفه » كما يقول جان فرانسوا - لم يكف عن أعماله ولن يكف . فبينما هو يخرج الآثار من صناديقها ثم يعيدها بعد أن يرتبها ويرقمها على أرصفة ميناء ليثورن ، كان الكونت فوربان مدير المتاحف الوطنية فى باريس ينشط لكى يسحب المجموعة من بين يديه ويمنع تعيينه محافظا للمتحف الذى فى دور التكوين فى حين كان جومار يتحرك مستميتا فى جميع الاتجاهات لكى يتولى هو المنصب - بصفة صاحب الأقدمية ورائد علم المصريات .

ولكن سويستان دولا روشفوكو ياور الملك لشئون الفنون الجميلة وهو ابن اللوق دو دوقيل وهو أحد حماة شامبوليون المعلنين بت فى الأمر ولو الى حين وأكد أن چان فرانسوا سيكون المسئول عن إنزال مجموعة سولت كما كان مسئولاً عن إبحارها .

ولما كانت ضمانتان أفضل من ضمانة واحدة كتب صغير فى ٢٧ إبريل إلى بلاكاس الذى لاغنى عنه ولا تعوزه الحيلة وكان لا يزال سفيراً فى نابولى :

« ... كل يوم يمر يزدنى إقتناعا أن هذه المجموعة من الآثار الجميلة كان يجب أن تؤول إلى فرنسا لتملا الصالات المصرية العارية باكثر مما يجب فى المتحف الملكى فى باريس (...) سيكون فى استطاعة الجميع أن يقتنع بما أقوله بعد بضعة شهور (...) إلا إذا تقرر ترك الصناديق مقللة فى مخازن اللوثر وهى الصناديق التى سانشحنها إلى فرنسا حال وصول المركب الذى كلف بذلك إلى هنا . من واجبى أن أشكر سعادتكم لما تفضلتم به من توصية وزير البلاط الملكى بتكليفى بوظيفة محافظ المتحف المصرى القادم » .

الحماية المزبوجة للدوقين دو دو دوقيل ودو بلاكاس لم تذهبه هباءا . فبينما هو يراقب شحن ألها مصر على ظهر سفينه الشحن « لا دورانس » ويستعد للتعامل معاملة الأتراك إلى المور فيما يتعلق بالمناورات الخسيسية التى يقوم بها السفلة ...» كان

أصدقاء شامبوليون الأقوياء يتحركون في باريس . فى ١٧ مايو ١٨٢٦ أعلن فيجاك بكل هدوء إلى أخيه الأصغر « الخاتمة النهائية لجميع المحن » ، فقد وقع الملك على قرار تعيين جان فرانسوا محافظا للقسم المصرى والشرقى للمتحف الملكى فى اللوفر كما عين الكونت دو كلارك مسئولاً عن القسم الأغرقي - الرومانى تحت الإدارة الشاملة للكونت دو فوربان كما تحدد فيما يلى :

« كل عام سنتلقى فى متحف آثار اللوفر وخلال الفصل الربيعى محاضرات عامة وبدون مقابل عن الآثار المصرية حيث تشرح نظامى الكتابة التى استخدمها المصريون (....) سيتولى هذه المحاضرات السيد شامبوليون الصغير محافظ الآثار المصرية . كما أنه سيطبق بقدر ما هو مستطاع * نظرياته على آثار المتحف»

وجاء خطاب من الفيكونت دولارو شفوكو إلى جـ - ف شامبوليون ليرفع من قيمة إنتصار صاحب « الرسالة ... إلى مسيو داسييه » إلى العنان .

« كان يجب أن يعود إلى العالم المتعمق والذكى الذى فتح لنا هذا المنهل الثمين من المعارف مهمة نشرها على أوسع نطاق بين عالم العلماء ... وبالتالي فقد قرر جلالتة أن تكلفوا أنتم بمهمة هذه المحاضرات وقد تفضل جلالتة بمنحكم مقابل هذا وبصفتكم محافظا للقسم الثانى للآثار مرتباً سنوياً مقداره خمسة آلاف فرنك تتمتعون به ابتداءً من تاريخ القرار الملكى ... لن أترك هذه الرسالة تغادر مكتبى ياسيدى دون أن أعبر لكم عن سعادتى الجمة بالعلاقات الجديدة التى ساقبها مع عالم على هذا القدر من التميز » .

« حمداً لأمون رع ولك أيضاً !! » لم يكن فى الامكان أن يتلقى جان فرانسوا نبأ إنتصاره دون أن يقدم القرابين إلى إله الشمس وإلى الأخ النشيط الذى عبر « نار جهنم » من أجله . وهاهو قد هدأ تماماً ولم يعد يطالب بأن يسلم له جومار أو روشات وهما موثقى اليدين والرجلين بل راح يعرض السلام على الجميع :

« ... لا بد وأنت تقلت كلمات سلمية إلى الساده دوفوربان وكلارك لأن ذلك يعتبر أول ما بينفى عملة فى عالمنا هذا وسأكون سعيداً لو عشت بسلام مع هذين السيدين . سيتوقف عليهما حسن التعامل بيننا لأنى على استعداد لعمل كل ما فى إمكاني للوصول إلى ذلك » .

* بما يوحي بشيء من الغرابيه بأن منهج المكتشف لم يكن مؤكداً

ألا أن حسن الطالع لم يوقف إنطلاقاته الكلامية . فلنستمع إليه وهو يلخص قضية المتحف في خطاب وجهه إلى جاتزيرا :

« المسرحية قسمت إلى خمس فصول :

(١) العرض بدأ ببلاغ رسمي مطابق للقواعد الرسمية (...) مقدم من أصدقائي الطيبين علي القوم في جرونوبل * (..)

(٢) الفصل الثاني : مونولوج لروشات أمام الاكاد يمية مناهض لشراء متحف سولت (...) الكورس كله حيث يؤدي جومار دور السويراتو .

(٣) الإهتمام يزداد (...) اعتراضات الوزير الذي يؤكد أن العملية ستتم على الرغم من المعارضين ، تصل مذكرة بدون توقيع موجهه إلى الدوق دو دودوفيل وإلى الفيكونت سوستان يرد فيها أن أعمالى لا تعنى شيئا وأن كل الصحف الاجنبية تسخر من منظومتى الهيروغليفية وتذكر يوميا ما تتضمنه من غباوات وجهالات لاعملها ولاحصر .

(٤) جومار يتقدم لياخذ المكان مدعيا بالحق الإلامى . يكتشف أنه صاحب المذكرة ** يعاتبه الوزير على هذه المؤامرة الدنيئة ويرفض أن يوقع على بيان بالنفى (....)

(٥) على خشبة المسرح مجلس الوزراء يعقد وينجح محافظ باريس فى اقناعه بان يؤيد جومار مناقشه حامية ... الدوق العظيم والفيكونت *** بلباقة مضاعفه مرتين يواجهان كل المؤامرات الموجهه ضدى ويوضحان حقوقى كلها (...)

المشهد الأخير يوقع الملك على قرار تعيينى : هتافات عامة

الرقصه الأخيرة وموسيقى النهاية يرقص على أنغامها روشات وجومار على لحن حزين مشهور فى الخلفية »

السعادة لاتجى منفردة أبدا . فى ٢٤ يونيو بعد أسبوع من الأحتفال الغرامى فى بيزا أى بعد خمسة أسابيع من التوقيع الملكى على قرار جلوسه على كرسي المجد دخلت « لادورانى » ميناء ليقورن وفى العاشر من يونيو يكتب جان - فرانسوا لأخيه :

* حيث عاد الحديث بتردد عن « رونسسر جرونوبل »

** سبق أعينت إلى راؤول روشات وهو الاصح غالباً

*** دو دو فيل ولا روشفوكو

« ... المجموعة كلها شحنت على ظهر « لادورانسى » ومالت أحشائها تماما وعلى الرغم من أن الحمولة ثقيلة للغاية . أكد القومندان أن مولاك وهو شاب طيب وبحار بمعنى الكلمة ويكل ما فيها من قوة أن كل شئ سيصل إلى الهافر دون مشاكل ؟ »

بعد شهر واحد اللوفر سيجد بدوره أحشائه وقد امتلأت عن آخرها بالروائع التى جمعت فى الأسكندرية وتم التفاوض عليها فى ليفورن وبيعت فى باريس من صاحب السعادة هنرى سولت جامع التحف الخبير المقدم . ولم يكن ذلك بالنسبة لشامبوليون سوى إتمام جزئى للمهمة ، لأن صاحب الكشف العظيم لم يكن يقبل أن يكتفى - لافى تورينو ولا فى باريس بمخزن للتحف . إن ما يحتاجه هو المتحف المصرى فى إطار مصرى وليس أغريقى رومانى - إلا أن هذه قصة أخرى * .

أن تكون « قضية المتحف » قد حلت وهو فى طريق عودته إلى فرنسا وأن تكون مرتبطة إرتباطا وثيقا بمشروعه الكبير بزيارة مصر فيكفى لتدليل على ذلك خطاب أرسله إلى صديقه جاتزيرا فى ١٤ أكتوبر :

« متحفى ينادينى بأعلى صوت للعودة إلى باريس . العمل ينتظرنى وتمائلى الضخمة والمهيات موجودة فى ساحة اللوفر أو فى المخازن ويجب أن أكون هناك لأمنع وقوع أخطاء فى زخرفة الصالات (.....) الجمع فى باريس سعيد باقتناء مجموعة ليوفورن ولا يوجد حديث ولأحلام لآتور حول المتحف المصرى وأنا على يقين الآن بانى ساقوم بعمل جميل للغاية سيسغرق منى ذلك عاما ساختمه بكل وقار برحلة إلى مصر . وضعت خطى بالاشتراك مع الدوق العظيم الذى هو العمود الفقرى للدراسات المصرية »

ولد ابيوليتو روسيليني فى بيزا فى أغسطس ١٨٠٠ بعد أسابيع من معركة مارنجو . حين كان شامبوليون يستعد لمغادرة فيجاك إلى جرونوبل كان الابن الأكبر لتاجر متواضع ولكنه حريص على أن يربيه تربية النبلاء وبعد دراسات فى فلورنسا وبولونيا تحول إلى دراسة اللغات الشرقية بتأثير من الكاردينال ماتزو فاننى المشهور بتمكنه من العديد من اللغات ونجح فى دراسته لدرجة أنه كلف بتدريسها فى جامعة بيزا وهو فى الخامسة والعشرين .

فى هذه الفترة - أغسطس ١٨٢٥ - قدمه الدوق العظيم ليوبولد إلى شامبوليون ضيف فلورنسا حيث كان يفتش ويرتب مجموعة آثار نيتزوني ، إلا أن أسمه لا يظهر فى مراسلات عالم المصريات إلى أخيه سوى فى ٧ أبريل ١٨٢٦ :

* راجع الفصل التالى .

« الدكتور روسيليني وهو شاب مثقف جداً وكله حماس ، أسرع بالحضور إلى هنا قادما من فلورنسا حيث عرف بوصولي إلى ليفورن من الجران - دوق . إنه يمضى هنا أربعة أيام كل أسبوع بصورة منتظمة بجوار أستاذه العزيز ويعود إلى بيزا ليلقى دروسه في الجامعة ، له قلب ممتاز ورأس عامرة بالمعارف وهو يأمل في المحبى إلى باريس لاستكمال معارفه في اللغات الشرقية والدراسات المصرية ، الملخص الذى إستخلصته من منظومتى محرر بشكل جيد ، إذا كانت إيطاليا محتاجة لمثل هذا العمل لكى تفهم شيئا منه . الكسل المعهود يمنعهم من قراءة عمل ضخم لأن ذلك بالنسبة لهم صعب للغاية » .

الجملة الأخيرة تعتبر إحدى التعبيرات غير اللائقة التى يندر خروجها من قلم جان فرانسوا على الإيطاليين على الإطلاق وهى تبدو أقل لياقة بقدر ما كان أول المعجبين به من البيميونتينين أو من التوسكانيين . وهى هو إبيوليتو روسيليني بعد جاتزيرا - قد نشر الكتاب الذى يشير إليه هنا وكان عنوانه بالإيطالية « نظام مسيو شامبوليون الهيروغلىفى موضوع فى متناول » إدراك الجميع « عنوان لا ينقصه التواضع ولعله جعل شامبوليون يأسف لأن الباريسيين جميعا لم يصابوا » بالكسل المعهود » .

هكذا بدأت الصداقة . وإذا لم تكن الأكثر حرارة فقد كانت الأكثر ثماراً بالنسبة للمكتشف . لا نعرف أن كانت عواطفه نحو الشاب ابيوليتو كانت فى حرارة تلك التى ربطته باوجوستان تيفونيه ولكن المؤكد هو أن اعتبارا من هذا الشهر إبريل ١٨٢٦ حول ولاء وذكاء استاذ بيزا الشاب مسار حياته تماما . وسيؤيدان دورا جوهريا فى تنفيذ أكبر مشاريعه على الإطلاق وهى رحلته إلى مصر فى ١٨٢٨ - ١٨٢٩ ويقدر ما كان حبه لانجيليكا أجدا كانت صداقته لابيوليتو روسيليني ثمرة فى مجالى العلم والحياة الشخصية . لن ترجم سخريه المكتشف المعهودة شريكه وإن تستثنيه ولكن شيئا لن يهز تالفا قام فى الأساس على الاحترام والتقدير وتوافق الأفكار . جميع رسائل شامبوليون سواء الواردة من إيطاليا أو من مصر تشهد على ذلك .

أما بالنسبة لروسيليني فلدينا نص جوهري هو تحية وتقدير نشرها عام ١٨٣٢ فى ذكرى المكتشف حيث يتحدث عن « الروابط الأخوية الحميمة والأثيرة » التى ربطته بشامبوليون لأكثر من أربع سنوات علما بأن الأثنين - وكانت عشر سنوات تفصل بينهما سناً - لم يرفعا قط الكلفة فى التخاطب بينهما وأن التوسكاني راعى بكل ما أوتى من حسٍ مرهف ومن لباقة أن يعامل صديقه الأكبر سناً كمعلم وكان سلوكه هو

سلوك أفضل التلاميذ نحو مؤسس العلم الجديد .

أثار تطور أحداث الرحلة المصرية ، أو بالأحرى تداعيات الرحلة بعض التوتر في العلاقة . ولكن أبدأ لم يرجع سبب ذلك لهما . إننا نعرف چاك جوزيف بالقدر الكافي لكي نتصور المضايقة التي شعر بها عندما لاحظ درجة التقارب العلمي بل والعاطفي أيضا القائمة بين المكتشف وزميله ولذلك فان سبب المبادرات التي قام بها كما سنرى - لكي يفصل بين أعمال الصديقين أو حتى لكي يجعلهما يتصارعان - هو الغيرة الأخوية أكثر من كونها ردود فعل وطنية - وسنعود إلى الحديث عن ذلك فيما بعد .

بالفعل بدأ أسم روسيليني يتردد أكثر فأكثر في رسائل چان فرانسوا مرتبطين في كثير من الأحيان باسم الدوق الأعظم عاهل توسكانيا وكان شامبوليون يقدر تذهقه لعلم الأثار حق قدره وكذلك سياسته الليبرالية التي يمارس بها السلطة . في يونيو ١٨٢٦ كتب شامبوليون بالهيريوغرافية نصا على شرف ملك فلورانس ليوضع في المتحف الجران - دوتى .

كتب تحت الخرطوش الذي يحتوي إسمه « GALLERIA GRANDUCALE » عاهل شديد الكرم « يمكن أن نتصور أن هذا العمل الذكى من جانب الأستاذ الزائر إفتتن به عاهل توسكانيا ودفعه إلى أن يمنح روسيليني - محسوب عالم المصريات - جميع الأجازات التي يطلبها هذا الأخير لاستكمال التعاون الذي بدأ بهذه الصورة الممتازة .

بينما هو يغادر ليثورن إلى روما وناپولى ويولونيا والبندقية وميلانو في يوليو ١٨٢٦ كتب چان فرانسوا لچاك جوزيف يفيدته بان أولى محطاته ستكون بيزا حيث سيحل ضيفا على عائلة ايبوليتو روسيليني وأن هذا الأخير سيصطحبه طوال رحلته الايطالية الثانية قبل أن يلحق به في باريس في شهر نوفمبر . وفي ٥ أكتوبر كتب إلى الجران - دوق ليشكره على « كرمه الزائد » وعلى الأسلوب الإطرائى « الذي استقبله به علماء توسكانيا ويضيف شامبوليون مادجاً « الرفيق الدمث » الذي لازمه بفضل صاحب الجلالة وعاونه في روما وناپولى وليثورن :

« سمح لى ذلك أن ألس حب الاستاذ الشاب للدراسات المتعمقة وتفانيه الكامل للعلوم واتيح لى أيضا أن أقدر فضائله الكريمة . المتميزة أفضل تقدير (..) علم الأثار المصرية حقق فى شخصه إنتصاراً مثمرا ولعله من المفيد أن يتمكن من مواصلة الدراسات التي تثوق منها سحرها الجذاب (..) أن إقامته فى باريس

لبضعة شهور ستكمل ما سمح كرم جالاتكم الأمبراطورية أن يبدأ . وسيجد مسيو روسيليني في أساتذتنا في الآداب الشرقية رجالا على استعداد تام لأن يفتحوا أمامه كل الكنوز الأدبية التي تعزز بها عاصمتنا .

في رده المؤرخ ٩ أكتوبر ١٨٢٦ يعرب ليوبولد الثاني عن « تأثره » إزاء هذا الكرم الحنون بل أقول أيضا الأيوبي نحو الاستاذ الشاب الذي تآثر لذلك لدرجة البكاء .. « وإذا يعجز عن اعترافه بالفائدة التي عادت على توسكانيا من أعمال « المكتشف الذي ينشر الاستنارة فيها بهذا القدر العظيم فهو يضيف إنه يسمح لمسيو روسيليني بالتغيب عن الجامعة ليذهب إلى باريس حيث سيتيح له تعمقه في اللغات القديمة « اللقاء الضوء علي الأزمنة الجهولة ووضع الحقيقة البسيطة مكان هذا الكم الضخم من الأخطاء والإفتراضات الغبية » .

هكذا نرى أن بلاط فلورنسا كان أقل تشككا في « الحقيقة البسيطة » من بلاط فرنسا وكيف لا يتأثر شامبوليون بحق من مثل هذا الكلام ؟
لابد وأن التوسكانيين كانوا طيبين يستحقون مليكا على هذه الدرجة من حب الاستنارة .

لم يعد لحماس جان فرانسوا نحو التوسكانيين - ملكا أو استاذنا - أى حدود فكتب بعد أربعة شهور إلى ليوبولد الثاني أن بعد نظره الكريم « أسرع من مجئ اللحظة التي ستصل فيها الدراسات [المصرية] إلى هدفها النبيل . أن موضوع هذه الدراسات على درجة من الاتساع والفخامة بحيث أنى أشعر في ذات الوقت باستحالة عمل كل شئ بذاتي فقط وباحتياجي لمعاون في مثل ما عليه مسيو روسيليني بحق من تفان نحو العلوم » .

نضجت فكرة المشروع الضخم بالقيام بحملة علمية أوروبية إلى مصر بينه وبين روسيليني . في هذا المناخ الفكرى ساهم التعاطف الذي كان يديه عاهل فلورنسا نحو شامبوليون في أن زادت ثقته في المشروع الذي أخذ يتبلور في يونيو في ليفورن لحظة وصول مجموعته سولت إلى الميناء . فكتب جان فرانسوا لآخيه عن « متحفه » :

« يجب أن ينتهى كل شئ في شهر سبتمبر ١٨٢٧ لكي أنفذ مشروعا سارسي أولى أحجار أساسه خلال لقائى القادم في نابولي او روما مع اللوق دو بلاكاس . لعلك أدركت أن الموضوع هو مصر . هناك فقط يمكننى الانتهاء من كل شئ . لعلك ستقتنع مثلئ بضرورة هذه الرحلة عندما أشرح لك لدى عودتى من إيطاليا جميع

الفوائد التي ستعود من هذا المشروع سواء بالنسبة للعلوم أو بالنسبة لسمعتي الشخصية . علق حكلك إلى ذلك الحين وستحدث في الموضوع بعد شهرين ...»

زاد المشروع تبلورا خلال محادثاته مع الدوق دو بلاكاس . إلا أن سفير شارل العاشر كان يدرك صعوبة أن يحصل من باريس على تمويل المشروع الذي كان يريد أن يتم بأى ثمن . أما شامبوليون فكان على يقين من أنه يتمتع سواء فى تورينو أو فلورنسا بـحلفاء أقوياء . كان عليه أن يركز كل مجهوده على التدرع بمشاركتهم لكي يحصل على تأييد البلاط الفرنسى .

كان قد تعرف فى نابولى وصادق عالم مصريات إنجليزى هو سير وليام چال سوف يساعده كثيرا ، كما أنه استقبل فى فلورنسا شخصية فريدة تسمى كاثيليا وكان يدعى وأن بامكانه « كشف أسرار ممفيس » خلال حفريات تتم على ضوء القمر إلا أن هذا الشخص غريب الأطور أرسله إليه هنرى سولت ذاته - القنصل الإنجليزى صاحب المجموعة الذى كان يضغط عليه باستمرار لكي يلحق به فى مصر . وفى توسكانيا أيضا تلقى تشجيعا من العديد من دارسى الآثار الهواة مثل اليساندرو ريتشى والكونت مونتالشي ياور ليويولد الثانى ومن تورينو جائه التعضيد من الكونت كارلو فيديوا الذى سبق أن تعرف على وادى النيل .

فحيثما ذهب منذ ذلك الحين أو ما أن قابل فردا مثقفا أو صادف نظرة صديقة الا وخرج الحديث فوراً على الرحلة العظيمة وعلى جانبها « الأوروبى » . وعندما تعرف فى نابولى على المهندس المعمارى أنطوان بيبانت طالباه - شامبوليون وروسيلينى - بمصاحبتهما فى رحلتها إلى مصر

كتب إلى چاك جوزيف فى ٩ سبتمبر أن « الدوق دو بلاكاس سيصل بعد عدة أسابيع إلى باريس وسنبدا على الفور تنفيذ عملية مصر . حتى ذلك الحين مهد الطريق حول ضرورة هذه الرحلة» تركه روسيلينى فى ميلانو ولكن بعد أن حدد معه المواعيد المؤكدة للدراسة فى باريس ومن أجل الرحلة الإفريقية العظيمة . ثم بعد شهر وإذ هو يستعد لعبور حدود إيطاليا العريضة على نفسه التى لن يراها أبداً بعد ذلك كتب إلى اكثر مؤيديه ولانثا فى هذه الناحية من جبال الألب كوستانز وجاتزيرا :

« هل أنت من الذين يمكنهم اصطحابى إلى طيبة فى حالة حصولك على المال اللازم من حكومتك ؟ ساكتب عن قريب رسالة لكوستا أوضح له الخطة الكاملة الخاصة بحمله علمية أوروبية تم إرساء أسسها القوية بمعرفة شخصيات لها تأثير قوى فى

مختلف الدوائر الملكية . يمكنكم أنتما معاً البحث فيما يمكن لبلادكم أن يفعله
فى هذا الصدد . فهل يمكن أن يتخلف عن هذا المشروع وهو الذى يملك أحد أهم
المتاحف المصرية ؟ لا أعتقد ذلك . هل ستتركانى أعبير مصر دون أن تشاركانى
سعادتى والاكتشافات الهائلة التى يجب أن تتم هناك ؟ لا أعتقد ذلك أيضا

ولكن روسيليني سيفرض نفسه منذ ذلك الحين كشريك أساسى فى الفريق الذى
سيقوم بهذه الرحلة الكبرى . يجب ملاحظة الدقة التى سيتعامل بها شامبوليون
والاعتناء بتنظيم مجيئة إلى فرنسا لكى يتأكد من مختلف مراحل سفره واتصالاته
وخطابات اعتماده من ميلانو إلى تورينو ومن أكس إلى ليون تماما مثلما يفعل فيجاك
مع «صغير» .

بلغت درجة إهتمامه هذه درجة أنها بدأت تضايق أصدقاء المكتشف السابقين مثل
چاك - جوزيف وجاتزيرا وبيرون الذين بدأوا يرفضون المكانة التى بدأ يأخذها ذلك
الذى بدأ كما لوانه ولى عهد «المصرى» . ألم يضم بترقيته إلى مرتبة « الشريك » -
مثلما يقول الدكتور يانج ؟

سيقول جاتزيرا إلى شامبوليون فى إحدى رسائله أنه يجد الشاب « أقل تواضعاُ
بكثير من معلمه » . ملحوظة غريبة تدفع إلى الاعتقاد بوجود نوع من الغيرة - العلمية
أو العاطفية - أو بين بيمونتى وتوسكانى هي التى دفعته إلى كتابة ذلك .

لم يتأثر صاحب الكشف من ذلك وإذا حدث أنه عنف الشاب وخاصة بسبب
سلوكه الأحق مع النساء فيجب أن تقرا رسائله التى كتبها فى تلك الفترة وخاصة تلك
التي أرسلها إلى عاهل توسكانيا الدوق الأعظم فى ٣ مارس ١٨٢٧ والتي يصف فيها
التقدم الذى يحرزه فى دراساته مع دوساسى وداسييه وهو شخصيا « الطالب الشاب
المتحمس ايبوليتو روسيليني » .. والتي يؤكد فيها « احتياجه لمعاون متفان فى حب
العلم مثلما هو الحال بالنسبة لسيو روسيليني » ... لكى نتعرف على أهمية التحالف
بينهما . ظل عالم المثقفين الباريسين يثير غضب عالم الآثار المصرية فى المقابل ظل
تلميذه القادم من بيزا يجسد فى عينيه إيطاليا العزيزة جداً على قلبه . وفيما يختص
برحلته العظمى التى أخذت تملأ كل أحلامه فما أفضل أن يكون زميله فيها رجل شاب
فى أتم صحة وعافية ؟

وهكذا أصبح الشاب التوسكانى الذى أثبت على الفور أنه بعد جاتزيرا - وچاك
جوزيف بالطبع - أكثر مؤيديه حماسة وإصراراً - العامل المساعد لسرعة تبلور الهدف

الأسمي . وأصبح التناقض الغريب في التقريب بين أحداث الزمن وتواصل القرون في أن يبقى صاحب الكشف بعيداً عن أرض مصر علماً بأن أربعة أعوام كاملة كانت قد مرت على تحريره « الرسالة إلى سيوداسييه » هذا التناقض أوشك على أن يزول . فقد بدأ أعضاء الرحلة مراجعة الخرائط التي « ستكشف لهم الطريق إلى ممفيس وإلى طيبة مروراً من تورينو وليفورن وفلورنسا ليصب في النهاية في وادي النيل ،

في إيطاليا أحب امرأة لم تحبه . إلا أنه غنم بصداقة بعض رجالاتها (ونسائها) . ظل أحدهم وهو ابيوليتو روسيليني مرتبطاً بمصيره أكثر من أي رفيق آخر في حياته فيما عدا أخوه وأجوستان تيفوني .

هل هو إذن مستعد لفرد القلاع ؟

كلا إذ قبل أن يكتشف مصر يتعين عليه أن يكشف أسرارها للآخرين .

١٥ - أمين متحف ذو نعال من ربح

الاندفاع حيث يوجد الذهب - شارل العاشر و نابوليون - معركة بسبب مسمار - مذاج مسيو فوربان - المتحف والتاريخ - من باسالاكوا إلى دروفيتي المغامرون يبحثون عن مركب - هزم في الأكاديمية ! ... إلى الشرق المعقد

في بداية القرن الثامن عشر لم تكن توجد مجموعة آثار متحفية مصرية حقيقية . في كتابه « ايزيس أو البحث عن مصر المدفونة » يوضح بيير مونتى أن « مكتب الملك لم يكن يضم حتى ذلك الوقت سوى ست عشرة قطعة مصرية * وأن باقى المجموعات الأوروبية لم تكن أكثر حظاً » .

بدأت فكرة المتحف تظهر إبان الثورة وفكرة المجموعة المخصصة لمصر مع الحملة على مصر . وكان أعضاء اللجنة والانسيتيو (أو معهد مصر) قد جمعوا أحجاراً منحوتة وأدوات جنائزية وموميאות كان من المفروض أن تشكل مع حجر رشيد نواة هذا المتحف لولا أن ظروف الحرب انتزعت منهم هذه الأشياء لصالح المتحف البريطانى كما شاهدنا من قبل .

وبدلاً من الأشياء الملموسة ، منحت فرنسا نفسها متحفاً خيالياً عظيماً هو « كتاب وصف مصر » والذى واكب ظهوره - كما يلاحظ سيلفيو كورتو في كتابه « تاريخ متحف تورينو » - تكوين معظم المجموعات المصرية داخل كبرى المتاحف الأوروبية .

ومن عام ١٨١٠ حتى ١٨٢٠ أصبحت مصر مسرحاً لصراع شرس بين « جامعي التحف » الذين إندفعوا نحو الآثار مثلما فعل الباحثون عن الذهب بعد ذلك نحو مناجم كلوندايك (فى كندا) . هؤلاء الرجال الذين سيعطون أسمائهم إلى المجموعات التى سينقضون عليها كالجوارح ، كانوا من المغامرين من نوع خاص : علماء آثار بالصدفة ، يدفعهم الأمل فى الكسب المادى . والعديد منهم سيجمع ثروات هائلة . إلا أن الولع الذى يحركهم كان مصدره أيضاً حب المغامرة والاكتشاف وتذوق الفن بل إرضاء رغباتهم فى أمداد العلم بالأنوات التى يحتاجها كشف سر حضارة ظلت غامضة حتى بعد كشف ١٨٢٢ .

* انظر التمهيد ص 25 ، ملحوظة ميشيل دو فاشنار

وهكذا إندفعوا فى عمليات نهب لاهوادة فيها للثروات التاريخية التى لم يكن يفكر أحد بعد فى الحفاظ عليها . معظم هؤلاء الجامعين للتحف كانوا قناصل معينين من بلادهم فى مصر يحركهم فى أغلب الأحيان ملوكهم الذين كانوا يبحثون عن المجد أو عن الهيبة . كما كانوا يتمتعون برعاية محمد على * الباشا ذى السلطات المطلقة والذى كان يريد إقامة علاقات صداقة مع القوى الغربية بان صرح بهذة السرقات .

سبق أن تكلمنا عن الدور الذى لعبه بروثيتى قنصل فرنسا وسولت قنصل إنجلترا ولكن الجنرال ميتوتولى المكلف بمهمة من ملك بروسيا أيضا وكذلك نيتزولى ثم أسيرى اللذان تتابعا على رئاسة قنصلية النمسا وأنا ستانزى قنصل السويد والنرويج كانوا ينقبون هم أيضا بكل حرية وكانوا فى نفس الوقت يقطعون الطريق على التجار وهواة الآثار الذين لا يتمتعون بنفس المزايا .

فى فرنسا كان علم المصريين الوليد يتمتع برعاية تثير الدهشة . فاسرة بوربون الحاكمة التى كانت لاتميل كثيرا إلى الاخذ بفلسفة التنوير لم تتوقف قط عن التعبير عن رعايتها الكاملة للأبحاث الخاصة بحضارة وادى النيل ، ذلك على الأقل من خلال نبلاء كبار يتمتعون بالرعاية المستمرة مثل بلاكاس ودودوقيل ولاروشفوكو - دون أن يمنعهم ذلك من السماح لأفراد مثل كوربيار أو فوربان أو كلارك بان يشنوا حرب عصابات ضد هؤلاء لأسباب لم تكن كلها تستهدف الاقتصاد فى النفقات .

الشخصية الرمز - بل والضامن أيضا - لهذا الإفتتان كان دون شك الملك شارل العاشر . أن يتمكن ملك ذو ثقافة محدودة جداً وذكاء قليل وفى نفس الوقت مرتبط رمزياً بجذب « طائفتى الأنوار » و « الرداء الأسود » ورجال الدين عموماً ومن اعطاء كل هذه الضمانات على إهتمامه بحركة علمية وجمالية تهدد التعاليم الكنيسة كما تراها حركة الاصلاح المضاد السائدة حينذاك وتهدد أيضا رؤيا للعالم قائمة على سيطرة الأسر الحاكمة فى الغرب كل ذلك يعتبر من أغاز عهده ولا تجد رداً يفسر هذا السلوك سوى إهتمامه الذى سيحده فى مذكرة كتبها سويستان دولا روشفوكو وعبر فيها عن ذلك بذكاء - كما سنرى فيما بعد - « بالشرف » الأدبى لفرنسا وهو ذات الإهتمام التى جعل الملك الذى الغى من قبل قانون نانت ** يحمى مؤلف طرطوف *** ربما

* معظم المؤلفين الأوروبيين يعطونه لقب نائب الملك ، ونحن نفضل عليه لقب محمد على باشا مصر . فهو لم يكن الحاكم ولكن

مندوب السلطان محمود فى من القسطنطينية - استنبول)

** Edit de Nantes قرار اتخذه الملك هنرى الرابع فى فرنسا يحمى البروتستانت عام ١٥٩٨ والغاه الملك لويس الرابع

عشر (١٦٨٥) مما تسبب فى فتاح خشد البروتستانت وهم معاينهم هجرة حوالى ٢٠٠.٠٠٠ بروتستانتى إلى ألمانيا وسويسرا (المترجم)

*** مولير [المترجم]

كان الأصح هو « الشرف الأدبي للملكية » ! هل كان من المقبول أن يبقى الاعتقاد السائد هو أن مصر كانت آخر ممالك نابوليون ؟ لفرنسا ولأوروبا كلها حولت نظرها عن مصر منذ وفاة صاحب إنتصار الأهرامات ومخترع حجر رشيد وراعى كتاب « وصف مصر » وقيفان دونون والشقيقتين شامبوليون فى جزيرة سانت ايلين ، وكان سحر مصر لايزال عالقا فى الأذهان ويرجع إلى نابوليون بونابارت فى كثير من الأحيان

أما المجتمع العلمى الذى ظل يحتقر « الغنائم المصرية » لفترة طويلة ويقلل من قيمتها. الحزب الإغريقى ويؤيده فى ذلك كل من فشل فى حل معضلة الهيروغليفية واسرارها وهؤلاء الذين كانوا يخشون من النتائج « الفلسفية » التى قد تترتب على مثل هذا الحل للشفرة ، كل هؤلاء قرروا فى نهاية الأمر أن يؤيدوا إكتشاف عام ١٨٢٢ . دون أن يمنعمهم ذلك من الاستماع إلى منتقديه .

راح الجدل ينتشر فيغذى الأهتمام بالعلم الجديد الذى انتشر بين رأى عام تثيره فى ذات الوقت الاسرار و الأجواء الشرقية الغامضة والمشاحنات الجدلية فى وقت كان كل ما يخص السياسة موضوعاً تحت السيطرة ولم يكن الجدل يقوم بين صحيفة ونشرة أو بين مجلة وإنسيكلو بيدايا بل كان يجرى بين لندن وباريس وبين فلورنسا وبرلين ، وبين روما وتورينو . نضيف إلى ذلك قصص الرحلات والصراعات بين مؤيدى رجال الدين ومؤيدى التفكير الحر بين الفلاسفة ورجال الدعوة الدينية حول صحة الزودياك (الأبراج السماوية المرسومة فى سقف معبد دندره) وحقيقة الإكتشافات العلمية وجمال القطع التى جلبت من مصر بالطبع بالتاكيد كان على الملك إن أراد أن يصبو إلى المجد أن يساير التيار . باختصار عندما عاد جان فرانسوا شامبوليون من إيطاليا تحوط رأسه هالة النجاح الذى أحرزه بخصوص حياة مجموعة سولت ويعززه تعيين مديرا للأثار المصريه فى اللوفر والذى يسمى عن حق متحف شارل العاشر وهو فى غاية الحماس لرحلته العظمى إلى مصر - كان يحق له حينذاك أن يشعر أخيرا أنه نبي فى وطنه . ألم يمنحه حماس الإيطاليين التتويج الذى ظل التمتع الفرنسي يرفضه له منذ خمس سنوات ؟

ومع ذلك غادر « صغير » جرونويل متجها إلى « قذورات بابل » تراوده بعض المخاوف فى نهاية أكتوبر ١٨٢٦ وذلك لعدة أسباب : فبعد أن عبر حبال الألب وفى قلبه

حنين إلى مافات ، شعر بالهناء في الدوفيينه على الرغم من المضايقات التي صادفته بسبب أزمة نقرس في قدمه اليمنى والتي أرجع سببها تارة الى تيارات الهواء التي تعبر مكاتب فلورنسا بكل قوة ، وتارة أخرى لهواء « جبالنا » الرطب ، وقد شكنا ذلك لزليمر : « لا أحد في الأسرة أصيب بهذا الداء الذي يخص الشيوخ والذي كان فيما سبق يختص بزيارة كبار النبلاء وما هو اليوم ينقض على رجال الفكر : لا بد أن يكون ذلك من نتائج الثورة ! ... » .

في شيف حقق اكتشافاً جديداً : هي ابنته . كانت زورايد قد بلغت ثلاثين شهرا من عمرها وكانت طفلة ساحرة وكتب إلى زليمر يقول لها :

« ... تاكدى أنى ساترك زورايد تتمتع بكل سعادة الطفولة . إنه سن سعيد وقصير لدرجة أنه يصبح من البربرية أن نقطر عليها بما يمنحه لها من امتيازات » .
إلا أنه سيوقف مراسلاته مع انجيليكا أثناء إقامته في شيف .

هل بسبب معاملة الليفورنية له قد أصبح أكثر تسامحا مع روزين ... ؟

..ويقول لچاك - جوزيف الذى إشتكى من إحدى رسائل زوجة أخيه إن « القلب عند زوجته أفضل من القلم » .

وهو إذا كان حزينا لدى وصوله إلى باريس فإن ذلك كان يرجع دون شك إلى أنه إضطر إلى ترك ابنته وظلال شيف القريبة إلى قلبه وأصدقاء جرونويل الذين أثبتوا ولا نهم له بصورة براقه .

وأيضا لأن النقرس لازمه طوال الرحلة إلى باريس .. ولكن الأهم هو أن المهمة التي كلف بها وهى إنشاء المتحف المصرى ستجعله فى وضع يضطر فيه إلى مواجهة « العصابة » التي ظل يضخم من حقدتها عليه وأيضا من سلطاتها من جديد .

ولكن إذا كان قد وجد فى ايطاليا مريدين يناسبون قلبه ، فأن له فى باريس أصدقاء وحلفاء وحزب قوى من الأوفياء ومن المدافعين عنه ومن يحمون شخصه . هل توجد ضمانات أقوى من ضمانات وزير البلاط الملكى الدوق دو دودوقيل ؟ وما هى الحماية الأنشطة من حماية الفيكونت سوسنان دولا روشفوكو ياور الملك للفنون الجميلة ؟ ومن هو الأب الروجى الأكثر حنانا نحوه من مسيو داسييه ؟ ومن هو الحليف الأفضل من مسيو دوفيرو ساك مدير صحيفة « لو بولتان او نيقرسال » الذى كان ينشر مرافعاته ودفاعاته ومرافعات چاك - يجوزيف ؟ كل هؤلاء ومعهم أيضا بلا كاس ولا ولى العهدالدوق دانچولام .

لقد ذكرنا كثيرا المضايقات التي إستهدفت صاحب الإكتشاف لدرجه أننا نسينا صلابة و وفاء وحماس مؤيديه الذين أحاطوا به مثل الحرس الإمبراطورى . ولكن يبدو أن بسبب ما يمكن تسميته خلافاً فى الفكر واحساس بالإضطهاد أخذ يرى الآخرين دون سواهم وخاصة جومار و روشات وكاترومار كلابروث وسيفارت وحوالياً نوف ويانكس وسان كوينتينو ولا نسى .

كان يتصور أن مهمته العظمى الرسمية الأولى وهى إنشاء القسم الثانى « للتماثيل والآثار القديمة » لمتحف شارل العاشر الذى يكمله إلقاء المحاضرات عن « علم الآثار المصرية » لابد وأنها ستثير حوله المؤتمرات والعوائق . لدرجة أنه عندما تولى وظيفته فى اللوفر تحت رئاسة الكونت دو فوربان مدير عام متاحف فرنسا إلى جانب الكونت دوكلارك مدير القسم الأول فى المتحف المخصص للآثار الاغريقية الرومانية . كتب إلى روسيليني فى ٢٠ نوفمبر ١٨٢٦ رساله تشبه طلب النجدة :

« لك أن تتصور رجلا محبا للراحة والهدوء وجد نفسه فجأة * ملقى بسبب الواجب وسط مؤامرات وترتيبات موجهة ضد شخصه ودراساته . أصبحت حياتى صراعاً . إنى مضطر إلى إنتزاع كل شىء لأن أحداً من بين الذين يجب عليهم مساندى غير مستعد لأن يفعل ذلك . إن وصولى إلى المتحف يضايق الجميع وكل زملائى يتأمرون ضدى لانى بدلا من إعتبار مركزى وسيلة للراحة رأيت أن أهتم بالقسم الذى أديره وذلك سيكشف للكافة أنهم لا يهتمون بأقسامهم . هذه هى عقدة المشكلة . احتاج لمعركة للحصول على مسمار.»

« الجميع يتأمر » ضده ؟ يمكن لنا أن نتصور أن وصول هذا العبقري البركانى الشخصية وسط الجو العام الهادئ والمريح الذى كان يميز عالم متاحف ذلك العصر والذى كان ينتمى إلى ثقافة الصالونات أكثر من إنتمائى لعالم العلوم ، كان لابد بالفعل إن يتسبب فى العديد من المصادمات وأن يقلق راحة العديد من الناس .

(عالم الصالونات هذا يمثله أصدق تمثيل العزيز فيفان دونون)

وهو إن « أقلق » أحداً فأن أكثرهم قلقا كان چامور . لوميسير الحكومة داخل «لجنة مصر» وهو أنضم منذ بداية عودة الملكية إلى أسرة البوربون وكلف على الفور بمهمة إحضار نسخ من القطع التى وقعت فى أيدي الإنجليز فى عام ١٨٠٢ ووضعت فى البريتش ميوزيوم وتزامن ذلك مع فترة عودة نابوليون « المائه يوم» . وهناك نبتت

* لا « محب للراحة » ولا هذه « الفجاءة » تتفقان مع الواقع الصحيح .

فى ذهنه فكرة تكوين « مجموعة آثار » ورأيناه قد قام باتصالات فى هذا الشأن مع دروفيتى .

يتضح إذن أن چومار كان أول من حاول أن يبيلور الفكرة إذا لم يكن هو صاحبها ونذكر بذلك بصورة أفضل الأسباب التى أثارث حقه على صاحب الكشف .. بعد « الرسالة الى مسيو داسييه » كان يجب عليه أن ينحنى أمام تفوقه العلمى ولكن يمكن أن نقدر أنه لم يتمكن من التسامح معه لأنه صادر منه المتحف الذى كان هو صاحب فكرته وذلك ماتؤيده فيه بعض الأدلة . وجاء فى ملحوظة لأحدى رسائله التى كتبها فى ٢٢ مارس ١٨٢٦ ما يمكن أن نطلق عليه صرخة من أعماق القلب إذ قال « ألم يكن فى إمكانه أن يحصل علي كرسى الأستاذية دون أن يستولى على ممتلكات الآخرين ؟ »

ومن هنا كان السبب وراء ملاحقاته المستمرة دون هوادة لشامبوليون وبعد أن نال هذا الأخير ما أراد ، وجد نفسه فى مجابهة داخل القلعة - مع أنداد لم تكن الرحمة من سماتهم . وعلى الرغم من معرفتنا المسبقة بالحساسية المفرطة لشامبوليون إلا أنه يتعين علينا أن نقر أن حياته داخل اللوفر مرت ببعض التجارب المؤلمة .

أقل ما يمكن أن يقال هو أن السعادة لم تكن الشعور السائد فى نفوس الرجلين الذين سيتعاون معهما . وتذكر أن قبل ستة شهور غداة تعيينه كان قد كتب إلى چاك جوزيف أنه يأمل أن يسود السلام والتفاهم بين فوربان وكلاراك . إلا أنه لن يحصل على السلام الكلى وأقل من ذلك على التفاهم . لن تتفق أبداً نظرة الرجال الثلاثة فى أى مجال من المجالات . ولذلك فاذا كانت تربية فوربان الراقية وكذلك الضغوط التى تعرض لها من لاروشفوكو قد هيئت مناخاً من التعاون والمقبول إلا أن المجادلات لم تتوقف قط بينهما . لم يكن السبب وراء ذلك أن فوربان كان فى تفاهة شخصية مثل راعول روشات أو فى حقد چومار - بل إنه كان ذا شخصية نبيلة وصفها معاصروه بالاجماع بانها « مكتملة » .

مسقط رأس فوربان كان فى لاروك - دانتيرون فى مقاطعة منابع الرون . والده كان يسمى بالاماد (فقد حياته تحت المقصلة فى مدينة ليون) وكان بهى الطلعة وفنان مصور غزير الانتاج ومتحدث لبق وكاتب سلس الأسلوب تميز بالشجاعة فى ساحة القتال مما أتاح له أن يصبح باروناً من بارونات إمبراطورية نابوليون . ظل من عشاق شقيقة هذا الأخير بولين - وهذا يعتبر رقما قياسيا بالنسبة لبرنسييسة من

أل بورجيزى هذا الرجل السعيد كانت موهبته أن يكون سعيدا حتى أنه عبر دون أيه عوائق الحدود بين مرحلتى الأمبراطورية وعودة الملكية وحل فى عام ١٨١٦ محل فيشان دونون كمدير عام لمتاحف فرنسا .

علاقاته بجان فرانسوا شامبوليون بدأت بداية حسنه فى إيطاليا حيث ذهب مدير المتاحف للقاء معاونه اللامع . وإنجاز فوريان بكل تقدير لفكرة حيازة مجموعه سوات . والتي كانت تعنى فى ذلك الوقت ترقية عالم المصرىات إلى جانبه ، إلا أن العديد من الأشياء كانت تفصلهما فلم يدم التفاهم بينهما طويلا .

لم يكن الكونت فوريان يحتمل أن يسمع محاضرات تلقى عليه عن مصر التى زارها عام ١٨١٨ من رجل لم يذهب إليها قط .

وعلى الرغم من كونه أقل حساسية حول هذا الموضوع من چومار إلا أنه كان يتدرج بأقدميته فى هذا المجال بان كان يتفاخر بسرد لرحلته كان بالفعل منمقا ، وببضعة لوحات تصويرية إدعى أبوته لها علما بأنه لم يكن هو الذى رسم الوجوه التى تظهر فيها . إذ كان يترك تنفيذ ذلك إلى متخصصين على قدر كبير من الشهرة مثل فارنية أو چيرار . « عبيد » فخورين بانهم من تابعى مثل هذا النبيل العظيم

كما أن فوريان يتفاخر من جهة أخرى فى المواجهة مع شامبوليون أنه من رواد المتاحف المصرية إذ أنه كان اشترى فى مدينه إكس عشية سفره إلى مصر العديد من القطع الاثرية التى كانت تضمها مجموعة سالبية - ومنها باروليف لكهنة إله بتاح - ثم وهبها إلى اللوفر . وإبان شراء مجموعة دوران التى كانت تضم ألفى قطعة أثرية صغيرة والتي شكلت أصل مجموعة اللوفر ، قبل شراء مجموعة ليفورن ، كان قد إقترح إنشاء متحف للمصريات يوضع تحت إسم شارل العاشر وكتب يندد برفض الحكومة شراء مجموعة دروفيتى قائلا « إن الأفكار الضيقة للاقتصاد فى الأنفاق تعتبر بمثابة وفاة الحقيقة فيما يتعلق بالثروة الوطنية » (1) وكان شامبوليون بالطبع متفقا معه فى تلك النقطة .

ولكن كان هناك عدم توافق جوهري بينهما فى رؤاهما الجمالية . فى إحدى الروايات التى نشرها بعد ذلك بفترة قصيرة تحت عنوان «لورد باريمور » جعل فوريان أحد ابطال الرواية يقول أن معبد بايستوم ثقيل الظل وقليل التناغم فى خطوطه . فإذا تذكرنا أن هذاالبنى كان يمثل بالنسبة لشامبوليون أسمى تحية قدمها الأغريق للفن المصرى - أمكننا أن نقيس عمق التناقضات التى كانت تفصل بين الرجلين .

علاوة على ذلك كان فوربان غيوربا على سلطاته ويرى أنه وحده الذى يجب أن يختار معاونيه من موظفى الدار . ولذلك كان أول صراع بين الرجلين بسبب قرار إتخذه شامبوليون بتعيين صديقه جان - جوزيف دوبوا فى وظيفة رسام . حاول فوربان الاعتراض على ذلك فراجع صاحب الكشف لاروشفوكو فى ذلك فحصل على تأييده فى طلبه . ومن هنا كان رد الفعل الحاد لمدير المتاحف وكان نزيير شؤم لماتلى ذلك . فكتب لاروشفوكو :

« ... اضطررت لأن أرفع لكم الجوانب السيئة لهذا التعيين الذى لامثيل له فى الإدارة والذى يهددها بان تتنامى دون جدوى وفى تضاعف اليات العمل التى ستهدم وحدة المسار إنى أستجيب اليوم لخطابكم الذى تطالبونى فيه بان أقترح عليكم الموافقة على تعيين مسيو دوبوا كرسام للأثار المصرية فقط ليتولى تحت رقابة مسيو شامبوليون الأعمال التحضيرية وترقيم وترتيب الأثار المذكورة » .

« هذا النوع من اللدغات لن يتوقف أبدا لدرجة أن جان فرانسوا عبر لأصدقائه عن خشيته من أن يعتبره فوربان وكلاراك « لعنة مصرية جديدة » ومن أن يكل الوزير بسبب كل تلك المؤامرات الخسيسة على الرغم من حسن رعايته له - غير أن بقية ردود فعله حول عمله كمدير متحف مبتدى لم تكن كلها على هذه الدرجة من التشاؤم فلنستمع إليه وهو يفضى بما فى نفسه لصديقه الأب جاتزيرا فى نوفمبر ١٨٢٦ :

« عندى قاعة عظيمة فى الدور الأرضى أخصصها للقطع الضخمة وأربع قاعات فى الدور الأول فى القصر . ها أنا إذن وسط النقاشين والمهندسين والبنائين والأمور تسير بصعوبة ولكن لا بد أنك تصورت أنى الأتى (بعض العداوات) من قبل بعض الأشخاص الذين يسمحون لأنفسهم بعدم قبول أصرار كل من الدوق دو ودوفيل والفيكونت دو لا روشفوكو على مساندتى ويعترضون وسيعترضون على النوم بان يقيموا ألف عائق صغير فى طريق عملى الذى سيسيرو وسيكون ما يجب عليه أن يكون . إنى أناضل كل يوم قدر طاقتى .. ولكن النجاح حليفى مادام الدوق الممتاز دوپلاكاس موجودا فى باريس وأخذ بين يديه إدارة شئونى ... فليحفظه لنا أمون رع العظيم » .

ولكن هاهو بعد ستة شهور يعود إلى شكوايه وكتب إلى سوستان دولا روشفوكو فى ٢١ يونيو ١٨٢٧ يشكو من أن المتاح له فقط بجوار الساحة المربعة الداخلية هما قاعتان صغيرتان وممر وشئ يشبه القبو (...) أرضية من الطوب الأحمر (...) ثم إنه صارح حتى يتفادى أن يكون طراز ديكور « قاعاته » أفريقي رومانى - كما حارب - للأسف - لكى يفرض أسلوبه فى لصق البرديات على ورق مقوى وهو ما منعه سان

كوينيتى من تحقيقه فى اليبيمون . ولذلك كتب يقول « حشرات باريس تحسد الحشرات الدودية فى تورينو التى تلتهم بهدوء برديات دروفيتى » .

مدير القسم المصرى لن يتفادى أيا من هذه الفرص التى يصطدم فيها بزملائه أو بالبيروقراطية الوزارية وشارك فى كافة تفاصيل الديكور وترتيب التحف ، وتكشف إحدى المذكرات التى كتبها صاحب الكشف ونشرها بيير كوينام (2) « الدقة المتناهية التى تعامل بها فى ترتيب التحف داخل القاعات المختلفة وفى فرد البرديات العظيمة ... (...) على كافة مستطحات الحوائط ... ووضع الفيتريينات التى ستسمح باستقبال الأدوات الجنائزية . ومهما كانت ثقته فى جان - جوزيف دوبوا فكان هو الذى يتخذ كافة القرارات وبالتالي كان هو الذى يتلقى كافة الضربات .

ولكن الخلاف الحقيقى بين جان - فرانسوا ومديره العام كلارك كان على مستوى أبعد من ذلك بكثير أى أنه كان صراعاً بين رؤيتين متباينتين فيما يجب أن يكون عليه أى متحف . إذا كان المتحف قد أنشئ فى فترة الجمعية التأسيسية (لكونفانسيون) لأهداف فنية بحتة ، فان شامبوليون كان يرى أن الأوان قد حان لكى يتحول من مجال التذوق إلى مجال العلم أو بصورة أشمل إلى التعليم . فكان صاحب الكشف يرى أن القطع التى يعرضها المتحف يجب أن تقدم بطريقة تصبح بها مستنداً تاريخياً .

وكانت هذه الفكرة على العموم موجودة ضمناً فى النصوص التى كلفته بمهمته . والمدهش حقاً أن المرسوم الملكى الصادر فى ١٥ مايو ١٨٢٦ الذى إتخذ من أجل «ضمان نجاح الأبحاث التاريخية التى صنعت فى جميع العصور أمجاد فرنسا» عينه فى ذات الوقت محافظاً ومعلماً وأن الشرح العلنى للنصوص الفرعونية بواسطة صاحب الكشف كان مرتبطاً بعرض القطع الأثرية المقدمة للزوار من المتحف الذى كان فى ذلك الوقت فى مرحلة التكوين . المشروع إكتسى من الأصل معنى علمياً بحتاً .

هل يمكن أن نرجع مثل هذا التفكير العميق إلى سوستان دولاروشفوكو فى كتابه « الملكية فى أفولها » Au Soir de la monarchie وصفة بارتية دو سوفيني بانه رجل « متآمر عصبى المزاج » كان وثيق الارتباط بشامبوليون ويعتبر من أصدقاء المتطرفين . إلا أنه كان شديد الإعجاب بوالد الدوق دو دودوفيل ولعل ذلك تسبب فى أن ليبرالية هذا الأخير قد طبعته هو أيضاً وإذا كان ذهنه قد تفتق على إنشاء « صندوق التعويض » يسمح له بخنق الصحافة وهو الصندوق التى كانت تصب فيه دخول المسارح والعباب القمار وكان مكلفاً بشراء أسهم الصحف المناهضة عن طريق أطراف

ثالثة ... إذ كان يرفع إلى الملك شارل العاشر مذكرات تحذره من الأخطار التي كانت تهدد الملكية بسبب قصر نظر الوزراء وتحلل الأخلاق ومؤامرات الليبراليين .. إلا أن هذا الرجعى كان يعبر عن تعاطفه الدائم مع الفنانين وأهل المسرح كما أقام علاقات صداقة مع جورج صائد وسائد شامبوليون على الرغم من أنه لم يذكره بكلمة واحدة فى مذكراته .

قد يرجع موقفه هذا إلى تقديره لوالده أو إلى عداوة الكونت دو فوربان والذى كان يحارية بكل الوسائل ، المهم هو أن هذا النبيل الجليل ظل على تحالفه الشجاع مع صاحب الكشف « الجاكوبى » ، ويبقى أيضا أن شارل العاشر قد اعتمد أيضا هذا التصور (الفلسفى) جدا لدور المتاحف . ثم إذا كان متحف شارل العاشر قد تحول إلى معمل للابحاث التاريخية البعيدة تماما عن تعاليم الديانة الكاثوليكية وإلى الطقوس التي وضعها اسلافه الملوك الكايبسيون فان ذلك لا يتفق ولا يتناسق مع القرارات التي سيتخذها بعد ذلك بثلاث سنوات والتي ربطت إسمه بالقوانين « المشبوهة » . هذا صحيح ولكنه ليس أول الأسباب التي تدعو للدهشة فى سرد تاريخ حياة شامبوليون .

فى إحدى المذكرات التي وجدها ونشرها لحسن الحظ بيتر كونيام فى المقال الذى سبق ذكره يعرض صاحب الكشف بنفسه وبدقة أكبر هذه النظرية للمتحف المدرسة وللدرور التعليمى والتاريخى للمجموعات التي يتولى مسئوليتها ويعبر عن فكر ديناميكي أكثر من كونه « محافظا » :

« ... تتشكل مجموعات الآثار المصرية (...) بصورة عامة لهدف واحد هو إلقاء الضوء على تاريخ الفن وطرق النحت والتصوير المستخدمة فى مختلف العصور ولدى الأمم المختلفة (..) إلا أن أهمية هذه الآثار المصرية وتسلسلها فى أعداد كبيرة والتي أثرت متحف شارل العاشر بفضل سخائه الملكى ، كانت محتاجة لأن تتوافق مع بعضها على مستويات مختلفة مادام المطلوب منها هو أن تكون إحدى المصادر ، ومن البراهين الداله على تاريخ الامه المصرية كله . فكان من الواجب ومن الضرورى جداً التعريف فى نفس الوقت على كنه كل أثر وعلى الهدف المحدد من وراءه ثم تحدد المعرفة الدقيقة للغاية لكل من هذين الموضوعين المكان والترتيب الذى يجب عليه أن يشغله . وكان من الواجب فى النهاية ترتيبهم بطريقة أكثر ما تكون كمالا ، توضح تسلسل الالهة وملوك مصر منذ العصور البدائية حتى الرومانية ، وترتيب الأدوات الخاصة بحياة المصريين العامة والخاصة بطريقة منهجية .

كانت هذه الرؤية الثورية لدور المتحف هى التي جعلت شامبوليون فى صراع مع فوربان وكلاراك أكثر بكثير من الاختلاف فى الشخصيات أو الصراعات حول السلطة .

لابد أن هاتين الشخصيتين ذات الميول السياسية المحافظة (كتقليد عائلي) كانتا تعتقدان أن الملك ويلاكاس وبودوفيل لاروشفوكو على درجة كبيرة من السذاجة حتى يوافقوا هذا « الفيلسوف » في آرائه التي لم تكن تهدف سوى لان تجعل من التاريخ علما للمجتمعات الأنسانية :

بل كان صاحب الكشف من الجسارة بأن إستخدم الكلمة الخطيرة في تخاطبه مع صديقه الأب جاتزيرا المتحرر جداً (بالمعنى الذي كان يستخدم في عصر الملكية الأولى) إذ كتب يقول له « لابد أنك توقعت منى أن أنقذ خطة التبوب التي لم يسمحوا لى بتنفيذها فى تورينو ، إنها بالفعل أنسكويديا مصرية » .

لم تكن سذاجة من النوق دورليان الذي كان من أشد المعجبين بشامبوليون وكان لايترك فرصة تمر دون أن يطلق سهامه على أولاد عمومته من الفرع الأكبر للأسرة الملكية - عندما وصفه وهو يبتسم بأنه « محافظ متحف » ومورخ أكثر مما ينبغى ... «
الإنسيكويديا - ثم رابين الملك - فيليب مساواة .. ها هو يعود إلى شياطينه
الأعزاء .

الاستيلاء على التحف - كما نقول الاستيلاء على الباستيل - على يد شامبوليون تم عن طريق شراء مجموعة من الآثار ، وبالتالي كانت ديناميتها هي السبب الذي جاء به إلى هذا المركز وفى هذا المكان ولم يكن فى إمكانه سوى أن يظهر ذلك ليس فقط عن طريق التعبير الثورى فى المفاهيم التي كانت تقوم عليها علاقة القطع المعروضه فى المتحف مع الجمهور المدعو لزيارة اللوفر ، ولكن أيضا عن طريق الإثراء المستمر « لتحفه » .

لا ننسى بالطبع المعركة التي خاضها ضد شراء القصر الملكي الفرنسى لمجموعة جيوسيبى باسالوكوا - تاجر الخيول السابق الذي تحول الى تجارة التحف الأثرية - وهي الصفقة التي كان يؤيدها جومار (وهذا ما يشرح جزئيا ذلك) . إلا أن جان - فرانسوا كا يحذر باريس من الثمن المبالغ فيه الذى يطلبه جامع التحف الإيطالى - أربعمائة ألف فرنك - والذى كان كفيلا بالأجهان الكامل على الميزانية فى الوقت الذى يقترح هو فيه شراء مجموعة سولت التي كانت قيمتها أكبر بكثير من الأخرى . وفاز هو ثم إفتتح عصره فى اللوفر باستقبال مجموعة ليفورن التي سافر من أجلها چاك - جوزيف إلى ميناء لوهافر للإشراف على إنزالها من المركب فى ١٨ أكتوبر .

ثم بعد أن اطمأن على حصوله على رصيد لامثيل له فى النوعية أخذ محافظ

المتحف الجديد ينظر نظرة مختلفة للعرض الذي يتقدم به باسالاكوا . كانت قطع الآثار المعروضة قد شددت إليها الجمهور كما لفتت نظرمنافسا قويا هو ملك بروسيا الذي أوفد هو مبولدت إلى باريس للتفاوض،.

كان ذلك كافيا لاستثارة صاحبنا الذي كتب لجاتزيرا :

« ... مطالب (باسالاكوا) إنخفضت بمقدار الثلثين منذ أن وصلت قطعى الضخمة من ليثورن . ستتشكل لجنة من أجل الحصول على هذه المجموعة ، وإذا وافق البائع على قبول من ستين إلى ثمانين ألف فرنك التي يمكن أن ندفعها له فان هذه المجموعة ستتمى متحفى وتثريه (...). »

أنظر كيف يتكلم الآن .. قطعى الضخمة من ليثورن « متحفى » ... ها هو المكتشف الخجول الذى بدا لدام مابيه « غير قادر على مساندة إكتشافاته » قد تحول إلى رئيس ومجادل صلدا يتعامل كند مع كبار رجال المعهد (الأنستيتو) .. وأصبح صوته قويا مدويا عندما يتعلق الأمر بشراء مايسميه زميله كلارك ساخرا « غنائم مصر » . إلا أن سلطات چان فرانسوا الجديدة لم تكن كافية لضمان نجاح الصفقة .

كانت مجموعة باسالاكوا معروضة فى ممر فيثيان فى عام ١٨٢٦ وكثر الحديث حولها . إلا أن صاحبها إضطر لتخفيض الثمن الفلكى الذى حدده لها ولما لم يتمكن من إيجاد مشتر لها فى فرنسا واعتبر نفسه محظوظا جداً ببيعها لملك بروسيا بمبلغ مائه الف فرنك ، علاوة على وظيفة محافظ الجاليرى المصرى بمتحف برلين .

لم يمنع ذلك أن يحقق شامبوليون كمدير المتحف بعض النجاحات الطيبة . فى سبتمبر ١٨٢٧ كتب إلى جاتزيرا هذا البيان بالانتصار .

« ... اشترت مارد روما شقيق ماروك المحنط * كما قمت بمشتريات هامة أخرى وتلقيت الهدية الرائعة من المجوهرات الأثرية من الذهب الخالص التي قدمها باشا مصر هدية لملك فرنسا . وجدت ضمنها الختم الملكى لكليوباترا - كوكس من

* راجع نصل ١٢ النكتة حول الفرعون أوزيماندياس

الذهب الخالص ويزن خمس أوقيات عليه صورة هذه المرأة المسترجلة بالحجم الكبير
محفورة للداخل . كما تمت مؤخرا صفقة أهم بكثير وهى شراء مجموعة دروڤيتى
الجديدة والتي وصلت إلى باريس كما تعلم دون شك والتي تضم مجوهرات مصرية
على درجة لاتصدق من الفخامة عقود وخواتم وأساور وحلقان من الذهب المرصع
بالمينا . إنها بالفعل تعرية كاملة لاحد الفراعنة وبخلاف التماثيل تضم هذه المجموعة
خمسين برديّة مصرية وإغريقية وخمسائة جعران وأوانى وثمان لوحات جنائزية إلخ
إلخ ... أصبحنا كما ترى أكثر جمالا وأكثر ثراء منكم الذين كنتم الذين كان بإمكانهم أن
يكونوا الأوائل ولم يرضوا بذلك * «

تم شراء مجموعة دروڤيتى الثانية بمبلغ مائه وثمانين ألف فرنك ١٨٠.٠٠٠ وتعتبر
صفقه عظيمة فى حد ذاتها . ولكن كان لها ردود فعل سيئه نوعا ما على المستقبل
الأنى للمحافظ . إن شامبوليون الذى نراه يتحرك فى كل إتجاه داخل قاعات متحف
شارل العاشر نون ككل على الرغم من أزمات النقرس التي تعذبه مستبدا دون تسامح
مع كلارك ومتحديا فوربان كان على الرغم من ذلك يعيش فى مكان آخر ، كان يفكره
قد سافر بالفعل إلى مصر .

رأيناه منذ الشهور الأخيرة لرحلته فى إيطاليا يحث أصدقاء الأوفياء - وعلى
الأخص روسيليني وجاتزيرا - على الأستعداد للرحلة الكبرى .

ويلتمس من صديقه ملك توسكانيا المساعدة وكذلك وهو الأهم مساعدة بلاكاس
مبعوث المعونه الألهية ... ثم أصبح المشروع فجأة موضوع الساعة ويصوّر
دراماتيكية بسبب الانباء الواردة من مصر لان برناردينو دروڤيتى - وكان قد تفاهم
من جديد مع السلطات التي أعادت له لقبه ** قنصلا عاما لفرنسا فى إسكندرية -
أعلمه أن إقامته فى مصر يجب ألا تتأخر لأن باشا مصر محمد على بدأ - بالرغم من
تحذيراته - فى هدم المعابد ليستخدم أنقاضها وأماكنها لبناء معامل السكر اللازمة
لتنمية البلد إقتصاديا *** بقدر ما كانت الانباء القادمة من الشرق مقلقة له وكانت

*دروڤيتى عرض هذه المجموعة أولا على ملك بيمونت ساردينيا إلا أنه رفضها كما فعل لويس الثامن عشر مع
المجموعة الأولى .

** السؤال المعلق هو هل ترك أصلا مهام منصبية لالكسندر بيافوان الذى عين بصفه مرابط وهو من الأكفاء واسير سابق فى أبدي
الترك ثم قنصلا فى عكا ومنها إلى بالتيمور فى امريكا ١٥

*** إستأنف دروڤيتى حملته ٦ يناير ١٨٢٦ وكتب لجاك - جوزيف : « علمت أن أخاكم عازم على زيارة الوادى المقدس
الذى يمكن اعتباره من الآن من الناحية العلمية من إختصاصه هو . ولذلك فانى أبارس بعرض كافة خدماتى عليه
واضع نفس بالكامل تحت تصرفه لانى مقتنع بالنتائج النفسية التي ستترتب على هذه الرحلة ولاشئ يثقل صدري
أكثر من أجلها بالنسبة له أمنه وسهولة سعيده .

بمثابة حافزا له بقدر ما ألهبت خياله الصور المنسوخة والروايات التي أسهب في سردها المكتشف الجسور لمنطقة بروه عالم الطبيعة والتعدين فريديريك كايو والذي نسخ بدقة اللوحة الفلكية لمعيد أبيديوس كما أنها استكملت معارف محافظ متحف اللوفر. هل يمكن بعد ذلك كله مسايره أخيه فيما كان ينصح به فى مرحلة سابقة بأن يترك مصر لهؤلاء المندفعين ولكنهم مكفوفون فى حين أن بإمكانه هو أن يرى وأن يقرأ ؟

ظل ذكر المشروع العظيم لعدة شهور يتناثر فى مراسلات جان فرانسوا . كتب فى ٣ مارس ١٨٢٦ لعاهل فلورانس :

« ساكرس جهودى كلها (للمتحف) حتى شهر نوفمبر . أمل أن أتمكن فى هذا التاريخ من تحقيق أمل حياتى كلها بزيارة مصر أرض العجائب ومهد الحضارة وبالبحث فى أثارها على نكريات التاريخ البشرى الأولى وعلى أسماء رجال عظماء طواها النسيان منذ ثلاثة آلاف عاماً وعلى مذاهب دينية قديمة لعلها تكون أكثر نقاءاً مما يعتقد»

كما كتب للكويستانتزو جاتزيرا بعد بضعة أسابيع فى ٢٤ مارس رسالة يظهر من خلالها نفاذ صبره أكثر من ذى قبل :

« أضع اللمسات الأخيرة على مذكرتى الخاصة بهذا المشروع الضخم . ساقدمها للملك وساعرف بعد شهر من الآن ما الذى يمكن أن أنتظره من الحكومة لتنفيذ مشروع تهتم به فروع عديدة من العلوم التاريخية . استعد إذن للسفر إبتداء من شهر يوليو (..) لازلت أعتمد عليك لتشاركنى مشقات ومباهج ومجد هذه الرحلة (..) خطتى مبنية على أساس أن جميع مصاريفك ستكون مدفوعة وستحصل لدى عودتك على مبلغ خمسة آلاف فرنكا لكى تشرب أعشاباً مغلية ولتستريح من العناء الذى فات »

قبل أن يحاول إقناع الملك بمشروعه الأديب أرسل مسودة مبدئية له إلى الفيكونت دولا روشفوكو موضحاً أن هذا المشروع المحفوف بالمخاطر لا يمكن ارجائه بسبب الاخطار التى قد يترتب عليها عدم وجود « مايمكن الحصول عليه اليوم من السفر الى هذه الارض ..بعد بضعة سنوات ..» .فى ذلك اشارة واضحة الى مانبهه اليه دروفيتى .لم يلب الفيكونت سويستان دولار وشفوكو لأول مرة إحدى رغبات صاحب الكشف ، إذ انه لفت نظر شامبوليون الى انه كلفه منذ اقل من عام واحد بمسئوليات تتطلب منه ولشهور طويلة قادمة ان يبقى فى باريس على الاقل حتى موعد افتتاح

متحف شارل العاشر المقترح له يوم ٤ نوفمبر يوم عيد ميلاد الملك . امام هذا التنبية لواجباته رد جان فرانسوا قائلاً أن رسالة مدير الفنون الجميلة وصلته وأنه مستعد للانتظار حتى موعد الافتتاح على الأقل . ولكننا نخطئ لو اعتقدنا ان هذا «الدوفيني الشقى» سيقبل ان ينصاع تماما لما يملى عليه . واذ به يكتب على الفور لملك فرنسا وعاهل توسكانييا الدوق- الاعظم دون أن يخشى إغضاب لاروشفوكو . كتب فى ٢ يوليو الى شارل العاشر :

«أوروبا العلوم كلها تتوجه بآمالها شطر هذه المنطقة الكلاسيكية كما يتعلق رجاؤنا كله بجلالتكم .

لويس -العظيم * كان قد طلب من لايبنتز رأيه فى هذا البلد المشهور ويعود لجلالتكم تحقيق المشاريع السلمية لجده الخالد وسيزداد بريق ملككم بجميع الانتصارات الأدبية الجديدة التى ستم تحت رعايتكم المعظمة .

ان ماتفضلت به جلالتكم من أجل العلوم التاريخية من مقتنيات لاتمضى نكراما والتي أثرت المتاحف الملكية ستكتمل بما سيجود به كرمكم من عمل جديد أسمخ لنفسى بأن أتقدم بطلبه .

وإذ أئذ نفسى لهذا المشروع العلمى الضخم فإنى لا أنظر سوى لما سيضيفه يامولاي من مجد لاسمكم .

وبعد شهر وأحد توجه ناحية ليوبولد الثانى :

« سمحت لنفسى أن أعتمد على تعاون نشط من لجنة توسكانييا لاستكشاف الآثار التاريخية التى مازالت موجودة فى مصر . إن الخطاب الذى تفضل صاحب الجلالة الامبراطورية والملكية بتشريفى ، قد أرضى أمانى كلها بما أعلنه من إعتقاد الخطة التى تضمن الحصول على النتائج العلمية العامة بهذا المشروع . لعلها أكثر الرحلات العلمية روعة ضمن جميع الرحلات التى ابتغت تقدم الدراسات الأساسية والتى يتحتم على هذا القرن أن يقوم بها . أنه من المؤكد على الأقل أن جميع العقليات المستتيره فى أوروبا تصفق لهذا المشروع بتعاطفها الكامل معه وأنها تشاطرنى

* يقصد لويس الرابع عشر ١٦٢٨ - ١٧١٥ - الملقب بالملك - الشمس وحمل الى مرش فرنسا وهو فى الخامسة (المترجم)

المشاعر العميقة المعبره عن إمتناتى إزاء القرار الكريم الذى تفضلت باتخاذہ جلالتکم
الإمبراطورية والملکية ...»

تعین على مدير المتحف ذى الحذاء الطائر أن يدعم طلباته وتعبيراته بالعرفان
بالجميل باعتبارات أخرى أكثر واقعية وهو ما أسر دودوقيل ، الراعى المتثور القادر
على تحذيره من الأخطار التى قد تواجهه فهو يوضح له أولا أن مالیه الملك يمكنها أن
تتحمل شراء مجموعتى باسالاكوا ثم دروفيتى (رقم ٢) ثم وراء ذلك مباشرة
مصاريق « الرحلة الأدبية أو الثقافية » ، ثم أن أعمال إعداد المتحف وتنميقة لن تتم
قبل نهاية عام ١٨٢٧ ، وأخيرا فان الموقف السياسى والدبلوماسى فى شرق البحر
المتوسط العلاقات فيه مهدده بين فرنسا وباشا الأسكندرية مما يمثل تهديداً على المدى
القريب أكبر من أن تتحمله رحلة سلمية . سنرى فيما بعد أن رؤية الدوق النبيل لم تكن
قصيرة ...»

فرضت بذلك مهلة سنة كاملة على أعضاء الحملة البحرية . عمل چان فرانسوا على
التعامل مع الشدة بصدور رجب واختار أن يؤدى دور التلميذ النجيب بالنسبة لعاهل
توسكانيا الدوق الأعظم ليوبولد الثانى : « سنتتهز مسيو روسيلينى وأنا - هذه المهلة
للاستعداد للرحلة) بداية متعمقة للآثار الموجودة فى المتحف الملكى بباريس [..]
بذلك نكون حصلنا على وسائل جديدة تساعدنا فى إتمام مهمتنا .

وبالفعل جمع الرجلان المراجع الأكثر أكتمالا عن مصر . فبخلاف « وصف مصر »
ضموا إلى مجموعتهم أعمال القدماء هيرودوت وليودور وسترابون وبلوكارك ومن
المحدثين قولنى وسوفينى ، وثيقان دونون وجو .. إلا أن إهتماماتهم خلال هذه الأشهر
المحمومة بالقلق لم تتركز قط فى الإعداد للرحلة العظيمة ...

ففى فبراير ١٨٢٧ تقدم چان فرانسوا شامبوليون ولأول مرة بترشيح نفسه
لأكاديمية المخطوطات والأداب وهو ما يعتبر عدم تناسق غريب فى المواقف إذ كان
يعرف تماما أن السلطة فى العالم الاكاديمى وأدواتها التنفيذية سيقومون بكل ما هو
ممكن لأزاحته عن طريقهم .. أن وزير الداخلية كوربييلر كان فى عام ١٨٢٣ قد فرض
على الاكاديمية أن تخفض عدد أعضائها من أربعين إلى ثلاثين عضوا لیتفادى تسلل
ليبرالين مثله داخل صفوفها كما أنه لايمكن أن يكون قد غابت عن ذاكرته الاحداث
المؤلة التى حدثت فى ديسمبر ١٨٢٤ عندما رفض ترشيح أخيه الكبير لثالث مرة

والثورة العارمة التي إنتابته حينذاك ليس فقط بسبب الأهانه (والظلم فى رأيه) التى لحقت بچاك جوزيف ولكن أيضا بسبب الصوتين الذين صوت له هو بها ... إذ أنه كان مستعداً أن يقبل أن الذى تفوق عليه - المدعو هاز - السكسونى عالم الإغريقيات ولكن مالم يكن قادرا على تحمله هو أن يعتقد أنه دخل فى مناقسة مع أخيه وطالب أخاه فى إصرار أن ينشر بيانا يكذب فيه ذلك بصورة قاطعة ، وظل مقتنعا أن الصوتين اللذين حصل عليها لم يكونا لصديقين يريدان له خيرا وإنما كانا لأعداء يستهدفون الوقعة بينهما .

سواء كان ذلك نوعاً من الماكيافيلية أو كان الحجر الذى ألقاه الدب ، فان الحدث أله كثيرا ووعد أخاه حينذاك أن الطلاق بينهما والأكاديمية كان بائنا والى الأبد ، ، ومن شدة التأثير لفشله وافق فيچاك أخاه على هذا الرأى : ولكن هاهو الآن بعد أقل من ثلاثة أعوام ترك « صغير » داسييه العظيم يقنعه بان يجلس فى المقعد الخالى لأنه لايمكن ترك شخص يدعى شارل أوج بوكوفيل يجلس فيه فهو كان يعمل معاون طبيب خلال الحملة فى مصر ثم أسره القراصنة فى رحلة العودة وحبس فى القسطنطينية واصبح بعد ذلك قنصلا فى باترا عام ١٨١٥ ولم يعد من كل تلك المغامرات الطريفة سوى ببعض الروايات المملة .

هل كان يعتقد أن المسألة ستمر بسهولة ؟ كلا !! لأن الرحاله العائد تفوق بجدارة فى ١٦ فبراير ١٨٢٧ على من لم يرحل بعد إلى الإسكندرية . وحصل على ١٦ صوتا مقابل ٧ أصوات لشامبوليون . هذا هو الثمن الذى يدفعه من يغامر فى مثل هذه الأمور ويمكن أن نتخيل الشعور بالخزى الذى لحق ببون - جوزيف داسييه الذى اعتقد وهو فى السابعة والثمانين من عمره قضى منها أربعين عاماً فى الأكاديمية ، أن شابا عبقرىاً يمكن هزيمة عسكري شاب غير قابل للفرق . كما يمكن أن نتخيل الغضب الذى ألم بالشقيقتين اللذين أقسما ألا يدخلن الخية مرة أخرى « ثم تناسيا ذلك بعد فترة وجيزة .

كان المهلة التى فرضتها الظروف مختلفه بالنسبة لايبوليتو روسيليني إذ أنه تزوج من زينوبيا شيروبينى إبنة الموسيقار التوسكانى المشهور صاحب أوبرا ميديا - الذى كان يتربع على عرش العالم الموسيقى فى باريس . مراسلات چان فرانسوا مليئه بالنكات الساخرة من صديقه الشاب وغرامياته إذ أنه لايكاد يستبعد أنه يرتكب نفس الخطا الذى ارتكبه هو مع روزين قبل ذلك بعشرة أعوام . وكتب لانجيليكا يقول أنه « زواج غبى » . لو أن الرحلة إلى مصر تمت فى ١٨٢٧ لريما نسى ايبوليتو زينوبيا

إذا كان يتحمس بسرعة وهو يشبه الشاعر موسيه لدرجة أنه لم يعرف كيف يداعب الحب فقط « هل سيرتكب الجنون الأعظم بان يتزوج قبل السفر؟ » . هذا ما كتبه جان فرانسوا لكاهنته ... ثم حدث التأخير الذى فرض على علماء المصريات ماسمح لدام سيثروبينى بتزويج ابنتها لهذا الشاب الذى كان يروق لها بقدر ما كان لايعجب زوجها المايسترو . تم الزواج فى ٣٠ أكتوبر بكنيسة سان فانسان دوپول وشهد عليه جان فرانسوا شامبوليون والموسيقار الشهير چواكينو روسيى .

بعد خمسة أسابيع من حفل الزواج إضطر جان فرانسوا إلى ارتداء بدلته الرسمية وربطة عنقه الحريرية لان صاحب الجلالة الملك شارل العاشر سيشرفه بافتتاح المتحف الذى أطلق عليه اسم ثانى اشقاء الملك لويس السادس عشر . لم يكن فى الأماكن الإحتفال بذلك فى عيد القديس شارل بسبب تأخر الانتهاء من أعمال أعداد القاعات المصرية الأربعة وكان المسئول الأول عن هذا التأخير هو الرسام المصور « أنجر » ، الذى لم يكن قد وصل إلى الشهرة العالمية التى حازها بعد ذلك ، وكان يرفض عرض لوحته المشهورة الآن « تنويج هوميروس » بمناسبة الافتتاح ، لأنه كان يرى أنها لم تكتمل بعد .

لم يحضر العاهل الفرنسى إفتتاح المتحف التى قررت باريس فى نهاية الأمر تخصيصه لصر سوى فى ١٥ ديسمبر ١٨٢٧ ومن كان يمكن أن يتصور قبل عشر سنوات فقط أن هذا الملك كان يمكن فى يوم من الأيام مشاركة « روبسيير جرونوبل » فى أى شئ كان .

« القاعات الفسيحة كانت مرتبة بشكل رائع والمجموعات مرتبة ووصفها منشور بمنهجية ، الملك زار بالفعل إذن متحفاً يثير الإعجاب ومزود بما يمكن أن يبتغى من روائع الفنون جميعاً حيث لم يكن هناك سوى جدران جرداء تقدم للناظرين(3) »

المهمة إنتهت وأوصلها شامبوليون إلى مداها بأن أنشأ المتحف الذى كلف به قبل ثمانية عشر شهراً . ولكن ماذا عن المحاضرات التى كان من المفروض أن يلقيها خلال « الفصل الجميل » متزامنة مع إنشاء المتحف ؟ كان رد صاحب رسالة إلى « مسيو داسييه » لطارحى السؤال عليه بوضوح إنه لايمكن أن يدرس علم المصريات - علما بأنه هو الذى وضع أسسه - إلا بعد أن يزور أرض الفراعنة : فقد نجحت سخرية جومار وفوريان منه فى هذه النقطة من التيل من طول أناته .

كان من الممكن أن يعترض الدوق دودووقيل والفيكونت سوستان قائلين أن الدروس التى يعطيها يومياً فى « متحفه » لايبوليتو روسيليني والرسام الشاب نيستور لوتر

المرشح للرحلة معه تثبت أن أستاذيته بلغت مرحلة الكمال . إلا أنهما فى النهاية نزلوا على رأيه . وأعدمت فكرة القيام بالرحلة قبل نهاية العام ولكن كم من العقبات كان عليه أن يتخطاها وكم من مؤامرات كان عليه أن يحل عقدها ومشاركات يعتمدها وعروض يفاضل بينها .

أغرب هذه العروض تقدم بها من أسمتهم مدام هارتلوبان (فى عام ١٩٠٦) « بعض الرأسماليين » (4) - ورد ذلك فى مذكرة مأخوذة من مراسلات شامبوليون ونشرت بمعرفتها - إذ تقدم ناشر فرنسى كبير (لعله فيرمان ديدو ؟) وأثنان من أصحاب البنوك من جرونوبل (لعلهما من عائلة بورجى) يعرضون تمويل رحلة صاحب الكشف « بشرط أن يضع المشروع إسمهم فى مكان بارز » ... من المدهش أن يسبق هؤلاء عصرهم ويتشبهوا برعاة الأعمال الإعلامية المعاصرين .

كان رد فعل جان فرانسوا فى صورة لايد أنها ستدهش أى ممول لحملة علمية معاصرة : إذ رفض العرض « مضحياً من - أجل الأصول التى يجب أن تحترم - بفوائد متعددة الجوانب لأن الشكل النفعى التجارى لمثل هذه العملية لا يتناسب وقدسية أرض الآلهة وفنون مصر القديمة » .

كانت الأمور تسير بطوها ومرها فى طريقها فى باريس كما فى مصر . دروفيتى الذى حضر إلى باريس بمناسبة عرض مجموعته الثانية فى متحف شارل العاشر كان يلح على شامبوليون لكى يسرع بالقيام برحلته لأن التدمير الذى يلحقه محمد على بالآثار يتلاحق ، كما أنه من الأفضل أن يسبق سفره وقوع أزمة دولية كانت تتفاقم فى الشرق دون إنتظار غلق أبواب مصر لفترة طويلة . إلا أن طريقة تفكير هذا القنصل - تاجر الآثار كانت ملتوية لدرجة تجعلنا نتساءل ما الذى كان يعنّيه إصراره هذا وما الذى يدارية ؟ أين كانت توجد مصلحته ؟ هل فى السيطرة التى لايد وأن تدخل شامبوليون المتحمس للغاية للحفاظ على الثروات المصرية سيفرضها على سرقاته ؟ أم أملا فى الحصول على الضمان الذى لايد وأن وجود مؤسس علم المصريين شيفغى على تحركاته المريبة ؟

كارلو بيد يمونينى - قنصل بيموننت - ساردينيا فى الإسكندرية - كان قد ذهب لمقابلة جان - فرانسوا فى تورينو قبل ثلاثة أعوام - وهوزوح إبنة دروفيتى وعلى الرغم من ذلك فهو الذى كشف لشامبوليون عن معنى تحركاته : « طالما أن هنرى سولت * على قيد الحياة فإن دروفيتى يريد أن يستخدمك لكى يهزمه ويشل حركاته . ولكن بعد وفاته فإنه سيسقط القناع . حينئذ يجب أن تأخذ حذرک منه ! »

الذى حدث هو أن سولت توفى بالفعل بعد ذلك بعدة أسابيع أى فى ٢٧

* صاحب المجموعة ومن المعروف أنه كان مريضاً .

أكتوبر ١٨٢٧ * وحدث بالفعل ما توقعه ، إذ ما أن أختفى منافسه إلا وأصبح دروفيتى أقل إلحاحاً وكما توقع بيديمونتي فقد قلب ظهر المجن وأخذ ينشط لدى أقل الشخصيات تحمساً لرحلة شامبوليون مثل فوريان وجومار حتى لايدرج أى بند للحفريات فى ميزانية عالم المصريين . بل أننا سنراه عشية إبحار شامبوليون وروسيليني إلى مصر يحاول تغليلهما لأسباب بعضها وجيه والبعض الآخر أقل وجاهة ، ومن أهم هذه الأسباب تدهور العلاقات بين فرنسا وباشا مصر بسبب القلاقل التى أجتاحت شرق البحر المتوسط بسبب الثورة اليونانية على السلطان العثمانى ، وكانت القوى الغربية ومن بينها فرنسا تساند اليونانيين ضد الأستانة وكان محمد على تابعاً وحليفاً للسلطان . وعندما دمرت الأساطيل الأوروبية أساطيل القوى الإسلامية فى ناغارين فى ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧ فان سفن محمد على هى التى غرقت . فهل كان يعتبر هذا الموعد هو المناسب للاهتمام بالاثار المصرية ؟ وماهو الإستقبال الذى يمكن لمبعوث ملك فرنسا أن يأمل فى الحصول عليه عند ضفاف النيل ؟ وهوالذى كان حبه لانجليكا باللى يشعل من مناصرته للقضية اليونانية التى كان يشاركه فيها حينذاك بالطبع جميع الليبراليين

بداية الرد علي هذا السؤال ورد فى بيان وجهه محمد على إلى الأوروبيين المقيمين فى مصر فى نهاية ديسمبر ١٨٢٧ : إذ أكد فيه الباشا أنه عازم على حماية (الفرنجة) وأنه متمسك بتقاليد حسن الضيافة الإسلامية . ولكن لم يكن من المؤكد أنه يستطيع التحكم فى كل التيارات المحمومة التى كانت تسرى حينذاك فى الشرق كله .

هل كان جان فرانسوا يشعر عشية سفره ببعض المخاوف من ناحية أسرته أو كان يتخوف على حالته الصحية ؟ لايمكن أن نقول أن مصير روزين وزرورايد قد حال حتى الآن دون أن يعيش حياته بالصورة التى يبغيها .. صحيح أن اهتمامه بابنته كان قد بدأ يزداد فهو كان دائماً محباً للأطفال طالما أن فى إستطاعته أن يمارس عليهم عبقريته التربوية الفذة . إلا أنه كان مطمئناً تماماً من هذه الناحية لأن زوجته وابنته كانا فى أيد أمينة . إذ جمع أخوه الجميع فى شقة فى المنزل الواقع فى ١٩ شارع مازارين ، مجاور جداً للذى اكتشف فيه الأسرار الهيروغليفيه فى ١٤ سبتمبر ١٨٢٢ ، وكانت زوجة أخيه التى كان يحبها ويحترمها بشدة تتفاهم مع روزين أفضل من چاك - جوزيف وكانت علاقات هذا الأخير معها باقية على حدتها ومع ذلك كانت دار شامبوليون فى حالة من الوثام .

* انظر الفصل الثانى

الواقع أنها كانت أفضل بكثير من حاله الرحالة الصحية . إذ كان النقرس مستمراً في تعذيب قدمه اليمنى وكان يعرف أنه سيضطر للسير من مقبرة لأخرى ومن معبد لآخر وكان السعال لايفارقه تنتابه في أحيان كثيرة حالات الأختناق .. وما أن يقل من نشاطاته إلا وتظهر عليه علامات البدانة ، وهذا الجان - فرانسوا ذو السبعة والثلاثين عاماً لم يكن - مثلما نقول اليوم - رياضياً في قمة حالاته بل هو رجل إستهلكته المعارك وعدم الاعتناء بصحته والإرهاق الفكرى وخيبة الأمل العاطفية ... ينهش جسده مرض لم يكن الأطباء قد كشفوا أصابته به بعد وبالتالي لم يعالج منه وهو مرض السكرى .

أما في باريس فان نجم جان فرانسوا كان يزداد بريقاً بقدر ماكان تطور الحياة العامة يسير في الاتجاه الذى يتفق وأماله . فقد سقطت الوزارة التي يرأسها فيلار كوربييار (هذا الكوربييار الذى ظل يناهض مقاصد شامبوايون والذى جصفه شاتويريان بأنه « الطاغية الميلو دراماتيكى المناهض للأدب » .. وحلت محلها وزارة ليبرالية يرأسها مارتينياك . « إن فرنسا تسير أخيراً في خط متزن جدير بها » هذا ماكتبه في إحدى رسائله إلى زيلمير . والواقع أن هذا التغيير فى المسار السياسى قد خدم أهداف الرحالة .

إذ لو أن كوربييار قد بقى فى منصبه فمن المشكوك فيه أن يكون الملك قد قبل - لدى زيارته للقاعات المصرية فى متحف اللوئز فى نهاية ابريل ١٨٢٣- أن يعطى في السر موافقته على أن يدرس مارتينياك مشروع الرحلة وأن يعمل هذا الأخير في بضعة ساعات على أن يدرس المذكرة « حول مشروع رحلة أدبية الى مصر » ويوافق عليها فى خطوطها العامة - وهى المذكرة التى حررها معا الشقيقان شامبوايون واييوليتو روسيليني فى نهاية عام ١٨٢٧ والى كانت قد رفعت إلى الملك بعد ذلك بقليل دون أن تكون محل أى دراسة جادة .

مذكرة ١٨٢٧ تعتبر عرضاً ممتازاً للأسباب : وهى وإن كانت متكلفة فى أسلوبها بسبب تعدد المشاركين فى تحريرها ولم يكن حماس المكتشف وحده الذى ألهمها - إلا أنها مزودة بكافة الأفكار الرئيسية حول الفن المصرى والتجديد الشامل الذى أدخله على المعارف - التى كانت سائدة منذ حملة ١٧٩٨- الكشف عن أسرار الكتابة المقدسة . يجب أن نذكر هنا بعض المقتطفات منها فهى تلقى الضوء على الفكر الذى قاد كلا من شامبوايون وروسيليني وهما يقومان برحلتها :

« إن النظريات الشائعة عن الفن المصرى ودرجة التقدم التي وصل إليها بالفعل هذا الشعب سواء فى مجال النحت أو التصوير هي نظريات خاطئة فى جوهرها (...) أن أوروبا المتعلمة تعلم بوجود هذه التراكمات من الثروات التاريخية ورغبتها

الجامعة هي الاستيلاء عليها ولذلك فهي تطالب بان تسرع إحدى الحكومات المستنيره بأن تبعث إلى مصر بأفراد وهبوا حياتهم للعلم وأعدوا أنفسهم إعداداً مناسباً لكي يجمعوا المستندات القيمة التي لا تحصى ولا تعد التي سجلتها العظمة المصرية القديمة على المباني طالما أنها لازالت قائمة والتي تغطي كتاباتها الفخيمة ضفتى نهر النيل (..) (أنها تعرف) أيضا أن البربرية التي لازالت تتنامى تقوم بالتدمير المنظم لهذه الشواهد الجديرة بالاحترام على حضارة عتيقة (..) وهي آثار لا يوجد شئ في الوجود يمكنه تعويض خسارتها ، إن رحلة أدبية إلى مصر تعتبر الآن أكثر الرحلات المجدية التي يمكن القيام بها في هذه الآونة (...) متزودة بالمعارف التي اكتشفت مؤخرا عن كتابات مصر القديمة ، فإن أى رحلة تتم الآن فوق هذه الأرض العريقة ستسفر دون شك عن نتائج علمية لا يمكن أن يكون مداها قد دار بمخيلة أحد . حتى في الوقت الذي كانت فيه مصر واقعة تحت سيطرة جيش فرنسي تدرس بعناية بواسطة مجموعة كبيرة من العلماء كان لهم باع ضخم في العلوم الفيزيائية والطبيعية والرياضية ، إلا أنهم كانوا مفتقدين الآداة الجوهرية التي لاغنى عنها للاستغلال الأمثل لهذا المنجم البالغ الثراء بمسئداته التاريخية والتي وضعت في متناول يدهم انتصارات اسلحتهم « ...

أدت هذه الأعتبارات إلى أن يقدم أصحاب المذكرة « كشفا مفصلا بالأعمال التي يجب أن تنفذ وبإلهام التي يتعين عليهم تأديتها » . وبخلاف « الرفع » بالرسم للعديد من الأماكن المتنوعة على طول ضفاف النيل - إقترح علماء المصريين أيضا أن يقوموا « بحفريات » توضع ثمارها بعد نقلها في متحف اللوفر الملكي ... أو في مكتب الآثار التابع للمكتبة الوطنية وأن يقوموا بشراء بعض التحف المثيرة للاهتمام تضم إلى الجامعات الملكية « .. وتجنّ الخلاصة مدوية » هذا هو الهدف وهذه هي الخطة وهذه هي اسباب الرحلة إلى مصر ولا ينتظر مسيو شامبوليون سوى أوامر الملك لكي يقوم بها .

هذا هو المسئند الذي الحقه چاك - جوزيف بطبعته هو (الصادرة عام ١٨٢٣) لمراسلات صاحب الكشف ولكن توجد صيغة أخرى بالايطالية للمشروع الذي شارك في إقامته - كما سبق أن رأينا - ابيوليتو روسيليني . وقد ورد في هذا النص الذي أرسل في يوليو ١٨٢٧ إلى عاهل توسكانيا الدوق الأعظم ليوپود - والذي سبق أن أعلن قبل ملك فرنسا موافقته أو على الأقل مسانئته للمشروع كما أكد مشاركته المالية فيه فاحتفظ بذلك ببعض من الحقوق عليه - أن باريس لن تكون مختصة وحدها بالنسخ والحفريات والمشتريات . « ... هذه الحفريات ستتم حيثما يرى مسيو شامبوليون والبروفسيور روسيليني كل على حساب حكومته . كما أن أيأ منهما يرى

أن أثرا من الآثار له أهمية كبرى عليه أن يمد الأخر بنسخة منه وستتم دراسته فيما بينهما » .

الصيغة الفرنسية - الوسطية التي قدمها شامبوليون - فيجاءك تعتبر من أول الدلائل على الجدل القائم بين باريس وقلورنسا التي لم تظهر أثره خلال الرحلة وإنما بعد وفاة صاحب الكشف - كما سنرى فيها بعد - الذي ظل على علاقة تتسم بالثقة والصدقه مع روسيليني ، إذ كان يكن له تعاطفا واضحا . كاد هذا التنافس منذ البداية أن يفشل المشروع . أقل ما يقال في هذا الصدد أن الملك شارل العاشر لم يكن يحبذ قط هذا الاقتسام للمبادرات والمسئوليات والهيبة : فهل كان من اللائق أن يتقاسم « الملك المسيحي جداً * سليل لويس الرابع عشر - مناصفة مع « صاحب سمو ملكي » حتى لو كان عاملا لاكثر العواصم نبلا في العالم ؟ هل إحتاج بونابارت أن يشارك مبادرته حملته مع أي من كان ؟

إحتاج الأمر تدخل بلاكاس - وإن كان تأثيره قد قل في تلك الفترة - ودودوفيل ودولاروشفوكو وأخيرا مارتينياك ، لكي يوافق الملك في النهاية على هذه المشاركة التي كانت تتمتع في نظر رئيس وزرائه بفائدتين : الأولى هي استمالة إحدى الممالك الأوروبية التي زاد تغلغل النفوذ النمساوي فيها بأكثر مما يتفق وماتراه باريس والأخرى هي تخفيف وطأة مصاريف المشروع بمقدار النصف (٩٠ , ٠٠ فرنك) على المالية الملكية .

بقي إيجاد حلول لثلاثة مسائل وهي : تشكيل البعثة « الأدبية الفرنسية - التوسكانية » ووسائل الانتقال من طولون إلى الأسكندرية وموعد الإبحار .

سبق أن رأينا أن جان فرانسوا شامبوليون كان يود أن يصطحب معه - غير روسيليني - بعضا من أعز أصدقائه مثل الأب كوستاتزو جاتزيرا وكذلك أكثر علماء المصريين الأنجليز تعبيراً عن تقديرهم له سير وإيام چاك ولكن لم يتمكن أي منهما من مواجهة أخطار الرحلة . الأول لأسباب صحية والأخير لأسباب مالية .

بقي الأمر محصوراً بين توسكانيين وفرنسيين . ضمت « اللجنتان الثقافيتان » سبع أفراد لكل منهما . الفرنسية برئاسة جان - فرانسوا شامبوليون جمعت

* أحد الألقاب التي كان يختم بها ملوك فرنسا (المترجم)

شارل لونورمان * مفتش الفنون الجميلة (ممثلاً للاروشفوكو أى السلطة الملكية) وأنطوان بيبان ، مهندس معمارى كان قد التقى به في إيطاليا والرسامين المصورين الكسندر دوشان لوهو وپارتان ** وهم من تلاميذ الفنان المشهور البارون جرو ، وأخيراً نستور لوت ، موظف جمارك شاب محباً للمصريات ومستمعاً لمحاضرات ميولون فى متحف اللوفر والذي اتضح أنه رسام جيد .

أحاط بايوليوتو روسيليني ، رئيس اللجنة التوسكانية ، عمه جايتانو وهو مهندس معمارى وأخو زوجته ، سالفادور شيرويني - رسام *** واليساندرى ريتشي ، طبيب وسبق له أن قام مع بانكس ثم مع لينان بعدة رحلات إلى مصر ، وچيو سيبى راضى عالم طبيعة فلورانسى أشهر - والرسام انچيللى ، وأحد مساعدى البروفيسور راضى يدعى جالاسترى .

نصر الاتفاق الذى وقع عشية القيام بالرحلة فيما نص على ما يلي

البند الأول : يتولى مسيو شامبوليون الادارة العامة للرحلة .

البند الثانى : يتولى مسيو إيوليوتو روسيليني مسئولية المساعد للمدير العام وجميع التفاصيل التنفيذية .

البند الثالث : عين مسيو لونارمان مفتشاً عاماً .

كان هناك إذن تسلسل فى القيادة مبنى على السن وعلى الكفاءة وعلى العلاقات القائمة من الأصل بين رئيس « الحملة » . قال روبرهارى فى مداخلة له فى ندوة خصصت لروسيليني عام ١٩٨٢ فى بيزا ، أن هذه العلاقة حددت على هذه الصورة ، وعاشها التوسكانى بهذا الشكل لأنه « قبلها وفهمها هكذا » . كلا ! أن فارق العشر سنوات فى السن بين الرجلين وكذلك العبقرية الخلاقة التى كانت تحرك أكبرهما سنا لم تكن تتضمن علاقات متساوية بينهما بالكامل . وإنما إذ نوضح ذلك يجب علينا أن نضيف أنه على الرغم من بعض الأقاويل سيئه النية فان علاقاتهما كانت تتسم بالولاء المثالى وسوف نبرز كل الشواهد على ذلك عبر سردنا لمختلف المراحل والتجارب التى حدثت حتى وفاة صاحب الكشف . وسيلة المواصلات التى طالب بها رئيس البعثة كانت الركب « ليجليه » الذى وفرته لهم الحكومة الملكية الفرنسية ووضعتها تحت تصرف أفراد الحملة الثقافية وقد أثبت هذا المركب أنه على مستوى المشروع وأوصلهم إلى هدفهم بسلام . أما عن موعد الإبحار فان شامبوليون حدده بنهاية شهر

* ابن أخ مدام ريكاميه وكان يحظى برعاية شامبوليون الذى يذكره كثيرا وأكثر منه زوجته . أصبح ابنه فرانسوا عالم آثار مشهور هو الآخر .

** ابن مؤسس صحيفة « لوجورنال دى ديبيا » رسمه الرسام انجر الذى أصبح ناشرا لأعماله

*** الذى كان يعتبر نفسه عضوا بالمجموعة الفرنسية وكان يتصرف على هذا الأساس .

يوليو ١٨٢٨ مقداراً أن اللجنة لن تجابه تجربة درجات الحرارة المخيفة - في مصر العليا والنوبة سوى في فصل الشتاء : ركب إذن عربة البريد المتجهة إلى طولون في ١٦ يوليو في نهاية فترة بعد الظهيرة وتوقف لدى صديقه أرتو في ليون حيث زوده أصدقاء من جرونويل « براتافيا » من منطقة الدوفينييه ليشربها تحت شمس أفريقيا . ثم أمضى يومين في مدينة إكس عاين خلالها مجموعة سالييه . وخاصة بردية كانت تضمها المجموعة وكان يعطيها أهمية كبرى . ولدى مروره على مدينة أقينيون تمكن من عناق أوجوستان تيقوني أعز أصدقائه إلى قلبه وأكثرهم ولاءً والذي حضر للقائه بهذه المناسبة الهامة .

في ٢٤ يوليو وصل إلى طولون حيث لحق به رفاقه الفرنسيون والتوسكانيون الذين كانوا أن يحتجزوا على الحدود حيث سرت شائعة إنتشار الطاعون في منطقة بروفانس الفرنسية وكل من كان يعبر جبال الألب كان يكشف عليه جيداً؛ وفي جميع الاحوال يمر بتجربة الخل ... في ميناء طولون أخذ جان فرانسوا عدة حمامات . كتب لأخيه يقول عنها أنها أفادته «فائدة لانهاية» وجائت اتصالاته الأولية مع طاقم البحارة ممتازة وعلى الأخص من القبطان كازما دومانوار . ولم يبق عليهم سوى الأبحار .

هل هذا شيء مؤكد ؟

لقد كتب على هذه الرحلة أن تبقى حتى النهاية موسومة بكل ما هو غير مؤكد وله طابع إشكالي ... فلأسباب غير الصحة العامة كادت الرحلة تنتهي قبل أن تبدأ في طولون ، ولولا نكاء شامبوليون فيچاك الواقعي ، لبقى الرحالة وأصدقاته حيث هم في الميناء ليواصلوا حلمهم المصري لفترة مطولة ... قبل ذلك التاريخ بثلاثة شهور كان برنارد ينو دروفيتي قد أرسل إلى جان فرانسوا شامبوليون وبيوليتو روسيليني خطاباً مدمراً للهدف : الواضح من الهدف من وراء هذا الخطاب هو تأجيل المشروع إلى أجل غير مسمى : كتب يقول « يعم مصر ، مثلها مثل جميع أنحاء الأمبرطورية العثمانية شعور مناخض للأوروبيين الذي قد يشكل في بعض الأحوال سبباً لإثارة حركات وأعمال شغب تهدد سلامتهم الشخصية . سواء بالنسبة للمقيمين بصفة دائمة أو الذين يتصادف سفرهم هناك . وإذا كان الأمر يتعلق فقط بإرادة محمد علي بإيقاف ردود الفعل الغاضبة لما كان من الصعب الحصول على ماكلتيموني بطلبه منه * « إلا أنه مجابه هو نفسه بهذا الغضب بسبب مبادئه وشعوره بالميل للأوروبيين ولم يتمكن من إعطائي كلمة ضمان طلبتها منه من أجلكم ورفاقكم .

* كتب شامبوليون في الأول من فبراير رسالة يطلب فيها من دروفيتي الحصول على فرمانات من الباشا تسمح له بزيارة مصر .

وراح يعبر عن أمه في أن « يتغير الموقف السياسى للقوى الكبرى إزاء تركيا » بما يسمح في المستقبل للرحالة أن يبدأوا رحلتهم دون ما انتطار لأي إشعار آخر ، ثم ختم دروفيتى رسالته قائلا : « أرجو أن تتأكدوا أنى أسف أشد الأسف لأنى غير قادر على منحكم (رداً) يتفق ورغباتكم يتفق بدوره مع رغبة كل أصدقاء العلوم وهو ما تضطلعون به بكل هذا النجاح المرموق » .

هذا الإعتراض على قيام الرحلة لم يصل إلى باريس سوى بعد مغادرة جان فرانسوا إلى طولون ووقع في يد فيجاك الذى اطلع عليه ... ومثلما هو الحال دائما مع دروفيتى كان عليه أن يحلل الموقف تحليلا دقيقا لمعرفة خلفياته ... هل كان القنصل - التاجر قلنقا بالفعل ؟ هل أراد أن يرفع من قيمة الدور الذى يؤديه ؟ هل كان يحاول الانتقام من تصدى شامبوليون ويلاط فرنسا أيضا له ؟ هل كان يفضل الإنتظار حتى يكوّن مموعة آثار ثلاثة لكى يسيل لعاب ضيوفه لها ؟ بعد أن طرح فيجاك الحويط كافة هذه الأسئلة أختار أن يبقى الخطاب فى جيبه لمدة أسبوع كامل قبل أن يوجهه إلى ميناء الإبحار وقد تأكد تماما أنه سيصل متأخراً إلى جان فرانسوا .

بعد شهر كامل فى الاسكندرية وبعد أن علم جان فرانسوا من دروفيتى بمحتوى خطابه المؤرخ ٣ مايو كتب يقول لأخيه الأكبر : « .. أعترف بانى لو قرأت الرسالة فى باريس لما كنت سافرت . ولحسن الحظ أنها لم تصل فى موعدها والمؤكد أن يد أمون هى التى أبعدها ... » لقد تشكل الإله أمون فى صور شتى منذ خمسين قرنا - فهل كانت هيئه أمون / فيجاك هى الأخيرة ؟

فيما عدا رياح شديدة هبت لبضعة ساعات إنفعل لها الشاب نيستور لوت ، كانت الرحلة هادئة وتظللها السعادة وتتخللها الدراسات المستمرة . أصر القبطان دومانوار الذى أقام علاقات صداقة مع شامبوليون ، على أن يترك له قمرة الخاصة حيث انضم إليه فيها معه ، ينامون فوق مراتب علي الأرض مباشرة كل من روسيلينى وراضى و« الأب بيبانت » المهندس المعمارى الذى كان يتجول شبه عار لايهتم بمظهره وكان مصدر سخرية دائمة من « القيادة العامة » ! هذا هو التعبير الذى أطلقه المسافرون على أنفسهم بعد أن قرروا تلقيب شامبوليون « بالجنرال » وعلى الرغم من كونه من مناهضى العمل العسكرى فإنه لم يعترض .

كان جان فرانسوا يذهب ويجىء على سطح السفينة ثم يصعد إلى كابينة المراقبة ويستنشق الهواء البحرى وينهل من أشعة الشمس وبعد النجوم التى تزين « أجمل سماء فى العالم » ويعطى دروس لغة عربية لرفاقه ودروس فى قراءة الحروف الهيروغليفية .. كتب عن ذلك كله شارل لونايمان فى مذكراته الشيقة :

« روح الوثام الكامل ظلت سائدة علي ظهر السفينة : وسط الركاب كان شامبوليون رجلا لا يتغير مزاجه ولا للحظة واحدة . رائق الفكر على الدوام ولا يكل أبدا في الاستجابة لكل ما أحতاجه منه .. أتحدث أكثر مع روسيليني (...) أنه دمث الطباع جداً ومتفاهم جدا ، مرح ومتثقف للغاية . ببيانت هو المستهدف دائماً في التنكيت عليه وهو يؤدي دوره هذا ببراعة معقولة . شيروبينى شاب ذو طبيعة ممتازة وهو باريسى الجواهر . الدكتور ريتشى الذى عاش فى مصر لمدة عشر سنوات مثير جدا للإعجاب (..) أعمل كثيرا . وها أنا أقرأ العربية بشئ من السهولة (..) أخذ درسا فى الهيروغليفية كل يوم ... »

غير أن الأشاعة المستمرة حول إنتشار الطاعون في مقاطعة بروفانس منعت لرحالة البحرين من النزول فى أجريجانتي . فى جمرك الميناء واجهوهم بأمر صابر من باليرمو يمنع توقف أى مركب قادم من الموانى الجنوبية لفرنسا . « إن طولون ميناء شمالى » هذا ما إدعاه شامبوليون فاجابه الضابط الصقلى : « أنى أعرف ذلك ولكن لاتوجد لدى أوامر تخص هذه الموانى » .

باختصار .. منعهم طاعون لم يحدث أصلا من زيارة معابد المجموعة الأغريقية الرائعة الموجودة فى أجريجانتي التى لايد وانها كانت ستلهم قريحته ببعض التأملات . ولكن كان عليه أن يلتقى بمعابد مصر

١٦ - ماء النيل

حلم يواجة التحدى - موسى فى أرض مبعاده - « كأم حنون » « تعاطف دروئيتى - « غمزات عيون » الباشا - مسالة فرمانات « الجنرال » وقواته - مولد النبى فى القاهرة - دروس بنى حسن - « مجنون » فى الكرنك - إننا أقزام أبو سمبل حيث يسيطر الخوف على « الخيال » - الخطاب الآخر إلى مسيو داسييه : « أن ابجديتنا سليمة ! » .

أن تضع الخيال فى حالة تحدى وتُعرض فكرة ما - كرسى لها حياة بأكملها - إلى إمتحان النار الكاشفة ، هذه هى التجربة الأكثر قسوة التى يمكن لبشر أن يفرضها على نفسه . لم يقل لنا « متصوف » واحد كيف جابه تجرية مواجهته لوجه الإله . أما شامبوليون فقد عاش بما يكفى لكى يشهد على ما حدث فى مواجهته لأرض وأحجار ورجال وألهة وادى النيل ، وقد لخص رد فعله فى كلمة واحدة جعل منها القاعدة التى تقوم عليها حياته كلها : الحماس .

لكى نلخص مخاطر مشروعه الذى نفذه عام ١٨٢٨ يجب علينا أن نتصور ماهى الصورة التى رسمها الخيال لمصر لدى شامبوليون - المكتشف : الروايات التى قصها عليه أخوه الأكبر - قرائات دونون - دروس دوساسى القاسية - مبادئ اللغة القبطية مع شيفتيشى - الأبحاث الجغرافية والصراع الشخصى الطويل خلال عشرين عاما - مع الحروف المقدسة - البريق اللامع الذى أضاء كالصاعقة يوم ١٤ سبتمبر ١٨٢٢ - الاكتشاف الجمالى فى متحف تورينو - .. وها هى اللحظة التى تجمعت فيها كل هذه الأحلام والتصورات لكى تتصادم فجأة مع الحقيقة الواقعة التى لا ترحم .

يوميات الرحلة الى مصر ومراسلات جان فرانسوا تؤكدها باستمرار روايات رفاقه فى الرحلة : روسيلينى ولونورمان ونستور ولوت تعكس حالة نفسية وعاطفية يصفها المتصوفون بالسعادة . وسط هذه الحياة شديدة الحيوية ، التى عصفت بها كمية ضخمة من المؤمرات والغيرة وتعذيب الذات ، تلمع هذه الشهور السبعة عشر فى مصر بكامل بريقها من الإعجاب الجمالى والتعاطف الإنسانى والتضامن المهني والعلمى . شامبوليون على أرض مصر هو موسى فى أرض الميعاد ، ملك ، فحل وسعيد .

لم تكتمل سعادته مرة واحدة . من الأسكندرية - التى كان يقول عنها مثل الرومان

أنها عند مصر Ad Aegyptum - ثم القاهرة ومن سليبس إلى بنى حسن ومن

اليدرشين إلى سقارة ومن الجيزة إلى دندره ، تصاعد الحماس فيصل إلى نروته ليصبح - فى الكرنك - تجلياً يتجدد فى أبو سمبل .

إن الحماس المتأجج والرؤا الواضحة لدرجة الشفافية جعلت صاحب الكشف يبدو كما لو أنه يلبي ندائنا للصعود إلى السماء . إنه يشبه فى حالته تلك هؤلاء القديسين الذين صورهم الرسام الجريكو فى لوحاته مغلفين بالسحب التى تصعد بهم فى اتجاه نور الله مع فارق واحد هو أن نظراته هو كانت بعيدة عن أى نتشنج بل إنها كانت مثبتة باستمرار على جدران المقابر وعلى أعمدة المعابد ، دائمة البحث عن معلومة وعن مراجعة أو عن رمز جديد وعلامة مختلفة أو لفظ صوتى غير منتظر .

خطاب إلى فيچاك حرر بعد النزول إلى شاطى الأسكندرية :

« وصلت إلى أرض مصر فى ١٨ أغسطس ١٨٢٨ هذه الأرض الذى ظلت أحلم بها لكل هذه السنين الطويلة عاملتى حتى الآن كأم حنون ويبدو تماما أنى ساحتفظ وأنا فى رعايتها على الصحة الجيدة التى أتيت بها إليها . تمكنت من شرب ماء بارد كما أريد - وهذه الماء هى ماء النيل »

قبل الظهر بقليل يوم ١٨ أغسطس ١٨٢٨ تمكن المسافرون على « الإيجلى » من التعرف بواسطة المتظار المقرب على عمود السوارى (بومبى) الذى يتوسط الأسكندرية والذى بدى لهم « مهيباً » الميناء القديم - الغربى - بدأ رائعاً فى عيون شامبوليون . وسط هذا التشابك الهائل من السفن - منها الحربية سواء إنجليزية أو فرنسية - المكلفة بالحصار والسفن التركية والمصرية التى نجت من كارثة نافارين يكتشف جان فرانسوا « مشهداً فريداً يكفى لتحديد طبيعة هذا الزمان ... » لأنه المصرى « كما سنرى فيما بعد سيبقى دائماً مصرىا بالكامل ويشرك مصير مصر الحية ببعث الإمبراطوريات التى أختفت .

بعد أن قادهم العاملون فى قنصليتى فرنسا وتوسكانيا إلى اليايسة أركبهم الحمير. ويكتشف صاحبنا المكتشف على الفور بحسه وبعينيه المحبتين صفات هذا الحيوان التى ليس لها مثل من الرقة والسحر والشجاعة رجل يرى حمير وادى النيل بهذه النظرة ويصفهم بانهم « أصحاب الشعر المائل إلى الأحمرار والملمس الحريرى » كان بالفعل جديراً بأن يقرأ مصر ككتاب مفتوح :

« وهكذا كان دخولنا الهجومى على محل إقامة البطالمة القديم . غير أنه لم يتمكن من أخفاء ارتبائه أمام المشهد الذى أمامه : هل يمكن إعطاء اسم شوارع على

فوضى من المنازل المنخفضة للغاية معظمها من الطين وبها منتجات نادرة وهى غير منتظمة في خط واحد (..) إن المظهر الذى كان عليه السكان الذين كانوا يملأون الشوارع على الرغم من الليل كان ينم عن شئ غريب بالنسبة للقادم من أوروبا لدرجة أنه من المستحيل أن أعبّر عن الشعور بالدهشة بل الدهول الذى سيطر علينا. كان هذا الخليط من المصريين نوى اللون الأسمر النحاسى والبرابرة نوى البشرة الأغمق والبون نوى اللون المائل إلى السواد يزيد من حدته لباسهم الأبيض ، ومن الزنوج الاحباش كانوا جميعا يسرعون ويتلامسون ليتفانوا راكبي الخيل أو الحمير فى هذه الشوارع الضيقة ، وكذلك الطواير الطويلة من الأبل الحزينة والبطيئة والمربوطة فى أنيال بعضها - كان كل ذلك غريب فى حدته لدرجة أنى شعرت بانى أمام مشهد من مشاهد الأويرا ..»

نعم .. إنه بالفعل مستدرج إلى كوميديا فريدة من نوعها سواء كانت جادة أو هزلية ومخرجها هو برناردينو دروفيتى . أستقبله بالطبع القنصل وبصحبه كوزماو دومانوار وشارل لونورمان « بكل ترحاب » ، إلا أنه أسرع بإفادته أنه كتب له فى شهر مايو خطابا يعترض فيه على الرحلة ولكنه أقر « بانى مادمت وصلت فكان عليه أن يستقبلنى » وأن الباشا* سيعطينى كافة التسهيلات المطلوبة خاصة وأن الاتفاق الذى وقع فى السادس من يوليو بين الحلفاء الأوربيين والخاص بجلاء القوات المصرية من الموزة قد خفف من التوتر فى العلاقات بين القوى المسلحة وأوروبا . وفى النهاية كان دروفيتى حريصا على أن يؤكد أهتمامه بزواره كما وضع تحت تصرف شامبوليون الشقة الخاصة بالقنصلية والتي كان يقيم فيها كبير فيما مضى وكانت مريحة للغاية .

لم يمض على جان فرانسوا وقت طويل لكى يستشرق . خطاب لأخيه :

أتحمل الحرارة بأفضل ما يكون : يبدو أنى ولدت فى هذا البلد . ويجد الفرنجة** أنى شديد الشبه بالاقباط . شاربى أسود اللون على أفضل ما يكون أصبح طوله محترماً ويعمل من جهته أيضا على التاكيد على ملامحى الشرقية . وبالنسبة فقد اكتسبت بالفعل العادات المحلية وأشرب العديد من فناجين القهوة وأدخن ثلاثه شيشات فى اليوم . مذاق الطبايق لذيذ وأخلط كل سحبة نفس برشفة من القهوة .. ذات الطعم اللذيذ وتجد فيها ماتشرية وتاكله فى ذات الوقت ... ثم نوم الأيلولة بعد الغذاء لساعتين حتى أربع ساعات »

* محمد على بالطبع
** يقصد الأوربيين

كتب إيبوليتو روسيليني في خطاب متزامن مع هذا الخطاب وموجه لچاك - جوزيف أيضا يعبر فيه عن سعادته البالغة بالمظهر الباعث على الإحترام الذي يبدو عليه « صغير » « شواربه والشيشة التي يدخنها مثلما يفعل عجوز تركى » .. ونفس هذه الملاحظات نجدها ضمن ماكتبه لوت ولونورمان . إن أسمر البشرة القادم من مدينة فيچاك يبدو كما لو أنه فى داره هنا فى الشرق كما لو كان قد عاد إلى أرض الوطن ..

كان يشعر أنه مدلل للغاية يعتنى به القنصل أشد العناية .. إلا أن صحة هذا الأخير تقلقة إذ أن حمى « الدنج » * تنهش صحته الجسدية والحزن صحته النفسية : كان دروفيتى مثيرا للشفقة ويتحتم إعادته للوطن كما قال « صغير » لچاك - جوزيف سيصبح بعد عدة شهور « رجلا ميتا » . لكن جميع أمراض الحمى والقلق التي فى العالم لن تجعل القنصل أقل حثا : وسيعطى جان فرانسوا بعد أيام قليلة أهمية أكبر لمكر مضيقه على مرضه الجسدى أو كآبته النفسية . المكر الحقيقى يعبر عن نفسه أولا بحسن المعاملة . فبعد أن استقبل جان فرانسوا « بكل حنان » حصل له على موعد للقاء الباشا . وبعد أقل من أسبوع من رسو « الايجلى » فى الميناء قاده مع القبطان ولونورمان إلى الديوان . ووصف اللقاء الذى كتبه جان فرانسوا لا يخلو من الحيوية . إلا أننا سنختار أن نسردها هنا ماكتبه شارل لونورمان لأنه مدهش :

« ... بعد أن عبرنا قاعة إنتظار مزدحمة بالحراس وجدنا أنفسنا داخل قاعة فسيحة بها أكثر من عشرين نافذة وفى زاوية منها جلس عجوز صغير الحجم تعبيرات وجهه جادة مثل رئيس المحكمة الملكية لولا أنه كان يغطى رأسه بدلا من القلنسوة المربعة - بعمامة من قماش الموسلين الأبيض وبدلا من الرداء الأحمر بمعطف لونه أزرق فاتح . وكان طول النرجيلة التي يدخنها حوالى عشرة أقدام مرصعة كلها بالماس وحجر آخر كريم . وكانت هذه هى قطعة الأثاث القيمة الوحيدة فى المكان . (...) ما أن دخلنا إلا وصرف العديد من موظفيه الوزراء الذين كانوا يعملون معه بايمائة واحدة وأشار لنا بيده لكى نجلس . ثم بدأ الحديث مع مسيو دروفيتى الذى تحدث باسمنا وترجمان القنصلية الذى كان ينقل إلى الفرنسية مايقول الباشا بالتركية [...] [...] إذا كنا سنبدأ بالذهاب إلى قمم الفراغنة (هكذا يسمى الأتراك الأهرامات) وفيما كان الرجل يشبعنا بابتسامة رقيقة لم تغادر شفثيه ، كنا نراه يطلق علينا من وقت لآخر نظرات كمنظرات الأسد تشتت منها على بعد فرسخ كامل رائحة سفاح المماليك .

* حمى شائعة فى أفريقيا الشمالية خبيثة للغاية كاد أن يموت بها الجنرال ديچول بعد تلك الفترة بعامة وأثنى عشر عاما .

« علاوة على ذلك فلا شيء أدهشنى أكثر من وجه هذا الرجل الطيب . كنت حفرت فى مخيلتى صورة الشخص المرسوم فى لوحة « هوراس » * الإسكيتش (الرسم السريع) الذى رسمه مسيودوفوربان خلال رحلته . وكم كانت دهشتى كبيرة إذ قابلت بدلا من هذه الرأس الأثرية وهذا الأنف المعقوف وهذا الوجه الأمثل الذى أظهره مديرنا الرومانطيقى ، رجلا قصير القامة ذا أنف مستدير وعينين جميلتين ولحية عجوز وقور وحركات سريعة متلوية مثل حركات ماركيز من نابولى . كل ذلك كان مختلطا بحركات أخرى مفاجئة وأوضاع متقطرسة لم تسمح لنا بنسيان أنه زميل « جزار » ** .

نعيد الكلمة من جديد إلى شامبوليون . بعد أن أعلم سيد مصر بأنه عازم على أن يندفع جنوبا حتى الشلال الثانى أى النوبة ، التمس منه الحصول على فرمانات الاعتماد التى يستحيل القيام بالرحلة بدونها : « حصلت عليها فوراً وكذلك على شويشين من شواشية الباشا ليظلا فى صحبتنا حتى نحترم من الجميع وفى كل شيء » وهو بذلك يبدو سانحاً بعض الشيء إذ يخلط بين حسن إستقبال المضيف وقرار المتسلط ... مهما كانت نياته حسنة - إذ إستقبل فى اليوم التالى روسيليني وبقية الوفد التوسكانى وطلب منهم إعتبار « مصر كما لو كانت بلدهم » ... فإن محمد على رجل سياسة قبل كل شيء : وهو لذلك لم يرحب بالأنباء التى أفادت بقرب إنزال قوات فرنسية فى المورة التى جلا عنها مؤخراً بضمان من القوى الأوربية . وبدا ذلك كما لو أنه أخلى الساحة من أجل تسهيل إحتلال فرنسا لهذه الجزيرة وبذلك يكون قد خان مليكه وحليفه سلطان القسطنطينية ... وهو ما يسمى « عملية إخراج »

وسبق أن رأينا بعض الروم *** يفقدون رؤسهم لأسباب أقل خطورة من ذلك يقول شامبوليون أنه لاحظ أن الشعب « عبر عن تأييده التام وأكثر من أى وقت مضى للفرنجة وخاصة الفرنساويين **** » الذين يحظون بحب خاص فى القلوب (..) وذلك لأن الضباط العثمانيين المحيطين بمحمد على يسيئون مغاملة الشعب ويستبدون به ... « إجم !! نجد هنا نفس النظريات التى نجمت عنها الحملة على مصر فى ١٧٩٨ وكان ثمن ذلك أن القاهرة ثارت مرتين ضد بونابارت وأغتيل كبير ... ولذلك فإن جان

* لغارنيه VERNET

** جزار باشا « الجزارة الذى نكل بالسوريين .

*** كانت هذه التسمية تطلق فى الماضى على الاتراك .

****الفرنجة FRANCIS تطلق على الأوربيين عموما أما الفرنسيون FRANÇAIS فهم الفرنسيون

فرانسوا يقول نادماً « إن عصر الأبطال قد ولى . »

سواء كان الشعور العام هو حب الفرنسيين أم لا فإن دروفيتي الذى أحس بخطورة الرحالة الجمة على مصالحه الخاصة إستغل مضايقات الباشا وحولها ضد الزوار الجدد .. وسرعان ما أدرك شامبوليون الهدف من وراء تلك المناورات وكتب فى العاشر من سبتمبر إلى أخيه يوضح أن تحذيرات القنصل مثل تلك إلى أرسلها فى ٣ مايو لا تقوم سوى على « حسابات مصالحه الخاص » لأن التجار جميعاً « إهتزوا » عندما علموا أن الزوار الجدد لم يحضروا للزيارة فقط وإنما للتنقيب عن الآثار وكان ذلك وراء « التجمع المناهض الذى تشكل ضد تسليمى فرماناتى الخاصة بالتنقيب » .

فجأة كل ما كان يبدو سهلاً للغاية فى ٢٢ أغسطس أصبح معقداً فى سبتمبر . أفادهم الباشا بأن التصريح بالتنقيب يظل حكراً على أصدقائه دروفيتي وآناستازى النشط جداً والشهرة جداً وهو قنصل السويد : ووجد شامبوليون من ينصحه بعدم التفكير نهائياً فى التنقيب ... كان رد فعله فى منتهى العنف . وكانت هذه المذكرة التى سلمها لقتضوية فرنسا العامة موجهة لـ محمد على :

« لما كنت قد حضرت إلى مصر فى مهمة للتنقيب لصالح متاحف الملك أرى لزاماً على أن أعلم وزراء الملك بالأسباب التى تمنعنى من تنفيذ هذا الجزء من التعليمات التى أنيطت . أن منع حصولى على هذه فرمانات ينبع من مؤامرة هدفها تجارى .. ولما كان حضورى إلى هنا قدتم بإسم الملك مبعوثاً منه ومن حكومته بأن يحجب عنى رخصة منحت لأشخاص مثل بيلزوني ، باسالوكوا ، لايبورد ، ريفو الخ .. تعتبر إهانة للصفة المخالفة على ، وإذا كان الباشا ووزيره حريصين على السمعة التى يتمتعان بها فى أوروبا وهى أنهما من حماة العلوم والفنون ، فإن إعطائى فرمان التنقيب يعتبر الفرصة الوحيدة لتشجيع وحماية العلوم لأن جميع فرمانات الماثلة لم تشجع ولم تساعد حتى الآن سوى مصالح شخصية وصفقات تجارية فى الوقت الذى لا تبتغى فيه عمليائى التنقيبيه سوى أهدافاً مختلفة تماماً ... »

ياااه!! فى مواجهة مستبد شرقى لايمكن اعتبار ذلك تقاعساً .. إذ جاء تصرفه سليماً تماماً ، كما أن - حسب قوله - « .الرأى العام السكندرى» (٩) أيدته لدرجة أنه حصل على فرمانات وهذه المهمة دون منازع . أما دروفيتي وآناستازى - هذا الأخير عن طيب خاطر أكثر من الأول - فقد تنازلا عن حقهم فى التنقيب « فى الأماكن المحمية » . نهاية الفصل الثانى .

سحر مدينة الإسكندرية - التي يراها « ليلية » أكثر مما ينبغي بالنسبة له - تبدد بسرعة ولم يعد عمود « پومباى » يشد أنتباهه - ومن زيارة « لإبر كليوباترا » مسلتين من الجرانيت الأحمر ترجعان فى الواقع إلى تحتمس الثالث أهديت إحداها إلى ملك فرنسا « الذى يجب أن يرسل من يأخذها » . من هذه الزيارة يذكر شامبوليون على وجه الخصوص ظهور أحد الشحاذين المكفوفين فجأة أمامه قائلاً له : بالفرنسية « صباح الخير يامواطن ، أعطنى شيئاً أنا لم أفطر بعد ... » أمام المفاجأة التى تسببت فيها هذه الكلمات الجمهورية أخذت من جيبي بعض النقود الفرنسية إلا أن الآخر صاح قائلاً إن هذه النقود لا تصرف هنا يا صديقى .. وعلى الفور طلبت قرشا تركيا وأعطيته للمواطن الأعمى .

فى ١٣ سبتمبر إستقبله الباشا الذى ضاعف من إهتمامه بحسن الأستقبال وأعلمه بأنه يمنحه « حماية مفتوحة » وأهتم بأن يشرح الأسباب وراء العناية به : بما أن الأمراء المسيحيين يعاملون رعاياه بكل عناية فإن من واجبه أن يفعل « حسب قوله » نفس الشئ . ثم وجه محمد على الحديث فى إتجاه قراءة الهيروغليفيات وطلب الحصول على ترجمة مسلات الاسكندرية ووعده الزائر بان يفعل ذلك على الفور . باختصار خرج چان فرانسوا من عند الباشا وقد حصل على هذا الوعد . حيثما ذهب وجد « التحية والترحيب » .

حان وقت الاتجاه جنوباً إلى القاهرة وصعيد مصر . چان فرانسوا « الجنرال » نظم الحملة ووزع المسئوليات والوظائف على الفرنسيين والتوسكانيين « كما لو كانت حكومة مصغرة تتحرك بجداول زمنية » . كلف الدكتور رتيشى بالصحة والتموين ، دوشان بالسلاح وبيبان بالتنقيب ولوت بالمالية وشيزويينى بالامتعة .. النظام كان دقيقاً ، نظام الأكل محدداً ومواعيد الاستيقاظ أيضاً لن تطلق نار واحدة دون إنذار مسبق ، ورديات الحراسة ستكون بالدور .. لم يبق الكثير حتى يعتقد « صغير » أنه أصبح بونابارت * .

(*) لعل من المناسب أن نذكر هنا أعمار أعضاء الحملة وهم كسابقهم عام ١٧٩٨ كانوا صغار السن جداً : شامبوليون ٢٧ عاماً ، لونورمان ٢٦ لوت ٢٤ ، لوهور برتان ٢٦ سالور شيزويينى ٢٢ ، الكسندر روشان ٢٤ - إبيواتوروسيلينى ٢٨ عاماً ، جايتاتور وسيلينى ٢٢ أجييد الليلى ٢٥ الساندروريتشى بين ٤٥ ، ٥٠ عاماً وجويسيبى راضى هو العميد ٥٧ عاماً

« سيحملنا على النيل مركبان شرعيين (خطاب لچاك - جوزيف) أولهما هو أكبر
« معاش » فى البلد وسبق أن ركبها صاحب السمو محمد على . أسميته إيزيس .
الأخر ذهبية * « أسمها أتير سنجر تحت رعاية ألهتين من أكثر الآلهة مرحا فى
عالم الآلهة المصرية »

ركب شامبوليون المعش بصحبة آل روسيليني الأثنين ومع لونورمان وشيروبينى
وبيانت ولوت انجيليلى ، فى حين سافر على متن الذهبية كل من دوشان وبيرتان ولوهو
(أما البروفيسور راضى ومساعدته جالاسترى فقد تركاهم لبضعة أسابيع « لصيد
الفراشات فى الصحراء الليبية ») تبعهم خمسة من الخدم منهم الطباخ وخادم
الجنرال . المدعو سليمان « عربى بهى الطلعة » سيؤدى له خدمات جليلة . الأشربة
فى ١٤ سبتمبر . للوصول الى النيل عبروا ترعة المحمودية التي حفرها محمد علي عبر
الصحراء . وصف مارأه على ضفتيها بأنه « البؤس بعينه » « ولكن لم يمض وقت طويل
حتى وصل الأسطول إلى الفرع الكانوى للنيل حيث إنتشرت أعواد البوص وشجر
الجميز والتمر هندي وبدأ المكان يعمل سحره عليهم .

مرت « إيزيس » أمام بلدة دسوق حيث توفى قبل شهور قليلة القنصل هنرى سولت
صاحب المجموعة الأثرية التي غيرت حياة صاحب الكشف . فى الصباح الباكر من يوم
١٦ وجد المعاش راسيا علي ضفاف بلدة صا الحجر إلى جوار آثار سايس المدينة
الأفريقية التي يقال أن أفلطون درس بها فى شبابه ولاحظ شامبوليون أن جبانيتها
كانت ذات أبعاد « عملاقة » . جمع من أرضها « قطعة جميلة من الفخار المغطى بالمينا
تمثل إلهة نيت كبيرة الهه سايس » .

« عند استيقاننا صباح ١٩ رأينا أخيرا الأهرامات وكان فى إمكاننا تقدير كتلتها من
حيث كنا علماء بانها كانت تبعد عنا بثمانى فراسخ . عند قمة الدلتا [بطن البقرة]
عند النقطة التي ينقسم فيها النهر فى نراعين - رشيد ودمياط - المنظر فيها بديع
والنهر متسع بشكل يثير الدهشة . عند الغرب تقف الأهرامات وسط شجر النخيل ..
يتقابل العديد من السفن والمراكب فى جميع الاتجاهات خلفية اللوحة يحتلها
جبل المقطم الذى تتوجه قلعة القاهرة »

« هذا الاسم يطلق الآن على نوع من المنازل العائمة فى النيل - وكان فى ذلك الوقت يطلق على المركب ذات الصاريين

هاهى إمبابة ساحة المعركة المسماة « معركة الأهرام » . وميناء بولاق حيث لاحظ « الجنرال » وهو يرسو أن نزعته الوطنية قد ارتفعت حدتها لدى سماعه كلمة « فرنساوى » وهي تقال بنوع من السرور ... دخلوا القاهرة في اليوم العشرين من الشهر وفي توقيت جيد إذ كان يوم المولد النبوى .. ووجد سائحا فى هذه المناسبة مايرضيه ، مندهشا ومبهورا « بمظاهر الجنون الدينى » حيث يختلط «الموسيقيون وبنات الهوى » وبهذا الخليط من الألعاب الدنيوية والطقوس الدينية والتي حولت ساحة الأزبكية المغمور نصفها بالمياه والتي أختار بونا بارت أن يسكن فيها ، إلى مسرح ضخم للغاية « كان مشهداً غريبا للغاية لن أنساه أبدا » هكذا ختم ابن مدينة فيچاك رسالته .

بهرته المدينة الكبيرة ووصفه لها فى خطاب لأخيه مؤرخ ٢٧ سبتمبر يكشف عن عظمة الإحساس الجمالى عند هذه العقلية الفذة التي لم تقبع سجينه داخل عالم الآلهة والمقابر المشهورة :

« قيل عن القاهرة كلام سئ كثير : أما أنا فأجد نفسى سعيداً فيها بشوارعها ذات العرض الذى يتراوح بين ثمان وعشرة أقدام والتي ظلت محل نقد كثير لأنها تبدولى محسوبة بدقة تامة لكى تتفادى الحرارة الشديدة للغاية . ولو انها غير مرصوفة بالأحجار إلا أنها نظيفة لدرجة تثير الإعجاب وودت لو أن باريس لا تكون أكثر قذارة حتى فى الأيام التي تنظف فيها التنظيف الكبير (...) القاهرة مدينة ضخمة للغاية . معظم منازلها مبنية بالحجر أبوابها المشغولة بحفر على الخشب طبقا للمنظ العربى تسترعى انتباهك فى كل خطوة .

(بها) عدد كبير من الجوامع جميعها أكثر جمالاً من بعضها البعض مغطاة بخطوط أرابيسك رفيعة النوق ومزينة بمآذن بديعة لثرائها وجمالها [..] القاهرة من مدن ألف ليلة وأيلة لولا أن البربرية التركية قد دمرت أو تركت جزءا كبيرا من المنتجات البديعة الفنون والثقافة العربية يدمر . أدبت أولى صلواتى في مسجد ابن طولون وهو من مبانى القرن التاسع وهو نموذج للرشاقة والعظمة ولا أقدر على وضع حد لإعجابى به وعلى الرغم من أنه نصف متهدم إلا أنه لايزال أجمل الآثار العربية الموجودة في مصر .

العلاقات التي أقامها هو ورفاقه مع أهل البلد كانت ممتازة منذ البداية وفيما عدا كلمة « رعاع » فإنه يمكن أن يكون هو صاحب هذه السطور التي خطها شارل لونورمان :

« إننا بشكل عام كنا نتصور أهل هذا البلد من بعيد على أنهم من الوحوش ، علماً بأننا إذا قارننا بين المتشردين في الجانبين فإن الشحاذين هنا أفضل من سكان مدننا الكبيرة . الشيء المؤكد هو أن الفرنجة الذين يقطنون هذا البلد منذ فترات طويلة يشيرون إلى الرقة المتناهية التي تميز سلوك السكان العرب على طول أرض مصر »

قام شامپوليون بألف اكتشاف منها حديقة ملاهى الباشا حيث فاتته مشاهدة فرس النهر حيا « إذا أن الحيوان المسكين كان قد مات لتوه بضربة شمس بعد أن نام الأيلولة دون أن يأخذ الاحتياطات اللازمة » . كما أكتشف مجموعة من الانجليز لورد بروديه وهورتون والميجور فليكس ، هم جميعا من دراسى الهيروغليفيات فى إصرار وتصميم . كانوا يعاملونه بعناية كما لو أن شيخ طريقة « . كما تعرف على لينان دو بالفون وهو مهندس متزوج من حبشية والذي منحه الباشا لخدماته الجليلة لقب بك . كما تعرف أيضا على سيدات مصريات .

« نظمت حفلة لشباب (البعثة) بعد وصولنا بيومين إلى القاهرة وأحضرت لهم ستة عوالم (أو بنات عاملات وهن عاملات جدا) ظللن يرقصن ويغنين من الساعة السادسة مساءً حتى الثانية صباحا فى جو يسوده الخير والشرف » .

دعونا نمر على الخير والشرف من الكرام وعلي العموم فلو أنه ظل عفيفا فإن ذلك لم يرجع لأسباب صحية . فلنستمع اليه :

« صحتى ما زالت ممتازة وأفضل مما كانت عليه فى أوروبا مادمت كتبت لك هذه الصفحات السبعة مرة واحدة دون توقف وهو وما لم يكن من الممكن أن أفعله فى باريس دون أن أصاب بتقلصات فى المخيخ . الحقيقة أنى رجل جديد تماما . حلقت رأسى وأغطيها بعمة ضخمة . أرتدى لباسا تركيا كاملا . ويزين وجهى * شارب جميل كما يوجد خنجر كبير معلق على جانبي . هذا الزى دافئ للغاية وهو ما

* اللحية ستأتى فيما بعد وهى التى تعجب لها فى لوحة انجيللى والصور التى رسمت فى المرحلة الثانية من الحملة.

يناسب تماما الحياة فى مصر إذ أن العرق يتصبب منك داخله بغزارة تسعدك . هو شعور يزيدك سعادة بنفس غزارة العرق المتصبب منك . غير أن العرب يقسمون على أن الجميع هنا يظن أنى من المواطنين ، وبعد شهر من الآن سأضيف الكلام بلغة أهل البلد على خداع المظهر إذ أنى أقوم بتتقيح لغتى العربية ولكثرة استخدامى لها فلن يعتبرنى أحد بعد قليل من المبتدئين .. » .

إنه رجل سعيد هذا الذى بدأ يتعامل مع « مصره هو » ، بعد أن استحسن جداً تلك التى صاغها وأعاد صياغتها العرب والماليك وبونابارت ومحمد على . بعد أسبوعين من الإقامة فى عاصمة الطولونيين أبحرت البعثة الفرنسية التوسكانية فى الأول من أكتوبر؛ هذه المرة فى اتجاه ممفيس الرائعة وفى المخطط زيارة سقارة والجيزة . هل يجب أن نتحدث هنا عن خيبه أمل ؟ إذا كانت محاجر طرة المنحوتة فى سلسلة الجبال العربية قد أظهرت للرحالة نصوصاً ديموطيقية مهمة جداً فإن الحال التى وجدوا عليها سقارة (قبل أن يزيج عنها مارييت الرمال وينقب فيها عن الآثار) ملأت قلوبهم بالأسى : فيما عدا الهرم المدرج وبعض المقابر التى كانت فى حالة جيدة مثل مقبرة مينوفرى فقد بدت لهم هضبة الموميאות «تافهة جداً بالنسبة للدراسات» .

« ... عندما وصلنا إلى قمة الهضبة تمكنا من تكوين فكرة عن التدمير الذى ألحق عبر القرون بمقابر الممفيسيين . تخيل هضبة هائلة تتخللها الأهرامات وتنهض فى كل مكان منها تلال صغيرة جداً من الرمال المغطاة ببقايا أوانى مخازن قديمة وقمطات من القماش الخاص بالموميאות وعظام مكسورة وجماجم مصرية أبيضت من تأثير ظل الصحراء وغير ذلك من الأشياء المكسورة كالفتات » .

إلا أنهم تمكنوا - فيما بين البدرشين وميت رهينة - من الإعراب عن الإعجاب بتمثال رمسيس الثانى * الضخم الممدد « داخل » الرمال والذي إكتشفه كافيلىا (من مدينة جنوا الإيطالية) وهو من رواد علم المصريات وكان منقباً جسوراً وحثقاً . وعبر صاحب الكشف عن تأثره العميق ...

« ... بأول أضخم تمثال من النحت المصرى وضعته صدف الرحلة أمام عيني . تمددت أمام هذا الوجه الضخم ولكنه فى نفس الوقت متناسق تناسقاً سعيداً لدرجة أن تعبيراته لا توجد بها سوى الطيبة والدمائه وتسلت إلى نفسى كل عظمة هذا التمثال البطولى .. وايتسمت مشفقاً على ذكرى وجهات النظر التافهة والمسطحة التى كونتها العقول الجبارة عندنا عن الفن ولا تزال تنادى بها عن المصريين عن هذا النحت الضخم وهو يشكل الجانب المحورى من معمارهم » .

" يرى شامبوليون إن هذا التمثال الضخم هو توأم « سينوستريس تورينو » والذي قال عنه قبل ثلاث سنوات أنه « وقع فى غرامه » : ولا يوجد أى شك فى أنه يوجد فى تورينو ومفيس : بورتريهان لأعظم الفراعنه ** « ويضيف متحدثاً لفيجاك أنه لو حصل على الأموال التى تسمح بالتنقيب « على الواسع فى ممفيس فسيتمكن فى أقل من ثلاثة شهور من « تعمير » اللوفر بتمائيل مدهشة « حرك هذا الطلب - يقول « صغير » فى ختام خطابه - وأجعل الجميع يصرخون بأعلى صوتهم لكى يحزم المتكاسلون أمرهم « هذه الكلمة بلاغية أكثر مما ينبغى وكان الأصدق أن يقول المخربون .

ها هو الآن فى طريقه إلى الجيزه - وكان الفيضان قد حول الصحراء إلى أرخبيل مما عقد مسار الرحلة واستوجب ذلك عدة ساعات قضوها على ظهر الحمير للوصول إلى مجموعة الآثار الأكثر شهرة على مستوى العالم :

« وصلنا منهكين نحن والحمير حيث تظللنا بعدة أشجار من الجميز على بعد مسافة صغيرة من تمثال أبى الهول الضخم . وبعد إستراحة قصيرة أنعشنا ، أسرعت نحو الأثر الضخم الذى لا يزال يعطى فكرة واضحة عن النمط النحتى الجميل الذى

* وهو يقوم الآن وسط الميدان التى تطل عليه محطة القاهرة للقطارات .

** رأينا أن جاك فاندنييه وجان كابار شككا فى أن يكون تمثال تورينو يمثل رمسيس الثانى وهما يميلان إلى الاعتقاد بأنه لستى الأول.

شُيد به وذلك على الرغم من كل التشوهات التي وقعت له . غير أن ملحوظة دينون * عن التراخي أو بالاحرى الـ Morbidezza الكابتة التي تتم عنها الشفة السفلى هي ملحوظة دقيقة جداً وددت لو تمكنت من إزاحة الرمال التي تغطي مخطوط تحتتمس الرابع المنصوت على الصدر إلا أن العرب الذين أقبلوا علينا مسرعين حولنا من المرتفعات المحيطة بالأهرامات قالوا أن تنفيذ هذا المشروع يحتاج لأربعين فرداً لمدة ثمانية أيام » .

لماذا إكتفى صاحب الكشف بهذا التعليق المختصر على أكثر آثار مصر غموضاً ؟ لذا يتعين الرجوع إلى لوت لننقل عنه تعليقاته لزملائه الشبان في ظل أبى الهول : « كان أبو الهول رمزاً للحكمة والقوة متحدتين وهي من الصفات الخاصة بالاله الذى يمنحها للفرعنة بدوره . رأس الحيوان ذو الوجه البشرى تصور الإله أى الملك المقلد هنا وهو أحد ملوك ممفيس ... » .

جان - فرانسوا شامبليون أمام الأهرام .. كما لو أراد أن يوفر علينا أى خطب أدبية طنانة اعترف ببساطة شديدة أن أمله خاب أو بالاحرى أنه شعر « بالإهانة » لأن « تأثير هذا الاثر الهائل فى الضخامة يقل كلما إقتربت منه » ، وأنه يجب « أن تلمسه بيدك لكى تترك فى النهاية ضخامة الكتلة » .

ببساطة تليق بالشخصية - سيجى يوم يؤكد فيه أن « أيام ممفيس » كانت من أكثر أيام الرحلة تثقيفاً بالنسبة له (1) إلا أن لايومياته ولارسانله عكست هذا التعليق . فهذه الزيارة إذا رجعنا إلى هذين المرجعين ** كانت المرحلة الضعيفة فى الحوار الاسطورى بين صاحب الرؤية و« مصره » . قراءة ما سيكتبه عن طيبة ستكون كافية للتأكد من ذلك .

لا نعرف لماذا توقف مخطوط يومياته عند هذا التاريخ : ١٠ اكتوبر ليعود متقطعاً بعد ثلاثة شهور . إلا أن مراسلاته التى ظل جاك - جوزيف يتلقاها بانتظام تعكس أحداث الحملة فى مراحلها المختلفة كما تعكس حالة النشوة المتسامية والمتعاطمة التى يعيشها صاحب الكشف منذ اللحظة - ١٨ اكتوبر - التى رفع فيها هلب مراكبه مبحراً نحو مصر العليا وبعد أن فقد أحد أعضاء البعثة : فبعد راضى « صائد الفراشات » (الذى سيلحق بهم فى مصر العليا) ومساعدته جلاسترى - جاء دور أنطوان بيبان الذى راح يفقد إتزانه مع مرور الوقت .

* راجع المقدمة ص ٢٢ .

** نقرأ فى رسالة لفيجاك مؤرخة من الأهرام فى ٨ اكتوبر « لا يوجد سوى القليل نؤدية هنا »

و- كما قال « الجنرال » « لم يكن مفيداً فى أى شئ غير أنه نشر الفوضى بيننا [.....] وهرب من الحملة » .

إلى الجنوب .. إلى طيبة المجيدة إلى السعادة . الساعات الأولى لرحلة البحارة النهرية لم تسمو لمستوى آمالهم . المنيا ، سوعاده ، زوية الميتين . للوصول إلى الجنة كان يجب إنتظار الوصول إلى بنى حسن ، وتوقع جان - فرانسوا ألا يمكث فيها سوى بضعة ساعات : وإذ به يبقى فى هذا الموقع الذى أهمله « وصف مصر » ما يقرب من أسبوعين . وبالفعل أكتشف فيه الرحالة اكتشافين جوهريين : أولهما الرسم التصويرى الشعبى وثانيهما المعمار الضورى (الأغريقى) الأول .

كانت الرسوم الحائطية (فريسك) التى تزين كهوف بنى حسن تعتبر مطموسة إلا أن جان - فرانسوا لاحظ أنه « إذا مررنا عليها بسفنجة مرطبة لإزالة طبقة التراب » التى تغطيها ظهرت على الفور « أغرب مجموعة من الرسومات التصويرية التى يمكن أن يتخيلها بشر ، جميعها متعلقة بالحياة المدنية والحرف وهو - هذا هو الجديد فى الأمر - بالحياة العسكرية ... أنه حصاد ضخم ! ولكنه أقل ضخامة فى رأيه من رسومات مقبرة أحد النبلاء إسمة نيوتيب التى على درجة من « الرقة والجمال تجعلها أجمل ما رأيت إلى الآن فى مصر » .

فى نفس الكهف حقق جان - فرانسوا كشفاً أنهله ! هو عبارة عن لوحة أمر بنسخها بدقة متناهية تصور أسرى طوال القامة « بيض البشرة وأنفهم معقوف . إنهم بلاشك من الإغريق وفى الغالب من الأيونيين ويعتبر ذلك الدليل القاطع الذى لا يقبل الشك » فى رؤية على العلاقات المتقدمة للفن فى مصر واليونان على التوالى . إنها بالفعل قضية قديمة لم تحسم !!

إلا أن أكثر ما سيعلق بذاكرته من هذا البحث المطول فى بنى حسن لعله إكتشافه ممر ضخم منحوت فى الصخر ويتكون من « أعمدة تشبه لدرجة كبيرة جدا للوهلة الأولى الأعمدة الدورية الاغريقية فى صقلية وإيطاليا [.....] وهى مزينة بخطوط طولية وقواعدها مستديرة ... » قفز من مكانه وهو يؤكد : أين يمكن إيجاد دليل أفضل من ذلك على أسبقية وأبوية المعمار المصرى « على الفن الإغريقى » ؟

« رأينا فيها جميعا النمط الحقيقى للنمط النورى الإغريقى القديم وإنى أؤكد دون أخشى أن أؤكد رأى كما فعل جومار بالنسبة للنمط الكورينثى والأيونى على أثار من زمن الرومان . لأن هذين الكهفين وهى أجملها جميعاً يحملان تاريخهما وهما من

عصر أوزورتاش الملك الثانى من الأسرة الثالثة والعشرين (تانيت) وبالتالي فهى
ترجع للقرن التاسع قبل الميلاد » .

إنه يتهلل - « الجنرال » - عندما يراجع ملفات الرسومات التى يقدمها له كل ليلة
لوت ودوشان وأنجيليلى وشيروبينى : ليس فقط لأنها جميلة بل هى أجمل مما كان
يحلّم بها ولأنها أيضا دفاع مستفيض عن نظرياته ونحن نعرف كم هو يحب أن يكون
على حق وأن يجد الفرصة لكى يهزأ من چومار وراؤول روشات أكثر وأكثر !

خلاصة مؤقتة مرسلّة إلى فيجاك : « أتجرأ فأقول أن بهذه الثروات وحدها تكون
رحلتى إلى مصر قد أصبحت أكثر ثراءً وأكثر إنتاجاً من جميع أوراق اللجنة * فيما
عدا المعمار - والذى أعتنى بدراسته فى الأماكن التى لم يزرها أو يعرفها أحد . . » .

فى ٢٨ نوفمبر بعد ثلاثة أسابيع من الإبحار جنوباً قام جان - فرانسوا بمراجعة
ماتم . حتى قبل أن يشاهد أياً من روائع العمارة المصرية - التى لن يجدها سوى
إبتداءً من أبيدوس فإن ماغنه عن نواحى الحياة المصرية الخاصة والعامة والدينية
والعسكرية تخطى كل ما كان يتمناه .

وفيمّا يتعلق بعلم الحيوان فقد جنى بالفعل ما يسعد صديقيه كوفيه وسانت
هيلار ؛ إنه يدين لولانها له بذلك على الأقل !!

إلا أنه مر أمام أنتيفرية وأشمونيين وفى حلقه غصّة وقلبه مغموم لأنه لم يبق فيها
أى من الآثار التى وصفها فوربيه وجماعته قبل ذلك بثلاثين عاماً : لم يقلت شئ من
ضراوة « ويزيجوت » مصر الذين دمروا كل شئ بتصرّيح من حكومتهم من أجل إنتاج
شئ من الجير ... ومع ذلك فهل كان يشعر هو ذاته بالبرائه التامة بعدما أترف بأنه
إشترى رأساً لتمثال من تماثيل رمسيس الثانى بقرش صاغ واحد (ويحدد أن ذلك
يساوى ٧ سو بالعملة الفرنسية) ؟ ومهما حاول أن يتبرأ من ذلك مدعياً أن ترجمانه
وليس هو الذى قام بالصفقة التى اعتبر القيام بها شيئاً « مخلاً » فهو على الرغم من
ذلك قد إحتفظ برمسيسه الذى دفع فيه سبع « سوهات » فقط .

وعندئذ تظهر داخل القصة شخصية لا بد وأنها كانت ستسعد فلويار لوقابلها وهو
الذى سيبحر على النيل بعد ذلك بعشرين عاماً وسيجرى حينذاك بعض اللقاءات
المثيرة، كان أسمه محمد بك وكان مأمور طهطا ، أحد مراكز مصر الوسطى ..
الخطاب الذى أرسلته هذه الشخصية الهامة يدعو فيها جان - فرانسوا للترفيه عن
نفسه فى منزله جديرة أن ننقلها هنا ولو جزئياً :

* لجنة مصر التى يرأسها چومار .

« هو الله »

« يا أعز الأصدقاء ، يا أعز الخلان صديقنا العزيز . المبجل الجنرال النبيل المحترم حفظه الله .. بعد تقديم وافر التحية المصحوبة بتشوقنا الشديد [لرؤياكم] فإن المراد بهذا المكتوب هو ما يلي :

١ - أن اتعرف على شخصكم المجيد .

٢ - أن أفيد سعادتك إنه فى تاريخه [تاريخ الخطاب] سنجلس سويا نلتقى ونزيد من تعارفنا ... » (2)

وكان الحفل على مستوى هذه المقدمة . ولما كان الرجل فيلسوفاً - حسبما قال « صغير » فإن هذا البك لم يرفض طوال السهرة شرب كأس من النبيذ أو النهل من البراندى . استمر الغناء والرقص حتى الصباح . رفع الجميع كؤوسهم تحية لملك فرنسا ولباشا مصر ثم غنى رفاق « الجنرال » الأغنية الشعبية « ملبروغ ذهب للحرب » Malbrough s' en va-t-en guerre ونشيد المارسييليز وقد طرب المأمور كثيراً لهاتين الأغنيتين لدرجة أنه أمر الموسيقيين بحفظ اللحنين . وتمتع الجميع بالتهام « أوزى صغير محشى » .. يامصر ياعزيزة !!

ومع ذلك فهو وإن كان يشعر أنه فى أتم صحة بدنية فإن « صغير » لم يستطع أن يخفى شيئاً من الحزن : فى ٢٤ نوفمبر أى بعد أربعة شهور من مغادرته طولون يقول لجاك - جوزيف أنه لم يستلم بعد خطاباً واحداً من زويه أو من أى أحد آخر . وهو لذلك يسجل أنه « لمصر بالكامل - وهى كل شئ بالنسبة لى وأطلب منها أن تواسينى مادمت لا استلم شيئاً من أوروبا » . أى لا من باريس ولا من ليفورن . إنه لا يتهم أحداً ويقول لنفسه أنه متأكد من أن الجميع يفكر فيه ويكتب له كثيراً .

ولكن الواقع هو أن لاشئ يصل إليه * . ولو أنه إطمأن على صحة نويه ، لأصبح أسعد الرجال . لأنه « فى نهاية الأمر موجود وسط مصر العتيقة وأن أسمى روائعها على بعد خطوات من مركبى .. »

أسمى ١٩ هى روائعها على كل حال . فقبل ذلك ببضعة أيام أى فى ١٦ نوفمبر توقفوا عند معبد دندرته الذى أثارت أسطورته خياله لفترة طويلة . الوصف الجميل

* سيكتشف جان فرانسوا بعد ذلك ببضعة أيام أن دروفيتى إحتفظ برسائله . وكان يدخل فى إختصاصه بصفته ممثلاً لفرنسا أن يستلم ويراجع مراسلات مواطنيه . إلا أن الدبلوماسى جامع التحف تهادى فى التدقيق فى عمله : إذ على الجانب الأخر كان التوسكانيون يستلمون رسائلهم بانتظام .

الذى كتبه فيفان دونون فى كتابه « رحلة إلى مصر » عام ١٨٠٢ والتعليقات الشفهية التى سردها العديد من الرجال أمام أصغر الشقيقين شامبوليون بعد ذلك بعدة سنوات وكذلك الجدل الكثير الذى ثار حول موضوع الزودياك - خريطة الابراج السماوية - وسرقة من المعبد - وكان قد ندد به بشدة ، كل ذلك مجتمعاً جعل من هذا التوقف إحدى أكثر المراحل إثارة فى الرحلة ... خاصة وأن الرحالة وصلوها ليلاً ، ومهما كان القمر ساطعاً ومكتملاً فإن اكتشاف المعبد كان صعباً . ولكن فجأة :

« ظهرت لنا المعابد [.....] لن أحاول وصف الأثر الذى تركته فى نفوسنا واجهة المعبد الكبير . من الممكن قياس هذا الشعور ولكن إعطاء فكرة عنه هو المستحيل ذاته ... إنها الرقة والعظمة مجتمعين فى أعلى درجاتهما . يقينا داخل المعبد ساعتين فى حالة تجلى نرقص داخل قاعاته وفى يدنا سراجنا الضعيف محاولين قراءة المخطوطات الخارجيه على ضوء القمر . فى صباح اليوم التالى [...] اكتشفت أن ما أمام عيني هو قمة فى روعة العمارة مغطى بنحت تفصيلى من أردأ الأنماط .. أرجو ألا أغضب لجنة مصر فإن النحت البارز فى دندره كره لأنه من فترة الانحطاط .

كان النحت قد بدأ يتحلل [فى هذه الفترة] فى حين كانت العمارة أقل تائراً بالتغيرات لأنها مصرية فبقت جديرة بإله مصر وبإعجاب القرون جميعاً ... » .

شامبوليون الرحالة يتساوى فى القيمة مع شامبوليون الذى فى يده عدسة مكبرة بمعنى أنه مهما كانت عظمتة كعالم لغويات فإن المؤرخ وعالم الجمال فيه ليس بأقل عظمة . أن النظرة الواقعية والتمكن من المبادئ التى تقوم عليها مختلف فروع المعرفة والعلاقة التى يقيمها باستمرار بين التطورات التاريخية والإبداع الفنى وتجمع هذا الكم من المواهب يضمن لهذا المسافر المهم السيادة والسيطرة . بهذا التفكير عاشت مجموعة مغامرى عام ١٨٢٨ حوله . روايات روسيليني وأيضاً لونورمان وكذلك لون وشيرويني جميعها تؤكد ذلك .. ها هو مستعد للاقاة طيبة ...

كتب يقول إن « طيبة - وهذا الاسم كان أصلاً كبيراً جداً فى فكرى - أصبح هائلاً منذ أن درست أطلال العاصمة القديمة ، الأخت الكبرى لجميع مدن العالم .. » وكذلك سجل أيوبليتو روسيليني فى يوميات رحلته أن يوم وصوله إلى طيبة « كان الأكثر خلواً وتعلقاً بذاكرتنا طوال حياتنا كلها » . وكتب إلى زملائه فى جامعة بيزا أن هذه الأيام القليلة لا تكفى لاكتشاف « كل الروائع التى تشكلها بقايا العاصمة الخالدة

جداً لضفاف النيل . وفى طيبة سيحتفل شامبوليون بزواجه الأبدى مع محبوبته : مصر . دون أن يحيد للحظة واحدة عن وضوح الرؤية وصفاء ذهن الكاملين .

« ظلت أركض من رائعة إلى أخرى طوال أربعة أيام كاملة » .. إختار أن يبدأ زيارته بالضفة الشرقية للنيل . زار فى اليوم الأول تمثالى ممنون « ومقبرة أوزيماندياس المزعومة » ولم يصعب عليه أن يكتشف أنه الرامسيوم (وكان المصريون يسمونه حينذاك الرهامسيون) نسبة إلى التمثال العملاق الرائع الممدد على الأرض لرمسيس الثانى . وفى اليوم التالى كان فى مدينة حابو وفى اليوم الذى يليه - أى كان يسير على وتيرة السياح - فى وادى الملوك وحيث وقف مبهوراً أمام قصر « منحوت بازميل فى الجبل » . هنا أرتكب أحد أطرف أخطائه قاطبة . فبعد أن خرج من المعبد المشهور المسمى اليوم الدير البحرى ، كتب يقول :

« ... سجلت فى عجلة حقائق ذات أهمية قصوى بالنسبة للتاريخ ! إذ رأيت مقبرة أحد الملوك وقد طرقت نقوشها من أولها إلى آخرها ، فيما عدا الاجزاء التى نحتت فيها صور الملكة والدته وزوجته فقد حوفظ عليها بكل احترام وكذلك الاساطير الخاصة بهما . لا شك أنها مقبرة أحد الملوك الذى أدين بعد وفاته » .

« اليوم وبعد قرن ونصف فإن أى زائر من حاملى آلات التصوير يعرف أنه ليس « ملكاً مدانا » وإنما ملكة فرعون : الشهيرة حتشبسوت وأن المخرب الذى طرق وجه الملكة التى غزت بلاد بونت سلمياً هو تحتمس الثالث العظيم ... لا يكفى أن يكون المرء عبقرياً ليملك الحقيقة ولكن يجب أن يأتى فى موعده .

فلنتذكر هذا التاريخ ٢٣ نوفمبر ١٨٢٨ فقيه عبر جان - فرانسوا شامبوليون النيل إلى الضفة الشرقية ليزور الجزء الشرقى من طيبة . فى معبد الأقصر توقف طويلاً أمام المسلتين المنحوتتين فى قطعة واحدة من الجرانيت الوردى « باتقان رائع » . هل جالت ساعاتها بخاطره فكرة أن يرسل أحدهما إلى باريس ؟ لم يسجل ذلك على الفور فى مذكراته .. ولكن عندما وصل إلى الكرنك جائه الإلهام الحاسم أكثر حدة من الهام ١٤ سبتمبر ١٨٢٢ وايضاً من ذلك الذى تملكه قبل ذلك بثلاث سنوات لدى دخوله إلى متحف تورينو :

« ... ذهبت أخيراً إلى قصر ، بل قل ، إلى مدينة الآثار ، إلى الكرنك . وهناك ظهرت لى العظمة الفرعونية فى أتم صورها أى أعظم ماتصوره وتفذه البشر على الإطلاق . كل ما رأيته فى طيبة وكل ما أعجبت به بحماس على الضفة الشرقية بدا

لى باش وهزيل . أمام الأفكار العظيمة الأبعاد التي تصورت وأبدعت ما كان يحيط
بى هنا . سأمتنع تماماً عن وصف أى شئ وذلك لأحد السببين الأثنين : إما أن
تعبيراتي لن تعكس سوى جزء من الألف مما يجب أن يقال فى الحديث عن تلك
الأشياء وإما سيقال عنى - أنا حاولت أن أرسم ولو خطوطاً عامة لها - أنى
مهووس بل - فلنقلها بوضوح - إنى مجنون .

لسنا فى أوروبا سوى أقزام ولا يوجد شعب قديم أو حديث تخيل العمارة بالقياس
إلى هذه العظمة ولا هذا الاتساع ولا هذا التسامى مثلما فعل المصريون القدماء . لقد
تصوروا البشر فى أحجام تصل إلى مائة قدم فى الإرتفاع أما مالدينا نحن فلا
يتعدى خمس أقدام وثمان بوصات . أن الخيال فى أوروبا الذى ينطلق إلى أعلى
بكثير من بواباتنا يتوقف فجأة ليسقط عاجزاً عن المائة والأربعين عموداً داخل القاعة
الكبرى . فى الكرنك (الهيبوستيل) « .

لم يكن ليرضى مؤسس علم المصريات - مهما وصل به الإلهام ومهما أصبح هو
ملهماً - أن يكتفى بهذه الأشعار الغنائية إذ سرعان ما يتحكم العالم فى شاعر
التاريخ ، فيكمل بسرعة هذه المذكرات بملحوظات خاصة بالتسلسل التاريخى ،
فتأسيساً على « الوجوه » العديدة للفراعنة التى يراهم هنا أعلن أن تواريخ الأسر
الثامنة عشر والتاسعة عشر والعشرين وبما فى ذلك « لوحة أبيدوس » يجب أن تراجع
من جديد « وإذ به يصبح كالمجنون . فسحر الجمال امتزج بحماس الاكتشافات وكتب
يقول لجاك جوزيف بقلم يحركه الحماس « أرسل لك ما يكفى فقط لكى لا تموت
من الجوع . سأضطر إلى أن أمضى وقتى كله فى الكتابة لو اضطرت أن أنقل لك
بالتفصيل جميع إكتشافاتى ... » .

إنه يتهلل ويبحث ويجد ، إنه فى كامل السعادة . وتصيح لذلك رسالته كرسائل
العاشق السعيد . المناخ يناسبه . أهل النيل سحره - حتى لو كانوا أتراكا يعوقون
تحركاته . وأخذ يصفى أحواله داخل « قصره فى القرنه » (قصر الطيبة اليابس)
حيث يتردد عليه العديد من الأغاوات والمأمير والزوار وطالبي الخدمات ومقدمى الذبائح
متبادلاً معهم الهدايا والأحاديث باللغة العربية الدارجة التى زاد تمكناً من ناصيتها
بمرور الأيام ، كما كانت تزوه الخرفان والدجاج التى يحضرونها إلى « القيادة العامة
الفرنسية التوسكانية » . كان مثل روسيه قبل ذلك بثلاثين عاماً فى هذا
المكان « السلطان العادل » إلا أن عدله هو كان منزوع السلاح ووجد ليبقى .

كيف يمكن انتزاع نفسه من طيبة التي لم يتمكن سوى من أن « يلمسها » كما كان مقرراً في مخطط الرحلة ؟ يتحتم عليه ذلك ! ولكن بشئ من الصبر ! وبعد العودة إلى هذه الأرض الكلاسيكية ليدرسها « خطوه خطوة » سيتمكن من الكتابة بمعرفة وثيقة بالأشياء « ومن تقديم « نتائج كاملة النضج » أما الآن فهيا بنا إذن نتجه إلى الشلالات .

أثار معبد هيرمونتيش حيرته بسبب عدم التأكد من تاريخ بنائه : وصفه أنه شئ يشبه المهد الأسطوري أقامته كليوباترا الأخيرة والأكثر شهرة من أجل إنها قيصرين ابن يوليوس قيصر . لم يكن قد اخترع بعد كلمة ماميزي التي فرضها هو فيما بعد ليدل على المكان الذي تقيم فيه الملكات - الآلهات قبل وبعد فترة الولادة والتي يمكن التعرف بسهولة عنه داخل * المعبد ولكنه هو أمام عالم الرسوم المنحوتة البارزة من العصور المتأخرة ، فهي لم تبهره مثلما حدث في طيبة . وسيتكرر ذلك أيضا في مويس ** واسنا وادفو .. لا يوجد أحد طبع بفكرة « العصر المتدنى » مثل شامبوليون .

ولكن فيله ؟ ماذا عنه ؟ كان النقوس يعذبه لدى زيارته له . وحمله إلى المعبد أربعة رجال ولم يقل لنا عنه شيئا هذه المرة سوى أن « كل شئ فيه حديث » وأن النحت الذي فيه « بربرى » وذلك على الرغم من أن أول مراسلات وصلته من أوروبا إستلمها داخله: رسالتان من أخيه وواحدة من زوجته إلا أن الحدث لم يثر لديه سوى تعليق حزين : « وإن الآخرين موجودون حيث يريد الله . ولكنه شئ والسلام ! ... وسأكتفى به » كيف يمكنه أن يشير بأقل حذر من ذلك إلى جاك - جوزيف - ومن خلاله إلى روزين أن ما كان ينتظره أكثر كان ما يجب أن يصله من ليفورن *** ؟

رحلة الذهاب ، أى صعود النيل لم تنته دون أحداث . وهو حدث كثر التعليق عليه وقدمه البعض على أنه كان بمثابة طلاق بين التوسكانيين والفرنسيين - وهذا غير

* قدس الأقداس في المعابد الاغريقية الرومانية يوضع داخله تمثال صاحب المعبد (المترجم) .

** تسمى كوم أمبو الآن .

*** إننا نعرف (لأنه كتب لها ذلك بعد عودته) أنه أرسل عدة خطابات لا نجيبكا من مصر : إلا أننا لم نرها .

صحيح . بعد ذلك اليوم - ٣١ ديسمبر ١٨٢٨ كما كان الحال قبله أعطى روسيليني وشامبوليون مثلاً نادراً عن التضامن الحق وعن التعاون الصادق بين الاشقاء وتشهد على ذلك مراسلاتهما وكذلك كلمة المديح المؤثرة التي ألقاها (ابن بيزه بعد وفاة ملهمه ومعلمه) . ولكن هذا لا يمنع أن ما حدث عبر الساعات الأخيرة من عام ١٨٢٨ كاد يثير أزمة بين اللجنتين .

إذا كانت « لوحة أوزورتاسن * » قد سميت « لوحة النزاع » (3) والتي انتزعت من هيكل إيزيس في بوهين بالقرب من وادي حلفا فذلك لأنها أعطيت للفرنسيين في بادئ الأمر باتفاق الجانبين ولكنها استردت بعد ذلك لحساب التوسكانيين على يد الدكتور الساندرو ريتشى دون علم شامبوليون (ولا روسيليني ..) « هل كانت حركة خداع فلورانتيني » ؟ الطريقة الى تمت بها العملية في الخفاء وبدون علم الآخرين صدمت زملاء جان - فرانسوا الفرنسيين أما هو فلم يكثر لذلك كثيراً .

كان للدكتور ريتشى بعض الحق في تحديد من يأخذ اللوحة لأنه هو الذي كان قد اكتشفها خلال رحلة سابقة له في مصر . بل أنه قام بنسخها .

ومن جهة أخرى حدث أثناء تقسيم « الغنائم » ذاته بين توسكانيين وفرنسيين أن طلب شامبوليون وحصل على لوحة لرمسيس الأول إنتزعت من نفس الهيكل . وبالرجوع إلى القواعد الموضوعية والتي احترمت حتى ذلك الوقت من المجموعتين فإن إعطاء إحدى القطعتين الهامتين للإيطاليين لم يكن فيه ما يصدم أحداً .

وانتهى الحدث بسرعة . ولم يأخذ الأمر حجم « النزاع » سوى بعد وفاة جان - فرانسوا عندما بدا كما لو أن أخاه الأكبر يتفنتن في تسميم العلاقات الفرنسية التوكسانية سواء فيما يتعلق بما نشر أو بتحديد ملكية الثروات التي جمعت من مصر .

للإبحار بين الشلالين بين سيان ** ووادي حلفا كان عليهم تغيير المراكب لأن الأولى كانت أكثر اتساعاً مما لايسمح به ضيق مسار المركب في النهر وتعرجه . الاسطول الجديد تكون من ذهبية أصغر حجماً ولكنها مسلحة بمدفع (١) حقيقي وبين ست مراكب صغيرة أخرة تحمل الحراس الذين عينهم الباشا لحماية الرحالة : لأن سلامتهم في النوبة لم تكن مضمونه تماماً ...

* تم التعرف بعد ذلك على أنها لسيزوستريس .

** أسوان .

ديبود ، كلايشة ، دكه ، السبوع ، عمارة * قدموا تحياتهم لهذه الاطلال الدالة على الاستعمار الفرعوني لبلد وصل حد الفقر فيه إلى أن كاشف الدر - عاصمة النوبة - أخبر جان - فرانسوا أنه لا يجد شيئاً يقدمه له على العشاء وهو لذلك يدعو نفسه عنده ! لما كنا على علم بمقدار الكرم والأبهة التي يتسم بها حسن الضيافة في هذه البلاد يمكننا قياس « فخامة وإمكانات » هذه المنطقة كما فعل الرحالة في تعليق اتسم بالمراره أرسله لأخيه .

تأثره للفقر المدقع الذى يعانىه هذا الشعب جعله يحتفل بعيد ميلاده الثامن والثلاثين فى شئ من الحزن لولا أنه « عوض ذلك » بأن زار فى ٢٣ ديسمبر ١٨٢٨ معبد در المنحوت فى الصخر حيث تمكن من التعرف على أسماء وألقاب سبع أبناء وثمانى بنات لرمسيس الثانى الذى أنشأ هذا المعبد .

فى صباح ٢٦ ديسمبر ظهر لهم فجأة على سطح الماء المعبد - الجبل - المزوج فى أبو سمبل ** : معبد نفرتارى *** المخصص لحاتور ومعبد زوجها رمسيس العظيم الذى لم يجد من يكرسه له أفضل منه ذاته هو ! مثلما حدث لأسلافه بوركاردت وديروفيتى وبلزونى وكيو وجو وكذلك للعديدين الذين جاؤا بعده ، أخذ جان - فرانسوا شامبوليون العجب بل ذهل وتأثر بشدة أمام هذه الروائع بالغة الفخامة التى « تساوى وحدها الرحلة إلى النوبة » ولو كانت « فى طيبة ذاتها » لأثارت الإعجاب أيضاً وهى ناتج مجهود « يربح الخيال » . إنه إفتتان أوصلته إلى ذروته التماثل الأربعة العملاقة التى يبلغ ارتفاعها ستون قدماً والتي حققت للمعبد مجداً عالمياً وهى « صورة » حية لرمسيس . « إنه عمل يستحق كل الإعجاب » .

اتضح أن زيارة المعبد العظيم المنحوت فى الجبل عملية وعرة ، لأن « الرمال والنوبيين الذين كانوا يدفعونها (نحو) « سدت المدخل لكى يأخذوا أجراً مقابل نزحها . كان عليه أن يدلف للداخل وهو ممدد على بطنه من الفتحة الصغيرة التى حفرت فى الرمال مقابل فدية .. ثم بدأت التجربة القاسية التى وصفها لأخيه بهذه الكلمات :

« .. ظننت أنى تقدمت نحو فوهة أحد الأفران [...] فى جو بلغت درجة حرارته ٥٢ مئوية : زرنا هذه الحفرة الأثرية المدهشة روسيلينى وريتشى وأنا وواحد من أعرابينا وكل منا يحمل شمعة فى يده .. » .

* أسماء تكاد تكون عادية الآن بعد حملة اليونسكو لإنقاذ آثار النوبة تحت إدارة كرسييتيان ديروش - فولوكون .
** كان يسمى إيسامبول فى ذلك الوقت .
*** كان شامبوليون يسميها نفرى - أرى .

وبعد أن وصف التماثيل الرمسية الضخمة الثمانية والرسومات المحفورة الرائعة التي تصف المعارك ، والقاعات الستة عشرة والتماثيل الأربعة فى قدس الأقداس خرجوا من الأتون بعد ساعتين ونصف ولكن فى أى حالة ؟

« ... أرتديت صديريين من القطن وبرنس من الصوف ومعطفى الضخم الذى وضعوه على كتفى لحظة عودتى إلى الضوء : وهناك جلست إلى جوار أحد التماثيل العملاقة الخارجة .. والذى حجبت عنى بطن ساقه الهائلة الضخامة ربح الشمال ، استرحت لمدة نصف ساعة حتى تمضى مرحلة العرق الشديد ، عدت بعد ذلك إلى مركبى حيث ظلت أمرق لساعة أو ساعتين . أثبتت هذه الزيارة التجريبية أنه بالإمكان البقاء لساعتين ونصف أو ثلاث ساعات داخل المعبد دون أى ضيق فى التنفس ولكن مع وهن بسيطة فى السيقان والمفاصل ، واستخلصت من ذلك أن لى عودتنا ستمكن من نسخ الرسومات التاريخية المحفورة على أن يقوم بالعمل فريق من أربع أفراد (حتى لا نستهلك الهواء) لمدة ساعتين صباحاً ومثلها مساءً . أنها ستكون حملة مرهقة » .

فى نفس هذا المكان بعد عشرين عاماً كتب جوستاف فلوبار فى مذكراته :

« منظر الشمس إذا نظرت إليها من باب مدخل المعبد الكبير يعطيك إحساساً بأنك تنتظر إليها من خلال شبك صيفى فى بدروم .. تطلق الخفافيش صرخة قصيرة حادة ، تذكرت المزارع النورمانديه فى الصيف عندما يكون الجميع فى الحقول عندما تقترب الساعة من الثالثة بعد الظهر .. » .

ثم بعد بضعة أيام بالقرب من وادى - حلفا سمعه مكسيم بوكشان يصرخ قائلاً « وجدتها !! سأسميها إما بوفارى ! » ..

فى الأول من يناير ١٨٢٩ وبعد أن ودع « الجنرال » شارل لونورمان الذى كان قد أعرب له عن نيته بأنه سيكتفى برحلة الذهاب فقط ثم يعود إلى فرنسا - زرع علمه عند نقطة النهاية المحددة للرحلة عند الشلال الثانى وهو عبارة عن « حاجز من حجر الجرانيت نجح النيل فى هزيمته وتخطيه ؛ ولكنى لن أذهب إلى أبعد منه » .

وهو يعكس إتجاه الرحلة لكى ينهى مرحلة المشاهد السريعة التأثيرية ويبدأ مرحلة الدراسة العلمية ، أرسل بالبيان الأول بالنصر إلى فيجاك . وهو إذ يؤكد له أن « عمله الحقيقى يبدأ اليوم » مع العلم بأنه نفذ بالفعل « أكثر من ستمائىه رسم » . يقول

أنه « يكاد يكون في حالة رعب إزاء » الذي بقى عليه أن يؤديه . ولكنه يعتقد إنه سينهى مهمته في غضون ثمانية شهور ، « شهر للنوبة ، وستة أو سبعة شهور لطيبه حتى منتصف أغسطس » يليها نزول سريع على النيل مع التوقف في دندره وأبيدوس لأن « الباقي موجود بالفعل داخل الحواظ » .

وعلى هذا الأساس فإنه يقدر موعد الإبحار إلى أوروبا في أول أكتوبر .

في ليلة ٢١ ديسمبر إلى الأول من يناير ١٨٢٩ وهو في وادي حلفا وصف لجاك - جوزيف لقائه الأول مع عمالقة الجبل ، وأضاف (في ملحوظة) أنه سيكتب لزوجته من أبو سامبول بعد أسبوع ... أما أول أيام العام فقد كرسه للكتابة أولاً إلى شخصين : صديقه تيفونيه وعزيزه مسيو داسييه .

كتب يقول للأول :

« .. أرجو لك عاما سعيداً [...] وكذلك لجميع أصدقائنا الطيبين الذين ستقبلهم بالنيابة عنى .. على الرغم من المسافات فإنى لا أنسى من أحبهم « فمهما أكون فى أعماق النوبة وملتحياً مثل أحد الرهبان الكابوسيين وأرتدى زى عرب الصحراء ولا أعرف ما هى القبة أو السرورال ، مهما كنت أكل الارز بأصابعى وأنخن النرجيلة ثلاث مرات يوميا وأشرب ماء النيل بكميات كبيرة فإن كل ذلك لم يتعد بشرتى ولا زلت فى أعماقى دوفينى « معفرت » .

ها أنا قد وصلت إلى آخر مدى رحلتى إذ أن الشلال الثانى أوقف أسطولى [..] كان بوى أن أذهب إلى أبعد من ذلك لولا أن للضرورة أحكام ولولا أن قافلتى التى تضم ثمانية وعشرين فما (دون أن أضع فى الحساب قم المدفع) تواجه الموت جوعاً فى أعماق هذه النوبة التعيسة فإنى منذ البداية قد حددت هنا (حداً لرحلتى) .
وها أنا أهبط مع النيل حاصداً كل ما سأجده من الهيروغليفيات فى طريقى .. » .

ولكن الرسالة الجوهريّة التى صدرت منه فى ذلك اليوم كان متلقيها هو جان بون - جوزيف داسييه : من المؤكد أن من جميع الرسائل الموجهة إلى مسيو داسييه فإن رسالة سبتمبر ١٨٢٢ هى التى تسترعى إنتباه الأجيال التالية ، إلا أننا نكاد نولى إهتماماً مماثلاً لتى كتبها على ظهر دهية « الجنرال » الراسية بجانب الشط الرملى فى وادي حلفا فى الصباح الباكر الأول لعام ١٨٢٩ . إن ما كتبه عام ١٨٢٢ كان المقدمة أما نص ١٨٢٩ فهو خلاصة النهاية . فلتحكم بأنفسنا :

« وادى حلفا فى ١ يناير ١٨٢٩ »

« .. أشعر بالفخر الآن ، بعد أن سرت مع مجرى النيل من مصبه حتى الشلال الثانى ، لأنه يحق لى أن أعلن لكم أنه لا يوجد ما يستوجب أى تعديل فى خطابنا عن الأبجدية الهيروغليفية . إن أبجديتنا سليمة : وهى تطبيق بنجاح تام أولاً على الآثار المصرية فى عهد الرومان واللاجيد (البطالسة) وأيضاً - وهو ما يثير اهتماماً أكثر من ذلك بكثير - على ما خط على جميع المعابد وسرايات ومقابر الأزمنة الفرعونية . كل شئ يضىف الشرعية إذن على التشجيع الذى تفضلتم به على فى أعمالى الهيروغليفية فى وقت لم يكن فيه أحد على الإطلاق مستعداً لمنحها أية فرصة » .

ها أنا ذا عند أقصى نقطه من رحلتى نحو الجنوب [..] سادير إذن مقدمة سينيى فى إتجاه مصر لاهبط النيل وأنا أدرس بتعمق الآثار التى على الضفتين [..] حسبما رأيت وبالقياس الفكرة العامة التى كونتها فى رحلة الصعود فإن الحصاد سيكون من أكثر ما يكون ثراءً ووفرة » .

ساكون فى طيبة فى منتصف فبراير تقريباً لأنى مضطر إلى تكريس خمسة عشر يوماً لمعبد أسمىبول العظيم فهو إحدى روائع النوبة [..] أما معابد أرمبوس (كوم أمبو) وإدفو وأسنة التى أشادت بها كثيراً « لجنة مصر » على حساب معابد طيبة - التى لم يشعر بها هؤلاء السادة ، فهى ستستوقفنى بعض الوقت فقط [..] لا يمكننى أن أنهل سوى من المنابع الأصيلة [..] ملفاتى عدت ثرية جداً : أنى أشعر مقدماً بالسعادة لأنى سأضع أمام أعينكم مصر القديمة كلها على التوالى : الديانة والتاريخ والفنون والصناعات والعادات والتقاليد [..] رسوماتى [..] لا تشبه فى شئ رسومات صديقنا جومار لأنها تنقل الأسلوب الحقيقى للأصول بأمانة متناهية . وسيتمكن روشات من أن يرى بنفسه أن كل المصريين لم يفعلوا - كما يحسن الإبداء - سوى إله واحد وملك واحد ورجل واحد وهو لم يكن رجلاً ولا ملكاً ولا إلهاً .. إن طيبة كلها - وهو أقل ما يقال - هى احتياج هائل على هذه الجملة .. » .

هل يوجد نص آخر يكشف أكثر وبأفضل من هذا عن بطلنا ؟ كل شامبليون موجود هنا : إعتزازه بنفسه فى حساسيته ، وكرمه فى بساطته ، وإفتتاح فكره للتضامن ، وحبه للنضال دون كلل ضد كل من يرفض من أقرانه فكرة تفوق المكتشف وأسبقية الحضارة المصرية على الحضارات الأخرى .

نجد فى هذا النص العظىم - نود أن نقول هذا النص المهىب والذى لا يخلو فى ذات الوقت من الفخامة - بأعجاب ممزوج بابتسامة ساخرة بسبب طريقته هذه فى إشراك من يحبهم فى عمله (« خطابنا » و« أبجديتنا ») مدفوع بكرمه بمزاجه الشخصى المسيطر ولكن أيضا تمسكه المتعالى بحقوقه المكتسبة وكرامته (« أشعر بالفخر » و« يحق لى أن .. »)

شامبوليون - نعم - الرجل ذو الاسد بل الرجل ذو الأسدين ، المسيطر ، الشمسى ، « جنرال النيل » هذا الذى أسماه مأمور طهطا « كنز الأصدقاء - حفظه الله » ، جان - فرانسوا الملهم ، الذى وصل إلى « عواميد هرقل » من حقه أن يتأمل هذه القرون التى ينقذها وهذه العوالم التى يقرأها - بالفعل - مثل كتاب مفتوح .

زجاجة طافيا - « الجنرال » داخل الأتون - من أبوسمبل إلى فيله - « الأقصر التي نيسيت ! » - مليماً واحداً للتنقيب - « حفلة أكل » فى مقبرة - السماء والجحيم اللوح التصويرية الهومييرية فى الرامسيوم - « صوت الاجداد . » - مصر تدعو للشفقة ... محمد على وإبراهيم - سلف مارييت - فوق سطح الأسترولاب .

« ... رحلنا جميعاً الساعة التاسعة صباحاً بعد أن أنزلنا أشرعتنا من صواربها لأنه لم يكن علينا سوى السير مع التيار . فمنذ هذه اللحظة ! أستدرنا فى اتجاه الشمال وشعرت بسرور بالغ للسير فى هذا الاتجاه الذى كان يقرب فى كل لحظة المسافة التى تفصلنى عن طيبة وعن باريس أيضا .. » .

غنى المجدفون لحن الرحيل ووجه « الجنرال » منظاره شطر الأحجار الظاهرة على سطح الماء فى الشلال الثانى . بدأ ايجليلى يخط الخطوط العريضة لأحد رسوماته . أنهمك نستور لوت فى كتابة مذكراته ، راجع شيرويينى الحسابات ورتب البروفسور راضى فى المركب الثالثة نباتاته وأجاره النادرة التى ألقى بها نوبى متحمس فى النيل بعد بضعة أيام لأنها فى تقديره كانت ثقيلة للغاية ! هكذا بدأت رحلة العودة فى الأول من يناير ١٨٢٩ وهم على ثقة من أنهم سيغنمون الذهب الذى لحوا فعلاً بزيقه : لم يبق عليهم سوى الحصاد من خلال الرحلة العلمية الحقيقية للرحلة .

لم يكن جان فرانسوا شامبوليون فى حالة من النشوة تجعله ينسى الجانب الاحتفالى لهذا اليوم : فالأول من يناير يحتفى به تحت أى سماء . مع هبوط الظلام رست المراكب بالقرب من ساقية . « الناعورة » التى يجرها زوج من الجاموس التى ترمز صورة نورانها - فى لونهما الأسود - إلى المشهد الريفى المصرى . وبدأ الحفل :

« كان الطعام لذيذاً بالنسبة لعشاء نوبى : وتفوق طاهينا على نفسه وأضفت زجاجتان من نبيذ سان - جورج علماً بأن الحرارة الاستوائية قد أثرت سلبياً عليها

بالفعل - على الوايمة جواً من الأحتفال يتناسب تماماً مع مناسبة أول أيام السنة .
بعد العشاء تم توزيع البقشيش على الخدم . ثم تناول جميع أعضاء البعثة القهوة
على ظهر الذهبية - الاميرالية . ثم شربنا زجاجة راتافيا من جرونويل بالكامل
فى نخب نجاح الحملة « .

« لم يكن علينا سوى السير مع التيار » كان « جنرالنا » متفائلاً بعض الشيء
الآن . الهواء البحرى الذى كان يهب ، على مراحل ، كثيراً ما كذب هذا التوقع . ولم
يكن المجدفون وحدهم الذى اشتكوا من هذا الوضع ، ففى اليوم التالى إنطلق الريح
الشمالى (كذا) فى غضب وعلت أمواج النيل كما يحدث فى خليج الأسد عند هبوب
ريح المتراىل حتى أن جان - فرانسوا الذى كان يفتخر بأن معدته « بحرية » جداً عندما
غادر ، ولون - راح يتآلم من دوار البحر .. كانت ليلة صعبة للغاية . و إنتظر الرحالة
ظهور صباح يوم ٣ يناير لكى تنكشف أمام أعينهم الصورة الرائعة للنيل الغاضب وهو
يهاجم الشلال الرملى لأبو سنبل .

رسا الأسطول الصغير عند أقدام التماثيل الجبارة - التى سارت مالوفة لديهم ...
- لمعبد نفرتارى التى بدت كما لو أنها تتقدم فى اتجاه النيل لكى تستحم فيه على بعد
عشرات الأمتار من « الصور » الضخمة لوجه رمسيس الجالس فى مواجهة الشمس .
يا إلهى ! كم هو جميل هذا المشهد : سيكتب جان - فرانسوا لأخيه بعد عدة أيام :

« إنى لأسف على أنى لا أملك بضعة صناديق الدنيا المسحورة لكى أنقلهم وسط
ميدان لويس الخامس عشر * لكى أسحق بضرية واحدة كل من ينتقد الفن
المصرى . كل شئ ضخم هنا دون أن نستثنى الأعمال التى بدأناها » .

للأسف ! كانت ركبة جان - فرانسوا اليمنى تعذبه من جديد وكان قد نسى
« معدات النقرس » فى طيبة .. وقد حرمه ذلك من قيادة عملية « الفوص » الأولى داخل
المعبد الكبير من حيث أحضر « شباب » الحملة بوشان وبيرتان ولوت بمساعدة
« بربرى » من فيلة على درجة مدهشة من الذكاء اسمه عبد الوهاب - وكان قد سبقهم
روسيلينى وريتشى وانجيليللى - بعد بضعة ساعات - نسخاً مرسومة جديدة
بالنحتيات الحائطية الرائعة للقاعة الكبيرة ذات التماثيل الثمانية الضخمة . وكان عليه
أن ينتظر ثلاثة أيام طوال أن يهدأ النقرس قبل أن يحاول بدوره المغامرة بالنزول فى
غلاية العجائب :

* حيث توجد المسلة اليوم .

« سرت مسنوداً من محمد ومن القواس أحمد - فى الطريق الوعر الذى يفصلنى من دهبيتى حتى مدخل المعبد الكبير . استرحت لبضعة دقائق ، حتى يتوقف تصيب العرق ، عند أقدام التمثال الضخم الذى على اليسار : وبعد ذلك خلعت ملابسى كلها تقريباً عدا كالسونى وقميصى وجواربى الصوف ونزلت إلى الأتون الذى تفاجؤك دائماً حرارته القوية للغاية فى اللحظات الأولى ، ولكن بعد أن يبدأ العرق يتصيب وينساب من جميع الأعضاء تشعر براحة أكبر وحينذاك بدأت استكشافاتى . بعد أن راجعت وصححت - مستخدماً مقياس مدرج فى كثير من الأحيان - الكتابات المنحوتة التى على اليمين والتى نسخها روسيلينى . ثم بدأت رفع المخطوطات التى على اليسار مبتدئاً بالمخطوط الضخم الذى يعلن فيه لرمسيس أن الأعداء يهاجمون خطوته وأن عربة المعركة قد أعدت .

[..] بعد أن خرجت من المعبد فى الرابعة والربع ، حرصت أن أفرط فى زيادة الغطاء بمعنى أنى حملت جسدى بقميص وصديريين من الصوف الناعم (الفلانيل) ووردانجوت مزبوج الازره وبرنس ومعطف واسع من القطن بالإضافة إلى حزام عربى فوق الرودانجوت وبنطولنات جيدة من القطن تحت كل ذلك . وهكذا قطعت المسافة من المعبد حتى المركب دون أن أشعر بأى شى من الريح البحرى الشديد جداً والمثلج الذى كان يعصف فى ذلك الوقت .. بقيت ممدداً فوق سريرى لمدة ساعتين . أتصعب عرقاً مباركاً وهو ما سيخلصنى مثلما أرجو لبعض الوقت من ألام النقرس .. »

استراحة . وبعدها مباراة فى الشطرنج الذى أخذ ميله له يزداد باستمرار . ولكن¹⁸ ها هو أحد النوبيين فى غاية الجمال وعلى رأسه غطاء فرعونى وتصدر عنه روائح قوية جداً ويحمل فى يده قيثارة جديدة بالأجداد . أنه شاعر ربابة أخذ يؤدى أغنية عربية تروى حملات إبراهيم باشا العسكرية وعبور أسطوله الجسور الشلال الثانى . وفجأة يغير المنشد من نغمته ويبدأ فى مديح رئيس الحملة :

جئت من بلاد الروم
أنت يا جنرالنا الكبير
موفداً من ملك عظيم

رسوت تحت جبل أبو سمبل
مرتديا معطفا من سمور
وعلى رأسك شال من كشمير
يا جنرالنا العظيم .

فى ١٣ يناير جعلهم ينزلونه عدة مرات داخل المعبد الكبير وكان يعتبره
« لايزال بكرة » لشدة خيبة أمله فى أعمال بلزوني وجو بعد مراجعتها وكرس جُل وقته
لنسخ لوحة نقش عليها مرسوم من بتاح لتحية رمسيس الثانى . فى كل مرة كان يخرج
فيها من فرته كان يشعر بأنه أفضل مما كان قيل دخوله ، ولكن كان ربح الشمال
العنيف ؛ حق به لدى خروجه لدرجة أنه كان يثير الأمام فى « العينين والاسنان » فلا
يصل إلى ذهبيته إلا وهو يترنخ مع كل خطوة يخطوها . كم هو هش جنرالنا هذا فى
جسده المتالكم والذي كان يدفع بالأم كل ثمن نصر يحققه !!

ومع ذلك فإن ما ان يشعر به هو كان السعادة الحقّة إنه فخر حقيقى ذلك
الذى يشع من هذا الخطاب المرسل لأخيه فى ١٢ يناير ١٨٢٨ :

« أود أن أصبح كل الذين يرفضون الايمان بالرشاقة التى يتسم بها النحت
المرسوم هنا فيضفى على فن العمارة ثراءً على ثراء . أضمن أنهم فى أقل من ربع
الساعة سيكونون قد تخلصوا من أفكارهم المسبقة مع عرقهم المتصيب منهم وأن
جميع ما انطبع فى فكرهم دون تفكير سيخرج من جميع مسامهم .

« روسيليني وأنا احتفظنا لأنفسنا بالجزء الخاص بالتعليقات الهيروغليفية المطولة
فى كثير من الاحيان التى تصاحب كل شكل أو مجموعة من الأشكال فى
الرسومات التاريخية المنحوتة - (الباروليف) . نقوم بنسخها فى مواقعها أو
طبقاً لبصمتها على الورق عندما تكون مرتفعة جداً [...] هذا هو الوضع بالنسبة
لحملتنا التاريخية فى أبوسمبل . أنها أكثرها أرهاقاً لنا وأمجدها على الإطلاق فيما
يمكن أن نقوم به خلال هذه الرحلة كلها . الفرنسيون والتوسكانيون تنافسوا فى
حماسهم وإخلاصهم » .

يجب علينا أن نتوقف عند هذه النقطة لأن الموضوع أثار تشككات لاحصر لها .
كثيرا ما أثارها الشوقينييه إن لم تكن الغيرة الشخصية لجاك - جوزيف شامبوليون -
فيجاك . عندما تشر رسائل أخيه بادر بأن عدل فى نصها أو زيّف بعضاً منها . وعلى

وجه الخصوص تلك التي ذكرناها للتو . وهكذا فبدلاً من قراءة : « روسيليني وأنا احتفظنا لانفسنا بالجزء .. » وجدنا أنه نشر : « أحتفظت لنفسى . » وهو ما بغير المعنى تماما . واضطر روسيليني أن يكتب عن ذلك بعد ثلاث سنوات من ذلك التاريخ :

« ما أن نصل إلى أحد الآثار إلا ونتدارس معاً بعناية جميع أجزائه ونوزع على الرسامين المصاحبين لنا مختلف التفاصيل التي يهمننا الحصول على نسخته منها . وتوزع فيما بيننا نحن الاثنين مهمة وصف المبنى ونسخ مخطوطاته » . بعد تأدية عملنا - سواء كان ذلك خلال الليل أو أثناء إبحارنا على النيل - كنا نتوصل عبر تبادل الآراء والاتصال المشترك من تمكن كلانا من العمل بأكمله . وبنفس الأسلوب كان الرسامون التوسكانيون ينقلون أعمال الرسامين الفرنسيين والعكس صحيح ، هكذا تكوّن لدينا ملفان كاملان متطابقان [...] أن المذكرات والمستندات التي جمعت خلال رحلتنا كانت تستهدف عملاً مشتركاً يشرف فرنسا وتوسكانيا معا بأن يوفر لعلم العصور القديمة ثماراً عظيمة للغاية .. » .

من ناحيته ذكر شامبوليون هو الآخر في خطاب لروسيليني مؤرخ في ٢٠ سبتمبر ١٨٣٠ هذا المبدأ الخاص بالعمل المشترك : « لا يمكنني وكما لا يمكنك تصور إمكانية نشر أى شيء بدوني [...] لا يمكنني القيام بذلك بدونك وإلا إنتهى بنا الأمر إلى عمليين غير كاملين وغير مترابطين .. » .

في ١٦ يناير وبعد أن كتب بضعة خطابات وبيض ومذكراته عن النبوة : أعطى شامبوليون أوامره بالإقلاع . لقد أفضت « المعابد - الجبال » التي في أبو سمبل بأهم أسرارها .. أزيلت الشدات الخشبية التي كانت تحجز الرمال أمام مدخل المعبد الكبير حتى لا يدفن الباحثون أحياء داخله وسحبت المراكب وأعلامها مرفوعة في حين صدح البحارة بأغانيهم . أما التماثيل الماردة فكانت تتسامى في ضوء الشمس . بينما المراكب تبتعد شعر فرانسوا بإحساس يتملكه فجأة (كما أفضى هو ذلك بنفسه) أنه متأكد أن المعبد الذي يخفى هكذا من أمام ناظري وراء منحني للنيل هو أول المعابد التي لن يراها أبداً بعد ذلك .

يجب ألا نتصوره على الرغم من ذلك مثل أى مازيباً تمزقه أحاسيس متضاربة ، مصلوب فوق ألامه ، يمزقه الحزن وقد تملك منه الحاح علوم المصريين . بل أن كل شيء

كان يثير اهتمامه : ففي درى * على سبيل المثال نراه يكرس وصفاً أقصر للمعبد الحجري عن سرده لحوار طريف دار بينه وبين ثلاثة نوبيين بجلاليتهم البيضاء وهم يحيطونه علماً بسعر البلح وزراعة النخيل والضرية المفروضة على كل شجرة منه (وكانت توجد بهذه المقاطعة وحدها في ذلك الوقت سبعمائة ألف نخلة وهي الأجل وتحمّل ألد الثمار في مصر كلها) وكان جان - فرانسوا يسجل باهتمام جميع هذه المعلومات . كان الأحياء يثيرون إهتمامه مثلما كان الحال بالنسبة للأموات : وقد سجل بشيء من الغضب الشديد أن الضرائب المفروضة كانت « كفيلة بهدم إقتصاد البلد وإبقاء السكان في حالة إملاق » .

بعد ذلك بأيام قليلة إذ كان داخل سبيوس ** في إبريم ، سجل مشهداً سمح له بأن يعبر عن أرائه في موضوع أحوال المرأة . نرى فيه زوجة أحد الأمراء تتقدم نحو فرعون وهي واقفة وراء زوجها مباشرة تسبق جميع كبار الموظفين ، هذا يثبت تفوق الحضارة المصرية على منافساتها الشرقية ، « لأنه يمكن تقدير درجة تحضر الشعوب بناءً على الوضع المحتمل أو الأقل احتمالاً للنساء في التركيبة الاجتماعية . براؤو يامايسترو !! » .

قلب سخى مثل هذا القلب من المؤكد أنه سيكافأ بمقابلات سعيدة . في « درى » على سبيل المثال . ألتقى بهذا البريرى فسأله إن كان يعرف سم من بنى هذا المعبد .

« أجابنى على الفور أنه أصغر من أن يتمكن من معرفة ذلك إلا أن شيوخ المنطقة بنوا له متفقين على اعتبار أن هذا « البيرى » بنى حوالى ثثمائة ألف عام قبل الإسلام [..] هناك بعض الشيوخ غير متاكدين من إحدى النقاط وهي ما إذا كان الفرنسيون أم الانجليز أم الروس هم الذين شيخوا هذا العمل العظيم .. » .

في اليوم التالي في « عمادة » سجل ملحوظة وهي وإن كانت تخص فترة أحدث فهي لا تقل عنها طرافة . كانت الرسومات المنحوتة في هذا المعبد مغطاة « بطبقات من الجبس سيئة للغاية » وضعها الأقباط لكي يحالوه إلى كنيسة . وأضطر إلى أن ينزع هذه الطبقة الجبسية التي عليها صور القديسين لكي يصل إلى الصور الأصلية . ملحوظة جادة منه : « رد الفعل الوثنى هذا كان يتسم بجانب خاص به وهو أن الذى أمر (بعمل هذا) كان مسيحياً والذين نفذوه مسلمون في صالح الوثنية » . فكأننا نسمع ديدرو ! .

* كتبت در قبل ذلك (المترجم) .
** كهف في الصخر مختلف عن المقبرة .

أخذ النيل يشبه نهر اللوار الذى كان تجرى فيه لقاءات جميلة جداً فى عهد رونسار . من بعيد ظهرت على صفح النهر شراع عليه علم إتضح أنه إنجليزى : أليس هذا اللورد برودويه الذى أعلنوا له فى « درى » عن سفره إلى سنار والحبشة ؟ ولكى يتخاطب معه لم يكن الرحالة النبيل محتاجاً لأن يقول « مستر شامبوليون على ما أعتقد ؟ » فقد سبق أن التقيا فى القاهرة ، كما قلنا من قبل ، مع الميجور فيليكس الذى مازال يرافق برودويه . تم اللقاء بعد أن توقفوا وتبادلوا المعلومات و« الملفات » وعبر جان فرانسوا وهو يودعه عن تأثره لإبتعاد « رجل يمتلك ثروة هائلة ومع ذلك ، فإن سمو قلبه جعله يلقي بنفسه فى عملية خطيرة ولكنها مفيدة بالنسبة للعلم .. » .

هذه المقابلات كانت تقابل بكل ترحاب . كما حدث بعد بضعة أيام مع قنصل النمسا أسيرى الذى كان متوجهاً إلى الشلال الثانى - وهو الذى أحسن استقباله فى الاسكندرية . وكان اللقاء الجديد وديا للغاية . ولم يقطع الدبلوماسية علاقاته بشامبوليون سوى بعد ذلك بعد أن أمره وإيام بانكس صديق يانج ! « إما هو وإما نحن » .

قصيرة كانت أم غامضة كانت هذه اللقاءات تكسر رتابة الأيام التى لا تثيرها تماثيل النوية العملاقة ولا قاعات العواميد التى سيزورها بعد ذلك .

« أرى أن خطاباتك مختصرة بعض الشئ [كتب ذلك لأخيه] تذكر إنى على بعد ألف فرسخ منك وأن أقل نعمة لها مذاق عظيم ومنعش . كم هى طويلة الليالى - لا شئ يشغلها سوى التدخين أو لعب الورق - وذلك ممل فى النهاية ، وأكون سعيداً جداً عند إعادة البحث فى اللغات الصغيرة القادمة من باريس .. » .

ما زالت هناك عدة ساعات طويلة إنتظاراً لطيبه وهى التى أمضاها داخل معبد كلايشى * الأفريقى - الرومانى . أنه بالطبع يرى أن « النحت فيها أصبح سيئاً للغاية بعد أن جعلوه ثريا لأنهم لم يعوبوا يعرفون كيف يصنعوه جميلاً .. »

إلا أنه يكتشف فيه « جيلاً جديداً من الآلهة » - وهذا ليس بالشئ البسيط بالنسبة لمؤلف « البانتيون » . إنه بالطبع يتأكد من أن أمون - رع لا يزال هو الكيان الاسمى والرئيسى والإله موت تتبع من ذات الجوهر المذكر والأنثوى فى نفس الوقت وأن جميع الآلهة المصرية الآخرين ليسوا سوى « أشكالاً من هذين المبدئين الذين يعتبران تجريدات خالصة للوجود الاعظم .. » أخذت أشكالاً بشرية حتى آخر تجسيد

* تنطق اليوم كلايشة .

وهو جسد حورس ؛ ومع ذلك فهو يعتقد أنه إكتشف - تأسيساً على الثلاثية المبدئية (أمون - رع وموت وخونسو الابن) - « الثلاثية النهائية » المشكّلة من حورس ووالدته إيزيس وابنه مالمولى . وهذا الأخير هو الذى كان يعبد فى كلابشة ، لأن إذا كان أمون - رع يسود كل الأماكن ويحتل الجانب الأيمن من قدس الأقداس إذ أن كل قرية ومدينة تقديساً لها تقديساً خاصاً دون أن ينتج عن ذلك أى حقد مع المدن المجاورة ، بسبب ما يصفه صاحب الكشف بارتياح « نوعاً من الاحترام المتبادل المدرس بعناية » .

لم ينجح سحر فيله « الجزيرة المقدسة » فى التأثير عليه . وإذا كان ينسب فضل بناء المعبد الجنوبي الصغير إلى نكتانيو آخر الفراعنة من أصل مصرى فهو لا يخفى أزدرائه للباقي الذى يعود إلى عهد الرومان وعلى وجه الخصوص - (نرجو منكم التسجيل) : « ماهو منحوت .. » أخص ! أما جزيرة سيم الصغيرة ، جارتها ، والغنية بمخطوطاتها الحجرية فقد أوحى له بأكثر مما أوحى له به الآثار المشيدة والنحت البارز الموجود فى جزيرة إيزيس . فى المجموع فهو يفضل أن يؤخذ بسحر معابد أومبوس* وإدفو وإسنا حتى ولو أنهم جميعاً إغريقيون ومن « مرحلة الانحطاط » إلا أنهم « جمال من الناحية المعمارية ولهم تأثير ضخم » ولكن كم أن هيروغليفياتهم « سوقية » !
ولكن متى سيجئ دور طيبة ، طيبة صاحبة المائة باب ؟ .

« كان الحزن فى قلوبنا لما رأينا هذه الاطلال الضخمة مرة أخرى : وأضافت معدائنا إلى هذا الشعور لأننا كنا قد سمعنا أن مراكب تحمل مؤناً صابحة وصلت إلى عنوانى فى الأقصر ولكن الهواء البحرى كان عنيفاً للغاية وقفنا فى المسافة بين هيرمورنيس وطيبة التى لم نصلها سوى فى الصباح الباكر من يوم ٨ مارس . رسى أسطوانا الصغير على أعتاب الرصيف الأثرى الذى كشف النيل جدرانه وهو أن يصمد طويلاً ليدافع عن سراى** الأقصر إذ أن آخر أعمدته تكاد تمس شواطئ النهر ... » .

« الشئ الغريب هو أن مذكرات شامبوليون والرسائل التى كتبها من طيبة أهملت الأثر الذى كان يعجب به أكثر من الآخرين جميعاً وهو معبد الكرنك وإن كان يتكلم - كما نرى فيما بعد - عن عمليات التنقيب إلى أجزائها فيه ولكن دون تعليق .

* كوم أومبو .

** يستخدم شامبوليون هذا التعبير علماً بأن الهدف الاساسى منه كما يعرف (أى معبد الأقصر) كان دينياً .

لا يوجد لدينا في هذا الصدد سوى رسالته الرائعة المؤرخة ٢٤ نوفمبر ١٨٢٨*
التي تقول الكثير ولكنها تبقى مثل مدخل لامثيل له لمعبد إختفى . لماذا هذا الصمت ؟
هل ضاع هذا الجزء من مراسلاته ؟ هل إحتجزه فيجاءك لسبب غامض ؟ الواقع هو أن
الجزء الرئيسي من التقارير الخاصة بإقامة جان - فرانسوا المطولة في طيبة يتعلق
بالأقصر من جهة وبمجموعة الجبانات ومعابد الضفة الغربية من جهة أخرى .
يبدو إذن أن الأقصر إستقطبت اهتمامه وبداية كان ذلك من زاوية غير متوقعة .

« ...هذه السراى الرائعة ، الأكثر تديناً من جميع آثار مصر ، التي تعوق الوصول
إليها نور الفلاحين التي تحجب وتشوه جمال بواباتها بخلاف دار هزيله لأحد
البيكاشية ** المعلقة فوق الساحة التي أجريت فيها الثقبوب بواسطة الازاميل لكي
تسمح بمرور الكناسة الخاصة بالضابط التركي . هذه البوابات تؤدي إلى قدس
أقداس رائع نحت في عهد ابن الاسكندر الاكبر . أقول أن هذه السراى الرائعة
لم تقدم لنا أى مكان لائق يسمح لنا للإقامة فيه .. » .

ظلوا مقيمين فوق المعاش والذهبية والمراكب طوال فترة الأعمال التي أجروها في
الضفة الشرقية قبل أن ينقلوا وكرهم بعد ذلك بخمسة عشر يوماً داخل إحدى المقابر
في الضفة الغربية ! ولكن شيئاً من الصبر»

فعندما شرع في الدراسة المنظمة للمجمع الأثرى الضخم في طيبة وقع حدث في
باريس أشار لديه طفرة من الحماس المتوقد باستمرار والذي يؤججه فيه التناقض
الفكرى . إذ وجد في إنتظاره لدى وصوله إلى طيبة خطاباً من جاك - جوزيف يسرد له
فيه ما حدث في جلسة من جلسات المعهد (الانستيتو) التي قرأ رئيسه - أراجو
خلالها خطاباً موجه من توماس يانج يعاتبه فيه لأنه يعطى أهمية مبالغاً فيها لأعمال
شامبوليون ، مما دفع عالم الفيزيقا الفرنسى إلى إلقاء مرافعة فصيحة في صالح
صاحب كتاب « رسالة إلى مسيو دايسيه » جاء رد فعل صاحب الاكتشاف مثيراً
للأهتمام لأنه - كما سنرى - يتخطى بكثير الجدل الذي ينبغ هو فيه :

« ...مسكين الدكتور يانج *** ان ينصلح حاله أبداً ؟ لماذا يحرك قضية قديمة
أصبحت مومياء بالفعل ؟ أشكر مسيو أراجو للهجوم الذي قام به بكل هذه الشجاعة

* التي سبق أن تحدثنا عنها في الفصل السابق (ص ٥٥٩ - ٥٦٠) .

** راند [كذا] وهو اللقب الذي كان يتقلده بعد ذلك بمائة وثلاثين سنة جمال عبد الناصر عندما أستولى
على الحكم (المترجم) .

*** سيموت بعد ذلك بثلاثة شهور .

دفاعاً عن شرف الأبجدية الفرنسية الفرعونية . البريطاني مهما فعل سيبقى لنا [عقدة] لايزال الدكتور يناقش الابجدية وأنا - وقد ألقيت بنفسى منذ ستة شهور وسط آثار مصر - مذهول لأنى أقرأ فيها بسهولة ويسر أكبر مما كنت أسمح لنفسى أن أتصوره . توصلت إلى نتائج (ليبقى ذلك بيننا) مثيره الحرج بكل تأكيد من مختلف الزوايا وسنضطر إلى الاحتفاظ بها فى الكتمان : لم يخذلنى انتظارى قط والعديد من الأمور التى كنت أشك فيها بشكل عام قد تجسدت أمامى وأصبحت مؤكدة ولا تقبل الجدل .. » .

« خائف ؟ » من ماذا إذن ؟ ولماذا يخاف مخترع من اختراعه ؟ من الواضح أن ما قرأه هذا البصير فى وادى النيل هو حياة سابقة للبشرية وحضارة وإن كانت لا ترجع إلى الثلاثمائة ألف عام التى تخيلها « بربرى » قرية درى إلا أنها تنسف التعاليم اليهودية المسيحية من أساسها وكذلك الترتيب الزمنى التوراتى ومعتقدات الغاتيكان . الآن العزيز جان فرانسوا لن يرسم كاردينا لا أبداً حتى لو أحتفظ لنفسه وفى كتمان تام ولبعض الوقت بما اكتشفه بين ممفيس وأبوسمبل .

لن يضطر هو أن يصرخ مؤكداً « ومع ذلك فهى تدور* .. ١ » ولكنه سيضطر يوماً إلى القول « ومع ذلك فهى متقدمة جداً فى السن » أرض البشر بالنظر إلى حضارة وادى النيل وهى ليست فقط عجوز بل إنها أيضاً أم وهى أيضاً رائدة وهى أيضاً مخترعة لهذه الاساطير وهذه المعتقدات التى زودت بها اليهود ثم المسيحيين والإسلام كل بدوره فى الشرق الأدنى والغرب والأهم هو إنها إخترعت التالوث المسيحى ..

بالتأكيد كانت لديه أسباب « لفرعه » ، خاصة إذا كان الذى كلفه بالذهاب إلى هذه الأماكن هو الملك المسيحى « جداً » والذى يعتمد كلية على الكنيسة المقدسة ... رأينا فى أزمان لاحقه كاشفى أسرار أخرى - أسرار المادة - وهم فى فزع شديد أمام الآثار المترتبة على إكتشافاتهم . ولكن إذا كان جان - فرانسوا شامبوليون لن يتسبب فى هيروشيما أخرى فهو يعتبر فى رأى الكنيسة كافراً عندما كان يدون مذكراته كل

* « ومع ذلك فهى تدور » تعبير يعزى إلى العالم الإيطالى جاليليو (القرن السابع عشر) ، قاله بعد أن أرغمته الكنيسة على الإعتراف بخطئه عندما قال أن الأرض تدور حول نفسها - مؤكداً ما إكتشف قبله كوبرنيكس - وكانت الكنيسة فى ذلك الوقت تؤكد أن النصوص الدينية توضح أن الأرض مسطحة وثابتة فى مكانها وأنها مركز الكون . ومع ذلك فقد حكم عليه بالإقامة الجبرية فى داره وأمضى فيه الثمان سنوات الأخيرة من حياته . (المترجم) .

مساء على ضوء الشموع فى قمرته على « المعاش » الثابت عند مرساه فى الأقصر خاصة وأن ذلك كان يحدث فى عصر « الحلف المقدس » وبعد ذلك بقليل « السيلابوس » * ؟

لن نتوقف طويلاً عند وصفه معبد الأقصر ، الأمينوفيوم (نسبه إلى مؤسسه أمينوفيس الثالث) الذى أرسله « الجنرال » إلى أخيه ولا للجزء الشمالى منه وهو ينسبه لرمسيس الثانى ويسميه - بناءً على ذلك - راميسيوم الضفة الغربية . هنا يجب أن نرجع إلى نصوص كتابه « آثار مصر والنوبة » . ما يسترعى الانتباه فى ملاحظاته الخاصة بالأقصر هو إهتمامه الشديد بمسلتين من الجرانيت الأحمر مقامتين أمام واجهة المعبد البحرى وإختياره الفورى للتي على اليمين لكى تزين احد ميادين باريس . سنعود بالطبع إلى الحديث عن هذا التوقع المذهل ** .. إلا أننا لا يمكن أن نغفل الإشارة .

الحماس المتدفق الذى يبذله ليفرض على الجميع فكره غيرت من معالم باريس وهى فكرة يعود له وجده فضل بلورتها وتحقيقها ومع ذلك لن يعترف له أحد بذلك .

قبل أن يتعامل مع المسلة بدأ شامبوليون حفرياته التى أنتزع من أجلها فرمانات الباشا التى تسمح له بالقيام بها بعد صراع عنيف فى الاسكندرية لىون أن يتمكن من الحصول فى الوقت المناسب على الأموال الضرورية لذلك من باريس (حيث نشط أصدقاء دروفيتى ومنهم بالطبع ودائماً جومار)

« ... بدأت فى تنفيذ الحفريات فى الكرنك والجرنه ، وحصلت بالفعل على ثمانية عشرة مومياء من كل نوع وصنف إلا إننى لن أخذ معى سوى أفضلها [..] جميع الأشياء المصنوعة من البرونز والنااتجة من حفريات فى الكرنك والمأخوذة من منازل طيبة القديمة ذاتها من أعماق تصل إلى خمشة عشرة أو عشرين قدماً تحت المستوى الحالى للهضبة هم فى حالة صدأ كامل مما لايسمح بالاستفادة منها . وضعت على

* اسم مرسوم باباوى نشر فى ٨ ديسمبر ١٨٦٤ فى عصر البابا بيوس التاسع يدين فيه « أخطاء » تلك الفترة مثل الليبرالية والاشتراكية والطبيعية ... » [المترجم]

** راجع الفصل الختامى .

رأس الحفريات فى الضفة الشرقية رئيس عمال الحفر الخاص بدروغيتى المدعو تمساح وهو يبدو لى رجلاً ماهراً مما يسمح لى بأن أعلق عليه أمالاً واسعة إلا أننا ينبغى أن نعمل « على الواسع [..] فمن الأفضل إذن أن أحصل على الأموال الإضافية التى طلبتها . الزمن يتطاير وسأحصل على الأرجح على الرد النهائى عندما أكون مضطراً لمغادرة طيبة وهى المكان الوحيد الذى يمكن أن تجد فيه أشياء عظيمة وجميلة بشكل مؤكد [..] .

إذا حملت معى بعض الأشياء الجيدة سيكون ذلك نتيجة صدفة من جهة ونتيجة لكرم خاصة منى من ناحية أخرى بما أنى غير مضطر إلى جلب أى مجموعة آثار إلى اللوفر - بما أن الأموال المطلوبة لذلك قدر رفضت مع سبق الإصرار [..] لدى أربعون رجلاً يعملون وسأرى إذا كان الناتج سيعوض المصاريف وإنما كانت ميزانيتى تسمح بتحصيل نفقاتهم ولدى أيضاً ستة وثلاثون رجلاً يقومون بالتنقيب فى الجرنة نصف مصاريفهم على روسيلينى . من الواضح أنه ليس فى إمكانى أن أنقل معى ما يحتاجه المتحف الملكى وهى القطع الضخمة ، لأن الشحن وحده إلى الإسكندرية سيبدد ماليتى بالكامل علماً بأن اليد العاملة هنا لا تكلف شيئاً . عمال التنقيب - بعد عمل مضمئ يتقاضون عشرين بارة (ثلاثة سولات وثلاثة لياردات) « .. » .

لم تكن الحفريات التى أمر بها المسئولان عن الحملة - « بالمناصفة فى المصاريف » - متعمقة كما كانا يودونها طبقاً لما سمح به التصريح الذى إنتزاعاه من الباشا لدى زيارتهما له .

ومع ذلك ففى العاشر من مارس قام الباحثون عن الكنز بفتح مقبرة لم تستكشف بعد . نستور لوت الذى سمح له شامبوايون بأن يكون أول من يدخلها تعبيراً على شكره له لما يبديه من الجد فى عمله - اكتشف حسبما قال « أثاثاً جميلاً ومومياتين لزوجين يرتديان قناعين من الذهب وعند أقدامهما وضعت حبوب من القمح التى أنبتت داخل وعاء على هيئة تمثال مفرغ من الداخل » .

يعرب علماء المصريين المعاصرون عن دهشتهم من « الإجراءات التى أتبعها هؤلاء الرواد ، وتقول إداً بريشيانى التى تحتل اليوم كرسى علم المصريين فى جامعة بيزا والذي أنشأ من أجل روسيلينى وپواسطنه والتى تعتبر وريثته المعنوية إنها « صدمت لسلوك رئيسى البعثة الفرنسية التوسكانية . فهما - على النقيض من الباحثين

المعاصرين لهما - لم يتواجدا بأشخاصهم في أماكن التنقيب وتركوا ذلك للعمال المعينين لتنفيذ هذه الأبحاث . ثم توضح أن « روسيليني عندما مر بطيبة وهو في طريقه إلى النوبة في فبراير ١٨٢٨ أصدر أوامره لعمال الرئيس أبو سقاره - الذي كان يشرف عليهم لوكوا بيتشيني وهو ممثل أستشارى للحفريات والذي كان يقيم في الجرنة - أن ينقب على الأثار عند سفح « الجبل الطيباوى » وذلك يعنى وجود العديد من الوسطاء ووسطاء الوسطاء من أجل عملية على هذا القدر من التخصص .

عاد مرة أخرى جان - فرانسوا يتحدث في ذات الموضوع في ١١ سبتمبر ١٨٢٩ بعد أن ترك المواقع الطيباوية إلى أخيه الكبير قائلاً أنه لو حصل على التمويل المطلوب لهذا الغرض لما أنفق « سولاً واحداً في التنقيب » لماذا ؟ عدلت عن ذلك منذ عدة شهور لأنه ليس مهنتى وأن العرب المنقبين محتاجون لرقابة مستمرة في كل ثانية فهم لا يجدون شيئاً دون رقابة أو يخفون كل ما يجدونه ... » .

باختصار ، لم تكن الحملة الفرنسية التوسكانية حملة تنقيب بأى معيار . كلامها أحضر معه إلى باريس وفلورنسا بعض الروائع التى إنتزعت من المقبرتين اللتين فتحتا في ١٣ و ١٨ مارس ١٨٢٩ (المقبرة الأخيرة مسماه « مقبرة المرضعة ») ومن مخزن للبناء للملكة حتشيسوت فتح في شهر مايو التالى : موميאות وتوابيت وأوانى وأوشيبتي ومرايا وأوانى من الألبستر . كما إنتزع شامبوايون وروسيليني قطعتين من النحت البارز من مقبرة سبتي الأولى الرائعة : وضعت الأولى فى اللوفر والأخرى فى فلورنسا . وتلاحظ مدام بريشيانى باختصار أنه « إذا كان هذا النوع من التخريب يفرعنا اليوم فيجب أن نتذكر أنه كان شيئاً عادياً فى ذلك الوقت » .

فى نهاية شهر مارس عبر الباحثون عن الكنوز النهر ليقيموا بالقرب من - ثم عند مدخل - وادى الملوك وكان أهل البلد يسمونه ببيان الملوك (أبواب الملوك) وكان شامبوايون يشكك فى ذلك ويرى أن أصل التسمية - راجعاً فى ذلك إلى تفسير إستأذه ساسى ، « تحريف فى النطق للإسم المصرى القديم وهو بيب - أن - أروع - أو مقابر الملوك » إختاروا فى البداية الجرنة ليقيموا فيها - أى فى « السراى » المبنية بالطوب اللبن والتى إستمرت لفترة طويلة مأواهم قبل وبعد إقامتهم المشهورة لمدة ثلاثة أسابيع داخل مقبرة رمسيس الرابع . ولكن قبل أن يتجرأوا على خوض هذه التجربة الفريدة أعطاه « الجنرال » للفرنسيين والتوسكانيين فكرة مبدئية عن ذلك - فلنستمع إليه :

« .. أقيم هذا المساء لشبابنا حفلاً « وليمياً » داخل إحدى أجمل قاعات مقبرة أوزيريبي * وهو عيد ميلاد الأنسة زورايد ** وقد أعلنته للتاريخ يوم زورايد ووعدت بأننا سنحتفل به عيداً إحتفائياً . كان من المفروض أن نحتفل به فى الأول من مارس ولكننا كنا فى ذلك الوقت وسط فظائع الشلال ويكاد لا يكون لدينا خبز نأكله . وتأجيل الإحتفال لذلك السبب إلى اليوم .

الطعام لن يصل إلى مستوى عظمة المكان ولكننا سنفعل المستحيل لكى لا يكون دونه بكثير . وهى مفاجأة أعدها لشبابنا . ويوجد طبق سيصبح مفاجأة الحفل : هو قطعة من تمساح صغير بالصلصة الحريفة .

وقشاء الظروف أن يأتونى بواحد صيد وقتل صباح أمس . وإنى أضع الكثير من الآمال فى هذا الطبق لإحداث التأثير المطلوب . سنشرب فى صحتكم جميعاً ياسكان باريس وستكونون معنا فى حفلنا [...] ملحوظة : فسدت أكلة التمساح خلال الليل وتتن لحمه وأخضر لونه بالسوء الحظ ! ويجب أن نواسى أنفسنا بأننا تفادينا عسر هضم أو على الأقل ثقل فى المعدة .

حفلة وليمية ! عيد إحتفالى ! فى هذا اليوم التاريخى ! وفى داخل مقبرة ستي الأول المبهرة .. بتمساح أو بدون تمساح يروق لنا أن نعرف أن صديقنا جان - فرانسوا قد عرف - وسط عدد لا بأس به من الصعاب - ساعات مثل تلك . ولم يكن لطيبة قلبه أن ترضى بأن لايجعل رفاقه الشجعان يشاركونه فرحته . إذ أراد أن يجعل من هذه السهرة تحية أيضاً إلى العظيم جيانباتيستا بالزوني مكتشف جبانة ستي الأول فى ١٨١٧ وكان قد نقل صورة طبق الأصل لها منسوخة منها إلى أوروبا . وقد بهر بها الباريسيون ومن ضمنهم جان - فرانسوا المصرى . وسمع فى ذلك الوقت العزيز داسييه ينصحه بأن يلحق « بمارد بادوفا » فى طيبة : يمكن أن نتصور طلاقة لسان وأنفعال « الجنرال » وهو يتذكر ويثير ذكريات تلك الليلة وهو فى قمة حفله وعلى ضوء الشموع مما جعل الآلهة والملوك والرموز تتمايل على جدران المقبرة ، صورة هذه الشخصية العظيمة التى حركت المعابد .

ومع ذلك لم تكن مقبرة ستي الأول تلك التى سيقومون فيها وإنما مقبرة رمسيس الرابع .

* المقصود هنا هو ستي الأول وتعتبر مقبرته فى العادة أجمل مقابر وادى الملوك .

** كان هذا هو عيد ميلاد ابنته الخامس فقد ولدت فى أول مارس ١٨٢٤ .

« ... المقبرة التي نسكنها تعتبر كنزاً بالنسبة لهذا الفصل من السنة . الحرارة داخلها [...] ٢٠ أو ٢١ درجة مئوية في حين أن التيرمو متر يقفز على بعد خطوتين من بابنا إلى ٢٥ أو ٢٦ درجة في الظل [....] علاوة على أن الشهر الماضي مر وسيمر هذا الشهر أيضاً - دون أن تهل فترة الخماسين [...] وهي رياح حارة جداً ومخيفة [..] يتبيس كل شيء في طريقها .. » .

هذا الملاذ الرطب في قلب الأتون ذاته التي هي الجبانة الملكية « مقام الموت بحق إذا لا يوجد بها عود أخضر أو أحياء فيما عدا الضباع والهايينا » هو مقبرة بالفعل .

« أقامت إذن قافلتنا المكونة من الحمير والعلماء * [داخل] أفضل المساكن والأروعها التي يمكن العثور عليها في مصر . الملك رمسيس [الرابع من الأسرة التاسعة عشرة] هو الذي يستضيفنا في مقبرته العظيمة وهي الثانية التي تقابلها على اليمين لدى دخولك في وادي ببيان الملوك . تستقبل هذه المقربة المحفوظة بشكل رائع ما يكفى من الهواء والضوء لكي نقيم فيها إقامة ممتازة . نحتل منها القاعات الثلاثة الأوائل والتي يبلغ طولها حوالى خمسة وستين خطوة ترتفع الجدران من خمسة عشر إلى عشرين قدماً والأسقف جميعاً مغطاة بنحت ملون تكاد تحتفظ ألوانها ببريقها الكامل . إنها بالفعل سكن لأمير فيما عدا عيب واحد هو أن غرفها في صف واحد : الأرض مفروشة كلها بالحصر الحيزان . » .

لماذا أبقى جيشه لهذه الفترة الطويلة - ثلاثة شهور تقريباً - داخل هذا الوادي التراجيدي ؟ لأنه لا يوجد مكان آخر تعبر فيه هذه الحضارة عن ذاتها بمثل هذه الدقة والتنوع والذي يعطى فيها المرور على الأموات هذا التعبير الاسمى عن الحياة بأنه يمد فيها ويتسامى بها ويشرحها .

« ... لم اتصور أبداً إنى سأبقى لهذه الفترة الطويلة هنا ، ولكن جدران هذه المقابر وبالذات الأسقف مغطاة بمواضيع غريبة لدرجة أنه تعين علينا أن نستمع إلى صوت الضمير وأن نقرر نسخها صوراً ونصوصاً . حيث أن بحثنا عن مثل هذه اللوح لم يكن مجدياً في الأماكن الأخرى ، أنا الذي أقوم بهذا العمل ، محتفظاً بتأمل

* ترديد لأمر يقال أن أحد معاونى بونابرت قد أصدره خلال الصلة : « شكلوا المربع ! الحمير والعلماء في الوسط » .

رسامينا المهرة * لتنفيذ الرسومات التاريخية التي تهتم تاريخ الفن في مصر مباشرة . وعلى العموم فانا لا يمكن أن نأعتمد على نفسى لنسخ هذه المشاهد الشيطانية التي تعكس - في أكثر الأشكال وحشية وتعقيداً - جميع القوى الجهنمية والعادات والتقاليد الموجودة في العالم الآخر . إنه علم النفس في أرقى صورته .. » .

قد نندهش لاستخدامه للتعبير « علم نفس » في هذا الصدد (ومن المرجح أنه يقصد « دراسة للأرواح في العالم الآخر ») وكلمة « جهنم » ليس لها مدلول واضح في ديانة المصريين القدماء . إلا أننا سنرى فيما بعد أن شامبوليون - دون أن ينسى ذكر دانتي - قد اكتشف في المقابر الطيباوية تصوراً مسبقاً لعالم أضفت عليه اليهودية - المسيحية - مفهوم الخطيئة .

من مقبرة إلى أخرى أوصلت الابحاث صاحب الكشف إلى نظرية حقيقية عن الحياة الملكية ورسالتها وذلك بنائاً على المعاملة التي يلقاها الملك المتوفى . وهو يذكر أن أياً من كل تلك التفسيرات لم يكن نابعاً من تصوراته هو لأن « زمن التخمينات قد ولى بالنسبة لمصر القديمة » منذ أن أصبح يكفيك أن تشاهد - والأبجدية فى يدك - « الاساطير التي تغطى « المقابر الملكية » . ويوضح شامبوليون أن حياة الملك تشبه مسيرة الشمس من الشرق إلى الغرب . كما أن وموته هو مثل هبوط نجم الشمس إلى نصف الكرة السفلى أو الأمتى ، إنتظاراً لبعثه من جديد طبقاً للدورة الشمسية .

صاحب كتاب « البانتيون المصرى » أو « عالم الالهة المصرى » أقام عرضه التوضيحي على أساس مقبرة رمسيس السادس ** وهو الأكثر كمالاً وتفصيلاً فى هذا المجال ! المركب (بارى) تنطلق حاملة الملك - الإله فى بريق الشمس وسرعان ما يلقى فى طريقه الشعبان أبوفيس وهو الآخ - العدو للشمس ، ومع ذلك فإن البارى تعبر المناطق الأثرية - الشانزليزية *** القديسين المتحالفين معه ضد الوحش . إلا أن الإلهة نيفتن تأخذ المركب بين ذراعيها وتغمره فى النيل السماوى . عندئذ يبدأ السباق فى النصف التحتى الذى تعتبر أوساطه التى يسكنها الأرواح المدانة مقدمات لإختراعات دانتي : والعذاب فيها لاتقل قسوة ولا تنوعاً و« المكافئات أقل مثالية . فلنحكم بأنفسنا ! .

* التوسكانيون على وجه الخصوص - هذا ما أوضحه فى مكان آخر .

** كان شامبوليون معتقد فى ذلك الوقت أنه رمسيس الخامس .

*** فى الميثولوجيا هى نقر أرواح الأبطال والرجال الوريين .

« نقرأ دائماً بجانب المدانين بالعذاب الحكم عليهم بالإدانة والعقوبة التي يلقونها .
فنقرأ مثلاً « هذه الأرواح العدائية لا يرقى قط الاله وهو يرسل أشعة قرصه ، إنها لم
تعد تعيش فى العالم الأرضى وهى لا تستمع قط إلى صوت الإله العظيم عندما يعبر
منطقتهم » فى حين نقرأ عكس ذلك بجانب تصوير النفوس السعيدة فى الجدران
المقابلة « وجدوا الرضاء عند الإله العظيم . إنها تقيم فى دار المجد حيث تعيش
الحياة السماوية . الأجساد التى تركتها ستستريح إلى الأبد فى قبورها بينما هى
تتمتع بوجود الإله الأعظم » .

وعليه يؤكد صاحب الكشف :

« بهذا يكون كل ما قاله الأقدمون عن العقيدة المصرية فى خلود الروح والهدف
الإيجابى للحياة الإنسانية قد تم إثباته بالكامل . لاشك إنها عظيمة وسعيدة فكرة
الرمز إلى قدر الأرواح بأكثر الظواهر السماوية لفتاً للانتظار وهو مسار الشمس فى
نصفى الأرض وإلى ربط رسمها بهذا المشهد العظيم والرائع » .

هاهو جان - فرانسوا الذى ولد عالم لغويات ثم جعل مؤرخاً ، وهو فنان بميوله
الطبيعية ودخل مجالاً علمنا - دون أن يدهشنا ذلك - أنه خائف من الذى يكتشفه فيه
أو يتصوره عنه . وهو إذ يتلمس طريقة فى هذه المقابر السامية المقام حيث تراكم ثم
تركز عشرون قرناً يخلص إلى الآتى :

« كانت الديانة هى الأساس الثابت لكل النظام الاجتماعى المصرى . فى مثل هذا
النظام السياسى كان لكل علم من العلوم جزءان متباينان : الجزء الخاص بالوقائع
المسجلة الذى تتكون منه علومنا الحالية والجزء التأملى الذى يربط العلم بالمعتقد
الدينى وهو الرباط الضرورى بل الذى لا غنى عنه فى مصر حيث أن الدين - ليكون
قوياً ويستمر على قوته للأبد - أراد أن يجمع داخله الكون كله ... » .

فى بداية شهر يونيو تخلص جان - فرانسوا تعبيراً عن إحترامه للدورة المقدسة
من أبوفيس وإنتزع نفسه من الأمتى وبعد أن صعد من المناطق السفلى عاد من جديد
إلى المناطق الشمسية - من وادى الملوك وصل دون أن يترك الضفء الغربية - إلى
هذا البرج الذى ولع به بوضوح منذ البداية وهو الذى أطلق عليه اسم الرامسيوم .

« يثور الخيال ويختلج في النفس شعور طبيعي بالرهبة لدى زيارة هذه القاعات المهذمة [..] عندما نتذكر أن الذي شيدها وأقام فيها طويلاً هو أشهر وأفضل الأمراء الذين عرفتهم مصر القديمة عبر تاريخها الطويل كله.. وفي كل مرة أمر بها أقدم لذكرى سيزوستريس شيئاً من الطقوس الدينية الذي أحاطته بها العصور القديمة كافة » .

إننا نعرف أن جان - فرانسوا - منذ زيارته لمتحف تورينو - مغرم بتمثال سيزوستريس وأنه منذ فترة طويلة متيم بهذه الشخصية العظيمة . إلا أن بعض المؤرخين المعاصرين * يعبرون عن تحفظهم إزاءها : ذلك لأن بطل قادش كان رجل برواجندا عبقرياً وأن الفن المصري لم يخرج سليماً من أيدي مشيدي الرامسيوم . أما عن كونه « أفضل الأمراء » فإن هذا اللقب نادراً ما يستحقه الغزاه أو مشيدو القصور الفخمة . « ولكن ألم يكن من حق المكتشف أن يتطرق في غرمياته ؟ وإذا فإننا لن نجادله عندما يقول : « إن الرامسيوم [..] وإن كان أكثر الأثار تدهوراً [...] فهو أكثر ما تتضمنه طيبة نبلاً ونقاءً » ، بل ويزداد إعجاباً بتعليقه الغريب الذي أثارته مشاهدته للبقايا المذهلة لتمثال رمسيس الضخم وهو على الرغم من كونه مهدم ومفتت ومثبور على الأرض مازال مسيطراً على الفراغ الذي كان يسحقه بوجوده في محيطه في قديم الزمان » يجب أن نعبر عن أعجابنا في أن واحد بمقدرة الشعب الذي شيده وبالبراعة الذين هدموه بكل هذه البراعة وهذا الاتقان » .

ثم بعد أن يضيف لچاك - جوزيف المنحوتات البارزة الهائلة التي تصف المعارك التي تصف مجد أكبر رامسيات أثار مصر الفخمة ، يلخص «جنرالنا » رأيه بقوة ساحقة :

« أردت بدخولي في كل هذه التفاصيل أن أعطي لك فكرة عن النحت البارز التاريخي الذي كانت تزين به الأثار الفخمة في مصر وعن النصوص العظيمة التي يروق لي أن أسميها لوحاً هومييري أو نحويات بطولية لأنها مليئة بهذه النار وهذه الفوضى المهيبة التي تحرك فينا الأحاسيس لدى قراءة معارك الإلياذة ... » .

كيف يمكن التعبير بأفضل من ذلك عن إعجابه وبأقل شوثينية مصرية ؟
فمنذ سنوات وهو يثبت بما فيه الكفاية الدور التأسيسي لمصر للحضارة والفن

* مثل جان بيوت .

على الإطلاق مما يتيح له فرص تحية الثقافة التي كانت أفضل من عبر عن عظمتها وذلك من خلال هوميروس .

إن وصف جان - فرانسوا شامبوليون للرامسيوم يعتبر أغنية غرامية . أما الذي خصصه للدير البحري - تحت المسمى الذي جاء فى وصف مصر أى « الاطلال الواقعة شمال مقبرة أوزيما ندياس » - فهو درس فى التحليل التاريخي فهو يثبت أن أعظم المفكرين يمكنه أن يستخدم جميع الوسائل التي يمكنها أن تكشف الحقيقة دون أن يبلغها على الرغم من ذلك لأن الشروط المادية لم تكن متوفرة بعد .

سبق أن رأينا * أنه خلال رحلته إلى الصعيد فى نوفمبر ١٨٢٨ أعتقد المكتشف - وهو يزور هذه الآثار التي لم تكن درست بما فيه الكفاية بعد وكانت الرمال لا تزال تغطيها - أنه رأى خلال مروره أمام صور وجه تم محوه بالطرق عليه - صورة ملك مدان ومخلوع عن عرشه .

الدراسة المتأنية التي قام بها بعد ذلك بستة شهور كشفت له عن شخصية من الشخصيات التي تظهر فى هذه المواقع تحت اسم أميننتى تسبق فى كل مكان اسم تحتمس الثالث الشهير (ماوريس عند الإغريق ووضعوه فى مستوى سيزوستريس ذاته) . ولكن - وهو الأكثر غرابة - أن أحداً لا يتكلم عن هذا الملك الملتحي الذي يرتدى الزي التقليدى لفرعون « إلا مستخدماً أسماء وأفعالاً مؤنثة كما لو كان يتكلم عن ملكة » .

ويلاحظ « الجنرال » فى هذا الصدد أن اسم أميننتى يسبقة باستمرار لقب « الملك سيدة العالم كله » ويتبعه لقب « إبنة الشمس » ويستمر شامبوليون ، فى تعميق بحثه وهو فى ذهول فيلاحظ أن فى كل مكان تقريباً كان خرطوش أميننتى ليس فقط مطرقاً بل وضع فوقه خرطوش تحتمس الثالث وإلى جواره ظهر فجأة اسم أمنسى . وعلى هذا الأساس راح يغير من ترتيب الأسرة الثامنة عشر جاعلاً من أمنسى أبنة تحتمس الأول ليس فقط أخت وزوجة تحتمس الثانى ولكن جعلها أيضاً ملكة مصر الحقيقية لأكثر من عشرين عاماً قبل أن تتزوج أميننتى الوصى على العرش خلال السنوات الأولى من عصر تحتمس الثالث ويخلص إلى الآتى :

* راجع الفصل ١٦ ص 561

« الإضافات التي تأثرت بها معظم النصوص الشارحة لما قام به الوصى أمينتي
تثبت أن وصايته كانت بغيضة وثقيلة على الوصى عليه تحتتمس الثالث ويبدو أن هذا
الأخير قد إهتم بأن يزج بالوصى عليه في غياهب النسيان . ففي عهد تحتتمس
الثالث جرى بالفعل تطبيق كل قصص أمينانتي .. » .

خلفاء مؤسس علم المصريات توصلوا إلى الحقيقة التي هربت عن إدراكه وتعرفوا
على حتشبسوت تحت ماطرقه ماوريس على الرغم من تخميناته التقريبية لعام ١٨٢٩ .
لعله من حقنا أن نقيم هذه الأبحاث التجريبية العبقريّة فنعتبرها أفضل من كونها
إنتصار كامل للحقيقة نظراً لأن التتقيب كان يتم في رمال تخفى جيداً ما تحتوية ، كما
تخفيه آلاف السنين فلا تكشف المعاول التي تتعامل معها سوى عن جزء بسيط من
الحقيقة . هل وقع شامبوايون هنا ضحية عدم كفاية المستندات المتاحة للباحث أم وقع
في خطأ لغوي بسبب تفسير خاطئ لنهايات الكلمات المحددة لوظيفتها ؟ إن هذه
النهايات ذاتها وهي عبارة من رموز صوتية تقع عادة في آخر « الكلمات » كانت من
إكتشافه هو وهي أحد العناصر الجوهرية من « أوریکا » عام ١٨٢٢ ؟ إننا نمتنع
هنا عن الفصل في الأمر ولكننا نقول في ذات الوقت أننا نحبه على هذه الصورة
وهو يتهته ويخطئ هدفه بقليل ..

بعد ذلك ببضعة أيام يواجه أديب لغزاً آخر من الألفاظ الشهيرة في طيبة أي :
أصل ومعنى والهدف من وراء « تمثالي ممنون العملاقين » وهو الاسم الذي أطلقه
عليهما الاغريق . غيران المحترم والحدق نونون - كما يذكر جان - فرانسوا - رأى
أنهما لأميرتين . لم يقف عدم الوضوح الخاص بجنس صاحبي التمثالين حائلاً أمام
حصافة المكتشف إذ أعلن أنهما شيدا لتمجيد أمينوفيس الثالث وهما على ما يبدو
كانا في موقعهما عند مدخل هذا المعبد البالغ الفخامة « أكثر روائع العاصمة
القديمة إثارة للدهشة » وكان المصريون يسمونه « أمينوفين » . أما اللغز الآخر الذي
كان يطرحه هذان العملاقان فهو الغناء الذي أدعى العديد من الرحالة الاغريق
والرومان أنهم سمعوه يصدر من حنجرة أحد التمثالين العملاقين ما أن تقع عليه أولى
أشعة الشمس ، عن هذه الظاهرة كان بطلنا أقل ثقة إزائها واكتفى بأن أورد
شهادته :

« وإن كنت جالساً مع شروق الفجر فوق ركبتى ممنون » حسبما أورد ساخراً ،
فإنني أسجل « عدم صدور أي نغمة موسيقية من فمه تشتت إنتباهي من الصور
الحزينة التي كنت أتأملها ... » .

كشفت دراسته المستفيضة للأثار التي لا يمكن حصرها في مدينة حابو أن هذا التل يعتبر بمثابة « كشف مختصر للأثار المصرية الضخمة » حيث يتزامن « المرائع والأصيل مع المقوت (المضاف) » . وهو ما يقود جان - فرانسوا - إلى تأملات جديدة حول العلاقة بين الفن المصرى والجماليات الاغريقية . نقطة إنطلاقه في تقييمه كانت « الحالة المزرية » لترميم أحد معابد الاسرة الثامنة عشر تحت حكم بطليموس - إيفرجات الثانى : أنه يرى فى ذلك نفيأ قاطعاً للرأى القائل بأن الفن الفرعونى إكتسب اكتمالاً على يد الإغريق فى مصر .. هل كان من واجبه أن يؤسس إثباته على مثل هذا البرهان المشكوك فيه من حيث أنه لا يمكن أن نعتبر المستعمر البطليموسى (اللاجيدى) أفضل الممثلين للفن والجماليات الإغريقية ولا الترميم هو أفضل تعبير عن إحدى الثقافات . إلا أن مرافعته فى تطرفها - وهى مثلاً فى نوعيتها - تعتبر بالفعل مؤثرة :

« أكرر من جديد أن الفن المصرى لا يدين إلا لنفسه بكل ما أنتج من أشياء ضخمة وبقية جميلة وأرجو ألا اثير استياء العلماء الذين أقاموا معتقداتهم على أساس إيمان راسخ بأن فنون اليونان تولدت تلقائياً بأننى أؤكد أنه من الواضح بالنسبة لى كما هو الحال بالنسبة لجميع الذين شاهدوا مصر جيداً أو الذين لديهم معرفة حقيقية بالآثار المصرية الموجودة فى أوروبا بأن الفنون بدأت فى اليونان بأن قلدت تقليداً أعمى الفنون المصرية التى هى أكثر تقدماً بكثير مما يعتقده العامة فى زمن كانت المستعمرات المصرية الأولى على إتصال بالسكان المتوحشين لمنطقتى الاتيك والبيلوپونيز .

علمت مصر القديمة الفنون لليونان التى بدورها طورتهأ نحو مراحلها الأسمى . ولكن بدون مصر لم يكن لليونان أن تصبح الارض الكلاسيكية للفنون الجميلة . هذه هى نظريتى التى أؤمن بها إيماناً راسخاً حول هذا الموضوع البالغ الأهمية وأكاد أخط هذه السطور وأنا أمام النحت البارز الذى نفذه المصريون بأفضل حنكة .. فى الصنعة وذلك ١٧٠٠ عاما قبل العصر الميلادى فماذا كان يفعل الإغريق حينذاك .. » .

ولكن كيف كان يعيش - أوكانوا يعيشون - فيما أسماه جان - فرانسوا - « الأرض المقدسة » الواقعة بين المناطق السفلى التى تغوص فيها الآلهة ونار السماء التى لا ترحم ؟ فى ٤ يوليو ١٩٢٩ - بعد أقل من عام من وصول الحملة كتب إلى جان - جوزيف هذا التقرير الملى بالأيحاءات :

« لعلك تعتبرنى رجلاً قام لتوه من بين الأموات : حتى الأيام الأولى من شهر يونيو كنت أحد سكان القبور حيث لا يهتم أحد بشئون الدنيا [...] أسكن منذ ٨ يونيو قصرنا فى الجرنة * وهو عبارة عن كوخ من اللبن من دور واحد وهو يعتبر فخيماً بالمقارنة بالأوكار والشقوق التى يقطنها مواطنونا العرب [...] لا أقيم فى القصر سوى فى الليل ، فما أن يبيغ أول ضوء النهار إلا وأقوم وأركب حمارى وأنتقل فى السهل بخطى وثيدة استنشاق نضارة الصباح ... » .

إقامتهم هذه فى القرية تتبع أهميتها من أنها جعلت رجالنا الباحثين عن الكنوز فى مكان يعطى فكرة عما كان عليه مقر إقامه إحدى الشخصيات الهامة فى مصر القديمة . فبعد المعابد والقبور أخذوا يجربون هنا بعضاً من مكونات الحياة اليومية لرعية فرعون - الأكثر ثراءً . ونحن نعلم منذ إقامته فى بنى حسن أن صاحب الكشف يوجه إهتماماً لمعطيات الحياة الإجتماعية لسكان وادى النيل بنفس مقدار إهتمامه بالمواضيع الهامة المقدسة والتاريخية ** .

كان يعمل من سبع إلى ثمان ساعات يومياً ، من الفجر حتى الظهر والساعة الرابعة حتى السادسة فى الحر الشديد . ولكن كم هو مرهق الآن ومهما قال فى رسائله أنه فى صحة « تتماسك فى روعة » فإن رفاقه كانوا يعبرون عن قلقهم من آثار الجو والمجهود الضخم والمشاكل والمسئوليات على صحته وربما أيضاً بعض المجازفات الغذائية . إن تكوينه الجسدى الذى أشرنا إلى نقاط ضعفه فى عديد من المرات لم يكن ليكتفى بالغذاء الضعيف الذى أشار إليه أحياناً فى مراسلاته والأكثر من ذلك أهمية ، شرب كميات كبيرة من ماء النيل دون ترشيحها .

كان معاونوه يكتشفونه ممدداً أرضاً فى أغمائة أمام أحد المقابر أو داخلها ومذكراته منثورة حوله فتقرروا عدم تركه وحده بعد ذلك . إلا أنه أصر على أنه يأسر على الجميع أن يتركوه وحده فى بعض الحالات فى وحدة وسكون « حتى أتمكن من سماع أصوات الأجداد » .

وحيداً فى قلب مقبره سبتى الأول المحفورة فى الجبل ، وحيداً مع « أجداده » الذين يلهمون حياته كلها منذ ما يقرب من ثلاثين عاماً ، هاهو « صاحب الرؤية

* الذى وضعه بيتشيني تحت تصرفهم وهو المسئول عن حفريات أناستازى .

** سيسكن جان - فرانسوا ورفاقه خلال الأسابيع الأخيرة من إقامتهم فى طيبة ، المعبد الصغير للإله أوبه بالأقصر .

النافذة « الذى يجد بكل ما أوتى ليعرف ، ثم يفزع من فتوحاته ، يقف وحده فى هذا الظلام الذى يمزقه - كما لو كان حريراً - طيران الخفافيش وقد بهره مسار إله - الشمس ونعم نيفتى وبياض بشرة أوزيريس المقدس .

هاهو جان - فرانسوا شامبوليون المكتشف وقد اكتشفته مصر . واكتشفه زملاؤه أيضاً . كانوا أربع عشرة حوله فى البداية ثم اثنى عشرة ثم تسعة ثم سبعا . كان بيابنت أول من تركه ثم جالا ستري . ثم انسحب لنورمان فى أول يناير ١٨٢٩ الذى كان كما يقال اليوم - قد أخذ تذكرة « ذهاب فقط » . وبعد ذلك بفترة قصيرة لدغه عقرب الدكتور ريتشى فاقعده عن العمل - وقد توفى بعد ذلك بخمسة أعوام فى فلورنسا مشلولاً ، ويقول بعضهم : مجنوناً . أما البروقسور راضى فسناه يهرب يوماً ناحية الدلتا التى أراد أن يعبرها سيراً على الأقدام فتاه فيها إلى الأبد .

سيترك الكسندر دوشان القافلة بدوره وكان على وشك أن يجر معه لوت ولوهو وبييرتان - لولا أن شيرويينى نجح فى إبقائهم إلى جوار « الجنرال » .

ظل أبين مؤلف موسيقى أوبرا « ميدى » وسيظل ، أكثر رفاقه المتحمسين له وأكثرهم ولاءً والأكثر حناناً . منذ بداية الرحلة أندمج داخل المجموعة الفرنسية * وتصرف كما لو كان سكرتير وياور شامبوليون : إذ كان حريصاً على تلبية كافة رغباته وعلى مساننته فى أزماته الصحية ومرافقته فى نزواته العفوية وحصل لذلك على اعتراف المكتشف بجميله عليه . وكلما اقتربت الرحلة من نهايتها كلما فرض شيرويينى نفسه كالرفيق المفضل ** .

بعد أن مرت حادثة « لوحة النزاع » ظلت العلاقات بين الفرنسيين والتوسكانيين صافية على الدوام . لم يكن « الجنرال » يكتفى بتقدير أيوباليتو روسيليني لقضائه العلمية وفهمه للظروف المحيطة ومزاجه المعتدل دائماً بل أعجب أيضاً بقدرات عمه جياتانو روسيليني كمهندس معمارى وموهبة الرسام جيسيبي أنجيليلي وكان يفضل على زملائه الفرنسيين ، كما كان مقداراً للخدمات التى أداها الدكتور ريتشى فى هذا المجال والمجالات الأخرى .

* كان قد نال الجنسية الفرنسية .

** عشر على بعض أجزاء من منكراته وهى تحتوى على رسومات وتعتبر إحداهما أكثر صور شامبوليون المعروفة تأثيراً على المشاهد . وقد نقله وعلق عليه بذلك ميشال دوفاشنار فى Revue Française d' Egyptologie الجزء ٢٨ صفحات ١٩٨ - ٢٠١ .

الواقع أن المشاكل جاثت من الجانب الفرنسى . لنمر كالكرام على انطوان بيبانت الذى أفقدته مغامرة الرحلة كيانه . ثم إننا نعرف أن شارل لونورمان كان قد أخطر رئيسه بأنه لن يتمكن من إطالة إقامته لما بعد الأيام الأخيرة من عام ١٨٢٨ إلا أن « الجنرال » أسف كثيراً لمغادرة الكساندر دوشان إلى اليونان فهو مجد فى عمله بقدر ما هو كفء ، وقد تأثر للغاية لما أبداه الرسامون الشبان الثلاثة من رغبتهم فى الانضمام إليه فى الإبتعاد عن المهمة .

كاد أن يؤدى نستورلوت دور يهوذا عندما صرح بأنه أصيب « بتخمة من الهيروغليفيات » وأن ما يتقاضاه لا يتناسب مع مجهوداته . غريب أمر موظف الجمارك هذا الذى ولع بعلم المصريين ثم كان يحلم بصوت عال - فى بعض الأحيان - بالعودة إلى وظيفته الأصلية وكان يصف نفسه بأنه « رجل يعبر النار ويعتقد أنه وصل باستمرار إلى حافة الموت » . كان قلقاً ومتطرفاً فى انفعالاته ومتقلب المزاج وسريع الغضب ، حاداً أكثر منه ذكياً هذا الجمركى الذى فعل الكثير ليرفع من درجة القلق لدى قائد الحملة . إلا أنه عوض كل ذلك بأن سهر عليه وهو على فراش الموت ثم بأن دافع ببسالة عن ذكراه .

لو أن هذه الشهادة لشارل لونورمان لا تنصب سوى على الجزء الأول من الرحلة إلا أنها تظل ذات قيمة بالغة ! « لا أجد سوى المديح لأصف به زملائى الفرنسيين فى الرحلة . شامبوايون ممتاز باستمرار مسرفاً فى عطائه من كنوزه العلمية ، سهل المراس على الرغم من عبقريته . رفيق مكتمل وأنى لمدين له لدرجة أنه لا يمكننى سوى أن اتعلق به مدى الحياة . الرسامون الخمسة أعضاء البعثة جميعهم شباب ممتازون ودمثو الاخلاق عشت معهم كأخ لهم : أفضل الجميع هو دوشان ... * » .

ثم بعد ذلك بفترة عندما راجع شارل لونورمان الدروس المستخلصة من تعاونه مع شامبوايون كتب يقول : « ... إن ماتمكّن نفر قليل جداً من الناس مثلى من تقديره عنده هو هذه السرعة التى تحكم النتيجة وهذه القوة فى الحدس التى لا تملكها سوى العبقرية وفى نفس الوقت هذه البرائة عند البحث عن الحقيقة وهذه البساطة النبيلة فى الإعتراف بالخطأ عندما يكتشف أنه وقع فيه ... » .

* هذا التقدير أثر فيه لدى لونورمان - وله صفة شبه رسمية وشخصية متعالية بعض الشيء - كون دوشان ابن محافظ المكتبة الملكية .

أضاف لونورمان لهذه الصورة الجميلة للعالم وهو يعمل على أرض الواقع لمسة يجب أن نغيرها أهتمامنا . بعد أن عدد مناقب شامبوليون العلمية - حيا فيه ممثل سلطة آل بوريون المتحفظ : « ميله الهادئ لأن يتجاهل ما لم يحن الوقت لمعرفة » : وهكذا - بينما كان يعترف لأخيه « برعبه » لما أكتشفه ، كان جان فرانسوا يقول لزملائه المتدينين أنه يقبل ألا يتضح « كل شئ الآن » فيما يتعلق بالأمور التي تعرض العقيدة الكاثوليكية للخطر وتثير فزع هؤلاء الذين كانوا يرعون حملته ..

الحقيقة ستكون الأقوى وستفرض نفسها بسرعة . ولكن يمكن أن نقول منذ الآن أن « صاحبنا الدوفيني المعفرت » لن يمنع نفسه من إلقاء غطاء مؤقت على وعاء الساحرات إلى أن تتولى ثورة عام ١٨٣٠ عملية فك أسر التاريخ بالمعنى الكامل للكلمة . ولكنه كان قبل ذلك قد حرر مذكرة سرية لمحمد على سلمها لنائب الملك في مصر قبل رحيله منها ، تجرأ فيها فإنتقد التسلسل التاريخي الذي جاء في التوراة . ويجدر أن نذكر هنا أن ملحوظة لونورمان تزداد أهمية عندما ندرك أنه كان متخصصا في الآثار المسيحية القديمة وأن هذه المشاكل الخاصة (« وربما حان الوقت لمعرفة ») قد فرضت نفسها عليه أيضا وقد أصبح في آخر أيامه غاية في التدين .

وإذا كان صاحب الاكتشاف لم يمنع نفسه من الحيطة التكتيكية فيما يخص صلب الموضوع ! فهو لا يخطئ ولا يتردد في الشؤون المتعلقة بواقع مصر الحى . لقد رأيناه مهتما منذ البداية بهذا الشعب الوريث البعيد لتاريخ عظيم وقد تأثر للغاية من ظروفه الحالية . هذا وكان صديقه الدكتور باريزية عالم الأوبئة الموفد إلى الشرق للبحث عن وسائل مكافحة الطاعون قد حثه على ذلك ولما لم يتمكن من لقائه في صعيد مصر كتب له في يناير ١٨٢٩ :

« إنك تعجب بروائع مصر القديمة أما نحن فإننا نبحث بتمعن في مصائب مصر الحديثة التي لا نهاية لها . أوه ! كم هى شاسعة المسافة التي تفصل الاثنين !! كلما أمعنت التفكير كلما زادت دهشتى لتاريخ مصر القديم ولحكمتها وعبقريتها وعلومها وقوتها . وكلما زادت مشاهدتى زادت قناعتى بأن مصر اليوم وضعت وسط الأمم كمثل لا يجب أن يخشى منه ويلزم الهروب بعيداً عنه . كل ذلك يحدث وهى تحت سماء رائعة وعلى أرض خصوبتها متناهية ... » .

لم تكن أراء شامبوليون أقل تشدداً عن مصر المصريين وقد انحنت قامتهم أمام سطوة الباشا الكبير ولم تتوقف عن كونها بضعة سطور فى رسائله إلى أخيه أو إلى داسييه وكان معروفا منذ البداية أن لهذه الرسائل صبغة العلنية . أثناء حياته اليومية فى صعيد مصر لم يكن يتحرج من إسداء النصح للفلاحين ليتفادوا بعض المضايقات أو دفع بعض الضرائب ولايد أن ذلك لم يخفى عن عيون جواسيس الباشا . وسنرى من محادثات الباشا مع « الجنرال » والدكتور باريزيه فى نوفمبر ١٨٢٩ أنها ستوضح له الأمور .

حكم صاحب الكشف حكماً يبدو كما لو أنه لا يقبل النقض ضد نظام محمد على فى خطاب إلى مسيو داسييه غداة عودته إلى فرنسا .

« محمد على هذا الرجل الممتاز لا يفكر فى شئ سوى إخراج أكبر كمية ممكنة من المال من مصر المسكينة ولما كان يدرك أن القدماء رمزوا إلى هذا البلد بالبقرة فهو يطلبها ويرمقها من الصباح إلى المساء قبل أن يذبحها وهو ما سيحدث عن قريب . هذا هو بالضبط ما ينتج عن مشورة دروفيتى الطيبة والنبيلة وجومار العظيم ومن كانوا على شاككتهما من رعاة الشعوب الأخرى . إن مصر تثير الرعب والشفقة .. » .

إلا أنه يعبر عن رأى أقل قسوة فى الباشا الكبير عندما يلقيه فى أحاديثه بكنية كاشفة لما يريد قوله وهى : حورس - تيفون . حورس المفيد والخالق وصانع حداثة مصر ؛ تيفون هو الإله القاتل الذى حدد لنفسه هدف انتزاع وادى النيل من غياهب الظلمات ففرض على شعبه قانونا لا إنسانياً وأجبره على السخرة الدائمة فى جميع المجالات وعلى تشييد هرم لا يكتمل .

فى ٤ سبتمبر ١٨٢٩ أعطى « الجنرال » أوامره لمغامريه بالانسحاب .. الإبحار تم بعد هبوط الليل عند أعتاب معبد الأقصر . كانوا جميعا يستعجلون الانتهاء من كل هذا . إذ لعب المناخ دوره فى تلك الحالة التى انتابتهم . وكانت المهمة قد انتهت فى مجملها ، وبدأت بعض التوترات تظهر على السطح وكان شامبوليون قد بلغ به الإرهاق مداه . وذهبت آثار النشوة بعد أربعة عشر شهراً من الأعمال الجسورة والاكتشافات والانبهارات ، وهذا شئ طبيعى جداً .

كان من المخطط التوقف في دندره وأبيدوس . التوقف الأول تم اختصاره بسبب حالة الإرهاق الذي كان عليها رئيس البعثة ولم يعد في إمكانه أن يخفى ذلك سوى عن أخيه . أما التوقف الآخر فقد أُلغى بسبب الفيضان . سنذكر هنا إشارتين متوازيتين إلى هذه المرحلة النيلية في اتجاه الدلتا .

الأولى لروسيلىنى : « وسط أشجار التمر هندی والسنت والصفصاف كانت هذه الرحلة قصيرة ولكنها ممتعة لأنها جاءت بعد الإقامة في الصحراء الجرداء فأعادت الطبيعة الصفاء إلى نفوسنا » .

الأخرى لشامبوليون : « نرى البؤساء من الفلاحين نساءً ورجالاً واطفلاً يسرعون الخطى حاملين القفف المليئة بالتراب ليتمكنوا من إنقاذ منازلهم وماتبقى لهم من مؤن [...] إنه مشهد مؤسف [...] الحكومة لن تطالب بضرائب أقل على الرغم من كل هذه الكوارث » .

ومهما كان جان فرانسوا شامبوليون لا يميل كثيراً للمشاركة في نهب وادي النيل إلا أنه لم يترك وادي النيل خالي الوفاض . فهو لم يجعل من صرخة الأسف الشديد الزائفة التي أطلقها قبل ذلك بتسعة أعوام بخصوص رسم أبراج معبد دندره ، لم يجعلها نبراساً له ، فعلى الرغم من تقاهة المبلغ الذي خصص له مؤخراً (عشرة آلاف فرنكا) نجح في أن يضيف إلى لوحته النحت البارز الرائعة التي اقتسمها مع روسيلىنى والتي انتزعت من مقبرة سيى الأول ، تابوتا لا يقل عنهما جمالاً وهو من البازالت الأخضر تم شراؤه بناءً على أوامر منه لدوشان من وزير الحربية محمود بك * .

إقامته القصيرة في القاهرة خلال شهر سبتمبر أتاحت له فرصة مقابلة ابن محمد على ** وقائد حملاته العسكرية إبراهيم باشا وقد وجد فيه مثل العديد من المؤرخين بعده - رجلاً ذا شخصية أكثر عظمة من أبيه بل إنه ذهب إلى القول عنه في خطاب لداسييه : « إنه رجل فريد في عظمته . جدير تماماً بحضارة مصر .. » وهو لذلك حث إبراهيم إلى القيام بحملة سلمية لمرة واحدة على الأقل إلى منابع النيل : إنه هدف جميل لمتنصر سلبت منه انتصاراته حتى ذلك الحين .

* القطعتان معروفتان في اللوفر في صالة هنرى الرابع .

** بالتبني .

ملحوظة من المترجم : نرى أن المؤلف أقر بون تحفظ ما يتردد عن عدم أبوة محمد على إبراهيم على الرغم من أن المؤرخين لم يتفقوا قط على ذلك . (المترجم) .

فى الإسكندرية - حيث سبقت لأكثر من شهر ، استقبله القنصل ميمو - الذى تولى منصبه مؤخراً بعد دروفيتى - يقول أنه غمره بالعديد من علامات « الود الصادق » وهو يستخدم صفة « الصدق » حتى يميز هذه العلاقة عن التى ربطته بسلفه . وقد كان « الجنرال » أكثر وضوحاً فيما بعد إذ قال : « إن ميمو رجل سكن قلبى مباشرة فكان بالنسبة لى ما كان على دروفيتى أن يكون » .

الطراد « أسترولاب » أنيط به إعادة شامبوليون إلى فرنسا ومعه آخر الرفاق سالفادور شيرويينى وقد لقبه بحنان « ياورى الشخصى » . أما التوسكانيون فقد سبقوه إلى ليفورن فى السابع من أكتوبر على متن مركب تجارى . فى حين وجد الرسامون الشباب أعضاء اللجنة الفرنسية وهم لوت ولوهو ووبارتان فرصة استغلال موهبتهم فى الاسكندرية ثم بعد ذلك فى القاهرة لبعض الوقت . ولما كان على المركب الفرنسى التوجه أولاً إلى محطات الشام فقد اضطر صاحب الكشف أن ينتظر الإبحار حتى شهر ديسمبر .

وجد فى هذه المهلة فرصة يجرى فيها عدة مقابلات جديدة هو وصديقه الدكتور باريزييه مع الباشا وأبنة إبراهيم . ولما كان الطبيب قد أنقذ الأمير من نوبة صرع أصابته بعد وجبة دسمة للغاية أصبح محمد على يعبر للشخصين الأروبيين عن نفس القدر من الإعتراز : « الأول أقام أبنى من فراش الموت والأخر أعاد إلى الحياة » أمجاد بلادى . وأتاح ذلك للضيفين فرصة الدفاع عن التراث التاريخى لمصر لدى الباشا من أجل الحفاظ عليه والدفاع أيضاً عن « كرامة الإنسان المصرى » . إلا أن توزيع الأدوار هنا لم يمنع قط عالم المصريات من الخوض فيما يطلق عليه اليوم «شئون الساعة » .

لم يكن جان - فرانسوا شامبوليون رجلاً يدع كل هذه الفرص تمر دون أن يدفع بالأمور التى تهمة وتشغل بال مواطنيه إلى الأمام . فخلال مقابلاته مع محمد على وإبراهيم دافع عن مشاريع صديقة لينان دو بالفون من أجل إخضاع النيل بصورة نهائية فى خدمة الزراعة المصرية وذلك بواسطة « الرى الدائم » . ونجح فى أن يغير من لتجاه الباشا لتحويل مستشفى القاهرة إلى مصنع للحريز وهو المستشفى الذى أنشأه لتوه الدكتور بارتيليمى كلوت مواطنه من جرونوبل كما جعل الباشا يقتنع تماماً بحتمية دعمه الكامل والنشط للبعثة التعليمية التى تضم مجموعة من الشباب المصرى المتعلم والتى كانت موجودة فى فرنسا والذى سيكون نجمها المتألق رفاعة الطهطاوى

والتي ظلت بمثابة همزة وصل بين الثقافتين لفترة طويلة . وحصل في النهاية على تأكيد إهداء مسلة الأقصر من محمد على لفرنسا - وهي المسلة التي تيم بها جان فرانسوا قبل ذلك بأربعة شهور * .

إلا أن أهم مبادرات صاحب الكشف كانت المذكرة التي سلمها للبasha من أجل الحفاظ على آثار وادي النيل وكان قد سجل عبر رحلته فيه الحالة المتدهورة التي كانت عليها هذه الآثار بل سجل أيضاً إختفاء بعضها . إنها صرخة استغاثة شجاعة أطلقها بعد التحذيرات الشفهية التي لم يظل يكررها بها خلال لقائاته مع سيد مصر . فلنحكم بأنفسنا .

«...إنه من مصلحة مصر العليا نفسها أن تحرص حكومة سموكم على المحافظة على المباني والآثار القديمة التي تشعروا أوروبا وعلاؤها جميعاً بالأسف العميق على الدمار الذي يلحق بها . [..] من المعلوم بالطبع أن هذا التدمير البربري يتم على الرغم من نوايا سموكم ومن رؤيتكم الثاقبة المعروفة جيداً من الكافة ** ومن أشخاص عاجزين عن تقدير الأضرار التي يسببونها لبلادهم عن جهل .. ومع ذلك فإن هذه الآثار قد ضاعت بالفعل دون رجعة .. » .

ويعد أن ذكر قائمة بثلاثة عشر وأربعة عشر أثر تم تدميرها مؤخراً مثل آثار أشمونين أو الكاب « أو جزيرة اليفانتين أخذ شامبوليون يستحلف محمد ألا ينتزع شيئاً من الآثار بعد الآن ولأى سبب كان من الأربعة موضعاً الذي حددهم - ومنهم الكرنك ، الأقصر ، الجرنة ، ومدينة حابو ، أسنا ، إدفو ، كوم أمبو ، أبو سمبل وبعض الآثار الأخرى فيما وراء الشلال الثاني .

ويعد أن أوضح أن « الآثار المحفورة في الجبال لا تقل أهمية من المشيدة بالحجارة المستخرجة من هذه الجبال » دافع صاحب الكشف عن حماية سقارة وبنى حسن وبيبان الملوك وغيرها .

« .. الآثار التي تدمر يومياً تدميراً كاملاً [..] على يد الفلاحين لحسابهم الخاص أو على وجه الخصوص - لحساب تجار الآثار الذين يعملون لحسابهم [..] إن الكهوف المنحوتة أو المرسومة التي تكتشف يومياً في سقارة وفي العراية أو في الجرنة تكاد تدمر تماماً فور فتحها بسبب جهل المنقبين أو عمالهم [..] إن مصلحة

* راجع الخاتمة ص 645 .

** خداع جسكوني .

العلم لا تفرض بطبيعة الحال توقف عمليات التنقيب لما تجذبه العلوم كل يوم من حقائق مؤكدة وأنوار لم تكن تحلم بها قط ولكنها تطالب بفرض نظام على المنقبين يسمح بأن تكون المحافظة على المقابر التي يتم الكشف عنها اليوم وفي المستقبل مؤكدة تماماً ومؤمنة جيداً ضد ما يناله منها الجهل والمجشع الأعمى ..

الاسكندرية في نوفمبر ١٨٢٩

وهكذا استكمل محافظ المتحف مهمة المكتشف . صحيح إننا رأينا أن رئيس الحملة لم يحجم هو ذاته عن انتزاع لوح رائعة من الحفر البارز من مقبرة سيثي الأول ولا من استعادة أو الحصول على هدايا أو شراء قطع أثرية لم يكن الهدف من ورائها إثراء مجموعات متحف أجنبي . ولكننا نتذكر أيضاً ما نقلناه عن مدام بريشيانى عن تقاليد ذلك الزمان . ولنا أن نتخيل ما كان يمكن لأفراد أقل تمسكاً بالتراث الثقافى المصرى من شامبوليون وروسيليني أن يأخذوه معهم من رحلة مثل هذه وفى ذلك الزمان ... أن المصلح الكبير لا يلغى السلوك القديم برمته ولكنه يندد بمساوئه ويحدد فضائل جديدة .

قبل أن ينصب نفسه رائداً لاجوست مارييت الذى أسس بعد ذلك بثلاثين عاماً إدارة الآثار المصرية - أشرف جان - فرانسوا على شحن تابوت « زيهار » الرائع على متن الاسترولاب وكذلك تمثال الملكة كاروماما الذى اشتراه فى الاسكندرية ولوحة النحت البارز المأخوذة من مقبرة « سيثي الأول » وكان فى حالة قلق من أن تفعل معه الحكومة البريطانية ما فعلته بالنسبة لحجر رشيد : لأن لندن ادعت الآتى : بما أن من اكتشف مقبرة ستي الأول هو بلزوني وبما أن هذا الأخير يعمل لحساب هنرى سوات فإن جميع القطع الخاصة بالمقبرة تعتبر ملكية إنجليزية إلا أن هذه المطالبة لم تصل إلى أية نتيجة واحتفظ شامبوليون بغنيمته .

رفع هلب « الاسترولاب » الذى كان يقوده فارنيناك نو سان - مور وهو من مقاطعة كارسي مثل صاحب الكشف - فى ٦ ديسمبر ١٨٢٩ - كان معروف عن هذه السفينة التى قادها دومون نورفيل عبر عدد لا بأس به من العواصف وفى عدد مماثل من المناطق ، أنها ثقيلة وبطيئة ولكنها محصنة ضد الأزمات الكبيرة . واستغرق عبورها للضفة الأخرى من البحر تسعة عشر يوماً وهو متوسط طول الرحلة فى الشتاء وذلك على الرغم من أن بضعة أيام منها كان الجو فيها هادئاً تماماً .

استمتع جان فرانسوا شامبوليون بالرحلة . فيخلاف الصحبة الطيبة لسالفادور شيرويني سعد أيضاً بصحبة القبطان فانيك . وهو رجل شجاع على درجة عالية من الثقافة . كانوا يتبادلون أطراف الحديث وكان هو يسجل ملحوظاته ولكنه كان يغفو كثيراً إذ كان منهكاً للغاية .

فى يوم عيد ميلاده التاسع والثلاثين - ٢٣ ديسمبر ١٨٢٩ - رسى الاسترولاب فى ميناء هيار . وكان عليه أن يعبر محنة (الكارتينا) والحجر الصحى لأن الطاعون كان منتشرًا حسبما يقال فى الشرق كله وأحيط بعد ذلك علماً بأن العشرين يوماً اللازمة للعزل قد أضيفت لها عشرة آخرون له وإزملائه لأن الاسترولاب كانت قد توقفت فى ميناء اللاذقية حيث يقال أن خطر نقل الطاعون منها قد ارتفع . أكدت مدام بارتلو بان فى مذكراته المصاحبة لمراسلات شامبوليون التى قامت بنشرها أن البارون ديسار - وزير البحرية فى ذلك الوقت - كان المسئول عن هذا الإجراء التعسفى الذى أثر كثيراً فى صحة الرحالة شامبوليون - وقد ذكر تلك المحنة فى رسالة موجهة إلى مسيو داسيه : « لدى وصولى إلى بلاد الأجراس * كما يسميها أصدقائى الأعراء من أهل الصحراء ، اضطرت إلى أن أتركهم يعاملونى معاملة المصابين بالطاعون ويحبسونى فى محجر قدر وتيس .. » .

أوضح لجاك - جوزيف أنه قرر فى بادئ الأمر تمضية فترة الحجر الصحى على متن الاسترولاب إلا أنه اضطر - بسبب استحالة إشعال النار داخله - إلى اللجوء إلى غرفة سيئة فى الحجر لأنها مزودة بمدفأة إلا أن هذه الأخيرة كانت تصدر كمية هائلة من الدخان ولذا كانوا يطفئونها فى كثير من الأحوال إذا لم يتولى الهواء العاصف ذلك بنفسه .. كانت الأمطار والثلوج تنهمر . بالنسبة له لسالفادور وكانا قد خرجا لتوهما من وادى النيل كانت المحنة قاسية . وكانت بالفعل محنة بالنسبة له قاتلة .

لنحاول أن نتصور الحالة الفكرية التى كان عليها الرجل الذى أكمل لتوه رحلة لانظير لها وهو يعود لبلاده ومعه ثروات تخصصها - تحيط به هالة المجد . كانت أوروبا كلها قد قرأت لتوها رسائله التى أرسلها من عمق آلاف السنين ومن أرض أسطورية وهو الآن قابع ينهش السعال صدره بجوار مدفأة فى جو زمهرير ينتظر الإفراج عنه من هذا السجن المخصص للمصابين بالوباء .. الشئ المؤكد فى مجمل الأمر أن استقبال كريستوفر كولومبس كان أفضل من ذلك ..

* أى بلاد المسيحيين - بسبب الكنائس .

شغل وقته فى فترة الانتظار القاسية هذه بأن أمطر بالخطابات كل من كان عليه أن يقدم له تقريراً عن رحلته لسبب أو لآخر .

فإلى سوستان دولاروشفوكو - حامى حماه قال :

« من ناحية الأبحاث العلمية التى كانت الهدف الرئيسى (للرحلة) يمكن القول بأن ما حدث قد فاق كل آمالى : إذ أن الثراء الذى تتسم به ملفاتى يثير الإعجاب [..] كان من واجبى أن أفعل ما فى وسعى لكى أثرى القسم المصرى بالمتحف الملكى بمختلف أنواع الآثار التى تنقصه [...] لم أتلو جهداً للوصول إلى هذا الهدف : كل ما أمكننى إخاره من أموال تفضل بها على بلاط الملك ومختلف الوزارات من أجل القيام بالرحلة - أستخدم فى التنقيب والحصول على آثار مصرية من كل نوع - من أجل متحف شارل العاشر ... » .

وكتب إلى البارون دولابويورى - وزير البلاط الملكى الذى أتاح لهذه الرحلة أن تتم :

« جلت فى مصر خطوة خطوة وأقمت فى كل مكان ترك الزمان فيه بعض آثار من روعة الماضى [..] الأشياء التى جمعتها تخطت توقعاتى [..] أعتقد أنه فى استطاعتى القول أن تاريخ مصر وديانيتها والفنون التى راعتها لن تعرف جيداً وتقتر على حقيقتها سوى بعد نشر الرسومات التى جنيتها من رحلتى » .

أما الخلاصة النهائية فهى من حق حاملى سره المقربين :

كتب إلى جاك - جوزيف ما يلى .

« انتهت حملتى إذن يا صديقى العزيز - وكل شئ جرى كما كنت تشتهى وأشتهيه أنا .. »

وإلى مسيو داسييه

« بهمكم أن تعرفوا ياسيدى أن نتائج رحلتى عبر البحار تخطت كل آمالى » .

انتظار ؟ نعم . ولكن ما هو الثمن ؟ كتب إلى صديقه جان جوزيف دوبوا أيضاً من محجر طولون : « قمت بجمع أعمال تكفى حياة بأكملها ! »

كان ذلك يعنى بالنسبة له خمسة وعشرين شهراً .

١٨ - « الموت يتريص بي فى بابل ! »

« الثلاثة أيام المجيدة » والحزن - سكة - مدام أديل .. « دفعة أكاديمية - المتحف - أبواب الكولاج دو فرانس - أثنان مع - الانسحاب إلى فيجاك - آخر عربية بريد ..

١٨٣٠ ... بعد أن أقام لمدة ثمانية عشر شهراً تحت سلطة حاكم شرقى مستبد هل كان من الممكن أن يحلم المواطن شامبوليون بسنة أفضل من سنة « الأيام الثلاثة المجيدة » ليعود فيها إلى فرنسا ، وهى التى وضعت حداً نهائياً وبصورة باهرة لخمسة عشر عاماً من الحكم المطلق وسيطرة « طافى الأنوار » . .

هو الذى حركت فى نفسه عودة الليبرالية - الممتلئة فى وصول وزارة مارتينيياك للحكم فى ١٨٢٨ - الآمال وهو فى أعماق صعيد مصر ، كيف لا يصفق للحركة التى أطاحت بال برويون (« المرة الأخيرة » . حسبما قال شاتوريان ..) واوصلت للعرش دوق دورليان الذى كان يعتبر رمزاً للمساواة بين المواطنين وهو الذى كان يعبر له منذ ثمانى سنوات عن تعاطفه القوى والنشط ؟ .

الأفكار التى كانت تحرك السلطة الجديدة هى التى كان يدافع عنها وهو فى جرونوبل عندما عمل صحفياً بحكم الظروف فى عام ١٨١٥ . جمهورى القلب ، لم يكن لديه ما يجعله يعترض على نظام ملكى يحترم حقوق الشعب . ولم تكن الأفكار فقط بل أصدقائه أيضاً هم الذين وصلوا إلى السلطة : فرانسوا أراجولم يكن بعد سوى إحدى مفكرى التحرك أما كازيمير بيربييه - ابن الدوفينيه من مدينة فيزييل فهو التجسيد الحى لبرجوازية منطقة الإيزار التى تتبنى التحديث فكان يستعد لرئاسة الحكومة .

ومع ذلك فإن ما يسترعى الانتباه فى مراسلات وأقوال كاشف أسرار الهيروغليفية لدى عودته من مصر هو أنها لا تعكس قط الحماس الذى كان يحرك فيما مضى عالم اللغويات إزاء كل تقدم تحققه الديمقراطية .

إننا نعرف - من خلال خطاب إلى زليير بوجه خاص - أن جان - فرانسوا قد تحرر من الكثير من الأوهام فى هذا المجال . إنه لا يزال من حزب « التنوير » ومناهضاً جداً « للمنافقين » لأنه إزداد إيماناً بأن سلطانهم يمنع ظهور الحق .

وهو لم يخفى تعاطفه مع القادمين الجدد ولكن فى اعتدال يعكس ما يمكن أن نسميه انقشاع أو هامه الحماسية .

هل نستخلص من ذلك أنه أصبح الآن - ملكا لمصر وحدها وأن التحركات الانفعالية لصغار القوم الذين شهروا على وجه البسيطة بعد خمسين قرناً من الملك - العقرب لم تعد تدخل فى نطاق اهتماماته ؟ هذا محتمل بالفعل . ولكن إذا كان يميل إلى ارجاع الأمور كافة إلى العلم الذى أسسه لا فهو لا يفعل ذلك إهمالا لكل ما لا يتعلق بهذا العلم الجديد ولكن لأنه لم يعد يحكم على الرجال والأشياء سوى بمقدار مشاركتهم فى معرفة حضارة وادى النيل . فهو إذن يعير أهمية أقل لشخص جاكوبى لا يحب مصر عن جيزويتى يحب مصر .

إننا كان الانهيار المفاجئ لنظام « الرستوراسيون » أو إعادة الملكية يثير حماسه فذلك لأن الحدث حكم على العديد من هؤلاء النبلاء الذين خدموا أهدافه بكل سخاء لعدة سنوات بالانسحاب من الحياة العامة أو بالنفى ، أمثال دوفوفيل ولاروشفوكو ولابويرى ونواى وعلى وجه الخصوص بطبيعة الحال بلاكاس .. العزيز إلى قلبه بلاكاس . يمكن أن تكون « الثلاثة أيام المجيدة » قد سحرت فؤاده إلا أن رحيل النوق للمنفى (وعلى الرغم من أن شارل العاشر كان قد غضب عليه من قبل إلا أنه أصر على أن يكون مصيره هو المنفى) قد مزق قلبه . هذا الرجل الجمهورى هو قبل كل شئ رجل ولاء وعلاقات إنسانية : علاقات المركز فيها والقلب هو مصر . ولذلك فيما يخص مصر كان لراعيه - فى تصوره - حقوقاً عليه . ولذلك فإنه لا يوجد تناقض فى قولنا أنه أستقبل ثورة يوليو « وهو يبتسم من خلال دموعه » .

هل كررنا ذلك بما يكفى : هذا الشامبوليون العائد من مصر منتصراً وتحوط بهامته أوراق الغار للنصر العلمى الذى توصل إليه كان رجلاً منهكا إلى أبعد الحدود .

كما لو أن الغنيمة الثقيلة قد أثقلت كاهله حتى بدا كما لو أن رداؤه الذهبى يسحقه بثقله . وهو إذا كان يستقبل انتصار الحريات بفرحة غير عارمة فإن ذلك يرجع أيضاً لهذا السبب . الولاء العاطفى والحاح مصر على فكره وفؤاده لعباً أيضاً دورهما بالتأكيد إلا أن الإحساس المسيطر عليه قد يكون نوعاً من الإرهاق الحزين بسبب الآمال التى تبددت .. هذا الرجل اكتملت أبعاده وحقق ذاته وهو فى نفس الوقت

مستنفذ بالمعنى الكامل للكلمة - مازال بالطبع أمامه مهمات عظيمة ولكنها لاتعدو أن تكون « من قبيل : « إكمال ما توصل إليه بالفعل » .

تركناه فريسة لزمهير مقاطعة بروفانس وجسمه المسكين يتقلص أمام العدوان المناخى (شتاء ١٨٢٩ - ١٨٣٠ لا يزال مشهوراً فى التاريخ ونهر السين قد تجمد فى باريس) منذ يناير ١٨٣٠ لم يعد جان فرانسوا سوى رجلاً مريضاً * أصيبت رثته مؤخراً بإصابات لا تعالج وهزه التهاب رئوى مزمن هزاً وهو فريسة لمرض السكرى . كبده تنهشه طفيليات النيل ، رأسه يتعذب من طنين فى الأذان ثم أن النقرس لن يتوقف قط عن إيلامه أشد الألم . تقرأ شكاويه من قسوة المناخ عبر جميع مراسلاته وبصورة منتظمة : « ما هذا الشتاء الشيطانى الذى ترسله لنا السماء هذا العام ؟ إنى أتألم لذلك جداً وأخشى كثيراً أن أجد النقرس فى إنتظارى فى ضباب باريس » .

يعكس بوضوح الطريق شديد التعقيد الذى سلكه عند العودة مخاوفه هذه فهو بعد أن عدل عن فكرة التوقف فى إيطاليا (حيث كانت تراوضه فكرة الانضمام فيها إلى التوسكانيين العائدين بسرعة إلى ليفورن حيث لازالت تتكهن فيها الكاهنة ..) قرر أن يقوم ببعض الالتفاتات فى طرق الجنوب - الغربى الفرعية .

« .. إن البرد القارص الذى تعانون منه تحت هذه السماء السعيدة يوقف شعر رأسى ولذلك قررت أن أسلك طريقاً يجعلنى لا أترك شمس الجنوب سوى بعد أطول فترة ممكنة لكى أراعى الانتقال المرحلى . ولذلك فإنى لن أسلك طريق ليون الذى يكاد يكون غير صالح للسير فيه بسبب الثلوج وخاصة فى القطاع الذى يفصل بين ليون وباريس . لدى عمل أوديه فى مدينة أكس لسبعة أو ثمانية أيام على الأقل لدراسة برديّة سالبية [..] كما أنوى زيادة أفينيون لزيارة متحف كالفيت . وأعود إلى نيم لزيارة حفرياتها الجديدة ثم إلى مونيوليين - ناربون - كاركاسون ، تولوز وپورلو .. » .

* ومع ذلك تقرأ فى خطاب غريب من روزين لأخيها هوج تقول فيه على الرغم من ذلك أن « الصغير » يتمتع بصحة جيدة غير أنه « يزداد سمناً باكراً مما ينبغى » وهذه هى الإشارة الوحيدة فى هذا الاتجاه (نهاية ١٨٣٠) .

توجد فى خطاب آخر إلى جاك - جوزيف بتاريخ ١٨ فبراير ١٨٣٠ إشارة تسترعى منا التوقف عندها :

« بما أنى سافرت دون أن أتوقف فى فيجاك فمن العدل أن أرى فيها الأسرة بالمرّة . وأنا هنا * أنتظر فى أى لحظة وصول هذه الشخصية التى ظلت تنتظر رؤيتى اثنتى عشر عاماً ولا أشك أن درجة تعلقى بها لا يقل عما تكنه هى لى . وهى أيضاً إحدى احتياجات قبلى . فاستسلمت لها . ستفقر لى هذا التأخير لبضعة أيام [...] إنك تعرف بالطبع أنى أعنى مدام أديل . سوف نساغر على الفور إلى فيلفرانش حيث ينعقد مؤتمر عائلى لمدة يومين .. » .

هاى إنذن « مدام أديل » تعود من جديد وهو لا يذكر أسمها سوى بعد أن دار طويلاً وإسماعنا فى الغموض ، « هذا الشخصية الذى ظلت تنتظر رؤيتى اثنتى عشر عاماً » والتى يشركها بعد ذلك فى أمور أسرية . هل هى « ماما الجميلة » التى تحدث عنها عام ١٨١٧ أم هى بطلة إحدى المغامرات التى خاضها « صغير » وهو فى مقاطعة كارسى؟ هلّى لعبت مدام أديل ** الدورين فى تتابع فتوات فى النهاية دور الأمومة الحية ؟

نوع غريب من العلاقات من كافة الوجوه . بعد فترة زمنية كتب إيميه شامبليون - فيجاك - ابن جاك جوزيف - بخط يده على هامش أحد النصوص الخاصة بنشاط جان - فرانسوا التعليمى فى مقاطعة كارسى وهو بصدد التعليق عليه : « إن هذا النص كان ملكاً » لعشيقة عمه « . وهو لا يضيف شيئاً بعد ذلك . وهذا لا يكشف لنا الكثير عن الحياة العاطفية لصاحب الاكتشاف فى مسقط رأسه ولكنه يؤكد وجود « شخص » فى فيجاك « مرتبط » به بنفس قدر ارتباط أخيه به وهو ما يعنى الكثير . وعندما سيشرح جان فرانسوا شامبليون بعد عشرين شهراً أن النهاية اقتربت فسيصر على أن يذهب للإقامة لبعض الوقت فى كارسى ولم يكن ذلك لأسباب مناخية فقط .

هذه الجولة الريفية العاطفية والأثرية لم تمنع إصابته ببعض من ضغائن وأحقاد قادمة من باريس ففى إكس وصلته أصداء منشور صادر من المجموعة العدائية له حول رحلته إلى مصر . وإذا كان جاك - جوزيف قد أحاطه بها علماً فكان ذلك من

* فى تولوز .

** راجع الفصل (٧) .

أجل إعداد هجومهما المضاد . إلا أن الأخ الأصغر ألقى بالأوراق فى النار وكتب لأخيه يقول له :

« وجدت [..] بعضاً من الكلمات الحلوة المذاق التى تضمنتها المنشورات التى أتحدثنى بها « العصابة » أثناء غيابى . إنها تتم عن سوء طوية تجعل المرء يتقيأ وإن أنزل أبدأ إلى مستوى مصارعة هذه النفايات ، وإن أرد عليها سوى بالمضى فى طريقى محترقاً كل هذه المناورات الضخيمة . إن الحسد يخرج من جميع المسام - وهو يعتبر من طبيعة الأمور . إنى أبصق * عليه وأكمل طريقى ... » .

فى ٤ مارس ، شارع كوك - هيرون فى باريس . صدم جان - جوزيف وه لقانور شيرويينى اللذان جاء لاستقباله لدى وصول العربية القادمة من الجنوب الغربى لفرنسا - بالإرهاق البادئ عليه وبثقل مشيته فقد أصبح بدينا ويتنفس فى اهتزازات متلاحقة . كم من السنوات أضافتها مصر إليه ! .. صوته فيه حشجة وسوالفه تلونت بالمشيب والنظرة الجميلة فى حزن أحتجبت . يجب ألا يحبه المرء سوى قليلاً حتى لا يملكه القلق كما حدث لهذين الوفيين ..

سارع جان فرانسوا بالعمل على الإقامة فى مكان دافئ . فمن طيبة ومن الحجر الصحى فى طولون كان قد أرسل بالتعليمات لأخيه :

« أكتب الآن لزوجتى عن المسكن الذى يجب أن تأخذه . فهى إذا لم تتمكن من التصرف وبما أن معك توكيلاتنا فقم بذلك بنفسك واختاره بالقرب منك . مكتب كبير للعمل وغرفة نوم صغيرة ملاصقة له ** أهم شئ أن تكون الشقة دافئة .. » [ثم يطلب بعد عدة أيام] : « بسجاد جيد وسميك للأقدام *** فى مكتبى وفى غرفة نومى : إن هذا البند هام جداً بالنسبة لى [...] كرسى من الجلد ، مكتب صغير مدفأة كبيرة جداً فى وسط غرفة المكتب ، أما بالنسبة للسريير فهو لا يهمنى » .

* الغضب ليس دائماً من مصادر الإلهام للأسلوب الجميل .

** السطر موضوع فى النص الأصيل للخطاب .

*** إن سرد الأحداث يعطى الرؤية صورة شخصية بأهته ومخيب للأمال أكثر مما تعكسه مراسلاتها حيث يمكن ملاحظة أبعاد تؤكد أنها على شئ من الثقافة السياسية والتأمل .

ها هو يهتم بحياته الأسرية الخاصة أكثر جداً من اهتمامه بظروف عمله إنه سيهتم قليلاً جداً بزوجته كما تفعل هي أيضاً به : « إذا لم تتمكن من التصرف .. » وهو يكتب ذلك وهو عائد من رحلة طويلة ومرهقة .. أن ذلك يعنى أن الأوهام لم تكن تداعبه بخصوص زوجته حتى أنه لم يكن متأكداً من أنها ستفعل كل ما فى طاقتها لإعداد مسكن له .

السكن الذى عثر عليه جاك - جوزيف - الذى أصبح الآن محافظاً للوثائق فى المكتب الملكى وبالتالي حظى بسكن خاص بوظيفته - كان مجاوراً بالفعل له : ء شارع نافار . وسيعلم صاحب الكشف عن رضائه عليه . كان يحب شارع مازارين والشوارع الصغيرة المحيطة ، إلا أنه استعاد هكذا الحى الذى أمضى فيه فترة المراهقة وهو طالب . وفى متناول يده هنا توجد كل الكتب وإذا عبر جسر ديزار - كوبرى الفنون - فهو على بعد دقائق قليلة من مسيو داسييه والأنستيتو (المجمع العلمى) .

الانستيتو ... ! إن علاقات الشقيقين شامبوليون بالرجال نوى الرداء الأخضر كانت ولازالت عاصفة . وهى تلخص فى الواقع تلك التى كانت قائمة بين القبة * وأغلبية الكتاب والمتقنين الفرنسيين والتى تتراوح بين الطمع الملح (فى عضويته) والأزدراء مع الحنين إليه .

يقول هؤلاء لماذا نكون أعضاء فيه مشيرين (فى تكتم) إلى أن عدم عضويته لا تكفى قط لتمييز العبقرية . فى حين يقول الآخرون فى أسى كيف لا نكون أعضاء فيه ؟ .. كان جاك - جوزيف مثلاً حياً لطالب العضوية وجان - فرانسوا مثلاً لمن لا يريد - أن يطلب العضوية .. ولكن ...

ليس من المبالغة فى شئ أن نقول أن حياة جاك - جوزيف المهنية كلها كانت تستهدف المجد الأكاديمى . الكرسي - والوظيفة الهامة كانا الأملين اللذين سار ورائهما منذ بداياته فى جرونوبل - وهو عالم آثار علم نفسه بنفسه . وكانت استراتيجيته الاجتماعية تستهدف هذا التتويج . لقد اكتسب صداقة فورييه وصداقة ميلان وكان يعتنى بعلاقاته بساسى وكان يتوود لداسييه .. ويمكن أن نذكر العديد من تقلباته السياسية من أجل طموحه البرئ هذا .

* قبة الانستيتو أصبحت ولا تزال « كنية » لهذا الصرح العلمى [المترجم] .

أما التشاؤم العميق وتعالى جان - فرانسوا فكانا يضعانه فوق تفاهات هذا العالم . وهو إذا كان قد تطلع للحصول على مكانة أكاديمية فذلك لأنه كان يقدر أن هذا الشرف هو بمثابة تقنين لاكتشافه وأنه من حق العالم الذى فك شفرة الهيروغليفيات ، وهو إذا استمر على إصراره فكان ذلك لأنه فى تقديره أن ظلما قد وقع فى حقه وفى حق أعماله .

بهذا المعنى فإن اكتشاف عام ١٨٢٢ كان كارثة بالنسبة لشامبوليون - فيجاك :

لأن الذى يمكن أن يقبل أصبح الآخر .. يبدو أن أعضاء الأكاديمية فى ذلك الوقت لم تجل بخاطرهم فكرة قبول الأخين ابنا صاحب مكتبة فيجاك معاً كما فعل زملاؤهم بعد ذلك بقرن كامل مع الأخوين تارو ... ولكن ذلك عملاً نكياً وملئاً إذا أخذنا فى الاعتبار ما قام به الأخ الأكبر فى إنجازات الأخ الأصغر : أحدهما يسحب الآخر إلى أعلى والآخر يجر الأول إلى الأكاديمية .

على الرغم من أنه يتوارى وراء أخيه فإن جان - فرانسوا كان يعتبر نفسه عضواً محتملاً . فهو عندما يعلن لتيقونيه عن نشر كتابه « الملخص » وكان قد قدمه لتوه للأكاديمية فى ٩ إبريل ١٨٢٤ - أضاف يقول له :

« الجميع يردد لى أن أول مكان يخلى فى الأكاديمية سيكون لى » إن ترديد مثل هذه الأقوال وذلك دون تعليق ساخر يكشف وجود بعض الاهتمام بها .

لم تكن العلاقات بين الشقيقين وكى كونتى * قد تحسنت منذ أن راح جان فرانسوا يجوب العالم . وسبق أن تحدثنا عن فشل الأخ الأكبر فى الفوز بعضوية هذه الهيئة التعليمية الجليلة عندما كان صاحب الكشف مقيماً فى إيطاليا . كما تحدثنا عن فشل الأخ الأصغر أيضاً بعد عدة شهور عندما كان يعد « متحفه » فى اللوفر ويستعد لرحلته إلى مصر واندفع دون تروى فى التقدم بعضويته الفاشلة . إذ تفوق عليه الرحالة المجهول بوكوفيل ** . بعد ذلك بثلاثة عشر شهراً بينما كان جان فرانسوا منكباً على قراءة المخطوطات التى على أعمدة امينوقيون فى الأقصر .

* Quai Conti اسم الشارع الموازى لنهر السين الذى يقع فيه الأستيتو « [المترجم] .

** راجع الفصل ١٥

اجتمع أعضاء الأكاديمية لاختيار خليفة عالم الإغريقيات جيل وهو الذى كان أعداؤه يؤكدون أنه لكى يشرح لتلاميذه نصوص اكرنوفون كان يطلب ترجمتها إلى اللاتينية أولاً لكى يتمكن من قرائتها إلا شئ يجعلنا نعتقد أن صاحب الكشف قد تقدم بنفسه لطلب العضوية ويبدو بالطبع أن المبادرة جاءت من أخيه ومن مسيو داسييه اللذين إعتقدا أن من المناسب مفاجأته بذلك . من كان فى إمكانه فى ذلك اليوم أن يُفضل على شامبوليون الصغير ؟ فالمنافسين الوحيديين اللذين كانا فى إمكانهما التغلب عليه وهما فيكتور كوران وأوجو شان تييرى كان عدد أعداءهما أكبر من أعدائه .

ومع ذلك فإن نتيجة الاقتراع لم تكن فى صالحه إذ نجح رجل القانون جان - ماري پارديوسو - الأستاذ بكلية الحقوق - عند الاقتراع الرابع بخمسة عشر صوتاً ، تسعة إلى شامبوليون الصغير فى حين حصل كوزان على ثلاثة أصوات وتييرى (الذى لم يتقدم بطلب العضوية على الأرجح) صوت واحد ... كان فشلاً مهيناً عمل جاك - جوزيف على إخفائه لفترة طويلة عن أخيه ولم تتم احاطه « الجنرال » علماً بهذا الاخفاق سوى فى رسالة مؤرخة ١١ سبتمبر ١٨٢٩ وصلته وهو فى الرحلة النيلية بين دندره وأبييوس .

كما لو أنه يريد أن يحصل على مغفرة أخيه ، قدم جاك - جوزيف « خطأ » على أنها فضيحة رهيبة وهاجم المنتصر متجنياً عليه وجعل من المهزوم ضحية خطأ قانونى مشين ، وأضاف مؤكداً أن هذا الإقتراع « أصبح موضوعاً لهجوم (الصحف) [..] ولم يحدث قط أن إندلع مثل هذا الحريق فى المجلات الأكاديمية والأدبية [..] وأصبحت محك وحجر الزاوية لكل ذلك وأصبح أسما پارديوسو وشامبوليون - ولم يكونا ليلتقيا أبداً - مجتمعين كل صباح تطلقهما سوياً فوهات المدافع ... » .

مادمننا سقطيا فليكن ذلك بأكبر نوى ممكن ... ا « من ناحيته تظاهر جان - فرانسوا بأنه يهزأ من كل ذلك إلا أن رسالته لفيجاك لم تنجح فى إخفاء استيائه بالكامل :

« ... أرجو الا يكون [مسيو داسييه] قد استاء كثيراً من أن قطيعه الذى ينخر الجدرى فيه - قد وضعنى تحت مسيو پارديوسو * أن ذلك لا يدهشنى منهم . كنت

* مهما كان انتصار مسيو پارديوسو غريباً (ولكن طبيعياً بالنسبة للأكاديمية) على شامبوليون فهو يستحق أكثر من الاستهزاء به . جاء فى ملحوظة بقلم ميشال نوافشار فى العدد رقم ٩٨ - أكتوبر ١٩٨٣ من نشرة الجمعية الفرنسية للمصريات أنه كان من مواليد مقاطعة لواروشا - وكان مرجعاً أوروبياً فى قانون البحار .

سأشعر بقيمة الأطراء إذا إستدعتنى الأكاديمية عندما كانت اكتشافاتى مشكوكاً فيها - عن قصد أو غير قصد فهذا لا يهم : ساعتها كانت هيئة الأكاديمية ستستحق منى العرقان بالجميل . وكنت سأشعر أيضاً بالأطراء لو أن هذه الهيئة تذكرتني عندما كنت أرتقى بدراساتى وأحقق حصاداً رائعاً وسط أطلال طيبة . كنت سأعتبر قبولي بها نوعاً من المكافأة الوطنية ، ولكنها رأت أنه من الأفضل أن تمنع عنى هذه الترضية . ولذلك فمن الآن وصاعداً لن أخط قط خطوة واحدة فى اتجاهها وحتى لو حدث أن نادتنى الأكاديمية فسأتردد كثيراً فى الجلوس على كرسيها مثلما يفعل خيرير بالنسبة لزجاجة من الشامبانيا نزع عنها سدانتها قبل ستة شهور . إن ماء النيل ذاته سيثير الغثيان عندما يزول العطش ... » .

من الجائز أن يشعر المرء بالحرارة عندما يكون الأمر فى محله . كما هو الحال هنا . كان صاحب الكشف وهو فى طريقه إلى القاهرة على حق حين أكد أن فى مرحلة ما كان التصويت الأكاديمى سيخدم هيئته ومن ثم أبحاثه وعلمه الجديد - وأن هذا الوقت قد ولى . وأن من الآن فصاعداً أنه هو الذى سيسهر الأكاديمية بقبول عضويتها - لكى تضع حداً على الأقل للخطأ المثير للسخرية والذى تجلبه على نفسها بإصرارها على تنحية رجل تتصارع عليه جميع الجمعيات العلمية فى أوروبا كلها . وقد كان فى استطاعته الآن أن يلقى الضوء على هذه العلاقة الجديدة بين القوتين ... إلا أنه لن يتمادى فى هذا الاتجاه .

فاذا لم نره يصارع الرجل الممتاز فان برايت - محافظ المكتبة الملكية خلال الإقتراع التالى والذى جرى فى ١٩ مارس (فهو لم يجد سوى الإطراء يوجه له منذ أيام الدراسة) إلا أنه وجد من الأمور الطبيعية أن ينضم إلى المجموعة التى إنتخبت فى ٧ مايو سنة ١٨٢٠ والتى سمحت بتصحيح وضع خلو ستة مقاعد * وهو إجراء غير مسبق وسيبقى فريداً فى تاريخ هذه المؤسسة ** وهكذا جرى تعيين شامبوليون كما لو كان ضمن تعبأة عامة دون مجد ولا مناقشات على الرغم من أنه تفوق على شارل نوديه بأربعة وعشرين صوتاً مقابل صوتين كما قبل ضمن هذه المجموعة كل من أوجستان تيرى وأميديه جوبار ، عالم اللغويات التركية العجوز عضو الحملة الفرنسية (حملته القرن السابق) .

* من أصل عشر مقاعد كانت مجمدة بعملية الإصلاح التى قررها كوريا - عام ١٨٢٣ .

** إلا أن الأكاديمية الفرنسية قامت بنفس الاجراء عام ١٩٤٧ ، وقد أدى بول كلودال دور شامبوليون فى

عام ١٨٢٠ .

هل كان إنتخاب شامبوليون إنتخاباً غير لائق؟! إن السؤال الوحيد الذى طرح بعد عمليتي الإعاقفة التى تزعمها جومار وكاترومار - وراؤول - روشات وسان مارتان هو هل - سيحبس نفسه أم لا داخل سجن كرامته المجروحة .

(« لست من الذين يقبلون أن يرفضوا عدة مرات متتالية ... » هذا ما كتبه لروسيليني) وما أن قبل أن يجلس إلى جوار الذين تكالبوا ضده منذ سنوات عديدة إلا وتناقشوا حول موضوع أهم بكثير ممن له الحق فى ارتداء قبعة الأكاديمية - وهو وببساطة شديدة موضوع أمانته العلمية - فإن طبيعة الإنتخابات ونوعية الناخبين وتوازن نتيجة الاقتراع لا تهم كثيراً ، وإذا كان حديث قد جرى فهو فقط وبإختصار عن عملية تصحيح بسيطه وسريعة .

وتجدر الاشارة أنه ما تم ذلك إلا وكان جان - فرانسوا شامبوليون من الأكاديميين المواظبين جداً على الحضور . وحضر الإجتماعات منذ جلسة ٢٨ مايو . وفى ٦ أغسطس قدم عرضاً عن آثار مصر كما قدم فى ٢٤ سبتمبر بعض الرسومات التى جلبها معه فى رحلته ، فى حين أثارت مشاركته الثالثة الخاصة بطرق حساب الزمن عند المصريين القداما ، مفاجأة غير متوقعة : إذ بعد أن استمع إليه أندفع راؤول - روشات نحوه ورجاه أن يقبل أن يكون صديقه ، (١) . كما حضر أيضاً جلسات ديسمبر ١٨٢٦ ويناير ١٨٢٧ أى قبل وفاته بأسابيع قليلة لا يمكن إذن أن نقول أنه عبر عن أقل قدر من الاستهانة نحو هذه الجمعية التى اساءت معاملته لفترة طويلة .

يبدو أن عناق راؤول روشات - وهو خير مثل « لحزب القساوسة » كان تعبيراً - منهم - عن أنهم سامحوا تماماً جاكوبى مدينة جرونويل ، صديق الأب جرجيوار وأعضاء الحزب الكاربونارى فى مقاطعة النوفينييه . فهل كان ذلك بسبب أنه لم يعد يثير الخوف؟ أو لأن « طافئى الأنوار » - وقد أحسوا بقرب هبوب عاصفة شهر يوليو- طالبوا بمغفرة وسعة صدر رجل التنوير؟ بعد ثلاثة شهور كان روشات وسان مارتان وأمثالهم قد خسروا المباراة : إذ لم يتمكن مزلاج رجال الدين الصمود أمام كشف الحقائق الأساسية واستولى التاريخ على السلطة : فى الجامعة : ميشليه وكينيه وتييري . فى الحكومة : جيز وتيار ... ولم يعد تاريخ بداية العالم متعلقاً بإدارة مونسنيور دوفريسنيوس المنفردة .

وإذا لم يحتفل جان فرانسوا شامبليون بهذه الساعات فى جو من الحماس مثلما كان يفعل فى أزمان سابقة ، وإذا كان يستمتع بها استمتاع الذى خاض تجارب عديدة فلا يجب أن نتصوره متوقفاً داخل مكتبه فوق سجاده المصنوعة من الصوف داخل أبواب مغلقة . بل كان يستقبل كثيراً فى داره بشارع فافار . وعلى الرغم من بدانته وثقل حركته فهو لا يزال يساير التحرك العام للمجتمع فى عشية الأيام المجيدة الثلاثة فى ٢٥ يوليو ١٨٣٠ سنراه يتحاور مع فرانسوا أراجو والمارشال مارمون الذين حضرا إحدى جلسات الاكاديمية . المساعد السابق لليونابارت - وكان قد استدعى فجأة لقيادة قوات العاصمة - عبر لمحدثيه عن نفوره من المهمة التى اضطرت إلى الاضطلاع بها بسبب كون الهدف الواضح منها هو هدف قمعى :

« إنكم لن تعانون من ذلك أنتم بصفتم مواطنين عاديين - فرنسين عاديين . ولكن كما أننى جدير بالمواساة لأنى بصفتى رجلاً عسكرياً قد أجد نفسى مضطراً أن أقتل بسبب أعمال امقتها ومن أجل أشخاص تفننوا منذ زمن طويل فى كيفية إشباعي بمشروب الاشمنزاز » . ولكن عبثاً لم ينجح كل من شامبليون وأراجو وكازيمير بيريه فى اقناعه بتقديم استقالته (2) ... » .

« الثلاثة المجيدة » عاشها شامبليون بطريقة أقل مأساوية من المارشال المشمنز ولكنها تمر بدون أخطار أهدقت به . هذه الأيام التى كان من الطبيعى أن تثير خيال أستاذ جرونويل كانت بالنسبة له مثيرة للقلق فى هجومها على التويلورى صبيحة ١٩ يوليو إندفعت الكتائب الباريسية داخل متحفه واستولت على عدد غير قليل من القطع الصغيرة . منها بالطبع بعض من أجمل المجوهرات . إن من عاين أحداث نهب يمكن أن يتصور الصدمة التى لحقت بمعنويات هذا الإنسان القلق بطبعه وهو فى مرحلة وهن حقيقية .

وهكذا أصبحت « الثلاثة أيام المجيدة » بالنسبة له « الثلاثة المائجة » تماماً كما بدت لن يستمروا على ولائهم للبوربون من أصدقائه وهو ما أدى إلى توطيد العلاقة بينهم .

لم تحول الصدمة التي أصابته من نظرت لهيمته كمحافظ « للقسم الثاني للآثار » وهو الذي أثاره - كما سبق أن رأينا - بقطعتين لامثيل لهما - الجدارية بالنحت البارز المأخوذة من مقبرة سيثي الأولى وتابوت زاهر - هذا بخلاف تمثال الملكة كاروساسا ووجه رمسيس الأول الذي أخذه من بوهان . بل أنه شرع أيضاً في تحرير كشف جرد جديد للمجموعة مستكملاً بذلك المقالة التي حررها في ١٨٢٨ .

غير أن الكونت دوفوربان لم يكن قد تقبل قط إنتصار صاحب الاكتشاف . فعادت حرب العصابات بينهما من جديد . وانتهز مدير المتحف فرصة موت جان - فرانسوا فالغى ببساطة وبجرة قلم وظيفته ومركزه . ويجدر هنا أن ننشر النص الذي وقع عليه في هذا الصدد رجل البلاط هذا :

« الإدارة العامة للمتحف تدخل دائماً في إطار الفنون أكثر من كونها جزءاً من العلوم * فلا داعي لذلك تعيين أحد في المكان الذي شغل كما أن الجمع بين قسمي الآثار فسي إدارة واحدة كما كان الحال عام ١٨٢٦ سيعود بالإدارة إلى الهدف الأول من إقامتها وبذلك نحصل بهذا الجمع بين القسمين على إلغاء مرتب أحد المحافظين .. (3) .

كان جان - فرانسوا شامبوليون في تلك المرحلة مهتما بالتشريف الأكاديمي له . أكثر من إهتمامه بمسئوليياته كعالم في الشؤون المتحفية - وكان لديه إحساس بأنه أداها على أكمل وجه (ومن هو الذي كان يعتبره « محافظاً » لمتحف ؟) .

كان إذن مركزاً إهتمامه « بنشر وتداول النتائج » التي توصل إليها في حملته . ولكن كيف يمكن نشر المعارف الفريدة والى لا مثيل لها والتي عمقها بالنسبة للبعث أو اكتشافها بالنسبة للبعث الآخر ، بغير اللجوء إلى صحافة غير مأمونة الجانب وإلى سبل الاتصال الأكاديمي التي تبقى من الأمور الداخلية شبه السرية ؟ كانت علاقاته بالإدارة التعليمية وظلت عاصفة ، فهو ظل على حنقه عليها بسبب تشككها فيه وبسبب إقالته المتكررة وعموماً بسبب جبن الأغلبية العظمى من زملائه إزاء الأوامر التي تصدرها لهم السلطة الموجودة في الحكم . إذن ، أين وكيف يمكن أن يقوم « بتدريس مصره » هو ؟

* وهو ما يتناقض تماماً مع نصوص لاروشفوكو المذكورة في الفصل ١٥ .

فرض « الكولاج دو فرانس » نفسه عليه . ألم ينشئ الملك فرانسوا الأول هذه الدار العتيقة تحديداً لدراسة ونشر اللغات القديمة وعلى الوجه الخصوص الإغريقية والعبرية - اللتين كانتا تثيران مخاوف أهل السوربون ؟ سبق أن رأينا أن جان - فرانسوا كانت له خبرة سابقة في هذا الإطار حيث أنه تابع فيه قبل عشرين عاماً دروس دوساسي ولانجالاس وكوسان دودران (هو الذى كان يطلب منه أحيانا تدريس العبرية مكانه) . عبر الكولاج العواصف التى اجتاحت تلك الفترة الزمنية - متلقياً طعنات أقل لهيباً من معظم المؤسسات الأخرى . من هذا المبني سيتعين عليه نشر معارفه . ولكن يجب أن يحصل على مقعد فيه قبل كل شئ .

تحدث فى الموضوع مع الدوق نوبلاكاس غداة وصوله من مصر . ولما كان هذا الأخير مقتنعاً بذلك فقد ضغط على القصر لكى يعبر لمؤسس علم المصريات على إهتمام الحكم الملكى بنجاحاته العلمية : إلا أن حكومة بوليناك لم تكن قد عينت لتأخذ فى إعتبارها مميزات رجل يجمع الرأى العام دائماً بينه وبين مرحلة إلى الجاكوبية المقوته وبغول كورسيكا (نابوليون) .

ثم كانت « أيام يوليو » . فلما تأكد أن الرجال الذين وصلوا إلى سدة الحكم سيستمعون إليه - وليس فقط بعض النبلاء العظماء غير المصنفين - رجا أصدقائه فيكتور كوزان ، مفكر الليبراليه المعتدلة وملهم المجلس الملكى للتعليم العام ، وشارل لونرمان زميل رحلته إلى مصر الذى أصبح فى « أروقة الحكم » أن يعضدوا عضويته فى الكولاج دو « فرانس وكان يديره دوساسي « الخالد » . تبرز الرسالة التى بعث بها إلى لونورمان فى ٢٠ سبتمبر ١٨٣٠ رغبته الشديدة « فى الوصول إلى غرضه :

« .. حاول فى الحملة التى ستقوم بها على إنجاح موضوعى فى الكولاج دو فرانس . ليس لى أمل سوى فى مسيو جيزو وإنى لارتعد خوفاً من حكم المحامين . ستفشل العملية حتماً لو وصلوا هم إلى دفة الأمور . أعرض الأمر على الوزير على أنه عمل ورج ، أن ذلك يعتبر هلب الأمان بالنسبة للمدرسة المصرية (4) » .

واضح أن عزيزنا جان - فرانسوا لم يعد يثق سوى فى المعتدلين وعلى رأسهم جيزو ، ضد « المحامين » أى اليسار أى مسيو تيار ذاته .. لم يكن لخوفه أى أساس فى غياب مسيو جيزو - الذى رحل لفترة - لم يصل رجال القانون إلى السلطة وإنما البنك هو الذى اعتلى سدة الحكم ممثلاً فى شخص لافيت .. وكانت هذه السلطة هى التى لبت طلبات عالم المصريات .

فى ١٢ مارس ١٨٣١ أمر « لوى - فيليب ، ملك الفرنسيين » بنائاً على تقرير مرفوع من وزير الداخلية مونتاليفيه - بإنشاء كرسى للأثار فى الكولاج دو فرانس يحتله « مسيو شامبوليون الصغير . عضو الانستيتو (المجمع العلمى) » . هكذا حظى الكونت دومونتاليفيه الذى إستقال فى اليوم التالى - وكان له الفضل فى ربط أسمه - فى أخر لحظة بالاعتراف العلنى بالمصريات على أنها علم * مستقل ، علماً بأن الكلمة ذاتها لم تذكر ولم يتحدث النص الرسمى سوى عن « الاركيولوجيا » « الاثار القديمة » إلا أن إسم شامبوليون كان كافياً والتقليد فى الكولاج دو فرانس هو أن التعليم لا يرتبط بتسمية المركز بقدر ارتباطه بشخصية من إختيار لإحتلال كرسية .

باختصار فإن إجتماع الاساتذ الذى تم يوم الاحد ٢٧ مارس ١٨٣١ ضم بين الاعضاء الثلاثة الجدد (ومنهم رجل الإقتصاد الأشهر باتيست ساي) مسيو شامبوليون الصغير ، وجاء فى الإعلان عن محاضراته فى المرحلة الثانية من العام الدراسى ما يلى :

« تحت عنوان « علم الاثار » سيعرض مسيو شامبوليون الصغير - عضو المجمع العلمى (الإنستيتو) - مبادئ المنظومات المختلفة للكتابة الخاصة بمصر القديمة - وهو فى تطويره لسلسلة قواعد اللغة المستخدمة فى النصوص الهيروغليفية والهيراطيقية سيوضح التماثل بين اللغة القبطية ولغة المصريين القدماء . أيام الثلاثاء والخميس والسبت . فى الساعة الثامنة صباحاً ... » .

ألقي جان - فرانسوا شامبوليون محاضراته الافتتاحية فى ١٠ مايو . وكان ضمن الحضور الكثيف أحد أبناء الملك لوى - فيليب والعديد من السفراء . خصصت صحيفة لوتان Le Temps صفحتين للحدث ، ممتدحة « الأستاذ العلامة الذى سيعرض فى محاضراته نتائج إكتشافه الرائعة وأعماله ورحلاته » ، ونشرت النص الحرفى للمحاضرة - التى سيجعل منها فيجاك مقدمة كتاب « القواعد » الذى قام بنشره تحت إشرافه بعد ثلاث سنوات .

سبق أن إستعرنا الكثير من هذا النص الكلاسيكى وعلى وجه الخصوص فى الفصول الخاصة بتاريخ الكشف ** . وفيه أعاد صاحب « رساله إلى مسيو داسييه »

* كانت بيذا اسبق من باريس فى هذا الصدد بسبع سنوات . بإنشائها كرسى روسيلينى فى ١٨٢٤ .

** الفصول : ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ .

سرد المراحل الهامة للكشف . مع شئ من العدل تجاه من سبقوه (ماعدا كيرشار الذى استهزء به فى تطرف) وهو يحيى فيه على وجه الخصوص زويجا لأنه أكد على أهمية دراسة الآثار وعارض بشدة « الحكم المسبق المنتشر جداً بأن الهيروغليفيات كانت تستخدم لأغراض سرية ويختص بها عدد محدود من المؤمنين وهدفها الوحيد هو نقل الاسرار المقدسة » .

لم يحجم الأستاذ الجديد عن إلقاء الضوء على أهمية « المواد الهائلة التى جمعها » أثناء إقامته فى وادى النيل والأفضل من ذلك على تأثير مصر فى فنون اليونان فى عصورها القديمة - مذكراً - (وهو ما كان بمثابة « اللحن المميز » له) - أن « شرح المباني والآثار المصرية سيكشف بوضوح ويؤكد على الأصول المصرية للعلوم والنظريات الفلسفية الرئيسية لبلاد الاغريق » ... واختتم محاضراته قائلاً :

« مثل هذه النتائج الهامة لا يمكنها أن تحظى بكل الثقل واليقين سوى بعد الفهم الكامل للمخطوطات العديدة المحفورة أو المرسومة على الآثار المصرية ، كما أن دراسة لغة الكلام يجب أن تسبق دراسة النصوص التى تستخدمها . ولذلك فإن عرض مبادئ القواعد المصرية بشكل متعمق وكذلك الرموز الخاصة بها هى التى سنبدأ بها محاضراتنا » .

مقال جريدة « لوتان » Le Temps : إن « الجلسات القادمة ستخصص للقواعد وللعلاقة بين اللغات القبطية والمصرية (القديمة) وأن الأستاذ سينتقل بعد ذلك إلى التاريخ التطبيقي [...] من خلال الآثار » لم يلقى جان - فرانسوا سوى محاضرتين قبل الإجازة وذلك يومى ٢٣ ، ٢٦ مايو والاخيرة حضرها الكسندر فون هومبولدت . وجاء فى لوتان أن آخر هذه المحاضرات « استرجعت المراحل الهامة من التاريخ المصرى وأكدت على أهمية الثقافة القبطية . بعد عودته من إقامة مطولة فى مقاطعة كارسى حيث ذهب ليسترد عافيته فى خريف ١٨٣١ تمكن البروفيسور شامبوليون من إلقاء ثلاثة محاضرات أخرها لم تستكمل فى شهر ديسمبر ١٨٣١ . وكانت هذه هى الأخيرة كما سنرى .

المتحف ، الكولاج (دو فرانس) ؟ كانت فى ذهن هذا الرجل المنهك تماماً أمور أخرى تشغل باله . أولها مشروعان علميان جوهريان : نشر الأعمال - النصوص

والرسومات التي عاد بها من مصر وتحرير « قواعد » و« قاموس اللغة المصرية » حتى يجعل منهما التجميع البراق والنهائي لإكتشافاته العلمية . الإنتهاء من العمل الثاني إستدعى منه مجهوداً فاق في نهاية الأمر كل قدراته ، كما إن العمل الأول تطلب من جهة أخرى مجهودات هائلة من الدبلوماسية والتفاهم لأن مبدأ العملية الأصلى هو الإزواجيه الفرنسية التوسكانية ... ومعروف الكم الهائل من المجازفات التي تتضمنها مثل هذه المواقف .

كان إيبوليتو وجايتانو روسيليني قد وصلا إلى ليفورن في نهاية شهر نوفمبر ١٨٢٩ وذلك قبل أسبوع من مغادرة شامبوليون وشيروبينى مصر متجهين إلى طولون . ويقدر ما كانت عودة صاحب الكشف إلى فرنسا شبه سرية ومرهقة بقدر ما كانت عودة التوسكانيين عودة المنتصرين . روسيليني الذي كان يزور على الدوام تجار القاهرة والاسكندرية عاد ومعه ٧٩ صندوقاً من الآثار للجران دوق ليوبولد الذي نظم عرضاً لهذا الكنز قبل أن يودعه متحف آثار فلورنسا بهدف إثرائه .

لم يهدأ لليوبولد الثانى بال بعد ذلك قبل أن يتحقق النشر العلنى لنتائج الحملة وكان مجدها يعود له بقدر كبير : ألم يكن هو أول من استجاب لندائات شامبوليون وأول من ضمن له المساندة ؟ ومن وضع تحت إمرة روسيليني الفريق العلمى والفنى الممتاز ؟ ومن كان أخيراً ممول مول العملية فى جانبها الأكبر ؟

لايمكن تلخيص هذا الجو العام التوسكانى بأفضل مما فعله روسيليبى فى خطاب مؤرخ يوم ٢٠ (أو ٢٢) فبراير ١٨٣٠ موجه لشامبوليون :

« لا يمكننى أن أصف لك الحماس الذى أثارته فى نفس الجران - دوق الطيب مشاهدة الملف الذى درسه فى أدق تفاصيله لعدة أيام [..] لقد تم تقدير تعبنا والنتائج التى توصلنا إليها بأكثر الاشكال أطراء لنا . كما أن الجران دوقات طالبينى بأن أسرد عليهن جميع الأحداث والقصص التى عرفناها فى رحلتنا » .

« كل شئ كان جميلاً ورائعاً . حتى لحيتى ، وصورتك التى جرى تدالوها أمام أعين الجميع وكان لها أثر قوى وأخيراً أندهش الجميع أمام عدد كبير جداً من الروائع . إن مجهودات شلة [باريس] معروفة هنا للكافة وهم ينتظرون أن يكون انتصارك أكثر روعة بفضل هذه المعارضات [...] كان الجران دوق سعيداً للعلاقات التى ربطت بيننا والنتائج الكبيرة التى عدنا بها وهو لذلك يرجع لذاته مجد مساعدتنا بكل هذه القوة . وهو سوف سيقدم لك ما يثبت لك سعادته وتقديره .. »

بعد مرور شهرين تغيرت اللهجة ، فبعد لفت النظر الذي تلقاه ايبولتو روسيليني من الأوساط العليا نقل له الإشاعات التي تنتقلها فلورنسا : « إنهم في باريس لا يبهون بنتائج الحملة [..] الملك والبلاط لا يوافقون على الدراسات التي تقلل من هيبة الترواة .. »

والجران - دوق وقد بدأ يعرب عن قلقه إذا « المضايقات » التي ربما يتعرض لها شامبوليون ، أخذ يستعد لكي « يعطى أوامره لنشر » نتائج الحملة وذلك من جانب واحد واستمر أستاذ بيزا في ضغوط على شامبوليون « يجب إذن أن نهتم بالأمر بجدية نون تأخير لأن هذا العمل - مع كتاب القواعد الذي تألفه - هو أهم أعمالك ... » وهو لذلك يدعو « الجنرال » لتمضية عدة شهور في توسكانيا بعيداً عن « بابل » * هذه ، والتي لا يعتبر مناخها مواتياً للعمل .

وإذ تلقى من شامبوليون إجابات تسويفيه بعض الشيء مشيراً إلى أعماله الأخرى والأجواء غير المستقرة التي تسود باريس عبر روسيليني - وكان واقعاً تحت ضغط من الجران دوق - عن نفاذ صيره : فعبر في ٦ سبتمبر عن « شعوره بالمرارة » لأنه لا توجد أي إشارة من باريس تؤيد هذا « التعاون الأدبي مع توسكانيا » وأخذ يذكر بأن الحساسية لديهم مرتفعة بقدر ما هم أصغر حجماً « وإذا كن التوسكان يتركون للفرنسيين أغصان الغاز التي تستحقونها في مجال الحملات العسكرية والثورات العظيمة فإنهم يتمتعون « في الشئون الأدبية » « بشهرة قديمة للغاية » كما أنهم يتباهون « بادعائتهم الصغيرة » . هذه ثم أعلم صاحب الكشف أنه « اتخذ القرار بنشر نتائجنا ** » [على حدة] في الوقت الذي كان خطابه الأخير يؤكد له أن « المهمة المشتركة » ستتم على أكمل وجه - ويضيف نون مراعاة مشاعر صديقه الأكبر سناً « في الوقت الذي كنتم تقومون بالثورة كنت أعلم أنا مثل الكلب لإعداد مهمتي ... » ثم ينتهي به القول إلى : « أنه في إنتظار معلومات عن طريقة تقسيم المواد فيما بيننا : مشروع الكتيب الذي سينشر بالفرنسية والإيطالية والذي سيسمح بالبدأ في عملية الاكتتاب في الوقت الذي تنهون فيه من كتاب « القواعد ... » .

بإختصار كان السيف موضوعاً على رقبة شامبوليون في الوقت الذي تزداد فيه صحته سواءً و يأخذ « كتاب » القواعد وقته كله - ولما كان يعرف الجران - دوق

* رأينا أن شامبوليون كان يطلق على باريس تارة إسم بابليون وتارة أخرى بابل .

** الضمير هنا عائد على اللجنة التوسكانية .

وإصدقائه التوسكانين فقد كان متفهماً لنفاذ صبرهم : فهم ليسوا مهددون بالازمات السياسية كما أن الحملة مثلت بالنسبة لميزانيتهم عبئاً كبيراً نسبياً بالمقارنة بما قدمته باريس ثم أن العاهل الشاب كان شديد الإحتجاج لتحقيق بعض الأمجاد . ولما كانت المواقف مختلفة إختلافاً جوهرياً فى الناحيتين ولما كان الرجلان مطالبان بتحقيق لكثير وتحركهم أموراً متباينة فمن المتوقع أن يصل إلى قرارات متباينة .

ومع ذلك نفى شهر مايو ١٨٣١ وقد اجتمعاً في باريس أعد شامبوليون وروسيللى مشروعاً مشتركاً لكتاب « آثار مصر والنوبة » يوزع بينهما مسئوليات النشر على النحو التالى : « سيتناول شامبوليون الآثار التاريخية بمعنى الكلمة ما يتعلق بالآلهة والمواضيع الخاصة بالفلك والنجوم . روسيللى سيهتم بالفنون والحرف والحياة اليومية والإحتفالات الدينية والجنازىه » . ويعتبر هذا التقسم جائراً لأنه يضع على كاهل روسيللى مسئوليات كبرى ولكنه يعبر عن إرادة فى إستغلال مساو للمواد العلمية * .

إلا أن هذا العمل المشترك لم يكتب له أن يرى النور . لأن شامبوليون وقد شغلته أموراً أخرى أجل مشاركته فيه لدرجة أن الجران - دون فقد صبره معتبراً أنه مالك للمواد التى جمعها التوسكانيون ودفع روسيللى إلى الإسراع فى عملية النشر التى تمت بعد وفاة شامبوليون والنسخة الأولى للملزمة الأولى من طبعة فلورنسا ظهرت يوم وفاة صاحب الكشف فى بداية مارس ١٨٣٢ .

ومنذ ذلك اليوم أصبح الموضوع من وجهة النظر الفرنسية فى أيدي جاك - جوزيف شامبوليون - فيجاك وهو الذى لم يخف قط تحفظاته نحو التلميذ المفضل (روسيللى) ولا على مبدأ هذا التعاون الدولى ذاته .

والذى كان فى الأصل تبايناً حول وتيرة العمل تفاقم ليصبح إختلافاً فى المبادئ . من - التلميذ أم الأخ - كان الأجدر بتنفيذ العمل حتى يبلغ غايته ؟ إختلاف حول جنسية العمل أيضاً . فلم ينتهى الأمر إلى تحقيق « أول عمل علمى دولى فى التاريخ كله »⁽⁵⁾ وهو ما كان يحلم بتحقيقه الرفاق الاعزاء على متن المركب « إيزيس » - ولكن تم إلى نشر عمليتين متوازيتين - وهما فى الواقع متشابهتين جداً (أكثر من نصف الرسومات المنشورة فى النسخة الفرنسية كانت بيد فنانيين توسكانيين) ومتكاملين .

* نشر الكتيب باللغتين وبتوقيع المؤلفين فى باريس لدى فيرمان - دييو - فى سبتمبر ١٨٣١ . وتم توقيع عقد دقيق للغاية من الرجلين فى نفس الفترة .

فى المقدمة التى صدر بها الشقيق الأكبر كتاب « القواعد » وهو الذى عنى بنشره فى عام ١٨٣٦ وأهداه لسيلفاستر دوساسى ، كتب جاك - جوزيف شامبوليون - فيجاك يؤكد « على أهمية معرفة تاريخ تأليف هذا الكتاب لكى نتأكد - واثقين تماما - من الأهمية العلمية التى يتحلى بها هذا الكتاب المرجع .. نظراً للتطور المستمر الذى طرأ على نظريات مؤلفه ونظراً لتتقيحه لها بناءً على مشاهداته على الطبيعة وملاحظاته الجديدة ... » .

وبناءً على ذلك يؤكد هذا الأخ المجد أن قواعد اللغة المصرية هو «أخر أعمال » جان - فرانسوا (وهذا يعنى فى رأى صاحب المقدمة أنه أكثر أعمال أخيه كمالا من وجهة النظر العلمية) وأنه قام بتحرير النسخة الأولى ، المحررة لثانى مره ، « فور عودته من مصر . كما أنه يوضح أن المؤلف أضاف إلى مخطوطه أمثلة عديدة مأخوذة من الآثار التى قام بدراستها خلال هذه الرحلة وأنه إذ أمضى خريف عام ١٨٣١ فى فيجاك فقد كتب هناك لـ ٢٢٢ صفحة التى تشكل النسخة الثانية كما أنه كرس أبتداء من شهر ديسمبر من نفس العام الأوقات القصيرة من الراحة التى سمح له بها مرضه - هذه الهدنة القصيرة جداً والمضلة للغاية - لمراجعة النص ولترتيبه . » .

إن كتاب « القواعد » هو إذن وبالفعل - حسبما يقول فيجاك - ليس فقط العمل « المفضل » ولكنه الوصية العلمية لجان - فرانسوا شامبوليون وهو بنفسه الذى قال عنه ذلك . كما أنه قمة فى تكتيكية النشر « أول ثمار التحالف - فى فرنسا - بين التيبوجرافيا والليتوجرافيا » . هذا أيضاً ماكتبه صاحب مقدمة الكتاب * . وهو فى النهاية عمل فنى . وقد أناط فيجاك بمهمة نسخ الصور التى لم يتمكن صاحب الكتاب من الإنتهاء منها إلى يد سالفانور شيروبينى الأمانة والواعية والمحنكة .

فلنحاول أن نتخيل ما تمثله الكتابة لهذا الرجل وهو فريسة لآلام متعددة الاشكال وعليه الإضطلاع بعمله كمحافظ لمتحف وعليه أيضاً تبادل للرسائل الحادة اللهجة مع توسكانيا وإعداد محاضرات فى الكولاج دو فرانس وإجراء المناقشات التى أثارها مشروع نقل مسلة الأقصر والطلبات التى لاتنتهى من فيروساك وفوربان وأخيه أو من مراسليه العديدين عبر أوروبا وتشكيل هذه المجموعات الفكرية والمرئية التى هى إحياء لعالم مدفون وتوضيح لفكر دام آلاف السنين . يقال أن أحداً لا يموت من العمل ؟ ولكن

* اعاد نشره فى طبعة جميلة جداً عام ١٩٨٤ ميشيل سيدهم - معهد الشرق ٢ ، ٥١ شارع لاسيباد فى

باريس .

إن وجد إستثناء لهذه القاعدة فالغالب أن البحث عنه يجب أن يكون في إتجاه شامبوليون .

من الصعب جداً معرفة مقدار ما إختزله الجو السياسى والاجتماعى المضطرب من حياة جان - فرانسوا ، وهو الغليان الذى جعل من الأيام الأولى للملكية يوليويو - إبتداءً من محاكمات وزراء شارل العاشر إلى جنازة جنرال لامارك التى سادها الاضطراب - ثورة بعد الثورة . بدت كما لو أنها لا تستهدف إلا أن تكون مقدمة لثورة جديدة . لقد فاجئنا عدة مرات بأنه طواق للسلام الاجتماعى والنظام ومندد بجميع أشكال الإثارة . ومع ذلك فإننا نجد أيضاً فى بعض خطابه المحررة فى ذلك الوقت بعض الأفكار الجديرة بالصدى القديم للكاربوناريين ، ويأخذ المعجبين بالأب جريجوار ورفيق راي . وقد تحدث حينذاك عن « ربيع الحرية » كما أنه مهما بلغ تأثره بالقلقل الباريسى فهو ينظر بعين متعاطفة مع ردود الفعل التى تثيرها هذه الأحداث عبر أوروبا داخل الامارات الصغيرة .

أما فيما يتعلق بفرنسا فهو بالقلب والفكر مع « بلدياته » كازيمير بيريه ، الليبرالى المتسلط ، والبورجوازي الكبير الذى يريد كل شئ للشعب ولاشئى بواسطة الشعب . المعارك التى جرت من أجل النظام التى قادها جل فيزييل بعد أن أنهيار حكومة لافيت ولافاييت كانت معاركة هو . وهل كان أى من الرجال العظام الذين واكبوا فترة مراهقته الثورية سيسلك سلوكاً مختلفاً ؟

أصبحت رؤيته للعالم وفهمه للتاريخ .. كما يتضح ذلك من رسائله إلى زليير - متشائمة للغاية حتى أنها لم تسمح له بغير مرارة اليقين بأن الشعوب ترغب أن تكون اليد التى تقودها حازمة فى غير وهن . إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يتخيل فى شئ من السذاجة أن توثيق العلاقات بين فرنسا ومصر التى سنترتب على إقامة آثار فرعونية وسط باريس ستفتح أفقاً لتحرير شعب وادى النيل .

كان صاحب الاكتشاف فى ذلك الوقت مفتوناً تماماً بمصر وتحت هيمنتها حيث أن الأشهر التى امضاها فى ربوعها كانت هى الحاسمة فى حياته . من وجهة النظر الشاملة نتج عن هذه الرحلة درس مزيج ومتناقض فى أن واحد . أوضع مصر الحديثه أيقذت داخلة الاحتجاج الاجتماعى إذ أدرك أن كل البؤس فى ظل كل هذا الظلم شئ لا يحتمل . إن الإنسان الجدير بهذا الاسم يجب عليه أن ينهض فى مواجهة هذا الضيم ومهما كان هذا الاستبداد عريقاً فهو يتطلب الثورة عليه . وكان الواجب

الذى فرض نفسه على الضيف هو أن يختزل الفضيحة وأن يعمل ما فى وسعه لكى لا تفتح الانتفاضة الحتمية الطريق أمام أحداث مفرطة فى دمويتها .

ولكن كيف لا يتأثر صاحب الكشف بتأملاته وهو يعيش فى أعماق المقابر ويتحاور مع « الاجداد » ؟ إن ما شاهده من أحوال الفلاحين المصريين كان يدفعه إلى الثورة فى حين أن تعامله مع أمون - رع ومع سيزوستريس وموريس ومع أمنحوتب وسمنوت كان يطالبه بإحترام مبادئ الاستقرار .

لقد أيقن منذ ذلك الحين أن التاريخ بالنسبة للمصريين فى العصور الكلاسيكية القديمة كان « رسالة تكررهما مصر لمصر » وأن « المصريين القدماء كانوا لا يعرفون ماهية مجازفات التاريخ أو فى كلمات أخرى أنهم كانوا يقيّمون التاريخ على أساس أنه تكرر لذات المجازفة المتواصلة وهى المجازفة التى تولدت من عملية الخلق ذاتها والتى كانت تتوالى فى هيئة صور محكمة النظام والثبات تنطق بها الآثار والهيروغليفيات فى شعائر تنظيم الكون ، وهو ما كان يبعث فى نفوسهم الطمأنينة .. » (6).

التاريخ كان يراه يومياً - طبقاً لما جاء - فى رسالة إلى أنجيليكا - فى هيئة امرأة فى ثورة عارمة فى غير سيطرة ، حاملة شعلة من نار وتعبير بها نهراً من الدماء . إكتشف وهو على ضفاف النيل أن هذا النهر أنه مدرسة فى الاستقرار والهدوء الصافى . كان الكهنة والملوك هنا يبدعون فى تنظيم الاستمرارية . ولولا غزوات الاسيويين الغاصبين لتواصلوا بها لأكثر من ثلاثين قرناً أخرى .. وهكذا عاد المسافر من مصر وهو تواق لأن يغير من الحالة التى كانت عليها الأمور فى فرنسا وقد أصبح الوقت ذاته مقتنعاً تماماً بحتمية مشبع احترام الاستمرارية .

جان - فرانسوا شامبوليون مثله فى ذلك مثل جاره فى مقاطعة الدوفينييه هنرى بال (ستندال) لا يأبه كثيراً بالرجال ولكنه يكره المستبدين بأكثر من ذلك . إنه من الديموقراطيين المتسامين الذين يضحون بانفسهم من أجل الحريات التى إذا استخدمتها المجاميع من الشعوب التى يحبها - تلك التى شيّدت الكنائس الرومانية ومعابد وادى النيل - فهى تؤدى فى كثير من الأحيان إلى التجاوزات التى يمقتها . إنه قدم التحية - مع بعض التحفظات التى سبقت الإشارة إليها بخصوص أصدقائه المؤيدين للشرعية (الملكية) - لحركة عام ١٨٣٠ . وهو أيضاً الذى اجتاحه القلق من مشاهدة التحركات الجماهيرية الهوجاء التى تنبئ بعواصف جديدة يخفيها تحت السطح « الدستوريون » والسيطرة البرجوازية الليبرالية .

لم يكن لدى هذا الجمهورى العريق - كما رأينا - ما يعاتب به الملوك . خارج حدود فرنسا ، فى تورينو : كارو - فيلييتشى كان الوحيد الذى يخشاه كثيرا . ولكن من الجران - دوق عاهل فلورنسا إلى ملك نابولى والبابا فى الفاتيكان والشركاء فى الحلف المقدس عاملوا « روبسيير » جرونويل بأفضل ما تكون المعاملة - هذا بخلاف نائب الملك المصرى ..

أما فى باريس فقد كانت شخصيته تعكس صورة قديمة للجاكوبى الثورى يصعب التخلص من أثارها . وظلت مجموعة من رجال الشرطة الحقودين والمحافظين الكائدين والمستشرقين الغاضبين تؤكد عليها بعناية فائقة ، ولكن تعاطف بلاكاس معه ومن بعده دودوفيل ولاروشفوكو وبدرجة أقل لابويرى ، نجح فى فتح جميع الأبواب أمامه - ولكن خلف كل باب كان يقبع له مخبر شرطة .

رأينا كيف أن لويس الثامن عشر إستقبله بعد إصرار من بلاكاس . ولم يعامله شارل العاشر بأقل من ذلك ومنحه فى نهاية الأمر الوظائف الرسمية التى أرتبط بها أسم الكونت دارتوا السابق ذاته وكانت تلك المعاملة التى حظى بها صاحب « النخب إلى الجمهورية » عام ١٨١٥ ومقتحم باستيل جرونويل عام ١٨٢١ ، بعد ذلك كله معاملة لم يكن يحلم بها .. ثم ما الذى كان لا يمكن أن يحصل عليه من علاقاته مع الدوق - دورليان الذى كان قد أعلن بوضوح « اعجابه » بالرسالة إلى « مسيو داسييه » قبل أن يصبح الملك - المواطن ؟

لعله علق أمالا كثيرة على ذلك . لقد حاز بالفعل من السلطات الجديدة على تعيينه فى الكولاج دو فرانس وهو مالم ينجح بلاكاس فى إنتزاعه من شارل العاشر . وبالفعل أتاحت له إمكانية الوصول إلى الملك بفضل توسط مسيو فاتو - أمين مكتبته . وكان على علاقة به منذ فترة طويلة ، كما أنه أقام علاقات ودية مع البلاط الملكى ورأى السحب القديمة تتبدد ويختفى التأثير السئ للمثقفين المتدنيين الذين كانت لهم يد فى الانستيتو وأخرى فى التويلورى (القصر الملك) وكانوا يطاربونه منذ سنين عديدة . إلا أن بعض الظروف ، بالإضافة إلى الشخصية الحادة لعالم المصرىات ، منعت إقامة علاقة بينه وبين العاهل الليبرالى شبيهة بتلك التى كانت تعقد فى قرن التنوير بين السلطة والمعرفة ولنا فيها العديد من الأمثلة الرائعة .

إصطدمت إرادتنا الملك وعالم اللغويات مرتين على الأقل فى عام ١٨٣١ عندما دار الحديث حول الإهداء والتحية الخاصة بنشر أعمال الحملة العلمية الفرنسية -

التوسكانية فقد أوضح جان فرانسوا للبلاط دون أى مرارة أنه إذا كانت النسختان الأولى والثانية مهداتين إلى ملك الفرنسيين والجران - دوق ليوبولد فإن الثالثة ستهدى رسمياً إلى الدوق دوپلاكاس - الذى لحق بشارل العاشر فى منفاه . ثم عندما دخل مشروع نقل مسلات الأقصر إلى باريس فى مرحلته التنفيذية ، تناقضت آراء جان - فرانسوا مع لويس - فيليب حول أفضل الأماكن التى ستقام (أو تقامان) فيها * .

وهكذا نجد بغرابة شديدة أن شقيق لويس السادس عشر قد خص منبوذ جرونوبل بمعاملة طيبة فى حين أن ابن فيليب - المساواة لم يعقد التحالف الذى كانت تفرضه ولو نظرياً تماثل أفكارهما التاريخية والثقافية .

فى نهاية أغسطس ١٨٣١ غادر جان - فرانسوا شامبوليون باريس إلى فيجاك . هل كان هروباً أم إختياراً منه لعزلة للعمل ؟ لم يفتر قط إزدائه « لعاصمة فرنسا القذرة » . إذا كان هذا التعبير قد كتب فى عصر نابوليون فهو يمكن أن ينطبق أيضاً على عصر آل الفرع الصغير من البوربون .. صحيح أنه كان يستقبل بترحاب حتى فى أعلى دوائر الدولة والاطراف الثقافية . فقد كان فى نفس الوقت صديقاً لرئيس الوزراء (بيريه) والأمين العام الدائم للأكاديمية (داسيه) ومفتش التعليم العام (كوزان) وأشهر العلماء (أراجو ، كوفيه ، بيو ..) وهو ما أحاط بالشخصية العامة التى أصبح يتميز بها جواً صحيحاً أكثر نقاشاً من ذلك الذى عاش فيه عندما كان هدفاً لأحقاد أمثال كوربييار ودواسان .

ولكن ماذا نقول عن حياته الخاصة ؟ كان جان فرانسوا يشعر بسعادة جمّة مع أبنته التى قاربت الثامنة من العمر وكشفت عن مواهب جيدة عديدة . وهو إذا كان نادماً جداً على افتراقه عن أسرة أخيه ولو أن قربه منها قد قلل من حدة الندم ، فذلك لأن بقائه وحيداً مع روزين يضايقه كانت فى الواقع علاقات التفاهم والثقة مع زويه زوجة أخيه أوثق من تلك التى . كانت مع زوجته . كما أنه لاحظ أن العلاقات بين جاك - جوزيف وروزين ، وهى أصلاً لم تكن جيدة ، ازدادت مرارة ولعله ركب العربة التى حملته لتلواوز وفيجاك فى ذلك الصيف لكى يهرب أيضاً من هذا المناخ .

* راجع الخاتمة .

وهو يبتعد أيضا من الهموم والمضايقات التي تأتيه من متحف شارل العاشر ومن فلورنسا وأيضاً من مجلة النشرة الدولية Le Bulletin Universel الذي يصدره مسيو دوفيروساك . بل أنه يبتعد أيضا من المشاكل التي يواجهها صديقة كازيمير بيريه بسبب القلاقل والتهديدات الخارجية وقد كان هو الآخر منهك القوى وفاقداً للصبر . كان شامبوليون لا يفكر سوى في كتاب « القواعد » وكان قد قرر أن يستثمر فيه كل ما المقابل تبقى له من قوى . أما في باريس فلا يمكن أن يقاوم كل المطالبات التي تلاحقه في نسيكون الدفاع عنه في كارسي أفضل وسيبقى مركزا على كتابه الذي هو بمثابة وصيته العلمية .

كما يدخل في الحساب أيضاً الأمل في إنقاذ ما تبقى له من صحة في هواء مقاطعة اللوت الطلق .. لو كان أصلاً هناك ما يمكن إنقاذه .. الرسائل التي كتبها من فيجاك تعمل على طمأنته المقربين منه وتمجد من آثار الجو في الجنوب .. غير أن رثتيه كانتا مصابتين لدرجة متقدمة وأزمات السعال مؤلمة وجنرته ملتبهة وكبده مرهقاً وأزمات النقرس عنيفه لدرجة أن الشهور الثلاثة التي أمضاها في كارسي من نهاية أغسطس حتى نهاية نوفمبر لم تأتي له سوى بمسكنات واهية . هل كان يمكن لاختياره حل الانسحاب إلى مسقط رأسه أن ينقذ حياته ؟ لقد توسل أطباؤه أن يفعل ولكنه لم يكن يؤمن بإمكانية تنفيذ ذلك . خلال تلك الرحلة السعيدة القصيرة كان للعواطف نور أيضاً . لا يوجد ما يسمح بالإعتقاد بأنه قام بتلك الرحلة لكي يرى للمرة الأخيرة مادام أدليل ، هذه « الشخصية العزيزة جداً عليه » الذي أصر على رؤيتها عند عودته من مصر مكلفاً نفسه عناء سفر مطول . لا يوجد أي أثر في مراسلاته هذه المرة لهذا النوع من الإهتمام ولكن توجد إشارات عاطفية متبادلة مع أختيه اللتين تقومان على شئون مكتبة ميدان الهال . إلا أنه من الواضح أن لقائه من جديد مع سيدة فيجاك كان له وزنه الهام عند إتخاذها لقرار إنسحابه هذا إلى موطن رأسه . في المنزل الواسع الكائن بما سمي الآن بشارع شامبوليون . أخذ يعمل كالمجنون . نعم كان يسعل من

وقت لآخر إلا أن اختيه كانتا حوله تدخلان السكنينة إلى قلبه وخاصة أخته ماري . كما كانت تفعل الصداقات التي أحاطت « برجلهم العظيم » .. حتى أنه بدأ يستدرج إلى الحياة الإجتماعية التي عرفها هنا عام ١٨١٧ .. كان يود مد فترة إقامته . غير أن رسائل جاك - جوزيف زادت من إلحاحها عليه : فهي لا تتحدث سوى عن مؤامرات فوربان في المتحف وعن التوسكانيين نافذى الصبر وعلاوة على ذلك عن « نشرة فير وساك » التي تتدهور .. وأخيراً محاضراته فى الكولاج لوفرانس التي يجب أن تبدأ من جديد فى أول ديسمبر . لم يكن أمامه مفر...

وأفضى إلى صديقه البارون شودروك نو كرازان المثقف الكارسينى الذى شاركه وأخوه فى حفريات أوكسا لنوم عام ١٨١٧ فى إحدى السهرات : « إن الموت يتربص بى فى بابل » . فى ٢٨ نوفمبر ركب عربة البريد التى أوصلته إلى هناك بعد أربعة أيام .

١٩ - وفيما بعد ذلك بكثير ، حتى طيبه

« ولا ثقل إضافي من أُنقال الأرض .. » مستمع في الكولاج .. البروفسير / الذي سقط - « يا إلهي ، علمان أحزان .. توجد في الداخل أشياء كثيرة ! » - وفاة لأسباب عديدة - آخر سهام مسيو نوساسي - وداع روسيليني ، وويلكسون وشاتوبريان ، ها عاقل من عقلاء الامبراطورية الجديدة .. » ..

« ظهر إله مثل النور . سيعيش .. »

كتاب الموتى

بابل ؟ بابلونيا ؟ أم هدف لجراح مصر ؟ وبياء الكوليرا الذي جاء من الشرق عبر وادي نهر الرون سينقض على باريس . وسيصل عدد ضحاياه في ثلاثة شهور * إلى عشرين ألف شخص منهم (رئيس الوزراء) كازيمير بيريه . صحيح أن أحداً من الذين بحثوا في أسباب وفاة مؤسس علم المصريين لم يذكر هذا الوباء ** ، إلا أن هذه الكارثة التوراتية تلقى على آخر أيامه بضوء يمكن أن نسميه أركيولوجي . إقامته في كارسي أعادت إليه شيئاً من صحته كما أن تنقيح كتاب « القواعد » قد أضفى عليه نوعاً من الإحساس بالسعادة والنشوة خدعت عدداً كبيراً من المقربين له أمثال دوبوا ولونورمان ونستورة لوث (الذي تقرب جدا من « الجنرال » بعد عدة مضايقات راجعة

* من فبراير حتى مايو ١٨٣٢

** أعراضه يسهل التعرف عليها .

إلى شخصيته المتقلبة المزاج) وعلى وجه الخصوص سالفادور شيروبييني الذي أضحى مع جاك - جوزيف أقرب الأصدقاء وأئمنهم - فى حين أن شخصا يدعى سالتونيني نجح فى التقرب من صاحب الكشف وكان يعلن أنه من أقرب تلاميذه المتحمسين ، أخذ يسرق بعض الأوراق الخاصة بالعلاقة بين الحروف الهيروغليفية والهراطيقيه وقام بنشرها على أنها من تأليفه - ولم يكشف عنها النقب سوى بعد وفاته .

إلا أن الذين لم يروه قبل فترة طويلة صدموا لما طرأ على سمات وجهه من تغيير فى هيئته وقوامه من بدانة * وعلى صوته من حشرجة بين أزميتين من السعال الحاد ، ومن قصر أنفاسه . وهكذا فإن الكونت فونشال سفير البرتغال فى روما الذى كان قد استقبله بترحاب يتسم بالود قبل ذلك بأربع سنوات وإذ كان يعتقد أن بإمكانه أن يطلب منه الإهتمام بنشر كل المخطوطات المنحوتة على المسلات الرومانية ، عدل تماماً عن تقديم عرضه وأفضى إلى لونورمان :

« .. رأيت شخصا يسرع الخطى ناحية أبواب الأبدية ولا يمكن أن نرهقه بأحمال دنيوية إضافية .. » (1) .

وإكن كانت عليه التزامات تجاه مستمعى محاضراته فى الكولاج دوفرانس وقد خصص لهم وكتاب « القواعد » أخر ما تبقى له من طاقة . وكان قد عاود إلقاء محاضراته بعد وصوله إلى باريس بيومين فى ٥ ديسمبر . وقد حضر جمهور كبير كما حدث فى الربيع ، وكان

* إشتكت روزين فى إحدى رسائلها لسلفتها من سمعة - « صغير » .

على نفس الدرجة من الحماس والانتباه وقد شدته هذه الطلاقة في الحديث فهي التي يمكنها أن تستدرج إليه الحضور عندما يكون الإلهام حاضراً .. وقد ردد الشهود وخاصة لونورمان على الجوانب المؤثرة والتنبؤية لهذه المحاضرات .

ترك لنا أحدهم- وهو شارل لامبار- وهو من الخريجين الشباب لكلية الهندسة (بوليتكنيك) والذي أصبح من السان-سيمونيين ورحل إلى مصر مثل العديدين منهم ودخل في خدمة محمد علي كمهندس أشغال عامة - بعض المذكرات⁽²⁾ التي دونها خلال إثنين من محاضراته الثلاثة الأخيرة. هل كانت تعكس بدقة تعاليم صاحب الكشف ؟ سنجد في ذلك مادة للتأمل حول عملية نقل المعرفة ، إن قراءة هذا النقل غير الدقيق لآخر محاضرات هذا الرجل العظيم ، على الرغم من أنها بقلم رجل حسن النية، تدعو لذلك:

الدرس الأول (٩ ديسمبر)

" بدأ مسيو شامبوليون محاضرتيه بشرح الحروف الهيروغليفية وعددهم ٨٠٠,٠٠٠ حرفاً ، يوجد نوعان من الخطوط الهيروغليفية الديموطيقية والإيراطيقية (كذا) الإيراطيقية خاصة بالمعابد ، الديموطيقية بالكتابة اليومية العادية، الكتابة الإيراطيقية منحوتة ١ - بارزة ٢ - سليويت ٣ - بارزة داخل حفر ٤ - على قطع مطلية بالطين أو المزايكو أو مرسومة "

الدرس الثاني (١٢ ديسمبر) :

" الكتابة الهيروغليفية الخطية على الرغم من كونها مختصرة عن الكتابة الهيروغليفية الملونة كانت تتطلب وقتاً طويلاً في التنفيذ ولذلك عملوا على اختصارها وهكذا أنشأوا كتابة جديدة أيسر وأسهل سميت إيراطيقية لأن الذي كان يستخدمها هم الطبقة الكهنوتية"

لم يتمكن شامبوليون من إنهاء محاضرتيه في ١٣ ديسمبر ففي ذلك اليوم - كما جاء في مذكرات الدكتور هوبار - فرانسوا جان (الذي سبق أن ذكرنا علاقته الوثيقة بعالم البصريات) أحس " بعض أعراض الصرع " أصبحت حركاته " صعبة " ولسانه أخذ يتلعثم إلا أن " الإفرازات الدموية * وضعت حداً فورياً لهذا الحادث. " لم يعد أستاذ الآثار يعد ذلك أبداً إلى الكولاج ". في سردها الجميل للاسابيع الأخيرة من حياة جان فرانسوا شامبوليون ذكرت مدام هارتلوبان في ٢٣ ديسمبر وهو يوم عيد ميلاده الواحد والأربعين: أراد المريض أن ينقل إلى مكتبه الذي

* لم يكتشف الدكتور جامنان إن كانت هذه الانبعاثات الدموية تلقائية أم لا .

كان يقع فى شارع مازارين والذى اندفع خارجاً منه إلى مكتبة الانستيتو فى ١٤ سبتمبر ١٨٢٢ ظهرأ ليعلن لأخيه أنه نجح فى الوصول إلى حل الموضوع .. " إن علمى ولد هناك وأنا وهو نكون وحدة لا تنقسم: إننا شئ واحد " إنه موقف " فكرى مصرى خالص لرجل يحتضر ينصهر فيه شامبوليون مع علمه فينصهر داخله الفكر والسكان الزمان والرسالة . كما أنه سلوك نموذجى للمحتضر - ومع ذلك فإن صاحب الكشف إنتقل وانفسه مرة جديدة لزيارة عزيزة داسييه (" أبى الحقيقى) الذى كان قد بلغ التسعين ولم يكن يغادر سريره قط كانت حواراته الأخيرة تتم فى غرفته شارع فاقار .

فى ٤ يناير كتب له إيبوليتو روسيلبى معرباً عن أسفه "لوعكة" التى قالت له مدام شيروبينى أنها ألت به وأضاف التلميذ التوسكانى أن أسفه كان سيصبح كبيراً جداً لولا أنه علم بعد ذلك أن "الهزة" كانت "بسيطة" ولم يترتب عليها "أى أثر سئ" وإن "الأمراض التى تكتفى بالإنذار تحل محل المستشار الجيد الذى يوجهنا إلى الاحتياجات التى يجب إتخاذها " . فلسفة حكيمة يخلص منها الودود إيبوليتو بأن يحث صديقه على "وضع العمل جانباً لبعض الوقت " .

ومع ذلك فهذا الراعى الصالح لا ينسى أن يعود إلى ذكر الموضوع الذى يخصه «بالنسبة لما تبقى لنا تأديته فإن العمل ممكن أن يسير دون أن يؤثر ذلك بأى شكل من الأشكال على الاحتياجات اللازمة لك . إنه لا يتطلب منك عملاً آخر سوى أن تلقى نظرة عابرة على الأشياء التى سأرسلها لك» . ثم أعلن له روسيلبى أنه ينوى أن ينشر فى القريب العاجل "النصوص الخاصة " بالأوضاع المدنية " الذى كلف به طبقاً لتوزيع المهام الذى قاما بتحديده سوياً قبل بضعة شهور ؛ وبعد أن كرر دعوته له لكى يستعيد صحته فى توسكانا ، أكد رفيق الرحلة إلى مصر إلى جان - فرانسوا « كل الود الذى لن يتغير أبداً » .

جملة كان لها ما يبررها : فإن الشد والجذب الذى حدث بسبب تباين مواقفهما من علاقات غير متساوية مع سلطات هى أيضاً غير متكافئة وكذلك بسبب إختلاف السن والمستوى العلمى وحتى بسبب إختلاف الأمزجة بينهما ، فهى إذا كانت قد نجحت فى تعطيل النشر المزدوج والذى كانا يلمان بتحقيقه سوياً والذى نظماه بذكاء، فهى لم تنجح فى فصم علاقته صداقة مؤثرة ومثمرة ستؤكددها للأسف الشديد بعد وقت قصير كلمة الوداع الرائع الذى خص به التوسكانى صديقه الفرنسى . يجب أن نذكر ونكرر إلى ماشاء الله أن على الرغم من كل الإفتراءات التى ذكرت (ولم يكن جاك

-جوزيف غريباً عنها في كثير من الأحيان) فإن الصداقة والتعاون والتكامل بين جان-فرانسوا شامبوليون وإيبوليتوروسيليني كانت نوراً في حياة كلا أنوار وبقيت مثلاً يحتذى به في الأوساط العلمية .

في ١٢ يناير ١٨٣٢ إستقبل جان-فرانسوا بيو الذي جاء لزيارته وكان قد أشاد في اليوم السابق بما قدمه علم المصريين القدماء إلى علم الفلك الحديث. وكان المريض قد حارب كثيراً في هذا المجال أفكار ليترون (وكان يقول "هؤلاء القوم لا يعرفون سوى قراءة الطالع في النجوم) كما أنه فاضل كثيراً في موضوع الزودياك (لوحة الأبراج السماوية المأخوذة من معبد دندره) وقد رفعت هذه الزيارة من حالته المعنوية والجسدية فأستقبل عالم الفلك مبتهجاً إذ كانت تربطه به وشائج كثيرة توثقت خلال تثير من الجدل لم يكونا خلاله من نفس الجانب في كثير من الأحيان .

وفجأة ترنح ثم وقع أرضاً وهو يصرخ من الألم ، تم استدعاء إثنين من الأطباء الإستشاريين الدكاترة بروسبه وكروفاليار اللذين وجدا شامبوليون مشلولاً ويكاد لا يقوى على التعبير عن نفسه وهو مع ذلك يصدر بعض الأناث كثيراً ما وصفت بأنها صرخات الإحتضار وهي التي أضفت على أزمة ١٢ يناير هذه- التي ردد أخوه وصفها كثيراً - بعداً مأساوياً : "يا ألهي عامين آخرين ، ولما لا !...." ثم أخذ يضرب رأسه بيديه "لازال الوقت مبكراً ، فما أكثر ما هو موجود هنا بالداخل " .

سيتمكن من العمل لبضعة ساعات أخرى في تنقيح كتاب "القواعد" مع جاك-جوزيف الذي كتب في المقدمة التي وضعها بعد ذلك بعامين في صدر هذا المؤلف - الوصية إن جان-فرانسوا وهو يسلمه المخطوط قال له "إحتضنه جيداً إذ أن أملى هو أن يكون بطاقتي إلى الأجيال القادمة . "كما تمكن المريض أيضاً من أن يستعلم عن مراحل الحملة الثالثة إلى مصر ، تلك التي سمحت بنقل مسلة الأقصر إلى فرنسا والتي جائته فكرة إقامتها في أحد المواقع الباريسية وهو الذي أقنع محمد على بإهدائها لفرنسا * وكان هذا الموضوع يلح عليه وسط هذه الألام وخلال هبوطه الطويل نحو "الأماكن السفلى" - بمثابة قيس من الزهو القلق : إلى أين وصل المركب "الأقصر" الذي كان يقوده صديقه فارنيناك دوسان مور والذي كلف بنقل أكثر الغنائم قيمة وعظمة إلى فرنسا ؟

* راجع الخاتمة .

إبتداء من أول فبراير دخل مرحلة الهلوسة التي لا عودة منها . هل تعرف حتى على كازمير بيريه رئيس الوزراء الذي جاء لزيارته وهو يعرف أنها المرة الأخيرة التي يراه فيها والتي لم يعيش هو نفسه بعدها سوى شهرين فقط إذا صرعه مرض الكوليرا فى يداية شهر مايو . يبدو أن المحتضر لم يترك وصية : إنما طلب شفويًا من أخيه أن يدفن فى مقابر الأب لاشان بالقرب من فورييه "

فى مساء ٣ مارس حصل على المباركة الدينية النهائية وعلمنا من مراسلاته مع أنجليكا أن هذا المناهض الشرس للكهنوت قد أكتشف أنه مؤمن ... أراد أن يرى مرة أخرى الأشياء التي أحضرها معه من مصر - جلييته وقفطانه* الأسود وطربوشه وشبشب الذي أحضره من الجرنة. وسمع بعض أقربائه أننا طويلاً اعتقد البعض منهم أنه قال " إذن فهيا إلى أبعد من ذلك إلى مصر حتى طيبة .. " أبنته زورايد التي كانت قد بلغت لتوها عامها الثامن وكانت قد ولدت على نفس هذا السرير ، هل شعر بوجودها ؟

جان - فرانسوا شامبوليون يواجه الموت " إذن فالى أبعد من ذلك حتى طيبة .. " إن ما بقى له من وعى عبر به الدورة التي قادته نحو المناطق السفلى فى إتجاه "الأمنتى" قبل الصعود التطهيرى التي سيولد بعده من جديد - كما هو موقن- إلى جوار الأجداد .

ما الذى يمكن أن تعنى هذه المعرفة الهائلة التي كرس لها حياته كلها ، ما الذى يمكن أن يكونه شعب الالهة الذى حضر مؤخرًا لاستقباله لفترة دامت شهورًا من ممفيس إلى أبو سمبل إذا لم يكن وعدًا بالأبدية ؟ إن التماثيل المصنوعة من الجرانيت الأحمر والبازالت الأخضر الذى نجح فى أن يقرأ عليها ، منذ إقامته فى تورينو ، الهيروغليفيات الأسطورية التي تشهد على وجود حياة غير قابلة للفناء ، ماذا يمكن أن تكون - سيزوستريس المحبوب وتحتمس المرهوب - سوى الصورة الصلبة من حجر التي يتم من خلالها استمرارية الحياة؟

هذا الاحتضار الذى لا يحتمل ملئ بحقائق لا ريب فيها ودائمة: إن الرجل الذى كان يحاور داخل مقابر ببيان الملوك ولفترات زمنية طويلة "الأجداد" فى خدة متناهية ، لدرجة أن سلفانور شيروييني كان يجده منهاراً ووجهه إلى الأرض ، هذا الرجل كان

* محتفظ بها فى منزل الأسرة فى فيف

يعرف وهو فى أكثر الفترات عذاباً - "لا يزال الوقت مبكراً" ما أكثر ما هو موجود هنا فى الداخل .. " أن العالم الذى أحياه من جديد سيضمن له حياة لا ملل فيها .

توفى فجر ٤ مارس ١٨٣٢ ، كان عمره واحد وأربعون عاماً وشهران ونيف . كانت قسما ت وجهه التى تشبه وجه محارب أفريقى قد أسأنت إليها فغيرتها الآلام وكانت الشيخوخة التى طالت هيئته مأساوية لدرجة أن روزين و جاك جوزيف رفضا فى بادئ الأمر أن تؤخذ لوجهه بصمة شمعية ولكنهما وافقا على ذلك فى النهاية* ولم يسمح سوى لعدد قليل جداً من الأشخاص بتحية الرفات .

كثر الجدل حول أسباب وفاته ** كان السلل أهمها جميعاً وكانت هشاشة رثيته معروفة منذ فترة طويلة ثم إن المحنة المناخية القاسية للغاية التى فرضت عليه فى بداية عام ١٨٣٠ لدى عودته من مصر (إذ بعد أن كان قد مر لتوه من جو الإسكندرية الخانق واجه على الفور تليج محجر طولان الصحى فى شتاء لا يمكن تصور قسوته فى ذلك العام وهو الأكثر برودة لنصف قرن كامل) كل ذلك حول الوهن إلى مرض قاتل .

على الرغم من أن المتخصصين المعاصرين يرفضون إعتبار حالات الإغماء التى كانت تطرحه أرضاً فى كثير من الأحيان (وخاصة فى اليوم المشهود يوم "وجدتها" وفى ١٤ سبتمبر ١٨٢٢) تشخيصاً إكلينيكياً لهذا المرض، فقد كان مريضاً بالسكر. سبق أن أشرنا إلى أزمات النقرس التى عصفت بالسبع سنوات الأخيرة من حياته، كما توجد أسباب عديدة للإعتقاد بأن إقامته فى مصر وما شربه فيها من (ماء النيل) وما أكله خلال

* حدث نفس الشئ عندما طلبت جميعه فريسة الدماغ صب قالب للرأس لولا أن العلاقات القوية التى كانت تربط الدكتور جانين بالتوفى أقنعت الأسرة بالسماح بإجراء هذه العملية ، مما سمح للطبيب بإجراء بعض التعقيبات التى جاءت مخيبة للآمال على العموم .

** قدم الدكتور كروفيليا دبروسيه ونوبار التشخيص الثانى : "مرض معقد جداً" ومن عام نتج عنه مرض السكرى ، البقاء فى الحجر الصحى ، الإنفعالات لأحداث الثورة ، الإرهاق المستمر والإحساس بأن الموت يقترب منه وهى جميعاً أسباب معنوية لها آثار رهيبية على المريض بداء السكر ومن ثم التنام سيق للجراح وتنتج عنه انتشار السلل . سبب آخر النقرس الصاعد ، كانت الأزمات التى لحقت بشامبليون أزمات إحتقان أكثر منها أزمات جرح (تسببت رحلته المرهقة والأجواء السيئة داخل مقابر الملوك وشرب كميات كبيرة من ماء النيل كل ذلك تسبب فى مرض الكبد تم تشخيصه فى وقت متأخر جداً) نشاط عقله المتوهج وإنشغاله الفكرى المستمر جمد دمه وأوصله إلى القبر .

فترة إقامته الطويلة في الجرنة لم تكن غريبة عن التدهور المفاجئ لصحته . إن مرضى الدرن يعرفون مثل هذا التدهور السريع لصحتهم وأكثر من ذلك إذا كان جسدهم قد أصيب بفيروس أو أميبا مثل الذين جاء بهم من الشرق (الذي لم يكن صحياً في تلك الأزمنة) الرحالة الجسورون .

جرت مراسم الجنازة صبيحة ٦ مارس ١٨٣٢ وكان يوم الثلاثاء المرفع والصلوة أديت في كنيسة سان روش التي كان لها دور هام في حياة المتوفى وفي حل شفرة اليهودغليفيات، ففيها التقى بالقس شيفتشي وكان في السابعة عشرة من عمره وكان أفضل أساتذته للغة القبطية وكان يستمع إليه وهو يقيم القداس " بلغة أعزائه رمسي و تحتمس " . في أي مكان آخر أفضل من هذا يمكن إثارة الرحلة الأخيرة لروح لشخص الذي كان يطلق عليه الدكتور باريزيه اسم "ميامون" ؟ أين يمكن أن نجد مصدراً أكثر تفصيلاً لاستناره .. الرابع عشرين سبتمبر ١٨٢٢ ؟ اللغة القبطية ..

للانتقال إلى مقابر پارلاشاز أحاط بالنعش سليفاستر "دوساسي ، المعلم فرانسوا أرجوا، الصديق ، الكسندر فون هومبولدت ، ممثلاً لعلماء أوروبا كما كان يجب أن يصفه والكونت دو فوربان ، ممثلاً للسلطة بصفته مديراً عاماً للمتاحف وكان الحضور كبيراً جداً ولم تصرفه إحتفالات الكارنفال .

خطبة وداع مؤسس علم المصريات ألقاها سيلفاستر دوساسي في جلسة أكاديمية يوم ٢ أغسطس التالي للوفاة . "كان إطراءاً فريداً من نوعه بسبب غموضه وهو يلقى الضوء - في صراحة غير مألوفة في مثل تلك المناسبات- على الشك الذي كان على مكتشف الشفرة أن يواجهه ويتخطاه وعلى الإنضمام الحذر والمتأخر لمؤيدي شامبوليون حتى قبل تأييد أستاذ الإستشراق ومعلمه .

" من المؤكد أن شباب المؤلف والحيوية التي يتسم بها خياله وحماسه غير المتأني كان لهم دور هام في الأعمال التي كان يفتخر بها وفي الثقة التي كان يعرضها بها للخطر ولم يكن النقد الذي ظل متردداً في قبول مثل تلك الوعود سوى حذراً وعادلاً* .

" ومع ذلك فإن ما كان يعد به دون حذر في ذلك الوقت قام بتحقيق الجزء الأكبر منه بعد ذلك ببضعة سنوات ولو لم يحصده الموت مبكراً فلاشك

* أكثر حذراً من كونه عادلاً "

أنه كان سيحققه تماماً بل لعله كان يتخطى أماله ذاتها " .

حتى وهو على أعتاب مقبرة تلميذه السابق لم يسحب المعلم العجز تحفظاته إلا وهو نادم ، وقبل أن يستسلم فهو يفاوض على إستسلامه حتى آخر لحظة ، متهماً في عناد "الحماس غير المتأني" للرجل الذي لم يبيع في "رسالته إلى مسيوداسييه" في ٢٧ سبتمبر ١٨٢٢ سوى بجزء بسيط من إكتشافه. استمر الجدل -كما لو أن وفاة صاحب الكشف لم تكن بالفعل سوى عبور مؤقت للممالك السفلى في إنتظار ميلاد الشمس الجديد

بعد أن أطلق أخر سهامه أصبح ساسى على سجيته وأخذ يحى في الرجل شخصيته "هذه الإستقامة فى القلب ، وهذه البساطة فى الشخصية وهذه الصلابة فى الفكر الممتازة بكل هذا المرح وهذا الولاء الدائم فى العواطف وهذه النزاهة الشخصية وهذا الإمتنان الحى والصادق أى وفى كلمة واحدة جميع الصفات العظيمة التى طبعت بها كتاباته" . ثم يضيف الخطيب متسائلاً: "ولكن من منكم أيها السادة لا يؤيد ما نمتدحه فيه هنا ؟ ولو أن الأكاديمية لم تضم لها شامبوليون سوى مؤخراً ولفترة وجيزة إلا أنها كانت تعترف بكل ما سبق كما كانت تفعل لها بالنسبة لدراساته العلمية وأدابه وذلك لأن قوة أحاسيسه واستمراريتها لم تكن سوى العلامة المميزة لقلبه وبنفس القدر الذى تميز به فكره من تعاطف واستعداد طيب " .

أهم تحيتين قدمتا لجان - فرانسوا شامبوليون ندين بهما لأقرب مريديه له وهما إيبوليتو روسيليني والغريم الذى ظل لفترة طويلة على عنادة ضد الشخصية المسيطرة لمؤسس علم المصريات جون جارندى ويليكنسون .

بعد أسابيع من وفاة زمليه فى الرحلة إلى مصر نشر البروفيسور التوسكانى فى بيزا : تقدير الامتنان والحب فى ذكرى جان - فرانسوا شامبوليون الصغير : حيث عبر فيه - فيما وراء المبالغات التقليدية المعهودة فى مثل تلك المناسبات - عما يجب تسميته صرخة من القلب وهو ما يعتبر شيئاً نادراً فى مثل هذا المجال : " .. لك الفخر يا فرنسا أن أخرجت "كولومبس" جديداً فتح أمام العلم عالماً ظل لعدد من القرون عاجزاً عن إكتشافه ! ألام رجال العلم الذين وقفوا حول جثمانه عبرت عن الخسارة التى لا تعوض المتمثلة فى إختفاء مثل هذه العبقرية والحزن الذى ألم بأصدقائه العديدين يذكرنا كم كان طيب القلب وخدمنا وأميننا ويستحق الاحترام والتقدير والحب (..) كم كان عفيفاً ورزيناً ومقبلاً على العمل ، قليل الإهتمام بالشكليات الاجتماعية كما أنه

أكثر الناس سخائناً بالتعريف بنظرياته .. "

في ١٧ أبريل ١٨٣٢ تلقى جون جاردنر ويلكنسون الذى ظل عشر سنوات متقوقعاً في منزله المشيد باللبن في ألجرنه (حيث رفض قبل ثلاث سنوات حتى ولو بصفته جاراً - مقابلة أعضاء البعثة الفرنسية التوسكانية وذلك ولاءً منه ليانج) تلقى نبأ وفاة شامبوليون فكتب رسالة إلى فارنيناك دوسان مور الضابط الماود في منطقة اللوت والذى قاد مركب "أسترولاب" الذى عاد عليه صاحب الكشف في فرنسا :

"لا أحد يمكنه " أفضل منى تقدير الموهبة الخارقة لهذه العالم ولا أحد أيضاً يمكنه تقدير فداحة هذه الخسارة أفضل من الذى شغل نفسه لهذه المدة الطويلة بنفس دراساته . هكذا توقفت إشعاعات النور التى كان علمه يلقيها على الهيروغليفيات! وقعت الشعلة . لى الأرض ولا يمكن لأحد أن يرفعها . أخشى كثيراً أن تكون وفاته نتيجة للهجوم . ير الطيب الذى قامت به العديد من الشخصيات مؤخرأ فى إيطاليا وإنجلترا وألمانيا وحتى فى فرنسا على منظومته وسمعته. إلا أن الأمل يحدونى فى أن العالم سيكون عادلاً بما يكفى لنحه ما يستحقه. الواقع هو أنه لا يمكن إنكار أن دراسة الأثار واللغة المصرية لا تدين بما هى عليه الآن سوى لأعمال شامبوليون* ..

بين كافة التعبيرات عن الحزن والإعجاب التى وصلته حينذاك وضع الأخ الأكبر لجان فرانسوا شامبوليون هذه الشهادة وحدها فى المقدمة وقد حث ابنه إيميه على نشرها - دون الآخرين جميعاً فى كتابه "الشقيقان شامبوليون" (ص ١٠٦)
"إن الأعمال الرائعة التى قام بها أخوكم مضاعة بمعارفكم أنتم أيضاً وستدوم مثلما تدوم الأثار التى شرحها لنا لتوه " توقيع : شاتوبريان** .

الأنوار : نفس الكلمة تظهر فى كتابات روسيللنى وولكنسون وشاتوبريان وهى تفرض نفسها بالفعل منذ البدايات القديمة لعملية الكشف حتى إختفاء صاحبه " هذه هى نهاية الأنوار" أعلنها ويلكنسون ولكننا يمكن أن نقول أيضاً " ها هى الأنوار قد هلت .. "

حكيم مصرى من الأمبراطورية الحديثة قال ما يلى، منقولاً من بردية شيبستر بيتى الرابع : " رجل ذهب. جثمانه مسجى داخل الأرض ، جميع معاصريه ذهبوا " عن الأرض : إلا أن المكتوب سيضع ذكراه على شفاه من سينقلها إلى شفاه أخرى .. "

* سبق أن أشرنا إلى هذا الخطاب فى الفصل ١٢ .

** أعاد شاتوبريان هذه الجملة بالنص تقريباً فى الصفحة قبل الأخيرة من مؤلفه منكرات من وراء القبر.

خاتمة

الغائب عن المسلة

بقلم

جان فيدال

فى ٢٥ أكتوبر ١٨٣٦ إجتاح مئتا ألف باريسى ساحة لا كونكورڤ وحدائق التويلورى لحضور حدث ظلوا ينتظرونه طويلاً : إقامة المسلة .

منذ أن أهداها محمد على لفرنسا ظلت المسلة المصرية موضوعاً للمقالات وسيبياً لإثارة الرأى العام وتابعت الصحف يومياً تقريباً مختلف مراحل إقتلاعها من مكانها ورحلتها التى دامت ستة عشر شهراً ونقلها من ضفاف النيل بالقرب من طيبة حتى شواطئ نهر السين .

ولكن ، وحتى قبل أن تصل إلى باريس فى نهاية ١٨٣٣ ، أثار موضوع إقامتها فى العاصمة واختيار المكان الأمثل لذلك العديد من المناقشات المريرة وكمية غزيرة من الكتابات تغذيها فصاحة محبى المجادلات . أخيراً سترأها الأعين تلك المسلة القادمة من هذه الأقطار النائية بعد كل هذا المجهود وهذه الأموال : .

كانت لا تزال فى صندوقها الخشبى الضخم الذى حماها عبر رحلتها عندما رفعت على منحنى مريح زاويته صغيرة ينتهى عند قمة القاعدة التى أقيمت لاستقبالها ، فى الوضع الذى كانت عليه فى ذلك الوقت ، ممددة على الرديم المائل . كانت قاعدتها تمس سطح القاعدة التى سترسو فوقها وكان الموضوع الآن هو تنفيذ أصعب العمليات وأدقها وهو إيقافها على قاعدتها .

يفضل الآلية التى اخترعها المهندس "لوبا" الذى كان يشرف على المناورة ويفضل الشدة الخشبية والحبال العجلات والونش وعضلات ٤٨٠ من جنود سلاح المدفعية شاهد الناس هذه الكتلة الضخمة والتى تزن ٢٣٠ طناً ترفع وهى تدور حول نفسها ببطء - بل ببطء شديد فى شكل قوس زاويته ٩٠ درجة تقف بدقة متناهية فوق قاعدتها . ارتفعت صرخات الاستحسان من الحضور الغفير فى حين راح الملك فيليب وأسرته التى أحاطت به فى شرفة وزارة البحرية يصفقون لهذا الأداء الميكانيكى الرائع .

أصبح لباريس الآن مسلتها . كان الوقت متأخراً لكي يتمكن شامبوليون من حضور انتهاء المشروع الذي بدأه والذي كان التأخير المتكرر والمعوقات أمام تنفيذه أحد المنفصات التي أثرت على السنوات الأخيرة من حياته .

غير أن ذكرى صاحب الاكتشاف كانت عالقة في أذهان عدد كبير من المشاهدين عندما ارتفع الحجر ذو القاعدة المربعة المزين بالهيروغليفيات نحو سماء باريس . بالنسبة لهؤلاء كما كان الأمر بالنسبة لكل من كان يتعلم في فرنسا وأوروبا الذين يعرفون قدر ما يدين به العلم لاكتشافه العظيم فإن إفتتاح هذا الأثر اعتبر تحية ضمنية لمؤسس علم المصريات .

مضت الآن مائة وخمسون سنة ونيف على الحدث وعندما نمر أمام المسلة فيكفي أن نرنو إليها لكي تذكر شفاهنا اسمه .

إنه اسم نتظر أن نراه مكتوباً أسفل القاعدة الحديثة لهذا الأثر ومع ذلك وللعجب لا نجده وسنذهب بانفسنا لتتأكد من ذلك عندما يحين الوقت ولكن يجب علينا أولاً أن نذكر بالدور الذي قام به شامبوليون في المغامرة الفريدة التي قام بها هذا الأثر الذي هو "رمز الشمس والحياة يقف رأسياً مثل شعاع مضي ومثل أير منتصب " * أنشئ لكي يجلب التسامى الإلهي للفرعون المصري والذي أصبح أحد معالم الحياة الباريسية المشهورة والشاهد العلني لأعظم أيام فرنسا الجمهورية .

مسلة في بريس؟ لم تكن الفكرة جديدة . قدم جان أومبار في كشف موثق ضمن مقالة "مسلات باريس" المشاريع والذي تحقق منها " الذي ظهر في مجلة لاروفو دولار (1) La Revue de l'Art تضمن كافة الأعمال المقامة على شكل مسلة والتي أقيمت منذ القرن السادس عشر لكي يتزين بها ميدان أو مجموعة معمارية أو للإحتفال بذكرى حدث ما مثل ذلك ، المسلة التي شيدت في عام ١٥٤٩ في شارع سان دونى بمناسبة دخول الملك هنرى الثانى إلى عاصمته و يبلغ إرتفاعه سبعين قدماً فوق قاعدة على هيئة حيوان وحيد القرن .

* التعبير منقول من الكتاب الممتاز الذى ألفته مدام برناديت مونو : "مسلة الكونكورد" ونشر بمناسبة العيد المائة والخمسين لإقامتها ، قدمت له نبذة تاريخية مدام ديروش نوبلوكور ، وتزينه رسومات أصلية . يوفر هذا الألبوم كافة التفاصيل الخاصة بهذا الحجر الصلب ، ومعانى مخطوطاته وتاريخ رحلته والوسائل التقنية التى استخدمت لنقله من طيبة إلى باريس .

السحر الذي كانت تؤثر به مصر وأسرارها على الأذهان في القرن الثامن عشر، إذ تطور فأصبح جنوبياً بمعنى الكلمة أطلق عليه اسم "جنون الولع بمصر" أدى إلى ظهور مسلات ليس في المدينة فقط وإنما في الحدائق وفي المنازل الريفية الترفيحية المحيطة . كانت نزوات تستلهم وجودها من الآثار الفرعونية الأصيلة الوحيدة الموجودة في أوروبا الغربية وهي مسلات إيطاليا، المستوردة إليها في العصور القديمة وخاصة في روما والتي نجح باباوات المدينة الأميرية في عصر النهضة في إدخالها في الإطار العام لعاصمتهم في تناعم رائع معه . ولكن بعد الأباطرة- من أغسطس إلى قسطنطين الذين أسقطوا ثم نقلوا إلى شواطئ التيبر والهيليسبتون معظم المسلات التي كانت قائمة أمام معابد وادي النيل - لم يفكر أحد في تقليدهم .

ثم جاءت الحملة على مصر. أن تكون فكرة إخضار مسلة إلى فرنسا ضمن الأفكار العديدة التي ألهمت خيال بوناپارت وأعوانه وتلقى قبوله، فهذا يعتبر من طبيعة الأمور ولم يتردد الإسكندر الجديد في حملاته السابقة من إنتزاع غنائم عديدة أخرى إلا أن المشروع توقف وسبق أن قلنا لماذا .

إلا أن المشروع عاد إلى الظهور المفاجئ مرة أخرى ولكن في صورة مختلفة عندما أراد نابوليون وقد بلغ قمة المجد بعد انتصاراته في بينا والفيستول ، أن يمجدها إلى الأبد. ويتأثير من دونون الذي إمتدح له جلال مسلة الكرنك حدد اختياره في هذا النوع من التشييد ولكن لم يكن الأمر خاصاً بآثر مصرى ولكن بمسلة خاصة ترتفع مائة وثمانين قدماً تقام عند نهاية جزيرة لاسييته أمام ساحة جسر البون نوف - وكان المفروض أن يكتب عليها عبارة "الإمبراطور نابوليون إلى الشعب الفرنسى " .

وصدر قرار باعتماد هذا المشروع في ١٥ أغسطس ١٨٠٩ وبدئ بالفعل في تشييد أساس هذا الأثر الضخم واستعدت ساحة البون - نوف لاستقبال مسلتها عندما غيرت الظروف التاريخية في ١٨١٤ من الأثر الذي تحول إلى تمثال للملك هنرى الرابع فوق جواده تم صبه من برونز إحدى تماثيل نابوليون واحتل القاعدة التي أعدت للمسلة الإمبراطورية وظل في مكانها حتى الآن .

إلا أن باريس أصبحت مركزاً للدراسات المصرية : ظلت أجزاء كتاب "وصف مصر" تظهر تحت رعاية لويس الثامن عشر بينما عمليات إقتناص الآثار كانت على أشدها عند ممفيس والكرنك، ولم يطل الوقت حتى عاد الحديث بدور من جديد عن المسلة.

هل قام ملك فرنسا بالأمر بالمفاوضة على للحصول عليها أم أن نائب - ملك مصر هو الذى بادر بإهدائها له ؟ إن المراجع حول هذه النقطة غير دقيقة إلا أن الإفتراضين لا يتعارضان ويتفق مع ماكتبه شامبوليون - فيجاك أن "نائب ملك - مصر كان يسمح بشئ من البذخ: ففى مقابل بعض التعويض له بتصدير المنتجات الأثرية للخاصة الملكية وفى مقابل بعض الهدايا من القطع الأثرية الهامة كان يتلقى خدمات ويستفيد من ورعاية أمراء الغرب له" (2)

نضيف إلى ذلك أن تائير صديق الباشا الحميم - (القنصل برناردينو دروفيتى) - فى هذا الموضوع كان عظيماً. يبدو أن فكرة إهداء مسلة ملك فرنسا كانت تراوده ، ففى إحدى رسائل دروفيتى المحررة فى القاهرة بتاريخ ١١ يناير ١٨١٩ نقرأ ما يلى: "أما بخصوص المسلة التى كنت أخصصها كهدية إلى ملك فرنسا فقد ضاعت بالنسبة لكم بسبب الخطأ الرهيب الذى ارتكبه مسيو ريفان (ريفو) الذى لم يقبل أن يذهب ليأخذها عندما أرسلت فور وصولى إلى هنا زوج ابنتى إلى سيان* مكلفاً إياها بشحنها (إلى فرنسا) (3) .

المرسل إليه غير مذكور فى الرسالة ، لكن لا شك أن خطاب دروفيتى هذا كان رداً على الرسالة التى أرسلها له شخص يدعو جويو كان قد كتب له من أسوان فى ١٣ ديسمبر السابق يقول له فيها : " إنى انتهز فرصة كرم ميسو سولت على لأصعد أبعد من ذلك فى نهر النيل " أريد أن أعلمكم أن المسلة موضوعة بالفعل فوق المركب والذى سيغادر الجزيرة غداً" (4).

ما هى هذه المسلة التى أراد دروفيتى إرسالها لملك فرنسا والتى خطفها منه غريمة البريطانى - ضمن سلسلة الصراعات القائمة بين تاجرى الآثار ؟ هل كانت الجزيرة المذكورة هى جزيرة فيلة وهل كانت المسلة هى تلك التى أخذها بانكس شريك سولت ونقلها إلى أنجلترا ؟ من المعلوم أن خرطوش كليوباترا الهيروغليفى الذى يعتبر من أهم العناصر التى بنى عليها شامبوليون اكتشافه كان منقوشاً عليها

فى تلك الأونة كان دروفيتى يعمل على استعادة رضاء أسره البوربون عليه فقد خلع من منصبه بعد عودة الملكية ، كقنصل فرنسا العام فى مصر، وكان الأمل يحبوه فى العودة إليه، كما أنه كان يأمل فى أن تشتري منه فرنسا مجموعته الأولى من الآثار

* أسوان (المترجم) .

المصرية القديمة وكان مدير عام المتاحف الملكية - الكونت دو فوريان قد تأثر للغاية من حسن استقبال القنصل السابق له لدى مروره على الإسكندرية في بداية عام ١٨١٨ كما أعجب للغاية بمجموعة الآثار التي جمعها ، ولدى عودته إلى باريس أعلن الكونت لدورثيتي أن عودته إلى منصبه تكاد تكون مؤكدة وأفهمه أن ذلك يساوي بعضاً من التضحية بالنسبة للسعر الذي يطلبه لمجموعته الأثرية وأضاف "سينظرون هنا بعين الرضا إلى بعض العينات من مصر الرائعة التي قد تهونها مباشرة إلى صاحب الجلالة" (5)

فضل دورثيتي أن يبيع مجموعته إلى ملك سردينا ، ولكن بعد أن أعيد إلى منصبه كقنصل عام لم يكن في إمكانه أن يغفل التعبير عن ولائه بتقديم هدية إلى ملك فرنسا، ويعود له الفضل دون شك في أن أصبح لويس الثامن عشر في أواخر عهده مالكا لمسلة هي واحدة من إثننتين موجودتين في الإسكندرية تسميان عن خطأ "بإبر كليوباترا" أما الأخرى فقد أهديت إلى إنجلترا للحفاظ على حسن التوازن الدبلوماسي بين الدولتين العظميين .

ومرت الأعوام دون أن يفكر الملك الجدد للمسلتين في الحضور لآخذهما ونسي شارل العاشر ووزرائه وجودهما إلى أن ذكرهما كل من الكونت لابورد لدى عوته من مصر وشامبوليون لدى وصوله إليها بأن قال إن إحدى المسلات الملوك لفرنسا تركت في إهمال وسط آثار الإسكندرية .

غداه وصوله إلى الإسكندرية في ١٨ أغسطس ١٨٢٨ ذهب شامبوليون لزيادة "ابر كليوباترا" ولقك شفرة الهيروغليفيات التي عليها فيتعرف على مصدرها - هليوبوليس - وعلى عصرهما : تحتمس الثالث كما سجل أيضاً حالتها السيئة للغاية - وواجهاتهما تاكلت بفعل هواء البحر والمنحوتات تكاد تكون مطموسة تماماً - إلا أنه ينصح في إحدى رسائله لأخيه "بعدم التأخير في أخذ تلك التي تخص فرنسا خشية أن تخطف الهدية من أساسها " ولكنه سيندم على تقديمه لهذه النصيحة في تسرع وذلك عندما رأى مسلات الأقصر .

إلا أن الخطاب كان قد أخذ طريقه وبينما كان شامبوليون والحملة الفرنكو-توسكانية يبجرون في اتجاه مصر العليا كان الخطاب قد فجر في باريس كل طاقات المنقذ الذي لا يكل شامبوليون - فيجاك- فحاصر أصدقائه وأخذ يهز جمود البيروقراطيين فعاد ملف المسلة إلى السطح، وتملكت شارل العاشر رغبة أن يراها

منقولة إلى عاصمته وكلف فيجاك من البلاط الملكي بدراسة تكلفة وضع هذه المسلة على ظهر إحدى سفن البحرية الملكية .

كانت الحكومة البريطانية قد درست الموضوع بالفعل وطبقاً لتقديرات مهندسي البحرية الإنجليزية الذين أرسلوا للمعاينة على الطبيعة فإن نقل المسلات يتطلب إنشاء طريق سيتكلف ثلاثمائة ألف فرنك . بنائاً على ذلك صرفت إنجلترا النظر عن نقل الأثر الذي يخصها وسر شامبوليون لدى سماعه النبأ وهو في قلب منطقة طيبة: " إنى لفي غاية السعادة لأن المهندس العلامة الإنجليزي طرأت له فكرة إنشاء طريق يكلف ثلاثمائة ألف فرنك حتى ترفض حكومته وبالتالي حكومتنا أيضاً مسلتى الإسكندرية فهما يثيران الشفقة منذ أن شاهدت مسلات طيبة . " رآهم للمرة الأولى لدى توقف قصير هناك (في الأقصر) في ٢٣ نوفمبر ١٨٢٨ ولما كان يريد الإسراع في مواصلة رحلاته إلى النوبة فقد اكتفى بالتعبير عن إعجابه إزاء "العمل الرائع الذي شغلت به كتلتى الجرانيت الأحمر القائمتين أمام معبد الأقصر " وكان من نتيجة هذا الحب من أول نظره .. أن حصلنا على الصرح النبيل الذي يزين ميدان الكونكورده .

بعد عودته إلى طيبة في بداية مارس ١٨٢٩ وبعد أن راجع من جديد المسلتين إستبعد أى خيار آخر وكانت أولى رسائله موجهة إلى دروڤيتى الذى كان يستعد لمغادرة مصر : "أود أن تصلكم هذه الرسالة فى الوقت المناسب حتى تقدمون فى باريس إقتراح فكرة الحصول على إحدى مسلتى الأقصر بدلاً من تلك المسكينة المطموسة القائمة عند الميناء القديم وسيكون ذلك أجدر بالأمة وبالوزارة ويكم .. "

وفى نفس التاريخ كتب لأخيه يقول : "شاهدت مرة أخرى المسلات الجميلة ، لماذا نلهى أنفسنا بنقل مسلة الإسكندرية بينما يمكن أن نحصل على إحدى القائمتين هنا مقابل مبلغ بسيط قد يصل إلى أربعمائة ألف فرنك فقط" . ويعاود مرة أخرى بعد بضعة أيام : " إذا أرادت الحكومة أن يكون لها مسلة فى باريس فيجدر بالشرف الوطنى أن تكون واحدة من الموجودتين فى الأقصر (التي على اليمين عند الدخول) فصنعتها رائعة وهى فى حالة جيدة لدرجة مذهلة . أصّر على ذلك وحاول أن تجد وزيراً يود أن يخلد اسمه بأن يزين باريس بمثل هذه الرائعة . ثلاثمائة ألف فرنك تكفى....."

ثلاثمائة ألف فرنك ، أربعمائة ألف فرنك .. لم تكن لدى شامبوليون أدنى فكرة عما سيتكلفه نقل المسلة وتسليمها ثم إقامتها في محيطها العام الباريسي .

ولكن دعونا من التفكير في ذلك ولنشاهد معه ونعرب عن إعجابنا ونحن أمام الواجهة الشمالية لمعبد الأقصر بالمسلتين المشهورتين المصنوعتين من الجرانيت الأحمر: "هاتان الكتلتان الضخمتان" تحفتان حقيقتان ترتفعان لأكثر من سبعين قدماً أقامهما رمسيس الأكبر في هذا المكان لأنه أراد أن يزين بهما الرامسيون كما هو مكتوب بالنص في مخطوط المسلة اليسرى .. "

وكان صاحب الكشف في قمة السعادة عندما لاحظ من جديد أن النصوص المنحوتة على هذه الآثار "كانت أبعد ما تكون عن إحتواء أسرار دينية كبيرة أو تأملات فلسفية أو أسرار علوم السحر أو على أقل تقدير دروس في الفلك بل هي إهدانات مكتوبة كتعبير عن الفخامة للمباني المشيدة أمامها .

وقام شامبوليون بنسخ هذه النصوص بعناية تامة على الرغم من أن أياً من أسرارها كان لا يخفى عليه . الجزء الأسفل من المسلتين كان مغموراً في الرمال ، فعمل على إزاحتها حتى الأساس لينسخ الهيروغليفيات المنحوتة على ثلاثة صفوف عمودية فوق كل من وجوهها الأربع . ظل جزء من المخطوطات تخفيه عنه بيوت بعض الفلاحين المبنية بالطوب اللبن ولكن سيحصل عليها فيما بعد على يد المهندس لوبا الذي حضر بعد ذلك بعامين ليشرق على أعمال إنزال المسلة التي اختارها ونقلها : أى تلك الذي على اليمين عند الدخول .

لماذا وقع شامبوليون في غرام هذه المسلة بالذات (وهي المسلة الغربية لأن مدخل قصر الأقصر في إتجاه الشمال*) ؟ إن الأسباب التي يسوقها لأخيه ليست مقنعة بالقدر الكافي : "أختار التي على اليمين لأسباب جيدة بالنسبة لى على الرغم من أن الهرم الصغير الذي يعلوها مشطوف وأنها تبدو أصغر من جارتها بيضعة أقدام .."

السبب الوحيد الجاد تضمنه تقرير مرفوع للوزير " إنها أفضل بكثير من التي على اليسار ؛ لأن الجزء الأسفل لهذه الأخيرة مصاب حتى ارتفاع قاعدتها بأضرار جسيمة " .

* يجب أن نسجل هنا من ناحية أخرى أن في ضعبها الحالي في ساحة لاكونكورد غيرت المسلة من توجيهاتها، إذ أن واجهتها الشمالية أصبحت اليوم في إتجاه الغرب وتواجه الشانزليزيه .

هل لم يلاحظ شامبوليون أن مسلة اليمين كانت بها بعض الشروخ وهي ظلت تغلق بال لوبا في عملياته المختلفة (وهي شروخ واضحة جداً أحدها على الوجه المطل على كنيسة المادلين والآخر عند القاعدة في إتجاه السين ؟) على العموم كانت هذه هي المسلة التي رأى شامبوليون أنها الأجل : وهو سبب يكفى ..

بعد أن تم الاختيار ببقى كل شئ ينتظر التنفيذ : أى إقناع الحكومة الفرنسية بالعدول عن مسلة الإسكندرية ثم الحصول على إهداء الباشا لإحدى المسلتين الأقصريتين (أو الاثنتين معاً ولما لا ؟) ثم - وهو الأهم - نقل كتلة تزن ٢٣٠,٠٠٠ كيلو جرام طولها ٢٣ متراً من طيبة إلى باريس .. لا يوجد أى مجال لتقطيعها إلى أجزاء مختلفة ! "لن أوافق أبداً على مشروع نشر هذه المسلات الرائعة المصنوعة من كتلة حجرية واحدة إلى ثلاثة أجزاء. إن ذلك يعتبر خطيئه مميتة : كل شئ أولاً شئ!" .

ماذا ؟ هل كان فرنسيو القرن التاسع عشر غير قادرين على عمل ما نجح فيه الرومان؟ تصور شامبوليون تجهيز طوف ذى أبعاد مناسبة توضع عليه المسلة تنقله مائة الفيضان إلى المركب التى ستتولى حمله ونقله إلى أوروبا . هذا هو الممكن .

من الأمور المبالغ فيها أن نرجع إلى شامبوليون الفضل - كما فعلت كاتبة سيرته هيرمينى هارتلويان - تصميم فى اختراع المركب الذى تمكنت المسلة من السفر على متنه من الأقصر حتى باريس دون تغيير فى وسيلة الانتقال من بداية الرحلة لنهايتها. إن فكرته الخاصة بتصنيع طوف قام بتصميمه بسيون - وهو من ضباط البحرية - لم يتم إتمامها، إلا أن مبدأ الفكرة ذاتها موجود فى تصميم حوض السفن "الأقصر" ذى القاع المسطح الذى يسمح له بالإبحار فى البحار والأنهار والذى بنى خصيصاً لنقل المسلة .

سبق القول أن شامبوليون لدى عودته إلى الإسكندرية فى نهاية شهر سبتمبر ١٨٢٩ اضطر أن ينتظر بها شهرين لحين وصول المركب الذى عاد به إلى فرنسا . تعتقد مدام هارتلويان أنه "أنهى خلال لاقائاته بمحمد على وابنه إبراهيم باشا موضوع نقل مسلتى الأقصر بعد أن أهداها إلى فرنسا " إلا أن شامبوليون - فيجارك كان أكثر حذراً ؛ إذ يقول : "خلال إقامته فى إسكندرية وضع شامبوليون الصغير خطة الحصول من نائب الملك على مسلتى الأقصر مع مسيو ميجو قنصل عام فرنسا الذى خلف دروفيتى ، كما أنه تحدث مع نائب الملك ذاته فى الموضوع خلال اللقاءات العديدة التى تفضل بها عليه صاحب السمو"⁽⁶⁾، وعود حذرة حول قرح من القهوة هذا هو كل ما

حصل عليه شامبوليون . ومع ذلك فقد كان بإمكانه أن يعتقد وهو يغادر مصر أن المسلتين كانتا فى حوزته . إن الباشا فى تعبيره عن تقديره له أوضح له عدة مرات أنه يود أن يعبر لفرنسا عن تقديره كما أن ميجو أثبت أنه مفاوض ماهر . وكان من الممكن الاعتماد عليه للوصول بالعملية إلى نهايتها السعيدة .

أثناء رحلة "الاسترولاب" ارتبط شامبوليون بعلاقات صداقة مع أحد الرجال الثلاثة الذين تظهر أسماؤهم على قاعدة المسلة القائمة فى ميدان الكونكوردي وهو النقيب بحرى فارنينياك دوسان مور الذى حصل على منصب قيادة "الأقصر" وعلى المهمة الشاقة التى هى إحضار الحمل الثمين إلى فرنسا " . هو من مقاطعة كارسى مثله وقد ظل فارنينياك على ولائه له وظل يفيدته علماً بكافة تطورات العملية .

ومع ذلك أصبحت المسلة فى باريس أحد شئون الحكومة . "إبحث عن وزير" كان هذا هو النداء الذى وجهه جان فرانسوا إلى شقيقه من طيبة وهو مشدوه أمام كتلتى الجرائيت الأحمر . هذا الوزير لم يكّد فيجاك طويلاً للتوصل إليه . ففى شهر أغسطس ١٨٢٩ خلف بولينياك مارتيناك فى رئاسة الوزارة وعين وزيراً للبحرية المسئول عن ملف المسلة من .؟ أسوء أعداء شامبوليون ، البارون دوسان - محافظ جرونوبل السابق الذى لم يغفر قط لشامبوليون إحتجاجه بخصوص سرقة رسالة له * .

الغريب فى الأمر أن دوسان بدا كما لو أنه نسى الإهانة فما أن نزل شامبوليون إلى طولون إلا ودعاه الوزير إلى كتابة تقرير مفصل على المسلة وطرق نقلها إلى فرنسا وعلى الرغم من إنغماسه الكامل فى الإعداد للحملة على الجزائر حيث كان يمارس مواهبه التنظيمية ، إلا أن المحافظ السابق كان يولى إهتماماً مثيراً للدهشة بموضوع المسلات وخاصة فى لحظة كهذه . هل كان يجد فيها وسيلة للظهور فقط؟ الواقع أن هناك دافعاً خاصاً لسلوكه هذا ، إذ أن موضوع المسلات أتاح لدوسان وسيلة لرد الإهانة التى تلقاها من صاحب الكشف قبل ذلك بعشرة أعوام .

كان الملف فى حوزته فهو الوزير ولا يمكن ألا يكون على علم بالبور المحورى الذى يؤديه شامبوليون فى هذه العملية كما أنه على علم بالخطوات التى اتخذها عالم المصريات للحصول من الباشا على هدية مسلتى الأقصر ولكنه سيدعى دائماً أنه لا

* راجع الفصل العاشر .

يعلم شيئاً . فى مذكراته التزم صمتاً كاملاً إزاء ما قام به العالم وأرجع لذاته وبحماس شديد كل مميزات العملية : " ما أن عرفت الأوساط العملية أنى أفكر فى إثراء فرنسا باثر لا يوجد فى أوروبا كلها مثيل له سوى فى روما إلا وراحوا يحثونى على محاولة الحصول على مسلتين أكبر قيمة من مسلتى الإسكندرية ولكنهما أكثر صعوبة فى نقلهما بسبب موقعهما فى الأقصر (7) .. "

لحل مشكلة النقل هذه شكل دوسان لجنة مكونة من بعض الخبراء والمستشارين ورأسها بنفسه وأقصى شامبوليون عن المشاركة فيها بالطبع ولكن لم يمنع هذا الوزير من اللجوء إليه لكفائاته التى كان يقدرها تقديراً عظيماً ، فقد إستعار من الحجج التى ساقها لكى يدافع أمام شارل العاشر عن قضية مسلات الأقصر والتى أنحاز إليها بنفسه ، وكان التقرير الذى طلبه من عالم المصرىات يتضمن عديداً من الأفكار التى اعتمدها ولكن طالما كان المحافظ السابق سيد الموقف لم يذكر اسم شامبوليون قط .

ومع هذا فيجب أن نعطى فعالية وكفاءة دوسان حقهما فيرجع إليه فضل حل المشكلة الشائكة الخاصة بنقل الكتلة الحجرية بسرعة حتى قبل أن تتم عملية الحصول على حق حيازة الأثر. كان المركب الذى صمم خصيصاً لنقل المسلة من طيبة إلى باريس وهو الخوض العائم الذى سمي "الأقصر" قد دخل مرحله الإنشاء بنائاً على أوامره فى ترسانة طولون لا شك أنه كان يتمتع بإرادة صلبة ونافذة " لكى يتغلب على مقاومة الذين كانوا يرون أن العملية مستحيلة التنفيذ ولكن أن يأمل فى "أن فرنسا ستدين له بأجمل أثرين تركتها العصور القديمة على الأرض المصرية " كان بمثابة الإعتماد على أوامه سرعان ما ستتبدد ، فبعد أقل من عام من توليه وزارة البحرية قامت ثورة يوليو لتخرجه منها .

وإذ أرغم دوسان على الهجرة أعرب فيما بعد عن خيبة أمله : "لم تتح لى فرصة أن أرى استكمال هذا العمل أثناء ولايتى للوزارة وإن يعرف على الأرجح وإلى الأبد أن فكرته كانت من أعمالى وإن كافة وسائله التنفيذية أعدت ودخلت مرحلة التنفيذ على يدي". إلا أن الظلم الذى إدعى دوسان أنه وقع عليه أراد أن يرفعه عن الرجل الذى "ساعده بقوة وهو" يوصى به جميع محبى الفنون " إلا وهو البارون تيلور وهو شخص آخر قال وترك الآخرون يريدون أن فرنسا تدين له - حسبما جاء فى أقوال واحد من الذين كتبوا سيرته "بالعينة الغربية للمعمار المصرى التى تتزين بها ساحة لاكونكوردي فى باريس "

ابن أحد الإنجليز المتجنسين، كان البارون تيلور شخصية من عالم الفن والأدب. فهو رسام وكاتب وقادته نجاحاته في مجال التأليف المسرحي إلى وظيفة كوميسار الملك في الكوميدي فرانساز ووضعه ولعه بعلم الآثار على إتصال بالكونت دو فوربان وهو صديق لجومار ومهتم بمصر. هل زارها قبل أن يتصل بدوسان بواسطة جبهة جومار؟ يبدو ذلك . المهم أنه هو الذى أعلم دوسان بوجود "إبر كليوباترا" وتحت ضغط "محب الفنون المتحمس" هذا قرر الوزير نقل الأثر الخاص بفرنسا وتلقى الطراد "درومادار" (الجميل) الأوامر بالإبحار إلى الإسكندرية ، ثم عندما ظهر أن الحصول على إهداء عن مسلات الأقصر أصبح ممكناً ، كلف الوزير تيلور بالذهاب إلى الباشا ومعه بعض الهدايا المختارة والقيمة بقصد حث الباشا على المضيّ قدماً فى تنفيذ مانواه ومن نيات حسنة سبق أن عبر عنها " .

مفوضاً لدى باشا مصر بمرسوم ملكى ومزوداً بمبلغ مريح مقداره مائة ألف فرنك لتغطية مصاريف مهمته الرسمية ولشراء بعض الآثار لمتحف اللوفر ، وصل البارون تايلور إلى الإسكندرية فى ٢٣ أبريل ١٨٣٠ ، إلا أن الهدايا التى حملها معه لباشا مصر لم ينتج عنها رد الفعل الفورى والحاسم الذى توقعه دوسان .

لما بلغ إلى علم بيكر قنصل إنجلترا أن محمد على أهدى مسلتى الأقصر إلى فرنسا طالبه بهما من أجل بلده . وإذ فات محمد على أنه سبق أن وعد آخرين بهما تعهد بمنحهما إياه .. وعندما وصل تايلور تغلب عليه حبه لفرنسا، شعر الباشا بحرج شديد.. هنا تمكن ميجو من حل للموقف . ويرجع الفضل فى إيجاد فكرة هذا الحل لشامبوليون إذ كتب له فى ٦ يونيو : "كانت هناك عقبة كبيرة كما تعلم إلا أنك أقترحت على بنفسك طريقة لإزاحتها . تذكرتها مثل الإلهام السماوى وسط موقف الباشا المتردد الذى قبلها على الفور وأصبحت المسلتان لنا " . ما هى هذه الوسيلة ؟ هى أن يقترح على قنصل إنجلترا الذى وافق على الفور تبديل مسلتى الأقصر بمسلة الكرنك أجمل المسلات على الإطلاق وكان شامبوليون على يقين من إستحاله نقلها ، التفاهم الودى كان لا يزال بعيداً ..

بدأت العملية محسومة لولا أن قامت ثورة الثلاثة أيام المجيدة " فى شهر يوليو وكادت أن تعيد الأمور كلها إلى نقطة البداية إذ أن المسلات كانت مهداة إلى شارل العاشر فلما تم عزله عاد القنصل الإنجليزي يصر من جديد على الحصول عليهما ،

ولكن تايلور وميمو حاولوا إقناع الباشا بعدم إمكانية الرجوع فى قراره ؛ لأن الهدية كانت مقدمة لملك فرنسا لا إلى شخص الملك ولكن إلى الأمة ذاتها .

فى باريس نفسها كان الإنقلاب السياسى الذى حدث قد خلق مناخاً مواتياً للمبادرات ، إلا أن إقامة مسألة فى العاصمة لم تكن ضمن أولويات الحكومة وبالتالي كاد المشروع أن يختفى لولا أن شامبولىون قام بجهد جبار لكى يعيد إثارته على الساحة.

كان على صلة بالملك لوى فيليب الذى سبق أن عبر له عن تقديره العظيم واستقبله فى قصره . ونجح فى الوصول إليه خلال الاسابيع الأولى لتوليه العرش... غير أن الملك إكتفى- فيما يبدو - بأن أوصى بشامبولىون ومسلاته لدى وزير البحرية الجديد الجنرال - كونت سيباستيانى .

كان خليفة دواساز ضابطاً سابقاً فى جيوش الثورة ثم نابوليون وكان يدعى أنه من أسرة الإمبراطور وأنه صحبه فى جميع حملاته العسكرية . ضمن عالم المصريات فى تقريره (واحد آخر!!) الذى قدمه للوزير عاملاً جديداً جديراً بإثارة إهتمامه ودفعه إلى التحرك وهو أن رغبة الحكومة السابقة انحصرت فى جعل المسلة مجرد رونق تزين به العاصمة فى أحد ميادينها إلا أن الحكومة الوطنية (الحالية) يتعين عليها أن تحدد لها هدفاً أسمى ألا وهو الاحتفال بالصفحات المجيدة التى حفلت بها تطورات الحملة على مصر والتي لا يشير إليها أى من معالم باريس حتى الآن كانت الفكرة جديدة بأن تروق للويس -فيليب أيضا إذ كان يمد يده للبونابرتيين .

الفترة الصغيرة التى أمضاها سيباستيانى فى وزارة البحرية أتاحت له فرصة إعادة مشروع نقل المسلتين إلى الساحة من جديد . كان مبلغ الثلاثمائة ألف فرنك الذى خصصته حكومة بولينياك فى بداية عام ١٨٣٠ قد أنفق فى تشييد المركب "الأقصر" وعلى مهمة تايلور. فحصل الوزير على موافقة البرلمان على اعتماد جديد قيمته مائتان ألف فرنك تبعته بعد ذلك العديد من المبالغ الأخرى هى التى سمحت بتحريك الخطة التى وضعها سلفه وبتحديد ربيع ١٨٣١ موعداً لسفر الحملة .

فى أثناء ذلك إستلم الوزير سيباستيانى خطاباً من وزير الباشا -بوغوز يوسف -يعتمد فيه التنازل عن المسلتين لفرنسا . بهذا الخطاب المؤرخ ٢٩ نوفمبر ١٨٣٠ وضع صاحب السمو الملكى محمد على نائب الملك على مصر تحت طلب صاحب الجلالة لويس -فيليب ملك الفرنسيين -"إبرة كليوباترا الموجودة فى الإسكندرية ومسلتى الأقصر الموجودة ضمن أثار طيبة" .

ثلاث مسلات مرة واحدة !! فى حين لم يكن يبقى على أرض الفراغة سوى نصف
دسته منها ..

لحسن الحظ لم يكن من الممكن نقلها جميعاً دفعة واحدة . بمن سيبدأ العمل ؟
البارون تايلور الذى كان على علاقة طيبة مع بلاط لويس فيليب كما كان الحال بالنسبة
لشارل العاشر* أعطى الأولوية "لإبرة أو مسلة كليو باترا" . كانت محاولة نقل هذا
المنليت من قبل قد فشلت لأن السفينة "درومادير" التى أرسلها دوساز إلى الإسكندرية
لتسلمها عادت فارغة لأنها لم تكن مجهزة بالأخشاب الضرورية لتنفيذ العملية – هل
ستعاد الكرة والعودة لنقلها ؟ إنتهى الأمر بالعدول عن ذلك .
وظلت "مسلة كليوباترا" على حالها* .

إنتصر فى النهاية . رأى شامبوليون السيد! فى ١٥ إبريل ١٨٣١ غادرت
"الأقصر" ميناء طولون إلى مصر وبعد ذلك بعامين ونصف ، فى ٢٣ ديسمبر ١٨٣٣
عادت لترسو بجواركوبرى الكونكورد وعلى متنها حملها الثمين.... مسلة الأقصر
الغربية التى حددها شامبوليون للحملة التى تم تنفيذها بدقة متناهية كانت حملة
مكلفة للغاية والانتقادات حادة جداً لدرجة أن أياً من الحكومات لم تفكر حتى فى
تكرارها أما شقيقة المسلة الباريسية فقد وضع الشاعر تيوفيل جوتييه هذه الأبيات
الجزينة على لسانها

كم أود مثل أختي

لباريس العظيمة أنقل

إلى جوارها ، لأتسلى

وسط ساحة ، أزرع فيها .

لا يمكنها اليوم أن تأمل فى ترك موقعها الذى تحتله منذ ثلاثة وثلاثين قرناً .

عبر البحر المتوسط حتى الإسكندرية ثم الإبحار فى النيل صعوداً حتى طيبة
وتحميل المسلة ثم العودة على النيل ثم بعد الوصول إلى طولون (والتوقف فيها لأسباب
فنية) ثم الإلتفاف حول شبه الجزيرة الإيبيرية وعبر خليج جاسكونيا والوصول إلى

* إنتهى بها الحال أن رحلت إلى الولايات المتحدة وهى تقف اليوم فى نيويورك وسط سنترال بارك بجوار
متحف المتروبوليتان أما شقيقتها (المسلة التى وهبت لإنجلترا فقد نقلت عام ١٨٧٨ إلى لندن عبر رحلة عصيبة
وشيدت إلى جوار جسر واترلو.

الهافر ومنها الإبحار فى نهر السين حتى باريس : كانت هذه هى الرحلة التى قامت بها "الأقصر" لمسافة ٢,١٦٠ فرسخاً بحرياً (١٢,٠٠٠ كم)

كان يقود "الأقصر" فارنيناك دوسان مور- قبطان "استرولاب" السابق الذى أعاد شامبوليون من مصر . وكان على متنها حوالى عشرة ضباط وضباط صف - منهم كمساعد للقبطان ليون نوجوهانيس نقيب بحرى وأنجولان الطبيب الجراح بحرى وشاب متخرج لتوه من الكلية البحرية- شارل جوراس أحد أنجال ابن عم جان جوارس أما الطاقم فقد بلغ عدد أعضائه مائة وخمسون رجلاً وضم مع البحارة عمالاً من مختلف التخصصات من نجارين وحدادين وميكانيكيين كان وجودهم ضرورياً من أجل إقامة التجهيزات اللازمة لتحريك المسلة .

المسافر الوحيد كان مهندس البحرية أيولينار لوما المكلف بإدارة عمليات إنزال المسلة من مكانها ونقلها إلى المركب . كما تم تعيينه بعد ذلك مسئولاً عن إقامتها تحت سماء باريس .

بالنسبة لمعظم هؤلاء الرجال كانت هذه الرحلة والإقامة الطويلة فى مصر مغامرة حياتهم العظمى فهى بالفعل كذلك بالنسبة لمن تولى مسئولية مركب صممت لكى تبحر فى البحار والأنهار معاً -فكرة شامبوليون - ولكنها لم تكن مزودة بإمكانية مواجهة أعالي البحار والحالات الجوية الصعبة . إذ تمكنت "الأقصر" من الوصول إلى مصر بوسائلها الخاصة ولكنها اضطرت إلى أن تعود مسحوبة من إحدى أوائل المراكب الفرنسية التى تحركها محركات تسيير بالبخار : "السفنكس" .

إنها أيضاً لمغامرة تلك المتمثلة فى الحياة لأكثر من عام وسط أطلال حضارة عظيمة وأن تقيم داخل سراى سينزوستريس وأن تتعرف على الشرق بفخامته وبؤسه وأن تتفادى وباء الكوليرا وأن تنتظر أشهر طويلة فى أعماق منطقة طيبة عودة فيضان النيل الذى سمح "للأقصر" أن ترسو بجوار المسلة حتى السنة التالية لتحملها بحمولتها وتعود بها إلى البحر .

أما بالنسبة للمهندس لوبا فالرحلة كانت شيئاً آخرأ ، غير كونها مغامرة عظيمة : لقد كانت فيما يخصه هو عملية محفوفة بالمخاطر يغامر فيها بمستقبله العملى كله : وكان واعياً جداً بخطورة المهمة الموكلة إليه ، وقد كتب يقول "بالنسبة إلى كل شئ مركزاً فى هذه الكتلة من الجرانيت التى تزن ٢٣٠,٠٠٠

كجم التي ينبغي إنتزاعها من أساسها المغروز داخل الأرض وتحميلها فوق مركب (..) كانت هذه العملية فى نظرى - تحتوى على شئ عظيم ظل يثير وجدانى (8)

" هذا الشئ العظيم " يحمل هذا التعبير معناه بالكامل إذا عرفنا الخاصية البدنية التي تميز بها صاحبنا ، إذ أن لوبا كان قزماً أو يكاد .. وهو يسوق بنفسه العديد من النكات حول ضئالة جسمه . فى طيبة . عندما علم "عربى" بأنه يهيم برفع المسلة لم يصدق وصرخ قائلاً " الله الله !! من ؟ هذا ؟ إن عصاى أطول منه " . فى مرة أخرى حملاه أثنان من السياس ثم : " وضعانى فوق حصان تناقض حجمه الهائل بشكل كبير مع ضئالة حجمى .. حتى أن ساقاى كانتا فى وضع يكاد يكون أفقياً .. "

كان لوبا يستخدم هذه النكات بشئ من السخرية ولكنه لم يكن مزاجه رائقاً عندما تظاهر الباشا أثناء أحد اللقائات أنه لا يراه " أين هو المهندس ؟ أطلبوا منه أن يجلس بجوارى حتى أتمكن من رؤيته " . على الرغم من صغر حجمه كان أبولينار لوبا رجل الموقف وعلى مستوى المواصفات اللازمة لهذا الرجل ، كما حددها شامبوليون إذ طالب بإرسال "مهندس معمارى أو ميكانيكا عملى النزعة وليس عالماً " كان بالفعل عملياً وقد حمل معه فى ملفاته رسومات الأجهزة التي تصورها من أجل رفع هذا الحجر الهائل الضخامة ، ولكنه كان من العلماء أيضاً لأن حساباته كلها كانت سليمة إذ بعد خمس سنوات كاملة سينجح فى نصب المسلة فى مكانها الحالى دون أن تصاب بأقل خدش .

لنعد الآن إلى شامبوليون فى باريس : عندما كانت الأقصر تستعد للإقلاع لم يكن أمامه سوى عام واحد من الحياة . كان مريضاً وأعصابه متوترة للغاية ممزقاً بين واجباته كمحافظ للمتحف ومحاضراته فى الكولاج دوفرانس والانتهاى من تأليف "القواعد" ومناشدات روسيليني التي تطالبه بالبدأ فى عملهما المشترك ؛ ومع ذلك فلم تغب عن مخيلته السفينة المتوجهة نحو المسلتين المقربتين لقلبه . كلما غادر المتحف ومر أمام أعمدة بيرو كان يتخيلهما منتصبين أمام المبنى الأوسط على جانبى الباب الرئيسى وإذا لم تتح له سوى واحدة فكان يراها واقفة وسط فناء اللوفر بجوار المجموعات الأثرية الموضوعة تحت مسؤوليته .

كانت هذه رغبتة كما عبر عنها ، غداة أحداث يوليو . فى تقريره إلى سيباستيانى عن المسلات : "إن مكانهما محدد بالطبع إما على جانبى الواجهة أمام سلسلة عواميد اللوفر وإما أمام البوابة المواجهة للمجادلين فى حالة لوأن هذا المبنى إستعاد اسمه كما هو مأمول وهويته كمعبد للمجد الفرنسى. إن استخدامهما على هذه الصورة

يحتفظ للمسلات بمهمتهما الأصلية .

بصفته عاشق لمصر أراد شامبوليون فى الواقع الإحتفاظ بالهوية والهدف الذى كان منوطاً بالمسلات داخل الإطار العمارى للمعبد المصرى عند اختيار موقعهما الباريسى .

كان يريد لهما أن تقامان على قاعداتهما الأصلية لتفادى إقامة "القواعد المضحكة ذات الشكل العمارى الحديث التى أقيمت مثيلاتها عليها فى أوروبا - " . وكان يريد أيضاً عدم إقامتهما وسط ساحات مسطحة واسعة لأنها تفتقرسها وتسلبها عظمتها وجلالها . هذا التمسك بالنواحى الجمالية إصطدم بتناقضات قوية إذ كان شامبوليون يفكر كعالم آثار . إلا أن الموضوع كان مطروحاً من وجهة نظر تخطيط المدن .

أثار أحد أشد منتقدى المسلة الباريسية - بيتروس بورال تأييداً لنظرية موضوع إحترام النمط المحلى : "لماذا لاتتركون لكل مكان ولكل منطقة أمجادها وزينتها ؟ لا توجد قيمة لشيء سوى فى مكانه الأصلى وفوق أرض وطنه وتحت سمائه، إذا توجد علاقة متبادلة وتناغم حميم بين المبانى المشيدة والبلد الذى أقامها ، إن المسلات محتاجة لواجهات المعابد وعبادة الشمس وتعدد الآلهة .. وجود الصحراء واجب :

موقع المسلة كان موضوع جدل عام عندما وصلت إلى باريس . بل إنها أصبحت سبباً فى إنشغال بال الأوساط السياسة العليا وعلى الرغم أن المنتظر وصولها كانت مسلة وحيدة على متن "الأقصر" إلا أن الجميع كان يفكر فى إثنين إن لم تكن ثلاثة - فى إعدادهم للمشاريع التخطيطية .

لم يخف الملك رغبته فى نصيبها فى المحور الذى يبدأ من التويلورى حتى قوس النصر إحداهما فى ميدان الشانزليزيه Rond-point des Champs - Elysées - والأخرى فى ساحة لويس الخامس عشر (التى ستستعيد اسمها فى ميدان لاكونكورد) . بالنسبة لشامبوليون كان إختيار هذه الأماكن ضرباً من الهرطقة كما رأينا قبل قليل وكان يأمل فى أن يجعل الملك يعود عن قراره . حصل عن طريق جان فاتو صديقه وأمين مكتبة الملك على عدة لقاءات مع لويس فيليب ولكنه دافع عن موافقه هو نون جدوى أى "فى ساحة اللوفر ولا مكان آخر " فى حالة لو الذى نحصل عليه هو مسلة واحدة . كان الملك قد إختار ولا يريد تعديل قراره ولم

يكن شامبوليون الشخص الذى يتنازل عن راية هو أيضاً . اختلافات وجهات النظر هذه ألفت بظلالها على علاقاتهما ، ثم وقع حدث آخر زاد من تدهورها .

سرت شائعة عن قرب قيام لويس - فيليب بإحلال البارون تايلور مكان ميمو بحجة أن حكومة شارل العاشر هى التى عينت القنصل ولما كان شامبوليون لا يمكنه إحتواء سخطه عندما يتعرض صديق له للظلم فقد احتدم نقاش له مع الملك ولا بد أنه ذكر له أن البارون ذاته كان من محاسيب النظام السابق ...

لم يكرر شامبوليون محاولاته لاعتماد وجهات نظره حول مكان إقامة المسلات . إلا أن الفرص أتيت له قرب نهاية العام لتوضيح رأيه حول ضرورة إقامتها فوق قواعدها الأصلية ، وكان الملك قد أرسل يطلب منه إيضاحات حول مصدر ومخطوطات مسلات الأقصر وكان وزير البحرية أيضاً الأميرال دوريني يود أيضاً الاستعلام عن الرسومات والمخطوطات المنقوشة على القاعدة التى كان لوبا قد أخلاها وأرسل صوراً منها لصاحب الاكتشاف .

الخطاب الطويل الذى حرره يوم ١٠ ديسمبر للرد على الوزير كان من آخر الأعمال التى أداها فى حياته . فبعد ثلاثة أيام أصيب بنوبة خرج فيها بشلل نصفى وكان قد علم لتوه أن وباء الكوليرا اجتاح مصر العليا وأوقف فى طيبة أعمال الحملة، عندما وصلته رسائل دوفارنيناك التى أفادته بإنهاء الوباء وبتحميل المسلة على متن "الأقصر" كان قد قارب النهاية. لقد علم على الأقل قبل وفاته أن المأمورية التى كان حسبما وصفه ميمو. (محررها الأساسى) فى إتجاهها إلى التبلور .

فى باريس أصبحت المسلة فى الصالونات وفى الشارع موضوع الأحاديث الذى تغذيه المقالات الصحافية وكانت الجرائد قد أعلنت عن مغادرة "الأقصر" ووصولها طيبة فى ١٤ أغسطس ١٨٣١ . ونشرت صحيفة لومونيتور Le Moniteur يوم ٢٩ يوليو تقريراً عن رحلتها من طولون إلى الإسكندرية وكانت الصحافة تنشر تقاريرها تباعاً عن سير عمل الحملة بقدر ما كانت تسمح به وسائل الاتصال فى ذلك الوقت وكان شامبوليون بدوره ينقل إليها الأنباء التى كان يتلقاها من أصدقائه .

وعلم الناس أن المسلة التى كانت قد أنزلت فى الأسبوع الأخير من أكتوبر وحُملت على ظهر "الأقصر" فى نهاية ديسمبر ١٨٣١ ظلت تنتظر فيضان النيل لتفاد

طبية فى ٢٥ أغسطس ١٨٣٢ وأنها اضطرت للانتظار فترات أخرى بسبب مصاعب الإبحار قبل مغادرتها رشيد والإسكندرية التى غادرتها فى نهاية الأمر فى أول أبريل ١٨٣٣ .

بدأ الباريسيون يأخذون المسلة على محمل الجد ، وكان موقع إقامتها بالطبع هو محور المناقشات . واتهدئة النفوس أعتقد لويس - فيليب أنه من الأفضل تنظيم إستفتاء عام للجمهور. وبمناسبة إحتفالات يوليو ١٨٣٣ أقام مسلتين مقلدتين تشبهان المسلات المنتظرة : إحداهما فى ساحة لاكونكورد والأخرى فى الساحة التى أمام الأنفاليد . هذه الأخيرة كانت حياتها قصيرة جداً أما التى أقيمت فى ميدان لاكونكورد فقد ظلت فى مكانها حتى معرض الفن والصناعة الذى أقيم عام ١٨٣٤ .

بدلاً من تهدئة النفوس أثارت هذه المسوخ - المصنوعة من مواد رديئة ومغطاة بهيروغليفيات ذات خطوط ركيكة- الانتقادات ونشر عنها وإبل من المنشورات - ومشاريع تنقذ المكان المختار وتقترح أماكن أخرى . كان عدد كبير من المنتقدين يلومون على المسلة أنها تحجب فى نفس الوقت المنظر العام من التويلورى حتى قوس النصر وكذلك المشهد العام من المادلين إلى مجلس النواب ولدى سماعه المرء لهؤلاء، يعتقد أنها ستحجب تماماً هذه المباني فى حين كان يأسف البعض الآخر "لاختيار هذا الأثر النحيل لتكون وسيلة الزينة الرئيسية التى تتحلى بها "أوسع ميادين أوروبا" والتى كان يمكن أن يصبح أجملها على الإطلاق فى حين ردد غيرهم لو أنها وضعت فى الأنفاليد أو وسط اللوفر أو فى ميدان الشانزليزيه (٠) . كان ذلك أفضل لها "فلتوضع فى ميدان الباستيل" ! كان ذلك الإقتراح صادر من عمدة الحى الثالث الذى لم يكن على دراية بأن مكان الحصن السابق قد خصص لإقامة عمود فى ذكرى "المجيدات الثلاثة" ومرة أخرى عاد الحديث عن الأرض الموجودة أمام البون-نوف لتحل محل تمثال هنرى الرابع ويجدد شباب الكوبرى ذاته وتعاد زخرفته على النمط المصرى .

كانت أكثر الآراء الموثقة تلتقى مع وجهة نظر شامبوليون : المهندس المعمارى جو زار مصر ودرس ورسم معابدها : "لم يرى فيها أبداً مسلات موضوعة وسط مساحات شاسعة" . الآن وقد أصبح الحديث مختصراً فى مسلة واحدة فهو "يعتقد مع فنانيين كثيرين غيره .." أنها يجب أن توضع فى ساحة اللوفر إذ ستزداد فيها عظمة وأبهة وهى على رأس مجموعة النفايس التى تثير أعجاب الأوروبيين .

كانت ساحة اللوفر هي إختيار مناصري المساحات المقفولة والكونكورد إختيار مفضلى المنظر العام وكما يحدث فى مثل هذه الأحوال دائماً كانت وجهة نظر الملك هي التى تغلبت .

وعندما رست "الأقصر" فى نهاية عام ١٨٣٣ عند الكونكورد لم يعد هناك مجال للشك فى إختيار المكان ، وكان الحوض العائم قد وصل إلى ميناء طولون فى ١٠ مايو وغادره فى ٢٠ يونيو وبعد أن مرت من أمام جبل طارق واتخذت طريقاً إلتقافياً عبر المحيط الأطلنطى دخلت إلى مصب نهر السين فى مدينة روان ونزعت عنها سواربها لكى تتمكن من العبور أسفل الجسور وجذبت حتى باريس حيث كان لوبا قد بنى لها مرسى خاص لاستقبالها . عملية إنزال المسلة ونقلها إلى المكان الذى ستنتصب فيه كانت على درجة من التعقيد تساوى - إن لم تكن تفوق تلك التى تم إنتزاعها بها من مكانها الأسمى . هذه العملية تمت على عدة مراحل ودامت نحو ثلاث سنوات .

لإخراج هذا المنليث الضخم من أحشاء السفينة كان يجب إنتظار هبوط منسوب نهر السين ولم يكن إنزاله على رصيف النهر قبل شهر أغسطس ١٨٣٤ ، ثم رفعه حتى قمة المطلع اليمين لكوبرى الكونكورد حيث بقى هكذا لعدة شهور أخرى لأن إيقافه منتصباً أثار فى الواقع مشاكل عديدة أولها مشكلة القاعدة التى سيقف فوقها .

كانت أمنية شامبوليون كما رأينا من قبل هي أن توضع المسلة فوق قاعدتها الأصلية وكان قد أوصى لوبا وفارنيناك أن يحضرا الأثر (مع ملحقاته) . فلما وصل لوبا إلى طيبة أزاح الأتربة من حول الأساس من أوجهه الأربعة المنحوت فيها رؤوس فردة على كل وجه . ثم أرسل إلى عالم المصرىات نسخة من خرطوش رمسيس الأكبر وأيضاً نسخاً من الهيروغليفيات المنحوتة على القاعدة . إلا أن هذه القاعدة كانت تأكلت تماماً بفعل أملاح الأتربة لدرجة أن لوبا تخلى عن فكرة إحضارها معه . وعلى الرغم من بغض شامبوليون الشديد للقواعد السخيفة التى يخترعها المعمار الحديث " فكان من الواجب إنشاء واحدة لا تكون على درجة كبيرة من السخف .

إلا أن مسألة المسلة وقاعدتها كانت مرتبطة بمشروع أضخم بكثير وهو مشروع التخطيط العام لميدان الكونكورد . فى تلك المرحلة التى نحن بصدها لم يكن الميدان

سوى أرض فضاء وكان قصر جابريل وتماثيل خيول مارلى وخيول كوازوفوكس تحيط بمساحة من الوحل ومن وراء "الدرابزين" تمر بها مصارف مليئة بالنباتات البرية والقمامة والمياة الأسنة⁽⁹⁾ .

كان أحد أهم المشاريع التي أراد لويس- فيليب تحقيقها عندما إعتلى العرش هو ردم هذه القنوات وأن يجعل من الكونكورد ميداناً يليق بالعاصمة إذ أنه يحتل مركزها وكان الموقع محملاً بتاريخ قريب لا يزال حياً فى الأذهان وكان قصد الملك هو أن يجعل منه مكاناً يرمز للتصالح بين الفرنسيين ويكون هو حكماً بينهم وهو عندما يضع المسلة التي هى أثر محايد من وجهة النظر السياسية فى ذات الموقع الذى أخلى منه تمثال لويس الخامس عشر فى عام ١٧٩٣ وحل محله تمثال الحرية وهى ترتدى القلنسوة الفريجية* " فلعله كان يتصور - مثلاً فعل شاتوبريان : "ستأتى الساعة التى ستلتقى فيها(المسلة) من جديد . وهى فى ساحة الاغتيالات - بالصمت والوحدة المخيمان عليها فى الأقصر"⁽¹⁰⁾ ولكن الوقت لازال مبكراً إذ أن مشروع تخطيط ميدان الثورة القديم أثار إحتجاجات الذين كانوا يأملون رؤية صرح يقام تخليداً لذكرى لويس السادس عشر الذى وعد شارل العاشر بتشبيده "حيث سألت دماء رجل شريف " .

فما هو العمل ؟ حول الملك لم تكن الأفكار المقترحة قليلة العدد .. كان من رأى البارون تايلور- إذ كان على ولائه لكليو باترا ومسلتها - أن يضعها مع مسلتى الأقصر فى جنبات الكونكورد الأربعة وتصنيع الرابعة من الجرانيت الفرنسى . رفض المجلس فكرة المسلات الأربعة ولكنه أقر فكرة تزيين الميدان وشارع رويال والشانزليزيه بتماثيل لرجال عظماء .

أوكل لويس فيليب - بتعقل شديد مهمة تجميل ميدان الكونكورد إلى مهندس تخطيط مدن حقيقى - جاك إينياس هيتورف وهو المهندس الذى تولى إحتفالات عودة الملكية الكبرى وهو الذى جعل - خلال عشرين عاماً من هذه المساحة بنافوراتها وأعمدتها المزينة برموز بحرية وأعمدة إنارتها المشعبة وتماثيلها التى ترمز إلى مدن فرنسا - أحد المعالم الهامة للعاصمة .

كان هيتورف منذ عام ١٨٣٢ يضع المسلة - علماً بأنه لم يكن قد رآها بعد-

* كانت القلنسوة الفريجية يرتديها العبيد المحرون فى روما القديمة وأصبحت أبان الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ رمزا لتحرر الشعب (المترجم) .

فى دراساته المختلفة لميدان الكونكورڊ. كانت الدراسات تتضمن نافورتين وأحياناً أربع نافورات والمسلة تظهر فيها وواقفة أحياناً على قاعدتها الأصلية ذات وجوه القروء الأربعة .

هل يجب إعادة نحت القاعدة ما دامت الأصلية غير متوفرة - أم إنشاء أخرى مستلهمة من نمطها؟ كان وزير الداخلية أنواف تيلر ميالاً لقاعدة على الطريقة المصرية وبنائاً. على طلبه قدم له هيتورف ست مشروعات مختلفة لقاعدات مع تعديلات خاصة لكل منها فيما يتعلق بالأسود أو أبو الهول المستخدمة كدعائم) وكلها مشروعات لم تكن ترضيه ولكنه وضعها فقط حسب قوله -لكى يثنى مسيو تيار عن عزمه المضى فى هذا الاتجاه، ومن ناحية أخرى لم يكن مجلس المبانى المدنية متفقاً مع نوق الوزير⁽¹¹⁾.

تقرر إختيار سداسى متوازى الأضلاع خطوطه مجردة وبدون أى زخرفة ولكن يعوض بساطته البالغة نبل المادة المصنوع منها .. طاف هيرتورف كافة سواحل مقاطعة بريطانيا الفرنسية بحثاً عن الجرانيت الذى كان يحلم به إلى أن عثر عليه عند مدينة براست فى المحاجر الواقعة عند مصب نهر الأيبار - إيلدوت . رست مناقصة أجريت فى هذا الصدد فى ١٥ مايو ١٨٣٤ على المقاول جياستريناك الذى تعهد باستخراج وقطع خمس قطع من هذا الجرانيت المخصص للطلبية والقاعدة مقابل ١٩١,٢٥٠ فرنكاً وهو مبلغ ضخم فى ذلك الوقت - إلا أنه كان يجب الذهاب إلى آخر مقاطعة الفينيسيتار لإحضارها . فتم تكليف "الأقصر" ، "والسفنكس" للقيام بذلك، غادرت "الأقصر" باريس لمهمتها الثانية فى بداية سبتمبر ١٨٣٥ وهى ما زالت تحت قيادة فارينناك وعادت فى نهاية العام محملة بالقاعدة وهى فى قطع مفككة زنتها ٢٤٠ طناً. كان عليها أن تنتظر حلول الربيع الثانى لإنزالها من المركب وتجميعها وسط ميدان الكونكورڊ، إلى أن أصبحت مستعدة لإستقبال المسلة فى بداية شهر أغسطس ١٨٣٦ كانت هذه الأخيرة قد نقلت من مكانها مجدداً : وأصبحت الآن ممددة عند أقدام الطريق المائل الذى أقامه لوبا لكى تصعد فوقه حتى قاعدتها . للقيام بهذه العملية أراد المهندس فى بادئ الأمر اللجوء إلى أحدث تقنية متاحة فى ذلك الوقت وهى آلة تدور بالبخار ولكنه لم يتمكن من أن يحصل منها على الطاقة المطلوبة واكتفى مضطراً بعضلات جنوده من سلاح المدفعية .

فى ٢٥ أكتوبر ١٨٣٦ شاهدت باريس كلها المسلة وهى تقف على قاعدتها وكان هذا اليوم أطول أيام حياة لوبا كلها : "أمر أعطيه ولا يفهم جيداً أو رسو خاطئ أو مسمار بصمولته إعوجج (..) أى من ذلك كان كفيلاً بأحداث كارثة مروعة والمسلة

ستتهدم والملايين تضيع وأكثر من مائة عامل يسحقون لا محالة* .. " ولكن سبق أن رأينا كيف أن كل شيء تم على أكمل وجه على الرغم من حدث بسيط عطل العملية لبعض الوقت .

أصبح لباريس مسلتها أخيراً ولكن إقامتها في مكانها لم يضع حداً للجدل حولها: فقد بدأ إجراء الحسابات التي أوضحت أن المبلغ وصل حتى الآن إلى ١,٥٠٠,٠٠٠ فرنكا مع حساب القاعدة - ولم يكتمل الحساب بعد- هذا ما تكلفته هدية محمد على مما دفع بييتروس بورال ليقول : "أشعر بأسى عندما أتذكر المبالغ الهائلة التي صرفت لنقل وتركيب قطعة من الحجر... وبينما يقومون بإرهاق الميزانية تقع كاتدرائياتنا أطلاقاً ويتدهور حال قصورنا ، إن دير رويومون أصبح نصف مدمر وخرباً" .

فإذا كان الجدل حول مكان إقامتها قد هدأ أثير آخر وكان أكثر خبيثاً حول العبارات التي سنتقش على القاعدة. كل فرد كانت له رغبة مختلفة بل أن الموضوع أثير حتى قبل وصول الأثر إلى باريس ، ويبدو أن أحد التيارات كان قادماً من الجهات العليا يهدف إلى إختصار هذه التعبيرات إلى أقل قدر ممكن وتحاشي ذكر حدث أو فرد قد يثير النفوس أو يجرح الكرامات كتب الكونت لابورد في الكتب الذي نشره عام ١٨٣٣ عن "مسلات الأقصر" أن "عددًا من الشخصيات المرموقة " تتصارع من أجل إحضارها لفرنسا ثم تسائل : " من هو صاحب الفكرة ؟ " وكان يقصد بالطبع شامبوليون إلا أنه أضاف بحذر " يعود الشرف الأهم إلى الذين نفذوا العملية ببراعة وهكذا فإن الفضل كله يعود إلى البحرية الفرنسية " .

في نهاية العام ذاته نشر شامبوليون- فيجاك مقالاً تحت عنوان "مسلة الأقصر المنقولة إلى باريس" يثبت فيه بالمستندات أن شرف إختيار المسلة وإهدائها إلى فرنسا يعود دون أدنى شك إلى أخيه. في هذا المؤلف الذي نشر فيه "صورة المسلة وترجمة لخطوطها الهيروغليفية طبقاً للرسومات والمذكرات الخطية لشامبوليون الصغير . " إعترض فيجاك على النية المعلنه لكي لا يظهر على القاعدة سوى الإنجاز الفني في إقامتها : "هل سيكفى لإرضاء الحكومة إظهار (المسلة قائمة) على أنها براءة كانت محفوفة بالمخاطر أنجزتها تقنياتنا الميكانيكية الحديثة؟ (..) ألا يخطر على بال أو قلب أى من الشخصيات التي لها صوت مسموع في مجالس الأمير أو الأمة لنقول إن العديد من الذكريات الخالدة تدور في فلك هذا الحجر وتحببته؟ .."⁽¹²⁾.

* نلاحظ ترتيب المخاطر .

مثلما فعل جان فرانسوا فيما مضى إقترح شامبوليون- فيجاك أهداء الأثر المصرى إلى ذكرى جيش الشرق، ولكنه عندما عبر عن أمله فى ربط ذكريات أخرى به ، كان يشير على وجه الخصوص - أو إن ذلك هو ما يشعر به المرء من كلامه- إلى اكتشاف أخيه . للأسف فإن أياً من مستشارى الأمير لم يستمع إليه .

أقيمت إذن المسلة فوق قاعدة خالية من أى إهداء ولم يضع هيتورف لمساته الأخيرة على زخرفة القاعدة سوى فى عام ١٨٤٠ . وإذا عدنا إلى مراسلاته الرسمية مع السلطات المسئولة سنجد أن فكرة هذا العمل تعود إليه فما هو الموضوع الذى إختاره وسط جميع المواضيع الأخرى التى كان يمكن أن تثيرها فى الأذهان إقامة المسلة المصرية لزخرفة قاعدتها ؟ قال : " يجب أن تتعرف الأجيال القادمة على إحدى أهم العمليات الميكانيكية فى العصر الحديث" . إختيار غريب بل هو مذهل : ألم يكن من الأفضل أن تعرف الأجيال التالية شيئاً عن إحدى الإكتشافات التى إعتبرتها أوروبا فى ذلك الوقت من أهم ما عرفه القرن وهو إكتشاف عالم فرنسى تحمل المسلة والهيروغليفيات التى عليها بعد أن حلت شفرتها الدليل على عظمتها؟ بالطبع! وكان المهندس المعمارى فى ذلك الوقت جيداً . إلا أنه كان يعرف كذلك أنه بتفضيله الوجه اللوجيستى للحدث فإنه يساير وجهات نظر السلطة وهكذا إضطر شامبوليون المكتشف أن ينتحى أمام لوبا الشيال (13) .

بعد أن ظلت المسلة معزولة عن العالم بسبب نومة المرور أصبح الآن من الممكن زيارتها (بفضل إشارات المرور التى أقيمت لذلك) فالنعبير الطريق إذن وندور حول قاعدتها، على وجهتها الغربية فى إتجاه الشانزليزيه كتب ما يلى :

فى حضور الملك .

لويس - فيليب الأول هذه المسلة

المنقولة من الأقصر إلى فرنسا

أقامها على هذه القاعدة .

مسيو لوبا ، مهندس

وسط تصفيق

جمهور غفير

فى ٢٥ أكتوبر ١٨٣٦

وعلى الوجه الشمالى (فى إتجاه شارع روابال) والوجه الجنوبى (ناصية السنين) نحتت رسومات مطلية بالذهب لها أثر زخرفى جميل تصف طبقاً لنماذج لوبا الأجهزة التى سمحت له برفع كتلة الحجر الهائلة التى تزن ٢٣٠ طناً من فوق قاعدتها فى الأقصر ثم سحبها حتى ضفاف النيل ثم من شاطئ السنين حتى موقعها الحالى وأخيراً إقامتها على قاعدتها .

يشرف لوبا بظهور اسمه على ثلاث من واجهات القاعدة وكان اسمه سيظل وحده مع اسم الملك المذكوراً على الصرح لولا أن أضيف اسم فرنيناك قبطان المركب "الأقصر" المذكور فى تواضع فى الوصف العام⁽¹⁴⁾ لأنه إحتج باسم سلاح البحرية على هذا السهو .

إستوجب الأمر أيضاً إرضاء جزء من الرأى العام الذى اراد مثل شامبوليون رؤية ذكرى الحملة على مصر مشاراً إليها على الصرح كما أن هدية الباشا كانت تستوجب كذلك كلمة شكر.

الفريب أن ملك الفرنسين أوفى بواجب الشكر هذا باللغة اللاتينية كما أهدى المسلة إلى ذكرى النجاحات التى أحرزها جيش الجمهورية وهى المسلة التى تعلن إلى الجهات الأصلية الأربعة عظمة أحد الفراعنة الذى يعتبر أجمل أعماله المجيدة هو أنه رد المهاجمين على أعقابهم بعيداً عن إمبراطوريته .

LUDOVICUS PHILIPPUS I
FRANCORUM REX
UT ANTIQUISSIMUM ARTIS AEGYPTACIAE OPUS
IDEMQUE
RECENTIS GLORIAE AD NILUM ARMIS PARTAE
INSIGNE MONUMENTUM
FRANCIAE AB IPSA AEGYPTO DONATUM
POSTERITATI PROROGARET
OBELISCUM
DIE XXV AUG A MDCCCXXXII THEBIS HECATOMPYLIS AVECTUM
NAVIG AD ID CONSTRUCTA INTRA MENSES XIII IN GALLIAM PERDUCTUM
ERIGENDUM CURAVIT
D. XXV OCT A MDCCCXXXVI ANNO REGNI SEPTIMO

هذه العبارة اللاتينية التى عهد بتحريرها إلى أكاديمية المخطوطات والآداب تحتل الساحة الشرفية للأساس التى تطل على التويلورى قام بترجمتها الى الفرنسية آلان پاچاس :

"ملك الفرنسيين إذا ينبغي أن ينقل إلى الأجيال التالية أحد قمم الفن المصرى وكذلك الذكرى الرائعة لإحدى الأعمال المجيدة التى تحققت بالسلاح مؤخراً على ضفاف النيل. تم رفع هذه المسلة الممنوحة لفرنسا من مصر ذاتها . رفعت من مقابر طيبة فى ٢٥ أغسطس ١٨٣٢ ونقلت إلى فرنسا على متن سفينة شيدت لهذه المناسبة خلال رحلة دامت ثلاثة عشر شهراً. أقيمت هنا فى يوم ٢٥ أكتوبر ١٨٣٦ ، سابع أعوام ولايته "

لا توجد إشارة واحدة فى هذا النص لمنشئ المسلة رسيس الثانى وهو العظيم الغائب الآخر عن هذه القاعدة . فلنصح هنا هذا الظلم إن كان ذلك ممكناً بأن نردد أحد التراتيل التى أمر ملك مصر العليا ومصر السفلى بنحتها بالهيوغليفيه على واجهة المسلة التى تنيرها فى هذه الأيام الشمس الغاربة :

"ملك المنطقة العليا ، ملك المنطقة السفلى ، منظم وملك مصر ، الذى أدب الشعوب ، حورس الوضاء ، حارس السنين ، عظيم بانتصاراته ، ملك الشعب المطيع ، الشمس حامية الحقيقة ، حاكم الحكام ، الذى أنجبه شمو ، لكى يمارس الأحكام الملكية على العالم عدداً عظيماً من الأيام ، ابن الشمس ، عزيز أمون : رسيس ، ليحيا!

لتحيا أيضاً فى ذاكرة البشر أعمال وأفكار جان- فرانسوا شامبوليون .

حواشی

تمهید: ومیض هائل من نور صامت

1. Préface à l'Essai sur les hiéroglyphes de Warburton, Aubier-Flammarion, 1977.
2. *Les Prêtres de l'ancienne Égypte*, Seuil, 1967, pp. 110-130.
3. *Ibid.*, pp. 111-130.
4. *Lettre à Zelmire*, « l'Asiathèque », Paris, 1978, p. 63.
5. *Les Prêtres de l'ancienne Égypte*, *op. cit.*, p. 115.
6. *Silex*, *op. cit.*, p. 59.
7. Flammarion, Coll. « Les Perspectives dépravées », Paris, 1985.
8. *Naissance de l'égyptologie au xvii^e siècle*, revue publiée par le CNRS, n° 158, 1988.
9. En trois tomes, chez Jacques Guérin, libraire quai des Augustins.
10. Ces diverses citations sont empruntées au livre III, pp. 210-214.
11. Voir à ce sujet le récit savoureux de Gérard de Nerval dans *les Illuminés*, pp. 202-214.
12. Jean Leclant, « En quête de l'égyptomanie », *Revue de l'art*, 5, 1969, p. 83.
13. « L'expédition d'Égypte et l'art français », dans *Revue des Études napoléoniennes*, janvier 1925.
14. Jurgis Baltrusaitis, *la Quête d'Isis*, Flammarion, p. 34.
15. *Ibid.*, p. 218.
16. III^e partie, chap. 3.
17. *Mémoires d'outre-tombe*, I, p. 735.
18. Jean Tulard, *l'Histoire*, n° 61, novembre 1983, p. 34.
19. *Mémorial de Sainte-Hélène*, coll. « l'Intégrale », Seuil, 1968, chap. 1, p. 67.
20. *Mémoires d'outre-tombe*, I, p. 719.
21. Oxford University Press, Londres, 1931.
22. *Mémorial de Sainte-Hélène*, chap. 10, p. 503.
23. *Bonaparte et l'expédition d'Égypte*, traduction 1962.

24. *Journal d'un notable du Caire durant l'expédition française*, Albin Michel, 1979, traduction J. Cuoq, pp. 90-91.
25. Herold, *op. cit.*, p. 218.
26. Ch.-O. Carbonell, *l'Autre Champollion*, « l'Asiathèque » et Presses de l'IEP, Toulouse, 1984, p. 10.
27. *Vivant Denon ou la conquête du bonheur*, IFAO, 1986, pp. 163-177.
28. Duchesse de Maillé, *Souvenirs de deux Restaurations*, Librairie académique Perrin, 1984.
29. *A la recherche de l'Égypte oubliée*, Gallimard, 1986, p. 54.

١ - الحياة في فيجاك في عهد الثورة

1. Archives du Lot, série C., n° 969.
2. Document communiqué par Mme Simone Foissac, professeur à Figeac.
3. Ch.-O. Carbonell, *l'Autre Champollion*, *op. cit.*, p. 4.
4. Philippe Calmon, *Bulletin de la Société des études du Lot*, III^e fascicule, 1982, pp. 250-252.
5. *Ibid.*
6. *L'Évolution de l'humanité*, Albin Michel, chap. VII.
7. *La Vie quercynoise*, repris dans une brochure des Amis de Champollion, à Figeac.
8. Traduction française publiée en 1983 chez Pygmalion, Paris.
9. *Op. cit.*, p. 41.
10. *Op. cit.*, p. 18.
11. *Op. cit.*, p. 22.
12. H. Hartleben, *op. cit.*, pp. 44-45.
13. Gérard Macé, *Revue de la Bibliothèque nationale*, 15, 1985, p. 45.
14. Lucien Cavalié, *Monographie de Figeac* (cité par André Sors : *les Frères Champollion et l'énigme égyptienne*).
15. Fonds Champollion, Grenoble, AF 10, f° 2.
16. Fonds Grenoble, AF 00, f° 68.
17. Fonds Grenoble, AF 1, f° 75.
18. Fonds Grenoble, AF 61, f° 3.
19. Fonds Grenoble, AF 1, f° 79.
20. Fonds Grenoble, AF 1, f° 77.
21. *Émile*, Œuvres complètes, « l'Intégrale », Seuil, 1971, p. 451.

٢ - أخ ، أم أستاذ ، أم أب ؟

1. Fonds Grenoble, AF 1, f° 25.
2. Lettre publiée lors de l'exposition de Grenoble, en 1987.
3. Madeleine Pourpoint, *Champollion et l'énigme égyptienne*, p. 3.
4. Ch.-O. Carbonell, *op. cit.*, p. 10.
5. *Bulletin de l'Académie delphinale*, 1^{er} janvier 1973.
6. Ch.-O. Carbonell, *op. cit.*, p. 13, note 22.
7. *Ibid.*, p. 22.
8. *Ibid.*, p. 23.
9. Fonds Grenoble, AF 1, f° 77.
10. Ch.-O. Carbonell, *op. cit.*, pp. 48-49.

11. *Op. cit.*, p. 29.
12. Louis Lambert, « l'Intégrale », Seuil, t. 7, p. 287.

٣ - جرونوبل ومكان إقامة قاتل

1. *La vie d'Henry Brulard*, Pléiade, p. 620.
2. *Ibid.*, p. 582.
3. A. Champollion-Figeac, *Chroniques dauphinoises*, pp. 153-156.
4. *Ibid.*, p. 148.
5. Papiers de famille, Fonds Grenoble, I, mi 17.
6. Stendhal, « Œuvres intimes », Pléiade, p. 741.
7. *Ibid.*, p. 742.
8. Fonds Grenoble. (Cette mention apparaîtra seule désormais.)
9. Léon de La Brière, *Champollion inconnu*, Plon, 1897, p. 28.
10. *Chroniques dauphinoises, op. cit.*, t. 2, pp. 156-157.
11. H. Hartleben, *op. cit.*, p. 55.
12. *Ibid.*, p. 69.
13. *Chroniques dauphinoises, op. cit.*, t. 2, p. 386.
14. Fonds Grenoble, N. 1549 (4).
15. H. Hartleben, *op. cit.*, p. 73.

٤ - بايل أو متاعب باريس

1. *Vie de Henry Brulard, op. cit.*, pp. 870-874.
2. Document des archives municipales, communiqué par Mme Foissac.
3. M. Pourpoint, *op. cit.*, p. 41.

٥ - أستاذ في سن العشرين

1. Vital Chomel, *Histoire de Grenoble*, chap. IX, p. 219.
2. Ch.-O. Carbonell, *op. cit.*, p. 74.
3. *Ibid.*, p. 76.
4. *Ibid.*, p. 77.
5. Les premières leçons du jeune professeur ont été publiées dans les *Annales de l'université de Grenoble*, par Herminie Hartleben et J. de Crozais, en 1897.
6. Jean Paquet, *Bulletin de l'Académie delphinale*, janvier 1973.
7. *Ibid.*, p. 38.
8. *Chroniques dauphinoises*, t. 2, p. 97.
9. Fonds Grenoble, AF 2.
10. *Chroniques dauphinoises*, t. 2, p. 403.
11. Léon de La Brière, *op. cit.*, pp. 113-116.
12. *Chroniques dauphinoises*, t. 2, p. 404.
13. *Ibid.*, t. 2, p. 305.
14. Gabrielle Kuani, *Bulletin de la Société française d'égyptologie*, n° 39, avril 1964.
15. Jean Paquet, *Bulletin de l'Académie delphinale*, article cité, p. 35.
16. Fonds Champollion.
17. Keppel Jeannot, *Correspondance inédite*, p. 123.
18. Ch.-O. Carbonell, *op. cit.*, p. 84.

19. Fonds Grenoble, AF 9, f° 138.
20. Herminie Hartleben, *op. cit.*, p. 125.
21. Fonds Champollion.
22. M. Pourpoint, *op. cit.*, p. 54.
23. Fonds Grenoble.

٦ - الغول وزهور الزنبق

1. Vital Chomé, *Histoire de Grenoble*, p. 263.
2. Aimé Champollion-Figeac, *Les Deux Champollion*, pp. 15-16.
3. Jacques-Joseph Champollion-Figeac, *Fourier et Napoléon*, p. 310.
4. Correspondance Keppel, *op. cit.*
5. Fonds Grenoble, AF 10, f° 323.
6. « Le procès du maréchal Ney », *Revue des Deux Mondes*, mars 1893.
7. H. Hartleben, *op. cit.*, p. 145.
8. Fonds Grenoble, AF 4, 191.
9. *Op. cit.*, p. 305.
10. *Fourier et Napoléon*, *op. cit.*, pp. 306-307.
11. M. Pourpoint, *op. cit.*, p. 68.
12. *Les Deux Champollion*, *op. cit.*, p. 158.
13. M. Pourpoint, *op. cit.*, p. 69.
14. *Fourier et Napoléon*, *op. cit.*, p. 306.

٧ - منقى وسط نويه

1. Vital Chomé, *Histoire de Grenoble*, *op. cit.*, pp. 263-264.
2. *Les Deux Champollion*, *op. cit.*, p. 26.
3. Fonds Grenoble, AFT 2, f° 95.

٨ - رويسبير جرونويل

1. *Les Deux Champollion*, *op. cit.*, p. 49.
2. *Ibid.*
3. *Ibid.*, p. 50.
4. Henri Dumolard, *Jean-Paul Didier et la Conspiration de Grenoble*, Rey-Arthaud, Grenoble, 1928, p. 242.
5. N° IV de 1957, pp. 373-394.
6. Ch.-O. Carbonell, *op. cit.*, p. 153.
7. *Ibid.*, p. 159.
8. Lettre publiée *in extenso* dans les *Lettres à son frère* réunies par M. Vaillant, L'Asiathèque, *op. cit.*, pp. 41-43 et 48-49.
9. *Bulletin de l'Académie delphinale*, 1922, 5^e série, t. 13/1.
10. Cité dans le catalogue de l'exposition Champollion à Grenoble, 1987, pp. 71-73 (archives BMG R. 7636). Les responsables de cette brochure produisent une attestation de H. Gariel attribuant ce texte à Champollion.
11. *Les Deux Champollion*, p. 53.
12. *Ibid.*
13. *Op. cit.*, p. 75

14. H. Hartleben, *op. cit.*, p. 188.
15. *La France des notables*, de A. Jardin et A. J. Tudesq, Seuil, 1973, pp. 65-66.

٩ - أوديب ، من قرن لآخر

1. Préface de la réédition (1922) de la *Lettre à M. Dacier*, p. 32.
2. Leçon inaugurale du Collège de France, publiée dans la *Grammaire égyptienne*, réédition 1984, Michel Sidhom, p. IX.
3. *Ibid.*
4. La plupart de ces indications sont tirées de l'*Athanasius Kircher*, de Joscelyn Godwin, J.-J. Pauvert, Paris, 1981. (Trad. de l'anglais.)
5. Madeleine V. David, *le Débat sur les écritures et l'héroglyphe aux XVII^e et XVIII^e siècles*, Jean Touzot, Paris, p. 48.
6. M. V. David, *op. cit.*, p. 70.
7. *Leçon inaugurale, op. cit.*, p. X.
8. M. V. David, *op. cit.*, p. 96.
9. M. V. David, *op. cit.*, p. 100.
10. Warren R. Dawson et Eric P. Uphill, 2^e édition révisée, Londres, 1972.
11. M. V. David, *op. cit.*, p. 103.
12. *Encyclopédie*, article « alphabet ».
13. Cité dans M. V. David, *op. cit.*, p. 112.
14. J.-F. Champollion, *Leçon inaugurale*, p. X, ij.
15. Jean Leclant, article cité, p. 5.
16. M. V. David, *op. cit.*, p. 134, note.
17. *Leçon inaugurale, op. cit.*, p. X iv.
18. H. Sottas, *op. cit.*, pp. 50-51.

١٠ - الرائد نو الوردية

1. Seconde édition, Egypt Expl. Society, Londres, 1972, p. 313.
2. Préface à la *Lettre à M. Dacier, op. cit.*, p. 12.
3. *Précis*, p. 22.
4. Préface de Sottas à la *Lettre à M. Dacier, op. cit.*, pp. 45-46.
5. *Ibid.*, pp. 59-60.
6. Cité dans Camille Lagier, *Autour de la pierre de Rosette*, p. 110.
7. *Ibid.*, pp. 90-91.
8. H. Hartleben, *op. cit.*, p. 208.
9. Young et Champollion, Le Page-Renouf. *Proceedings of the BASL*, vol. IX.
10. Cité par H. Sottas, *op. cit.*, p. 47.
11. *Ibid.*, pp. 11 et 59.

١١ - "تمكنت من الموضوع!"

1. Marquise de Maillé, *Souvenirs de deux Restaurations*, p. 311.
2. Préface de la *Lettre à M. Dacier, op. cit.*, p. 5.
3. H. Sottas, *op. cit.*, p. 17.
4. *Ibid.*

5. Doblöhfer, *op. cit.*, p. 71.
6. Cf. *Précis*, p. 316.
7. Adolphe Cattaut, *Champollion et le déchiffrement des hiéroglyphes*, Le Caire, 1918, p. 12.
8. Jean Leclant, *Publication de l'Acad. des Inscriptions et Belles-Lettres*, 1972, p. 8.
9. H. Hartleben, *op. cit.*
10. H. Sottas, *op. cit.*, p. 68.
11. Pierre Grandet, « La méthode de Champollion », *l'Histoire*, n° 106, p. 24.
12. Cf. l'article sur Huyot de Jean Leclant : *Bulletin de la Société française d'égyptologie*, n° 32, déc. 1961, pp. 35-42.
13. J. Leclant, *op. cit.*, p. 9.
14. Cité dans H. Hartleben, *op. cit.*, p. 232.
15. J. Leclant, *op. cit.*, p. 9.
16. *Mémoires d'outre-tombe*, La Pléiade II, pp. 689-690.
17. H. Hartleben, *op. cit.*, p. 244.
18. Jean Yoyotte, article BSFE, octobre 1982, n° 95, p. 102.
19. J. Leclant, article cité, p. 12.
20. H. Hartleben, *op. cit.*, p. 248.

١٢ - القضية

1. H. Sottas, *op. cit.*, p. 4.
2. « An account of some recent discoveries »... *Quarterly Review*, 1823, p. 54.
3. H. Hartleben, *op. cit.*, p. 252.
4. Londres, 1825, Longman and Hurst.
5. C. Lagier, *op. cit.*, p. 109.
6. H. Hartleben, *op. cit.*, pp. 266-267.
7. *Proceedings of the B.S.A.L.*, vol. XIX, 1987.
8. Librairie orientale de Dondey-Dupré et fils, 1832.
9. *Examen critique des travaux de M. Champollion*, p. 12.
10. *Bulletin de l'Académie royale de Belgique*, n° 5, 1922, pp. 135-152.
11. Cf. H. R. Hall, « Letters of Champollion », *Journal of Egyptian Archaeology*, vol. II, 1915, pp. 76-87 et 133-167.

١٣ - الطريق إلى ممفيس يمر من تورينو

1. *Itinéraire de Paris à Jérusalem*, La Pléiade, pp. 374-375.
2. H. Hartleben, *Correspondance de J.-F. Champollion*, Lettres d'Italie.
3. *Histoire de l'art*, II, chap. 46.
4. *Précis*, IX, II, 364.
5. H. Hartleben, *Correspondance de J.-F. Champollion*, p. 204.
6. *Ibid.*, p. 209.
7. *Mémoires d'outre-tombe*, Pléiade, t. II, p. 236.

١٤ - إنجيليكا - عزافة توسكانا

1. *Lettres à Zelmire*, l'Asiathèque, Paris, 1978.
2. *Vita di I. Rosellini, padre dell'Egitto italiana*, Giardini, Pise, p. 25.

١٥ - أمين متحف نونعال من ربيع

1. P. Quoniam, *Bulletin de la Société française d'archéologie*, n° 15, 1982.
2. « Champollion et le musée du Louvre », *Bulletin de la Société française d'égyptologie*, n° 95, 1982.
3. *Notice descriptive des monuments égyptiens du musée Charles X*, Paris, 1827.
4. *Lettres de Champollion le Jeune*, éditées par son frère, t. I, Italie, éd. C. Bourgois, 1986, p. 425.

١٦ - مام النيل

1. Note de Mme Hartleben, *Lettres et journaux d'Égypte*, p. 121.
2. *Ibid.*, pp. 486-487.
3. Edda Bresciani, « L'expédition franco-toscane en Égypte et en Nubie », *Bulletin de la Société française d'égyptologie*.

١٨ - الموت يتريص بي في بابل

1. R. Maréchal, article cité, p. 28.
2. *Ibid.*, p. 20.
3. Cité par P. Quoniam, article cité.
4. Jean Leclant, *Champollion et le Collège de France*, B.S.F.E., octobre 1932, p. 38.
5. Robert Hari, « Rosellini et Champollion, deux vies pour l'égyptologie ».
6. Jean Yoyotte, communication pour le colloque du Caire de 1988.

١٩ - فيما بعد ذلك ، حتى طيبة

1. H. Hartleben, *op. cit.*, p. 579.
2. Retrouvées par Mme Catherine Berger et citées par Jean Leclant dans l'article cité au chap. 11.

خاتمة : بقلم جان فيدال - الغائب عن المسئلة

1. *Revue de l'Art*, n° 23, éd. du CNRS, 1974.
2. J. J. Champollion-Figeac, *l'Obélisque de Louqsor transporté à Paris*, notice historique, descriptive et archéologique de ce monument par M. Ch... avec la figure de l'obélisque et l'interprétation de ses inscriptions hiéroglyphiques d'après les dessins et notes manuscrites de Champollion le Jeune, Paris, 1833.
3. Bernardino Drovetti, *Epistolario (1800-1851)*, publié par Silvio Curto avec Laura Donatelli, Instituto Editoriale Cisalpino, Milan, 1985, lettre n° 94.
4. *Ibid.*, lettre n° 90.
5. *Ibid.*, lettre du comte de Forbin à B. Drovetri du 30 juillet 1818.
6. J. J. Champollion-Figeac, *op. cit.*
7. Baron d'Haussez, *Mémoires*, publiés par son arrière-petite-fille, la duchesse d'Almazan, 2 vol., Paris, 1896-1897, pp. 167-170.

8. J.-B. Apollinaire Lebas, *l'Obélisque de Louqsor*, histoire de sa translation à Paris par M. A. Lebas, ingénieur de la Marine, Paris, 1839.
9. Robert Burnand, *la Vie quotidienne en 1830*, Hachette.
10. Cité par Giovanni Macchia, in *Paris en ruine*, Flammarion, p. 374.
11. Archives nationales, F 13 1230.
12. J. J. Champollion-Figeac, *op. cit.*
13. Archives nationales, *ibid.*
14. *Ibid.*

مراحل حل شفرة الكتابات المصرية

١ - العصور القديمة : مؤلفون إغريق ورومان ، متعهدون التبس عليهم أمر المنظومة

ظلال وأضواء على طبيعة الهيروغليفيات

- شيريمون (اكتشف فى القرن الثانى عشر على يد تزيترس نشر فى فرنسا فى القرن التاسع عشر)

أصوات وصور مختلطة ببعضها ؟

- هيرمايون (ذكره أميين مارسولان فى كتاب التاريخ حول عام ٣٩٠) .

ترجمة لخطوط مكتوب بلغتين ...

هورا بوللون (القرن الخامس)

محاولات تفسيرية غير دقيقة .

- كليمان السكندرى (١٨٠ - ٢١٥) .

إيديوجرامات (صور تمثل أشياء) ، رموز .

٢ - جامعو الرموز

أحداس ، تخمينات ، فروض

المشكلة تتضح

القرن السابع عشر

- أثناسيوس كيرشار

Podromus coptus sive Aegyptiacus (1636)

OEdipus Aegyptiacus.....

تأويل هوائى جداً للهيروغليفيات ، ولكن طرح جوهرى :

اللغة القبطية هى إمتداد للغة الشعبية لقدماء المصريين .

القرن الثامن عشر :

- ويلكنز : منظومة من صور بدائية ؟
- واربورتون (إقتبسه بالفرنسية ل . دو ماليان) : المرور من الصورة إلى الكلمة ، ومن الإيديوجرام إلى الكتابة .
- جابلونسكى : محاولة ترجمة أسماء الآلهة المصرية بواسطة اللغة القبطية بارتيلمى ثم جينى وزويجا .

البيضويات (الخراطيش) تحتوى على أسماء الآلهة أو الملوك .

- جينى : وحدة الكتابات المصرية الثلاثة .
- نيبور : بعض الهيروغليفيات أبجدية ، هل هى صوتية ؟
- زويجا : لا بد أن المنظومة تتضمن عناصر صوتية .

٣ - الحل العلمى :

١٧٩٨ .

- حملة بونابارت على مصر ، يصطحب معه لجنة من العلماء .
- ٢٢ أغسطس ، تأسيس معهد مصر (المجمع العلمى المصرى) فى القاهرة ، ١٧٩٩ .

١٩ يوليو - بونابارت يشكل لجنتين - يرأس فوريه الأولى ، وكوستاز الأخرى - تتولى الدراسة العلمية للمباني الأثرية القديمة فى مصر العليا ورسمها بدقة ، لدى نشرها فى بداية القرن التاسع عشر فى كتاب "وصف مصر" ، أعطت الرسومات والمستندات التى جمعتها هاتان اللجنتان ودفعة حاسمة لدراسات المصريين .

فى اليوم ذاته - فى مدينة رشيد - بالقرب من مصب النيل يعثر ضابط فرنسى على حجر مدفون من الجرانيت الأسود منقوشة عليه مخطوطة بكتابات ثلاثة وهى عبارة عن ثلاثة نسخ لنص واحد الأولى بالهيروغليفية - لم يبق سوى جزء منها فقط والثانية بالديموطيقية - وهى الكتابة الخطية الشعبية المصرية والثالثة باللغة اليونانية - لغة معروفة .

حجر رشيد

سيصبح المستند الحاكم فى عملية حل شفرة الكتابات المصرية .

١٧٩٩ - ١٨٠٠

ترجمات عديدة للنسخة اليونانية لحجر رشيد - النص الذى تعبر عنه المخطوطات الثلاثة هو قرار أصدره الكهنوت المصرى لتحية بطليموس الخامس صدر عام ١٩٦ قبل الميلاد ، بالإضافة إلى اسم بطليموس ، تضمن القرار أيضاً أسماء إغريقية أخرى ، فهى إذن أسماء أجنبية مثله .

١٨٠٢

- الفرنسى سيلفاستر دوساسى والسويدي أوكريلايد يدرسان المخطوط الديموطيقي لحجر رشيد . اعتقدوا أنه أبجدي بالكامل ويقارنانه بالنص الأغريقي .

- س . دوس ساسى يتوصل إلى عزل مجموعات من الرموز فى النص الديموطيقي توازى الأسماء اليونانية الموجودة فى النص اليونانى أوكريلايد يحمل هذه الرموز قيمة صوتية (فونيتية) غير أن الأبجدية المكونة من ١٦ رمزاً لا تسمح له بترجمة بقية النص ومع ذلك فقد ثبت أن :

الكتابة الديموطيكية تعبر عن الأسماء العلم الأجنبية بواسطة رموز أبجدية

- بعد استسلام الجيش الفرنسى فى مصر أصبح حجر رشيد غنيمة حرب وأودع البريتيش ميوزيوم (المتحف البريطانى) ولكن بعض البصمات كانت موجودة فى فرنسا وكذلك بعض النسخ (غير الدقيقة) .

- يؤسس القنصل الأول (بونابارت) لجنة تتولى تنفيذ العمل الذى أصبح "وصف مصر" والذى كتب فورييه مقدمته . الكوميسارات المكلفون بهذا التنفيذ كانوا على التوالى كونتى (حتى ديسمبر ١٨٠٥) لا نكريه ثم جومار (اعتبار من ١٨٠٧) .

- فيفان دونون ينشر كتابه "رحلة إلى مصر السفلى والعليا" أثناء حملات الجنرال بونابرت وهو يتضمن على وجه الخصوص نسخاً للعديد من البرديات .

١٨٠٨

شامبوليون - طالب فى باريس - يخطو "أولى خطواته" كحلل للشفرة: يقوم

بدراسة المخطوط الديموطيقى لحجر رشيد من إحدى الصور له ويقارنه ببردية دونون ثم يحاول تحسين أبجدية أوكربلاد . سيظل لسنين طويلة - وهو يعمق دراسته للغة القبطية - يحاول فهم الكتابات المصرية الثلاثة.

١٨١٠

النسخة الأولى من "وصف مصر" (مؤرخة ١٨٠٩) تظهر وهي تحتوى - بالنسبة للكثير : على لوح مرسومة، المجلد الأول للوصف "الجزء الأول" وبالنسبة للمذكرات - الجزء الأول - يؤكد شامبوليون فى مذكرة قرأها فى السابع من أغسطس أمام أكاديمية فنون وعلوم مدينة جرونويل أنه للتعبير عن الأسماء الأغريقية.

لا بد أن للهيروغليفيات خاصة التعبير عن أصوات .

١٨١٣

- شامبوليون فى كتابه "مصر فى عهد الفراعنة" (ظهر عام ١٨١٤) المجلد الأول ، ص ١٠٥ يؤكد .

كان المصريون يهملون الحروف المتحركة فلا يدونها فى كثير من الأحيان .

- الدفعة الثانية من وصف مصر (مؤرخة ١٨١٢) الآثار لوح الجزئين الثانى والثالث .

١٨١٤

توماس يانج ، عالم فيزياء وطبيب ومثقف إنجليزى يدرس بدوره فى يونيو ١٨١٤ المخطوط الديموطيقى (أنكوربالي) لحجر رشيد يستخدم فى البداية - دون جدوى أبجدية أوكربلاد ثم يلجأ إلى المقارنة المادية مع النص اليونانى فيتوصل إلى عزل مجموعات من الرموز تتوافق مع كلمات من النص اليونانى يتوصل هكذا إلى " ترجمة تقريبية (ظرفية) للنص الديموطيقى يرسلها إلى مسيو دوساسى فى ١٣ أكتوبر وينشرها فى مجلته ميوزيوم كريتيكوم عام ١٨١٥ وفى مجلة أركيولوجيا عام ١٨١٧ يتمكن يانج بإتباع الطريقة ذاتها من التعرف على مجاميع من الرموز الهيروغليفية تتفق مع كلمات من النص اليونانى .

١٨١٨/١٨١٧

- الدفعة الثالثة من "وصف مصر" الآثار القديمة : لوح المجلد الرابع ، الوصف: الجزء الثانى المذكرات : الجزء الثانى .

١٨١٩/١٨١٨

ينشر توماس يانج فى مقال للإنسيكلوبيديا برتيانیکا الملحق الرابع (١٨١٩) كشف يتضمن ٢٢٠ "كلمة" أو مجموعة رموز هيروغليفية منها مائة تقريباً توصل إلى تحديدها "بالحظ السعيد" (سوتاس) .

يحاول يانج فى المقال ذاته تحليل خرطوش بطليموس صوتياً وهو تردد عدة مرات فى حجر رشيد وخرطوش بيرنيس المأخوذ من "وصف مصر" وهو :

يستشعر وجود هيروغليفيات صوتية . كما يخمن وجود علاقة قرابة بين الكتابات المصرية الثلاثة

ولكنه يتوقف فى الطريق بعد أن أقترب جداً من الحقيقة دون أن يكتشف الطبيعة الحقيقية للمنظومة.

١٨٢١

ينشر شامبوليون فى مايو قبل أن يغادر جرونوبل ٧ لوح من القطع الكبير مع نص يثبت فيه أن الكتابة الهيروغليفية هى تبسيط أو إختزال لهيروغليفية ٢٧ أغسطس فى باريس يعلن أمام أكاديمية المخطوطات والأداب بحثه عن الكتابة الهيروغليفية ثم بعد ذلك بعام يتقدم ببحثه عن الكتابة الديموطيقية ويثبت فيها أن الحروف الديموطيقية ذاتها ليست سوى تبسيط نهائى للرموز الأصلية .

وأن الكتابات الثلاثة نابعة من ذات المنظومة الواحدة .

٢٣ ديسمبر :يجمع شامبوليون عدد الرموز الهيروغليفية وما يقابلها من كلمات يونانية فى حجر رشيد فيجد ١٤١٩ هيروغليفية و ٤٨٦ كلمة يونانية .

مستحيل أن تصور كل هيروغليفية فكرة مستقلة

إلا أن الـ ١٤١٩ هيروغليفية تختزل فى ١٦٦ شكلاً رئيسياً .

من الصعب التسليم بأن تكون كل هيروغليفية رمزاً لصوت .

١٨٢٢

- رابع دفعة من "وصف مصر" الآثار القديمة لوح مجلد (يتضمن النسخة الكاملة لحجر رشيد) .

- حاول شامبوليون مثل يانج التحليل الصوتى (خرطوش بطليموس الموجود على حجر رشيد وينسب لسبع رموز هيروغليفية مدلول ٧ حروف للإسم القبطى PTOLMIS - فرض ينتظر إثباته ،

- بداية يناير : يحصل شامبوليون على نسخة من خرطوش كليوباترا بالقبطية KLEOPTRA ثلاث رموز هيروغليفية O,P,L تتماثل فى الاسمين وهى أيضاً رموز لأصوات.

إذن فإن الأسماء الإغريقية هى بالفعل منقولة بواسطة هيروغليفيات صوتية.

- مزوداً باثنى عشر حرفاً أبجدياً يستمر شامبوليون فى إستكمال الأبجدية بدراسة الخراطيش الملكية للفترة الإغريقية الرومانية المنشورة فى كتاب "وصف مصر"

- ١٤ سبتمبر يستلم شامبوليون خرطوشين ملكين أرسلهما له شارل هيو وهما لرمسيس وتحتمس : الهيروغليفيات الصوتية التى فيها تختلط بها رموز إيديوجرافية يكتشف شامبوليون المبدأ الرئيسى للكتابة المصرية فهى:

كتابة ترسم الأفكار تارة والأصوات تارة أخرى .

٢٢/١٤ سبتمبر يحرر شامبوليون مع أخيه رسالة إلى مسيو داسييه ويقرأها فى ٢٧ سبتمبر أمام أكاديمية المخطوطات والأداب .

١٨٢٢/ ٢٤

- شامبوليون فى كتابه "رسالة إلى مسيو داسييه" بخصوص أبجدية الهيروغليفيات الصوتية التى استخدمها المصريون لكتابة القاب وأسماء أسرات الملوك الإغريق والرومان "لم يكشف سوى عن جزء من اكتشافه محتفظاً بواجب إثباته على أسس لا تقبل الجدل قبل نشره على الجمهور .

- فى ١٨٢٤ نشر "كتابه" ملخص المنظومة الهيروغليفية عند المصريين القدماء - أو أبحاث فى العناصر الأولية لهذه الكتابة المقدسة وفى تركيباتها المختلفة وفى العلاقات القائمة بين هذه المنظومة والمنظومات الكتابية المصرية الأخرى" وهى المنظومة التى لم يتوقف عن تنقيحها حتى آخر يوم فى حياته وفى إطارها صدر "كتاب القواعد" المصرية بعد وفاته على يد أخيه جاك - جوزيف وهو آخر مراحلها .

علامات تاريخية

الشقيقان شامبوليون

علامات تاريخية

١٧٧٣ جاك شامبوليون - ولد عام
١٧٤٤ فى لاروش - أن- فالبونيه (بالقرب
من جرونوبل) بائع كتب متجول - أول الأمر
ثم استقر عام ١٧٧٠ فى فيچاك - مقاطعة
كارسى حيث فتح مكتبة لبيع الكتب وتزوج
جان فرانسوا جاليو من أصل بورجوازي
١٧٧٤ مولد تيريز وتبعها بيترونيل عام ١٧٧٦
ومارى فى ١٧٨٢ .

١٧٧٤ جلوس لويس السادس
عشر على العرش .

١٧٧٦ ، ٤ يوليو : إعلان
إستقلال الولايات المتحدة

١٧٧٨ ، ٨ أكتوبر : مولد چاك -
چوزيف شامبوليون .

١٧٨٧ جرونوبل

إجتماع البرلمان المحلى

٧ يونيو : أيام القراميد

jours des tuiles

٥ يوليو : إجتماع المؤتمرات
العامة لمقاطعة الدوفينييه .

٢٣ يوليو : مؤتمر فيزيل
١٧٨٩ ، ٩ يوليو : إجتماع
المؤتمرات العامة
١٤ يوليو : الإستيلاء على
الباستيل .

١٧٩٠ ، ٢٣ ديسمبر : مولد جان
فرانسوا شامبوليون فى فيچاك . فى
منزل كائن بحارة لابوردسكورى أخوه
جاك - جوزيف هو أبوه الروحى .
١٧٩١ چاك جوزيف يقبل فى
الفصل الخامس .

١٧٩٠ ، ١٢ يوليو إنشاء الهيئة
المدنية لرجال الكنسية.
١٤ يوليو : عيد الفيدرالية .

١٧٩١ ٢٠ - ٢١ يونيو : فرار
الملك ثم القبض عليه فى فاران
١٧٩٢ ، ١٠ أغسطس : سقوط
لويس السادس عشر .

٢ - ٦ سبتمبر : مجازر سبتمبر
٢٠ سبتمبر : إجتماع الجمعية
التأسيسية بإعلان الجمهورية .
١٧٩٣ ، ٢١ يناير : إعدام لويس
السادس عشر .

٢١ مايو : سقوط الجيرونديين
فترة الإرهاب

١٧٩٤ فى مايو جاك - جوزيف
يعين موظفاً فى بلدية المقاطعة .

١٧٩٤ ، ٢٧ يوليو (٩ تارميدور) :
سقوط روبسبيار .
١٧٩٥ أكتوبر : إنفضاض الجمعية
التأسيسية ، الديركتوار
إنشاء مدرسة اللغة الشرقية .

١٧٩٦ جاك جوزيف يعطى أول
دروسه لأخيه الأصغر .

١٧٩٨ جان فرانسوا يدخل
المدرسة الابتدائية .

جاك جوزيف يعين موظفاً فى
مؤسسة « لا شانال وشامبوليون وريف»
فى جرونوبل ويفصل عن أخيه .

١٧٩٩ جان فرانسوا - يسحب من
المدرسة ويضع تحت مسئولية نوم
كالمالز الذى يعلمه مبادئ اللغة اللاتينية
(واليونانية) جاك جوزيف - يعمق
دراساته فى الآداب القديمة .

١٨٠٠، ٢٣ ديسمبر جان فرانسوا
شامبوليون يبلغ العاشرة من عمره .

١٨٠١ مارس : يخضر جاك
جوزيف أخاه إلى جرونوبل يوضع تحت
مسئولية مدرس خاص فى بادى الأمر
ثم يدرس تحت إشراف أخيه .

١٧٩٦ حملة بوناپارت على إيطاليا
١٧٩٧ ، ١٨ أكتوبر : معاهدة
كامبوفورميو إنتهاء حرب إيطاليا .
١٧٩٨ : مايو إعداد الحملة على
مصر .

أول يوليو : نزول بوناپارت على
شاطئ الإسكندرية .
أول أغسطس : تدمير الأسطول
الفرنسى فى أبو قير .
تأسيس المعهد المصرى فى
القاهرة (المجمع العلمى المصرى)
أنستيتوديجيب

١٧٩٩ فبراير : الحملة على سوريا
نهاية أغسطس : يغادر بوناپارت
مصر تاركاً لكليبار قيادة الجيش
٩ أكتوبر : عودة بوناپارت إلى
فرنسا

٩ نوفمبر : إنقلاب ١٨ برومار:
بوناپارت القنصل الأول .

١٨٠٠ ، ٦ يونيو : أغتيال كليبار
فى مصر الحملة الثانية على إيطاليا
١٤ يونيو : إنتصار مارنجو

١٨٠١ ، ٣١ أغسطس : فى مصر
إستلام مينو .
الحجر المكتوب بلغتين والمكتشف

١٨٠٢ فبراير : الفصل الأول
يشكل لجنة تتولى نشر "وصف مصر" - الأب دوسار حيث يتعلم العبرية وفي نفس
تعيين جوزيف فورييه محافظاً لمنطقة الإيزار .
١٨٠٢ جان فرانسوا يدخل مدرسة
الوقت يتابع دراسته فى المدرسة المركزية .
جاك -جوزيف يسافر سفريات عمل ،
ويبدأ دخوله فى المجتمع الجرونويلوازي
وينشئ لنفسه مكتبة خاصة ، يرسل أول
إيطاليا .
إلغاء المدارس المركزية وإنشاء
مدارس الليسيه .
٢٧ مارس : سلام أبيان مع
جوزيف فورييه يستقر فى
جرونويل فى ١٨ أبريل .
١٨٠٢ جان-فرانسوا يواصل دراسة
العربية بداية دراسة العربية ، والسيريانية
والكالية (الأرامية) جاك جوزيف وقد بدأ
يهتم بالدراسات الأثرية يتولى بتكليف من
المحافظ فورييه الآثار القديمة المحلية - يكتب
بحثاً وينشره تحت عنوان « بحث فى أثر تحت
الأرض موجود فى جرونويل» .
فى ديسمبر يقبل فى أكاديمية العلوم
والفنون،
١٨٠٤ دخول جان فرانسوا فى
الليسيه الأمبراطورى بصفته تلميذ الحكومة
يتعاون جاك جوزيف مع الماجازان
الأنسيكلوبيدى ومع حوليات مقاطعة الإيزار
(أنال نوديبارتومان نو ليزار) .
١٨ يونيو : يقدم بحثاً إلى أكاديمية
العلوم والفنون عن مخطوطات حجر رشيد .
١٨٠٤ مايو : نابوليون الأول :
إمبراطور الفرنسية .
٢ ديسمبر : حفل تنصيب
نابوليون .

١٨٠٥ ، ٢ ديسمبر : أوسترليتز

١٨٠٥ جان فرانسوا يشكو لأخيه
من "الإقامة الجهنمية" التي يمثله له
بقاؤه في اللسيه .

جاك - جوزيف يترجم النص
اليوناني لحجر رشيد .

٢٣ ديسمبر : جان فرانسوا في
الخامسة عشر .

١٨٠٦ جان فرانسوا بمناسبة
توزيع الشهادات في شهر أغسطس
يشرح في حضرة المحافظ فوريه
مقطعاً من سفر التكوين من النص
العبري .

تعيين جاك جوزيف سكرتيراً
لأكاديمية العلوم والفنون لمدينة جرونوبل
وينشر "رسالة عن النص اليوناني لمعبد
دندرة" - موجهة ليسو فوريه .

١٨٠٧ ، ١٩ يونيو : وفاة مدام
شامبوليون في فيجاك .

أول يوليو : زواج جاك - جوزيف
بزويه بيريا في جرونوبل وكانت من
"نوطتها" المنزل الريفي في ثيف .

جان فرانسوا يفكر في تأليف
كتاب عن مصر الفرعونية ويبدأ في
كتابة جزئه الجغرافي - ويعطى وقته كله
لدراسة اللغتين القبطية والعربية .

٣١ أغسطس : يترك اللسيه دون
رجعة .

أول سبتمبر : يقرأ أمام أكاديمية
العلوم والفنون بحثه " في الوصف
الجغرافي لمصر"

١٨٠٦ مايو تأسيس الجامعة
الأمبراطورية .

٢٤ أكتوبر : بينا .

١٨٠٧ معاهدة تيلسيت ، نابوليون
في أوج قوته ،

قبل غزو قمبيز" وكان حينذاك فى السادسة عشرة والنصف من العمر .
١٣ سبتمبر : جان فرانسوا يصل إلى باريس بصحبة أخيه ويحضر محاضرات فى الكولاج دو فرانس ومدرسة اللغات الشرقية - يدرس العبرية والعربية والفارسية والسريانية والكالدية والقبطية .

فى أكتوبر : يعترف لأخيه فى إحدى رسائله بحبه لبولين أخت زوييه .
١٨٠٨ جاك جوزيف أمين - مساعد مكتبة جرونوبل ويصبح رئيس تحرير "حوليات منطقة الإيزار" (إنال دوديبارتمان دوليزار) .

تعيين جان فرانسوا وهو فى السابعة عشرة من عمره عضواً مراسلاً لأكاديمية علوم وفنون جرونوبل - يدرس برديات مكتوبة ،بالخط المرسل cursive ويعكف على تأليف كتاب "القواعد المصرية" (اللغة القبطية) بلهجة مدينة طيبة - يقابل لويز ديشان ثانى حب فى حياته .

١٨٠٩ : ٢٧ يوليو تعيين جاك - جوزيف أستاذاً للأدب اليونانى وأميناً عاماً لكلية الآداب .

مارس : أتم جان فرانسوا - كتاب "القواعد القبطية" - يعكف على دراسة نسخة من حجر رشيد .

١٨٠٨ حرب إسبانيا

٢ - ٣ مايو : ثورة مدريد ، قمعها بقسوة شديدة .

تشكيل الجامعة الامبراطورية لإنشاء كليات الآداب .

١٨٠٩ - يوليو : فاجرام .

يوليو : يعين استاذاً مساعداً
للتاريخ القديم فى كلية آداب جرونوبل
١٥ أكتوبر : يغادر باريس إلى
جرونوبل

١٨١٠ جاك جوزيف وجان
فرانسوا يحصلان على الدكتوراه فى
الآداب بمرسوم أمارطورى يحى أيام
"الأربعاء، فوريه فى داس دوليدجيا
(مقر إقامته الرسمى) ويقيمان كشفاً
بالقطع الأثرية الموجودة بمحف
جرونوبل

٣٠ مايو : جان فرانسوا يلقى
محاضرتة الافتتاحية فى مادة
التاريخ.

٧ أغسطس يعرض أمام أكاديمية
العلوم والآداب أفكاره التى كونها فى
ذلك الحين عن كتابة المصريين معتقداً
أن الهيروغليفيات لها دلائل صوتية .
٢٧ ديسمبر : جان فرانسوا بلغ
العشرين .

١٨١١ ينشر فى جرونوبل مقدمة
كتابة "مصر تحت حكم الفراعنة" (راجع
كشف المؤلفات) .

١٨١٢ تعيين جاك - جوزيف كبير
محافظى مكتبة جرونوبل وعميداً لكلية
الآداب ولكنه يفقد وظيفة رئيس تحرير
"حوليات مقاطعة الإيزان" بسبب نشره
"معلومات ضارة" ، علاقاته مع فوريه

١٨١٠ أبريل : ناپوليون يتزوج
مارى لويى النمسا .

١٨١١ مارس : مولد ملك روما
(ابن ناپوليون)

١٨١٢ : الحملة على روسيا
سبتمبر: الإستيلاء على موسكو
وحرقتها .
أكتوبر : الانسحاب من روسيا .

تعيين جان فرانسوا مساعداً في
مكتبة جرونوبل وأميناً عاماً لكلية الآداب
- يتعرف ويصادق روز بلان (روزين)
ابنة صاحب مصنع قفازات في جرونوبل
وفاة بولين بيريا .

١٨١٤

جاك - جوزيف يناصر نظام
آل بوربون يحصل على الوسام الملكي
زهرة الزنبق.
جان فرانسوا بعد تردد يفعل مثله
وينشر "مصر تحت حكم الفراعنة"
ويهديه إلى لويس الثامن عشر .

١٨١٥ جاك جوزيف - فور وصول
ناپوليون يصبح أقرب معاونة ويلحق به
في باريس حيث يعين سكرتير مجمع
ناخبي دائرة جرونوبل .
يحصل على وسام جوقة الشرف،
يصبح عضواً في جمعية تشجيع
التعليم التعاوني (المتبادل) يناصر جان
فرنسوا ناپوليون هو أيضاً ويصبح
نصير الفيدرالية (حزب مؤيد لپونا بارت
خلال المائة يوم) - ويدير "ليزانال
دوليزار" بدلاً من أخيه. بعد هزيمة

١٨١٣ : أكتوبر : هزيمة لايبتزج
تحلل الأمبراطورية .
١٨١٤ الحملة على فرنسا
٣١ مارس : سقوط باريس
٦ أبريل: تنازل ناپوليون عن
العرش في فونتانبلو
٢ مايو : عودة لويس الثامن عشر
عودة الملكية الأولى .
مايو : ناپوليون في جزيرة البا .
جرونوبل
أكتوبر : الكونت دارتوا (الذي
سيصبح فيما بعد الملك (شارل العاشر)
وهو زعيم حزب اليمين المتطرف ultras
يزور مقاطعة الدوفينية
١٨١٥ : المائة يوم :
مارس : ناپوليون ينزل على شاطئ
جولف - جوان (خليج جوان)
٧ - ٩ مارس : يقيم في جرونوبل.
٢٠ مارس : يصل إلى باريس
لويس الثامن عشر يهرب في صباح
نفس اليوم .
١٨ - يونيو : واترلو

يتنازل نابوليون عن العرش للمرة الثانية.

عودة لويس الثامن عشر إلى العرش .

جرونويل

الإرهاب الأبيض يأخذ في مدينة جرونويل شكلاً مستتراً على يد مونليفو محافظ الإيزار .

١٨١٦ سبتمبر : حل الجمعية الوطنية الملكية المتطرفة النزعة - الدوق درويشوليو رئيساً للحكومة

جرونويل

مايو : مؤامرة ديبية . إعدام ١٨ متآمراً رمياً بالرصاص في ميدان جرونات

يطرد من "ليزانال" لأنه نشر تحدياً لحزب المتطرفين في "نخب الجمهورية" وهو منشور مناهض " لأصحاب القبعة أو الرداء الأسود (المتدينين المتطرفين) - كما ألغى قسم التاريخ الذي يدرسه ٢٣ ديسمبر : جان فرانسوا بلغ عامه الخامس والعشرين .

١٨١٦ الشقيقان شامبوليون تحت الإقامة الجبرية في فيجاك حيث يلتقون مرة أخرى مع والدهما وأخواتهما ويحسن "المجتمع النخبى الفيجاكى" إستقبالهما يتعرف جان فرانسوا على مدام أديل .

جاك جوزيف يقوم بمساعدة أخيه بابحاث أركيولوجيه بتقنين موقع أوكسيلودونوم الحالى - ينشط الإثنان في مجال التعليم التعاونى المتبادل طبقاً لأسلوب لانكاستر .

١٨١٧ أبريل : يسمح لجاك جوزيف بالعودة إلى باريس حيث يصبح رجل مسيو داسييه الموثوق فيه داسييه هو السكرتير الدائم لأكاديمية المخطوطات والأداب. جان فرانسوا يبقى فى فيجاك لحل بعض المشاكل العائلية - توتر مع والده - يعاود عمله الاسكتشافى فى الهيروغليفية يعاود تنقيح "قاموس وقواعد اللغة القبطية" وينشط فى مدرسة من مدارس التعليم التعاونى المتبادل .

١٨١٧ : تأسيس مدارس التعليم التعاونى فى ١٣ أكاديمية

جرونويل .

جوزف شويان درانوفيل المحافظ الجديد (ليبرالى) لمقاطعة الإيزار .

٢١ أكتوبر : يعود إلى جرونويل
حيث يحسن أصدقاؤه إستقباله .
١٨١٨ بصفته سكرتيراً خاصاً
لسيو داسيه يصبح جاك جوزيف عضواً
مراسلاً لأكاديمية المخطوطات والأدب
التي منحه جائزتها لكتابة (حوليات
اللاجيد) (البطالمة) (راجع المراجع
الكتب) .

فى جرونويل ، يشرف جان
فرانسوا وينشط فى مدرسة التعليم
المتبادل .

١٨ يونيو : يعاد جان فرانسوا إلى
وظيفته فى المكتبة .

١٩ أغسطس : يقرأ أمام أكاديمية
العلوم والفنون بحثه حول "بعض
هيروغليفيات حجر رشيد" .

٣٠ ديسمبر : يتزوج روزين بلان
فى غياب جاك جوزيف الذى لا يوافق
على هذه الزيجة .

١٨١٩ جان فرانسوا يدير
"المدرسة اللاتينية " فى هونفلور .

١٨٢٠ جاك -جوزيف يتقدم
لعضوية أكاديمية المخطوطات والأدب
ولكنه يفشل .

جان فرانسوا ينشط فى "النادى
الجمهورى للوحدة " : الشرطة تراقب
مراسلاته

سبتمبر : يشترك فى تحرير كتاب
: "أحترس" ! يحذر فيه الحكومة من
التمادى فى عمليات القمع وجان
فرانسوا يلتقى مع المحافظ نوساز فى
لقاء عاصف

١٨١٨ يحل نوكاز (معتدل) محل

ريشوليو

١٨٢٠ نوفمبر : انتصار المتطرفين

فى الانتخابات ويسيطرون على مجلس
النواب .

جرونويل

البارون نوساز يحل محل شويان
دارنوفيل كمحافظ للإيزار .

٢٣ ديسمبر : جان فرانسوا فى

الثلاثين

١٨٢١ جان فرانسوا يفقد وظيفة
استاذ التاريخ فى الليسيه .
٢٠ مارس : يشترك فى انتفاضة
الطلبة مع صديقه تبفونيه .

يونيو : يهرب من محاكمة بتهمة
الخيانة العظمى : إلا أن المحافظ دوسان
يجعل إقامته فى جرونوبل غير محتملة
ويقرر مغادرتها .

١١ يوليو : يركب العربة فى إتجاه
باريس حيث تلحق به روزين .

٢٠ يوليو : يقيم فى باريس عند
أخيه ٢٨ شارع مازارين بعد أن حرم
من جميع وظائفه . يكرس كل وقته لعملية
فك شفرة الهيروغليفيات .

٢٧ أغسطس : فى أكاديمية
المخطوطات والأدب يقرأ جان فرانسوا
- بحث عن الكتابة الهيرواطيقية يعبر
فيها عن مبدأ علاقة القرابة اللصيقة بين
الكتابات المصرية الثلاثة ، إلا أنه يبقى
متأثراً "بتخطيئى فكرة الأيدوجرافية
والرمزية "

سبتمبر :جان فرانسوا يقابل يانج
لدى مروره على باريس .

٢٣ ديسمبر بواسطة عملية
حسابية بحثة يتأكد من الجانب الصوتى
الجزئى للهيروغليفيات وهو ما

١٨٢١ ٢٠ مارس ثورة الطلبة
المناهضة للملكية فى جرونوبل .
٢٥ مارس : الانتفاضة الوطنية
لليونانيين ضد الأتراك .

٥ مايو وفاة نابوليون فى سانت
هيلان .
نوفمبر : فيلان يحل مكان
ريشوليو .

كان قد إقترحه عام ١٨١٠ - نشر كتابه
عن "الكتابة الهيروغليفية لقدماء
المصريين" فى جرونوبل (راجع كشف
مؤلفاته)

١٨٢٢ - ٢٢ يناير : يحصل جان
فرانسوا على نسخة - مرفوعة من مسلة
فيلة - لخرطوش لكيبواترا وبمقارنته
بخرطوش بطليموس - حيث
الهيروغليفيات لها ذات المداليل الصوتية
- يتوصل إلى العناصر الأولية لأبجدية
هيروغليفية. نشر مؤلفه : عن المسلة
المصرية فى فيلة (راجع كشف
المؤلفات).

أغسطس : جان فرانسوا يقرأ فى
الأكاديمية بحثه عن الكتابة
الديموطيقية .

١٤ سبتمبر : يلاحظ جان فرانسوا
أن خراطيش رمسيس وتحتمس التى
نسخها هيبو من معبد أبو سمبل تحتوى
فى ذات الوقت على رموز أيديوجرافية
ورموز صوتية ويتمكن من حل شفرتها
ويخترق كالبرق سر طبيعة الكتابة
المصرية التى ترسم (تارة الأفكار وتارة
أخرى أصوات اللغة) ويهرع إلى منزل
أخيه: الموضوع فى حوزتى " وضعت
يدى على الموضوع " .
ثم يغمى عليه .

١٨٢٢ مونسينيور لوفريسينوس
رئيساً للجامعة.
قانون الصحافة- عودة الرقابة .

١٤ - ٢٢ سبتمبر : يكتب جان فرانسوا مع جاك جوزيف البحث الخاص لهذا الاكتشاف - ويطلق عليه عنوان "رسالة إلى مسيو داسيه" .
٢٧ سبتمبر يقرأ البحث أمام أكاديمية المخطوطات والآداب المجتمعمة فى جلسه تاريخية .

١٨٢٣ يناير : المكتشف يقابل الدوق دوبلاكاس نولب أول أمراء الملك الذى يضعه تحت رعايته ويعد بضعة أيام يقدم له بلاكاس علبة من الذهب هدية من الملك لويس الثامن عشر تقديراً لاكتشافه .

٢٦ أبريل : الدوق لويس فيليب دورليان يحى اكتشافه فى الجمعية الآسيوية . يقدم جان فرانسوا أيضاً بالتعاون مع صديقه الرسام وعالم الآثار ل.ج.ح دويوا كتاباً مصوراً عن الميثولوجيا المصرية والذى سينشر تحت اسم "الپانتيون المصرى" (راجع كشف المؤلفات) .

١٨٢٤ ينشر صاحب الكشف كتابه المختصر فى المنظومة الهيروغليفية للمصريين القدماء أو البحث .. ألخ وهو يعتبر مسودة لكتاب القواعد (راجع كشف المؤلفات) .

- البلاط الملكى فى تورينو يشتري مجموعة نورفيتى :يزود بلاكاس جان

١٨٢٤ ، ٩ سبتمبر وفاة لويس الثامن عشر يتولى العرش بعده أخوه شارل العاشر .
حرب تحرير اليونان بمساندة أنجلترا وفرنسا .

فرانسوا بالمال اللازم لكي يذهب
لدراستها في موقعها الجديد .
منتصف مايو : جان فرانسوا
يسافر إلى إيطاليا مروراً بجرنوويل -
يتعرف في فيف على ابنته زورايد التي
ولدت في الأول من مارس .

٧ يونيو : يصل إلى تورنيو
٩ يونيو : يدخل (الدروفيتيانا)
حيث تنتزع منه المجموعة الأثرية هذه
الصرخة " إنه شيء مذهش "
توحى إليه دراساته المنظمة
والدقيقة للأثار والبرديات التي تتضمنها
المجموعة برسالتين إلى السيد الدوق
"دوبلاكاس " الأولى في ١٨٢٤ والأخرى
في ١٨٢٦ (راجع كشف المؤلفات) .
دراسة البرديات الجنائزية
والمخطوطات المهلهلة تسمح له بإعادة
تجميع قانون ملكي صادر قبل الأسرة
الثامنة عشر وبالقائه الضوء على الأرقام
العديدة التي استخدمها المصريون
نوفمبر : جاك جوزيف يتقدم
لعضوية أكاديمية المخطوطات لثاني مرة
نون جدوى .

١٨٢٥ مارس جان فرانسوا يغادر
تورنيو لرحلة عبره إيطاليا تدوم أربعة
شهور .

١١ مارس روما زيارة سياحية
(المدينة الأبدية) .

١٨٢٥ ، ٢٩ مايو تنويج شارل
العاشر في مدينة رانس .

٢٠ مارس : بلاكاس يستقبله في نابولي حيث أصبح سفيراً لفرنسا- زيارة يومية ويايستوم .
٢٢ أبريل : بعد عودته إلى روما يكلف بعمل كتالوج بريديات مكتبة القاتيكان .

١٥ يونيو : يستقبله البابا ليون الثاني عشر .

١٧ يونيو : فلورنسا : بناءً على طلب الجران لوق (عاهل فلورنسا) يدرس مجموعة نيتزولي .

بداية يوليو : ليفورن . زيارة مجموعة سولت التي يود أن تقتنيها فرنسا . بعد إقامة جديدة في تورينو يعود جان فرانسوا إلى جرونوبل .

١٥ نوفمبر : يلتقى من جديد بأخيه وبأسرته .

١٨٢٦ فبراير : الملك يكلف جان فرانسوا بتقدير قيمة مجموعة سولت ويمنح مبلغ خمسة آلاف فرنكاً للمصاريف الخاصة بالمهمة يعود جان فرانسوا عبور جبال الألب من جديد ويصل إلى ليفورن حيث يتعرف على إيبوليتو روسيليني الاستاذ الشاب القادم من بيرزا الذي يصبح من تلاميذه .
٢ أبريل : أثناء إجتماع عام لأكاديمية ليفورن ، ترتجل الشاعرة انجيليكا باللي قصيدة تمتدحه فيها ويقع جان فرانسوا في حبها .

١٨٢٦ ، ٢٣ إبريل الأتراك
سيتاوان على ميسولونجي .

١٤ مايو جان فرانسوا يعين
محافظاً للمتحف المصرى فى اللوفر
١٦ يوليو يلتقى لثانى مرة مع أنجيليكا
فى الاحتفالات الضخمة "لومينارات" فى
بيزا وبعدها يسافر جان فرانسوا
بصحبة روسيليني إلى فلورنسا وروما
ونابولى حيث يرسم مع بلاكاس خطة
لحملة علمية أوروبية إلى مصر .

٢١ سبتمبر : لدى عودته إلى
ليقورن يقابل أنجيليكا للمرة الأخيرة
أرسل لها ٣٠ خطاباً تحت أسماء
مستعارة من "زيد إلى زيلمير" فى الفترة
من ١٨٢٦ حتى ١٨٢٩ يعود إلى فرنسا
عبر البندقية

جرونويل : أزمة نقرس حادة .
٣٠ أكتوبر : يسافر إلى باريس مع
زوجته وابنته .

٤ نوفمبر فى باريس يقطن جان
فرانسوا مع روزين وأخيه فى شقة
جديدة ١٩ شارع مازارين حيث تلحق
بهم زوييه وأسرة جرونويل الصغيرة .

نوفمبر - ديسمبر : يستلم
مجموعة سولت التى وصلت ميناء الهاثر
عبر نهر السين - بمساعدة نوبوا يقوم
بتجهيز متحفه - أفكاره التجديدية
تتسبب فى خلافات مع الكونت
دوفوربان مدير متاحف فرنسا

ديسمبر : روسيليني يلحق بجان
فرانسوا فى باريس .

١٨٢٧ فبراير : يتقدم جان
فرانسوا للمرة الأولى دون أن يصيب
النجاح لعضوية أكاديمية المخطوطات
والآداب.

يوليو أغسطس تم تقديم مذكرة
بمشروع حملة إلى مصر تجمع فرنسين
وتوسكانيين مع شامبليون وروسيليني
إلى الجران - لوق عاهل توسكانيا الذى
يوافق عليها .

نهاية أكتوبر : وفاة سولت .

٣٠ أكتوبر : زواج روسيليني
بزينوبيا شيرويينى ابنة الموسيقار
شيرويينى. جان فرانسوا يشهد على
الزواج من طرف العريس .
نوفمبر - ديسمبر : فتح وإفتتاح
المتحف المصرى فى اللوقر حاملاً اسم
متحف شارل العاشر .

١٨٢٨ أبريل : بمساندة مارتيناك
رئيس الحكومة الجديد يوافق الملك على
مشروع الحملة الفرنسية التوسكانية إلى
مصر .

١٦ يوليو : شامبليون يغادر
باريس بصحبة سالفاتور شيرويينى -
توقف فى ليون عند الصديق أرتوفى
أكس عند سالييه

٢٤ يوليو، لقاء الحملة: الفرنسيون:
شارل لونورمان المهندس المعماري

١٨٢٨ هزيمة فيلال فى الانتخابات
يحل مارتيناك (ليبرالى) محله.
القوات المصرية تجلوا عن المورة

أتطوان بيبان ، الرسامون لوت ،
الكساندر دوشان بيرتان الإبن، لوهو .
التوسكانيون : إيبوليتو وجاتينانو
روسيليني ، إيساندروريتشى ، طبيب
وعالم آثار، جيوسيبى إنجيللى رسام ،
جـ ، راضى عالم طبيعة ومساعدته
جالسترى .

٣١ يوليو : الحملة تصعد إلى
الإيجلى السفينة : "

١٨ أغسطس : فى الإسكندرية
شامبوليون ورفاقه يقابلون القنصل
دروفتى الذى كان فى استقبالهم .
زيارة "مسلات كيوپاترا"
٢٤ أغسطس : محمد على باشا
يستقبل شامبوليون .

١٤ سبتمبر تبحر الحملة على متن
المعاش "إيزيس" والذهبية "أثير" إلى
القاهرة.

٢٠ سبتمبر الوصول إلى القاهرة
إحتفال بالمولد النبوى .

١ - ٨ أكتوبر ممفيس تمثال
رمسيس الثانى الضخم - سقارة .
٨ أكتوبر : جيزة أبو الهول ،
الأهرام .

١٨ أكتوبر : يرفع الأسطول
الصغير الهلب ويبحر إلى صعيد مصر
- بيان تترك الحملة .

٢٣ أكتوبر ٦ - نوفمبر : بنى حسن
: محصول ضخ من الرسومات .
١٦ نوفمبر لندره .

١٩ - ٢٦ نوفمبر : طيبة (" كنت
أعدو من روعة إلى روعة أخرى ")
رامسيوم الأقصر وبها المسلتان من
الجرانيت الأحمر ، الكرنك وبهو الأعمدة
٢٦ نوفمبر - ٤ ديسمبر :
هيرومونيس إسنا - إدفو - كوم أمبوم
(أمبوس) .

٤ ديسمبر : أسوان : الشلال
الأول إنتقال الحملة إلى مراكب أقل
وزناً .

٥ ديسمبر : فيلة . أزمة نقرس
حادثة تجعل شامبوليون يطلب حمله إلى
المعبد ١٦ - ٢٦ ديسمبر : ديبود ،
كلايشة ، دكا ، أمادا .

٢٦ ديسمبر : أبو سمبل : قدس
أقداس المعبد فى درجة حرارة ٥٢
مئوية .

٢٨ ديسمبر : إلى وادى حلفا :
الفرنسيون والتوسكانيون يتنازعون على
ملكية " لوحة الخلف " .

٣١ ديسمبر : الرحالة يحتفلون
برأس السنة عند الشلال الثانى :
شامبوليون يكتب لداسييه " من حقى أن
أعلن لكم أنه لا يوجد أى تعديل يجب
إدخاله على خطابنا الخاص بالأبجدية
الهيروغليفية أن أبجديتنا سليمة "

١٨٢٩ أغسطس : إقالة مارتيناك.
بوليناك (متطرف) يعين رئيساً للحكومة
- المعارضة تتور في الصحف .

١٨٢٩ أول يناير : وداع لونيومان
الذى يعود لفرنسا الأسطول يغير
إتجاهه العمل العلمى يبدأ .

٣ - ١٦ يناير : أبو سمبل: رسم
الحائطيات المنحوتة فى المعبد الكبير
١٦ - ٣١ يناير (ديري أمادا ،
كلايشة حيث يكتشف شامبوليون "جيلا
آخر من الآلهة" .

٢ - ٧ فبراير : فيلة "اليفانتين"
٧ فبراير - ٨ مارس : كوم أمبو
، إدفو ، إسنا ، طيبة .
مارس - سبتمبر : الإقامة فى
طيبة

٨ - ٢٣ مارس : الضفة الشرقية
الأقصر ومسلتاها ، يحدد شامبوليون
تلك التى يود يراها منصوبة فى
باريس .

٢٣ مارس : الحملة تعبر إلى
الضفة الغربية للنهر وتقيم قيادتها فى
الجرنة - الحفريات غير مجدية الباتة
أبريل - مايو - شامبوليون يحتفل
بعيد ميلاد أبنته (المولودة فى أول
مارس ١٨٢٤) داخل مقبرة سيسى
الأول.

بيان الملوك (وادي الملوك) دراسة
الأشكال والمخطوطات فى المقابر -
يعسكر أعضاء الحملة داخل مقبرة
رمسيس الرابع - شامبوليون بنسخ
ليلاً ونهاراً ، الرحلة النهريّة التى

قام بها رمسيس السادس
والمرسوم فى مقبرته .

يونيو - يوليو - الرامسيوم ،
تمثالاً ممنون ، معبد وأطلال مدينة حابو
- أحداث وتوترات داخل الفريق المرهق
- دوشان يرحل إلى فرنسا ريتشى
يلدغه عقرب .

أول أغسطس : عودة إلى الضفة
الشرقية لدراسة الكرنك .

٤ سبتمبر الحملة التوسكانية
الفرنسية تغادر طيبة . جان فرانسوا
يعلم بوفاة يانج (١٥ مايو ١٨٢٩) وهو
فى الطريق كما يبلغ بفشله الثانى فى
أكاديمية المخطوطات والآداب .

١٥ سبتمبر: القاهرة زيارة
إبراهيم باشا ابن محمد على .

٢٠ سبتمبر: إسكندرية ميمو خليفة
دروفتى يستقبل شامبوليون .

٧ أكتوبر يرحل التوسكانيون إلى
ليفورن

أكتوبر - نوفمبر مقابلات مع
محمد على . شامبوليون - يكتب له
مذكرة من أجل الحفاظ على آثار وادى
النيل .

٦ ديسمبر : شامبوليون
وشيرويني يبحران إلى فرنسا على متن
"الاسترولاب" - شامبوليون يحمل معه
أكثر من مائة قطعة من أجل متحف
اللوفر (منها تابوت تاهو وحائطية
سيتى الأول من النحت البارز) وللملكة
كاروماما ، الخ) .

٢٣ ديسمبر : "الاسترولاب" فى ميناء هيار .

٢٤ ديسمبر - ٢٣ يناير ١٨٣٠ ،
شامبوليون وشروينى فى الحجر
الصحى فى طولون .

١٨٣٠ ٢٤ يناير : نهاية الحجر
الصحى - مقابلة دروڤيتى .

٢٦ يناير العودة إلى باريس مروراً
بالجنوب الغربى (ياله من شتاء رهيب)
إنى اتألم منه جداً) (مارسيليا - أكس)
حيث إستقبله ساليه ويشاهد مرة أخرى
بردية سيزوستريس - مونپوليه -
ناريون، كاركاسون وبوردو تولوز حيث
يلتقى من جديد بمدام أديل يرى أخواته
فى فيلفرانش .

٤ مارس عودة : شامبوليون إلى
باريس يقطن مع زوجته وابنته فى شقة
جديدة ٤ شارع فافار يعود لوظيفته
محافظةً للمتحف المصرى فى اللوفر .

٧ مايو ، يتقدم للمرة الثالثة
وينتخب فى أكاديمية المخطوطات
والآداب .

١٥ مايو زيارة أخيرة لغورييه الذى
توفى فى اليوم التالى .

٢٧ - ٢٩ يوليو شامبوليون بقلبه
مع المتمردين ولكن متحفه الذى جرى
إقتحامه فى عملية الإستيلاء على اللوفر
تحدث فيه عدة عمليات سلب ونهب .

١٨٣٠ ، ٥ يوليو الإستيلاء على
مدينة الجزائر

٢٧ - ٢٩ يوليو : ثورة يوليو "
الثلاثة أيام المجيدة" .

٣١ يوليو : تنازل شارل العاشر
عن العرش

٧ أغسطس : لويس فيليب دوق
نورليان يصبح ملك الفرنسيين .

ديسمبر محاكمة وزراء شارل
العاشر (بولينياك) فى عهدة وزارة
لافت .

٦ أكتوبر رسالة من روسيليني
تحثه على الإسراع فى نشر أعمال
اللجنة الفرنسية التوسكانية التى يود
الجران نون بشوق رؤيتها منشورة إلا
أن شامبوليون يعطى أولوية للإنتهاء من
كتاب "القواعد".

١٨٣١

١٢ مارس : الملك لويس فيليب
يؤسس من أجل شامبوليون قسم
(كرسى) للآثار المصرية فى الكولاج دو
فرانس

١٨٣١ - ١٣ مارس : وزارة

كازيمير بيريه

١٠ مايو : شامبوليون يفتتح
سلسلة محاضراته .

٢٣ ، ٢٦ مايو يلقى محاضرتين
فى الكولاج دو فرانس .

نهاية مايو : روسيليني يصل إلى
باريس ليحدد مع شامبوليون كيفية
التشر المشترك لكتاب "أثار مصر
والنوبة" ولكن ستظهر بعد وفاة
شامبوليون طبعتان منفصلتان فرنسية
وإيطالية .

أغسطس : شامبوليون يسافر إلى
فيجاك ليسترد صحته إلى جوار
شقيقاته يرى مدام أديل ويعمل فى كتاب
"القواعد".

نوفمبر : العودة إلى باريس .

٥ ديسمبر شامبوليون يعود إلى
إلقاء محاضراته فى الكولاج دو فرانس .

١٢ ديسمبر : لم يتكمن من
الإنتهاء من إلقاء محاضراته - لن يعود
أبدأ إلى الكولاج دوفرانس .

١٨٣٢ يناير : لم يعد شامبوليون
يترك غرفته فى شارع فافار - معاونوه
وأصدقائه يأتون لزيارته كثيراً .

٤ يناير روسيليني يؤكد له فى
رسالة ولائه له الذى لا يهتز .

١٢ يناير أثناء لقاء مع بيو ، يقع
صاحب الكشف نصف مشلول
سيستعيد بعضا من صحته للعمل مع
أخيه فى تنقيح كتاب "قواعد اللغة
المصرية" وهى بمثابة "بطاقة زيارة
يتركها للأجيال التالية" التى سينشرها
شامبوليون فيجاك مع "قاموسه" بعد
وفاته.

نهاية فبراير : يدخل شامبوليون
مرة جديدة فى شبه - كوما يطلب من
أخيه أن يدفن فى مقابر الأب لاشاز
فوربيه .

٣ مارس : يحصل على المسح
بالذيت المقدس الأخير .

٤ مارس : يتوفى فى الفجر .

١٨٣٢ مارس ، ويا الكوليرا يصل
إلى باريس وفاة كازمير بيريه .

المؤلفات

أهم أعمال شامبوليون الصغير

لا نذكر هنا لا الدراسات ولا المقالات التي كتبها شامبوليون في المجازان انسيكلوبيديك ، البواتان (وفيروساك) (نشرة الفيروساك) ولا ليزانال دوليزار (جوليات مقاطعة الإيزار) والدوريات الأخرى ولا مقدماته وكتاباتة الصغيرة ولا كتاباته السياسية . يمكن الرجوع إلى قائمة مؤلفات صاحب الكشف الكاملة المنشورة في النسخة الألمانية لسيرته التي كتبها هارتلويان (برلين ١٩٠٦) ، كما توجد سيرة أخرى ألفها سيمور نوريتشى ظهرت في Recueil Champollion (باريس شامبليون ١٩٢٢) .

* "خطبة إفتتاح دروس التاريخ أمام أكاديمية جرونويل" ، جرونويل بيرونار ، ١٨١٠ ، قطع كوارتو .

* "مقدمة (نشر منفصل) لمصر في عهد الفراعنة" ، قطع ثمانى أوكتافو - ١٧ صفحة ، جرونويل ، ح - ب بيرونار ، ١٨١١ ، ٦٧ صفحة .

* مصر في عهد الفراعنة أو بحث في الجغرافيا والدين واللغة والكتابات وتاريخ مصر قبل غزو قمبيز وصف جغرافى ، باريس نوبور يوليو ١٨١٤ ، جزئان ٣٦ + ٣٧٩ و ٤٣٧ صفحة وخريطة .

* "عن الكتابة الهيرواطبقية عند قدماء المصريين" ، جرونويل ، الأخوة باراتيه ١٨٢١ ، قطع كبير ٧ صفحات و٧ لوح بالليتوجرافيا .

* "رسائل إلى السيد محرر الروفو انسيكلوبيديك حول خريطة أبراج (زودياك) دندره" في الروفو انسيكلوبيديك الجزء الخامس عشر ، ١٨٢٢ ، ص ٢٣٢ - ٢٣٩ - ثم نشر منفصلاً في باريس لانوا ، ١٨٢٢ ، وكتافو ٨ ص .

* "رسالة إلى مسيو داسيه ، السكرتير الدائم للأكاديمية الملكية للمخطوطات والأداب خاصة بأبجدية الهيروغليفيات الصوتية التي استخدمها المصريون لكتابة الأسماء وكتابات الملوك الأفرقي والرومان" باريس ، ديبو (أكتوبر) ١٨٢٢ ، أوكتافو ٥٢ ص ٤ لوح الليثوغرافيات .

* "البانتيون المصري" ، مجموعة الشخصيات الاسطورية (الميثولوجية) لمصر القديمة كما جاءت فى الآثار مع نص بالشرح السيد ج - ف - شامبوليون الصغير والصور من رسم ل.ج.ح. دوبوا "باريس" ، ديدو ، ١٨٢٣ ، ١٨٢٥ ، ١٥٠ دفعة ، كوارتوا "ملخص المنظومة الهيروغليفية لقدماء المصريين أو أبحاث فى العناصر الأولية لهذه الكتابة المقدسة وفى تشكيلاتها المختلفة وعلى علاقات هذه المنظومة وأنظمة الكتابة المصرية الأخرى" وبالإضافة إلى مجلد اللوح باريس ١٨٢٤ ، تروتال ووتر .

"ملخص المنظومة الهيروغليفية ..." الطبعة الثانية نقحها المؤلف أضاف إليها رسالة إلى مسيو داسييه عن الأبجدية الهيروغليفية الصوتية التى استخدمها المصريون على معابدهم الراجعة إلى العصر الإغريقى والعصر الرومانى " باريس ، المطبعة الملكية ١٨٢٨ ، مجلدان أو كتافو ٢٤ ص - مقدمة ٤٦٨ ، ٤٨ ص و ٥٢ لوحة رسم بالليثوغرافيا .

* "رسائل إلى السيد الدوق دوبلاكاس نوليس من المتحف الملكى المصرى فى تورينو الرسالة الأولى ، الآثار التاريخية" ، باريس ديبو ١٨٢٤ ، أوكتافو ١٠٩ ص ، ولوح ٣٠

* رسائل إلى السيد الدوق دوبلاكاس نوليس .. الرسالة الثانية تابع الآثار التاريخية"باريس ديدو ١٨٢٦ أوكتافو ١٦٧ ص ، ولوح ٤ - ٨ و ٨ مكرر ، ٩ - ١٥ .

* "رسائل إلى السيد الدوق دوبلاكاس عن المنظومة الهيروغليفية الجديدة للسيد سبوهن وسيفارت" ، فلورنسا ، ح - بياتى ١٨٢٦ أوكتافو ٢٣ ص طبعه مستقلة ، باريس فإن ١٨٢٦ أوكتافو ٢٣ ص .

* "مذكرة وصفة للآثار المصرية فى متحف شارل العاشر القسم الثانى" ، باريس، كرابوليه ، ١٨٢٧ ، قطع ١٢ ، ٨ + ١٦٦ ص .

أعمال نشرت بعد وفاته على يد أخيه

* "رسائل من مصر والنوبة عامى ١٨٢٨ و ١٨٢٩" باريس ، فيرمان ديدو ١٨٣٣ ، أوكتافو ١٦ + ٤٧٢ ص و ٧ لوج بالليثوغرافيا .

* "رسائل من مصر والنوبة عامى ١٨٢٨ و ١٨٢٩" طبعة جديدة لديديه ، ١٨٦٨ ، أوكتافو ٢ + ٣٩٧ ، ٣ لوح وخريطة واحدة (طبعة نشرت تحت إشراف إبنته زورابيا

شيرونيه - شامبوليون) "أثار مصر والنوبة منقولة عن الرسومات التي تمت على الطبيعة تحت إشراف شامبوليون الصغير والأوصاف المحررة بيده عليها"، باريس فيرمان ديدو ١٨٣٥ - ١٨٤٥ ، ٤ مجلدات قطع كامل ٥٠٧ لوحة .

* "قواعد اللغة المصرية أو المبادئ العامة للغة المقدسة المصرية مطبقة على لغة الحديث" .. نشرت عن المخطوط اليدوي بأمر من مسيو جيزو وزير التعليم العام وباريس ، فيرمان - ديدو ١٨٣٦ قطع كامل ٨ ، ٢٢ + ٥٥٥ ص .

* "القاموس المصري بالخط الهيروغليفي ينشرها من المخطوطات بيد المؤلف وتحت رعاية مسيو فيلومان ، شقيقه مسيو شامبوليون فيجاك" ، باريس ، فيرمان ديدو ، ١٨٤١ ، فوليو ، ٣٦ + ٤٨٧ ص بخط اليد .

طبغات وإعادة طبغات أخرى

* "رسائل شامبوليون الصغير جمعتها وعلقت عليها هـ هارتلويان" مكتبة المصريات : نشرت تحت إدارة حـ ، ماسبيرو

- المجلد ١ : "رسائل مكتوبة من إيطاليا ، باريس لورو ١٩٠٩ ، أوكتافو ٩ + ٤٤٥ ص وصور شخصية .

- المجلد ٢ : رسائل ويومييات حررت خلال الرحلة إلى مصر" ، باريس لورو ، ١٩٠٩ أوكتافو ٧ + ٤٩٠ ص صورتان .

* "رسائل شامبوليون الصغير جمعتها وعلقت عليها هـ هارتلويان إعادة طبع س بورجوا (١٩٨٦) .

* "جان فرانسوا شامبوليون" ، "رسائل إلى زليو" قدمت لها إيداً بريشيانى ، أسنائة بجامعة بيزا ، مقدمة لجان لوكلان عضو الانسيستو ، الناشر لازياتاك ، لم تنشر من قبل باريس ١٩٧٨ .

* جان فرانسوا شامبوليون ، "رسائل إلى أخيه ١٨٠٤ - ١٨١٨" تقديم ب. فابان، مقدمة جان لوكلان ، عضو الانستيو الناشر لازياتاك لم تنشر قبل ١٩٨٤ .

* "قواعد اللغة المصرية" .. إعادة طبع ، صورة طبق الأصل من الطبعة الأصلية الصادرة عام ١٨٣٦ ، معهد الشرق (ميشيل سيدهم) مقدمة كريستيان زيغلار باريس، ١٩٨٤ .

* "الباتيون المصرى" إعادة طبع صورة طبق الأصل للطبعة ١٨٢٤ / ١٨٢٥
الأصلية الناشر باريسيا ، باريس ١٩٨٦ .

المخطوطات

أوراق العمل والمخطوطات اليدوية ورسومات جان فرانسوا شامبوليون التى إقتنتها الدولة بعد وفاته محفوظة فى قسم المحفوظات بالمكتبة الوطنية . هذه المستندات جمعت فى ٨٨ مجلداً مرقمة من ٢٠,٣٠٣ حتى ٢٠,٣٩٠ تشتمل على المخطوطات اليدوية للجزء الأكبر من أعماله المنشورة والتى لم تنشر بعد "أوراقه الخاصة بحل شفره المنظومة الهيروغليفية ودراسة الطرق الثلاثة للكتابة المصرية وأعماله عن تاريخ المصريين وحياتهم المدنية اليومية ومبانيهم ، وديانتهم (پانتيون) دراساته عن المتحف المصرى فى تورينو) رسائل إلى الدوق (الدويلاكاس) ومذكراته ويوميات رحلته إلى مصر أعماله الخارجة عن نطاق مصر- إلخ .. جزء آخر من مراسلاته محفوظ فى قسم المخطوطات بالمكتبة الوطنية تحت أرقام مختلفة .

من جهة أخرى فإن الرسائل العديدة جداً التى أرسلها لأخيه منذ طفولته حتى وفاته بقت لدى أسرة هذا الأخير. هذه الرسائل تعتبر المصدر الرئيسى للمعلومات المتاحة عن حياته وأعمال ومعارك والرحلات إلى إيطاليا ومصر لصاحب اكتشاف أسرار الهيروغليفية وهى كلها مدموجة- مع كميات من المذكرات والمحفوظات والأوراق التى لم يسبق نشرها ورسومات طراحية- فى الأربع وستين مجلداً التى يتكون منها الأرشيف العائلى التى يحتفظ به فى دارهم فى فيف بالقرب من جرونوبل. الأحفاد الحاليون لشامبوليون فيچاك مسيو ومدام شاتومينوا وقد أودعت صور ميكروفيلمية لهذه المستندات فى المكتبة البلدية للدراسات التابعة لمدينة جرونوبل .

أعمال شامبوليون فيچاك الخاصة بمصر

رسالة عن مخطوط يونانى فى معبد دندره إلى مسيو فوربيه محافظ الإيزار جرونوبل ، بيرواز ، ١٨٠٦ أو كتافو ١٨ ص + لوحة .

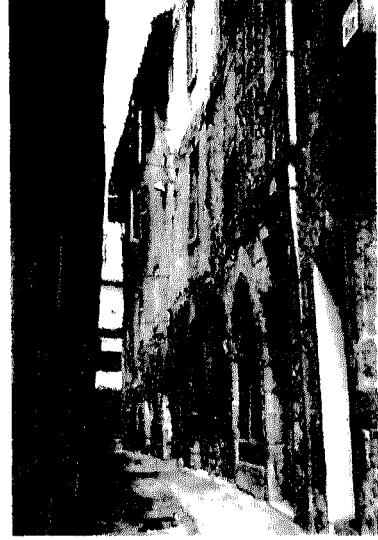
* "حوليات اللاجيد" (البطالسة) أو "المسلسل التاريخى لملوك مصر الإغريقية خلفاء الإسكندر الأكبر" ، باريس فانديج ، ١٨١٩ مجلدان أو كتافو مع لوح ، ووت

الليشاين (حصل على جائزة لانستيتو ١٨١٨) .

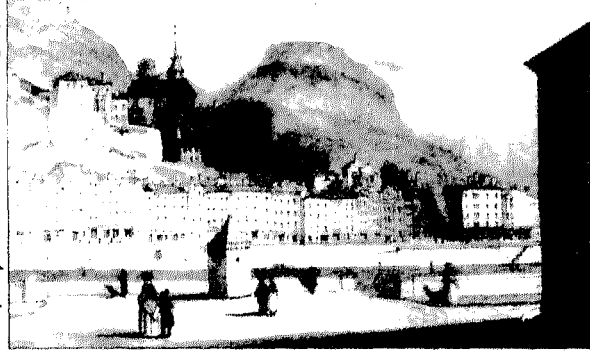
* سلسلة الأقصر المنقولة إلى باريس مذكرة تاريخية وصفية وأثرية عن الأثر"
بقلم شامبوليون فيجاك ، مع رسم للمسلة وتفسير للمخطوطات الهيروغليفية كما
رسمها وطبقاً للمذكرات المكتوبة بخط يد شامبوليون الصغير" ، باريس دينو ، ١٨٣٣
أوكتافو ، ٩ + ٩٢ ص ولوختان مصر القديمة ، باريس ، دينو ، ١٨٢٩ ، أوكتاتو ٥٠٠
ص مجموعة العالم المصور .

* "فورييه ونابوليون : مصر والمائة يوم ، مذكرات ومستندات لم يصبق نشرها"
باريس ، دينو ، ١٨٤٤ ، أوكتافو مع لوحة واحدة و ٣٧١ ص .

أخ وأستاذ وأب : جاك جوزيف
شامبوليون - فيچاك فى بداية القرن
التاسع عشر عندما كان موجهاً لأخيه .



إلى أعلى (يمين) المنزل الذى
ولد فيه جان-فرانسوا وحارة
لابوبوسكورى فى مدينة فيچاك .



جنونويل فى القرن التاسع
عشر - مشهد من شاطئ الإيزار .

منزل الأسرة فى فيف عند سفح
جبل بالدون، كان ضمن "بوطة"
زوييه عند زواجها بجاك جوزيف
شامبوليون - فيچاك .



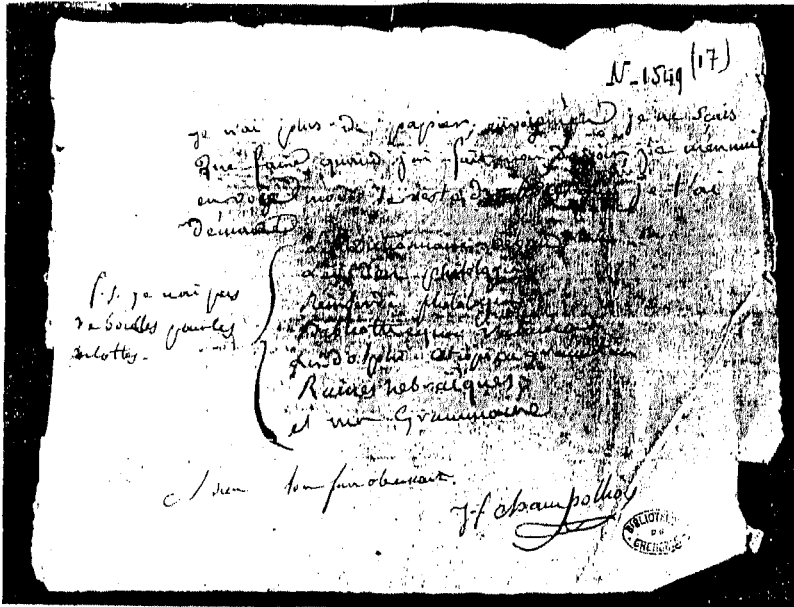


رسم كروكي بيد التلميذ جان-فرانسوا
(لعله كان لأحد مدرسيه).



شغب "يوم التويلوري" أمام مدرسة الآباء
الميسوعيين (الهيوزيت) التي ستتحول
إلى المدرسة المركزية ، الليسيه
الامبريالي ، الذي التحق به جان
فرانسوا في نوفمبر ١٨٠٤ - وهو الآن
ليسيه - ستاندال .

خطاب من التلميذ جان - فرانسوا
لشقيقه جاك جوزيف يطالبه فيه
بتموين من الورق وذاير لسراويله وكتاب
قواعد عبرية وكتابة "القواعد"



اللجنة العلمية التي أرسلها
بونابارت إلى صعيد مصر في
حشد كبير وبإلى العسكري .



جوزيف فورييه من علماء الفيزياء
المشهورين رفيق بونابارت في مصر ،
صاحب مقدمة كتاب "وصف مصر"
محافظ مقاطعة الإيزار وصديق الشقيقين
شامبوليون - وكثيراً ما كان واحداً من
الذين شملوهما بالرعاية .



صفحة غلاف كتاب "وصف مصر"
بينه الرسم أن الحملة كانت عسكرية قبل
أن تكون علمية -

أنم جومار - عالم الجغرافيا - المستول
عن إصدار كتاب "وصف مصر" . إنه لم
يتقبل قط أن يكون جان - فرانسوا
شامبوليون متفوقاً عليه .





ناپوليون ، بعد هروبه من جزيرة إلبا يعلن في مدينة جرونوبل الإمبراطورية الجديدة في حضور أفراد الشعب ومنهم الشقيقان شامبوليون.



البارون نوسان محافظ مقاطعة الإيزار لدى عودة الملكية وكان مناهضاً شرساً لجان-فرانسوا شامبوليون (روسيبيرر مدينة جرونوبل) ثم أصبح وزيراً للبحرية وكُلّف بنقل مسلة الأقمصر إلى باريس .

يون-جوزيف داسييه السكرتير الدائم لأكاديمية المخطوطات والآداب ، الذي وجه له جان-فرانسوا شامبوليون "رسالته" المشهورة وكان ملهماً وراعياً





قاعة اللغات المكتبة في متحف تورينو
التي جعلت جان- فرانسوا شامبوليون
يصرخ للآخرين: إنه شيء سحري

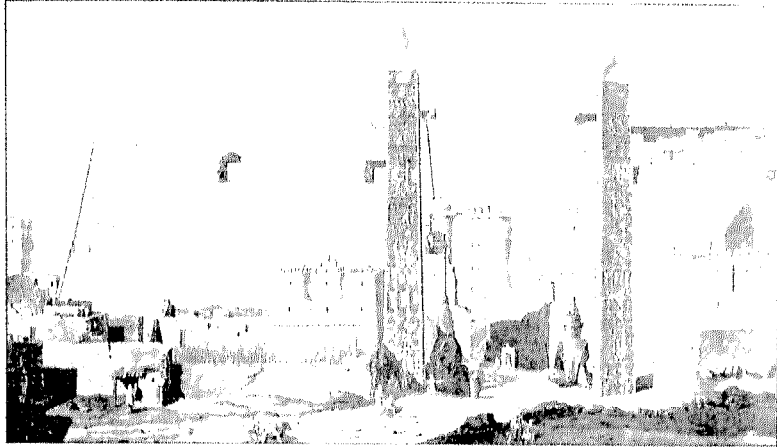
إيبوليتو روسيليني ابن مدينة بيزا
شديد جان- فرانسوا شامبوليون ورفيق
رحلته وحسينه ومعانوه .



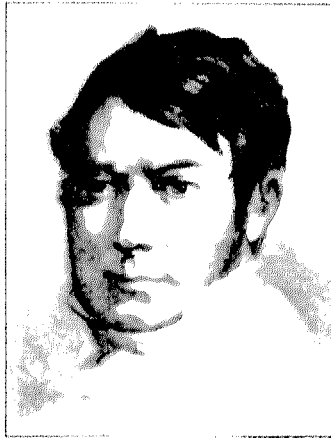
أنجليكا بالي شاعرة مدينة ليجورن التي
كان يرأسها شامبوليون وقد أحبها .
وكان حياً من جانب واحد وظهرت هذه
الرسائل في كتاب بعنوان "خطابات إلى
زولفير" .

صورة لأعضاء اللجنة الفرنسية
القومستكانية رسمها لزملائه الرسام
الإيطالي إنجيلي في مصر: شامبوليون
(جالس وهو مكتفي ويظهر السيف الذي
أهداه له محمد علي حلقاً حول وسطه)
والى يمينه يظهر روسيليني وألفا وأرسه
خارياً .

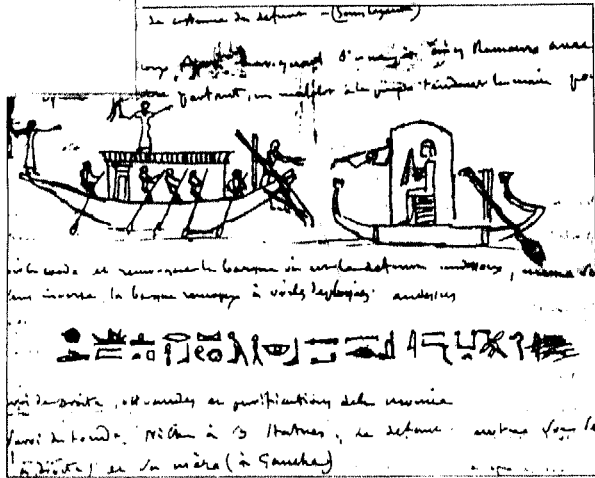




صورة مأخوذة من كتاب "وصف مصر" للمسلطان عند مدخل معبد الأقصر التي على اليمين هي التي اختارها شامبليون لكي يزين بها "أحد ميادين باريس".



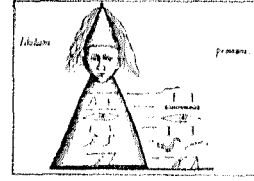
صورة لشامبليون وقد ظهرت على ملامحه آثار التجارب القاسية التي مر بها ، ولعلها رسمت له في المرحلة التي كتبت عودته من مصر (١٨٢٩) وقبل وفاته (١٨٢٢).



مذكرات ورسومات خطها صاحب الكشف خلال رحلته في مصر والتي رأس خلالها اللجنة الفرنسية التوسكانية المشتركة.



أعطى الأب أثناس كيرشار في القرن السابع عشر تفسيراً غريباً للهيروغليفيات في كتابه 'Oedipus Aegyptiacus' (١٦٥٢) إلا أنه وجه مجهودات حل الشفرة في الإتجاه الصحيح وذلك بأنه طرح الفكرة المبدئية أن اللغة القبطية هي لغة المصريين القدماء .



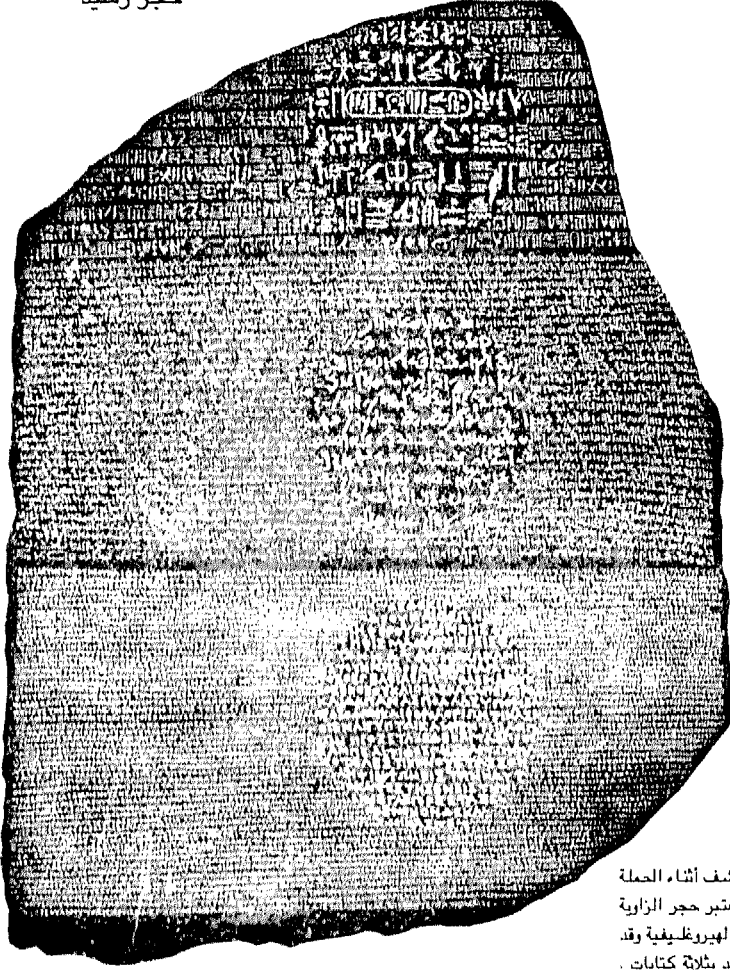
صورة منقولة عن كتاب أويديب المصري .

كان كيرشار يدرس الرسومات الهيروغليفية المحفورة على المسلات المصرية المقامة في ميادين مدينة روما وهي المسلات التي جلبها الإمبراطور الروماني أغسطس ومن خلفوه إلى روما . ظلت هذه المسلات ولفترة طويلة الأثار المصرية الوحيدة الموجودة في أوروبا وقد خصها العالم الدانماركي زويجا (١٧٥٥ - ١٨٠٩) بدراسة هامة قام شابوليون ببحثها بحثاً مستقيماً



مسلة تحوتوس الرابع المقامة في ميدان سان-جان اللاتراني في روما .

حجر رشيد



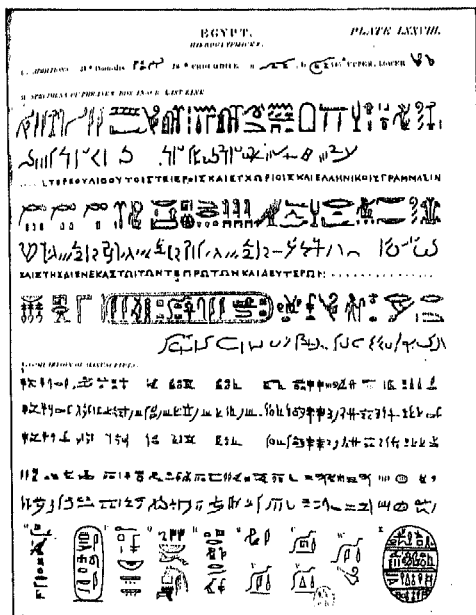
حجر رشيد الذي اكتشف أثناء الحملة الفرنسية على مصر يعتبر حجر الزاوية في عملية حل الشفرة الهيروغليفية وقد حفرت عليها (نص واحد بثلاثة كتابات : إثنان باللغة المصرية (بكتابتين مختلفتين) والكتابة الثالثة باللغة اليونانية (وهي لغة معروفة) .

إلى أعلى : النص مكتوباً بالهيروغليفية وقد فقد جزء كبير منه ، في المنتصف : النص بالكتابة الديموطيقية أو الخط الشعبي المتصل .

أسفل : النص اليوناني وفي داخل الدوائر تكبير لكل خط منهم ويمكن ملاحظة خرطوش اسم بطليموس في النص المكتوب بالهيروغليفية



توماس يانج



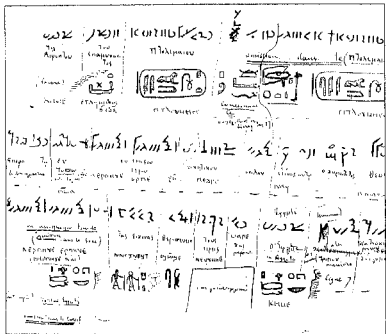
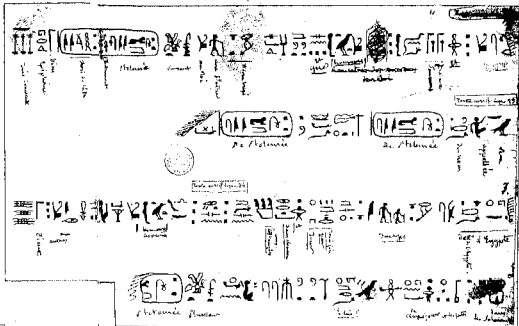
كان الإنجليزي توماس يانج (1773 - 1829) عالماً مشهوراً في علوم الطبيعة والطب وكان أعظم مناسف لاشامبوليون ، ولما كان يمارس هواية البحث في علم اللغويات في أوقات فراغه فقد أخذ يتعامل مع حجر رشيد عام 1814 ، وقد توصل بسرعة إلى نتائج مبهره وذلك باستخدامه وسائل حسابية وباللجوء إلى مقارنات مادية بين النصوص .

المقال الطويل الذي نشره يانج تحت عنوان "مصر" في "إنسكلوبيديا بريتانيكا" عام 1819 وهو يعتبر استيفاءً لأبحاثه . إستشف يانج من هذه الأبحاث وجود هيروغليفيات فونيتيكية أطلق عليها اسم "أصوات" (sounds) كما أنه أدرك تكامل المنظومة الهيروغليفية إلا أنه توقف في منتصف الطريق دون أن يتوصل إلى كشف المبدأ العام الذي تقوم عليه هذه المنظومة .

K. SOUNDS ?			
205 AEP	/4	210 KE, KH	215 π
206 AIP		211 A, AA	216 ç
207 E		212 N	217 τ
208 ENE		213 OLE	218 ω
209 I		214 OY, OC	

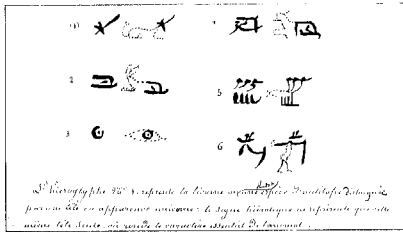


تصاحب الكشف 'عند وصوله إلى اكتشافه صورة زيتية رسمتها له عام 1987م



إلى أسفل شامبوليون أثبت في كتابه عن الفتح الهيراطيقي أن رسومات هذا الفن المتصل ليست سوى تمثيليات لرسومات الهيروغليفية.

أول خطوات شامبوليون على طريق فك الشفرة الهيروغليفية قام بها وهو بتأليف في باريس عام 1822م وكتابته على صورة خضراء خشنة سماه في ذلك اللغة الكنتية الهيروغليفية وبدأ يتساءل عن طبيعة كتابة هذه الرموز هل تعبر عن أصوات أم أفكار ، فوضع هائمان الصغرى في اللغة الكنتية ، فوجد ما كان يتوقعه من الفصحى ، فبدأ في فك الشفرة





حاول يانج وشامبوليون - كل منهما من تاحيته - إعطاء قيمة فونيتيكية (صوتية) للرسومات الهيروغليفية للخرطوش المنحوت داخل اسم بطليموس (إلى اليسار) وهو يظهر أربع مرات على حجر رشيد، أما الخرطوش الدال على اسم كليوباترا (أسفل وعلى اليمين) فقد سمح لشامبوليون أن يتأكد من سلامة القراءته وأن يضع أبجدية أولى تضم ١٧ رسماً.

YOUNG		CHAMPOLLION		P T O L M I E S	K L E O P A T R A		
P	□	P	□				
T?	△	T	△				
OLE		O					
MA		M					
IouE		I					
OS		O					

فرضيات يانج وشامبوليون

ثلاثة من الرسومات الهيروغليفية كانت لها نفس القيمة الصوتية وهي : ب ، أو ، ل في خرطوشين مختلفين

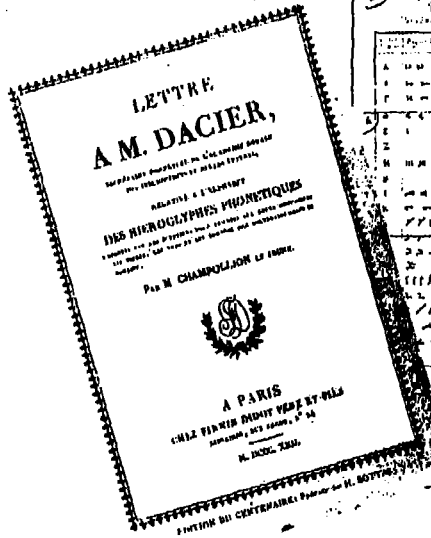


Tableau des Signes Hieroglyphiques

Signes Hieroglyphiques	Signes Phonétiques
	A
	B
	C
	D
	E
	F
	G
	H
	I
	J
	K
	L
	M
	N
	O
	P
	Q
	R
	S
	T
	U
	V
	W
	X
	Y
	Z

الخطاب إلى مسيو داسييه 'الموقع بتاريخ ٢٢ سبتمبر ١٨٢٢ - والذي تلى أمام أكاديمية المخطوطات ويعتبر الإعلان الأول عن مولد علم الدراسات المصرية القديمة أو الإيجيبتولوجيا'



خرطوش رمسيس (إلى اليسار)
وتحتوس (إلى اليمين). إن أسامي
هذين العاملين - وهما من أسرآت مالك
مصرية صميعة - وقد خُطَا
بهيروغليفيات أيديوجرافية (تعبر عن
أفكار) وفونيتية (صوتية) في آن واحد -
كشفا لشامبوليون عن طبيعة الكتابة
المصرية، أي أنها "ترسم أفكاراً تارة،
وتعبر عن أصوات لغوية تارة أخرى".



كتاب "إلى مسيو داسييه" يتعلق في
الأساس باكتشاف الهيروغليفيات
الصوتية أما المنظومة المتكاملة للكتابة
المصرية القديمة فقد أوردها شامبوليون
في طبعتي كتاب "اللمحس" (عامي
١٨٢٤، ١٨٢٨) وفي كتاب "القواعد".

	Plante du genre des Lotus.
	Paille.
	herbe, foin, fenum
	fleur
	fleur, nourriture
	Epi de blé.

	Eau
	Fontaine.
	La Mer
	source
	Sang.

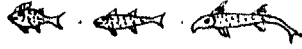
حتى يمكن تعويض الاختلاف في الشكل الإملائي وبالتالي
عدم دقته فإن المصريين كانوا يصنعون شكلاً تحديدياً
لللمحس المكتوبة فونيتيكياً (صوتياً): مثل زهرة لوتس -
يشير إلى فكرة السائل والرطوبة.

Ce même ١^o au caractère
figuratif, même dans les textes hiéroglyphes com
bien et p̄uan ou pouan Grenade; 2^o /
figuratif accompagnant le nom phonétique com
 = c̄uynin. c̄uynn. Lotus; 3^o enfin à de
par des caractères tropiques comme hierat
Onotoret Les Sources, les Sources des Plantes.

F. Divers genres de Reptiles ; (1)



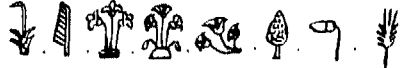
G. Quelques espèces de Poissons ; (2)



H. Des Insectes en fort petit nombre ; (3)



I. Des Végétaux des Fleurs et des Fruits.



J. Des Objets d'Habillement ou de Costume (4)



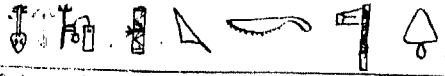
K. Différentes armes et Insignes Divers ; (5)



L. Des Vases et un grand nombre d'Ustensiles (6)

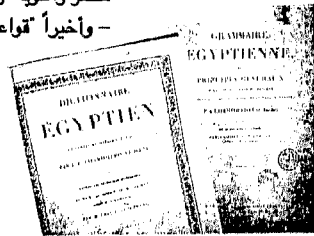


M. Les Instruments de la plupart des Arts et métiers, (7)



- (1) Le lézard, la Couceolle, la Grommille, les Centaures, la Vipera Morya, et la Caracota etc.
- (2) Le Lotus, le Aspidote, l'Hygryochus etc.
- (3) Le Scandide, la Scorpion, l'Aranta, une espèce d'abeille. etc.
- (4) Diverses ceintures, un collier, une broche, un bracelet, etc. etc.
- (5) une Trompe, un Collier, un dit fusil, un arc, une flèche, un trait de scapular.
- (6) trois sortes de Vases, un Vase à bruler l'encens, un bassin, une Corbeille, une natte.
- (7) un Chénou, les instruments pour écrire, un rouleau de papier, un couteau, une Scie, une hache, etc. etc.

چاك جوزيف شامبليون - فيچاك - وقد
عاش لسنوات عديدة بعد وفاة شقيقه
الأصغر. تولى نشر أعماله التي لم
تمهله المنية نشرها وهي: كتاب "أثار
مصر والنوبة" وكتابه "القاموس المصري"
- وأخيراً "قواعد اللغة المصرية"



صفحة

فهرس

7	تقديم « ذاب فى حب مصر »
13	تمهيد: وميض هائل من نور صامت
53	١ - الحياة فى فيچاك فى عهد الثورة
79	٢ - أخ ، أم أستاذ ، أم أب ؟
99	٣ - جرونوبل و"مكان إقامة قاتل"
145	٤ - بابل أو متاعب باريس
193	٥ - أستاذ فى سن العشرين
237	٦ - الفول وزهور الزنبق
273	٧ - منفى وسط نويه
305	٨ - رويسبير جرونوبل
341	٩ - أديب ، من قرن لآخر
365	١٠ - الرائد نو الوردة
385	١١ - " تمكنت من الموضوع ! "
423	١٢ - القضية
441	١٣ - الطريق إلى ممفيس يمر من تورينو
485	١٤ - إنجيليكا - عزافة توسكانا
517	١٥ - أمين متحف نوتعال من ريب
545	١٦ - ماء النيل
571	١٧ - مصر كتاب مفتوح
603	١٨ - "الموت يقربص بى فى بابل"
629	١٩ - فيما بعد ذلك ، حتى طيبة
639	خاتمة : بقلم جان فيدال - الغائب عن المسلة
665	حواشى
673	مراحل حل شفرة الكتابات المصرية
679	علامات تاريخية
703	المؤلفات
709	الصور

المشروع القومي للترجمة

- ١ - اللغة العليا (طبعة ثانية) جون كوين
 ٢ - الوثنية والإسلام ك. مادهو بانيكار
 ٣ - التراث المسروق جورج جيمس
 ٤ - كيف تتم كتابة السيناريو انجا كارينتكوما
 ٥ - ثريا في غيبوبة إسماعيل فصيح
 ٦ - اتجاهات البحث اللساني ميلكا إفيتش
 ٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة لوسيان غولدمان
 ٨ - مشعلو الحرائق ماكس فريش
 ٩ - التغيرات البيئية أندرو س. جودي
 ١٠ - خطاب الحكاية جيرار جينيت
 ١١ - مختارات فيسولفا شيمبوريسكا
 ١٢ - طريق الحرير ديفيد براونستون وأيرين فرانك
 ١٣ - ديانة الساميين روبرتسن سميث
 ١٤ - التحليل النفسي والأدب جان بيلمان نويل
 ١٥ - الحركات الفنية إوارد لويس سميث
 ١٦ - أثنية السوداء مارتن برنال
 ١٧ - مختارات فيليب لاركين
 ١٨ - الشعر النسائي في أمريكا اللاتينية مختارات
 ١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة جورج سفيريس
 ٢٠ - قصة العلم ج. ج. كراوثر
 ٢١ - خوخة وألف خوخة صمد بهرنجي
 ٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين جون أنتيس
 ٢٣ - تجلى الجميل هانز جيورج جادامر
 ٢٤ - ظلال المستقبل باتريك بارنر
 ٢٥ - مثنوى مولانا جلال الدين الرومي
 ٢٦ - دين مصر العام محمد حسين هيكل
 ٢٧ - التنوع البشري الخلاق مقالات
 ٢٨ - رسالة في التسامح جون لوك
 ٢٩ - الموت والوجود جيمس ب. كارس
 ٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢) ك. مادهو بانيكار
 ٣١ - مصابير دراسة التاريخ الإسلامي جان سوفاجيه - كلود كاين
 ٣٢ - الانتقراض ليفيد روس
 ٣٣ - التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية أ. ج. هويكنز
 ٣٤ - الرواية العربية روجر ألن
 ٣٥ - الأسطورة والحداثة پول . ب . نيكسون
- ت : أحمد درويش
 ت : أحمد فؤاد بليغ
 ت : شوقي جلال
 ت : أحمد الحضري
 ت : محمد علاء الدين منصور
 ت : بسعد مصلوح / وفاء كامل فايد
 ت : يوسف الأنطكي
 ت : مصطفى ماهر
 ت : محمود محمد عاشور
 ت : محمد معصم عبد الجليل الأزني وعمر حلي
 ت : هناء عبد الفتاح
 ت : أحمد محمود
 ت : عبد الوهاب علوب
 ت : حسن الموبن
 ت : أشرف رفيق عفيفي
 ت : بإشراف / أحمد عثمان
 ت : محمد مصطفى بدوي
 ت : طلعت شاهين
 ت : نعيم عطية
 ت : يعنى طريف الخولي / بدوي عبد الفتاح
 ت : ماجدة العناني
 ت : سيد أحمد على الناصري
 ت : سعيد توفيق
 ت : بكر عباس
 ت : إبراهيم الدسوقي شتا
 ت : أحمد محمد حسين هيكل
 ت : نخبة
 ت : منى أبو سنه
 ت : بدر الدين
 ت : أحمد فؤاد بليغ
 ت : عبد الستار الطوجي / عبد الوهاب علوب
 ت : مصطفى إبراهيم فهمي
 ت : أحمد فؤاد بليغ
 ت : حصة إبراهيم المنيف
 ت : خليل كلفت

- ٣٦ - نظريات السرد الحديثة والاس مارتن
- ٣٧ - واحة بسوية وموسيقاها بريجيت شيفر
- ٣٨ - نقد الحداثة آلن تورين
- ٣٩ - الإغريق والحسد بيتر والكوت
- ٤٠ - قصائد حب أن سكستون
- ٤١ - ما بعد المركزية الأوربية بيتر جران
- ٤٢ - عالم ماك بنجامين بارير
- ٤٣ - اللهب المزروع أوكتافيو بات
- ٤٤ - بعد عدة أصفاف ألدوس هكسلي
- ٤٥ - التراث المغفور روبرت ج نثيا - جون ف أ فاين
- ٤٦ - عشرون قصيدة حب بايلو نيرودا
- ٤٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث (١) رينيه ويليك
- ٤٨ - حضارة مصر الفرعونية فرانسوا لوما
- ٤٩ - الإسلام في البلقان هـ . ت . نوديس
- ٥٠ - ألف ليلة ويلة أو القول الأسير جمال الدين بن الشيخ
- ٥١ - مسار الرواية الإيسائيو أمريكية داريو بيانوييا وخ . م بينياليستي
- ٥٢ - العلاج النفسي التدميمي بيتر . ن . نواليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل
- ٥٣ - الدراما والتعليم أ . ف . ألنجاتون
- ٥٤ - المفهوم الإغريقي للمسرح ج . مايكل والتون
- ٥٥ - ما وراء العلم جون بولكنجهوم
- ٥٦ - الأعمال الشعرية الكاملة (١) فديريكو غرسية لوركا
- ٥٧ - الأعمال الشعرية الكاملة (٢) فديريكو غرسية لوركا
- ٥٨ - مسرحيات فديريكو غرسية لوركا
- ٥٩ - المحبرة كاراوس مونيث
- ٦٠ - التصميم والشكل جوهانز ايتين
- ٦١ - موسوعة علم الإنسان شارلوت سيمور - سميث
- ٦٢ - لذة النص رولان بارت
- ٦٣ - تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢) رينيه ويليك
- ٦٤ - برتراند راسل (سيرة حياة) ألان وود
- ٦٥ - في مدح الكسل ومقالات أخرى برتراند راسل
- ٦٦ - خمس مسرحيات أندلسية أنطونيو جالا
- ٦٧ - مختارات فرناندو بيسوا
- ٦٨ - نتاشا العجوز وقصص أخرى فالنتين راسبورتين
- ٦٩ - العالم الإسلامي في أوائل القرن العشرين عبد الرشيد إبراهيم
- ٧٠ - ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية أوخينييو تشانج رودريجت
- ٧١ - السيدة لا تصلح إلا للرمي داريو فو
- ت : حياة جاسم محمد
- ت : جمال عبد الرحيم
- ت : أنور مفتي
- ت : منيرة كروان
- ت : محمد عيد إبراهيم
- ت : عطف أصد / إبراهيم فتحي / مصوم ملجد
- ت : أحمد محمود
- ت : المهدي أخريف
- ت : مارلين تانرس
- ت : أحمد محمود
- ت : محمود السيد على
- ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
- ت : ماهر جويجاتي
- ت : عبد الوهاب علوب
- ت : محمد بركة وعشقي لليلود ويوسف الطمكي
- ت : محمد أبو العطا
- ت : لطفى فطيم وعادل نمرdash
- ت : مرسى سعد الدين
- ت : محسن مصيلحي
- ت : على يوسف على
- ت : محمود على مكي
- ت : محمود السيد ، ماهر البطوطي
- ت : محمد أبو العطا
- ت : السيد السيد سهيم
- ت : صبرى محمد عبد الفنى
- مراجعة وإشراف : محمد الجوهري
- ت : محمد خير البقاعي .
- ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
- ت : رمسيس عوض .
- ت : رمسيس عوض .
- ت : عبد اللطيف عبد الحليم
- ت : المهدي أخريف
- ت : أشرف الصباغ
- ت : أحمد قزاد متولى وهويدا محمد فهمي
- ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
- ت : حسين محمود

- ٧٢ - السياسي العجوز
٧٣ - نقد استجابة القارئ
٧٤ - صلاح الدين والمالكي في مصر
٧٥ - فن التراجم والسيرة الذاتية
٧٦ - جاك لكان وإغواء التطيل النفسي
٧٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٢
٧٨ - العولمة: النظرية الاجتماعية والثقافة الكوبية
٧٩ - شعرية التأليف
٨٠ - بوشكين عند «نافورة الموعود»
٨١ - الجماعات المتخيلة
٨٢ - مسرح ميغيل
٨٣ - مختارات
٨٤ - موسوعة الأدب والنقد
٨٥ - منصور الحلاج (مسرحية)
٨٦ - طول الليل
٨٧ - نون والقلم
٨٨ - الابتلاء بالتعريب
٨٩ - الطريق الثالث
٩٠ - وسم السيف (قصص)
٩١ - المسرح والتعريب بين النظرية والتطبيق
٩٢ - أساليب ومضامين المسرح الإسباني وأمريكي المعاصر
٩٣ - محدثات العولمة
٩٤ - الحب الأول والصحية
٩٥ - مختارات من المسرح الإسباني
٩٦ - ثلاث زنبقات ووردة
٩٧ - هوية فرنسا (مج ١)
٩٨ - الهم الإنساني والجزائر الصهبوني
٩٩ - تاريخ السينما العالمية
١٠٠ - مساطة العولمة
١٠١ - النص الروائي (تقنيات ومناهج)
١٠٢ - السياسة والتسامح
١٠٣ - قبر ابن عربي يليه آباء
١٠٤ - أوبرا ماهوجني
١٠٥ - مدخل إلى النص الجامع
١٠٦ - الأدب الأندلسي
١٠٧ - صورة الفنان في الشعر الأمريكي المعاصر
- ت . س . إليوت
چين . ب . توميكنز
ل . ا . سيمينوفا
أنثريه موروا
مجموعة من الكتاب
رينيه ويليك
رونالد روبرتسون
بوريس أوسبنسكي
ألكسندر بوشكين
بندكت أندرسن
ميغيل دي أونامونو
غوتفريد بن
مجموعة من الكتاب
صلاح زكي أقطاي
جمال مير صانقي
جلال آل أحمد
جلال آل أحمد
أنتوني جيننز
نخبة من كتاب أمريكا اللاتينية
بارير الإسوستكا
كارلوس ميغل
مايك فينرستون وسكوت لاش
صمويل بيكيت
أنطونيو بويرو بايخو
قصص مختارة
فرنان برودل
نماذج ومقالات
ليفيد روينسون
بول هيرست وجراهام تومبسون
بيرنار فاليط
عبد الكريم الخطيب
عبد الوهاب المؤيد
برتوات بريشت
جيرارچينيت
د . ماريا خيسوس روبييرامتي
نخبة
- ت : فؤاد مجلى
ت : حسن ناظم وعلى حاكم
ت : حسن بيومي
ت : أحمد درويش
ت : عبد المقصود عبد الكريم
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : أحمد محمود ونورا أمين
ت : سعيد الغانمي وناصر خلاوي
ت : مكارم الفمري
ت : محمد طارق الشراوى
ت : محمود السيد على
ت : خالد المعالي
ت : عبد الحميد شيحة
ت : عبد الرازق بركات
ت : أحمد فتحي يوسف شتا
ت : ماجدة العناني
ت : إبراهيم النهسوقي شتا
ت : أحمد زايد ومحمد محيي الدين
ت : محمد إبراهيم مبروك
ت : محمد هناء عبد الفتاح
ت : نادية جمال الدين
ت : عبد الوهاب علوب
ت : فوزية العشماوي
ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
ت : إيوار الخراط
ت : بشير السباعي
ت : أشرف الصباغ
ت : إبراهيم قنديل
ت : إبراهيم فتحي
ت : رشيد بنحو
ت : عز الدين الكتاني الإدريسي
ت : محمد بنيس
ت : عبد الغفار مكاوي
ت : عبد العزيز شبيل
ت : أشرف على دعور
ت : محمد عبد الله الجعدي

- ١٠٨ - ثلاث دراسات عن الشعر الأثلسي مجموعة من النقاد
- ١٠٩ - حروب المياه جون بولوك وعادل نرويش
- ١١٠ - النساء في العالم النامي حسنة بيجوم
- ١١١ - المرأة والجريمة فرانسيس هينديسون
- ١١٢ - الاحتجاج الهائى أرلين علوى ماكليود
- ١١٣ - راية التمرد سمانى پلاننت
- ١١٤ - مسرحيتا حماد كهنجى رسكان المستلغ وول شوينكا
- ١١٥ - غرفة تخص المرء وحده فرچينيا وولف
- ١١٦ - امرأة مختلفة (نوية شفيق) سينثيا نلسون
- ١١٧ - المرأة والجنوسة فى الإسلام ليلى أحمد
- ١١٨ - النهضة النسائية فى مصر بث بارون
- ١١٩ - النساء والأسرة وقوانين الطلاق أميرة الأزهرى سنيل
- ١٢٠ - الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط ليلى أبو لغد
- ١٢١ - الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية فاطمة موسى
- ١٢٢ - نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان جوزيف فوجت
- ١٢٣ - إمبراطورية المشاندة وعلاقتها النولية نيتل الكسندر وفناولينا
- ١٢٤ - الحجر الكاذب جون جراى
- ١٢٥ - التحليل الموسيقى سينريك ثورپ ديفى
- ١٢٦ - فعل القراءة قولمانج ايسر
- ١٢٧ - إرهاب صفاء فتحى
- ١٢٨ - الأدب المقارن بسوزان باسنيت
- ١٢٩ - الرواية الإسبانية المعاصرة ماريا دولورس أسيس جاروته
- ١٣٠ - الشرق يصعد ثانية أندريه جوندر فرانك
- ١٣١ - مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى) مجموعة من المؤلفين
- ١٣٢ - ثقافة العولة مايك فينرستون
- ١٣٣ - الخوف من المرايا طارق على
- ١٣٤ - تشريح حضارة بارى ج. كيمب
- ١٣٥ - المختار من نقد ت. س. إليوت ت. س. إليوت
- ١٣٦ - فلاحو الباشا كينيث كوتو
- ١٣٧ - منكرات ضابط فى الحملة الفرنسية جوزيف مارى مواريه
- ١٣٨ - عالم التلفزيون بين الجمال والعنف إيفيلينا تارونى
- ١٣٩ - باريسيفال ريشارد فاچنر
- ١٤٠ - حيث تلتقى الأدهار هيربرت ميسن
- ١٤١ - اثنتا عشرة مسرحية يونانية مجموعة من المؤلفين
- ١٤٢ - الإسكندرية : تاريخ ودليل أ. م. فورستر
- ١٤٣ - قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى نيريك لايدار
- ١٤٤ - صاحبة اللوكاندة كارلو جولونوى
- ت : محمود على مكى
- ت : هاشم أحمد محمد
- ت : منى قطان
- ت : ريهام حسين إبراهيم
- ت : إكرام يوسف
- ت : أحمد حسان
- ت : نسيم مجلى
- ت : سمىة رمضان
- ت : نهاد أحمد سالم
- ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
- ت : لميس النقاش
- ت : بإشراف/ رؤوف عباس
- ت : نخبة من المترجمين
- ت : محمد الجندى ، ولينزابيل كمال
- ت : منيرة كروان
- ت : أنور محمد إبراهيم
- ت : أحمد فؤاد بليغ
- ت : سمحة الخولى
- ت : عبد الوهاب علوب
- ت : بشير السباعى
- ت : أميرة حسن نوييرة
- ت : محمد أبو العطا وآخرين
- ت : شوقى جلال
- ت : لويس بقطر
- ت : عبد الوهاب علوب
- ت : طلعت الشايب
- ت : أحمد محمود
- ت : ماهر شفيق فريد
- ت : سحر توفيق
- ت : كاميليا صبحى
- ت : وجيه سمعان عبد المسيح
- ت : مصطفى ماهر
- ت : أمل الجبيرى
- ت : نعيم عطية
- ت : حسن بيمى
- ت : عدلى السمرى
- ت : سلامة محمد سليمان

- ١٤٥ - موت أرتيميو كروث كارلوس فويتس
١٤٦ - الورقة الحمراء ميغيل دي ليبس
١٤٧ - خطبة الإذاعة الطويلة تانكريد نورست
١٤٨ - القصة القصيرة (النظرية والتقنية) إنريكي أندرسون إمبرت
١٤٩ - النظرية الشعرية عند إليوت وألونيس عاطف فضول
١٥٠ - التجربة الإغريقية روبرت ج. ليتمان
١٥١ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١) فرنان برودل
١٥٢ - عدالة الهنود وقصص أخرى نخبة من الكتاب
١٥٣ - غرام الفراغة فيولين فانويك
١٥٤ - مدرسة فرانكفورت فيل بسلتر
١٥٥ - الشعر الأمريكي المعاصر نخبة من الشعراء
١٥٦ - المدارس الجمالية الكبرى جي آنتبال وآلان وأوليت فيرمو
١٥٦ - خسرو وشيرين النظامي الكنجوي
١٥٨ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ٢) فرنان برودل
١٥٩ - شامبوليون (حياة من نور) جان لاکوتير
- ت : أحمد حسان
ت : على عبد الرؤوف البمبي
ت : عبد الغفار مكاوي
ت : على إبراهيم علي منوفى
ت : أسامة إسير
ت: منيرة كروان
ت : بشير السباعي
ت : محمد محمد الخطابي
ت : فاطمة عبد الله محمود
ت : خليل كلفت
ت : أحمد مرسى
ت : مى التمساني
ت : عبد العزيز بقوش
ت : بشير السباعي
ت : نبيل بسعد

(نحت الطبع)

- الجانب الدينى للفلسفة
الولاية
مختارات من الشعر اليونانى الحديث
العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل
جان كوككو على شاشة السينما
الأرضة
نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية والقوانين المعالجة
العنف والنزوة
العمى والبصيرة (مقالات فى بلاغة النقد المعاصر)
وضع حد
التليفزيون فى الحياة اليومية
أنطوان تشيخوف
من المسرح الإسباني المعاصر
تاريخ النقد الأدبى الحديث (الجزء الرابع)
حكايات ثعلب
- الإسلام فى السودان
العربى فى الأدب الإسرائيلى
آلة الطبيعة
ضحايا التنمية
المسرح الإسباني فى القرن السابع عشر
أبيولوجى
تاريخ الكنيسة
فن الرواية
ما بعد المعلومات
علم الجمالية وعلم اجتماع الفن
المهلة الأخيرة
الهيولية تصنع علماً جديداً
مختارات من النقد الأنجلو - أمريكى
النقد الأدبى الأمريكى

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٧٩١٩ / ١٩٩٩



CHAMPOLLION une vie de lumieres

JEAN LACOUTURE



أسس جان - فرانسوا شامبوليون علم المصريين «Egyptology» بعدما حل شفرة الكتابة الهيروغليفية .. وكانت هذه الكتابة تحير الباحثون فيها لعدة قرون تبدأ من القرن الثالث الميلادي عندما حرم قراراً إمبراطورياً رومانياً الكتابة بها .. إلى أن تمكن هذا الباحث الجامعي الفذ من اللغز؛ فارتبط اسمه إلى الأبد باسم مصر التي أحبها . فالحب وحده هو الذي كان قادراً على أن يصل بشامبوليون إلى هدفه؛ فأبعده عن اليأس عدة مرات ، فظل على مثابرتة إلى أن نجح في مهمته.

حب شامبوليون لمصر كان خالصاً وكاملاً؛ فهو يقول : «إنها كل شيء بالنسبة إليّ» ، كما أنه أحب شعب مصر عندما زارها وأقام فيها عاماً ونصف تقريباً .

وحب مصر أيضاً هو الذي حرك كاتب سيرة شامبوليون «جان لاکوتير»، فهذا هو الكتاب الثاني له عن مصر بعد كتابه الأول عن جمال عبد الناصر ، الذي عرفه عن قرب وعاش في مصر عدة سنوات، ولا يمر عام الآن إلا ويزورها لمرة أو أكثر.. وله حوالي سبعين كتاباً ومؤلفاً معظمهم سير لشخصيات عظيمة .

وهذا الكتاب يلقي الضوء أيضاً على العلاقات التي كانت قائمة بين فرنسا ومصر في مرحلة من أهم مراحل تاريخها الحديث؛ مرحلة بناء الدولة الحديثة على يد محمد علي ومحاولة تحويل مصر من ولاية تتبع الدولة العثمانية إلى دولة مستقلة ذات سيادة .

LE 30.00